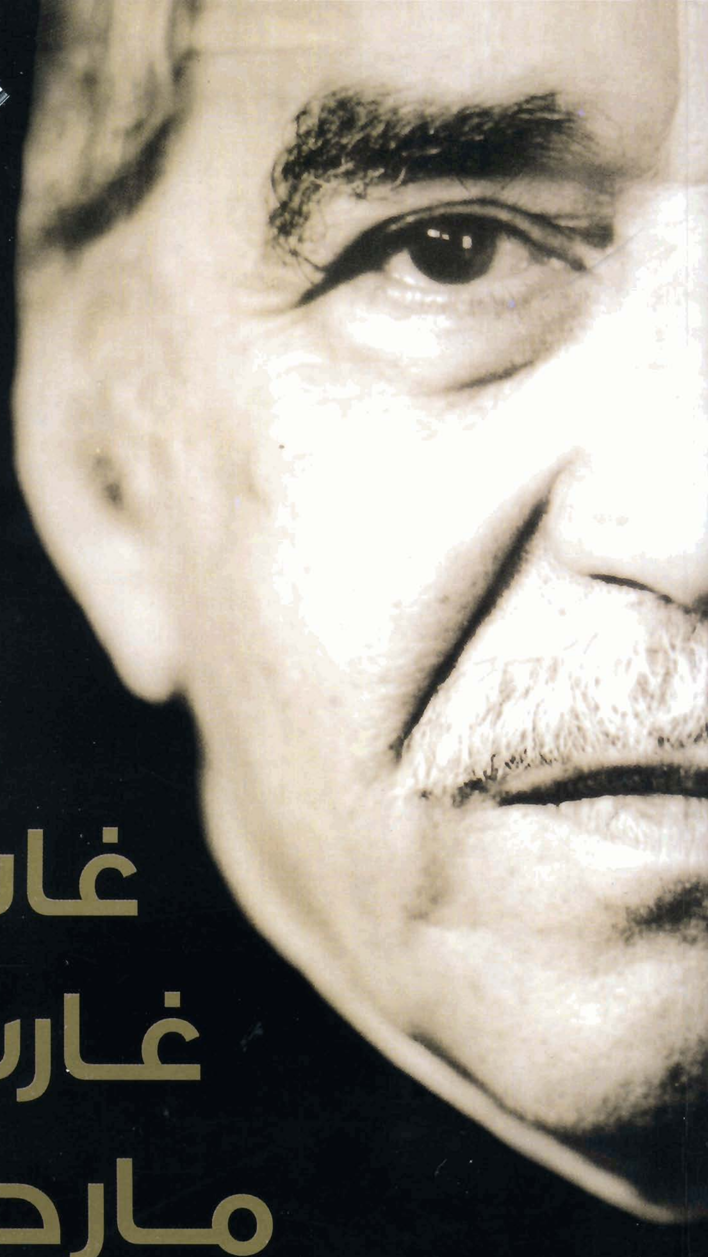
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



سيرة حياة

غابرييل غارسيا ماركيز

جيرالد مارتن

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم» بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم»، والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع إنتاج المعرفة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

سيرة حياة

غابرييل غارسيا ماركيز

Gabriel García Márquez

A Life

تأليف

جيرالد مارتن

Gerald Martin

ترجمة

د. محمد درويش

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

ترجم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Gabriel García Márquez
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر
Bloomsbury Publishing Plc
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1431 هـ – 2010 م

ردمك 978-9953-87-892-8

تَرجِم
مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

إحياءً لذكرى:

جورج إدوارد مارتن وشيلا أُوكيف،

دينيس شاتون ودوروثي ماي أون.

وإلى حفيدتيهما

كاميلا جين وليوني ياسمين

المحتويات

مقدمة المترجم: غابرييل غارسيا ماركيز... من سلطة التاريخ إلى سلطة الرواية..........9

مقدمة المؤلف...19

تمهيد: من أصول مغمورة 1800-1899 25

القسم الأول

الوطن: كولومبيا

1955-1899

1. عقداء وقضايا خاسرة 1899-1927. 37
2. بيت في آراكاتاكا 1927-1928 58
3. رفقة جدّه 1929-1937...76
4. أيام المدرسة: بارانكيا وسوكري وثيباكيرا 1938-1946 98
5. الطالب الجامعي والعنف في بوغوتا 1947-1948....................................135
6. العودة إلى الساحل: صحافي متمرن في كارثاخينا 1948-1959...................153
7. بارانكيا وبائع كتب وجماعة بوهيمية 1950-1953 173
8. العودة إلى بوغوتا: مراسل صحافي من الطراز الأول 1954-1955............212

القسم الثاني

خارج الوطن: أوروبا وأميركا اللاتينية

1967-1955

9. اكتشاف أوروبا: روما 1955 235
10. جائع في باريس: البوهيمية 1956-1957...249
11. ما وراء الستار الحديدي: أوروبا الشرقية إبَّان الحرب الباردة 1957 276

12. فنزويلا وكولومبيا: ولادة الأُم الكبيرة 1958-1959 293
13. الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية 1959-1961 323
14. هروب إلى المكسيك 1961-1964 338
15. ميلكيادس الغجري: مئة عام من العزلة 1965-1966 368
16. الشهرة أخيراً 1966-1967 388

القسم الثالث

رجل العالم: الشهرة والسياسة

2005-1967

17. برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة
1967-1970 405
18. الأديب المستوحد يكتب ببطء: خريف البطريرك والعالم الأرحب
1971-1975 429
19. تشيلي وكوبا: غارسيا ماركيز يختار الثورة 1973-1979 460
20. عودة إلى الأدب: قصة موت معلن وجائزة نوبل 1980-1982 495
21. نوبة الشهرة وعطر الغوافة: الحب في زمن الكوليرا 1982-1985 536
22. خلافاً للتاريخ الرسمي: بوليفار غارسيا ماركيز (الجنرال في متاهته)
1986-1989 563
23. عودة إلى ماكوندو خبر كارثة تاريخية 1990-1996 596
24. غارسيا ماركيز في سنّ السبعين وما بعدها مذكرات وغانيات حزينات
1996-2005 636

خاتمة: الخلود؛ ثيربانتس الجديد 2006-2007 675
ملاحظات 693
حقوق الصور ونصوصها 771

مقدمة المترجم

غابرييل غارسيا ماركيز...
من سلطة التاريخ إلى سلطة الرواية

في شهر تموز سنة 1966، نشر غابرييل غارسيا ماركيز تأملات ذاتية يسترجع فيها محنته في الكتابة بعنوان **مصائب مؤلف كتاب**، وفيها يؤكد:

"إن تأليف الكتب مهنة انتحارية، إذ ما من مهنة غيرها تتطلب قدراً كبيراً من الوقت، وقدراً كبيراً من العمل، وقدراً كبيراً من التفاني مقارنة بفوائدها الآنية. إنني لا أعتقد أن عدداً كبيراً من القراء يسألون أنفسهم بعد الانتهاء من قراءة كتاب ما عن عدد الساعات المؤلمة والبلايا المنـزلية التي مرت على المؤلف في أثناء تأليفه مئتي صفحة، أو ما هو المبلغ الذي حصل عليه لقاء عمله... وبعد هذا التقويم المحزن للبلايا، يبدو من الأساسي أن نسأل عن السبب الذي يدفعنا نحن إلى الكتابة. والإجابة، في آخر الأمر، هي ميلودرامية بقدر ما هي مخلصة. فالمرء بكل بساطة يكون كاتباً مثلما يكون أسود البشرة أو يكون أي شيء آخر. النجاح يحفّز المرء، والخطوة عند القراء مشجعة. ولكن ليست هذه الأشياء سوى مكاسب إضافية لأن الكاتب الجيد سيظل، على كل حال، يكتب باستمرار، حتى إذا كان حذاؤه بحاجة إلى إصلاح، وحتى إذا كانت كتبه لا تلقى رواجاً".

ثم ينتقل غارسيا ماركيز، في موضع آخر، من العام إلى الخاص ليكشف لقرائه، ربما للمرة الأولى، ما يدور في ذهنه من أفكار، فيقول:

"اسمي، أيها السادة، هو غابرييل غارسيا ماركيز. آسف. فأنا شخصياً لا يروقني هذا الاسم لأنه سلسلة من كلمات عادية لم أستطع قط أن أربطها بنفسي. ولدت في بلدة آراكاتاكا في كولومبيا... ولا أزال غير آسف على ذلك. برجي هو

بـــرج الحـــوت، وزوجـــتي هي ميرثيديس: هذان هما أهم حدثين في حياتي لأنني بفـــضلهما تمكـــنت حتى الآن، على الأقل، من البقاء على قيد الحياة بالكتابة. إنني كاتـــب هـــيَّاب. مهنتي الحقيقية هي مهنة ساحر، لكنني أرتبك ارتباكاً شديداً وأنا أحـــاول القيام ببعض الحيل التي أضطر إلى أن ألوذ بها من جراء عزلة الأدب. على كـــل حال، إن كلا النشاطين يقودان إلى الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي منذ أن كنت طفلاً: أن يحبني أصدقائي أكثر... إن كوني كاتباً من الكتّاب ليس سوى إنجاز اســـتثنائي لأنني رديء جداً في الكتابة، وعليّ أن أخضع نفسي لانضباط بشع كي أنجز كتابة صفحة واحدة بعد ثماني ساعات من العمل. إنني أناضل نضالاً جسدياً مع كـــل كلمـــة، لكن الكلمة هي التي تفوز على الغالب. لكنني عنيد جداً، حتى إنني تمكـــنت من نشر أربعة كتب خلال عشرين سنة. أما الكتاب الخامس الذي أكتبه الآن، فكتابته أبطأ من كتابة بقية الكتب لأنني لا أملك إلا النـــزر اليسير من الوقت بين كثرة الدائنين وحالات الصداع".

هكـــذا يـــتحدث غابرييل غارسيا ماركيز إلى قرائه في هذه السيرة التي يقول مـــؤلفها جيرالد مارتن إنه أمضى سبعة عشر عاماً في إعدادها وتأليفها، سبعة عشر عاماً أمضاها في قراءة أعمال ماركيز ومنجزاته الإبداعية في القصة القصيرة والرواية والمقـــالات الصحافية والنصوص السينمائية والسفر إلى عدد كبير من بلدان العالم لمقابلـــة أصدقاء ماركيز من صحافيين وأدباء وروائيين وسياسيين وزعماء أحزاب ورؤســـاء دول، مـــن ضمنهم الزعيم الكوبـــي فيدل كاسترو، والرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران، ورئيس وزراء إسبانيا السابق فيليب غونثاليث، وغيرهم من الشخـــصيات التي نهجت نهجاً اشتراكياً في سياستها، بهدف الإطلاع على تفاصيل علاقاتهم مع الروائي الكولومبـــي التقدمي الذي عرفه قراء الأدب في عالمنا العربـــي وبقـــية أرجـــاء العالم رائداً للواقعية السحرية التي يفضّل هو عليها مصطلح الواقعية المأساوية.

غير أن جيرالد مارتن، كما نقرأ في هذا الكتاب القيِّم، لا يقدم إلينا قراءة في سيرة غارسيا ماركيز ما نقله إليه المقربون من غارسيا ماركيز على اختلاف مواقفهم الـــسياسية والفكرية والعقائدية وصِلاتهم العائلية به وحسب، بل يقدم أيضاً دراسة

نقدية معمقة عن رواياته ومعظم قصصه القصيرة ومقالاته الأدبية والسياسية، المبكرة والمتأخرة، مشفوعة بإضاءات لا غنىً عنها في أي محاولة لفهم عوالم غارسيا ماركيز، فضلاً عن نشاطات ماركيز في كتابة النصوص السينمائية.

لقد طرح جورج لوكاش في مجمل كتاباته النظرية حول الفن الروائي قضية البطل الإشكالي، وأظهر من خلال هذا المفهوم أن البطل الروائي كفرد إنما هو شخصية نموذجية تشير إلى وعي كلّي بالوجود، وهو وجود يحدد الوعي عند مجموعة بشرية تخضع لبيئة اقتصادية واجتماعية متجانسة، ويعبّر عن رؤية للعالم، ترتبط بنوع العلاقة التي تجسّد وضعه الاجتماعي، وبالتالي التاريخي. وقد نحا غارسيا ماركيز هذا المنحى، كما نرى، في مؤلفاته الروائية والقصصية حيث خلّد شخصيات كبرى، أكثرها حقيقية، مستمدة من قرى وبلدات كولومبيا بدءاً بمسقط رأسه آراكاتاكا، مروراً بسوكري وبارانكيا وكارثاخينا وثيباكيرا وماغانغي وبوغوتا، وحكى لنا عن فقرها وعزلتها، وعن وجودها خارج التاريخ، وعن اضمحلالها، وعن علاقات أبنائها الاجتماعية، وظروفها السياسية والاقتصادية، وما تنطوي عليه تلك العلاقات من حب وبغضاء (**مئة عام من العزلة**، و**قصة موت معلن** على وجه الخصوص) وحروب وانتقام (**خريف البطريرك**، و**ليس للعقيد من يكاتبه**، و**الجنرال في متاهته** و**في ساعة نحس**). في هذا كله، سعى غارسيا ماركيز لتوكيد مكانته الإبداعية وخطابه الأدبي الروائي، سرداً وصنعة، بالرغم من ظروف الفاقة والحرمان التي دفعته يوماً ما إلى أن يفتش في كومة نفايات عن بقايا طعام تسد رمقه، والى أن يعتذر من طفله الرضيع ليلاً لعدم امتلاكه المال اللازم لشراء الحليب ليتناوله قبل النوم، والى أن يرسل نصف مخطوطة **مئة عام من العزلة** عبر البريد إلى الناشر الأرجنتيني لأنه لم يكن يملك ما يكفي من المال لإرسالها كلها. أما النصف الثاني من المخطوطة فقد أرسله بعد أن رهنت زوجته المدفأة الكهربائية ومجفف الشعر والمفرمة الكهربائية، وهي آخر ما تبقى لهما في البيت من حاجات منزلية بعد أن باعا أو رهنا كل ما يملكان.

حاول غارسيا ماركيز أن يوثّق الصلة بين التاريخ الاجتماعي - تاريخ البلدات والمدن الأميركية اللاتينية - والتاريخ الفردي متمثلاً بتاريخ شخصيات

عسكرية - جدّه العقيد نيكولاس وبوليفار وغيرهما - فجسّد بذلك قدراته في التماهي بالتاريخ وبالجماعة (**مئة عام من العزلة** على وجه الخصوص)، فأسس بذلك عوالم منفصلة خارج الزمان وخارج المكان، تشابكت فيها وقائع الصدام التاريخي - ازدهار وانتعاش واضمحلال - بمجريات الواقع الاجتماعي/الفردي - عزلة الفرد/البطل وسلطته وسقوطه بكل ما يمثله من دوغمائية/جدلية مدلولها الطقسي يمتد في فضاءات سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسانية. هكذا كان بوليفار وآليندي ونيرودا وفوينتس وعمر توريخوس وكورتاثار وكاسترو من الذين احتفى بهم، وعزز بهم مواقفه السياسية التقدمية ومقارعة الاستعمار والإمبريالية، ونادى بالاشتراكية الديمقراطية، وإن راوده قلق شديد وهو يرى في أثناء زيارته الاتحاد السوفياتي الاشتراكية وقد أُسيء تطبيقها، فابتعدت عن أفكار مؤسسيها الأوائل وفلسفة منظريها الذين جاؤوا بها لإنقاذ الفقراء من براثن الاستغلال الرأسمالي.

لعل غارسيا ماركيز توجب عليه أن يعتقد، وهو ما توضحه كتاباته، أن التاريخ العلمي *أسطورة*، وأن التفسيرات أحادية الجانب غير مجدية، فلجأ إلى نماذج بشرية جماعية لدراسة السببية التاريخية المكونة لهذه الجماعات (مجتمع ماكوندو في **مئة عام من العزلة**، ومجتمع الأم الكبيرة في **جنازة الأم الكبيرة**، ومجتمع المتوازيات الأفقية في الجنرال في متاهته) ليحلل بدقة دلالاتها الثقافية في نظام سوسيولوجي عام يستند إلى تجربة تاريخية ومنظومات ذات معانٍ متعددة. من هنا جاءت شعبوية غارسيا ماركيز وهو يكشف عن سِيَر أبطاله، الحقيقيين والمتخيلين، من التاريخ البعيد والتاريخ القريب، حتى إن بعض النقاد قارنوه، بالرغم من التباين الواضح، بالروائي همنغواي[1]، وهو الروائي الذي أُعجب به غارسيا ماركيز قدر إعجابه بروائي آخر هو وليم فوكنر[2] الذي خلّدت رواياته الجنوب الأميركي في حقبة عصيبة من تاريخ الولايات المتحدة.

انسجاماً مع تماهي غارسيا ماركيز بالتاريخ والشخصيات، نجده يكتب أيضاً في موضوعات أخرى ذات صلة مباشرة بها ألا وهي الحب والسلطة والانتظار والأمل، انطلاقاً من قناعته أن الناس في بلده، كولومبيا، كما في بلدان العالم الثالث،

تهوى السلطة وأصحاب السلطة، وتحيا منتظرة والأمل يحدوها في حدوث تغيير قلّما يأتي، وإن أتى فإنه في معظم الأحيان قد لا يكون تغييراً إيجابياً مناسباً. لقد أشار في مقابلة صحافية إلى أنه لو لم يكن كاتباً، لرغب في أن يكون عازفاً على البيانو لأنه يريد العزف في المشارب فيسهم بدوره في جعل العشاق يشعرون بحب أكبر تجاه أحبائهم. ويؤكد أنه لو أمكنه أن يجعل الآخرين يحب أحدهم الآخر من خلال كتبه، فذلك هو المعنى الذي أراده لحياته. من هنا كانت الكتابة عنده شعوراً باطنياً، ودافعاً لا يقاوم، وطموحاً، بل كانت في أحيان كثيرة عذاباً لذيذاً وسعادة لا توازيها سعادة.

إصراره على الكتابة لا يضاهيه إصرار آخر. فمن جهة أولى، قال له والده يوماً ما: "سينتهي بك المطاف إلى أن تأكل الورق"، وذلك عندما قرر في العام 1949 أن يتخلى عن دراسة الحقوق بسبب رسوبه في السنة الثالثة من دراسته. وعندما حاول أحد أصدقائه أن يدافع عنه أمام أبيه، موضحاً له أن غارسيا ماركيز بات اليوم واحداً من أفضل كتّاب القصة القصيرة في كولومبيا، انفجر الأب صائحاً: "إنه قصّاص، حسناً، طالما كان كذّاباً منذ طفولته!"، من جهة أخرى، نجده يتلقى في العام 1952 رسالة مدمرة من دار نشر لوسادا في بيونس آيرس، التي أرسل إليها مخطوطة روايته الأولى **عاصفة الأوراق** بغية نشرها، فيها يخبره مدير الدار غييرمو دي توري، وهو أحد أبرز نقاد الأدب الإسبان في المنفى وأحد أقرباء الأديب الأرجنتيني المعروف خورخه لويس بورخس، إنه ليس لديه أي مستقبل في كتابة الرواية، واقترح عليه أن يبحث عن مهنة أخرى. لكن أصدقاء غارسيا ماركيز تجمهروا حوله، وقال له أحدهم: "يعلم الجميع أن الإسبان أغبياء!".

روايات غارسيا ماركيز وقصصه، وهو ما يؤكده في أكثر من مناسبة، ليست سوى صور من حياته الصاخبة، العاصفة، المدوية، أو هي انعكاسات لحياة من عرفهم وعاش معهم، وهي مزيج من السيرة الذاتية والخيال الجامح، يتداخلان ويتشابكان في أبعاد مختلفة. إن مرجعية منجزة الروائي والقصصي هي أماكن وأزمنة متباينة، من الماضي البعيد والقريب، تنحو في كثير من الأحيان، على ما فيها من تعقيدات، منحى فلسفياً تزيده تعقيداً، من دون ارتباك أو اضطراب،

معالجـــته الروائية وهو ما يتضح بكل جلاء في **مئة عام من العزلة**، و**الجنرال في متاهـــته**، و**خريف البطريرك**، و**الحب في زمن الكوليرا**، و**قصة موت معلن**، وفي روايـــته شـــبه الوثائقية **خبر اختطاف**. بهذا تكون السيرة قد شكّلت أفق الرواية الماركيـــزية في تمثـــيل شكّل ارتباطها بالواقع والتاريخ، وهما الأمران اللذان سبق للـــوكاش أن أوضـــح أنهمـــا يختزلان أبعاد الواقع والتجربة الحياتية وذلك لكون "الكلـــية المنفصلة للواقع تلتحم وتتماسك في الرواية، عبر السيرورة، ومن خلال ارتباطها بالشخصية الأساسية".

إنـــنا نرى أن غارسيا ماركيز أعاد بمنجزه الاعتبار للرواية الجادة، بل أعاد الاعتـــبار إلى المؤلف بعد أن بشّر رولان بارت(3) بموته منذ سنوات طويلة بمنهجه البنيوي. لقد ثبت غارسيا ماركيز بهذا العدد الهائل من القراء الذين يقرأون رواياته بمخـــتلف اللغـــات في جميع أرجاء العالم، واستمرار صدور طبعات جديدة من أعماله. وفي ظننا أن هذه السيرة متقنة الصنع تكشف للقراء عن جوانب وتفاصيل دقـــيقة من حياة الأديب الكولومبـــي مما قد يحفزهم على العودة من جديد إلى قراءة مؤلفاته مرات ومرات من دون أن يصيبهم الملل، وخصوصاً إذا ما أخذنا في الحسبان أن مؤلف السيرة جيرالد مارتن، هو الأستاذ الأقدم في جامعة ميتروبوليتان لـــندن، وأستاذ اللغات الحديثة في جامعة بيتسبرغ والمعروف بكتاباته عن السرد الأميركـــي اللاتـــيني خصوصاً في كتابه ذائع الصيت **رحلات في المتاهة: الرواية الأميركـــية اللاتينية** في القرن العشرين الصادر سنة 1989. كما أنه يُعدُّ حجة في أدب إســـتورياس(4)، وكـــان رئيساً للمعهد العالمي للأدب الإيبري - الأميركي ومقـــره الـــولايات المـــتحدة، وهو عضو في هيئة تحرير مجلة دراسات في الثقافة الأميركية اللاتينية التي تصدر في لندن. ومن المؤمّل أن تُصدِر له جامعة كيمبردج كتاباً بعنوان **مدخل إلى غارسيا ماركيز**.

أخـــيراً، لا بـــد من الإشارة في ختام هذه المقدمة إلى أن مؤلف الكتاب قرر إدخـــال بعض التعديلات والإضافات والتصويبات على هذه السيرة بعد صدورها مباشـــرة في 28 تـــشرين الثاني 2008. وقد وصلتنا هذه التعديلات عن طريق الدار العربية للعلوم - ناشرون في شهر أيار 2009 وكنا قد أنجزنا ترجمة أكثر من نصف

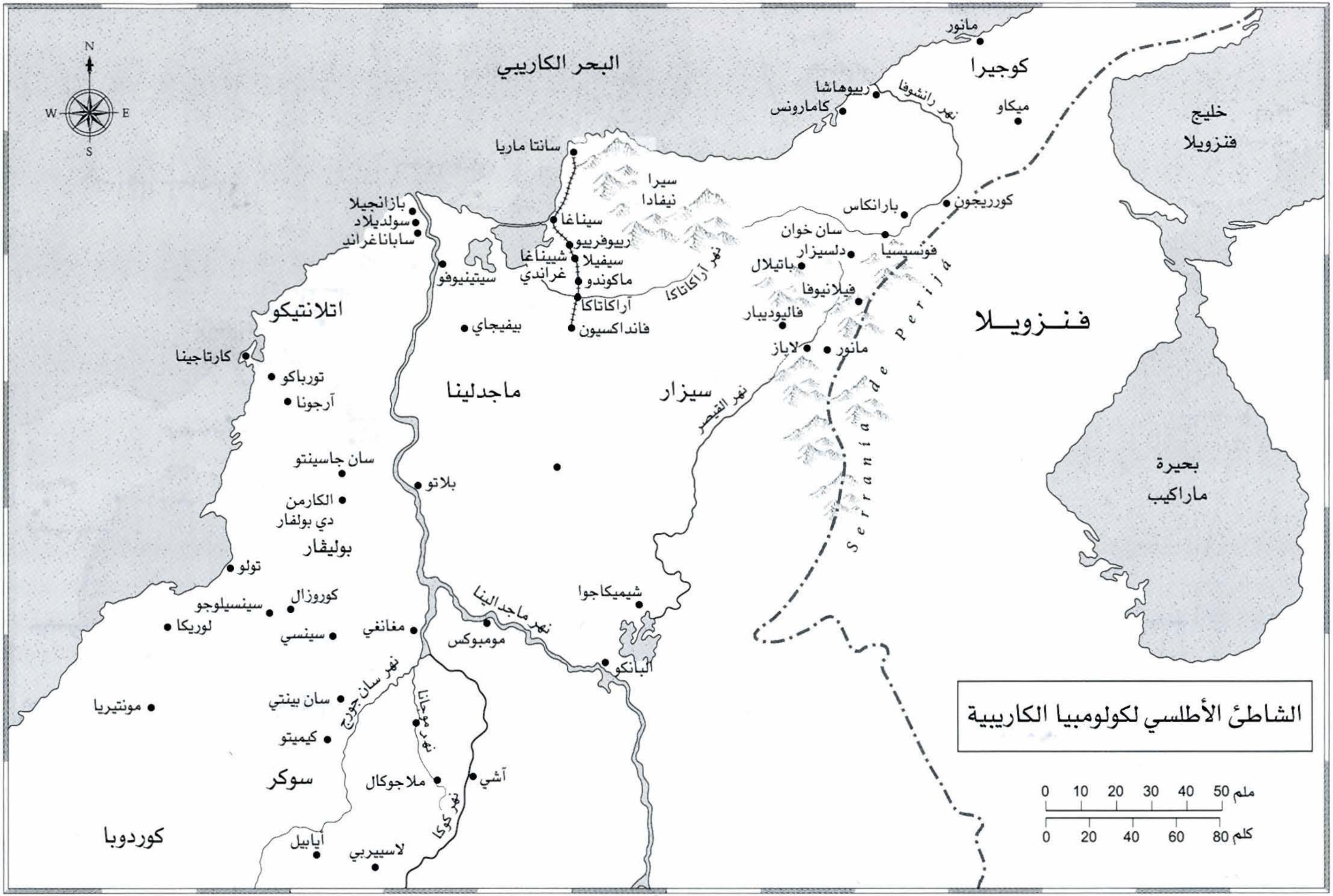
الكـــتاب، فما كان منا إلا الالتزام برأي المؤلف والناشر، وبدأنا إعادة ترجمة الكثير من الفقرات والعبارات بحسب ما تقتضيه الأمانة العلمية والأكاديمية لتكون الترجمة في صيغتها النهائية مطابقة لرغبة المؤلف. وبهذا تنفرد الدار العربية للعلوم - ناشرون بتقديم ترجمة عربية كاملة ومنقّحة خدمة للقارئ العربـــي الجاد.

الدكتور محمد درويش

بغداد/آب 2009



كولومبيا
0 50 100 150 200 ملم
0 100 200 300 كلم
N
W
E
S
البحر الكاريبي
اروبا
كوراكاو
كاب دولافلا
مانور
رويهاتشا
سانتا مارتا
سيناغا
بارانشاس
سيرا
بانراجيلا
Cinaga Grande
نيفادا
كارتاجينا
آراكاتاكا
آرجونا
فانيوديبار
نهر القيصر
ماراكيبو
ماراساي
كراكاس
قناة
باناما
باناما
مدينة باناما
سينسيلوجو
سانسي
مغانغي
البانكو
آشي
ماجوكال
أيابيل
جزيرة
كونتادورا
فنزويلا
نهر كوكا
بارانسابيزيميجا
بيورتو بيرو
مادللين
المحيط
الهادي
كوبيدو
تشكويكرا
بيكربو سارغار
هوندا
زيباكويرا
بوغوتا
ايباغو
نهر ماجدالينا
ڤيلاريكا
بيونافينتورا
كالي
كولومبيا
نيفا
بوبايان
باستو
البرازيل
الاكوادور
البيرو
ليتيكيا


الشاطئ الأطلسي لكولومبيا الكاريبية
البحر الكاريبي
N
E
S
W
مانور
كوجيرا
ريبوهاشا
كامارونس
نهر رانشوفا
ميكاو
خليج
فنزويلا
سانتا ماريا
سيرا
نيفادا
بارانكاس
كورريجون
سان خوان
دلسيزار
فونسيسيا
باتيلال
فيلانيوفا
فاليوديبار
لاباز
مانور
Serranía de Perijá
فنزويلا
بحيرة
ماراكيب
بازانجيلا
سولديلاد
ساباناغراند
سيناغا
ريوفريو
شييناغا
غراندي
سيفيلا
ماكوندو
آراكاتاكا
نهر آراكاتاكا
فانداكسيون
سيتينيوفو
بيفيجاي
اتلانتيكو
كارتاجينا
توروباكو
آرجونا
ماجدلينا
سيزار
نهر القيصر
سان جاسينتو
بلاتو
الكارمن
دي بولفار
بوليفار
تولو
كوروزال
سينسيلوجو
لوريكا
سينسي
مغانغي
مومبوكس
نهر ماجدالينا
شيميكاجوا
البانكو
مونتيريا
سان بينتي
نهر سان جورج
كيميتو
نهر موجانا
سوكر
ملاجوكال
آشي
نهر كوكا
كوردوبا
أيابيل
لاسيربي
0 10 20 30 40 50 ملم
0 20 40 60 80 كلم



الكاريبي وخليج المكسيك
ملم 500 400 300 200 100 0
كلم 800 600 400 200 0
أميركا
سان انطونيو
نيو اورلينز
باسكاغولا
نهر الميسيسيبي
تامبا
ميامي
مونتيري
خليج مكسيكو
باهاماس
المحيط الأطلسي
المكسيك
كوبا
هافانا
كانكون
كاماغواي
بيران
غوانتانامو
سانتياغو
جمهورية
الدومينيكان
مدينة مكسيكو
كويرنافاكا
فيراغروس
سان جوان
بورت او برانس
سان
دومينغو
بورتو ريكو
جامايكا
كينغستون
هايتي
بيليز
سان كريستوبال
دومينيك
مدينة
غواتيمالا
هندوراس
البحر الكاريبي
تيغوسيغالبا
سان فانسانت
غواتيمالا
سان سلفادور
السلفادور
نيكاراغوا
كوراكاو
أروبا
ماناغوا
ريوهاشا
سانتا ماريا
برانكيللا
أراكاتاكا
كارتيجانا
وتوباكو
كاراكاس
سان خوسيه
المحيط الهادي
قناة باناما
باناما
كوستا ريسا
فنزويلا
جورجتاون
غوانا
جزيرة
كونتادورا
نهر ماجدالينا
كولومبيا
بوغوتا
البرازيل

مقدمة المؤلف

غابرييل غارسيا ماركيز المولود في كولومبيا سنة 1927 هو أشهر أديب يظهر في *العـــالم الثالث*، وأشهر ممثل لأسلوب *الواقعية السحرية* الأدبـــي الذي ثبت على نحو مدهش أنه أسلوب انتشر في أقطار نامية أخرى وبين روائيين يكتبون عن تلك الأقطـــار. لعل غارسيا ماركيز هو الروائي الأميركي اللاتيني الأكثر إثارة للإعجاب والأشـــد تمثيلاً لكل العصور داخل أميركا اللاتينية نفسها. كما أن شهرته في *العالم الأول* في أوروبـــا والولايات المتحدة، وفي حقبة بات يصعب فيها العثور على أدباء عظام يتفق الجميع بشأنهم، لا تعلو عليها شهرة خلال العقود الأربعة المنصرمة.

لو ألقينا نظرة على روائيي القرن العشرين، لاكتشفنا أن معظم *الأسماء الكبيرة* الـــتي يـــتفق النقاد اليوم بشأنها تعود إلى السنوات الأربعين الأولى من ذلك القرن (جويس[1]، وبروست[2]، وكافكا[3]، وفوكنر، وولف[4])، أما في النصف الثاني من القـــرن، فربما كان غارسيا ماركيز وحده الذي حظي بإجماع حقيقي. ولعل رائعته **مئة عام من العزلة**، التي صدرت سنة 1967، وكان ظهورها عند ذروة التحول بين الـــرواية *الحداثوية* والرواية *ما بعد الحداثوية*، هي الرواية الوحيدة التي وجدت بين عامي 1950 و2000 عدداً هائلاً من القراء المتحمسين في كل قطر وفي كل ثقافة في هـــذا العـــالم. وبهذا المعنى، وفي ضوء موضوعها – وهو عموماً الصراع بين التقليد والحداثـــة – والاســـتقبال الذي حظيت به، فإنه ليس من قبيل المبالغة الادعاء أنها كانت الرواية العالمية الأولى حقاً في العالم.

مـــن جهة أخرى، فإن غارسيا ماركيز ظاهرة فريدة أيضاً. فهو كاتب جاد لكـــنه شعبوي أيضاً – مثله مثل ديكنـــز[5] أو هوغو[6] أو همنغواي – تُباع كتبه

بـــالملايين، وتقتـــرب شهرته من شهرة نجوم الرياضة أو المؤلفين الموسيقيين أو نجوم الـــسينما. في العام 1982 كان ماركيز هو الفائز الأكثر شعبية بجائزة نوبل للأدب خلال السنوات الأخيرة. وفي أميركا اللاتينية، وهي القارة التي لم تعد مثلما كانت علـــيه أحوالها منذ أن ابتكر غارسيا ماركيز مجتمع ماكوندو الصغير، فإنه يُعرف في كـــل مكـــان بكنيته غابو شأنه شأن بطل السينما الصامتة تشارلي أو لاعب الكرة بيلـــيه. وبالرغم من أنه واحد من أربع أو خمس أكبر شخصيات القرن العشرين في قارته، إلا أنه ولد في *وسط لا مكان* بات مضرب الأمثال، في بلدة لا يتجاوز عدد سكانها، الأُميين غالباً، عشرة آلاف نسمة، ولا تتوفر فيها شوارع مبلطة أو مجارير الصرف الصحي، يثير اسمها آراكاتاكا ماكوندو ضحك الأهالي عندما يسمعون به للوهلة الأولى (بالرغم من أن تشابه الاسم مع الكلمة أبراكادابرا/التعويذة ينبغي أن يجعلـــهم حذرين). إن عدداً قليلاً جداً من الأدباء المشهورين في أي بلد من بلدان العالم انحدر من مثل هذه البلدة الصغيرة، بل إن عدداً أقل بكثير عاش حقبته الزمنية ثقافياً وسياسياً مثل عيشة هذا الأديب الحميمية الكاملة.

غارسيا ماركيز رجل ثري اليوم، فهو يملك سبعة منازل في أماكن مدهشة في خمس دول مختلفة. وفي العقود الأخيرة كان يستطيع المطالبة بمبلغ خمسين ألف دولار (بل ويرفضه، وهو المألوف أكثر) لقاء مقابلة لا تتجاوز نصف ساعة. وفي وسعه أن ينـــشر مقالاته في أي جريدة تقريباً. وكما هو شأن مؤلفات شكسبير، فإن عناوين مـــؤلفاته تظهـــر بأســـلوب شبحي في العناوين الرئيسية للصحف في جميع أرجاء المعمورة (**مئة ساعة من العزلة**، **يوميات كارثة معلنة**، **خريف الدكتاتور**، **الحب في زمن المال**). ولقد أُجبر على مواجهة مستوى مدهش من الشهرة وتحمله على مدى نـــصف ســـني عمره. وسعى الأثرياء والمشاهير وأصحاب السلطة – مثل فرانسوا ميتـــران، وفيلـــيب غونثالـــيث، وبيل كلنتون، ومعظم رؤساء جمهوريتي كولومبيا والمكسيك، وغيرهم من المشاهير – لنيل حظوته وكسب صداقته. ولكن بالرغم من نجاحـــه الأدبـــــي والمالي المذهل، فقد ظل طوال حياته رجلاً من رجالات اليسار التقدمي، ومدافعاً عن القضايا العادلة، ومؤسساً لمشاريع إيجابية من ضمنها تأسيس معاهـــد مؤثرة في الصحافة والسينما. وفي الوقت نفسه، فإن صداقته وثيقة العرى

بالزعيم السياسي فيدل كاسترو كانت دوماً مثار جدال ونقد إبان السنوات الثلاثين المنصرمة.

لقد اشتغلت لإنجاز هذه السيرة سبعة عشر عاماً(*). وبخلاف ما ذكره لي كلّ مـــن كلّمـــته في الأيـــام الأولى ("لن تتمكن من لقائه، وإذا ما التقيته، فلن يتعاون وإياك") فقد بدأت ألتقي الرجل بعد بضعة أشهر من بداية العمل، وبالرغم من أنني لا أســـتطيع القول إنه كان يفيض حماسة ("لماذا تريد أن تكتب سيرة؟ كتابة السيرة تعـــني الموت")، إلا أنه كان ودوداً حسن الوفادة ومتسامحاً. في الحقيقة، إنني كلما سُئلت إن كانت هذه السيرة مرخصاً لها، فإن ردي كان دائماً هو: "لا، إنها ليست ســـيرة مرخـــصاً لها، بل هي سيرة مسموح بها". لكنني دُهشت وشعرت بالامتنان عـــندما أعلن غارسيا ماركيز أمام الصحافة العالمية في العام 2006 إنني كاتب سيرته *الرسمي*. لعل ذلك يجعلني كاتب سيرته الوحيد المسموح به رسمياً! كان ذلك امتيازاً استثنائياً.

كما هو معروف تماماً، فإن العلاقة بين كاتب السيرة وصاحب السيرة علاقة صـــعبة دائمـــاً، لكنني كنت محظوظاً إلى حدٍّ بعيد. فقد كان غارسيا ماركيز يتميز بالـــصبر، وهو أقل ما يقال في هذا الصدد، وهو الصحافي المحترف والأديب الذي يلجأ إلى حياة أولئك الذين عرفهم في الإسهاب في رواياته. وعندما التقيته أول مرة في هافانـــا في كانون الأول من العام 1990 أخبرني أنه سيمضي وإياي في اقتراحي بشرط واحد: "لا تجعلني أُنجز كتابك". وأظنه يوافقني على أنني لم أجعله ينجز عملي وأنـــه استجاب لمدّ يد العون لي عندما كنت حقاً بحاجة إلى مساعدته. لقد أجريت زهاء ثلاثمئة مقابلة كي أنجز هذه السيرة، العديد منها مع شخصيات مهمة لم يعودوا بين ظهرانينا، لكنني أدرك أن فيدل كاسترو وفيليب غونثاليث ربما لم يكونا ليندرجا ضمن اللائحة لو لم يُبدِ *غابو* إشارةً ما يعني بها إنني *طيب*. إنَّ الأمل ليحدوني في أنه لا يـــزال يعتقد أنني طيب بعد أن بات الآن في وضع يمكّنه من قراءة الكتاب. فقد امتنع دائماً عن إعطائي ذلك النوع من الحديث *الصريح* الذي يحلم به كتّاب السِّير علـــى أســـاس أن مثل هذا التفاعل ينم عن عدم كياسة، إلا أننا لا بد من أننا قد أمضينا ما مجموعه شهر كامل معاً في أوقات متباينة وفي أماكن مختلفة إبان السنوات

السبع عشرة الماضية، خاصة وعامة، وإنني لأجزم أنّ عدداً قليلاً جداً من الناس سمع بعض الأشياء التي قالها لي. ولكنه بالرغم من ذلك كله، لم يسعَ قط إلى التأثير فيّ بأي حال من الأحوال، وإنه قال دوماً بمزيج من الأخلاقيات والسخرية التي يتصف بها الصحافي الفطري: "اكتب ما تراه وحسب؛ فكل ما تكتبه هو ما سأكون أنا عليه".

لقد أُنجز البحث في هذه السيرة باللغة الإسبانية، وقُرِئت كلّ المؤلفات باللغة الإسبانية، وأجريت معظم المقابلات باللغة الإسبانية، إلا أنها كتبت كلها، وها هي تنشر الآن، بالإنكليزية (بالرغم من أن الترجمة الإسبانية ستصدر في العام 2009). علاوة على ذلك، فمن نافلة القول، إن الإجراء الاعتيادي الأصح هو أن يكتب السيرة، وبخاصة السيرة الأولى الكاملة، مواطنٌ يعرف البلد المنشأ والموضوع بنفسه ويفهم دقائق الأمور في كل اتصال، وهذه ليست حالتي - يضاف إلى ذلك أن غارسيا ماركيز شخصية عالمية وليس إنساناً كولومبياً مشهوراً وحسب - بل، وكما تنهد الرجل ذات مرة، وإن لم تكن تنهيدته خالصة تماماً ربما، عندما ذُكر اسمي في أثناء الحديث: "آه، حسناً. أعتقد أن كل أديب يحترم نفسه لا بد له من كاتب سيرة إنكليزي". وإنني لا أظن أن فضيلتي الوحيدة أمام عينيه تتمثل في حبي الدائم والواضح وارتباطي بالقارة التي وُلد فيها.

لم يكن من السهل عليَّ تلمس طريقي وسط التفسيرات المتعددة التي قدّمها غارسيا ماركيز لكل اللحظات المهمة تقريباً في حياته. فهو، شأنه شأن مارك توين الذي يمكن أن يُقارن به مقارنة مفيدة، يعشق الحكاية الجيدة، فضلاً عن القصة الطويلة، ويروقه أن تكون القصة مصقولة، ليس في الأقل الأحداث ذات الأثر الفعال في تكوين قصة حياته؛ وفي الوقت عينه، هو مرح، ومناهض لما هو أكاديمي، ومؤثر إيثاراً تاماً المواربة والمشاغبة عندما يخص الأمر تضليل الأثر بين الصحافيين والأساتذة. وحتى عندما تكون متأكداً من أن أي حكاية تستند إلى شيء ما حدث حقاً، فإنك لا تزال غير قادر على اختزاله إلى شكل واحد لأنك ستجد أنه ذكر معظم القصص المشهورة عن حياته بأنماط متعددة ومتباينة، يحوي كل نمط منها جانباً من الحقيقة. ولقد مررت شخصياً بتجربة مثل هذا النزوع الأسطوري

المفـــرط إلى المبالغة وقد أصابتني عدواه إصابة بهيجة أيضاً (في حياتي وليس في هذا الكتاب كما أرجو). كما خلّف عنادي واستعدادي للانهماك في كل الأبحاث التي لا تـــنهمك فـــيها إلاّ الكلاب المسعورة والإنكليز أثراً قوياً في نفوس أسرة غارسيا ماركيز. وهكذا وجدت أنه من المستحيل القضاء على الأسطورة التي نشرها غارسيا ماركيـــز بنفسه ويعتقد بها كما يبدو، حتى إنني - وهذا من مزايا هوسي المفرط - أمـــضيت لـــيلة هطلت فيها الأمطار مدراراً وأنا جالس على مصطبة في الميدان في آراكاتاكا كي *أتشبع* بجو البلدة التي وُلد فيها موضوعي كما يفترض.

إنني بعد كل هذه السنوات الطويلة أكاد لا أصدق أن الكتاب بات حاضراً في نهايـــة المطـــاف، وإنـــني أكـــتب هنا مقدمته. لقد خَلُصَ العديد من كتاب السير المستهلكين والأكثر شهرة مني في آن واحد إلى أن الوقت والجهد المبذولين في مثل هذا العمل لا يستحقان الشمعة، وأن الحمقى والواهمين هم وحدهم الذين يُقدمون على مثل هذه المهمة التي ربما يدفعهم إليها احتمال التحدث إلى العظام والطيبين أو المشهورين والتماهي معهم. ربما قد يغويني مثل هذا الاستنتاج، لكن إن كان هناك موضـــوع واحـــد يـــستحق أن يخصص له المرء ربع حياته، فإنه بلا ريب سيكون موضوع حياة غابرييل غارسيا ماركيز وسيرته العجيبة.

جيرالد مارتن

تموز 2008

تمهيد

من أصول مغمورة

1899-1800

في صباح يوم قائظ وخانق في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، جلست في الإقليم المداري الساحلي شمالي كولومبيا امرأة شابة وهي تحدق من نافذة قطار شركة الفاكهة المتحدة إلى مزارع الموز التي يمرّ بها، فتتراءى صفاً صفاً تحت أشعة الشمس. كانت قد استقلت ليلاً سفينة تجارية يطوقها البعوض من مرفأ بارانكيا على ساحل البحر الكاريبي لعبور مستنقع ثيناغا، وهي الآن في طريقها إلى الجنوب، وسط مزارع الموز، نحو مدينة آراكاتاكا الصغيرة والبعيدة عن الساحل حيث كانت قد تركت قبل بضعة أعوام أول مولود لها، وهو غابرييل، مع أبويها الكهلين، وكان آنذاك لا يزال طفلاً صغيراً. ومنذ ذلك الزمان، كانت لويسا سانتياغا ماركيز إغواران دي غارسيا قد أنجبت ثلاثة أطفال آخرين، وهذه هي عودتها الأولى إلى آراكاتاكا منذ أن أخذها زوجها غابرييل إليخيو غارسيا بعيداً عنها كي تقطن في بارانكيا تاركة غابيتو الصغير برعاية جدّيه لأمه وهما ترانكيلينا إغواران كوتيس دي ماركيز والعقيد نيكولاس ماركيز ميخيًا. كان العقيد ماركيز محارباً قديماً شارك في حرب الألف يوم المريرة التي اندلعت عند مطلع القرن، ونصيراً طوال حياته للحزب الليبرالي الكولومبي، وغدا في ما بعد مدير خزينة بلدية آراكاتاكا.

استهجن العقيد ماركيز ودونا ترانكيلينا بغضب المودّة بين لويسا سانتياغا وغارسيا الوسيم. فهو لم يكن رجلاً فقيراً وغريباً وحسب، بل كان غير شرعي أيضاً وهجيناً، وربما، وهذا أسوأ ما في الأمر، مؤيداً قوياً للحزب المحافظ البغيض.

و لم يكن قد مضى على عمله في مكتب تلغراف آراكاتاكا سوى بضعة أيام عندما وقعــت أنظــاره على لويسا، أجمل النساء الشابات الصالحات للزواج في البلدة. فأرسلها والداها كي تعيش مع أقرباء لها لما تبقى من السنة كي تبعد عن ذهنها ذلك الهيام الجامح بالقادم الجديد المغوي، لكن بلا طائل. أما بخصوص غارسيا نفسه، فقد أُصــيب بخيــبة أمـــل إذ كان يأمل جمع ثروة من زواجه بابنة العقيد، لكنّ والدَي العــروس رفــضا حضور حفل الزفاف الذي تمكن أخيراً من تنظيمه في العاصمة الإقليمية سانتا مارتا، وفقد وظيفته في آراكاتاكا.

فــيمَ كانــت لويسا تفكّر وهي تحدّق خارج نافذة القطار؟ لعلها نسيت أن الــرحلة ســتكون غــير مريحة. أكانت تفكّر في البيت الذي أمضت فيه طفولتها وشــبابها؟ مـــا ردُّ فعل كل فرد إزاء زيارتها؟ والداها. عماتها؟ الطفلان اللذان لم تــشاهدهما منذ زمن بعيد: غابيتو، الأكبر سناً، ومارغريتا شقيقته الأصغر سناً منه، وهما يعيشان حالياً مع جدَّيهما. صفَّر القطار وهو يمر بمزرعة الموز الصغيرة ماكوندو الــتي تذكــرها منذ أيام طفولتها. وبعد مرور بضع دقائق بانت آراكاتاكا للعيان، ولاح والدها العقيد وهو ينتظرها تحت الظلال... كيف سيُحيِّيها؟

لا أحــد يعرف ماذا قال، لكننا نعرف ما الذي حدث بعد ذلك[1]. في بيت العقيد القديم، الرحب، انهمكت النساء في إعداد غابيتو الصغير لذلك اليوم الذي لن ينــساه: "ها قد وصلت. لقد وصلت والدتك يا غابيتو. إنها هنا. أمك. ألا يمكنك سماع صوت القطار؟"، وهنا ندَّ صفير آخر من المحطة القريبة.

بعد مرور الأيام يذكر غابيتو أنه لا يملك ذكريات عن أمه، فقد تركته قبل أن يــتمكن من الاحتفاظ بأي ذكريات. وإذا كان لوجودها الآن أي معنىً، فإنه أشبه بغياب مفاجئ لم يشرحه له جدّاه، قلق كأن هناك خطأ، ربما من جانبه. أين الجد؟ كان الجد يوضّح كل شيء دوماً، لكن جدَّه توارى عن الأنظار.

ثم سمعهــم غابيتو وقد وصلوا عند الطرف الآخر من المنــزل. جاءت إحدى خالاته، وأمسكت بيده. كل شيء أشبه بحلم. قالت الخالة: "ها قد دخلت أمك". بعــد لحظة شاهد امرأة لم يعرفها في الطرف القصي من الغرفة وقد جلست مولية ظهــرها نافذة مغلقة. كانت امرأة جميلة تعتمر قبعة من قش مجدول، وترتدي ثوباً

طـــويلاً فـــضفاضاً يـــصل كماه إلى رسغيها. كانت تتنفس بصعوبة بسبب حرارة منتصف الظهيرة، فلازمه اضطراب غريب لأنها كانت سيدة يحلو له النظر إليها، إلاّ أنـــه سرعان ما أدرك أنه لا يحبها على النحو الذي طلبوا منه أن يحب فيه أمه، وهو حب لا يشبه حبه لجده وجدته ولا حتى حبه لخالاته.

قالـــت السيدة: "ألن تعانق أمك؟"، ثم جذبته نحوها وحضنته. كانت تفوح منها رائحة زكية لن ينساها. كان عمره أقل من سنة عندما تركته أمه. أما الآن فقد بـــات في السابعة من عمره تقريباً. ولأنها عادت أدراجها، فإنه لم يدرك إلاّ الآن أن أمـــه قد تركته. و لم يتمكن غابيتو من تجاوز ذلك التفكير، ليس على الأقل لأنه لا يستطيع أن يحمل نفسه على مواجهة ما كان يشعر به. لكنها سرعان ما تركته مرة أخرى.

* * *

لويسا سانتياغا، ابنة العقيد المتمردة ووالدة غابيتو الصغير، ولدت في الخامس والعـــشرين من شهر تموز عام 1905 في بلدة بارانكاس الصغيرة الواقعة بين براري غواخيرا وإقليم باديًّا الجبلي شرقي سييرا نيفادا(2). عندما وُلدت لويسا، كان والدها أحـــد أفراد الجيش المهزوم، جيش الحزب الليبرالي الذي هزمه المحافظون في الحرب الأهلية الكولومبية العظمى: حرب الألف يوم (1899-1902).

أما نيكولاس ريكاردو ماركيز ميخيًّا، وهو جد غابرييل غارسيا ماركيز، فقد ولد في السابع من شهر شباط عام 1864 في ريوهاتشا، غواخيرا، وهي مدينة مغبرة لاذعـــة أحرقتها الشمس على ساحل كولومبيا الشمالي المطل على المحيط الأطلسي والعاصـــمة الـــصغيرة لإقليمها الأكثر قفراً، وموطن هنود غواخيرا وملاذ المهربين المروعين منذ الحقبة الاستعمارية وحتى يومنا هذا. ولا يُعرف القدر الكبير عن حياة ماركيـــز المبكرة سوى أنه تلقى تعليماً أولياً استفاد منه، وأُرسل بعد ذلك إلى جهة الغرب، لبعض الوقت، ليعيش مع قريبته فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيًّا في بلدة إل كـــارمن دي بوليفار الواقعة جنوبـــي مدينة كارثاخينا الاستعمارية المهيبة. وهناك تـــربى الاثنان على يدي جدّته لأمه نيكولاس خوسيفا فرانسيسكا فيدال. وانضمت فرانسيسكا بعد ذلك، إثرَ تمضية نيكولاس بضعة أعوام متجولاً في جميع أنحاء الإقليم

الـــساحلي، إلى أســـرته لتعـــيش تحت سقفه عانساً للبقية الباقية من حياتها. سكن نيكولاس بعض الوقت في كامارونيس وهي بلدة قريبة من الشريط الساحلي لإقليم غـــواخيرا على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً من ريوهاتشا. وتفيد الأسطورة أنه كان مـــشاركاً قبل الأوان في إحدى الحروب الأهلية التي كانت تقطع بانتظام الحياة في كولومبـــيا إبان القرن التاسع عشر. ولما قفل راجعاً إلى ريوهاتشا وهو في السابعة عـــشرة مـــن عمره، اشتغل صائغاً تحت إرشاد أبيه نيكولاس دِل كارمن ماركيز هيرنانديـــز. تلك هي مهنة الأسرة التقليدية. وإذا كان نيكولاس قد أكمل دراسته الابتدائية، فإن أسرته الميَّالة إلى الفنون لن تقدر على الإنفاق عليه كي يمضي شوطاً أبعد في تعليمه.

غـــير أن نيكولاس ماركيز كان منتجاً وافر الإنتاج في أوجه أخرى: فبعد عامين من رجوعه من غواخيرا، بات هذا الرحّالة المراهق الطائش أباً لولدين غير شرعيين – تُطلَقُ في كولومبيا صفة الأبناء الطبيعيين على الأبناء غير الشرعيين – وهما خوسيه ماريا المولود في العام 1882 وكارلوس ألبيرتو المولود في العام 1884 [3]، وكانـــت أمهمـــا عانساً غريبة الأطوار من بلدة ريوهاتشا تدعى التاغراثيا بالديبلانكـــيث علـــى صلة بأسرة محافظة وذات نفوذ، وأكبر سناً من نيكولاس نفسه. ولا نعلم السبب الذي حال بين نيكولاس والزواج بها. وقد مُنح الصبيان كنية أمهما ونشآ نشأة كاثوليكية محافظة بالرغم من ليبرالية نيكولاس الجَيَّاشة؛ ولما كـــان العـــرف السائد في كولومبيا حتى وقت قريب هو أن يعتنق الأولاد الولاء الـــسياسي لأبويهما، فإن الصبيين لم ينشآ في كنف نيكولاس بل في كنف أسرة أُمهمـــا، وقاتل الاثنان في ما بعد ضد الليبراليين، وبالتالي ضد والدهما، في حرب الألف يوم.

بعـــد سنة واحدة من ولادة كارلوس ألبيرتو، تزوج نيكولاس وهو في الحادية والعشرين من عمره من فتاة في مثل سنه تدعى ترانكيلينا إغواران كوتيس، وكانت قـــد ولدت بدورها في ريوهاتشا في الخامس من شهر تموز عام 1863. وبالرغم من أن تـــرانكيلينا كانـــت ابنة غير شرعية، إلا أن كنيتها تعود إلى أسرتين بارزتين في حزب المحافظين في تلك المنطقة. كان من الواضح أن نيكولاس وتارنكيلينا ينحدران

مـــن أسرتين أوروبيتين من البيض، وأن نيكولاس - وهو كازانوفا فاسد لا سبيل لإصلاحه - كان يغازل النساء من كل عرق ولون.

هكـــذا نـــبدأ بتلمّس طريق العودة إلى متاهات النسب السري والغامض التي عرفها معرفة جيدة قراء **مئة عام من العزلة**، وهي أشهر رواية كتبها غابرييل غارسيا ماركيـــز. ففـــي تلك الرواية يحيد عن طريقه في عدم مساعدة قرائه بذكريات عن تفاصيل العلاقات الأسرية: فلا يقدم سوى الأسماء الأولى فتكرر هذه الأسماء نفسها تكراراً كثيراً خلال الأجيال، فيغدو هذا جزءاً من تحدي الكتاب الخفي للقارئ، إلاّ أنـــه بلا ريب يعيد إنتاج الإرتباك والقلق اللذين مرَّ بهما المؤلف عندما حاول، وهو طفل، أن يفهم الشبكات التاريخية المعقدة لإرث أسرته.

لنأخذ نيكولاس الذي ولد ولادة شرعية لكنه تربى في كنف جدته لا في كنف والديـــه. صـــحيح أنه لا يوجد ما يثير الاستغراب في هذا الشأن في مجتمع متاخم للحدود يدعمه مفهوم الأسرة الكبيرة طلباً للأمن. وكما رأينا، فقد بات لديه ولدان غير شرعيين قبل أن يبلغ العشرين من عمره. وليس هناك ما يثير الاستغراب في هذا الـــشأن أيضاً. لكنه تزوج إثر ذلك مباشرة بترانكيلينا، وهي، شأنها شأن التاغراثيا، تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته بالرغم من أننا نبيّن، كي نوازن الأمور، أنها كانت غير شرعية. يضاف إلى ذلك، فقد كانت قريبته من الدرجة الأولى، وهذا شائع في كولومبيا، بل هو في أميركا اللاتينية أكثر شيوعاً من أي مكان آخر في العالم بالرغم مـــن أنه، شأنه شأن اللاشرعية، لا يزال موسوماً بسمة خاصة. فقد كان للزوجين الجـــدة نفـــسها وهـــي خوانيتا هيرنانديز التي سافرت من إسبانيا إلى كولومبيا في عشرينيات القرن التاسع عشر وكان نيكولاس ثمرة زواجها الشرعي الأول، في حين أن ترانكيلينا ولدت من علاقتها غير الشرعية الثانية، إثر ترملها، بأحد الكريوليين[4] وكـــان قـــد ولد في ريوهاتشا ويدعى بلاس إغواران الذي يصغرها بعشرة أعوام. وهكذا يتبيّن بعد جيلين لا أكثر أن اثنين من أحفاد خوانيتا، وهما نيكولاس ماركيز ميخيًا وترانكيلينا إغواران كوتيس، تزوجا في ريوهاتشا. وبالرغم من أن كنيتيهما لا تـــتفقان، فالحقـــيقة هي أن والده ووالدها كانا طفلين، أخ غير شقيق وأخت غير شقيقة لخوانيتا المولعة بالمغامرة. لا يمكن للمرء أن يتأكد من الشخص الذي يتزوج

به. وقد تستنـــزل مثل هذه الخطيئة اللعنة، أو - وهذا هو الأسوأ كما خشي أفراد أســـرة بويندیا على امتداد صفحات **مئة عام من العزلة** - تنتهي بطفل ذي ضفيرة يضع حداً لسلالة الأسرة.

من الطبيعي أن يضيف شبح السفاح، الذي يظهر ظله حتماً مثل ذلك الزواج بـــين نـــيكولاس وترانكيلينا، بعداً آخر أشد غموضاً لمفهوم اللاشرعية. بعد ذلك الـــزواج، ربما أنجب نيكولاس عشرات الأطفال غير الشرعيين، لكنه ظل يعيش في مجـــتمع كاثوليكـــي صـــرف بكل ما فيه من أنساق هرمية تقليدية وازدراء للطبقة الاجتماعـــية الـــتي يقبع في أسفلها السود أو الهنود (الذين لا ترغب طبعاً أي أسرة محتـــرمة في الانتساب إليهم بأي شكل من الأشكال بالرغم من أن معظم الأُسر في كولومبيا، من ضمنها أكثر الأسر مدعاة للاحترام، لها مثل ذلك الانتساب). إنّ هذا الخلـــيط الفوضـــوي مـــن العِرق والطبقة الذي ينطوي على أساليب كثيرة لظهور اللاشرعية وعلى طريق واحد مستقيم ومحدود نحو الاحترام الحقيقي، هو العالم نفسه الذي سينشأ فيه بعد سنوات كثيرة لاحقة الطفل الرضيع غارسيا ماركيز ويشاطره تعقيداته ونفاقه.

ما إن تزوج نيكولاس ماركيز بترانكيلينا إغواران حتى تركها وهي حامل - وهـــذه أفضل طريقة لترك المرأة من وجهة النظر الأبوية - وأمضى بضعة أشهر في باناما، التي كانت لا تزال يومذاك جزءاً من كولومبيا، للعمل مع أحد أخواله وهو خوســـيه ماريا ميخيَّا فيدال حيث أنجب فيها طفلةً أخرى غير شرعية، وهي ماريا غـــريغوريا رويـــث، من إيزابيل رويث، تلك المرأة التي يمكن أن تكون حب حياته الحقيقـــي، قـــبل أن يعـــود إلى غواخيرا بعد مرور وقت قصير على ولادة ابنه غير الـــشرعي الأول خوان دي ديوس في العام 1886[5]. ثم أنجب نيكولاس وترانكيلينا طفلـــتين أُخـــريين غـــير شرعيتين وهما مارغريتا، المولودة في سنة 1889، ولويسا سانتياغا، التي ولدت في بارانكاس في شهر تموز عام 1905 بالرغم من إصرارها حتى نهاية حياتها تقريباً على أنها هي الأخرى ولدت في ريوهاتشا لأنها شعرت أن لديها ما تريد إخفاءه كما سنرى في ما بعد. ثم تتزوج بدورها بزوج غير شرعي، وتنجب منه في نهاية المطاف ابناً غير شرعي اسمه غابرييل خوسيه غارسيا ماركيز. ولهذا فإنه

ممـــا لا يـــبعث على الدهشة أن تحفل أعمال غابرييل القصصية بهاجس اللاشرعية وبصرف النظر عن الأسلوب الفكه الذي يطرحها به.

لم يمـــت أطفال نيكولاس غير الشرعيين ميتة مريعة إبان الحرب الأهلية كما يحلو لحفيد العقيد المفضل أن يتخيل في روايته (التي يأتي فيها على ذكر سبعة عشر طفـــلاً)[6]. فعلـــى سبيل المثال، كانت سارا نورييغا ابنة *طبيعية* لنيكولاس وباتشا نورييغا وأصبحت هي الأخرى معروفة باسمها لاباتشا نورييغا وتزوجت بغريغوريو بونـــيا ورحلـــت لتسكن في فونداثيون وهي المحطة التالية على امتداد خط السكة الحديديـــة مـــن مدينة آراكاتاكا. في العام 1993، كانت حفيدتها إليدا نورييغا التي التقـــتها في بارانكـــاس وحدها التي تحتفظ في تلك البلدة بواحدة من تلك الأسماك ذهبية اللون صغيرة الحجم التي صنعها نيكولاس ماركيز. وقالت أناريوس إن سارا، وهي ابنة آرسينيا كاريو التي تزوجت في العام 1917 بابن أخت نيكولاس وصديقه الـــودود أوخينيو ريوس (الذي يرتبط برباط القرابة بفرانسيسكا سيمودوسيا ميخيّا التي عاشت مع نيكولاس) إن سارا كانت تشبه لويسا إلى حدٍّ كبير، "وذات بشرة تـــشبه التويجة وغاية في العذوبة"[7]. وقد توفيت في حدود العام 1988. أما استيبان كاريـــو وألفيرا كاريو فكانا توأمين غير شرعيين لأمهما سارا مانويلا كاريو. وبعد أن ســـكنت ألفيرا، خالة غابيتو المحبوبة *پا*، مع نيكولاس في آراكاتاكا، انتقلت في نهايـــة المطـــاف إلى كارثاخينا في أواخر سني حياتها حيث آوتها أختها غير الشقيقة الأصـــغر سناً منها وغير الشرعية لويسا سانتياغا وساعدتها وهي تحتضر، بحسب ما أفادت به آنا ريوس. أما نيكولاس غوميث فكان ابن إميليا غوميث وبحسب ما قاله شـــخص آخر، ويدعى أوربانو سولانو، فقد ذهب الابن ليعيش في فونداثيون شأنه شأن سارا نورييغا.

أمـــا نجل نيكولاس الأكبر، غير الشرعي، وهو خوسيه ماريا بالديبلانكيث، فـــبات أكثـــر أولاده نجاحاً، إذ أصبح بطلاً من أبطال الحرب وسياسياً ومؤرخاً، وتـــزوج بمانويلا مورو وهو في ريعان الصبا، وأنجب منها ابناً وخمس بنات. وكان ابن إحدى هذه البنات وهي مارغوت، قد أصبح أديباً آخر هو خوسيه لويس ديات غرانادوس[8].

انتقل نيكولاس ماركيز من العاصمة الساحلية القاحلة ريوهاتشا إلى بارانكاس قبل أن يغدو عقيداً بزمن طويل لأنه كان يطمح إلى أن يصبح من ملاّك الأراضي، وكانت الأرض آنذاك أرخص ثمناً وأكثر خصوبة في التلال المحيطة ببارانكاس، (يقول غارسيا ماركيز، بالرغم من أنه لا يُعتمد عليه في مثل هذه القضايا، إن والد نيكولاس ترك له قطعة أرض في تلك المنطقة). وسرعان ما اشترى مزرعة من أحد الأصدقاء في منطقة تدعى إل بوتريرو على سفوح جبال سييرا. كانت المزرعة تدعى مزرعة إل غواسيمو، وقد سميت على اسم شجرة تفاح محلية. وانطلق ماركيز لزراعة قصب السكر الذي صنع منه شراباً بالتقطير المنزلي. ويعتقد أنه تاجر بالمشروب سراً شأنه شأن معظم زملائه من ملاّك الأراضي. واشترى بعد ذلك مزرعة أخرى قريبة من البلدة وبجانب نهر راتشيريّا أطلق عليها اسم إل إيستمو (البرزخ) لأنك لا بد من أن تعبر المياه حيثما أردت الوصول إليها. وزرع فيها التبغ والذرة وقصب السكر والفاصولياء واليُكة[9] والبن والموز. ويمكن اليوم زيارة المزرعة، لكنها شبه مهجورة، مبانيها خربة، وقد تلاشى بعضها من الوجود، لكن لا تزال ثمة شجرة مانجا عتيقة شامخة كأنها بيرق أسرة مهلهل، وتطغى على المشهد المداري كله مسحة من الحزن والحنين. ربما كانت هذه الصورة الحافلة بالذكريات خيال زائر محض لأن مثل هذا الزائر يعلم أن العقيد ماركيز رحل عن بارانكاس بعد أن فقد الحظوة التي لا تزال تبدو مخيمة على المنطقة بأسرها، لكن حتى قبل حدوث ذلك الشيء، فإن وجود العقيد المقيم هناك ظللته ظلال الخراب.

* * *

ولا يُعرف أيضاً إلا النذر اليسير عن والد غابرييل غارسيا ماركيز، بل أقل مما هو معروف عن جده. فقد ولد غابرييل إليخيو غارسيا في سينثي، في بوليفار، في الأول من شهر كانون الأول عام 1901 بعيداً وراء المستنقع الكبير، بل حتى وراء نهر مجدلينا وذلك إبان الحرب الأهلية العظمى التي أبلى فيها نيكولاس ماركيز بلاءً حسناً ولمع اسمه فيها. يبدو أن والد جد غارسيا كان يدعى بيدرو غارسيا غوردون ويقال إنه ولد في مدريد في مطلع القرن التاسع عشر. ولا نعلم كيف انتهى المطاف

بغارسيا غوردن في نيو غرانادا ولا حتى سبب ذلك ولا المرأة التي تزوج بها، لكنه كان لديه ابن يدعى أميناداب غارسيا في كايميتو، في بوليفار (هي منطقة سوكري الآن). وبحسب ليخيا غارسيا ماركيز، فإن أميناداب *تزوج* ثلاث نساء أنجبن له ثلاثة أطفال. وبعد أن *ترمل*، التقى ماريا دي لوس أنخيليس باترنينا بوستامانتي المولودة في سينثيليخو عام 1855 وهي أصغر منه بإحدى وعشرين سنة، وأنجبا ثلاثة أطفال آخرين وهم أليسار وخايمي وآرخيميرا. وبالرغم من أن الاثنين لم يتزوجا، فإن أميناداب اعترف بأبوّته لهؤلاء الأطفال ومنحهم اسمه. وقد ولدت الطفلة آرخيميرا غارسيا باترنينا في أيلول عام 1887 في بلدة كايميتو، وهي مسقط رأس أبيها، وهي التي ستصبح في ما بعد والدة غابرييل إليخيو غارسيا وهي في سن الرابعة عشرة وجدّة أديبنا غابرييل غارسيا ماركيز لأبيه[10].

أمضت آرخيميرا معظم حياتها في بلدة الماشية سينثي، وكان يطلق عليها في الثقافة الإسبانية *امرأة الشعب*. كانت فارعة الطول، كالتمثال في روعتها، مليحة البشرة، ولم تتزوج البتة، لكنها عاشرت عدداً لا يحصى من الرجال وأنجبت سبعة أطفال غير شرعيين من ثلاثة من هؤلاء الرجال وبخاصة من أحدهم واسمه بيخارانو[11]، (وقد حمل الأولاد جميعهم اسمها غارسيا). غير أن أول عشاقها كان غابرييل مارتينيث غاريدو الذي كان معلماً يومذاك ووريث أسرة من ملاّك الأراضي المحافظين، وكان يتميز بغرابة الأطوار التي تصل في بعض الأحيان إلى درجة الهذيان حتى إنه بدّد معظم ميراثه[12]. وقد أغوى آرخيميرا وهي في الثالثة عشرة من عمرها فيما كان هو في السابعة والعشرين؛ ولسوء الحظ كان غابرييل مارتينيث غاريدو متزوجاً آنذاك بروساميثا المولودة في سينثي أسوة بزوجها، وأنجبا خمسة أطفال غير شرعيين لا يحمل أيٌّ منهم اسم غابرييل.

هكذا بات والد غابرييل غارسيا ماركيز معروفاً طوال حياته بالاسم غابرييل إليخيو غارسيا وليس غابرييل إليخيو مارتينيث غارسيا[13]. إن من يهتم بكل هذه الأشياء لا بد من أنه سيدرك على الفور تقريباً أنه ولد غير شرعي. وعلى كل حال، ففي أواخر عقد العشرينيات من القرن الماضي، نرى غابرييل إليخيو يعوض عن هذه العيوب. وكما اكتسب نيكولاس ماركيز رتبة عسكرية مرموقة إبان

الحـــرب وأصـــبح عقيداً، فإن غابرييل إليخيو، ذلك العصامي الذي تعلم المعالجة بالطـــب التجانسي، بدأ يضيف لقب دكتور إلى اسمه. العقيد ماركيز والدكتور غارسيا.

* * *

القِسْمُ الأوَّل

الوطن: كولومبيا

1955-1899

-1-

عقداء وقضايا خاسرة

1927-1899

غالـــباً ما تبدو قارة أميركا اللاتينية خيبة أمل لسكانها بعد خمسمئة سنة من اجتياح الأوروبيين لها. ويبدو أن تاريخها قد رسمه كولومبوس، ذلك *القبطان العظيم* الذي اكتشف القارة الجديدة خطأً وأخطأ في إطلاق اسم *الهند* عليها، ثم مات بعد أن شعر بالمرارة والخيبة في بواكير القرن السادس عشر، أو رسمه *المحرر الكبير* سيمون بوليفار الذي وضع حداً للحكم الاستعماري الإسباني في مطلع القرن التاسع عشر، لكـــنه تـــوفي هو الآخر وهو جزع لتفكك القارة التي تحررت حديثاً وللفكرة التي مفادها أن *من يصنع ثورة يحرث البحر*. وفي الحقبة الحديثة نسبياً بدا مصير آرنستو تـــشي غـــيفارا، وهو أكثر الرموز الثورية رومانسيةً في القرن العشرين والذي توفي شهيداً في بوليفيا في العام 1967، ليؤكد فكرة أن أميركا اللاتينية، التي لا تزال قارة مجهـــولة وبـــلاد المـــستقبل في آن واحد، هي موئل الأحلام العظيمة والإخفاقات الكارثية(1).

قبل أن يشيع اسم غيفارا في أنحاء الأرض بزمن طويل، كان ثمة صبـــي صغير في بلـــدة كولومبية صغيرة لم يلمع تاريخها إلاّ إبان تلك السنوات التي اختارت فيها شـــركة الفاكهة المتحدة ومقرها مدينة بوسطن أن تزرع الموز فيها في بواكير القرن العـــشرين، يصغي إلى جده وهو يقص عليه حكايات الحرب التي دامت ألف يوم والـــتي شـــعر في نهايـــتها بمرارة الوحدة التي يشعر فيها المهزومون، وحكايات عن الأفعال العظيمة التي حدثت في الأيام الخوالي وعن الأبطال والأوغاد الأشباح، وهي كلها قصص علّمت الطفل أن العدالة ليست مبنية في نسيج الحياة بناءً اعتيادياً، وأن

الحــق لا ينتــصر دوماً في هذا العالم، وأن المُثُل التي تملأ قلوب وعقول العديد من النساء والرجال يمكن أن تلحق بها الهزيمة، بل حتى تزول عن وجه الأرض، اللّهم إلا إذا بقيت محفورة في ذاكرة أولئك الذين يبقون على قيد الحياة ويعيشون ليرووها.

* * *

في أواخــر القــرن التاسع عشر، أي بعد سبعين سنة من استقلال جمهورية كولومبيا عن إسبانيا، كانت كولومبيا دولة لا يتجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين نــسمة تــسيطر علــيه نخبة أقلية من ثلاثة آلاف رجل من مالكي المزارع الكبيرة ومعظمهــم مــن السياسيين ورجال الأعمال وعدد كبير من المحامين والكتاب أو الــنحويين؛ وهــذا هو السبب الذي جعل العاصمة بوغوتا تُعرف بأنها *أثينا أميركا الجنوبية*. لقد كانت حرب الألف يوم هي الحرب الأخيرة والأكثر دماراً من سلسلة من الحروب تزيد على عشرين حرباً وطنية وأهلية مزّقت كولومبيا إبان القرن التاسع عشر، دارت رحاها بين الليبراليين والمحافظين، الوسطيين والفيدراليين، البرجوازيين وملاّك الأراضي، العاصمة والأقاليم. أما معظم الأقطار فقد شهدت في القرن التاسع عشر، وعلى نحو تدريجي، انتصار الليبراليين أو من يوازيهم في المعركة التاريخية، في حين ظل المحافظون يهيمنون على كولومبيا حتى العام 1930، وبعد فترة حكم ليبرالي امتد من العام 1930 وحتى العام 1946، عاد المحافظون مرة أخرى إلى مقاليد الحكم حــتى أواســط عقد الخمسينيات، وظلوا قوة مؤثرة حتى يومنا هذا. من المؤكد أن كولومبــيا هي الدولة الوحيدة التي كانت فيها الانتخابات العامة محور صراع حتى أواخــر القرن العشرين بين الحزب الليبرالي التقليدي وحزب المحافظين التقليدي من دون أن يتمكن أي حزب آخر من الحصول على موطئ قدم[2]، لكن الوضع تبدل في السنوات العشر الأخيرة.

بالــرغم من أن الصراع أطلق عليه تعبير حرب *الألف يوم*، إلا أنه انتهى حتى قبل أن يبدأ. فقد كانت حكومة المحافظين تملك موارد أعظم شأناً، وكان الليبراليون تحــت رحمة زعيمهم رافائيل أوريبــي أوريبــي الملهم على نحو غريب والمفتقر إلى الكفاءة في آن واحد. على كل حال، استمرت الحرب زهاء ثلاثة أعوام، وازدادت بمــرور الأيام قسوتها ومرارتها وعبثيتها. ومن شهر تشرين الأول من العام 1900 لم

يـــتمكن أي من الطرفين من أسر أحد، إذ أعلن الطرفان أن الحرب ستكون حرباً حـــتى الموت مما يعني أن كولومبيا تحيا في ظل الصمت. وعندما انتهى كل شيء في شهر تشرين الثاني عام 1902 كانت البلاد في حالة خراب وفقر، وكان إقليم باناما يوشك أن ينفصل ويضيع إلى الأبد، وربما لقي مئة ألف كولومبـــي مصرعهم. غير أن أعمال الثأر والانتقام الناجمة عن الأسلوب الذي دارت به الحرب استمرت لعدة عقـــود مـــن الزمان، مما جعل كولومبيا بلداً عجيباً حيث إن الحزبين الرئيسيين بقيا عـــدوين لـــدودين طوال قرنين، لكنهما اتّفقا ضمناً على ألاّ يحظى السكان بتمثيل حقيقـــي. ولم يـــشهد أي بلد في أميركا اللاتينية انقلابات أو ديكتاتوريات أقل مما شـــهدته كولومبيا في القرن العشرين، لكن الشعب الكولومبـــي دفع ثمناً غالياً لقاء هذا الاستقرار المؤسساتي الظاهري.

لقد دارت رحى حرب الألف يوم في شتّى أرجاء الدولة، لكن مركز الجذب تحول تدريجياً شمالاً إلى الأقاليم الواقعة على ساحل الأطلسي. فمن جهة، لم يخضع مركـــز الحكـــومة في بوغـــوتا إلى تهديد خطير من المتمردين الليبراليين. ومن جهة أخـــرى، تراجع الليبراليون في نهاية المطاف صوب الدروب الساحلية التي غالباً ما كان يلجأ إليها زعماؤهم بحثاً عن ملاذ آخر في دول مجاورة متعاطفة أو في الولايات المـــتحدة، حيث يحاولون هناك جمع الأموال وشراء الأسلحة استعداداً للجولة التالية من الحرب. في هذا الوقت، كان الثلث الشمالي من البلاد المعروف باسم *الساحل*، ويطلق على سكانه اسم *سكان الساحل*، يتألف من مديريتين رئيسيتين: بوليفار إلى جهـــة الغرب وعاصمتها مرفأ كارثاخينا، ومجدلينا إلى جهة الشرق وعاصمتها مرفأ ســـانتا مارتا، المنكفئة تحت جبال سييرا نيفادا العظيمة. وكانت المدينتان الرئيسيتان تقعان على جانبـــي سييرا نيفادا – سانتا مارتا إلى جهة الغرب وريوهاتشا إلى جهة الشرق – أما بقية المدن الأخرى الواقعة بينهما إذا ما التف المرء حول سييرا – وهي ثيناغا، وآراكاتاكا، وبايدوبار، وفيلانويفا، وسان خوان، وفونسيكا، وبارانكاس – فقـــد انـــتقلت مـــن طرف إلى آخر إبان الحرب وهي التي وفرت سيناريو غنائم نيكولاس ماركيز وولديه غير الشرعيين الأكبر سناً وهما خوسيه ماريا بالديبلانكيث وكارلوس ألبيرتو بالديبلانكيث.

في وقـــت مـــا من أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر نقل نيكولاس ماركيز وترانكيلينا إغواران طفليهما خوان دي ديوس ومارغريتا إلى بلدة بارانكاس الصغيرة في غـــواخيرا الكولومبية، وأستأجرا منـــزلاً في كاي دِل توتومو على بعد خطوات قلـــيلة مـــن الميدان. ولا يزال البيت قائماً حتى يومنا هذا. واشتغل السنيور ماركيز جوهرياً، يصنع ويبيع مصوغاته من القلائد والخواتم والأساور والسلاسل علاوة على تخصصه في الأسماك الذهبية الصغيرة، ويبدو أنه أسس لتجارة رائجة حولته إلى عضو محتـــرم في المجـــتمع. وكان تلميذه، وبالتالي شريكه رجلاً شاباً يدعى أوخينوريوس وأصبح كابن تكفّل بتربيته، وكان قد اشتغل وإياه في ريوهاتشا بعد أن اشتراه من آل كـــارمن دي بولـــيفار. كان ريوس أخاً غير شقيق لقريبة نيكولاس فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيًّا التي كان نيكولاس قد تربى وإياها عند آل كارمن ثم أخذها معه في وقت لاحق إلى آراكاتاكا. عندما اندلعت حرب الألف يوم، بعد مرور سنوات من الإحباط الليبرالي، كان نيكولاس ماركيز، وهو ابن الخامسة والثلاثين، قد تجاوز ســـن المغامـــرات. أضـــف إلى ذلك، أنه أسس حياة مريحة ومنتجة ومستساغة في بارانكـــاس، وكان يطمح إلى تعزيز رفاهيته المتنامية. مع هذا، فقد انضم إلى جيش أوريبـــي أوريبـــي وحارب في أقاليم غواخيرا وباديًّا ومجدلينا، وثمة دلائل تشير إلى أنه حارب على نحو أشد وأطول من غيره. من المؤكد أنه كان مشاركاً منذ البداية عندما كان آمراً وجزءاً من الجيش الليبرالي الذي احتل مسقط رأسه ريوهاتشا وظل على تلك الحال حتى انتهى النـــزاع في تشرين الأول 1902.

بحلـــول نهاية شهر آب سنة 1902 تقدم الجيش الليبرالي الذي تلقى تعزيزات حديـــثة وبات تحت إمرة أوريبـــي أوريبـــي الذي ظهر مرة أخرى على نحو غير مـــتوقع، صوب الغرب، وشق طريقه من حول سييرا بدءاً من ريوهاشتا حتى قرية آراكاتاكـــا الصغيرة التي كانت معروفة بصفتها معقلاً من معاقل الحزب الليبرالي، فوصـــلها في الخامس من أيلول وهناك عقد أوريبـــي أوريبـــي محادثات لمدة يومين مع الجنرالين كلود روميرو كاستيلو وخوسيه روساريو ديوران وغيرهما من الضباط بمـــن فيهم نيكولاس ماركيز نفسه. وفي آراكاتاكا اتخذ قراراً مصيرياً يقضي بخوض معركة أخرى أدت في نهاية المطاف إلى هزيمتهم هزيمة نكراء في معركة ثيناغا.

تقدم أوريبـــي أوريبـــي نحو ثيناغا في باكورة صباح الرابع عشر من تشرين الأول عام 1902، وكانت المعركة قاسية على الليبراليين منذ اللحظة التي بدأت فيها إحـــدى الـــسفن الحربية الحكومية بقصف مواقعهم من البحر. وقد أطلقت بعض الإطلاقات على أوريبـــي أوريبـــي واخترق بعضها سترته لكنها لم تُصب جسده بأعجـــوبة (و لم تكن تلك هي المرة الأولى)، فصاح مندهشاً، وهو أمر مألوف من عقـــيد غارسيا ماركيز المعروف أوريليانيو بونيديا: "كم بزة يعتقد هؤلاء الغوثيون أنني أمتلك؟" (تعبير الغوثيون يطلقه الليبراليون على المحافظين). ومات ابن نيكولاس ماركيـــز كارلـــوس ألبيرتو ميتة الأبطال، أما الأخ الأكبر خوسيه ماريا الذي كان تسلـــسله في قيادة فرقة جيش المحافظين المعروفة باسم فرقة كارزوا، يأتي في المرتبة الرابعة، فقد نجا.

بعـــد مـــضيّ يـــومين خرج خوسيه ماريا من ثيناغا محطم الفؤاد إثر وفاة كارلـــوس ألبيرتو، وقصد مخيم الليبراليين المهزومين حيث كان أبوه يعالج جروحه شـــأنه شأن آخرين غيره. كان خوسيه ماريا يحمل عرضاً للسلام من المحافظين. وفيما بغله يتقدم من خيام الليبراليين المهزومين، اعترضت طريقه مجموعة متقدمة، وسيق معصوب العينين ليطرح شروط المحافظين على أوريبـــي أوريبـــي. إننا لن نعرف أبداً ما جرى بين الابن غير الشرعي البالغ من العمر تسعة عشر عاماً وأبيه المتمـــرد في مناســـبة تاريخـــية خيم فيها ظل موت الابن الصغير عليهما. وناقش أوريبـــــي أوريبـــي شروط المحافظين مع كبار ضباطه، وقرروا في نهاية المطاف القبول بها. فعاد المبعوث الشاب إلى ثيناغا وفي وقت متأخر من الليل وصل محطة السكة الحديدية حيث حيَّاه حشد من المهلوسين، ورفعوه عالياً ليُبلغ النبأ السار. بعد مرور عشرة أيام، أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الأول عام 1902، التقـــى قادة المحافظين وأوريبـــي وأوريبـــي مع رؤساء أركانهم في إحدى مزارع الموز وتدعى مزرعة نيرلانديا، وهي غير بعيدة عن ثيناغا، لتوقيع معاهدة السلام. و لم تكـــن إلا أكبر قليلاً من ورقة تين تخفي تحتها حقيقة مرَّة وهي أن الليبراليين هزموا هزيمة نكراء.

* * *

في وقـــت متأخر من العام 1902، رجع نيكولاس ماركيز إلى بارانكاس وإلى زوجته ترانكيلينا، وبدأ ينهض بأعباء حياته. وفي العام 1905 ولدت طفلتهما الثالثة لويسا سانتياغا، وبدت الأمور وكأنها عادت إلى مجراها الطبيعي[3]، لكن نيكولاس تـــورط في العام 1908 في مواجهة عنيفة تغير جرّاءها قدر أسرته إلى الأبد، واضطر إلى الـــرحيل عن بارانكاس. وعندما مررتُ ببلدة بارانكاس بعد مرور خمس وثمانين عامـــاً على الحادثة، أي أواخر العام 1993، كان الجميع يتذكرون ما جرى، لكن لسوء الحظ روى لي كل شخص حكاية مختلفة، ومع هذا فلم تُنكر إحدى الحقائق التالية: عند الساعة الخامسة من عصر يوم الاثنين الماطر في التاسع عشر من تشرين الأول عـــام 1908، وهو اليوم الأخير من أسبوع مهرجان عذراء بيلار، وفيما كان المـــوكب الذي يحمل صورة العذراء يشق طريقه صوب الكنيسة الواقعة على بعد بـــضعة شوارع لا أكثر، أطلق العقيد نيكولاس ماركيز، وكان آنذاك سياسياً محلياً محتـــرماً، ومالك أرض، وصائغاً، وصاحب أسرة في الأربعين من عمره، النار على شاب يدعى ميداردو وهو ابن أخت صديقه ورفيقه في السلاح الجنرال فرنسيسكو روميرو، وأرداه قتيلاً. ومن الحقائق التي لم ينكرها أحد هي أن نيكولاس كان زير نساء. تبدو هذه الصفة لدى بعض القراء في أماكن أخرى من العالم مغايرة لصورته كرجل محترم له مكانة مرموقة بين جيرانه. لكنّ هناك على الأقل نمطين من الشهرة يحـــصل عليهما المرء في مثل هذا المجتمع: الأول هو *سمعته الطيبة*، وهي سمعة تقليدية تقترن دوماً بالمهابة التي يعلم كيف يفرضها على غيره. أما الآخر فهو سمعته بوصفه *زيـــر نساء* أو *فحلاً* فينشرها عنه الآخرون بدماثة. ويكمن الهدف في ضمان تعزيز هذين النمطين من الشهرة أحدهما الآخر.

كـــان التفسير الأول الذي سمعته مقنعاً مثل أي تفسير آخر سمعته. فقد ولد فيلميون إيستر في السنة نفسها التي وقعت فيها الأحداث. وقد فقد بصره الآن تماماً، وقـــد أكسبته تلك القصة الموغلة في القدم حيوية افتقدها بقية الشهادات. فقد ذكر فيليمون أن نيكولاس كان لديه عدد من الأطفال غير الشرعيين وأنه أغوى ميداردا رومـــيرو، وهـــي شقيقة صديقه القديم الجنرال روميرو، ثم تبجح بذلك مخموراً في المـــيدان. ودار الكـــثير مـــن القيل والقال معظمه يخص ميداردو لكن بعضه يخص

ترانكيلينا. وقالت ميداردا لابنها: "لا بد من غسل هذا الافتراء على السمعة بالدم يا ولدي وليست هناك وسيلة أخرى، وإذا كنت لا تريد رؤيته فلا بد لي من أن ألبس بنطالك وأن تلبس أنت تنورتي!". كان ميداردو رامياً بارعاً خاض مع نيكولاس غمار الحرب ويعيش اليوم في بابايال القريبة، فتحدى مراراً وعلانية قائده السابق، وشتمه فأخذ هذا تلك التحديات على محمل الجد، وفي وقت لاحق كمن للشاب الأصغر سناً منه. امتطى ميداردو صهوة جواده، وذهب إلى المدينة في يوم الاحتفال مرتدياً معطفاً مطرياً من قماش الغَبَردين الأبيض ومضى في زقاق - لم يعد له اليوم وجود - ليختصر الطريق. وفيما هو يترجل عن صهوة جواده حاملاً حزمة من الحشائش في يد وشمعة متقدة في اليد الأخرى قال له نيكولاس: "أأنت مسلح يا ميداردو؟" فردَّ ميداردو: "لا"، فما كان من نيكولاس إلا أن أضاف قائلاً: "لا بأس. أتذكر ما قلته لك؟"، ثم أطلق عليه إطلاقة واحدة فيما قال آخرون إطلاقتين. فخرجت امرأة تسكن في ذلك الزقاق وقالت: "إذاً، لقد قتله أخيراً". فأجاب نيكولاس: "إن رصاصة الحق تعلو على رصاصة القوة". وقال فيلميون: "وبعد ذلك انطلق نيكولاس ماركيز العجوز على امتداد الطريق وهو يقفز فوق البرك المائية وفي إحدى يديه بندقيته وفي الثانية مظلته وبحث عن إشبينه لورينثو سولانو غوميث، الذي رافقه ليسلم نفسه. ثم أُودع السجن إلا أن ابنه خوسيه ماريا بالديبلانكيث، الذي كان محامياً ذكياً، أخرجه من السجن. وبما أن ميداردو كان ابناً غير شرعي، فإنه ليس واضحاً إن كانت كنيته هي باتشيكو أو روميرو، لهذا قال بالديبلانكيث إن هوية المقتول ليست واضحة تماماً. القضية فنية كما ترون". وهكذا ساعده بالديبلانكيث على النجاة.

لم يكن هناك أحد غير آنا ريوس، ابنة أُخينيو شريك نيكولاس، تعرف أفضل من الآخرين، فأخبرتني أن ترانكيلينا كانت متورطة تماماً في مجمل تلك المأساة[4]. وذكرت أن ترانكيلينا كانت تشتعل غيرة، ولها ما يبرر ذلك، لأن نيكولاس كان يخونها دائماً. كانت ميداردا أرملة والحديث عن الأرامل لا يتوقف في البلدات الصغيرة، وانتشرت شائعات أنها كانت عشيقة نيكولاس المنتظمة، فبانت ترانكيلينا مسكونة بهاجس هذا الاحتمال ربما لأن ميداردا كانت تنتمي إلى طبقة أعلى شأناً،

وبهـذا فهي أكثر خطراً من أي من مغامراته الأخرى. وقيل إن ترانكيلينا لجأت إلى المشعوذات طلباً للمشورة، وأتت بالماء من النهر لتنظيف عتبتها، ورشت عصير الليمون في أرجاء المنزل. وفي يوم ما - هكذا قيل - خرجت إلى الشارع وهتفت: "ثمة حريق في منزل الأرملة ميداردا، حريق، حريق!"، وشرع صبي أعطته بعض المال لينتظر في برج كنيسة سان خوسيه بقرع ناقوس الإنذار، وسرعان ما شوهد نيكولاس وهو يتسلل خارجاً من منزل ميداردا في ضوء النهار (في حين يفترض بصديقه الجنرال أن يكون خارجاً).

عندما قدّم نيكولاس إفادته أمام السلطات سُئل إن كان يُقر بقتله ميداردو روميرو باتشيكو فقال: "نعم، وإذا ما بُعث مرة أخرى إلى الحياة، فسأقتله مرة أخرى". فقرر العمدة، وهو من حزب المحافظين، أن يحمي نيكولاس، وأرسل مبعوثين لإحضار جثة ميداردو الذي كان مطروحاً ووجهه على الأرض تحت المطر مقيّد اليدين وراء ظهره قبل أن ينقلوه من ذلك المكان. يتفق معظم الناس على أن ميداردو كان يسعى لمواجهة وأنه كان يتطلع إلى ما حدث. ربما هكذا كانت الأمور بالرغم من أن الحقائق المجردة تبدو مشيرة إلى أن نيكولاس هو الذي اختار زمان المنازلة الأخيرة ومكانها وأسلوبها. ولا تتوفر أي معلومات كافية لتقدير مبررات فعله أو شجبه. إلاّ أنه واضح تمام الوضوح أن الحدث يخلو من أي بطولة، فنيكولاس ليس بذلك الفلاح المقيم، بل كان محارباً قديماً ومتمرساً، وأن الرجل الذي أرداه قتيلاً خلسة كان أقل منه في الرتبة العسكرية وأصغر سناً.

رأى الكثيرون في بارانكاس أن ما حدث كان مقدراً، وكانت الكلمة الإسبانية التي توصف بها مثل تلك الحادثة توافق *الحظ السيئ* أكثر مما توافق كلمة *عار*، ويقال إن العديد من أفراد أسرة ميداردو تعاطفوا مع العقيد في محنته. لكن ثمة حديثاً يدور حول إعدام من غير محاكمة قانونية وعن خشية من اندلاع تظاهرات، ولهذا السبب، وبعد أن بات تحريره أمراً سهلاً، أرسلوه تحت حماية مسلحة إلى مسقط رأسه ريوهاتشا، لكن حتى في تلك البلدة ساد الاعتقاد أنه ليس بمأمن، فنُقل إلى سجن آخر من سانتا مارتا على الجانب الآخر من جبال سييرا نيفادا[5]. ويبدو أن قريباً مؤثراً من أقرباء ترانكيلينا تمكن من الحصول على تخفيض للحكم إلى سنة

واحدة في السجن في سانتا مارتا على أن تكون *البلدة نفسها سجنه* لسنة ثانية. ولحقت به ترانكيلينا والأولاد وعدد آخر من أفراد الأسرة بعد مرور بضعة أشهر. يقول البعض إنه تمكن من شراء إطلاق سراحه بما يحصل عليه من حرفته، إذ كان يشتغل في صناعة الحلي والمجوهرات والسمك الذهبي والفراشات والكؤوس داخل السجن ويبيعها حتى دفع رشوة لقاء إطلاق سراحه. لكن لم يعثر أحد على أي وثيقة تخصّ هذه القضية.

لم تواجه أسرة غارسيا ماركيز ما تنطوي عليه من احتمالات تلك الحادثة، ولهذا لجأت إلى تبني تفسير مصحح للرواية. واستناداً إلى هذا التفسير، راجت شائعة لبعض الوقت تفيد أن ميداردا، التي لم تكن شخصاً ساذجاً، كانت *تُحسن صنيعاً إلى أحد السكان المحليين* مرة أخرى. وقد لاحظ أحد أصدقاء نيكولاس بخصوص هذه الأقاويل وهما يحتسيان الشراب في الميدان العام إذ قال نيكولاس: "أفكر إن كانت الأقاويل صحيحة"، وسمعت ميداردا الرواية على نحو يشير إلى أن نيكولاس كان يروج لتلك الشائعة فطلبت من ابنها أن يدافع عن شرفها. وفي سنوات لاحقة تتذكر غالباً لويسا ذلك بالقول إن ترانكيلينا تقول عند التلميح إلى هذا الحادث على أنه يخص قضية بسيطة. وبهذا التفسير، فإن القتل كان *مبارزة* وإن الرجل الميت يلقى ما يستحقه ويصبح القاتل *ضحية حقيقية* للجريمة(6).

في العام 1967، وفي أعقاب نجاح **مئة عام من العزلة** (الذي يطرح فيه غارسيا ماركيز تفسيراً للجريمة أقل مثالية من بقية أفراد أسرته) سأل ماريو فارغاس يوسا المؤلف عن الشخصية الأساسية في طفولته، فردَّ غارسيا ماركيز: "إنه جدي، وإنني اكتشفت في ما بعد في مؤلفاتي أنه رجل نبيل، فقد اضطر إلى قتل إنسان عندما كان في ريعان الشباب وكان يحيا في بلدة ويبدو أن فيها رجلاً يغضبه دائماً ويتحداه، لكنه لم يعره أي اهتمام حتى بلغ السيل الزبى، فأرداه قتيلاً. ويبدو أن البلدة كانت متفقة مع ما فعله إلى الحد الذي دفع أحد أخوة الرجل الميت إلى النوم في تلك الليلة أمام باب البيت، أمام حجرة جدي وذلك كي لا تأتي أسرة القتيل وتنتقم. وهكذا ذهب جدي إلى مكان آخر بعد أن صعب عليه تحمل التهديد في تلك البلدة، أي أنه لم يذهب إلى بلدة أخرى وحسب، بل ذهب بعيداً برفقة أسرته وأسس بلدة جديدة.

نعـــم، لقد مضى وأسس بلدة، لكن أكثر ما أتذكره عن جدي قوله لي: *إنك لا تعلم وزن إنسان ميت*"[7]. بعد مرور سنوات طويلة على ذلك، يقول غارسيا ماركيز لي: "لا أدري مـــا الذي جعل جدي يتورط في كل ذلك، ولماذا حدث ما حدث، لكن الأوقات كانت عصيبة بعد الحرب. لا أزال أعتقد أنه اضطر إلى فعل ذلك"[8].

ربمـــا هـــي مصادفة محضة، لكن شهر تشرين الأول هو أكثر الشهور مدعاة للاكتئاب دائماً، وهو وقت الكهانة في روايات غابرييل غارسيا ماركيز.

* * *

يلـــف الغمـــوض تحـــركات نـــيكولاس ماركيـــز بعد رحيله المخزي عن بارانكاس[9]. غير أن لويسا والدة غارسيا ماركيز أعطت تفسيرات متباينة لمختلف المحاورين[10]. فقد أخبرتني أنها أبحرت برفقة ترانكيلينا من ريوهاتشا إلى سانتا مارتا بعـــد مـــرور بضعة أشهر على نقل نيكولاس إلى سجن تلك البلدة (كانت لويسا آنذاك في الرابعة من عمرها)، وأن نيكولاس أطلق سراحه بعد مرور عام واحد، وأن الأسرة انتقلت إثر ذلك إلى بلدة ثيناغا القريبة، وعاشت فيها عاماً آخر ثم ذهبت إلى آراكاتاكا في العام 1910. لقد باتت هذه الرواية رواية رسمية، لكن الأهالي في ثيناغا يـــصرون علـــى أن نيكولاس وأفراد أسرته أمضوا ثلاث سنوات هناك بعد إطلاق سراحه من السجن وذلك في الفترة بين 1910–1913 و لم ينتقلوا إلى آراكاتاكا إلا في العـــام 1913[11]. ربما استخدم نيكولاس ثيناغا قاعدة ينطلق منها لاستكشاف الإقلـــيم بحـــثاً عـــن فرص جديدة. وإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون قد طوَّر اهـــتماماته السياسية والتجارية بآراكاتاكا التي تعد عموماً بلدة منضوية تحت لواء الليبراليين، وذلك قبل أن ينقل أسرته إليها. يبدو مرجحاً أيضاً أن أحد الأسباب التي دفعـــته إلى الإقامة في ثيناغا، سواء أكانت الإقامة لمدة عام أو ثلاثة أعوام، يتمثل في أن ثيـــناغا باتت آنذاك موطن إيزابيل رويث التي التقاها نيكولاس في باناما في العام 1885، وهـــي سنة زواجه بترانكيلينا، والتي أنجبت له ابنته ماريا غريغوريا رويز في العام 1886.

علـــى العكـــس من بلدة سانتا مارتا المستعمرة، فإن بلدة ثيناغا كانت بلدة حديثة، وتجارية، وعفوية وخشنة، وكانت أيضاً محور النقل الإقليمي بحكم موقعها

على شواطئ الكاريبـــي. وكانت ترتبط بثيناغا غراندي، أي المستنقع الكبير الذي تَمخُر عبابه المراكب التجارية وهي في طريقها للوصول إلى الطرقات البرية المتجهة إمـــا إلى نهر مجدلينا وبوغوتا أو إلى مدينة بارانكيا الآخذة بالنمو نمواً تجارياً سريعاً. وكان أول خط للسكة الحديدية في الإقليم يمتد من سانتا مارتا إلى ثيناغا قد بدأ بعد العـــام 1887 وثم مُدَّ بين عامي 1906 و1908 وسط العمود الفقري لمنطقة الموز إلى آراكاتاكا وفونداثيون.

تقع منطقة الموز جنوب بلدة سانتا مارتا بين ثيناغا غراندي ونهر مجدلينا غرباً، والبحر الكاريبـــي أو المحيط الأطلسي شمالاً، وجبال سييرا نيفادا التي تدعى قممها كولومـــبوس وبولـــيفار شـــرقاً[12]. وتقع في السهل المنبسط بين الجانب الغربـــي للجـــبال والمـــستنقع الكبير مستوطنة صغيرة تُدعى آراكاتاكا مسقط رأس غابريل غارســـيا ماركيز. وتشمخ من فوقها جبال سييرا نيفادا موطن هنود الكوخي المحبين للـــسلام الذين يعيشون في عزلة. كان مؤسسو آراكاتاكا الأوائل قوماً مختلفين تماماً يُعرفون باسم تشيميلا، وكانوا مولعين بالحرب ومن قبائل أراواك الهندية. كان يطلق على القبيلة وزعيمها اسم كاتاكا وتعني الماء الصافي. وهكذا أطلقوا على النهر اسم كاتاكا أيضاً، وأطلقوا على قريتهم اسم آراكاتاكا (ويعني المقطع آرا النهر بلغة هنود تشيميلا) أي المنطقة ذات المياه الصافية[13].

في العام 1887 قام المزارعون من سانتا مارتا بزراعة الموز في الإقليم، وفي العام 1905 جـــاءت إلى المنطقة شركة الفاكهة المتحدة ومقرها مدينة بوسطن. وهاجر العمـــال مـــن جميع أرجاء منطقة الكاريبـــي ومن بينهم الكاتشاكو (وهو الاسم الـــساخر الذي يطلقه سكان الداخل ولا سيما بوغوتا، على سكان الساحل)[14]، وكذلك آخرون من فنـــزويلا وأوروبا وحتى من الشرقين الأوسط والأقصى: وهم الـــذين أسماهم أبطال رواية غارسيا ماركيز الأول **عاصفة الأوراق** باسم ساحر هو ورق النـــبات المـــتعفن. وفي غضون بضع سنوات تحولت آراكاتاكا من مستعمرة صـــغيرة إلى بلدة مزدهرة، إلى *بلدة مزدهرة في الغرب الموحش* بحسب تعبير غارسيا ماركيز. وأصبحت في العام 1915 ذات مجلس بلدي، وهو جزء لا يتجزأ من النظام السياسي الوطني في كولومبيا.

لم يكن الزعيم الفعلي في البلدة هو العقيد ماركيز، وهو ما يزعمه حفيده في غالب الأحيان، بل الجنرال خوسيه روساريو ديوران[15] الذي كان يملك عدداً من المزارع الكبيرة في أنحاء آراكاتاكا، وقاد القوات الليبرالية في عدد من الحروب الإقليمية على مدى عقدين من الزمان، وكان القائد المؤثر لليبراليين في آراكاتاكا زهاء نصف قرن. كان نيكولاس ماركيز أحد مرؤوسيه العسكريين المقربين، ولعله أصبح أكثر الحلفاء السياسيين مدعاة للثقة في آراكاتاكا خلال الفترة الواقعة بين عامي 1910 و1913. كان ديوران نفسه هو الذي ساعد ماركيز على تقلد منصب في البلدة، وعلى شراء أرض في منطقة أريغواني ومُلكيّات أخرى في البلدة نفسها، وعلى الاستحواذ على وظيفتي جابي الضريبة وبالتالي المسؤول عن الخزانة في المديرية[16]. ومما لا ريب فيه أن هذه المسؤوليات، إضافة إلى السمعة العسكرية، جعلت من العقيد ماركيز واحداً من أكثر أبناء المنطقة قوة ومدعاة للاحترام بالرغم من أنه كان دائم الاعتماد على حسن نية ديوران ومعرضاً للضغوط من الموظفين السياسيين التابعين لحكومة المحافظين ومن مديري شركة الفاكهة المتحدة.

أخبرتني لويسا، أم غارسيا ماركيز، أن نيكولاس بات "جابي الضريبة في المديرية" في آراكاتاكا في مطلع القرن[17]، ربما في العام 1919، إلا أنه لم يصطحب أسرته إلى هناك على الفور بسبب ظروف الصرف الصحي البائسة في البلدة المدارية والتي بدأت تزدهر حديثاً، وكانت آنذاك قرية عدد سكانها لا يربو على ألفي نسمة. ومع هذا، فلنتخيل أفراد الأسرة – العقيد ماركيز ودونا ترانكيلينا وأطفالهما الشرعيون الثلاثة خوان دي ديوس، ومارغريتا، ولويسا، وابنته غير الشرعية ألفيرا ريوس، وشقيقته وينفريدا ماركيز، وقريبته فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيًا، وخدمه الهنود الثلاثة أليريو وأولينار وميمي الذين كان اشترى كل واحد منهم بمئة بيزو في غواخيرا – وقد وصلوا كلهم بقطار شركة الموز المصبوغ باللون الأصفر، كان العقيد مفعماً بالأمل وهو يقوم بزيارة استشكافية في آب 1910. لكن لسوء الحظ كانت المنطقة المحيطة بآراكاتاكا لا تزال غير صحيَّة وموبوءة بالأمراض، كما أن المأساة حلت بالوافدين الجدد على الفور عندما توفيت مارغريتا، وهي ابنة الحادية والعشرين، بمرض التيفوئيد. لقد كانت مارغريتا بشحوبها الدائم وشعرها الأشقر

المضفور ضفيرتين مبعث فخر العقيد وبهجته، وربما فسَّر هو وأسرته التي تعتقد بالخرافات موهما على أنه نوع من عقاب آخر بسبب خطاياه في بارانكاس. ولم تعد قادرة الآن على زواجٍ كذلك الذي كان يحلم به الوالدان وأصبحت كل آمالهما معلقة بلويسا الصغيرة. وتفيد أعراف الأسرة أن مارغريتا جلست في سريرها قبيل وفاتها تنظر إلى أبيها وتقول: "إن عيون بيتك تنطفئ"[18]. وقد ظل وجودها الشاحب حياً في الذاكرة الجمعية وبخاصة، وهذه مفارقة، في صور التقطت عندما كانت في العاشرة من عمرها، ولم يعد أحد يحتفل بذكرى مولدها المصادف في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول في البيت الرحب المريح الذي بدأ العقيد يشيده قرب ميدان بوليفار.

بات نيكولاس ماركيز، وإن لم يكن فاحش الثراء البتة ويأمل دوماً وبلا طائل بالمرتب التقاعدي الذي وُعد به كل المحاربين القدامى في الحرب الأهلية، واحداً من وجهاء المجتمع المحلي مؤقتاً، وسمكة كبيرة في بركة صغيرة، إذ أصبح المالك الفعلي لمسكن خشبي واسع الأرجاء بأرضية إسمنتية، وهو ما يعد في آراكاتاكا - ويعدّه حفيده غابرييل أيضاً - بيتاً حقيقياً مقارنة بالأكواخ والزرائب التي سكنها معظم زملائهم من أبناء البلدة.

* * *

كانت ابنة العقيد لوسيا في نحو التاسعة عشرة من عمرها حين بلغ والدها عمر الستين عندما وصل في شهر تموز من عام 1924 عامل تلغراف جديد اسمه غابرييل إليخيو غارسيا إلى البلدة قادماً من موطنه سينثي[19]. كانت آراكاتاكا آنذاك تستمتع بالترف والبذخ منذ بضعة أعوام، وأُرسلت لويسا إلى كلية دي لا بريسينتاثيون، وهي أكثر مدارس الراهبات مدعاة للاحترام في سانتا مارتا المكفهرة، بالرغم من أنها رحلت عنها حين بلغت السابعة عشرة من عمرها بسبب اعتلال صحتها. وتتذكر ابنتها ليخيا قائلة: "إنها لم تعد إلى ذلك المكان لأن جدَّينا قالا إنها بدت هزيلة جداً ومرهقة، وكانا يخشيان أن تقضي نحبها مثل أختها مارغريتا"[20]. كانت لويسا تخيط الثياب، وتعزف على آلة البيانو، وتلقت علومها كي تجسد التطور الحاصل في المنزلة الاجتماعية التي كان نيكولاس وترانكيلينا ينشدانها

لتكون عزاءً لهما عندما انتقلا من غواخيرا إلى منطقة الموز. هكذا صعق العقيد لفكرة أنّ ابنته المربّاة تربية لائقة قد تُغرم بعامل تلغراف أسود البشرة عديم الأهمية من مكان آخر! برجل بلا أب بإمكانيات قليلة. لم يكن هناك ما يجمع بين نيكولاس ماركيز وخطيب ابنته غابرييل إليخيو غارسيا عندما التقيا سوى مجموعة من الأطفال غير الشرعيين، وهي مفارقة كافية وقضية يتردد موضوعها في أعمال غابرييل غارسيا ماركيز. وبالرغم من أن نيكولاس كان قد ولد في نطاق الزوجية وأن غابرييل إليخيو ولد خارج نطاق الزوجية (غير شرعي)، فإن كليهما تركا وراءهما أكثر من طفل غير شرعي عندما تزوجا وهما في بواكير العقد الثاني من عمريهما.

كان غابرييل إليخيو قد عاش سنوات طفولته وشبابه فقيراً بالرغم من عدم معرفة أي شيء عن المراحل الأولى من حياته سوى بعض التفاصيل القليلة؛ في الحقيقة إن التفاصيل القليلة كان قد طلبها منه أولاده: وبدا دائماً أن جانب ماركيز هو الأهم، وكذلك صلته بغواخيرا[21]. إننا نعلم تماماً أنه كان لديه أنصاف أشقاء وأنصاف شقيقات وهم: لويس إنريكي، وبينيتا، وخوليو، وإينا ماركيسيتا، وآدان رينالدو، وأليسار. كما أننا نعلم أيضاً، وبمساعدة الأقارب، أنه أكمل دراسته الثانوية - وهو إنجاز مهم في أي بقعة من بقاع العالم آنذاك - ونسمع أنه أفلح في بواكير عشرينيات القرن العشرين في الالتحاق ببعض الدروس في كلية الطب في جامعة كارثاخينا، إلا أنه اضطر إلى تركها. وبعد ذلك بسنوات، يخبر أبناءه بأن والده، وكان معلماً، أخذ على عاتقه مهمة دفع نفقات تعليمه إلا أنه مرَّ بضائقة مالية واضطر إلى عدم الوفاء بعهده. ولما وجد نفسه بلا معين يساعده على إكمال دراسته قرر الرحيل عن البيت، وبدأ يبحث عن عمل في الإقليمين الواقعين على البحر الكاريبي وهما قرطبة وبوليفار، حيث اشتغل عموماً عامل تلغراف في بلدة صغيرة، وطبيباً ومسافراً على امتداد الأقاليم الحدودية ذات الأنهار والمستنقعات والغابات. ولعله أصبح أول عامل تلغراف في ماغانغي، بعد ذلك اشتغل في تولو وشينثيليخو وغيرهما من البلدات. لقد كانت منزلة عامل تلغراف في تلك الأيام ذات سمعة طيبة بلا أدنى ريب وسط الطبقات الأدنى، معتمدة على ما يبدو على التكنولوجيا الحديثة في المكننة ومعرفة العامل

القراءة والكتابة. كان العمل شاقاً وكثير المتطلبات أيضاً. وفي آتشي، وهي بلدة صغيرة على ضفاف نهر كاوكا جنوبي سوكري، ولد له أول ابن من أبنائه الأربعة غير الشرعيين وهو أبيلاردو، وكان غابرييل إليخيو في التاسعة عشرة من عمره وحسب. وفي العام 1924 تورط في متاعب أخرى في آيابيل الواقعة على حدود إقليم قرطبة، والتي تعرف اليوم باسم إقليم سوكري على ضفة مستنقع واسع. وفي آب من العام 1924 طلب من حبيبته الحقيقية الأولى كارميلينا هيرومسيلو أن تتزوجه بعد أن أنجبت طفلة أخرى هي كارمن روسا. وفي أثناء رحلة إلى بارانكيا لإعداد الترتيبات، يبدو أن قريبه كارلوس هينريك باريخا نجح في ثنيه عن اتخاذ مثل هذا القرار الساذج[22]، فهرب إلى مدينة المزارع في آراكاتاكا حيث تمكن من العثور على عمل بصفة عامل تلغراف. في ذلك الوقت، كان قد أصبح مغوياً متمرساً على الغواية، متعطشاً إلى معاشرة النساء، مغلفاً ذلك كله بالشعر وأغاني الحب، أو، كما أوضح بعد زمن ابنه المشهور بأنه كان فتى كاريبياً نموذجياً من فتيان المرحلة، وهذا يعني من بين ما يعنيه أنه ثرثار وانبساطي ويتّسم بالغلو، وذو بشرة سمراء أو سمراء جداً.

وصل منزل العقيد نيكولاس ماركيز في آراكاتاكا ومعه رسالة توصية من قسّ في جامعة كارثاخينا وكان يعرف العقيد ماركيز منذ أيام سابقة. لهذا السبب، واستناداً إلى تفسير غابرييل إليخيو نفسه، فإن العقيد، المعروف بحسن ضيافته، حيّاه تحية حارة ودعاه لتناول الطعام، وفي اليوم التالي رافقه إلى سانتا مارتا حيث كانت زوجته ترانكيلينا وابنتهما الوحيدة لويسا تمضيان فصل الصيف على شاطئ البحر. وفي محطة قطار سانتا مارتا اشترى العقيد قبّرة داخل قفص وأعطاها لغابرييل إليخيو ليعطيها بدوره للويسا كهدية. كان هذا التصرف الذي يبدو تصرفاً لا يبعث على الرضا أول أخطاء العقيد. لكنه بالرغم من ذلك، وحسب غابرييل إليخيو أيضاً، لم يُغرم بلويسا من أول نظرة. ويتذكر: "لأكن صريحاً، فأنا لم ترقني لويسا قط، بالرغم من أنها كانت جد جميلة"[23].

لم تعد لويسا معجبة بغابرييل إليخيو مثلما لم يعد هو معجباً بها. وقد أصرّت على أنهما لم يلتقيا أول مرة في سانتا مارتا بل في آراكاتاكا في أعقاب السهر على

جـــثة طفـــل توفي في البلدة، وأنها كانت هي وسواها من النساء الشابات ينشدن للطفل المتوفى كي يرحل إلى مكان أفضل عندما انضم صوت رجل إلى الجوقة، ولما التفتن جميعهن لرؤية صاحب الصوت، شاهدن شاباً بهي الطلة يرتدي سترة سوداء مـــزررة بأربعة أزرار. وهتفت الفتيات الأربع: "سنتزوجه"، غير أن لويسا قالت إنه يبدو لها "شخصاً غريباً وحسب"(24). لقد كانت لويسا التي لم تكن خصماً يسهل التغلب عليه، بالرغم من افتقارها إلى التجربة، حذرة وظلت زمناً طويلاً تصدّ كل محاولة من محاولاته للتقرب منها.

كانت دائرة التلغراف قبالة الكنيسة وخلف الميدان العام في آراكاتاكا وعلى مقربة من المقبرة وعلى بعد شارعين من منـــزل العقيد(25). كان الوافد الجديد يحمل رسالة توصية ثانية موجهة إلى قسّ الأبرشية. لكن، إذا كان الأب الطيب قد لاحظ أن الـــوافد الجديد استقبل زائرات في أغلب الأحيان في ساعات متقدمة من الليل، فهذا ما لا نعرفه، لكن يقال إن غابرييل إليخيو لم تكن لديه أرجوحة نوم لوحده بل كان يملك سريراً مزيناً تزييناً جيداً لعشيقاته في الحجرة الخلفية من دائرة التلغراف. لقـــد كان عازف كمان ناضجاً وموهوباً، وكانت معزوفة حفلته هي *بعد الحفل*، وهـــي مقطـــوعة فالس حلوة ومرة من العصر الذهبـــي لأميركا الذي كان ينصح الشبان بعدم إضاعة فرصهم، ودعاه القس للعزف على الكمان مع الجوقة الموسيقية لمـــا يعـــرف بفتيات العذراء. كان الأمر يشبه إطلاق الثعلب للعب مع الدجاج. وكانـــت إحـــدى مغازلاته مع معلمة مدرسة ابتدائية محلية تخرجت حديثاً وتدعى روسا إلينا فيرغسون قبل إنها تزوجت، وإنه مازح في أثناء حفلة أقيمت في منـــزل لويـــسا ابنة العقيد قائلاً إنها ستكون عرابته أو عشيقته الأولى. إن هذه المزحة التي أطلقـــت بلا شك لإثارة غيرة لويسا، إن كانت منجذبة بأي حال من الأحوال إلى غابـــرييل إليخيو، سمحت للاثنين بأن يطلق كل منهما على الآخر لقب *عرابة وابن المعمودية* لإخفاء المودة المتنامية بينهما تحت ستار علاقة رسمية متخيلة لم يأخذها أي منهما على محمل الجد.

كان غابرييل إليخيو رجلاً يعرف كيف ينال النساء فضلاً عن أنه كان وسيماً بهي الطلة. بالرغم من أنه لم يكن إنساناً ساحراً، إلاّ أنه كان وقحاً قليل الحياء، واثقاً

أكثر من أي شخص آخر، له جذوره ومؤهلاته ومواهبه التي له الحق في الوثوق بها. وقد كان الناس القاطنون في ذلك الجزء الذي يقطن فيه هو أيضاً، وهي منطقة السافانا من إقليم بوليفار، معروفين بأنهم ودّيون، غير متحفظين وصاخبون، على العكس من التوجس والاستبطان والشك الواضح الذي يتصف به أولئك القادمون من الأراضي الحدودية لبلدة غواخيرا، شأن نيكولاس ماركيز وترانكيلينا، التي لا تزال يُنظر إليها على أنها أرضٌ هندية في مطلع القرن العشرين. كانت عذوبة معشر العقيد العلنية تخفي وراءها نزعة عشائرية غواخيرية عميقة الجذور وارتباطاً بالأماكن والأزمنة القديمة وحذراً من الغرباء. زد على ذلك، فإن آخر ما كان يحتاج إليه هو صهر غير مؤهل يغدو عبئاً إضافياً، في حين كان يبحث عن الارتباط بأسرة أفضل ذات مكانة محترمة كأسرته.

كانت لويسا رقيقة الجانب، مدللة إلى حدٍّ ما، ومتعة حياة أبيها، تصورها الأساطير، ربما على نحو مبالغ فيه، على أنها *حسناء آراكاتاكا*[26].

في الحقيقة، لم تكن ذات جمال تقليدي، لكنها كانت جذابة، مفعمة بالحيوية ومهذبة، بالرغم من أنها كانت غريبة الأطوار إلى حدٍّ ما، ولكنها امرأة حالمة مؤكداً. كانت أسيرة بيتها وطبقتها الاجتماعية على أيدي أبيها وأمها اللذين أحبتهما واحترمتهما، لكن انشغالها بأمنها الاجتماعي والعاطفي عززه على نحو غريب تاريخ والدها الشكس[27]، علاوة على ذلك، يشير غابيتو لاحقاً إلى أن الأسرة كانت قد بدأت منذ زمن بعيد تغذي موروثاً *سفاحياً* متناقضاً يتلخص برفض كل الخاطبين الغرباء ما جعل الرجال يتحولون إلى *صيادي شوارع ماكرين* والنساء إلى عانسات في أغلب الأحيان. على كل حال، كانت لويسا أقل خبرة من الرجل الذي ركّز بعد ثمانية أشهر من وصوله إلى آراكاتاكا جل اهتمامه عليها وعزم على أن تكون زوجته.

بدأ الاثنان يتبادلان نظرات متقدة في قداس يوم الأحد، وفي آذار سنة 1925 سعى غابرييل إليخيو للعثور على وسيلة لنقل مشاعره إليها ومفاتحتها بالزواج. فكان يقف تحت أشجار اللوز أمام البيت، حيث كانت لويسا وعمتها فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيّا تجلسان وتخيطان وقت القيلولة أو بداية المساء. وكان يحظى في

بعض الأحيان بحديث تحت شجرة كستناء عظيمة داخل الحديقة في حين تحوم من حولهما العمة فرانسيسكا، معذبة العديد من الخاطبين الذين تقدموا لخطبة لويسا، كأنها وصيفة مصاحبة تشبه العمة إيسكولاستيكا في رواية الحب في زمن الكوليرا[28]. وفي آخر الأمر، ومن تحت تلك الشجرة العملاقة، أطلق واحدة من أقل العبارات بسالة المدونة في الفلكلور الرومانسي: "أصغي يا سينيوريتا ماركيز، كنت ساهراً طوال الليل أفكّر في أنني بحاجة إلى الزواج، وأن المرأة التي سكنت فؤادي هي أنت، ولا أحب أي امرأة أخرى، فأخبريني إن كانت لديك أي مشاعر روحية تجاهي، لكن لا تظني أنك مضطرة إلى الموافقة لأنني على وجه التأكيد لا أموت حباً فيك، وسأمنحك أربعاً وعشرين ساعة للتفكير في الأمر"[29]. وقد قاطعته العمة فرانسيسكا المهيبة. غير أن لويسا أرسلت في غضون الأربع والعشرين ساعة ملاحظة مع أحد خدمها الهنود تقترح فيها عقد لقاء سري، وقالت إنها ترتاب في مدى جديته، وإنه يبدو لها عابثاً ومغازلاً مسرفاً. فأخبرها بأنه لا يريد الانتظار، فهناك أسماك أخرى في البركة. فطلبت منه أن يُطمئنها مجدداً، فأقسم لها إنها إذا قبلت به، فلن يحب امرأة أخرى. فوافق الاثنان على أن يتزوج أحدهما الآخر وليس أي شخص آخر، وأن *الموت وحده* هو الذي سيحول دونهما.

سرعان ما رأى العقيد إشارات مقلقة تنم عن هوى مشترك، فقرر أن يقضي على العلاقة في مهدها من دون أن يدرك أن تلك العلاقة باتت متفتحة الآن، فأوصد الباب أمام عامل التلغراف، ورفض أن يكلمه مجدداً. لقد كان تودّد غارسيا لابنتهما كأس المر والعلقم الذي لم يكن نيكولاس ولا ترانكيلينا على استعداد لتجرعه. في إحدى المرات، عندما كان العقيد يحيي حفلة اجتماعية لم يستطع فيها استثناء غابرييل إليخيو، كان هو الشخص الوحيد في الحجرة الذي لم يُطلب منه الجلوس. فشعر الشاب بإهانة شديدة حتى إنه اشترى بندقية، لكنه لم يكن عازماً على الرحيل عن البلدة. وأخبر الوالدان لويسا أنها لا تزال صغيرة السن بالرغم من أنها بلغت العشرين آنذاك وكان غابرييل إليخيو في الرابعة والعشرين. مما لا ريب فيه أنهما أشارا إلى أنه داكن البشرة وأنه غير شرعي، وأنه موظف حكومي مرتبط بنظام حزب المحافظين المقيت الذي حارب العقيد ضده في الحرب، وأنه عضو في *الورقة*

المتعضنة، وأنه النفاية البشرية التي طوّحت بها الريح من خارج البلدة. لكن العلاقة استمرت سراً بالرغم من ذلك: خارج الكنيسة بعد القداس، أو في الطريق إلى السينما، أو عند نافذة بيت العقيد عندما يكون الشاطئ خالياً.

أخبرت العمة فرانسيسكا قريبها العقيد عن هذه المناورات الجديدة، فما كان منه إلاَّ أن اتّخذ إجراءات صارمة، فأرسل لويسا برفقة ترانكيلينا وأحد الخدم في رحلة طويلة إلى غواخيرا حيث بقيتا مع الخادم عند بعض الأصدقاء والأقرباء الذين يقطنون في بيوت على امتداد الطريق. ويظل هذا السفر حتى في يومنا هذا سفراً طويلاً في أرض وعرة ويفتقر إلى الراحة لعدم وجود طريق حديث مكتمل. ففي تلك الأيام كان الطريق ينطوي على ممرات ضيقة تطل على أطراف هاوية تمتد على السفوح السفلى لجبال سييرا نيفادا، كما أن لويسا لم تركب على ظهر بغل من قبل.

لكن خطة العقيد مُنيت بفشل ذريع، إذ تفوقت لويسا على ترانكيلينا في ذكائها. فالمحارب القديم الذي خاض غمار عديد المعارك لم يحسب حساب غابرييل إليخيو وهو يخطط *استراتيجية حملته*، وما كان ينبغي له أن يقلل من شأن مصادر عامل التلغراف. إن رواية **الحب في زمن الكوليرا** تروي لنا مجمل قصة الرسائل المشفرة التي مررها عمال تلغراف متعاطفون في كل بلدة مرت بها الأم وابنتها. وتستذكر آنا ريوس كيف أنها سمعت أن الاتصال التلغرافي كان بالغ التأثير، حتى إن لويسا، عندما دُعيت إلى الرقص في ماناوري طلبت من زوج المستقبل السماح لها بالذهاب، وقد جاء الجواب بالإيجاب في اليوم نفسه، وظلت ترقص حتى الساعة السابعة صباحاً[30]. ويعود الفضل إلى تضامن زملائه عمال التلغراف، إذ لدى وصول الأم وابنتها إلى شاطئ سانتا مارتا في مطلع العام 1926 كان غابرييل إليخيو في الانتظار ليرحب بحبيبته وهي تنزل من المركب مرتدية ثوباً وردياً رومانسياً.

من الواضح أن لويسا رفضت العودة إلى آراكاتاكا، ومكثت في سانتا مارتا برفقة أخيها خوان دي ريوس وزوجته ديليا في شارع دل بوزو. وربما يمكن تخيل ثمن هذا التحدي في ضوء الأحداث الدرامية التي ألّمت بالأسرة. فقد مرَّت ديليا نفسها بالأهوال نتيجة العداء الذي تكنه أسرة ماركيز إغواران للغرباء، وكانت فرحة جداً لمساعدة أخت زوجها بالرغم من أن خوان دي ريوس أبقى عينيه

مفتوحـــتين على كلتا المرأتين بالإنابة عن أبيه. وكان غابرييل إليخيو يزور لويسا في أثناء عطلات نهاية الأسبوع في ظل ظروف من الحرية النسبية إلى أن انتقل في الوقت الملائم إلى ريوهاتشا التي كانت بعيدة جداً ما جعل الزيارات في أثناء عطلات نهاية الأســبوع غايــة في الــصعوبة. تكلمت لويسا مع راعي الأبرشية في سانتا مارتا المونــسينيور بيدرو إسبيخو، وكان في ما مضى في آراكاتاكا وصديقاً حميماً للعقيد ماركيز. فكتب القسيس رسالة إلى العقيد في الرابع عشر من أيار سنة 1926 ليقنعه بأن الاثنين مغرمان ببعضهما بعضاً، وأن الزواج من شأنه أن يجنّب حدوث ما اسماه باكفهرار *مصائب اسوأ*[31]. فرقّ قلب العقيد – لا بد من أنه كان يدرك أن لويسا لم يبقَ لها سوى بضعة أسابيع وتبلغ الحادية والعشرين من عمرها – وتزوج الاثنان في كاتدرائية سانتا مارتا وذلك عند الساعة السابعة من صباح يوم الحادي عشر من شهر حزيران سنة 1926. وكان ذلك اليوم هو يوم القلب المبارك، شعار المدينة.

يقــول غابرييل إليخيو إنه رفض دعوة حمويه الجديدين لحضور حفل الزفاف بــسبب حلم راوده، غير أن السبب الأرجح هو أنهما رفضا الحضور. ويقول ماريو فارغاس يوسا، الذي تلقى معظم معلوماته من غارسيا ماركيز مباشرة بحدود عامي 1969 و1970، إن العقيد نفسه أصرَّ على أن يحيا الزوجان بعيداً عن آراكاتاكا[32]. وعندما ذُكر هذا الموضوع، أفاد غابرييل إليخيو أنه كان يسعده الحضور، واعترف أمــام عروسه، وهما يبحران ويُصابان بدوار البحر إلى ريوهاتشا، أنه أغوى خمس عــذراوات في ســنواته الأولى بوصفه كازانوفا البلاد، وأنه ترك وراءه طفلين غير شرعيين. أما إذا كان قد أخبرها بأي شيء عن سجل والدته الخاص بحياتها العاطفية فهذا ما ينبغي لنا أن نرتاب فيه، لكن لا بد من أن هذا الاعتراف من زوجها الجديد بأفعالــه الــسيئة كان مفاجأة غير سارة تماماً. على كل حال، تتذكر لويسا طوال أيامهــا الأشــهر الــتي أمضتها مع غابرييل إليخيو في المنــزل الذي استأجراه في ريوهاتشا بوصفها أجمل أوقات عمرها[33].

ربما حملت لويسا في الليلة الثانية التي أعقبت الزفاف – إن لم تكن قد حملت قبل الزفاف نفسه – وتفيد قصص الأسرة أن أنباء هذه الحالة بشَّرت بذوبان جليد العلاقة بين غابرييل إليخيو والعقيد. ويقال إن الهدايا أُرسلت إليهما مع خوسيه ماريا

بالديلانكـــيث. ومع هذا، فإن قلب غابرييل إليخيو لم يرقَّ إلى أن وصل ذات يوم خـــوان دي ديوس قادماً من سانتا مارتا ليخبره أن ترانكيلينا تعلق الآمال على حمل ابنتها، فسمح غابرييل إليخيو لها بالسفر والعودة إلى آراكاتاكا للولادة فيها[34].

* * *

وصـــلت لويسا ذات الحادية والعشرين من عمرها عائدة إلى مسقط رأسها آراكاتاكا صباح أحد أيام شهر شباط من دون مرافقة زوجها بعد أن أمضت حوالى ثمانية عشر شهراً بعيدة عنها. كانت في الشهر الثامن من حملها، مصابة بدوار البحر إثر رحلة بحرية عاصفة أخرى إلى سانتا مارتا على متن مركب من ريوهاتشا. وبعد مـــضي أســـابيع قليلة، أي يوم الأحد السادس من آذار سنة 1927، وعند الساعة التاســـعة صـــباحاً، ووسط عاصفة مطيرة في غير أوانها، ولد الابن غابرييل غارسيا ماركيـــز. وقـــد أخبرتني لويسا إن أباها كان في طريقه إلى القداس عندما سارت الأمور *إلى الأسوأ*، لكن عندما قفل راجعاً إلى منـــزله كان كل شيء قد انتهى.

ولـــد الطفل، وكان حبل السرة ملتفاً حول عنقه - ويعزو بعد ذلك نـــزعته إلى الخـــوف المرضي من الأماكن المغلقة إلى هذا النحس - ووزنه، كما قيل، ثلاثة كيلوغـــرامات ومئة وخمسين غراماً. واقترحت العمة فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيًّا أن يرشّوا عليه الشراب وماء التعميد خشية حدوث مضاعفات أخرى. في الحقيقة، الطفل لم يعمّد رسمياً إلا بعد ثلاث سنوات ونصف السنة تقريباً مع أخته مارغوت (مارغـــريتا) التي عُزلت مع الجدَّين (يتذكر غابيتو التعميد بكل وضوح، إذ أجراه الأب فرانسيسكو أنغاريتا في كنيسة سان خوسيه في آراكاتاكا في السابع والعشرين من شهر تموز سنة 1930، وكان العرابان هما الشاهدين اللذين شهدا في حفل زفاف والديه: خاله خوان دي ديوس وعمة أمه فرانسيسكا سيمودوسيا).

احتفل العقيد ماركيز بيوم الميلاد، وأصبحت ابنته الحبيبة قضية خاسرة أخرى، إلاّ أنه عزم على أن ينظر إلى تلك الكنيسة على أنها معركة لا أكثر، وعزم على ربح الحـــرب، فالحـــياة ستستمر، وسيوظف كل طاقاته التي لا تزال عظيمة في طفلها الأول، حفيده المولود حديثاً، "نابوليوني الصغير".

* * *

-2-

بيت في آراكاتاكا

1927-1928

"ليست الذكرى الأكثر ديمومة وحيوية عندي هي ذكرى الناس، بل هي ذكرى البيت الحقيقي في آراكاتاكا الذي عشت فيه مع الجدّين. إنه حلم لا يزال يراودني حتى الآن. فضلاً عن ذلك، فإنني في كل يوم من أيام حياتي، أستيقظ فيه وثمة شعور يلازمني، حقيقياً كان أم خيالياً، بأنني حلمت بأنني في ذلك البيت الكبير العتيق. أنا لم أذهب إليه، بل أنا موجود فيه في سن غير محددة، ولسبب غير محدد، وكأنني لم أغادره قط. ولا يزال ينتابني حتى الآن في أحلامي ذلك الإحساس المنذر بالشر ليلاً الذي خيم على مجمل طفولتي. إنه إحساس لا سبيل إلى السيطرة عليه، بدأ في وقت مبكر من كل مساء وظل يؤرقني في منامي حتى أرى الفجر يبزغ من خلال الباب المتصدع"[1].

هكذا، وبعد مرور نصف قرن من الزمان، يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز، وهو يتحدث إلى صديقه بلينيو أبوليو ميندوثا في باريس، الصورة المهيمنة لطفولته المذهلة في بلدة آراكاتاكا الكولومبية الصغيرة. ولم يمضِ غابيتو السنوات العشر من عمره برفقة أُمه وأبيه وعدد كبير من إخوانه وأخواته الذين تعاقبوا من بعده إلى هذا العالم بل أمضاها في البيت الكبير لجدَّيه لأمه العقيد نيكولاس ماركيز ميخيَّا وترانكيلينا إغواران كوتيس.

كان بيتاً يحتشد بالناس من أجداد وخالات وضيوف وقتيين وخدم وهنود - لكنه كان أيضاً مملوءاً بالأشباح (ربما قبل كل شيء شبح أمه الغائبة)[2]. وبعد مرور سنوات طويلة ظل الشبح هاجسه عندما كان بعيداً جداً زماناً ومكاناً، وكانت

محاولة استعادته وخلقه من جديد والسيطرة على ذكرياته الخاصة به جزءاً كبيراً من ذلـــك الشيء الذي سيصنع منه أديباً في المستقبل. كان ذلك كتاباً حمله في أعماقه منذ طفولته: يتذكر الأصدقاء أن غابيتو كان يكتب، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعـــد، روايـــة لا تقـــف عند حد أسماها **البيت**. ظل ذلك البيت القديم المفقود في آراكاتاكـــا بيت الأسرة حتى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين على الرغم من أن أسرة أخرى استأجرته بعد أن صحب غابرييل إليخيو زوجته وأولاده بعيداً عن آراكاتاكـــا مرة أخرى في سنة 1937. وعاد للظهور أخيراً على حالته الأصلية وإن كـــان متسماً بالهلوسة في رواية غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق**، التي كتبها عـــام 1950. لكن الهوس لم يكن قوياً و لم يستنفد نفسه إلا في ما بعد في رواية **مئة عام من العزلة** (1967) وعلى نحو أصبحت معه طفولة غابيتو المفعمة بالنشاط، وإن كانت تنطوي على معاناة وفي أغلب الأحيان على جزع، بادية تجسّد العالم كله في صـــورة عالم ماكوندو. وفي تلك المرحلة بات المشهد في منـــزل العقيد ماركيز لا يحيط بلدة آراكاتاكا الصغيرة وحدها، بل يحيط أيضاً عموم بلدة كولومبيا، بل وكل أميركا اللاتينية وما وراءها.

وبعد ولادة غابيتو، انتظر غابرييل إليخيو بضعة أشهر ليقوم برحلته الأولى إلى آراكاتاكـــا. فاســـتقال من وظيفته في ريوهاتشا وتخلى عن دائرة التلغراف نهائياً، وراوده الأمل في أن يكسب قوته من الطب التجانسي في آراكاتاكا. لكن بما أنه لم تكـــن لديـــه مؤهلات، و لم يكن لديه إلا القليل من المال، وعلى حين بدا أنه غير مرحب به في بيت العقيد، بخلاف رؤية الأسرة الأسطورية، فقد قرر أخيراً الانتقال بلويـــسا إلى بارانكـــيا، وبعد مفاوضات غامضة تمت الموافقة على بقاء غابيتو مع جدَّيه(3).

كانـــت مـــثل هـــذه الترتيبات أمراً شائعاً بعد موافقة الزوجين في المجتمعات التقليدية ذات الأسر الكبيرة. لكن لا يزال عصيًّا على الفهم ترك لويسا طفلها الأول وراءهـــا وهو لا يزال في مرحلة من عمره يعتمد فيها على الرضاعة الطبيعية لأشهر أخـــرى. لكن الأمر الذي يبدو مؤكداً هو أن التزامها بزوجها كان التزاماً شديداً. وبالـــرغم من كل النقد الذي وجَّهه والدها إليها، وبالرغم من كل أخطاء غابرييل

إليخيو وغرابة أطواره، لا بد من أنها أحبت رجلها وتركت نفسها، من دون تردد على ما يبدو، في حمايته. وفوق هذا كله، فضَّلته على ابنها الأول.

إنـــنا لن نعرف ما الذي كانت تفكر فيه لويسا وغابرييل إليخيو، أو ما الذي قالـــه كـــل واحـــد منهما للآخر وهما يستقلان القطار الصاعد من آراكاتاكا إلى بارانكـــيا تـــاركين طفلهما الأول وراءهما، لكننا نعلم أن أول هجمة على الشابين جـــاءت متمثلة بالفشل المالي، لكن بعد مرور أشهر قليلة، كانت ولويسا قد غدت حـــاملاً مرة أخرى، وعادت إلى آراكاتاكا كي تلد طفلها الثاني لويس إنريكي في الثامن من أيلول سنة 1928، وهذا يعني أنها هي والطفل الثاني كانا في آراكاتاكا في أثـــناء الفترة الزمنية التي أدت إلى مذبحة عمال الموز في ثيناغا في شهر كانون الأول مـــن ذلـــك العام وأعمال القتل العديدة التي ارتكبت في آراكاتاكا ومن حولها بعد ذلـــك. وكانـــت إحدى ذكريات غابيتو الأولى عن جنود يمرون أمام بيت العقيد. وعـــندما جاء غابرييل إليخيو ليأخذ الأم وابنها الجديد إلى بارانكيا في كانون الثاني مـــن سنة 1929، فإن ما يدعو إلى الغرابة هو تعميد الطفل بعجالة قبل الرحيل في حين أن غابيتو لم يعمّد إلا في شهر تموز سنة 1930[(4)].

لننظـــر إلى صورة غابيتو وتحديداً إلى وجه الطفل الصغير وعمره سنة واحدة وهي مطبوعة على غلاف مذكرات غارسيا ماركيز **عشت لأروي**. فقد تركته أمه في رعايـــة جدَّيه قبل التقاط الصورة ببضعة شهور، وعادت الآن بعد مرور بضعة أشهر على التقاطها لنجدها وقد وقعت في شرك أحداث الإضراب وما أعقبها من مذبحة. لم تكن تلك المذبحة حدثاً مهماً وحاسماً وهائلاً وحسب، فقد كان من شأنه أن يغير تاريخ كولومبيا إذ أدى إلى عودة حكومة الليبراليين في آب 1930 بعد مرور نصف قرن من الحرب الأهلية والتهميش، فتوحَّدَ الصبـــي الصغير بتاريخ بلاده، بل كانت أيضاً متزامنة مع اللحظة التي كان في وسع أم الصبـــي أن تعيده إلى بارانكيا بـــرفقتها. لكنها عوضاً عن ذلك، رافقت طفلها الجديد لويس إنريكي الذي عُمِّد حديـــثاً، وتركت غابيتو وراءها في البيت الكبير برفقة جدَّيه، فضمنت بذلك قدرته علـــى اســـتيعاب عـــزلته والعيش في ظل هذا الغياب وتوضيح هذه السلسلة من الأحـــداث الـــتي يتعذر تفسيرها لنفسه، وبذلك يتمكن من خلال تطور مثل هذه

القصة أن يشكل هوية تربط، شأنها شأن كل الهويات، بين ظروفه الشخصية، بكل ما تنطوي عليه من قسوة وبهجة، وقسوة العالم الخارجي وبهجته.

* * *

على الرغم من ذكريات غابيتو عن العزلة، فإنه لم يكن الطفل الوحيد في البيت، لكنه كان الصبي الوحيد فيه. فقد كانت أخته مارغريتا تسكن في البيت منذ أن كان عمره ثلاث سنوات ونصف السنة، وكذلك المراهقة سارا إميليا ماركيز – وهي ابنة خاله خوان دي ديوس غير الشرعية التي رفضتها زوجته ديليا (يقول البعض إن ديليا أوضحت أن الفتاة كانت ابنة خوسيه ماريا بالديبلانكيث وليست ابنة زوجها) – التي نشأت أيضاً في ذلك البيت برفقتهما. و لم يكن البيت هو ذلك المنزل الذي زعم غارسيا ماركيز أنه هو البيت المقصود[5]. الحق أن البيت لم يكن في آذار سنة 1927 بيتاً واحداً، بل ثلاثة مبانٍ منفصلة مشيدة بوجه عام بالخشب وبالقليل من اللّبن (الطوب) فضلاً على المباني الإضافية الخارجية (كالمرافق الصحية). وفي الوقت الذي وُلد فيه غابيتو، كانت هذه المباني الثلاثة الرئيسة ذات أرضيات إسمنتية على الطريقة الأميركية ونوافذ فولاذية ذات واقيات من نسيج شفاف ورقيق لتحول دون دخول البعوض، وسطوح مسقفة مطلية بالزنك الأحمر على الرغم من أن بعض المباني الخارجية لا تزال تحتفظ بالسقوف الكولومبية التقليدية المصنوعة من سعف النخيل. وثمة أشجار لوز خارج هذا المبنى تظلل المدخل. وبحسب ذكريات غارسيا ماركيز المبكرة جداً، فقد كان هنالك مبنيان إلى يسار المدخل، يضم أولهما مكتبَ العقيد، وحجرةَ استقبالٍ صغيرةً مرتبطة به، وفناءً جميلاً، وحديقة فيها شجرة ياسمين – كانت هذه الحديقة التي تحتشد بورد الياسمين، والناردين، ورقيب الشمس، وإبرة الراعي، تعج أيضاً بالفراشات صفراء اللون – وجناحاً آخر يتألف من ثلاث حجرات.

كانت أول هذه الحجرات الثلاث الخاصة هي حجرة نوم الجدين، التي اكتمل بناؤها في وقت لاحق يصل إلى العام 1925 حيث ولد غابيتو بعد ذلك بسنتين[6]. وإلى جانب تلك الحجرة، ثمة ما يُطلق عليه اسم **غرفة القديسين** التي أصبح ينام فيها غابيتو عادةً – على أرجوحة شبكية بعد أن ضاق عليه المهد – في أثناء السنوات

العشر مع جدَّيه، وفي بعض الأحيان، وعلى نحو متغير أو في آن واحد، برفقة أخته الأصغر سناً مارغريتا وعمة أمه فرانسيسكا سيمودوسيا وابنة خاله سارا ماركيز ومعهم مجموعة لا تتغير من القديسين تضاء ليلاً ونهاراً بمصابيح تستخدم زيت النخيل، وكل واحد منها في عهدة أحد أفراد الأسرة لحمايتها وذلك "للاعتناء بالجد ومراقبة الأحفاد وحماية البيت كي لا يداهم أحد المرضى وهكذا؛ وتلك عادة موروثة عن جدة جدتنا لأُمنا"[7]. أمضت عمة أمه فرانسيسكا العديد من الساعات من حياتها وهي جاثية على ركبتيها تصلي هناك. أما الحجرة الأخيرة فهي "حجرة الحقائب" وهي حجرة سقط المتاع المملوءة بممتلكات الأسلاف وتذكارات الأسرة جُلبت عند الخروج من غواخيرا[8].

وعلى الجهة اليمنى من المبنى، وإلى ما وراء الممر، ثمة جناح من ست حجرات أمامها شرفة وضعت فيها أصص الزهور الكبيرة وكانت الأسرة تدعوها "شرفة التبغونية" لوجود هذه العشبة الأسترالية فيها. وإذا عدنا القهقرى إلى المدخل، فإن الحجرات الثلاث الأولى من المبنى الواقع إلى جهة اليمين تشكل هي والمكتب وحجرة الاستقبال المقابلة ما يمكن تسميته بالجانب الرسمي من البيت، إذ كانت الحجرة الأولى خاصة بالضيوف حيث يمكث زوار مهمون من ضمنهم، على سبيل المثال، مونسنيور إسبيخو نفسه. أما رفاق الأسرة ورفاق الحرب من جميع أرجاء غواخيرا وباديًّا ومجدلينا فكانوا يقيمون هناك، ومن ضمنهم بطلا الحرب الليبراليان رافائيل أوريبي أوريبي والجنرال بينجامين هيريرا[9]. وتقع بعد هذه الحجرة ورشة صياغة العقيد حيث ظل يواصل ممارسة حرفته حتى وقت قصير قبيل وفاته، على الرغم من أن مهامه في البداية اضطرته إلى جعل مهنته الأولى هواية[10]. وإلى الخلف حجرة الطعام الرحبة وهي المركز المؤثر في البيت، والأهم عند نيكولاس من الورشة الكائنة على امتدادها. كانت حجرة الطعام المفتوحة على الهواء تتسع لعشرة أشخاص يتحلقون حول مائدة الطعام وفيها بضعة كراسٍ هزازة من الخيزران لتناول المشروبات قبل الطعام أو بعده متى ما تستدعي الضرورة.

تأتي بعدها حجرة النوم الثالثة المعروفة باسم "حجرة المرأة العمياء" التي توفيت فيها قبل بضع سنوات أكثر أشباح المنزل شهرة ألا وهي العمة بيترا كوتيس

شقيقة ترانكيلينا[11]، تماماً مثلما كان قد توفي فيها العم لازارو، وباتت اليوم مأوى واحـــدة من العمات. ثم هناك حجرة حفظ أدوات الطعام التي يمكن أن يأوي إليها ضيوف أقل شأناً عند الاضطرار. وأخيراً، مطبخ ترانكيلينا الكبير الذي يحتوي على الفرن الكبير والمفتوح أمام مختلف العناصر شأنه شأن حجرة الطعام. وكانت الجدة والعمات يخبزن الخبز ويعددن قوالب الحلوى والحلويات من كل نوع لضيوفهن كي يستمتعوا بها، ولهنود المنـــزل لبيعها في الشارع فيتعزز بذلك دخل الأسرة[12].

ثمـــة فناء آخر وراء حجرتي القديسين والحقائب وفيه حمام وخزان ماء كبير حـــيث حممت ترانكيلينا غابيتو بقسم من ماء البراميل الخمسة التي يأتي بها كل يوم المـــتعهد خوســـيه كونتريراس. وفي إحدى المناسبات التي لا يمكن أن تُنسى، كان غابيـــتو الـــصغير يتسلق نحو السطح عندما شاهد تحته إحدى عماته وهي تستحم عارية. وبدلاً من أن تصرخ أو تغطي جسدها، وهو ما توقعه، لوحت له بيدها، أو هذا هو ما تذكره لاحقاً مؤلف **مئة عام من العزلة**. كان الفناء المجاور للحمام يطل علـــى الخارج: من جهة اليمين قطعة أرض فيها شجرة مانجا، وكوخ كبير في ركن مـــن الأركان يستعمل ورشة نجارة، وهي القاعدة التي يقوم فيها العقيد بتجديدات استراتيجية للبيت.

وفي الجـــزء الخلفـــي من المبنى، إلى ما وراء الحمام وشجرة المانجا، تقع بلدة آراكاتاكا الحديثة وسريعة النمو والتي يمثلها على نحو واضح ثراء هذا البيت الواسع وطمـــوحه، فتـــبدو البلدة كأنها تتجه نحو الريف في فضاء واسع شبه بري يدعى لاروزا، أي فـــسحة الأرض[13]. وفي هـــذه البقعة تنمو أشجار الغوافة التي تلجأ ترانكيلينا إلى استخدام ثمارها في صنع الحلويات في دلو معدني كبير، فتجعل رائحتها الـــزكية غابيـــتو يربط بينها وبين طفولته الكاريبية إلى الأبد. كما تخيم هنا شجرة الكـــستناء الأسطورية التي يُربط بها خوسيه آركاديو بويندايا في ما بعد في رواية **مئة عـــام مـــن العزلة**. وتحت شجرة الكستناء الوارفة كان غابرييل إليخيو غارسيا قد طلب من لويسا يدها في حين صرخ "كلب الحراسة"، العمة فرانسيسكا، في وجهه مـــن بـــين الظلال. كانت على هذه الأشجار الببغاوات وطيور الأقطروس، وأحد الحيوانات الكسولة المعلقة بين أغصان شجرة الخبز. وتقع على أحد جانبـــي البوابة

الخلفية الإسطبلات حيث كان العقيد يحتفظ فيها بجواده وبغاله وحيث يربط زواره جيادهم المعدة للركوب لدى وصولهم إلى هذا المكان، لا لتناول طعام الغداء وحسب، وذلك عندما يتركوها في الشارع، بل للمكوث مدة أطول.

وكان يجاور البيت مبنىً ظل الأطفال يظنون أنه بيت الأهوال، وأسموه "بيت الرجل الميت"، وانهمكت البلدة كلها في سرد روايات عنه تقشعر لها الأبدان لأن رجلاً فنزويلياً يدعى أنطونيو مورا عاش فيه بعد أن شنق نفسه، وكانت تُسمع أصوات سعال وصفير تنبعث من داخله[14].

وفي الوقت الذي ترسخت فيه ذكريات غارسيا ماركيز الأولى، كانت آراكاتاكا لا تزال بلدة حدودية عنيفة زاخرة بالأحداث. فقد كان كل شخص تقريباً يحمل مِدية وكانت البنادق كثيرة. وكانت إحدى ذكريات الصبي الصغير المربكة متمثلة باللعب في الفناء الخارجي عند مرور سيدة من أمام البيت ورأس زوجها في قطعة قماش وبقية الجسد محمول في الخلف. ويتذكر الصبي أنه شعر بخيبة أمل لأن الجسد كان مغطى بثياب مهلهلة[15].

كان النهار يأتي بعالم مفعم بالحيوية، متغير، كثير التحولات، ويصبح في بعض الأحيان عالماً سحرياً عنيفاً. أما الليل فبقي على حاله، وكان مثيراً للفزع. ويتذكر: "كان البيت تلفه الأسرار، جدتي متوترة جداً، أشياء كثيرة تظهر لها فتخبرني بها ليلاً...".

كانت الحياة اليومية تهيمن في ترانكيلينا أو "فينا"، كما كان يدعوها زوجها أو بعض النساء الأخريات، فهي امرأة نحيلة ذات عينين رماديتين قلقتين وشعر فضي مفروق من الوسط، فيشكل وجهاً إسبانياً لا سبيل إلى الخطأ فيه، وينتهي بعقدة على شكل كعكة فوق مؤخر العنق[16]. ويتذكر غارسيا ماركيز: "لو أقدمت على تحليل شكل الأشياء، فإن سيّد البيت الحقيقي هو جدتي، ولم تكن هي وحدها، بل كانت معها القوى الفانتازية التي كانت دائمة الاتصال بها والتي كانت تقرر ما الذي يمكن وما الذي لا يمكن عمله في ذلك اليوم، لأنها كانت تفسر أحلامها وتنظم البيت بحسب ما يمكن وما لا يمكن تناوله من الطعام. كان البيت أشبه بالإمبراطورية الرومانية تحكمها الطيور وقصف الرعد وغيرها من العلامات الخاصة

بالطقس، مما يُفسر أي تغيير في الجو والمزاج. لقد كنا في أيدي قوى غير مرئية على الرغم من أن الجميع كانوا من الكاثوليك المتزمتين[17].

كانت ترانكيلينا تطوف في أرجاء البيت منذ الفجر وحتى الغروب مرتدية ثياب حداد أو شبه حداد وتوشك أن تصل إلى حالة من الهستريا، فتغني وتحاول أن تنشر جواً من الهدوء والسكينة، متنبهة باستمرار إلى ضرورة حماية مسؤولياها من المخاطر المحدقة بها على الدوام: أرواح معذبة (أسرعوا شخص يموت) جنازات (أيقظوا الأطفال وإلا سيموتون أيضاً)، كانت تذكر الأطفال بهذه المخاطر وهو آخر ما تفعله ليلاً.

تذكرت روسا فيرغسون، وهي معلمة غارسيا ماركيز الأولى، أن ترانكيلينا كانت تعتقد اعتقاداً شديداً بالخرافات. فقد كانت روسا وشقيقاها يأتين في وقت مبكر من المساء فتقول السيدة: "أتعلمن أنني سمعت ساحرة في الليلة الفائتة... لقد سقطت على سطح ذلك المنزل"[18]. وكان من دأبها أن تروي أحلامها مرات ومرات، شأنها شأن عديد الشخصيات في روايات غارسيا ماركيز. وفي يوم ما، أخبرت المجتمعين عندها بأنها حلمت بوجود حشد من البراغيث، لهذا قطعت رأسها ووضعته بين ساقيها وبدأت تقتل البراغيث واحداً واحداً[19].

وكانت العمة فرانسيسكا سيمودوسيا ميخيًّا، المعروفة باسم العمة ماما، أكثر مهابة من بقية النساء اللواتي كن حاضرات في أثناء طفولة غابيتو، وكانت، خلافاً لترانكيلينا، معروفة بعدم خشيتها من أي شيء طبيعياً كان أم خرافياً، وكانت أختاً غير شقيقة لأُوخينيو ريوس شريك العقيد في بارانكاس، ونشأت مع قريبها العقيد في بارانكاس إل كارمن دي بوليفار وانتقلت من بارانكاس إلى آراكاتاكا برفقته بعد مقتل ميداردو. كانت داكنة البشرة، متينة البنيان، سوداء الشعر شأنها شأن هنود غواخيرا، بضفائر تربطها إلى الخلف عندما تسير في الشوارع. كانت ترتدي ثياباً سوداء اللون، وتنتعل جزمة مربوطةً بإحكام وتدخن سجائر قوية، نشيطة باستمرار، توجه الأسئلة بصوت عالٍ، وتُصدر الأوامر بصوتها القوي الصادح، وتنظم أيام الأطفال. كانت تعتني بالجميع، من أفراد الأسرة والمتشرّدين واللقطاء. كانت تعد أنواعاً خاصة من الحلوى والكعك للضيوف، وكانت تأخذ الأطفال إلى النهر

للاستحمام بصابون يحتوي على مادة الكاربوليك إذا كان لديهم قمل، وترافقهم إلى المدرسة وإلى الكنيسة، وتأويهم إلى أسرتهم وتجعلهم يتلون صلواتهم قبل أن تتركهم لترانكيلينا التي تتلو عليهم ملاحظاتها الختامية. وكانت تودع لديها مفاتيح الكنيسة والمقبرة وتزين المذبح في الأيام المقدسة. وكانت تصنع حلوى الكنيسة أيضاً – وكان القس زائراً منتظماً من زوار البيت – وكان الأطفال يتطلعون بحماسة إلى تناول ما يتبقى من الطعام المبارك. عاشت العمة ماما وماتت وهي عانس، وعندما فكرت في أنها ستموت، بدأت تخيط كفنها الخاص بها، كما فعلت أمارتنا في **مئة عام من العزلة**.

أما المرأة الثانية من حيث الأهمية فكنيتها الخالة با، واسمها ألفيرا كاريو التي ولدت في بارانكاس في نهاية القرن التاسع عشر، وكانت إحدى بنات العقيد الطبيعيات والأخت التوأم لإيستيبان كاريو. ثم انتقلت إلى آراكاتاكا وهي في العشرين من عمرها. وعلى الرغم من التوتر المحتوم في أول الأمر، فقد عاملتها ترانكيلينا كأنها إحدى بناتها، اهتمت هي بدورها بترانكيلينا حتى وفاتها في سوكري بعد مرور سنوات طويلة. كانت رائقة المزاج، دمثة الأخلاق، مدمنة على العمل الشاق، تقوم دائماً بأعمال التنظيف والخياطة وتصنع الحلوى للبيع بالرغم من أنها كانت تفضل عدم البيع في الشارع.

وهناك العمة وينفريدا التي نطلق عليها العمة نانا، وهي أخت نيكولاس الشرعية الوحيدة، كانت دائمة الحضور، بالرغم من أنها كانت تسكن بيتاً خاصاً بها. وكانت قد انتقلت إلى آراكاتاكا برفقة زوجها رافائيل كينتيرو لتموت بعد ذلك في منزل نيكولاس – بعد أن أمضت أيامها الأخيرة في مكتبه – قبل وفاة العقيد نفسه بوقت قصير.

وهناك أيضاً عدد لا يحصى من الخدم، أغلبهم يعملون من دون تفرغ تام، ينظفون حول البيت ويغسلون الثياب والأواني. والحق أن البيت كان يحتشد بالنساء، وتلك حقيقة أدت بغابيتو من ناحية إلى إقامة علاقة وثيقة وحاسمة مع الذكر الوحيد الآخر في البيت وهو جده، ومن ناحية أخرى إلى الاطمئنان إلى النساء وإلى الاعتماد عليهن اعتماداً يستمر طوال حياته. كان الرجال في نظر غابيتو

إمـــا رجالاً ينبغي محاكماتهم، مثل جده، أو الخوف منهم مثل أبيه. كانت علاقاته المبكرة بالنساء أكثر تنوعاً وأشد تعقيداً. (فثمة عدد كبير من الخادمات الهنديات في البـــيت وكنّ في حقيقة الأمر من العبيد. أما الصبـــي أبولينار، فلا يمكن عدّه ذكراً لأنه لم يكن رجلاً متكاملاً).

عندما قرأ غارسيا ماركيز قصص الجنيات، لا بد من أنه صعق بحقيقة مفادها أن العديد من تلك القصص يتضمن فتىً وفتاة وأجداداً - أجداداً دائماً، كحاله تماماً: هو ومارغوت ونيكولاس وترانكيلينا. لقد كان العالم معقداً من الناحية النفسانية وهو ما أوضحه في ما بعد لصديقه بلينيو ميندوثا: "الأمر الغريب هو أنني أردت أن أكون مثل جدي - واقعياً وشجاعاً وآمناً - لكنني لم أستطع مقاومة الإغراء الدائم في التلصص علـــى مقاطعة جدتي"[20]. لقد كان "بابا ليلو" أسداً عظيماً في ذاكرة أحفاده، يفرض النظام والانضباط على كبرياء الإناث، على بيت يحتشد بنساء أتى بهن إلى آراكاتاكا في أثـــناء بحثه عن الاحترام المتجدد والأمن. كان مخادعاً وصريحاً، حاسماً ومباشراً في آرائه. ويبدو أن غابيتو شعر أنه خلفه المباشر وأنه وريثه أيضاً.

واصطحب العقيد حفيده الصغير إلى كل مكان، وشرح له كل شيء، وإذا ما راوده الـــشك، يأخـــذه إلى البـــيت ويمسك بمعجم الأسرة ويؤشر سلطته بحسب التعريف الذي يجده فيه[21]. كان في الثالثة والستين من عمره عندما ولد غابيتو، له ملامـــح الأوروبيين، يشبه زوجته من حيث قامته متوسطة الطول وجسمه الممتلئ. وكـــان عـــريض الجبين، مائلاً إلى الصلع، كث الشاربين، يضع نظارة ذات إطار ذهبـــي، وكانـــت عيـــنه اليمنى قد أصيبت بالعمى في ذلك الوقت بسبب الماء الأزرق[22]. وكـــان يـــرتدي في معظم الأيام بذلة مدارية بيضاء نظيفة، لا تشوبها شائبة، ويعتمر قبعة خفيفة من قش ملون ويضع حمّالتي بنطال زاهيتي الألوان. كان رجـــلاً صريحاً، طيب القلب، سلطته واثقة وسمحة يُضفي عليها بريق عينيه شيئاً من الحـــيوية فتـــنمّ عن فهم لهذا المجتمع الذي يعيش فيه، وبذل قصارى جهده في كل الظروف التي مرَّ بها، لكن من جهة أخرى، لم يكن مفرطاً في الاحتشام.

وبعد مرور سنوات عدّة، عندما أفلح غارسيا ماركيز في إعادة تشكيل هاتين الطـــريقتين في تفسير الواقع وسرده، وتنطوي كلتا الطريقتين على لهجة واثقة تمام

الثقة – تكلف جده الدنيوي والعقلاني في حكمه ومواعظه وحماسة جدته الخطابية الأُخروية الغيبيّة – تشوبها مسحة من روح دعابة هي نسيج وحدها، وبذلك تمكّن من تطوير نظرة عالمية وأسلوب سردي موازٍ لها سرعان ما يدركه القراء مع كل كتاب جديد له.

* * *

بالرغم من أن العقيد ماركيز هُزم في حرب الألف يوم، إلاّ أنّ التوفيق حالفه في وقت السلم أيضاً. فبعد انتهاء الحرب، فتحت حكومة المحافظين أبواب الجمهورية أمام الاستثمار الأجنبي وازداد الاقتصاد الوطني حجماً بنسبة غير مسبوقة، لا في أثناء الحرب ولا بعدها. واستثمر رجال المال الأميركيين استثماراً واسعاً في التنقيب عن النفط والتعدين والموز، ودفعت حكومة الولايات المتحدة في نهاية المطاف للحكومة الكولومبية خمسة وعشرين مليون دولار للتعويض عن خسارتها باناما. واستثمرت هذه الأموال في مختلف الأشغال العامة التي كان يراد منها تحديث البلاد. وازدادت القروض من بعد ذلك، ودارت كل تلك الدولارات والبيزوسات هنا وهناك، فخلفت هستيريا مالية أطلق عليها المؤرخون الكولومبيون تعبير "رقصة الملايين". ويتذكر الكثيرون في ما بعد تلك السنوات القصيرة التي شهدت أموالاً متيسرة بفائدة ضئيلة على أنها سنوات ازدهار لا تُضاهى وفرصة سانحة على شاطئ الكاريبي.

الموز فاكهة مدارية يستغرق نموها ما بين سبعة إلى ثمانية شهور، ويمكن جني الثمار وتسويقها بحراً في أي وقت من أوقات السنة. ونظراً إلى حداثة وسائل الزراعة والنقل، فقد ساعد الموز على تحويل العادات الغذائية والاقتصادية لكبريات مدن العالم الرأسمالية. وقد وجد ملاك الأراضي المحليون أنفسهم، وهم الذين فتحوا الأقاليم الساحلية الشمالية من كولومبيا في وقت متأخر أمام الاستثمار، أن الأحداث قد سبقتهم. ففي أواسط تسعينيات القرن التاسع عشر، بدأ رجل الأعمال الأميركي ماينور كيث بشراء الأراضي المحيطة بسانتا مارتا، وكان قبل ذلك يملك مناطق واسعة من أميركا الوسطى ومن جامايكا. وفي سنة 1899 أسس شركة الفواكه المتحدة التي تقع مكاتبها في مدينة بوسطن وميناؤها الرئيس في

نيوأورليانـــز. وفي الوقت نفسه الذي اشترى فيه الأرض، اشترى أيضاً أسهماً في شـــركة سكة حديد سانتا مارتا، وفي نهاية المطاف لم تعد شركة الفواكه تدير خط ســكة الحديد وحسب، بل امتلكت أيضاً 25.500 سهم من مجموع أسهمها البالغ عددها 60.000 سهم[23].

وأشـــار أحد النقاد إلى أن أسهم ماينور كيث في كولومبيا ترقى إلى "لائحة قرصـــان"[24]. ففي أواسط عشرينيات القرن العشرين، أصبحت المنطقة ثالث أكبر مـــنطقة لتـــصدير الموز في العالم، إذ كان أكثر من عشرة ملايين عنقود موز يغادر ســـنوياً أرصفة الموانئ في سانتا مارتا. وكان خط سكة الحديد فيها يمتد ستين ميلاً مـــن سانتا مارتا إلى فونداثيون، وتقع على امتداد هذه المسافة اثنتان وثلاثون محطة. وكانت تحتكر تقريباً مجمل الأرض، وأنظمة الري، والتصدير بحراً، والنقل إلى خارج سانتا مارتا وإلى ما وراء ثيناغا غراندي، ونظام التلغراف، وإنتاج الإسمنت واللحوم وغيرهـــا من المواد الغذائية، والهاتف والثلج[25]. لقد كانت شركة الفواكه المتحدة بامـــتلاكها المـــزارع وخط سكة الحديد تسيطر سيطرة فعلية على بلدات المنطقة التـــسع. كمـــا أنهـــا سيطرت سيطرة غير مباشرة على الشرطة المحلية والسياسيين والصحافة المحلية[26]. وكانت إحدى أكبر المزارع المملوكة لشركة الفواكه المتحدة تدعى ماكوندو، وتمتد على مساحة قدرها 135 إيكر على جانبـــي نهر إشبيلية في غواكامايال المستصلحة.

كانـــت للطـــبقات العليا من الأسر الحاكمة في سانتا مارتا صِلات بنيويورك ولـــندن وبـــاريس، وكانـــت ذات مستوى ثقافي رفيع على الرغم من أنها محافظة سياسياً. غير أن الأسطول العظيم الأبيض لشركة الفواكه المتحدة، قد ساعد الجميع على إجراء اتصالات بالولايات المتحدة وأوروبا وبقية دول البحر الكاريبـــي. وفي الوقت نفسه، اندفع المهاجرون من بقية أنحاء كولومبيا، بما فيها شبه جزيرة غواخيرا ومـــناطق أخرى من العالم، للعمل في مزارع الموز أو لإقامة مشاريع تجارية صغيرة لخدمـــة المـــزارع والأهالي العاملين فيها. فظهر بذلك الفنانون والتجار والمراكبيون وبنات الهوى والغسالات والموسيقيون وسقاة الحانات. كما حلَّ الغجر فيها ورحلوا عنها، لكن إن شئنا الحقيقة، فإن جميع سكان منطقة الموز كانوا من الغجر في تلك

الأيام. وأصبحت هذه الجماعات المتنامية متصلة بسوق البضائع العالمية وبدور السينما التي تغير أفلامها مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً، وتوفر العديد من الأشياء التي تجدها في نيويورك أو لندن، مثل كاتالوغات مونتغمري وارد، والشوفان علامة كويكر، وفيكس فابوارب، وأملاح إينو، ومعجون كولغيت للأسنان.

كان عدد سكان آراكاتاكا بضع مئات سنة 1900 ينتشرون حول الريف ويتركزون على ضفتي النهر. وبحلول عام 1913 ارتفع العدد إلى ثلاثة آلاف ليزداد بعد ذلك أيضاً إلى ما يقارب العشرة آلاف نسمة في أواخر عشرينيات القرن العشرين. ولما كانت البلدة الأشد حرارة ورطوبة في المنطقة كلها، فقد كانت تنتج أكبر أنواع الموز حجماً، وكان إنتاج الموز يتطلب صراعاً ملحمياً يومياً بين العمال ما دام جلوس معظم الناس أو حتى استلقاؤهم على الأرض تحت أشعة شمس آراكاتاكا أمراً مهلكاً. وبحلول سنة 1910، عندما كان العقيد قد بدأ بنقل أسرته إلى تلك البلدة، كان خط سكة الحديد يمتد نزولاً من سانتا مارتا مروراً بثيناغا وآراكاتاكا حتى يصل إلى فونداثيون، وهي آخر مدن المنطقة، وكانت مزارع الموز تنتشر على جانبي خط سكة الحديد على مسافة ستين ميلاً تقريباً.

كانت آراكاتاكا بلدة مزدهرة وتتصف بحماسة البلدات المزدهرة. فقد كان اليانصيب يقام في أيام الآحاد في أثناء عزف فرقة موسيقية في الميدان العام. أما مهرجان آراكاتاكا، الذي أقيم أول مرة عام 1915، فقد كانت له جاذبية خاصة حيث تنتشر سنوياً على الميدان الحوانيت التي تقام احتفاءً بالمناسبة وتقام معها أيضاً الأكشاك وباحات الرقص، والتجار والمعالجون والعشابون والنساء اللواتي يرتدين أزياء غريبة وأقنعة، ويختال رجال البلدة وهم يرتدون بنطلونات من الخاكي وقمصاناً زرقاء، وتلفهم سحب دخان السيجار فيما تهب رائحة الرُّم والعرق في جميع أرجاء المكان بفعل نسمة لاذعة قادمة من ثيناغا غراندي. وقد قيل إن كل شيء كان يباع في تلك السنوات الذهبية: لا السلع الاستهلاكية القادمة من جميع أنحاء العالم وحسب، بل حتى شركاء الرقص والأصوات الانتخابية والأحلاف الغريبة[27].

لكن المدينة، حتى في أوج أيامها، لم يكن فيها سوى عشرة شوارع ذات اتجاه واحد. ولولا حرارة الشمس اللاهبة، فإن في وسع أي فرد اعتيادي أن يقطعها سيراً

علـــى قدمـــيه من جهة إلى أخرى في غضون عشرين دقيقة. و لم تكن هناك سوى مجموعة من السيارات. وكانت مكاتب شركة الفواكه المتحدة قبالة منـــزل العقيد نـــيكولاس ماركيـــز تماماً، وعلى مقربة من صيدلية صديقه الفنـــزويلي الدكتور ألفريدو باربوسا. وإلى الجهة الأخرى من خط سكة الحديد، ثمة جماعة أخرى قوامها مخـــيم إداريي الشركة الأميركية، على امتداد نادٍ ريفي يحتوي على أرض مزروعة بالحـــشيش، وملاعـــب للتنس، وبركة سباحة حيث يمكن مشاهدة نساء جميلات مـــسترخيات يـــرتدين ثياباً من الموسلين ويعتمرن قبعات عريضة من نسيج رقيق وشفاف يقطفن الأزهار في حدائقهن بمقاصّ ذهبية[28].

في أثناء حقبة الموز كانت بلدة آراكاتاكا لا تحترم الدين أو القانون إلا قليلاً. واســـتجابة لطلب قدَّمه مواطنو البلدة، أرسلت مطرانية سانتا مارتا أول أسقف إلى البلدة وهو بيدرو إسبيخو من بلدة ريوهاتشا ليعمل فيها مؤقتاً. وكان هو صاحب فكـــرة بناء كنيسة أبرشية استغرق بناؤها أكثر من عشرين عاماً[29]. كما أنه هو الذي أصبح صديق أسرة ماركيز إغواران الوثيق، وكان يقيم عندها كلما جاء إلى آراكاتاكـــا. واليوم، بعد مرور العديد من السنين، فإن الشارع الذي كان فيه ذلك البيت مشيداً يطلق عليه اسم "شارع المونسنيور إسبيخو".

* * *

وفي أواخـــر ســـنة 1928، انتهى عصر آراكاتاكا الذهبـــي نهاية عنيفة. فقد احـــتاجت شـــركة الفواكه المتحدة إلى العمالة لبناء خطوط سكة الحديد وقنوات الـــري، ولاستصلاح الأرض وغرس الأشجار وجني الفاكهة، ولتحميل القطارات والـــسفن بالموز لتصديرها. وقد أفلحت في بداية الأمر في اتباع سياسة "فرّق تَسُد" بـــين العمال بكل يسر وسهولة، إلا أن هؤلاء العمال سرعان ما انتظموا في نقابات في أثـــناء عقد العشرينيات، وفي تشرين الثاني من عام 1928 قدموا مطالب متنوعة تتـــضمن زيادة في الأجر وخفضاً لساعات العمل اليومي وتحسين ظروفهم. غير أن الإدارة رفـــضت تلك المطالب، فأعلن ثلاثون ألف عامل الإضراب في منطقة الموز وذلـــك في الـــيوم الثاني عشر من شهر تشرين الثاني 1928، وكان الطفل غارسيا ماركيز قد بلغ عشرين شهراً من عمره.

انـــتقل المتظاهـــرون لاحتلال المزارع في اليوم نفسه، فردَّت حكومة الرئيس ميغيل آباديا مينديث المحافظة بإرسال الجنرال كارلوس كورتيس فارغاس إلى المنطقة في الـــيوم الـــتالي بوصفه القائد المدني والعسكري برفقة 1800 عنصر من الأراضي المـــرتفعة. ولدى وصول كورتيس فارغاس إلى بلدة سانتا مارتا كرمته إدارة شركة الفـــواكه المتحدة، وأسكنت الجنود في ثكنات الشركة ومخازنها المنتشرة على امتداد المـــنطقة. وقيل آنذاك إن مسؤولي الشركة أقاموا للضباط حفلات ماجنة انتهكت فيها حرمات سيدات المنطقة وتعرضن فيها للإهانة، كما امتطت بنات الهوى وهن عاريات الجياد العسكرية واستحممن عاريات أيضاً في قنوات ري الشركة[30].

وفي فجـــر الخامس من كانون الأول سنة 1928 وصل ثلاثة آلاف عامل إلى ثيـــناغا لاحـــتلال الميدان، وإذا ما تمكنوا من احتلال ثيناغا، فإنهم يسيطرون على طـــرقات مواصـــلات سكة الحديد في جميع أرجاء الإقليم. إضافة إلى ثيناغا، فإن آراكاتاكا كانت بدورها إحدى المناطق التي تدعم الإضراب أشد الدعم. وكما هو شـــأن تجـــار ثيناغا، فقد قدّم أصحاب المتاجر المحليون وملاّك الأراضي دعماً مادياً حـــيوياً إلى المـــضربين حتى يوم المواجهة[31]. وكان المعروف عن الجنرال خوسيه روساريو ديوران أنه موظف محترم حاول أن تكون له صلات طيبة بالنقابة. والحق أن العديد من المحافظين شعروا أنهم ودودون "للاشتراكيين" أكثر مما ينبغي[32]. وعند منتـــصف ظهـــيرة الخامس من كانون الأول، أرسل الجنرال ديوران الذي وصفته البلاغات العسكرية يومذاك بأنه "الزعيم الليبرالي لجميع أرجاء الإقليم[33]"، برقية إلى سانتا مارتا يطلب فيها قطاراً لنقله هو ورجاله إليها حيث كان يأمل في التوسط بين العمـــال والـــشركة بمساعدة الحاكم نونيث روكا. فوافق كورتيس فارغاس، على مضض بلا ريب، وأرسل القطار في حينه[34]. وأخيراً، وصل ديوران ووفده، ومن ضمنه العقيد نيكولاس ماركيز، إلى ثيناغا عند الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم، فحـــيَّاه العمـــال بكل حماسة، وواصلوا طريقهم إلى سانتا مارتا للتفاوض من أجل التوصـــل إلى تسوية، لكنهم وجدوا أنفسهم رهن الاعتقال حال وصولهم. يبدو أن أفـــراد الإدارة المحافظـــة وشركة الفواكه المتحدة والجيش الكولومبـــي كانوا جميعاً عازمين على سفك الدماء لتلقين العمال درساً.

وفي ثيناغا، واجه حشد قوامه أكثر من ثلاثة آلاف شخص الجيش[35]. وكان كل جندي مزوداً ببندقية وحربة ونُصبت ثلاثة مدافع رشاشة أمام المحطة. ودوّى صوت بوق وتقدّم النقيب غرافيتو إلى الأمام وقرأ بصوت عالٍ: "المرسوم رقم (1)"، وبدأ فرض الحصار وأعلن عن حالة منع التجوال على الفور وحظر تجمع أربعة أشخاص أو أكثر، وإذا لم يتفرق الجمع الحاشد في غضون خمس دقائق، فسوف تطلق النيران. وهنا بدأ الحشد بإطلاق الشتائم وصيحات الاستنكار على الجيش بعد أن كان يحييه في البداية وينشد الشعارات الوطنية. وبعد مرور بعض الوقت، تقدّم كورتيس فارغاس بنفسه إلى الأمام وناشد الأهالي بالانصراف، وإلا ستطلق النار عليهم، ومنحهم دقيقة إضافية واحدة. وفي تلك اللحظة صاح صوت من بين الأهالي مجيباً بتلك الإجابة التي لا تنسى والتي سجلت في **مئة عام من العزلة**: "تلك الدقيقة هدية منا لكم!" فصاح كورتيس فارغاس: "أطلقوا النار!" فانطلق هدير مدفعين رشاشين (إذ تعطل المدفع الرشاش الثالث) ومعهما مئتا أو ثلاثمئة بندقية من جميع أنحاء الميدان. وسقط عدد كبير من الناس على الأرض وهرب من أفلح في الهرب[36]. أما سلفادور ديوران، وهو ابن الجنرال نفسه، وكان آنذاك في بيته القريب من الميدان، فقال إن إطلاق الرصاص استمر خمس دقائق كاملة، وبعدها ساد الهدوء حتى كان في الوسع سماع صوت البعوض في غرفته[37]. وقيل إن الجيش أجهز على الجرحى باستخدام الحراب[38]. كما قيل أيضاً إن كورتيس فارغاس هدد الجنود بإعدامات صورية إذا لم ينفذوا الأوامر في تلك الليلة[39]. ولم تبدأ السلطات إلاّ عند الساعة السادسة صباحاً بالتخلص من الجثث موضحة رسمياً أن عدد القتلى تسعة والجرحى ثلاثة.

كم عدد الذين ماتوا؟ بعد مرور أربعين سنة على تلك الحادثة، يخترع غارسيا ماركيز في روايته **مئة عام من العزلة** رقماً هو ثلاثة آلاف، وهي حصيلة نهائية يأخذها العديد من قرائه بمعناها الظاهري. وفي التاسع عشر من أيار سنة 1929 ورد في صحيفة الاسبكتادور الصادرة في بوغوتا أن عدد القتلى تجاوز الألف. كما أن ممثل الولايات المتحدة في بوغوتا جيفرسون كافيري قال في رسالة مؤرخة في الخامس عشر من كانون الثاني سنة 1929، ولكنها لم تنشر إلاّ بعد مرور سنوات

طويلة، إنّ هناك "أكثر من ألف قتيل" بحسب توماس برادشو المدير الإداري لشركة الفواكه المتحدة. (ويقول نائب رئيس شركة الفواكه المتحدة آنذاك لأحد الباحثين في سنة 1955، إن 410 أشخاص قتلوا في المذبحة وإن أكثر من ألف تُوفوا في الأسابيع اللاحقة)[40]. ولا تزال هذه الأرقام موضع نقاش وخلاف حتى هذا اليوم.

كان غابرييل إليخيو غارسيا منهمكاً في عمله بعيداً عن أسرته في بلدة بارانكيا، بالرغم من أن عامل التلغراف في آراكاتاكا أبرق إليه مشيراً إلى أن الجميع بخير وأمان. كانت لويسا قد أنجبت مؤخراً لويس إنريكي، وكان غابرييل إليخيو ليعود بالأسرة إلى بارانكيا. وكان يلتزم دائماً بتقديرات الحكومة، بل اعتذر عن كورتيس فارغاس قائلاً إن زوج عمة غابيتو في ثيناغا أخبره أن عدد الضحايا لا يزيد عن بضعة أفراد ما دام "لا يوجد أي مفقود".

وأعدم السجناء إعداماً صورياً في الأيام التي تلت المذبحة، فقد ذهبت إحدى كتائب الجيش بمعونة موظفي شركة الفواكه المتحدة الذين عملوا مرشدين لها، إلى آراكاتاكا "وأطلقت النار في كل مكان وعلى الجميع"[41]. وفي ليلة واحدة اختفى مئة وعشرون عاملاً في آراكاتاكا، وأيقظ الجنود أُسقف الأبرشية الأب أنغاريتا وأخذوا منه مفاتيح المقبرة[42]. وظل الأب أنغاريتا يقظاً طوال الليلة التالية كي يتأكد من عدم إعدام تسعة وسبعين سجيناً آخرين[43]. وفي غضون الأشهر الثلاثة التي أعقبت المذبحة، اقتنعت السلطات وكبار المقيمين في آراكاتاكا، ومن ضمنهم مدير الخزنة نيكولاس أر. ماركيز وصديقاه الصيدلاني ألفريدو باربوسا والجنرال المنفي ماركو فريتيس، إضافة إلى جميع أعضاء المجلس البلدي، بإرسال رسائل يُعلن فيها أن العسكر تصرفوا تصرفاً لا يشوبه أي عيب في أثناء حالة الحصار، وأنهم عملوا من أجل مصلحة الجماعة[44]. لا بد من أن هذا الأمر انطوى على انقلاب أخلاقي مؤلم وإحساس لا يحتمل إلى حدٍّ ما بالمهانة. واستغرقت حالة الحصار ثلاثة أشهر.

ترك الإضراب والمرارة التي أعقبته ندبة على الإقليم، ويظل اليوم واحداً من أكثر الأحداث المثيرة للجدل في تاريخ كولومبيا. وفي العام 1929، أصبح خورخه إليسير غايتان، السياسي الذي أدى مصرعه إلى إشعال شرارة تمرد مدني قصير الأمد،

ولكنه كان مدمراً وعرف باسم "العنف"، زعيماً وطنياً وهو في السادسة والعشرين من عمره، وذلك من خلال الحملة البرلمانية الكبيرة التي أطلقها ضد الحكومة والعسكر وشركة الفواكه المتحدة. وبعد زيارة موقع المذبحة والحديث إلى عشرات الأهالي، قدم تقريراً إلى مجلس النواب في بوغوتا، وتكلم لمدة أربعة أيام في أيلول سنة 1929 وكانت أشد الدلائل إثارة تلك الخاصة بجمجمة طفل ورسالة تشير بأصابع الاتهام موجهة من الأب أنغاريتا، ذلك الرجل الذي سيعمّد غابرييل غارسيا ماركيز بعد مرور بضعة أشهر[45]. ونتيجة لشهادة غايتان المثيرة أُلغيت أحكام السجن التي صدرت ضد العمال في ثيناغا. أما الليبراليون، فبالرغم من ضعفهم وسوء تنظيمهم على المستوى القومي، فقد اندفعوا إلى العمل وأصبحت لهم اليد الطولى في السياسة، وشرعوا في ارتقاء سلم السلطة حتى وصلوا الحكم في سنة 1930. إلا أن تلك المرحلة انتهت بمصرع غايتان في نيسان سنة 1948، وهو الحدث الأهم والأبعد مدىً في تاريخ كولومبيا في القرن العشرين.

فاق الكساد العظيم تدهور العلاقات بين شركة الفواكه المتحدة وعمالها، وأثر المذبحة في منطقة الموز، وهو الكساد الذي سيعم الإقليم ومجمل نظام التجارة العالمي. وقد أدى ذلك الكساد المدمر بالشركة إلى تقليص عملياتها إلى حدٍّ كبير، فرحل المديرون التنفيذيون والإداريون، وبدأت آراكاتاكا بانهيار كبير يتعذر وقفه، وتلك حقبة تتزامن بداياتها مع طفولة غارسيا ماركيز والسنوات الأخيرة من حياة جديدة.

-3-

رفقة جدّه

1929-1937

بالرغم من أن بذور انهيار آراكاتاكا كانت قد زُرعت، إلاّ أنها استغرقت سنوات قبل أن تتضح مضامينها الكاملة، فيما سارت الحياة على حالها كما في السابق في منزل العقيد. وفي ما وراء المستنقع الكبير، في بارانكيا، كان غابرييل إليخيو يعمل نهاراً في مخزن أدوات معدنية تديره شركة سنغر، لكنه فتح الآن صيدليته المتواضعة الأولى التي كان يحضر إليها مساءً وفي عطلات نهاية الأسبوع وتساعده فيها لويسا. لقد تحمل الشابان فقراً طاحناً، ولا بد من أن لويسا المدللة التي أَلِفَت اهتمام الأم والعمات والخدم وجدت الحياة بالغة الصعوبة.

اصطحب العقيد وترانكيلينا غابيتو إلى بارانكيا في تشرين الثاني عام 1929، بعد ولادة لويسا وهي ثالث أطفال مارغريتا في التاسع من ذلك الشهر. كانت ذاكرة الطفل الذي لم يتجاوز عمره السنتين ونصف السنة تنحصر أساساً في رؤية إشارات المرور الضوئية أول مرة. ثم عاد جداه إلى بارانكيا مرة أخرى في شهر كانون الأول عام 1930 بسبب ولادة عايدا روسا، وشاهد أول طائرة في مدينة كانت رائدة في الرحلات الجوية في كولومبيا(1). كما أنه سمع كلمة بوليفار للمرة الأولى لأن عايدا روسا قد ولدت في السابع عشر من كانون الأول، أي بعد مئة سنة تماماً من اليوم الذي توفي فيه المحرر الكبير، وكانت بارانكيا، شأنها شأن أميركا اللاتينية كلها، تحتفي بذكرى وفاته. ولم يحتفظ غابيتو بأي ذكريات كاملة عن أمه أو أبيه، إلاّ أن تلك الزيارات لا بد من أنها كانت مقلقة لطفل يحاول أن يفهم معنى العالم ومكانه فيه(2). وفي هذه المناسبة الأخيرة أصرَّت ترانكيلينا، وهي ترى مارغريتا

الـصغيرة طفلة رقيقة الصحة منطوية على نفسها، على إعادتها إلى آراكاتاكا كي تنشأ برفقة غابيتو[3].

هكـذا امتدت فترة تكوين غابيتو ونشأته منذ سن الثانية، عندما خرجت أمه للمـرة الثانية، سبع سنوات، بعد أن عاد والداه وأطفالهما إلى آراكاتاكا. تلك هي السنوات الخمس التي تشكل ذكرياتها أساس ماكوندو الميثولوجي التي عرفها القراء في مـا بعد في جميع أنحاء العالم. وبالرغم من عدم صحة وجود صلة له بأبويه، فإن الصحيح على وجه التأكيد هو أنه لم تكن له صلة مستدامة بأي منهما ولا بأي من أخـواته وإخوانه الجدد بعد العام 1928، لهذا ليس ثمة سبب لتكون لديه ذكريات دائمـة عـنهم. لقد كان أبواه الوحيدان هما جدّه وجدته وأما أخته الوحيدة فهي مارغـريتا التي تدعى الآن مارغوت، والتي لم تغدُ رفيقاً يبعث على الرضا إلاّ بعد بلـوغها سن الثالثة أو الرابعة، وفي تلك السن كانت بقية أفراد الأسرة قد أخذت بالعـودة إلى آراكاتاكا بحلول أواخر العام 1933. ويبدو من الواضح أن نيكولاس وتـرانكيلينا قررا أن يوضحا لغابيتو أن والديه قد سافرا (لكن، ما سبب سفرهما؟ وإذا كانـا قد سافرا، فمتى سيعودان؟) أو يلتزما الصمت تجاه جذوره. إن التفسير الأخـير هو الأقل مدعاة للألم على المدى البعيد. لا بد من أن هناك أطفالاً آخرين طـرحوا الأسئلة، ومن غير المحتمل أن يكون غارسيا ماركيز جاهلاً كما ظل يزعم دائمـاً. في الحقيقة من الصعب أن نتصور أنه لم يتذكر لويسا في أثناء أدعية ما قبل الـنوم على سبيل المثال. لكن من الواضح أن قضية أمه وأبيه كانت منطقة محظورة تعلّم كيف يقترب منها بأقل ما يمكن.

جـرى العرف في إسبانيا وأميركا اللاتينية أن يكون مكان النساء هو البيت ومكـان الرجال هو الشارع. ولكن جده العقيد هو الذي أنقذه تدريجياً من عالم النساء الزاخر بالخرافات والهواجس الداخلية وتلك الحكايات التي كانت تبدو نابعة من ظلمة الطبيعة نفسها، ووضعه في عالم الرجال الخاص بالسياسة والتاريخ، أي أنه أخـرجه إلى ضوء النهار، إن جاز التعبير (أود القول إن العلاقة بجدي كانت علاقة الحبل السري الذي أبقاني متصلاً بالواقع حتى بلغت الثامنة من عمري)[4]. وفي فترة لاحقة من حياته يتذكر بسذاجة مؤثرة جده على أنه "بطريرك البلدة الطبيعي"[5].

في الحقيقة، إن الرجال الذين كانوا يتمتعون بالسطوة فعلياً، مثل كبار ملاّك الأراضي، لم يحتلوا إلا نادراً مواقع سياسية إقليمية، مثل مدير الخزينة أو جابي الضريبة، إذ كانوا يفضلون تركها لأقرباء لهم أقل أهمية أو لممثلين سياسيين من الطبقة الوسطى يجهلون القانون عادة[6]. لقد كان من يُعيّن أي عمدة بلدية حكام يرشحهم السياسيون في بوغوتا بحسب مقتضيات المصالح المحلية، وكان يتعيّن على الليبراليين من أمثال نيكولاس ماركيز، أن يتعاملوا، بأساليب مذلة عادة، مع حزب المحافظين وغيره من القوى المحلية مثل شركة الفاكهة المتحدة. لقد كان مجمل النظام السياسي فاسداً جداً ويعتمد على العلاقات الشخصية وعلى مختلف أشكال الوصاية. وقد حصلت شخصيات محلية مهمة، مثل ماركيز، على امتيازات جانبية كاللحوم الطازجة وغيرها من الكماليات المرغوب فيها من مخزن شركة الفاكهة المتحدة لقاء الاعتماد عليه في المحافظة على النظام. وكانت أكثر ذكريات غابيتو ومارغوت الحيوية تتمثل بحملات جده صوب المخزن الذي كان يقع على الجهة المقابلة من بيتهم. لقد كان ذلك المخزن أشبه بكهف علاء الدين الذي يعود منه العقيد وغابيتو منتصرين ليفاجئا مارغوت ويجلبان لها الموادّ السحرية المصنوعة محلياً والمستوردة من الولايات المتحدة[7].

تنحصر مهمة مدير خزينة البلدية وجابي الضرائب بالحصول على الدخل البلدي - وفي بعض الأحيان الدخل الشخصي - من الأنماط المهمة للضريبة السائدة آنذاك، وبخاصة استهلاك الكحول، بمعنى أن دخل العقيد نفسه اعتمد اعتماداً كبيراً على الرفاهية المادية والنشوة الجسدية وما ينجم عنهما من تعدد الزوجات. ولا نعرف كيف كان نيكولاس يقوم بمهامه، غير أن النظام لم يكن ليسمح بحرية كبيرة في الاستقامة الشخصية[8]. وبعد عام 1930، وبمجيء الحزب الليبرالي إلى السلطة للمرة الأولى في خلال خمسين سنة، لا بد من أن الأمور تحسنت بالنسبة إلى نيكولاس الذي انهمك بكل نشاط في الحملة لانتخاب المرشح الليبرالي إنريكي هيريرا، لكن كل المعلومات المتوفرة لدينا تشير إلى أن أموره ازدادت سوءاً.

يتذكر غارسيا ماركيز: "لقد كان الشخص الوحيد في البيت الذي لم أكن أخشاه، وكنت أشعر دوماً أنه يفهمني وأنه يهتم بوظيفتي مستقبلاً"[9]. لقد كان

العقيد معجباً بالحفيد الصغير أيما إعجاب، وكان يحتفل بذكرى مولد نابوليوني الصغير كل شهر، ملبياً له كل طلب من طلباته، لكن غابيتو لم يرغب في أن يكون محارباً، ولا حتى رياضياً، وكانت تسيطر عليه طوال حياته أشياء مرعبة كالأشباح والخرافات والظلام والعنف والرفض[10]. وكانت هذه كلها عميقة الجذور في آراكاتاكا أيام طفولته المضطربة والمؤلمة. وبالرغم من ذلك، فإن ذكاءه ورهافة أحاسيسه، بل حتى نوبات غضبه بين حين وآخر، أثبتت كلها لجده المنهمك أن الطفل جدير به وربما كان من المقدّر له أن يصبح رجلاً عظيماً[11].

من المؤكد أن الطفل كان يستحق التعليم، فهو الذي سيرث ذكريات الرجل العجوز وفلسفته في الحياة والأخلاقيات السياسية ووجهة نظره عن العالم. أما العقيد نفسه، فسيحيا حياته من خلاله. فهو نفسه الذي أخبره عن حرب الألف يوم، وعن أفعاله وأفعال أصدقائه، وكانوا كلهم أبطالاً ليبراليين. كما أن العقيد هو الذي أخبره عن وجود مزارع الموز، وشركة الفاكهة المتحدة، وبيوت الشركة ومخازنها، وملاعب التنس، وأحواض السباحة، وأهوال إضراب عام 1928: معارك، ندوب، مشاجرات. عنف وموت. وحتى في ظل الأمن النسبي لبلدة آراكاتاكا، كان الرجل العجوز ينام دوماً ومسدسه تحت وسادته بالرغم من أنه توقف عن حمله في أثناء خروجه إلى الشارع إثر مقتل ميداردو[12].

عندما بلغ غابيتو السادسة أو السابعة من عمره، بات كولومبياً بكل ما للكلمة من معنى. وفكّر في أن جده كان بطلاً، لكن حتى هذا البطل نفسه كان معرضاً لنزوات المديرين الأميركيين والسياسيين المحافظين. لقد خسر الحرب ولم يكسبها، ولا بد من أن الصبي الصغير اعتقد، وإن على نحو بسيط، أن الشجار ليس عملاً بطولياً كما كان الآخرون يريدون منه أن يظن. فبعد مرور سنوات عديدة، كانت إحدى القصص الأثيرة التي تتداولها الأسرة تدور عن غابيتو وهو جالس يصغي إلى جده، فترمش عيناه باستمرار وينسى أين كان[13]. وتتذكر مارغوت: "كان غابيتو يقف دائماً إلى جانب جدي، يصغي إلى جميع حكاياته. وفي يوم ما أتى أحد الأصدقاء من ثيناغا، وكان رجلاً عجوزاً ممن شاركوا في حرب الألف يوم مع الجد. ووقف غابيتو والدموع تنهمر من عينيه بجانب السيد النبيل،

وتبين أن الكرسي التي أعطوها للرجل ليجلس عليها قد انغرست في حذاء غابيتو. كل ما فعله هو أنه التزم الصمت وتحمل الألم ووقف ساكناً إلى أن انتهت الزيارة، لأنه فكّر في سره: لو قلت شيئاً ما، فسينتبهان إليّ ويطردانني خارجاً"[14].

تخبرني والدته بعد أن تقدّم بها العمر: "كان غابيتو كبيراً دائماً، فعندما كان طفلاً كان يعرف أشياء كثيرة حتى بدا وكأنه رجل عجوز صغير. لقد أسميناه الرجل العجوز الصغير". كان معظم أصدقائه، طوال حياته، أكبر سناً وأكثر تجربة منه، وبالرغم من أفكاره السياسية الليبرالية التي انتهت أخيراً بالاشتراكية، فإنه كان ينجذب دوماً، واعياً أو غير واعٍ، إلى مزيج من الحكمة والقوة والسلطة بين زملائه. وليس من قبيل التخيل الاستنتاج بأن أحد أقوى الدوافع في حياة غارسيا ماركيز المتأخرة هي الرغبة في إعادة نفسه إلى عالم جدِّه.

غير أن أكثر الأشياء دواماً وحسماً هي أن العقيد وفَّر عدداً من المغامرات الرمزية والحوادث المنطبعة في الذاكرة التي ستظل مستقرة في خيال الحفيد حتى يصهرها كلها، بعد مرور سنوات طويلة، في صورة محددة الملامح في السطر الأول من أكثر رواياته شهرةً. وفي يوم ما، وكان الطفل لا يزال صغير السن، اصطحبه الرجل العجوز إلى مخزن الشركة ليشاهد السمك المتجمد في الثلج. وبعد سنوات طويلة يتذكر غارسيا ماركيز: "لمست السمكة، وشعرت وكأنها تحرقني. لقد احتجت إلى الثلج في أول جملة من **رواية مئة عام من العزلة** لأن الثلج سحري في أشد مدن العالم حرارة، ولو لم يكن الجو حاراً لما نجح الكتاب، ولما كانت قد أصبحت بذلك حارة جداً. فإنه لم يعد ضرورياً، أن أذكره مرة أخرى، فهو في قلب الطقس"[15]. كذلك: "فإن الصورة الأولى في **مئة عام من العزلة** موجودة أساساً في رواية **البيت** وهي محاولة غارسيا ماركيز الأولى في كتابة الرواية، ثم في **عاصفة الأوراق**. كان كل يوم يُعدّ اكتشافاً من خلال زياراته لشركة الموز وزياراته لمحطة سكة الحديد. أدخلت شركة الموز السينما والمذياع وغيرهما. ووصل السيرك مع جمل عربي، والأسواق الخيرية، ودولاب الحظ، وسكة حديد مدينة الملاهي، وحفلات المجون. وكان جدي يمسك بيدي دائماً ويأخذني لمشاهدة العروض: أخذني إلى دار السينما، وبالرغم من أنني لا أتذكر الأفلام، إلا أنني أتذكر اللقطات.

لم تكـــن لجدي أي فكرة عن الرقابة، ولهذا شاهدت كل أنواع الصور، لكن أكثر الـــصور الحـــية والـــتي ظلت تتكرر في مخيلتي هي صورة رجل عجوز يقود طفلاً بـــيده"[16]. في آخر الأمر، وفي ذلك السطر الأول من أشهر رواياته – بعد سنوات طويلة، وأمام فصيل الإعدام، تذكر العقيد أوريليانو بويندیا عصر ذلك اليوم البعيد الـــذي اصطحبه فيه أبوه كي يرى الثلج – وقد حوَّل المؤلف مختلف الصور الخاصة بحملاتـــه برفقة جده إلى تجربة تحدد هوية الذات، تجربة يملكها ابن متخيل مع أبيه، وبهذا يؤكّد بسموّ، أن نيكولاس لم يكن جده وحسب، بل كان أيضاً الأب الذي شعر أنه لم يحظَ به البتة.

هكذا عاش الصبيّ زهاء عقد من الزمان مع الرجل العجوز، وكان في معظم الأيام يخرج ليتجوّل معه في أرجاء البلدة. وكان أحد الأماكن المفضلة التي يذهبان إليها سيراً على الأقدام في أي يوم ثلاثاء هو دائرة البريد للتأكد من وجود أي أخبار عـــن تقاعد العقيد من الحرب التي دارت رحاها قبل خمس وعشرين سنة، لكن لم تكن هناك أي أخبار، وتلك حقيقة ولّدت انطباعاً كبيراً لدى الصبيّ[17]. أما المكان المفضل الآخر فهو الذهاب إلى محطة القطار ليتسلّم الرسالة اليومية من الخال خوانيتو خوان دي ديوس ابن العقيد لأن الرجلين كانا يتراسلان يومياً؛ عموماً عن الأعمال الـــتجارية وحركة الأقرباء والمعارف المشتركين[18]. كانا ينطلقان من المحطة ليعودا أدراجهما سيراً على الأقدام صوب شارع قصير سمي باسم اليوم الوطني للبلاد وهو كاميون 20 تموز حيث تقع فيه مدرسة مونتيسوري (وكان الجنرال خوسيه ديوران صديق نيكولاس الطيب هو الذي تبرع بقطعة الأرض لبنائها عليها)[19]. ثم يسيران صوب شارع الأتراك ويمران بالأركان الأربعة وبصيدلية ألفريدو باربوسا ليعودا بعد ذلـــك إلى المنــــزل في الـــدوار السادس بين الشارعين السادس والسابع، أو قد يواصلان سيرهما من أمام المنـــزل ومقر الحزب الليبرالي نحو أبرشية سان جيمز، التي لا تزال قيد الإنشاء، ذات الصحون الثلاثة والمقاعد الخشبية الثمانية والثلاثين. (كان غابيـــتو صبـــي المذبح يومئذ، يذهب إلى القداس دائماً ويرتبط ارتباطاً وثيقاً بأمور الكنيسة طوال سني طفولته)[20]. وكانا يسيران أيضاً على الجهة الأخرى من ميدان بولـــيفار حـــيث تحط العقبان على المباني المحيطة، ويتوجهان صوب دائرة التلغراف

حـــيث كان غابرييل إليخيو يعمل، بالرغم من أننا لا ندري إن كانت هذه الحقيقة سبق أن ذُكرت أم لا. وعلى مسافة غير بعيدة تقع المقبرة على امتداد شارع تحفّ به أشـــجار النخـــيل - حيث دفن فيها الجنرال ديوران والتاجر المحلي خوسيه فيدال داكـــونتي، والعمة وينفريدا - كما أصبح ذلك الريف المفتوح يوماً مار بغاباته، ثم بمراعـــي الماشية، ريفاً مغلقاً بسبب انتشار مزارع الموز اللامتناهية وهندسية الشكل تماماً.

لقد ساعدت سيدة فنـــزويلية غابيتو على دخول العالم، وتدعى هذه السيدة خـــوانا دي فـــريتيس وهـــي زوجة الجنرال المنفي ماركوس فريتيس الذي اصطدم بالدكـــتاتور فايـــسنت غوميث، فأصبح مدير مخازن شركة الفاكهة المتحدة وكان منـــزله جزءاً من مجمع مكتب الشركة. ولم تكن السيّدة فريتيس حاضرة حضوراً لا يقـــدر بـــثمن عند ولادة غابيتو وحسب، وإنما قصت في ما بعد أيضاً عليه وعلى أصدقائه حكايات كلاسيكية عن الجنيات - وكلها تقع في كاراكاس! - مما أسهم في حبه الذي أخذ يكنه طوال حياته للعاصمة الفنـــزويلية[21]. وثمة فنـــزويلي آخر يقطـــن في الجهـــة الأخـــرى من الشارع الطيني الذي يقع فيه بيت غابيتو، وهو الصيدلاني ألفريدو باربوسا، وكان ضحية من ضحايا غوميث. وكان يشتغل بصفة طبـــيب البلدة إثر وصوله قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى وتزوج بامرأة من أهالي المنطقة تدعى أدريانا بيردوغو. وكانت صيدليته هي الصيدلية الرئيسية في البلدة إبان ازدهـــار زراعة الموز، لكنه تعرض في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين لنوبات من الكآبة، وأمضى أياماً طويلة متكاسلاً يتأرجح في أرجوحته[22].

هـــناك أيـــضاً حضور أكثر بعداً وبرودة يتمثل بالأجانب العاملين في شركة الفاكهـــة المتحدة والذين يسكنون في المكان الذي سيصطلح على تسميته غارسيا ماركيز في ما بعد اسم بيت *الدجاج المكهرب* التابع لمجمع الشركة الذي تنتشر فيه بـــيوت مكيفة الهواء، وأحواض السباحة، وملاعب التنس، والحشائش الجميلة. لقد غيرت هذه المخلوقات القادمة من العالم الآخر مجرى النهر وأشعلت شرارة إضراب عام 1928 وما أعقبه من مذبحة. كما أن هؤلاء الناس هم الذين شقوا قناة بين نهرين تسبّبت في أثناء العواصف المطيرة التي هبت في تشرين الأول عام 1913 بفيضانات

مدمـــرة حـــدَّق إليها غابيتو، ابن السنوات الخمس، وهو مسمر في مكانه من فوق شرفة بيت جده[23].

كـــان أنطونيو داكونتي فاما، الإيطالي، قد وصل المنطقة عقب الحرب العالمية الأولى، وأحضر معه الأفلام الصامتة وعرضها في دار عرض أوليمبيا السينمائية التابعة له، كما أحضر أيضاً الغرامافون والمذياع وحتى الدراجات الهوائية التي كان يؤجرها للسكان الذاهلين لمرآها. لقد عاش أنطونيو داكونتي بالتناوب مع شقيقتين اثنتين، لم تـــنجب أولاهما له إلا الأبناء و لم تنجب الأخرى سوى البنات[24]. ولا يزال يعيش في آراكاتاكا العديد من آل داكونتي حتى هذا اليوم.

كانـــت بعض ذكريات غابيتو العالقة في ذهنه أكثر من سواها هي تلك التي تخـــص *الرجل الفرنسي*، لكنه بلجيكي حقاً يعرف باسم دون إميليو، حطَّ رحاله بدوره عقب الحرب العالمية الأولى معتمداً على عكازين، وكان مصاباً بطلق ناري لا يـــزال أثره واضحاً على ساقه. كان دون إميليو جوهرياً موهوباً وصانع خزائن، وبـــدأ يلعـــب الـــشطرنج والورق مع العقيد ذات مساء إلى أن حلَّ يوم توجه فيه لمشاهدة الشريط السينمائي، "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"، وبعد عودته إلى بيته انتحر باستعمال مادّة السيانيد[25]. فرتب العقيد الجنازة وانتهت كلها **بعاصفة الأوراق** (حيث يمثله الطبيب المتماثل جزئياً مع الصيدلي الفنـــزويلي المثير للاكتئاب ألفـــريدو باربوسا) **وبالحب في زمن الكوليرا** (حيث يمثله إرميا دي سانت آمور). ويـــستذكر غارسيا ماركيز: "أُبلغ جدي بنبأ انتحاره يوم أحد من شهر آب حينما كـــنا خارجين من حضور قداس الساعة الثامنة. وجذبني إلى بيت البلجيكي حيث كان العمدة وشرطيان ينتظرون. وكان أول شيء أثار انتباهي في الحجرة المهملة غير المرتبة هي الرائحة النفاذة للوز المر المنبعث من السيانيد الذي تنشقه كي يقتل نفسه. كانت الجثة فوق سرير يُطوى مغطاة ببطانية، وإلى جانب السرير كرسي خشبـــي وضـــعت فوقه صينية كان قد تبخر عنها السُّم، وقصاصة ورق خُطَّت عليها بعناية رســـالة جاء فيها: "لا أحد يتحمل اللوم، فقد انتحرت لأنني غير نافع". إنني أتذكر الـــواقعة وكأنهـــا حـــدثت بالأمس عندما رفع جدي البطانية. كان الجسد عارياً، متخشباً وملتوياً، بشرته شاحبة، وثمة ضمّادة صفراء اللون. أما عيناه الغائمتان فكانتا

تنظران إليّ كأنه لا يزال على قيد الحياة. عندما شاهدت جدتي الملامح التي كانت مرتسمة على وجهي إثر عودتي إلى البيت توقعت قائلة: "لن يتمكن هذا الطفل المسكين من أن ينام نوماً هانئاً طوال حياته"[26].

ليس ثمة سبب يدفع للاعتقاد أن جثة دون إميليو سكنت خيال الصبي الحساس في أثناء طفولته، والتحمت مع جثث أخرى شاهدها أو تخيلها لا أكثر. صحيح أنها حاضرة في أول قصة منشورة له عندما كتب عن تأملات في حاله وهو جثة قوية (أو ربما جثة سابقة). وحتى بعد صدور **عاصفة الأوراق** التي يُشكل فيها موضوع الدفن المثير للخلاف جوهر العنصر الدرامي في الرواية، فتظهر مرات ومرات من تحت سطح وعيه المصدوم. ربما كان ذلك الحجاب الذي يستر جثة العقيد نفسه التي لن يراها غابيتو.

كان العقيد يصطحب أحياناً غابيتو في جولة أخيرة قبيل موعد نومه: "كانت جدتي تحقق معي كثيراً عندما أعود إلى البيت إثر السير مع جدي مساءً. كانت تسألني عن المكان الذي ذهبنا إليه وعن العمل الذي قمنا به. أتذكر أنني مررت بأحد المنازل مع أناس آخرين وشاهدت جدي يجلس في الردهة. شاهدته عن بعد مسافة جالساً وكأنه في منزله. ولسبب ما، لم أذكر لجدتي شيئاً عن الأمر. لكنني أعلم الآن أن المنزل كان منزل إحدى عشيقاته وهي امرأة كانت تريد رؤيته عندما توفي غير أن جدتي حالت دون دخولها البيت قائلة إن الجثث مخصصة للزوجات الشرعيات وحسب"[27]. المؤكد تقريباً أن المرأة التي لم تسمح لها بالدخول لرؤية جثة نيكولاس هي إيزابيل رويث التي يبدو أنها انتقلت إلى آراكاتاكا في عشرينيات القرن العشرين[28]. وكانت ثمة فتاة في صفه في المدرسة قالت له ترانكيلينا إن عليه أن يقطع صلته بها: "لا ينبغي لكما الزواج أبداً". غير أن الصبي لم يفهم هذا التحذير حتى وقت متأخر من حياته[29].

في حين كان غابيتو والعقيد يمضيان سيراً على الأقدام ويسلمان على رفاق العقيد ومعارفه، كانت النساء في البيت منهمكات في ترتيب الضيافة التي يخص بعضها وصول الوجهاء ورفاق العقيد منذ أيام الحرب أو رفاق حزبه الليبرالي. كان الشيء الكثير يتعلق بكيفية التعامل مع ثمار أفعاله السيئة الماضية، في حين كان

القادمـــون يفـــدون على البغال، ثم يترجلون عنها ويربطونها خارج البيت في الجهة الخلفـــية، وينامون فوق أرجوحات في *الفسحة*[30]. غير أن الكثيرين من الضيوف كانوا يأتون بالقطار: "كان القطار يصل عند الساعة الحادية عشرة من صباح كل يـــوم، وكانت جدتي تقول دائماً: *يجب أن نعد السمك واللحم لأنك لن تعرف إن كـــان القادمون يفضلون اللحم أم السمك*، وهكذا كنا متحمسين دائماً لمشاهدة هؤلاء الوافدين"[31].

لكـــن مـــع بدايـــة عقد الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ كل شيء يتغير، فإضـــراب عمال مزارع الموز والمذبحة والكساد العظيم في العام 1929 كلها قلبت موازين الأمور، وانحسرت تلك الفترة القصيرة من الازدهار التي شهدتها آراكاتاكا لـــتحل محلها بدايات الانهيار. وبالرغم من المذبحة والامتعاض الذي شعر به الجميع إزاء الغطرســـة العامـــة لشركة الموز، فإن وجود الشركة في آراكاتاكا ظل الناس يتذكرونه بحنين طوال نصف قرن. وكانت هناك أحاديث كثيرة يتداولها الناس عن احـــتمالات عودتها مُعيدة معها الأيام الخوالي الطيبة التي كان يسهل فيها الحصول علـــى المـــال وعلى الحماسة الدائمة[32]. وانخفض دخل نيكولاس من المشروبات وغيرها من المصادر انخفاضاً كارثياً، ولم يمضِ وقت طويل حتى تحول مصدر الدخل إلى قطرات ضئيلة بعد أن كان نهراً سيالاً. أما بخصوص أسرة ماركيز إغواران، فإن الإحـــساس الـــدائم أن أفضل أيام آراكاتاكا هي الأيام الماضية. وبدأ العوز والفاقة يلوحان على وجهي نيكولاس وترانكيلينا، اللذين لم يكن لهما أي مرتب تقاعدي، وهما يدخلان مرحلة الشيخوخة القلقة والمخيفة.

* * *

في مطلـــع العام 1924، عادت لويسا إلى آراكاتاكا لرؤية ابنها البكر وابنتها وللتحدث إلى والديها. لم يكن لقاؤها بهما لقاءً سهلاً في كل الأحوال. إذ لم يغفر لهـــا والـــداها قـــط عصيانها إياهما وتلطيخ سمعتيهما وإحضار صهر غير مقبول إلى الأسرة. وفي العام 1933 أصبحت الأمور لا تبعث على أي أمل في بارانكيا، ولعلها أقـــنعت غابـــرييل إليخيو بالسماح لها بالتفاوض من أجل الرجوع إلى آراكاتاكا. فوصـــلت في وقـــت متأخر من صباح أحد الأيام مستقلة القطار القادم من ثيناغا.

كانت مارغوت جزعة بسبب أمها المجهولة، وخافت أن تأخذها بعيداً[33]. فاختبأت بين ملابس جدها. أما غابيتو الذي بلغ السادسة من عمره، وشعر بالحرج عندما رأى خمس أو ست نساء في الحجرة و لم تكن لديه فكرة عمّن تكون أمه إلى أن أشارت إليه أن يتقدم نحوها[34].

في الوقت الذي تعرف فيه غابيتو إلى لويسا، كان قد بدأ تعليمه في المدرسة الجديدة - التي سميت باسم ماريا مونتيسوري وتستند إلى مناهجها - على مقربة من محطة سكة الحديد في شارع كاميون 20 تموز. لم يكن نظام مونتيسوري، المحدد أصلاً بنشاطات أطفال الروضة، مؤذياً إلا قليلاً ما دام التعليم الكاثوليكي الجيد يبدأ من المستوى الابتدائي. وتؤكد المناهج على قدرات الطفل الإبداعية والرغبة الفطرية في النمو والتعلّم وعلى التفرد. كانت تعلّم الأطفال المبادرة والتوجيه الذاتي من خلال وسط يخص مشاعر الطفل نفسه. ويقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق إن الأمر كان "يشبه اللعب على حيوية الفرد"[35].

كما حدث، كانت معلمة غابيتو الأولى روسا إلينا فيرغسون هي عشيقة والده الأولى في آراكاتاكا (أو هكذا زعم غابرييل إليخيو) ولعل غابيتو لم يعرف بهذا الأمر أيضاً. ويقال إن روسا إلينا المولودة في ريوهاتشا كانت سليلة أول قنصل بريطاني في المدينة، وإنها تتصل بصلة قربى بالعقيد وليم فيرغسون أحد موظفي بوليفار. وكانت قد تلقت تعليمها في كلية المعلمين في سانتا مارتا ولحقت بأسرتها إلى آراكاتاكا حيث اشتغل والدها وجدها في شركة الفاكهة المتحدة وأصبح أحد أقربائها عمدة[36]، هناك افتتحت مدرسة مونتيسوري في العام 1933. واضطر غابيتو إلى إعادة الدراسة في السنة الأولى لأن المدرسة أُغلقت لأسباب عملياتية في منتصف السنة، لذلك لم يتعلم القراءة والكتابة حتى بلغ الثامنة من عمره في العام 1935.

تُوِّجت روسا إلينا، وهي الفتاة الرشيقة والرقيقة والجميلة، مرتين ملكة جمال المهرجان في آراكاتاكا. كانت متيمة بالشعر الإسباني في العصر الذهبي وهو الشعر الذي أصبح فيه تلميذها المبكر النضوج شغوفاً به طوال حياته[37]. وكانت حبه الطفولي الأول - وكان يشعر بالنشوة والحرج في آن واحد عندما يكون قريباً

مـــنها جسدياً – وشجعته على حب اللغة والشعر. وبعد ستين سنة تستذكر روسا إليـــنا بكـــل حيوية تلميذها السابق المشهور: "كان غابيتو أشبه بدمية، شعره بلون الـــسكر الـــبني المخفوق، بشرته شاحبة ووردية في آن واحد، وهو لون غريب في آراكاتاكـــا، وكان نظيفاً ومرتباً دائماً"[38]. أما غارسيا ماركيز فقال من جهته إن الآنسة فيرغسون "زرعت فيَّ متع الذهاب إلى المدرسة لرؤيتها وحسب"[39]. وعندما كانـــت تطوقه بذراعيها لتمسك بيده وتساعده على الكتابة كانت تنتابه أحاسيس مضحكة "لا سبيل إلى تفسيرها"[40]. وتتذكر الآنسة فيرغسون: "كان هادئاً، نادر الكلام، خجولاً جداً جداً. وكان زملاؤه في الصف يحترمونه لانكبابه على الدرس وأناقـــته وذكائـــه، لكنه لم يعشق الرياضة قط. وافتخر كثيراً كونه أول من ينفذ التعلـــيمات"[41]. هذا وقد علّمت غابيتو عادتين مهمتين: الدقة في المواعيد، وتقديم أوراق مكتوبة بلا أي خطأ، وهما هاجسان لازماه طوال حياته.

لم يظهـــر غابيتو سابقاً قدراً كبيراً من النشاط في القراءة والكتابة وأخفق في التعلم في البيت[42]. لكن قبل أن يبدأ تعلم القراءة والكتابة بزمن طويل، علّم نفسه الرســـم وظل هذا النشاط أثيراً إلى نفسه حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره. وعندما كـــان لا يـــزال طفـــلاً صغيراً جداً، سمح له الرجل العجوز بالرسم على جدران المنـــــزل. والأهـــم مـــن هذا كله، أنه أحبَّ رسم المصوَّرات الهزلية – والقصص القـــصيرة – نقـــلاً عن صحف جده[43]. كما أنه أعاد سرد موضوعات الأشرطة السينمائية التي كان العقيد يصطحبه لمشاهدتها: "كان يصطحبني لمشاهدة كل أنواع الأشرطة السينمائية، وأتذكر على وجه الخصوص دراكولا... وفي اليوم التالي يطلب مـــني أن أروي له قصة الشريط ليتأكد إن كنت منتبهاً أم لا. لهذا، فإنني لم أرسخ الأشـــرطة في ذهني وحسب، بل اهتممت أيضاً بمعرفة الطريقة التي أرويها بها لأنني كـــنت أعلـــم أنه سيضطرني إلى أن أحكيها له حدثاً حدثاً ليتأكد من فهمي"[44]. وهكـــذا أخذت النشوة الطفل الصغير وهو يشاهد الأشرطة السينمائية، وكان أحد أفـــراد الجـــيل الأول في التاريخ الذي كانت السينما، بما فيها الأشرطة السينمائية الـــناطقة، تمـــثل له تجربة تسبق الأدب المكتوب. ثم علّمه العقيد بعد ذلك احترام الكلمـــات والمعجم الذي كان يعرف *كل* شيء وكان أكثر عصمة عن الخطأ من

البابا في روما[45]. ولا بد من أن الشعور الدائم بالاستكشاف والتقصي الذي عزّزه نظام مدرسة مونتيسوري كان مكملاً تماماً لشعور نيكولاس الأشد تقليدية باليقين والمرتكز في السلطة والقوة الشخصية.

لكــن حــدث الآن تحول غير متوقع في حياة غابيتو ومارغريتا، إذ لم يكن غابــريل إليخــيو، بالغ الحيوية دائماً والمتسرع أبداً والمفتقر إلى الموهبة في الشؤون المالــية، قــادراً على البدء من الصفر في مدينة حيوية مثل بارانكيا وهي تنعم بأول موجة من الازدهار عندما انتقل للعيش فيها. لهذا، فمن المرجح أكثر أن تسير الأمور نحــو الحضيض عندما يؤثر الكساد في كولومبيا. لقد أفلح في الحصول على رخصة صــيدلي، وتــرك عمله في مخزن الأدوات المعدنية ليؤسس له متجرين وليس متجراً واحــداً لبيع الأدوية في وسط المدينة أسماهما باستور الأول وباستور الثاني[46]. لكن هــذا المشروع أخفق، فعادت الأسرة إلى آراكاتاكا مشتتة، فقد وصلت لويسا أول الأمــر برفقة لويس إنريكي وعايدة روسا وسكنوا في بيت العقيد. وبالرغم من أن ثلاث سنوات كانت قد مرَّت على لويسا كاستراحة بين حملها الأخير حيث كانت قــد أنجبت أربعة أطفال في أقل من أربعة أعوام وبين حملها بعايدة روسا في كانون الأول ســنة 1930، فإنها الآن حامل مرة أخرى. وكان غابرييل إليخيو، الذي كان منــشغلاً دومــاً بأعمال أخرى، بعيداً عن البلدة لأشهر طويلة حتى عاد آخر الأمر لحــضور ذكــرى ميلاده في الأول من كانون الأول سنة 1934، بعد ولادة الطفلة الثالثة ليخيا في شهر آب[47].

شــكّل وصــوله واحداً من التواريخ القليلة لتلك السنوات المبكرة التي يمكن تحديــدها تحديــداً صحيحاً لأن غارسيا ماركيز يتذكر جيداً وصول رجل غريب: "رجل رشيق واسمر اللون ومهزار ويبعث على السرور ببذلة بيضاء وقبعة من القش تدل كل بوصة فيه على أنه كاريبــي من ثلاثينيات القرن العشرين"[48]. كان ذلك الغــريب والده. ويرجع السبب في قدرة غارسيا ماركيز على تحديد التاريخ تحديداً تامــاً إلى أن شخصاً ما تمنى لغابرييل إليخيو ذكرى ميلاد سعيدة، وسأله عن عمره فأجابــه غابــرييل إليخيو المولود في الأول من كانون الأول 1901: "عمري بعمر المــسيح". وبعد مرور بضعة أيام كانت أول رحلة للصبــي مع أبيه الجديد لشراء

هدايا الميلاد من السوق لجميع الأطفال. ربما اختار غابيتو أن يشعر أنه يتمتع بامتياز بهــذه التجــربة، إلا أن الــشيء الذي يتذكره على نحو جيد عوضاً عن ذلك هو إحساسه بالخيبة لإدراكه أن من يأتي بالهدايا في الميلاد ليس سانتا وإنما الوالدان[49]. هــذا وسيخيّب الأب ظن ابنه مراراً في السنوات - والعقود - التالية، ولن تكون علاقتهما علاقة سهلة ولا حتى وثيقة.

افتتح غابرييل إليخيو صيدليته الجديدة بالاسم "غ. غ." (غابرييل غارسيا) في مطلــع العام 1935، وأفلح في إقناع السلطات الطبية بمنحه رخصة محددة لممارسة الطــب التجانــسي الــذي كان يسمح له بتشخيص المرضى ومعالجتهم ووصف علاجاتــه المــشعوذة وبيعها بوصفها العلاج الشافي الوحيد للآلام التي يشخصها. وكـــان يــنقب في المجــلات والجرائد الطبية، ويجري تجاربه التي يقشعر لها البدن. وســرعان ما ابتكر ما أسماه المزيج الطمثي تحت عنوان "غ. غ." وهي نكتة مبتذلة جديــرة بخوســيه آركاديو بوينديا في **مئة عام من العزلة** ذلك الحالم العاجز الذي يحمــل، على نحو لا يقبل الخطأ، العديد من آثار جد غارسيا ماركيز المميزة وغير العملــية الــتي بالرغم من ذلك لا يمكن كبحها. لم يكن سوى بقاء قلق محفوف بالمخاطر، وكانت الإعانات المتواصلة من العقيد ماركيز، الذي ازداد عوزه، مهينة ولكــنها ضرورية. وقبل رجوع غابرييل إليخيو، كانت لويسا قد انتقلت إلى هذا المكــان لتقيم بصورة مؤقتة مع أبويها في ظل غياب زوجها صعب المراس وغريب الأطــوار[50]. وتذكــرت روسا إلينا فيرغسون أن نيكولاس بدأ يوسع البيت كي يكفــي القادمين الجدد؛ ربما مؤملاً ألاّ يرجع صهره غير المرغوب فيه[51]. لكن بعد عودة غابرييل إليخيو، استأجر وزوجته منــزلاً يفصله عن منــزل العقيد شارعان وفي ذلك المنــزل ولد الطفل السادس غوستافو في السابع والعشرين من شهر أيلول سنة 1935.

في بــيت الوالدين الشابين الكادحين نشأ لويس إنريكي وعايدة روسا نشأة الأطفــال الطبيعــيين الموفوري الصحة الذين لا ينصاعون إلى نظام، وكانا حيويين خالــيين من العقد. أما غابيتو ومارغوت فنشآ في ظل أناس كبار السن، واكتسبا وجهات نظر مختلفة، خرافية، قدرية، مفزعة ومتسلطة على العقل والتفكير ولكنها

فعَّالة أيضاً. وسلك الاثنان سلوكاً حسناً وإن كانا وجلين، هيابين، يمضيان وقتهما في البيت أكثر مما يمضيانه في الشارع بخلاف لويس وعايدة اللذين كانا يمضيان أكثر الوقت في فناء البيت والشارع[52]. ولا بد من أن غابيتو ومارغريتا شعرا على الفور أن والـــديهما تــــركاهما على نحو يتعذر تفسيره - لِمَ أنا؟ لِمَ نحن؟ - لكنهما كانا يمـــتازان بـــرعاية داخل بيت الجدين المحبوبين والمحترمين كثيراً. إن هذين الغريبين، مارغـــوت وغابيتو، هما اللذان سيتمكنان من تدبير أمور أسرة غارسيا وماركيز من دون اللجوء إلى الاستدانة.

كان التكيف مع الوضع الجيد بالغ الصعوبة[53]. وتتذكر عايدة أن غابيتو كان غيوراً جداً من مودة جدَّيه وكان يراقب كل شيء وكل فرد عندما تزوره ذريته في البيت محاولاً الاطمئنان إلى أنهم سيمكثون أقل مدة ممكنة. ما من أحد سيحول بينه وبـــين جده. ويتذكره أنطونيو باربوسا، ابن الصيدلي الذي يقطن في الجهة المقابلة، ويكـــبر غابيتو بعشر سنوات، ولكنه صديق الأسرة الطيب، عندما كان صبياً وجِلاً يلعب مع المتفوقين بالطائرات الورقية، ولكنه لم يلعب قط لعبة كرة القدم مع أطفال الشارع[54].

عندما لم يلقَ غابيتو التشجيع ليصبح مغامراً انهمك في دنيا الخيال؛ من خلال الرســـم والقراءة والذهاب إلى دور السينما وصلاته بالكبار. ويبدو أنه أصبح مختالاً مـــن نمط ما، يحاول دائماً أن يثير إعجاب الزوار بأفكاره الخيالية وحكاياته المسلية، تلـــك الحكايات التي من شأنها أن تغدو حكايات طويلة كي تحقق الأثر المقصود. وكانـــت ترانكيلينا مقتنعة كلّ الاقتناع أنه مشعوذ. وقد فسَّر بعض البالغين شغفه بـــسرد الحكايـــات والفانتازيا على أنه ميل إلى الخداع وعدم الأمانة. ولهذا السبب ظلت تلازم غارسيا ماركيز طوال حياته مشكلة استفسار الناس الآخرين عن صحة أقـــواله[55]. وربمـــا مـــا من أديب معاصر تطرح مؤلفاته مثل هذا الطرح القوي والغامض العلاقة بين الحقيقة والخيال، والاحتمال واليقين، التي اتصفت بها أعماله.

ظـــل الطفـــلان الأكبر سناً ملكاً لجديهما، وهو ما توضحه حكاية بليغة من مارغوت: "لم يسمح الجد لأي شخص أن يطلب منا الخروج. وأتذكر أننا في يوم مـــن الأيام، وكنا أكبر سناً، أنه سمح لنا بالذهاب إلى منـــزل أمنا وحدنا. وعندما

انطلقنا عند الساعة العاشرة تقريباً من صباح ذلك اليوم، كانت جدتي تقطع الجبن فطلبنا منها قطعة. ووصلنا البيت ولاحظنا أن لويس إنريكي وعايدة ممتنعين عن الطعام لأنهما تناولا دواءً مضاداً للطفيليات ولا يمكنهما تناول أي طعام لبضع ساعات. من الطبيعي أنهما كانا يتضوران جوعاً، وعندما شاهدا قطعة الجبن طلبا قليلاً منها. ولما اكتشف والدي الأمر ثارت ثائرته وبدأ يشتمنا، وقال غابيتو: *اهربي يا مارغوت فسيضربنا*، ثم أمسك بيدي، وأطلقنا سيقاننا للريح. وصلنا المنزل فزعَين وكنت أنا أبكي. ولما أخبرنا جدِّي بما حدث ذهب ليسأل أبي عن سبب صراخه في وجهينا، ولماذا هددنا[56].

في العام 1935، بدأ العالم القديم يصل إلى نهاية مطافه حقاً. ففي يوم ما، وكانت الساعة السادسة صباحاً، تسلق نيكولاس، وكان قد تجاوز السبعين من عمره، سلماً على أحد جوانب البيت ليعيد ببغاء الأسرة الذي انحشر بين الأكياس الموضوعة فوق خزانات الماء الكبيرة التي وضعت كي تحول دون سقوط أوراق شجر المانجا داخل الخزانات. لكنه أخطأ في وضع قدمه، فزلّت وسقط على الأرض يكاد لا يُسمع له نفس. وتتذكر مارغوت أن الجميع بدأوا يصرخون قائلين: *لقد سقط! لقد سقط*![57] ومنذ تلك اللحظة بدأت صحة الرجل العجوز الجسدية تتراجع بالرغم من أنه كان حتى ذلك الوقت موفور الصحة والعافية إلى درجة معقولة. وهناك شاهد غابيتو، وهو يتجسس عند زيارة الطبيب، أثر رصاصة في منطقة ما بين الفخذين، دليلاً لا سبيل إلى نكرانه على أنه كان محارباً. لكن المحارب القديم لم يعد كما كان منذ تلك السقطة، إذ بدأ يسير متكئاً على عصا، وبدأ يعاني سلسلة من الأمراض التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى وفاته. وبعد تلك الحادثة، توقفت حالات المشي في أرجاء البلدة فجأة، وبدأ سحر تلك العلاقة التي تربط الصبيّ بجده - المستندة قبل كل شيء إلى الشعور بالأمان - يفقد بريقه. ووصل الأمر بالعقيد إلى أن يطلب من غابرييل إليخيو ولويسا جباية الضرائب وغيرها من المبالغ واجبة الدفع بالإنابة عنه، فكان ذلك ضربة مُذلة لكبريائه.

في مطلع العام 1936 انتقل غابيتو إلى المدرسة الرسمية في آراكاتاكا[58]، وكان قد بات فجأة قارئاً نهماً. يذكر أن جدَّه والآنسة فيرغسون فتّحا عينيه على المعرفة،

وبدأ المعجم يرسم القانون له، إلا أن أكثر كتاب حفّز خياله كان كتاب ألف ليلة ولـــيلة الذي عثر عليه في أحد صناديق جدِّه القديمة. ويبدو أن ذلك الكتاب وضع تفسيره لأشياء كثيرة مرَّ بها في آراكاتاكا في تلك الأيام التي كانت مزيجاً من سوق فارسية وغرب قفر. ولم يعرف عنوان الكتاب لمدة طويلة لأن غلافه كان مفقوداً، ولمـــا اكتشف العنوان، لا بد من أنه وجد الصلة بين كتاب ألف ليلة وليلة الطريف والميثولوجي وحرب الألف يوم ذات المسحة المحلية والتاريخية الكبرى[59].

وبعـــد أن أضحى العقيد مريضاً فعلاً، شعر غابرييل إليخيو أنه قادر على أن يرسخ حقوقه لطفليه. وهكذا، ما إن تعلّم غابيتو القراءة والكتابة، بما تنطويان عليه من أعاجيب، حتى قرر والده المغامر الذي لا يعرف الراحة أن ينتقل بالأسرة بعيداً صوب سينثي، البلدة التي ولد فيها. وسينتقل في هذه المرة أيضاً غابيتو، ويبتعد عن بيته مع جدَّيه وأخته مارغوت حيث سيصطحبهما هذا الرجل الذي نادراً ما عرفاه والـــذي قرر أن سجية ابنه الوحيدة هي أنه وُلِد كذّاباً، وُلد "ليذهب إلى مكان ما ويـــشاهد شيئاً ما ليعود بعد ذلك إلى البيت فيحكي قصة مختلفة تماماً. لقد بالغ في قول كل شيء"[60]. وفي شهر كانون الأول من العام 1936، أخذ هذا الأب المثير للهلع غابيتو ولويس إنريكي في رحلة استكشافية إلى سينثي ليرى إن كانت الآفاق فيها أرحب من واقع آراكاتاكا الموغل في الكآبة[61].

أعـــدَّ غابـــرييل إليخيو الولدين للدراسة عند أحد معلمي البلدة بالرغم من أن الـــسلطات لا تعتـــرف بذلك التعليم، وبذلك ضاعت سنة أخرى من غابيتو. وليس هناك ما يبعث على الدهشة إذ قرر في نهاية الأمر أن يغير عمره ليكون أصغر سناً كي يعـــوض عن كل سنوات المدرسة التي ضاعت منه! وبدأ الصبيان الآن يتعرفان تعرفاً أعمق إلى جدتهما لأبيهما آرخيميرا غارسيا باترنينا النابضة بالحيوية والتي لا تزال غير متزوجة بالرغم من أنها كانت في العقد الرابع من عمرها. وكانت قد أنجبت غابرييل إليخـــيو وهي في الرابعة عشرة من عمرها. ومنذ تلك الولادة أنجبت على الأقل ستة أطفال من ثلاثة رجال آخرين. يقول غارسيا ماركيز بعد ستين سنة من ذلك: "أدرك الآن أنهـــا كانـــت امرأة مذهلة، وكانت من أكثر الناس الذين عرفتهم تحرراً. وكان لـــديها سرير إضافي على أُهبة الاستعداد دوماً لكل من يريد معاشرة من يرغب. كان

لديها قانونها الأخلاقي الخاص بها، و لم تكن تعير أي اهتمام لكل من يرى غير ما تراه. كـــنا نظن أن الأمر طبيعي آنذاك. لقد كان بعض أولادها، أي أعمامي، أصغر سناً مـــني، وكنت ألعب وإياهم، إذ كنا نخرج لاصطياد العصافير وما أشبه. لم أفكّر البتة تفكـــيراً ملياً في ذلك العالم الاجتماعي الذي عشنا فيه. ومن الطبيعي أن يغوي ملاّك الأراضي فتيات في الثالثة عشرة من أعمارهن أو يغتصبوهن في تلك الأيام ثم ينبذوهن. لقد رجع أبـــي لرؤيتها رجلاً بالغاً برفقة أسرته، وكانت في العقد الرابع من عمرها، وثـــارت ثائـــرته عـــندما وجدها حاملاً مرة أخرى. لكنها لم تفعل شيئاً سوى أن ضحكت وقالت: "ما يعني ذلك لك؟ كيف تظن أنك أتيت إلى هذا العالم؟"[(62)].

ذكريات غابيتو عن بقائه هناك مجتزأة، بل مؤلمة بلا ريب، بالرغم من نكاته في سنوات عمره اللاحقة. إذ ليس من الصعب أن نتخيل عذابه وهو يترك جده مريضاً والصدمة الحضارية التي صدم بها عندما التقى أفراداً من أسرته لا يحظون إلا باحترام قلـــيل. كانـــت سينثي، شأنها شأن آراكاتاكا، مدينة صغيرة مترابطة ذات ميدان مركـــزي أكثـــر رحابة، وكنيسة مألوفة، وتمثال بوليفار المألوف أيضاً، وعدد من الـــسكان لا يـــتجاوز ربما التسعة آلاف نسمة. وكان اقتصادها يعتمد أساساً على الماشـــية والأرز والـــذرة، وكان الخط السياسي السائد فيها هو أساساً خط حزب المحـــافظين شـــأنها في ذلك شأن معظم المناطق التي تكثر فيها الماشية. عاشت الجدة آرخـــيميرا، المعروفة بالكنية *ماما* خيمي، في مساحة صغيرة من الأرض على مسافة بعيدة عن الميدان العام، في منـــزل خشبـــي صغير يحتوي على حجرتين، دُهن بلون أبيض وجُعِل سقفه من النخيل. وكان جل أولادها في ذلك المنـــزل[(63)]. لا بد من أن تلـــك التجـــربة كشفت لغابيتو عن عالم مختلف. و لم يعد بعد الآن طفل العقيد ماركيـــز الذي كان يوفر له الحماية، ولا بد من أنه اضطر إلى أن يكيّف نفسه مع أساليب أعمامه غير الشرعيين وأولادهم فضلاً عن أخيه لويس إنريكي الأصغر سناً منه، المتمرد والطائش على نحو متزايد.

في غـــضون ذلـــك أضـــحت الحـــياة أصعب فأصعب في البيت الكائن في آراكاتاكـــا. وازدادت الأمور سوءاً في مطلع شهر آذار من العام 1937 عندما توفي العقيد ماركيز، بعد سنتين من الحادثة التي ألمت به، في بلدة ساناتا مارتا إثر إصابته

بمـــرض ذات الرئة. و لم يكن قد شفي من آثار سقطته عن السلم في العام 1935، وكـــان الـــرجل العجوز قد تحطم عاطفياً بسبب وفاة أخته وينفريدا في منـــزله في الحـــادي والعشرين من كانون الثاني سنة 1937 ولا يمكننا إلا أن نتخيل ما أحدثه رحيل *نابوليون الصغير* المحبوب في معنويات الجندي القديم. ويذكر أن الابن خوان دي ديـــوس نقـــل والده العقيد إلى سانتا مارتا في مطلع العام 1937 لإجراء عملية جراحية له في الحنجرة، وفي شهر آذار أصيب بمرض ذات الرئة وتوفي في الرابع من ذلـــك الـــشهر وقد بلغ الثالثة والسبعين من عمره في المدينة التي كان قد توفي فيها محارب آخر هو سيمون بوليفار ودفن في كاتدرائيتها.

دُفن العقيد ماركيز في اليوم نفسه في مقبرة مدينة سانتا مارتا، ونشرت جريدة إل إيـــستادو خبر وفاته في نعي مقتضب. وتتذكر مارغوت جيداً الجنازة في سانتا مارتا: "بكيت ثم بكيت طوال النهار، لكن غابيتو كان برفقة أبـــي ولويس إنريكي حيث ذهبوا إلى مغامرة أخرى في بلدة سينثي. و لم يرجع غابيتو حيث أمضى هناك أشـــهراً، لهـــذا لا أتذكر رد فعله، وهو ردّ فعل لا بد من أن يكون مفعماً بالأسى العميق لأنهما كانا يحبان أحدهما الآخر، كانا لا يفترقان"(64).

علم غابيتو وهو في سينثي بخبر الوفاة بصورة غير مباشرة وهو يسترق السمع إلى محادثـــة بـــين أبيه وجدته. ويقول بعد سنوات طويلة إنه لم يستطع البكاء لدى سماعه الخبر، و لم يدرك أهمية الرجل العجوز له إلا بعد أن بلغ سن الرشد. كما أنه قلل من أهمية اللحظة: "كانت لدي مشاغل أخرى. أتذكر أنني كنت أعاني يومذاك من القمل الذي كان يثير حفيظتيّ جداً. كانوا يقولون إن القمل لا يرحل عن المرء إلا بعـــد وفاته. أتذكر أن قلقاً شديداً عصف بـــي: "لو أنني متُّ الآن، فسيعرف الجمـــيع بوجود القمل! لهذا، فإنني لم أتأثر كثيراً في ذلك الوقت لوفاة جدي. لقد كان قلقي العظيم سببه القمل. لكنني لم ابدأ بافتقاد جدي إلاّ في فترة لاحقة عندما أصـــبحت فتىً بالغاً و لم أتمكن من العثور على من يحل محله لأن أبـــي لم يكن قط مناسباً ليعوّض عنه"(65).

تُخفي هذه الذكريات المواربة والمغالاة الاستفزازية وهذا الإبلاغ غير المباشر عن العواطف الشخصية والنكران المبطن حقيقة أكثر بساطة وأشد قسوة: فالصبـــي

لم يـــستطع قط أن يحزن من أجل المخلوق الذي أحبه أكثر من أي شخص آخر في أثناء طفولته المؤلمة والتي كانت متعذرة على الفهم غالباً؛ المخلوق الذي كان معيناً للحكمة كلها وأساساً لكل الأمان. لقد أمسى غابيتو الصغير الآن مفجوعاً بفقدان جده وهو محاط بأفراد من أسرته الصغيرة، أسرته الحقيقية، الأسرة التي هجرته وهو طفل صغير. وفي شهر نيسان من العام 1971 ردَّ غارسيا ماركيز على سؤال وجهه إليه صحفي عن وفاة جدِّه أمام أبيه، فقال بمغالاة مميزة ولكنها قاسية في هذا الشأن: "كنت في الثامنة عندما توفي، و لم يحدث لي أي شيء له أهمية تذكر منذ ذلك اليوم. كان كل شيء عديم النكهة"[66].

اصطحب غابرييل إليخيو الصبيين وعاد بهما إلى آراكاتاكا لتمضية بعض الوقت لإقناع لويسا بالانضمام إليهم في سينثي، غير أن لويسا لم تكن متحمسة للرحلة قط. وفي العـــام 1993 قالت لي: "لم أرغب في الذهاب. تخيل لا أكثر، أسرة صغيرة وكل حاجياتـــنا: من قطار إلى ثيناغا، ومركب إلى كارثاخينا، إلى طريق بري نحو سينثي. لكـــني كنت دائماً أنفذ ما يريد، وكان رحالة ومغامراً عظيماً. أستأجرنا شاحنتين، استقل لويس إنريكي وغابيتو الشاحنة الأولى، واستقل والدهما الشاحنة الثانية خلفهما فانقلبت حالما انطلقت"[67]. و لم يبقَ أحد في البيت القديم في آراكاتاكا مع ترانكيلينا والعمة فرانسيسكا سوى قريبتهما سارا ماركيز التي تزوجت مؤخراً.

كان رد فعل مارغوت إزاء كل هذه المتغيرات في مصائر الأسرة مريراً: "عشنا في منـــزل جدتي إلى أن بدأت النقود تشح واضطرت إلى العيش على ما كان يرسله إلـــيها العم خوانيتو، وعندئذ تقرر أن أنتقل أنا وغابيتو إلى بيت أبـــي في سينثي... كان ذلك فظيعاً: أن تنتقل من مكان هادئ كي تعيش مع هؤلاء، إخوتي وأخواتي، إضافة إلى شخصية أبينا الذي كان فظ الطباع صاخباً. لم يكن يصرف أي شيء من ذهـــنه. وكان يضرب عايدة ضرباً مبرحاً لكنها لم تكن تهتم، أما أنا فقد فكّرت في أنه إذا لمسني، فسأُلقي بنفسي في النهر. و لم أكن أنا أو غابيتو نقوى على مواجهته، فكنا نفعل ما يطلبه منا"[68].

غـــير أن الأحـــوال ســـاءت في سينثي. فقد استثمر غابرييل إليخيو ماله في المواشي، وبخاصة في قطيع من الماعز، غير أن المشروع فشل فشلاً كارثياً، وعادت

الأســـرة إلى آراكاتاكـــا في غضون بضعة أشهر. ولم يرافق غابرييل إليخيو زوجته وأطفاله طوال الرحلة، بل توقف في بارانكيا، وهناك بدأ يحاول إيجاد وسيلة ما لفتح صـــيدلية أخـــرى. وفي آراكاتاكا، أحرق بقية أفراد الأسرة ملابس العقيد في باحة المنـــزل وتراءى الرجل العجوز حياً لغابيتو على نحو ما وسط اللهب. حاول غابيتو الانـــسجام والتكـــيف مع حال فقدانه جدِّه وتدهور صحة جدته التي بدأت تفقد بصرها، وأصبح من المتعذر مواساتها برحيل زوجها بعد ما يزيد عن الخمسين عاماً من الحياة معاً، وكذلك الانهيار الذي حلَّ بالعمة فرانسيسكا المهيبة والتي عاشت مع نـــيكولاس أطول مما عاشت معه زوجته. أما غابيتو، فقد مثَّل كل ذلك نهاية العالم بالنـــسبة إليه. وفي غمرة غرقه في هذا الحزن الذي لم يكن يقوى حتى على فهمه، ووجـــوده الآن بين يدي الأسرة التي أهملته من قبل لسنوات طويلة، بات متردداً في الاندماج في حياة الأولاد الآخرين في آراكاتاكا.

أمـــا لـــويس إنريكي، الأقل تأملاً والذي ليس له ما يحمله من متاعب أخيه النفسانية، فقد رمى بنفسه في أحضان حياة مسقط رأسهم في تلك البلدة الكاريبية، تلـــك الحياة التي لم يتمكن غابيتو مفرط الحساسية من إعطائها حق قدرها إلا بعد مـــرور سنوات طويلة وهو يتطلع بحنين وأسىً لا إلى العالم الذي فقده وحسب، بل إلى اللهـــو الذي يشتاق إليه. والتحق الصبيان بمدرسة رسمية للبنين. ويتذكر لويس إنريكـــي أن الغجـــر ولاعبـــي السيرك توقفوا عن المرور بالبلدة وأخذ العديد من الأهـــالي، شـــأنهم شأن غارسيا ماركيز، يعدون العدة للرحيل: "حتى بنات الهوى رحلن، أولئك اللواتي مارسن مهنتهن في *الأكاديمية*، كنية بيت المتعة... والحق أنني لم أذهب إليه، لكن أصدقائي أخبروني بكل شيء عنه"[(69)].

ظل غابيتو سنوات طويلة ينظر إلى آراكاتاكا نظرة أشد سوداوية من نظرة أخيه الأصغر سناً المعروف بطيشه وصخبه، وهذا ما توضحه صورته الأدبية الأولى في **عاصـــفة الأوراق**. وبالرغم من أنه سيتحدث بعد مدة طويلة بحرارة عن تلك الـــبلدة، إلا أنـــه ظل يخشى العودة إليها. ولم يقطع المسافة إليها إلا بعد أن بلغ الأربعـــين من عمره ليراها من خلال منظور غريب كان لويس إنريكي قد طوره وهو صبـــي.

لقـــد حلت النهاية بالنسبة إليهم جميعاً، وأوشك غابيتو وهو في الحادية عشرة من عمره على الرحيل عن "تلك البلدة الحارة المغبرة التي أكد لي والداي أنني ولدت فيها والتي أحلم فيها وأنا بريء ومجهول وسعيد في كل ليلة. وفي هذه الحالة، فإنني لـــن أكون الشخص نفسه الذي هو أنا الآن، لكن ربما كان يمكن أن أكون أفضل: مجرد شخصية في إحدى الروايات التي لم أكتبها قط"[(70)].

* * *

-4-

أيام المدرسة:
بارانكيا وسوكري وثيباكيرا
1938-1946

أخذ غابرييل إليخيو ولده غابيتو وحده معه إلى بارانكيا لفتح الصيدلية والبدء بحـــياة جديدة. استغرق ذلك شهرين. وهناك وجد غابيتو أن والده يعامله معاملة أفضل عندما لا يكون هناك أحد سواهما، لكنه تُرك وحيداً وقتاً طويلاً، وفي أغلب الأحـــيان أهمل غابرييل إليخيو إطعامه وفي يوم من الأيام وجد الصبــــي نفسه يسير نائماً على امتداد شارع في وسط البلدة مما يشير إلى اضطراب عاطفي خطير[1].

تقع بارانكيا على ضفة نهر مجدلينا في المنطقة التي يبدأ فيها النهر بالانفتاح على البحــــر الكاريبـــي. وفي غضون نصف قرن من الزمان تحولت من قرية صغيرة تقع بـــين الميناءين التاريخيين من حقبة الاستعمار كارثاخينا وسانتا مارتا لتغدو ربما أكثر مدن البلاد حيوية. فقد كانت أمل كولومبيا في صناعة السفن والمكان الذي بدأ منه غزوها. وكانت البلدة الوحيدة التي يأتي إليها المهاجرون من الخارج بأعداد مهمة، مما جعلها أشبه بعاصمة ذات إحساس عالٍ بحداثتها المؤقتة مقارنة بالطابع التقليدي الأنديـــزي الكئيب الذي طبع العاصمة بوغوتا، والطابع المحافظ الذي طبع جارتها كارثاخيـــنا الأكثـــر أرســـتقراطية. كانت البلدة تعجّ بأعمال التصدير والاستيراد الـــتجارية الأجنبية والوطنية والمعامل والورش، وفيها خطوط جوية ألمانية وأصحاب مـــصانع هولـــنديون ومنـــتجو مـــواد غذائية إيطاليون ومتاجر عربية ومستثمرون أميركيون؛ وعدد كبير من المصارف والمؤسسات التجارية والمدارس. وكان العديد مـــن الشركات قد أسسها يهود هاجروا من جزر الأنتيل الهولندية. كانت بارانكيا

نقطـــة دخول المسافرين القادمين من خارج البلاد ونقطة خروج المسافرين الذاهبين إلى بوغوتا سواء عن طريق الجو أو عن طريق النهر. وكان مهرجانها هو الأشهر في الـــبلاد، ولا يزال عديد الأهالي من المدينة يعيشون السنة كلها وهم ينتظرون بنفاد صبر ذلك الأسبوع من شهر شباط الذي يُزاح فيه الستار عن صخبهم.

في بلدة سينثي، وفي أثناء العودة القصيرة إلى آراكاتاكا، تحسّنت العلاقات إلى حدٍّ ما بوجود أعداد لا تحصى من أفراد الأسر الكبيرة. لكن عند وصول أفراد أسرة غارســـيا ماركيـــز الـــصغيرة إلى بارانكيا في العام 1938 بعد أن تركوا ترانكيلينا والعمـــات وراءهم في آراكاتاكا، وجدوا أنفسهم وحيدين للمرة الأولى في حياتهم. ووجد غابيتو ومارغوت اللذان حزنا حزناً صامتاً على جدهما وعلى غياب جدتهما المريـــضة صعوبة في التأقلم لا يقدران عليها. لكن لا بد لهما من تحمل ذلك. وكان كل واحد منهما يعرف أن الآخر يتعذب بسبب ذلك، لكنهما لم يتكلما عنه قط. إضافة إلى ذلك، كانت والدتهما تعاني هموماً مشابهة، وعادت إلى بارانكيا وقد بدا عليها التردد الشديد والاستياء الواضح. كانت الصيدلية في مركز المدينة والبيت في باريـــو آباجو أو الحي الأدنى، وهو أشهر الأحياء الشعبية في بارانكيا. كان البيت صـــغيرا! لكنه ينطوي على مباهاة مدهشة. وأدرك غابرييل إليخيو أن لويسا، التي كانت تنتظر إنجاب طفل آخر، لا تتمتع بسجية الرزانة. وبالرغم من أن البيت كان فيه حجرتا نوم لا غير. فإن حجرة المعيشة الرئيسية كانت تحتوي على أربعة أعمدة دورية(*)، وعلى السطح برج صغير مطلي باللونين الأحمر والأبيض. وكان الأهالي يطلقون عليه اسم القلعة.

بدا واضحاً منذ البداية أن الصيدلية الجديدة ستخفق إخفاقاً كارثياً آخر. وبعد أن قهرت المصائب غابرييل إليخيو، قرر الانطلاق مرة أخرى صوب الحقول اليانعة الخضراء تاركاً زوجته الحامل بلا أي معين لمساعدتها هي وأطفالها. وهنا حلّت أسوأ الأيـــام على الأسرة. إذ بدأ غابرييل إليخيو يسافر على امتداد نهر مجدلينا والأطراف المحيطة به يعالج المرضى معالجة عشوائية، ويشتغل في أعمال وقتية ويبحث عن أفكار جديدة. ولا بد من أن لويسا تساءلت مراراً إن كان سيعود، فطفلتها السابعة، ريتا، ســـتولد في تموز من العام 1939، وسافرت الخالة ما إلى بارانكيا لمساعدة لويسا في

أثناء غياب غابرييل إليخيو، ويدوّن غارسيا ماركيز في ملاحظاته أن الطفلة سُمِّيت ريتا تيمناً باسم ريتا قديسة كاسثيا التي كانت شهرتها الأخلاقية متمثلة بالصبر الذي واجهت به السلوك السيئ لزوجها صعب المراس[2]. هذا وستنجب لويسا بعد ذلك أربعة أطفال آخرين وكلهم من البنين.

اضطرت إلى الاعتماد على كرم أخيها خوان دي ديوس وكان محاسباً في سانتا مارتا ويساعد ترانكيلينا والخالات في آراكاتاكا[3]. وتبيّن أن للويسا ما يساعدها على التحمل مثل الواقعية والفطرة، وهما صفتان لم يفلح غابرييل إليخيو في تطويرهما. كانت امرأة هادئة ورقيقة وتبدو سلبية، بل حتى طفولية، لكنها بالرغم من ذلك وجدت طريقاً لتربية أطفالها الأحد عشر وحمايتهم من دون أن تملك ما يكفي من المال لإطعامهم وإكسائهم وتعليمهم على نحو مريح. وفي حين كان حسُّ غابرييل إليخيو الفكاهي لا يعرف حداً وقيداً ويتصف بالغرابة دائماً، فإن لويسا كانت تتمتع بحسّ السخرية واضح المعالم – لكنها أبقته تحت سيطرتها المحكمة – وبحس الفكاهة يتراوح بين السخرية نفسها والبهجة الواضحة وهو ما خلَّده الابن في عدد من الشخصيات الأنثوية، لا سيما شخصية أورسولا إغواران تلك الشخصية الأكثر شهرة والتي يتعذر نسيانها في **مئة عام من العزلة**. لقد أسست مرحلة بارانكيا، التي كافح فيها غابيتو وأمه معاً ضد الفقر الحقيقي، صلة جديدة بينهما لا تنفصم عراها: يؤكد غارسيا ماركيز أهميتها له، ولكنه يخفي ألمه منها فيقول إن صلته بها كانت صلة جادة، بل لعلها أكثر جدية من أي صلة أخرى[4].

بالرغم من الصعوبات، قررت لويسا أن تُلحق غابيتو بالمدرسة كي يكمل تعليمه الابتدائي. كان أكبر إخوانه، وكان أذكاهم من الناحية المدرسية، وبهذا، فقد مثّل أفضل أمل لمستقبل الأسرة. وعَمَدَ خوان فينتورا كساليينس مدير مدرسة كارثاخينا دي إندياس إلى حماية هذا التلميذ الجديد، ولا شكّ في أن تشجيع هذا المدير المتعاطف وإياه كان مناسبة سعيدة. وبالرغم من ذلك، فإن ذكريات غارسيا ماركيز عن أيام المدرسة لا تتجاوز الوحدة والتغلب على البلايا والمحن. فأغرق نفسه في قراءة الكتب مثل **جزيرة الكنز** و**الكونت دي مونت كريستو**.

اضطر أيضاً إلى البحث عن عمل حقيقي وحصل على بضعة بيزوسات لقاء رسم لوحات لمتجر إل توكيو الذي كان - ولا يزال - مجاور البيت القديم. كما خطّ الصبي ملاحظات لصاحب المتجر مثل *إذا لم تجد الشيء، فاسأل عنه أو الرجل الذي يمنح الثقة يخرج للبحث عن نقوده*. وفي إحدى المناسبات التي لا تُنسى، دفعوا له خمسة وعشرين بيزوس لقاء رسم لوحة على الحافلة المحلية (الحافلات الكولومبية هي الأكثر بهرجة وتزويقاً في أميركا اللاتينية). وفي مناسبة أخرى، شارك في مسابقة إذاعية خاصة بالكشف عن المواهب يتذكر إنه غنى فيها أغنية *البجعة* وهي رقصة فالس مشهورة، لكن لسوء الحظ جاء ترتيبه الثاني، ويتذكر أيضاً أن أمه التي غيَّرت من كل أصدقائها وأقربائها وكانت تأمل بجائزة البيزوسات الخمسة، وجدت صعوبة في إخفاء خيبة أملها. كما حصل على مهنة في مطبعة محلية تتضمن توزيع عينات في الشوارع، إلا أنه ترك العمل بعد أن التقى والدة أحد أصدقائه من آراكاتاكا وهي تصيح وراءه بصوت عالٍ: "أخبر لويسا ماركيز بما قد يقوله والداها إذا ما شاهدا حفيدهما المحبوب وهو يوزع المنشورات على المستهلكين في السوق"[5].

كان غابيتو طفلاً معتلّ الصحة في تلك السن، شاحب الوجه، سيئ التغذية، ناقص النمو جسدياً، حاولت لويسا حمايته من مرض السل بإعطائه زيت كبد الحوت في حين كان زوجها بعيداً، ولما عاد غابرييل إليخيو إلى البيت قال إن غابيتو تفوح منه رائحة السمك. وكانت إحدى ذكريات طفولة الصبي الفاترة عن عاملة في معمل ألبان كانت غالباً ما تزور البيت وقالت بحزم ذات يوم للويسا سانتياغا أمام الطفل نفسه: "إنني أكره ما سأقوله يا سيدتي لكنني لا أظن أن ابنك سيكبر"[6].

في أثناء إحدى الاتصالات الهاتفية الأسرية بالأب المفقود منذ زمن بعيد، قالت لويسا إن لهجته لم ترقها، وفي المكالمة التالية حضَّته على الرجوع إلى البيت. كانت الحرب العالمية الثانية قد اندلعت تواً وربما شعرت بالافتقار إلى الأمان، فأرسل غابرييل إليخيو برقية يقول فيها بكل بساطة: "متردد". وهنا خامرها الشك، فطرحت عليه خياراً فظاً: إما أن يعود إلى البيت على الفور أو ستمضي إليه حيثما

يكون مع كل الأطفال. أذعن غابرييل إليخيو، وعاد إلى بارانكيا في بحر أسبوع واحد. وفي غمضة عين بدأ يفكّر في مشاريع جديدة. وتذكر بحنين بلدة تقع على نهر صغير تدعى سوكري زارها وهو في ريعان الصبا. مما لا ريب فيه أن هناك امرأة تداعب خياله. وهكذا حصل مرة أخرى على قرض من مستودع أدوية كان يتزود منه بالأدوية. وفي غضون أسبوعين كانت الأسرة تشق طريقها من أحدث مدن كولومبيا إلى منطقة ريفية نائية وصغيرة.

ذهب غابرييل إليخيو في بادئ الأمر كدأبه إلى المكان الجديد وحده تاركاً لويسا وهي حامل مرة أخرى، كي ينقل ممتلكات الأسرة أو يبيعها - لكن لويسا باعت معظمها هذه المرة - ويأتي بالأطفال السبعة. ووجد غابيتو نفسه في دور معزز بوصفه مسؤولاً عن الأسرة بعد أن أنيطت به مهام تفوق سنه عندما صحبه والده إلى بارانكيا قبل عام ونصف العام. وهناك، أنجز كل الترتيبات تقريباً بما فيها توضيب الحقائب، وحجز الشاحنة، وشراء تذاكر السفينة التجارية لنقل الأسرة عن طريق النهر صعوداً إلى سوكري. لكن بائع التذاكر غيَّر لسوء الحظ القوانين في منتصف عملية الشراء لتجد لويسا أن ما لديها من مال لا يكفي، لأن شركة النقل أوضحت أن على الأطفال دفع ثمن التذاكر كاملة. وفي غمرة يأسها نفَّذت لويسا اعتصاماً وحدها وحصلت على بغيتها. وبعد مرور سنوات طويلة تذكرت لويسا تلك الأوديسة في أثناء حديثها معي في بارانكيا عندما بلغت الثامنة والثمانين من عمرها: "اضطر غابيتو في سن الثانية عشرة إلى تنظيم الرحلة لأنه كان الأكبر سناً. لا يزال في وسعي أن أراه واقفاً على سطح السفينة البخارية يعد الأطفال ثم ينتابه الرعب ويصيح: هناك واحد ناقص. وكان المقصود هو، إذ لم يعد نفسه!"[(7)].

رحلت بهم السفينة البخارية جنوباً صوب ماغانغي، أكبر بلدات القسم الشمالي من مجدلينا. ومن هنا تعين عليهم الانتقال إلى زورق بخاري ينقلهم صعوداً نحو نهر سان خورخه الأصغر ومن هناك على امتداد نهر موخانا الضيق الذي تحفّه المستنقعات والأدغال من كلا جانبيه، وهي مغامرة وسعت كثيراً من خيال الأطفال. كان غوستافو الابن الأصغر في الرابعة من عمره، وكان الوصول إلى سوكري في تشرين الثاني عام 1939 يمثل واحدة من أكثر الذكريات المبكرة حيوية:

"ذهبنا إلى سوكري بزورق بخاري وترجلنا عن الزورق ومشينا على امتداد لوح خشبي. لا يزال المشهد مطبوعاً في ذهني: ترجلت أمي، وسارت فوق اللوح الخشبي مرتدية ثوباً أسود اللون بأزرار لؤلؤية. لا بد أنها كانت في الرابعة والثلاثين من عمرها. لقد تذكرت تلك المرحلة بعد مرور سنوات طويلة عندما كنت شخصياً في الثلاثين من عمري. كنت كمن ينظر إلى لوحة، وأدركت ملامح استسلام ارتسمت على وجهها. من السهل جداً فهم ذلك لأن أمي تلقت علومها في مدرسة الدير، وكانت طفلة مدللة لواحدة من أهم أسر البلدة، طفلة صغيرة لم تبخل على نفسها في التمتع بشيء، تتلقى دروساً في الرسم وفي العزف على البيانو لتجد نفسها مضطرة فجأة إلى العيش في بلدة حيث الأفاعي تدخل البيوت ولا تتوفر فيها الكهرباء؛ بلدة تكتسحها الفيضانات شتاءً فتختفي الأرض تحت سطح الماء، وتظهر سحب البعوض"(8).

كانت سوكري بلدة صغيرة يسكنها زهاء ثلاثة آلاف نسمة لا تربطها أي طريق أو خطوط سكة حديد بأي مكان آخر. إنها أشبه بجزيرة عائمة تاهت في شبكة الأنهار والجداول وسط منطقة كانت يوماً ما غابة مدارية كثيفة الأشجار لكنها أضحت الآن أخف مما كانت عليه بسبب مساعي البشر المتواصلة وإن لا تزال مغطاة بالأشجار والأدغال النامية تحتها، وفيها مساحات واسعة لرعي الماشية وزراعة الأرز وقصب السكر والذرة. ومن المحاصيل الأخرى الموز والكاكاو واليُكَّة والبطاطا الحلوة والقطن. وكان المشهد العام دائمَ التغيّر، يتحول من شجيرات قصيرة وكثيفة إلى سافانا، معتمداً على موسم الأمطار وارتفاع مد الأنهار. وجاءها المهاجرون من مصر وسوريا ولبنان وإيطاليا وألمانيا بين عام 1900 وحتى أواسط عشرينيات القرن العشرين. وسكن الأهالي المرفهون أكثر من غيرهم حول الميدان الكبير الذي لم يكن ساحة اعتيادية بل مساحة من الأرض طولها أكثر من مئة وخمسين ياردة وعرضها ربما يبلغ الثلاثين ياردة، يحدها النهر من طرف والكنيسة من الطرف الآخر، فيما انتشر على كلا الجانبين صف من بيوت ذات طابقين مطلية بطلاء براق. في هذا المكان استأجر غابرييل إليخيو منزله الجديد وفتح له صيدلية في الطابق الأرضي.

بعد وصول الأسرة مباشرة، أصرَّت لويسا على طرح سؤال يخص دراسة غابيتو في المدرسة الثانوية، وأقنعت زوجها المتردد بضرورة إرساله إلى مدرسة سان خوسيه في بارانكيا التي استفسرت عنها قبيل رحيلها. وقالت: "إنها مدرسة تصنع الحكّام"[9]. لعل غابيتو نفسه شعر أنه منبوذ مرة أخرى لكنه قرر أن يواجه الأمور: "فكّرت في المدرسة كأنها سجن، وانتابني الهلع من فكرة العيش تحت رحمة الناقوس، لكنها كانت أيضاً أملي الوحيد في الاستمتاع بحياة متحررة منذ سن الثالثة عشرة، والبقاء على علاقة جيدة مع أسرتي ولكن بعيداً عن سيطرتها"[10].

وصف أحد الأصدقاء ظهوره في تلك الأيام: "كان رأسه ضخماً، أشعث الشعر يشبه السلك شكلاً ومرونة، غليظ الأنف طويله كأنه زعنفة سمكة قرش. كانت لديه شامة أخذت تنمو إلى يمين أنفه، وبدا شكله نصف هندي ونصف غجري. كان فتىً نحيلاً، قليل الكلام، التحق بالمدرسة لأنه كان مضطراً إلى ذلك"[11]. كان في نحو الثالثة عشرة من عمره وكان تعليمه قد بدأ متأخراً. وفي الأشهر الخمسة عشر الأولى في المدينة الساحلية، مكث غابيتو مع ابن عمه خوسيه ماريا بالديبلانكيث وزوجته هورتينسيا وطفلتهما الصغيرة، وكان ينام على أريكة في الصالة.

بالرغم من شكوكه الذاتية ومنافسة غيره من الصبيان الموهوبين، فإن أداءه في المدرسة كان ممتازاً باستمرار، وبات ذائع الصيت بسبب تمريناته الأدبية **أوهامي الحمقاء** وهي مجموعة قصائد هجائية ساخرة عن زملائه في المدرسة وعن قوانين المدرسة القاسية أو السخيفة التي ما إن جذبت انتباه معلميه حتى طلبوا منه باستمرار أن يلقيها عليهم[12]. كما نشر أيضاً عدداً من النصوص القصيرة والقصائد الأخرى في مجلة المدرسة **الشبيبة**، وفي غضون السنوات الثلاث من وجوده في المدرسة مُنح سلسلة من مواقع الثقة والمسؤولية. فعلى سبيل المثال، يتولى التلميذ الذي يحصل على أفضل الدرجات خلال أسبوع رفع العلم الوطني أمام الصفوف صباحاً، وتلك مهمة أُلقيت على عاتق غابيتو لمدة طويلة من السنة الدراسية. وثمة صورة له في مجلة المدرسة مع أوسمته، ينظر إلى الجانب قليلاً وقد بدا عليه الخجل إلى حدٍّ ما كأن لديه سبباً ما للارتياب في عدالة نجاحه. وكان ذلك شعوراً سيظل يلازمه على مدى السنين.

في نهايــة الــسنة الأولى، عاد المراهق غارسيا ماركيز إلى بيته لتمضية العطلة السنوية وأمدها شهران هما كانون الأول وكانون الثاني. وكما هو محتوم. فقد ولد طفــل آخر، خديج، في الشهر السابع من عمره وهو أخوه خيمي الذي قُدِّر له أن يعــيش معتل الصحة لسبع سنوات. وأصبح غابيتو عراب أسرته وبعد عمر طويل يصبح خيمي أقرب الأخوة إلى غابيتو. باتت الأسرة الآن مستقرة في البيئة الجديدة وكــان أمــام غابيتو، كعهده دائماً، الكثير من الأمور التي ينبغي له إنجازها. وبدأ إخــوته من بنات وصبيان ينظرون إليه نظرة الأخ المؤقت الذي يزورهم غالباً وهو هادئ وخجول ومستوحد؛ الأكبر سناً والأبعد. كان هذا الغياب المنتظم منذ مطلع المراهقة قد عمّق الهوة التي تفصل الابن عن أبيه الذي لم يفهمه ولم يحاول أن يفهمه البتة. إلاّ أنه لم ينسَ أخته مارغوت التي كانت مثله تخشى والدها، في حين لم تكن الأم متفرغة لها قط. فافتقدته كثيراً *كنا أشبه بتوأمين*. وبسبب إدراك غابيتو عزلتها فقد كان يرسل إليها الرسائل في كل أسبوع وهو بعيد عنها[13].

كــان غابيتو يفزع من الذهاب إلى البيت. وإذا أردنا أن نعرف عن سوكري بالاضطرار إلى الاعتماد على الملاحظات التي أبداها غارسيا ماركيز بين سنة 1967 وســيرته الذاتية الصادرة سنة 2002، فإننا لن نعرف شيئاً سوى تلك الإشارة غير المباشــرة الــواردة في رواياته مثل **في ساعة نحس، وليس للعقيد من يكاتبه** اللتين كتــبهما في خمــسينيات القــرن العشرين و**قصة موت معلن** التي كتبها في مطلع ثمانينــيات القرن العشرين. إن تلك الملاحظات المنطوية على ضغينة تؤكد الانطباع الكئيب والسوداوي الذي خلفته تلك الروايات. كانت سوكري بلدة مجهولة، توأم ماكــوندو الــشريرة والعابسة. ولم يشر إليها باسمها عندما كان يذكرها لوالده في بعض الأحيان حين كانت تبدو واضحة تماماً في ذهنه. (كان العنوان الأصلي لرواية **في ساعة نحس** هو *كومة براز هذه البلدة*). وبالرغم من ذلك، فقد كانت البلدة في نظــر الأطفــال الأصغر سناً منه، لا سيما ريتا والأربعة الذين ولدوا فيها فردوساً مدارية قوامها النهر، والأدغال، والحيوانات المبهرجة، والحرية.

كانت تلك المرحلة الأكثر نجاحاً بالنسبة إلى غابرييل إليخيو بوصفه صيدلانياً وممارساً للطب التجانسي، ولم يعمل بمفرده وحسب، بل ارتبط بالمستوصف المحلي.

وإزاء مثل هذه الامتيازات، يفيد المرء أن يكون محافظاً لأن سوكري، بخلاف آراكاتاكا، كانت بلدة محافظة إلى حدٍّ كبير. وفي الوقت نفسه، لم يكن العنف بعيداً عن السطح. ففي اليوم الذي عُمِّد فيه خيمي، حُزَّت رقبة عازف على البوق من أهل المنطقة في اللحظة نفسها التي كان يجهد نفسه فيها لينفخ أعلى نغمة وأقواها. وقال بعض الناس إن الدم ارتفع إلى علو ثلاثة أمتار. وسمع لويس إنريكي بالحادثة على الفور، فهرع لمشاهدة ما حدث لكن الرجل البائس كان قد نفد دمه عند وصوله بالرغم من أن قلبه كان لا يزال ينبض[14]. ولم يحدث ما يوازي ذلك الحدث الدرامي مرة أخرى إلى أن أغتيل صديق الأسرة وجارها كايتانو خنتيلي أمام أنظار أهل البلدة كلهم في كانون الثاني عام 1951، فتغيرت لذلك حياتهم جميعاً تغيراً لا سبيل إلى معالجته.

في نظر غابيتو كان التغير المفاجئ في ترتيبات الأسرة سببه والده المولع بالرحلات. وعندما خرج من القارب لدى رجوعه إلى سوكري في أواخر العام 1940 طوقته شابة بذراعيها وأخبرته أنها أخته كارمن روسا. وفي مساء ذلك اليوم نفسه، اكتشف غابيتو أيضاً أن لديه أخاً غير شقيق، هو أبيلاردو، الأمر كان له وقع الصدمة عليه لأن عزاءه الوحيد في وجوده وسط هذه الأسرة المغمورة تقريباً كان يتمثل في أنه الولد الأكبر سناً، وإذا بهذا العزاء يُنتزع منه: فهو ليس أكبر أبناء أبيه، بل هو أكبر أبناء أُمه.

تفسر لنا احباطات غابرييل إليخيو في حياته وإحساسه بالدونية من ناحية المهنة جزءاً من المشكلة بينه وبين غابيتو الذي كان ينظر إليه دوماً بعين غريبة. كان معظم أطفال غابرييل إليخيو لا يأخذون قصصه عن مشروعه وانجازاته الطبية على محمل الجد[15]. كان غابيتو الذي تعرف إلى العالم المحيط به على نحو أوسع أكثر ارتياباً من إخوانه وأخواته. من الواضح أن غابرييل إليخيو قرأ الكثير وعرف الكثير أيضاً، تماماً مثلما كان لديه الكثير من الوقاحة والثبات والجَلَد ليسير وراء حدسه وبصيرته الفطرية على حين يتحمل مرضاه المخاطرة. فحصل على إجازة بوصفه طبيباً متمرساً في الطب التجانسي في بارانكيا، وفي حين كان يشتغل صيدلانياً كافح من أجل الحصول على مؤهل من جامعة كارثاخينا ليؤمن لنفسه الاعتراف الكامل

بأنـــه طبيب. وفي نهاية المطاف، وبعد مفاوضات مطولة مُنح لقب دكتور *في العلوم الطبيعـــية*، إلا إنـــه أطلق على نفسه لقب دكتور قبل ذلك بزمن طويل[16]. لكن غابيـــتو، على ما يبدو، لم يأخذ اللقب الذي افترضه والده لنفسه على محمل الجد. يضاف إلى ذلك، فإن لقب *العقيد* كان مفضلاً عنده كثيراً بلا أدنى ريب. وغالباً ما كان غابرييل إليخيو يتباهى بأن وسائله تختلف الاختلاف كله عن الوسائل التقليدية والمألـــوفة. "عـــندما كنت أذهب لعيادة مريض، كانت دقات قلبه هي التي تجعلني أعـــرف ما يعانيه، فكنت أصغي إلى الدّقات بحرصٍ متناه. وكأنّ القلب كان يقول لي: هـــذه مـــشكلة في الكبد. هذا الرجل سيموت من كثرة الكلام. فكنت أقول لأقربائه: هذا الرجل سيموت من كثرة الكلام. وهكذا، سيموت الرجل من كثرة الكلام، لكنني فقدت حيلتي في نهاية الأمر"[17].

لـــيس مما يدعو للدهشة أن كل أطباء الطب التجانسي معروفون بتهتكهم في كولومبـــيا في تلك الايام، فهم خبراء متنقلون لا تربطهم رابطة بمعظم الأماكن التي يمرون بها، ولهم قدرة لا تُضاهى في الوصول إلى الجنس الآخر مع الاستعداد الكامل للإجابـــة عـــن أي سلوك مريب يسلكونه. وقد وكّلت إحدى النساء في مستوطنة قـــريبة محامـــياً اتهم غابرييل إليخيو باغتصابها وهي تحت تأثير المخدر، وبالرغم من إنكـــاره تهمة الاغتصاب شديدة الخطورة، إلاّ أنه اعترف بأبوّته للطفل[18]. كانت العلاقـــة الجنسية بالمريض جنحة جنائية، إلاّ أنه تمكن من تخليص نفسه مما قد تكون أخطـــر لحظـــة في حياته المهنية، وربما أدى ذلك إلى فقدانه كل شيء. وفي وقت لاحق، حضرت امرأة أخرى لتقول إن حفيدتها حملت من الدكتور غارسيا وإنها لا تـــستطيع العناية بها. وبعد مشاجرات وتأنيب، فعلت لويسا ما فعلته أمها من قبل ووافقـــت على أن تكون ذرية زوجها ذريتها أيضاً. وكما يقول غارسيا ماركيز: "كانـــت غاضبة، لكنها أوت الأطفال عندها وسمعتها تردد: *إنني لا أريد أن يطوف دم الأسرة في جميع أنحاء العالم*"[19].

في أثـــناء العطلة السنوية الأولى، لم يضطر غابيتو إلى استيعاب ظهور أبيلاردو وكـــارمن روسا والأخبار التي يُهمس بها همساً غير واضح عن أخ غير شقيق آخر وغـــير شرعي وحسب، بل أخذ رسالة من أبيه ليوصلها إلى ما يعرف باسم *الساعة*

وهو المبغى العام في المنطقة. قلّبت فيه المرأة التي فتحت له الباب النظر وقالت: "آه، نعم. تعال من هنا". ثم قادته إلى حجرة معتمة، ونـــزعت عنه ثيابه *واغتصبته* على حدّ تعبيره علانية للمرة الأولى. ويتذكر الحادثة في ما بعد فيقول: "كان ذلك أفظع شـــيء يحـــدث لي لأنـــني لم أكـــن أعرف ما كان يحدث. كنت متأكداً من أنني سأموت"[20]. ولزيادة الطين بلة، أخبرت الساقطة غابيتو بفظاظة أن يطلب من أخيه الأصغر سناً أن يلقنه دروساً. من الواضح أن الأخ الأصغر كان زبوناً منتظماً. لا بد مـــن أنه لام أباه على هذه التجربة القذرة والمرعبة والمهينة. لكن يبدو أن غابرييل إليخـــيو أعد العدّة لكل ما حدث، وهو ما يتلاءم مع الموروث الموغل في القدم في أميركـــا اللاتينـــية والذي يصطلح البرازيليون على تسميته بإرسال الصبـــي لشراء الحلوى.

بدأت السنة الثانية في سان خوسيه كسابقتها، وظل غارسيا ماركيز نجماً أدبياً في المدرسة، وتمتع بشعبية هادئة، وكتب تقريراً مسلياً عن رحلة مدرسية إلى شاطئ البحر في آذار سنة 1914 وهو تقرير يبعث على السرور عند قراءته لما فيه من فكاهة وحماســـة وحـــيوية: "طلب منا الأب ثالديبار في الحافلة أن ننشد للعذراء، فأنشدنا بالـــرغم من أن بعض الصبيان اقترحوا أن نغني بدلاً منها أغنية من أغاني *بورو*[21] الأفـــريقية الكولومبية مثل البقرة العجوز أو الدجاجة الملساء. وينتهي التقرير بجملة: علـــى من يرغب في معرفة كاتب هذه الخيالات الساذجة، عليه إرسال رسالة إلى غابيتو". كان واحداً من التلاميذ المجدين، لا ترقه الرياضة ولا الشجار، بل يروق له الجلوس والقراءة تحت الظل في أثناء الاستراحة في حين ينشغل الآخرون بلعبة كرة القدم. لكنه تعلم شأنه شأن العديد من التلاميذ المجتهدين غير المولعين بالرياضة، أن يكون مرحاً وأن يدافع عن نفسه بلسانه.

لكـــن هـــناك ما هو أكثر مما يلوح على هذا المراهق الغامض. فقد انقطعت دراســـة غابيتو في العام 1914 بسبب غيابه الطويل عن سان خوسيه إذ فاته النصف الثاني من العام الدراسي إثر اضطراب نفسيّ وصل ذروته في شهر أيار. وقد تحدث غابـــرييل إليخيو الطائش أبداً عن ذلك في مقابلة العام 1969 بعد أن ذاعت شهرة ابنه: "لقد أصيب بما يشبه انفصام الشخصية وصاحبته نوبات غضب فظيعة وغيرها.

وفي يوم ما، قذف دواة حبر في وجه أحد القسيسين، وكان يسوعياً معروفاً، فكتبوا إليّ لإبلاغي أن أُخرجه من المدرسة، فأخرجته"[22]. وقد راجت شائعات بين أفراد الأسرة تفيد أن غابرييل إليخيو عزم على أن يثقب رأس ابنه *في المكان الذي يقع فيه الوعـــي والذاكرة*، لكن تهديد لويسا بالكشف عن مسعاه وحده الذي حال دون ذلــك[23]. ولـــيس صـــعباً التأثير الفظيع لمثل هذه الخطة في صبـــي لا يعتقد بهذا الطبيب العائلي في كل الأحوال، والذي يبدو أنه ذهل عندما فكّر في أن أباه يريد أن يمزق رأسه.

عـــندما وصـــل غابيـــتو البائس إلى سوكري، قال له أخوه نصف الشقيق أبـــيلاردو، وبحدة، أن ما يحتاج إليه هو معاشرة امرأة، ووفر له عدداً من الشابات الـــراغبات في المعاشرة اللواتي مثّلن تجاربه الجنسية الأولى في حين كان بقية الصبيان في ســـان خوسيه مشغولين بالتضرع إلى مريم العذراء. لقد منحت تلك المغامرات المبكرة غارسيا ماركيز، الذي كان يشعر أنه أقل فحولة من بقية الذكور في مجتمع ذكوري تماماً، الشعور بأنه مطّلع على القضايا الجنسية، وظل ذلك الشعور مصاحباً لـــه بغـــض النظر عن بقية التعقيدات، ولازمه عدد لا يحصى من الشواغل النفسية والنكسات[24].

في هـــذه اللحظة، يظهر لنا في المشهد شخص يدعى خوسيه بالنثيا، وهو ابن أحد ملاّك الأراضي في المنطقة. كان خوسيه يشبه لويس إنريكي شقيق غابيتو؛ كان عازفـــاً موسيقياً موهوباً وكان أيضاً مغنياً وسكيراً ومغوياً، احتفظ بصداقة طيبة مع غابيـــتو طوال مدة إقامته في بوغوتا. كان بهي الطلة وراقصاً بارعاً، وهو ما لم يكن يتقـــنه غابيـــتو بعد بالرغم من أنه كان مغنياً ممتازاً. ويبقى بالنثيا بطل العديد من الحكايات المليودرامية وقصص الصعلكة طوال سنوات قبل أن يخطفه الموت فجأة. لقد كان وجود مثل هذا الصديق عوناً كبيراً لمراهق يتقدم في السن.

عـــند رجوع الشاب غارسيا ماركيز إلى المدرسة في شهر شباط سنة 1942 حـــيَّاه التلامـــيذ والمعلمون تحية حارة. وبالرغم من أن ماركيز لا يتطرق كثيراً في مذكـــراته إلى هـــذه التجربة، إلاّ أنه لا بد من أن يكون قد شعر بالحرج والإذلال بـــسبب غيابه، وبسبب الإيضاحات التي اضطر إلى اختراعها. وقد مُنح الأب القدر

الكبير من الثقة *لمعالجته*. و لم يبقَ بعد ذلك برفقة خوسيه ماريا وهورتينسيا بالديبلانكيث التي أصبح لديها طفلان حينها، بل بقي مع شقيق جدته لأبيه إليسير غارسيا باترنينا، ذلك الموظف المصرفي المعروف باستقامته وأمانته وعشقه الكبير للغة الإنكليزية. وكانت فالنتينا، ابنة إليسير، قارئة ممتازة مثل غابيتو، لذلك اصطحبته لحضور اجتماعات جماعة من الشعراء تدعى *رمل وسماء*[25].

في يوم ما، وفي حين كان ينتظر في بيت أحد الشعراء، جاءت امرأة بيضاء لزيارة الشاعر، اسمها مارتينا فونسيكا وكانت متزوجة بقبطان سفينة أسود يناهز طوله الست أقدام. كان غابيتو في الخامسة عشرة، نحيل الجسم بالنسبة إلى سنه، وتحدث وإياها على مدى ساعتين في أثناء انتظار الشاعر، ويقول إنه رآها مرة أخرى تنتظره وهي جالسة فوق مصطبة في حديقة عامة بعد أن ذهبا معاً إلى الكنيسة في أربعاء الرماد. فدعته إلى منزلها حيث انهمكا في المعاشرة التي كانت "حباً سرياً تأجج مثل نار مجنونة" تواصل حتى نهاية السنة الدراسية. كان القبطان يمضي اثني عشر يوماً بعيداً عن المنزل، وكان غابيتو يتظاهر أيام السبت، التي يضطر فيها إلى العودة إلى منزل إليسير عند الساعة الثامنة، بأنه كان يحضر عروضاً سينمائية بعد ظهر تلك الأيام في دار سينما ريكس. لكن مارتينا قالت بعد بضعة أشهر إن لمن الأفضل لو ذهب إلى مكان آخر للدراسة "لأنك ستدرك عندئذ أن علاقتنا لن تكون أكثر مما هي عليه قبل الآن"[26]. فرحل باكياً، وعندما رجع إلى سوكري قال إنه لن يعود إلى سان خوسيه ولا إلى بارانكيا لأن أمه قالت له طبقاً لهذه الرواية "عليك أن تذهب إلى بوغوتا". لكن والده قال إنه لا يملك المال للذهاب، فأدرك غابيتو فجأة أنه يريد مواصلة تعليمه في كل الأحوال فهتف: *ثمة بعثات دراسية*. وبعد بضعة أيام قال له غابرييل إليخيو: "جهّز نفسك، فستذهب إلى بوغوتا"[27].

* * *

انطلق غابيتو إلى العاصمة في كانون الثاني سنة 1943 محاولاً أن يجرّب حظه، لكن ذهابه كان مغامرة بالنسبة إلى الأسرة لأن الرحلة إلى بوغوتا كانت استثماراً باهظ الثمن لفتى قد يخفق بسهولة في امتحان القبول. كانت بوغوتا في الواقع بلداً

آخـــر وكانـــت الرحلة إليها طويلة ومرعبة. وهيَّأت له أمه بذلة سوداء قديمة من بذلات أبيه وودَّعه أفراد الأسرة عند الممشى الخشبـــي. ولما لم يكن غابرييل إليخيو من الذين يفوتون فرصة مثل هذه، فإنه، لذلك بدأ الرحلة مع غابيتو في قارب صغير نقلـــهما على امتداد نهري موخانا وسان خورخه وبعد ذلك إلى نهر مجدلينا الكبير فمدينة ماغانغي حيث ودَّع غابيتو فيها والده واستقل السفينة البخارية دافيد آرانغو باتجاه الجنوب نحو مرفأ بويرتو سالاغار، وكانت رحلة نهرية تستغرق أسبوعاً واحداً عـــادةً وفي بعض الأحيان ثلاثة أسابيع إذا كان ماء النهر منخفضاً فتعلق السفينة في الشاطئ الرملي. بالرغم من أن غابيتو ذرف الدموع في الليلة الأولى، إلا أن ما كان يثـــبط الهمـــة بـــات مفاجأة[28]. فقد كانت السفينة تحتشد بعدد كبير من سكان الساحل الشبان وكان يبدو عليهم أنهم مثله يبحثون عن منح دراسية أو ربما كانوا تلاميذ مدرسة وطلاب جامعة محظوظين وهم الآن يعودون بعد تمضية عطلة طويلة. ويتذكـــر غارســـيا ماركيز تلك الرحلات على أنها حفلات عائمة غنّى فيها بقية الـــشبان مختلف الأغاني لتبتهج نفوسهم وليحصلوا على بضعة بيزوسات على"تلك السفينة الخشبية المدولبة التي واصلت سيرها تاركة وراءها أثراً من آثار الفالس التي يعزفها عازف بيانو وسط عطر فواح من زهور الغاردينيا والسمندر النتن في الروافد المدارية"[29].

بعد مرور بضعة أيام، وفي الوقت الذي كان غابيتو يترجل من السفينة النهرية إثر انتهاء الرحلة، قام زملاؤه الأكثر خبرة منه بانتزاع صُرَّة مدارية أجبرته أمه على أن يأخـــذها معه وتحتوي على حصيرة للنوم مصنوعة من سعف النخيل، وأرجوحة مـــن الألـــياف، وبطانـــية صوفية خشنة، ومبولة طوارئ وقذفوا بها في النهر وهم يـــضحكون دليلاً على أن هذا القادم من الساحل قد تسلق سلم الحضارة، مما يعني أنهـــم كانوا كلهم من ذوي الطبع الفظ، جاهلين وغير قادرين على معرفة السلوك الحسن من السلوك السيئ[30]. بدا ذلك وكأن ما من شيء يعرفه أو يملكه يمكن أن يفـــيده في بوغـــوتا وســـط أهـــالي الهضبة المعروفين باسم الكاتشاكو المخادعين والمتشامخين. وفي بويرتو سالاغار الواقعة عند سفوح جبال الإنديز الشرقية، استقل الـــركاب القطـــار ليقلهم إلى بوغوتا. وفي حين بدأ القطار يصعد الإنديز تغير طبع

سكان الساحل، فمع كل منعطف من منعطفات سكة الحديد ازداد الجو برودة وخفة حتى بات التنفس شاقاً[31]. وأخذ الجميع يرتعشون وأصيبوا بالصداع. وعلى ارتفاع ثمانية آلاف قدم وصلوا إلى ميسيتا، وبدأ القطار يزيد من سرعته صوب العاصمة فوق سهل بوغوتا الذي يبلغ طوله ثلاثمئة ميل وعرضه خمسين ميلاً. كان سهلاً مكفهراً، يميل لونه إلى الأخضر الداكن، ويمتد تحت أمطار تهطل على مدار السنة، لكنه يتحول إلى اللون الأخضر الزمردي البراق عندما تشرق عليه شمس الإنديز من سمائها الفضية. وكان السهل مزداناً بقرى هندية صغيرة تتألف من أكواخ رمادية مشيدة باللِّبن وذات سقوف معقودة صنعت من أشجار الصفصاف واليوكالبتوس. وكانت الأزهار تزين حتى أكثر الأكواخ تواضعاً.

وصل القطار العاصمة عند الساعة الرابعة عصراً. وغالباً ما كان غارسيا ماركيز يقول إن تلك اللحظة كانت أسوأ لحظة في حياته. لقد كان ينتمي إلى عالم الشمس والبحر والحيوية المدارية والعادات الاجتماعية المرسلة على سجيتها والغياب النسبي للثياب وللتعصب. وكان كل فرد في السهل يلتف بما يشبه العباءة الكولومبية. بدت له بوغوتا المكفهرة تحت المطر، المتكئة على جبال الإنديز على ارتفاع ثمانية آلاف وستمئة وستين قدماً أشد برودة من السهل نفسه. وكانت الشوارع تحتشد برجال يرتدون بذلات وصديريات ومعاطف داكنة اللون مثل الإنكليز في حي المال في لندن. ولا تُشاهد أي نساء في أي مكان. تنهد الصبي تنهيدة من القلب واعتمر بتردد قبعة من الجوخ الناعم الأسود قيل له إن كل فرد في بوغوتا يعتمرها، وترجل من العربة ووضع صندوقه المعدني الثقيل على الرصيف[32].

لم يكن هناك من ينتظره، وأدرك أنه يتنفس بصعوبة، إذ كانت تنبعث رائحة السخام غير المألوفة من كل مكان حوله. وعندما بدأت المحطة والشارع يخلوان من المارة، بكى غابيتو من أجل العالم الذي تركه وراءه. كان وحيداً: بلا أسرة، بلا أشعة شمس، لا يدري ما يفعل. أخيراً وصل أحد أقربائه البعيدين، ومضى به في سيارة أجرة إلى بيت قريب من مركز المدينة. إذا كان جميع الناس في الشارع يرتدون الثياب السوداء، فإنهم يرتدون داخل بيوتهم العباءات وأثواب النوم. عندما أوى غابيتو ماركيز إلى سريره في تلك الليلة الأولى، وثب عنه، وصرخ قائلاً إن

شخصاً ما قد بلل فراشه، لكنهم قالوا له: "لا. هكذا هي بوغوتا ولا بد من أن تعتاد عليها". لكنه ظل يقظاً طوال الليل يبكي من أجل العالم الذي فقده.

بعد مرور أربعة أيام، وفي وقت مبكر من الصباح، كان يقف في صف المنتظرين خارج مبنى وزارة التربية في شارع خيمينيث دي كيسادا، ذلك الشارع العظيم الذي سُمي باسم فاتح كولومبيا الإسباني ومؤسس العاصمة بوغوتا[33]. وبدا الصف طويلاً لامتناهياً. بداية الطابق الثالث من مبنى الوزارة يمتد على طول صفين من البيوت والمحال التجارية في شارع خيمينيث. كان غارسيا ماركيز في نهاية الصف تقريباً، وازداد يأسه بمرور ساعات الصباح. وبعد منتصف النهار بقليل شعر بتربيتة خفيفة على كتفه. عندما كان على ظهر السفينة البخارية القادمة من بلدة ماغانغي تعرف إلى محامي الساحل واسمه أدولفو غوميث تامارا الذي كان يقرأ الكتب بنهم طوال الرحلة، ومن بين تلك الكتب **البديل** لدوستويفسكي و**المولن الكبير** لفورنييه. كان غوميث تامارا قد أُعجب بغناء غارسيا ماركيز فطلب منه أن يكتب له كلمات إحدى أغاني البوليرو كي يغنيها لحبيبته في بوغوتا. وأهداه نسخة من كتاب **البديل** لقاء ذلك. وهنا أعلن الشاب، وهو يرتعش، عن هدفه اليائس قائلاً: "أريد الحصول على منحةٍ دراسية". وتبين على نحو لا يصدق أن ذلك المحامي الأنيق لم يكن سوى المدير الوطني للمنح الدراسية، وقاد المتقدم الذاهل إلى مقدمة الصف ومنه إلى مكتب كبير، حيث سَجلوا طلب تقديم غارسيا ماركيز، وشارك في الامتحان الذي جرى في مدرسة سان بارتولومي الكائنة في الجزء القديم من بوغوتا، وهي المدرسة التي درس فيها الكولومبيون من أبناء الطبقة الراقية منذ أيام الاستعمار. نجح غارسيا ماركيز في الامتحان، وحصل على مقعد في المدرسة الجديدة وهي المدرسة الوطنية للبنين في بلدة ثيباكيرا القريبة الواقعة على بعد ثلاثين ميلاً، غير أن غارسيا ماركيز كان يفضل الدراسة في مدرسة سان بارتولومي في بوغوتا، لكنه كافح لإخفاء خيبة أمله.

لم يكن يملك ما يكفي من المال للعودة إلى البيت والاحتفال برفقة عائلته المتشوقة والمبتهجة. و لم يكن قد سمع من قبل باسم بلدة ثيباكيرا، ولكنه بالرغم من ذلك سافر إليها بالقطار مباشرة، ووصلها في الثامن من آذار عام 1943، أي بعد

ذكـــرى ميلاده السادسة عشرة بيومين. كانت ثيباكيرا بلدة صغيرة تعود إلى حقبة الاســـتعمار، وهـــي نموذج لبلدات جبال الإنديز، وطقسها شبيه بطقس بوغوتا. وكانـــت المركز التجاري لإمبراطورية هنود الشيبكا وفيها مناجم الملح التي لا تزال حتى اليوم تجذب السيّاح إليها. وكانت الساحة الرئيسية فيها محاطة ببيوت ضخمة تعـــود إلى حقبة الاستعمار وفيها شرفات مطلية باللون الأزرق وسطوح سميكة من القـــرميد الأحمـــر المعلقة وكاتدرائية ضخمة باهتة اللون، ببرجين، تبدو معها غير مناسبة للبلدة التي لم تكن في تلك الأيام أكثر من قرية صغيرة. كانت ثيباكيرا تحتشد بالورش والمداخن السوداء التي تعامل الملح بالتبخير، بعدها يباع للحكومة. وكانت ذرات الملـــح تشاهد في كل مكان متطايرة فوق البلدة كأنها رماد. وشعر الصبـــي القادم من الساحل أن الطقس والبيئة يتصفان بالبرودة والكآبة والوحشة.

كانـــت المدرســـة حديـــثة التأسيس، لكنها تقع في مبنى قديم يعود إلى أيام الاستعمار. وكانت في ما مضى من الزمان مدرسة سان لويس غونثاغا، وهي مبنًى يتألف من طابقين يرجع تاريخه إلى القرن السابع عشر وفيه فناء داخلي تحفّه أقواس مـــن العهـــد الاســـتعماري[34]. كان المبنى يضم مكتب المدير، ومساكن خاصة، ومكـــتب الـــسكرتارية، ومكتـــبة ممتازة، وستة صفوف دراسية، ومختبراً، ومخزناً، ومطـــبخاً، وحجـــرة طعام، ودورات مياه، وحمامات، وقاعة نوم كبيرة في الطابق الأول تتسع لثمانين أو نحو ذلك من الطلاب الذين كانوا ينامون في المدرسة. ويقول غارسيا ماركيز بعد سنين، ملاحظاً عند حصوله على منحة دراسية في ثيباكيرا، إن الأمر يشبه: "ربح نمر في يانصيب". لقد كانت المدرسة عقاباً وكانت "تلك البلدة المتجمدة ظلماً"[35].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز لم ترقه البلدة آنذاك، إلا أنه استفاد من ظرفين نـــادرين في تاريخ كولومبيا. فالمحافظون تخلوا عن التعليم الثانوي الحكومي في العام 1927 وســـلموه إلى القطـــاع الخـــاص، وبخاصة إلى الكنيسة، لكن عندما انتخب ألفونسو لوبيث بوماريخو رئيساً للبلاد في العام 1934 أعلن عن *ثورة زاحفة*. وللمرة الأولى والوحيدة في مجمل تاريخ الأمة، انطلقت الحكومة بهدي من الثورة المكسيكية من جهة وإصلاحات الاشتراكيين غير المستقرة في جمهورية إسبانيا من جهة أخرى

مـــن أجل توحيد البلاد ودمقرطتها وإنتاج نموذج جديد للمواطن. وكانت إحدى الأدوات الأساســـية في عملية التحول هي أن يكون هناك نظام تعليمي وطني حقاً، وهكـــذا أُسست أول *مدرسة وطنية* وهي مدرسة ثيباكيرا الوطنية. ولم يكن آنذاك سوى أربعين ألف طالب ثانوي في عموم كولومبيا، ولم يتخرج في ذلك العام سوى ستمئة طالب منهم (لم يكن من بينهم سوى تسع عشرة فتاة). في الحقيقة، إن معظم الكولومبـــيين كانوا لا يملكون إلاّ فكرة بسيطة عن التعقيد الإقليمي الذي يكتنف بلادهم، لكن الأولاد في ثيباكيرا كانوا قد وفدوا من كل حدب وصوب[36].

كان المعلمون في ثيباكيرا بارزين، كان العديد منهم قد رفضتهم مدارس أخرى بـــسبب توجهاتهم التقدمية. وكانوا يميلون إلى أن يكونوا مثاليين محدّين من الليبراليين الراديكاليين أو حتى الماركسيين، وأُرسلوا إلى ثيباكيرا لمنعهم من تلويث عقول صبيان الطـــبقة العلـــيا في بوغوتا. وكانوا جميعاً متخصصين في الموضوعات التي يدرسونها، واجـــتاز معظمهم دار المعلمين العليا التي كان يديرها خوسيه فرنسيسكو سوكاراس، وهو عالم نفس ساحلي وقريب أحد رفاق العقيد ماركيز منذ أيام الحرب القديمة وقريب تـــرانكيلينا زوجـــة العقيد[37]. كان سوكاراس يعتقد بضرورة أن يطلع الكولومبيون الشباب على كل الأفكار بما فيها التيارات الاشتراكية، وكان العديد من المعلمين قد تخرجوا حديثاً من الدار، فأقاموا علاقات غير رسمية وبلا تكلف مع الطلاب.

كانت الأيام المدرسية شاقة بمتطلباتها. فكان الجرس يرن عند الساعة السادسة صباحاً كي يستيقظ التلاميذ، وعند الساعة السادسة والنصف يكون غارسيا ماركيز قـــد أكمـــل استحمامه بماء بارد ولبس ثيابه ولـــمّع حذاءه ونظف أظافره ورتب ســـريره. ولم يكن الطلاب يرتدون زياً موحداً، بل كان معظمهم يرتدون سترات فضفاضة زرقاء اللون وبناطيل رمادية وينتعلون أحذية سوداء اللون. واضطر غارسيا ماركيـــز إلى أن يـــبذل قصارى جهده وهو يعيش على ما يرسله إليه أبوه، وانتابه الإحـــساس بالحـــرج في السنوات التالية بسبب تمزّق حافات سترته ذات الكمين الطويلين التي بالرغم من ذلك ساعدته على الأقل على تدفئة نفسه في مدرسة تفتقر إلى وســـائل التدفـــئة. وعند الساعة التاسعة ليلاً، وبعد أن يكون الأولاد قد تركوا وراءهـــم يـــوماً وفروضاً مدرسية، يتجهون صوب قاعات النوم حيث بدأ بوصول

غارسيا ماركيز تقليد مدرسي لا يُنسى. ففي قاعة النوم، ثمة مقصورة صغيرة يجلس فيها المعلمون وهم يغالبون النعاس، وقبل أن تُطفأ الأنوار يبدأ أحد المعلمين بالقراءة بصوت عالٍ أمام الأولاد حتى يستسلموا للنوم. وكانت القراءة في كتاب **الرجل ذو القناع الحديدي** الكلاسيكي المشهور عادة، وفي كتب جادة أيضاً مثل **الجبل السحري**[38]. وبحسب غارسيا ماركيز، كان أول المؤلفين هو مارك توين. وكانت ذكرياته عنه ذكريات ملائمة لرجل قُدِّر له أن يكون - من بين صفات أخرى - مارك توين كولومبيا نفسها: فهو رمز البلاد، وهو الذي حدّد لها حسًّا وطنياً بالفكاهة وهو موثق العلاقة بين الأقاليم والعاصمة. كانت قاعة النوم تضم أسِرَّة معدنية مزودة بألواح. وكانت تلك الألواح مادة يسرقها الأولاد أحدهم من الآخر. واشتهر غارسيا ماركيز بالكوابيس المزعجة التي تراوده في منتصف الليل فتدفعه إلى أن يوقظ بصرخاته كل النائمين في القاعة. لقد ورث هذا الميل من أُمه لويسا. "ولم تحدث أسوأ كوابيسه بهيئة رؤى مفزعة بل بفترات زمنية بهيجة وأشخاص اعتياديين أو أماكن تكشف له عن معلومات رهيبة بلمحة بصر بريئة"[39]. المؤكد أن قراءته لرواية **البديل** لدوستويفسكي لم تكن مفيدة له.

كانت الدراسة أيام السبت تستمر حتى الظهيرة وبعدها يتمتع الأولاد باستراحة حرة حتى الساعة السادسة مساءً يذهبون خلال هذه الفترة إلى البلدة أو يشاهدون شريطاً سينمائياً في دار السينما أو ينظمون رقصات - هذا إن كانوا محظوظين - في بيوت طالبات المنطقة. وكان في وسعهم أن يمارسوا لعبة كرة القدم أيام السبت بالرغم من أن الساحليين كانوا يفضلون لعبة البيسبول. أما يوم الأحد فكان يوم إجازة تماماً حتى الساعة السادسة مساءً. وبالرغم من أن المدرسة كانت تعلم الأولاد الفروض الدينية على يد أحد القساوسة، إلا أنه لم تكن هناك صلاة يومية ولم يكن الحضور إلى الكنيسة إلزامياً حتى أيام الأحد بالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يتوجه إلى الكنيسة، وربما كان سبب حضوره إلى الكنيسة كي لا يضطر إلى أن يكذب على أمه في الرسائل التي يرسلها إلى أهله. كانت هذه الحرية أمراً استثنائياً غريباً في كولومبيا في عقد الأربعينيات من القرن العشرين. وكما يتذكر غارسيا ماركيز في وقت لاحق، فإن هناك الشيء الكثير الذي يمكن قوله عن

الحياة في ثيباكيرا عدا وجبات الطعام اليومية الثلاث والحرية، التي هي نمط من أنماط *الاستقلال الذاتي وإن تحت المراقبة*، والتي تفوق حدود الحرية في بيته.

وسيظل غارسيا ماركيز يشعر بالامتنان للمدرسة لما قدمته إليه من معلومات عن تاريخ كولومبيا وأميركا اللاتينية، إلاّ أن الأدب كان حتماً موضوعه الأثير، لهذا انكــبَّ علــى دراسة كل شيء منذ الإغريق والرومان وحتى النصوص الكولومبية الحديثة. لكن إملاءه كان غريباً جداً منذ تلك الأيام وحتى اليوم، وإن لم يكن ضعيفاً ضعف مهاراته في الرياضيات. وعزّى نفسه بفكرة مفادها أن سيمون بوليفار أُشيع عــنه أنــه كان كثير الأخطاء في الإملاء. ويقول غارسيا ماركيز بعد ذلك إن أمه كانت أفضل معلم له في الإملاء، إذ كانت تعيد إليه الرسائل التي كان يرسلها إليها وقد أجرت عليها تصحيحات إملائية.

في عطــلات نهاية الأسبوع كان غارسيا ماركيز يمارس بعض الألعاب. فكان يلعب كرة القدم مع أصدقائه إلى حدٍّ ما في فناء المدرسة، أو يذهب إلى دار السينما، أو يطــوف في الشوارع أو المروج المرتفعة في ثيباكيرا وتحت أشجار اليوكالبتوس. وفي بعــض الأحيان كان يسافر في يوم من أيام الآحاد بالقطار إلى بوغوتا التي تبعد ثلاثين ميلاً لزيارة أقربائه الساحليين. وفي إحدى تلك الزيارات عرّفه أحد الأصدقاء في الــشارع إلى قــريب بعــيد هــو غونثالو غونثاليث وكان يشتغل في صحيفة الاســبكتادور. وقد ترك لنا غونثاليث المولود أيضاً في مدينة آراكاتاكا صورة نادرة عــن الشاب غارسيا ماركيز آنذاك: "لا بد من أنه كان في سن السابعة عشرة ولم يكن وزنه يزيد على خمسين كيلوغراماً. لم يقترب مني. ولم يقل شيئاً قبل أن أبادر بــالكلام. وعلى الفور أدركت أن هذا الغلام منهجي ومنضبط وكثير التأمل. ولم ينــتقل مــن المكــان الذي كان فيه، وكان يسير بحذاء قديم، ولكن نظيف، على الرصــيف تارة وعلى امتداد إسفلت الشارع السابع تارة أخرى. لعله كان شخصاً خجــولاً لم يُرد أن يُظهر جزعه. كان حذراً، تلوح عليه مسحة حزن، مستوحداً ومغمــوراً. ولكن ما إن يتغلب على تحفظه المبدئي حتى يبدأ بالتواصل وتظهر عليه انفعالات منضبطة حتى إنني سمعته يقول في ما بعد عن ذلك المظهر إنه "مظهر الرجل اللطيف". وبعد دقيقة أو دقيقتين يبدأ بالحديث عن الكتب..."[(40)].

القراءة هي النشاط الرئيسي لهذا الشاب الغامض في ثيباكيرا. في بارانكيا قرأ كل رواية رخيصة حصل عليها من روايات جول فيرن وأميليو سالغاري وما يكفي من الشعر الرديء وكلاسيكيات العصر الذهبي الإسباني. وكان يحفظ عن ظهر قلب تلك القصائد. والآن، شرع المراهق المستوحد بقراءة كل كتاب يستطيع وضع يده عليه، فعكف على قراءة مكتبة الأدب، ثم تحول عنها إلى كتب التاريخ وعلم النفس والماركسية - وبخاصة مؤلفات إنغلز - وحتى مؤلفات فرويد وتوقعات نوستراداموس. وفي الوقت عينه، شعر بالملل من متطلبات تعليمه الرسمي الصارمة، وأمضى الوقت وهو يحلم أحلام يقظة حتى كاد الأمر أن يصل به إلى إضاعة منحته الدراسية. لكنه بعد أسبوع واحد أو أسبوعين من الدراسة أثار دهشة زملائه في الصف ومعلميه عندما أصبح الأول في صفّه.

في أواخر العام 1943 عاد غابيتو إلى سوكري مرة أخرى. كان عليه أن يعود أدراجه إلى هذه البلدة النهرية النائية من المدرسة في بارانكيا وثيباكيرا، ومن الجامعة في بوغوتا، ومن أعماله في كارثاخينا وبارانكيا إلى أن انتقلت الأسرة إلى كارثاخينا في العام 1951. في هذه البلدة، وفي غيرها من البلدات القريبة، يلتقي بنماذج لعدد من أشهر شخصياته بمن فيها إيرنديرا البريئة البغية التي سيطلق عليها اسم ماريا أليخاندرينا ثيربانتس في **قصّة موت معلن**. في حين كان بعيداً في ثيباكيرا في تلك السنة الأولى، كان الطفل التاسع هيرناندو (نانتشي) قد ولد في أواخر شهر آذار. وفي حين كانت الزوجة حاملاً، كان انهماك غابرييل إليخيو في المغازلة قد أوقعه في شر أعماله مرة أخرى إذ ولد له طفل آخر غير شرعي. في هذه المرة ثارت ثائرة لويسا وابنتها الكبرى مارغوت، وخُيِّل لغابرييل إليخيو أنه ربما تجاوز حدوده، لكنه، كعادته، أفلح في استمالتها إلى رأيه(41).

مرَّ غارسيا ماركيز في أثناء تلك العطلة بتجربة عاطفية متقدة أخرى، وكانت هذه المرة مع شابة سوداء شهوانية أسماها نيغرومانتا (وهو الاسم الذي سيمنحه لامرأة سوداء فاسقة تظهر في الفصل ما قبل الأخير من رواية **مئة عام من العزلة**) يعمل زوجها شرطياً. ويروي لويس إنريكي جزءاً من الحكاية فيقول: "في منتصف إحدى الليالي التقى غابيتو شرطياً على جسر الفاريث ببلدة سوكري، وكان

الـــشرطي في طـــريقه إلى بيته فيما كان غابيتو عائداً من بيت زوجة الشرطي. حيَّا أحـــدهما الآخر. واستفسر الشرطي عن أحوال أسرة غابيتو في حين استفسر غابيتو عن أحوال زوجة الشرطي. فإذا كانت تلك القصة ترويها أمي، فيمكنك أن تتخيل القصة التي تعرفها ولا تروي شيئاً عنها. كما أنها لا تروي تلك القصة كاملة أيضاً لأنهـــا انتهت عندما طلب الشرطي من غابيتو أن يشعل له سيجارة وعندما اقترب اكفهر وجهه وقال: *اللعنة عليك يا غابيتو. لا بد من أنك كنت في المبغى لأن رائحة عاهرة تنبعث منك لا طاقة حتى لذكر الماعز بها"*[42]. وبعد مرور أسابيع – وبحسب رؤيـــة غارســـيا ماركيز – ضبطه الشرطي متلبساً في الفراش مع زوجته (وكان قد استلـــسم للـــنوم لسوء الحظ) وهدده أن يلعب معه الروليت الروسية وأنه سيكون اللاعب الوحيد. لكن رجل القانون رقَّ له، لا لأن لديه نفس النـــزعات السياسية التي لدى والد غارسيا ماركيز وحسب، بل لأنه تذكر أيضاً، وبكل العرفان، مناسبة مرت عندما عالجه غابرييل إليخيو وشفاه من نوبة مرض السيلان التي لم يستطع أي طبيب آخر أن يشفيه منها[43].

كـــبر غابيـــتو وبدا مناسباً لسنه. ويتذكره رفاقه في ثيباكيرا أنه كان نحيفاً، مهتاجاً، يرتجف ويشكو دوماً من شدة برودة الجو. وتحول شعره الذي كان يمشطه ويفـــرقه مـــن منتـــصف رأســـه إلى أسلاك حديدية لم يتمكن من السيطرة عليها بعدئـــذ[44]. ولم يعـــد يحاول الظهور بمظهر الكاتشاكو؛ رزيناً، بثياب أنيقة وشعر مدهون ومرتب في كل الأوقات، وبدأ يظهر حقيقة نفسه وماهيتها. فظهر شارب ساحلي فوق شفته المراهقة وتركه ينمو كيفما شاء. واستُبدل المدير السابق بشاعر شاب يدعى كارلوس مارتن، لم يتجاوز سن الثلاثين، بدا وسيماً مثل نجوم حفلات مـــا بعد الظهيرة السينمائية والمسرحية. وكان عضواً في حركة *رمل وسماء* الشعرية العصرية والتي كانت ذائعة الصيت في بوغوتا. لم يكن يُنظر إلى هؤلاء الشعراء على أنهـــم ثوريـــون في معظـــم جمهوريات أميركا اللاتينية في ذلك الوقت. وكانوا قد استمدوا اسم الحركة من ديوان شعر الشاعر الإسباني خوان رامون خيمنيث. لكن كولومبـــيا كانت دوماً موطن الشعر أكثر مما هي موطن النثر؛ باستثناء الخطب التي كانت سمة من سمات البلاد الوطنية. وكانت أيضاً بلد التيارات المحافظة في الأدب.

كـــان موروثها الشعري ثرياً، بل كان الموروث الأقوى في قارة اشتهرت بشعرائها العظام لكنه كان موروثاً يعمل في نطاق ضيق وكانت الواقعية الاجتماعية والتاريخية للـــبلاد غائبة تقريباً عن أدب البلاد في تلك الأيام. كان شعراء كولومبيا الجدد مثل إدواردو كارانـــثا، وآرتور كامات راميرث، وخورخه روخاس، وكارلوس مارتن، يعكسون أعمال خيمينيث وجيل الشعراء الإسبان المتأخرين في العام 1927 وشعراء أميركا اللاتينية الضليعين مثل بابلو نيرودا الذي زار بوغوتا واتصل بالحركة في أيلول من العام 1943.

في الأشـــهر الـــستة التالـــية، حلّ الشاعر مارتن محل المعلم الدمث كارلوس كالديـــرون هيرمـــيدا بصفته معلم غارسيا ماركيز في مادة الأدب الإسباني. كان غارســـيا ماركيـــز قد شرع بكتابة الشعر بالاسم المستعار خابيير غارثيس، وكان كارلـــوس مارتن قد ركّز، وبخاصة في مؤلفات روبن داريو شاعر نيكاراغوا الكبير الـــذي أحـــدث وحـــده تقريباً تغييرات ثورية في اللغة الشعرية في كل من إسبانيا وأميركا اللاتينية بين عام 1888، الذي صدر له فيه كتاب **أزرق**، وعام 1916 الذي تـــوفي فيه. وقد بات داريو الذي كانت طفولته تشبه طفولة غارسيا ماركيز شبهاً خفـــيفاً واحداً من النجوم الأساسيين في أولمب الشعر الكولومبـــي[45]. وبدأ ينظم قـــصائده علـــى غرار الآثار الفنية لكبار الإسبان مثل غارثيلا دي لابيغا وكيفيدو ولـــوركا والأميركيين اللاتينيين مثل داريو ونيرودا. ونظم سونيتات بناء على طلب فتـــيان لـــيقدموها إلى صـــديقاتهم. وفي يـــوم ما، قرأت إحداهن واحدة من تلك السونيتات أمامه وهي لا تدري أن غارسيا ماركيز هو نفسه الذي كتبها[46]. ونظم أيـــضاً قصائد حب ألهمتها علاقاته بفتيات المنطقة. وقد ظل غارسيا ماركيز يشعر بالحرج بعد أن تقدم به العمر لتلك المحاولات البدائية حتى كاد الأمر أن يصل به إلى حدّ إنكار كتابته العديد منها.

نظّـــم الطلاب الساحليون حفلات الرقص في البلدة كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. فالتقى عبر هذا الطريق وعبر غيره بعدد من الشابات وكانت إحداهن وهي بيرنـــيس مارتينـــيث شريكته في قصة حب رومانسية قصيرة، لكنها عنيفة على ما يبدو، وذلك في الأيام الأخيرة من إقامته في ثيباكيرا.

كانــت قد ولدت في الشهر نفسه الذي ولد فيه غارسيا ماركيز. تتذكر في العــام، 2002 وهي أرملة ولها ستة أطفال وتعيش في الولايات المتحدة، أن غارسيا ماركيــز أُغرم بها من النظرة الأولى وأن الحماسة القوية التي جمعت بينهما تمثّلت في أغــاني البوليرو الشائعة يومئذ، فكانا أحدهما يغني للآخر مقاطع منها في أثناء قصة حــبهما الرومانسية[47]. ومن الفتيات اللواتي تعذر عليه نسيانهن سيسيليا غونثاليث بيثانو "التي لم تكن حبيبة أحد، وإنما عروسة لكل مدمني الشعر، وكانت ذكية، بل شــديدة الذكاء، ذات شخصية فاتنة وروح متحررة، وتنتمي إلى أسرة قديمة موالية لحزب المحافظين فضلاً عن ذاكرة خارقة في حفظ الشعر"[48]. كانت سيسيليا تُدعى *ذات الــذراع الــواحدة الــصغيرة* لأنهــا كانت فتاة شقراء جميلة مفعمة بالحيوية والنشاط، تجاذب غابيتو وإياها الحديث عن الشعر باستمرار. وظن معظم الفتيان أنها صديقته.

ثمــة مغامـــرات أخرى كالهروب ليلاً إلى المسرح والتسلل تحت جنح الظلام للقـــاءات غير مشروعة، ولم يبدُ بواب المدرسة قادراً على أن يضبط أيّاً من الفارين ســـراً، فاســتنتج الفتيان أنه متواطئ معهم ضمناً. ثم أقام غارسيا ماركيز علاقة مع امرأة مسنة متزوجة بطبيب، وكان في أثناء غياب زوجها يتسلل ليلاً إلى مخدعها في نهايــة مــتاهة مـــن الحجرات والممرات في أحد بيوت ثيباكيرا التي ترقى إلى عهد الاســتعمار. ويدوّن غارسيا ماركيز هذه التجربة التي تستحق أن تكون رواية من تأليف بوكاشيو، في مشهد لا ينسى في مطلع رواية **مئة عام من العزلة** حيث يمارس خوســيه آركاديــو الشاب تجربته العاطفية للمرة الأولى بعد أن يتحسس طريقه في الظلمة في بيت يعج بأجساد غلبها النوم على أراجيح شبكية[49].

كـــان كارلوس مارتن يعرف جميع الشعراء الكبار من أبناء جيله. وبعد مرور بـــضعة أشهر على وصوله دعا اثنين من أكثر أولئك الشعراء تأثيراً، وهما إدواردو كارانثا وخورخه روخاس لإلقاء محاضرة في ثيباكيرا، وتشرّف غارسيا ماركيز وأحد أصـــدقائه بإجـــراء مقابلة معهما في الصالة الكبرى في ذلك البيت العائد إلى الحقبة الاستعمارية والذي استأجره مارتن في الميدان العام في البلدة. كانت تلك المقابلة هي أول اتصال يجريه مع الأدب الحي بأعلى مستوياته. وخامره شعور بالبهجة والحرج

عـــندما عـــرّفه مارتن إلى الزائرين المشهورين على أنه شاعر عظيم[50]. لكن لسوء الحـــظ أصـــبحت الجريدة الأدبية التي أسسها الفتيان ضحية غير محتملة للتطورات الـــسياسية الوطنية وكذلك تجربة غارسيا ماركيز الأولى في العنف الذي أخذ يهدد كولومبيا الجديدة والذي كان الرئيس لوبيث بوماريخو يحاول نشره. وفي العاشر من شهر تموز عام 1944 أُختطف لوبيث بوماريخو، وكانت قد مضت سنتان على فترة رئاســته الثانية، في بلدة باستو في محاولة انقلابية دعمها السياسي المحافظ المتطرف لوريانـــو غومـــيث الذي اشتهر في أوساط الليبراليين باسم *المسخ*. واضطر لوبيث بوماريخـــو إلى الاستقالة تحت ضغط متزايد في الحادي والثلاثين من شهر تموز عام 1945 وحلّ محله ليبرالي آخر هو ألبيرتو ييراس كامارغو الذي انهى السنة الأخيرة من الحكم في جو يسوده توتر متزايد. وأرسل كارلوس مارتن بصفته مدير المدرسة برقية تأييد إلى القصر الحكومي بعد مرور بضعة أيام على المحاولة الانقلابية. بعد ذلك بمدة قـــصيرة، وصل إلى المدرسة عمدة ثيباكيرا المحافظ برفقة كتيبة من رجال الشرطة، وصادروا نسخة العدد الأول كلها من الجريدة الأدبية التي طُبعت خصيصاً في ورشة طـــباعة في بوغوتا. وبعد مرور بضعة أيام اتصل وزير التربية هاتفياً بالمدير الجديد، واستدعاه إلى مكتبه، وطلب منه الاستقالة.

عـــاد غارســـيا ماركيز إلى صفوف السنيور كالديرون هيرميدا واستأنف قراءاته. وأشـــار إلى أنـــه وجـــد مـــؤلفات فرويد تشبه مؤلفات جول فيرن من ناحية تأملاتها وتخـــيلاتها[51]، فألهمته في تقديم مقالة بعنوان **الذهان المفرط** كتبها، ويا للمفارقة، وهو رهـــن المدرسة[52]، وكانت عن فتاة، تحولت إلى فراشة، وطارت بعيداً ومرت بسلسلة مـــن المغامـــرات العجيبة. عندما سحر زملاء غارسيا ماركيز في الصف من مثل هذه التبجحات، أسرع المعلم بمساندته وتشجيعه وقدم إليه نصيحة عملية بشأن تنظيم أدواته النثـــرية والبلاغية التي يمكن له أن يلجأ إليها. طافت القصة في جميع أرجاء المدرسة حتى وصلت إلى سكرتير المدرسة الذي قال إن القصة ذكرته بقصة كافكا **المسخ**.

كانت التفاصيل مذهلة لأن غارسيا ماركيز ظل يردد أنه سمع عن كافكا أول مـــرة في بوغـــوتا عام 1947، وأن تأثّره به دفعه مباشرة لنشر أول مجموعة قصصية له[53]. لكن بالرغم من ذلك، يبدو أنه ربما قرأ أعمال كافكا في المدرسة. ومما يثير

الانتباه أن رواية **البديل** التي قدّمها إليه غوميث تامارا لا تعدّ واحدة من أغرب مؤلفات دوستويفسكي وحسب، كما أشار إلى ذلك غوميث نفسه في ذلك الوقت، بل تُعدّ أيضاً واحدة من أكثر مؤلفات الروائي غير المشهورة أهمية. على كل حال، كان أحد قراء الرواية هو فرانز كافكا. ولا بد من أن الفكرة المتمثلة بأنه لدينا أكثر من شخصية واحدة وأكثر من هوية واحدة، هي فكرة مريحة من مختلف أوجه العلاج النفساني لشاب مثل غارسيا ماركيز الذي كان مضطرباً أكثر مما كان يبدو عليه، ومرَّ بمشكلات عاطفية جد خطيرة في مدرسته السابقة، وها هو الآن لا يواجه تحدياً أكبر وحسب لثقته وإحساسه بالذات على وجه العموم، بل لحاجته إلى الاستجابة لأعراف بوغوتا التافهة في ما يخص السلطة والذوق والمدنية. وزعم السنيور كالديرون في ما بعد أنه أخبر تلميذه النجيب، الذي ظن معظم المراقبين في ذلك الوقت أنه فنان تصويري أكثر مما هو كاتب، أن في إمكانه أن يغدو "أفضل روائي في كولومبيا"[54]. مما لا ريب فيه أن مثل ذلك الدعم المعنوي ما كان ليقدر بثمن.

بالرغم من نشاط غارسيا ماركيز خارج الصف المدرسي واهتمامه المتقطع بالتزاماته المدرسية، فإن امتيازه في المدرسة استمر في النمو، ففي اليوم الأخير من العام 1944 وفي نهاية السنة الثانية من دراسته، نُشرَت في صحيفة اليتمبو، وهي أهم صحيفة في كولومبيا، إحدى قصائده في ملحقها الأدبي بالاسم المستعار خابيير غارثيس، وكان ذلك مصدر حرج شديد لمؤلفها على مدى ستين سنة، لكنها كانت حينها اعترافاً مدهشاً بالفتى ذي السبعة عشر عاماً والذي لا تزال أمامه سنتان قبل أن ينهي دراسته في المدرسة الثانوية[55]. كانت قصيدة **أغنية** مهداة لصديقة اسمها لوليتا بوراس ماتت ميتة مأساوية قبل مدة غير طويلة، وكان مطلع القصيدة بيتاً للشاعر إدواردو كارانثا زعيم جماعة حجر *وسماء*، وكانت تبدأ على هذا النحو:

أغنية

"السماء ماطرة في هذه القصيدة"

إ. ك.

* * *

السماء ماطرة. العصر نصل سحابة
مطر.
العصر مشبع
بحزنك
أحياناً، تأتي الريح
بأغنيتها. وأحياناً...
أشعر بروحي ملتصقة
بصوتك الغائب.

* * *

مطر.
وأنا أفكر فيك. وأحلم.
لا أحد يأتي عصر اليوم
إلى أحزاني،
المغلقة بقوة.
لا أحد. غيابك وحده
هو الذي يعذبني ساعة فساعة.
وغداً، يأتي حضورك
بمجيء الأزهار.

* * *

أفكر – والمطر ينهمر –
في نظرتك الرقيقة.
فتاة مثل فاكهة طازجة،
بهيجة كحفل،
اليوم يبزغ اسمك
هنا في قصيدتي[56].

يحكم غارسيا ماركيز على أشعاره التي نظمها أيام مدرسته قائلاً: "كانت تمارين في الأسلوب وحسب، تفتقر إلى الإلهام أو الطموح، و لم أُعوِّل على قيمتها الفنية لأنها لم تصدر عن أعماق نفسي"[57]. في الحقيقة، إن أول قراءة للقصيدة –

ناهيك عن موضوعها - تشير بلا أدنى ريب إلى أن شحنتها الوجدانية قوية إلى حدٍّ ما. أما الجانب التقني فهو اشتقاقي - وهو أثر من آثار نيرودا في عشرينيات القرن الماضي وليس سيئاً - لكنه جانب ثانوي. تبدو الحقيقة أن غارسيا ماركيز يشعر بالحرج، في أكثر جمهوريات أميركا اللاتينية نظماً للشعر، لا بسبب عيوبها الفنية غير المفهومة في بداياته الشعرية المبكرة وحسب، بل بسبب العواطف التي لم يعبر عنها ولكنه شعر بها عندما كان مراهقاً. لا بد له من أن يفسر لنا تفوّقه الأدبي المتنامي الذي يُعدّ استمراراً لبراعته الفنية في بارانكيا، والسبب الذي جعل غارسيا ماركيز يلقي كلمة التخرج الاحتفالية في السابع عشر من تشرين الثاني عام 1944 التي ودَّع فيها الطلاب الذين كانوا يسبقونه لمرحلتين دراسيتين. وكان موضوع الكلمة هو **الصداقة**، وهي إحدى الأفكار المهيمنة والمتكررة في حياته المستقبلية.

* * *

في العام 1944 لم تأخذه رحلة العودة إلى البيت إلا إلى ماغانغي. لقد كانت أسرة غارسيا ماركيز سعيدة - كما ظنت - واستقرت في سوكري، غير أن السعادة كانت دائماً تجربة مؤقتة وزائلة لغابرييل إليخيو الذي قرر فجأة أن ينقل أفراد أسرته على مضض إلى ماغانغي، تلك المدينة الواقعة على امتداد النهر، الحارة والممتدة بغير انتظام، والمنبسطة التي تحيط بها المستنقعات، على نتوء جبلي يطل على نهر مجدلينا، وهي أهم بلدة نهرية بين مجدلينا وغرب البلاد. ثمة سبب يدفع للاعتقاد أن غابرييل إليخيو كان يهرب من موقع تجاربه وإحراجاته الجنسية، لكن هذا الهروب لم يمنعه من اتخاذ موقف تأديبي من أفعال ابنه الثاني لويس إنريكي الذي أُرسل بعيداً إلى مدرسة إصلاحية في ميدلين لتمضية ثمانية عشر شهراً فيها.

في ماغانغي تذكرت أخوات غابيتو لقاء ميرثيديس بارتشا التي ستغدو زوجته مستقبلاً. وقد زعم غارسيا ماركيز مراراً أنها كانت في سن التاسعة عندما التقاها، مما يجعل لقاءهما الأول بين تشرين الثاني 1941 وتشرين الثاني 1942- حتى قبل سفره إلى ثيباكيرا - وأنه كان يعلم حتى في ذلك الوقت (وهو في سن الرابعة عشرة) أنه سيتزوج بها[58]، أما ميرثيديس التي تزعم أنها "لا تتذكر شيئاً تقريباً عن الماضي"، فأكدت أنها التقت أول مرة الرجل الذي سيغدو زوجها مستقبلاً عندما

كانت صغيرة جداً[59]. والآن، وفي مطلع العام 1945 يكتب قصيدة بعنوان **سوناتا الصباح إلى تلميذة مدرسة روحية**. وثمة سبب قوي للزعم أن تلميذة المدرسة المشار إليها لم تكن سوى ميرثيديس بارتشا، وكانت قد أنهت تواً السنة الأخيرة من دراستها في المدرسة الابتدائية. وانتشرت القصيدة في مختلف أنحاء ثيباكيرا وماغانغي وكانت أثراً حماسياً آخر من شعر نيرودا، وكانت النسخة المطولة بعنوان **فتاة** وحسب، وبتوقيع خابيير غارثيس:

فتاة

تُسلّم علي وهي تمر، وكانت
أنفاسها المنبعثة مع صوتها
في باكورة ذلك الصباح، تلقي بالغشاوة،
لا على جوانب الضوء الأربعة في حجرتي وحسب، بل على أنفاسي وروحي.

****

هي مبكرة كالصباح،
لا تصدق مثل أي رواية،
وفيما هي تقطع الطريق وسط اللحظات
يلقي الصباح قطرات من دم أبيض نقي.

****

إن ارتدت الأزرق فهي ذاهبة إلى المدرسة،
لا أحد يعرف إن كانت تسير أو تطير،
خطواتها وئيدة، أشبه بنسمة.

****

في زرقة الصباح لا أحد يقول
مَن مِنَ الثلاثة هو الصباح،
من هي النسمة، ومن هي الفتاة[60].

****

إن كانت السوناتا من أجل ميرثيديس حقاً، فإنها واحدة من الأشياء القليلة جداً التي تفوه بها غارسيا ماركيز علانية عنها من دون أي لمسة فكاهة أو مفارقة.

لا بد من أنه رجع إلى المدرسة تخامره مختلف المشاعر في شباط من العام 1945 . فقـــد بدأ يدخن زهاء أربعين أو خمسين سيجارة يومياً، وهي عادة سيحتفظ بها علـــى مدى العقود الثلاثة التالية(61). وكان يجد في أثناء الدروس سبباً كافياً للجوء إلى دورة المياه وكان ينتظر بلهفة فترة الاستراحة. تصرف إلى حدٍّ ما تصرف متمرد خذلـــه الـــنظام، أو مثل شاعر لا يضر به أي نظام. وبدأ يشعر بالضجر من جميع الدروس باستثناء درس الأدب، ووجد صعوبة في دراسة موضوعات لا تثير اهتمامه. وطالما عبَّر عن دهشته إزاء نجاحه المدرسي وتوقع أن يقيّمه معلّموه استناداً إلى ذكائه المفترض لا إلى منجزاته الحقيقية.

بالرغم من شعوره بالاغتراب، فإن سلوكه وسجله يفيدان أنه اختير واحداً من ثلاثـــة صبيان يرافقون مدير المدرسة عند سفره إلى القصر الوطني في بوغوتا لطلب مـــساعدة مالية من الرئيس بيراس كامارغو الذي حلَّ محل لوبيث بوماريخو في فترة الطـــوارئ، وذلك للقيام بزيارة دراسية إلى الساحل. ولم يوافق بيراس وحسب، بل حضر أيضاً حفل التخرج في نهاية السنة. وبدأ غارسيا ماركيز يتعرف عن كثب إلى هـــذا الـــسياسي الليـــبرالي البارع في السنوات التالية، ويقيم معه واحدة من تلك العلاقـــات المتكافئة تكافؤاً غريباً وهو رجل بوغوتا القوي. مما لا ريب فيه أن سن الثامـــنة عـــشرة هي سن نضوج مبكر إذ يلتقي فيها المرء أول ما يلتقي مع رئيس الجمهـــورية، ويتـــصل فيها أول ما يتصل بكرسي الحكومة. وفي تلك السنة ألقى غارسيا ماركيز أعظم كلماته نجاحاً؛ وهي الكلمة المرتجلة الوحيدة. وعندما وضعت الحـــرب العالمية أوزارها ساد شعور من الحيوية والنشاط في المدرسة، وطُلب منه أن يقـــول شيئاً ما. فأعلن أن فرانكلين دي. روزفلت تمكن، شأنه شأن البطل الإسباني العظـــيم السيد، من أن "يحرز الانتصارات حتى بعد وفاته". وأصبحت تلك العبارة موضـــع حفـــاوة واحتفال لا في المدرسة وحدها، بل حتى في جميع أرجاء البلاد، فتعززت بذلك شهرة غارسيا ماركيز الخطابية(62).

في أواخـــر العام 1945 عاد إلى سوكري. وكان والده قد أغلق الصيدلية في ماغانغي، وعاد إلى أساليبه القديمة في التجوال، تاركاً لويسا وهي حامل مرة أخرى (إذا لم تكـــن حاملاً، فإنها قلما سُمح لها بالخروج من البيت) لترعى شؤون العائلة

الكبيرة في بيت متنقل. ولدى رجوعه، عاد بالأسرة مجدّداً إلى سوكري ليسكنوا بيتاً غير ذلك البيت الأولي على بعد مسافة من الميدان، ونبذ الصيدلة، ووهب نفسه للطب التجانسي. وولد الطفل العاشر ألفريدو (كوكي) في شهر شباط، وتولت مارغوت تربيته تربية فعلية.

سمح غابيتو لنفسه الآن أن تنقاد تماماً وراء طبع أخيه الأصغر سناً، ذي القلب الطيّب الذي لا سبيل إلى تقويمه في الوقت عينه. فالتحق على الفور بفرقة لويس إنريكي الموسيقية، وبدأ يسهر طوال الليل خارج البيت، ويرتاد المواخير المحلية، وينفق الجزء الأعظم من نصيبه من المال الذي تحصل عليه الفرقة في العربدة للمرة الأولى في حياته. وفي أيام الميلاد، وبدلاً من أن يساهم بنصيبه في المال المخصص لاحتفالات نهاية السنة، فإنه كان يتوارى عن الأنظار في بلدة ماخاغوال القريبة ليمضي عشرة أيام في المبغى، "يرجع الخطأ كله إلى ماريا أليخاندرينا ثيربانتس، تلك المرأة الاستثنائية التي التقيتها في أول ليلة وفقدت بسببها عقلي في أطول حفلات السمر والأنس وأشدها صخباً وعربدة في حياتي"[63].

بعد حسرات كثيرة وفترات صمت طويلة سألت لويسا ابنها البكر عما يجري، فردَّ عليها بالقول: "لم أعد أتحمل أي شيء. هذا هو الذي يجري". "ماذا؟ بسببنا؟"، "بسبب كل شيء". أخبرها أنه برم بالحياة، برم بالمدرسة، وبرم بالآمال التي تعلق عليه. لكن لم يكن ذلك هو الرد الذي يمكن لأمه أن تنقله إلى أبيه غابرييل إليخيو، لهذا واصلت الكلام برهة من الزمن، وأخيراً اقترحت أن الحل بالنسبة إلى غابيتو هو أن يدرس الحقوق، شأنه في ذلك شأن كل الشبان الطموحين تقريباً في أميركا اللاتينية في تلك الأيام. وقالت له بدهاء: "على كل حال، إن دراسة الحقول مفيدة لتعلم الكتابة، وقد ذكر الناس أن في وسعك أن تصبح كاتباً جيداً". وبحسب ما أوضح غابيتو في مذكراته، فإن رده الأول على أمه بخصوص الموضوع كان رداً سلبياً: "إذا كان على المرء أن يصير كاتباً، فلا بد له من أن يكون كاتباً كبيراً، لكن صناعة مثل هؤلاء الكتاب توقفت". إن القارئ يواجه ادراكاً مدهشاً وهو أن الشاب، وإن لم يكن قد قرأ بعد مؤلفات جويس أو فوكنر، إلا أنه لم يكن مهتماً بأن يكون كاتباً، كأولئك الكتاب البائسين الذين قد يمثلون القرن العشرين: لقد

كـــان يغـــي من أعماق قلبه أن يكون دانتي أو ثيربانتس! و لم تستسلم لويسا أمام اســـتحيائه، لذلك أفلحت في الأيام القليلة المقبلة في عقد مفاوضات ممتازة حتى من دون أن يـــناقش الأب والابـــن الموضوع وجهاً لوجه: لقد وافق غابرييل إليخيو، بالـــرغم من مأساوية التصرف، على ألاَّ يسير الابن في مهنة أبيه في الطب، ووافق غابيـــتو على ألاَّ ينهي دراسته ويحصل على شهادة البكالوريا، وإنما يلتحق بالجامعة الوطنية لدراسة الحقوق. وبهذا تم تفادي تمرد مراهق وأزمة أسرة كارثية[64].

لا بد من أن غارسيا ماركيز، الذي أصبح الآن أشبه بالفاسد الأخلاقي، قد انتابته الدهـــشة عندما وجد مع اقتراب الميلاد أن تلميذة المدرسة الروحية القادمة من ماغانغي قد انتقلت إلى سوكري. وكان اسمها الكامل هو ميرثيديس راكيل بارتشا باردو، وهي ابـــنة صـــيدلي سبق لغابرييل إليخيو أن تعرف إليه على مدى سنين طويلة مذ كان شاباً يقطع الأنهار والأدغال في حوض مجدلينا في مطلع عشرينيات القرن العشرين. ولدت في الـــسادس مـــن تشرين الثاني عام 1932 وكانت، شأنها شأن غابيتو، الابنة البكر، جميلة على نحو غامض، ذات وجنتين بارزتين وعينين سوداوين منحرفتين، ورقبة طويلة نحيفة وجـــسد رشـــيق. كانت تقطن في الميدان العام قبالة كايتانو خنتيلي الذي كان بدوره يسكن بجانب البيت الذي سكن فيه آل غارسيا ماركيز قبل انتقالهم إلى ماغانغي.

انحدرت راكيل باردو لوبيث، والدة ميرثيديس، من أسرة صاحبة مزرعة لتربية الماشـــية، مثل أبيها تماماً، غير أن أرومة الأب ديميترو بارتشا فيلّيا كانت من المنطقة الـــشرقية الوســـطى بالرغم من أنه ولد في كورونثال، وأنه كان كاثوليكياً، وكان إلياس بارتشا فاخوري والد ديميتريو قد جاء من مدينة الإسكندرية وربما من لبنان. ومـــن هـــنا جاء جمال ميرثيديس "السري الشبيه بجمال أفعى النيل"[65]. واكتسب إلـــياس الجنسية الكولومبية في الثالث والعشرين من شهر أيار عام 1932، أي قبل ولادة ميرثـــيديس بستة أشهر، وعاش زهاء مئة عام، وقرأ نجوم الأهالي في حبيبات القهـــوة. وقالت لي: "كان جدي مصرياً قُحَّاً، وكان معتاداً على أن يُرقِّصني على ركبتيه، ويغني لي باللغة العربية. وكان يرتدي دائماً بذلة من الكتان الأبيض ويضع ربطـــة عـــنق سوداء اللون، وساعة ذهبية في معصمه، ويعتمر قبعة من القش مثل موريس شيفالييه. لقد توفي وأنا في سن الرابعة تقريباً"[66].

كانـــت ميرثيديس راكيل، التي سميت باسم أُمها وجدها، أكبر أولاد ديميتريو وراكـــيل الـــستة. انتقلت أسرتها إلى ماخاغوال بعد ولادتها، لتعود بعد ذلك إلى ماغانغي وفي نهاية المطاف إلى سوكري. كان ديميتريو يشتغل في مهن متعددة بما فيها التمويـــنات العامـــة، لكنه كان، شأنه شأن غابرييل إليخيو غارسيا، متخصصاً في الـــصيدلة. وكانت ميرثيديس قد أنهت سنتها الأولى في مدرسة القلب الأقدس لدير الراهبات الفرانسيسكانيات في بلدة مومبكس الواقعة على الجهة الأخرى من النهر القادم من ماغانغي. كانت على بعد شارع واحد من البرج المثمن المشهور لكنيسة ســـانتا باربـــارا في الميدان العام لما يعرف بأكثر المدن الكولومبية الصغيرة احتفاظاً بمعالمها التي ترقى إلى حقبة الاستعمار(67).

في بلـــدة ماغانغـــي، أخـــبرتني إحدى صديقات الطفولة قائلة: "لقد كانت ميرثـــيديس موضع اهتمام شديد، ممشوقة القوام، فارعة الطول، ورشيقة بالرغم من أن شقيقتها ماريا روسا أكثر جمالاً منها"(68). وكانت تساعد في صيدلية الأسرة في تلـــك الأيـــام، وكان أولاد غارسيا ماركيز(*) يشاهدونها في أغلب الأحيان عندما كانـــوا يخرجون لقضاء حاجيات أبيهم. وكانوا كلهم يدركون، آنذاك وبعد فترة لاحقـــة، أن ميرثـــيديس تتمتع بإحساس قوي بشخصيتها وبسلطتها. وكان غابيتو الـــذي قلمـــا خـــرج من أجل أي شيء على نحو مباشر، يتلكأ ويتجاذب أطراف الحـــديث مع والد ميرثيديس ديميتريو بارتشا: كان غابيتو يفضل دوماً كبار السن وكانت فضيلة ديميتريو الكبرى أنه كان ليبرالياً بالرغم من صداقته بغابرييل إليخيو. وكانـــت ميرثـــيديس تصر دائماً على أنها لم تكن تدرك نيات معجبها المغرم بها. وكانت عادةً لا تقر بوجود غابيتو، فكان والدها ينظر من فوق نظارته وهي تمر من أمامهما ببطء وتشامخ فيؤنبها برقة: "قولي مرحباً". وأخبرت غابيتو أن والدها كان يقول لها دائماً: "إن الأمير الذي سيتزوجك لم يولد بعد". وقالت لي إنها ظلت تفكّر طيلة سنوات في أن غابيتو كان مُغرماً بوالدها!

علـــى امتداد عطلة الميلاد 1946/1945، واتته الفرصة للاقتراب أكثر من هذه الفـــتاة الهادئـــة والباردة عند لقائهما في أثناء الحفلات. ويستذكر الراوي في **قصة مـــوت معلـــن**: "عرف عديد من الناس أنني طلبت في غمرة إحدى الحفلات من

ميرثيديس أن تتزوجني بمجرد أن أكملت تعليمها الابتدائي وهو ما ذكّرتني به عندما تزوجنا بعد أربع عشرة سنة"[69]. ورآها بعد مرور بضعة أيام على الحفلة في الشارع تمشي مع طفلين صغيرين وقالت ضاحكة: "نعم، إنهما طفلاي". فتلقى هذه النكتة الناضجة من هذه الشابة الغامضة على أنها علامة سرية تفيد أنهما متفقان في الميول والمشارب، فجعلته يتواصل معها على امتداد سنوات.

قفل غارسيا ماركيز راجعاً إلى ثيباكيرا لإكمال تعليمه في السنة الأخيرة، وبدأت عودته بملاحظة جذابة، إذ أخذ على عاتقه أن يساعد صديقه الطائش خوسيه بالنثيا على الالتحاق بالمدرسة الوطنية بعد أن أخفق بالنثيا في المرحلة الأولى من دراسته في مدرسته في كارتاخينا. ولقاء ذلك اشترى له بالنثيا تذكرة سفر بالطائرة وسافرا جواً إلى بوغوتا بطائرة دي سي؛ ثري غير مكيفة، واستغرقت الرحلة أربع ساعات بدلاً من ثمانية عشر يوماً[70]. استأجر بالنثيا غرفة فسيحة في أفضل منزل في الميدان تطل نافذتها على الكاتدرائية. وقد وفرت هذه الأرضية لغارسيا ماركيز مأوىً نافعاً يستمتع فيه بمكانته المتقدمة في المدرسة كطالب في الصف الثاني عشر. واشترى له بالنثيا بذلة سوداء تعبيراً عن امتنانه. وبذلك انتهى حرج غارسيا ماركيز الذي كان يشعر به بسبب ثيابه غير المرتبة التي لازمته طوال سني المدرسة.

في وقت مبكر من هذه السنة الأخيرة، بلغ غارسيا ماركيز التاسعة عشرة من عمره، وكان أصبح شاعراً له قصائد منشورة، ويحظى بامتياز كبير وسط زملاء صفه الذين كان يسليهم بانتظام بقصائد هزلية أو هجائية، أو برسومات كاريكاتورية يرسمها عن زملاء صفه ومعلميه، وكان ينظم قصائد خاصة لصديقاتهم. لكنه ظل حتى وهو في هذه السن ضحية الكوابيس التي أرعبت زملاءه ومعلميه في قاعة النوم بالقدر نفسه تقريباً الذي أرعبته. وفي هذه السنة الأخيرة جرى نقله إلى قاعة نوم صغيرة حيث الذين يضطربون من صرخاته أقل عدداً.

باتت كولومبيا الآن في حالة من التوتر. فقد هزم حزب المحافظين، كما كان متوقعاً، الحزب الليبرالي في الانتخابات الوطنية، وفي الوقت الذي تخرج فيه غارسيا ماركيز من المدرسة في تشرين الثاني عام 1946، بدأ المحافظون يشنون حملة انتقام

فظيعة ضد أعدائهم السياسيين ومَن كان يؤيدهم، وبخاصة في المناطق الريفية حيث مُنح الفلاحون بعض الأسباب للأمل في أن إصلاح الأراضي قد يكون على جدول الأعمال السياسي. لكن هذا الشيء لم يحصل. وازدادت هيستيرية رد المحافظين بسبب تنامي شعبية خورخه إليسير غايتان صاحب الصوت الأعلى الذي بات الآن زعيم الليبراليين بلا جدال، ومرشحهم المعلن لانتخابات العام 1950. وتُؤرخ موجة العنف الرهيبة التي أودت بحياة ربع مليون كولومبي من الأربعينيات وحتى الستينيات في شهر نيسان عام 1948، لكنها كانت قد بدأت فعلاً عندما كان غارسيا ماركيز في السنة الأخيرة من دراسته في ثيباكيرا.

انتاب القلق غارسيا ماركيز بسبب امتحاناته، وكان يتحرق من أجل تنفيذ وعده لأمه، فحقق في نهاية المطاف نتيجة باهرة في الامتحان النهائي؛ نتيجة كانت تستحقّها موهبته. غير أنه كان محظوظاً، ففي أثناء فترة المراجعة التي تسبق الامتحان سهر مع بالنثيا طوال الليل، وشرب حتى الثمالة، وتعرضا إلى خطر الطرد من المدرسة، وحرما من أداء الامتحانات مما يعني أنهما لن يتخرجا بدرجة "البكالوريا" حتى العام المقبل. لكن المدير أدرك أن مثل ذلك القرار سيكون مُحرجاً وباعثاً على الأسف إذا ما انتهت حياة أفضل تلاميذه المدرسية مثل هذه النهاية. فنقض القرار. ورافق بنفسه المقصّرَين ليؤديا الامتحانات في بوغوتا بعد فوات موعدها[71]. ويقر غارسيا ماركيز بعد ذلك: "إن أي شيء تعلمته هو الشكر لشهادة البكالوريا التي نلتها في ثيباكيرا"[72].

هكذا عاد البطل إلى البيت وهو لا يزال مقتنعاً بأن إنجازاته تتمثل بحيلة واسعة تنطوي على الثقة، وبهذا فهو يفتقر إلى الثقة لذلك السبب نفسه. لكنه أدرك إدراكاً واهياً أيضاً أن ذرَّ الرماد في عيني أي شخص، وهو ما شعر أنه أقدم عليه فعلاً، ربما كان يعني أنه أكثر موهبة مما كانوا يظنون: فقد وطد العزم أخيراً، بالرغم من كل مشاعر الذنب التي خامرته، على أن يضلل الأسرة وأن يتظاهر بالولاء والاحترام لمشروع الحصول على شهادة في القانون، في حين أنه كان في حقيقة الأمر يسير في الطريق الذي رسمه بنفسه لحياته.

بعد مدّة قصيرة جداً من رجوعه إلى سوكري قادماً من ماغانغي، شرع غابرييل إليخيو، وهو الذي استأجر بيتاً آخر على مسافة قريبة من ميدان البلدة،

ببناء بيت خاص به، بيت مثالي من طابق واحد وسط أشجار المانجا وعلى مسافة خمسين ياردة من موخانا وعلى الضفة الشمالية. أيمكن أن يكون قد قرر أن يستقر في نهاية الأمر؟ أطلقت الأسرة اسم البيت الريفي على ذلك البيت، بيد أن غابيتو الذي كان لا يرى في العالم كله سوى بيت واحد أطلق عليه اسم "المستشفى"، لأن أباه فتح له في ذلك البيت عيادة استشارية ومختبراً، ولأن البيت كان مطلياً بطلاء أبيض اللون، ولأنه ضنَّ على الرجل في أصغر إنجازاته.

لكن مما بعث على الدهشة أن البيت الجديد كان واسعاً قياساً إلى معايير بلدة سوكري، بالرغم من أنه لم يكن من المناسب مقارنته بالبيوت الفخمة نسبياً في ميدان البلدة. وبحسب ذكريات خيمي غارسيا ماركيز، كان البيت جميلاً بالرغم من عدم توفر الكهرباء فيه وتوفرها في آراكاتاكا، ولم يكن هناك ماء صالح للشرب ولا مجاري صرف صحي (فيما كانت هناك مجاري صرف صحي تعمل بانتظام في آراكاتاكا). ولجأت الأسرة إلى استعمال المصابيح الزيتية التي كانت تعج من حولها الحشرات المدارية. وكان من الممكن مشاهدة الأفاعي غالباً وقد التفت على عتبات النوافذ ليلاً. وكانت ثمة جارة، وهي فتاة تدعى الآنسة خوانا، تطبخ وتنظف وتلعب مع الأطفال وتقصّ عليهم قصصاً مرعبة مصدرها الأساطير المحلية.

ثم حدث تحول كبير آخر في ظروف الأسرة حسبما تتذكر ليخيًا: "جاءت الجدة ترانكيلينا والخالة *با*، وهي أخت أمي غير الشقيقة، لتقيما معنا في البيت الجديد. وكان في وسع الخالة *با* أن تتوقع حدوث الجفاف وسقوط المطر لأنها كانت مطلعة على كل أسرار الطبيعة التي تعلمتها من هنود غواخيرا. وكنا جميعاً نحبها لأنها ساعدت على تربيتنا، وكانت هي التي قصّت عليّ كل القصص عن أسلاف الأسرة... ولما توفيت جدتنا، أنشأت أمنا حديقة جميلة، وزرعت الورود والأقحوان كي تأخذها إلى قبرها"[(73)]. ويستذكر غارسيا ماركيز أن ترانكيلينا كانت قد أصيبت بالعمى والخرف، وكانت ترفض خلع ثيابها إذا كان المذياع مُشَغَّلاً لأنها كانت تتخيل أن الناس الذين يتكلمون من خلاله وتسمعهم قد يراقبونها[(74)].

مما لا ريب فيه أن ثمة رواية مثيرة للحزن والألم تخص البيت الجديد. وقد شعر غابيتو بالحرج الشديد بسبب الاحتفاء بعودته إلى سوكري أواخر العام 1946. فها

هـــنا والـــده الـــذي كانت علاقته به علاقة صعبة وكان قد عقد العزم على غشه وخداعـــه وتثبـــيط همته في المستقبل القريب، وعلى المدى البعيد في لحظة انتصار مشترك وكبير: لقد أصبح غابيتو يحمل شهادة، وذلك انجاز نادر في تلك الأيام حتى في أوساط الطبقات الوسطى. وشيد غابرييل إليخيو منـــزلاً جديداً جميلاً وكان قد عقـــد العزم على أن يُذكِّر كل فرد بذلك الإنجاز في الوقت نفسه الذي كان يحتفل فيه بنجاح ابنه في دراسته. وتتذكر عايدة روسا: "لن أنسى الحفلة التي أقامها أبـــي في ســـوكري عندما تخرج غابيتو من المدرسة الثانوية. فقد ذهب من دون غابرييل إليخيو إلى البلدة ودعا جميع أبناء سوكري، وذبح ذبيحة، وحظي الجميع بالشراب، وظللنا نرقص طوال الليل"[75].

أمـــضى غارســـيا ماركيـــز أكثر وقته بعيداً عن الأسرة في أثناء تلك العطلة الانتقالـــية، وأنهاها بأسوأ ما يستطيع. لقد أنهى دراسته الثانوية وجمع، من دون أن يقـــدر على التخمين، أكبر قدر من التعليم الرسمي الذي سيحتاج إليه في حياته. إلاّ أنه كان لا يزال غير متأكد مما سيفعله، لكنه كان يرى أنه سيعود إلى مدينة بوغوتا المثيرة للكآبة على جبال الإنديز، وسيدرس لسنوات من أجل الحصول على شهادة جامعية ووظيفةٍ شَعَر مقدماً أنه غريب عنها غربة تامة، وكان يتمنى لو أنه لن يزاولها أبداً.

-5-

الطالب الجامعي والعنف في *بوغوتا*

1948-1947

التحق غابرييل غارسيا ماركيز بجامعة كولومبيا الوطنية في الخامس والعشرين من شهر شباط عام 1947، مما يعني تمضية أربع أو خمس سنوات في بوغوتا، سنوات تـــنطوي على أيام كئيبة حقاً للشاب الذي عُرف من قبل أنه يكره المدينة. لم تكن الـــرحلة الملحمـــية مـــن سوكري إلى العاصمة المرتفعة عن سطح الأرض بالسفينة الـــبخارية وبالقطار احتفالاً ملؤه الأمل الذي كان يتوقعه في مناسبات سابقة. فقد كانـــت كولومبـــيا نفـــسها في حالة من التوجس الرهيب حيث حكومة أقلية من المحـــافظين انتخـــبت حديثاً وعقدت العزم على التشبث بالسلطة فيما كان الحزب الليبرالي، وهو حزب الأغلبية، في نوبة إحباط شديدة بسبب خطأ تقدير الحزب في السماح لمرشّحَين هما طربيه وغايتان بالتنافس ضد المرشح المحافظ أوسبنيا بيريث.

أراد غابرييل إليخيو أن يتخرج ابنه طبيباً، وإذا لم يتمكن من أن يصبح طبيباً فـــلا بأس من أن يغدو قسيساً أو محامياً. لقد أرسله للدراسة في العاصمة من أجل التفوق الاجتماعي والكسب المادي. ومن المؤكد جمع ثروة مالية بوجود المحافظين في الحكم. أما الأدب فليس سوى مشهد جانبـــي محفوف بالمخاطرة. لقد أفلح غابيتو في تفادي المواجهة في الوقت الراهن، لكن شهادة الحقوق، التي كثر الجدال حولها، غـــدت الآن ذريعـــة وسيُرغم غابيتو في نهاية المطاف على أن يصبح ذلك الكذاب الذي طالما تحدث عنه والده.

شـــيد المستكشف الأندلسي غونثالو خيمينيث دي كيسادا مدينة بوغوتا في الـــسادس مـــن آب عـــام 1538 فوق منطقة جبلية عامرة بالملح والذهب والزمرد

فأصبحت موطناً أسطورياً للباحثين عن الذهب، وقد أسماها دي كيسادا باسم سانتا في، إذ عُرفت في بادئ الأمر بالاسم سانتا في دي باكاتا، ثم أصبحت سانتا في دي بوغوتا. وظلت على مدى عقود زمنية طويلة مدينة منبوذة إلاّ أنها استعادت شأنها في أواخر القرن العشرين وكأن الصفة الدينية لاسمها قد تخلص المدينة وترفعها مرة أخرى فوق مستوى البلد المتوحش الذي تطل عليه عن عرشها الأخضر الزمردي. كانت بوغوتا على امتداد التاريخ على صواب، أما بقية البلد فعلى خطأ. وبالرغم من ذلك، وعلى ارتفاع ثمانية آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، غدت هذه المدينة الباردة غالباً والماطرة عادةً عاصمة غريبة لمثل هذا البلد المتنوع والمداري أصلاً. وفي العام 1947، بلغ عدد سكانها سبعمئة ألف نسمة من الكاتشاكو (وهي كلمة يمكن أن تترجم إلى غندور أو مخادع)[1].

عدَّت بوغوتا نفسها على مرّ التاريخ مدينة اللغة الإسبانية الأفصح نطقاً في جميع أنحاء العالم بما فيه إسبانيا نفسها[2]. ففي أربعينيات القرن العشرين كان معظم السياسيين في كولومبيا محامين، دَرَّس الكثيرون منهم، لا سيما المحامين الليبراليين، في الجامعة الوطنية. وتقع المدينة الجامعية الجديدة، التي تعد معلماً من معالم العمارة، وشيدت في العام 1940 ولم تكتمل إلا في العام 1946، في ضواحي بوغوتا التي تحيط بها السافانا من الجهة الخلفية. وفي زمن غارسيا ماركيز كان عدد طلابها يربو على الأربعة آلاف، نصفهم من الأقاليم. وقد نظر اليمين السياسي إلى الجامعة على أنها مرتع الشيوعية.

عثر الطالب الجديد على نُزل في شارع فلوريان سابقاً، الدوّار الثامن الآن قرب منعطف شارع خيمينيث دي كيسادا، وهو نُزل سكن فيه عدد كبير من الطلاب الساحليين. كان شارع فلوريان واحداً من أقدم الشوارع في المدينة وأفضلها، ويوازي أشهر الشوارع قاطبة "سيبتيما" أو الشارع السابع. ربما كان نُزل غارسيا ماركيز يبعد ثلاثمئة ياردة عن تقاطع الشارع السابع وشارع خيمينيث دي كيسادا وهي منطقة تعد عموماً مركز المدينة الاستراتيجي، ووصل الأمر ببعض الوطنيين إلى أن يصفوها بأنها "أفضل منعطف شارع في العالم".

تشارك غارسيا ماركيز إحدى غرف الطابق الثاني من النُزل مع عدد من الطلاب الساحليين بمن فيهم خوسيه بالنثيا. كانت الغرف مريحة بالرغم من أنها لم

تكن باذخة. ووجد غارسيا ماركيز صعوبة في تدبير أموره بالرغم من كلفة السكن الاقتصادية، فكان بحاجة إلى النقود دائماً: "كان الإحساس يخامرني دوماً بأن آخر خمسة سنتافو تنقصني". و لم يتذمر كثيراً قط بسبب المظاهر المؤلمة لهذا الأمر، لكن بالرغم من جهود غابرييل إليخيو، التي كانت تعني أن الأسرة دائماً فوق مستوى الفلاحين والبروليتاريا، فإن الفقر المذلّ كان ملمحاً متصلاً من ملامح طفولة غابيتو وشبابه. وما بعد ذلك أيضاً.

تعيد ذكرياته المؤلمة عن تلك الفترة إلى الأذهان إحدى ملاحظات كافكا ألا وهي: "إن دراسة الحقوق كانت أشبه بالعيش عن نشارة الخشب، بالمعنى العقلي، نشارة خشب سبق أن لاكتها لي أفواه الآلاف من الناس"[(3)]. وكان من ضمن المعلمين ابن الرئيس السابق ألفونسو لوبيث متيشيلسين الذي سيغدو بدوره رئيساً مستقبلاً. في تلك السنة الأولى يخفق غارسيا ماركيز في الإحصاء والديموغرافيا ولا ينجح في القانون الدستوري الذي درسه على يد لوبيث متيشيلسين الذي قال لي بعد خمسة وأربعين عاماً: "لا، لم يكن طالباً جيداً، لكن بسبب انحداري من أسرة ساحلية، فإن كل الطلاب القادمين من باديًا ومجدلينا أرادوا أن يدرسوا المنهج الذي كنت أدرسه لأنهم كانوا يعلمون أنني سأجعلهم يجتازون الامتحان على وجه التأكيد"[(4)].

ويستذكر أحد زملاء الصف وهو لويس بيّار بوردا: "التقيت غابو في الأيام الأولى. ربما كان هناك مئة طالب جديد في قسم الحقوق. و لم يكن من بينهم سوى ثلاث فتيات. كان الطلاب قد انتظموا في مجموعتين بحسب الحروف الهجائية. فكان غابو في المجموعة الأولى وكنت في المجموعة الثانية، وكنت حقّاً مولعاً بالمادة الدراسية، على حين لم يولع بها غابو قط. فبدأت تفوته الكثير من الحصص الدراسية منذ البداية، وكنا نتجاذب أطراف الحديث في موضوع الأدب: دوس باسوس، وهمنغواي، وفوكنر، وهِسَّه، ومان، والأدباء الروس. وقلما تحدثنا عن الأدب الكولومبي باستثناء حديثنا عن بعض الشعراء مثل باربا خاكوب ودي غريف، ولويس كارلوس لوبيث. وكنا عند منتصف الظهيرة نعود القهقرى إلى مركز المدينة لنجلس في المقاهي التي كنا كلنا ندرس فيها، لأنك إذا ما عشت في نُزل، فلن يتوفر

لـــك المكان للدراسة. وكان أصحاب المقاهي يسمحون للطلاب بالجلوس في أحد الأركان كأنهم زبائن منتظمون"[5].

كان غارسيا ماركيز وأصدقاؤه الساحليون ينظّمون في بعض الأحيان حفلات راقـــصة مـــرتجلة في أمسيات السبت. في التاسعة من صباح يوم الأحد التالي كان الـــشبان الساحليون يمشون صوب الشارع السابع والشارع الرابع عشر حيث دار الإذاعة التي تذيع *الساعة الساحلية* فيبدأون بالرقص في الشارع. في تلك الأثناء بات غارسيا ماركيز ممثلاً يتباهى بثقافته وعوَّض عن فقره بارتداء ثياب صارخة الألوان أكثـــر من تلك التي ارتداها عندما كان في مدرسة سان خوسيه. كانت الحقبة هي أول حقبة عظيمة للموسيقى *اللاتينية*، وكان غارسيا ماركيز يعيشها في أعماقه[6].

عقد صداقات أيضاً مع الكاتشاكو المتوترين دوماً الذين سيؤدي بعضهم دوراً مهماً في حياته. وكان أحدهم غونثالو مالارينو الذي سترتب والدته مكاناً مريحاً في ما بعد لهذا الساحلي الصغير الحزين الشبيه بشابلن[7]. ومن الساحليين الآخرين بيبّار بوردا، وكاميلو توريس الذي سيحقق في ما بعد شهرة في جميع أرجاء القارة بصفته قـــسيس العصابات الشهيد[8]، وبلينيو أبوليو ميندوثا أحد رفاق حياته العظام وابن الـــزعيم الـــسياسي من بوياكو بلينيو ميندوثا نييرا – الذي ربما كان يومذاك أقرب حلفاء غايتان السياسيين – والذي يصغر غارسيا ماركيز ببضع سنوات.

يبدو أن بعض معاصري غارسيا ماركيز نظروا إليه نظرة إشفاق. ويقول بلينيو ميندوثا إن الكثيرين احتقروه لأنه "قضية خاسرة". ويتذكّر اليوم الذي عرَّفه فيه بيبّار بـــوردا في مقهـــى إستورياس إلى ساحلي شاب "شق طريقه وسط المناضد المكتظة والقـــبعات السوداء ليذهلنا ببريق بذلته المدارية البيضاء التي تخطف الأبصار". لكنه فوجـــئ أيـــضاً بتـــصرف الوافد الجديد وسلوكه العام. وعندما اقتربت النادلة من المنضدة حدجها الساحلي بنظرة شاملة وهمس مقترحاً: "لليلة؟"، ثم وضع يده على مؤخرها، غير أنها دفعته جانباً وانصرفت بامتعاض مسرحي[9].

كـــان غارسيا ماركيز الساحلي[10] يخفي وراء ثيابه المبهرجة وتكبره المراهق شاباً مستوحداً جداً ذا مشاعر متناقضة جداً عن جدارته الذاتية. فحياته بالرغم من صـــداقاته، هي حياة توحّد واغتراب وتشتُّت تفتقر إلى الإحساس بأداء واجب ما،

لكـــنها كانـــت حياة تحدٍّ أيضاً: فمن أجل حياته نفسه أدى دور الساحلي الثائر. وبسبب شعوره بالعزلة في أيام الآحاد، تراه يستقل قطارات إلى ما لانهاية، فتأخذه وســط المدينة الكئيبة الرتيبة وهو يقرأ ويتأمل[11]. في بعض الأحيان يقبل دعوة من غونثالو مالارينو وهو صديق كل من كاميلو توريس وبيِّار بوردا. كان مالارينو قد ولـــد بعـــد غارســـيا ماركيز بأربعة أيام لأسرة معروفة. قال لي: "يمكن أن تكون عطلات نهاية الأسبوع في بوغوتا طويلة جداً في نظر الغريب، وكان غابو يكثر من زيـــارتي في البـــيت أيـــام الآحاد، ويفضل شرب الكاكاو، وتناول كعكة الذرة. وشـــعرت أمـــي الأرملة منذ كنت في التاسعة من عمري بالشفقة عليه، إذ بدا لها مـــستوحداً، فكانـــت تحنُّ عليه دائماً لأنها انحدرت من الأقاليم، مثله تماماً، وكانا يعرفان بالفطرة كيف يتحدث أحدهما إلى الآخر"[12].

كما خمَّن مالارينو وبيِّار بوردا، فإن غارسيا ماركيز كان منذ بدء دراسته في الجامعة يطور بسبب شخصيته الساحلية الحمائية، موهبته الأدبية حتى لو كان متردداً في الاعتراف بمثل هذا الطموح خشية الإخفاق. مما لا ريب فيه أن لا مجال للمنافـــسة بـــين الأدب والحقوق. فهو في بيئة لم يخلق لها بشعره الطويل وبنطاله المهلهل وقمصانه ذات المربعات الغريبة وتمرده الواعي بذاته عند كل خطوة خرقاء يخطوها.

حـــرَّر بيِّار بوردا وكاميلو توريس صفحة أدبية عنوانها **الحياة الجامعية**، وهي ملحق أسبوعي لصحيفة **لاراثون** التي نشرت قصيدتين لغارسيا ماركيز تنتهجان نهج حـــركة حجـــر وسمـــاء الشعرية[13]. فقد نُشرَت **قصيدة من قوقعة بحر** في الثاني والعـــشرين مـــن حزيران قبل بضعة أسابيع من اتخاذ توريس قراره المصيري بترك الجامعة ليصبح قسيساً[14]. ومن تلك القصيدة نقرأ هذين المقطعين:

8

بسبب بحري البحر خالد،
بحر الطفولة، الذي لا يُنسى،
المعلق من أحلامنا
مثل حمامة في الهواء...

12

إنه بحر حبنا الأول
في تلك العيون الخريفية...
يوماً ما أحببت رؤية ذلك البحر
- بحر الطفولة - لكنني كنت متأخراً[15].

هي قصيدة نظمها صبـــي يعي وعياً عميقاً أنه لم يفقد طفولته وحسب، وإنما فقد وطنه الآخر، الساحل الكاريبـــي، بلاد البحر والشمس.

لقـــد كان غارسيا ماركيز ينشد شيئاً ما شبيهاً بكافكا في تلك المدينة، مدينة الأشـــباح المرتفعة، في الحقيقة، إن ما عثر عليه في نهاية الأمر هو كافكا. ففي عصر يـــوم من الأيام، أعاره أحد الأصدقاء نسخة من قصة **المسخ** ترجمها أديب أرجنتيني يدعى خورخه لويس بورخس[16]. عاد غارسيا ماركيز إلى النُزل، وصعد إلى غرفته، وخلـــع حذاءه، واستلقى على سريره. وقرأ السطر الأول: "حين استيقظ غريغور سامسا في صباح يوم من الأيام إثر أحلام مضطربة، وجد نفسه وقد تحول في سريره إلى حشرة هائلة". يتذكر غارسيا ماركيز وهو ذاهل أنه قال في نفسه: "اللعنة، إنها تشبه الأسلوب الذي كانت تتحدث به جدتي!"[17].

مما لا ريب فيه أن كافكا وسَّع من مخيلته (بما في ذلك قدرته على تخيل نفسه وقـــد بـــات أديباً) وأظهر له على المدى البعيد أن في الإمكان رواية أشد القصص فانتازية بأسلوب واقعي. لكن الشيء الأول الذي تعلمه غارسيا ماركيز من كافكا، كمـــا يـــبدو، يختلف عمَّا ذكره في استبطانه. أولاً، الواضح أن كافكا كان يعالج موضوع الاغتراب في الوجود الحضري. لكنه كان يعالج على نحو موارب، وفي كل ما كتب، رعبه من سلطة أخرى تمثلت بابيه: امتعاضه وتقديره في الوقت نفسه لأبيه الطاغية.

كـــان غارسيا ماركيز قد قرأ رواية **البديل** لدوستويفسكي التي تدور أحداثها في سان بطرسبرغ التي تتصف بقمع أكبر، وذلك قبل أربعة أعوام على وصوله إلى بوغوتا. كانت رؤية كافكا تنهل مباشرة من تلك الرواية، وليس ثمة شك في تأثيرها الكبير في الأديب الشاب. لقد اكتشف غارسيا ماركيز الحداثة الأوروبية، والأكثر من ذلك اكتشف أن مبتكرات الحداثة، بالرغم من تعقيداتها وتبجحاتها، ولدت من

روح العصر، من بنية الواقع كما هو مُدرك حالياً، ويمكن أن تكون ملائمة له؛ حتى في عاصمته النائية في أميركا اللاتينية.

إن بطليّ **البديل والمسخ** ضحيتان لانفصام الشخصية، وهما شخصيتان مفرطتان في حساسيتهما، ترهبهما السلطة. ومن خلال التماهي بالتشوهات الحادثة في العالم الخارجي، يستنتجان أنهما مريضان ومشوهان ومنحرفان وفي غير بيئتهما. هناك العديد من الأشخاص الذين يتصرفون وفق الدوافع المتناقضة والتصورات الدفاعية؛ الاعتدائية عن قدراتهم وعلاقاتهم بالآخرين. بيد أن الفجوة بين ثقة غارسيا ماركيز بنفسه التي تبلغ حدّ اللامألوف، وفي بعض الأحيان تصل إلى حدّ الغطرسة (فهو حفيد العقيد وملائم لها)، وشعوره نفسه بانعدام الأمن والدونية (فهو ابن الطبيب الدجال الذي أهمله ولكنه ربما حذا حذوه)، هي فجوة غريبة بلا أدنى ريب، وأنتجت قوة مؤثرة سمحت له أن يطور طموحاً خفياً سرعان ما تأجج في أعماقه مثل لهب عنيف لا ينطفئ.

بعد يوم واحد على قراءته **المسخ**، جلس غارسيا ماركيز ليكتب قصة اختار لها عنوان **الاستسلام الثالث**، فكانت بذلك أول عمل أدبي له بصفته شخصاً مُهيّأً للنظر إلى نفسه على أنه مؤلف لديه ما يطرحه من كتابة جادة. وأضحت القصة على الفور تردد صدى غارسيا ماركيز نفسه، إذ كانت مدهشة بآفاقها، عميقة بذاتيتها، يشيع فيها العبث والعزلة والموت. وكانت تدشن بذلك ما أصبح ملازماً لغارسيا ماركيز: حَبكَ قصة حول فكرة رئيسية أولية عن جثة غير مدفونة[18]. ويكتشف قراء غارسيا ماركيز في نهاية الأمر أنه مرَّ بثلاثة أهوال مرتبطة ارتباطاً عضوياً لكنها بالرغم من ذلك، متناقضة تناقضاً أزلياً: هول الموت والدفن (أو الأسوأ من هذا، الدفن حياً)، وهول دفن الآخرين، وهول بقاء أي فرد بلا دفن. "يمكن للإنسان الميت أن يحيا حياة سعيدة في ظل وضعه الذي يتعذر علاجه"، وهكذا يتحدث راوي هذه القصة الأولى، وهو شخص غير متأكد إن كان حيّاً أو ميتاً، إن كان في كلتا الحالتين في الوقت نفسه أو بالتناوب. (غير أن الشخص الحي لا يستطيع أن يستسلم للدفن وهو على قيد الحياة. لكن أطرافه لن تستجيب لندائه بالرغم من ذلك. فهو لا يقدر على التعبير عن نفسه، وهذا هو الأمر الذى يثير هلعه، إنه أعظم الأهوال في حياته وفي مماته: أن يُدفن حيّاً)[19].

تبدو قصة غارسيا ماركيز، وهي تشير عن طريق التعويض إلى ما يشبه الأرضية الأميركية الجديدة؛ أي علم أنساب تاريخي أسس على مفهوم شجرة العائلة:

قُطع مثلما تُقطع شجرة عمرها خمس وعشرون سنة... ربما سيشعر في ما بعد بحنين طفيف، حنين ليس لأنه جثة شكلية تشريحية، بل جثة متخيلة ومجردة لا تعيش إلاّ في ذاكرة أقربائه الضّبابية... عندئذ سيعرف أنه سينهض من خلال الأوعية الدموية لتفاحة ما ويجد نفسه وقد التهمه جوع طفل في صباح يوم خريفي. وسيعرف عندئذ – وهذه فكرة تثير حزنه – أنه فقد وحدته[20].

من الواضح أن الهلع من الانحباس في بيت ما، بين الحياة والموت، كما هي الحال في التابوت (وربما كما في الذاكرة)، تسهّله فكرة انصهار فردانية المرء الضائعة في شجرة بوصفها رمز الطبيعة والتاريخ (شجرة العائلة التوليدية). إن عنفوانَ مثلِ هذا الدافع الانسيابي أو السلالي عند شاب فُصل بُعَيدَ ولادته مباشرة عن أمه وأبيه وأخوته وإخوانه الطبيعيين الذين سيلحقون به لا يتطلب أي إيضاح. كما لا ضرورة لامتلاك مؤهل في التحليل النفساني للاستفسار عمَّا إذا كان هذا الأديب الشاب لم يشعر على نحو غير واعٍ، وهو ينظر متأملاً حياته الماضية، بأن أبويه دفناه حيّاً في البيت في آراكاتاكا، وأن ذاته الحقيقية دفنت في ذات ثانية، هوية ثانية ينبغي له أن يبنيها مثل هاملت ليحمي نفسه من مشاعره الحقيقية تجاه أمه وربما مشاعره القاتلة تجاه المغتصب غابرييل إليخيو الذي ادعى في وقت متأخر أنه والده؛ على حين كان غابيتو يعرف تمام المعرفة أن أباه الحقيقي هو العقيد نيكولاس ماركيز الرجل الذي كان يحظى بإعجاب واحترام كل الذين عرفوه، والذي أشرف إشرافاً عذباً عليه في سنوات عمره المبكرة ثم اختفى. وتلا ذلك ما قد يكون إما عاصفة أدبية (وهي نمط من أنماط تحقيق الرغبة) أو إحساساً أصيلاً أن الأديب وصل الحكمة ("والاستسلام"؟): "كل ذلك الواقع لم يُثِر قلقه. بل على العكس، كان سعيداً، ووحيداً في عزلته".

وبالرغم من أن القصة كانت مُربكة، إلا أنها ذات أثر يشبه أثر التنويم المغناطيسي، تُروى بثقة لا جدال فيها وليس مجرد ثقة أدبية، وفيها ثبات يثير الدهشة في أديب ناشئ. أما نهايتها، فهي نموذج نهايات قصص غارسيا ماركيز:

> **سيستمع مستسلماً إلى الأدعية الأخيرة، وإلى العبارات الأخيرة وهي تُتلى باللاتينية ويردّدها صبيان المذبح ترديداً أخرق. ستخترق برودة تراب المقبرة والعظام عظامه، وربما تنتشر تلك *الرائحة*. من يدري؟! ستخرجه آنية تلك اللحظة من ذلك السبات عندما يشعر أنه يسبح في عرقه، في سائل كثيف لزج، مثلما سبح قبل أن يولد في رحم أمه. ربما سيكون حيّاً في تلك اللحظة. لكنه بحلول ذلك الوقت سيستسلم للموت حتى يبدو ميتاً من شدة استسلامه[21].**

سيتعرف قراء **مئة عام من العزلة**، و**خريف البطريرك**، و**الجنرال في متاهته** المكتوبة بعد ذلك بعشرين وخمسة وعشرين وأربعين عاماً إلى النغمة والموضوعات والصياغات الأدبية. إنها محاولة للحصول على السلطة على نحو واضح ومتناقض (في ضوء طبيعة الصوت السردي المتهافت).

في الثاني والعشرين من شهر آب، بعد أسبوع أو أسبوعين من متابعته هذه القصة، قرأ في العمود اليومي لإدواردو ثالاميا بوردا مقالة **المدينة والعالم** في صحيفة الاسبكتادور إن ثالاميا بوردا كان "متلهفاً لأن يسمع من الشعراء والقصاصين الجدد المجهولين أو المهملين نتيجة الافتقار إلى تطبيق أعمالهم تطبيقاً دقيقاً وعادلاً"[22]. لقد كان ثالاميا بوردا المتعاطف مع اليسار واحداً من أكثر كُتَّاب الأعمدة الصحفية مدعاة للاحترام. أرسل غارسيا ماركيز القصة إلى الصحيفة، وبعد أسبوعين كان يجلس في مقهى مولينو، ولدهشته وفرحته شاهد عنوان قصته يغطي صفحة كاملة من ملحق *عطلة نهاية الأسبوع*، فانتشى حماسةً، وخرج ليشتري نسخة ليكتشف، كعهده، أنه "لا يملك الخمسة سينتافو"، فعاد أدراجه إلى النُزل، واستنجد بأحد أصدقائه فخرجا معاً لشراء الصحيفة؛ صحيفة الاسبكتادور ليوم السبت الثالث عشر من أيلول عام 1947. فوجد على الصفحة الثانية عشرة قصة **الاستسلام الثالث** لغابرييل غارسيا ماركيز مع رسم توضيحي للفنان هيرنان ميرينو.

كان في حالة سرور ونشوة، جذلاً. وبعد ستة أسابيع، أي في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول، نشرت صحيفة الاسبكتادور قصة أخرى له بعنوان **إيفا تتقمص قطتها** وموضوعها الموت مرة أخرى وما يعقبه من تجسّد، وهي عن امرأة تدعى إيفا يسيطر عليها هاجس تناول برتقالة، لا تفاحة، لتجد نفسها بعد

ثلاثة آلاف سنة داخل شَرَك – مدفونة – في عالم جديد ومُربك. إنها امرأة جميلة، تفعل ما في وسعها للنأي بنفسها عن اهتمام الرجال بها، امرأة بدأت فتنتها الجسدية تعذبها مثل ورم سرطاني. وأصبحت تدرك أن شرايينها تحتشد بحشرات صغيرة:

كانت تعلم أنها تأتي من هناك، من الخلف، وأن كلّ من يحمل كنيتها لا بد من أن يحملـــها، وأن يعانيها مثلما عانت الأرق الذي لا يُقهر حتى الفجر. كانت تلك الحشرات هي التي رسمت ذلك التعبير المرير، ذلك الحزن الذي لا سبيل إلى مواســـاته علـــى وجوه أسلافها. لقد شاهدتهم وهم يتطلعون من خلف وجـــودهم المنطفـــئ، مـــن وراء لوحاتهم الموغلة في القدم، ضحايا العذاب نفسه...[23].

يمكـــن أن تُؤطـــر في الفقرة المدهشة السابقة كل من **مئة عام من العزلة** التي تُظهـــر الهـــوس بالأنساب، ونسختها البدائية **البيت** التي ستولد عما قريب (أو ربما وُلدت تواً).

بعد ثلاثة أيام فقط من نشر هذه القصة الثانية أعلن راعيه الأدبـــي غير المتوقع في عموده اليومي عن ظهور موهبة أدبية جديدة على المشهد الوطني، تتمثل بشخص لم يـــبلغ الحادية والعشرين من عمره ولكنه طالب في سنته الدراسية الأولى. وأعلن ثالاميا بكل وضوح: "إننا نشهد ولادة أديب مدهش في غارسيا ماركيز"[24]. وكان أحد الآثار الجانبية لهذه الثقة التي أوكلت إلى غارسيا ماركيز هو أنه شعر أن هناك مـــا يبرّر إهماله لدراساته ألا وهو حبه المجنون للقراءة والكتابة. وبعد مرور أكثر من نـــصف قـــرن على ذلك، يلاحظ الأديب الذي اجتازت شهرته حدود العالم أن قصصه الأولى كانت "غير منطقية ومجردة، وأن بعضها عبثيّة، ولا تستند أي واحدة مـــنها إلى مشاعر حقيقية"[25]. مرة أخرى، ثمة تفسير مغاير يكشف عن نفسه وهو أنـــه كَرِهَ قصائده وقصصه المبكرة لأنها كانت تستند حقاً إلى مشاعر حقيقية، وأنه تعلم في فترة لاحقة كيف يخفي – وإن لم يكبح كلياً – الرومانسية والميوعة العاطفية المفتقرة إلى الحنكة التي تركته مكشوفاً بكل ضعفه وربما تتخلى عنه بعد ذلك. وربما كانت الحالة متمثلة بأنه غير راغب في منح بوغوتا الامتياز إذ أصبح أديباً[26].

مكـــث غارسيا ماركيز في بوغوتا لتمضية إجازة الميلاد في العام 1947. لقد كـــان بقاؤه في النُزل يكلفه الكثير من المال، لكن أجرة العودة إلى سوكري تكلف

أكثر من ذلك. وظلت ميرثيديس غير مدركة لعروضه. زد على ذلك، أنّ جدته قد توفيت وأمه توشك أن تنجب طفلاً آخر. لكن بالرغم من هذا كله، ومع أنه اجتاز الامتحانات بصعوبة بالغة، و لم يخفق إلاَّ في الإحصاء والديموغرافيا، فإنه علم الآن أنه لن يهب نفسه للحقوق وأنه متردد في مواجهة غابرييل إليخيو في هذا الموضوع. لقد أشَّر نجاح قصتيه الأوَلَيين أن ثمة طريقاً آخر للحياة أمامه، وأنه ربما آثر الاستفادة إلى أقصى حدّ ممكن من استقلاله المؤقت.

لعلـــه بدأ في أثناء هذه العطلة بقصته التالية "الجانب الآخر من الموت". وإذا كانت القصة الأولى تصور تأمل الإنسان في موته، فإن هذه القصة كانت تأملاً في موت الآخرين (أو ربما في موت الشخص الآخر للإنسان، لبديله، وهو الأخ في هذه المـــرة). لهذا، كان الصوت السردي يناوب الأسلوب الحداثوي بين ضمير الغائب المفـــرد المذكر وضمير المتكلم المفرد تناوباً ملائماً. مرة أخرى نجد أنفسنا ضمناً في مدينة، لكن موضوعات الهوية التوأم، والبديل، والمرآة (بما في ذلك المرآة الداخلية، والوعـــي) هـــي المهيمنة. لقد تحوّل هذا الأخ الذي توفي بمرض السرطان، والذي يرعب الراوي رعباً لا حد له، إلى جسد آخر:

> **إنه قادم من وراء جسده، وسبق له أن غار معه في الظلمة السائلة لرحم الأم، وتـــسلق معـــه أغصان السلالة العريقة، معه في دماء أربعة أزواج من أجداد الأجـــداد والـــتي جاءت من بعيد، من بداية العالم، وقد استدامت مع ثقلها وحـــضورها الغامض كل التوازن الكوني... إنه أخوه الآخر الذي وُلد وكُبِّلَ بعقبيه، والذي جاء مترنحاً جيلاً إثر جيل، ليلة إثر ليلة، من قبلة إلى قبلة، من هوى إلى هوى، وهو يسير وسط الشرايين والخصيتين إلى أن وصل إلى رحم أمه الأخيرة كأنه كان في رحلة ليلية**[27].

هذا الهوس بالسلالة والنسب والاستغوار الموازي لمجمل الكون (الزمان والمكان والمادة والروح والفكرة؛ الحياة والموت والدفن والتعفن والتحول) يمثل بنية الأفكار والمشاعر التي ما إن تستكشف وتوضّح علانية، حتى تختفي على ما يبدو من أعمال غارســـيا ماركيـــز، لكـــنها تغدو في الواقع ضمنية، وتستخدم تمظهراتها استخداماً استراتيجياً وشحيحاً لتحقيق أبلغ الأثر. إن غارسيا ماركيز في مرحلته الأولى هذه، بصفته شخصية أدبية، معذّباً، ومفرطاً في حساسيته، ومصاباً بوساوس المرض – على

غـــرار كافكـــا – بعيد عن هويته السردية اللاحقة التي أنشأها إنشاءً متأنياً، والتي ســـتكون قريبة من هوية ثيربانتس على سبيل المثال. وبعون قليل على ما يبدو من أدبـــاء كولومبـــيا أو أميركـــا اللاتينية الذين لا يظهر على ماركيز أنه قرأ مؤلفات أعظمهـــم شـــأناً، نلاحـــظ أن غارسيا ماركيز يهاجم موضوعات أميركا اللاتينية الأساسية والخاصة بالأنساب (الوجود والتاريخ) والهوية (الجوهر والأسطورة). إنها بـــلا أدنى ريب تمثل إشكاليات أميركا اللاتينية الجوهرية في تلك الحقبة: الأنساب قـــضية مهمة جداً في قارة لا وجود فيها لأسطورة مرضية أصيلة حيث كل شيء يؤخذ عنوة. لم يكن غارسيا ماركيز قد وصل في هذه المرحلة بعد إلى قضية الشرعية (التي كانت تقض مضجعه حقاً وهي ضمنية هنا على وجه التأكيد). ومع هذا، فإن هذا الراوي يمثل مشكلة لنفسه على ما يبدو.

أخـــيراً، انـــتهت العطلة الطويلة، وأخذت الأمور تتحسن. ففي مطلع السنة الجامعـــية الجديـــدة في العام 1948 وصل لويس إنريكي إلى بوغوتا لإكمال تعليمه الـــثانوي نظرياً، لكنه من الناحية العملية جاء لتسلم وظيفته في شركة كولغيت – بالموليف التي حصل له عليها غابيتو وكرّس نفسه بعد ذلك للإثارة المعتادة في أوقات فراغه. في تلك الأثناء انتقل خالهما خوانيتو (خوان دي ديوس) إلى بوغوتا بُعَيدَ وفاة أمـــه ترانكيلينا للعمل في الإدارة الحكومية. وأحضر لويس إنريكي معه هدية سرية يفترض أنه احتفظ بها ليعطيها لغابيتو في ذكرى ميلاده الحادية والعشرين في السادس من آذار، لكن عندما أخبره أخوه وأصدقاؤه في المطار أنهم لا يملكون المال ليحتفلوا بـــه، كـــشف لويس إنريكي خفية أن المفاجأة داخل الطرد هي آلة كاتبة جديدة. "كانـــت الخطوة التالية هي زيارة إلى مكتب الرهونات في وسط بوغوتا حيث فتح المسؤول فيه الصندوق وجذب قطعة من الورق. لا زلت أتذكر أنه نظر إليها وقال بـــصوت عـــال: "مبروك. نحن فخورون بك. المستقبل أمامك. غابرييل ولويسا، سوكري، السادسُ من آذار 1948". ثم وجه مساعد المكتب سؤالاً: "كم تحتاج؟"، فردَّ صاحب الآلة الكاتبة "قدر ما يمكنك أن تعطيني"[(28)].

تحـــسن مـــستوى المعيشة تحسناً كبيراً في الأسابيع التالية بوجود دخل لويس إنريكـــي الجديـــد وبعض المال الإضافي الذي كان غابيتو يوفره من خلال تزويد

الصحيفة بالرسومات التوضيحية بمساعدة أحد الأصدقاء؛ وكانت المغامرات تشمل الشراب والنساء والغناء، فجدّد لويس إنريكي بذلك تحالفه التشردي مع خوسيه بالنثيا الطائش. في غضون ذلك توقف غابيتو، بعد أن بات الآن أكثر طلاب الجامعة امتيازاً وتظاهراً بالمكانة الأدبية، عن حضور دروس أخرى إذ وهب جل وقته وبحماسة أكبر لقراءة الأدب والكتابة فيه بما في ذلك قراءة رائعة جيمس جويس الحداثوية "يولسيس".

في تلك اللحظة، بدأت تتجمع سحب الزوبعة السياسية على جناح السرعة فوق كولومبيا، واتجهت مباشرة صوب بوغوتا. وأصبح المحامي البارز خورخه إليسير غايتان، الذي كان قد شرب شراب الكوكتيل السياسي القوي الذي منحته إياه الثورة المكسيكية والماركسية وموسوليني، أقوى الشخصيات السياسية في تاريخ كولومبيا في القرن العشرين وفي حقبة سادت فيها السياسة الشعبوية. فقد كان بطل الطبقات العمالية الصاعدة وبطل العديد من أبناء الطبقتين الوسطى والدنيا في المدن النامية نمواً سريعاً. كان غارسيا ماركيز يعلن أنه حظي باهتمام وطني للمرة الأولى في العام 1929 عندما تبنى قضية عمال الموز الذين قُتلوا في ثيناغا في كانون الأول عام 1928. ولم يعلم غارسيا ماركيز أن من بين مخبريه الأساسيين الأب فرانسيسكو أنغاريتا الرجل الذي عمَّده في آراكاتاكا، وربما أيضاً العقيد نيكولاس ماركيز. ازداد غايتان قوة بالرغم من النكسة الانتخابية التي تسبب بها شقّه شخصياً للحزب الليبرالي، وسرعان ما تبوأ قيادته، وبدأ يطبق أسلوباً سياسياً لم يُعرف من قبل في إحدى أكثر الجمهوريات المحافظة في أميركا اللاتينية. وسماه البعض *اللسان* ونعته الآخرون *بالحنجرة*، لما كان يتمتع به من قدرة خطابية وصوت. لم يتكلم غارسيا ماركيز عن غايتان في مقابلات علنية حتى وقت حديث، وكان ذلك بسبب كون سياساته تنحو نحو اليسار منذ مطلع عقد الخمسينيات في القرن العشرين من جهة، وإلى أن وعيه السياسي كان لا يزال متخلفاً إلى حدٍّ كبير في نيسان عام 1948 بالرغم من ارتباطه ارتباطاً فطرياً بالليبراليين.

في نيسان عام 1948 عقد المؤتمر التاسع لعموم أقطار أميركا اللاتينية في بوغوتا وكانت منظمة الدول الأميركية في طور التأسيس بمبادرة من الولايات المتحدة. يوم

الجمعة التاسع من نيسان، عند الواحدة من بعد الظهر، كان غابرييل ماركيز يجلس لتناول طعام الغداء في النُزل في شارع فلوريان برفقة لويس إنريكي وعدد من أصدقائه الساحليين. كان خورخه إليسير غايتان في تلك اللحظة يغادر مكتبه القانوني ليتمشى على امتداد الشارع السابع لتناول طعام الغداء مع زميله في الحزب الليبرالي بلينيو ميندوثا نييرا وعدد آخر من الرجال. وعند وصوله الرقم 14-55، بين جادة خيمينيث والشارع الرابع عشر، عبر عامل عاطل عن العمل يدعى خوان رواسييرا من مقهى *القط الأسود* وأطلق عليه ثلاث أو أربع رصاصات من مسافة قريبة جداً. سقط غايتان على الرصيف على مقربة من أفضل *ناصية شارع في العالم*. حدث هذا عند الواحدة والدقيقة الخامسة. وقبل أن يرفعوه عن الأرض انحنى بلينيو ميندوثا البالغ من العمر ستة عشر عاماً، وكان قد جاء لرؤية أبيه، فوق الجثة، وحدّق وهو في حالة رعب شديد إلى وجه الزعيم المحتضر. نُقل غايتان على جناح السرعة إلى المستشفى المركزي بسيارة خصوصية، ولدى وصوله أُعلن عن وفاته مباشرة أمام حشد كبير من الناس الجزعين الذين تجمعوا خارج المستشفى.

ذلك هو الاغتيال. والآن يأتي دور العنف[29]، إذ اكتسحت المدينة موجة عنف وهستيريا على الفور. كانت بوغوتا في حالة غليان، وشهد عصر ذلك اليوم تظاهرات أعقبتها أعمال سلب ونهب وقتل. وأدركت حشود الليبراليين أن المحافظين كانوا وراء الاغتيال: وفي غضون دقائق، اغتيل روا، وسُحلت جثته الممزقة عارية وسط الشوارع باتجاه القصر الحكومي. وبدأ مركز مدينة بوغوتا، رمز النظام السياسي الرجعي الكولومبي، يحترق[30].

خرج غارسيا ماركيز مسرعاً إلى مكان الجريمة، لكن غايتان المحتضر نقل على الفور إلى المستشفى - وكان الرجال والنساء يجهشون بالبكاء ويبلّلون مناديلهم بدم الزعيم - وكانت جثة روا قد نُقلَت بعيداً. ويتذكر لويس بيّار بوردا أنه التقى غارسيا ماركيز بين الساعة الثانية والثالثة عصر ذلك اليوم على بعد خطوات قليلة من المكان الذي شهد مصرع غايتان: "دهشت لما رأيته. وقلت له: *أنت لست من محبي غايتان*. فقال: *لا، لكنهم أحرقوا نزلي تماماً وفقدت بذلك كل قصصي*"[31]. (هذه الحكاية المبالغ فيها كثيراً ستكتسب مستقبلاً شحنة ميثولوجية).

في أثـــناء تلـــك الجولة، التقى غارسيا ماركيز أستاذ مادة القانون كارلوس هينريك باريخـــا في الـــشارع الـــثاني عشر خلال استعجاله للعودة وإكمال وجبة غدائه في النـــزل الذي لم يكن قد لحق به ضرر بعد. أوقف باريخا الشاب غارسيا ماركيز في الـــشارع، وحـــثّه على الإسراع إلى الجامعة وتنظيم الطلاب بالإنابة عن انتفاضة الليـــبراليين. انطلـــق غارسيا ماركيز متردداً، لكنه غيَّر رأيه حالما توارى باريخا عن الأنظار، وعاد أدراجه وسط الفوضى إلى النُزل في شارع فلوريان وكانت بوغوتا قد باتت الآن مكاناً خطراً جداً.

كـــان لويس إنريكي وعدد من الطلاب الساحليين يقيمون احتفالاً غامضاً. وتمكنوا، بالرغم من صخبهم، من سماع صوت العم كارلوس عبر المذياع مع الأديب خـــورخه ثالامـــيا (الذي قُدِّر له أن يصبح شخصية مهمة أخرى في حياة غارسيا ماركيـــز شـــأنه شأن قريبه إدواردو ثالاميا بوردا)، وكان الاثنان يحضان الشعب الكولومبـــــي علـــى الانتفاضـــة ضد المحافظين الأنذال الذين اغتالوا زعيم البلاد الـــسياسي الأعظـــم وأملها الوحيد في مستقبلها. وهدر باريخا الذي كانت مكتبة الـــراديكالية ضـــحية ألـــسنة اللهب قائلاً إن "المحافظين سيدفعون ثمن حياة غايتان غالـــياً"[(32)]. وسمـــع غابيتو ولويس إنريكي وأصدقاؤهما دعوته لحمل السلاح عبر مذياع النُزل، إلا أنهم لم يلبوا دعوته.

على مسافة قريبة، ثمة شاب آخر من أميركا اللاتينية في الحادية والعشرين من عمره لم يتمالك نفسه من شدة الفرح والاغتباط. كان فيدل كاسترو زعيماً طلابياً كوبـــياً سافر إلى بوغوتا مع وفد للمشاركة في مؤتمر طلابـــي عقد لمعارضة مؤتمر عمـــوم أميركا. ونسي كاسترو كل شيء عن مؤتمر طلاب أميركا اللاتينية وتظاهر في الشوارع في محاولة لفرض نوع من المنطق الثوري على أعمال العنف الطائشة التي اتسمت بها الانتفاضة الشعبية. وكان كاسترو قبل يومين لا أكثر، قد أجرى مقابلة مـــع الزعيم الشهيد في مكتبه في الدوّار السابع، ويبدو أنه حظي بإعجاب السياسي الكولومبـــــي. وممـــا يدعو للدهشة أنهما اتفقا على اللقاء مرة أخرى عند الساعة الثانية من بعد ظهر يوم التاسع من نيسان: وقد عثر على اسم فيدل كاسترو مكتوباً بقلم الرصاص في دفتر مواعيد غايتان في ذلك اليوم. لكن مما لا يبعث على الدهشة

أن حكـــومة كولومبيا المحافظة والصحافة اليمينية أسرعتا بالادعاء أن كاسترو كان مـــتورطاً، إما في مؤامرة لاغتيال غايتان، أو في مؤامرة لتخريب مؤتمر عموم أميركا وإثـــارة الانتفاضة، أو في كليهما. لا بد من أن كاسترو كان أحياناً لا يبعد سوى مـــئتي ياردة عن صديق المستقبل غارسيا ماركيز[33]. وعند الاستذكار، فإن أعمال العـــنف في بوغوتا ستكون ذات أهمية قصوى في فهم غابيتو السياسة الثورية، تماماً مـــثلما ســـتكون عليه الحال في أحداث عام 1954 في غواتيمالا بالنسبة إلى رفيق المستقبل تشي غيفارا[34].

في الـــوقت الـــذي بدأ فيه كاسترو يعد العدة لثورة لم تندلع، جلس غارسيا ماركيـــز حزيناً على ضياع آلته الكاتبة - فقد نُهِب مكتب الرهونات - ويردّد في نفـــسه الإيضاح الذي سينقله إلى والديه. على كل حال، عندما بدأ الدخان يُغلّف جدران النُزل قادماً من مبنىً حكومي يقع خلف النـــزل، نظّم أخوة غارسيا ماركيز أصدقاءهم من سوكري وانطلقوا إلى بيت خالهم خانيتو الجديد الذي لا يبعد سوى مـــسافة أربعـــة شوارع عن النُزل. وانضم فريق الأصدقاء والأخوة لحملة السلب والنهب العامة. وفرَّ لويس إنريكي بعد أن أخذ بذلة زرقاء سماوية لبسها والده طوال ســـنوات في المناســـبات الخاصة. ووجد غابيتو حافظة أوراق أنيقة من جلد البقر أصـــبحت في مـــا بعد أحسن غنيمة حصل عليها. لكن أفضل غنيمة كانت إبريق شـــراب كبير يتسع لخمسة عشر ليتراً صبَّ فيه لويس إنريكي بالنتيا أكبر عدد عثر عليه من مختلف المشروبات قبل نقله إلى بيت الخال خوانيتو.

تتذكـــر مارغريتا ماركيز كابابيرو، وكان عمرها آنذاك اثني عشر عاماً وهي الـــيوم سكرتيرة غارسيا ماركيز الشخصية في بوغوتا، وصول قريبها المفضل وأخيه وأصـــدقائهما. كان البيت يحتشد باللاجئين من الساحل، وفي المساء انضم الشبان بعـــدما شربوا حتى الثمالة من شراب محظور قانونياً إلى الخال خوانيتو على سطح المبنى، وحدقوا بذهول إلى مركز المدينة المحترق[35]. في غضون ذلك، كانت الأسرة في ســـوكري تخـــشى حدوث ما هو أسوأ. تقول ريتا متذكرةً: "المرة الوحيدة التي شـــاهدت فيها أمي وهي تذرف الدموع عندما كنت صغيرةً في التاسع من نيسان. كان يمكنني أن أعلم أنها كانت قلقة جداً لأن غابيتو ولويس إنريكي كانا في بوغوتا

عندما اغتيل غايتان. أتذكر أنها ارتدت ثيابها فجأة عند الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي، وذهبت إلى الكنيسة إذ قررت أن تشكر الله لأن خبراً وصلها بأن ابنيها في أمان. دُهِشتُ حينها لأنني لم أرها تخرج من قبل. كانت تلازم البيت لرعايتنا"[36].

في بوغوتا بقي الساحليون ثلاثة أيام في البيت ولم يخرجوا منه، إذ فرضت الحكومة حالة حصار، وظل القناصون يطلقون النار على كلّ من يتجرأ على الخروج. بقي مركز المدينة يحترق، وأغلقت الجامعة أبوابها وأصبحت معظم مناطق بوغوتا في حالة من الخراب، لكن حكومة المحافظين تمكنت من البقاء، وتوصل السياسيون الليبراليون إلى اتفاق غير مرضٍ مع الرئيس الشجاع أوسبينا بيريث أعاد بعضهم بموجبه إلى مجلس الوزراء، لكن الحزب نفسه ظل بلا سلطة على فترة من الزمان. وحالما شعر الأخوان بالأمان يعود إلى الشارع حتى راحا يتزاحمان من أجل الحصول على تذاكر سفر للعودة إلى الساحل بعد أن حضهما والدهما على السفر جواً إلى سوكري. قرر لويس إنريكي أن يجرّب حظه في بارانكيا حيث كانت في انتظاره حبيبة حياته الأخيرة، في حين قرر غابيتو متابعة دراسته الحقوق في جامعة كارثاخينا، أو على الأقل قرر أن يتظاهر أنه يريد ذلك. بعد مرور أكثر من أسبوع بقليل على أحداث التاسع من نيسان الكارثية، انطلق غارسيا ماركيز وأخوه لويس إنريكي والمحرض الشاب فيدل كاسترو روز من بوغوتا في طائرات مختلفة باتجاه مصائرهم التاريخية المتباينة.

أما كولومبيا، فقد أتضح أن مصرع غايتان وما أعقبه من عنف قسم تاريخ البلاد في القرن العشرين إلى قسمين. إن ما كان يمكن أن يحققه غايتان أو ما لا يحققه يكمن في عداد التوقعات. إذ لم يستطع أي سياسي من بعده أن يثير حماسة الجماهير مثلما كان يثيرها هو. وابتعدت كولومبيا أكثر عن حل مشكلاتها السياسية الحقيقية مع مرور كل سنة على وفاته. وكانت الأزمة التي أعقبت وفاته هي التي أدت إلى ظهور حركات حرب العصابات التي استمرت في تعريض الحياة السياسية للخطر في البلاد حتى هذا اليوم. وإذا كان يمكن القول إن حرب الألف يوم أظهرت للطبقات العليا ضرورة الوحدة ضد الفلاحين، فإن أحداث العنف أظهرت على نحو مشابه الخطر الذي تمثله جماهير الطبقات العمالية في المدينة. ومع هذا، فإن المناطق

الـــريفية هي التي ستشهد العنف في أوج صوره ليبدأ خمسة وعشرون عاماً من أكثر الحروب الأهلية وحشية وكلفه: إنه العنف.

أما بخصوص غارسيا ماركيز، فيمكن القول إن ما حدث من عنف في بوغوتا كـــان في مـــصلحته تمامـــاً بخلاف العديد من الناس الذين سقطوا بين فكي تلك الأحداث العنيفة. فقد أدت الأحداث إلى قطع دراسته الحقوق في أفضل جامعة في البلاد، ووفرت له مبرراً آخر للتخلي عن دراسته، ووفرت له ذريعة لا يمكن دحضها لهجر المكان الذي كرهه والعودة إلى الساحل الذي يهواه، لكن ليس قبل أن يألف العاصمة التي ستكون على درجة بالغة الأهمية في إيقاظ وعيه الوطني الأوسع. فهو، كمـــا سنرى، لن يأخذ الحزبين الحاكمين على محمل الجد مستقبلاً. وإذا كان وعيه السياسي الناضج يتطور تطوراً بطيئاً، فإن ثمة دروساً مهمة استوعبها غارسيا ماركيز الآن بشأن طبيعة بلاده. وبما أنه فقد أو ترك معظم ممتلكاته المادية، فإن هذه الدروس الجديـــدة ربمـــا كانت أهم الأشياء التي أخذها الشاب معه وهو في الطائرة باتجاه بارانكيا وكارتاخينا.

* * *

-6-

العودة إلى الساحل:
صحافي متمرن في كارثاخينا
1948-1959

حطّ غارسيا ماركيز رحاله في بارانكيا بطائرة دي سي ثري في التاسع والعشرين من شهر نيسان عام 1948 وذلك بعد يومين من وصول أخيه لويس إنريكي. بقي لويس إنريكي في بارانكيا، وبدأ يبحث له عن عمل، وسرعان ما حصل على عمل في شركة الخطوط الجوية لانسا التي ظل يعمل فيها طوال الثمانية عشر شهراً التالية. في غضون ذلك، كانت كل أنظمة النقل في البلاد لا تزال في حالة من الفوضى في أعقاب أحداث العنف، ووجد غابيتو نفسه مع حقيبة ثياب ثقيلة وبذلة سوداء ثقيلة أيضاً وقد تربع فوق شاحنة بريد تحت أشعة الشمس الحارقة للساحل الكاريبي في طريقه إلى كارثاخينا[1].

كانت كارثاخينا ظلاً من شكلها الأولي لا أكثر ولا أقل. عندما وطأها الإسبان في العام 1533 غدت معقلاً حيوياً للنظام الاستعماري الذي يربط إسبانيا بالكاريبي وبأميركا اللاتينية، وكانت قبل ذلك واحدة من أهم المدن في تسلم العبيد وبيعهم في مجمل العالم الجديد. وبالرغم من هذه البداية الكئيبة، فإنها أصبحت أيضاً (ولا تزال) واحدة من أجمل مدن أميركا اللاتينية وألطفها[2].

لكن بارانكيا توسعت بعد الاستقلال في القرن التاسع عشر لتصبح مدينة تجارية كبرى كانت كولومبيا بحاجة إليها، فيما ركدت كارثاخينا مُدارية جراحها وأحزانها معزية نفسها عن كل ذلك بماضيها المجيد وجمالها الذي ألمَّت به عاديات الدهر. أصبحت هذه المدينة المتدهورة موطن غارسيا ماركيز الجديد. لقد عاد مرة أخرى إلى

الكاريبي، إلى عالم يؤخذ فيه المرء على علاّته بما فيه من جمال وقبح وهشاشة، إلى عالم الأحاسيس. لم يزر من قبل تلك المدينة التاريخية وأخذ منه العجب كل مأخذ لروعتها ووحشتها في آن واحد. لم تكن قد نأت بنفسها تماماً عن أحداث العنف، لكنها، شأنها شأن الساحل كله، عادت على وجه السرعة إلى وضعها القلق نوعاً ما، بالرغم من حالة الحصار ومنع التجوال والرقابة. وتوجه الشاب مباشرة إلى فندق سويسرا في شارع دمشق الذي انقلب إلى نُزل للطلبة، ليجد أن صديقه الثري خوسيه بالنثيا لم يصل بعد، فلم يرضَ صاحب الفندق أن يعطيه غرفة بالدفع الآجل، ما اضطرّه إلى أن يهيم على وجهه في المدينة القديمة المسوَّرة، جائعاً، ظامئاً، يستلقي في نهاية المطاف على مصطبة في الميدان العام مؤملاً النفس بوصول بالنثيا قريباً. لكن بالنثيا لم يصل. استسلم غارسيا ماركيز للنوم على المصطبة، لكن شرطيين اعتقلاه بتهمة خرق حظر التجوال أو ربما لأنه لم يملك السجائر ليقدمها إليهما، فأمضى ليلته على الأرض في زنزانة مخفر الشرطة. هكذا تعرَّف إلى كارثاخينا، ولم يكن فألاً حسناً، وأخيراً وصل بالنثيا في اليوم التالي وسُمح للشابين بدخول النُزل[3].

ذهب غارسيا ماركيز إلى الجامعة التي تقع على بعد شارعين اثنين، وتمكن من إقناع السلطات التي أجرت له اختباراً أمام زملاء صفه مستقبلاً بقبوله لإكمال السنة الثانية من دراسة الحقوق بما في ذلك تجاوز الدروس التي سبق له أن رسب فيها في السنة الأولى. وهكذا عاد طالباً مرة أخرى، وابتدأ هو وبالنثيا من حيث انتهيا عندما كانا في بوغوتا، فخرجا للشرب وللحفلات بالرغم من حظر التجوال، وتصرفا كأنهما طالبان من أبناء الطبقة العليا، فكان ذلك التصرف سهلاً على بالنثيا وصعباً على غارسيا ماركيز. غير أن هذه الحال سرعان ما وصلت إلى نهايتها بعد مرور بضعة أسابيع عندما قرر بالنثيا، الذي لا يستقر على حال، أن ينتقل إلى مكان آخر، فاضطر غارسيا ماركيز إلى الانتقال إلى السكن الجماعي مع الطلاب فكلفه ذلك خمسين بيزوس شهرياً بما في ذلك المبيت وغسيل الملابس.

ثم لعب القدر لعبته. ففي حين كان يتجول في *شارع السيرة السيئة* في حيّ العبيد القديم في غيتسماني المجاور للمدينة المسورة التقى مانويل ثاباتا أوليفيا، الطبيب الأسود الذي سبق له أن تعرف إليه في بوغوتا قبل عام. وفي اليوم التالي، صحب

ثاباتـــا – وهـــو محسنٌ معروف لأصدقائه العديدين أصبح في ما بعد واحداً من أبرز الصحافيين والأدباء في كولومبيا – الشاب إلى مكاتب جريدة الأونيفرسال في شارع سان خوان دي ديوس عند ناصية الشارع الذي يقع فيه نُزل الطلبة، وعرَّفه إلى مدير التحريـــر كليمـــنتي مانويل ثابالا. ويشاء الحظ أن يكون ثابالا، وهو صديق إدواردو ثالامـــيا بوردا، قد قرأ قصص غارسيا ماركيز القصيرة في الاسبكتادور وأعجب بها. وبالـــرغم من حياء الشاب، فإنه قرر أن يجعله كاتب عمود وقال من دون أن يناقش الشروط إنه يتطلع إلى لقائه في اليوم التالي لطباعة مقالته الأولى في اليوم الذي يليه.

يبدو أن غارسيا ماركيز آنذاك كان ينظر إلى الصحافة كونها وسيلة لغاية وأنها نمـــط أدنى مـــن أنمـــاط الكتابة. لكنه بالرغم من ذلك عُيِّن صحافياً بسبب امتيازه الأدبـــي السابق وهو لم يتجاوز سن الحادية والعشرين إلا بقليل. اتصل بوالديه على الفور ليخبرهما أنه سيصبح من الآن قادراً على إعالة نفسه خلال مدة دراسته. وفي ضوء عزمه على التخلي عن تلك الدراسات بأسرع وقت ممكن، وعلى عدم ممارسة المحاماة حتى لو حصل على شهادة، فقد استراح ضميره كثيراً بعد ذلك الاتصال.

كانـــت جريدة الأونيفرسال جريدة حديثة أسسها قبل عشرة أسابيع لا غير دكتور دومينغو لوبيث إسكاوررياثا، وهو سياسي ليبرالي ذو أصل عريق سبق له أن كـــان حاكم ولاية ودبلوماسياً، ولكنه قرر، في ضوء العنف المتزايد الذي يتسم به المحافظون، أن يفتح جبهة جديدة في الحرب الدعائية على الساحل. وحدث هذا قبل شهر واحد من اندلاع أعمال العنف. ولا توجد أي صحيفة ليبرالية أخرى في تلك المدينة الموغلة في خطها المحافظ.

يتفق الجميع على أن ثابالا كان ورقة الصحيفة الرابحة. فقد كان تفاني مدير التحريـــر وبعد نظره قد جعلا جريدة الأونيفرسال تظهر، على افتقار مكاتبها إلى الجاذبية، نموذجاً للترابط السياسي والكتابة الجيدة وفق معايير ذلك الزمان. وكانت الكتابة الجيدة أشبه بالعناية الإلهية للمجند الجديد. كان ثابالا رجلاً نحيلاً، متوتراً، في أواســـط العقد الخامس من عمره، ولد في سان خاثينتو وله ملامح الهنود وشعرهم، أسمر البشرة، له كرش صغيرة ويضع نظارة على عينيه، ونادراً ما شوهد بلا سيجارة في يـــده. وكان أيضاً، بحسب ما تردد من شائعات، مثلي الجنس على نحو متكتم،

يـــصبغ شعره باللون الأسود متحدياً بذلك زحف السنين، ويقطن وحده في غرفة صغيرة في أحد الفنادق. وكان مساعداً سياسياً لغايتان، وقيل إنه اشتغل في صحيفة الجنرال إل دياريو ناسيونال. وفي أربعينيات القرن العشرين، عمل في وزارة التربية، وبعدها في مجلة بلينيو ميندوثا نييرا أكثيون ليبرال.

قـــدّم ثابالا غارسيا ماركيز إلى مجند حديث آخر هو هيكتور روخاس هيراثو وهـــو شاعر ورسام شاب كان له من العمر سبعة وعشرون عاماً وينحدر من مرفأ تولو على البحر الكاريبـــي. ولم يتعرف إلى غارسيا ماركيز، ولكنه كان معلمه في مـــادة الفـــنون قـــبل ثمانية أعوام في مدرسة سان خوسيه في بارانكيا. وكان ذلك التعارف واحداً من المصادفات الغريبة التي أخذت تؤشر حياة غارسيا ماركيز. فقد قُـــدر لروخاس هيراثو أن يكون واحداً من كبار الشعراء والروائيين في البلاد علاوة على شهرته الواسعة في الرسم[4]. وكان خشن المظهر، أسداً، أعلى صوتاً وأضخم حجمـــاً وأشـــد دوغمائية وأكثر حماسةً على ما يبدو من صديقه الجديد، منشرح الصدر، وحساساً في الوقت نفسه.

بعـــد منتـــصف الليل، عندما فرغ ثابالا من تدقيق وتصحيح كل مقالة من المقالات المنشورة على صفحات الجريدة الثماني، دعا الشابين لتناول الطعام خارج مكـــتب الصحيفة. كان الصحافيون غير خاضعين لنظام فرض حظر التجوال، فبدأ غارسيا ماركيز الآن حياة جديدة استمرت عدة سنوات عمل خلالها مدة طويلة من اللـــيل ونـــام طـــوال النهار إن كان في وسعه النوم. ولم يكن هذا بالأمر الهيِّن في كارثاخيـــنا حـــيث تبدأ دراسة الحقوق عند الساعة السابعة صباحاً في حين كان غارســـيا ماركيز يصل إلى البيت عند الساعة السادسة. وكان المكان الوحيد الذي يبقـــى فـــيه الناس ساهرين حتى وقت متأخر من الليل هو مطعم ومشرب الكهف المطل على البحر ووراء السوق العامة، ويديره شاب أسود وسيم يدعى خوسيه دي لانيبـــيس، جو *الثلجي*[5]. حيث كان هنالك ثمة صحافيون وغيرهم من بوم الليل الذين يأكلون شرائح لحم البقر والكرش والأرز مع سمك الروبيان أو السرطان.

بعـــد أن قفل ثابالا راجعاً إلى غرفته المنفردة، بدأ غارسيا ماركيز وروخاس هيراثـــو يتجولان في منطقة المرفأ من شارع الشهداء حيث تخلد تسعة تماثيل نصفية

ذكرى موت أول الثوار الذين ثاروا ضد الإمبراطورية الإسبانية في العام 1816[6]. ثم عـاد غارسـيا ماركيز إلى البيت ليشتغل. وبعد بضع ساعات قلقة ولكنها موغلة ببلاغـته، أسرع إلى رئيسه ليريه عموده الأول. أخبره ثابالا أن المقالة مكتوبة كتابة جـيدة لكنها لا تصلح للنشر.. فهي، أولاً، مغرقة في الذاتية وأدبية أكثر مما ينبغي. ثانـياً، "ألا تلاحـظ أننا نشتغل في ظل نظام رقابـي؟". ثمة قلم أحمر على مكتب ثابالا، فالتقطه، وعلى الفور أدى الجمع بين موهبة غارسيا ماركيز الفطرية وحماسة ثابالا المهنية إلى إنتاج مقالات مقروءة، ممتعة جداً وأصلية كما يتضح منذ البداية[7]. وقـد نـشرت جميع أعمدة غارسيا ماركيز في صحيفة الأونيفرسال بعنوان *فقرة جديـدة*. كـان العمود الأول الذي حظي باهتمام كبير من رئيس التحرير مقالة سياسـية عـن حظر التجوال وحالة الحصار تحت ستار ذكي بوصفها تأملات في المديـنة. وتساءل الأديب الشاب متوقعاً: كيف يمكن أن نتوقع من جيله في حقبة العنف السياسي والحطِّ من قدر الإنسان أن يصبحوا "رجالاً أصحاب نيات حسنة". من الواضح أن الصحافي الجديد حولته الأحداث التي جرت في التاسع من نيسان إلى إنسان متطرف. أما المقالة الثانية فكانت مساوية للأولى من حيث روعتها[8]. وإذا كانـت المقالة الأولى سياسية ضمناً بالمعنى التقليدي، فإن المقالة الثانية كانت أشبه ببيان عن السياسة الثقافية: لقد كانت دفاعاً عن الأكورديون المتواضع الذي يعد آلة موسـيقية متـشردة بين الآلات الموسيقية لكنه يشكل عنصراً مهماً في ضرب من الموسـيقى يدعـى *باليانو* طوَّره في الساحل موسيقيون مجهولون عادةً، وكان برأي غارسيا ماركيز رمز أهالي الإقليم وثقافتهم فضلاً عن رغبته في تحدي أفكار الطبقة الحاكمـة المـسبقة. لقـد أكد غارسيا ماركيز أن الأكورديون ليس آلة متشردة وحـسب، بـل آلة عمالية أيضاً. كانت المقالة الأولى رفضاً لنمط سياسي آت من بوغوتا. أما المقالة الثانية فاحتضنت جذور الأديب الثقافية التي استعادها مؤخراً[9].

للمرة الأولى أصبح مستقبل غابرييل غارسيا ماركيز مضموناً إلى حدٍّ ما. فقد كـان يعمل، وأدرك الناس أنه عمل بإتقان. إنه صحافي، وسيواصل دراسة الحقوق علـى نحو متقطع بلا أي حماسة، لكنه خرج من مهنة المحاماة ودخل عالم الصحافة والأدب، ولن ينظر إلى الوراء.

في الأشهر العشرين التالية. كتب غارسيا ماركيز ثلاثة وأربعين نصاً وأضعافاً مضاعفة من هذا الرقم بلا اسم لصحيفة الأونيفرسال. لكن تلك النصوص كانت في معظمها لا تزال صحافة تعليقات وإبداعات أدبية عفا عليها الزمان على نحو ملحوظ، هدفها الإمتاع أكثر مما هي معلومات سياسية، تقترب حقاً من نوع اليوميات الموثقة يومياً أو أسبوعياً التي لم يكن قد أكل الدهر عليها وشرب في صحيفة أميركية لاتينية في عقد العشرينيات من القرن العشرين. من جهة أخرى، كانت إحدى مهام غارسيا ماركيز تتمثل بمراجعة الأخبار الواردة في جهاز استلام البرقيات السلكية لاختيار قسم منها واقتراح الموضوعات لمقالات الرأي والاستنباطات الأدبية ذات الأهمية الفائقة في صحافة تلك الأيام. لا بد من أن تلك الممارسة اليومية منحته تجربة في الأسلوب الذي تُحوِّل فيه أحداث الحياة اليومية إلى *أخبار* وإلى *قصص* تضفي الغموض على الواقع الاعتيادي وتوفر ترياقاً مضاداً وقوياً لجولاته الأخيرة في مؤلفات كافكا. لقد كان الصحافيون حينها، في كل مكان تقريباً، مضطرين إلى تبني مدخل التجربة الصحافية الأميركية المتمثل بالصحافي الذي يشمر عن ساعديه وهو يعمل، وكرّس غارسيا ماركيز نفسه لها، وولع بها ولع البط بالماء. وبهذا سيصبح أديباً مختلفاً الاختلاف كله عن معظم معاصريه من أدباء أميركا اللاتينية الذين كانت فرنسا والأساليب الفرنسية في صنع الأشياء لا تزال نماذج يحتذى بها في عصر باتت فرنسا نفسها تفقد فيه من قبضتها على الحداثة.

مع أن هناك أشياء كثيرة أمامه ينبغي له أن يتعلمها، فإن أصالة كاتب العمود الجديد كانت واضحة من البداية، ولا بد من أنها كانت تُبهج رئيس التحرير الذي منحه الوظيفة. وبعد ثلاثة أشهر لا أكثر، دعا ضمناً في مقالته عن أديب كارثاخينا الأفرو - كولومبي خورخه آرتل إلى أدب محلي وقاري في آن واحد يمثل *عرقنا*؛ وكان ذلك منظوراً مثيراً للدهشة من حفيد العقيد ماركيز إذ يتبناه وهو في سن الحادية والعشرين؛ ولمنح الساحل الأطلسي هويته *الخاصة به*(10).

في منتصف شهر تموز من تلك السنة؛ أقدمت شرطة المحافظين على مجزرة ضد أسر الليبراليين في إل كارمن دي بوليفار، البلدة التي نشأ فيها جد غارسيا ماركيز مع العمة فرانسيسكا. كانت إل كارمن بلدة ذات موروث سياسي ليبرالي طويل

ومجـــيد. وكانت أيضاً أقرب بلدة من سان خوانيتو مسقط رأس ثابالا، وبهذا اهتم الـــرجلان اهتماماً خاصاً بالأحداث التي وقعت هناك، وشنّا حملة تستند إلى شعار *ماذا جرى في كارمن دي بوليفار؟* وهي النكتة السوداء التي كان يطلقها ثابالا كلما جدّد الحملة أمام إنكار الحكومة وسباتها، وكان ينهيها بعبارة *ما من شك في ذلك. لم يحدث أي شيء في كارمن دي بوليفار*[11]. وهذه هي العبارة نفسها تقريباً التي سيستخدمها غارسيا ماركيز في ما بعد عند ابتكار بلدة ماكوندو في فصل رائع من فصول **مئة عام من العزلة** بعد حادثة مذبحة عمال الموز.

من ناحية ما، لم يكن هناك ما هو أسوأ من ذلك الزمان كي يصبح فيه المرء صحافياً في كولومبيا. فالرقابة فُرضت بُعيد أحداث نيسان 1948 مباشرة بالرغم من أنها لم تكن في منطقة الساحل بتلك الشدة التي عرفتها الأجزاء الداخلية من البلاد. بدأ غارسيا ماركيز يكتب في الصحافة بسبب أحداث العنف، لكن أحداث العنف هـــي التي قيدت تماماً ما يمكن للصحافي أن يفعله. في السنوات السبع التالية، وتحت حكـــم أوســـبينا بيريث ولوريانو غوميث وأودانيتا آربيلايث وروخاس بينيًا، ظلت الرقابة الحكومية نشطة باستمرار على تفاوت حدتها. والأهم من هذا كله أن مقالة غارســـيا ماركيـــز الأولى المؤرخة في الحادي والعشرين من أيار عام 1948 أشارت ضـــمناً إلى مـــنظور سياسي واضح يتمثل بيسار الوسط، وهو المنظور الذي ما من شأنه أن يحيد عنه، كما أنه المنظور الذي لن يقيد قصصه أو يشوّهها في نهاية الأمر (على حدّ قول الماركسيين).

بعد مرور أسبوعين على بدء عمله في الأونيفرسال، طلب غارسيا ماركيز إجازة لمـــدّة أســـبوعين، وتجوّل في أنحاء بارانكيا ثمّ قصد ماغانغي، وعاد إل سوكري لرؤية أسرته. لكننا لا ندري إن كان قد توقف في مومبوكس لإلقاء نظرة على ميرثيديس. ولا بـــد من أنه أدرك عند انطلاقه في رحلته أن مرتبه الجديد لم يكن هو المرتب الذي أخبر والديه به، لكن من الواضح أنه لم يكن يقوى على إزالة الغشاوة عن عيونهما. لم تكن تلك أول زيارة منذ أحداث العنف في بوغوتا وحسب، بل كانت أيضاً أول مرة يعـــود فـــيها إلى البيت منذ أن سافر إلى بوغوتا للبدء بدراسته الجامعية في شباط عام 1947، أي قـــبل مضي أكثر من عام. لهذا كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها

والدتـه منذ وفاة أمها، والمرة الأولى التي يرى فيها آخر أخوانه وهو إليخيو غابرييل الـذي سمي على اسم الأب، كما هي حال غابرييل غارسيا ماركيز نفسه. في فترة لاحقـة يروي غارسيا ماركيز، وهو يكبر أخاه إليخيو غابرييل بعشرين عاماً، مازحاً قصة مفادها أن الطفل الجديد سمي بذلك الاسم لأن "أمي افتقدتني، وأرادت أن تتأكد من وجود أحد اسمه غابرييل في البيت دائماً". عندما ساعد غابرييل إليخيو شخصياً في ولادة إليخيو غابرييل الذي ستكتفي الأسرة في ما بعد بمناداته بالاسم يويو، في تشرين الـثاني عام 1947، قال: "هذا الطفل يشبهني. إن غابيتو لا يشبهني أبداً، لهذا سنسمي هذا الطفل باسمي، لكن على نحو معكوس: إليخيو غابرييل!"[12].

رجـع غابيـتو إلى كارثاخينا و لم يسجل رسمياً في الجامعة إلا في هذا اليوم المصادف في السابع عشر من حزيران بالرغم من اجتيازه المقابلة قبل ذلك بأسابيع. كانـت الأمور تسير على خير ما يرام من الناحية المهنية، لكنها كانت كارثة من الناحية الاقتصادية في وجه الشاب. فبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان ضمن ملاّك الـصحيفة، إلا أن أجـره كـان يدفع له لقاء ما يكتبه. وبالرغم من أنه لم يكن متخصصاً في الرياضيات، وبالرغم من أنه لم يكن يبالي إلى حدٍّ ما بقضايا الميزانية، فقـد أجرى صديقه روميرو دي لا إسبريّا عملية حسابية وقال إنهم دفعوا له اثنين وثلاثين سنتافو، أي ثلث بيزوس، عن كل نص كتبه سواء أكان موقعاً باسمه أم من دون توقـيع، ولكنهم لم يدفعوا له شيئاً لقاء واجباته الأخرى. كان ذلك المبلغ من المـال أقـل من أي أجر يمكن تخيله. وبحلول نهاية شهر حزيران، كان قد طرد من النُـزل، وبـدأ ينام فوق مصاطب الحدائق مرة أخرى وفي حجرات طلاب آخرين أو - وهـذا ما اشتهر به - على ورق طبع الجرائد في مكتب جريدة الأونيفرسال، وهـو المكـان الذي لا يغلق أبداً. في مساء يوم ما، وفيما هو يسير مع زملائه في الحديقـة المـئوية، حيث جلسوا على درجات نصب نولي مي تانغيري، واحتسوا الـشراب، ودخنوا وتجاذبوا أطراف الحديث، سأل أحد الصحافيين، وهو خورخه فرانكو مونيرا، عن أحوال سكن غارسيا ماركيز، فاعترف الأخير بالحقيقة. في تلك اللـيلة نفـسها صـحبه فـرانكو مونيرا إلى بيت أسرته في شارع إيستانكو ديل إغوارديانتي عند ناصية كوارتيل ديل فيخو وعلى مقربة من مسرح هيريديا في البلدة

القديمـــة. عانقت الأسرة الطالب الجائع الذي لا مأوى له، وبخاصة كارمن مونيرا هيران والدة خورخه[13]. كما مالت إليه أمهات أشخاص آخرين، وكان يقيم عند والـــدة خـــورخه بين الفينة والفينة محاولاً استرضاء ضميره بتناول أقل ما يمكن من الطعام طوال مدة بقائه في كارثاخينا.

هكـــذا عاش غارسيا ماركيز في ذلك الوقت حياة باعثة على اليأس أكثر مما كانت عليه حاله في بوغوتا، وروَّض نفسه على عدم الاكتراث فعلياً لمتطلبات بدنه. كان حتى وهو في هذا المكان الساحلي، مشهوراً بقمصانه ذات الألوان المتعددة – كـــان يلـــبس قميـــصاً واحداً حتى يبلى – وستراته ذات المربعات وبنطاله الصوفي الأســـود الـــرث وهو ما تبقى له من بذلة قديمة وجوربه ذي اللون الأصفر الفاتح المتدلي حول كاحليه، وحذائه المغبر الذي لم ينظفه قط. كان شاربه كتلة مؤقتة من الشعر، في حين كان شعره الأسود أشعث كثير التلافيف قلما لمسه المشط. حتى بعد أن حـــصل على حجرة في بيت فرانكو مونيرا، كان ينام حيثما هدَّه التعب وأينما ضـــبطه طلوع الفجر. كان نحيفاً جداً، وكان أصدقاؤه الذين يتأثرون دوماً بمرحه وعدم إحساسه بالشفقة على نفسه و لم يناشدهم مدّ يد العون له، يتشاركون لشراء وجبات الطعام له نهاراً ويأخذونه معهم في نـــزهاتهم ليلاً.

تخـــتلف آراء أصدقائه ومعارفه. فقد خُيِّل للعديد من الناس، خاصة المحافظين اجتماعياً، أنه غريب الأطوار إلى حدّ الجنون أو إنه شاذ[14]. ويقول أصدقاء آخرون مـــثل روخـــاس هيراثو إنه مخنَّث ("يا له من صبـــي طيب")[15]. ويتذكر روخاس وصـــديق آخر يدعى كارلوس أليمان عدم نضج غارسيا ماركيز، ومشيته الوثّابة – التي لم يفقدها قط – وميله إلى الرقص مبتهجاً عندما يقدم إليه أحدهم فكرة جديدة أو يتحمس لواحدة من أفكاره التي تصلح لأن تكون قصة[16]. ويتذكر معارفه أنه كـــان ينقر دائماً بأصابعه على المنضدة أو على أي شيء يتوفر تحت يده عند انتظار طعام الغداء، يغني بهدوء، أو بصخب، فيما تتردّد الموسيقى دائماً بين جنباته[17].

تعلم غارسيا ماركيز كل شيء اضطر أصدقاؤه وزملاؤه إلى تعليمه إياه. كما أنـــه فكّر في بعض الأفكار الأساسية عن مهنته في مرحلة مبكرة جداً من حياته، مما يدعـــو للدهشة. فعلى سبيل المثال، اطّلع على إعلان جورج برنارد شو بأنه سيهجر

نفسه من الآن فصاعداً للترويج لشعارات وذلك للحصول على المال. وعلّق غارسيا ماركيز قائلاً إن ذلك كان غذاءً فكرياً له ولأولئك الذين "قرروا ألاّ يكتبوا لأسباب تجارية، ومع هذا وجدنا أنفسنا نمارس تلك الكتابة تباهياً ليس إلاّ"[18].

استقرت الحياة على وتيرة واحدة في كارتاخينا، وفاتت غارسيا ماركيز معظم دروسه، لكن لم يكن جميع الأساتذة يسجلون أسماء الطلاب الحاضرين، فيما تعاطف المدرسون الليبراليون مع مناوشات الشاب الصحافية ضد الرقابة والسلطات على وجه العموم التي أرسلت أكثر من مرة مجاميع عسكرية إلى مبنى الجريدة لإرهاب العاملين فيها. كان من بين أهم علاقاته هي العلاقة التي نشأت مع غوستافو إيبارا ميرلانو، وهو طالب الأدب الكلاسيكي الذي سبق له أن تخرج من دار المعلمين الابتدائية في بوغوتا، وأصبح الآن يدرّس في إحدى المدارس المحلية على بعد بضع ياردات من مكتب جريدة الأونيفرسال. كان إيبارا ميرلانو صديقاً طيباً لروخاس هيراثو. ولم يكلف سير غارسيا ماركيز مع هذين الصديقين أي مال – ولم يكلفه أيضاً تلقي أي صدقة – لأنهم لم يحتسوا شراباً ولم يحضروا حفلات، بل كانوا يناقشون قضايا رفيعة الشأن تخص الشعر أو الفلسفة الدينية[19].

كان لدى غارسيا ماركيز أصدقاء آخرون، أهواؤهم أقل تقشفاً، وفي المقدمة منهم الأخوان دي لا إسبريّا، راميرو وأوسكار اللذان كان يلتقي بهما من وقت إلى آخر في العام 1948، ولكن لقاءه بهما ازداد في العام 1949، ولم تكن اهتماماتهما ذات طابع سياسي فحسب – بميدان الليبرالية المتشددة وحتى الماركسية – بل كانت شديدة الصلة بالواقع الدنيوي. لقد أمضى غارسيا ماركيز وقته معهما ومع غيرهما من الأصدقاء في معاقرة الشراب وارتياد الأماكن حيث بنات الهوى. ثمة ثلاث مقالات استفزازية على نحو مدهش طبعت في تموز عام 1948 تشير إلى أن غارسيا ماركيز ربما أُغرم ببنت من تلك البنات، وربما كان قد بدأ في ذلك الوقت تماماً يميل إلى الغرام والهوى اللذين سينعكسان على أعماله التالية، وفي المقالة الأولى، يفصّل بكل وضوح جسد أنثى شابة متأملاً: "ونفكّر في أن هذا كله سيسكنه الموت يوماً ما"، ثم ينهي الفقرة الأولى بعبارة: "نفكّر في أن هذا الألم الكامن في داخلك والبعيد جداً عن جسدي سيجد يوماً ما علاجه الأخير"[20].

في الوقت الذي نشرت فيه المقالة الثالثة، اكتشف الأديب الشاب واحدة من أفكـــاره الرئيسية التي تجلت بشكل كلاسيكي في روايته **الحب في زمن الكوليرا**: يمكن للحب أن يستمر إلى الأبد، لكن من الأرجح أن يزهر ويموت في أقصر وقت شأنه شأن المرض[21]. لن ينسى إلاّ القليل من الزوار الذكور رؤيتهم أول مرة لنساء المرافئ الكاريبية مثل كارثاخينا أو هافانا، المثيرات للشهوة بثيابهن الداخلية، وعاش غارســيا ماركيـــز في شبابه الدعارة الكاريبية وهي في أوجها. لكن راميرو دي لا إســـبريّا يتذكر أن غارسيا ماركيز لم يذكر من الفتيات المحترمات الرصينات سوى فـــتاة واحدة هي ميرثيديس التي كانت يومئذ تلميذة مدرسة في السادسة عشرة من عمرها: "لكنني لا أتخيل ما الذي رأته فيه، فقد كان مجرد طفل، عديم الشأن، تعلو وجهـــه البثرات الصغيرة، يعاني الملاريا، ويبدو سقيماً، ويفتقر إلى أي طلة بدنية... ولو رأيته في الشارع حسبته ساعياً"[22].

كـــان أفراد أسرة ميرثيديس ومعظم أفراد أسرة غارسيا ماركيز لا يزالون في بلدة سوكري، غير أن لويس إنريكي كان يعيش في بارانكيا وكان يكثر من السفر إلى كارثاخينا في عطلات نهاية الأسبوع وفي أثناء العطلات الأخرى. "كان غابيتو يفعـــل في كارثاخينا ما كان يفعله في بوغوتا وهو التظاهر أنه يدرس الحقوق لكنه كـــان مـــنهمكاً في الكتابة في حقيقة الأمر"[23]. كان ذلك العصر هو عصر أغاني الـــبوليرو الأميركية اللاتينية العظيمة التي يؤديها ثلاثة مغنّين، وكان لويس إنريكي يحلـــم بإنـــشاء فرقته الثلاثية؛ "وكان مثل هذا الأمر يثير هلع أبـــي أكثر مما تثيره الكتابة التي يمارسها غابيتو"[24].

في هـــذا الوقت تقريباً، تلقى ثابالا رسالة من ثالاميا بوردا الموجود في بوغوتا يـــسأل فيها عما حدث لنشاطات الشاب غارسيا الأدبية. في الحقيقة، تخلى غارسيا ماركيـــز عن كتابة القصص في هذه المرحلة، لكن لم يكن يرفض طلباً لثالاميا، لهذا أسرع بتنقيح قصة أخرى بعنوان **الوجه الآخر للموت** فنشرت في الاسبكتادور في الخامس والعشرين من تموز عام 1948. لا بد من أن غارسيا ماركيز أشبع غروره، وشعر بارتياح عميق وهو يرى شخصاً مؤثراً وفائق الأهمية لا يزال يفكّر فيه، ويعزز من اهتماماته ببوغوتا.

في السادس عشر من شهر أيلول عام 1948، سافر غارسيا ماركيز إلى بارانكيا في مهمة أوكلته الصحيفة بها، ولكنه بدلاً من أن يستقل الحافلة للعودة مباشرة إلى كارثاخينا، قرر أن يزور بعض الزملاء الصحافيين الذين أوصى بهم أصدقاؤه في كارثاخينا، فكان ذلك القرار قراراً تاريخياً آخر، إذ انطلق صوب مكاتب صحيفة الناشيونال حيث كان يعمل كل من خيرمان فارغاس وألفارو سيبيدا اللذين كانا عضوين في جمعية بوهيمية منحلة أصبحت تعرف لاحقاً باسم *جماعة بارانكيا*[25]. في تلك الأمسية الأولى حظيت مساهمة غارسيا ماركيز المتحمسة والحكيمة في المناقشات الأدبية بإعجاب العضو الثالث في الجمعية ألفونسو فوينمايور الذي كان يعمل مساعداً لرئيس تحرير صحيفة الهيرالدو الليبرالية فطلب الأخير من غارسيا ماركيز أن يزوره قبل أن يعود أدراجه إلى كارثاخينا.

ابتهج غارسيا ماركيز عندما وجد أن هؤلاء الصحافيين الصارمين، على ما يبدو، يعرفونه بفعل شهرته، فعانقوه عناق من فقد أخاً منذ زمن طويل، وعاد ليجده أمامه، وعرَّفوه إلى المرشد الأدبي المحلي الأديب الكاتالوني رامون بينيس، وصحبوه إلى مشرب وبيت لبنات الهوى انتهيا بأسطورة **أوفيميا السوداء** التي خلّدها في رواية **مئة عام من العزلة**. هناك ختم غارسيا ماركيز انتصاره الشخصي وارتباطه بالجماعة عندما غنّى أغاني المامبو والبوليرو لأكثر من ساعة. أمضى ليلته في منزل ألفارو سيبيدا الذي كان، بخلاف الآخرين، في مثل سنه وله ذوق غارسيا ماركيز في لبس القمصان المزركشة والملابس الفضفاضة، وكان أيضاً طويل الشعر، وينتعل صندلاً بحيث يبدو وكأنه من رواد الهيبيز. كان سيبيدا يتميز بصوته العالي المدوي بالدوغماتية، وأخذ غارسيا ماركيز إلى جدار صُفت عليه كتب أكثرها أميركية شمالية وإنكليزية: "هذه هي أفضل الكتب الرائجة، وهي الوحيدة الجديرة بأن يقرأها الذين يعرفون كيف يكتبون. وفي وسعك استعارتها كلها إن شئت".

بحسب المذكرات، أرسلت في صباح اليوم التالي رواية إلى غارسيا ماركيز عنوانها **أورلاندو** لأديبة لم يسمع بها من قبل وهي فرجينيا وولف التي يبدو أن سيبيدا كان يعرفها معرفة شخصية إذ كان ينعتها دوماً بوولف العجوز، تماماً مثلما كان جميع أفراد الجماعة على علاقة حميمة مع أديبهم المفضل وليم فوكنر الذي

كانوا ينعتونه بالرجل العجوز[26]. بعد كل هذه السنوات، تظل الحماسة التي أظهرها هؤلاء الرجال الأشداء لأعمال السيدة وولف الرزينة موضع دهشة. ويتذكر الأصدقاء أن غارسيا ماركيز تولاه العجب في ذلك الوقت بسبب سطر غير جدير بسيدة على ما يظهر بالرغم من أنه قرأه في إحدى رواياتها: "الحب هو أن تخلعي سروالك"، وهو ترجمة حرة لعبارة *الحب ينسل من سترة المرء* الواردة في **أورلاندو**[27]. ربما كان لهذا الاقتباس أكثر من وجهة نظر عن العالم أبلغ بكثير مما قد يبدو لأول وهلة. على كل حال، قال غارسيا ماركيز للجميع إن فرجينيا كانت "عجوزاً فظة"[28].

اقترب وقت امتحانات السنة الثانية فانتاب اليأس غارسيا ماركيز، إذ كان حضوره غير منتظم – خمسة عشر غياباً مسجلاً رسمياً – ولم يستوعب إلا القليل مما كان يسمعه. ويتذكر أحد زملاء صفه قائلاً إن غارسيا ماركيز"كان يعمل حتى الساعة الثالثة صباحاً في الصحيفة لينام بعدها فوق ورق الجرائد المخصص للطباعة حتى الساعة السابعة، وهو الوقت الذي تبدأ فيه الدراسة. وكان يكثر من القول إنه كان يضطر إلى الاستحمام في وقت لاحق لأنه لا يملك الوقت للاغتسال قبل الحضور إلى الجامعة"[29]. اجتاز السنة الدراسية عموماً، لكن الإخفاق في مادة القانون الروماني عاد ليقض مضجعه سنوات طويلة، ولعله كان حاسماً في التأكيد على أنه لن يغدو محامياً أبداً.

في غضون ذلك، ألهمته صلته بجماعة بارانكيا – ومنحته الثقة بالنفس – للبدء بكتابة روايته الأولى التي وضع لها عنوان **البيت**، وقد كانت رواية عن ماضيه الشخصي؛ ربما كانت رواية يفكّر فيها منذ عهد بعيد. لقد بدأ كتابة الرواية في النصف الثاني من العام 1948، وانكب عليها انكباباً في مطلع العام 1949. كان صديقه راميرو دي لا إسبريّيا وشقيقه أوسكار يقطنان في منزل والديهما الذي يعود إلى القرن التاسع عشر في شارع باديو الثاني، وهو إحدى مناطق المدينة المسورة القديمة. كان غارسيا ماركيز كثير التردّد عليهما، وغالباً ما يأكل هناك ويمضي ليلته عند اقتضاء الحاجة. كان البيت يضم مجموعة كبيرة من الكتب، وغالباً ما كان غارسيا ماركيز يُشاهَد وهو يقرأ عن التاريخ الكولومبي في المكتبة. يتذكر

أوســكار، وهــو أكبر الشقيقين سناً: "سمَّاه أبــي"الحقوقي الشجاع" لأنه قال إن ارتــداء الثياب التي يرتديها يتطلب شجاعة فائقة... أما أمي فأحبته حبها لابنها... كــان يأتي حاملاً رزمة كبيرة من الأوراق مربوطة بربطة عنق، فيها ما كان يكتبه، فيجلس، ويفك ربطة العنق، ويقرأ أمامنا"[30].

مــن خــلال المقــتطفات التي بقيت طويلاً، ونشرت في ما بعد في صحيفة الهيرالــدو في بارانكيا، يمكننا أن نلاحظ أن أحداث الرواية تجري في بيت يشبه إلى حــدٍّ ما بيت جدَّي غارسيا ماركيز، كما أنها تذكرنا بفوكنر موضوعاً لا أسلوباً. كانت رواية مثيرة للاهتمام، وتنطوي على جهد، لكنها عديمة النكهة، لا توحي أي من فقراتها بالتأثر بفوكنر أو جويس أو حتى فرجينيا وولف، شخصياتها تشبه جده وجدته وأسلافهما. أما المكان فيشبه أراكاتاكا، والحرب مشابهة لحرب الألف يوم، إلا أنه لم يتمكن في هذا الوقت من تجاوز السرد الذي ينحو منحى العرض ذي البعد الــواحد الــذي تعــوزه الحيوية أو الروح. يبدو أن غارسيا ماركيز لم يتمكن من الهــروب مــن البيت، أو بعبارة أخرى، لم يستطع فصل رواية **البيت** عن البيت، الرواية عن مصدر إلهامها. بالرغم من هذا، يستحيل أن نشك في أن جذور **مئة عام مــن العــزلة** موجــودة هنا بما فيها من موضوعات عن العزلة والحنين إلى الماضي والمجتمع الأبوي والعنف التي تنتظر كلها النبرة والمنظور الواضحين اللذين لم يظهرا إلاّ بعــد أكثر من عقد من الزمان. يتمثل جزء من الحقيقة بأن غارسيا ماركيز لم يتمكن تماماً بعد من السخرية من ثقافته، إذ كان يتعذر في ذلك الزمان أن يكون أي شيء مرتبطاً بنيكولاس ماركيز مضحكاً أو ساذجاً، لكن المفارقة هي أنه لم يفطن بعد إلى ربط عالم كافكا الفانتازي بعالم ذكرياته الحقيقي[31].

في آذار مــن العام 1949 داهمه مرض شديد فجأة. وبحسب شهادته، كانت المــواجهة السياسية مع ثابالا هي التي أشعلت شرارة الأزمة. ففي ليلة ما من أواخر شــهر آذار، كان غارسيا ماركيز يجلس في مطعم الكهف برفقة ثابالا الذي كان يتناول العشاء في وقت متأخر من الليل. كان غارسيا ماركيز قد بدأ يتصرف تصرفاً ســيئاً علــى نحــو متزايد منذ رحلاته إلى بارانكيا، فيعمل بغير انتظام في جريدة الأونيفرســال ويظهر ما يشير إلى تمرد مراهق يفتقر إلى التركيز سببه صلته بألفارو

سيبيدا. توقف ثابالا عن تناول حسائه ونظر من تحت نظارته وقال بحدّة: "قل لي يا غابـــريـيل: هـــل لاحظـــت وســـط كـــل تصرفاته الغبية أن هذه البلاد تسير نحو الـــدمار؟"[32]. أُصيب غارسيا ماركيز بالذهول، فاستمر في الشراب حتى انتهى به الأمـــر إلى أن يستغرق في النوم على مصطبة في شارع الشهداء. استيقظ في صباح اليوم التالي بعد أن توقف هطول المطر المداري مبلل الثياب يعاني التهاباً رئوياً. عندما شُـــخِّص الالـــتهاب الرئوي قرر العودة إلى سوكري والبقاء فيها أطول مدة ممكنة ليـــتماثل للـــشفاء في بيت والديه؛ وإن لم تكن الوجهة مثالية لمريض يعاني التهاب الشعب الهوائية لأن مستوى المياه المحيطة بسوكري ارتفع أكثر من أي وقت مضى، وطغـــى على البلدة التي غالباً ما كانت تتعرض للفيضان كما في **ساعة نحس** و**قصة موت معلن**.

ســـيتبين أن تلك العودة إلى البيت كانت مهمة. فقد قال غارسيا ماركيز إنه توقع إلى حدٍّ ما أن تستمر إقامته هناك ستة أشهر بالرغم من أنه في النهاية لم يمكث أكثر من ستة أسابيع. ولم تكن تلك الإقامة هي الأطول التي يمضيها مع الأسرة منذ ســـنين وحـــسب، بل كانت أيضاً زيارة كان يعلم مسبقاً أنها ستجعله أسير البيت لـــوقت طويل. ولم يدرك ذلك في حينه، غير أن ثورة هادئة لا واعية بدأت تعمل عملها في أعماقه بعد أن كبر عدد من أخوانه وأخواته، ثورة بطيئة لا تُحدِث أثرها مباشـــرة، لكـــنها حاسمـــة على المدى البعيد بالنسبة إلى خياله وتفكيره الأدبـــي والتاريخي. في وسع المرء أن يقول إنه سيبدأ بإضافة الأحياء إلى الأموات الذين كانوا يستحوذون على مخيلته.

بعـــد أن بـــات غارسيا ماركيز صحافياً بدأ أيضاً يتنبه إلى سوكري. كانت إحـــدى الأســـاطير المحلـــية إثارة للاهتمام بالمنطقة تتمثل في أن المركيزيتا دي لا ســـيربـــي، وهي امرأة إسبانية شقراء يُفترض أنها عاشت في مستوطنة لا سيربـــي (ســـيربـــي تعني أفعى) النائية ولم تتزوج أو تعاشر أي ذكر، كانت لديها قدرات هائلة، ومزرعة مترامية الأطراف بمساحة عدة بلديات، وعاشت أكثر من مئتي عام. كانـــت في كل عام تطوف في الإقليم تعالج المرضى، وتمنح الإحسان لأولئك الذين تحمـــيهم. وقـــبل أن تمـــوت أحضرت قطعانها من الماشية لتستعرض أمام المنـــزل

فاستغرق ذلك تسعة أيام إلى أن تشكل بفعل ذلك مستنقع (ثيناغا) لا سيربي، جنوب غربي سوكري بين نهري سان خورخه وكاوكا. ثم دفنت ما تبقى عندها من أغلى المقتنيات والكنوز في المستنقع مع سر الحياة الأبدية، ووزعت بقية ثروتها بين الأسر الست التي كانت تسهر على خدمتها[33].

إن هذه الأسطورة التي رواها لغارسيا ماركيز صديقه آنخل كاسيخ بالنثيا، ابن عم خوسيه بالنثيا، وغيرها من الأساطير التي يشاء أن يجمعها بنفسه، لم تساعد على بناء أساس سلسلة من المقالات الرائعة التي بدأ بكتابتها بعد ثلاث أو أربع سنوات وحسب، بل ألهمت أيضاً إبداعه الأدبي الذي يفوق الوصف للأم الكبيرة الذي سيغدو العلاقة الأولى التي لا تدع مجالاً للشك في أسلوب غارسيا ماركيز الناضج في أواخر خمسينيات القرن العشرين. أما المكوِّن الآخر، فكان يتمثل بسيدة ثرية تقيم في سوكري، وتسكن بجوار أسرة خنتيلي خيمينتو التي كانت ترتبط بصداقة مع أسرة غارسيا ماركيز. كانت السيدة تدعى ماريا أماليا سامبا يودي ألفاريز، وكانت تكثر من ازدراء التعليم والثقافة، وتتباهى بلا حدود بثروتها. وعندما توفيت في العام 1957 جرى لها تشييع مبالغ فيه على نحو يدعو للغرابة[34]. وثمة قصة أخرى موازية في غرابتها عن فتاة في الحادية عشرة من عمرها اضطرت إلى احتراف البغاء بتشجيع من جدتها. وبعد سنوات عديدة تتجسد في شخصية عدد من بطلاته لا سيما *إيرنديرا*[35].

بدأت الآن قضية تطوره روائياً تطرح الأسئلة في أجلى صورها الدرامية. لقد لمَّح غارسيا ماركيز في رسالة بعث بها إلى أصدقائه في بارانكيا أن إرسال شحنة من الكتب ستلقى الترحيب في مواجهة قفر سوكري وفظاظة بيت والديه[36]. ووصلت الكتب في حينه، وكانت تتضمن مؤلفات فوكنر: **الصخب والعنف**، **والقرية الصغيرة**، وبينما **أرقد محتضرة**، **والنخلات المتوحشات**، ورواية **السيدة دالاوي** لفرجينيا وولف، **وممر مانهاتن** لدوس باسوس، **وفئران ورجال وعناقيد الغضب** لشتاينبيك، **وصورة جيني** لناثان، **ونقطة مقابل نقطة** لهاكسلي. لكن لسوء الحظ كانت نتيجة قراءة هذه الكتب المتألقة من الأدب الحداثوي قد جعلت كتابة رواية **البيت** تتوقف تقريباً[37]. يضاف إلى ذلك، وفيما كان غارسيا ماركيز يتماثل

للشفاء، بدأ يعود إلى نشاطاته التي كان يزاولها في أثناء وقت الفراغ. لم يحضر إلى لا سيربي، ولكنه عاد إلى علاقته مع نيغرومانتا الشهوانية (التي أصبحت الآن بلا زوج) مما أثار كثيراً من استياء لويسا سانتياغا. كما اتخذ له بعض الأصدقاء الجدد، ومنهم كارلوس أليمان من مومبوكس، والذي يتذكر وصوله إلى بلدة سوكري في أيار من العام 1949: "وقف وسط الحشد الذي تجمع لتحيتنا عند وصولنا من الأكواخ رجل يرتدي زياً غريباً: بنطالاً أسود وقميصاً أصفر، وينتعل صندلاً ريفيّاً. فقلت لراميرو: من *ذلك الببغاء الصغير الهزيل*؟ فردَّ: *ذلك* هو *غابيتو*... كان يقف مرتدياً تلك الثياب، في حين كان الجميع يلبسون الكاكي"[38].

هكذا انضم غارسيا ماركيز الذي كان يفترض به أن يمضي فترة النقاهة من مرضه إلى تلك الجماعة مع صديقه خاكوبو كاسيخ، وهو ليبرالي متشدد آخر، وانطلقوا في رحلة في جميع أرجاء موخانا مستقلين ثلاثة زوارق يرفع كل واحد منها رايات الليبراليين، ويحمل براميل الشراب وفرقة موسيقية. كان أنصار الليبراليين يحيونهم عن ضفّتي النهر على حين أعدَّ وجهاء المناطق، وهم الملاّك الليبراليون عادةً، مآدب الطعام واللقاءات حيثما حلّوا. ويستذكر أوسكار دي لا إسبريّا بعد سنتين: "لقد كنا ماركسيين في تلك الأيام، ننتظر الثورة، لكن كارلوس بيراس لم يصدر الأوامر قط"[39].

بحلول منتصف شهر أيار، شعر غارسيا ماركيز أن في وسعه العودة إلى ممارسة نشاطاته في كارتاخينا بعد أن تحسنت صحته. لكن بما أن صديقه كارلوس أليمان انتخب حديثاً عضواً في مجلس المديرية، فإنه لم يكن مدركاً أكثر مما مضى أهميته الذاتية، لذلك استغل مكانته الجديدة وميزانيته المالية لتنظيم حفلات سمر بين حين وآخر منحت صديقه الفقير ما يكفيه من الطعام لمدة أسبوع، وكان ينتهي به المطاف أيضاً إلى المبغى[40].

عندما رجع غارسيا ماركيز من سوكري وكتب مقالته المطلوبة التالية – وكانت آنذاك ظاهرة نادرة جداً – حول انتخابات ملكة جمال الطالبات، فإنه لم يوقعها باسمه غابرييل غارسيا ماركيز وإنما وقعها باسم سيبتيموس الذي استوحاه من شخصية بذلك الاسم في رواية **السيدة دالاوي** لفرجينيا وولف[41]. تتميز تلك

المقالة الأولى في سلسلة مقالات موقعة بذلك الاسم بنبرتها الواثقة الميّالة إلى الغطرسة وتتضمن عبارة التحدي التالية: "نحن الطلاب اكتشفنا صيغة لحالة مُثلى: التوافق بين مختلف الطبقات الاجتماعية، والمرتبات العادلة، وتوزيع القيمة الفائضة توزيعاً عادلاً، وحل البرلمانات مدفوعة الأجر، والامتناع الشامل والجماعي عن الانتخابات".

لقد أهمل غارسيا ماركيز إهمالاً خطيراً دراسة الحقوق قبل أن يداهمه المرض، وأهملها إهمالاً متعمداً أكثر في ما بعد. لقد بات ذائع الصيت في إعلانه عن مقته الحقوق وتنظيم مباريات كرة القدم تنظيماً مرتجلاً في أروقة الجامعة رفيعة الشأن. ويكمن الخطر في أنه لو حاز على شهادة المحاماة فقد تغريه – أو تجبره أسرته أو ضميره – على ممارستها. لقد كانت دراسة الحقوق في كارثاخينا مملة ورتيبة أكثر مما هي عليه في بوغوتا. في نهاية الأمر أخفق في القانون الطبي (في نظر غابرييل إليخيو؟) وفي الحلقة الدراسية حول القانون المدني، ولكنه نجح بصعوبة في القانون المدني نفسه، واجتاز خمس مواد أخرى. إلاّ أن هذا يُعد إنجازاً في ضوء غياباته الكثيرة. ومع هذا، فهو لم ينجح في مادة القانون الروماني، وبهذا انتقل إلى السنة الرابعة محمَّلاً بثلاث موادّ[42].

كانت السنتان 1948 و1949 سنتين عجيبتين على المستوى العالمي، إذ كانتا من أكثر السنين توتراً وحسماً في القرن العشرين برمته. كان غارسيا ماركيز في بوغوتا عندما بدأ النظام الأميركي الداخلي في القارة؛ وهو نظام يخدم إلى حدّ كبير مصالح الولايات المتحدة التي هيمنت على المناقشات في أوروبا بشأن تأسيس الأمم المتحدة، ورتبت ترتيباً رمزياً كافياً نقل اجتماعات المنظمة الجديدة من لندن إلى نيويورك. كما أعلن الرئيس ترومان الذي كان قد اتخذ قراراً لم يمضِ عليه زمن طويل، بقصف اليابان بقنبلتين ذرّيتين، ألا وهما حملة صليبية عالمية ضد الشيوعية – وكانت السي آي أيه قد شُكّلت في العام 1947 لتكون جزءاً من المعركة ضد الشيوعية – ودعم البابا ضمناً الخط الأميركي. لقد أفلح ترومان في إعادة انتخابه استناداً إلى هذا الوضع. كما أُسست دولة إسرائيل بدعم كامل من الدول الغربية، وظهر حلف الناتو إلى الوجود، وفرضت جمهوريات الاتحاد السوفياتي الاشتراكية حصاراً على برلين فردَّت الولايات المتحدة الأميركية على ذلك بجسر جوي،

فأجـــرى الاتحاد السوفياتي تجربة على قنبلته الذرية. في الأول من تشرين الأول عام 1949 أعلـــن عن تأسيس جمهورية الصين الشعبية. وفي حين أتخذ غارسيا ماركيز قـــراره أخـــيراً بأن يتولى زمام أموره بنفسه والانتقال إلى كارثاخينا، أصبح النظام الدولي الجديد الذي سيدير دفة العالم في أثناء حقبة الحرب الباردة التي أعلنت مؤخراً راسخ الجذور. هذا هو سياق حياة الفتى البالغ وزمانه.

في هـــذه اللحظـــة، ظهر في طريق غارسيا ماركيز مرة أخرى مانويل ثاباتا أوليفـــيا، ذلـــك المتـــشدد الأسود والأديب والثوري والطبيب، وسيتكرر ظهوره مستقبلاً أكثر من مرة. فصحبه مانويل معه ليشاهد ولأول مرة مقاطعة باديا القديمة، المنـــتجع المفضل والمألوف للعقيد ماركيز في أثناء حرب الألف يوم. كان ثاباتا قد تخرج مؤخراً من الجامعة الوطنية في بوغوتا. وبالرغم من أنه من مواليد كارثاخينا، فقـــد كان يسافر لممارسة مهنته الجديدة في بلدة لاباث الصغيرة الواقعة عند سفح ســـييرا نيفادا على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من بايدوبار. دعا ثاباتا صديقه غارسيا ماركيـــز ليذهب وإياه إلى محل إقامته الجديد فما كان من الفتى الشاب إلاّ أن بادر بانـــتهاز الفرصة وقبول الدعوة. فالتقى هناك في لاباث وبايدوبار بمغنّين في بيئتهم الطبيعية – لا سيما عازف الأكورديون الأفرو – كولومبـــي المؤثر أبيليتوا أنطونيو بيًّا وهو أول من سجل موسيقى الفاليناتو[43].

بحلول الوقت الذي عاد فيه غارسيا ماركيز إلى كارثاخينا، كان قد استقر رأيه أخـــيراً: حان الوقت للرحيل. فمدينة كارثاخينا ستكون ملائمة أكثر له إذ يستطيع أن يـــتأمل فيها تراثه الثقافي. كان آخر ظهور له في كارثاخينا في حفلة أقيمت في الـــثاني والعشرين من شهر كانون الأول احتفالاً بنشر رواية **ضباب أزرق** لصديقه خورخه لي بيسويل كوتيس البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، فأثنى عليها ثناءً قليلاً في مراجعة انتقصت من قدرها في جريدة الأونيفرسال.

يتذكـــر أوسكار دي لا إسبريَّا غارسيا ماركيز وهو يغني "أول أغنية فاليناتو سمعهـــا". على حدّ تعبيره وكان مطلعها الأول هو: "سأقدم إليك باقة من زهور/ لا تنـــسيني وســـتفعلين ما يخبرك به اسمها"[44]. لقد استخدم هذا المقطع من الأغنية اســـتخداماً ضمنياً عدد من الأدباء في كارثاخينا للإشارة إلى أن غارسيا ماركيز لم

ينسَ – و لم يتنكر حقاً – ظلم المدينة وحدها، بما فيها من قيم الطبقة العليا الرجعية والمتشامخة وحسب، بل أصدقاءه أيضاً الذين مدّوا له يد العون، وزملاءه الذين ألهموه، وفوق هذا كله رئيس التحرير الذي أحبَّه وعلّمه كليمنتي مانويل ثابالا الذي لم يذكر غارسيا ماركيز اسمه علانية إلا في مقدمة **الحب وشياطين أخرى**. في العام 1994[(45)].

في الحقيقة، سينكر الفتى الشاب بوضوح جميل عدد معين من الأفراد في فترة لاحقة من حياته، كما أنه سيظل يُغمض دور كارثاخينا في تطوره. ولكن من الواضح أيضاً هو أن أدباء كارثاخينا يبالغون في مزاعمهم عن تأثير المدينة ومثقفيها في الروائي الناشئ، ويقللون من شأن مدى معاناته طوال مدة علاجه فيها. لقد كان غارسيا ماركيز صبياً فقيراً طوال السنوات السبع التي أمضاها في المدرسة، وكان يعتمد على عطاءات الآخرين وإحسانهم. وفي بوغوتا، كان دوماً بحاجة إلى المال، وفي كارثاخينا – وفي بارانكيا في ما بعد – وصل به الفقر حدّ العوز. لكنه تمكن على نحو ما من أن يرسم على شفتيه ابتسامة وأن يكون إيجابياً دائماً في تلك السنين. يؤكد الشهود، سواء أكانوا أصدقاء أم غير أصدقاء، على حدٍّ سواء، أنه لم يعبر قط عن شعوره بالأسى على نفسه و لم يطلب إحساناً. أما كيف حافظ على رباطة جأشه، وكيف استمر واثقاً من نفسه، وكيف بنى عزمه وتصميمه وتمكن من ابتكار مهنة وتعزيزها في تلك الظروف القاسية مع أسرة مؤلفة من عشرة أطفال أصغر منه سناً، ويحيون حياة فقر إلى حدٍّ ما، فهو أمر لا يمكن أن يفسر فقط بكلمات مثل الشجاعة وقوة الشخصية والإصرار الذي لا يتزعزع.

* * *

-7-

بارانكيا وبائع كتب وجماعة بوهيمية

1953-1950

"أعتقد أنه ذهب إلى بارانكيا بحثاً عن هواء نقي وحرية أكبر وأجر أفضل"[1]. بهـــذه العبارة يوضح راميرو دي لا إسبريَّا، بعد أكثر من أربعين عاماً، قرار صديقه بالانتقال من مدينة كارثاخينا التاريخية إلى ميناء بارانكيا الحيوي على بعد ثمانين ميلاً إلى الـــشرق. عندما رحل غارسيا ماركيز عن كارثاخينا بنهاية شهر كانون الأول عـــام 1949، كان حظر التجوال قد فُرض مرة أخرى ولم يكن سهلاً الوصول إلى بارانكـــيا في وقـــت متأخر من العصر قبل أن يسري مفعول الحظر. كان معه مئتا بيـــزوس وضعتهما أمه لويسا في جيبه بعد أن استحوذت عليها سراً، بالإضافة إلى مـــبلغ آخر غير محدد من المال أعطاه إياه ماريو آلاريد دي فيليبو أحد أساتذته في الجامعة. كان يحمل معه مسودة رواية **البيت** في محفظة جلدية سبق أن سطا عليها في بوغـــوتا وكان، كعهده، قلقاً من أن تضيع منه أكثر من قلقه على احتمال فقدانه نقـــوده. كان منتشياً بالرغم من أنه سيمضي عطلة ميلاد أخرى وحيداً. على كل حـــال، وكما يعترف في ما بعد حتى أحد المعجبين بكارثاخينا: "كان الوصول إلى بارانكيا في تلك الأيام أشبه بالرجوع إلى العالم، إلى المكان الذي تحدث فيه الأشياء حقاً"[2]. كان ألفونسو فوينمايور قد وعد غارسيا ماركيز بأنه سيقيم الدنيا ويقعدها حتى يجد له وظيفة في صحيفة الهيرالدو.

كانت بارانكيا مدينة بلا تاريخ تقريباً، بلا أي مبانٍ متميزة، لكنها كانت حديثة وتجارية وحيوية، تحتفي بالوافدين، بعيدة البعد كله عن العنف الذي كان يمزق داخل الـــبلاد، سكانها يُقدَّرون بحوالى نصف مليون نسمة. وقد أخبرني غارسيا ماركيز في

العام 1993: "لقد ساعدتني بارانكيا كي أصبح أديباً، ففيها أعلى نسبة من السكان المهاجرين إلى كولومبيا من عرب وصينيين وغيرهم. كانت أشبه بقرطبة في العصور الوسطى: مدينة مفتوحة تحتشد بالمثقفين الذين لا يبالون أبداً بكونهم مثقفين"[3].

كان المؤسس الروحي لما أصبح يعرف في ما بعد باسم جماعة بارانكيا هو رامون بينيس الكاتالوني الذي قُدّر له أن يصبح بائع كتاب **مئة عام من العزلة** العجوز[4]. كان رامون قد ولد في قرية بيرغا الجبلية في العام 1882، ونشأ في برشلونة، واكتسب شهرة قليلة في إسبانيا قبل رحيله إلى ثيناغا في العام 1913. ولا تزال الشائعات تروج حتى يومنا هذا في بارانكيا على أنه كان مثلي الجنس شاذ، ويبدو أن هناك من الدلائل ما يجعلها صحيحة. وهكذا تبيّن أن كلاً من معلّمَي غارسيا ماركيز الأساسيَّين في أثناء فترته الكاريبية، ثابالا وبينيس، ربما كانا مثليي الجنس. وعندما بدأ غارسيا ماركيز يتعرف إلى بينيس - وهي معرفة قصيرة - كان الأخير في أواخر العقد السادس من عمره. كان يميل إلى البدانة، ذا كتلة من شعر أبيض وخصلة على جبينه لا سبيل إلى السيطرة عليها تشبه ببغاء ذا عرف. وتمكن من أن يبدو مهيباً وكريماً. وبالرغم من أنه لم يكن مدمناً على الشراب، فإنه كان متحدثاً رائعاً، وكان حسه الفكاهي دقيقاً وإن كان لاذعاً، وفي بعض الأحيان قد تبدو صراحته قاسية[5]. كان يحظى بامتياز هائل وسط الجماعة، وكان يدرك أنه ليس كاتباً عظيماً، لكنه كان قارئاً نهماً، ويمتزج فكره عن الأدب بالكاثوليكية والفطنة. لم يكن يملك يوماً الكثير من المال، ولكن لم ينقصه المال أبداً. وهو الذي منح الجماعة تماسكها وثقتها بأن المرء يمكنه أن يصبح متعلماً حتى لو كان في مدينة مغمورة، تبدو مفتقرة إلى الثقافة، وبلا تاريخ وبلا جامعة وبلا طبقة حاكمة مثقفة. كان من السهل عليه أن يبدو معاصراً. ومن أقواله التي لم ينسها غارسيا ماركيز: "لو عاش فوكنر في بارانكيا، لجلس وراء هذه المنضدة"[6]. ربما كان ذلك صحيحاً. من موضوعاته الأساسية، أن العالم بدأ يصبح قرية عالمية وذلك قبل سنوات عديدة من مجيء مارشال ماك لوهن بهذه الفكرة.

كان ألفونسو فوينمايور المولود عام 1917 وابن الأديب المحترم خوسيه فيليكس فوينمار أكثر الأعضاء الشبان هدوءاً وربما أكثرهم اتّزاناً، لكنه كان أيضاً

أكثـــرهم أهمية ويرجع سبب ذلك إلى، أولاً: ارتباطه المباشر بالجيل الأقدم، وثانياً: لأنـــه هو الذي جمع كل الآخرين معاً من خلال علاقاته السابقة. وثالثاً: لأنه من اقتـــرح على غارسيا ماركيز الانتقال إلى صحيفة الهيرالدو التي عمل فيها فوينمايور نفـــسه علـــى مدى ستة وعشرين عاماً. ولما كان واسع القراءة باللغات الإسبانية والإنكليـــزية والفرنسية، فقد بدا على محياه أنه يعاني من ضعف البصر، وأنه هادئ وحكيم لكنه كان مثلهم أيضاً معتاداً على الشراب. كان يعاني من الفأفأة، وإن بدا الشراب علاجاً لها. كما كان مولعاً بالأدب الكلاسيكي وبالمعاجم، وكان بلا أدنى ريب أكثر أعضاء الجماعة اطّلاعاً وقراءة.

كـــان خيرمان فارغاس صديق فوينمايور وزميله الحميم. ولد في بارانكيا في العام 1919، بدا طويل القامة، ذا عينين خضراوين ثاقبتين، لا يشبع من القراءة، إلا أنه كان بطيئاً ومتأنياً في كل شيء يقوم به وله الأفضلية عليه. وإذا كان فوينمايور متلعـــثماً علـــى نحو يتعذر تجنبه ومُهملاً ومضحكاً بالرغم من جدّيته ورزانته، فإن فارغـــاس كان دائماً أنيقاً، يرتدي قميصاً أبيض اللون، وكان فطناً في أحكامه[7]، وإن بـــدا قاســـياً في بعض الأحيان، ويُعتَمَدُ عليه. (وهو الذي أرسل إليه غارسيا ماركيـــز في مـــا بعد مخطوطاته ليطبعها الطبعة الأولى، وهو الذي سيكتب غارسيا ماركيـــز طالباً إليه أن يسعفه بالكتب أو بالمال). كان مسرفاً في التدخين، وكلما كان التبغ أشد اسوداداً كان أفضل، وكان هو وفوينمايور أكثر أفراد الجماعة حباً للجلوس والشراب، وبخاصة ذلك المزيج من الشراب والليمون[8].

أمـــا ألفارو سيبيدا ساموديو فكان المحرك النشط في الجماعة، بهي الطلة، أنيق المظهـــر، تعلو وجهه أوسع ابتسامة في العالم، يصعب على النساء مقاومته - ارتبط بعلاقـــات ذائعة الصيت مع فنانات مشهورات في كولومبيا - لكنه أصبح أسطورة بارانكيا إثر وفاته المبكرة في العام 1972[9]. ولد في المدينة في الثلاثين من شهر آذار عام 1926 بالرغم من زعمه الدائم أنه ولد في ثيناغا حيث وقعت مجزرة الموز، لأنه أراد أن يـــرتبط مـــولده بذلك الحدث التاريخي الذي قتل فيه السكان الكاتشاكو الممقوتـــون الأهالي الساحليين الأبرياء. كان والده سياسياً في حزب المحافظين، جُنَّ جـــنونه، وتوفي عندما كان ألفارو طفلاً صغيراً تاركاً وراءه مسحة من المأساة على

الصبـــي تناقض شخصيته البشوشة منشرحة الصدر التي يتعذر نسيانها بعد أن أصبح راشـــداً. كـــان سيبيدا كتلة من التناقضات يبددها بجعجعة هادرة. مظهره مظهر متشرد، لكنه أصاب ثروة عندما كان في أميركا عامي 1949 و1950، وكان يتمتع بعلاقات وثيقة مع أرستقراطيي بارانكيا بمن فيهم رجل الأعمال خوليو ماريو سانتو دومينغو الذي كان عضواً لمدة قصيرة من أعضاء الجماعة، وأضحى في ما بعد أغنى أغنياء كولومبيا وواحداً من أكبر أثرياء أميركا اللاتينية.

هـــناك أليخاندرو أبريغون المتمرد تمرداً يصل حدّ الانتحار، وكان بعيداً عن بارانكيا عندما جاء إليها غارسيا ماركيز. في الحقيقة، كان أبريغون في أوروبا طوال الوقت الذي كان فيه غارسيا ماركيز في بارانكيا. وبالرغم من ذلك، فقد كان يأتي لـــزيارتها بين حين وآخر، وكان عضواً مهماً من أعضاء الجماعة قبل إقامة غارسيا ماركيـــز القـــصيرة فيها وبعدها. كان أبريغون رساماً ولد في برشلونة عام 1920، وكانـــت أســـرته تملك معمل نسيج أبريغون في بارانكيا وفندق برادو الفخم فيها. تـــزوج وطلق مرات عديدة وكان قبلة النساء شأنه شأن سيبيدا. كان نموذجاً أعلى للرسام مشبوب العاطفة، بحلول أواسط أربعينيات القرن العشرين، كانت شهرته في ازدياد[10]. في النصف الثاني من القرن، أمسى أشهر رسام في كولومبيا قبل أن يعلو شـــأن فرناندو بوتيرو، وأكثرهم جدارة بالحب والإعجاب. ثيابه المألوفة عبارة عن بـــنطالين اثنين قصيرين *الشورت* ولا شيء غير ذلك. كانت مآثره الجريئة أسطورية في بارانكيا: فقبل تحدي عدد من جنود المارينـــز الأميركيين بعد أن أساؤوا معاملة إحدى بنات الهوى، والتهم بلقمة واحدة جدجداً مدرباً كبير الحجم يعود إلى أحد زملائـــه على موائد الشراب، وحطم باب مشربه المفضل بفيل استأجره من سيرك محلي، وأدى دور وليم تِل مع أصدقائه مستخدماً القناني عوضاً عن السهام، وأطلق الـــنار علـــى كلبه الأثير وأصابه في رأسه عندما أصيب بالشلل إثر حادثة مؤسفة، وعشرات أخرى غيرها.

هـــؤلاء هـــم اللاعبون الأساسيون لِمَا أصبح يُعرف في ما بعد باسم جماعة بارانكـــيا، ومنظمو الحفل الدائم الذي دُعي غارسيا ماركيز إلى حضوره في مطلع العـــام 1950. هناك آخرون كثر غيرهم، كلهم ينبضون بالحياة ومتفرّدون. في العام

1956، كتب خيرمان فارغاس مشيراً إلى أهواء الجماعة المتنوعة ومتحدثاً عن أصدقائه في **ضوء ما بعد الحداثة**: "يمكن عدُّهم من دون انحياز وبالاهتمام نفسه ظاهرة مختلفة اختلاف رواية **يولسيس** لجيمس جويس، وموسيقى كول بورتر، ومهارة ألفريدو دي ستيفانو، أو تقنية ويلي مايس، ورسوم إنريكي غراو، وشعر ميغيل هيرنانديز، وحصافة رينيه كلير، وتشجيع رافائيل إيسكالونا، وتصوير غابرييل فيغوروا، أو حيوية أوفيميا السوداء"[11]. كانوا ينظرون إلى الصداقة على أنها أهم من السياسة، وكانوا من الناحية السياسية ليبراليين بالرغم من أن سيبيدا كان يميل إلى اتخاذ مواقف فوضوية، فيما كان غارسيا ماركيز ينحو منحى التيار الاشتراكي. يوضح غارسيا ماركيز في فترة لاحقة أن في وسع المرء أن يجد بين أيدي هؤلاء الأصدقاء أي كتاب يتمناه. ما كانوا يذكرون كتاباً ما أمامه في وقت متأخر من الليل في المبغى حتى يقدموه إليه في صباح اليوم التالي فيقرأه وهو لا يزال ثملاً[12].

كانت الجماعة مناهضة للبورجوازية على ما يبدو لكن أفرادها كانوا مناهضين أكثر للأرستقراطية. كان سيبيدا وأبريغون مرتبطين بقسم من أكثر المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية أهمية في المدينة. وكان موقفهم الأكثر إثارة للدهشة – وهو موقف نادر في أميركا اللاتينية في ذلك الوقت – يتمثل بتعاطفهم مع كثير من الأمور الأميركية الشمالية. ففي حين كانت بوغوتا، ومعظم أجزاء أميركا اللاتينية لا تزال أسيرة الثقافة الأوروبية، كانت جماعة بارانكيا تنظر إلى أوروبا على أنها ذات ماضٍ وذات تقاليد، وكانت تفضل عليها نموذج الثقافة الحديثة واضحة المعالم التي تمثلها الولايات المتحدة. لكن هذا الإيثار لا ينطبق بطبيعة الحال على القضايا السياسية لأن الجماعة لم تمتنع عن النقد، وهكذا سبقت بخمس وعشرين عاماً معظم الحركات الأدبية أو الثقافية المهمة في أميركا اللاتينية.

كان موقف الجماعة قد وضعها في موضع مناهضة الكاتشاكو، وكان أشد المناهضين سيبيدا الذي كان يعتقد اعتقاداً عميقاً بالثقافة الشعبية الكاريبية – تجاه ثقافة الإنديز – علاوة على كونه من كبار دعاة التحديث، في وقت لاحق نراه يدعو لتأسيس جمهورية كاريبية. وفي مقابلة أجريت مع الصحافي دانيال سامبر من بوغوتا في العام 1966 نجده يؤكد أن الساحليين ليسوا متسامين ولا يخترعون

الأسرار، أما نحن فلسنا كذابين أو منافقين مثل الكاتشاكو"[13]. ولا يملك سامبر، وهو من الكاتشاكو، أي فكرة عن أي من زملائه الكولومبيين يمكن أن يتصفوا بتلك الصفات، وكان يهمه أن تكون شخصيته أكبر من حجمها الحقيقي. وكان سبيدا واحداً من المتحمسين لأدباء أميركا الشمالية من أمثال فوكنر وهمنغواي، والمؤيد الأول لهواية الجماعة المفضلة.

كان منتجع الجماعة المفضل يقع على بعد بضعة شوارع في وسط بارانكيا. ويقول غارسيا ماركيز في ما بعد "إن العالم بدأ في شارع سان بلاس أو في الشارع الخامس والثلاثين بحسب التسمية الأخيرة"[14]. في الحقيقة، كانت مكتبة موندو على بعد شارع واحد من سان بلاس، بين بروغريسو (الشارع 41) و20 دي فوليو (الشارع 43). وعلى بعد شارع إلى جهة الشرق مقهى روما في شارع سيمون بوليفار. وفي ما وراء ذلك تقع حديقة كولون حيث كان يقطن بينيس على مقربة من شارع السوق الشعبية حيث تشاهد كنيسة سان نيكولاس المعروفة باسم *كاتدرائية الفقراء* على بعد بضع خطوات من مكاتب صحيفة الهيرالدو[15].

كان يمتلك مكتبة موندو شيوعي سابق يدعى خورخه روندون هيديريتش، وكان يُنظر إليها على أنها الخليفة الروحي لمكتبة بينيس التي دمرها حريق في العشرينيات[16]. كانت المكتبة هي المكان الذي يهرع إليه غارسيا ماركيز كلما جاء إلى المدينة والمكان الذي وجدته فيه أمه عندما جاءت تبحث عنه بعد مرور بضعة أسابيع على وصوله[17]. إذا كان الشراب يستمر حتى منتصف الليل أو حتى ما بعد منتصف الليل، فالجماعة كانت تنتقل عادة إلى أحد مواخير بارانكيا الكثيرة، وفي أغلب الأحيان في الحي الصيني بالرغم من أن المكان المفضل كان عند أوفيميا السوداء في أطراف المدينة وعلى بعد ثلاثين شارعاً[18].

كان غابرييل ماركيز أصغر أفراد الجماعة كلها سناً وأكثرهم سذاجة وافتقاراً إلى الخبرة؛ بحسب إيبارا ميرلانو، غابرييل ماركيز لم يشتم أحداً في كارتاخينا ولم يرقه أن يُشتَمَ الآخرون أيضاً. لم يكن مسرفاً في الشراب ولا ميالاً إلى الشجار على وجه التأكيد، بالرغم من وجود ما يدل على أنه كان يمارس الزنى سراً وبانتظام.

يقول خيرمان فارغاس: "كان هادئاً وخجولاً مثلي ومثل ألفونسو، وهو أمر مفهوم لأنه كان ينحدر من بلدة أصغر من بلداتنا كلنا... وكان أكثرنا انضباطاً"[19]. لقد كـــان وظل لسنوات طويلة بلا مأوى خاص به، بلا مال، بلا زوجة، أو حتى بلا صديقة ملائمة في معظم تلك السنوات. (وقد أنقذته علاقته شبه المتخيلة بميرثيديس مـــن ضرورة إيجاد صديقة حقيقية وثابتة). كان أشبه بطالب لا نهاية لدراسته، أو فـــنان بوهيمـــي. ويقول في وقت لاحق إنه على سعادته في ذلك الوقت إلا إنه لم يتوقع أن تستمر[20].

لم يكن قادراً على دفع إيجار منتظم، وانتهى به المطاف إلى أن يحيا زهاء سنة تقريباً في ماخور يدعى مقرات نيويورك، في بناية أسماها ألفونسو فوينمايور *ناطحة السحاب* لأنها كانت تتكون من أربعة طوابق، وهو أمر غير مألوف في بارانكيا في ذلـــك الـــوقت، وفي شارع عرف شعبياً باسم شارع الجريمة قبالة مكتب صحيفة الهيرالـــدو وعلـــى مقربة من مسكن بينيس في ميدان كولون. كان الطابق الأرضي مخصـــصاً للكتاب العدول وبعض المكاتب الأخرى، ويليه طابق بنات الهوى الذي تديـــره بكل حزم امرأة تدعى كاتالينا الكبرى[21]. استأجر غارسيا ماركيز إحدى غرف القسم العلوي من المبنى بمبلغ بيزوس ونصف في الليلة الواحدة. كانت مساحة الغـــرفة ثلاثة أمتار مربعة تشبه مهاجع المستشفيات. وكانت إحدى بنات الهوى، واسمها ماريا إينكارناثيون، تكوي بنطاليه الاثنين وقمصانه الثلاثة مرة في الأسبوع. في بعـــض الأحيان لم يكن لديه المال ليدفع إيجار الغرفة، فيعطي بواب المبنى داموس رودريغيث نسخة من آخر مخطوطاته لتكون عربوناً[22].

عاش ما يقارب السنة في تلك الظروف، في ظلّ ضجيج الشارع والأصوات الأخرى والمناقشات بشأن العمل وعراك قطط الماخور.

صـــادق غارســـيا ماركيز بنات الهوى، ووصل به الأمر أن كتب الرسائل عوضاً عنهن. وكن يعرنه صابونهن ويشاركهن فطورهن، وبين الحين والحين يرد علـــى مجاملاتهن أن يغني لهن أغاني البوليرو والفاليناتو الغريبة. كان يشعر بعظيم الامتنان عندما أعلن وليم فوكنر ذات يوم أن أفضل مكان يكتب فيه الأديب هو الماخور: "في أوقات الصباح يسود الهدوء والسلام وفي أوقات المساء تقام الحفلات

ويُدار الشراب برفقة أناس يطيب الكلام وإياهم"[23]. سمع غارسيا ماركيز عدداً كبيراً من الأحاديث الملهمة على الجانب الآخر من جداره الواهي ليستفيد منها استفادة كبيرة في كتابة نصوص أدبية لاحقة. وفي أوقات أخرى، كان يقوم بجولات ليلية على غير هدىً برفقة صديقه سائق سيارة الأجرة غويرا (القرد). ومنذ ذلك الوقت صار غارسيا ماركيز ينظر إلى سائقي سيارات الأجرة على أنهم نماذج للفطرة.

واصل الكتابة بالاسم المستعار سيبتيموس الذي ابتكره في كارثاخينا، وأطلق على عموده اليومي اسم *الزرافة*، تيمناً سرياً بملهمته المراهقة ميرثيديس بسبب رقبتها الطويلة الرشيقة. ومنذ البداية بدت تلك الأعمدة مفعمة بوهج جديد – وإن كان نظام الرقابة لا يزال ساري المفعول – على خفة محتواها.

ظل غارسيا ماركيز محتفظاً بفكره السياسي – وتماديه في غيّه – إلى أبعد حدّ ممكن. ففي مطلع حياته المهنية في صحيفة الهيرالدو أظهر أنه لم يتأثر بشعبوية بيرون التي كانت تجر إليها غيرها من اليساريين في أميركا اللاتينية، وكتب عن زيارة إيفا بيرون إلى القارة العجوز: "المشهد الثاني هو غزوة إيفا لأوروبا. ففي عمل ديماغوجي دولي لافت للأنظار بذّرت على الطبقة العاملة الإيطالية – في حركة مسرحية أكثر منها عملاً من أعمال الخير والإحسان – ما يوازي تقريباً مجمل أموال وزارة المالية. وفي إسبانيا رحبت بها الصحف الهزلية ترحيباً حاراً شأن الصحف الأخرى"[24]. وفي السادس عشر من آذار عام 1950 نشر مقالة كشفت عن الفرصة الذهبية التي أتيحت للحلاق الذي يحلق ذقن رئيس الجمهورية يومياً بشفرة مفتوحة[25]، وفي التاسع والعشرين من شهر تموز عام 1950 كتب غير مكترث، وكأنه أحد المعارف الشخصيين، عن زيارة قام بها إلى لندن إيليا أهرنبورغ، أكثر دعاة الاتحاد السوفياتي تأثيراً[26]، وفي التاسع من شهر شباط عام 1951 أعلن بكل جرأة: "ما من مذهب سياسي يثير كراهيتي أكثر من مذهب الكتائبيين"[27]. (في وقت كانت فيه كولومبيا تحت نظام لوريانو غوميث الذي كان أول نظام في أميركا اللاتينية يعيد العلاقات كاملة مع إسبانيا في ظل حكم فرانكو بالرغم من أنه يرغب في إقامة نظام شبيه بنظام فرانكو).

"إذا كانت إحدى المشكلات الأساسية تتمثل بالرقابة، فإن أحد موضوعاته الرئيسية كان البحث عن موضوع. وقد عالج غارسيا ماركيز كلا الموضوعين معالجة فكاهية في مقالة له بعنوان: **رحلة الزرافة** التي تصور متاعبه اليومية:

> **الزرافة حيوان حساس إزاء أدنى حركة يبديها رئيس تحرير. فمن اللحظة التي تنشأ فيها الكلمة الأولى في العمود اليومي؛ في ظل الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة... حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، تغدو الزرافة حيواناً حزيناً، ضعيفاً، يمكنها أن تكسر ضلعاً من أضلاعها وهي تنعطف في أي منعطف. في البدء، لا بد للمرء من أن يضع نصب عينيه أن قضية أربعة عشر سنتيمتراً من الحماقة يومياً ليست نكتة، بغض النظر عما يبدو عليه الكاتب من حمق مؤقت. ثم هناك قضية رقيبين اثنين: الأول الجالس إلى جانبي قرب المروحة، يحمرّ خجلاً وعلى استعداد لوقف الزرافة من التلون بأي لون سوى اللون المسموح لها به علناً وطبيعياً. ثم هناك الرقيب الثاني الذي لا يمكن قول أي شيء بحقه من دون أن تختزل رقبة الزرافة الطويلة إلى أصغر حدّ ممكن. أخيراً، يصل هذا الحيوان الثديي الضعيف إلى حجرة الطباعة على اللينوتيب المظلمة حيث يكدح أولئك الزملاء الذين يُفترى عليهم أي افتراء من شروق الشمس حتى غروبها، وهم يحولون ما كُتب أصلاً على أوراق رقيقة زائلة إلى رصاص[28].**

في عدد كبير من هذه المقالات لا نشعر بفرحة الحياة وحدها بل بفرحة الكتابة أيضاً، ففي هذه الأسابيع الأولى من العام 1950 شعر غارسيا ماركيز بهذه اللذة بعد مدة طويلة من الزمان.

كما بدأ غارسيا ماركيز يألف حياته الجديدة، فقد استقبل زائراً غير متوقع. ففي وقت الغداء من يوم السبت الثامن عشر من شهر شباط وعشية المهرجان، وجدته أمه لويسا سانتياغا في مكتبة موندو بعد أن سافرت إليه عبر النهر من بلدة سوكري. وبلغت الكياسة بأصدقائه حداً كافياً جعلهم لا يشيرون إليها بالذهاب إلى *ناطحة السحاب*. هذه هي اللحظة التي اختارها غارسيا ماركيز ليبدأ بها سرده الذاتي في مذكراته **عشت لأروي**. كانت الأسرة تفتقر إلى النقود مرة أخرى، وكانت لويسا سانتياغا في طريقها إلى آراكاتاكا لتبدأ عملية بيع بيت والدها القديم. وكانت الرحلة التي توشك الأم وابنها أن يقطعاها هي الرحلة نفسها التي قطعتها

لويسا وحيدة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً عندما رجعت إلى آراكاتاكا للقاء الصبي الصغير الذي تركته قبل بضع سنوات فَنَسِيَها. الآن، ها هي تعود مرة أخرى، قبل أسبوعين من ذكرى ميلاد غابيتو الثالثة والعشرين[29].

أنهى كتابة مقالته لصحيفة اليوم التالي، ثم سافر برفقة لويسا على ظهر مركب الساعة السابعة لاجتياز المستنقع الكبير وصولاً إلى ثيناغا، وهي رحلة يستعيد فيها ذكرياته على نحو لا يمكن نسيانه في مذكراته. وانطلقا من ثيناغا إلى آراكاتاكا بالقطار الأصفر نفسه الذي ظل ينطلق بين هاتين البلدتين طوال تلك السنين الماضية. وصلا آراكاتاكا، وسارا وسط الشوارع الخالية محاولين أن يستريحا تحت ظلال أشجار الجوز[30]. ينظر غارسيا ماركيز إلى هذه الزيارة بوصفها أهم تجربة في حياته برمتها، فيعزو إليها التأكيد الحازم على مهنته الأدبية والنواة لما يُعدُّه أول كتاباته الجادة وهي رواية **عاصفة الأوراق**. هذا هو السبب الذي يجعل هذه اللحظة، وليست لحظة مولده، هي استهلال **عشت لأروي**. ومما لا شك فيه أنها سرد يدل على البراعة والألمعية، ويبعث الحياة في مجمل المذكرات.

إن أثر هذه العودة إلى الماضي مذهل. فكل شارع يبدو وقد بدأ يعيده إلى الوراء، إلى البيت الذي ولد فيه. أهذه هي آراكاتاكا التي عاش فيها طفولته، هذه البيوت المهلهلة وهذه الشوارع المغبرة وهذه الكنيسة الصغيرة المتداعية؟ كانت الشوارع الخضراء المفعمة بالحياة كما يتذكرها قد باتت مهجورة، ولا أمل في إعادة الحياة إليها على ما يبدو. بدا له كل شيء وكل شخص وقد لفه الغبار، وتقدمت به السن على نحو لا يستطيع تخيله. البالغون لاح على وجوههم المرض والتعب والهزيمة، والذين في مثل سنّه يبدون أكبر سناً، وأولادهم فاترو الهمة، كروشهم كبيرة، والكلاب السائبة والعقبان تبدو وقد سيطرت على البلدة[31]، كأن الجميع موتى، هو وأمه هما من بقيا حيين. أو، كما في قصص الجنيات، إنه كان هو الميت ولم يبعث إلى الحياة إلاّ الآن.

عندما وصل المسافران الناحية المقابلة لمنزل الجدَّين الكبير في شارع المونسنيور إيسبيخو، توقفا أمام عيادة الطبيب الفنزويلي القديمة ألفريدو باربوسا، وكانت زوجته تجلس وراء ماكنة خياطتها، فصاحت بها لويسا: "كيف حالك أيتها

الــرفيقة؟"، فنظــرت المرأة حولها بذهول، وحاولت أن تجيب لكنها لم تتمكن من الإجابــة، إذ عانقــت المرأتان إحداهما الأخرى من دون أن تنبسا بكلمة، وذرفتا الدموع لبضع دقائق. رمقها غارسيا ماركيز بنظرة، وتولاه العجب لأن الزمن نفسه وليــست المــسافة وحدها هما اللذان كانا يفصلانهما عن آراكاتاكا. يوماً ما كان يخشى الصيدلاني العجوز الذي بات مظهره الآن يدعو إلى الرثاء، هزيلاً مثل عصا يابــسة ذابلة، خفيف الشعر، بلا أسنان تقريباً. ولما سألا عن صحة الرجل العجوز تلعثم بما يشبه الاتّهام قائلاً: "لا يمكنكما تخيُّل ما حلّ بهذه البلدة"[32].

بعد مرور سنوات يقول غارسيا ماركيز: "إن ما حدث لي في تلك الرحلة إلى آراكاتاكا هو أنني أدركت أن كل ما حدث في طفولتي كان ذا قيمة أدبية لم أقدرها حق قدرها إلا الآن. منذ اللحظة التي كتبت فيها **عاصفة الأوراق** فهمت أنني كنت أريــد أن أصبح أديباً وأن ما من أحد يمكنه أن يمنعني من ذلك، وأن الشيء الوحيد الذي بقي لي كي أفعله هو أن أكون أفضل أديب في العالم"[33]. وإذا ما أضفنا كل المفارقــات الــتي حدثت مقابل هذا كله، فإن الزيارة لاقت فشلاً ذريعاً: فأمه لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق مع المستأجرين. في الحقيقة، كانت الرحلة برمتها قد نُظّمت على أساس سوء فهم، لكن على كل حال، فقد كانت لويسا نفسها مترددة بــشأن بيع المنــزل. أما هو، وحتى كتابة مذكراته التي يصف فيها جولته مع أمه لويسا حول المبنى الكبير الآيل للسقوط بتفاصيل دقيقة، فقد أكدَّ مراراً وتكراراً أنه لم يتمكن من دخول المنــزل في ذلك الوقت وأنه لم يدخله منذئذ. وقال في يومٍ من الأيام: "لو دخلت، فلن أكون أديباً. المفتاح في الداخل"[34]. أما في مذكراته فيقول غارسيا ماركيز إنه دخل المنــزل.

يقــول إنه قرر على الفور أن يتخلى عن رؤية *البيت* وأن يتجه اتجاهاً آخر. وللوهلة الأولى يبدو الأمر مفاجئاً: ربما يفكّر المرء في أن العودة إلى البيت ستشجعه على البدء بالاشتغال مرة أخرى بالرواية التي تستمد أحداثها من البيت بدلاً من – وهذا هو واقع الأمر – توسيع مدى تركيزه كي يشمل البلدة برمتها التي كان يقع فــيها. غير أن الحقيقة تكمن في أن البيت الذي يستحضره في رواية **البيت** لم يكن البــيت الحقيقــي فعلاً، بل كان بناءً متخيلاً أراد أن يتحدث عنه. والآن، تراه يُعِدّ

العـــدة أخيراً ليواجه مهابة المبنى الذي كان يستحوذ على خياله على مدى سنوات طويلة، ليعيد بناء البلدة القديمة، التي لا يزال يحتفظ بها في مخيلته، حول ذلك البيت.

يـــستحيل عـــدم الـــتفكير في بروست، ما خلا أن غارسيا ماركيز يجد أن آراكاتاكا بالرغم من كونها بلدة ميتة من أوجه عديدة إلاّ أنها حية في كل الأحوال. كما أنه استعاد أمه على نحو يشبه الإنجاز: لم تكن لديه أي ذكريات عن حياته في البيت معها، لكنهما الآن يزوران البيت معاً. وهذه هي المرة الأولى، في كل حياته، الـــتي يقوم فيها برحلة معها لوحده[35]. في الحقيقة، إنه لا يتكلم عن ذلك - ولا يقـــول أي شيء عن كل هذا - لكن لقاءهما في مكتبة موندو في اليوم السابق أعاد تمثيل القصة للقائهما الأول (اللقاء الأول الذي يتذكره) عندما كان في سن السادسة أو الـــسابعة؛ لأننا في ذلك المشهد المتأخر أيضاً نرى الراوي غارسيا ماركيز يدفعها للقول: "إنني والدتك"، تماماً مثل شخصية من شخصيات مسرحية أوديب ملك.

لم تطلق تلك الزيارة ذاكرته وتغير من موقعه تجاه ماضيه وحسب، بل أظهرت أيـــضاً كيف يكتب الرواية الجديدة. لقد بدأ ينظر الآن إلى مسقط رأسه من خلال عدسات قدّمها إليه فوكنر وغيره من حداثوي عقد العشرينيات: جويس وبروست وفرجينيا وولف. لقد كانت رواية **البيت** من روايات القرن التاسع عشر، أساسها نمـــط من الكتب تلائم إطار بلدة كارثاخينا، مثل بيت ذي سبعة أوجه. وسيكتبها الآن على أنها نصر سردي يستمد إلى وعي أبعاد الزمان المتعددة. لم يعد مدفوناً في ذلك البيت المتجمد مع جده. لقد هرب منه.

من الواضح أن شيئاً كبيراً كان يحدث لفهمه العلاقة بين الأدب والحياة عندما كتب بعد بضعة أسابيع مقالة بعنوان **مشكلات الرواية** يصب فيها جامّ غضبه على معظم الروايات المكتوبة في كولومبيا في ذلك الوقت، ويوضح:

> **لم تكتب رواية بعد في كولومبيا متأثرة تأثراً واضحاً وجيداً بجويس أو فوكنر أو فـــرجينيا وولـــف. إنني أقول تأثراً جيداً لأنني لا أظن أن في إمكاننا نحن الكولومبيين أن نكون استثناءً في هذه المرحلة من تلك التأثيرات. إن فرجينيا وولف تعترف في مقدمتها لرواية أورلاندو بمؤثراتها، ولم يستطع فوكنر نفسه أن ينكـــر تلك المؤثرات التي فرض عليها جويس فرضاً قوياً. ثمة شيء ما - وبخاصة في موضوع الزمان - يشترك فيه هاكسلي وفرجينيا وولف. فرانـــز**

كافكا وبروست حاضران في كل مكان في أدب العالم الحديث، وإذا ما أردنا نحن الكولومبيون سلوك الدرب الصحيح علينا أن نضع أنفسنا في خضم هذا الاتجاه. إن الحقيقة التي تدعو للأسى هي أن ذلك الشيء لم يحدث حتى الآن ولا توجد أي علاقة تدل على أنه سيحدث[36].

مما لا ريب فيه أن غارسيا ماركيز كان في طريقه لأن يصبح رجلاً جديداً. فهو لم يعد منفياً من حياته الشخصية، كما أنه استعاد طفولته، واكتشف - أو على نحو أدق أزاح الغطاء عن - هويته الجديدة. لقد أعاد ابتكار نفسه، وذلك كله بأن أدرك فجأة، كأنما في ومضة برق خاطفة، كيف تعلم أدباء الطليعة في عقد العشرينيات من القرن العشرين النظر إلى العالم من خلال وعيهم الفني.

القليل من أصدقائه، سواء في كارثاخينا أو في بارانكيا، كانوا يعلمون الشيء الكثير عن جذوره. وأصبح "الصبي القادم من سوكري" الآن "الصبي القادم من آراكاتاكا". لن يبدّل جذوره مرة أخرى. وإذا كان هناك سبب وجيه للاعتقاد أن رواية **البيت** كانت في تلك المرحلة رواية من سوكري، فإنها ستتطور إلى رواية من آراكاتاكا بالرغم من الاسم المستعار ماكوندو. قبل أن يمضي زمن طويل، يتوارى الكتاب الأول ليفسح المجال أمام الكتاب الثاني، ويكتب غارسيا ماركيز شيئاً من السيرة الذاتية المباشرة. تبدو النكات التي يرويها الآن لأصدقائه وزملائه ذات منحىً آخر. فعلى سبيل المثال، عاد أدراجه إلى مسقط رأسه للحصول على شهادة ميلاده و لم يكن لدى العمدة أي ختم رسمي، فطلب أن يأتوه بثمرة موز كبيرة الحجم. وعندما أتوا بها إليه قسمها إلى نصفين وختم الوثيقة بها[37]. لقد أكّد غارسيا ماركيز لأصدقائه أن الرواية صحيحة، لكنه لا يستطيع إثباتها الآن لأنه ترك الشهادة في ناطحة السحاب... فضحك الجميع ضحكة مدوية لكنهم صدقوه إلى حدٍّ ما. سواء أكانت هناك شهادة يراد إثباتها أم لا، فإن القاصّ القادم من آراكاتاكا قد ولد، وسيصبح في رمزه التالي ساحر ماكوندو. أخيراً، عرف من هو كما عرف ماذا يريد أن يكون.

بعد رجوعه مباشرة إلى آراكاتاكا مع لويسا سانتياغا في شباط عام 1950 كتب في عموده الزرافة مقالة بعنوان **أبيليتوا بيًّا وإيسكالونا وشركاؤهما**[38]. كانت هذه المقالة توضح أن الرحلة التي قام بها مع أمه ذكَّرته بالرحلات التي سبق له

أن قـــام بها وتوازيها في الأهمية، كما أنها ألهمته برحلات أخرى عقد العزم على أن يقوم بها مستقبلاً. استذكر في مقالته رحلته في تشرين الثاني من العام 1949 مع ثاباتا أوليفيا ومجّد فيها حياة الجوالين من التروبادور ومغامراتهم في منطقتي مجدلينا وباديَّا، وأثنى على وجه الخصوص على أعمال شاب آخر قُدِّر له أن يؤدي دوراً رئيسياً لا في فهـــم موســيقى الفاليناتو وحسب، بل ومشاركته الفعلية أيضاً في ثقافة منطقة الـــداخل المطلـــة على الأطلسي. كان هذا الشاب يدعى رافائيل إيسكالونا، وهو مؤلف موسيقى الفاليناتو، وكان قد تحدث سابقاً إلى ثاباتا أوليفيا بخصوص غارسيا ماركيـــز وقـــرر الآن أن يلتقـــيه بعد أن قرأ مقالة أثنى فيها غارسيا ماركيز على موسيقاه[39]. كان لقاؤهما الأول في مقهى روما في بارانكيا في الثاني والعشرين من آذار عام 1950 (ربما كان ذلك اللقاء قبل عام من هذا التاريخ) وذلك قبل أقل من أسبوعين، إثر نشر مقالة عن رحلة عام 1949 وأقل من شهر بعد الرحلة التي غيرت حـــياته مع لويسا سانتياغا. أراد غارسيا ماركيز أن يعطي انطباعاً جيداً عن نفسه للتـــروبادوري الـــشاب، فجاء إلى مقهى روما للقائه وهو يغني مقطوعته الإنشائية جـــوع *في المدرســـة*. ثمة صورة نادرة ترقى إلى تلك الأيام حيث يمكننا أن نشاهد غارســـيا ماركيـــز يغني إحدى أغنيات إيسكالونا لإيسكالونا نفسه وهو ينقر على طاولـــة، ويزُمّ شفتيه كعهده دائماً، لا في أثناء الغناء وحسب، بل في أثناء التدخين أيضاً سواء أكان برفقة نساء أو رجال تروق له صحبتهم[40].

في الخـــامس عشر من نيسان عام 1950، ترك بينيس مريديه، وعاد من حيث أتى. وقبل رحيله أقيمت له مأدبة عشاء كانت الأخيرة. وفي الصورة التي التقطت في ذلـــك المساء كان بينيس في نشوة غامرة وقد وضع ذراعه حول ألفونسو فوينمايور الذي بدا منقبض النفس، وإلى جانبهما الرجل الوحيد من بينهم بلا سترة وبلا ربطة عـــنق بل يرتدي قميصاً مدارياً بألوان صارخة وهو أصغر الحاضرين سناً: غابرييل غارســـيا ماركيز *النحيف مثل حسك السمك*، على حدّ تعبير نادلة في قاعة بليارد أميركا مؤخراً التي أكدت أن عينيه كانتا تومضان، وإنه كان مبتهجاً لوجوده هناك. كانت ملامحه تنم عن براءة وتهكم في الوقت نفسه، لكنه كان قبل كل شيء يتدفق حيوية ونشاطاً.

بعد هذا مباشرة أقنعه ألفونسو فوينمايور بالكتابة في مجلة أسبوعية جديدة مستقلة تطبع بنصف حجم الصحيفة الاعتيادية (التابلويد) في مطبعة الهيرالدو تحمل اسم **كورنيكا** حيث صدرت في التاسع والعشرين من نيسان عام 1950 وحتى شهر حزيران من العام 1951[41]. أصبح غارسيا ماركيز في هذه المجلة صاحب الصنائع السبع ومديرها وكانت بعض إسهاماته فيها تنهل من الحياة الواقعية على نحو مفرط. فكانت قصته **المرأة التي حضرت عند الساعة السادسة** تستند إلى تحدي فوينمايور الذي أبلغه أنه لا يستطيع كتابة قصص من قصة التحري. يتذكر غارسيا ماركيز حكاية عن مساعي أبريغون الأولى في بارانكيا الكاثوليكية في العثور على عارضة عارية. فانطلق أصدقاؤه للبحث عن عاهرة مستعدة لذلك حتى وجدوا مرشحة تبشّر بالخير. فطلبت من أبريغون أول الأمر أن يكتب رسالة لها لترسلها إلى بحّار في مدينة بريستول ووافقت على الحضور في اليوم التالي في مدرسة الفنون الجميلة، لكنها... اختفت[42]. تدور أحداث قصة **المرأة التي حضرت عند الساعة السادسة** عن عاهرة يبدو أنها اغتالت أحد الزبائن، وجاءت إلى المشرب لتثبت أنها كانت في مكان آخر عند وقوع الجريمة. في هذه القصة يتضح تأثير غارسيا ماركيز بأحد الأدباء الذين تحمس لهم ألا وهو همنغواي (ربما قصة **القتلة**)[43]. كما إن هذه القصة تعد نموذجاً نادراً من كتابات غارسيا ماركيز حيث تدور أحداثها مباشرة على نحو شديد الوضوح في بلدة بارانكيا في الأيام التي عرفها فيها.

أما قصة **ليلة الكراوين** فهي أكثر نجاحاً، وأعجب بها خبراء معروفون مثل موتيس وثالاميا بوردا في بوغوتا. وتستقي القصة أحداثها من إحدى زياراته لمبغى أوفيميا السوداء في لاس ديليثياس حيث اعتاد أفراد المجموعة الذهاب إليها كل ليلة. يؤكد فوينمايور في ما بعد، كأنه لم تخامره الفكرة قط، أنهم لم يذهبوا إلى ذلك المكان سعياً وراء النساء "وراء تلك الفتيات الصغيرات اللواتي يستدعين العطف والشفقة واللواتي كن يعاشرن بسبب الجوع"، بل لشراء زجاجة شراب لقاء ثلاثة عشر بيزوس وليشاهدوا البحارة الأميركيين وهم يترنحون حول الأرضية وسط الكراوين المقيمة، كأنهم فقدوا شركاءهم من بني البشر ويتطلعون إلى الرقص مع ذوات الريش الأحمر. وفي إحدى الليالي، كان غارسيا ماركيز يغالب النعاس في

ذلك المكان فهزّه فوينمايور ليوقظه وقال له: "انتبه وإلا فقأت الكراوين عينيك!". (يعتقد في كولومبيا أن الطيور تصيب الأطفال بالعمى لأنها ترى الأسماك تتحرك في عيونهم). وهكذا عاد غارسيا ماركيز مباشرة إلى المكتب ليكتب قصة الأصدقاء الثلاثة في المبغى والذين أصابتهم الطيور بالعمى، وذلك كي يملأ فراغاً في مجلة كرونيكا. يقول المؤلف في ما بعد إن ذلك النص كان أول نص أدبي يكتبه ولا يدفعه للحرج بعد نصف قرن من كتابته.

كان مفتوناً بالمنجزات الأدبية للحداثويين الأوروبيين والأميركيين في عقدي العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين. وكان مفتوناً بالدرجة نفسها بشهرتهم ومجدهم والفائدة التي جناها بعض الأدباء جرّاء ذلك وبخاصة فوكنر وقبله همنغواي، في نسج الأساطير من حولهم ومن حول كتاباتهم. لقد تُركت جائزة نوبل للآداب عام 1949 من دون أن تُعطى لأحد لأن فوكنر لم يحصل على الإجماع بل حصل على الأغلبية في التصويت في الأكاديمية السويدية. وفي الثامن من نيسان كان غارسيا ماركيز قد كتب مقالة بعنوان **جائزة نوبل مرة أخرى** توقع فيها عدم فوز فوكنر الذي كان ينعته بالمايسترو فوكنر لأنه كان "أديباً جيداً أكثر مما ينبغي". ولما مُنح فوكنر جائزة نوبل عام 1949 على نحو استعادي في العام 1950، صرَّح غارسيا ماركيز أن الجائزة كان ينبغي أن تمنح لفوكنر منذ زمن طويل لأنه "أعظم أدباء العالم المعاصر وواحد من أعظم الأدباء على مرّ العصور". وهو أديب من شأنه أن يقبل الآن امتياز تحوله إلى أديب عصري وإن كان ذلك الامتياز لا يبعث على الراحة"[44]. وبعد ذلك بزمن طويل، يحل غارسيا ماركيز المشكلة العويصة - فوكنر أم همنغواي؟- بالإشارة إلى أن فوكنر غذّى روحه الأدبية وأن همنغواي علّمه حرفة الأدب[45].

بعد أن ذاعت شهرة غارسيا ماركيز وجد نفسه مراراً وتكراراً منجذباً إلى مناقشة مدى التأثير الذي تركه فوكنر فيه. وكان وراء هذا التساؤل سؤال آخر منحوس: أتراه سرق فوكنر؟ باختصار، إن كان يفتقر إلى الأصالة الحقيقية، في ضوء المتوازيات الغريبة بين جذورهما، فإن المدهش هو أن غارسيا ماركيز لم يتأثر تأثراً أكبر بفوكنر طالما أن فوكنر كان بلا جدال الأديب المفضل وسط أفراد جماعة

بارانكيا. كما أن تأثير فرجينيا وولف الحاسم في غارسيا ماركيز لم يُشِر إليه كثيراً. أمـــا جـــيمس جويس فقلما ذُكر يوماً. وما دامت إشاراته كثيرة وأصالته لا تقبل النقاش. فممّا لا يبعث على الدهشة أن غارسيا ماركيز تعب من محاولات اختزاله إلى مـــرتبة فوكنـــر كولومبـــي على تحمسه العابر لسكان المسيسيبـــي والأشياء الكـــثيرة الـــتي يشتركون فيها. إننا لا نملك تقريباً أي وثائق خاصة كتبها غارسيا ماركيـــز في تلـــك الفترة، و لم تُحفظ حتى مخطوطات قصصه ورواياته. لكن بين أواسط العام 1950 وتشرين الأول من ذلك العام، كتب غارسيا ماركيز، ربما تحت تـــأثير غير أدبـــي – قد يكون الشراب – رسالة من صفحتين إلى صديقه كارلوس ألـــيمان في بوغوتا. ومما يثير العجب أن الرسالة ظلت باقية وفي ما يلي هذا المقطع عنها(*):

ليس لديّ عنوان خوان بـــي أس وأنا أرسل إليك هذه الرسالة لتوصلها إليه. إنني أكتب إليك يا أليمان رداً على الرسالة اللامعقولة التي أرسلتها إليّ لأنني جد مشغول وليس لدي الوقت لأضع النقاط أو الفواصل والفواصل المنقوطة وغيرها من علامات التنقيط في هذه الرسالة قلما لديّ الوقت لكتابة الرسائل ممـــا يدعو للأسى أن التخاطر غير موجود لنرد عبر البريد التخاطري الذي لا بـــد مـــن أن يكون هو الأفضل لأنه ليس معرضاً للرقابة كما تعلم إننا ندوّن أســـبوعياً مما لا يبقي أمامنا وقتاً للرحلات بحثاً عن العشب المذهل لهذا ففي الوقت الحالي عليك أن ترضى بوخزة تمساح اعتيادية إلى أن تفلس كورنيكا وعـــندئذ يمكننا العودة إلى مرتعنا عند ابن الليل أورليانو بويندیا يرسل تحياته في نهاية الأمر مع البائع المغني ابن توبيا أضحى شرطياً فقتلا ولم يبقَ إلا الفتاة بـــلا اســـم ولن تحظى أبداً بأحد وهم يقولون عنها إنها الفتاة الجالسة طوال اليوم على كرسيّها الهزاز تصغي إلى جهاز الحاكي الذي شأنه شأن كل شيء في هـــذا العالم تعطل وبات مشكلة في البيت لأن الشخص الوحيد في البلدة الـــذي يعرف تصليح الأجهزة هو اسكاف إيطالي لم يسبق له أن رأى طوال حياته حاكياً مرقّعا ويذهب إلى المنـــزل ويحاول إصلاحه بالمطرقة عبثاً في حين يتكلم الأولاد ويسكبون الماء ويصفرون وينتهي الأمر بقطع جهاز الحاكي في كـــل بيت وهي تقول إن جهاز حاكي العقيد أورليانو أصيب بضرر مما دفع الـــناس في عـــصر ذلك اليوم نفسه لارتداء ثيابهم ووضع أحذيتهم وتمشيط شـــعرهم للذهاب إلى بيت العقيد الذي لم يكن يتوقع بدوره أن يزوره أحد بخاصة أن أحداً من أهالي البلدة لم يزره طوال خمسة عشر عاماً منذ أن رفضوا

دفـــن جثة غريغوري خشية رجال الشرطة فشتم العقيد القساوسة فانسحب الـــناس مـــن المجلس فحبس نفسه في البيت ولم يعد إليه الناس إلا بعد خمسة عـــشر عاماً إثر عطل جهاز الحاكي وانكسر التمثال النصفي فأخذوا بذلك العقـــيد وزوجـــته دونا سوليداد على حين غرة... تمضي المرأة الليل كله في ركـــن لا تُحـــدِّث أحداً وعندما تشعر دونا سوليداد بالحرج للذهاب فجراً والناس يغادرون والابن يمسي شرطياً عندما تأتي الشرطة بجنازته العقيد يجلس عـــند الـــباب كعهده دوماً وإذ يرى الجنازة تتقدم يغلق الباب كأن الشيء حدث في مومبوس في وسعك أن تلاحظ كيف وصل الأمر بالكتاب أستطيع أن أخـــبرك أن خيرمـــان وألفونـــسو وأنا نمضي وقتنا نتحدث نكتب نفكر ونـــشتغل في كـــرونيكا ولا نشرب وندخن السجائر لأن الحياة لا يمكنها أن تكون كذلك وإذا لم تحب فرجينيا فاذهب إلى الجحيم فراميرو يهواها ويعرف عن الروايات أكثر مما تعرفه أنت فاذهب إلى الجحيم وقل لراميرو إنني مدين له برسالة وأن يكتب إليّ في كل الأحوال في كانون الأول سأطلب إجازة من كـــرونيكا وســـأكون في الـــشقة لقد رحل دون رامون وكتب حسناً تيتو برنكويت إدوارد بوتيت فوينمايور العجوز تبيّن أنه رجل عظيم نحييك ونتمنى لك ميلاداً مجيداً وسنة سعيدة المخلص لك غابيتو(46).

هـــذه الرســـالة مفاجأة، إذ علاوة على التأثير الواضح الذي قلما يذكر عن جويس - وعن فرجينيا وولف أيضاً - والإحساس المفعم بالحياة الذي توضحه عن حياة غارسيا ماركيز في بارانكيا ومشاعره بالحبور والبهجة فيها، فإنها تظهر لنا أيضاً رجـــلاً شـــاباً لا يزال يفكّر كأنه مراهق قابل للتأثير، رجلاً مهووساً هوساً كاملاً بمـــساره الإبداعي ومستغرقاً في قصصه. ولمن أدرك تطوره، فإنها تظهره أديباً جاداً وملتـــزماً يـــركب موجة تحول من مشروع طويل الأمد **البيت** إلى مشروع آخر **عاصـــفة الأوراق** إضافة إلى كتابة العديد من القصص الأخرى تظهر في ما بعد في مجموعات قصصية وفي كتابة عموده اليومي. من المؤكد أن العقيد أورليانو بويندا أشـــهر شخصية يبتدعها غارسيا ماركيز، لكنه سرعان ما يتخلى عنه ولا يعود اسمه ســـوى أســـطورة تذكر في كتاب تلو الكتاب إلى أن تأتي لحظته في منتصف عقد ســـتينيات القرن العشرين. ليس هذا تماماً. فالواضح أن غارسيا ماركيز لم ينبذ في هـــذه المـــرحلة رواية **البيت** بالرغم ممّا يؤكّد لاحقاً في مذكراته. إذ كان لا يزال منهمكاً في تفاصيل منقحة ومعقدة تشكل في ما بعد جزءاً من **مئة عام من العزلة**.

هكـــذا، لعـــل أكثـــر التفاصيل إثارة للاهتمام بتلك الرسالة هو الإيضاح عن مـــشكلات العقيد مع أهالي بلدته والسبب الذي أدى به إلى أن يغلق البيت. أي إنهم لـــسبب غـــير واضح لم يتركوه يدفن عبده غريغوريو، لهذا، دفنه بنفسه تحت شجرة اللوز في الفناء[47]. هنا تكمن على نحو لا يقبل الجدال واحدة من بذور رواية عاصفة الأوراق، تلك الرواية التي يجد فيها العقيد نفسه محاصراً لأن لديه واجباً يتمثل بترتيب دفـــن رجل كرهته البلدة التي يعيش فيها، ورواية **مئة عام من العزلة** أيضاً التي توثق فيها إحدى الشخصيات الرئيسية إلى شجرة في الفناء وأخرى تموت تحتها.

في وســـع القـــارئ الحصيف أن يلاحظ تأثيراً آخر في هذا الوقت. فقد نشر غارسيا ماركيز قصصاً للكاتب الأرجنتيني اللامع خورخه لويس بورخس في بضعة أعـــداد من مجلة كرونيكا. وفي شهر آب من سنة 1950 تحديداً، وهو الشهر الذي نُـــصّب فيه الرئيس الرجعي لوريانو غوميث، يبدو أن قراءة غارسيا ماركيز لأعمال الممـــثل الكـــبير لأدب الفانتازيا آتت أُكلها. لقد كان بورخس مدهشاً في استلهام مؤثراته من كل زمان ومكان، وبدأ يعبر عن هذا التأثير في مقالات أشار فيها إلى أن مفهوم *المؤثرات* مضلل لأن "جميع الأدباء يبتكرون أسلافهم". لم يكن هذا الموقف مُحرراً لأديب من أميركا اللاتينية وحسب، بل كان عدم احترام بورخس للمصادر التي استفاد منها منعشاً جداً أيضاً. كان يطلق عليه في بعض الأحيان *كافكا أميركا اللاتينيـــة*، إلا أنـــنا لا نجد في أي من كتابات كافكا مفارقاته الفكاهية. لهذا، فمن الـــصحيح أيضاً أن غارسيا ماركيز تبنى العديد من أفكار بورخس (بالرغم من عدم ذكره هذا التأثير) في الوقت نفسه تماماً الذي تعين عليه أن يختار كتابة قصة هجائية عـــن انتحار عنوانها كاريكاتور كافكا[48]. في هذه المرحلة يمكننا القول إن غارسيا ماركيـــز راح يبعد عنه كافكا (وتأثيره فيه)، من هنا سينظر إلى موضوعات كافكا مـــن خلال عدسات بورخس غريبة الأطوار. ويمكن للمرء أن يقول إن جزءاً من المشكلة التي تنطوي عليها رواية **البيت** يكمن في إنها تحمل جرعة كبيرة من كافكا. وعندما ظهرت رواية **مئة عام من العزلة** اتضح أنها رواية بورخسية.

أمـــا رواية **البيت** فهي عن مفاهيم متباينة عن الشرف والواجب والعار. فقد وعـــد أحـــد العقـــداء، من أرستقراطيي بلدة ماكوندو المعروفين، على أن يتحمل

مسؤولية دفن صديقه *الطبيب* البلجيكي (الذي تستند شخصيته كما يبدو إلى شخصية دون إميليو في آراكاتاكا أيام طفولة غارسيا ماركيز) ويعقد العزم على تنفيذ وعده خلافاً لرغبات زوجته وابنته بالرغم من أن الطبيب خان آداب الضيافة عندما عاشر خادمته وبالرغم من أن أبناء البلدة فضلوا مشاهدة الطبيب وهو يتفسخ لأنه كان قد رفض قبل سنوات طويلة معالجة جرحى البلدة في أعقاب صراع سياسي. والآن، تراه وقد ارتكب جريمة شنيعة بانتحاره حسبما رأى الكاثوليك و لم يعد أمام العقيد من أمل سوى دفن الرجل في بقعة أرض غير موقوفة لغرض نبيل.

بالرغم من هذه الحبكة الأخلاقية، فإن رواية عاصفة الأوراق، التي يمكن عدُّها تنويعاً على موضوعة إنتيغونا لسوفوكليس، هي أكثر روايات غارسيا ماركيز التي تنحو منحى السيرة الذاتية بالمعنى الواقعي الصرف. فالشخصيات المركزية ثالوث يشكل قصة رومانسية بثلاثة أبعاد تستند إلى غابيتو ولويسا ونيكولاس. لكن إذا كان يراد للصبيّ وأمه وجده أن يستندوا إلى شخصيات حقيقية، فإن مثل هذا الخيار تطلب حجب أناس حقيقيين آخرين لا سيما ترانكيلينا (إذ تكون الجدة قد وافتها المنية في الرواية وحلت محلها زوجة ثانية) وأخوة غابيتو وأخواته (فالصبيّ في الرواية هو الابن الوحيد) والأهم من هؤلاء جميعاً غابرييل إليخيو غارسيا والد غابيتو الحقيقي. في حالة الأب، فإن حجبه ليس سوى إزاحة، إذ إن هناك شخصية ترتكز ارتكازاً وثيقاً إلى شخصية غابرييل إليخيو وهو والد الطفل الحقيقي في الرواية، إلا أن اسمه مارتن - وهو لقب غابرييل إليخيو الثاني الذي لولا كونه طفلاً غير شرعي لكان هو لقبه الأول وهو مارتينيث - وكانت دوافعه للزواج مجردة من المبادئ الخلقية، وأنانية. يضاف إلى ذلك أنه يهمل زوجته بعد وقت قصير (وتبدو مشاعرها تجاهه فاترة دوماً) ويرحل عن ماكوندو ولا يفكر فيه الصبيّ مرة أخرى على امتداد صفحات الرواية كلها. من الواضح أن هذا الأمر فسح المجال أمام غارسيا ماركيز بالإغراق في التخيُّل عندما كتب بأن والدته لم تحب قط غابرييل إليخيو، وأن الأب غابرييل إليخيو هو الذي أضحى منفصلاً عنها لا عن نفسه، غابيتو الابن[49].

في الرواية زمنان يُذكّران بأسلوب فوكنر. الشخصيات الثلاث تمضي نصف ساعة بين الثانية والنصف والثالثة من بعد الظهر يوم الثاني عشر من أيلول عام 1928

وهي جالسة في الحجرة التي توفي فيها الطبيب منتظرة وضعه في التابوت ليحمل في جنازة بعد ذلك. فالشخصيات الثلاث في حالة توتر شديد لأنها كانت تخشى من سكان البلدة، الذين يكرهون الطبيب، أن يحولوا دون إتمام مراسم الدفن. لكن تلك الشخصيات الثلاث كانت في غضون تلك النصف ساعة أيضاً تستذكر مجمل حياة أسرها - أسرة العقيد المنحدرة أصلاً من غواخيرا - من خلال ومضات مجتزأة في وعي كل واحد منها. الرواية نسخة أشد تعقيداً، وإن جاءت أكثر جموداً وآلية من رواية فوكنر **وأنا أرقد محتضرة**، بوصفها قصة من قصص التحري، متاهة أو أُحجية يتعين على القارئ فك رموزها. ولدينا هنا نموذج كلاسيكي لأديب شاب ذهل وهو يرى أمامه عباقرة من مثل فوكنر، ووولف، وربما بورخس ويريد أن يكشف عن ذلك ويخفيه في آن واحد.

إذاً، إنّ ما بين أيدينا هو العودة والابتعاد في وقت واحد؛ وتلك تجربة قوية ومحددة على نحو استثنائي، امتزج فيها الوجداني بالعقلي والماضي بالحاضر. وإذا كان مفهوم الواقع الكولومبي لا ينطوي على نزعة هجائية قاسية حتى الآن، فسبب ذلك يعود إلى أن غارسيا ماركيز لا يرغب في أن تشمل إدانته الجد أو أن يجعل ماضيه بهذه الدرجة من المرارة (أو التضليل!). حتى هذه اللحظة، يبدو العقيد شخصية متناقضةً وإن ظل مثيراً للإعجاب، لا يُعامل إلاّ بأقل ما يمكن من السخرية. لكن غارسيا ماركيز أدرك بعودته إلى مسقط رأسه أن ماكوندو دُمرت بقوة يرى السكان أنها قوة القدر، في حين لا يرى هو في ذلك الآن سوى تاريخ.

بعد مرور أعوام، وتحديداً في العام 1977، يقول غارسيا ماركيز: "إنني أُكنّ حباً كبيراً لرواية **عاصفة الأوراق**، وأتعاطف تعاطفاً شديداً مع الرجل الذي ألّفها. إنني أراه واضحاً وضوح النهار: إنه شاب في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين يعتقد أنه لن يكتب أي شيء آخر في حياته، وأن هذه هي فرصته الوحيدة، ولهذا يبذل قصارى جهده كي يضع فيها كل شيء، كل شيء يتذكره، وكل شيء تعلمه عن التقنية وصنعة الأدب من المؤلِّفين الذين قرأ مؤلفاتهم"[(50)]. تستمر الكتابة في رواية **عاصفة الأوراق** على نحو متقطع، لسنوات أخرى، لكن يمكن القول إنها قد انطلقت انطلاقة جيدة وحقيقية. لكن بالرغم من أن هذا الشاب لن يشعر بالرضا

أبداً، إلا أن مستقبله الأدبـــي سيتأكد بلا ريب بالحظ وبالعمل المثابر الطويل. لكنه لم يكن رجلاً في وسع أحد أن يكتب عنه العبارة المبتذلة بأنه لن ينظر وراءه أبداً.

* * *

ممـــا لا شـــك فيه أن غارسيا ماركيز كان لا يزال مضطراً إلى كسب رزقه، لذلك واصل كتابة عموده **الزرافة** في صحيفة الهيرالدو يومياً من جهة، والعمل بكل جهد ونشاط في مجلة كرونيكا من جهة أخرى. وكانت كل كتاباته في ذلك الوقت تتمتّع بالابتكار والإبداع مهما كانت عديمة الشأن أو مكتوبة على عجالة. وإذا ما نظـــرنا إلى تلـــك المقـــالات من حيث ترتيبها، فإن أكثرها إثارة للانتباه هي تلك المنـــشورة بـــتاريخ السادس عشر من كانون الأول سنة 1950، وكانت بعنوان **لا أميغا**. ويمكن لكلمة أميغا أن تعني بالإسبانية أي صديقة من الإناث أو يمكن أن تعني *فتاة صديقة*. كانت المقالة رد فعل علنيّاً إزاء حماسته عندما التقى ميرثيديس بارتشا مـــرة أخـــرى في مقالـــة ذات نبرة هادئة قلما توحي بلذة الحدث. وتوصف هذه الـــصديقة على ما كانت عليه ميرثيديس بالأمس واليوم، "بسحنتها الشرقية وبنظرة عينـــيها الخاصـــة" و"عظام وجنتيها البارزة" و"بشرتها السمراء" و"أسلوبها الساحر المجامل". كانت ميرثيديس في البلدة لأن أسرتها هربت من منـــزلها قبل بضعة أشهر في أثناء مواجهة أحداث العنف التي حلّت ببلدة سوكري وما رافقها من انتقام.

كانـــت المودة بين غابرييل غارسيا ماركيز وميرثيديس بارتشا لغزاً من البداية وحـــتى الـــنهاية[51]. ومَـــزَحَ الاثنان بشأن إصرار غارسيا ماركيز على أنه قرر أن يتزوجها عندما كانت في سن التاسعة، وبشأن إصرارها هي على أنها لم تنتبه إليه إلا قبل سفره إلى أوروبا بوقت قصير في العام 1955. غير أن مقالة شهر كانون الأول سنة 1950 التي لا يمكن النظر إليها نظرة حرفية تشير بالرغم من ذلك إلى أن ثلاث سنوات مرَّت على لقاء البطلين. الحق أن العام 1947 كان هو العام الذي تخرّج فيه غارسيا ماركيز من ثيباكيرا وعاد إلى البيت لتمضية فصل الصيف، وبعدها توجه إلى الجامعة في بوغوتا. ولم يرجع إلى البيت إلا مرات قليلة جداً، كانت فيها ميرثيديس خارج سوكري تدرس في مدرسة دير الراهبات في ميدلين ولم تعد إلى البيت إلا في عطلة نهاية كل سنة. ثمة حكايات تتوارد عن أن غابيتو كان يتسكع في مومبوكس

قبل عام 1947 عندما كانت ميرثيدس تدرس هناك ويتذكر راميرو دي لا إسبريَّا أنه كان يتحدث عنها في كارثاخينا في العام 1949، لكن يبدو أن الصلة بينهما كانت ضعيفة جداً في الأعوام الستة التي مرَّت بين لقائهما الأول ولقائهما في نهاية ما يصفه بالسنة الحاسمة جداً في حياة غارسيا ماركيز.

تشير الأمور كلها إلى أنه كان يتوقع عودها من المدرسة إلى بارانكيا لتمضية عطلة الميلاد قبل أن يلتقيا. أولاً، لقد انتقل من *ناطحة السحاب* إلى نُزل محترم تديره الأخـوات أبـيلا اللواتي كان يعرفهن من خلال صلاته بسوكري، وكن يعشن في المـنطقة المرتفعة من البلدة على بعد بضعة شوارع من فندق برادو وعلى مقربة من المـنطقة التي كان يقطن فيها صديقه الشاعر ميرا ديلمار[52]. وتبين أنه على مقربة أيـضاً مـن الصيدلية الجديدة التي أسسها ديميتريو بارتشا عند ناصية الشارع 65 وشارع 20 تموز. كما غيَّر غارسيا ماركيز من صورته، إذ قصَّ شعره أكثر، وشذَّب شـاربيه، وارتدى البذلة، ووضع ربطة العنق، وانتعل حذاءً أنيقاً ليحل محل الصندل المـداري. وكـان رد فعل أصدقائه على هذا التغيير قاسياً، وتوقع بعضهم أنه لن يـتمكن من كتابة كلمة واحدة حالما غادر *ناطحة السحاب*. والواضح أن انتقاله تزامن مع إدراكه أن روايته الجديدة – وهي رواية تدور أحداثها عنه وعن زوجته – باتـت أمـراً واقعاً الآن، ومع عزمه على أن يقابل ميرثيديس. لقد أمسى من نواحٍ عديدة إنساناً جديداً لديه الآن ما يمنحه لامرأة أكثر من السابق.

بيد أن خجله ظل مشكلة استمرت الأسرة تمزح بشأنه اليوم. تستذكر ليخيا غابـرييل ماركيـز: "عندما انتقلت ميرثيديس إلى بارانكيا، أمضى غابيتو ساعات يتحدث إلى ديميتريو بارتشا في الصيدلية الملاصقة لبيتهم. وقال الناس لميرثيديس مرة أخرى: *لا يزال غابيتو يهواك*، فردَّت قائلة: *لا، إنه يهوى أبـي لأنه يتحدث وإياه طـوال الوقت، ولا يلقي عليَّ حتى بتحية المساء*"[53]. وقد اعترف غارسيا ماركيز نفـسه أنـه أمـضى عشرة أعوام وراء منعطف الشارع ينتظر أن يحظى بنظرة من ميرثيديس الساحرة والمتشامخة، يعاني عذاب الإحباط، بل والهوان أحياناً على يدي فـتاة يـبدو أنها وجدت صعوبة منذ أمد بعيد في أن تنظر إليه على محمل الجد و لم تظهـر اهتماماً يذكر به[54]. ويستذكر أفراد جماعة بارانكيا في ما بعد أنهم كانوا

يطوفون بسيارة سيبيدا من نوع جيب، فطلب غارسيا ماركيز من سيبيدا أن يقترب ويمر أمام الصيدلية حيث كانت ميرثيديس أحياناً تساعد في أثناء العطلات، وبعد أن تركت المدرسة، لمجرد أن يختلس نظرة إليها، من دون أن يعير أي اهتمام لصيحات أصدقائه الذين كان لهم موقف آخر تجاه النساء.

أما ميرثيديس نفسها التي لم تتحدث إلاّ في مقابلتين للصحف (إحداهما مع أُخت زوجها بعنوان "انتظرني غابيتو كي أكبر") فقد أخبرتني في العام 1991 قائلة: "لم أخرج مع غابيتو إلا برفقة جماعة. لكن، لي قريبة فلسطينية كانت توفر لنا غطاءً دائماً، وكانت تحاول أن تجمعنا معاً، وكانت دائماً تبدأ جملها الكلامية بعبارة: عندما تتزوجين غابيتو...".

في فترة الميلاد سنة 1950، أقنع غابيتو أخيراً ميرثيديس أن تمنحه فرصة، ورافقها للرقص في فندق برادو بضع مرات، ولم تكن ملتزمة مما يبعث على النكد، لكنها لم ترفض صراحة تودّد الشاب، واختار بدوره أن يصدق أن هناك ضرباً من الاتفاق الضمني وأن الفرصة سانحة، فكان هذا وضعاً جديداً تماماً.

إن الإنسانة التي تعرف في الأقل قدراً من تلك اللقاءات المبكرة هي عايدة غارسيا ماركيز التي نفاها والداها إلى بارانكيا لإبعادها عن خطيبها رافائيل بيريث. وقالت لي: "لم تكن ميرثيديس صديقتي المفضلة لكنني كنت أنا صديقتها المفضلة. كنا نذهب للرقص معاً في فندق برادو وكنت أرقص مع والدها كي يظل غابيتو معها"[55].

وهكذا بدا غارسيا ماركيز عام 1951 في أقصى حالات التفاؤل التي يمكن تخيلها، لا يعلم إلا القليل عن الدمار القاسي الذي سيحيق بحياته الجديدة التي كان يخطط لها بتؤدة ويكسبها بعرق الجبين. ففي الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني تلقى رسالة مقتضبة من ميرثيديس تبلغه فيها أن صديقه كايتانو خنتيلي اغتيل في سوكري – كانت الأسرتان متقاربتين – إذ كانت خوليتا وهي والدة كايتانو عرّابة نانتشي – ويكتشف – غارسيا ماركيز في ما بعد أن عدداً من إخوانه وأخواته كانوا شهوداً على ما حدث. ولم يكن الغائبون عن سوكري في ذلك الوقت سوى عايدة وغابرييل إليخيو، الذي كان في بلدة كارثاخينا لحضور مؤتمر الحزب المحافظ، وغابيتو نفسه.

قتل أخوة مارغريتا كايتانو خنتيلي، وكانت مارغريتا فتاة شاركت ميرثيديس في السكن في مومبوكس. وفي ليلة زفافها كشفت لزوجها أنها ليست عذراء فما كان منه إلاّ أن أعادها إلى أهلها بوصفها بضاعة فاسدة. وتشير إحدى الشائعات في مومبوكس إلى أن شرطياً اغتصبها في أثناء حوادث العنف وأنها لم تستطع البوح بذلك خشية الانتقام. لهذا قالت إن كايتانو خنتيلي، صديقها السابق، هو الذي افتضّ بكارتها[56]. لن تعرف الحقيقة أبداً. وعلى الفور انطلق أخوتها لاستعادة شرف الأسرة بقتل الجاني المتهم في ميدان سوكري العام وعلى مرأى من أهل البلدة جميعاً. هذه هي القصة التي سيحولها غارسيا ماركيز إلى روايته **قصة موت معلن** بعد ثلاثين سنة على الحادث، أي عام 1981. كان القتل بشعاً وعملاً سيظل يؤرق غارسيا ماركيز وجميع أفراد أسرته على مدى عقود.

بعد مرور أسبوع واحد، وقبل أن يتوفر لغارسيا ماركيز الوقت الكافي لمعرفة تفاصيل هذا الحادث المروِّع، تلقى رسالة تفيد أن غابرييل إليخيو وصل بلدة بارانكيا بدلاً من أن يعود إلى سوكري بعد انفضاض مؤتمره. فما كان من غابيتو إلاّ أن استقل حافلة وقصد مركز البلدة والتقى أباه المذعور في مقهى روما: كان قد سمع بدوره نبأ الاغتيال، وخشي هو ولويسا سانتياغا على مستقبل الأسرة بسبب تزايد العنف السياسي الذي كان فيه هذا الحدث القشة التي قصمت ظهر البعير. (الحق أن غابرييل إليخيو واجه ظروفاً مالية صعبة في سوكري منذ اللحظة التي انتقل فيها طبيب حقيقي إلى المنطقة التي يسكنها من البلدة). كان غابرييل إليخيو في كارثاخينا بصحبة غوستافو الذي بات حينها ذراعه اليمنى وقام بسلسلة من التحريات وسط أصدقائه وأقربائه المحافظين في المدينة ورتب الأمور للانتقال بأسرته إليها وأراد أن يساعدهم غابيتو حتى يستقروا ثم يعود أدراجه إلى كارثاخينا ليساعدهم على الأمور المالية في وضع بات صعباً إن لم يكن يائساً. يقول غابرييل إليخيو إن الفائدة الأخرى من وراء ذلك تتمثل بأنّ غابيتو قد يتمكن من العودة إلى دراسة الحقوق[57].

كانت مخاوف غابرييل إليخيو مثيرة للدهشة للوهلة الأولى لأن سوكري منطقة من مناطق حزب المحافظين أساساً، وكان هو نفسه منهمكاً في الشؤون

السياسية المحلية، وكان يتحتم عليه أن يكون قادراً على الاعتماد على الحماية. وكان يتوقع أن يهرب الليبراليون مثل ديميتريو بارتشا – الذي هرب حقاً – في حين بدت أسـرة غارسيا ماركيز على ما يرام. إضافة إلى ذلك، لم يكن قتل كايتانو ذا دوافع سياسـية، لكن أخذت تظهر في ذلك الوقت ملصقات تنطوي على الافتراء وتعدّ علامـة مـشفّرة مـن علامات تفكك المجتمع وانحلاله، ولم تكن مكرّسة للقضايا الـسياسية وبخاصة الفساد وحسب، بل كانت قبل كل شيء تنطوي على اتهامات جنـسية القـصد منها تحطيم سمعة الناس. وانتشرت حوادث الانتقام، وكان لدى غابرييل إليخيو ما يكفي من الفضائح الجنسية الخاصة به كي يشمله القلق.

وافق غابيتو بحزن وتردد على مطالب أبيه، فعاد غابرييل إليخيو إلى سوكري لتـرتيب الخروج. كانت لويسا منكسرة الفؤاد. وتتذكر ليخيا: "بكت أمي عندما رحلت عن سوكري تماماً مثلما بكت عندما وصلت إليها"[58]. لقد عاشت الأسرة في سـوكري لأكثـر مـن أحد عشر عاماً، وكان قد ولد فيها خيمي وهيرناندو وألفـريدو وإليخـيو غابـرييل، كما وافت المنية ترانكيلينا فيها أيضاً. وحقق فيها غابرييل إليخيو مرة واحدة وفي وقت واحد، قدراً من الامتياز والسلطة في البلدة التي تحيط بها المياه من جميع جهاتها. بل إنه شيّد بيته الأول فيها. غير أن جميع أفراد أسرة غارسيا ماركيز، ومن قبلهم أفراد أسرة بارتشا، وكذلك غابيتو ولويس إنريكي عام 1948، أضحوا الآن لاجئين هرباً من أعمال العنف.

أما غابيتو نفسه، فقد كان الحدث كارثياً بالنسبة إليه، وفي وسعنا أن نتخيل العذاب الذي سمح فيه لنفسه أن ينقاد عائداً إلى حضن أسرة لم يعش وإياها أي فترة مهمة. وتفاوض مع إدارة صحيفة الهيرالدو للاستمرار في إرسال مقالاته؛ *زرافة* من كارثاخيـنا فوافقوا ومنحوه ستمئة بيزوس مقدماً للأشهر الستة من عموده وسبع افتتاحـيات أسبوعياً على أن تكون معتدلة سياسياً، فأصبحت حياته كابوساً لكنها سهلة بالنسبة إلى فوينمايور.

كانـت الـسنة الأولى مفعمة بالفوضى، ولم يرسل أي من الأولاد للدراسة خـارج البلدة كما أن الأطفال الأصغر سناً لم يبدأوا مرحلة تعليمهم أيضاً. ولا بد من أن غابرييل إليخيو أدرك بعد كل إخفاقاته السابقة أنه لن يفلح في كارثاخينا إذا

مـــا أسس له صيدلية بالرغم من أنه حاول ذلك لبعض الوقت. كما أنه بذل محاولة مـــن غير تحمس لمواصلة عمله في الطب، لكن كارثاخينا لم تكن ميداناً يبشر بالخير لـــدجّال. وقبل أن يمضي عامٌ واحد انطلق مرة أخرى في رحلاته وأخذ يطوف في أنحـــاء ســـوكري بصفته طبيباً جوّالاً تماماً مثلما طاف قبل أربعة عشر عاماً عندما انتقلوا إلى بارانكيا. لقد أصبح غابرييل إليخيو غير قادر بعد اليوم على إعالة زوجته وأطفالـــه. وستمضي عشرة أعوام قبل أن تتمكن الأسرة من القول إنما بدأت تقف عل قدميها؛ ويرجع سبب ذلك إلى أن معظم الأولاد تركوا البيت، كانت مارغوت تتحمل العبء الأكبر.

يبدو مرجحاً أن غابيتو رجع إلى كارثاخينا لا على أمل البقاء فيها مدة طويلة بـــل لـــشعوره بضرورة إظهار الرغبة في احتواء أسرته في هذه البيئة الجديدة باهظة الثمن وإن لم تكن موضع ترحيب. عاد مرة أخرى إلى صحيفة الأونيفرسال مطأطئاً رأســـه خجلاً وتولته الدهشة، وعبّر عن امتنانه عندما استقبله بحرارة ثابالا ولوبيث إســـكاوورياثا وبقية زملائه القدامى، وازداد عجباً عندما عرضوا عليه مرتباً شهرياً أعلى من المرتب الذي كان يتقاضاه في بارانكيا[59].

أمـــا الشيء الذي لم يفعله فهو العودة إلى دراسته. ولم يدرك إلا عندما ذهب متردداً للتسجيل أنه كان قد أخفق في ثلاث موادّ، وليس مادتين، في نهاية عام 1949، مما يعني أنه سيعيد السنة الثالثة برمتها بدلاً من الترفّع إلى السنة الرابعة[60]. لذلك تخلـــى عن الفكرة فوراً، لكن نما إلى علم أبيه ذلك القرار ففقد أعصابه بسبب ابنه الأكـــبر المـــراوغ. يتذكر غوستافو المواجهة بين غابرييل إليخيو وغابيتو بخصوص القـــضية عند شارع الشهداء خارج البلدة القديمة. وعندما سمع غابرييل إليخيو ابنه يعترف أنه قرر التخلي عن دراسة الحقوق والتركيز بدلاً من ذلك على الكتابة، تفوه بعـــبارة أضـــحت أســـطورة بـــين أفراد الأسرة: "سينتهي بك المطاف بأن تأكل الورق!"[61].

لا بد من أن وصول تلك الأسرة الكبيرة الفقيرة التي لا تنصاع لنظام إلى عالمه المـــتمدن أحرج كثيراً، إن لم نقل أهان، ذلك الشاب الذي دأب على إخفاء فقره وعقده الخاصة وراء زي مهرج وأداء مهرج. يتذكر غارسيا ماركيز في الليلة الأولى

الـــتي أمضاها في بيته الجديد أنه تعثر بكيس يحتوي على عظام جدته أتت بها لويسا سانتياغا لإعادة دفنها في مقر إقامتهم في المدينة الجديدة[62]. وتتلخص فكاهة راميرو دي لا إســبريَّا المـــرة من ورطة الأسرة في الاسم الذي نحته للإشارة إلى غابرييل إليخيو في تلك الأيام وهو *جواد الاستيلاد*[63]. ولم تكن مشاعر غابرييل إليخيو إزاء ولـــده خافية عن أنظار الآخرين. ففي إحدى المرات عندما التقى كارلوس أليمان وغابرييل إليخيو وسأله عن أحوال غابيتو شكا الأب بصوت عالٍ من أن ابنه يغيب دائمـــاً عـــندما يـــريده، وزمجر: "قل لذلك الحيمن الذكري المتنقل أن يأتي لرؤية أمـــه"[64]. وعندما حاول دي لا إسبريَّا أن يدافع عن غابيتو ضد حالة أخرى من حـــالات الـــنقد الموجهة إليه وقال "إنه أصبح الآن واحداً من أفضل كتّاب القصة القـــصيرة في البلاد" انفجر الأب صائحاً: *إنه قصّاص. حسناً. طالما كان كذاباً منذ طفولته*[65].

في مطلـــع شـــهر تموز توقف غارسيا ماركيز عن إرسال مقالاته؛ *زرافة*، إلى صحيفة الهيرالدو بعد أن وفّى بدينه، ولم يعد ينشر شيئاً منها حتى شباط سنة 1952. في غـــضون ذلـــك واصـــل كتاباته الخاصة به وسط فوضى الأسرة على أفضل ما يستطيع. ثمة حادثة يتذكرها غوستافو تكشف لنا عن مدى طموحه: "إن غابيتو لا يتذكـــر... لكـــنه قـــال لي ذات يوم: *أصغِ إليّ. ساعدني على هذا الأمر*. ثم أتى بمخطوطة رواية **عاصفة الأوراق** الأصلية لمراجعتها. بلغنا منتصف الرواية في قراءتنا عندما نهض واقفاً وقال: *هذه لا بأس بها. لكنني سأكتب رواية تكون مقروءة أكثر من رواية دون كيخوته*"[66]. وفي شهر آذار، نشر غارسيا ماركيز قصة أخرى من قصـــصه في بوغوتا بعنوان: **نابو: الزنجي الذي جعل الملائكة تنتظر**[67]. هذه هي القـــصة الأولى التي تستحضر شيئاً له سمة عناوين غارسيا ماركيز وتتميز بأسلوب أعماله اللاحقة[68].

في تلك الفترة من الزمان، كان خوليو سيسر بييغاس المغامر والسياسي المنفي من بيرو ممثلاً عن دار نشر لوسادا التي مقرها بوينس آيرس في بوغوتا وكانت واسعة الانتشار وفي مستطاعها يومذاك أن تصنع شهرة أي أديب في أميركا اللاتينية، يجوب أنحـــاء الـــبلاد بما فيها منطقة الساحل باحثاً عن مادة تبشر بالخير، وأخبر غارسيا

ماركيـــز بأنه إذا ما فرغ من كتابة روايته التي كان يشتغل عليها وأرسلها إليه إلى لوســـادا، فـــسينظر في نـــشرها في بوينس آيرس على أنها تمثل الرواية الكولومبية المعاصـــرة. انتابت غارسيا ماركيز حالة من الحماسة الشديدة، وشرع في مواصلة كتابة مخطوطته. وفي منتصف شهر أيلول كانت النسخة الأولى من **عاصفة الأوراق** جاهزة كي يرسلها.

في هذه الأثناء صادف أن وصل شاب إلى كارثاخينا، وقدِّر له أن يصبح في ما بعـــد واحداً من أصدقاء غارسيا ماركيز طوال حياته. إنه الشاعر والرحالة ومدير الأعمـــال التنفيذي ألفارو موتيس – الذي ربما كان الأديب الكولومبـــي الوحيد خلال نصف القرن الماضي الذي يمكنه أن يكون صنو غارسيا ماركيز في حديثه[69]. ويـــصفه غارســـيا ماركيـــز في فترة لاحقة بأنه "ذو أنف دقيق، وحاجبين يشبهان حـــواجب الأتراك، وجسد هائل وحذاء صغير"[70]. تربى لفترة ما في أوروبا حيث تـــوفي والـــده وهـــو في ســـن التاسعة، وكان من أقرباء عالم النبات الإسباني – الكولومبـــي المشهور خوسيه سيليستينو موتيس. وكانت أولى قصائده **الرقم 204** قـــد نشرت في الاسبكتادور قبل ظهور قصة غارسيا ماركيز الأولى والثانية **لعنات ماكـــرول المتفـــرج** بأسبوعين. ومثلما ابتكر غارسيا ماركيز أورليانو بوينديا، فقد ابتكـــر موتيس ماكرول وهو شخص قُدِّر له أن تطبق شهرته الآفاق. كان موتيس يعمل في ذلك الوقت في شركة التأمين الكولومبية، وأمضى أربعة أعوام بصفته مدير الدعايـــة في شـــركة شراب الشعير البافارية، وأمضى سنتين بالعمل مذيعاً في دار الإذاعـــة، وبات اليوم مدير الدعاية لشركة لانسا، وهي شركة الخطوط الجوية التي كان قد عمل فيها لويس إنريكي؛ وهذا هو الأساس في قدرة موتيس المفبركة على تحديـــد الرحلات من دون إعطاء مهلة للاستعداد. وكان موتيس قد التقى صديق غارسيا ماركيز منذ أيام الدراسة غونثالو مالارينو في بوغوتا، فما كان من موتيس إلا أن أخذ الصديق الجديد لرؤية البحر في اليوم نفسه الذي اكتشف فيه أن مالارينو لم يرَه من قبل[71].

في عطلـــة نهايـــة الأسبوع بحثوا عن غابيتو في مبنى صحيفة الأونيفرسال ثم انطلقـــوا إلى بـــوكا غراندي لتناول الشراب على شرفة فندقهم الصغير. وفيما هم

جالسون يحتسون الشراب هبّت عاصفة قوية قادمة من البحر الكاريبي المتّشح باللون الأبيض المائل إلى الرصاصي. وفي ذروة العاصفة، وفيما أخذت ثمار جوز الهند تنكسر من حولهم، جاء غارسيا ماركيز مترنحاً من شدة الفوضى، هزيلاً شاحباً، متقد العينين كعهده، شاربه الرفيع كقلم الرصاص بدأ ينمو ليغدو بحجم قلم الحبر، مرتدياً القميص المداري ذا العلامة الفارقة[72]. وهو ما سيدأب عليه في السنوات الخمسين المقبلة[73]. أمضى الأصدقاء الثلاثة بضع ساعات في مناقشة مختلف الشؤون والقضايا ومنها شؤون الحياة والأدب والحب. قلما يمكن تخيل شخصيتين أكثر اختلافاً من موتيس وغارسيا ماركيز، لكن صداقتهما استمرت بالرغم من ذلك نصف قرن. وكانت حماستهما التي يشتركان فيها حقاً هي لجوزيف كونراد، وكانا يختلفان بشأن وليم فوكنر منذ اللحظة التي التقيا فيها. وقد أخبرني موتيس عام 1992: "كان يحاول أن يمثل دور الساحلي، لكنني أدركت بعد خمس دقائق أنه رجل جادّ كل الجد. كان رجلاً عجوزاً بجسد شاب". كانت الزيارة قد جاءت في الوقت المناسب لأن موتيس الذي كانت شبكة أعماله مثار دهشة أصدقائه دوماً، يعرف وكيل دار نشر لوسادا خوليو سيسر بيبغاس وحث غارسيا ماركيز على القبول بالوظيفة وإرسال مخطوطته بأسرع وقت ممكن. فشرع غارسيا ماركيز في إعداد نسخة خالية من العيوب نقلاً عن النسخة المشوشة المطبوعة على الآلة الكاتبة. وبعد بضعة أسابيع عاد موتيس إلى كارثاخينا وحمل معه النسخة الكاملة ورجع إلى بوغوتا وأرسلها عبر البريد الجوي إلى بوينس آيرس. كان ذلك التصرف رائعاً. فبعد سنوات طويلة يحمل ألفارو موتيس نفسه نسخة مصورة عن رواية **مئة عام من العزلة** إلى بوينس آيرس للنظر في طباعتها في دار نشر أرجنتينية كبرى أخرى هي سوداميريكانا.

في مطلع شهر كانون الأول من العام 1951 توجه غارسيا ماركيز إلى مبنى صحيفة الهيرالدو في بارانكيا، وعندما سأله ألفونسو فوينمايور عن سبب مجيئه قال: "لقد بلغ السيل الزبى يا حضرة الأستاذ"[74]. بعد أن أكمل الرواية، لم يعد يطيق عذاب العيش مع الأسرة في كارثاخينا وتخليص غابرييل إليخيو الجاحد من مسؤولياته. ربما كان لتوقيت عودته صلة ببدء عطلة نهاية السنة وعودة ميرثيديس

بارتـــشا إلى بارانكـــيا بعد إكمالها المرحلة الخامسة من دراستها الثانوية في مدرسة الراهبات في ميدلين حيث يتعين على الفتيات أن يَستَحممنَ وفق نوبات مخطط لها تخطـــيطاً خاصاً (أخبرتني قائلة: كي لا تتمكن أي واحدة منا من رؤية أي جزء من جـــسم فـــتاة أخرى). عاد غارسيا ماركيز ليسكن مع الأخوات آبيلا بالرغم من النفقات المتزايدة بدلاً من السكن في *ناطحة السحاب*.

في مطلع شهر شباط تلقى رسالة من دار نشر لوسادا بوساطة مكتب صحيفة الهيرالدو. ربما كانت تلك الرسالة أشد الخيبات في حياته. لقد كان غارسيا ماركيز متأكداً إلى حدٍّ بعيد أن رواية **عاصفة الأوراق** ستنشر، لكنه أُصيب بخيبة أمل عندما علـــم أن هيأة التحرير في بيونس آيرس رفضت الرواية مما يعني على سبيل المجاز أنها رفـــضته، إذ أرســـلت الهيأة في بيونس آيرس رسالة مدمرة من مديرها غييرمو دي توري أحد أبرز نقاد الأدب الإسبان في المنفى وأحد أقرباء خورخه لويس بورخس الـــذي كان غارسيا ماركيز معجباً به أشدّ الإعجاب. وقد أُشيرَ في الرسالة إلى تمتع الأديب الشاب بموهبة شعرية، إلا أنه قد أُوضِح من خلالها أنه ليس لديه أي مستقبل في كـــتابة الـــرواية واقتُرِحَ عليه صراحة أن يبحث له عن مهنة أخرى. تجمع كل أصـــدقاء غارسيا ماركيز حوله، حيرتهم توازي حيرته تقريباً وساعدوه على أن يلمّ أطـــراف شـــجاعته؛ إذ كان يُخشى عليه أن ينهار بسبب الصدمة والجزع. وقال ألفارو سيبيدا: "يعلم الجميع أن الإسبان أغبياء". وأيدوا كلهم رأيهم المخالف لرأي دي توري[75].

اســـتمر غارســـيا ماركيز طوال العام 1952 يكسب رزقه من خلال صحيفة الهيرالـــدو وعموده **الزرافة** الذي ظلت الصحيفة تنشره على مدى العام. لكن تلك الأعمدة لم تعد جديدة وحماسيّة خلاف ما كانت عليه في العام الأول[76]. ولم يمضِ وقت طويل حتى توافي سيبتيموس المنية ويتوقف غارسيا ماركيز عن كتابة *زرافاته*، بالـــرغم مـــن أنه لم يقدم، لا هو ولا أحد غيره من أفراد الجماعة، تفسيراً مناسباً للـــسبب الـــذي انـــتهت إليه العلاقة بصحيفة الهيرالدو. لكن بالرغم من تظاهره بالشجاعة، إلاّ أن الحقيقة هي أن رفض رواية **عاصفة الأوراق** كان ضربة قاضية، مدمرة ومقرفة. فثقته بنفسه أصيبت إصابة بليغة وارتأى أن لا فائدة من الاستمرار

في كتابة عموده اليومي. ما الذي فعلوه به؟ إلى أين وصل به كل عمله الجاد؟ مما لا شك فيه أن رؤيته لفشله، علانية في الأقل، جعلته يشعر أنه مضطراً معنوياً إلى إبداء نيــته مرة أخرى لدراسة الحقوق كي يصبح محامياً وينقذ أسرته. وعندما أدرك ثانية أنه لن ينجح في ذلك أيضاً شعر بالضياع تماماً.

* * *

ممــا يوحي بالمفارقة أن وكيل أوسادا خوليو سيسر بييغاس جاء لينتقم له وعرض علــيه وسيلة للخروج من تلك الورطة فقَبِل بها. كان بييغاس قد بدأ تجارته الخاصة ببيع الكتب. وفي يوم ما، زار غارسيا ماركيز الذي جاء إلى بارانكيا ورافقه إلى فندق برادو وقدم إليه الشراب حتى ارتوى وفارقه بعد أن وعده بوظيفة وحقيبة كتب. بعد أن أخذ غارســيا ماركيز على عاتقه أن يكتب ما يضاهي رواية دون كيخوته، بات الآن بائعاً متجولاً يبيع الموسوعات والنشرات الطبية والعلمية في القرى والبلدات الصغيرة في الجزء الشمالي الشرقي من كولومبيا. لا بد من أن يكون قد خطر له أنه أصبح مثل أبيه.

لحسن الحظ أن غارسيا ماركيز كان لا يفتقر إلى روح الدعابة والحس الساحر الذي عُرف به ثيربانتس. ربما في وسعه تحمل ذلك إلى حدٍّ ما. لكن من نافلة القول إن عزاءه تمثل بأنّ في وسعه الآن أن يتعلم شيئاً أكثر عن تاريخ أسرته وذلك باقتفاء آثــار جدَّيه من جديد على امتداد السنوات الماضية، في أثناء سلوكه تلك الدروب المغبرة في وادي أوبار الممتد بين جبال سييرا نيفادا ونهر سيسر. ليس هذا العالم بعالم غــييرمو دي توري، بل عالمه الشخصي. وفيما هو ينطلق في رحلته الأولى، التقى بأخــيه لويس إنريكي في سانتا مارتا. رأى لويس إنريكي المتزوج حديثاً أن الزواج قيود تحدُّ من حريته وأنه سيفعل أي شيء من أجل تخفيف تلك القيود. فاشتغل في عــدد من الأعمال الحقيقية والكاذبة، في ثيناغا في بادئ الأمر ثم في سانتا مارتا. ها هــو ينتهز الفرصة الآن لمرافقة أخيه في رحلة قصيرة. فذهب الاثنان إلى ثيناغا وبدأ غابيــتو عملــه الجديد فيها، وهي تلك البلدة التي عاش فيها جدَّاه مدة قصيرة قبل الانتقال إلى آراكاتاكا. ثم رافقه لويس إنريكي إلى غواكامايال وإشبيلية وآراكاتاكا وفونداثــيون وكوبــي وصولاً إلى باييدوبار ولاباث وماناوري، بغيتهم الأولى هي الأطباء والمحامون والقضاة وكتاب العدول والعُمَد.

بعد أن قفل لويس إنريكي راجعاً إلى ثيناغا، زار غابيتو صديقه رافائيل إيسكالونا الذي رافقه على مدى أسبوع كامل في جولاته في بلدات إقليم غواخيرا؛ أوروميتا، فيانوفا، المولينو، سان خوان دل سيسر وربما فونسيكا. وفي طريقهما صحبا ثاباتا أوليفيا ونظّموا في ما بينهم نوعاً من الغناء والمباريات يشارك فيها عدد من الأشخاص ويتخللها الشراب، وكان من بين الحاضرين أصدقاء وأقرباء مثل لويس كارميلو كوريًا من آراكاتاكا وبونشو كوتيس وهو أحد أقرباء غارسيا ماركيز وصديق حميم لرافائيل إيسكالونا[77]. ويخبرني ثاباتا بعد خمس وأربعين سنة قائلاً: "كنا نقوم بنزهات احتفالية. في ليلة ما، تصل سيارة ما، لتجد نفسك وقد استيقظت في صباح اليوم التالي وأنت تعاني من آثار الشراب في غواخيرا أو في سييرا نيفادا. هكذا كانت حياتنا يومئذ. كنا نذهب إلى مزرعة أحدنا فنتناول الطعام ثم نمضي إلى سييرا دي بيريخا ومنها إلى ماناوري. لكن المطاف كان ينتهي بنا دوماً إلى تناول الشراب مع أفضل عازفي الأكورديون في ذلك الوقت مثل إيميليانو ثوليتا، وكارلوس نوريغا، ولورنثو موراليس[78]. وهكذا صحب إيسكالونا صديقه المتمدن ليلتقي بالتروبادور الذين يرعون البقر، وبالشخصيات الأسطورية في الإقليم.

تعد مدينة بابيدوبار، عاصمة منطقة السيسر الواقعة في وادي أوبار المركز التاريخي للنشاط الغنائي المعروف بالاسم فاليناتو (تعني كلمة فاليناتو "المولود في الوادي"). يمكن تمييز أغاني الفاليناتو حال سماعها، فهي ذات إيقاع راقص وقوي يحدثه المزيج الغريب لصوت الأكورديون الأوروبي والطبل الأفريقي والمكشطة الهندية بمصاحبة صوت المغني القوي الذي يكون عادة عازف الأكورديون نفسه[79]. ثمة أغنية لألفونسو فيرنانديث أوناتي تلخص إيديولوجية الفاليناتو تلخيصاً وجيزاً:

أنا من مواليد الوادي فعلاً
صافي السريرة، نقي محتد،
الدم الهندي في عروقي
مع قدر من الدم الإسباني والأسود
لدي مباهج الوادي
ولدي النساء والموسيقى والأكورديون

وكل هذه الأشياء التي أحب
تخرج في صوت أغنياتي[80].

لم يحـظَ العديد من أدباء أميركا اللاتينية بصلة وثيقة بما يمكن أن يطلق عليه الثقافة الشعبية الأصيلة كتلك التي حظي بها غارسيا ماركيز في السنوات الخمسين اللاحقة. ويذهب به القول إلى أن تعرفه إلى أغاني الفاليناتو والموسيقيين الذين ابتكروها منحه فكرة السرد في رواية **مئة عام من العزلة**[81]. المقارنة جديرة بالاهتمام إذا ما أخذنا في الاعتبار أن أحداثاً سُردت في كل صفحة من تلك الرواية أكثر بكثير من أي رواية أخرى قد تخطر على بال. غير أن غارسيا ماركيز طوّر الشكل إلى ما هو أبعد من ذلك، مؤسساً توازياً بين واقعية الفاليناتو والصلة المباشرة بين رواياته وحياته: "لا يوجد أي سطر في أي من مؤلفاتي لا يمكنني أن أربطه بتجربة حقيقية. هناك دوماً إشارة إلى واقع حقيقي". وهذا هو السبب الذي جعله يؤكد دائماً أنه ليس "واقعياً سحرياً" ولكنه مجرد "كاتب فقير" ينسخ ما موجود على طاولته[82]. لعل المظهر المدهش الوحيد لهذا كله هو أن غارسيا ماركيز، الذي أصبح موضع إعجاب بسبب تعاطفه مع النساء، يتعين عليه أن يتماهى تماهياً تاماً مع حركة تثني ثناءً حاراً على قيم الرجولة.

ويواجه غارسيا ماركيز برفقة إيسكالونا واحداً من أعظم اللقاءات الخرافية في حياته. فقد كانا يحتسيان الشراب في إحدى الحانات في بلدة لاباث عندما دلف شاب مرتدياً ثياب رعاة البقر، ويعتمر قبعة عريضة، ويلبس بنطالاً جلدياً معلقاً مسدساً في حزام خصره. قال إيسكالونا، وكان يعرفه معرفة جيدة: "دعني أعرفك إلى غابرييل غارسيا ماركيز". فسأل الرجل غارسيا ماركيز وهو يصافحه:

– هل لك علاقة بالعقيد نيكولاس ماركيز؟

– إنني حفيده.

– إذاً جدك هو الذي قتل جدي[83].

كان اسم الشاب هو أليخاندرو باتشيكو؛ بالرغم من أن غارسيا ماركيز في مذكراته يطلق على الشاب اسم خوسيه بروديثيو آغيلار، مثل الشخصية التي تستند إليه في رواية **مئة عام من العزلة**. وهنا أسرع إيسكالونا وهو الآخر يحمل مسدساً:

وقال غارسيا ماركيز لا يعرف شيئاً عن القضية واقترح أن يقوم هو وأليخاندرو بمحاولة لإطلاق النار، وكان يهدف من وراء ذلك إفراغ مسدسه من الطلقات. أمضى الرجال الثلاثة ثلاثة أيام بلياليها وهم يحتسون الشراب ويسافرون بشاحنة باتشيكو - التي كانت تستخدم عادة للتهريب - في أرجاء المنطقة. وقد عرَّف باتشيكو غارسيا ماركيز إلى عدد من أطفال العقيد غير الشرعيين منذ زمن الحرب.

عندما كان الأصدقاء ورفاق السفر منهمكين في عمل ما، كان بائع الموسوعات المتذبذب يبقى نزيل فنادق صغيرة رخيصة وهو يتصبّب عرقاً. وكان أحد هذه الفنادق الأفضل من غيره هو فندق ويلكوم في بايدوبار. وفي أثناء تلك الفترة قرأ رواية **الشيخ والبحر** لهمنغواي التي صدرت بالطبعة الإسبانية منها عن مجلة لايف أواخر شهر آذار، وكان قد أرسلها إليه أصدقاؤه في بارانكيا. كانت "مثل إصبع ديناميت"[84]، وقد تبدل موقف غارسيا ماركيز المستهجن من همنغواي الروائي.

ويستذكر غارسيا ماركيز أنه إضافة إلى قراءة رواية **الشيخ والبحر** قرأ أيضاً رواية فرجينيا وولف **السيدة دالاوي** في فندق - مبغى آخر في أثناء هذه الرحلة وسط أسراب البعوض والحرارة الخانقة، وهو جو ليس من شأن فرجينيا وولف أن تستمتع به كثيراً. وبالرغم من أنه استخدم اسماً مستعاراً اقتبسه من روايتها، إلا أنه لم يكن متأثراً بها من قبل تأثره في هذا الوقت، تحديداً تلك الفقرة الخاصة بملك إنكلترا وهو يمر بسيارة ليموزين، مما سيؤثر لاحقاً تأثيراً شديداً في رواية **خريف البطريرك**[85].

عندما رجع غارسيا ماركيز إلى بارانكيا بعد هذه الرحلة القصيرة، فإنه يكون قد وصل حقاً إلى نهاية رحلة طويلة وسط ثقافته الشعبية الإقليمية ووسط ماضيه وما قبل تاريخه[86]. وهو الآن على استعداد لأن يسكن في ماكوندو، في الوقت نفسه تماماً، ويا للمفارقة، الذي سيبدأ نموذج همنغواي بجذبه بعيداً عن عوالم الذاكرة والخيال. واليوم يقترن اسم الكاتب الكبير غارسيا ماركيز اقتراناً صميمياً بتلك القرية الأميركية اللاتينية التي هي في الوقت نفسه حالة ذهنية: ماكوندو. لكن ماكوندو التي نعرفها لا تشكل سوى نصف قصة غارسيا ماركيز، بالرغم من أنها

النصف الذي سيمنحه هويته وامتيازه العالميين. إن الإقليم الحقيقي الذي يمتد حول بلدة ماكوندو الأدبية هو الجزء الشمالي من مديرية مجدلينا القديمة من سانتا مارتا إلى غـواخيرا عبر آراكاتاكا وباييدوبار. إنها إقليم أمه وجدّيه لأمه الذي وفد إليه والده متطفلاً غير مرغوب فيه، واحداً من نفايات الورق. أما النصف الآخر من القصة، فهو منطقة ذلك الأب نفسه وهي مدينة كارثاخينا وبلدتا سينثي وسوكري في مديريتي بوليفار وسوكري، أرض رجل ذي أحلام مزهوة عن الشرعية ماضياً ومستقبلاً، وبهذا، فهي أرض مرفوضة بسبب روعتها النّزّاعة نحو الكبت منذ أيام الاستعمار والإذلال الذي لا يزال يمارسه ضدها أبناؤها الذين يفتقرون إلى المجد؛ إنها أرض تغدو وقد اختزلت إلى قرية مجهولة الاسم لا تستحق عنواناً أدبياً، لكنها تمثل بالدرجة نفسها أميركا اللاتينية – أميركا اللاتينية *الحقيقة* والتاريخية، وهو ما يريد المرء أن يقوله[87].

بعد أن انتهت رحلة غارسيا ماركيز، أصبح في وسعه العودة إلى بارانكيا في زيارة قصيرة، وإجراء مسح شامل للفضاء الذي غزاه أخيراً بنفسه؛ من وسطه الكائن في قمة الأرض التي تبدو متخلفة كلها، ولكنه وسطٌ ليس من تلك الأرض. لم تكن بارانكيا بوابة وحسب، بل كانت أيضاً بلدة حديثة تنتمي إلى القرن العشرين لا تباهي بماضيها الذي يرقى إلى حقبة الاستعمار ولا بذنوبها؛ البلدة التي يمكن للمرء أن يلوذ إليها هرباً من وطأة الماضي وأجيالها الشبحية ويتجدد فيها. يبدو أنها أدّت واجبها الآن.

كانت حقبة الضياع توشك أن تنتهي في وقت كان يخيم فيه شبح التحول السياسي على نحو مخيف. كان غارسيا ماركيز مستقلاً حافلة في طريق عودته إلى بارانكيا في الثالث عشر من حزيران عام 1953 عندما علم أن القائد العام للقوات المسلحة الجنرال روخاس بينيّا استولى على الحكم بحركة انقلابية ضد نظام لوريانو غوميث الذي تماثل للشفاء من مرض ألمَّ به واضطره إلى تسليم مقاليد السلطة إلى نائبه قبل الحركة الانقلابية، فحاول الآن العودة إلى السلطة، لكن العسكر قرروا أن عودته ليست في مصلحة الوطن وأنهم سيواصلون الحكم حتى نهاية فترته الرئاسية، وسيكون روخاس بينيّا على رأس النظام. حظي الانقلاب بتأييد واسع النطاق في

جميع أنحاء البلاد، بل إن محرري بعض الصحف القومية رحبوا بالزعيم الجديد. يتذكر غارسيا ماركيز حدوث مشادة سياسية قوية بينه وبين راميرو دي لا إسبريًّا في مكتبة بييغاس - الذي سرعان ما سيزج به في السجن بتهمة التزوير - في اليوم الذي تلا تحرك روخاس بينيًّا ضد غوميث. وسمح غارسيا ماركيز لنفسه أن يستفز صديقه بالقول: "أشعر حقاً أنني أنسجم وحكومة جنرالي غوستافو روخاس بينيًّا"[88]. وكان موقفه أساساً يتمثّل بأن أي شيء هو أفضل من نظام غوميث الكتائبي، في حين أراد دي لا إسبريًّا ثورة شاملة، وكان يخشى من أن تثبت الدكتاتورية العسكرية أنها أسوأ من الدكتاتورية الرجعية، وقال إن العسكر لا يمكن الوثوق بهم. الحق أن لكل رجل موقفه الجدير بالاعتبار. لقد كان ذلك الخلاف بالغ الأهمية ويبشّر بأشياء أخرى، إذ سيردد غارسيا ماركيز مراراً في ما بعد أن الدكتاتورية التقدمية أفضل من حكومة فاشية تمارس الفرقة والشقاق تحت ستار ديمقراطية زائفة.

بالرغم من تردد غارسيا ماركيز في العودة إلى صحيفة الهيرالدو، فإنه لم يتمكن من الابتعاد عنها إلا باللجوء إلى صحيفة أخرى. فمنذ زمن بعيد فكّر ألفارو سيبيدا ساموديو، وهو يعمل في تجارة السيارات، في منافسة صحيفة الهيرالدو وتأسيس صحيفة أفضل تهيمن على منطقة الساحل كلها. وفي شهر تشرين الأول مُنح فرصة لإدارة صحيفة الناسيونال مؤملاً أن يحولها إلى نمط الصحافة الحديثة الذي سمع عنه في الولايات المتحدة. فوظّف صديقه العاطل عن العمل منذ وقت قريب ليكون مساعده. ويتذكر غارسيا ماركيز لاحقاً أن تلك الفترة كانت من أسوأ فترات حياته. فقد أمضى الرجلان أياماً ولياليَ بكاملها في مبنى الصحيفة من دون أن تصدر سوى بضعة أعداد منها وبغير انتظام. لسوء الحظ، لا تتوفر أي مجموعة منها، لهذا يستحيل الحكم على جهودهما، لكن كل ما نعرفه حقاً هو أن سيبيدا تولى إدارة الطبعة الصباحية التي كان يرسلها إلى داخل البلاد، في حين تولى غارسيا ماركيز إدارة الطبعة المسائية التي كانت تُباع في بارانكيا. وقد خلصا إلى نتيجة مفادها أن جزءاً من المشكلة يكمن في الأقل في العمال القدامى الذين كانوا يسعون إلى تخريب صحيفة متجددة[89]. لكن الحقيقة لسوء الحظ تبدو كامنة في أن سيبيدا أثبت عجزه

في ذلك الوقت عن ممارسة الانضباط والمهارة المطلوبين لإدارة مثل هذه العملية. ويتذكر غارسيا ماركيز على استحياء أن "ألفارو غادر المكتب وصفق الباب خلفه"[90].

لكن لا يزال لدى غارسيا ماركيز عقد مع الصحيفة، لذلك واصل عمله فيها بعض الوقت محاولاً بكل ما أُوتي من جهد أن تظل الصحيفة على قيد الحياة ولو باستخدام موادّ عتيقة، لكن هناك ما حفزه لكتابة قصة جديدة بعنوان **يوم آخر بعد يوم السبت** وهي قصة أخرى من القصص القليلة المبكرة التي كتبها واعترف في ما بعد أنه يحبها. والقصة مثيرة للاهتمام إلى حدٍّ بعيد لأنها تدور في منطقة تدعى ماكوندو بالرغم من أنها لا تزال تذكرنا برواية **البيت**. ثم هناك نقطة أخرى. ففي وسع كل من كان يعيش في آراكاتاكا أن يتنبه إلى أن ماكوندو هي آراكاتاكا مع قدر من شفافية التركيز، وإن شابها شيء من الغموض واكتست بأجواء مفتوحة بخلاف الظلمة المكفهرة التي يبدو أنها تميز رواية **البيت** ورواية **البلدة** التي تعكس لنا بلدة سوكري. لماذا؟ هناك محطة قطار أيضاً! في الوقت نفسه، لم تقتصر القصة – الأصح أنها رواية قصيرة مكثفة تكثيفاً شديداً – على البيت، شأن معظم القصص والنصوص المبكرة المنشورة. كما كانت سياسية بكل وضوح تصب اهتمامها على العمدة وأسقف البلدة. إضافة إلى ذلك، استخدم غارسيا ماركيز أسماء العقيد أورليانو بوينديا وخوسيه آركاديو بوينديا وقريبتهما *الأرملة المعذبة*. وثمة صبي فقير من خارج البلدة يعامل معاملة رقيقة جديدة تماماً ذات لمسة انتقادية اجتماعية وسياسية. في الوقت نفسه، كشفت القصة عن مجموعة كاملة مما يعد مستقبلاً موضوعات مفضلة لدى غارسيا ماركيز بدءاً بموضوع الأوبئة (في هذه الحالة قضية وباء الطيور النافقة) ومفهوم عزلة الإنسان[91].

عاد ألفارو موتيس بعد أن أصبح الآن مدير العلاقات العامة في شركة إيسو إلى بارانكيا أواخر السنة، ولدى رؤيته مأزق صديقه حاول مرة أخرى إقناعه بالرحيل إلى بوغوتا وقال له إنه "يتآكل في الأرياف"[92]، كان لدى موتيس سبب وجيه في الاعتقاد أن غارسيا ماركيز سيتمكن من الحصول على وظيفة في صحيفة الاسبكتادور. غير أن ما من شيء في أعماق هذا الساحلي يرغب في الرحيل، لذلك

رفض الفكرة رفضاً مطلقاً. فقال له موتيس: "حسناً سأرسل إليك تذكرة مفتوحة ويمكن الحضور عندما تكون مستعداً"[93]. أخيراً فكّر غارسيا ماركيز في الموضوع مـــرة أخرى لكنه أدرك أنه لا يستطيع السفر إلى بوغوتا حتى لو شاء ذلك لأنه لا يملك ثياباً. جمع بيزوساته الأخيرة واشترى بذلة أنيقة كالتي يلبسها رجال الأعمال وقميصين وربطة عنق. ثم أمسك بتذكرة السفر من الدرج ونظر إليها، ثم وضعها في جيب بذلته الجديدة. لقد بذل قصارى جهده. لكن لا مجال لشابّ فقير بلا شهادة أن يكـــسب عيشه الرغيد في الساحل. ربما سيتمكن يوماً ما من الزواج بميرثيديس التي ألزم نفسه بها الآن ذهنياً على الأقل. وقال أصدقاؤه: "حسناً، لكن لا ترجع إلينا واحـــداً من الكاتشاكو". ثم رافقوه للاحتفال بسفره في حانة الرجل الثالث، وهي إحدى حانات السوق المفضلة لديهم. وإلى هنا انتهى الموضوع.

* * *

-8-

العودة إلى بوغوتا:
مراسل صحافي من الطراز الأول
1955-1954

عاد غارسيا ماركيز إلى بوغوتا في مطلع شهر كانون الثاني عام 1954، وكان قـــد وصلها بالطائرة بالرغم من هلعه المرضي من الطيران، وهو الهلع الذي سيزداد بمـــرور الأعوام. واستقبله في المطار ألفارو موتيس الذي كانت حياته مفعمة بالسفر بالطائـــرات والـــسيارات وحتى السفن أيضاً. كان القادم الجديد يحمل حقيبة سفر ورزمـــتين ناولها لصديقه ليضعها في صندوق السيارة. كانت الرزمتان تحتويان على مخطـــوطتي **البيت** و**عاصفة الأوراق** اللتين لم تنشرا حتى الآن. أقلّه موتيس بسيارته صوب مكتبه مباشرة في مركز المدينة. ها قد عاد ثانية إلى الجو البارد والماطر وعاد إلى عـــالم التوترات والاغتراب الذي ظن أنه خلّفه وراءه إلى الأبد عندما رحل عن المدينة قبل نحو ستة أعوام[(1)].

كـــان مقر شركة إيسو آنذاك في المبنى نفسه الكائن في شارع خيمينيث دي كيـــسادا حـــيث تقع مكاتب صحيفة الاسبكتادور، التي انتقلت إليها من موقعها الـــسابق على بعد بضعة شوارع. كان مكتب موتيس في العلاقات العامة يقع فوق مكـــتب رئيس تحرير الصحيفة غييرمو بأربعة طوابق. بدا موتيس غامضاً يفتقر إلى الوضـــوح في كيفية تدبير أمور غارسيا ماركيز في الأيام الأولى من إقامته – بل إن موضـــوع العمـــل في صحيفة الاسبكتادور غار في عالم النسيان – فازدادت قلقاً واكتئاباً حالة غارسيا ماركيز القلقة والمكتئبة أصلاً. كان يفتقر دائماً إلى الثقة عندما يكون في مواجهة مواقف جديدة أو مع رجال ونساء لا يعرفهم. وقلما ترك انطباعاً

حسناً لدى الناس الذين يروه للوهلة الأولى ولا يكتسب الثقة إلا بالألفة والحميمية أو بإظهار ما يمكنه عمله. ومع هذا، فإن موتيس ليس هو من يرفض الرد وهو الذي تجمع شخصيته بين ما هو عملي وما هو جمالي على نحو لم يشهده أو يتخيله إلا القليلون. لقد كان بائعاً ممتازاً حتى عندما لا يكون متأكداً من جودة بضاعته. وعندما تكون لديه سلعة ثمينة مثل هذا الأديب المجهول فإنه لا يقاوم عادةً. كان ألفارو موتيس يهتم اهتماماً شديداً بالأدب وكان كريماً كرماً غير مألوف.

أما من الناحية البدنية، فلا يمكن للرجلين أن يكونا أكثر اختلافاً؛ فموتيس طويل القامة، رشيق، ذو دهاء، في حين كان غارسيا ماركيز قصير القامة، هزيلاً ورثّ الثياب، وظل يكتب القصص والروايات منذ سن الثامنة عشرة على حين كان موتيس شاعراً تحديداً ولم يبدأ بكتابة الروايات إلا وهو في منتصف الستينيات من عمره، وذلك بعد تقاعده من سلسلة من الوظائف في شركات عالمية مقرها الولايات المتحدة. وحتى اليوم، وبعد أن أصبح الاثنان روائيين مشهورين عالمياً، فإن هذين الكولومبيين منفصل أحدهما عن الآخر بمحمل تاريخ أدب أميركا اللاتينية، بل إنهما وقفا على طرفي نقيض في المنظور السياسي، إذ يكاد يكون موتيس رجعياً متكلفاً وملكياً في بلد جمهوري منذ قرابة مئتي عام. وكان بحسب تعبيره "يفتقر افتقاراً تاماً إلى الاهتمام بكل المظاهر السياسية التي أعقبت سقوط بيزنطة"، أي بعد العام 1453[(2)]. أما نزعات غارسيا ماركيز في حقبة ما بعد عام 1917 فقد باتت واضحة ومعروفة؛ بالرغم من أنه لم يكن شيوعياً قط، إذ أصبح قريباً من ذلك الفكر العالمي بمعناه الواسع أكثر من قربه من أي إيديولوجيا أخرى في حياته الطويلة ذات الالتزامات العملية. لقد كانت علاقتهما طويلة ووثيقة، لكنها لم تكن مذهبية.

في الأسبوعين الأولين لم يجلس غارسيا ماركيز في مكتب صحيفة الاسبكتادور بل جلس في مكتب موتيس يدخن ويرتعش كدأبه في بوغوتا ويتحدث إلى *مساعد* موتيس الذي عُيِّن مؤخراً - ولم يكن سوى صديقه القديم غونثالو مالارينو الذي عرفهما إلى بعضهما بعضاً أول مرة في تلك الليلة العاصفة في كارثاخينا - أو تراه يعبث بأصابعه. في بعض الأحيان، كل ما عليك عمله هو انتظار حدوث شيء ما، وبخاصة إذا كنت في أميركا اللاتينية أو أجزاء أخرى من العالم الثالث حيث معظم

الـــناس لا حـــول لهم ولا قوة. وهذا هو السبب في أن العديد من روايات غارسيا ماركيـــز وقصـــصه تدور حول الانتظار والأمل. وبحلول أواخر شهر كانون الثاني منحته صحيفة الاسبكتادور فجأة وظيفة ثابتة ومرتباً شهرياً مذهلاً مقداره تسعمئة بيزوس. لقد كان حصوله على مثل هذا المبلغ في بارانكيا يتطلب كتابة ثلاثمئة عمود مـــن أعمدته المعروفة **بالزرافة**؛ أي عشرة أعمدة في اليوم! ولأول مرة، أصبح لديه فـــائض من المال مما يعني أنه يستطيع مدَّ يد العون لأسرته في كارثاخينا بإرسال ما يكفي من المال لتسديد مبلغ الإيجار والمنافع الأُخرى.

وسكن مؤقتاً في منـــزل والدة موتيس في أوساكوان وانتقل بعد ذلك إلى نُزل بـــلا اسم قرب الحديقة الوطنية. وكان ذلك النُزل لامرأة فرنسية آوت يوماً ما إيفا بيرون في أيامها الراقصة. أصبح لديه جناح خاص به، وهي رفاهية لم يحلم بها يوماً بالـــرغم مـــن قلـــة الوقت الذي كان يمضيه فيه، إذ سيجد من حين إلى آخر إبان الـــشهور التالية الوقت والطاقة الكافيين لتهريب إحدى الإناث إلى شقته(3). لكنه سيمـــضي أساســـاً العام ونصف العام بين الصحيفة والنُزل ومكتب موتيس ودور الـــسينما القوطـــية في بوغوتا، ينفذ واجباته الصحفية في الكتابة والنقد السينمائي، وأخيراً بصفته صحافياً من الطراز الأول.

ومـــن العجـــب أن حـــرب الصحافة في بوغوتا لم تكن سوى منافسة بين الصحيفتين الليبراليتين الكبريين. فقد أُسست صحيفة الاسبكتادور عام 1887 على أيدي أسرة *كانو* في ميدلين (وانتقلت إلى بوغوتا في العام 1915) وكانت أقدم من صحيفتها المنافسة التيمبو التي أسست عام 1911 واشتراها إدواردو سانتوس في العام 1913، ولا تـــزال أســـرة سانتوس تملك الصحيفة وتديرها حتى عام 2007 عندما اشترت دار النشر الإسبانية بلانيتا قسماً كبيراً منها. عندما وصل غارسيا ماركيز في شـــهر كانـــون الـــثاني كان مدير الاسبكتادور هو غييرمو كانو، حفيد مؤسسها المتواضـــع وقصير النظر، ولم يتبوأ موقعه فيها إلاّ لأنه كان في مقتبل العقد الثاني من عمره. هذا وسيبقى هو وغارسيا ماركيز على صلة طوال أكثر من ثلاثين عاماً.

كان لدى غارسيا ماركيز عقدان متينان مع الأديبين البارزين إدواردو ثالاميا بـــوردا الـــذي اكتشفه قبل ستة أعوام، وقريبه غونثالو غونثاليث (غوغ) الذي بدأ

العمل في الصحيفة وهو لا يزال طالباً في الحقوق في العام 1946. وكان ثالاميا بوردا هو الذي عمَّده بالاسم *غابو* الذي سيعرفه به في ما بعد سكان الكوكب جميعاً. وتظهر إحدى الصور المشهورة من تلك الأيام غارسيا ماركيز بمظهر جديد غير مألوف. إذ ظهر رشيقاً وأنيقاً، دقيق الملامح، ذا عينين مفعمتين بالشك لكنهما عارفتان أيضاً، وابتسامة صغيرة تحت شاربه اللاتيني. اليدان وحدهما هما اللتان تفضحان حالة التوتر الدائمة التي كان يعيش فيها هذا الإنسان.

كان محرر الأخبار في صحيفة الاسبكتادور هو خوسيه *القرد* ("أشقر" ولكنه "قرد") سالغار وهو الإداري كثير المتطلبات الذي لا يطيق السلوك الوقح الذي يرفع دائماً شعار "أخبار، أخبار، أخبار". وقد وصف غارسيا ماركيز العمل معه بأنه "استغلال قرد لإنسان"[4]. وكان قد حصل على عمله في الصحيفة منذ صباه وتعلم في مدرسة الصحافة والحياة، وبات مؤسسة عن جدارة واستحقاق. ومنذ البداية لم يتأثر بشهرة غارسيا ماركيز وارتاب ارتياباً شديداً في صنعته الأدبية التي لا تدع مجالاً للشك، وفي "غنائيته" المتأصلة فيه[5].

لكن غارسيا ماركيز أظهر بعد أسبوعين جدارته بمقالتين عن السلطة الملكية والعزلة، والخرافة والواقع. كانت المقالة الأولى بعنوان **كليوباترا** مسلية جداً، أوضح فيها أن تمثالاً جديداً للملكة المصرية لن يغير من الصورة الرومانسية التي رسمها الرجال عنها طوال ألفي سنة. أما المقالة الثانية فكانت بعنوان **الملكة وحيدة** وهي عن الملكة الأم إليزابيث ملكة إنكلترا الأرملة. لعل صياغة غارسيا ماركيز الأكثر إثارة من أي صياغة أخرى في تلك الفترة لموضوعات بعينها - وبخاصة الربط بين السلطة والشهرة والعزلة - هي التي ستصل أوجها بعد عشرين سنة في رواية **خريف البطريرك**:

> **الملكة الأم التي أمست الآن جدَّة وحيدة حقاً للمرة الأولى في حياتها. ولا بد من أنها تتذكر في أثناء تجوالها برفقة عزلتها على امتداد ممرات قصر بكنغهام العظيمة وبحنين جارف ذلك العصر السعيد الذي لم تحلم فيه ولم تتمنَّ أن تحلم في أن تكون ملكة وأن تعيش مع زوجها وابنتيهما في بيت تغمره الألفة... ولم تعرف إلا القليل عن أن ضربة غامضة من ضربات القدر ستحول ابنتيها وأولاد ابنتيها إلى ملوك وملكات وتحولها هي إلى ملكة وحيدة.**

> **سـيّدة بـيت مهجورة لا ينفعها عزاء، بيتها يتلاشى في متاهة قصر بكنغهام الهائلـة وممـراته الـتي لا تنتهي وذلك الفناء الخلفي الذي يمتد حتى حدود أفريقيا**[6].

هـذه المقالة نفسها هي التي أقنعت ثالاميا بوردا، الذي كان ميّالاً إلى الملكة إليـزابيث الثانـية الـشابة، أن غارسـيا ماركيز كان على استعداد للتحول إلى موضوعات أعمق[7]. وقال غييرمو كانو إن غارسيا ماركيز اضطر لدى وصوله إلى أن يكيف نفسه مع أسلوب الصحيفة الحذر المتّسم بالغموض. لكن بعد برهة وجيزة شرع الكتاب الآخرون بالتكيف مع ارتجالات القادم الجديد الذكية والبدء بتقليده[8].

يتذكر غارسيا ماركيز أنه كان يجلس إلى مكتبه يكتب مقالة لعمود الصحيفة *يوماً فيوماً* فيخبره خوسيه سالغار أو غييرمو كانو وسط ضوضاء الغرفة بإشارة من إبهامـه وسبابته مساحة الكتابة المطلوبة لملء الفراغ. لقد تبخر شيء من الروعة عن صـحافته. والأسوأ من هذا أن بوغوتا لم توفر له الحافز الحيوي الذي كان يجده في كل مكان على امتداد الساحل. وفي أواخر شهر شباط وصل به السأم حدّ البكاء، فتمكن من إقناع الإدارة في أن يجرب كتابة النقد السينمائي وينشر مراجعاته في أيام الـسبت. لا بد من أنه ارتاح ارتياحاً مدهشاً وهو يهرب عدة مرات أسبوعياً من توتـرات الحياة في ظل دكتاتورية تحكم في "أكثر مدن العالم إثارة للكآبة"، وتحت فتـرة تدريب مزعجة وغير ضرورية في مكتب الصحيفة، وأن يلوذ إلى عالم الخيال الذي توفره الأشرطة السينمائية. الحق أنه كان رائداً في مجاله، فما من صحفي آخر كتب عموداً منتظماً عن السينما في أي صحيفة كولومبية قبل هذا الوقت. فقد كان هؤلاء الصحفيون يقتصرون على توفير ملخصات للحبكة وذكر أسماء النجوم.

كـان ينظر إلى السينما منذ البداية نظرة أدبية وإنسانية بدلاً من أن ينظر إليها نظـرة سينمائية مجردة[9]. ولا بد من أن إيديولوجية غارسيا ماركيز السياسية التي كانت تتطور تطوراً سريعاً في ذلك الوقت، قد عززت من إحساسه بأنه يملك فرصة "لتعليم الجماهير"، وربما إنقاذهم من الوعي الكاذب الذي جعلهم يفضلون منتجات هولـيوود السينمائية المعلبة مسبقاً على الأعمال السينمائية الفرنسية المصنوعة صنعة جمالـية والأعمال السينمائية الإيطالية المرسومة والمنفذة على نحو *أصيل* والتي كان

يفضلها على وجه الخصوص. لكن رواد السينما في العاصمة إبان الخمسينيات من القرن العشرين لم يكونوا عل الأرجح ميالين إلى تقدير التقويم الطليعي للأشرطة السينمائية التي كانوا يذهبون لمشاهدتها على حين كان غارسيا ماركيز منذ البداية مهووساً بفكرة النظر إلى الواقع من وجهة نظر "الجماهير" والعمل على تعديل النظرة لتصب في اتجاهات تقدمية. ومما لا ريب فيه أن مراجعاته لتلك الأشرطة السينمائية تبنت مواقف "فطرية" مثار أسئلة جمالية وإيديولوجية. غير أن إحدى سجايا غارسيا ماركيز الملازمة له دائماً في تفسيره "للفطرة" هي أن هذه "الفطرة سليمة" وأنها ليست "سيئة" أبداً[10].

منذ البداية كان غارسيا ماركيز معادياً لما يعتقده قيم نظام هوليوود التجارية الضحلة والمعمقة إيديولوجياً - وكان يعد أورسون ويلز وتشارلي تشابلن استثناءين - ودافع مراراً وتكراراً عن السينما الأوروبية التي كان ينشد إنتاجها وقيمها الأخلاقية من أجل تطوير سينما وطنية في كولومبيا. وسيظل هذا الأمر علاوة على البعد الأميركي اللاتيني هوساً دائماً على مدى السنين. ومن العجب أنه انشغل بالقضايا التقنية - كالنص والحوار والإخراج والتصوير والصوت والموسيقى والتقطيع والتمثيل - مما يدفع إلى التبصر في حرفية الأعمال الأدبية المماثلة لحرفية النجار؛ "سر المهنة" الحرفي الذي لم يرغب قط في أن يشاركه فيه أحد، في الأقل ليس في ضوء الرواية[11].

كان يصر على أن يكون النص اقتصادياً ومتسقاً ومتماسكاً، وأن تحظى اللقطات القريبة والبعيدة بالاهتمام نفسه. كان منذ بدايته منشغلاً بمفهوم القصة جيدة الصنعة. فكان ذلك هوساً لازمه طوال حياته، وهو ما يفسر لنا تبجيله المتواصل لألف ليلة وليلة، ودراكولا، والكونت دي مونت كريستو، وجزيرة الكنز؛ وكلها أعمال من الأدب الشعبي ذات السرد الذكي. وهو الشيء ذاته الذي كان ينشده في السينما أيضاً: أن يسود الواقع الموضوعي فوق كل شيء، لكن لا ينبغي إهمال العالم الداخلي ولا حتى العالم الخيالي. وأشار إلى أن الملمح الأساس في شريط **لصوص الدراجة الهوائية** للمخرج فيتوريو دي سيكا يكمن في "صدقيته الإنسانية" وفي "منهجه الحياتي".

ستظل هذه الأفكار الأساسية مهيمنة في ما بعد على فكره على مدى سنوات قليلة، وهي ليست بعيدة عن العقائد الأساسية لكل من البورجوازية والواقعية الاشتراكية التي وجدت وحدة كلاسيكية في الواقعية الجديدة الإيطالية. لكنها لم تكن طليعية، إذ لم يُظهر غارسيا ماركيز إلا قدراً قليلاً من الانتباه إلى نظريات الموجة الجديدة الفرنسية الآخذة في النمو والتطور والتي وجدت طريقها وسط أعمال السينمائيين البرازيليين والأرجنتينيين والكوبيين في ذلك الوقت. وتوضح، من دون لبس اختياراته لأفضل الأشرطة السينمائية للعام في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول أنه كان يرى في الواقعية الجديدة الإيطالية لعام 1954 منهجاً في صنع الأشرطة السينمائية. لكن من المفارقة التفكير في أنه ليس من شأن دي سيكا، صانع الأفلام المفضل لدى غارسيا ماركيز، وسيزار ثاباتيني، كاتب النصوص السينمائية الذي لا يضاهيه أحد، أن يخوضا في تصوير شريط سينمائي ذي حبكة مماثلة لحبكة رواية **عاصفة الأوراق**. وهذا هو السبب الذي جعله لا يُقدِم على تأليف أي روايات أخرى مثل رواية **عاصفة الأوراق**.

كان العمل في أيام الأسبوع يثير التوتر. فكان في نهايته يشارك في أيام "الجمع الثقافية" التي يقيمها الصحفيون بانتظام. وكان هذا المصطلح كناية عن الإسراف في الشراب في فندق كونتيننتال، الكائن على الجانب الآخر من الشارع، حيث يمكن لكتّاب الاسبكتادور والتيمبو أن يلتقوا ويتبادلوا الشراب والشتائم. وكانوا في بعض الأحيان يواصلون الشراب حتى الفجر[12]. كما اشترك غارسيا ماركيز في نادي بوغوتا السينمائي الذي نظمه واحدٌ آخر من المنفيين الكاتالونيين المفعمين بالحيوية والنشاط والذي سيتعرف إليه الأديب الشاب بمرور السنين. كان اسمه لويس بيثينس، وكان قد عمل مع الناقد الكبير جورج سادول في الشاشة الفرنسية وأخذ يكسب رزقه الآن في كولومبيا من خلال بيع الكتب علاوة على إدارة النادي السينمائي مع كولومبيَّين آخرَين هما الناقد السينمائي هيرناندو سالثيدو والرسام إنريكي غراو. وكان بعد انتهاء جلسات النادي السينمائي يذهب إلى الحفلة التي لا مفر منها في منزل لويس بيثينس وزوجته الكولومبية نانسي على مقربة من مبنى الصحيفة[13].

لكن بالرغم من ذلك، فإن هذا الأسلوب الجديد في الحياة، الذي هو أسلوب حياة الطبقة الوسطى لسكان بوغوتا، قلما تمكن من أن يحلّ محل المرح والصخب، ناهـيك عـن الاهتمام، الذي كان يرافق الحياة على الساحل. لقد كتب غارسيا ماركيز في وقت مبكر من إقامته في بوغوتا رسالة إلى ألفونسو فوينمايور:

ستخف مشاغلك الأبوية النبيلة إذا ما أخبرتك أن وضعي هنا لا يزال جيداً بالرغم من أن القضية في الوقت الراهن تتمثل بتعزيز هذا الوضع. ثمة جو رائع في الصحيفة وقد سمحوا لي حتى الآن بأن أحظى بالامتيازات نفسها التي يتمتع بها العاملون على المدى البعيد. لكن الجانب الحزين من القضية هو أنني لا زلت أشعر بالغربة في بوغوتا بالرغم من أن الأمور إذا ما استمرت على ما هـي عليه، فلن يكون أمامي خيار آخر سوى التأقلم معها. وبما أنني لا أحيا حـياة "ثقافـية" هـنا، فـإنني لا أعرف شيئاً عن التطورات في الرواية لأن يولـسيس (ثالامـيا بوردا)، وهو العبقري الوحيد الذي أشاهده هنا، يدفن نفـسه تحـت روايـات إنكليـزية ضخمة عسيرة الهضم. انصحني ببعض الترجمات. لقد تلقيت نسخة من رواية سارتوريوس بالإسبانية، لكنها تمزقت فأعدها(14).

سمحـت له رفاهيته الجديدة بالذهاب من حين إلى آخر إلى بارانكيا وزيارة أصـدقائه ومراقبة ميرثيديس والإبقاء على صلته بجذوره؛ ومشاهدة الشمس أيضاً، علاوة على الابتعاد عن بوغوتا نفسها. ومما لا شك فيه أن ظهوره اللاحق في لائحة الذين يتوجب لهم الشكر في شريط سينمائي تجريـبي قصير، يخرجه ألفارو سيبيدا بعـنوان **الجـرادة الزرقاء**، يشير إلى أن زياراته إلى الساحل كانت متواترة إلى حدٍّ معقول(15).

أصبح لدى أصدقائه الآن مكان جديد يؤثرون اللقاء فيه وتغدو جماعة بارانكيا مرادفة لمجموعة من الأفراد أقل تظاهراً بالأبهة أورد غارسيا ماركيز ذكرهم بعد خمس سنوات في قصته القصيرة **جنازة الأم الكبيرة**. ولم يمضِ وقت طويل على رحيله عن بارانكيا حتى أعادت الجماعة تنظيم صفوفها ونقلت مركز نشاطاتها بعيداً عن مركز المدينة القديم إلى باريو بوسطن على مقربة من المنطقة التي تقطنها ميرثيديس بارتشا. فقـد أسـس إدواردو فيلا فوينمايور، وهو أحد أقرباء ألفونسو فوينمايور، وكان طبـيب أسنان متذبذباً (ميرثيديس واحدة من مرضاه)، حانة أسماها في بادئ الأمر

(مـــن وإلى) وهو اسم المخزن الذي كانت تحمله يوماً ما، لكن الجماعة حولته إلى اســـم آخر هو الكهف (مثل حانة رصيف الميناء في كارتاخينا). سيغدو هذا المكان مـــن الأماكن التي لا تنسى في ميثولوجيا غارسيا ماركيز بالرغم من أن الرجل لن يتمكن من ارتياده بانتظام. وكانت شدة صخب المكان وكثرة الشجار والإسراف في الـــشراب سبباً دفع فيلا في نهاية المطاف إلى وضع ملاحظة مفادها: الزبون هنا ليس على حق أبداً.

شهد غارسيا ماركيز إثر رجوعه إلى بوغوتا واحدة من أشد المعارك الضارية للنظام العسكري الجديد في التاسع من حزيران عام 1954، إذ فيما كان يسير وقت الـــضحى في شـــارع خيمينيث كاسيدا إثر زيارة قام بها إلى رئيسه السابق خوليو سيـــسر بييغاس، الذي كان يمضي عقوبة في السجن النموذجي، سمع فجأة صوت إطـــلاق رصاص من بندقية رشاشة: كانت قوات الجيش الحكومية تطلق النار على مظاهـــرة طلابـــية ما أدى إلى وقوع خسائر كبيرة بما فيها بعض القتلى أمام عيني الأديـــب الفـــزعتين. وقـــد أنهت تلك الحادثة الهدنة القلقة بين الحكومة الجديدة والصحافة الليبرالية. لقد كانت أفكار غارسيا ماركيز الراديكالية واضحة تماماً منذ أيامه الأولى في الأونيفرسال، أي بعد بضعة أسابيع على أحداث العنف في بوغوتا. لكن هذه التجربة الثالثة في العيش في بوغوتا، أو على مقربة منها، جعلته يلزم نفسه لا بإيديولوجيّةٍ سياسيّة معينة - وهي الاشتراكية - وحسب، بل بمنهج محدد، وعلى امتداد بضع سنوات على الأقل، في النظر إلى الواقع وتفسيره وبمنهج محدد في التعبير عـــنه وإيـــصاله من الناحية التقنية. وكانت نتيجة ذلك ظهور تحقيقاته السياسية، وتأليف روايتي **ليس للعقيد من يكاتبه** و**في ساعة نحس** ومجموعة قصص **جنازة الأم الكبيرة**. لقد مضت عدة سنوات حتى الآن وهو يتطلع إلى الفرصة التي يصبح فيها مراســـلاً، لكـــن صحيفتي الأونيفرسال والهيرالدو عاشتا حقبة الاتصالات العالمية، ونظراً إلى مواردهما القليلة وإلى تطبيق نظام الرقابة، لم تنشرا أي تقارير جادة إلاّ في ما ندر. كان هدفهما يتحدد بنشر شيء ما، أي شيء، يخالف الدعاية المألوفة لحزب المحـــافظين. أما مالكو صحيفة الاسبكتادور فكانوا من طينة أصلب، ولديهم الآن تحـــت تصرفهم أديب شاب مفتون بأبناء بلده على اختلاف مشاربهم، وبما يفعلونه

وبما جرى لهم من أحداث: إنه رجل أحب القصص، رجل حوّل حياته الخاصة إلى قصة كلما كان ذلك ميسوراً، وها هو الآن ينتهز الفرصة لتحويل حياة الآخرين إلى سرديات تأسر الخيال.

كانـــت الأنباء في تلك الأيام في كولومبيا فظيعة. فقد كانت البلاد في ذروة أحداث العنف، واستمر ذبح الليبراليين في المناطق الريفية وكانت تنفذها ميليشيات عـــسكرية همجـــية تابعـــة للأقلـــية الحاكمة ستعرف عادة بالاسم تشولابيتاس أو باخاروس، واشتبكت صفوف المقاتلين الليبراليين الأخيرة مع العدو في مختلف مناطق البلاد. وشاع الاغتصاب والتعذيب والتنكيل الوحشي بالجثث، وكان روخاس بينيًّا قد فرض الرقابة على الصحافة في السادس من آذار وشدَّدها بعد مقتل الطلاب في بوغـــوتا. واقترح رئيس الجمهورية السابق لوبيث بوماريخو اتفاقاً يعقد بين الحزبين لإدارة الـــبلاد في الخامس والعشرين من آذار، وهي فكرة أثمرت نتائجها بعد ثلاثة أعوام بظهور الجبهة الوطنية، لكنها لم تلقَ قبولاً إيجابياً آنذاك.

كـــان هـــذا كله انعكاساً جزئياً في بلد هامشي أيام الحرب الباردة في تلك الحقبة. فقد كانت المكارثية في أوجها في الولايات المتحدة، بل وصل الأمر بآيزنهاور إلى حظر الحزب الشيوعي في آب 1954، لكن مجلس الشيوخ صوَّت أخيراً بتوجيه التوبيخ إلى مكارثي في كانون الأول من ذلك العام. في غضون ذلك، كانت الكتلة الشيوعية تعد العدة لحلف وارسو الذي تم التوقيع عليه أخيراً في أيار سنة 1955. وفي بارانكـــيا، كان غارسيا ماركيز قد استمع بتعاطف إلى خطابات الشيوعي خورخه رونـــدون الطـــنانة يفوق تعاطف معظم أصدقائه وزملائه. وفي أثناء فترة وجوده الأخـــيرة في بارانكـــيا، وذلك بعد بضعة أشهر على وفاة ستالين في موسكو وبعد بـــضعة أسابيع على انقلاب روخاس بينيًّا في كولومبيا، زار شخص غارسيا ماركيز وكـــان مظهـــره يشير إلى أنه بائع ساعات لكنه في حقيقة الأمر كان شيوعياً يجند الأفراد للانضمام إلى الحزب، وبخاصة إذا كانوا من الوسط الصحافي لقاء ما يقدمه إلـــيهم من ساعات. لم يمضِ وقت طويل على وصول غارسيا ماركيز إلى بوغوتا، حـــيث كـــان يعمل منذ البداية برفقة زملاء تقدميين، حتى جاء بائع ساعات آخر لزيارته، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجد غارسيا ماركيز نفسه يتصل بغيلبيرتو فييرا

السكرتير العام للحزب الشيوعي الكولومبي الذي كان يعيش سراً على مقربة من مركز المدينة[16]. اتضح لغارسيا ماركيز أن الحزب كان يراقبه منذ أن عمل مع سيبيدا في صحيفة الناسيونال ورأى فيه مادة تبشر بالخير. ولكن، وبحسب رأيه هو، فقد تم الاتفاق على أن أفضل استفادة يحققها الحزب منه إنما تتمثل بالكتابة الصحافية الملتزمة، ولكن يبدو أنها لم تكن مرضية للحزب الذي ظل، بالرغم من ذلك، يتبنى هذا الموقف من نشاطات غارسيا ماركيز على امتداد سنوات ويدعم مواقفه.

اقترح سالغار على غارسيا ماركيز أواخر شهر تموز الذهاب إلى أنتيوكيا لمعرفة ما حدث جراء الانهيار الأرضي الذي وقع في الثاني عشر من تموز، فوجد نفسه على متن طائرة إلى ميدلين حيث حدث الانهيار في منطقة ميديا لونا الواقعة شرقي المدينة قبل أسبوعين ونجمت عنه خسائر كبيرة في الأرواح. حامت الشكوك حول الفساد الحكومي والبناء الذي تعوزه المتانة. كانت مهمة غارسيا ماركيز تتحدّد بإعادة بناء الحقيقة على الأرض. ويعترف المراسل الجسور في ما بعد أنه كان شديد التوتر بشأن السفر جواً حتى إن ألفارو موتيس سافر وإياه لتهدئة أعصابه وأنزله في فندق نوتيبارا القريب من السوق. ولما بقي غارسيا ماركيز وحده، ازداد قلقه وشعر بالخوف جراء التحدي البدني والمسؤولية الأخلاقية. وكاد أن يستقيل من العمل في الصحيفة في أول يوم أمضاه في ميدلين. لكنه بعد أن طمأن نفسه اكتشف أن لا أحد في منطقة ميديا لونا، ولهذا السبب لا يوجد ما يضيفه إلى تقارير الصحافيين الذين زاروا المنطقة قبله بزمن طويل. لم تكن لديه أي فكرة عما ينبغي له أن يفعله. ثم هبت عاصفة مطرية عنيفة، أجَّلت من عذابه، وفكّر في الهروب مجدداً إلى بوغوتا. غير أن اليأس من الفعل وتوفر فرصة له للتحدث إلى سائق سيارة أجرة حفزاه على المثابرة. فبدأ يفكر، يفكر فعلاً، في شأن الحدث الذي جاء لتقصيه: ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟ إلى أين ينبغي له الذهاب؟ ما الذي يتعين عليه عمله؟ ورويداً رويداً، وبحماسة متزايدة، اكتشف اللذة الكامنة وراء العمل بصفة صحافي - مخبر والإبداع في اكتشاف الحقيقة، وإلى حدٍّ ما فبركتها، والقدرة على صياغة الواقع وحتى تغييره لعشرات الآلاف من الناس. وأدرك أن

فكـــرة أنـــاس يسافرون لملاقاة الموت الذي لا يتوقعونه، إنما هي حجر الزاوية في موضـــوعه، فأسرع يستقل سيارة أجرة لنقله إلى لاس إيستانثياس، وهي المنطقة التي ســـافر منها معظم الناس الذين لقوا مصرعهم في الكارثة. وعلى الفور اكتشف ما يـــشير إلى التقـــصير الحكومي على المديين القصير والبعيد (إذ تبين أن الانهيار كان يختمـــر على مدى ستين سنة!) كما تكشّف عن جانب غير متوقع وأكثر تأثيراً في تلـــك المأســـاة، جانـــب من شأن معظم القراء أن يفضلوا عدم معرفته: إن سبب الوفيات الكثيرة التي حدثت هو أن أناساً من مناطق أخرى من المدينة كانوا يحاولون مـــدَّ يد العون من دون إرشاد أو مساعدة حكومية تسببوا في حدوث انهيار أرضي آخـــر. والتقـــى غارسيا ماركيز عدداً من الناجين والشهود كما التقى ممثلين عن الـــسلطات بمن فيهم سياسيون ورجال أطفاء وقساوسة محليون، وأجرى مقابلات معهم[(17)].

ثم بدأ يكتب. الأرجح كثيراً أن الكتابة كانت أشبه بكتابات همنغواي، ولكن عندما فرغ منها كانت ذات لمسات خاصة به حيث أوضح فيها أن الحياة مسرحية مفعمة بالأهوال وبمفارقات القدر، وأن قدر الإنسان هو أن يعيش في عالم لا يعرف له سبباً ويتحكم بالزمان:

> **هـــرع طالب الاقتصاد خوان إغناسيو آنخل الواقف على الحافة إلى الأسفل تـــسبقه فـــتاة في ســـن الرابعة عشرة وفتى في العاشرة. أما رفيقاه كارلوس غابـــرييل أبريغون وفرناندو كايي فقد ركضا في الاتجاه المعاكس. توفي الأول بعـــد أن دفن نصف جسده بسبب الاختناق. أما الثاني، وكان مصاباً بالربو، فـــتوقف مـــتقطع الأنفاس وقال: "لا يمكنني الاستمرار في الركض". لكن لم يـــسمع أحـــد عنه بعد ذلك أبداً. قال خوان إغناسيو: "عندما ركضت إلى الأســـفل مع الفتى والفتاة وصلت إلى حفرة هائلة، فرمينا نحن الثلاثة بأنفسنا علـــى الأرض". لكـــن الفتى لم ينهض ثانية. أما الفتاة، التي لم يستطع آنخل التعـــرف إلـــيها وسط الجثث، فقد نهضت للحظة واحدة لكنها انهارت مرة أخـــرى وهـــي تصرخ يائسة عندما شاهدت الأرض ترتفع من فوق الحفرة وســـقط علـــيهم جـــل من الطين. حاول آنخل أن يركض ثانية إلا أن ساقيه أصـــيبتا بشلل، فقد ارتفع الطين حتى صدره في ثانية واحدة، لكنه تمكن من تحريـــر يـــده اليمنى. مكث هكذا حتى توقف هدير الأصوات الشبيه بالرعد**

وشعر بيد الفتاة تمسك به من ساقيه تحت ذلك البحر الكثيف من الطين الذي يتعذر اختراقه. كانت الفتاة تمسك به أول الأمر بقوة ثم تشبثت به، وأخيراً أرخت قبضتها من حول كاحله[18].

من المؤكد أن العناوين الفرعية للمقالة قد اختارها غارسيا ماركيز بنفسه وهي: المأساة بدأت قبل ستين عاماً؛ ميدلين ضحية تضامنها؛ وهل تسبب منجم ذهب قديم في الكارثة؟[19]، لقد تعلم غارسيا ماركيز كيف يحول وجهة نظره العالمية إلى مجموعة من "الزوايا" الصحافية. إن غابو أفضل صديق لأصدقائه لم يولد إلا مؤخراً. أما القصاص الكبير غابرييل غارسيا ماركيز فقد ظهر أخيراً في المشهد. تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من ابتهاجه بتوجيه اللوم إلى السلطات لدورها في الكارثة، كان قلقاً من ذكر الحقيقة كلها بما فيها الإسهام الطوعي لعدد كبير من الذين جاؤوا لتقديم المساعدة، عن حسن نية، في تلك المأساة.

كانت المقالة التالية الرائدة في أسلوبها الكتابي سلسة عن إحدى المناطق الكولومبية المنسية وهي مديرية التشوكو الواقعة على المحيط الهادئ. ففي الثامن من كانون الأول سنة 1954 قررت الحكومة أن تلغي مديرية تشوكو المتأخرة والتي تكسوها الغابات وتضم أجزاءها إلى مديريات أنتيوكيا وكالداس وفايي. وخرجت تظاهرات صاخبة بسبب ذلك. أُرسل غارسيا ماركيز مع المصور غييرمو سانتشيث لكتابة تحقيق عن الصراع. كانت الرحلة بالغة السوء، بطائرة قديمة جداً، حتى إن غارسيا ماركيز يتذكر أن المطر كان يتسرب إلى داخلها وأن ربّانَي الطائرة أنفسهما انتابهما الهلع. كانت مديرية تشوكو يسكنها عموماً كولومبيون من أصل أفريقي ذكّروا غارسيا ماركيز على الفور بآراكاتاكا ومناطقها الداخلية. وكان يرى أن تقطيع أوصال مديرية تشوكو سمة من سمات عقلية بوغوتا الباردة والقاسية بالرغم من أن آخرين وجهوا اللوم إلى سكان أنتيوكيا الطموحين. ولدى وصوله اكتشف أن التظاهرات التي ذهب للكتابة عنها قد تبخرت؛ لهذا، طلب من أحد أصدقائه أن ينظّم له مظاهرة أخرى! وهذا ما أدى إلى نجاح مهمته. فبعد بضعة أيام، وبازدياد حجم الأنباء الواردة عن المنطقة وذهاب مراسلين آخرين جواً لتغطية الأحداث، ألغت الحكومة قرارها بإعادة هيكلة المديريات الأربع[20].

في أواخـــر شهر تشرين الأول أُعلن عن أن أرنست همنغواي نموذج غارسيا ماركيز الذي يحتذي به سيمنح جائزة نوبل للأدب، تماماً مثلما مُنح فوكنر الجائزة عـــندما كان غارسيا ماركيز يعيش مرحلة إعجابه به. فكتب ملاحظة تحت زاوية **يـــوماً فيوماً** يكرر فيها ما سبق أن كتبه عن ظاهرة جائزة نوبل، لكنه في هذه المرة قلل من الأهمية المحتملة لجائزة مُنحت مرات عديدة لأدباء "لا يستحقونها"، ورأى أن الجائزة بمنحها لهمنغواي لا بد من أن تكون على وجه التأكيد واحدة من المناسبات الأقل إثارة في "حياة مفعمة بلحظات الإثارة"[21].

يـــشهد عام 1955 نشر أشهر قصة من قصص غارسيا ماركيز في الصحف. وكانـــت مـــستمدة من مقابلة طويلة جداً على مدى أربع عشرة جلسة فترة كل واحدة منها أربع ساعات، مع ملاّح في البحرية الكولومبية يدعى لويس أليخاندرو بيلاســكو وهو الناجي الوحيد من بين طاقم مؤلف من ثمانية أشخاص سقطوا عن ظهـــر المدمـــرة كالداس عندما فقدت زمام السيطرة أواخر شهر شباط – في أثناء هبوب عاصفة على ما يفترض – وهي في طريق عودها إلى مرفأ كارثاخينا لإعادة تعميرها وتجهيزها في مرفأ موبيل في ولاية ألاباما. نجا بيلاسكو بعد أن ظل على متن طوف عشرة أيام من دون طعام وقليل من الشراب. وبات بطلاً قومياً ومنحه رئيس الجمهورية وساماً، فيما احتفت به الصحافة ومحطة التلفزة الجديدة. هذا كله حدث حتى اللحظة التي قرر فيها غارسيا ماركيز أن يجري مقابلة معه. كانت المقابلات من بنات أفكار غييرمو كانو، ورأى غارسيا ماركيز أن الاهتمام فتر بالقصة كلها، لكنه أجـــراها في مقهـــىً صـــغير في شارع خيمينيث[22]. كان بيلاسكو يتمتع بذاكرة مدهشة وكان هو شخصياً راوياً ممتازاً، غير أن غارسيا ماركيز كان آنذاك قد تعلم كـــيف يوجه أسئلة مهمة ومن ثم يبرز جوهر الأجوبة، أو يركز في أكثر الجوانب الإنـــسانية مـــن القـــصة. وبدأ بيلاسكو يؤكد الجانب البطولي فيها: المعركة ضد الأمواج ومشكلة السيطرة على الطوف والمعركة ضد أسماك القرش والصراع الذي خاض غماره إلى أن قاطعه غارسيا ماركيز قائلاً: "ألا تدرك أن أربعة أيام مرت ولا زلـــت لم تقضِ حاجتك بعد؟"[23]. كان غارسيا ماركيز يعود إلى المكتب إثر كل مقابلـــة وقت الأصيل فيكتب الفصل المطلوب إلى أن يتقدم به الليل. وكان خوسيه

سالغار يأخذ الفصول منه، من دون تصحيح في بعض الأحيان، ويرسلها إلى المطبعة. وقد ذكر غييرمو كانو لغارسيا ماركيز أنه يرغب في أن تكون القصة من خمسين فصلاً. وبعد أن انتهت الفصول الأربعة عشر، أصدرت الاسبكتادور ملحقاً خاصاً في الثامن والعشرين من شهر نيسان أعادت فيه طبع القصة كاملة زاعمة أنها أكبر قصة تنشر في الصحافة الكولومبية على الإطلاق!

كشف غارسيا ماركيز على نحو غير مقصود من خلال أسئلته المثيرة والشاملة وبحثه عن زوايا جديدة أن السفينة لم تمِل ولم تواجه عاصفة عنيفة، بل غرقت لأنها كانت تحمل شحنة من مواد غير قانونية لم ترتّب ترتيباً جيداً، وكانت إجراءات السلامة غير دقيقة تماماً. لقد وضعت القصة صحيفة الاسبكتادور في مواجهة مباشرة مع الحكومة العسكرية، ومما لا ريب فيه أنها جعلت غارسيا ماركيز شخصاً غير مرغوب فيه، بل مشاغباً وعدواً للنظام. ولا بد لمن يداخله الشك في شجاعة غارسيا ماركيز والتزامه من أن يفكّر في هذه المرحلة من حياته. كان غارسيا ماركيز على وجه التأكيد رجلاً بارزاً ومشهوراً، بالرغم من أنه قلل من شأن مخاطر الزمان على نحو متميز، إلا أنه يسهل تخيل مشاعره كلما قفل راجعاً إلى البيت في وقت متأخر من الليل، ماشياً وسط مدينة متجهمة ومكفهرة تغوص على نحو مقلق في خضم توترات دكتاتورية عسكرية. ومن العجب أنه "نفذ بجلده" من دون أن يمسَّه أذىً[24].

بعد مرور سنوات أعيد نشر القصة، وذلك بعد أن أصبح غارسيا ماركيز مشهوراً على نطاق عالمي، وكان عنوانها هذه المرة **قصّة الملاّح الناجي من الغرق**. المثير للدهشة هو أن القصة أضحت واحدة من أنجح مؤلفات غارسيا ماركيز إذ بيع منها عشرة ملايين نسخة في السنوات الخمس والعشرين التالية. إن غارسيا ماركيز لم يتحدَّ الحكومة الرجعية تحدياً مباشراً في العامين 1954 و1955 قط، لكنه تبنى في تحقيقاته، الواحد تلو الآخر، وجهة نظر تدمّر ضمناً وجهة النظر الرسمية، وبهذا، كانت تشكل تحدياً للنظام الحاكم أشد فعالية من أي من زملائه اليساريين المفوّهين، لأنه كان ينقاد دوماً بالتقصي الدؤوب والتأمل ونقل وقائع البلاد. على وجه العموم، كان ذلك كشفاً مستداماً وذكياً لقوة فن راوي القصة ولسطوة خياله المهمة جداً حتى في التعبير عن الحقائق الملموسة.

بعد هذه النصوص الملتزمة والمحرِّضة ضمناً، ظهرت أخيراً رواية **عاصفة الأوراق** في بوغوتا أواخر شهر أيار بطبعة متواضعة يملكها الناشر ليسمان باوم عن دار نشر سيبا بسعر خمسة بيزوسات للنسخة الواحدة. وكان غلاف الرواية من تصميم الرسام سيسيليا بوراس صديق غارسيا ماركيز، ويمثل صبياً صغيراً يجلس على كرسي وقد تدلت ساقاه في انتظار شيء ما. إنه الفتى الصغير غارسيا ماركيز عندما كان يحلم قبل وفاة جده وانتقل الآن إلى أول رواياته المنشورة.

لقد زعم صاحب المطبعة أنه طبع أربعة آلاف نسخة لم يبع منها إلا نسخاً قليلة[25]. غير أن نشرها كان يمثل نقطة مضادة غريبة إزاء مكانته الحالية وهو يمارس عمله الصحافي المثير المتميز لأنها لم تكن منتمية إلى عهد وحسب، بل إلى أسلوب سردي تخلى عنه غارسيا ماركيز: أسلوب جامد، أوهنه الزمن، قدري وخرافي.

لكنه كتاب مطبوع على كل حال. بالرغم من أنه لم يُنهِ بأي شكل من الأشكال أو يخفف من غلواء هواجسه، إلا أنه من جهة أخرى استند مباشرة إلى طفولته الشخصية، الطفولة التي أهملت فجأة رواية **البيت** بعد عودته المدهشة إلى آراكاتاكا مع لويسا سانتياغا التي مرَّ عليها خمسة أعوام الآن. كان عنوان الرواية مرتجلاً في العام 1951 كي يتمكن من إرسال الرواية إلى بيونس آيرس، وفي الأشهر القليلة التي سبقت نشرها كتب غارسيا ماركيز ما يشبه المقدمة أو التقفيلة الموسيقية مؤرخة بالتاريخ 1909 مما يضفي على العنوان قدراً أكبر من المعقولية، ومنح الرواية منظوراً تاريخياً وميثولوجيا في الوقت نفسه، موضحاً مغزاها الاجتماعي ومضيفاً إحساساً أشد وضوحاً بالانحطاط والضياع والحنين الجارف إلى الماضي. فيجري هذا كله بصوت سردي يشبه صوت العقيد في الرواية، وهو صوت يتأسى على وصول نفايات الأوراق والعمال المهاجرين - بدلاً من أن يتأسى على ظهور الرأسمالية والإمبريالية - ثم يقبل على مضض ما حدث في البلدة على أنه جزء من الحالة *الطبيعية* للأشياء وتقلبات الأيام وأهوال الدهر المتأصلة في الحياة نفسها. نحن أمامنا الآن رجل في منتصف العقد الثاني من عمره يكتب بصوت عجوز في سن السبعين، لكنه ينظر إليه بقدر من المفارقة. كان الكتاب مهدىً إلى خيرمان فارغاس وحظي

بإعجـــاب النقاد الكولومبيين بالرغم من أن عديد المراجعات التي كتبت عنه كانت بأقلام أصدقاء غارسيا ماركيز والمقربين إليه.

كـــان منهكاً، سئماً من بوغوتا، استنـــزفته جهوده المتراكمة في إعداد البحوث لتقاريـــره ومسؤولية الإيفاء بمتطلبات الآمال المتزايدة المعقودة عليه والمخاوف التي لها ما يبررها من أن الحكومة قد تعمد إلى اتخاذ إجراءات انتقامية ضده بسبب مواقفه العدائية الواضـــحة. ولهذا، عندما واتته الفرصة للسفر - إلى أوروبا - انتهزها بسرعة بالرغم من تأكـــيدات كـــثيرة لاحقـــة بخلاف ذلك. وكما هو مألوف، فإن أسباب رحلته غير واضـــحة، ويقال إنه احتاج إلى الخروج من البلاد لينأى بنفسه عن تهديدات الحكومة، ويقـــال أيـــضاً إن هذا التفسير يُعدّ واحداً من الأمثلة الكثيرة عن ميل غارسيا ماركيز المزعوم إلى تهويل الأمور. إلاّ أنه ليس من السهل غض النظر عن التفسير السياسي.

فقد قام برحلات متعددة نحو الساحل ليحتجب عن الأنظار بعد أن نشر عدداً من أشد قصصه التحريضية، كما تلقى عدد من صحفيّي الاسبكتادور تهديدات أو تعرضـــوا للضرب على أيدي مهاجرين مجهولين. ربما تكون الرحلة ايضاً نفياً ذاتياً قـــصير الأمـــد تحت ستار مهمة صحافية أو سفرة إلى أوروبا ظاهرها النفي الذاتي لـــدواعٍ سياســـية. أو ربما كان القصد منها على حدّ تعبير الصحيفة: مهمة قصيرة خـــارج البلاد تبدأ بلقاء "القوى الأربع العظمى" وهي الولايات المتحدة الأميركية، واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، والمملكة المتحدة، وفرنسا في جنيف.

غـــادر شقته في بوغوتا متخلياً عن معظم مقتنياته الشخصية. وكان قد وفّر مـــبلغاً لا بأس به من المال، بالرغم من ظروف الأسرة التي لا تزال تقاسي شظف العـــيش في كارثاخينا، فأخذه معه(26). من الواضح أنه توقع أن يكون غيابه لأربعة أيـــام فقـــط؛ لكنه كان يفكّر في أنه قد يضطر إلى البقاء مدة أطول(27). من جهة أخـــرى، لا يمكن أن يكون قد توقع أن بقاءه بعيداً سيطول سنتين ونصف السنة. ويبقـــى التفسير الأرجح والأرق في هذه القضية هو أنه لم يستطع الاعتراف لأفراد أسرته الفقراء أو لزوجة المستقبل أنه قرر التخلي عنهم طوعاً لمدة طويلة من الزمان بعـــد أن أمضى ثمانية عشر شهراً بعيداً عنهم في بوغوتا. لقد كان حسُّه بالمسؤولية عظيماً، غير أن جمال أوروبا والمجهول كانا أعظم.

في المساء الأخير الذي أمضاه في بوغوتا من اليوم الثالث عشر من تموز، أُقيمت حفلة توديع صاخبة في منزل غييرمو كانو جعلت غارسيا ماركيز يتأخر عن اللحاق بطائرته إلى بارانكيا، لكنه تمكن من السفر إليها بطائرة أخرى عند الظهيرة. قيل إن الأسرة وافقت على مضض أن تتدبّر أمور حياتها من دون مساعدته لبعض الوقت، لكنها لم تكن لديها أي فكرة عن المدة التي سيستغرقها غيابه حقاً. لا بد من أنه كان منهكاً ومرتبكاً إلى أقصى حد، لكن هناك ميرثيديس التي بلغت الآن سن الثانية والعشرين – ومع هذا، فما الذي يقوله لها؟ – والتي يتعين عليه أن يلتقي بها، وهناك حفلات أخرى مع أصدقائه وزملائه السابقين في ذلك الحي. لقد ظلت ميرثيديس طوال أكثر من عقد من الزمان *خطيبته* في ذهنه، لكن يتعين عليه الآن أن يقرر إن كانت ستغدو حقاً *خطيبته*؛ أي إن كان بدوره سيصبح *خطيبها*. لقد مرت عشرة أعوام منذ أن طلب منها أن تتزوج به عندما كان في سوكري. و لم يسألها أحد إن كان هناك عشاق آخرون في حياتها – أخبرتني صراحة أنها لم يكن لديها أي عشيق البتة – أو ما السبب الذي جعل غارسيا ماركيز يشعر أنه يطيق أن يترك إخلاصها – أو قدرها بالأحرى – للظروف. لعله عمل على تسوية هذه الإيحاءات الخاصة بمخاوفه من الرفض وافتقاره إلى ما يملكه مادياً كي يقدمه إليها، بالتفكير في أن اليوم سيأتي، كما حدث لفلورنتينو أرثيا في رواية **الحب في زمن الكوليرا** عندما يجتمعان معاً وتصبح ملكاً له بغض النظر عن المدة التي سيستغرقها في الحصول عليها وبغض النظر عن أي شيء ستفعله في غضون ذلك. ثمة تفسيرات متباينة لهذا الرحيل، يكتنفها الغموض جميعاً.

قد لا يشير تقدمه لخطوبة ميرثيديس، إن كان الأمر هكذا، إلى خوف رهيب من ضياع المرأة التي أحبها بالرغم من أنه يمارس لعبة طويلة – طويلة جداً – وحسب، بل إلى خوف غير واعٍ أيضاً من ضياع كولومبيا وبالتالي وسيلة ضمان ارتباطه مستقبلاً بالبلاد. فقد كانت ميرثيديس تنحدر من الإقليم الذي جاء منه، وجذورها هي جذوره، وبذلك يأمن وجود شخص ما إلى جواره يفهم أصوله طوال حياته. باختصار، لم تكن ضرباً من المثال الأفلاطوني المؤسس على غرار نموذج ذاتي وحسب – و لم يجد أنها رشيقة القوام إلى حدٍّ بعيد – بل وجد أنها تمثل خياراً

استـــراتيجياً واقعـــياً تمامـــاً واتحاداً مثالياً. ولكنه، بالرغم من كونه لا يشبه دانتي؛ وسيتزوج "السيدة التي شغلت ذهنه" والتي يتعذر الوصول إليها، المرأة التي اختارها وهـــي في عمر التاسعة[28]. إذاً، يبدو مؤكداً أنه طلب يدها الآن لأنه كان قد عزم علـــى السفر بعيداً عنها لمدة طويلة. لعله شعر أنه قادر بشكل أفضل على مواجهة رفضها الآن بعد أن اضحى صحافياً مشهوراً يسافر إلى أوروبا في مهمة مثيرة؛ ربما ستكون مستعدة أكثر للموافقة للسبب نفسه. بيد أن الحقيقة هي أن ميرثيديس قلما تظهـــر في مذكـــراته، كمـــا أن تفاصيل هذه العلاقة الغريبة لم يملأ فراغها أي من الفريقين. فقبل أن يرحل عن بارانكيا متوجهاً إلى بوغوتا عام 1954 نادراً ما تحدث الاثنان بأي طريقة واقعية، لكنه شعر أن ضرباً من التفاهم يجمع بينهما[29].

إن المـــرأة التي سيعطيها غارسيا ماركيز أهمية خاصة في علاقاته الرومانسية كما أوضحها في مذكراته الصادرة عام 2002، ليست حبيبة حياته ميرثيديس بل هي امرأة أخرى تدعى مارتينا فونسيكا، حبه الأول، التي كانت متزوجة واستمر في علاقته محتدمة العواطف معها في بارانكيا عندما كان مراهقاً في الخامسة عشرة مـــن عمـــره؛ إلى أن وضعت هي حداً لتلك العلاقة. ويكثر غارسيا ماركيز من الإشـــارة إليها في الفصل الخاص ببوغوتا[30]. هل كانت حقاً موجودة؟ ربما لأنه يسمع في يوم من الأيام في أواخر العام 1954 "صوتها الأخّاذ" عبر الهاتف ويقابلها في حانـــة فندق كونتيننتال للمرة الأولى منذ اثني عشر عاماً، وتظهر على محيَّاها أمـــارات "الـــتقدم في السن التي لا تستحقها"، وتسأله إن كان قد اشتاق إليها. "عندئذ فقط أخبرتها بالحقيقة وهي إنني لم أنسها قط لكن وداعها كان قاسياً جداً غيَّـــر مـــن وجودي". تصرفت تصرفاً عابثاً لكنه استاء وامتعض منها. كانت قد أنجـــبت توأمين لكنها أكدت له أنهما ليسا من صلبه. وأخبرته أنها كانت تريد أن تطمئن على أحواله ولهذا سألها: "وكيف حالي؟". فضحكت وقالت: "هذا ما لن تعرفه أبداً". ثم ينهي الحديث بالإشارة – على نحو مستفز – إلى أنه كان يشتاق لرؤية مارتينا حالما اتصلت به، إلاّ أنه كان جزعاً أيضاً من احتمال أن يمضي بقية عمره معها، "وهو الجزع الرهيب نفسه الذي شعر به مرات عديدة بعد ذلك اليوم كلما رنّ جرس الهاتف".

هذا المقطع الاعترافي موارب. وما يثير الاهتمام التساؤل عن المدى الذي أراد غارسيا ماركيز كشفه والسبب وراء ذلك: أهو اعتراف شخصي عن نفسه وعن المرأة؟ أم هو تبرير لموقف غير معلن نحوهما؟ يبدو غريباً ظهور مارتينا مرة ثانية بلا مسوّغ، وذلك قبل أن يلزم غارسيا ماركيز نفسه أخيراً بميرثيديس. أترى ذلك مؤكداً على نحو غامض في ثقافة يستطيع فيها الرجال أن يبقوا بلا معاشرة جنسية مع النساء اللواتي عزموا على الزواج بهن في حين يعاشرون من حين إلى آخر بنات الهوى والخادمات أو حتى زوجات الآخرين، مما جعله يفصل مشاعره بين الدون جوان غير الرسمي المعرض "لغرام مجنون" والزواج الرسمي الذي يحيا حياة زوجية مستقرة – "منظمة" إلى حدٍّ ما – مع امرأة تظل طوال عمرها زوجة عذراء ومخلصة يعتمد عليها وتكون هدف "الحب الجميل؟"[31]. لو كانت قصة مارتينا فونسيكا حقيقية؛ أو مفبركة، وكان لامرأة أخرى هذا الأثر المطهِّر فيه في هذا الوقت أو غيره، فسيتوضّح السبب الذي يجعله دائماً منشغلاً في قصصه ومقالاته بفصل الحب عن الجنس والسبب الذي جعله متشبثاً على مدى سنين طويلة بفكرة زواجه الذي رتّبه بنفسه بامرأة أصغر سناً منه بكثير، والسبب الذي يجعله لا يقيم وزناً للتعبير عن أي مشاعر إزاء ميرثيديس في مذكراته (يمكن، بل لا بد من أن يتم التسليم بوجود هذه المشاعر إلى الأبد)، وربما كذلك السبب الذي يجعل ميرثيديس تؤكد لي عندما سألتها عن تلك الفترة في حياتهما أمام صديقتها الطيبة نانسي بيثينس أن "غابو شخص غريب جداً، غريب جداً"[32]، وكان توكيدها ينطوي على مغزى مُروع وإن كان لا يشوبه أي أثر للمرارة، علماً أن غارسيا ماركيز سبق أن قال لي: "لا تقل لي إنها تحبني". كان واضحاً أنّ من الحكمة عدم المطالبة بأي تفسير.

هذه اللعبة مارسها شخصان قويان جداً، خصوصيان جداً ومفعمان بالمفارقة. بالرغم من وجود تفسيرات أخرى على مر السنين تكشف عن اتفاقات عقدت قبل رحيله[33]، إلا أن غارسيا ماركيز يؤكد لنا في مذكراته أنه لم *يشاهد* حبيبته قبل سفره إلى أوروبا؛ إلا إذا كان صحيحاً أنه شاهدها في الشارع من خلال نافذة سيارة أجرة و لم يتوقف عندها. وهكذا، ففي ظل عدم وجود لقاء مع ميرثيديس، لا بد – حتماً – من إقامة حفلة وداعية صاخبة في *الكهف* لتضاف إلى تلك الجرعة

الـــزائدة من الشراب الذي أتى به من بوغوتا. وفي اليوم التالي الذي تمكن فيه أفراد الجماعـــة من النهوض عن أسرتهم، ودَّعوه في المطار. ولعل أثر إسرافه في الشراب الذي يستحقه كان أسوأ تمهيد للمرحلة التي استغرقت ستاً وثلاثين ساعة فوق المحيط الأطلسي باتجاه العالم القديم. ومع هذا، فقد كان مستعداً أكثر لتقبل التجربة: فهو في الثامنة والعشرين، وصحافي ناجح، وأديب محترم نشر روايته الأولى. لقد كانت لحظة مناسبة لمثل تلك الرحلة. لقد كانت أبهة الحضارة الأوروبية في انتظاره، لكن أولـــئك الذين عرفوه معرفة أوثق، يمكنهم أن يتأكدوا من أنه سينظر إلى تلك الأبهة من منظوره الذي اكتسبه بمشقة. ومن نافلة القول إنه لم يذكر شيئاً في مذكّراته عن يولسيس أو عن بينيلوبـــي.

* * *

القسم الثاني

خارج الوطن:
أوروبا وأميركا اللاتينية
1967-1955

-9-

اكتشاف أوروبا: روما 1955

كانت الطائرة الكولومبية، وهي إحدى طائرات لوكهيد التي كانت من بنات أفكار المليونير غريب الأطوار هوارد هيوز، تقوم برحلة أسبوعية إلى أوروبا بعد أن تتوقف بضع مرات في الكاريبي بما في ذلك بيرمودا والآزور قبل انطلاقها إلى لشبونة ومدريد فباريس. ويلاحظ غارسيا ماركيز في أول رسالة إليه من العالم القديم أن الدهشة ألمت به وهو يرى أن مثل تلك الآلة الطائرة المدهشة يمكن أن يكون قد صممها السيد هيوز "الذي يصمم أفلاماً فظيعة"[1]. لكنه بالرغم من الشعور الذي لازمه إثر الإسراف في الشراب كان على درجة صافية من الذهن سمحت له بكتابة رسالة قصيرة إلى ميرثيديس أرسلها عبر البريد من خليج مونتيغو. كانت محاولة يائسة لصياغة علاقتهما صياغة رسمية. يقول غارسيا ماركيز في مذكراته إن غايته من إرسالها هي *الندم* لأنه لم يخبرها بسفره، لكنه ربما كان يفتقر إلى الشجاعة، فلم يطلب منها أن تكتب إليه، الأمر الذي ينطوي على أشياء كثيرة.

عندما وصلت الطائرة إلى باريس أخيراً، هبطت مع تحذير من احتمال وجود مشكلات في عجلات الهبوط، وأن على المسافرين أن يستعدوا لما هو أسوأ. إلا أن الطائرة هبطت بسلام ووصل غارسيا ماركيز العالم القديم[2]. وكان وصوله إليها بعد مرور عشرة أعوام تماماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية في أوروبا. لم يكن أمامه وقت لمشاهدة معالم المدينة، وفي صباح اليوم الباكر استقل القطار إلى جنيف فوصلها عصراً، وكان قد مضى يومان على رحيله عن بارانكيا. الشيء الوحيد الذي كان يزعجه أن يخبر القارئ به يخص توقفه القصير في باريس، إذ إن الفرنسيين

كانـــوا يهتمون بالسياحة الفرنسية أكثر من اهتمامهم بما يجري في جنيف. وعندما وصل إلى مدينة جنيف في السابع عشر من تموز، اكتشف أن السويسريين مهتمون بالـــسياحة الفرنـــسية أكثر من اهتمامهم بما كان يحدث في جنيف. وأشار إلى أن الوحيدين الذين كانوا يهتمون بما يجري في جنيف هم الصحفيون الذين أرسلوا إليها لتغطية الحدث. ولُمّح إلى أن الاستثناء من هذه القاعدة هو الصحافي الكولومبـــي غابرييل غارسيا ماركيز[3].

دلف إلى أول فندق صادفه في طريقه وغيَّر ثيابه، ثمّ انطلق لإرسال أول تقرير من خلال *أول أميركان كيبل*، وبعد ذلك اقتنع بإرسال تقاريره عبر البريد الجوي. كانـــت مـــوجة حر شديدة تضرب في ذلك الصيف سويسرا الثلجية، وخاب ظنه لذلك ولسبب آخر، كما تذكر بعد مرور سنوات: "كان العشب الذي أشاهده من خلال نافذة القطار يشبه تماماً العشب الذي كنت أشاهده من خلال نافذة القطار في آراكاتاكا"[4]. لم يكن يتكلم بلغات أجنبية، وكان يفتقر إلى تجربة تحسس طريقه من حوله في البلدان الأجنبية. أسرع يفتش عن مبنى الأمم المتحدة بمساعدة وفّرها له راعي أبرشية ألماني يتكلم الإسبانية. ثم راوده إحساس عظيم بالارتياح عندما التقى أفـــراد فيلق إعلام أميركا اللاتينية بمن فيهم الكاتشاكو المتشامخ خيرمان آرثينيغايس ممثلاً عن صحيفة التيمبو. وكان هؤلاء قد حضروا جميعاً للكتابة عن المفاوضات بين ممثلي القوى العظمى الأربع وهم نيكولاي بولغانين ممثل الاتحاد السوفياتي، وأنطوني إيـــدن ممثل المملكة المتحدة، ودوايت دي. آيزنهاور ممثل الولايات المتحدة، وإدغار فـــوري ممثل فرنسا. وكان إجمالي عدد الصحافيين قد بلغ ألفي صحافي جاؤوا من مختلف أنحاء العالم.

كانـــت الـــدول الأربع الكبرى هي أكثر الدول المشتركة في الحرب الباردة. وكانت كل دولة تتفاوض حول السيطرة على جزء معين من مدينة برلين المهزومة. كما كانت هذه الدول تتمتع بحق النقض في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وتملك أســـلحة نـــووية أو توشك على امتلاكها. كان التفاهم بين هذه الدول أمراً بالغ الأهمـــية إذا ما أُريد للعالم أن ينجو من الحقبة الرهيبة غير المألوفة وهو يحيا في ظل كارثة نووية عالمية بدأت بتدمير هيروشيما ونغازاكي في آب 1945. وهكذا بدأت

الــدول الأربع تلتقي بعض الوقت كلاً على حدة تحت غطاء منظمات مثل الأمم المـتحدة وحلف الناتو أو حلف وارسو الذي سرعان ما سيظهر إلى الوجود. وفي وقت لاحق، وفي أعقاب أزمة السويس عام 1956، ستخسر كل من فرنسا والمملكة المـتحدة القدر الكبير من نفوذهما فتتركز اللعبة على العلاقة بين الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. لكن اللقاءات التي كانت تدور في تلــك المرحلة بين ممثّلي الدول الأربع الكبرى عُدَّت أول نقطة ضوء في حقبة ما بعــد الحــرب العالمــية الثانية – مع توقّعات مستمرة بإمكانية "ذوبان الجليد عن العلاقــات بين الشرق والغرب" – وطبلت لها التقارير الصحافية والتلفازية الغربية وزمرت.

لا بد من أن أول تقرير أرسله غارسيا ماركيز قد أثار خيبة أمل رؤسائه الذين موّلوا رحلته إلى ما وراء المحيط الأطلسي وأربك قراء الصحيفة. فالتقرير الذي نشر بعــنوان جنــيف *غير مبالية بالمؤتمر* ليس هو بالتقرير الجذاب الذي يؤدي إلى بيع الصحيفة. وكانت التقارير الأخرى موازية للتقرير الأول في كونها تناقض اللحظات الحاسمــة في المؤتمر – بل تناقض أيضاً أعمال غارسيا ماركيز نفسه – ومنها تقرير *ممــثّلو الــدول الأربــع الكبرى بالألوان الزاهية الخلابة*، و*زبوني اللطيف آيزنهاور*، و*الأصدقاء الأربعة السعيدون*، و*برج بابل الحقيقي*. غني عن القول إن مؤتمرات ممثّلي الــدول الأربع الكبرى – إذ كان المؤتمر السابق قد عقد في كانون الثاني الماضي في برلين – شغل اهتمامات العالم لأن العالم كان حقاً في حالة من الهلع الحقيقي بسبب المحــرقة النووية. إلا أن غارسيا ماركيز الذي فهم أكثر من معظم الناس حقيقة ما كان يحدث نظراً إلى ثقافته السياسية إبان الأشهر الثمانية عشر المنصرمة عندما كان صــحافياً في بوغوتا، اختزل المؤتمر إلى حدث هوليوودي يكتب عنه كاتب عمود اجتماعــي. بعــد مضي سنوات طويلة نراه كثير السفر ينظر إلى الأحداث بمنظار سياسي – ربما كان آنذاك يطمح إلى ذلك الدور – إلا أنه لم ينخدع بالضجيج ولا بالأوهــام الــساذجة التي تكتنف الدور التضليلي الذي تؤديه الصحافة العالمية في تقاريــرها عن القضايا السياسية. ومع هذا، فقد كانت تقاريره ممتعة عن آيزنهاور وإيــدن وفــوري ناهيك عن زوجاتهم – اللواتي كن يلمعن صورهن مثل نجمات

السينما بمساعدة الصحافة العالمية - لكن هذا النمط من الصحافة لم يكن هو المفضل عند غارسيا ماركيز.

ولما وعى غارسيا ماركيز صعوبات مهمته المادية والثقافية انطلق يبحث عن موقع قدميه الصحافي. وهكذا تظل معظم مقالاته سطحية وفكاهية بإرادته المحضة كأنه رفض أن يأخذها على محمل الجد ما دام لا يستطيع تغطية الأخبار تغطية جادة. وسرعان ما أدرك أنه لن يتمكن خلال إقامته في أوروبا من مواصلة البحث المباشر الذي جعله مشهوراً في كولومبيا، وإنه بالتالي لن يحقق أي سبق صحافي متميز. إلا أنه سيتعلم رويداً رويداً كيفية الاستفادة من ظروفه إلى أقصى حد، وكيف يجعل مادته تبدو أصيلة، وكيف يبحث عن "الجانب الآخر من الأخبار"[5]، وإلى حدٍّ ما كيف يصوغ موضوعاته ليثير بها إعجاب مواطني بلده. وسرعان ما أخذ يعي على نحو متزايد النهج الذي تُعد وتُلفق فيه الأخبار في الدول "المتقدمة". وهكذا لجأ إلى طبخه الصحافي: إذا كانت مقالات حقبة بوغوتا قد أظهرت قدرته على التخيل المستند إلى معلومات وإضافة ليس ما هو مفقود فيها من معلومات وحسب، بل اللمسة الأدبية أيضاً لإبراز نكهتها لتكون جزءاً من المشروع المهني قبل زمن طويل من ظهور *الصحافة الجديدة* في الستينيات من القرن العشرين، فإن هذه المعرفة المهنية التي يحتاج إليها الآن أكثر من أي وقت مضى ستنقذه مراراً وتكراراً. وهذا هو السبب الذي كانت فيه نصوصه منذ البداية تدور حول شخصه، ضمناً وصراحة، مثلما كانت تدور حول أحداث يهدف إلى الكتابة عنها. كما أفصح منذ البداية عن أن الخبر لا يصنعه الأغنياء والمشاهير بمفردهم، بل يصنعه صحافيون يلاحقونهم في كل مكان ويحولونهم إلى *قصص*[6].

كان غارسيا ماركيز في نهاية الأمر مرغماً أكثر مما كان يبوح به، كما أنه كان أكثر توتراً وأكثر رهبة. ربما كان من شأنه أن يغدو صحافياً في بوغوتا، إلاّ أن تلك الصورة كانت تخفي تحتها شخصية لا تزال تتسم بالخجل والوعي الذاتي. وبالرغم من تحمله المشاق كأي مواطن ساحلي، فإن تلك الأسابيع الخمسة التي أمضاها في أوروبا أثرت فيه تأثيراً عميقاً، كما تشير إلى ذلك إشاراته المتكررة إلى التجربة في مقالات كتبها بعد مرور ربع قرن في صحيفة الاسبكتادور. ومن العجب

أن الشيء الوحيد الذي كان يفتقر إليه غارسيا ماركيز افتقاراً واضحاً لدى وصوله إلى أوروبا هو الوعي الأميركي اللاتيني. لقد كان راضياً أكثر مما ينبغي بثقافته الساحلية؛ أكثر من رضاه بثقافته الكولومبية. إلا أنه لم يحوّل بعد هذا الوعي الثقافي إلى شعور قومي بأميركا اللاتينية. إن أكثر شيء سيكتشفه في جنيف وروما وباريس ليس"أوروبا" بل "أميركا اللاتينية"[7]. إلا أن هذا الاكتشاف ظل في أعماقه اكتشافاً متذبذباً ووقتياً، وتعيَّن عليه الرجوع إلى أميركا اللاتينية نفسها ليتبين حقيقة ما توصل إليه في أوروبا.

ومن عجبه، وفرحته أيضاً، أنه تلقى رسالة جوابية من ميرثيديس قبيل مغادرته جنيف. مما لا ريب فيه أن تلك الرسالة غيَّرت من مجمل تفكيره، وإن كان هذا التغيير على قدر كبير من المفارقة والغبطة والارتياح لأنها ربما جعلته يوطد العزم أكثر من ذي قبل على الاستفادة من تجربته الأوروبية ومن حريته المؤقتة الآن. لقد منحته هذه الرابطة الثقة للمضيّ إلى مكان أبعد ولزمن أطول.

بعد الفترة المثيرة التي أمضاها غارسيا ماركيز في جنيف، في أثناء وجود سيرك ممثّلي الدول الأربع الكبرى، سافر إلى إيطاليا إذ كان مقرراً له أن يكتب التقرير عن المعرض السادس عشر للفن السينمائي في البندقية الذي اشتهر باسم مهرجان البندقية السينمائي، وذلك في مطلع شهر أيلول. ومما لا شك فيه أن فكرة الذهاب إلى المهرجان كانت من بنات أفكاره وليست من بنات أفكار رؤسائه في صحيفة الاسبكتادور. ويروي غارسيا ماركيز في ما بعد لأصدقائه أنه أسرع بالسفر إلى إيطاليا لأن صحيفته أبرقت إليه بتعليمات تطلب منه التوجه إلى روما لاحتمال وفاة البابا بالفُواق[8]. على كل حال، كانت إيطاليا تمثل له دائماً غايته الأولى، كما أن أصدقاءه في النادي السينمائي في بوغوتا أعطوه لائحة بعدد من الأهداف والغايات. لكنه كان متشوقاً للسفر إلى روما كي يزور بالدرجة الأولى المدينة السينمائية المشهورة حيث كتب فيها بطله الكبير وكاتب النصوص السينمائية سيزار ثاباتيني معظم نصوصه. أما طموحه السري الثاني فكان يتمثل بالسفر إلى أوروبا الشرقية إذ كان يرغب في أن يكون قادراً على عقد المقارنة بين جانبي الستار الحديدي، الشرق والغرب، بين عالمين متواريين وراء ضجيج ممثّلي الدول الأربع الكبرى. كان

يعرف ما كان يدور في خلده نظرياً عن الرأسمالية والاشتراكية، لكنه كان يريد الآن أن يشاهد ذلك بنفسه على أرض الواقع.

وصل العاصمة الإيطالية في الحادي والثلاثين من تموز وكان الطقس لاهباً مثله في جنيف. فقاده بواب من المحطة إلى فندق قريب يتذكره بعد سنوات بالقول: "كان مبنىً قديماً جداً أُعيد بناؤه بمواد بناء مختلفة وكان ثمة فندق مغاير في كل طابق. نوافذه قريبة من آثار الكولوسيوم حتى إن في وسع المرء مشاهدة آلاف القطط وقد غالبها النعاس على الشرفات من شدة الحر. لكن يمكن أيضاً شم رائحة البول القوية والنتنة المنبعثة من هناك"(9). أما في ما يخص *المدينة الأبدية* نفسها، فإن المراسل الكولومبي الخاص لم يرسل سوى تقريرين في ذلك الوقت، أحدهما عن إجازة البابا بيوس الثاني عشر في كاستيلغاندولفو حيث حضر مقابلات رسمية. وكان التقريران مكتوبين بما يكفي من الاحترام لتطييب خاطر قرائه من الكاثوليك وبما يكفي من التلميح الساخر لبعث السرور في نفوس قراء الصحيفة الأقل التزاماً بالدين والذين يمثلون في نهاية المطاف يسار الوسط الليبرالي. وقد أشار غارسيا ماركيز إشارة شبه خفية إلى أن البابا لا ينبغي له أن يحاول الانضمام إلى عالم مشاهير هوليوود، وهو العالم الذي ينجذب إليه الآن السياسيون، بتزويده وكالات الأخبار بمعلومات عن طوله ومقاس حذائه: إن هذا الرجل الجليل - كما يراد للقراء أن ينظروا إليه - ليس سوى إنسان في نهاية الأمر!

أدرك غارسيا ماركيز وهو يخطط للسفر إلى مناطق في أوروبا الشرقية، حيث لا يمكن له أن يبعث منها بتقاريره، أن عليه أن يكتب شيئاً مهماً كي يحصل على *إجازته* مقدماً. فهو لم يكتب أي شيء عن الوضع السياسي في إيطاليا التي كانت تنتقل من مرحلة فاشية ما قبل الحرب إلى مرحلة الديمقراطية المسيحية في حقبة ما بعد الحرب، ومن مجتمع يغلب عليه الطابع البدوي إلى مجتمع يغلب عليه الطابع الحضري. غير أن موضوع غارسيا ماركيز الكبير الأول كان عبارة عن سلسلة مقالات عن *فضيحة ويلما* مونتيسي التي انهمك في الكتابة عنها طوال شهر آب وأسماها باسم رمزي هو *فضيحة البلاد*. كانت مونتيسي ابنة نجار من مدينة روما في سن الحادية والعشرين، وقد جرى التعتيم على اغتيالها قبل عامين لأسباب لا تزال

غـــير واضحة وقت الكتابة، لكن الواضح أنها ارتبطت بانحطاط الطبقة العليا وفساد جهـــاز الشرطة والاستغلال السياسي (يُعتقد أن القضية ألهمت فيدريكو فيليني في فـــيلمه الأول **لا دولتشي فيتا** في العام 1959). زار غارسيا ماركيز الحي والمنـــزل الـــذي وجـــدت فيه جثتها، وحانتين حيث يمكن لنـــزلاء الحي أن يفيدوه ببعض المعلومات. أما البقية فقد لجأ فيها إلى مصادر أخرى بكفاءة عالية وبدأ بحثه حيثما كان ذلك ممكناً وكتب واحداً من أفضل تحقيقاته الصحافية[10]. وأوضحت صحيفة الاسبكتادور عن هذه السلسلة من المقالات مشيرة إلى "أن غارسيا ماركيز اكتشف بعد مرور شهر من زياراته المناطق التي حدثت فيها الجريمة أدق التفاصيل عن مقتل ويلما مونتيسي والمحاكمة التي أعقبتها"[11].

أدرك غارسيا ماركيز أن هناك شيئاً آخر غير قضية التفاصيل وأسرار التحري ويتمثل بالزمان والمكان والقصة التي بشّرت بالمستقبل: وهو ما أطلق عليه أحد النقاد في ميدان الثقافة في ما بعد "نقطة التقاطع بين السينما وتصوير الصحافيين المتطفلين وصـــحف التابلويد الشعبية والأنثوية والسياسية"[12]. كان مسعاه يتمثل باكتشاف أي صـــلة ضـــرورية بـــين الأسلوب الواقعي الجديد في النمسا وتقدم الجماليات الاشتراكية، وهو ما كان يعتقد به الأنصار الإيطاليون. لقد لّمح غارسيا ماركيز قبل زمن طويل من ظهور التحليلات المؤثرة التي طرحها الناقد السينمائي أندريه بازان، إلى أن الأفـــلام الإيطالية في تلك الحقبة كانت ضرباً من "إعادة صياغة تحقيق" مع "تمـــسك طبيعـــي بالواقعية"، مما جعل السينما الوطنية الإيطالية "نمطاً من نـــزعة إنسانية راديكالية"[13]. كما لّمح في تقاريره السينمائية في بوغوتا إلى مثل هذا الأمر. ولعلـــه فكّـــر أيـــضاً من خلال رفع الغشاوة التي فرضتها هوليوود في أن السينما والـــصحافة الإيطالية في حقبة ما بعد الحرب تطرحان مقترباً جديداً يمتاز بنقد أكبر للمـــشاهير – ستوفر هذه المعلومة حماية لا تقدر بثمن لغارسيا ماركيز عندما تطبق شـــهرته الآفـــاق – لكن مما ينذر بالشؤم هو أن أولئك الذين لم تصبهم الشهرة في النصف الثاني من القرن العشرين بدأوا يتخيلون أنفسهم وكأنهم حاضرون دوماً أمام عدســـات التـــصوير، ومعرضون باستمرار لخطر الفضيحة أو سوء التمثيل أو حتى الخـــيانة. ولم يـــصل إلا عدد قليل من الناس في تلك المرحلة من اللعبة الحاسمة إلى

الاستنتاج بعدم وجود واقعية جوهرية أو حقيقة لنقلها في المقام الأول. وهذا مما سيُترك لمنظّري ما بعد الحداثة بالرغم من أن غارسيا ماركيز سيكون حاضراً لدى وصولهم.

ما إن أرسل غارسيا ماركيز تقاريره عن مونتيسي للنشر بين السابع عشر والثلاثين من أيلول حتى سافر إلى البندقية للاشتراك في مهرجان الأشرطة السينمائية السنوي السادس عشر هناك. لقد حلّ الشتاء مبكراً في البندقية وحلّ معه الأوروبيون الشرقيون للمرة الأولى منذ الحرب. أمضى غارسيا ماركيز بضعة أيام يتعرف إلى الأشرطة السينمائية ليلاً ونهاراً ويقوم بين حين وآخر بنزهات إلى ضواحي البندقية حيث شهد غرابة أطوار الإيطاليين والهوة الواسعة بين الأغنياء والفقراء؛ الفقراء الإيطاليين "الذين يخسرون دائماً ولكنهم يخسرون بأسلوب مرح مغاير"[14]. ذكرّته تلك الهوة بسكان أميركا اللاتينية مما جعله يخصص شطراً أعظم من حياته لجعلهم في حال وعي أكبر وقناعة أشد بما هم عليه. بعد مرور سنوات يضيف قائلاً إن الإيطاليين "ليس لديهم هدف آخر سوى الحياة" لأنهم "اكتشفوا منذ عهد بعيد أن هناك حياة واحدة ليس إلا، وقد جعلهم ذلك اليقين أكثر تحسساً تجاه القسوة"[15].

وكما هو ديدنه في التقارير التي بعث بها من جنيف فقد استفاد استفادة قصوى من وضعه بإرسال مقالاته لا عن السينما وحدها وحسب، بل وعن قضايا تتميز بسطحية أكبر أيضاً مثل مقالة عن النجوم الذين حضروا والذين لم يحضروا، وعبّر عن خيبة أمله من أولئك الذين حضروا وبخاصة هيدي لامار التي خبت جاذبيتها والتي أشعلت المشاعر ذات يوم في البندقية بعُريها في الشريط السينمائي **النشوة**، وعبر عن ازدرائه للنفاق الجنسي لصوفيا لورين لظهورها كل يوم على شاطئ البحر بثياب سباحة مختلفة، كما أفصح عن تشككه بآنوك إيميه التي قدمت نفسها نجمة سينمائية لكنها لم تتصرف وفق هذه الصفة. بالرغم من أن شريط كارل تيودور دراير **الكلمة** استحق عن جدارة الجائزة الأولى، فإن المخرج الذي تحمس لغارسيا ماركيز الحماسة كلّها كان إيطالياً شاباً أظهر في العام 1955 فرانسيسكو روزي، ذا شعر أشعث في التاسعة والعشرين، له وجه لاعب كرة قدم،

وقــف وقدّم الشكر، مثل لاعب كرة قدم أيضاً، لأعظم وقفة تقدير واحترام يقفها الجمهــور في دار الـــسينما، وكان أحد أشرطته السينمائية في العام 1955 بعنوان Amici per la Pelle[16].

اســتقل غارســيا ماركيــز القطار في مدينة تريستا ووصل فيينا في الحادي والعشرين من شهر أيلول عام 1955 وذلك بعد مرور شهرين على رحيل آخر جنود الاحتلال وقبل شهرين من إعادة افتتاح أوبرا فيينا. تظاهر بأن رحلته انتهت في فيينا وبقــي فيها خلال شهر تشرين الأول و لم يكتب سوى ثلاث مقالات عن المدينة نــشرت في الثالث عشر والعشرين والسابع والعشرين من شهر تشرين الثاني[17]. ومرت أربع سنوات أدرك بعدها أن عدم نشر أي تقارير عن بقية الرحلة كان أمراً حكيماً.

وكما هو شأن الناس في تلك الأيام، فقد وجد غارسيا ماركيز استحالة فصل فيينــا عــن شريط كارول ريد السينمائي **الرجل الثالث** الذي كتب نصه غراهام غرين. ودأب على زيارة مواقع تصوير الشريط الخرافية. وفي فيينا أيضاً زعم في ما بعد أنه التقى فراو روبيرتا التي سمت نفسها في ما بعد باسم فراو فريدا، وهي مواطنة كولومبية وعرّافة كسبت قوتها في العاصمة النمساوية من خلال "وهب نفسها لدنيا الخيال"[18]. ولما أخبرته العرافة في إحدى الأمسيات على نهر الدانوب وتحت ضوء القمــر أنها حلمت به ويتعين عليه مغادرة فيينا على الفور، هرع الصبــي المعتقد بالخرافات القادم من آراكاتاكا واستقل القطار وغادر المدينة[19]. ولم يذكر لقرائه أن القطار المقصود سافر به إلى ما وراء الستار الحديدي.

وهكذا واصل غارسيا ماركيز سفره من النمسا إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا. وكــان قــد تمكن من الحصول على دعوة لحضور مؤتمر السينما الدولي في وارسو خلال حضوره مهرجان البندقية السينمائي. لكن لم ينشر غارسيا ماركيز أي تقرير عن هذين البلدين على المدى السنوات الأربع التالية، لهذا لا يمكننا التأكد من توقيت نــشرها، وهــو ما لا يتذكره، ولا من انطباعاته الأولية، وهي التي كانت يومذاك انطــباعات محدثــة وممتزجة بمقالات عن عودته القصيرة لأكثر من مرة إلى ذينك البلدين في صيف العام 1957 عندما توجه إلى موسكو وهنغاريا التي نشر عنها تقريراً

عابـــراً في تشرين الثاني عام 1957. لكن تقاريره عن رحلته الأولى في العام 1957 نشرت أخيراً في صحيفة كروموس في بوغوتا في شهر آب عام 1959 وكان آنذاك يعمل لمصلحة الثورة الكوبية و لم يهتم بإخفاء مكانه. لكنه لم يقر بالرحلة التي قام بها بمفرده في العام 1955. ولما نشر مقالاته أخيراً عن تشيكوسلوفاكيا وبولندا، فإنه كان قد أدرجها ضمن رحلته التالية إلى أوروبا الشرقية برفقة آخرين في العام 1957[20].

في ضـــوء طَمسِ كلٍّ هذه الأشياء، وكل هذا التلاعب، يصعب وضع دليل واضـــح أو حتى التوقّع بشأن تطور وعي غارسيا ماركيز السياسي. إلا أن الشيء الـــذي نقدر حقاً على استنتاجه هو أنه منذ البداية شهد تناقضاً. لقد كانت براغ مدينة رائعة، على سجيتها، كل ما فيها يوحي بأنها تشبه أي عاصمة أوروبية غربية. بـــيد أن السكان كانوا يفتقدون على ما يبدو إلى الاهتمام بالسياسة. أما بولندا التي كانـــت لا تزال تعيش في حقبة ما قبل غومولكا، فقد كانت غير متطورة إلى حدٍّ بعـــيد، لا تـــزال ندوب المحرقة النازية ظاهرة في كل مكان، لكن البولنديين كانوا بالـــرغم من ذلك أكثر نشاطاً في السياسة وكانوا قراءً متحمسين للقراءة على نحو يدعـــو للعجـــب، كما أنهم تمكنوا من التوفيق بين الشيوعية والكاثوليكية بأسلوب تحاول أي دولة شيوعية أخرى أن تجرِّبه. ويتذكر غارسيا ماركيز بعد أربعة أعوام أن البولنديين كانوا من أشد *الديمقراطيين* الاشتراكيين عداءً للروس. من جهة ثانية نراه يستعمل نعوتاً معيبة مثل: "هستيريون"، و"معقدون"، و"صعاب المراس" ويذكر أيضاً أن البولنديين يتمتعون "بحساسية فائقة تشبه حساسية الإناث"، بمعنى "أنك لا تعرف مـــا يـــريدون"[21]. ولم تـــرقه كـــراكاو لما تصوره فيها من طبع محافظ موروث وكاثوليكية منكفئة. أما زيارته إلى أوشفيتز فيصفها وصفاً آسراً إذ يقول:

> **ثمة قاعة تحتوي على صناديق زجاجية كبيرة الحجم ممتلئة بشعر البشر، وقاعة مملوءة بأحذية وملابس ومناديل طرّزت عليها يدوياً الأحرف الأولى من اسم صـــاحبها. ولا تزال حقائب السجناء الذين أدخلوا إلى ذلك الفندق الجنوني تحمـــل أسماء فنادق السياح. ثمة حقيبة مملوءة بأحذية أطفال بكعوب معدنية بالـــية: أحذيـــة ثقيلة بيضاء صغيرة الحجم تنتعل عند الذهاب إلى المدرسة، وآلات توســـيع الأحذيـــة التي كانت لأولئك الذين قُدر لهم أن ينجوا من الـــشلل الـــولادي قبيل وفاتهم في معسكر الاعتقال. ثمة حجرة فسيحة جداً**

تحتوي على أدوات للجراحة الترقيعية وآلاف النظارات، والأسنان الاصطناعية، والعيون الزجاجية، والسيقان الخشبية، والقفازات الصوفية لأياد مفقودة، وكل الأدوات الأخرى التي ابتكرها العقل البشري لتقويم الجنسٍ البشري. ابتعدت عن الجماعة ومشيت صامتاً في القاعة. كنت أكظم غيظي لأنني أردت أن أبكي[22].

على العكس من هذا، يتصف سرده عن لامعقولية البيروقراطية الشيوعية عند النقاط الحدودية بالمرح والجذل.

في أواخر شهر تشرين الأول قفل راجعاً إلى روما وأرسل ثلاث مقالات عن فيينا، وأربع مقالات عن البابا، وثلاث مقالات أخرى عن التنافس بين صوفيا لورين وجينا لولو بريجيدا. ومما يثير الانتباه أنه أشار إلى أن لولو بريجيدا الأقل موهبة، كما هو واضح، من لورين، تملك صورة أكثر جاذبية بصرف النظر عن المعركة بين "الإحصائيات بالغة الأهمية" لكلتيهما. إلا أنه توقع أنها ستنتصر في نهاية الأمر عندما تدرك أن "صوفيا لورين فريدة لا تقدر بثمن"[23]. ثم انتقل إلى نُزل في باربولي مع مغنٍّ كولومبي اسمه رافائيل ريبيرو سيلفا، وكان هذا يعيش في روما منذ ستة أعوام وينحدر، شأنه شأن غارسيا ماركيز، من أسرة فقيرة وفي مثل سنّه أيضاً، وكان رجلاً شق طريقه وسط العزيمة والتضحيات حيث ظل يعيش ويمارس الغناء، على حدّ تعبير غارسيا ماركيز، في حين كان الآخرون يتسكعون في البلدة[24].

عمل ريبيرو سيلفا لبضعة أسابيع مترجماً ودليلاً بصفة غير رسمية، وفي الأصل كان الاثنان يستعيران دراجة بخارية يطوفان بها في أرجاء المدينة. كانت متعتهم المفضلة مراقبة بنات الهوى في فيلا بورجيس وهن يزاولن حرفتهن عند هبوط الليل. يقول غارسيا ماركيز عن أجمل الذكريات التي منحه إيّاها ريبيرو سيلفا عن العاصمة الإيطالية بعد أن ألهمته تلك الهواية البريئة: "بعد الغداء، وفي حين كانت روما تغطّ في نومها، كنا نستقل دراجة الفسبا لمشاهدة الغانيات الصغيرات وهن مرتديات ثياباً من الموسلين الأزرق الشفاف أو القطن الوردي أو الكتان الأخضر. في بعض الأحيان كنا نلتقي بواحدة منهن فتدعونا لتناول المثلجات. وفي يوم ما لم أذهب إذ غلبني النعاس بعد طعام الغداء، ولكنني استيقظت على صوت طرقات حيِّة على الباب. وعندما فتحت الباب وأنا نصف نائم، شاهدت في ظلمة الممر خيالاً من

صـــنع الهذيان، فتاة عارية، غاية في الجمال، استحمت وتعطرت قبل مجيئها وغطت جـــسدها كلـــه بالـــبودرة. وقالـــت بصوت رقيق جداً: *مساء الخير، لقد أرسلني المغني*[25].

بدأ غارسيا ماركيز بعد وصوله مباشرة بأول اتصال له بمجمع التصوير الهائل سينيـــسيتا جنوب شرقي روما الذي كان بحق أكبر مصنع للأفلام في العالم أجمع، وكـــان غارســـيا ماركيـــز مهتماً بدراسة صناعة السينما هناك في مركز الأشرطة الـــسينمائية التجريبية. لم تكن هناك دورات تعليمية في ذلك الوقت لكنه تمكن من مقابلة الإيطاليين والأميركيين اللاتينيين كالأرجنتيني فيرناندو بيري، وهو منفي هرب من نظام بيرون وبات صديقاً وشريكاً مهماً في المستقبل شأنه شأن غيره من صنّاع السينما الأميركيين اللاتينيين الذين درسوا في روما إبان تلك الحقبة من أمثال توماس غوثييريث آليا وخوليو غارسيا اسبينوسا الكوبيين. رحب بيري بالشاب ذي القبعة الجديـــدة والمعطف كبير الحجم وصحبه عائداً إلى شقته في بيازا دي سباغنا ودعاه للشراب في مقهى دي سباغنا وبدأت بينهما صداقة طويلة ومثمرة.

الـــتحق غارســـيا ماركيـــز بدورة في الإخراج السينمائي في مركز الأشرطة الـــسينمائية التجريبية. ومما لا يدعو للعجب أن اهتمامه الأساسي كان ينصبّ على كتابة النص السينمائي، وهو السبب الذي جعل من سيزار ثاباتيني، كاتب نصوص دي ســـيكا الـــسينمائية، واحداً من النماذج التي أعجب بها غارسيا ماركيز إذ هو الـــذي سيتحمس لسينما ذلك العصر ويضفي عليها مسحة غير مسبوقة من البعد الإنساني"[26]. ويبدي غارسيا ماركيز ملاحظة عن تلك الفترة وهو يتذكرها قائلاً: "لا يمكنك أن تتخيل اليوم ما الذي كان يعنيه لجيلنا ظهور الواقعية الجديدة في مطلع الخمـــسينيات مـــن القرن العشرين. لقد ابتكرت السينما من جديد. فقد شاهدنا أشـــرطة ســـينمائية مـــن زمن الحرب أو أشرطة حققها مارسيل كارنيه وغيره من المخـــرجين الفرنـــسيين، فدشنت بذلك اتجاهاً فنياً. ثم هبطت الواقعية الجديدة من إيطاليا وكانت أشرطتها مصنوعة من خامات مرفوضة ومثّل فيها ممثلون قيل إنهم لم يشاهدوا آلة تصوير في حياتهم. كان كل شيء يبدو وكأنه صنع في الشارع. وكان يستحيل معرفة الأسلوب الذي دُمجت فيه المشاهد واللقطات، واحتفظ فيه بالإيقاع

والنـــبرة. أما بالنسبة إلينا نحن، فكان الأمر عملاً استثنائياً[27]. لا بد من أن الواقعية الجديـــدة كانت تحظى بإعجاب في إيطاليا أقل من ذلك الإعجاب الذي حظيت به خارجهـــا، ويرجع السبب إلى حدٍّ ما إلى أنها كانت تظهر أوجهاً من البلاد أرادت إيطاليا في حقبة ما بعد الحرب أن تنفضها عن كاهلها. ويقول إن الشريط السينمائي معجـــزة في مـــيلانو (1952) الذي شاهده مرة أخرى برفقة فيرناندو بيري في عام 1955 والـــذي صـــنعه كـــل من دي سيكا وثاباتيني وفيليني، وهو الذي دفعه إلى الاعـــتقاد أن السينما يمكن أن تغير العالم لأنه شعر هو وبيري أن الواقع نفسه تغير عندما غادرا دار العرض السينمائي. لقد كان مجمع تصوير سينيسيتا الذي كان في أوجـــه يـــومذاك يوشك أن يوفر الستارة الخلفية لعلم فيليني، وهو صانع الأشرطة السينمائية الذي يشاء أن يبتعد عن جماليات الواقعية الجديدة التي كانت تهيمن آنذاك على المشهد ويتجه نحو ضرب من "الواقعية الأخّاذة" لا تختلف عن الأسلوب الذي سيعجب في ما بعد غارسيا ماركيز نفسه[28].

تبين أن كتابة النص السينمائي في مركز الأشرطة السينمائية التجريبية ليست ســـوى جـــزء ثانوي من منهاج أكبر في مادة الإخراج السينمائي. ولعله كان أمراً متوقعاً أن يشعر غارسيا ماركيز بالسأم منذ البداية تقريباً، باستثناء الأوقات التي كان يحـــضر فيها محاضرات دوتوريسا روسادو في مادة المونتاج التي أصرَّ على أنها تمثل "النحو السينمائي". الحق أن غارسيا ماركيز لم يكن مولعاً كثيراً بأي نوع من أنواع التعلـــيم الرسمي، ولو لم يكن مُجبراً على الالتحاق بتلك الدورة لابتعد عنها. لكنه ابـــتعد عن سينيسيتا (بالرغم من قوله بعد ذلك بسنوات إنه أمضى بضعة – بل تسعة – أشـــهر فيها) لكن عندما جاء صديقه غييرمو أنخولو في وقت لاحق بحثاً عنه، تذكرت دوتوريـــسا روسادو أن غارسيا ماركيز كان واحداً من أفضل طلابها، على حين كان طالـــباً كسولاً على وجه العموم[29]. وبعد مرور سنوات تتولى الدهشة عدداً كبيراً من الناس وهم يكتشفون أن غارسيا ماركيز كان يفهم فهماً عميقاً الجوانب الفنية في صناعة الأشرطة السينمائية وهو ما تعلمه في سينيسيتا بالرغم من معارضته.

وكما نراه غالباً في المستقبل، فإنه ظل يهوى السينما، لكنه يتساءل إن كانت الـــسينما تهواه، ولم يخب ظنه بثاباتيني وكانت له وجهة نظر شخصية بهذا العبقري

تحديـــداً: "إنني طفل من أطفال ثاباتيني، إذ جعلنا الأحاسيس أكثر أهمية من المبادئ العقلـــية"[30]. إن هذا المفهوم سيساعد غارسيا ماركيز على مقاومة الهجمات التي ســـيتعين علـــيه مواجهتها من "الواقعيين الاشتراكيين" في مجالي الأدب والسينما في الـــسنوات التالية لا سيما في كوبا. وهذا ما جعل إقامته القصيرة في إيطاليا، وتعرّفه الوجيز إلى سينيسيتا جديرين بالاهتمام.

عـــندما يشعر أحد أبناء أميركا اللاتينية بالسأم وهو في أوروبا ولا يدري ما علـــيه فعله، فإنه يستقل القطار إلى باريس. لم تكن هذه بغية غارسيا ماركيز، لكن هذا هو ما أقدم عليه فيما كانت الأيام الأخيرة من العام 1955 توشك على نهايتها. ومـــن المفارقة أنه عندما حاول الانتقال إلى ميدان آخر، وهو السينما، وجد نفسه وقد عاد مرة أخرى إلى الأدب؛ ناهيك عن هوسه الكاسح بكولومبيا. كان منشغل البال بكتابة رواية، رواية واقعية جديدة، مصدر الإلهام السينمائي فيها مدينة روما، لكن يشاء القدر أن يكتبها في أجواء باريس الأدبية. وصل القطار بعد منتصف ليلة ماطـــرة قـــبل وقت قصير من حلول فترة الميلاد واستقل سيارة أجرة وكانت أول صورة تلوح أمام عينيه هي صورة غانية تقف تحت مظلة برتقالية عند ناصية شارع بالقرب من المحطة[31].

كان يفترض بسيارة الأجرة أن تقله إلى *فندق إكسيلسيور* الذي اقترحه عليه الشاعر خورخه غايتان ديوران، لكن المطاف انتهى به إلى نُزل *التحالف الفرنسي* في شارع راسابييل. ويشاء القدر أن يمكث في باريس زهاء السنتين تقريباً.

-10-

جائع في باريس: *البوهيمية*

1957-1956

مـــن يعرف الشيء الذي كان يبحث عنه غارسيا ماركيز وهو يشق طريقه صـــوب العاصمة الفرنسية في كانون الأول عام 1955؟ إن كل من يعرفه لا بد من أن يخمن أن إيطاليا بلد مناسب للفتى الساحلي القادم من كولومبيا - على المستويين الاجتماعـــي والثقافي - وأكثر من ذلك، فهي البلد الشمالي الأكثر برودة والأكثر اعتداداً والأكثر نـــزوعاً للاستعمار، والأكثر انتقاداً والأكثر التصاقاً بديكارت. لقد كـــان موقفه من أوروبا عموماً، ومنذ البداية، أنه ليس لديها ما تعلمه إيّاه أكثر مما تعلمه أصلاً من الكتب أو الرسائل الإخبارية. يبدو الأمر وكأنه أراد أن يأتي إلى هنا ليراهـــا متعفنة، تفوح منها رائحة الكرنب المغلي، كما قد يقول قائل، بدلاً من أن تنبعث منها رائحة الغوافة المدارية الأثيرة على فؤاده وأحاسيسه. لكن ها هو الآن في باريس على كل حال[1].

انـــتقل من النُزل إلى فندق رخيص كان يفضله المسافرون من أميركا اللاتينية وهـــو فـــندق الفلاندر الكائن في شارع كوجاس رقم 16 في الحي اللاتيني، وكان يديـــره المونسنيور ومدام لاكروا. وقبالة هذا الفندق كان يقع فندق آخر تبدو عليه مظاهـــر الثـــراء والتـــرف وهو فندق سان ميشيل الكبير الذي كان يفضله أيضاً القادمون من أميركا اللاتينية[2]. وكان من بين الذين أقاموا فيه إقامة طويلة الشاعر الكوبـــي الكبير ذو الأصل الأفريقي وعضو الحزب الشيوعي نيكولاس غيَّان، وهو واحـــد من عدد كبير من كتاب أميركا اللاتينية المنفيين إبان تلك الحقبة من حكم الدكـــتاتوريين: أُودريـــا في بيرو (1948-1956)، وسوموزا في نيكاراغوا (1936-

1956)، وكاستيلو أراماس في غواتيمالا (1954-1957)، وتروخيلو في جمهورية الدومنيكان (1930-1961)، وباتيستا في كوبا (1952-1958)، وبيريث خيمينيث في فنزويلا (1952-1958)، وحتى روخاس بينيًا في كولومبيا (1953-1957). كانت المنطقة تهيمن عليها ثقافياً السوربون بالرغم من أن مبنى البانتيون القريب كان يشكل بضمانته المبنى النموذجي المعماري الأكثر مهابة.

وعلى الفور تقريباً اتصل غارسيا ماركيز ببلينيو أبوليو ميندوثا الذي سبق له أن عرفه لفترة قصيرة من الزمان في بوغوتا قبل انتفاضة شهر نيسان من العام 1948. كان ميندوثا أصغر سناً، شاباً جاداً وإن دعيّاً، تبعثرت أفكاره السياسية عن العالم وتحطمت إثر هزيمة والده السياسية ونفيه في الأشهر التي أعقبت اغتيال غايتان. كان يميل نحو الاشتراكية الراديكالية، وكان قد قطع شوطاً في الطريق كي يصبح رفيقاً جوالاً في الحركة الشيوعية العالمية. كما كان قد اطلع على نشر رواية **عاصفة الأوراق** لغارسيا ماركيز من خلال الصحافة البوغوتية. "افترض من صورته ومن العنوان أنه لا بد من أن يكون روائياً رديئاً"[3]. وكان عشية الميلاد في العام 1955 في حانة الكأس الباريسية في الحي اللاتيني مع صديقين كولومبيين عندما دلف غارسيا ماركيز مرتدياً معطفه الصوفي الثقيل في عصر ذلك اليوم الشتائي. وذهل ميندوثا وصديقاه لرؤية القادم الجديد الذي بدا متشامخاً ومغروراً خلال أول حديث لهم عن الأدب والصحافة والحياة وكأن الأشهر الثمانية عشر التي أمضاها في بوغوتا حولته إلى كاتشاكو نموذجي، إذ زعم أنه لم تعجبه أوروبا تماماً، وبدا مهتماً بنفسه لا أكثر. لقد نشر رواية واحدة ولم تنبعث فيه الحيوية والنشاط إلا عندما بدأ بالحديث عن تطور الكتابة في روايته الثانية.

وكما حدث حقاً، فقد وجد غارسيا ماركيز في بلينيو ميندوثا أفضل صديق من أصدقاء المستقبل بالرغم من أنه لم يكن أكثرهم ثباتاً. وبما أن ميندوثا سيتعرف إلى غارسيا ماركيز على نحو أفضل من أي شخص آخر تقريباً، وبما أنه كان أقل تقيداً من الآخرين باعتبارات التقدير والذوق التقليدية فإنه سيصبح، ويا للمفارقة، واحداً من أكثر الشهود الثقاة على حياة غارسيا ماركيز وتطوره. وبالرغم من انطباع ميندوثا السلبي الأول، فإنه دعا القادم الجديد إلى عشاء ليلة الميلاد يقيمه

المعماري الكولومبـــي القادم من بلدة إنتوكيا هيرنان فيكو وزوجته الأميركية ذات العينين الزرقاوين في شقتهما في شارع غينيغو على ضفاف نهر السين. وهناك تناول الكولومبيون المجتمعون، مهاجرون ومنفيون، اللحم المشوي وسلطة الهندباء وكميات كبيرة من الشراب، ثم أمسك غارسيا ماركيز بالقيثارة وغنى أغاني الفاليناتو وكانت مـــن تألــيف صـــديقه إيـــسكالونا، مما حسن من الانطباع الأول الذي تكوّن عند الكولومبيين، لكن المضيف ظل يشكو لبلينيو من أن القادم الجديد "رجل فظيع" لا يبدو عليه أنه معتدّ بنفسه وحسب، بل عمل أيضاً على إطفاء عقب سجائره بنعل حذائه[4].

وبعد ثلاثة أيام التقى الرجلان مرة أخرى وذلك بعد أن تساقط الثلج للمرة الأولى في ذلك الشتاء. ولما كان غارسيا ماركيز ابن المنطقة المدارية فقد رقص على امتداد شـــارع سان ميشيل ومنه إلى ساحة لوكسمبورغ. وسرعان ما ذاب تحفظ ميندوثا مثل ذوبان نتف الثلج البراقة على معطف غارسيا ماركيز الصوفي الثقيل.

أمضيا معظم كانون الثاني وشباط من العام 1956 معاً قبل أن يعود ميندوثا إلى كاراكـــاس حـــيث كان يقطن معظم أفراد أسرته آنذاك. كان الصديقان الجديدان يمضيان الوقت في تلك الأسابيع الأولى في الأماكن المفضلة التي كان يرتادها ميندوثا حول السوربون ومقهى كابولاد في شارع سوفلو أو الأكروبول، وهو مطعم يوناني مـــدهش وجـــباته زهيدة الثمن، يقع في نهاية شارع كلية الطب. وإذا كان بعض معـــارف غارسيا ماركيز قد وصفوه في تلك الفترة ربما وصفاً قاسياً فقالوا إنه غير جذاب، فإن بلينيو ميندوثا وُصف بذلك الوصف بالدرجة نفسها أو أكثر. زد على ذلك أن رد فعل بعض الكولومبيين كان يتسم باللامبالاة لدى سماعهم اسمه للوهلة الأولى؛ فقـــد كان معروفاً في جميع أرجاء كولومبيا بالاسم بلينيو، تماماً مثلما كان غارســـيا ماركيـــز معروفاً بالاسم غابيتو. وكان الكثيرون يعدونه مراوغاً، ونتاجاً نموذجياً للأراضي المرتفعة في مسقط رأسه بوياكا. لكن ما من أحد ينكر أنه صحافي ومجادل ألمعي. كان شخصاً لا يمكن توقّع دواخله، مشبوب العاطفة، ومرحاً أيضاً، يتمتع بالسخرية الذاتية (وهو أمر نادر)، كريماً ومتحمساً.

في أواخـــر الأســـبوع الأول من شهر كانون الثاني جلس الصديقان في أحد المقاهـــي في شـــارع المـــدارس (ديزيكول) يقرآن في صحيفة اللوموند، وإذا هما

يكتشفان أن روخاس بينيًا أغلق أخيراً صحيفة الاسبكتادور بسبب عاملين اثنين هما الرقابة والتهديد المباشر (وكانت صحيفة التيمبو قد أغلقت قبلها ولمدة خمسة أشهر). يستذكر ميندوثا أن غارسيا ماركيز قلل من شأن الحدث: "ليس الأمر خطيراً، وهذا يشبه ما يفعله مصارعو الثيران بعد أن يجرحهم قرن الثور". لكن الأمر كان خطيراً بحسب ميندوثا[5]. فقد غُرِّمت الصحيفة من قبل بمبلغ مقداره ستمئة ألف بيزوس وذلك في بداية الشهر. والآن أغلقت نهائياً. وهكذا توقف مجيء الشيكات إلى غارسيا ماركيز و لم يعد قادراً في بداية شباط على دفع أجرة غرفته في فندق الفلاندر. وسمحت له السيدة الطيبة مدام لاكروا أن يدفع الإيجار حين يتوافر معه. واستناداً إلى إحدى روايات غارسيا ماركيز. فإن مدام لاكروا راحت تنقله أعلى فأعلى ورويداً رويداً في ذلك المبنى حتى انتهى به المطاف إلى غرفة بلا تدفئة في الطابق السابع وزعمت أنها نسيت أمره[6]. وقد وجده أصدقاؤه على تلك الحال يكتب وهو يضع قفازات في يديه ويعتمر قبعة صوفية.

كان غارسيا ماركيز قد بدأ يدبر معيشته بالرغم من قلة موارده حتى قبل أن يصله الخبر المزعج بإغلاق مكتب صحيفة الاسبكتادور، وتملك ميندوثا الذهول بسبب قلة المال الذي أتى به معه من كولومبيا. وهنا عرَّف ماركيز بنيكولاس غيَّان وبناشط شيوعي آخر وهو الروائي والصحافي الفنزويلي الثري ميغيل أوتيرو سيلفا الذي أسس مع أبيه صحيفة مهمة في كاراكاس هي الناسيونال سنة 1943. وكان الثلاثة قد التقوا في حانة في شارع كوجاس في الأيام التي سبقت مغادرة ميندوثا إلى فنزويلا ودعاهما أوتيرو لتناول الطعام في حانة ومطعم قدم الخنزير قرب سوق الخضار. وبعد مرور سنوات أصبحا فيها صديقين، لم يتذكر أوتيرو سيلفا الشاب الكولومبي الشاحب والنحيل والذي كان يصغي بكل اهتمام إلى تشخيص الشيوعي للأوضاع في فرنسا وأميركا اللاتينية وهو يلتهم طعامه المجاني الذي وفرته العناية الإلهية[7]. كان أوتيرو سيلفا وغيَّان قد تناهت إلى مسامعهما حينذاك إدانة خروتشوف القوية لستالين في الخامس والعشرين من شهر شباط عندما أوشك المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي أن ينهي أعماله. وتولاهما القلق من سياسة التعايش التي أُعلنت مؤخراً لأنها سياسة انهزامية في رأيهما وفكّرا بقلق في مستقبل الحركة الشيوعية العالمية[8].

يبدو أن غيَّان سيغدو بطلاً لإحدى حكايات غارسيا ماركيز المفضلة عن حقبة باريس: "الزمان هو الزمان الذي كان يحكم فيه بيرون في الأرجنتين، وأُودريا في بيرو، وروخاس بينيًّا في بلادي؛ إنه زمن سوموزا وباتيستا وتروخيلو وبيريث خيمينيث وستروسنر. كانت أميركا اللاتينية معبدة بالدكتاتوريين. كان نيكولاس غيَّان قد اعتاد على النهوض باكراً عند الخامسة صباحاً ليقرأ الصحف وهو يحتسي فنجان قهوة. ثم يفتح النافذة ويصرخ ليصل صوته إلى كلا الفندقين المحتشدين بالأميركيين اللاتينين وكأنه في ساحة دار في كاما غوي. وفي يوم ما فتح نافذته وقال: *لقد سقط الرجل*! وهنا خُيِّل لكل واحد – من أهالي الأرجنتين والبارغواي والدومنيكان وبيرو – أن رئيسهم هو الذي سقط. وقد سمعت صوته بدوري وقلت: *اللعنة! لقد ذهب روخاس بينيًّا*! لكنه أخبرني لاحقاً أن بيرون هو الذي سقط"(9).

في الخامس عشر من شباط عام 1956 صدرت صحيفة أخرى بعنوان الأندبندنت لتحل محل الاسبكتادور التي أغلقت قبل ستة أسابيع. وتولى رئاسة التحرير الرئيس الليبرالي السابق ألبيرتو ييراس كامارغو الذي شغل سابقاً منصب سكرتير منظمة الدول الأميركية. وأخيراً، وبعد بضعة أسابيع شاقة وقلقة جداً، تنفس غارسيا ماركيز الصعداء. وعندما رحل بلينيو ميندوثا متوجهاً إلى كاراكاس في نهاية الشهر شعر بالارتياح لأن صديقه الجديد عاد ليقف على قدميه من جديد ويشعر بالأمان. بعد مرور ثلاثة أشهر تقريباً، ظهرت أول مقالة لغارسيا ماركيز في الصحيفة الجديدة وذلك في الثامن عشر من شهر آذار. وأرسل تقريراً من سبع عشرة حلقة – زهاء المئة صفحة عندما أعيد طبعه في كتاب – عن محاكمة أولئك المتهمين في فضيحة التجسس الأخيرة عندما نُقلت أسرار الحكومة الفرنسية إلى الشيوعيين إبان الأشهر الأخيرة من حكم فرنسا في فيتنام. وهكذا، وفي الثاني عشر من آذار سنة 1956، أعلنت الأندبندنت في صفحتها الأولى: "مبعوث الأندبندنت الخاص يسافر لحضور أكثر المحاكمات إثارة في القرن"، (مما لا يدعو للكثير من الدهشة أن غارسيا ماركيز سيشتهر لاحقاً ببلاغته). لكن بالرغم من الجهد المبذول في هذه السلسلة من المقالات، فإن إغلاق صحيفة الأندبندنت في الخامس عشر من

نيسان سيعني أن غارسيا ماركيز لن يتمكن من سرد ذروة المحاكمة مما جعل القراء في حيرة من تقريره الذي رأوا أنه لا يمثل قمة جهوده في كتابة الحلقات ولا أفضلها من حيث السرد. على كل حال، وبالرغم من أن غارسيا ماركيز لم يعرف حقيقة الأمـــر، فإنه وجد نفسه مرتبطاً، وإن من بعيد، بشخص سيكون ملازماً له إلى حدٍّ بعـــيد في فتـــرة متقدمة من حياته. فقد كان نجم المرافعات القضائية وزير الداخلية السابق، ومن ثم وزير العدل لاحقاً فرانسوا ميتران الذي كان: "شاباً أشقر الشعر، يـــرتدي بذلـــة ذات لـــون أزرق فـــاتح، منح الجلسة الإحساس بأنها دار عرض ســـينمائي"[10]. وكان ميتران نفسه موضع شكّ وارتياب في الجلسة بسبب رفضه المعـــروف للحرب الاستعمارية في فييتنام. ومع هذا، فإن ميتران وبقية الحاضرين في قاعة المحكمة كانوا في طريقهم إلى رواية غارسيا ماركيز الجديدة.

كان في وسع غارسيا ماركيز أن يسمع تكتكات ساعة السوربون من غرفته. وفي حـــين كـــان يجلس ويكتب، كانت ميرثيديس بارتشا، خطيبته التي لم يعرفها معرفة كاملة، ترنو إليه من خلال صورتها الموضوعة على منضدة إلى جانب السرير. يتذكر بلينيو ميندوثا أنه قال عندما صعد إلى غرفة صديقه: "تراجعت صوب الجدار لأنظر إلى صورة خطيبته المثبتة هناك، فتاة جميلة ذات شعر طويل مسترسل"[11]. بعد وصـــول غارسيا ماركيز إلى أوروبا بدأت ميرثيديس ترسل إليه رسائلها مرتين، أو ثـــلاث مرات أحياناً، في الأسبوع. وكان يجيب على رسائلها بدأب[12]. وكانت رسائله تصلها عن طريق والديه. يتذكر أخوه خيمي، وكان في الخامسة عشرة من عمره آنذاك، أنه كان يأخذ الرسائل إلى ميرثيديس في بارانكيا بين وقت وآخر.

كان مصدر الإلهام في الرواية الجديدة هو تلك البلدة النهرية الصغيرة والنائية حيث شهدت أول لقاء له مع ميرثيديس بالرغم من أن الكتاب يخلو من أي مسحة رومانـــسية. ويخـــتار للرواية العنوان **في ساعة نحس**، لكن هذه الرواية المشؤومة لا تصدر إلا في العام 1962. لم تكن رواية عن الزمان الذي عاشت فيه أسرة غارسيا ماركيـــز وأســـرة بارتشا باردو وسط تلك المجموعة الصغيرة من الناس، بل كانت عوضـــاً عن ذلك تدور في سنوات لاحقة، في زمن يقترب من زمن تأليفها، وتركز فـــيه على العواقب الوخيمة التي حلت بالمنطقة بعد أحداث العنف المعروفة. وسبب

ذلك يرجع إلى أن أحداث العنف كانت تهيمن على أفكار سكان كولومبيا جميعاً، في الداخل وفي الخارج، وكان هو شخصياً ضحية غير مباشرة لها؛ وكانت كتاباته الصحفية التي سبقت رحيله عن بوغوتا قد زادت من حدة تركيز مواقفه المناهضة للحكومة.

تستمد البلدة في رواية غارسيا ماركيز صورتها السينمائية من بلدة سوكري، بل إن دقة التفاصيل الطوبوغرافية تمكن القارئ من رسم خارطة للمكان الذي يجري التركيز فيه على النهر وعلى المعبر الخشبي والميدان العام والبيوت المحيطة به. وتظهر سوكري مهاداً لعدد من الروايات القصيرة المربكة على مدى سنوات: **في ساعة نحس**، ليس للعقيد من يكاتبه، وقصة موت معلن، وكلها روايات تعبر تعبيراً مباشراً عن مصيرها العنيف.

وتمر سنوات طويلة قبل أن يبدأ أي أحد بالتركيز في هوية هذه البلدة النهرية الصغيرة، بل إن معظم القراء استمروا يحاولون عبثاً ربطها بأجواء وأوصاف ماكوندو - آراكاتاكا المختلفة عنها تماماً. كما أن غارسيا ماركيز لا يشير في مقابلات معه لاحقة إلى سوكري بالاسم، تماماً مثلما لا يتذكر اسم والده. مما لا ريب فيه أن الحقيقتين لا تنفصلان إحداهما عن الأخرى. ويقول في إحدى المرات: "إنها قرية لا يوجد فيها أي سحر، ولهذا فإن كتابتي عنها هي ضرب من الصحافة الأدبية دائماً"[13]. بيد أن سوكري الحقيقية التي يوضّح مَن يعيش فيها موقفه إزاء الواقعية النقدية، إن جاز التعبير - ضد والده وضد النزعة المحافظة في كولومبيا - والتي دفعته لابتكار شخصيات تعاني عذاباً أبدياً، تذكرنا بشخصيات **أمبيرتو دي** أو **لصوص الدراجة الهوائية** لدى سيكا؛ إنما هي غير مختلفة كثيراً، اجتماعياً، عن آراكاتاكا. بل يشهد أخوانه وأخواته على أن سوكري بلدة تتصف برومانسية وطرافة أكثر بكثير. كما أن السحر يعتمد على عين الرائي دائماً، والفرق هو أن غابيتو لم يعش ذلك السحر في أثناء إقامته في سوكري في الفترة المحصورة بين طفولته وبلوغه سن العاشرة على النحو الذي عاشه في آراكاتاكا. كما أنه لم يكن يعيش برفقة جده العقيد، وفي كل الأحوال لم يُقم فيها إقامة مستمرة لأنه أُرسل إلى المدرسة بعيداً عنها؛ ولكن بالرغم من أن إرساله إلى المدرسة كان امتيازاً له، إلا أنه

عدَّ ذلك، بلا أدنى ريب، عملية طرد أخرى له من الأسرة. أضف إلى ذلك أنه عاش في آراكاتاكا في أعقاب الطفرة الاقتصادية المدهشة في حين شهدت سوكري بداية أحداث العنف.

عندما نُشرت رواية **عاصفة الأوراق** قبيل سفره من بوغوتا إلى أوروبا، أبدى أصدقاؤه الشيوعيون ملاحظة أن الرواية مفرطة في شاعريتها وخرافيتها مما لا يلائم ذوقهم بالرغم من أنها ممتازة على وجه التأكيد. ويعترف غارسيا ماركيز لماريو فارغاس يوسا وبلينيو ميندوثا - الذي وافق الشيوعيين على رأيهم - بأن عقدة ذنب تولدت لديه لأن رواية **عاصفة الأوراق** لم توجه الإدانة إلى أي أحد ولم تكشف أي شيء"[14]، بمعنى أن الرواية لا تنسجم ومفاهيم الشيوعية عن الأدب الملتزم اجتماعياً الذي يشجب القمع الرأسمالي وينظر إلى مستقبل اشتراكي أفضل. الحق أن معظم الشيوعيين كانوا يرون الشكل الروائي وسيلة من وسائل البورجوازية، أما السينما، فهي الوسط الشعبي الحقيقي والوحيد في القرن العشرين.

إذا كانت رواية **في ساعة نحس** عملاً سياسياً هدفه سرد الوقائع، فقد أثبت غارسيا ماركيز أنه لا يزال قصاصاً ماهراً ولا يزال يلجأ إلى المواربة في النقد السياسي والإيديولوجي: فعلى سبيل المثال، نجده لا يحدد صراحة أن النظام الذي يمارس أعمال القمع التي يصفها هو نظام حكومة المحافظين؛ بالرغم من أن هذا واضح تمام الوضوح لكل قارئ كولومبي. وإذا كانت عشرات الآلاف من الناس يلقون مصرعهم كل عام على أيدي رجال الشرطة والجيش والميليشيات المسلحة إبان تلك الحقبة، وإن الكثيرين لقوا حتفهم بأبشع وأقسى صورة يمكن تخيلها، إلاّ أن الرواية لا تحتوي إلاّ على حادثتي موت اثنين وحسب: الأولى هي موت مدني بسبب جريمة غسل عار تكون نذير الحدث المركزي مؤخراً في رواية **في ساعة نحس**، والثانية جريمة سياسية تنفذها الحكومة بالرغم من أنها تبدو للوهلة الأولى نتيجة لانعدام الكفاءة وليست مؤامرة. والحقيقة أن الرواية تهدف إلى الإشارة، ضمناً، إلى أن هيكل السلطة الذي تصوره الرواية لا بد من أن تنجم عنه حتماً ودائماً أعمال قمعية، بمعنى أن العمدة لا بد له من أن يقتل معارضيه إذا ما شاء البقاء حياً.

إن مثل هذا الفهم الهادئ والمدهش لطبيعة السلطة ينقل الروائي بعيداً، إلى ما وراء الرغبة في التأويل الأخلاقي أو التورط في دعاية سطحية. من الطبيعي أنه يرثي للعقليـــية المحافظة، لكنه لا يحاول نيل استحسان القارئ بطرائق مفتعلة مبالغ فيها. يـــشير غارســـيا ماركيز في مذكراته إلى أن شخصية العمدة تستند في أساسها إلى شخــــصية الـــشرطي زوج حبيبته السوداء نيغرومانتا. لكنه، بحسب رواية خيرمان فارغـــاس، قـــدم تفسيراً آخر: "العمدة في رواية **في ساعة نحس** يستند إلى شخصية واقعية. فهو من بلدة على مقربة من سوكري، وقال غارسيا ماركيز إنه من أقرباء زوجته ميرثيديس، ولهذا السبب، كان المسدس لا يفارقه. وكان غارسيا ماركيز في بعض الأحيان يناكدها فيذكرها أن هذا الرجل ينتمي إلى أسرتها"[15].

بالـــرغم مـــن أفضل الجهود التي بذلها، فإن الرواية أبت أن تحلق بعيداً مما جعله يرخي قبضته عليها. وغرق غارسيا ماركيز في خضم كولومبيا وهي في أشد حالات الكـــدر والغم، يضرب قدميه بلا هدف في ذلك العالم الخالي من السحر الذي ابتكره من جديد حتى لم يعد يرى من باريس إلا أقل القليل في وقت انقلب فيه الشتاء ربيعاً. لكـــنه كـــان يخـــرج إلى العـــالم بين حين وآخر. كانت فرنسا في حالة تثير الحزن والاكتـــئاب وهي تعيش فترة ركود في الجمهورية الرابعة. وأُجبر بيير منديس فرانس علـــى التخلـــي عن السلطة بعد أن كان رئيساً طوباوياً لمجلس الدولة اشتهر بمحاولته إرغام الفرنسيين على شرب الحليب بدلاً من الشراب المصنوع من العنب. وحلّ محله إدغـــار فوري ولكن لفترة قصيرة، إذ لحقت الهزيمة بفرنسا في فيتنام في وقت كانت تصارع فيه من أجل البقاء في الجزائر. غير أن باريس، وإن لم يكن هناك أحد يلقي لها بـــالاً، بـــدت في واحدة من أكثر لحظاتها إثارة للذكريات والعواطف، وهي اللحظة الأخـــيرة التي سبقت تحويلها في الستينيات من القرن العشرين من مدينة زرقاء مفعمة بالدخان إلى فضة عصر الفضاء. وكان غارسيا ماركيز يتناول طعامه أساساً في مطاعم الطلبة زهيدة الثمن مثل مطعم كابولاد والأكروبول. وفي حين كان معظم الأميركيين اللاتينـــيين يشعرون بالحاجة إلى ارتياد السوربون ومتحف اللوفر كي يحظوا بقدر من الـــسمو الـــثقافي، وللنظر إلى الناس كما ينظرون إلى أنفسهم في تلك المرايا الباريسية الذهبية، فإن غارسيا ماركيز كان يمضي أيامه، كدأبه، في جامعة الشوارع.

وفجـــأة، حـــدث تحول مفاجئ في حياته. ففي مساء يوم من أيام شهر آذار عـــندما كـــان خارجاً مع صحافي برتغالي يغطي بدوره محاكمة التجسس الفرنسية لحـــساب إحـــدى الصحف البرازيلية، التقى مصادفة امرأة شابة. كانت المرأة من إسبانيا وفي سن السادسة والعشرين وتدعى تاتشيا، وكانت توشك أن تقدم قراءات شـــعرية. وبعـــد أربعين سنة تقريباً تتذكر غارسيا ماركيز عندما قال لها: قراءات شعرية! يا له من أمر يبعث على السأم. وتقول: "ظننت أنه يكره الشعر، فانتظر في مقهـــى مابيون الكائن في شارع سان جيرمان دي بري على مقربة من الكنيسة، ثم لحقنا به بعد الانتهاء من قراءة الشعر[16]. كان نحيفاً كالأصبع ويبدو كأنه جزائري، أشـــعث الشعر، وذا شارب، ولم أهوَ في حياتي قط رجلاً ذا شارب. كما لم يرقني الـــرجال الذكور الذين يتصفون بالفجاجة، وكنت أنحاز دائماً إلى الثقافة والعنصر الإســـبانيين اللذين كانا مبعث إحساس بالدونية وسط الرجال القادمين من أميركا اللاتينية"[17].

كانت تاتشيا قد ولدت بالاسم ماريا كونسيبسيون كوينتانا في كانون الثاني عـــام 1929 في بلدة إيبار في غبوثكوا من إقليم الباسك الإسباني. كانت واحدة من ثـــلاث أخـــوات ولدن لأسرة كاثوليكية مؤيدة لنظام فرانكو بعد الحرب الأهلية. وكـــان والدها عاشقاً للشعر، قرأ لها باستمرار وهي طفلة صغيرة لا تفقه شيئاً عن هـــذا العالم الذي سيقرر مستقبلها. وفي العام 1952 التقت الشاعر الإسباني الشهير آنذاك بلاس دي أوتيرو في بيلباو، حيث كانت تعمل مربية أطفال، وهي فرصة من الفـــرص الضئيلة أمام النساء للعمل مستقلات في إسبانيا تحت تحكم فرانكو. أطلق عليها أوتيرو الذي كان يصغرها بثلاثة عشر عاماً الاسم *تاتشيا*، وهو اسم اشتقه من كلمة كونشيتا، ثم أغواها، فما كان منها إلاّ أن أسرعت بالهرب إلى مدريد لتدريس المـــسرح كي تصبح ممثلة مع أنه كان ينبغي لها أن تأخذ الإذن من والديها لمغادرة المنـــزل ما دامت لم تبلغ الخامسة والعشرين بعد في تلك الأيام. وهناك بدأت علاقة مشبوبة العاطفة، لكنها مشؤومة، مع هذا الرجل الذي كان شاعراً كبيراً لكنه غير مـــستقر ولا يطـــيق الابـــتعاد عن النساء. ويظهر الاسم تاتشيا في بعض من أشهر قـــصائده، وحوّل حياتها إلى جحيم بسلوكه المعتوه الذي يتعذر توقّعه. ولما أرادت

الابـــتعاد عـــنه هربت إلى إسبانيا وإن لم تتخلص منه نهائياً إلا بعد مرور سنوات طويلة. "لقد سافرت إلى باريس في أواخر العام 1952 لتبقى هناك ستة أشهر عملت فيها خادمة لقاء المأكل والمنام. لقد سحرتني المدينة. ولكنني رجعت إلى المدينة مرة أخـــرى في الأول مـــن آب عـــام 1953 لأستقر فيها. لم تكن لدي أي مهارة من المهارات الضرورية فالتحقت بدورات لدراسة المسرح لأجرب حظي وأجد طريقاً يحق لي سلوكه".

كانت تاتشيا امرأة مغامرة، جذابة، محبة للاستطلاع ومتفتحة لكل التجارب. كان ينظر إليها على أنها واحدة من أولئك النساء الجذابات في حقبة ما بعد الحرب الـــتي اكتـــسحتها الوجودية - على جم حبها للمسرح - وفي حقبة أفلام الموجة الجديـــدة التي بدأ صنعها في باريس أواخر الخمسينيات من القرن العشرين: كانت رشـــيقة، تتشح بثياب سوداء عادة، قصَّة شعرها على غرار قصَّة شعر جين سيبيرغ التي ستغدو مشهورة بعد حين، حيويتها لا تخبو، وإن كانت متقدة العاطفة في تلك الفتـــرة الـــتي لم يكـــن فيها ما يشغل بالها. غير أنها امرأة أجنبية، فرص النجاح في المـــسرح الفرنسي لا بد من أن تكون ضئيلة أمامها لا تتجاوز الصفر إلا قليلاً، بيد أنهـــا كانت قد وطدت العزم على عدم الرجوع إلى إسبانيا، ولم تكن تنشد ارتباطاً عاطفياً طويل المدى. فقد عاشت قصة حب في بلادها، ومنذ ذلك اليوم لم يستحوذ أحـــد على عواطفها أو خيالها. وها هي الآن تروي قصة حياتها لهذا الكولومبـــي الذي يخلو من الجاذبية:

"أود أن أقـــول إن غابـــرييل لم يعجـــبني منذ الوهلة الأولى: فقد كان يبدو اســـتبدادياً، متعجرفاً، لكنه هيَّاب أيضاً، كان خليطاً يفتقر إلى الجاذبية حقاً. لكنني كنت أهوى مَن هو على غرار جيمس مايسون - كان بلاس يشبهه تماماً - أو على غـــرار نمـــوذج السيد البريطاني وليس على غرار الصبـــي اللاتيني العاشق الجذاب الـــشبيه بـــتيرون باور. كما كنت أفضل دائماً الرجال الأكبر سناً، في حين كان غابرييل في مثل عمري إلى حدٍّ ما. وسرعان ما بدأ يتباهى بعمله، وبدا لي أنه ينظر إلى نفـــسه علـــى أنه صحافي وليس أديباً. وعندما ترك الصديق الحانة عند العاشرة مـــساءً بقينا نتحدث، ثم رحنا نطوف في شوارع باريس سيراً على الأقدام. وقال

غابـــرييل أشياء فظيعة عن الفرنسيين بالرغم من أن الفرنسيين ولّوه ظهورهم في ما بعد لأهم أثبتوا أهم عقلانيون لا يطيقون واقعيته السحرية".

اكتشفت تاتشيا أنها عندما تتحدث إلى هذا الكولومبـــي الهازئ تجد دائماً أن هـــناك جانباً آخر فيه، شيئاً ما في صوته، في ابتسامته الغامضة، وفي الأسلوب الذي يـــروي به حكاية ما. وبدأ غارسيا ماركيز والشابة الإسبانية الصريحة علاقة سرعان ما أصبحت حميمية، وربما أيضاً نموذجية. كانت أشهر رواية أميركية لاتينية في مطلع العقـــد الزماني التالي هي رواية **الحجلة** للأرجنتيني خوليو كورتاثار التي نشرت عام 1963، وهـــي حكايـــة مغترب من أميركا اللاتينية يهيم في شوارع باريس في عقد الخمـــسينيات من القرن العشرين، تحيط به مجموعة من الأصدقاء والفنانين والمثقفين البوهيمـــيين الـــذين يتركزون في الحي اللاتيني. البطل اللامبالي أوليفيرا لم يعد شاباً ولـــيس لـــه عمـــل، ولا يهتم بالعثور على أي عمل. إنه يريد أن يكتشف نفسه ويكتـــشف العالم؛ إلهامه ومصدر حزنه شابة حسناء، بوهيمية، أديبة طليعية تعرف باسم *الساحرة*. الحق أن كورتاثار لم يعش هذا الهوى، لكن غارسيا ماركيز عاشه. الحـــديث والسير، أحدهما يقود إلى الآخر. "وشيئاً فشيئاً بدأ غابرييل يروقني بالرغم من تحفظاتي الأولية. ونمت العلاقة، وداوم أحدنا على مرافقة الآخر بعد مرور بضعة أسابيع في نيسان على ما أظن. في البدء كان لدى غابرييل ما يكفي من المال لشراء مشروب أو كوب من الكاكاو لفتاة أو حتى يدفع ثمن تذكرة الدخول إلى السينما. ثم أغلقت صحيفته و لم يعد لديه ما يملكه".

نعـــم. بعـــد ثلاثـــة أسابيع من لقاء غارسيا ماركيز بتاتشيا أُغلقت صحيفة الأندبـــندنت في بوغوتا لمدة سنة تقريباً بالرغم من أنه لم يستطع معرفة سبب ذلك. كان سياق الأحداث مدمراً لمثل هذه العلاقة الجديدة. وبدلاً من أن تسدد الإدارة ما لـــه علـــيها من دَينٍ أرسلت إليه تذكرة العودة فقط إلى كولومبيا. وعندما وصلت التذكـــرة، ابتلع غارسيا ماركيز ريقه وتنهد بعمق ثم قبض ثمنها! أكانت تلك رغبة منه لمعرفة أوروبا على نحو أفضل، أم هي رغبة لإكمال روايته الجديدة، أم لأنه متيم بالحب؟ لقد مضت ثلاثة أشهر وهو يشتغل في تأليف رواية **في ساعة نحس**، وكان مصمماً على المضي قُدماً فيها. لهذا، فإنه، لأسباب كثيرة، لم يكن مهيأ للرحيل عن

باريس. ففي بوغوتا لم يجد إلا قليلاً من الوقت لممارسة كتاباته، واليوم بات متمرداً لا يلوي على شيء مرة أخرى. القرار قراره. لكنه سيكون صعباً. ثم إن هناك تاتشيا أيضاً.

التقيت أنا شخصياً تاتشيا كوينتانا في باريس في شهر آذار عام 1993، وتجولنا في الشوارع نفسها التي سبق أن تجولت هي فيها مع غارسيا ماركيز في أواسط خمسينيات القرن العشرين. وبعد ستة أشهر، تشجعت وسألت غارسيا ماركيز وأنا في بيته في مدينة مكسيكو: "ماذا حدث لتاتشيا؟"، كان اسمها في ذلك الوقت معروفاً لدى عدد قليل من الناس، وتفاصيل قصتهما معروفة لعدد أقل. أظنه كان يأمل أن أتغاضى عن ذكرها، ولكنه تنهد بعمق كمن يراقب تابوتاً يُفتح ببطء وقال: "حدث ما حدث". فقلت: "حسناً. هل يمكننا التحدث في هذا الموضوع؟"، فقال: "لا". في تلك المناسبة أخبرني للمرة الأولى بعد أن ارتسمت على وجهه ملامح دفّان يغلق غطاء تابوت بإصرار: "لكل أمرئ ثلاث حيوات: حياة عامة، وحياة خاصة، وحياة سرية". الحياة العامة على مرأى من الآخرين ليروها جميعاً، وكلّ ما عليّ هو أن أنجز العمل. ومن حين إلى آخر كنت أحظى بلمحات عن الحياة الخاصة، وكان من المتوقع أن أستنبط بنفسي البقية الباقية منها. أما بخصوص الحياة السرية، "لا، أبداً". وإذا كانت مثل هذه الحياة موجودة في أي مكان، فإنها موجودة في كتبه كما لّمح بنفسه إلى ذلك. يمكنني أن أبدأ بالكتب. "لكن لا تقلق على كل حال. فكل ما تقوله عني هو أنا". أما بخصوص قضية تاتشيا كوينتانا فعلينا أن نتقصى بطون الكتب كما تصورها غارسيا ماركيز في العام 1956 وما بعده. أما تاتشيا، فكانت سعيدة إذ تروي دورها في الحكاية:

> **عندما التقيت غارسيا ماركيز كنت أوشك أن أنتقل إلى غرفة صغيرة في شارع أسَّاس. لا أتذكر أين كنت قبلئذ، ولا يمكنك أن تتخيل عدد الفنادق والشقق التي سكنتها في باريس، حتى إنّني شاركت فيوليتا بارّا غرفتها أيضاً. كان الموقع الجديد عل مقربة من مونبارناس، بين الأنفاليد وسان جيرمان دي بري المجاورة لحانات ومطاعم لا توبولي، ولا كلوزيري دي ليلاس، ولي دوم، ولي سيليكت، وعلى مسافة بضع ياردات من حدائق اللوكسمبورغ ومسارح ودور السينما وحانات الجاز في مونبارناس. ذهبنا إلى غرفته في**

فندق الفلاندر أحياناً، إلا أننا كنا ننام في شارع الأسَّاس عموماً. وكان في ما مضى فندقاً تم تحويره في ما بعد. كنت في المطبخ القديم، وكان صغيراً كأنه حجرة خادمة، بحديقة خارجية صغيرة. لم يكن هناك سوى سرير وصناديق برتقالية. تخيل: اعتاد اثنا عشر شخصاً الجلوس على ذلك السرير. وكانت المالكة كاثوليكية متزمتة، إلا أنها كانت تغضّ البصر عما ترى وتتركنا نفعل ما نشاء. وكان أفضل شيء هو الحديقة الصغيرة في الهواء الطلق. كم انتظرني وهو جالس في ذلك المكان! رأسه بين يديه غالباً. لقد دفعني للجنون لكنني كنت متيمة به.

حالما التقى الكولومبي بها وجد أن الرواية التي بدأ بكتابتها وقطع شوطاً مهماً، وإن كان مؤلماً منها، تنسل من بين أصابعه. بعد مرور سنوات طويلة يغدو واحداً من أهم أدباء العالم *المحترفين* المتمكنين من حرفتهم الفنية، رجلاً يعرف دائماً ماذا يريد أن يكتب فيكتبه حتى ينجزه بثبات. لكن كل عمل في هذه المرحلة من حياته بدا وكأنه ينشطر إلى عمل آخر. التأليف تجربة مؤلمة و لم يبدُ أن خياله سيقوده إلى مسيرة التطور المرجوة. وهكذا هي حاله الآن. وبدأت إحدى الشخصيات الثانوية بالنمو لتصبح شخصية مستقلة بذاتها فتطالبه بجو أدبي منفصل. هذه الشخصية تتمثل الآن بعقيد عجوز خجول ومتصلب في رأيه في آن واحد، لاجئ من ماكوندو ومن رائحة الموز الذي نضج أكثر مما ينبغي. إنه رجل ينتظر مرتّبه التقاعدي الذي يستحقه بسبب اشتراكه في حرب الألف يوم بعد مرور خمسين عاماً على تلك الحرب. كانت النسخة الأولى من الرواية، المهملة الآن، رتيبة وقاسية تتطلب الجرأة والتجرد، غير أن مؤلفها وجد نفسه على نحو غير متوقع تماماً في لحظة من لحظات الوجد والحرمان معاً يعيش نمطه الخاص من الحياة البوهيمية.

ومثلما كانت مشاعر الحنين الجارف إلى الماضي التي ولّدتها رحلته مع أمه أداة تمخضت عنها رواية **عاصفة الأوراق** فإن مشاعر مماثلة تنطوي على شدة الحزن (والتوق إلى إمكانية الحياة في الزمن الراهن) كانت الوسيلة لفصل ما يسمى **ليس للعقيد من يكاتبه** و**في ساعة نحس**، تلك الرواية التي تأخرت وتأجلت إلى ما لانهاية. وكان مصدر الإلهام في الرواية امرأة أيضاً: فالرواية التي تدور حول العقيد من شأنها أن تعكس الوضع الدرامي الذي يبدأ غارسيا ماركيز بمعايشته مع تاتشيا، إذ تورطا

في علاقـــة مدهـــشة ومثيرة ومشبوبة العاطفة وغير متوقعة تماماً، لكن سرعان ما ستنفد نقـــودهما. حكم الفقر علاقتهما منذ بدايتها، وها هي مهددة عما قريب بمأساة. وهكذا كانت الرواية الأولى التي لا تزال قيد الكتابة مربوطة، لا للمرة الأخيرة، بربطة عنق قديمة مخططة وحفظت في الجزء الخلفي من خزانة ملابس مُخلَّعة في فندق الفلاندر، في حين اســتحوذت علــيه القصة العنيفة المأساوية التي تصور حياة عقيد يتضور جوعاً وزوجته سيئة الحظ والمناكدة والمعذبة من زمن طويل، في أيار ومطلع حزيران عام 1956.

ازدادت ديـــون الفندق على غارسيا ماركيز زيادة تدعو للفزع، لكنه ظل في غرفته بالرغم من عدم تمكنه من دفع ثمن إقامته فيها، أو قوله بعدم تمكنه. وبعد مرور بـــضعة أسابيع، وجد هو وتاتشيا صعوبة حتى في تدبير طعامهما. لقد مرَّ بمثل هذا الوضـــع مـــن قبل في بوغوتا وفي كارثاخينا وفي بارانكيا. وبدا وكأنه حُكِم عليه بالتـــضور جوعاً حتى يبرر تشبثه بمهنته. و لم تتذمر أسرته من عدم مواصلته دراسة الحقوق لأنه كان يعاني الحرمان والجوع. و لم يتعين على تاتشيا أن تشكو من أنه لا يشتغل كي يعيلها لأنه لم تكن هناك حدود للمعاناة، لم يكن هو أصلاً مهيئاً لبلوغها في وقت كان يؤلف فيه روايته. فسلَّم نفسه إلى الأمر الواقع خاصة أن لغته الفرنسية لا تزال في مراحلها البدائية والوظائف يصعب الحصول عليها. غير أن حقيقة الأمر هي أنه لم يكلف نفسه عناء البحث. فبعد أن أنفق ثمن تذكرة العودة بالطائرة، بدأ يجمـــع القـــناني الفارغة والصحف القديمة لقاء بضعة سنتيمات تمنحه إيّاها المخازن المحلية. ويقول إنه في بعض الأحيان *استجدى* عظماً من جزَّار كي تتمكن تاتشيا من طبخ يخنة[(18)]. وفي يوم ما اضطر إلى استجداء ثمن تذكرة في قطار الأنفاق – بعد أن فقد آخر خمسة سانتيمات مرة أخرى – وشعر بالمذلة من رد فعل الرجل الفرنسي الـــذي أعطـــاه النقود. أرسل الرسائل إلى أصدقائه في كولومبيا يناشدهم مساعدة مالـــية، ثم وجد نفسه ينتظر والأمل يراوده بأخبار طيبة، أسبوعاً بعد أسبوع، مثلما انتظر جده مرتّبه التقاعدي طوال تلك السنين من قبله، وانتظر العقيد أيضاً في روايته الجديدة. لعل المفارقة هي التي أمدَّته بالبقاء.

علاقته بتاتشيا لم تؤاتما فرصة على نحو ما. فقد خسر وظيفته بعد ثلاثة أسابيع من لقائهما، وبعد مرور شهرين حدثت كارثة أخرى: "في مساء يوم ما علمت أنني

حامل عندما كنا نمشي على امتداد شارع الشانزليزيه. خامرني شعور غريب وأدركت طبيعته. وبعد أن أصبحت حاملاً، بقيت أرعى الأطفال وأنظف الأرضيات وأتقيّأ من ذلك العمل، وعندما أرجع أجد أنه لم يفعل شيئاً، فأبدأ بالطبخ. قال لي إنني نزَّاعة إلى السيطرة وأطلق عليَّ صفة *الجنرال*. في غضون ذلك كان هو يكتب مقالاته وكتابه **العقيد** الذي كان يدور عنَّا فعلاً: عن وضعنا وعن علاقتنا. قرأت الرواية كما كتبها، فأحببتها، ولكننا كنا نتشاجر طوال الوقت على مدى تسعة أشهر. كانت الأمور صعبة، ومنهكة، أحدنا كان يدمر الآخر. أكنَّا نتشاجر؟ لا، كنا نتصارع حقاً".

وتتذكر تاتشيا: "لكنه كان أيضاً ودوداً ورؤوفاً. كان هو الرقة بعينها. حكينا كل شيء. الرجال أبرياء تماماً، فعلَّمته أشياء تخص النساء، وزودته بمادة غنية لرواياته. لديّ الانطباع أن غابرييل لم تكن له سوى نساء قليلات في حياته، بل إنه لم يعش مع أي واحدة في ذلك الوقت على وجه التأكيد. وعلى مشاجراتنا الكثيرة كنا نستمتع بأوقاتنا، نتجاذب أطراف الحديث عن الجنين وكيف سيكون، وراجعنا الأسماء لنختار له اسماً نسميه به. وحكى لي غارسيا قصصاً لا عدَّ لها ولا حصر، قصصاً عن طفولته وعن أسرته وعن بارانكيا وعن سيبيدا وهلمّ جرًّا. كان ذلك مدهشاً، وقد استهواني. كما اعتاد غابرييل على الغناء كثيراً وبخاصة أغاني الفاليناتو لإيسكالونا؛ مثل أغنية بيت *في السماء*. وغنّى أغاني الكومبياس مثل أغنية *فتاتي الجميلة*. كان صوته جميلاً. وعلى كثرة مشاجراتنا طوال النهار لم تكن لدينا أي مشكلة في فهم أحدنا الآخر ليلاً.

وتمضي قائلة:

"غالباً ما كان غابرييل يغني في حفلات لا تنتهي في بيت هيرنان فيكو في شارع غينيغو. كان فيكو مغوياً كبيراً، ذا عينين زرقاوين، طويل الحاجبين، جذاباً جداً. كان الوحيد الذي يملك منزلاً ومالاً وسيارة من نوع أم جي سبورت وكان يعشقها كثيراً. اعتاد غابرييل أن يغني ويعزف القيثارة هناك. كما كان رقصه جميلاً جداً. وكان لدينا أصدقاء فرنسيون يقطنون شارع شيروبيني قرب النهر. وفي ذلك المكان عرفنا كل أغنيات براسانس. وكان غابرييل هو الذي صحبني إلى مهرجان

الإنسانية للحزب الشيوعي للمرة الأولى، مع لويس فيلا بوردا كما أظن. من تلك الناحية، كنت لا أزال امرأة تقليدية تماماً. إذ بقيت جالسة في مكاني لا أنبس بكلمة على حين استرسل الرجال في الحديث في السياسة. لم تكن لديّ أي فكرة أو أفكار سياسية في تلك الأيام بالرغم من أن مشاعري كانت تقدمية. وبدا لي غابرييل شخصاً منضبطاً ومركزاً يبعث على الإعجاب، من الناحية السياسية على الأقل. وتولّد لدي الانطباع بأنه رجل جادّ ونزيه وشريف وفق معيار الأخلاق السياسية. فكّرت في أنه لا يختلف اختلافاً كبيراً عن أي شيوعي. أتذكر أنني قلت له ذات مرة كأنني أعرف عمّا كنت أتكلم: *هناك شيوعيون أخيار وشيوعيون أشرار على ما أظن*. فما كان من غابرييل إلاّ أن رمقني وردَّ بحدة: *لا يا سيدتي! هناك* شيوعيون *وغير شيوعيين.*

"لا بد لي من الإقرار أنه كان منصفاً جداً خلال مدة الحمل. وهناك شيء واحد يمكنني أن أقوله عنه. فقد كنا نتناقش نقاشاً مفتوحاً فسألني عمّا أريده. أظنه كان ليسعد بالحصول على الطفل. كان يتحمل كل ما أردته. أما أنا، فكنت لا أريد الطفل، وكان يعلم أنني جادة بشأن الأطفال، ولهذا أدرك أنني كنت أتوقع منه أن يتزوج بي. من هذه الناحية كان قوياً وضعيفاً أيضاً. فتركني أفعل ما أقرره بنفسي، لكنني لا أعتقد أنه كان جزعاً مثلي. لعل الأمر لم يكن غريباً جداً أو محيِّراً بالنسبة إليه وهو القادم من أميركا اللاتينية. وبالرغم من ذلك، ربما كان فخوراً".

وتمضي في روايتها:

كان القرار قراري لا قراره. كنت حاملاً في الشهر الرابع أو أكثر قليلاً. وكنت يائسة. كان وقتاً رهيباً، رهيباً. ثم حدث نزيف دموي، فأصيب بالهلع، وكاد أن يسقط مغشياً عليه؛ غابرييل، عندما يشاهد الدماء، حسناً. أمضيت ثمانية أيام في مستشفى الأمومة الملكية القريب جداً من محل سكناي، وكان غابرييل أول الآباء القادمين إلى المستشفى في أوقات الزيارة مساءً. وبعد الإجهاض، أدركنا أن كل شيء قد انتهى. هددت بالمغادرة، وأخيراً خرجت وذهبت أول الأمر إلى منزل فيكو لتمضية فترة نقاهة ثم رحلت إلى مدريد. كنت منهكة، منزعجة جداً. كنت دائماً أنا المسيطرة في علاقتنا، لكن الحمل فتَّ في عضدي. غادرت

باريس من محطة أوسترليتز في كانون الأول عام 1956 بعد أن نظّم غابرييل مجموعة كبيرة من الأصدقاء لينقلوني إلى المحطة. كنت قد شفيت من العملية، لكنني كنت في أعماقي رقيقة سهلة الانكسار. وصلنا المحطة متأخرين وكان لا بد من رمي الأمتعة في القطار، واضطررت إلى أن أعدو حتى أستقل القطار من دون أن أتمكن من وداع الجميع. كانت معي ثماني حقائب، غير أن غابرييل كان دائماً يقول إنها ست عشرة حقيبة. تحرك القطار وأنا مرتبكة، أبكي بين يدي المسندتين إلى النافذة، ثم رنوت إلى غابـــرييل الذي بدأ يسير مع القطار وينظر إليَّ نظرة تفيض بالعاطفة حتى غاب عن القطار. لقد خذلني حقاً في عام 1956، ولم يستطع التحمل. لم يكن في وسعي أن أتـــزوجه، ولم أنـــدم على ذلك، فقد كان رجلاً لا يُعتمد عليه أبداً، ولم يكن في مستطاعي أن أنجب الأطفال في هذا العالم لمثل هذا الأب. هل لأنه لا يوجد ما هو أهم من ذلك؟ ومع هذا، فقد كنت مخطئة تماماً لأنه تبين أنه أب رائع".

كانت تاتشيا امرأة شجاعة، محظوظة، عاقدة العزم، مغامرة، حمقاء أو ذكية بما يكفـــيها لأن تحيا حياة مستقلة تماماً قبل أن يصبح الاستقلال حقاً من حقوق المرأة بزمن طويل. بالرغم من أن قصتها هي قصة إخضاع حاجاتها لغارسيا ماركيز، إلا أنـــه يصعب تخيّل أنّ ذلك الخيار ليس خيارها هي. كما يصعب التفكير في أن من شـــأنها أن تـــتحمل أي شيء لا تقبل به في نهاية المطاف وبخاصة أنها تركت علاقة واحدة مهمة وراءها، وهي العلاقة التي وجدت نفسها فيها مُضحّية من أجل مهنة الأدب. لعل علاقتهما كانت ارتباطاً قوياً، ثم بدأ يتكدر ويتطلب الشيء الكثير حالما أصبحت حاملاً؛ فهي إما أن تتزوج أو تنهي كل شيء. كما أن هذه العلاقة لم تكن أول علاقاتها الجادة؛ بالرغم من أنها كانت المرة الأولى التي يعيش فيها أي من الاثنين مع آخر.

ربما لم يكن غارسيا ماركيز فرحاً بمحاولات الإجهاض. فالأطفال لا يُعدُّون مشكلة في منطقة الساحل، كما أنه ينحدر من أسرة تتبنى فيها النساء – مثل جدته تـــرانكيلينا وأمه لويسا – عدداً كبيراً من الأطفال الذين يتصلون بهم بصلة القرابة. لهذا لا بد من أن يكون قد اضطرب اضطراباً شديداً لموت الجنين. ربما يكون الأمر صعباً على ميرثيديس إن كان له طفل من امرأة أخرى. لكن سكان أميركا اللاتينية

اعتادوا على مثل هذه الأوضاع ولا يعيروها أهمية كبيرة بخلاف الأوروبيين. أما هو العائـــد للزواج بميرثيديس عما قريب، فربما فكّر: ثم ماذا؟ فهي لم تكن سوى طفلة عند سفره. ثم ما الذي يمكن أن يتوقعه أي شخص من رجل من أميركا اللاتينية في ســـن الثامـــنة والعشرين سوى إقامة علاقة في باريس؟ من شأن أصدقائه أن يخيب ظنهم بما هو أقل من ذلك. ولو أبقت تاتشيا على حياة الجنين لربما تخلى عنها أيضاً. يبدو أن اختياره ميرثيديس كان معتمداً، فهي امرأة من بيئته، امرأة تفهم تماماً منشأه ومحفّزه.

رحلـــت تاتـــشيا. لكنه يملك روايته، زمن أحداثها هو زمن كتابتها، الأشهر الأخـــيرة مـــن عام 1956 ومؤطرة بإطار أزمة قناة السويس التي ألقت بظلالها على أوروبا. كانت تفاصيل الحبكة مُعدة قبل رحيل تاتشيا إلى مدريد. الشهر هو تشرين الأول. العقـــيد لن يعرف له القارئ اسماً، يقطن في بلدة ماكوندو، في سن الخامسة والـــسبعين، يتآكل في بلدة نهرية صغيرة، خانقة، ضائعة في غابات كولومبيا. هذا العقـــيد ينتظر مرتبه التقاعدي على مدى ستة وخمسين عاماً لقاء اشتراكه في حرب الألف يوم ولا يملك غير ذلك لإعالته. لقد مر خمسة عشر عاماً منذ أن تلقى رسالة مـــن دائـــرة التقاعد الحكومية، لكنه لا يزال يذهب إلى دائرة البريد كل يوم بأمل الحـــصول علـــى معلومات. وهكذا يمضي حياته منتظراً الخبر الذي لا يأتي أبداً. له ولزوجته ابن اسمه أوغسطين يعمل خياطاً اغتالته السلطات في مطلع العام لأنه كان ينـــشر دعاية سياسية سرية[19]. كان أوغسطين يرعى الزوجين العجوزين، ولما قُتل تـــرك وراءه ديكه البطل في مصارعة الديكة الذي يُقدر بمبلغ كبير من المال، لكن العقيد يتحمل الكثير من الذل والهوان كي لا يضطر إلى بيع الديك الذي أصبح يمثل لـــه ولأصـــدقاء ابنه (ألفونسو وألفارو وخيرمان) رمز الكرامة والمقاومة ويذكرهم بأوغسطين نفسه. أما زوجة العقيد، ذات النـــزعة العملية والمريضة والتي تحتاج إلى عـــلاج طبـــــي، فـــتخالفه الرأي وتحضه مراراً وتكراراً على بيع الديك. في نهاية الرواية، لا يزال العقيد يرفض ولا يتزحزح عن موقفه.

قـــال غارسيا ماركيز إن الرواية تستند إلى أكثر من مصدر. أولاً: بما أنه كان يمتلك دوماً صورة بصرية كنقطة انطلاق لمؤلفاته، فقد كان يتذكر رجلاً سبق له أن

رآه في ســوق السمك في بارانكيا منذ سنين طويلة ينتظر قارباً "بقلق صامت"[20]. ثانــياً، وهــذه قــضية شخصية أكثر، هناك ذكرى جده الذي كان ينتظر مرتبه التقاعدي عن حرب الألف يوم بالرغم من أن التجسيد المادي لذلك الجد هو والد رافائيل إيسكالونا الذي كان عقيداً بدوره، لكنه أشد نحافة كي يلائم بطل غارسيا ماركيز المتخيل في الرواية والذي كان يعاني جوعاً شديداً[21]. ثالثاً: هناك على ما يــبدو الوضــع السياسي في كولومبيا إبان أحداث العنف. رابعاً، وفي ضوء الإلهام الفــني، هــناك شريط دي سيكا السينمائي *أمبيرتو دي*، الذي كتب نصه ثاباتيني وتــدور أحداثــه حول رجل آخر يعيش مع مخلوق عزيز آخر (هو كلبه) في مدينة روما في حقبة ما بعد الحرب وسط لامبالاة عامة من معاصريه. لكن الشيء الذي لم يقــربه غارســيا ماركيز قط هو أن رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** كانت تستند، خامساً وبصورة مباشرة أكثر، إلى الأحداث المؤثرة التي كان يعيشها هو وتاتشيا في أثناء تلك المرحلة في إطار أزمة قناة السويس السياسية[22].

في كلــتا الحالتين تحملت المرأة، على حدّ وصفها، أنانية وضعف رجل تعيش وإياه، رجل أقنع نفسه أن لديه مهمة تاريخية أهم منها. وكانت في كل حالة تعامله بعناية كأنه طفل صغير (الزوجان العجوزان فقدا ابنهما، وفي العالم الحقيقي تصاب تاتشيا بالملل من العناية بغابرييل عندما فقدت جنينها)، وتقوم بكل الأعباء المنــزلية الــضرورية، المادية فيها هي الصلة بالأمومة. كما تؤدي جميع الأعمال الحقيقية، في حــين يجهــد نفسه عبثاً في مشروع طوباوي لا أمل منه ولا يخرج إلى النور حيث الــديك المــصارع يمــثل رمز شجاعته واستقلاله وانتصاره الأخير. كانت مقتنعة الاقتناع كله أن كل شيء مآله السوء. أما هو فكان متفائلاً لا سبيل إلى قهره. لقد مــرت تسعة أشهر بين موت ابن العقيد وأحداث الرواية. وعندما تخاطب الزوجة العقــيد قائلــة: "نحن أيتام ابننا"، فقد تكون هذه العبارة مرثية للعلاقة بين غارسيا ماركيــز وتاتشيا. إنّ الديك (الرواية، كرامة الروائي الشخصية) رمز لتماهي الفرد مــع القيم الجماعية ولا يمكن للذنب والحزن - الإجهاض وموت الابن - أن تخف وطأتهما إلا بالاستمرار في وصفهما ذكرى. قد يكون شعار غارسيا ماركيز الدائم هو: "السبيل الوحيد للخروج هو المضي قدماً".

إن روايـــة **لـــيس للعقيد من يكاتبه** هي واحدة من تلك الأعمال النثرية التي تـــؤدي وظـــيفة الـــشعر على واقعيتها التي يصعب إنكارها. ويستحيل أن نفصل موضوعاتها الأساسية، كالانتظار والأمل، وظاهرة الطقس، ووظائف الجسم (ليس أقلـــها عملـــية الإبراز، أو عدم الإبراز وهو ما ينطبق على حالة العقيد سيئ الحظ، الـــسياسة والفقـــر، الحياة والموت، العزلة والتضامن، القدر والمصير. بالرغم من أن غارسيا ماركيز صرَّح دائماً أن الحوار ليس خير ما يجيده، فإن روح الدعابة المنهكة الـــتي تفصح عنها شخصياته والمسكوبة في قالب مغاير على نحو ضئيل لتمييز كل واحـــدة عـــن الأخرى، إنما هي من الملامح الأساسية لأعماله الناضجة. إن تلك الدعابة التي لا يرقى إليها شك والمميزة كدعابات ثيربانتس، تصل تعبيرها النهائي في هذه الرواية القصيرة المدهشة تماماً مثلما يصبح العقيد نفسه واحداً من الشخصيات الـــتي لا تُنسى في رواية القرن العشرين بصرف النظر عن تصويره باقتضاب. وتبدو الفقرة الأخيرة، وهي من أشد الفقرات كمالاً في الأدب برمته، وهي تركز أولاً ثم تحـــرر كل الموضوعات والصور التي حُشدت لتكون كُلاً متكاملاً في الرواية. لقد أفلح الرجل العجوز المنهك في الاستسلام للنوم، غير أن زوجته البَرِمة التي لا تتمالك نفسها تهزه بعنف وتوقظه من نومه، لأنها تريد أن تعرف كيف سيعيشان الآن بعد أن قرر نهائياً ألاَّ يبيع الديك بل يُعدُّه للعراك بدلاً من ذلك:

– ماذا سنأكل؟

> **اســـتغرق الأمـــر خمسة وسبعين عاماً من العقيد كي يصل إلى هذه اللحظة، خمسة وسبعين عاماً من حياته، دقيقة بدقيقة. وشعر بالصفاء والوضوح والقوة في اللحظة التي ردَّ فيها قائلاً: تباً!**[23].

يخامـــر القارئ نفسه أيضاً الشعور بالارتياح، ويجد متعة جمالية غير قليلة في الاخـــتلاف الضمني بين النهاية المحبوكة حبكاً جيداً والإحساس بالحرية والارتياح: ارتقاء الضمير والمقاومة والتمرد. لقد استعيدت الكرامة، تلك الصفة المهمة جداً عند غارسيا ماركيز.

أصـــبحت رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** واحدة من روائع الروايات القصيرة المعتـــرف بهـــا عالمـــياً على غرار رواية **الشيخ والبحر** لهمنغواي، فهي تقترب من

الكمـــال تمامـــاً من حيث تكثيف الحدث والحبكة المرسومة بعناية وخاتمتها المعدة إعـــداداً ذكياً. يقول الكاتب نفسه إن رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** تتصف بكونها "موجزة ومحكمة ومباشرة وهو ما تعلمته من الصحافة"[(24)].

غـــير أن نهايـــة الرواية ليست نهاية الحكاية. فهناك دائماً وسيلة أخرى لسرد الحكايـــة. فـــبعد عـــشرين عاماً سيكتب غارسيا ماركيز رواية قصيرة غريبة تثير الاضـــطراب بعـــنوان **أثر دمك على الثلج**. ربما يمكن أن يطلق عليها رواية **ليس للعقـــيد من يكاتبه: بعد التنقيح والتصحيح**. فإذا كانت الرواية الأولى تمثل رؤيته للقـــضية في ذلـــك الزمان، وهي قضية التبرير الذاتي الذي لا يرقى إليه شك، فإن الرواية الثانية تمثل بالوضوح نفسه نقداً ذاتياً وتبرئة متأخرة لساحة تاتشيا. أتراه غيّر رأيه، أم أنه يحاول استرضاء عشيقته السابقة بعد كل تلك السنين؟ في الرواية الثانية يـــسافر زوجان كولومبيان شابان إلى مدريد لتمضية شهر العسل ثم يعرّجان على بـــاريس. وفيما هما يغادران العاصمة الإسبانية تتلقى المرأة الشابة نينا داكونتي باقة زهـــور حمـــراء وتوخز إصبعها الذي يظل ينـــزف على امتداد الطريق إلى باريس، وتـــشير في إحـــدى المرات قائلة: "تصور أثر دم على الثلج على امتدد الطريق من مدريد إلى باريس. ألا تشكل هذه أغنية جميلة؟". لا بد من أن مؤلف الرواية تذكر أن تاتـــشيا بعـــد أن فقدت كمية كبيرة من دمها سافرت في الاتجاه المعاكس من باريس إلى مدريد أواسط فصل الشتاء. أهذا تطهير؟ عندما يصل الزوجان الشابان، في الـــرواية، إلى مدينة باريس، تدخل نينا، التي تتكلم الفرنسية بطلاقة وهي حامل في شهرها الثاني، المستشفى - "المستشفى الفسيح والكئيب" في الشارع المتفرع من شـــارع دنفري؛ روشيرو - نفسه الذي عولجت فيه تاتشيا من النـــزيف الدموي عـــام 1956، حـــيث كان يمكن لها أن تموت، وحيث توفي جنينها الذي لم يكتمل بعـــد. أما زوج نينا غير المتعلم، بيلي سانتشيث دي آبيلا الذي لم يفارق كولومبيا قبل هذه الرحلة إلى أوروبا والذي يرقص على الثلوج الباريسية مثلما رقص غارسيا ماركيز أول مرة عندما شاهدها، فإنه يثبت عجزه التام عن التعامل مع هذه الأزمة في مدينة باريس الباردة والمعادية. وهكذا تموت نينا في المستشفى من دون أن يراها مرة أخرى"[(25)].

ورحلت تاتشيا. وبحلول فترة الميلاد رجع غارسيا ماركيز إلى فندق الفلاندر ليقـيم فيه إقامة دائمة وذلك في أواخر ما يسميه لاحقاً "ذلك الخريف المكفهرّ من عـام 1956"(26). ولامه جميع أصدقائه بسبب مشكلات تاتشيا ورحيلها الدرامي. غـير أن غارسيا ماركيز أشرف على المراحل الأخيرة من روايته وعثر على وسيلة يبرر بها ما حدث، لنفسه على الأقل (وعدَّ القضية أنها تمس شرفه، ولذلك لا ينبغي لـه أن يـتحدث إلى الآخرين عن مشكلاته الشخصية) أن ما من شيء يقف في طريقه. وما بقاء الديك على قيد الحياة في نهاية الرواية إلاّ بقاء الرواية نفسها بالرغم من وجود امرأة مناكدة. ولم يفرغ منها إلا بعد بضعة أسابيع على رحيل تاتشيا إلى مدريد، ويؤرخها بالتاريخ "كانون الثاني 1957". لم يولد طفل، لكن الرواية ولدت. وذكـرت تاتشيا أنه محظوظ إذا ينهيها في ظل مثل تلك الظروف التي مرَّ بها خلال أشهر. لكن يصعب علينا أن نوافق على أن الحظ أدى دوراً فيها.

لم تعـد هـناك الآن تاتشيا كي تشتري الطعام وتساوم على الأسعار وتطبخ وجبات رخيصة الثمن. كان غارسيا ماركيز يلجأ إلى الأشياء رخيصة الثمن لتأمين حاجاتـه شـأنه شأن العقيد في الصفحة الأولى من الرواية. ويقول صديقه خوسيه فـونت كاسترو إنه أمضى أسبوعاً في غرفته العليا المتجمدة متوارياً عن أنظار إدارة الفـندق بلا طعام، وكان شرابه الوحيد هو الماء من صنبور المغسلة. ويتذكر أخوه غوسـتافو: "أتذكر أن غابيتو أسرَّ في أذني ونحن نتناول الشراب في بارانكيا قائلاً: الكـل أصدقائي منذ رواية **مئة عام من العزلة**، لكن ما من أحد يدري كم كلفتني للوصول إلى هناك. لا أحد يدري أن الأمور وصلت بـي حداً جعلني أتناول الطعام مـن القمامـة في باريس. في يوم ما حضرت حفلة في بيت أحد الأصدقاء الذين سـاعدوني قليلاً، وبعد انقضاء الحفلة طلبت مني سيّدة البيت أن أزيل القمامة وأن أضعها خارج البيت في الشارع. كنت أتضور من شدة الجوع، فأخذت ما تمكنت من أخذه من تلك القمامة وأكلته"(27).

مـن نواحٍ أخرى، كان غارسيا ماركيز متهتكاً أيضاً. وشعر بعض الأصدقاء بالاغتـراب بـسبب ما عدّوه إهماله لتاتشيا وعاملوه لذلك معاملة أقل كرماً وأقل إحساناً. حصل على مهنة مغنٍّ في *الأسكالي*، وهو نادٍ ليلي أميركي لاتيني كان قد

أمضى فيه أُمسياته مع تاتشيا التي عثرت لها بدورها على عمل فيه قبل ذلك بمدّة. لم يكن يغني أغاني الفاليناتو بل الأغاني المكسيكية التي يؤديها ثنائي غنائي وذلك برفقة الرسام والنحات الفنـــزويلي خيسوس رافائيل سوتو، وهو أحد رواد الفن الحركي. وكـــان يحصل على دولار عن كل ليلة (أي ما يعادل ثمانية دولارات تقريباً في سنة 2008). وكـــان يتسكع في أرجاء المنطقة، وحاول أن يستأنف الكتابة في رواية **في ساعة نحس**، لكنه اكتشف أنها لم تعد تستحوذ عليه بعد الأشهر التي أمضاها برفقة العقـــيد العجـــوز. وكـــان أصدقاء بارانكيا في مطعم الكهف قد شكلوا ما أسموه الأصـــدقاء لمـــساعدة غابيـــتو، واشتروا ورقة من فئة المئة دولار والتقوا في مكتبة رونـــدون وفكّروا في أفضل طريقة يرسلون فيها النقود إلى صديقهم. وأشار عليهم خورخه روندون باللجوء إلى تجربته في الحزب الشيوعي حيث تعلم إرسال رسائل ســـرية داخـــل البطاقات البريدية. فما كان من أصدقائه إلا أن فعلوا ما أشار إليه وأرسلوا رسالة أوضحوا فيها في الوقت نفسه الحيلة التي لجأوا إليها. وصلت البطاقة البريدية قبل وصول الرسالة، فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن يهتف "أنذال" لأنه كان يريد ما هو أكثر من التمنيات ورمى البطاقة في سلة القمامة. وبعد ظهر اليوم نفـــسه وصلت الرسالة التوضيحية وكان سعيد الحظ إذ تمكن من استعادة البطاقة البريدية بعد أن ظل يبحث عنها في نفايات الفندق[(28)]. لكن لم يجد طريقة يصرف بهـــا الـــنقود. ويستذكر المصور غييرمو أنخولو الذي كان موجوداً في روما يومئذ يـــبحث عـــن غارسيا ماركيز: "هناك شخص ما أخبره عن صديقة تدعى لا بوبا وصـــلت تواً من روما بعد أن حصلت على مرتبها ولا بد من أنها تملك مبلغاً كبيراً مـــن المال. فذهب لزيارتها - وكان متدثراً بشكل جيد بعد أن حل فصل الشتاء - ففتحت له المرأة الباب، فاستقبله تيار من هواء دافئ ينبعث من غرفة دافئة. كانت المرأة عارية. لم تكن جميلة، لكنها كانت ذات قوام هائل، تتجرد من ثيابها دون أي ســـبب. ثم جلست - وعلى حدّ تعبير غابو، فإن أكثر ما أقلقه هو أنها ظلت على حالهـــا كأنها مرتدية ثيابها كاملة - ووضعت ساقاً فوق ساق وبدأت تتحدث عن كولومبـــيا والكولومبيين الذين تعرفهم. بدأ غارسيا ماركيز يحكي لها عن مشكلته فأومـــأت إليه برأسها وسارت إلى الجهة الأخرى من الغرفة حيث توجد علبة نقود

صـــغيرة، وأدرك أنها كانت تريد معاشرته، لكنه كان يريد أن يأكل. لهذا انصرف لتناول الطعام وأكل بشَرَه حتى عانى من عسر الهضم أسبوعاً كاملاً[29].

ممـــا لا ريـــب فيه أن هذه الحكاية القديمة اكتسبت الشيء الكثير من خلال سردها مراراً. فقد أخذت هذه المرأة نفسها في ما بعد نسخة من رواية **ليس للعقيد مـــن يكاتبه** إلى روما وسلمتها إلى أنخولو ليقرأها. وبالرغم من حصافة أنخولو لكن يبدو أنها أقامت وغارسيا ماركيز علاقة غرامية قصيرة الأمد بعد رجوع تاتشيا إلى مدريد. شيء حسن للأنا المعطوبة بلا ريب.

بيد أن الحقيقة تظل قائمة وهي أن غارسيا ماركيز عاش في باريس ثمانية عشر شـــهراً على ثمن التذكرة الذي استعاده وعلى صدقات متقطعة من أصدقائه وبعض المدخـــرات الـــشحيحة التي كانت بحوزته. ولم تكن لديه أي وسيلة للرجوع إلى كولومبيا. ومع هذا فقد تعلم التكلم بالفرنسية، وعرف باريس معرفة جيدة وأصبح لديه مختلف الأصدقاء والمعارف بمن فيهم فرنسي أو فرنسيان، ومن بضعة أقطار في أميركـــا اللاتينـــية وعدد من العرب. الحق غالباً ما كان يسود الاعتقاد أن غارسيا ماركيـــز عربـــي - فالحقبة لم تكن حقبة أزمة قناة السويس وحسب، بل كانت حقبة حرب الجزائر أيضاً - وفي أكثر من مناسبة اعتقلته الشرطة كجزء من حملاتها الأمنية الاعتيادية:

> **في لـــيلة مـــا، كنت أغادر دار العرض السينمائي، فأوقفتني دورية من رجال الـــشرطة في الشارع وبصق أفرادها في وجهي وأوسعوني ضرباً وهم يلقون بـــي في عربة مصفحة. كانت العربة مملوءة بجزائريين لاذوا بالصمت أُلقي القـــبض علـــيهم وأُوسعوا ضرباً وبُصق في وجوههم في المقاهي المحلية. وظن هؤلاء الجزائريون، مثلما ظن رجال الشرطة الذي قبضوا عليَّ، أنني جزائري. وهكـــذا أمـــضينا الليلة معاً بعد أن حشرتنا الشرطة مثل سمك السردين في زنـــزانة في أقرب مركز للشرطة، في حين تجاذب رجال الشرطة الحديث عن أولادهـــم وأكلوا الخبز المغمس بالشراب الفرنسي. وكي نغيظهم بقيت أنا والجزائريين يقظين طوال الليل نشدو بأغنيات براسانس ضد انتهاكات قوى الأمن والنظام وغبائها[30].**

وفي أثناء تلك الليلة اتخذ غارسيا ماركيز صديقاً جديداً له داخل السجن وهو أحمـــد طـــبال، وكـــان هذا طبيباً شرح لغارسيا ماركيز وجهة النظر الجزائرية عن

الصراع، وجعله أيضاً يشترك في بعض النشاطات العسكرية بالإنابة عن القضية الجزائرية[31]. لكن أمور غارسيا ماركيز الاقتصادية سارت من سيئ إلى أسوأ. وفي ليلة مكفهرة شاهد رجلاً يعبر جسر سان ميشيل:

> **لم أقدّر تقديراً كاملاً الوضع الذي كنت فيه إلى أن حلّت ليلة وجدت نفسي فيها قرب حدائق اللوكسمبورغ من دون أن أكون قد أكلت ولو حبة كستناء واحدة طوال النهار ولا وجدت مكاناً أهجع فيه. وفيما أنا أعبر جسر سان ميشيل شعرت أنني لست وحيداً وسط ذلك الضباب لأنني كنت أستطيع أن أسمع بوضوح صوت وقع قدمَي شخص ما يقترب مني من الاتجاه المعاكس. ورأيت ملامحه في الضباب على الرصيف نفسه، ويسير بالسرعة نفسها التي كنت أسير بها، وشاهدت أيضاً سترته التارتان بمربعاتها السوداء والحمراء. وفي اللحظة التي مرَّ بها أحدنا بالآخر في منتصف الجسر، شاهدت شعره الأشعث، وشاربه التركي، وتلك الملامح الدالة على جوعٍ يومي وليالٍ مؤرقة، وشاهدت عينيه وهما تفيضان دمعاً، فتجمد الدم في عروقي لأنَّ الرجل بدا مثلي تماماً[32].**

يتحدث غارسيا ماركيز عن تلك الأيام بعد مرور سنوات فيقول: "أعرف جيداً معنى انتظار الرسائل ومعنى الجوع ومعنى الاستجداء: هكذا أنهيت رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في باريس. إنه أنا إلى حدٍّ ما، شبيه بي"[33].

في تلك الأيام تقريباً، حلَّ هيرنان فيكو معظم مشكلات غارسيا ماركيز المالية إذ كان وضعه المالي مختلفاً تماماً، وكان هو الذي آوى تاتشيا في بيته إثر إجهاضها. فأقرضه المئة والعشرين ألف فرانك التي كان يحتاج إليها ليدفع لمدام لاكروا أجرة منامه في فندق الفلاندر. وفي ليلة ما، وكان عائداً من حفلة ثملاً، وإن لم يكن عاجزاً تماماً، أخبره فيكو أنهما بحاجة إلى الصراحة، وسأله عمَّا للفندق في ذمته من دين، غير أن غارسيا ماركيز رفض الخوض في هذا الموضوع. وكان أحد الأسباب التي دفعت الناس غالباً إلى مدِّ يد العون له في أيام شبابه أنهم كانوا يرون أنه لا يرثي حاله، ولا يطلب مساعدة مهما كانت ظروفه سيئة. وفي نهاية الأمر، وبعد مشهد مسرحي، لوَّح فيكو بقلم حبر وحرر شيكاً على سقف سيارة مركونة في موقف السيارات وحشره في جيب سترة صديقه. كان المبلغ يوازي ثلاثمئة دولار، وهو مبلغ كبير في تلك الأيام، فشعر غارسيا ماركيز بشعور العرفان له والذل يغمره[34].

ولما أخذ النقود إلى مدام لاكروا، تلعثمت واحمر وجهها حرجاً - هذه هي باريس بالرغم من كل شيء، مأوى البوهيمية والفنانين المكافحين من أجل العيش - "لا، لا يا مسيو. هذا المبلغ كبير جداً. لماذا لا تدفع لي قسماً الآن وتدفع القسم الآخر في وقت لاحق؟".

لقد تمكن من اجتياز فصل الشتاء. وهو ليس والد لأي طفل، و لم يقع في فخ سيرسه(*). كانت ميرثيديس لا تزال تنتظره في كولومبيا. وفي يوم مشرق في مطلع العام 1957 لمح معشوق أرنست همنغواي يسير برفقة زوجته ماري ويلش على امتداد شارع سان ميشيل باتجاه حدائق اللوكسمبورغ. كان يرتدي بنطالاً قديماً من الجينز وقميص قاطع أخشاب وقبعة بيسبول. كان غارسيا ماركيز هيَّاباً لا يستطيع الاقتراب منه، منفعلاً لا يقوى على فعل أي شيء. ولكنه هتف من الجانب الآخر من الطريق: "أيها الأستاذ!"، فما كان من الأديب العظيم، الذي ألهمت روايته عن الشيخ والبحر والسمكة الكبيرة إلى حدٍّ كبير رواية الشاب المكتملة حديثاً عن الرجل العجوز والتقاعد الحكومي والديك المصارع، إلاّ أن رفع يده وهتف مجيباً بصوت صبياني إلى حدٍّ ما: "وداعاً يا صديقي!"(35).

* * *

-11-

ما وراء الستار الحديدي:
أوروبا الشرقية إبَّان الحرب الباردة
1957

عــــاد بلينيو ميندوثا وأخته سوليداد إلى باريس في مطلع أيار عام 1957 ليجد صديقه أشد هزالاً وأكثر نحولاً ورزانة من ذي قبل. "كنـــزته الصوفية مثقوبة عند المـــرفقين. الماء يتسرب من نعل حذائه إلى قدميه في أثناء سيره في الشوارع، عظام وجنتـــيه في وجهـــه العربـــي بارزة على أوضح ما يكون"[1]. غير أن ميندوثا سُرَّ ســـروراً كـــبيراً للتقدم الذي أحرزه صديقه في تعلم اللغة الفرنسية ولمعرفته الممتازة بأرجـــاء المديـــنة ومـــشكلاتها. وفي الحادي عشر من أيار، كانا قد اجتمعا لتناول الـــشراب في مقهى"القردان" عندما سمعا خبر الإطاحة بروخاس بينيًّا وخروجه من الـــبلاد للعـــيش في المنفى وذلك بعد عشرة أيام فقط من إدانة الكنيسة الكاثوليكية الكولومبـــية لـــه، واســـتولت على مقاليد الحكم طغمة عسكرية مؤلفة من خمسة عـــسكريين. ولم يـــشعر أي من الصديقين بالتفاؤل حيال ما قد تؤول إليه الأمور مستقبلاً.

كـــان لغارسيا ماركيز وميندوثا انتماءات وأوهام يسارية، وكانا يتطلعان إلى زيـــارة أوروبـــا الشرقية وبخاصة في ضوء التقارير المتضاربة إبان السنة الأخيرة التي بـــدأت بإدانة خروتشوف لستالين وانتهت بضجة بسبب الغزو السوفياتي لهنغاريا. قرر الصديقان البدء بزيارة لايبزغ حيث كان لويس بيَّار بوردا يعيش في المنفى منذ ســـنة بمنحة طلابية. وبما أن ميندوثا كان يشتغل في تلك الفترة، فقد اشترى سيارة من طراز رينو – 4 لتمضية فصل الصيف، وفي الثامن من شهر حزيران قاد السيارة

بعد أن صحب سوليداد المتدفقة حيوية ونشاطاً وغارسيا ماركيز المكتئب على امتداد الطرقات الألمانية السريعة بسرعة خمسة وستين ميلاً في الساعة مبتدئاً بهايدلبرغ وفرانكفورت[2]. ومن فرانكفورت انطلقوا صوب ألمانيا الشرقية. وكانت مقالة غارسيا ماركيز الأولى عن هذه البلاد والتي انتظر مدة طويلة قبل أن يراها منشورة تبين أن الستار الحديدي هو في حقيقة الأمر عوارض خشبية باللونين الأحمر والأبيض. وقد صُدم الأصدقاء الثلاثة بالأوضاع على الحدود وبالبزّات الرثة وبالجهل المطبق الذي كان عليه حرس الحدود الذين وجدوا صعوبة في كتابة اسم مسقط رأس غارسيا ماركيز. ثم قادت سوليداد السيارة ليلاً باتجاه مدينة فايمار، توقفوا بعدها لتناول طعام الفطور في أحد المطاعم الحكومية وتولاهم الفزع لِمَا رأوا. يتذكر ميندوثا أن غارسيا ماركيز تثاءب وتمطى عند خروجه من السيارة وقال له:

– أصغِ إليّ أيها الأستاذ. علينا أن نكتشف كل شيء عنها.

– عن أي شيء؟

– عن الاشتراكية.

تذكر غارسيا ماركيز أن المجازفة بدخول ذلك المطعم المفتقر إلى الجاذبية كانت أشبه "بالاصطدام رأساً على عقب بواقع لم أكن مستعداً له"[3]. فقد جلس في المطعم زهاء مئة ألماني يأكلون طعام الفطور المكون من شرائح اللحم والبيض التي تليق بالملوك والملكات، بالرغم من أنهم كانوا مهزومين وناقمين وبدوا كأنهم شحاذون مهانون. ووصل الكولومبيون الثلاثة في وقت متأخر من تلك الليلة إلى مدينة فايمار ومنها توجهوا في صباح اليوم التالي لزيارة معسكر الاعتقال القريب في قرية بوكنفالت. ويلاحظ غارسيا ماركيز بعد مرور سنوات أنه لم يستطع أن يوفق بين حقيقة معسكرات الموت وشخصية الشعب الألماني الذي وجده شعباً حسن الوفادة كالإسبان وكريماً كالسوفيات"[4].

واصل الأصدقاء الثلاثة سفرهم إلى لايبزغ التي ذكّرت غارسيا ماركيز بأحياء بوغوتا الجنوبية التي لم تكن بأفضل الأحياء. كل شيء في مدينة لايبزغ رث يقبض الصدور. وقال: "كنا نحن الثلاثة ببناطيل الجينز الزرقاء والقمصان ذات الأكمام القصيرة ويعلونا الغبار العالق من الطريق السريع، العلامة الوحيدة على

الديمقــراطية"[5]. لم يكن في تلك المرحلة متأكداً؛ أتراه يوجه اللوم إلى الاشتراكية نفسها أم إلى الاحتلال الروسي.

يوضــح غارسيا ماركيز في المقالة التي كتبها عن المدينة أنه نسي هو وفرانكو (بلينــيو ميندوثا) أن لايبزغ تضم في جنباتها الجامعة التي درس فيها ماركس ولينين حيث التقيا طلاب أميركا الجنوبية وناقشا معهم الوضع مناقشة واقعية[6]. وكان هذا هــو السبب الذي دفع الثلاثة لزيارة المدينة: إنها مدينة بيّار بوردا الذي أشار إليه غارســيا ماركيز خفية في مقالته على أنه شيوعي من تشيلي يدعى سيرجيو، يبلغ الثانــية والثلاثين من عمره، منفيٌ من بلاده منذ سنتين ويدرس الاقتصاد السياسي. كــان بيّار بوردا يعيش في المنفى – بعيداً عن كولومبيا – لارتباطه الوثيق بالشبيبة الــشيوعية في بوغــوتا، وتمكن من الحصول على منحة للدراسة في المدينة الألمانية الشرقية[7]. وزار غارسيا ماركيز في حجرة تاتشيا في شارع أسّاس لدى عودته إلى بــاريس لتجديد تأشيرة جواز سفره، وكانت "الاشتراكية المطبقة عمليّاً" موضوع نقاشــهما الــرئيس. أخــبرني بيّار بوردا عام 1998 قائلاً: "كنت أنا وغابو نحمل الأفكار نفسها عن النظام الشيوعي، وكنا نريد شيئاً واحداً تقريباً: اشتراكية إنسانية وديمقــراطية". ويمــضي غارسيا ماركيز شطراً كبيراً من حياته محاطاً بزملاء سفر وبــشيوعيين – وفي أغلب الأحيان – بشيوعيين سابقين. ومن بين هؤلاء الآخرين شــيوعيون ندموا على شيوعيتهم ولكنهم ظلوا يساريين، وهناك شيوعيون سابقون ســاخطون على الشيوعية ارتدُّوا على أعقابهم إلى اليمين. ويستنتج غارسيا ماركيز على مضض أن الاشتراكية الديمقراطية مفضلة على الشيوعيين، عملياً على الأقل[8].

صــحب بيــّار بــوردا الأصدقاء إلى ملهى حكومي تبدو عليه كل مظاهر الماخــور، وفــيه عدادات على أبواب المراحيض وزبائن لعب الشراب برؤوسهم وذكور وإناث يتطارحون الغرام. وكتب غارسيا ماركيز: "لم يكن المكان ماخوراً، لأن البغاء محظور يُعاقب عليه عقاباً شديداً في الأقطار الاشتراكية. المكان هو منشأة حكومــية. لكنه من وجهة النظر الاجتماعية بدا أسوأ من ماخور"[9]. قرر غارسيا ماركيز وميندوثا أن يطاردا النساء في الشوارع. وأصرَّ طلاب أميركا اللاتينية ومعهم الشيوعيون الملتزمون أن النظام المفروض على ألمانيا الشرقية ليس اشتراكياً. لقد قضى

هتلـــر علـــى كـــل الشيوعيين الحقيقيين، وكان القادة المحليون تابعين بيروقراطيين يفرضون ما يسمى بالثورة "المعلبة القادمة من الاتحاد السوفياتي" من دون استشارة الشعب. وعلّق غارسيا ماركيز بالقول: "إنني أعتقد أن الحساسية الإنسانية مفقودة أساساً، وأن القلق بشأن الجماهير يجعل الفرد لا مرئياً، وإن هذا الشيء الذي ينطبق على الألمان ينطبق أيضاً على الجنود الروس. لقد اعترض سكان فايمار على حراسة الجـــنود ببـــنادقهم الآلية محطة سكة الحديد، لكن ما من أحد يعير أهمية للجندي البائس". وطلب غارسيا ماركيز وميندوثا من صديقهما بيّار بوردا إخراجهما من تعاســتهما بإيجاد تفسير ديالكتيكي للوضع في ألمانيا الشرقية. ولما كان بيّار بوردا اشـــتراكياً ملتزماً طوال حياته، فقد بدأ يتكلم ثم، توقف أخيراً وقفة قصيرة وقال: "إنها كومة براز".

كان رد فعل غارسيا ماركيز على ألمانيا الشرقية عموماً رداً سلبياً تماماً. كانت عـــواطفه متضاربة إبان الفترة التي أمضاها في برلين الغربية حيث كان الأميركيون يهدمـــون ويعـــيدون البناء بحماسة أكبر من المعتاد كي يجعلوا السوفيات يبدون في وضع سيئ:

> **تـــركتني صـــلتي الأولى بالعملـــية الرأسمالية العملاقة داخل نطاق المنظومة الاشـــتراكية في حالـــة خواء. فمن وراء تلك العملية الجراحية بدأ شيء ما بالظهور وكان يناقض ما هو موجود في أوروبا... مدينة متألقة ومعقمة تبدو جديدة أكثر مما ينبغي... إن برلين الغربية وكالة دعاية رأسمالية هائلة**[10].

من المفارقة أن تلك الدعاية أثرت في غارسيا ماركيز تأثيراً شديداً مثلما أثرت في وصفه لبرلين الشرقية وهو الوصف الذي كان ينطوي على تحرر من الوهم: "في اللـــيل، وفي حين كانت الإعلانات الضوئية تغمر برلين الغربية بالألوان، فإن النجم الأحمـــر وحـــده هو الذي كان يضيء فوق الجانب الشرقي، مما يتلاءم مع الواقع الاقتصادي للبلاد. باستثناء شارع ستالين"[11]. لقد شُقّ شارع ستالين وبذلت فيه جهـــود جبارة، لكنه كان مقرفاً. وتوقع غارسيا ماركيز أن تغدو برلين في غضون خمـــسين أو مـــئة عام – بعد أن يسود فيها أحد النظامين – مدينة واحدة مترامية الأطراف، ومعرضاً تجارياً مشوهاً يقام على العينات الحرة التي يقدمها النظامان[12].

وفي ضـــوء التوتر السياسي والتنافس بين الشرق والغرب، استنتج بأن برلين فضاء إنـــساني مفزع، يصعب سبر غوره، ويتعذر توقّعه به، لا شيء فيه يبدو على ما هو عليه، كل شيء معرض للاستغلال، وكل فرد مشارك في التضليل اليومي، وما من أحد يتحلّى بضمير صاف.

بعـــد مـــرور بضعة أيام، غادر الأصدقاء برلين وعادوا إلى باريس بأسرع ما يستطيعون. ثم سافرت سوليداد ميندوثا إلى إسبانيا وفكّر الرجلان في ما يفعلان بعد ذلـــك[13]. لعـــل انطباعاهما كانت متسرعة أكثر مما ينبغي، لعل الأمور أفضل في أقطار أخرى. وبعد بضعة أسابيع اقترح أصدقاء يقيمون في لايبزغ وبرلين ويخططون للـــسفر للمـــشاركة في مؤتمر الشبيبة العالمي السادس في موسكو أن يسافر غارسيا ماركيـــز وميـــندوثا معهم أيضاً. إلاّ أن غارسيا ماركيز كان قد حاول قبل ذلك الحصول على تأشيرة سفر من روما إلى موسكو لكن طلبه رفض أربع مرات لأنه لم تكن له كفالة رسمية. ولكنه وبضربة حظ أصبح الآن في باريس مرتبطاً مرة أخرى بطلـــسمه مانـــويل ثاباتا أوليفيا. كان ثاباتا يرافق أخته ديليا الخبيرة في الفولكلور الشعبـــي الكولومبـــي والممارسة له، وكانت ترافق بدورها فرقة تتألف أساساً من الكولومبـــيين الـــسود من بالينكي ومابالي إلى مهرجان موسكو[14]. كان غارسيا ماركيز مغنياً وعازف قيثارة وطبالاً لا يرقى إليه شك، فما كان منه ومن ميندوثا إلا أن ســـجلا اسمـــيهما بالفرقة ثم سافرا إلى برلين بعد ذلك للانضمام إلى بقية أفراد الفـــرقة. وفي بـــرلين يلتقي الاثنان بكولومبيين آخرين عازمين على السفر لحضور المهرجان وكان من بينهم هيرنان فيكو ولويس بيّار بوردا.

ظل غارسيا ماركيز حتى اللحظة الأخيرة لا يدري إن كان يستطيع الذهاب. فأرســـل رسالة مؤثرة إلى مدريد ليخبر تاتشيا، التي عاود الاتصال بها، أن سوليداد ميـــندوثا ستسافر جواً بعد بضعة أيام وأنه سيسافر هو الآخر إما إلى موسكو "قبل حلـــول منتصف ليلة هذا اليوم" أو إلى لندن حيث سيكمل كتابة روايته **في ساعة نحس** قبل أن يقفل راجعاً إلى كولومبيا، وسيلتقي سوليداد في مقهى مابيون في وقت متأخـــر من ذلك اليوم. (مما لا ريب فيه أن الإشارة إلى مابيون، حيث تحدثا للمرة الأولى، كانـــت تهدف إلى جرح مشاعر عشيقته السابقة، شأنها شأن معظم الرسالة

اللامبالية على ما يتضح). أما بخصوص كتابه **ليس للعقيد من يكاتبه** فأشار: "لقد فقـــدت اهتمامـــي به بعد أن أصبح البطل واقفاً على قدميه ويسير وحده، وأصبح بإمكانه التكلّم وأكل القاذورات". كان في واقع الأمر قادراً على أن يفقد الاهتمام بالـــرواية لأنهـــا اكتملت. وقال إنه يُقابل شقيقة تاتشيا الصغرى باث من حين إلى حين، مبدياً ما يوحي إلى وجود علاقة له مع الأخوات كوينتانا الثلاث أخيراً، وبعد أن قـــال إنـــه مغتـــبط لمغادرته "هذه المدينة الحزينة المستوحدة" أوضح بمرارة (أو تظاهـــراً): "إن كـــل ما أتمناه هو أن تدركي أن الحياة شاقة وستكون شاقة دائماً، دائماً، دائماً. وربما تتوقفين يوماً ما عن اختراع نظريات الحب وتدركين أن عليك أن تغـــوي الـــرجل إذا مـــا أغواك هو ليكون ذلك ردك على إغوائه بدلاً من أن تطلبـــي منه كل يوم أن يحبك أكثر. للماركسية اسم يدل على هذا الشيء لكنني لا أتذكره الآن"[15].

كانت الرحلة بالقطار من برلين إلى براغ كابوساً استغرق ثلاثين ساعة اضطر خلالهـــا غارســـيا ماركيز وميندوثا وصديق ميندوثا الكولومبـــي بابلو سولانو إلى الـــنوم وقـــوفاً خارج مرحاض، واستند رأس كل واحد منهم إلى كتف الآخر. ثم أمـــضوا أربعاً وعشرين ساعة في براغ ليعودوا إلى رشدهم، وتمكن غارسيا ماركيز مـــن تحديث انطباعاته التي كانت قد تولدت لديه قبل سنتين. كانت الرحلة التالية أســـهل مـــن ســـابقتها وباتجاه براتيسلافا، ثم إلى تشوب الواقعة عند نقطة التقاء ســـلوفاكيا وهـــنغاريا وأوكـــرانيا، ومنها إلى كييف وموسكو[16]. وذهل غارسيا ماركيـــز من مساحة بلد تولستوي الشاسعة: في اليوم الثاني الذي أمضوه في الاتحاد الـــسوفياتي لم يكونـــوا قد دخلوا أوكرانيا بعد[17]. وعلى امتداد الطريق كله كان الأوكرانيون والروس الاعتياديون يرمون الزهور على القطار ويقدمون الهدايا حيثما توقـــف، إذ نادراً ما شاهد هؤلاء الناس الأجانب على مدى نصف القرن الماضي. وتحـــدث غارســـيا ماركيز إلى الإسبان، الذين أُخلوا أطفالاً إبان الحرب الأهلية، وحاولـــوا العـــودة إلى إسبانيا في ضوء الصعوبات الموجودة في اتحاد الجمهوريات الـــسوفياتية الاشـــتراكية، ولكنهم يعودون إلى موسكو الآن. فهذا واحد منهم "لم يفهـــم كـــيف يسع أي شخص العيش في ظل نظام فرانكو، ولكنه يفهم من جهة

أخرى كيف يطيق الناس العيش في ظل نظام ستالين". ومع هذا، فقد شعر غارسيا ماركيز بخيبة أمل وهو يشير إلى أن إذاعة موسكو كانت المحطة الوحيدة المتوفرة في القطـــار. وبعد ثلاثة أيام تقريباً من السفر وصلوا موسكو صباحاً بحدود العاشر من تموز بعد أسبوع واحد من سقوط مولوتوف إثر هزيمته أمام خروتشوف[18]. وكان انطـــباع غارسيا ماركيز الأول والأخير عن موسكو هو أنها "أكبر قرية في العالم"، وقـــد وصلها الآن اثنان وتسعون ألف زائر وخمسون ألف أجنبـــي تقريباً لحضور المهرجان. وكان معظم القادمين من أميركا اللاتينية، بعضهم طبقت شهرتهم الآفاق مثل بابلو نيرودا، والبعض الآخر من الشبان الذين سيؤثرون تأثيراً كبيراً في بلادهم مـــثل كارلوس فونسيكا زعيم **الساندنيستا** النيكاراغويين أو حتى غابرييل غارسيا ماركيـــز نفسه. كانت الجهة المنظمة للمهرجان تعمل على مدار الساعة، وفكّر هو وآخـــرون غـــيره، قبله وبعده، في كيفيّة تمكُّن النظام السوفياتي من تنظيم مثل هذا الحـــدث أو إطلاق سبوتنك بعد ثلاثة أشهر لتدور في مدار حول الأرض في الوقت الذي يفشل فيه فشلاً ذريعاً في منح أبناء شعبه مستوىً معقولاً من المعيشة أو ينتج ثياباً وبضائع استهلاكية أخرى جذابة إلى حدٍّ ما[19].

غـــير أن غارسيا ماركيز وميندوثا ورفاقهما الجدد سرعان ما تركوا مهرجان الـــشبيبة وأمضوا أسبوعين في استكشاف موسكو وستالينغراد. ثمة صورة لمجموعة الأصدقاء في الساحة الحمراء يبدو فيها غارسيا ماركيز، كعهده غالباً، نحيلاً، جاثماً أمام الآخرين، بكل وضوح حتى في تلك الصورة غير الواضحة بالأسود والأبيض في خمسينيات القرن العشرين، يفيض حيوية، لا رغبة لديه تقريباً في النهوض ومواصلة النشاط في اللحظة التي سمع فيها صوت آلة التصوير وهي تلتقط الصورة. واعترف في مقالـــته يومئذٍ أنه بعد مرور أسبوعين وبسبب عدم تمكنه من اللغة الروسية "لم يـــستطع التوصـــل إلى أي نتائج واضحة"[20]. كانت موسكو في أبهى حلة وأجمل ســـلوك، وقال غارسيا ماركيز معلقاً: "لم أرغب في مشاهدة الاتحاد السوفياتي وقد اكتسى حلة بهية من أجل استقبال زواره. الدول مثل النساء، وعلى المرء أن يراهن عـــندما يستيقظن إذا ما أراد معرفتهن". وحاول استثارة مضيفيه ("هل كان ستالين مجـــرماً؟"). وعندما سأل إذا كانت موسكو تخلو من الكلاب لأن الناس التهموها

كلـــها، قـــيل له: "هذا افتراء الصحافة الرأسمالية"[21]. لعل أكثر الأحاديث المفعمة بالإشراقات هو ذلك الحديث الذي جرى بينه وبين امرأة عجوز كانت الوحيدة التي تجـــرأت علـــى الحـــديث معه عن ستالين في موسكو بالرغم من أن ستالين دانه خروتـــشوف في شباط عام 1956. قالت له العجوز إنها ليست مناهضة للشيوعية مبدئياً، لكن نظام ستالين كان وحشياً وأن ستالين كان "الشخص الأكثر تعطشاً إلى الـــدماء وبـــشاعة وطموحاً على امتداد تاريخ روسيا". وأخبرت غارسيا ماركيز بأحداث عام 1957 التي استغرقت سنوات عدة لتظهر إلى الأضواء. فخلص ماركيز إلى القول: "ما من سبب يدفع للاعتقاد أن المرأة مجنونة سوى أنها بدت هكذا"[22]. بكلمات أدق، خامره شعور بأن ذلك صحيح لكنه لم يكن يملك دليلاً ولا رغبة في تصديقه.

بـــذل غارسيا ماركيز محاولات عدة لزيارة ضريحي ستالين ولينين، ووفق في الحصول على الإذن بالدخول في اليوم التاسع. وقال إن السوفيات منعوا كافكا لأنه "ميتافيزيقـــي خبيث"، وكان في وسعه أن يكون أفضل من يكتب سيرة ستالين. إن معظم الناس في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية لم يقع نظرهم على زعيمهم قط. وقد ارتاب بعض الناس في حقيقة وجوده بالرغم من أن ما من ورقة على أي شجرة كانت تستطيع أن تتحرك إلا بإذنه. وهكذا، فإن مؤلفات كافكا وحدها هي الـــتي أعـــدَّت غارسيا ماركيز لبيروقراطية النظام السوفياتي التي لا تصدق، بما فيها الحـــصول على إذن لزيارة ضريح ستالين. عندما أفلح أخيراً في دخول مبنى الضريح تـــولاه العجب لعدم وجود أي رائحة، لكنه خاب ظنه بلينين الذي بدا "دمية من شمـــع"، واعترته الدهشة عندما وجد ستالين نفسه "غارقاً في نوم من دون إحساس بالذنب". لقد كان ستالين يشبه دعايته:

> **لـــه ملامح إنسان، ويبدو حياً، مبتسماً ابتسامة لا تبدو تقلّصاً في العضلات وحسب، بل انعكاساً لشعور ما. ثمة مسحة من ازدراء تلوح في تلك الملامح. وفي مـــا خـــلا لغده، فإن ذلك الازدراء لا يلائم الرجل. فهو لا يبدو بمظهر المغفـــل، بل هو رجل ذو ذكاء هادئ، صديق وفي، تشوبه مسحة من روح الدعابة... لم أتأثر بشيء قدر تأثري برقة يديه وأظافره الرقيقة الشفافة. إنهما يدا امرأة[23].**

يقـــول بلينـــيو في وقت لاحق إنه يعتقد أن شرارة رواية **خريف البطريرك** قدحت في تلك اللحظة[24]. لقد كان هذا العرض الحاذق لجثة ستالين المحنطة يفسر، بمعنىً ما، تفسيراً ضمنياً قدرة ستالين على تضليل العالم في ما يخص أساليبه ودوافعه الحقيقية؛ من خلال صورة "العم جو"[25].

وخلافاً لمعظم الزوار الأجانب، شعر غارسيا ماركيز أن الأموال التي أهدرت على إنشاء قطارات الأنفاق في موسكو كان يمكن لها أن تُصرف على وجه أفضل في تحسين ظروف معيشة الشعب. وخاب ظنه إذ رأى أن الحب المتحرر لم يعد الآن ســوى ذكـــرى تثير الارتياب في بلاد مفرطة في الاحتشام على نحو يثير العجب. وأشـــار مـــستهجناً إلى أن المخرج السينمائي الطليعي أيزنشتاين كان غير معروف تقريباً في بلده، لكنه استحسن المحاولة التي بذلها الفيلسوف الهنغاري جورج لوكاش في تمحيص علم الجمال الماركسي وإعادة الاعتبار تدريجياً لدوستويفسكي والسماح بموســيقى الجاز (وليس موسيقى الروك آند رول)[26]. وتولته الدهشة وهو يلاحظ عـــدم وجود أي علامة تشير إلى أي كراهية للولايات المتحدة - على العكس تماماً مـــن أميركـــا اللاتينـــية - واستوقفته على وجه الخصوص حقيقة مفادها أن اتحاد الجمهـــوريات الـــسوفياتية الاشتراكية كان يواصل صناعة الأشياء المتوفرة أصلاً في الغرب. وحاول أن يفهم السبب في وصول الأمور إلى ما وصلت إليه، لكنه على ما يـــبدو تعاطـــف مـــع رد فعل الطالب الشاب الذي قال عندما وبَّخه زائر شيوعي فرنسي: "ليست لديك سوى حياة واحدة". وفكّر في أن مدير المزارع المشاعة الذي زاره كـــان يـــشبه "سيداً إقطاعياً انقلب اشتراكياً". وتخلف عن السفر بعد مغادرة الوفـــود الأخرى كي يحاول أن يفهم التعقيد الغريب في التجربة السوفياتية؛ "وهو تعقـــيد لا يمكـــن اختزاله إلى صيغ مبسطة من الدعاية الرأسمالية أو الشيوعية"[27]. وبـــسبب هذه الإقامة التي امتدت فترة أطول، فقد كان وحيداً عندما اجتاز الحدود وقـــال له مترجم سوفياتي بدا شبيهاً بالممثل تشارلز لوتن: "ظننا أن كل الوفود قد سافرت. لكن إذا شئت، فسنأتي بالأطفال لتحيتنا بالزهور مرة أخرى"[28].

كان رأي غارسيا ماركيز بالاتحاد السوفياتي على وجه العموم متعاطفاً ومحابياً يذكـــرنا اليوم بعد مرور كل هذه السنين برأيه بكوبا والصعوبات التي مرت بها في

سبعينيات القرن العشرين. إلا أنه لم يبذل أي محاولة في إخفاء السلبيات التي استطاع أن يلاحظهـا. وفي طـريق العودة، زار هو وبلينيو ميندوثا ومعهما بابلو سولانو ستالينغراد (فولغاغراد الآن) وأبحروا على امتداد نهر الفولغا حتى وصلوا إلى مدخل قـناة السفن العظيم فولغا - دون حيث ينتصب شامخاً تمثال هائل لستالين فوق واحـدة من انجازات البلاد العظيمة. ترك غارسيا ماركيز صديقه بلينيو ميندوثا في مدينة كييف وواصل سفره إلى هنغاريا. أما ميندوثا فقد قفل راجعاً عن طريق بولندا بعـد أن تأخـر أكثر من أسبوع في مدينة بريست ليتوفسك بسبب إصابة سولانو بمـرض ذات الـرئة. وكان قد خاب أمله في كل شيء شاهده حتى إنه قال بعد سـنوات: "لقد فقدنا براءتنا". وشيئاً فشيئاً بدأ يدرك أن الأنظمة الشيوعية انصبّت عليها كلها لعنة القانون الوراثي القمعي نفسه (بالرغم من أنه حاول مرة أخرى أن يعـتقد بكوبا في العام 1959). أما غارسيا ماركيز الذي لا يملك ماضياً بورجوازياً يبكي عليه ولا اهتمامات بورجوازية يغذيها، فقد ظل متشوقاً للاطلاع على تجارب أخـرى. وهكذا تمكن من مرافقة مجموعة من ثمانية عشر أديباً ومراقباً أجنبياً، بمن فـيهم مراسلان صحفيان - هو شخصياً والبلجيكي موريس ماير - في زيارة إلى بودابست بعد تلقيهم دعوة لزيارتها.

حـدث ذلـك بعد مرور أقل من عام على غزو الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول عام 1956. فقد حلَّ يانوس كادار محل إيمري ناجي ليكون زعيم البلاد عندما قمعـت القوات السوفياتية الانتفاضة الهنغارية في تشرين الثاني عام 1956. وفي هذا الـوقت، أي صـيف العـام 1957، يكون قد مرَّ على هنغاريا عشرة أعوام وهي معزولة، وبحسب غارسيا ماركيز، فإن الوفد الذي رافقه كان أول وفد من الأجانب يـسمح له بدخول البلاد. كان أمد الزيارة أسبوعين، ورتبت السلطات برنامجاً لم تـسمح لهم فيه بالتجوال في المدينة أو التحدث إلى المواطنين الهنغاريين. "لقد فعلوا كـل مـا في وسـعهم مـن أجل الحيلولة دون أن نكوّن أي انطباع حقيقي عن الأوضاع"[29]. وفي اليوم الخامس هرب غارسيا ماركيز من مُرافقه بعد طعام الغداء وانطلـق نحـو المدينة بمفرده. لقد كان يرتاب في التقارير الغربية ذات الصلة بقمع انتفاضة عام 1956. لكن حالة المباني في المدينة والمعلومات التي قدمها إليه الهنغاريون

الذين التقاهم أقنعته أن عدد الضحايا من الهنغاريين – والذي قُدِّر بخمسة آلاف قتيل وعشرين ألف جريح – يمكن أن يكون أكثر مما قرأ عنه في الصحافة الغربية. وتحدث في الأمسيات التالية إلى مواطنين هنغاريين اعتياديين من ضمنهم بنات هوى وسيّدات بيوت وطلاب، فصدمه صدمة شديدة مدى اغترابهم وسخريتهم. ونجم عن سلوكه وسلوك صديقه ورفيقه موريس ماير أمر غير متوقَّع: إذ قررت السلطات أن تحمل الأجانب على محمل الجدّ بشكل أكبر، فأخذتهم إلى كادار نفسه الذي اصطحبهم في إحدى جولاته الخطابية إلى مدينة أُوجست، على بعد ثمانين ميلاً من بودابس. ونجحت الخطة الاستراتيجية، فهي ليست المرة الأخيرة التي ينتشي فيها غارسيا ماركيز بالوصول مباشرة إلى الزعيم. وقال إن كادار يبدو واحداً من العمال الاعتياديين حيث "يذهب إلى حديقة الحيوانات أيام الآحاد ليرمي الفول السوداني للفيَلة"، وإنه فرد متواضع وجد نفسه في السلطة، وليست له على ما يظهر أي شهوات بغيضة وإنّ عليه أن يختار بين مساندة أقصى اليمين الوطني أو يولي ظهره احتلال السوفيات للبلاد كي ينقذها من أجل الشيوعية التي يعتقد بها اعتقاداً عميقاً"[30].

اغتبط غارسيا ماركيز كما يتضح للمناقشات التي جعلته يشعر بشعور أفضل في ما يخص الصورة الكئيبة التي رآها في شوارع هنغاريا. وحلّل تناقضات النظام الشيوعي والأسلوب الذي حُرم به العمال من ثمرات أعمالهم من أجل بناء الدولة الشيوعية، وعبَّر تعبيراً قوياً بالقول إن أعمال السلب كان في الإمكان تجنبها في العام الماضي: "إنها قضية شهوات مكبوتة، وكان في وسع حزب شيوعي متعافٍ أن يوجهها إلى وجهات أخرى"[31]. وخلص إلى القول إن كادار يحتاج إلى من يساعده للخروج من المأزق الذي هو فيه، لكن الغرب لا يهتم إلا بجعل الأمور تزداد سوءاً. وكانت الأمور تزداد سوءاً حقاً، إذ اضطرت الحكومة إلى اعتماد نظام رقابي ذي آثار "بشعة".

لا يعرف كادار ماذا يفعل. ومنذ اللحظة التي وجه فيها نداءه العاجل إلى الجنود السوفيات وألزم نفسه بهم على نحو يتعذر تغييره، اضطر إلى نبذ معتقداته كي يمضي قدماً إلى الأمام. غير أن الظروف كانت تدفع به إلى

الخلف، ووجد نفسه في خضم حملة مضادة لناجي الذي اتهمه بأنه باع نفسه للغرب كوسيلة وحيدة لتبرير انقلابه. طالما أنه لم يتمكن من رفع المرتبات ولا توفير سلع استهلاكية، والاقتصاد محطم، والمتعاونون معه بلا خبرة أو يفتقرون إلى الكفاءة، وطالما أن الشعب لن يغفر لهم دعوتهم الروس للتدخل، وطالما أنه لا يستطيع اجتراح المعجزات ولا يمكنه ترحيل الروس ولا التواري في مدخل جانبي، فإن عليه أن يزج بالناس في السجن ويحتفظ بالرغم من مبادئه بنظام إرهابي أسوأ من النظام السابق الذي حاربه بنفسه[32].

بالرغم من الجهد الذي بذله غارسيا ماركيز في إيجاد الذرائع لكادار، إلا أنه كان في أعماقه مصدوماً ومحبطاً. وفي أوائل شهر أيلول وعند عودته من بودابست إلى باريس اتصل هاتفياً ببلينيو ميندوثا قبل رجوع الأخير إلى كاراكاس. وعلى جهوده الكبيرة والمتواصلة لكتابة تقرير إيجابي عن أيامه في هنغاريا، فقد أوضح: "لا يمكن مقارنة أي مكان رأيناه حتى الآن بهنغاريا"[33]. ومع هذا تظل الرحلة لغزاً لبعض الوقت. وفي منتصف شهر كانون الأول أخبر أمه العائدة إلى كارثاخينا بأن "مجلة فنزويلية موّلت رحلة طويلة"، لكنه لم يفصح عن المكان الذي انتهت إليه الرحلة[34].

عاد غارسيا ماركيز إلى باريس بعد رحلته الطويلة بلا مال ولا مأوى يأوي إليه. "بعد إحدى وخمسين ساعة أمضيتها في القطار، لم يكن في جيبي سوى مسكوكة معدنية مخصصة لاستخدام الهاتف. ولما كنت غير راغب في فقدانها، وكان الوقت مبكراً جداً، فقد انتظرت حلول الساعة التاسعة صباحاً لأتصل بأحد أصدقائي الذي قال لي: *ابقَ في مكانك*. ثم جاء واصطحبني إلى غرفة صغيرة يؤجرها في نيباي وأجّرني إيّاها. وهناك جلست مرة أخرى لأكتب **في ساعة نحس**[35].

بدايةً، وبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يقطن في غرفة صغيرة في باريس أواخر شهر أيلول وتشرين الأول من العام 1957، فإنه كتب انطباعاته عن الرحلة الأخيرة المتشابكة بتجاربه في بولندا وتشيكوسلوفاكيا في عام 1955. وكانت ثمرة ذلك مجموعة من المقالات تظهر لاحقاً على أنها **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي** في عام 1959 بالرغم من أنه نشر ذكرياته عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وهنغاريا على الفور في صحيفة مومينتو (في كاراكاس) بوساطة بلينيو ميندوثا[36]. تشكل هذه المقالات شهادة مدهشة عن لحظة تاريخية معينة ونقداً حكيماً ذا بصيرة

لنقاط الضعف في النظام السوفياتي[37]. وأرسل المقالات إلى معلمه إدواردو ثالاميا بوردا (الملقب بيولسيس) للنشر في الأندبندنت حيث كان يعمل مساعداً لرئيس التحرير فيها. من يدري ما المشاعر التي انتابت رئيس التحرير اليساري القديم وهو يمسك بتلك المقالات ويضعها في درج مكتبه ويدخرها للمستقبل كي يكتشف أمرها غارسيا ماركيز بعد مرور سنتين ويتمكن من نشرها في المجلة الأسبوعية كروموس[38].

في غضون ذلك، كانت تاتشيا قد أمضت تسعة أشهر في إسبانيا: "بعد قصتي مع غابرييل أمضيت ثلاثة أعوام مشتتة تماماً: جريحة، ساخطة، كل علاقاتي انتهت نهاية مأساوية، وبلا رجل". كانت قد سافرت مباشرة إلى مدريد في كانون الأول، قبيل حلول فترة الميلاد، وحصلت على وظيفة، إذ اشتغلت مع فرقة مسرحية تابعة لمارتيثا كابابيرو، من أثرياء فنزويلا، وأدت دوراً ويا للمفارقة، في مسرحية أنتيغونا، وهي المسرحية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً برواية غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق**: وكان دورها هو إيسمينا شقيقة أنتيغونا.

ثم عادت أدراجها إلى باريس: "اصطحبتني مديرتي مارتيثا كابابيرو بسيارتها من طراز ميرسيدس إلى هناك، وكانت تجربة رائعة، وفي يوم من الأيام شاهدته؛ بأسرع مما كنت أتوقع" وراء الواجهة الزجاجية لما يعرف اليوم باسم مقهى لوكسمبورغ في شارع سان ميشيل. فدخلت المقهى وتحدثا وقررا أن "ينهيا ما بينهما نهاية ملائمة". وذهبا إلى فندق رخيص على مقربة منهما وأمضيا الليلة معاً. "كانت الأمور صعبة، مؤلمة ولكنها أفضل. وكان ذلك اللقاء قبل مغادرته باريس بوقت غير طويل. وبعد ذلك الفراق عام 1957 لم ألتقِ غارسيا ماركيز حتى عام 1968"[39].

شارف وقت وجود غارسيا ماركيز في باريس على الانتهاء تقريباً. وكان ديغول قد عاد إلى السلطة في حزيران لإنقاذ الجمهورية الرابعة من ضياع الجزائر. ولكنه بدلاً من ذلك أعلن عن بدء الجمهورية الخامسة وخلّص الفرنسيين من أنفسهم بالتخلي عن الجزائر.

في مطلع تشرين الثاني، وبعد مرور أسبوعين على إعلان فوز ألبير كامو بجائزة نوبل للأدب، انتقل غارسيا ماركيز إلى لندن[40]، حيث عزم على البقاء فيها أطول مدة ممكنة، كما بقي في باريس، معتمداً على المقالات التي كان يأمل

في نشرها في صحيفة الأندبندنت وفي المجلة الفنزويلية مومينتو التي بات الآن بلينيو ميندوثا رئيس تحريرها. غير أن ميندوثا لم ينشر سوى مقالتين اثنتين منها وهما "زرت هنغاريا" و"كنت في روسيا" في أواخر شهر تشرين الثاني. لقد أراد غارسيا ماركيز دوماً دراسة اللغة الإنكليزية، وكانت رحلته إلى أوروبا الشرقية قد أكدت له بكل وضوح أهميتها المتزايدة لأن ما من أحد هناك كان يتكلم اللغة الإسبانية. وكان قد أبدى اهتماماً بالشؤون البريطانية - بالملكية وبالسياسيين (إيدن وبيفن وماكميلان) منذ وصوله إلى أوروبا بالرغم من أن اهتمامه المعلن لم يكن إلا بالانحطاط النموذجي لبريطانيا. وبالرغم من أن إسبانيا في ظل فرانكو كانت بعيدة عن الحدود الإيديولوجية (وربما خشي هو نفسه أيضاً من إمكانية القبض عليه هناك في ضوء العلاقات الوثيقة بين إسبانيا وكولومبيا واحتمال أن يكون على اللائحة السوداء لحكومة روخاس بينيّا)، فقد أمضى أفضل أشهر السنة مع امرأة إسبانية، كما أن زيارة إلى دولة أوروبية استعمارية قديمة أخرى كانت جزءاً منطقياً من خطته الكبرى. ومما يثير الدهشة هو النطاق الواسع الذي يتمكن من مشاهدته في أوروبا الشرقية والغربية في ضوء الصعوبات التي اكتنفت ذلك الزمان وضيقه المادي. بيد أن محاولة السكن في لندن، بأقصى درجات التقشف من دون معرفة اللغة ومن دون صلات أميركية لاتينية كالتي كانت متوفرة دائماً في باريس، تعد محاولة شجاعة.

مكث زهاء ستة أسابيع في غرفة فندق صغير في حي ساوث كينزنغتون، ولكنه لم يواصل كتابة روايته **في ساعة نحس**، بل واصل كتابة قصص أخرى متفرعة عن الرواية، فعشقها القراء عند ظهورها في مجموعة **جنازة الأم الكبيرة** وقصص أخرى. وكما هو شأن روايته القصيرة عن العقيد ومرتبه التقاعدي، وعلى العكس من روايته **في ساعة نحس**، فإن تلك القصص لم تكن تدور حول السلطات قاسية القلب التي تحكم البلدات الصغيرة التي تجري فيها الأحداث، بل حول فقراء يفعلون ما في وسعهم لمواجهة المصائب والويلات، مثلما كان يواجه هو نفسه سنته الكئيبة في باريس. إنها قصص ذات ملامح إنسانية وقيم إيجابية، على غرار قصص ثاباتيني. وبالرغم من أهدافه العظيمة، إلاّ أنه لم يمنح نفسه إلا

فرصة ضئيلة لتعلم اللغة المحلية، وإن كان يذهب في أيام السبت والآحاد إلى حديقة هايد بارك يستمع إلى المتحدثين في ركن الخطباء. ويمكن أن تكون مقالته "يوم سبت في لندن" التي لخص فيها على نحو فولكلوري تجاربه في العاصمة البريطانية "أفضل مقالة صحافية كتبها في أوروبا"[41]. وقد كتبها وهو لا يزال في لندن ونشرتها صحيفة الناسيونال في كاراكاس وصحيفة مومينتو في كانون الثاني عام 1958. ويشير فيها:

> **عندما وصلت إلى مدينة لندن، ظننت أن الإنكليز يكلمون أنفسهم في الشوارع، لكنني عرفت في ما بعد أنهم يتفوهون بكلمة *آسف*. وفي أيام السبت، وفي حين يتوافد سكان المدينة كلهم إلى ساحة بيكاديلي، يصعب السير من دون أن يصطدم الواحد بالآخر. ثم يتعالى صوت جوقة موحدة في الشارع وهي تقول: *آسف*. وبسبب الضباب، فإن الشيء الوحيد الذي عرفته عن الإنكليز هو نغمة أصواتهم. كنت أسمعهم يعتذرون في ظل منتصف النهار مسترشدين بآلاتهم مثل طائرات تسترشد الطريق وسط عتمة الضباب. أخيراً شاهدتهم في هذا السبت الأخير – وتحت نور الشمس – للمرة الأولى. كانوا يأكلون الطعام وهم يسيرون**[42].

ولكن كانت لديه شكوى واحدة رئيسية، كما قال لاحقاً لماريو فارغاس يوسا الذي كان يعيش هو الآخر في لندن في تلك الآونة، ألا وهي غياب التبغ الأسود. فقد أنفق مالاً كثيراً لشراء سجائر الغلواز المستوردة. ثم يقول أيضاً إن لندن جذبته على نحو غريب: "أنت محظوظ إذا كنت في مدينة هي الفضلى لأسباب غامضة إن شئت الكتابة فيها، فضلاً عن أنها أفضل المدن في العالم كما أظن. لقد زرتها على أساس أنني سائح، لكن شيئاً ما اضطرني إلى أن أغلق باب الغرفة ورائي وأسبح في دخان التبغ. وفي غضون شهر واحد كتب كل قصص **جنازة الأم الكبيرة** تقريباً. لقد هدرت الزيارة ولكنني ربحت كتاباً"[43].

في الثالث من كانون الأول أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى والدته في كارثاخينا عن طريق ميرثيديس في بارانكيا، ذكر فيها أنه كتب رسالة إلى العمة ديليا في بوغوتا معزياً إيّاها بوفاة زوجها خوان دي ديوس شقيق أمه لويسا سانتياغا الوحيد. كانت خطط غارسيا ماركيز في تلك الآونة لا تزال مرنة بالرغم

مـــن قوله إنه فكّر في العودة إلى البيت عما قريب: "مضى على وجودي في لندن أسبوعان وأنا أعد العدة للرجوع إلى كولومبيا. أعتقد أنني سأزور في الأسبوعين المقبلين باريس زيارة سريعة، ومنها إلى برشلونة ومدريد - ما دامت إسبانيا هي البلد الأوروبـــي الوحيد الذي لا أعرفه - وبهذا سأكون في كولومبيا بحلول فترة الميلاد أو رأس السنة على أكثر تقدير: لم أتعب بعد من التطواف حول العالم، لكن ميرثيديس ظلت تنتظر منذ زمن طويل بالرغم من أنها لا تزال تملك شيئاً من الصبر؛ إن لم أكـــن مخطئاً. لكن هذا ليس عدلاً، لأنني إن كنت تعلمت شيئاً واحداً في أوروبا، فهـــو أن النساء لسن كلهن بالثبات والرزانة اللذين تتصف بهما"(44). وقال إنه لا يملـــك مالاً ولا عملاً بالرغم من أن صحيفة الاسبكتادور قطعت وعوداً. وطلب مـــن والدته أن تُهيِّئ له نسختين من شهادة ميلاده قائلاً: "صدقي أو لا تصدقي: إنني لم أتزوج في أوروبا".

وبعد أقل من أسبوعين من ذلك، وفي السادس عشر من كانون الأول، تلقى بـــرقية غير متوقعة من كاراكاس، عرض فيها رئيس بلينيو ميندوثا في الصحيفة أن يمنحه تذكرة سفر بالطائرة إلى العاصمة الفنـــزويلية للعمل معه في صحيفة مومينتو ومع ميندوثا. كان العرض رائعاً لا يستطيع رفضه في ضوء افتقاره إلى الخيارات في لندن، تلك المدينة التي قال عنها لاحقاً: "يصعب على أي أجنبـــي أن يحيا فيها من دون أدنى مبلغ من المال"(45). وبالرغم من ذلك، اتّصل بميندوثا ليقول له إن مجنوناً اتصل به من كاراكاس يشكو له سوء حظه - حظ المجنون - ويعرض عليه عملاً. فأكـــد له ميندوثا بأن كارلوس راميريث ماك غريغور كان حقاً مجنوناً لكن العمل حقيقـــي. فما كان من غارسيا ماركيز إلاَّ أن سافر جواً من لندن قبيل الميلاد، إلى فنـــزويلا وليس إلى كولومبيا التي سبق له أن قطع وعداً بالسفر إليها.

قال لي غارسيا ماركيز بعد أربعين عاماً: "عندما فقدت العمل في أوروبا في مطلع عام 1956، تركت الأمور تسير على هداها كما في بارانكيا. لقد كان في وســـعي أن أحصل على عمل ما بسهولة مع صحيفة أخرى، لكنني ظللت هائماً على وجهي على مدى عامين إلى أن توقفت وعدت إلى شؤوني. لكنني في معظم ذلك الوقت كنت أستجيب لعواطفي، ولعالمي الداخليّ. كانت لديّ تجاربـــي،

وصنعت لي عالماً شخصياً يخصني. إن معظم مواطني أميركا اللاتينية يحصلون على الثقافة عندما يكونون في أوروبا. أما أنا، فلم أحصل على أي شيء من ذلك القبيل"[46].

-12-

فنزويلا وكولومبيا:
ولادة الأم الكبيرة
1959-1958

سافر غارسيا ماركيز جواً إلى مطار مايكيتيا في فنـــزويلا في الثالث والعشرين مـــن كانـــون الأول عام 1957 بعد أسبوع واحد من تسلمه البرقية من العاصمة كاراكاس. كان مفعماً بالحماسة والآمال بعد سفره عن طريق لشبونة حيث كانت الثلوج تتساقط فيها، ثم حلّق بعيداً عن أوروبا وهبط في باراماريبو عاصمة سورينام حـــيث كـــان الجو خانقاً تفوح منه رائحة فاكهة الغوافة، ورائحة طفولته[1]. كان يرتدي بنطالاً من الجينـــز الأزرق وقميصاً من البوليستر البني ابتاعهما من متجر بيع بالتنـــــزيلات في شارع سان ميشيل، وكان يغسلهما كل ليلة. أما بقية حاجياته، فكـــان يـــضعها في حقيبة واحدة مملوءة بمخطوطات رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** والقـــصص القصيرة التي بدأ بكتابتها في لندن والرواية التي لا تزال بلا اسم وهي **في ساعة نحس**. يتذكر ميندوثا أنه أقلّ صديقه في حدود الساعة الخامسة عصراً وكانت أخـــته سوليداد برفقته، وطاف به في جولة قصيرة في مركز العاصمة كاراكاس ثم اصطحبه إلى ضاحية سان بيرناردينو الجميلة وأنـــزله في نُزل يملكه مهاجرون إيطاليون.

كانـــت زيـــارة غارسيا ماركيز إلى فنـــزويلا هي أول زيارة له إلى لبلد من بلـــدان أميركـــا اللاتينية عدا كولومبيا. كانت كاراكاس مجموعة من مدن صغيرة مـــتقاربة، عدد سكانها زهاء المليون ونصف المليون نسمة. وفي أثناء قيادة ميندوثا سيارته البيضاء المكشوفة من الأعلى من طراز أم جي سبورت، سأله غارسيا ماركيز وسأل سوليداد أيضاً عن موقع المدينة. كانت كاراكاس في تلك الآونة شريطاً مدينياً

متراميـــي الأطراف، بغير انتظام، تهيمن عليه المركبات، ويتألق باللون الأبيض على ســـفوح خـــضراء وقمة جبل أبيلا البنفسجية الزاهية. كانت أشبه بمدينة من مدن أميركا الشمالية في المنطقة المدارية. وكانت فنـــزويلا في قبضة دكتاتورية عسكرية لا تـــرحم ليست هي الأولى. الحق أن موطن بطل التحرير العظيم سيمون بوليفار كان يفتقر إلى موروث أو تجربة للديمقراطية البرلمانية. وكان الجنرال البدين ماركوس بيريث خيمينيث الحاكم المطلق في البلاد على مدى ست سنوات طويلة، ولكنه أنتج ازدهـــاراً صناعياً استند إلى صناعة البترول التي أطلقت حملة واسعة من البناء وشق الطرقات لم تعهدها بعد أي دولة أخرى من دول أميركا اللاتينية(2).

كان مالك صحيفة مومينتو كارلوس راميريث ماك غريغور الذي يطلق عليه موظفـــوه صـــفة "المجنون" نحيلاً، أصلع الرأس، وعلى حدّ قوله، هو نفسه معرضاً لنوبات من الهستيريا. وكان يرتدي بذلات مدارية بيضاء اللون مجعدة، يمضي معظم حـــياته وعلى عينيه نظارة داكنة كانت شائعة يومئذٍ في عموم أميركا اللاتينية التي كانت تسيطر عليها دكتاتوريات عسكرية. وبلغ به انشغاله حدَّ أنه لم يردّ حتى على تحـــية غارسيا ماركيز لدى وصوله إلى العمل في يومه الأول. ربما لم يتمكن، شأنه شـــأن سلفه في صحيفة الاسبكتادور غييرمو كانو، من التوفيق بين الهيكل العظمي الواقف أمامه مكسواً بملابس صارخة الألوان والصورة التي رسمها ميندوثا عن أديب وصحافي بارز عزّز من شهرته الواسعة أصلاً إبان السنتين ونصف السنة في أوروبا.

غـــير أن غارســـيا ماركيز لم تثبِّط همته. وفي وقت لاحق سيصف لنا الوقت الـــذي أمـــضاه في كاراكاس بوصفه وقتاً شعر فيه بأنه "سعيد وغير مزود بوثائق" (وهـــو العنوان الذي سيختاره في ما بعد لمجموعة المقالات التي كتبها هناك) بالرغم مـــن أنـــه لم يـــشعر بالارتياح على الفور. فبعد القيود الأوروبية الضبابية، وجد الفنـــــزويليين متغطرسين متكبرين إلى حدٍّ ما. ومع هذا، فقد ذكّره الجو العام في كاراكـــاس بحياة البهجة والحبور والعفوية المدارية التي عشقها في بارانكيا مع فارق واحد لصالح هذه المدينة وهو أنها عاصمة هذا البلد الكاريبـــي الغريب.

احـــتفل غارسيا ماركيز وميندوثا اللذان فرحا فرحاً شديداً لاجتماع شملهما مرة أخـــرى في المـــيلاد ورأس السنة في بيت ألفيرا وهي شقيقة أخرى من شقيقات بلينيو.

وشعر غارسيا ماركيز الذي أمضى معظم أيام السنة الماضية وحيداً، وكانت إقامته القصيرة في لندن منعزلة عن الآخرين أيضاً، بالغبطة والسرور عندما وجد أمامه جمهوراً مُصغياً، على مضض أحياناً، إلى أفكار لا تنتهي لقصصه وقد زادت زيادة ملحوظة منذ أن شاهد مجمع التصوير الهائل في روما والتقى كاتب النصوص السينمائية ثاباتيني. لم يكن ميندوثا قد عاش من قبل على مقربة من غارسيا ماركيز الذي أصبح له الآن مأوىً ووظيفة مستقرة وعما قريب ستتولاه الدهشة عندما يرى أن صديقاً عمل بمثل هذه القوة في مكتب الصحيفة، تمكن بالرغم من ذلك من أن يحيا حياة أخرى منفصلة تماماً: "لاحظت في كل مكان انهماكه السري في كتابة الرواية والطريقة التي كان يستنبطها من أجل مواصلة تأليف كتبه. ووصل بي الأمر أنني شاركت في تلك الشيزوفرينيا التي استحكمت في روائيّ استطاع يوماً فيوماً أن يحيا في ظل شخصياته وكأنها مخلوقات تعيش حياتها الخاصة بها. وكان يسرد عليّ أحداث كل فصل قبل أن يبدأ بكتابته"(3).

حلّت أهم لحظة لا تُنسى في مجمل إقامة غارسيا ماركيز في فنزويلا أواخر الأسبوع الأول تماماً. ففي الخامس عشر من كانون الأول، أي قبل أيام من سفره من لندن إلى كاراكاس، ثُبِّت بيريث خيمينيث في منصبه إثر استفتاء شعبيّ تمّ التلاعب به على نحو فضائحي. وفي عصر يوم الأول من كانون الثاني عام 1958، وبعد إعداد العدد الخاص بنهاية السنة والاشتراك في احتفالات رأس السنة المعربدة في الليلة السابقة، خطط غارسيا ماركيز وميندوثا وشقيقاته للسفر إلى الشاطئ. ولكن فيما كان كل واحد منهم يجمع المناشف وثياب السباحة، راود غارسيا ماركيز إحساس غامض بقرب حدوث مكروه، وهو أمر شائع بين أفراد أسرته وفي رواياته فضلاً عن حياته التي يتعذر توقعها دائماً. قال مخاطباً بلينيو: "تباً! لديّ شعور بأن شيئاً ما سيحدث". ثم أضاف على نحو خفي بأن ينتبه كل واحد منهم إلى نفسه جيداً. وبعد بضع دقائق كانوا قرب النافذة يراقبون قاذفات قنابل تحلّق فوق سطوح مباني المدينة ويصغون إلى صوت البنادق الآلية وهي تطلق نيرانها. وفي تلك اللحظة جاءت سوليداد ميندوثا بعد تلكؤ إلى المبنى وهتفت وهي لا تزال في الشارع: لقد حدث تمرد في قاعدة جوية في مدينة ماراكاي والقصف الجوي طال القصر الجمهوري في ميرافلوريس. فهرع الجميع إلى السطح لمراقبة المشهد(4).

قُمع التمرد، لكن كاراكاس غرقت في الفوضى وأعقب ذلك ثلاثة أسابيع مثيرة من القلق والتآمر والقمع. ومنذ العاشر من كانون الثاني، وبعد سنوات من الإرهاب والوعيد، بدأت حشود المتظاهرين تتحدى الشرطة في احتجاجات عمّت العاصمة. وفي عصر يوم ما كان الكولومبيان خارج المبنى عندما داهمت الشرطة السرية الوطنية مكتب صحيفة مومينتو واعتقلت جميع من فيه من الموظفين ونقلتهم إلى مقرها. كان مدير الصحيفة في نيويورك فيما كان غارسيا ماركيز وميندوثا يمضيان النهار كله وهما يطوفان في جميع أرجاء المدينة التي مزقتها الأزمة بسيارة أم جي إلى وقت حلول حظر التجوال، وبهذا تفاديا الاعتقال وجمع مواد الصحيفة. في الثاني والعشرين من كانون الثاني، توقفت جميع الصحف الفنزويلية عن العمل تمهيداً لإضراب عام دعت إليه "مجموعة وطنية" من زعماء الحزب الديمقراطي من مدينة نيويورك. وصل التوتر في تلك الليلة ذروته، ومكث الصديقان في شقة ميندوثا يستمعان إلى الأخبار. وعند الساعة الثالثة صباحاً سمعا صوت محرك طائرة فوق أسطح المدينة وشاهدا أضواء طائرة بيريث خيمينيث وهي تقله بعيداً إلى منفاه في سانتو دومينغو. فغصَّت الشوارع بالناس وهم يحتفلون ابتهاجاً بالأخبار، وظلت السيارات تطلق أبواقها حتى الفجر[5].

بعد رحيل بيريث خيمينيث بثلاثة أيام كان غارسيا ماركيز وميندوثا ينتظران في غرفة داخلية في قصر بلانكو مع حشد من رجال الصحافة المتلهفين للإطلاع على ما قرره العسكر خلال الليل بشأن مكانة المجموعة الحاكمة التي أُعلن عنها أخيراً. وفجأة، فُتح الباب وتراجع أحد الجنود إلى الخلف، إذ اتّضح أنه كان في الجانب الخاسر من القضية، وخرج من الغرفة وبندقيته الآلية على أهبة الاستعداد، تاركاً خلفه آثار خطوات طينية على الأرض ومضى إلى المنفى بعيداً عن القصر. يقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق: "في تلك اللحظة، اللحظة التي خرج فيها الجندي من الغرفة التي كان النقاش فيها دائراً حول أسلوب تشكيل الحكومة الجديدة، خامرني أول شعور بالسلطة، ولغز السلطة"[6]. وبعد بضعة أيام تحدث غارسيا ماركيز وميندوثا مطولاً مع كبير الخدم في القصر الجمهوري في ميرافلوريس، وكان رجلاً اشتغل لخمسين عاماً عند كل رؤساء فنزويلا منذ الأيام

الأولى لحكم الرجل القوي والبطريريك خوان بيثينتي غوميث الذي حكم البلاد منذ عـام 1908 وحتى عام 1935، وكانت سمعته تقشعرّ لها الأبدان. وبالرغم من هذا، فقـد تكلـم كبير الخدم عنه بتقدير خاص وحنين لا يرقى إليه شك. كان غارسيا ماركيـز حـتى ذلك الوقت، يتخذ مواقف ديمقراطية إزاء الدكتاتوريين. لكن هذه المـواجهة دفعـته للـتفكير: لماذا تنجذب قطاعات عريضة من السكان إلى هذه الشخـصيات؟ وبعد أيام قال لميندوثا إنه بات منجذباً إلى فكرة تأليف رواية كبيرة عـن دكتاتور، وهتف: "ألم تلاحظ عدم وجود دكتاتور بعد؟"[7]. وفي نهاية الأمر يكون غوميث نموذجاً أساسياً، وربما النموذج الأساس لرواية **خريف البطريرك**.

بعد هذه المواجهات المحفزة للأفكار، يقرأ غارسيا ماركيز رواية **الخامس عشر مـن آذار** للروائي ثورنتون وايلدر، وهي استعادة لأيام يوليوس قيصر الأخيرة. ولما تذكّر رؤيته الخاصة لجثة ستالين المحنطة في موسكو، بدأ يجمع التفاصيل التي ستؤدي في نهايـة المطاف إلى ظهور دكتاتوره الخاص إلى الحياة، كاشفاً عن الهوس بالسلطة والقوة، والعجز والعزلة، وهو الهوس الذي ظل يسكن خياله منذ طفولته. ويستذكر ميـندوثا أن صـديقه الذي لا يعرف الكلل أمضى شطراً كبيراً من الوقت في تلك الأيام يقرأ عن مجموعة الطغاة في أميركا اللاتينية، فيستمتع بها خلال تناولهما طعام الغـداء في مطعم محلي بتفاصيل ممتعة ورمزية عن حياتهم، فيطور صورة لأولاد بلا آباء، ورجال يعتمدون اعتماداً كبيراً على أمهاتهم، وشهوة لا تُشبع للاستحواذ على "ممـتلكات الأرض"[8]. (عُرف عن غوميث أنه كان يحكم فنـزويلا كأنها زريبة حـيوانات كـبيرة). وبدأت معالم الرواية الجديدة تتضح إلا أنها استغرقت سنوات طويلة قبل أن يؤتي المشروع ثماره كاملة.

ومع هذا، فإن غارسيا ماركيز كان في المحيط الملائم له، على الأقل في الوقت الراهن. وكانت استجابته لحالة الخفة والنشاط وفرص البيئة الجديدة استجابة مواطن فنـزويلـي، فبدأ ينحو منحى خطاب بلاغي أكثر وضوحاً بشأن حقوق الإنسان والعدل والديمقراطية. وقد حكم عدد كبير من القراء على مقالاته لصحيفة مومينتو علـى أنها من بين أفضل ما كتبه طوال حياته. وفي حين كانت وجهه نظر المتكلم أيام وجوده في أوروبا قد منحت المصداقية والعفوية لتقاريره، فإنه مضى قُدماً الآن

نحـــو إحساس بتجرد شبه لاشخصي عزز من وضوح ما يطرحه وما ينطوي طرحه عليه من عاطفة[9].

بعـــد أســـبوعين على سقوط بيريث خيمينيث، كتب غارسيا ماركيز مقالة تـــستند إلى بحث عميق بعنوان "مشاركة رجال الدين في الصراع"[10]، أوضح فيها دور الكنيسة الفنـــزويلية ككل وشجاعة بعض رجال الدين على وجه الخصوص، لا ســـيما رئيس الأساقفة في كاراكاس، في الإسهام في إسقاط الدكتاتور في وقت استـــسلم فيه عديد السياسيين الديمقراطيين. كان غارسيا ماركيز ينطلق من وعيه الـــشديد بتأثير الكنيسة المستمر في الحياة السياسية في أميركا اللاتينية، وأشار كثيراً في مقالته إلى"عقيدتها الاجتماعية". لم يكن موقفه موقفاً ذرائعياً وحسب، بل كان أيـــضاً ذا بصيرة لأن يوحنا الثالث والعشرين سيصبح البابا الجديد في تشرين الأول من ذلك العام، في وقت بدت فيه تباشير الخير لما أصبح يعرف على الفور باللاهوت المتحـــرر في أميركـــا اللاتينية. ويصبح صديقه منذ أيام الدراسة الجامعية في بوغوتا كاميلو توريس أشهر قسيس في جميع أرجاء قارة أميركا اللاتينية لاشتراكه في حرب العصابات المستندة إلى أسس دينية جديدة.

وفي يـــوم من أيام شهر آذار كان غارسيا ماركيز جالساً يحتسي الشراب مع بلينـــيو ميـــندوثا وخوسيه فونت كاسترو وغيرهما من الأصدقاء في مقهى غران في كاراكـــاس، نظر إلى ساعته وقال: "تباً! ستفوتني طائرتي". فسأله بلينيو عن وجهته فأجاب: "لأتزوج". ويتذكر فونت كاسترو ويقول: "لقد تولتنا الدهشة كلنا لأننا لم نكن حتى نعلم أن لديه صديقة"[11]. كانت قد مضت اثنتا عشرة سنة تقريباً منذ أن طلب غارسيا ماركيز من ميرثيديس أن تتزوجه وأكثر من ست عشرة سنة، كما يقـــول، منذ أن قرر أول مرة أن تكون هي زوجته. لقد بلغ الحادية والثلاثين، فيما بلغـــت هي الخامسة والعشرين، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر إلا قليلاً، باستثناء معرفة بعضهما عن طريق الرسائل. من ناحية أخرى، كان بلينيو ميندوثا يعرف عن علاقـــة غارســـيا ماركيز بتاتشيا كوينتانا – التي سألته في رسائلها إليه إن كان في وســـعها أن تعثر على عمل في فنـــزويلا – كما أن شقيقته سوليداد التقت الممثلة الإسبانية وعقدت معها صداقة عميقة الأواصر. ووصل بها الأمر أنها سألت غارسيا

ماركيــز بعد وصوله إلى كاراكاس بوقت قصير عن السبب الذي دفعه للتخلّي عن مثل تلك المرأة. وتنتقل ميرثيديس في ما بعد إلى عالم زوجها الجديد الذي لا تعرف هــي شخــصياً أي شــيء عــنه تقريباً، وأقل بكثير مما يعرفه معظم الناس الذين سيحيطون بها في ما بعد. وستمضي سنون قبل أن تشعر بثقة تامة بموقعها كامرأة في حياة هذا الرجل الذي يبدو أنه شخص منبسط ولكنه كتوم وغامض إلى حدٍّ بعيد أيضاً.

لم تحظَ الأسرة في كولومبيا برؤية غابيتو منذ ثلاث سنوات تقريباً، وحتى قبل ذلك التاريخ لم يشاهدوه سوى مرة أو مرتين منذ أواخر العام 1951 عندما رجع إلى بارانكــيا بعد أن بقي معهم مدة قصيرة في كارثاخينا. لقد سارت أمور الأسرة نحو الأسوأ في كارثاخينا حتى وقت قريب، بل ظلت شاقة حتى في تلك الآونة. على كل حال، لقد بيع أخيراً منــزل العقيد القديم في آراكاتاكا في الثاني من آب عام 1957[12]. وكان ثمن الإيجار قد انخفض انخفاضاً شديداً لأن البيت تداعى رويداً رويداً وقررت أســرة غارســيا ماركيز في نهاية المطاف أن تبيعه لقاء سبعة آلاف بيزوس لزوجين فلاحــين فقيريــن ربحا مؤخراً جائزة اليانصيب المحلي. وساعدت تلك النقود على إكمــال البيت الجديد الذي كان يشيّده آنذاك غابرييل إليخيو في بــي دي لا بوبا في كارثاخينا.

كانــت لويــسا متحمسة بخصوص ضمان حصول غابيتو على أفضل تعليم ممكن - لعلها قطعت مثل هذا الوعد لوالدها قبيل وفاته - لكن رويداً رويداً انهكتها الحــياة، فهي أم لأحد عشر طفلاً، ويبدو أن انشغالها في بادئ الأمر بتعليم البنات الأكبر سناً حفزته رغبتها في إبقائهن بعيداً عن براثن "الفلاحين المحليين" في سوكري أكثر مما حفزته مساعدتهن لتحقيق مستقبل. ومن إحدى نتائج ذلك هو أن عايدة، التي أنهت التعليم الابتدائي في مدرسة الراهبات الساليسينيات(*) في مدينة كارثاخينا بعــد تخرجها في سانتا مارتا، قررت فجأة أن تتحول إلى راهبة ورحلت إلى ميدلين قبل عامين من عودة غابيتو عام 1958. وقد عارض كل من غابرييل إليخيو ولويسا ســانتياغا قــرار عايدة آنذاك - تماماً مثلما استهجنَا علاقتها برافائيل بيريث، ذلك الفــتى الــذي أراد أن يتزوجها في سوكري - لكن بلا جدوى. على كل حال،

سرعان ما ستدفع الأسرة ثمناً فادحاً لقاء أسلوب غابرييل إليخيو المتساهل في التعليم إذ إن كوكي (ألفريدو) المراهق آنذاك، زاغ عن الطريق ووقع ضحية المخدرات التي كانت مشكلة عجلت في وفاته.

في غضون ذلك، كانت الابنة الصغرى ريتا قد تورطت في قصة حب كادت أن تصل إلى مستوى قصة حب روميو وجولييت. "لم يكن إلا حبيباً واحداً وهو زوجي ألفونسو توريس. لقد عدت إلى كارثاخينا قادمة من سينثي في تشرين الثاني عام 1953 والتقيته في كانون الأول في بيت أخته التي كانت جارتنا. وهناك بدأت المأساة لأن الجميع كانوا يكرهونه باستثناء غوستافو"[13]. كانت ريتا في الرابعة عشرة عندما التقت ألفونسو وعارضت الأسرة تلك العلاقة معارضة شديدة. و لم تشفع لألفونسو الوسيم جداً سحنته السوداء. وبالرغم من الصعاب الجمة ظل ألفونسو وريتا يلتقيان سراً على مدى أربعة أعوام. وفي يوم ما بلغ بها الانزعاج مبلغاً شديداً بسبب الحالة التي هما عليها مما دفعها لقصّ شعرها كله احتجاجاً على موقف والديها اللذين لم يكونا يسمحان للشاب حتى بدخول منزلهما. لم يكن الأبوان يريدان لأي من بناهما الزواج (وكما هو شأن عايدة، فقد كان لمارغوت صديقها رافائيل في سوكري وهو رافائيل بيينو، وفي الآونة التي قررت فيها أن تتحدى أبويها، أصبحت فتاة أخرى حاملاً منه، فما كان من مارغوت إلاّ أن أدارت ظهرها للحب إلى الأبد). وهنا يأتي الأخ الأكبر غابيتو لإنقاذها بعد أن كانت قد قرأت بعض قصصه في المدرسة (وتتذكر منها على وجه الخصوص قصة **الناجي من الغرق**).

حصل غارسيا ماركيز على إجازة من المجلة أمدها أربعة أيام وسافر بالطائرة إلى بارانكيا حيث مكث في فندق الحمراء القديم في الشارع 72 ووصل خالي الوفاض لأن "الثياب غالية جداً في كاراكاس" على حدّ قوله[14]. تقول ميرثيديس بإصرار إنه "حضر فجأة" إلى بيتها، لكن يُعتقد أنه اتصل بها قبل مجيئه و لم يكن كلامه سوى جزء من ذلك الكلام الهازل المعاد الذي دأبا عليه كليهما إذا سألهما أحد ما عن توددهما وزواجهما. وقد أخبرتني أنها تتذكر تماماً أنها كانت مستلقية على سريرها في بيتها الكائن فوق الصيدلية عندما هتفت لها إحدى أخواتها: "لقد وصل غابيتو"[15]. لكنها لا تزال ترفض القول إنها كانت متشوقة أو مندهشة لمجيئه.

في تلك الليلة وصل لويس إنريكي بالطائرة من ثيناغا وذهب برفقة غابيتو وفوينمايور وفارغاس إلى "الكهف" لتمضية ليلة ساهرة.

تزوج الاثنان عند الحادية عشرة من صباح اليوم الحادي والعشرين من شهر آذار عام 1958 في كنيسة بيربيتو سوكورو الكائنة في شارع دي خوليو 20 بعد خطوبة دامت أقل من ثلاثة أعوام[16]. وقد حضر مراسم الزواج معظم رفاق "الكهف". ويتذكر ألفونسو فوينمايور غابيتو الذي بدا ذاهلاً من رزانة الموقف، وكان يبدو أكثر نحافةً من أي وقت مضى ببذلته الرمادية داكنة اللون، وربطة عنقه المثبتة بعناية حول رقبته، وهو أمر نادر الحدوث. ووصلت العروس متأخرة جداً مرتدية ثوباً أزرق اللون طويلاً ومدهشاً وواضعةً خماراً. وأُقيمت حفلة الاستقبال في صيدلية والدها في نهاية الشارع[17].

سافر الزوجان إلى كارثاخينا بعد يومين من زواجهما لزيارة أقرباء ميرثيديس الجدد. لا بد من أن لويسا تولتها الدهشة عندما شاهدت ابنها الأكبر وقد تزوج بعد أن أمضى وقتاً طويلاً بعيداً. وانتهز ألفونسو الفرصة لترتيب لقاء مع شقيق صديقته الأكبر في بهو مثلجات ميرامار. وفي صباح اليوم التالي، وفيما كانت ريتا تغادر المدرسة، قالت لها لويسا: "لقد تكلم غابيتو مع ألفونسو يوم أمس وسيتكلم اليوم مع أبيك، وسيتقرر وضعك في هذا اليوم". وسمعت ريتا في ما بعد شقيقها وهو يقول لأبيه: "آن الأوان لك كي تبيع البضاعة". وأخيراً سُمح لألفونسو بدخول البيت. وقال في محاولة لإيضاح نيته الجادة إنه على استعداد للانتظار سنة أخرى إلى أن تكمل ريتا دراستها في المدرسة الثانوية. أما غابرييل إليخيو فقال في محاولة لإظهار عدم جديته إنه لا يحبذ فترة خطوبة طويلة وإن على الاثنين أن يتزوجا سريعاً. وتمّ كل شيء خلال ثلاثة أشهر، وبهذا لم تتخرج ريتا من مدرستها. وعوضاً عن ذلك أنجبت خمسة أطفال وعملت في وظيفة حكومية محلية لإعالة أسرتها على مدى سنوات زواجها الخمس والعشرين. أما ألفونسو توريس، أصبح شيئاً فشيئاً رجل أسرة غارسيا ماركيز في كارثاخينا[18].

يتذكر ييو، وهو أصغر أولاد غارسيا ماركيز[*]، زيارة غابيتو الخاطفة بعد أربعين سنة: "لقد تزوج منذ وقت قصير وجاء إلى كارثاخينا برفقة ميرثيديس

لتمضية شهر العسل أو ليودِّعنا، أو لكلا السببين. لا أدري. إلا أنني أتذكرهما تماماً: كانا يجلسان على الأريكة في ردهة ذلك البيت الكبير في بار لا بوبا حيث أمضيتُ سِني مراهقتي، يتحدثان بلا انقطاع ويدخنان. كانا يدخنان بشراهة، في الردهة وفي المطبخ وإلى مائدة الطعام، وحتى في السرير حيث كان لكل واحد منهما منفضة وثلاث علب من السجائر. كان نحيفاً، وكانت هي الأخرى نحيفة. كان متوتراً ذا شارب رفيع كقلم الرصاص. أما هي فكانت تشبه صوفيا لورين شبهاً كبيراً"[19].

لم يطل بقاؤهما بين الأسرة والأصدقاء كثيراً إذ سرعان ما سافر الزوجان بالطائرة إلى كاراكاس عبر مدينة مراكيبو. وكما أخبرتني إحدى صديقات طفولة ميرثيديس، فإن الطفلة الصغيرة التي كانت تستند إلى أحد الجدران في فناء يغمره نور شمس ما بعد الظهيرة في بلدة سوكري وتقول: "آه! إنني أريد أن أسافر حول العالم، وأن أحيا في مدن كبيرة، وأن أنتقل من فندق إلى آخر"، كانت في طريقها لتحقيق ذلك الحلم. لم يكن هناك أي سبب يدفع للاعتقاد أن مثل هذه الأحلام ستتحقق يوماً ما في حياة كتلك التي تحياها. وفيما هما جالسان يتحدثان في الطائرة، أخبر غابيتو ميرثيديس عن بعض أحلامه: إنه سينشر رواية بعنوان **البيت**، وإنه سيكتب رواية أخرى عن دكتاتور، وإنه ببلوغه سن الأربعين سيؤلف تحفته الأدبية. وتستذكر ميرثيديس في ما بعد: "ولد غابو مفتوح العينين، يحصل دائماً على كل ما يريده. حتى زواجنا. فعندما كنت في سن الثالثة عشرة قال لوالده: إنني أعرف من التي سأتزوجها. ولم تكن بيننا آنذاك سوى معرفة اعتيادية"[20]. والآن تزوجت بهذا الرجل الذي قلما عرفته.

إننا الآن أمام غارسيا ماركيز من طراز جديد، تغير بواقع الزواج والمسؤوليات الجديدة، وأخذ يخطط للمستقبل بوضوح. إن الزوج الجديد لم يحاول أن يثير إعجاب عروسه الجديدة وحسب - وهذا أمر طبيعي - بل أخذ يدشن مرحلة جديدة، مشروعاً جديداً، وسيكون حبيبه الأدب، الذي هو ملكه شخصياً، جزءاً من المعادلة الجديدة. وبدلاً من أن يحيا كيفما اتفق، أي يحيا حياة كفاف، لا بد له من أن يخطط لكل شيء؛ بما في ذلك الكتابة.

وفي كاراكاس، حضر إلى المطار أفراد أسرة ميندوثا جميعهم ومنهم وزير الدفاع السابق دون بلينيو ميندوثا نييرا الكهل الذي بدأ يدرك رويداً رويداً أن

تطلعاته السياسية في كولومبيا تبخرت بمرور الزمن، فقد ربح المحافظون في كولومبيا المعركة التاريخية التي خسروها إلى الأبد في فنـــزويلا.

عصفت بميرثيديس الأسرة الكبيرة، الجديدة، المنبسطة وربما الواثقة من نفسها أكثـــر ممـــا ينبغـــي. ومما لا شك فيه، أن الشقيقة الوسطى سوليداد كانت تقارن بساطتها، على نحو سلبـــي ربما، بتاتشيا ذات المسحة الكوزموبوليتانية. بعد عقدين من الزمان، تكشف الشقيقة الصغيرة كونسيلو من دون قصد في مقالة لمجلة راقية من مجلات بوغوتا السبب الذي جعل ميرثيديس لا تشعر بالارتياح. وتتذكر كونسيلو بعد كل هذه السنين فتكتب: "إنها امرأة كلاسيكية البنيان من نساء الساحل: رشيقة لكنها خشنة العظام، سمراء البشرة، تميل قامتها إلى الطول أكثر مما تميل إلى القصر، ذات نظرة خاصة، يفتر ثغرها المكتنـــز عن ابتسامة جادة وساحرة في الوقت نفسه. عـــندما ســـافرت ميرثـــيديس بارتشا إلى خارج البلاد للمرة الأولى ووصلت إلى كاراكـــاس، بدت آنذاك خجولة، اعتيادية، تنانيرها ضيقة، ولكنها أوسع مما كانت علـــيه الموضـــة، شـــعرها قصير، يتموج تموجاً دائمياً لكنه لم يكن يليق بها"[21]. باختـــصار، كانـــت ذات أصول أفريقية، غير عصرية وغير مميزة. ومما يبعث على الدهـــشة أن ميرثـــيديس أخبرتني لاحقاً أنها أمضت وقتاً أطول مما ينبغي مع أسرة ميـــندوثا في كاراكاس، وهو وقت "لا يلائم ذوقي، ولم أستمتع به صراحةً". لقد أرادت الابتعاد عن أسرة ميندوثا. لكنها اضطرت بدايةً إلى تناول الطعام معهم كل يـــوم تقـــريباً. وكان غارسيا ماركيز قد هيَّأ شقة صغيرة في مبنى رورايما في سان بيرناردينو لا تحتوي على أثاث أو أي حاجات منـــزلية تقريباً[22]. وستكون القصة على مدى السنوات التالية هي قصة الزوجين اللذين تزوجا مؤخراً. وبحسب ماريو فارغـــاس يوســـا الذي قهقه من الفكرة بعد أكثر من ثلاثين سنة وهو يسرد علي القـــصة، فـــإن بلينيو ميندوثا لم يغادر منـــزل غارسيا - بارتشا حتى في أثناء شهر العسل[23]. ويؤكد ميندوثا هذا الأمر ضمناً في مذكراته **الثلج واللهب**. يمكن للمرء أن يتخيل أن ما يشير إليه ميندوثا يؤكد حصافته وفطنته، إلا أنه أخبر العالم كله عن أولى محاولات ميرثيديس الكارثية في طهو الطعام؛ وتعترف ميرثيديس نفسها أنها لا تـــستطيع إعداد بيضة وأن غابو اضطر إلى تعليمها كيف تعدها[24]. أما عن كون

ميرثيديس لم تنبس بكلمة بعد وصولها إلى كاراكاس، فإن ميندوثا يقول: "بعد ثلاثة أيام على لقائي بميرثيديس قلت لأخواتي: *لقد تزوج غابو بغلاً*"[25].

تقول ميرثيديس إنّ لا مشكلة لديها في التخاطب مع زوجها. وعندما سألتها عام 1991 عن رأيها في السبب الذي حسم علاقتهما قالت: "إنها مسألة تأثير بشرة في بشرة. ألا تظن ذلك؟ ولولا ذلك لما حصل أي شيء"[26]. لكن تلك كانت البداية لا أكثر، إذ سرعان ما ستضايقه، لكن على نحو يختلف عن كل تلك السنوات المفعمة بالإحباط التي سبقت معرفته بها حقاً. فهي ستغدو امرأة لا يمكنه الاستغناء عنها وهو الذي رأى نفسه إنساناً يعتمد على نفسه اعتماداً كلياً، رجلاً لم يقدر أبداً على الاعتماد على أي شخص آخر منذ أن توفي جده عندما كان في سن العاشرة. فهي التي ستدخل الهدوء والمنهج إلى حياته. وفيما ازدادت ثقتها بنفسها – أو بالأحرى عندما وجدت أسلوباً تعبر فيه عن ثقتها الداخلية تعبيراً خارجياً – بدأت رويداً رويداً تفرض إحساسها الأسطوري بالنظام على فوضى غارسيا ماركيز التي شجع نفسه عليها كثيراً. فعمدت إلى ترتيب مقالاته ومقتطفات صحفه، وثائقه وقصصه، والنسخة المنضّدة على الآلة الكاتبة من روايَتي **البيت** و**ليس للعقيد من يكاتبه**.

لا بد من القول إن غارسيا ماركيز كان قبل زواجه منهمكاً الانهماك كله في نشاطاته الأدبية بالرغم من الفترة العصيبة التي كان يشهدها النشاط الأدبي والصحافي منذ وصوله إلى كاراكاس. وكتب قصته الرابعة عن ماكوندو **قيلولة الثلاثاء** بجلسة واحدة تقريباً بعد أن اقترح عليه ميندوثا المشاركة في مسابقة للقصة القصيرة نظمتها صحيفة الناسيونال ومولها ميغيل أوتيرو سيلفا. وبحسب بلينيو، فإن غارسيا ماركيز كتب قصته خلال أسبوع الفصح في العام 1958 (إن كان صديقه يخبره بالحقيقة، فقد تكون هناك نسخة أولية لم يشاهدها بلينيو)، وكانت مستوحاة من حادثة تذكرها من أيام طفولته عندما سمع صرخة: "ها قد جاءت والدة ذلك اللص"، وشاهد امرأة فقيرة تمر أمام منزل العقيد في آراكاتاكا[27]. وتسرد القصة تجربة مثل هذه المرأة وابنتها حين وصلتا تواً إلى ماكوندو بعد رحلة بالقطار، واضطرتا إلى السير في الشوارع تحت أنظار أهل البلدة المعادية كي تزورا المقبرة

حيث دُفن فيها ابنها الذي لقي حتفه خلال محاولته السرقة. وبالرغم من أنها واحدة من القصص القليلة التي تدور أحداثها في آراكاتاكا - ماكوندو، فإن أسلوبها ينحو منحـــى جماليات الواقعية الجديدة التي ميَّزت هذه الفترة من حياة غارسيا ماركيز. طالما أعلن غارسيا ماركيز أنه ينظر إلى هذه القصة على أنها أفضل قصصه "وأكثرها حميمية"؛ ربما لأن ذكرى طفولته امتزجت امتزاجاً سحرياً بذكرى رجوعه مع أمه حيث سارا تحت حرارة منتصف النهار في آراكاتاكا عام 1950[(28)]. لكن القصة لم تفز بالجائزة على جدارتها.

أما بخصوص الإلهام، فإن هذه القصة وغيرها من قصص ماكوندو - آراكاتاكا مـــستوحاة من ذكريات مؤلفها، وأكثرها ذكريات حنين جارف، من أيام طفولته "المذهلـــة"، علـــى حـــين أن القصص التي تدور أحداثها في "البلدة" (وهي بلدة ســـوكري) تُظهـــر ذكريات مراهقته المعذبة. لكن إن كانت هذه القصص تدور وقائعهـــا في ماكوندو أم في "البلدة"، فإنها لا تركز الاهتمام على السلطات قاسية القلـــب التي تحكم سكان المنطقتين - بالرغم من أن قساوسة ماكوندو ليسوا قساة القلـــوب كالقساوسة الذين نجدهم في "البلدة"، وينطبق الأمر عينه على السلطات الأخـــرى (حـــتى يـــبدو أن ماكوندو ليس فيها عمدة) - بل تركز على السكان الاعتـــياديين بلقطات مقربة وبألوان خلابة وهم يحاولون أن يعيشوا حياتهم بمشقة كـــبيرة بأكبر قدر من الشجاعة، والكرامة، والنـــزاهة، والشرف الذي تسمح به الظروف غير المؤاتية دائماً. وإن بدا هذا الكلام مغرقاً في العاطفة ولا يمكن أن يكون "واقعـــياً"، حـــسناً، فإن عبقرية هذا الأديب هي التي تمكّنه من إقناع أكثر القراء تشكّكاً بوجهة نظره في الموضوع.

وكمـــا هـــو مقدّر له، فإن غارسيا ماركيز تمكّن من تمضية نصف شهر أيار ومجمل شهر حزيران في كتابة قصصه. وكما جرى في عامي 1948 و1956، ستهبه ريـــح غير مؤاتية حظاً سعيداً قدر ما يخص الأمر الأدب. فقد وصل إلى فنـــزويلا نائـــب رئـــيس الـــولايات المتحدة الجمهوري ريتشارد نيكسون في زيارة كارثية للمساعي الحميدة في الثالث عشر من أيار، أي بعد أقل من أربعة أشهر على سقوط بيريث خيمينيث الذي قلده زعيمه الرئيس آيزنهاور وساماً بوصفه صديق الولايات

المـــتحدة. فحوصرت سيارة نيكسون على طريق المطار ورشقت بالحجارة وبُصق علـــيها وكان سهلاً جداً أن يفقد حياته فيها. وقد حظيت الحادثة بتغطية إخبارية على نطاق عالمي وُعدَّت علامة تاريخية على المستوى المتدني الذي وصلته العلاقات بـــين الولايات المتحدة وأميركا اللاتينية. إن مراجعة الضمير بخصوص هذه الإهانة ستكون ذات شأن كبير بتأسيس التحالف من أجل التقدم بعد ثلاث سنوات. وكما هـــو شـــأن مالكي بقية الصحف، فقد قرر راميريث ماك غريغور أن يكتب مقالة افتتاحـــية اســـتثنائية يأسف فيها على استقبال نيكسون ويعتذر بالتالي عن الحادثة. ووجـــد ميـــندوثا نفسه في خضم جدل مرير بشأن الحادثة وصاح في وجه مالك الـــصحيفة: "كُل برازاً!" واستقال على الفور وخرج من مبنى الصحيفة. وفي أثناء نـــزوله السلالم، التقى غارسيا ماركيز الذي وصل متأخراً إلى الصحيفة، وأوضح له مـــا حدث، فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن استدار على عقبيه وهبط السلالم وإياه، وأصبح الاثنان بلا عمل[29].

عـــاد الصحفيان العاطلان عن العمل إلى سان بيرناردينو واصطحبا ميرثيديس لتناول الطعام والشراب للاحتفال إلى حدٍّ ما بعد وقوع تلك الحادثة وذلك في مطعم ناصـــية بافاريـــا (إل رينكون دي بافييرا) القريب. ولما أخبراها عن سبب فصلهما قهقهت عالياً لتؤكد مزاجها اللامبالي وروح دعابتها في آن واحد. وقد سمح الوقت الفائض لغارسيا ماركيز أن يمد شهر عسله وأن يراجع قصصه القصيرة. وبهذا، تمكن الزوجان من تمضية وقت أطول معاً[30].

كانـــت ميرثيديس قد أحضرت معها إلى كاراكاس مجموعة الرسائل الكبيرة الـــتي ســـبق أن أرسلها إليها غابو وكانت في ستمئة وخمسين صفحة. وبعد بضعة أســـابيع طلب منها أن تتلفها إذ "قد تقع في يد شخص ما" بحسب ما تتذكر. أما هـــو، فقد قال إنهما كلما اختلفا بشأن قضية ما تقول له: "لا يمكنك أن تقول هذا لأنك في رسالتك التي أرسلتها من باريس قلت إنك لن تفعل مثل هذا الشيء أبداً". وعـــندما بـــدا علـــيها التردد - لا بد من أن نقاشهما كان صعباً وحذراً في ضوء شخـــصيتيهما - عرض عليها أن يشتريها منها وتوصلا إلى مبلغ رمزي مقداره مئة بولـــيفار وبعدها أتلفتها جميعاً[31]. هذه الحادثة مثيرة للاهتمام؛ إن كانت صحيحة

(وحتى لو لم تكن صحيحة، فهي مثيرة للاهتمام أيضاً). فأولاً وقبل كل شيء، توحي أنه كان يضمن خفيةً البقاء متزوجاً بها طوال حياتها هي. ولن تكون هناك حقبة "غابيتو" كي تتذكرها، لأنه لن تكون هناك مسافة بينهما يمكن أن تشكل لحظة حنين عند النظر إلى مراسلات قديمة. ثانياً، ربما كانت الرسائل تعني له، سراً، ذكرى عن زمان تركها فيه حقاً عند انشغاله بعلاقته بتاتشيا والمغامرة العابرة مع "لا بوبا". مما لا ريب فيه أن ضميره تطلب منه أن يتلف الدليل (ربما لأنه لم يكن يستبعد إعادة الاتصال مرة أخرى بتاتشيا التي التقاها قبل عامين من زواجه بميرثيديس). أخيراً، وبغض النظر عن عدم هذا الاحتمال لأول وهلة، إلا أنه قد يشير إلى أن الشاب الذي طالما تباهى في الطائرة بمشاريعه المستقبلية كان يتوقع أن يصبح مشهوراً، وكان لديه الحدس منذ البداية أن عليه أن يتلف كل الأدلة عن حياته، وأن يبدأ بتشكيل صورته الخاصة لطلاب المستقبل ونقاده وكتاب سيرته لتكون جاهزة بين أيديهم. لكن مهما كانت الحقيقة، فإن الإشارة تتلاءم في كل الأحوال مع شعور غارسيا ماركيز الدفين بألاّ يتشبث بالماضي ولا يجمع التذكارات؛ حتى لو كانت تخص رواياته.

تمكن بلينيو ميندوثا من العمل مرة أخرى في مجلة البلاد الإخبارية الأولى النخبة (إيليت) وهي المجلة التي سيلتقي فيها غارسيا ماركيز بواحد من أهم الأشخاص الذين سيكونون مستقبلاً على صلة به وهو سيمون أليبرتو كونسالبي الذي سيتبوأ في ما بعد منصب وزير خارجية الجمهورية. واستطاع ميندوثا أن يجد لغارسيا ماركيز وظيفة في المجلة نفسها من خلال ميغيل آنخل كابريلس وهو مالك المجموعة الصحفية التي تعد واحدة من أكثر المؤسسات الصحفية تأثيراً وقوة في أميركا اللاتينية. وهكذا، وفي السابع والعشرين من شهر حزيران، أصبح غارسيا ماركيز رئيس تحرير مجلات المجموعة وهي مجلة فنزويلا غرافيكا التي كانت تعرف في أوساط الناس باسم فنزويلا بورنوغرافيكا بسبب ما كانت تنشره من صور فتيات شبه عاريات[32]. وكان غارسيا ماركيز قد كتب مقالة مهمة عن إعدام رئيس جمهورية هنغاريا السابق ناجي لمجلة النخبة في الثامن والعشرين من حزيران 1958، ولكنه لم يكتب إلا قليلاً لمجلته الجديدة.

وصلته أخبار طيبة من كولومبيا بخصوص نشر رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في بوغـــوتا في طبعة حزيران من مجلة ميتو الأدبية التي سبق لها أن نشرت قصة من قصص غارسيا ماركيز وهي مونولوج ايزابيل تراقب المطر في ماكوندو وذلك بعد أن غادر إلى أوروبا عام 1955. وكان قد أعطى خيرمان فارغاس نسخة من الرواية فأرســلها مـــن دون علم غارسيا ماركيز إلى المجلة، على حدّ قوله لرئيس التحرير غايـــتان ديوران[33]. لقد كان نشر رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في مجلة أدبية يعني أن رواية أخرى من رواياته نشرت سراً تقريباً وأن عدد الذين سيقرأونها لن يزيد عن المـــئة قارئ. لا بد من أن غارسيا ماركيز فكّر في أن نشرها على هذا النحو أفضل مـــن عدم نشرها في تلك الآونة التي لم يكن في حسبانه أن تكون روايته واحدة من أكثر الكتب مبيعاً.

مـــرة أخـــرى يوشك حدث سياسي آخر أن يتدخل فيغير من وضع غارسيا ماركيز تغييراً جذرياً. فمنذ أن أخبره نيكولاس غيّان في باريس في مطلع عام 1956 أن المحامـــي الشاب كاسترو زعيم حركة السادس والعشرين من تموز هو أمل كوبا الوحـــيد، وهو يتابع مآثر الرجل البطولية بما فيها استعداداته في المكسيك، وبخاصة الـــرحلة البحـــرية الملحمـــية الكارثية إلى كوبا بالزورق البخاري "غراما" وحرب العـــصابات في جبال سييرا مايسترا الكوبية. وعلى الفور أضحى كاسترو موضع حـــدس آخر عند غارسيا ماركيز. فقد كانت فنـــزويلا تتحسس دربها بقلق نحو نظـــام ديمقراطـــي جديـــد من خلال عملية لن ينساها غارسيا ماركيز أبداً، لكن فنـــــزويلا ليست بلاده، ولم يعد العمل يثير اهتمامه كثيراً مع مرور الوقت. على كل حال، وجد أن قدرته على المشاركة في الكتابة - كتابة التحقيقات والمقالات الافتتاحية - قد سُلبت منه مرة أخرى. لكن كوبا نفسها أصبحت هي بلد غارسيا ماركيـــز بعـــد أن اكتسب نضال كاسترو السياسي مضامين عالمية لا يرقى إليها الشك.

ففي كاراكاس، أجرى غارسيا ماركيز مقابلة مع إيما شقيقة كاسترو وظهرت المقابلة بعنوان "أخي فيدل" في مومينتو في الثامن عشر من نيسان عام 1958، وتابع الأحـــداث الجارية في كوبا بحماسة متزايدة طوال العام. وبالرغم من أن كاسترو لم

يكـــن قـــد أعلن بعد عن أن حركته حركة اشتراكية، إلا أن غارسيا ماركيز وجد نفـــسه للمـــرة الأولى في مسيرته الصحافية الطويلة قادراً على الكشف عن حماسة منقطعة النظير لمثل هذا السياسي وتفاءل تفاؤلاً واضحاً بكفاحه الثوري. وذكر أن طعـــام كاسترو المفضل الذي كان يطبخه طبخاً ممتازاً بنفسه هو المعكرونة. ثم قال: "لا يـــزال فيدل يطبخ المعكرونة في جبال سييرا ماإيسترا". وتقول أخته: "إنه إنسان طـــيب، إنـــسان بـــسيط، وهو يجيد الحديث، لكنه قبل كل شيء يجيد الإصغاء". وتضيف أن بإمكانه الاستماع إلى أي حديث على مدى ساعات بالاهتمام نفسه. ويبدو أن جوهر شخصيته يكمن في اهتمامه بمشكلات بني جلدته وفي إرادته الصلبة التي لا تلين"[34]. وبعد مرور خمسة وأربعين عاماً يردد غارسيا ماركيز الكلام نفسه تمامـــاً – ناهيك عن تناوله المعكرونة التي طبخها له كاسترو نفسه في مطبخ بيته – ومـــا من شيء يثير العجب في هذا لأن كاسترو كان واحداً من الأمور القليلة جداً التي استطاع أن يثق بها غارسيا ماركيز. كما أن اكتشافه دور كاسترو في أحداث العنف التي جرت في بوغوتا أضفى انعطافة أخرى في سيرة غارسيا ماركيز باهتمامه بمغامـــرة الشاب الكوبـــي الملحمية. وبعد المقابلة التي أجراها مع إيما كاسترو بدأ أعـــضاء في حـــركة السادس والعشرين من تموز في كاراكاس يزودونه بمعلومات فينشرها في المجلات التي يشتغل فيها.

في عشية رأس السنة الجديدة لعام 1958 كان غارسيا ماركيز وميرثيديس في حفلة في نيويورك أقامتها أسرة كابريلس، وعندما رجعا إلى المبنى الذي كانا يقيمان فيه عند الثالثة بعد منتصف الليل وجدا المصعد لا يعمل. ولما كان الاثنان قد أسرفا في الـــشراب، فقـــد اضطرا إلى الجلوس كلما وصلا في أثناء صعودهما إلى فسحة الـــسلالم حـــتى الطابـــق السادس. ولما فتحا أخيراً باب شقتهما سمعا جلبة تكسر الصمت في أرجاء المدينة، وهتافات الجماهير، وأبواق السيارات، وأجراس الكنيسة وهي تقرع، وصفارات المصانع تنطلق. أثورة أخرى في فنـــزويلا؟ لم يكن لديهما مـــذياع في الـــشقة، واضطرا إلى هبوط السلالم ليعرفا ما الذي حدث، فأخبرتهما الـــبوّابة، وهي امرأة برتغالية، أن الثورة ليست في فنـــزويلا وأن باتيستا أُطيح به في كوبا![35]. في وقت متأخر من ذلك اليوم، الأول من كانون الثاني 1959، قاد فيدل

كاسترو جيشه ودخل هافانا ودشّن بذلك مرحلة جديدة في تاريخ أميركا اللاتينية. وللمرة الأولى منذ اكتشافها، يتأثر العالم كله بالأحداث السياسية في أميركا اللاتينية تأثــراً مباشراً. وفكّر غارسيا ماركيز: ربما أشرف عصر العزلة والإخفاق في القارة علــى نهايته. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم احتفل هو وبلينيو ميندوثا بالخبر معاً بإحــضار كمية كبيرة من الشراب إلى شرفة شقة أسرة ميندوثا في بيلو مونتي، فيما كانت المركبات تطوف شوارع كاراكاس مطلقة أبواقها والرايات الكوبية ترفرف خارج النوافذ. وأمضى الصديقان الأسبوعين التاليين وهما يتابعان آخر التفاصيل من خلال برقيات الصحافة في مكتبيهما الشخصيين.

في الــثامن عشر من كانون الثاني عام 1959 كان غارسيا ماركيز يرتب مكتبه في مجلة فنــزويلا غرافيكا قبل أن يغادر إلى منــزله عندما دلف أحد الثوار الكوبيين وأخبره أن طائرة جاهزة في مطار مايكيتيا لتقل من يرغب من الصحفيين إلى الجزيرة لمــشاهدة المحاكمــة العلنــية التي ستجري لمجرمي الباتيستا والتي أطلق عليها "عملية الــصدق". أتراه مهتماً؟ لا بد من اتخاذ القرار على الفور لأن الطائرة ستقلع في وقت لاحق مساء ذلك اليوم ولا مجال حتى للذهاب إلى البيت. كانت ميرثيديس قد رجعت إلى بارانكــيا لتمضية إجازة قصيرة برفقة أسرتها. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن اتــصل ببلينيو ميندوثا وقال له: "ضع قميصين في حقيبة وأسرع إلى المطار: لقد دعانا فــيدل للذهاب إلى كوبا!". وانطلق الاثنان في تلك الليلة، غارسيا ماركيز بثيابه التي كــان يلبــسها حينذاك وبلا جواز سفر بطائرة ذات محركين تم الاستيلاء عليها من جــيش باتيستا "تفوح منها رائحة بول لا يطاق"[(36)]. وفيما هما يصعدان إلى الطائرة، والــصحافة وآلات التصوير التلفازية تسجل الحدث كاملاً، فزع غارسيا ماركيز لما رأى أن الرجل الجالس أمام أجهزة السيطرة كان مذيعاً مشهوراً في محطة الإذاعة وهو كوبـــي يعيش في المنفى ولا أحد يعلم أنه طيار. ثم سمعه يتذمر لشركة الطيران بأن حمــولة الطائرة أكبر من طاقتها حيث انتشر الركاب وتكومت الحقائب إلى علو كبير في ممــر الطائــرة. فــسأل غارسيا ماركيز الطيار بصوت يرتعش إن كانوا سيصلون ســالمين، فأجابــه بــأن يتوكل على الله. أقلعت الطائرة وسط عاصفة مدارية، وقد اضطرت إلى التوقف في مدينة كاماغوا الكوبية في منتصف الليل.

وصلوا هافانا في صباح اليوم التاسع عشر من كانون الثاني، أي بعد ثلاثة أيام على تبوُّؤ فيدل كاسترو منصب رئيس الوزراء، وعلى الفور اندمج الصديقان في خضم الابتهاج بالثورة الجديدة وأحداثها الدرامية وفي كل مكان شاهدا الرايات الحمراء الخفاقة، ورجال حرب العصابات الملتحين يحملون بنادقهم على أكتافهم ويختلطون بفلاحين حالمي النظرات يعتمرون قبعات من القش وفي خفة ونشاط يتعذر نسيانهما. ومن أول الأشياء التي جذبت أنظار الصحفيين هو مرأى الطيارين التابعين للقوة الجوية لنظام باتيستا وقد تركوا لحاهم تنمو ليظهروا أنهم ثوريون. وبلمح البصر، وجد غارسيا ماركيز نفسه في القصر الوطني، وبحسب ما يتذكر، في خضم فوضى عارمة: ثوريون ومعادون للثوريين وصحفيون أجانب وقد اختلطوا كلهم بعضاً ببعض. ويتذكر ميندوثا أنه في حين بدأوا يتوافدون على قاعة المركز الصحفي شاهد كاميلو ثينييغوس وتشي غيفارا يتحدثان وسمع ثينييغوس يقول بوضوح: "علينا أن نقضي على كل أولئك السفلة"[37]. وبعد دقائق معدودة، كان غارسيا ماركيز يجري لقاءً مع الجنرال الإسباني الأسطوري أليبرتو بايو، وعندها تناهى إلى سمعه صوت طائرة مروحية أقلّت كاسترو الذي جاء ليشرح "عملية الصدق" أمام حشد من مليون شخص تجمعوا على امتداد شارع البعثات أمام المبنى[38]. قطع غارسيا ماركيز مقابلته عند دخول كاسترو القاعة الكبرى ولم يكن بينه وبين كاسترو سوى ثلاثة أفراد عندما شاهد الزعيم الجديد يتهيأ لإلقاء كلمته. وفيما بدأ كلمته شعر غارسيا ماركيز بمسدس في ظهره، إذ ظنه رجال الحرس الجمهوري متسللاً، لكنه لحسن الحظ تمكن من التعريف بنفسه.

ذهب الكولومبيّانِ في اليوم التالي إلى المدينة الرياضية لمشاهدة محاكمة أنصار باتيستا المتهمين بجرائم حرب، وبقيا هناك طوال النهار والليل. كان هدف "عملية الصدق" يتمثل بالكشف أمام العالم عن أن الثورة تحاكم وتعدم مجرمي الحرب فقط وليس كل "أنصار باتيستا"، بخلاف ما كانت تزعمه بعض الأوساط الصحفية في الولايات المتحدة. حضر غارسيا ماركيز وميندوثا محاكمة العقيد خيسوس سوسا بلانكو، وهو أسوأ أفراد قوات باتيستا المسلحة سمعة وكان متهماً بقتل فلاحين عُزَّل. كان الملعب يضم ما يشبه حلبة مصارعة مسلطة عليها الأضواء الساطعة

حيث وقف فيها المتهمون مقيّدي الأيدي. ووجد الكولومبيّان نفسيهما واقفين في الصف الأمامي، فيما هدرت حشود الجماهير وهي تتناول وجبات طعام سريعة وتحتسي الشراب مطالبة بالدم على حين حاول سوسا بلانكو الدفاع عن نفسه بمزيج من الازدراء والسخرية والرعب. وعندما أُدين سوسا أخيراً بالجرم، رأى ميندوثا نفسه وهو يقدم الميكروفون إلى الرجل المدان كي يتمكن من الرد على قرار الحكم، إلاّ أن سوسا رفض أن يعلق بأي شيء. ويقول غارسيا ماركيز في وقت لاحق إن هذا الحدث دفعه لتغيير فكرة رواية **خريف البطريرك**، التي تصورها حينذاك تدور حول محاكمة دكتاتور أُطيح به مؤخراً، لتكون رواية تُسرد أحداثها من خلال مونولوجات ومن حول جثة. وامتنع غارسيا ماركيز وميندوثا عن مرافقة صحفيين آخرين للذهاب في ذلك المساء إلى زنزانة الرجل المحكوم ومشاهدته. وفي صباح اليوم التالي، ذهبت زوجة سوسا بلانكو وابنتاه التوأمتان البالغتان اثني عشر عاماً إلى الفندق ليلتمسن إلى الصحافيين الأجانب توقيع طلب الرأفة، فاستجابوا جميعاً. كانت الأم قد أعطت ابنتيها عقاقير كي تبقيا صاحيتين، "حتى تتذكرا هذه الليلة بقية حياتهما"[39]. ويبدو أن غارسيا ماركيز وقّع على الطلب إحساساً منه بالعطف على الأسرة ومعارضته طوال حياته حكم الإعدام أكثر من قلقه بشأن عدالة الإجراءات. كانت المحاكمة "سيركاً" حقيقاً، إذ احتج سوسا بلانكو. لكن ذنبه كان أن الحكم كان عادلاً بالرغم من مخالفته الأصول والقواعد[40].

عاد الصديقان جواً إلى كاراكاس بعد ثلاثة أيام، ولكن بلينيو ميندوثا قرر العودة إلى بوغوتا لأنه كان متذمراً مما وصفه حالة الرهاب من الأجانب المتزايدة في فنزويلا، وسافر في أواخر شهر شباط وبدأ العمل صحافياً حراً لمجلات مثل كروموس ولا كايي، في أثناء انتظار الأخبار من كوبا. وأقنعت حالة النشاط الطوباوية ميندوثا الأكثر قدرة على التأثر والتهور من صديقه الأكبر سناً منه على أن يعمل لمصلحة الثورة الجديدة التي رآها كلا الرجلين على أنها ظاهرة ذات أبعاد واهية قاريَّة. وقد أوضح غارسيا ماركيز لمعارفه في كوبا أنه يمكن أن يكون مستعداً بدوره للعمل لمصلحة النظام الجديد إذا ما وجدوا له عملاً مناسباً.

تحدثت الصحافة في الولايات المتحدة بوجوم عن "حمّام دم" في هافانا وإعدامات بالجملة لجميع أنصار باتيستا الذين يمكن اعتقالهم، في حين استمرت الحكومة الثورية الجديدة في إصرارها على أنها ببساطة تحاكم وتعدم مجرمي الحرب الذين ثبتت إدانتهم. كان غارسيا ماركيز وميندوثا مقتنعين بعدالة القضية الكوبية وظلم ردود فعل حكومة الولايات المتحدة وإعلامها. وأعلن الصحافي الأرجنتيني خورخه ريكاردو ماسيتي في مقابلة خلال الأحداث التي جرت في المدينة الرياضية أن تغطية الولايات المتحدة للأحداث في كوبا "توضح مرة أخرى ضرورة وجود وكالة صحافة أميركية لاتينية لتدافع عن مصالح الشعب الأميركي اللاتيني"[41]. كان هذا الاهتمام بتقديم الأخبار من وجهة نظر أميركية لاتينية قد بات هاجساً من هواجس غارسيا ماركيز. وفي آخر الأمر، دعت الحكومة الجديدة ماسيتي نفسه لإنشاء نموذج الوكالة الصحافية الذي أوصى به وذلك في العاصمة هافانا، وسيكون اسم الوكالة لاحقاً الصحافة اللاتينية (برينسا لاتينا أو بريلا اختصاراً). وحالما تمت الموافقة على إنشاء هذه الوسيلة الثورية الضرورية، بدأ ماسيتي يبحث عن مشاركين وموظفين في كل بلد من بلدان القارة، وفتح المكاتب في جميع عواصم أميركا اللاتينية الرئيسة.

* * *

في شهر نيسان، وبعد مرور مدة قصيرة على زيارة كاسترو إلى واشنطن ونيويورك التي استمرت أحد عشر يوماً وأهملت فيها حكومة الولايات المتحدة شأنه، وصل العاصمة بوغوتا مواطن مكسيكي يدعى أرماندو سواريث، وكان في حال سيئة نتيجة إسرافه في الشراب، حاملاً معه حقيبة مملوءة بأوراق نقدية. وبعد أن تحدث إلى غييرمو أنخولو الذي رجع إلى بوغوتا الآن، اقترح أن يفتح بلينيو ميندوثا وغارسيا ماركيز المكتب الجديد لوكالة برينسا لاتينا المزمع إقامته في المدينة. وعلى الفور وافق ميندوثا وقال إن صديقه غارسيا ماركيز الذي لا يزال موجوداً آنذاك في فنزويلا صحافي لامع ويؤيد الثورة تأييداً قوياً، وإنه في انتظار كلمة منه. فجاء الرد سريعاً: "أرسل في طلبه على الفور"[42]. كانت الثورة ماضية في طريقها وهي في طور التكوين. يقول غارسيا ماركيز بعد مرور سنوات: "جرى كل شيء

شفهياً، لا شيكات ولا إيصالات. هكذا كانت الثورة في تلك الأيام"[43]. وبعد مرور بضعة أيام أبلغ مصرف كندا الملكي (رويال بانك أوف كندا) ميندوثا أن مبلغاً مقداره عشرة آلاف دولار قد وصل باسمه. فما كان منه إلا أن أسرع بالاتصال بغارسيا ماركيز وأخبره طالباً إليه اللحاق بالطائرة التالية.

تغلبت رغبة غارسيا ماركيز في العمل في كوبا على تردده في العودة إلى بوغوتا. فقد أعجبته فنزويلا أيما اعجاب في تقدمها السياسي على كثرة مشكلاتها وحيرتها. غير أن كوبا تقدمت خطوة، بل عدة خطوات إلى الأمام. كان غارسيا ماركيز وميرثيديس قد وصلا إلى بوغوتا مطلع شهر أيار وهما لا يدريان ما يفعلانه، بحسب قول ميندوثا، واحتفل غابو بالخبر في أثناء قيادة ميندوثا السيارة برفقتهما إلى المطار: "كوبا! عظيم!"[44]. فقد كانت تلك هي فرصته الأولى على مدى السنوات الاثنتي عشرة المنصرمة من عمله صحافياً ليؤدي تماماً العمل الذي يرغب فيه، بلا رقابة وبلا مساومات؛ أو هكذا خُيِّل له. كان مكتب برينسا لاتينا يقع في الدوار السابع - سيبتميا: لا بد من أن هذا وحده بدا أشبه بثورة!- بين الشارع السابع عشر والشارع الثامن عشر، قبالة مقهى تامبا وعلى مقربة من النُزل الذي سكن فيه عند وصوله أول مرة إلى بوغوتا قبل خمس عشرة سنة وهو في طريقه إلى ثيباكيرا[45]. لم تعد بوغوتا حصن الكاتشاكو المنيع كما يرى غارسيا ماركيز: فقد أضحت الآن المدينة التي تعلم فيها فيدل كاسترو دروساً ثورية مهمة في نيسان عام 1948 والمكان الذي سيبدأ فيه غارسيا ماركيز وميندوثا بنشر الثورة. وبدأ العمل على الفور. هناك الشيء الكثير الذي ينبغي تعلمه وارتجاله. كان المكتب في الدوار السابع قد تحوّل قبل وقت قصير إلى ملتقى اليسار الكولومبي. وكان موظفوه، ومن بينهم إدواردو شقيق ميرثيديس، في بداية أكثر المراحل المضطربة والعنيفة - وبالتالي - المأساوية في تاريخ أميركا اللاتينية في القرن العشرين. في تلك الآونة كان التقدّميّون من حول العالم يترقبون الأحداث في كوبا بأقصى درجات الاهتمام وأكثرها عمقاً. وبدأ الأميركيون اللاتينيون الشباب بتطبيق "الدروس الكوبية" على أقطارهم وتأسيس حركات تحرّر في جميع أرجاء القارة. أما ميندوثا وغارسيا ماركيز فقد بدأا بتنظيم مظاهرات التأييد لكوبا في الشوارع المحيطة بالمكتب.

بالرغم من هذا النشاط، وكما هو الأمر في أغلب الأحيان، كانت كولومبيا تبدو في نظـــر التقدميّين أقل مدعاة للخير مما هي عليه في كوبا أو فنـــزويلا. وعندما بدأ روخاس بينيًّا ينهار في آذار 1957 بعد أن دانت الكنيسة الكولومبية نظامه، كانت هناك حـــركة مدنية يقودها الزعيم الليبرالي ألبيرتو ييراس كامارغو دعت إلى إضراب عام. فاستقال الدكتاتور في العاشر من أيار لمصلحة مجموعة من خمسة أفراد بقيادة الجنرال غابـــرييل بـــاريس غورديلّـــو، وشعر هؤلاء بضغط شديد لقطع الوعود بالعودة إلى الديمقـــراطية. وفي العشرين من تموز، وفي منتجع سيتغيس على ساحل إسبانيا الشرقي المطل على البحر الأبيض المتوسط، وضع ييراس والزعيم المحافظ المنفي لوريانو غوميث تـــرتيبات أطلـــق عليها "الجبهة الوطنية" وتقضي بأن يتبادل الحزب المحافظ والحزب الديمقراطـــي الحكـــم بوصفهما كياناً حكومياً ذا رأسين على مدى المستقبل المنظور للحـــيلولة دون وقـــوع فوضى سياسية - وهي شفرة تشير إلى التحول إلى اليسار - وخطر العودة إلى الحكم العسكري. وأعلنت المجموعة الحاكمة عن إجراء استفتاء في شهر تشرين الأول ووافقت البلاد على الخطة في الأول من كانون الأول عام 1957. وبعد استفتاء بدائي وغريب تقرر بموجبه من هم أكثر المرشحين المحافظين والليبراليين شعبية، برز ييراس من دون معارض في انتخابات عام 1958 وبعد عودة غارسيا ماركيز وميرثيديس بارتشا مباشرة إلى فنـــزويلا في أعقاب زواجهما في شهر آذار، أُعلن أن الزعيم الليبرالي هو رئيس فنـــزويلا "الديمقراطي" المقبل بدءاً من شهر آب 1958.

لقـــد لخص لنا غارسيا ماركيز تاريخ كولومبيا الحديث بكلمات لا لبس فيها في مقالة نُشرت في كاراكاس في اليوم الذي تزوج فيه:

> **بعد ثمانية أعوام وتسعة أشهر وأحد عشر يوماً مرت من دون انتخابات، عاد الشعب الكولومبـــي إلى صناديق الاقتراع ليعيد انتخاب برلمان سبق أن حُلَّ في التاســـع من تشرين الثاني عام 1949 بأمر من ماريانو أُسبينا بيريث رئيس الجمهورية المحافظ الذي كان مليونيراً حذراً وكتوماً. واستهل بذلك وفي تمام الـــساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين من يوم السبت مرحلة من ثلاث دكتاتوريات متعاقبة كلفت البلاد مئتي ألف قتيل وأسوأ اضطراب اقتصادي واجتماعي في تاريخ البلاد. لقد شوَّه هذا الاضطهاد المسلح الحقود الذي لا يعرف الصفح الذي شُنَّ ضد الليبراليين واقعنا الانتخابـــي الوطني[46].**

ولكي يكمل غارسيا ماركيز تقييمه الذي حكم فيه بالإدانة على الانتخابات، سخر من أن بيراس كامارغو - الذي شعر أنه هو المسؤول أخيراً عن السماح للحزب الليبرالي بفقدان السلطة عام 1946 - برز بصفته مرشحاً لأنه كان محافظاً أساساً جند، كما كان متوقعاً، المرشحين الليبراليين من المجموعة نفسها من "الأوليغاركيين" الذين مثلوا الحزب قبل عشرين عاماً. وفي الثالث عشر من شباط عام 1959 أسس ألفونسو لوبيث ميتشيلسين حزباً جديداً هو الحركة الثورية الليبرالية التي تسببت في اضطرابات قليلة إبان ستينيات القرن العشرين، لكنها أثرت في ما بعد تأثيراً واضحاً في الصراع بين *الديناصورين* السياسيين.

وكما هو معتاد، وفضلاً عن الإحباطات التي اكتنفت السياسة الكولومبية على وجه العموم، فإن غارسيا ماركيز لم يغتبط بأي حال من الأحوال لرجوعه إلى بوغوتا الموحشة. ولكن، ترافقه الآن زوجة تشاطره ردود فعله ومقاومته الساحلية للأساليب الغادرة التي دأب عليها أهالي بوغوتا. كانت ميرثيديس حاملاً منذ بضعة أشهر، قصيرة الشعر وغالباً ما ترتدي البناطيل مما أثار حفيظة الجيران في بوغوتا لا سيما إن كانت المرأة حاملاً، تماماً مثلما أثارت حفيظتهم قمصان زوجها المبهرجة ونحوله بالنسبة إلى الكوبيين[47]. وكان بلينيو، الذي لا يزال أعزب، يتردد على الشقة في معظم الأيام ويصطحب ميرثيديس إلى السينما عندما يكون غابو مشغولاً. وكان هو وصديقه قد اشتريا معطفين أزرقين داكني اللون متماثلين فيدوان، كما كان يشير الخبثاء من الأصدقاء، "أشبه بصبيين ألبستهما ثيابهما أم واحدة"[48].

شهد النصف الثاني من العام نشر المقالات التي كتبها غارسيا ماركيز عام 1957 حول زيارته دول الكتلة الشرقية. وظهرت تلك المقالات في صحيفة كروموس بعنوان عام موحد هو "تسعون يوماً وراء الستار الحديدي"، للفترة الممتدة من السابع والعشرين من تموز وحتى الثامن والعشرين من أيلول عام 1959. ومما له دلالة أنه لم يكرر المقالة الهنغارية لأن كادار أعدم ناجي بعد أن كتب غارسيا ماركيز عن كادار مقالات جيدة. وكتب مقالة منفصلة في الموضوع؛ حتى وإن لم تذكّر قراءه بمعرفته بكادار، ولوحظ أنه وجّه اللوم فيها إلى خروتشوف بدلاً من أن يوجهه إلى الهنغاري: "حتى نحن الذين وثقنا، انطلاقاً من المبدأ، بالدور الحاسم الذي

كـــان يـــؤديه خروتشوف في تاريخ الاشتراكية، لا بد لنا من أن ندرك أن رئيس الوزراء السوفياتي أضحى كأنه ستالين"(49). ومما يثير الانتباه أن الشيء الذي أكده غارسيا ماركيز أكثر من أي شيء آخر هو أن إعدام ناجي كان عملاً ينطوي على غباء سياسي، و لم تكن تلك بالمرة الأخيرة التي يتخذ فيها مثل هذا الموقف الذرائعي في وجـــه الـــسياسات التسلطية التي كان يتوقع منه أن يدينها من حيث المبدأ. ربما ينبغي ألا تتولانا الدهشة عندما نرى أن الرجل الذي كتبها والذي أصبح يثق في هذا الـــوقت ثقة واضحة بوجود أشخاص "محقين" وأشخاص"مخطئين" في مواقع معينة، والـــذي يقدم مع سبق الإصرار السياسة على الإخلاص، من شأنه أن يساند حتماً زعـــيماً يـــتعذر استبداله، مثل فيدل كاسترو، في السراء والضرَّاء. ومن المفارقة أن المقـــالات عن أوروبا الشرقية كانت مناسبة عام 1959 أكثر مما كانت عليه عندما كتبها في باريس قبيل رحيله إلى لندن بسنتين لأن أميركا اللاتينية كانت تتجه بقوة إلى اليـــسار وكانت النقاشات حول الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والديمقراطية مستمرة إبان السنوات الخمس والعشرين التالية.

أنجـــبت ميرثـــيديس أول طفل لهما وهو رودريغو غارسيا ماركيز بارتشا في الرابع والعشرين من آب. لقد ولد الطفل سيئ الحظ مثل واحد أيٍّ من الكاتشاكو، لكـــنه عُمِّـــد تعميداً يليق بطفل مقدر له أن يقوم بمهامَّ عظيمة. ومما هو متوقع أن يكـــون العرّاب بلينيو ميندوثا والعرابة سوزانا يناريس زوجة خيرمان فارغاس الذي يقطـــن حالياً في بوغوتا. لكن الذي عمَّده هو الأب كاميلو توريس ذلك القسيس المـــضطرب الـــذي سبق لغارسيا ماركيز أن عرفه زميلاً يدرس الحقوق في الجامعة الوطنـــية عـــام 1947. كان توريس قد ترك الجامعة أواخر العام 1947 والتحقت صديقته سيئة الحظ بدير الراهبات. يُذكر أنه أصبح قسيساً في العام 1955 ثم درس علـــم الاجتماع في جامعة لوفان الكاثوليكية وتزامنت دراسته في أوروبا مع وجود أصدقاء الجامعة القدامى الثلاثة غارسيا ماركيز وبلينيو ميندوثا ولويس بيَّار بوردا. وعـــند عـــودته إلى كولومبيا امتهن تدريس علم الاجتماع في الجامعة الوطنية التي اجتمعوا فيها كلهم للمرة الأولى. وفي الوقت الذي التقوا فيه مرة أخرى عام 1959، كان الأب توريس نشيطاً وسط جماعات هامشية في بوغوتا ووجد نفسه وقد ازداد

اغترابًا عن هرم الكنيسة التقليدي[50]. ومما لا ريب فيه أن غارسيا ماركيز أراد من توريس أن يكون القسيس الرسمي عند التعميد لأسباب عاطفية؛ لكنه كان القسيس الوحيد الذي كان هو وميرثيديس يعرفانه. رفض توريس أول الأمر أن يكون بلينيو ميندوثا عرابًا، ولا يرجع سبب ذلك إلى أن ميندوثا لم يكن مؤمنًا وحسب، بل كان يستخف بالمقدسات أيضًا[51].

كلما عاد الصديقان الحميمان من المكتب ودخلا البيت في وقت متأخر من الليل كعادتهما بعد ولادة رودريغو، فإنهما يحاولان إيقاظ الطفل ليلعب مع عرابه. وعندما كانت ميرثيديس تحتجّ، كدأبها دومًا، يقول لها غارسيا ماركيز: "لا بأس، لا بأس. لا تتأكدي على عرّابنا"[52]. ظل كاميلو توريس يزور منزل غارسيا بارتشا من وقت إلى آخر. وبعد ستة أعوام، ينضم الأب توريس ببراءته الطيبة إلى أفراد جيش التحرير الوطني ويلقى مصرعه في أول معركة، ليكون أشهر قسيس ثوري في تاريخ أميركا اللاتينية في القرن العشرين.

اقترب العام 1959، عام الثورة الكوبية، من نهايته. لكن قبل نهاية العام بمدة طويلة كان غارسيا ماركيز قد فرغ من كتابة ما أصبح يعرف بلا أدنى ريب أهم قصة قصيرة يكتبها. إن قصة **جنازة الأُم الكبيرة** ما كان ينبغي لها أن تُدرج ضمن المجموعة نفسها لأن القصص الأخرى بدأت في لندن واكتملت في فنزويلا، وهي استمرار لأعماله الواقعية الجديدة الموازية أسلوبًا وإيديولوجية لرواية **ليس للعقيد من يكاتبه**. لكن فضلاً عن كون قصة **جنازة الأُم الكبيرة** استمرارًا لأسلوب أدبي وتنتمي إلى تلك الحقبة الإيديولوجية، فإنها كانت جديدة بكل معنى الكلمة: إنها نص من النصوص الأساسية لمجمل مسيرة غارسيا ماركيز الأدبية والسياسية، وهي التي ستوحد أسلوبيه الأدبيين - "الواقعي" و"السحري" - للمرة الأولى على مدى نصف القرن التالي من الزمان، وبخاصة في رائعتيه **مئة عام من العزلة** و**خريف البطريرك**. لقد بلغ نطاق هذه القصة، لا سيما نهايتها، ودمجها لمختلف العناصر ضمن ميثولوجية غارسيا ماركيز وشعريته، حدًا دفعه إلى أن يمضي سنوات في محاولة لفصل أهم خيوطها المتشابكة متمثلاً في خاطره نهايتي هاتين الروايتين العظيمتين اللتين كانتا تنتظرانه منذ سنوات.

سياســـياً، كانت عودة غارسيا ماركيز إلى كولومبيا صدمة ثقافية عنيفة وإن كانـــت متوقعة. لقد كتب رواية ليس للعقيد من يكاتبه في أوروبا حيث كانت لا تـــزال لديه، بالرغم من كل شيء، بعض المشاعر الوجدانية تجاه البيت وتجاه بعض الناس هناك. وبدأت القصص الأخرى في المجموعة التالية في أوروبا أيضاً واكتملت في ســـنوات إقامـــته الأولى في فنـــــزويلا، وكانت تفيض محبة تجاه الكولومبيين الاعتياديين تشبه محبته التي لا مجال للشك فيها تجاه العقيد الذي لا يحمل أي اسم. علـــى كل حال، كانت قصته **جنازة الأُم الكبيرة** ثمرة رجوعه إلى كولومبيا نفسها بعد أكثر من ثلاث سنوات أمضاها خارج البلاد وبعد أوروبا وبعد فنـــزويلا وبعد كـــوبا. إن قـــراءة القصة تجعل المرء للوهلة الأولى يشعر بثقل كل تلك التجارب المخـــتلفة التي تحملها واحدة تلو الأخرى على تصوره للبلاد. إنها تجعل المرء يشعر بكل إحباطات مؤلفها المتراكمة وازدرائه وغضبه من بلد أفنى أولاده باستمرار وبدا كأنه لن يتغير أبداً.

إذاً، الـــشيء الأول الذي لا ينبغي قوله عن قصة **جنازة الأُم الكبيرة** هو أنها تخلو من الحدث تقريباً، إنها أغنية رائعة ورقصة عظيمة عن لا شيء، أو عن لا شيء تقـــريباً. إنها تحكي قصة – تماماً مثلما يروي غارسيا ماركيز نفسه القصة – حياة وموت (بل تحكي عن الموت أكثر مما تحكي عن الحياة) أم كولومبية عجوز معروفة بالاسم *الأُم الكبيرة* يحضر جنازتها كل سياسيي ووجهاء كولومبيا، بل يحضرها أيضاً زوار بـــارزون مـــن خارج البلاد مثل البابا. القصة تظهر، تلميحاً لا قولاً، أن الأُم الكبيرة أمضت حياتها كلها في وسط اللامكان، وأن ثروتها تقوم على علاقة مخجلة من الاستغلال البشع مع جماهير الفلاحين الكادحين، وأنها هي نفسها قبيحة ومبتذلة وســـخيفة. غير أن ما من أحد في بلدها، الذي لا يُذكَر له اسم ولكنه واضح من السياق، يبدو متنبهاً إلى هذه الحقائق الدامغة. بكلمات أخرى، إن غارسيا ماركيز ينتج رمزاً يبيّن المكانة الأخلاقية الحقيقية "للأوليغاركية" شبه الإقطاعية التي لا تزال قائمـــة والـــتي حـــددها أول مرة غايتان ونفاق الطبقة الحاكمة التي يهيمن عليها الكاتـــشاكو والـــتي تدّعي أن عالم كولومبيا هو أفضل العوالم الممكنة، وأن الذين يسعون إلى الخذلان هم أولاد الحرام المساكين الذين يقمعهم أولئك الذين هم أعلى

شأناً منهم. إن ما نجده بين أيدينا، بحسب غارسيا ماركيز، هو نظام حيازة الأراضي الاستعماري الذي أشرف عليه النظام السياسي في القرن التاسع عشر. آه! متى يحل القرن العشرون على كولومبيا؟ وهكذا تبدأ قصته بوصفها تجسيداً لعالم مقلوب ومن الداخل أيضاً:

> **بالرغم من كل الذين لا يؤمنون في هذا العالم، هذه هي الحكاية الحقيقية *للأم الكبيرة*، الحاكم المطلق على مملكة ماكوندو، التي عاشت اثنين وتسعين عاماً وتوفيت محاطة بهالة من القداسة في يوم خميس من شهر أيلول الماضي، وحضر جنازتها البابا[53].**

وبعد خمس عشرة صفحة تنتهي القصة على هذا النحو:

> **يمكن لقداسة البابا أن يرتقي إلى السماء الآن جسداً وروحاً فقد أُنجزت مهمته على الأرض ويمكن لرئيس الجمهورية أن يجلس ويحكم استناداً إلى بصيرته، ويمكن للملكات الأشياء جميعاً، ماضياً ومستقبلاً، أن يتزوجن ويسعدن ويحملن وينجبن العديد من الصبيان، ويمكن لعامة الناس أن ينصبوا خيامهم حيثما يشعرون بالسرور في أرض الأم الكبيرة التي لا يحدها حد، لأن الوحيد الذي يمكنه أن يعارضهم ويملك قوة كافية لمعارضتهم قد بدأ يتفسخ من تحت قاعدة مربعة من الرصاص. ولم يبقَ هناك شيء سوى أن يميل شخص ما كرسياً على الحائط ليروي هذه الحكاية وهذا الدرس وهذا المثال للأجيال القادمة كي لا يبقى واحد من غير المؤمنين في هذا العالم وهو لا يعرف قصة الأم الكبيرة، لأن عمال النفايات سيأتون يوم غد الأربعاء ويكنسون النفايات المتبقية عن جنازتها إلى الأبد، إلى الأبد[54].**

يتذكر المرء هنا لهجة كارل ماركس نفسه وبلاغته[55]. غير أن صوت الراوي ووجهة نظره يتجنبان السخرية المطلقة ويرتضيان تهكم سويفت أو فولتير الذي يبلغ درجة كبيرة من القوة حتى ليقدر على تبيان نقيض الحالة التي يعتقد بها، متأكداً من أن القارئ سيظل معه.

من الواضح أن قصة **جنازة الأم الكبيرة** تمثل رد فعل غارسيا ماركيز العنيف تجاه الوضع في البلاد وشعوره بالخذلان والخيبة عند رجوعه بعد أربع سنوات أمضاها بعيداً عن الوطن. الفارق الكبير الآن هو أن صوته صوت كاتب له سلطته، كاتب له ما له من الازدراء والاحتقار المرتكزين على تجربة في العالم الرحيب[56].

الراوي يقدم إلينا كولومبيا عاجزة عن التغيير لكن من منظور (سوفياتي؟ فنـــزويلي؟ كوبـــــي؟) يدرك أن التغيير ممكن، وهو أمر لم يكن قد عرفه بعد الراوي في رواية **عاصفة الأوراق**. إن مثل هذه القصة ما كان لها أن تُكتب إلا عام 1959 عندما مرَّ غارسيا ماركيز بما اصطلح عليه كارل ماركس بتجربة "ديالكتيكية" قوامها المقارنة بين الجبهة الوطنية الكولومبية والثورة الكوبية؛ مما أضفى على واقعيته السحرية التي بـــدأت تلـــوح تباشيرها منذ الآن منحىً وحشيّاً، هجائيّاً، كرنفاليّاً وسياسيّاً. هذه القصة لحظة فريدة من لحظات التقطير والتوازن. ومن الأشياء التي تفصح عنها هي: "لم يعـــد في ميـــسوري أن أكتب قصصاً كقصص هذه المجموعة. انتهت مرحلتي *الواقعية*. لكنه يوشك أن يصبح الآن ضحية مفارقة تاريخية عظمى.

وكمـــا تـــشاء الأقدار، وبالرغم من أنه بلغ نهاية مرحلته الواقعية أو الواقعية الجديـــدة، فقـــد أصـــبح واسطة اتصال مهمة بكوبا. لكن المفارقة هي أن النظام الكوبـــي الذي فتق خيال العديد من أدباء أميركا اللاتينية ومثقفيها نراه عما قريب يـــتحدث عن نمط من أنماط الكتابة الواقعية الاشتراكية التي أصبح غارسيا ماركيز الآن عاجزاً عن تقديمها. إنه بحاجة إلى المشهد العام الذي يبعث على الاطمئنان من أدباء أميركا اللاتينية الآخرين الذين يؤلفون روايات تستند إلى الخرافة والسحر قبل أن يـــتمكن من تصور رواية من رواياته تغفل - بل ترفض ضمناً - مبادئ الواقعية الاشـــتراكية. كما أن هناك بعض العوامل ذات الصلة بالسيرة تحديداً تعمل عملها علـــى مدى السنوات القليلة المقبلة. إضافة إلى ذلك، فإن تغيير المكان - وهو تغيير آخر - والحاجة إلى إعالة زوجة وأطفال من شأنهما أن يؤثرا تأثيراً بالغاً في المرحلة المقبلة: وسيتشتت ذهنه بعيداً عن مهنته على نحو لم يألفه من قبل لأنه لم يعد يملك تلـــك الميزة الفظيعة والمتمثلة بقدرته على التضور جوعاً في حين يلبـــي نداء الإلهام أيـــنما وحيثما جاءه. وبهذا ستبدو قصة **جنازة الأم الكبيرة** على مدى وقت طويل أنها ليست سوى نهاية مرحلة (بل نهاية حياته كأديب لبعض الوقت). ولن ينظر إليها إلا بعد مرور زمن طويل على أنها علامة تاريخية وضرورية وبداية لمرحلته الناضجة.

إذاً، في ضـــوء الأدب، يمكن القول إن غارسيا ماركيز كان يعيش في أواسط الستينيات على هواه، ووصل به التفكير حداً أنه أراد العودة إلى بارانكيا للعمل في

السينما مع ألفارو سيبيدا إذا ما أخفق عمله مع الثورة الكوبية[57]. وفي إحدى زياراته إلى بارانكيا جلس غارسيا ماركيز برفقة ألبيرتو أغوابيرا مندوباً عن سينما ميدلين في فندق ديل برادو في انتظار سيبيدا الذي كان يفترض به أن يصل حاملاً اقتراحاً بانشاء هيأة سينمائية وطنية، لكنه لم يتمكن من الحضور. وفي أثناء طعام الغداء، أشار غارسيا ماركيز إشارة عابرة إلى أن ميرثيديس اتصلت هاتفياً من بوغوتا لتخبره بضرورة دفع مبلغ مقداره ستمئة بيزوس للحيلولة دون توقف الخدمات. كان أغوابيرا محامياً ورئيس تحرير سبق له أن عبَّر عن إعجابه برواية **ليس للعقيد من يكاتبه** عندما نشرها دار نشر ميتو قبل سنتين. ولما شارفت وجبة الطعام على نهايتها، عرض على غارسيا ماركيز إعادة نشر الرواية، غير أن هذا ردَّ عليه قائلاً: "لا بد من أنك مجنون. أنت تعلم أن كتبي لا تحقق مبيعات في كولومبيا. تذكر ما حدث للطبعة الأولى من رواية **عاصفة الأوراق**". لكن أغوابيرا بدأ محاولة لإقناعه وعرض عليه مبلغ ثمانمئة بيزوس يدفع منها مقدماً مئتي بيزوس. وهنا فكّر غارسيا ماركيز في فاتورة الكهرباء ووافق على الفور. وبعد مرور سنة كان قد كتب رسالةً وهو تحت تأثير الشراب، ومستلقياً فوق كرسي هزّاز من الخيزران تحت شمس ما بعد الظهر المدارية[58]، أن ما قاله غارسيا ماركيز أغوابيرا كان صحيحاً. فعندما صدر الكتاب عام 1961 بألفي نسخة، لم تبع منه سوى ثمانمئة نسخة. ولو أنه انتظر النجاح في كولومبيا لربما انتظر العمر كله.

-13-

الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية 1961-1959

في شـــهر أيلـــول من عام 1960 وصل الأرجنتيني خورخه ريكاردو ماسيتي، مؤســس وكالـــة الصحافة برينسا لاتينا، إلى مدينة بوغوتا في طريقه إلى البرازيل. كانـــت لماسيتي ملامح نجوم السينما، وكان جسوراً، مقداماً ينافس في ذلك مواطن بلـــده الأرجنتيني آرنستو تشي غيفارا، ويناضل نضالاً مريراً ضد ضيق فكر الحزب الشيوعي، ويناقش هذا الموضوع مراراً في هافانا مع بلينيو ميندوثا. وذهب ماسيتي خـــلال زيارتـــه القصيرة إلى بوغوتا التي استغرقت يومين، إلى غارسيا ماركيز في منـــزله وأخـــبره كما أخبر ميندوثا أنه لم يعد يتمكن من الإنفاق على شخصين جديـــرين بالثقة في كولومبيا، وسألهما إن كانا على استعداد لتسلم وظيفة أخرى. غير أن ميندوثا، الذي بالرغم من كونه غير متزوج وزار كوبا سبع مرات حتى الآن في ذلـــك العـــام وزار ســـان فرانسيسكو لحضور مؤتمر رابطة الصحافة في البلدان الأميركـــية، قـــال إنه يريد البقاء في كولومبيا، فواق غارسيا ماركيز على الذهاب وكان قد انسجم منذ البداية مع ماسيتي(1). كانت الفكرة تتلخص في أن يتردد على هافانـــا لبـــضعة أشهر ليطلع على أساليب العمل في برينسا لاتينا ومدّ يد العون في تـــدريب صـــحافيين جدد، ومن بعدها يتم إرساله في مهمة أخرى. انطلق غارسيا ماركيـــز على الفور تقريباً بعد أن سافر إلى بارانكيا حيث كان قد ترك ميرثيديس ورودريغو ليمضيا عطلة أخرى برفقة أسرة زوجته.

ســـافر غارسيا ماركيز إلى هافانا أربع مرات في الأقل خلال الشهور الثلاثة التالـــية، وفي إحدى المرات أمضى شهراً بأكمله فيها. كانت هافانا مدينة محاصرة،

تناضل من أجل تقدمها الثوري في خضم مخاوف دائمية من حدوث ثورة مضادة، والاحتمال القائم يومياً بغزو الولايات المتحدة لها في نهاية الأمر.

وكان كاسترو قد أمم مشاريع عدّة في وقت مبكر من السنة، وفي شهر آب صـادر أخـيراً جمـيع ممتلكات الولايات المتحدة على الجزيرة انتقاماً من العدوان الاقتـصادي الأميركـي. وقبل ذلك بشهر واحد ساند خروتشوف مطالبة كوبا التاريخية بغوانتانامو بعد أن راحت العلاقات تتدهور. وفي الثالث من أيلول، طالب الزعيم السوفياتي بنقل الأمم المتحدة من نيويورك إلى بلد أكثر حيادية. وفي التاسع والعـشرين ضرب بحذائه على المنصة في الأمم المتحدة نفسها وعانق فيدل كاسترو عناقاً حاراً أمام الملأ. مما لا ريب فيه أن هذا كلّه معناه الحرب، أو في الأقل مقدمة للحرب.

كـان مكتب برينسا لاتينا يقع على بعد شارعين من شارع ماليكون الذي يلتف على امتداد ساحل هافانا على البحر الكاريبـي. كانت الطرقات تنتشر فيها الحواجـز وأكياس الرمل وجنود الثورة في كل الأوقات. وفي هافانا، شارك غارسيا ماركيـز صحفياً برازيلياً يدعى أرولدو وول في شقة صغيرة في الطابق العشرين من مبنى ريتيرو ميديكو. كانت الشقة تحتوي على غرفتي نوم وردهة وشرفة تطل على البحـر. وكانـا يتناولان وجبات الطعام في مطعم ثيبيليس الكائن تحت البناية وفي مطاعم أخرى قريبة. كانت هذه الأماكن هي الوحيدة التي شاهدها غارسيا ماركيز في الأشـهر الـثلاثة من تردده على هافانا[2]. ووجد نفسه مرة أخرى في المراحل الأولى مـن مـشروع يتطلب من الجميع، بمن فيهم هو نفسه، أن يبذلوا قصارى جهودهم فيه. لم يكن هناك جدول زمني محدد، إذ كان كل واحد يعمل كلما كان ذلـك العمل ضرورياً، وكانت تظهر في كل يوم مشكلة جديدة. في بعض الأحيان كان ينسل إلى السينما مساءً وعندما يرجع إلى المكتب في وقت متأخر من الليل يجد ماسيتي لا يزال هناك. فكان في أغلب الأحيان يعمل حتى الساعة الخامسة صباحاً ثم يتصل ماسيتي مرة أخرى به عند الساعة التاسعة.

لم يمـرَّ وقت طويل حتى احتشد المكتب بشيوعيين متشددين يتزعمهم آنيبال إيـسكالانتي صاحب التجربة والتأثير القوي، وكان يبدو على هؤلاء أنهم يتآمرون

للاستيلاء على الثورة من الداخل. وفي يوم ما، ضبطهم غارسيا ماركيز وماسيتي وهم يعقدون اجتماعاً سرياً في وقت متأخر من الليل[3]. وكان لهؤلاء المتشدّدين (المعروفين بالاسم ماميرتوز في كولومبيا)، "الدوغمائيين" و"الطائفيين" تاريخٌ حافل في كوبا في التواطؤ تواطؤاً انتهازياً في بعض الأحيان مع الحكومات والأحزاب الإصلاحية والبرجوازية، وكانوا يرتابون من أي فرد ليس عضواً في الحزب. كانوا يكتمون المعلومات في ما بينهم ويحاولون تطبيق سياسات الثورة الجديدة ضمن مفاهيم موسكو، مستخدمين خطابها وأسلوبها الرنان، فخرّبوا المبادرات التي كان يبادر بها الآخرون حتى وإن كانت تلائم أهداف الحكومة الجديدة. تعلّم غارسيا ماركيز بمراقبته ما يجري أمامه عن كثب دروساً مريرة ستؤثر في مجمل مواقفه ونشاطاته السياسية مستقبلاً. كان يطرح على نفسه السؤال نفسه الذي كان يطرحه كل فرد تقريباً على الجزيرة وسيظلون يطرحونه بعد أكثر من نصف قرن أيضاً: فيمَ يفكّر فيدل؟

كانت أكثر علاقات غارسيا ماركيز توطّداً مع ماسيتي ومع صحافي وكاتب أرجنتيني آخر يدعى رودولفو وولش الذي كان موجوداً برفقة زوجته بوبيي بلانشارد، وكان مسؤولاً عما يسمى الخدمات الخاصة. كان وولش قد كتب عام 1957 واحداً من كلاسيكيات الكتب الوثائقية في أميركا اللاتينية بعنوان "عملية المذبحة" عن مؤامرة عسكرية في الأرجنتين وبأسلوب لا يختلف عن أسلوب غارسيا ماركيز في كتابه **قصة الناجي من الغرق**. وصل غارسيا ماركيز أوج فتراته في كوبا عندما فك وولش رموز رسائل مشفرة تابعة للسي آي إيه عن الاستعدادات عندما أصبح يعرف في ما بعد باسم غزو خليج الخنازير. وكان ماسيتي يتابع عمل كل وكالة صحفية وطنية يومياً، ولاحظ فقرات مشوهة ومحرّفة من وكالة تروبيكال كيبل للأنباء على جهاز المبرقة الكاتبة. كانت وكالة تروبيكال كيبل وكالة غواتيمالية تابعة لوكالة أُول أميركان كيبل، فداخل الشك ماسيتي. وتمكن وولش بمساعدة دليل حل الشفرات من فك رموز الوثيقة بكاملها بعد أن واصل العمل فيها ليلاً ونهاراً لبضعة أيام من دون أن يغمض له جفن خلالها. كانت الوثيقة رسالة من غواتيمالا إلى واشنطن عن خطط لغزو كوبا في نيسان عام 1961. وبعد أن فُكّت

الرموز دُعي غارسيا ماركيز للمشاركة في الاحتفالات. أراد ماسيتي أن يزور وولش مواقــع التدريب ضد الثورة في ريتالويلو في غواتيمالا متنكراً بصفة قس بروتستانتي يبــيع الأناجــيل، غــير أن السلطات الكوبية كانت لديها في ذهنها استراتيجيات استخبارية أقل رومانسية، فبقي وولش في هافانا[4].

كان غارسيا ماركيز يذهب إلى بوغوتا لزيارة أسرته عندما لا يكون في كوبا. وكانت آخر زيارة له إلى الجزيرة في كانون الأول 1960، على متن طائرة من طائرات بــان أميركان من بارانكيا عبر كاماغوا. وخلال انتظاره في كاماغوا الطائرة كي تقله إلى هافانا، ازداد الطقس سوءاً وأُجِّل سفره. وفجأة، وفيما كان يقف منتظراً الأخبار، حــدث هرج ومرج في ردهة المطار: لقد وصل فيدل كاسترو برفقة ثيليا سانتشيث. كــان الــزعيم جائعــاً وطلب طبقاً من الدجاج في مطعم المطار، لكنهم أخبروه أن الدجاج غير متوفر، فقال كاسترو إنه أمضى ثلاثة أيام يزور حقول الدواجن وتساءل عــن الــسبب الــذي جعل الثورة تعجز عن إيصال الدجاج إلى المطار بخاصة وأن الأميركان يقولون دائماً إن الكوبيين يتضورون جوعاً حتى الموت وها هو المطار يثبت صــحة رأيهم. لم يتدخل أحد عندما اقترب غارسيا ماركيز من ثيليا سانتشيث وقدّم نفــسه وشــرح سبب وجوده في كوبا. وعندما رجع كاسترو حيّا غارسيا ماركيز واحــتج معه على كون مشكلات كوبا ذات صلة بالدجاج والبيض. كان كاسترو وسانتــشيث ينتظــران طائرة من طراز دي سي ثري لنقلهما عائدين إلى هافانا. في غضون ذلك، تمّ إحضار الدجاج، فذهب كاسترو إلى المطعم مرة أخرى ليعود بعدها، ولكــنه أُخبر أن مطار هافانا أُغلق بسبب استمرار حالة الطقس السيئ، فما كان من كاسترو إلا أن قال: "لا بد لي من أن أكون هناك عند الساعة الخامسة. لا بد من أن نــذهب". كان غارسيا ماركيز يتمنى لو تتأخر رحلته أيضاً وكان لا يدري إن كان الزعيم الكوبــي مجنوناً أو متهوّراً. ولدى وصوله إلى هافانا بعد مرور ساعات بطائرة كوبية من طراز الفيكونت، ارتاح وهو يرى طائرة كاسترو جاثمة على المدرج. ومنذ ذلك الوقت بقي غارسيا ماركيز قلقاً على سعادة الزعيم الكوبــي.

حــضر ماسيتي قبل الميلاد مباشرة وقال: "سنغادر إلى ليما، ثمة مشكلات في المكتب هناك". ثم توقفا ليوم واحد في مدينة مكسيكو، وهناك تولى غارسيا ماركيز

الذهول وهو يشاهد للمرة الأولى عاصمة الأزتيك المدهشة، ولم يتخيل إلا قليلاً أنه سيمـضي معظم أيام حياته مستقبلاً فيها. كان ألفارو موتيس قد أُطلق سراحه من سجن ليكومبيري بعد أربعة عشر شهراً أمضاها فيه بسبب الاختلاس في كولومبيا، حـيث كـان يغدق بكرمه على الأصدقاء من ميزانية خصصها رؤساؤه في إيسو لينفقها في مجال العلاقات العامة. فزاره غارسيا ماركيز حيث لقي كعهده الترحاب الحار من موتيس الذي أثبت نفسه حسن الوفادة كالأيام التي كان يدفع فيها ديونه عنه.

ثم سـافر غارسـيا ماركيز وماسيتي جواً إلى ليما عن طريق مدينة غواتيمالا بطائـرة نفاثـة من طراز 707، وكانت تلك أول رحلة لغارسيا ماركيز بمثل هذه الطائـرة الأسرع من الصوت. في ضوء اكتشاف وولش وماسيتي لتورط غواتيمالا في أعداد المنفيين الكوبيين، تحمس ماسيتي للتوقف، وإن قليلاً، في عاصمة بلاد المايا. وفي المطار تحدث ماسيتي بهذه المناسبة عن السفر إلى معسكر تدريب المتمردين الذي حـدد مع وولش مكانه على أنه في ريتالويلو مما أدى إلى افتعال بعض المشاكسة. فعندما قال غارسيا ماركيز إن هذا العمل ينطوي على نـزق، هزأ من ماتيس قائلاً: "أنـت لست سوى ليبرالي صغير وجبان. أليس كذلك؟". وهكذا، وبدلاً من تلك المخاطرة، تمازحا وأطلقا النكات عن الدكتاتور المحلي ميغيل يديغوراس فونتيس. لم تكن المعلومات قد نشرت عالمياً بعد بشأن معسكر تدريب المتمردين، لكن ماسيتي قـرر بتصرف غير مسؤول أن يلقي الذعر في قلب الدكتاتور. وفي المطار كانت ثمة صورة كبيرة لحديقة غواتيمالية وطنية أمام بركان. فالتقط الرجلان صورة لهما وهما أمام تلك الصورة، ووضعاها داخل مغلف مع رسالة فحواها: "لقد سافرنا في جميع أرجاء بلادكم واكتشفنا ما تقومون به للمساعدة في غزو كوبا". ودوّنا معلومات عن مواقع الجنود وأعدادهم. وبعد أن أرسلا الرسالة عبر البريد، أغلق المطار بسبب سـوء الأحـوال الجوية، وعندئذ قال غارسيا ماركيز مخاطباً ماسيتي: "أتدري أننا سنمـضي ليلتـنا في المطـار وذلك الدكتاتور الأرعن سيتلقى رسالتنا وعندها لن يرحمنا؟".

لكن لحسن الحظ فُتح المطار مرة أخرى في الوقت المناسب وغادرا المدينة[5].

لم يسافر غارسيا ماركيز إلى ليما في تلك الرحلة. وعندما توقفا في باناما، سمع ماسيتي غارسيا ماركيز وهو يحاول الاتصال بميرثيديس فسأله عن مكانها، فقال: "في بارانكيا". فنصحه ماسيتي بأن يسافر إلى بلاده ويعود إلى زوجته وطفله لأن الميلاد قـــد اقتـــرب. فمـــا كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن غيّر تذاكر سفره وذهب إلى بارانكيا، وإن كان قد أخّره رجال الشرطة مدة قصيرة في باناما.

في الأشـــهر القلـــيلة التي أمضاها غارسيا ماركيز في هافانا ازدادت العلاقات سوءاً في وكالة الصحافة برينسا لاتينا بين موظفي ماسيتي والشيوعيين المتشددين في الحـــزب الذين كانوا يريدون للثورة أن تكون متماهية مع مفهوم الاتحاد السوفياتي أوروبـــي المنحى عن الثورة العالمية.

وراقب هو وميندوثا بألم شديد الانتهازيين والبيروقراطيين ومرددي شعارات موسكو وقد راحوا يضيّقون الخناق على الثوريين المخلصين من ذوي الشعر الطويل أمثال ماسيتي وغارسيا ماركيز ويطردوهم ويضطهدوهم. لقد رسخ هؤلاء الرجال والنـــساء والشعب الكوبـــي الذين كافحوا من أجله أسلوباً ابتكره كاسترو وتشي غـــيفارا كل شيء فيه مرتجل وعفوي وفطري لا تكلف فيه: من هنا، وبدايةً، كان يطلـــق على الزعيمين الكبيرين "فيدل" و"تشي" وهناك أيضاً "راؤول" و"كاميلو"، لكـــن ماســـيتي سبق أن أخبر غارسيا ماركيز وميندوثا أن جاسوساً تابعاً للحزب الشيوعي كان يراقب كل حركة من حركاتهم في كولومبيا في أعقاب زيارة قام بها عمـــيل كوبـــي إلى مكتب بوغوتا. وجه ماسيتي اللوم إلى ميندوثا لأنه أرسل إليه رسائل شكوى يمكن أن يقرأها أعداؤه ويرسلوها إلى رؤسائه: ووصلت إحدى تلك الرسائل إلى تشي غيفارا نفسه[6].

في كل نسيج من أنسجة كوبا الجديدة وفي كل مكتب، وفي كل مصنع، كان الكفـــاح في طريقه إلى قلب الثورة وروحها. يعتقد بلينيو ميندوثا أن الشيوعيين من الطـــراز القـــديم ربحـــوا الجولة الأولى – من هنا منشأ صعوبات ماسيتي (وبالتالي صـــعوبات غيفارا) – لكن كاسترو سيربح الجولة الثانية عندما سيق إيسكالانتي إلى المحاكمة وبدأ يُذيق الشيوعيين طعم التجربة التي أذاقوها لغيرهم[7]. واستمر الكفاح إلى ما لا نهاية منذ ذلك اليوم وهو كفاح معقد لا يستقيم أمام التفسير المبسط.

عاد ماسيتي مرة أخرى إلى هافانا مع حلول العام الجديد، وكان تحت ضغط شديد، فقرّر إرسال غارسيا ماركيز إلى مونتريال ليدشن المكتب الجديد فيها. لكن المشروع أخفق، ومع هذا، فهناك افتتاح مكتب آخر في نيويورك. وهو أفضل. سافر غارسيا ماركيز إلى بوغوتا ليرتب شؤونه في مكتب كولومبيا، ففسخ عقد إيجار شقته وترك أثاثها، بما فيها أثاث غرفة الطعام، في منزل ميندوثا، وتكتم على خططه وبقي سراً برفقة صديقه القديم من كارثاخينا فرانكو مونيرا الذي كان يسكن في بوغوتا يومئذ[8]. ثم سافر جواً إلى بارانكيا ليصطحب ميرثيديس ورودريغو اللذين كانا عند أسرتها هناك. كما ترك جميع كتبه لدى أخته ريتا في كارثاخينا داخل صندوق خشبي ضخم. وهناك يظل إليخيو الملقب *دودة كتب الأسرة* يفكّر في "صندوق غابيتو" على مدى سنوات[9].

سافرت الأسرة الشابة إلى مدينة نيويورك في مطلع شهر كانون الثاني عام 1961 وكانت الولايات المتحدة قد قطعت علاقاتها مع كوبا في الثالث من ذلك الشهر، وبهذا، فإن الوقت ليس مثالياً للقيام بمثل هذه المغامرة، لكنها تُظهر مرة أخرى قدرة غارسيا ماركيز الغريبة على الوصول إلى المكان المناسب في الوقت نفسه الذي يبدأ فيه كل شيء بالحدوث. ففي العشرين من كانون الثاني نُصّبَ جون أف. كنيدي أصغر رئيس للولايات المتحدة، وبالرغم من أنه كان راضياً بسياسة الإدارة السابقة تجاه كوبا إلا أنه كان يؤيد غزو كوبا في أي حال من الأحوال. وفي نيويورك، كان مكتب برينسا لاتينا الكائن في إحدى ناطحات السحاب قرب مركز روكفلر يعاني نقصاً في العاملين، فكان مجيء غارسيا ماركيز مبعث سعادة الجميع فيه[10]. كانت لحظة من لحظات جنون العظمة في أقصى درجاتها مما لم يترك انطباعاً حسناً في أعماق القادم الجديد. "كان المكتب كريهاً"، موحشاً في بناية قديمة قريبة من مركز روكفلر، وفيه غرفة مملوءة بأجهزة المبرقات، وغرفة تحرير الأخبار بنافذة واحدة مطلة على طريق يؤدي إلى فناء، فبدا المكتب مكفهراً دائماً، تفوح منه رائحة سخام متيبس ويتناهى منه إلى الأسماع صوت جرذان وهي تفتش ليلاً ونهاراً عن فتات طعام في صندوق النفايات[11]. وبعد مرور سنوات، يقول غارسيا ماركيز للروائي الأميركي وليم كنيدي إن نيويورك كانت

في ذلك الوقت لا تشبه أي مكان آخر، نتنة، ولكنها كانت في مرحلة ولادة ثانية، أشبه بغابة كما أنها سحرته[12].

لكن هناك مئة ألف لاجئ كوبي في ميامي وآلاف أخرى تصل كل يوم. وجاء العديد منهم إلى نيويورك، وكانت الولايات المتحدة تخطط لاستخدام الكثيرين منهم في غزوها، فكانت ترسلهم إلى معسكرات سرية في غواتيمالا للتدريب. وبالرغم من أن غزو كوبا كان سراً من أسرار الدولة، إلا أن جميع الناس في ميامي كانوا يعلمون به. وعلى حدّ قول غارسيا ماركيز في ما بعد: "لم تكن هناك حرب أخرى معلنة مثلها"[13]. وفي نيويورك، كان اللاتينيون الأميركيون المؤيدون للثورة والمناهضون لها يحرصون على ارتياد حانات ومطاعم ودور سينما متباينة، إذ كان التوغل في أراضٍ معادية خطراً، كما كانت المعارك تندلع غالباً في ما بينهم، وكانت الشرطة تحرص على عدم الوصول إلى مكان المعركة إلا بعد أن تكون قد وثقت أن كل شيء قد انتهى. وكان غارسيا ماركيز حريصاً أيضاً على تفادي المواجهات.

أمضت الأسرة خمسة أشهر فقط في مدينة نيويورك، غير أن غارسيا ماركيز يتذكرها على أنها مرحلة من أشدّ مراحل حياته إجهاداً وإرهاقاً. فقد أقاموا في خندق ويبستر على مقربة من الشارع الخامس في قلب حي مانهاتن، وكان العاملون في وكالة برينسا لاتينا تحت ضغط متزايد دائماً من اللاجئين الكوبيين ومن الهستيريا المناهضة لكاسترو. وكانت الاتصالات الهاتفية البذيئة المناهضة للثورة التي يجريها الغستانو (وتعني "الدود" وهي الكلمة التي يصفهم بها الثوريون) من الأمور التي تحدث يومياً، فكان غارسيا ماركيز وزملاؤه يردون عليها قائلين: "قل هذا لأمك أيها السافل". وتأكدوا من أن معهم دائماً أسلحة منزلية الصنع. وفي يوم ما، تلقت ميرثيديس اتصالاً يهددها هي ورودريغو وقال لها المتحدث إنه يعرف مقر سكنهم والوقت الذي تأخذ فيه الطفل لتتمشى وإياه في الحديقة المركزية القريبة عادة. كان لدى ميرثيديس صديقة في جامايكا، في الطرف الآخر من المدينة، ولم تخبر زوجها بشأن المكالمة الهاتفية لكنها ذهبت لتبقى مع صديقتها مدة وهي تقول إنها باتت تضجر لوجودها في الفندق طوال اليوم. ولعله كان مناسباً أيضاً أن راح غارسيا ماركيز ينقح أكثر كتبه المشؤومة **في ساعة نحس** في ذلك الوقت.

بعـــد أن غـــادرت ميرثيديس الفندق، أمضى غارسيا ماركيز معظم وقته في المكتب، ينام فيه ليلاً على أريكة في ظروف يزداد فيها التوتر. وفي الثالث عشر من آذار، حضر مؤتمراً صحافياً تاريخياً في واشنطن أعلن فيه جون أف. كنيدي أنه أنشأ تحالفـــاً مـــن أجل التقدم[14]. فكان بذلك نذير حقبة قصيرة راحت فيها الولايات المـــتحدة تـــتحدث عن حقوق الإنسان والديمقراطية والتعاون بعد مرور عقود من الـــزمان على دعمها دكتاتوريّ أميركا اللاتينية، وهي التي سرعان ما سترجع إليها الـــولايات المتحدة الأميركية – في البرازيل عام 1964 – ومعها سياسة الانتقام في ســـبعينيات القـــرن العشرين. يُقر غارسيا ماركيز بأن خطاب كنيدي كان جديراً بأحـــد رسل العهد القديم. إلا أنه وصف التحالف بأنه "رقعة مستعجلة لدرء رياح الثورة الكوبية الجديدة"[15].

مرة أخرى، كان معظم التوتر الداخلي في مكتب نيويورك، حسب ما شاهده غارسيا ماركيز، يتركز بين الشيوعيين الكوبيين المتشددين من الطراز القديم والجيل الجديـــد من يساريّي أميركا اللاتينية الذين جندهم ماسيتي. "كانوا ينظرون إليّ في مكتب نيويورك على أنني رجل ماسيتي"[16]. وسرعان ما غدت الأمور لا تطاق مما دفـــع غارسيا ماركيز للتفكير في وضعه. وفي نهاية الأمر قرر الخروج. ففي إحدى الأمـــسيات الـــتي كان فيها وحيداً في المكتب، تلقى تهديداً مباشراً بلهجة كاريبية حـــيث قيل له: "استعد أيها النتن فقد انتهى الزمن المحدد لك، ونحن الآن في طريقنا إليك". فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن ترك رسالة على المبرقة قال فيها: "إذا لم أوقف هذا الجهاز عن العمل قبل مغادرتي المبنى، فذلك معناه أنني قُتلت". فجاءه الرد من هافانا: "حسناً أيها الرفيق. سنرسل الزهور". وعندما خرج من المبنى عند الساعة الـــواحدة نسي في غمرة هلعه أن يوقفَ الجهاز عن العمل[17]. وتسلل نحو الفندق مذعـــوراً بعـــد أن مرَّ أمام المبنى الرمادي الضخم لكاتدرائية سان باتريك وكانت الأمطار تنهمر غزيرة. كان يخشى حتى من وقع خطواته، ونام ليلته بثيابه التي كان يرتديها.

لم يمـــضِ وقـــت طويل حتى اضطر ماسيتي الطائش إلى الاستقالة تحت ضغط الـــشيوعيين المتـــزايد. وفي السابع من نيسان أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو

ميـــندوثا يخبره فيها باستقالة ماسيتي، وأضاف أنه سيحذو حذوه. وأوضح في طلب استـــتقالته أنـــه سيبقى حتى أواخر شهر نيسان، وأنبأ ميندوثا أنه يفكّر في السفر إلى المكسيك. لكن بعد عملية غزو خليج الخنازير في السابع عشر من نيسان، أي بعد يوم واحد من إعلان كاسترو أن الثورة هي ثورة اشتراكية، وهو ما كان يتوقعه الكثيرون، طلـــب كاســـترو شخـــصياً من ماسيتي أن يواصل العمل في موقعه وأن يشارك في المقابلات التلفازية التي تبث مباشرة مع الأسرى المناهضين للثورة، فوافق ماسيتي وقرر غارســـيا ماركيز أيضاً أن يتريث إلى أن تنتهي أزمة الغزو[18]. وزعم منذ ذلك الوقت أن ما كان يريد أن يفعله في تلك الأيام هو العودة من نيويورك إلى كوبا.

في اليوم الذي أعقب الانتصار الكوبـــي العظيم في خليج الخنازير والذي قاد كاســـترو بنفـــسه عمليات الدفاع عن الجزيرة والقبض على الغزاة، اكتشف بلينيو ميندوثا، بصورة غريبة، وللمرة الأولى، أن مكتب الاتصال في بوغوتا رفض إيصال الرسائل، فَدَاخله الشك على الفور في أن الولايات المتحدة الأميركية ضغطت على الـــسلطات الكولومبية فقطعت خدمات الاتصال مع كوبا. واتصل هاتفياً بغارسيا ماركيز في نيويورك الذي قال له: "تريّث. ثمة جهاز تلكس عام في الشارع الخامس على مقربة من المكتب تماماً". وهكذا تغلب الصديقان بكل فخر وكبرياء على فطنة الـــسي آي إيـــه في اليوم الذي حدثت فيه الهزيمة الأسطورية للغزاة المعادين للثورة وأعلـــن فيه الكوبيون أنه أول نصر ضد الإمبريالية على أراضي أميركا اللاتينية. غير أن غارسيا ماركيز سرعان ما ذهب إلى فندقه وكتب رسالة بخط يده إلى ماسيتي – وهـــو ما لم يفعله سابقاً قط (بل حتى إنه أرَّخ الرسالة) – موضحاً قلقه ومعارضته عقـــيدة موسكو وخوفه على مستقبل الثورة إذا ما ساد الخط الشيوعي المتشدد. ثم ترك الرسالة في غرفة الفندق منتظراً اللحظة الأخيرة ليستقيل. لكنه ظل حتى معركة خلـــيج الخنازيـــر، إذ لـــو رحـــل لكانوا وصفوه بالجرذ الذي هرب من السفينة الغارقـــة[19]. ولم يعرف إلا الشيء القليل عن خروج ماسيتي من برينسا لاتينا نهائياً وعودته بعد ذلك إلى الأرجنتين لتوافيه المنية في حملة ثورية لا أمل فيها عام 1964.

أوشـــكت مـــدَّة بقاء غارسيا ماركيز في نيويورك على نهايتها. فسافر بلينيو ميـــندوثا إلى هافانـــا جواً لمناقشة الوضع مع ماسيتي وتناول طعام الغداء معه ومع

زوجته كونشيتا دومواس عندما وردت الأنباء بأن المتشددين استولوا أخيراً على مكتب برينسا لاتينا وأصبح بإدارة المدير الجديد فيرناندو ريفيوليتاس الإسباني. وعندما وصل ميندوثا إلى نيويورك مرة أخرى على متن طائرة بان أميركان في أواخر شهر أيار وهو في طريقه إلى وطنه قادماً من هافانا، التقته ميرثيديس ورودريغو بعد أن استجوبته السي آي إيه. ابتسمت ميرثيديس ابتسامتها التي تنم عن رباطة جأش وقالت: "إذاً، لقد استولى المتشددون على الوكالة إيها الرفيق؟". "نعم أيتها الرفيقة. لقد استولوا عليها". ولما أخبرها أنه سلم استقالته إلى رئيس برينسا لاتينا الجديد ومعها نسخة إلى الرئيس دورتيكوس أخبرته أن رسالة استقالة غابو مكتوبة وأنها تنتظر رجوعه[20].

لم يقل غارسيا ماركيز الشيء الكثير عن هذه المشكلات منذ ستينيات القرن العشرين بالرغم من أن أحداث عام 1961 ألقت بظلالها على أكثر من عشر سنوات طويلة من حياته، وحتى في أحاديثه اللاحقة مع أنطونيو نونيث خيمينيث الذي كان بدوره شيوعياً متزمتاً، لم يقل سوى إنه شعر بأن الشيوعيين المتشددين كانوا "مناهضين للثورة"[21].

لكنه لم يخض في أي تفاصيل أخرى. ويبدو السبب على ما يتضح متمثلاً بحقيقة أنه استمر في النظر إلى الثورة الكوبية على أنها كفاح لا نهاية له بين المتشددين الذين يمثلهم في تلك الآونة راؤول شقيق كاسترو، والرومانسيين الثوريين النزّاعين إلى الحدس والفطرة الذي يمثلهم فيدل نفسه. يقول ميندوثا بعد خمسة وعشرين عاماً إن تجاربه في كوبا التي أعقبت رحلته إلى أوروربا الشرقية عام 1957 كانت حاسمة في إبعاده عن الاشتراكية وذلك بإقناعه أن كل الأنظمة الاشتراكية أصبحت في نهاية المطاف أنظمة بيروقراطية مستبدة، وأن هذه مسألة حتمية. ويؤكد أن غارسيا ماركيز كان في مطالع عقد الستينيات من القرن العشرين يشعر بالاغتراب إزاء كل ما حدث لأنه رأى، حاله حال ميندوثا نفسه في تلك الأيام، الأشياء بمنظار واحد[22].

مكث ميندوثا في نيويورك بضعة أيام منتظراً خبراً عن مرتب صديقه المتأخر وعن تذاكر سفره. وكان يتنزه برفقة ميرثيديس في المتنزه المركزي نهاراً ومعهما

رودريغو، في حين كان غارسيا ماركيز ينجز عمله في المكتب. ثم تحول غارسيا ماركيز وميندوثا معاً في الشارع الخامس في ساحة التايمز وقرية غرنيتش يناقشان الأحداث التي جرت ومستقبل كوبا وخططهما غير الأكيدة. ويبدو أن زمناً صعباً يوشك أن يبدأ لكليهما بعد أن كان الاثنان في خضم إيديولوجيتين مختلفتين وعالمين متباينين. في الثالث والعشرين من أيار، كتب غارسيا ماركيز رسالة إلى ألفارو سيبيدا:

> **الآن، وبعد أزمة دموية فظيعة استمرت شهراً ولم يصل السيل الزبى إلاّ أخيراً في هذا الأسبوع، استقال شبّان برينسا لاتينا الطيبون. وبالرغم من كل المصائب التي تمكنا من الشعور بها وهي قادمة، فإنني لم أفكّر البتة في أن الأحداث يمكن أن تكون بهذا العنفوان وظننت أنه لا تزال أمامي بضعة أشهر أخرى أمضيها في نيويورك. على كل حال، إن أملي الأخير بالبقاء هنا تبخر نهائياً في هذا المساء، وسأسافر براً إلى المكسيك في الأول من حزيران بهدف اجتياز أعماق الجنوب المضطرب. إنني لا أعرف تماماً ماذا سأفعل، لكنني سأحاول جمع بعض الدولارات من كولومبيا وأتمنى أن تكفيني للعيش بعض الوقت في المكسيك في أثناء بحثي عن عمل. من يعلم ما الذي سيحدث لأنني من حيث الصحافة، قررت أن أكفّ عن الكفاح فيها. ربما لأنني مثقف[23].**

ما إن رحل ميندوثا عن نيويورك حتى اتصل ماسيتي بغارسيا ماركيز وقال له إن الأوضاع آخذة بالتحسن مرة أخرى، وإنه قد تكلم مع الرئيس دورتيكوس الذي أخبره أنه لا يزال في حظوة فيدل كاسترو. وطلب من غارسيا ماركيز أن يؤجّل موعد سفره إلى المكسيك. لكن الكولومبي كان في ذلك الوقت قد وضع خططه ولم يعد أمامه أي شيء يفعله سوى انتظار أن يدفعوا له مرتبه الذي لم تكن سلطات وكالة برينسا لاتينا متعجلة في دفعه. كان يحاول إقناعهم بمنحه تعويضاً عن نهاية الخدمة إضافةً إلى تذاكر السفر إلى المكسيك له ولأسرته. لهذا رفض على مضض مقترحات ماسيتي، وأوضح في رسالة إلى ميندوثا:

> **إنني أعرف ماسيتي: إن هذه المساعدة الشخصية التي يطلبها ستتحول بصرف النظر عما نفعله إلى التزام هائل ومعقد سأجد نفسي محشوراً فيه حتى يرى الرفاق ثمرة الغوافة ناضجة، وعندئذ، يقررون التهامها تماماً مثلما فعلوا ذلك مع برينسا لاتينا. فضلاً عن ذلك، إذًا كان ماسيتي لا يزال عالقاً في الفخ وفي**

خطـــر، وهـــو مـــا أخبرتني به، فإنني سأفعل كل ما في وسعي وأغيّر خططي وأساعده. إلا أن لديّ الانطباع أن الرئيس قد وجد طريقاً لتسير الأمور على ما يرام معه، كما أنه لم يعد بحاجة ماسة إلى المساعدة[24].

ثم يقول لاحقاً: "بتُّ غريباً في مكتب يفترض أن أديره حتى في أدق تفاصيله. لحـــسن الحظ، سينتهي هذا كله في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة"[25]. كان غارسيا ماركيز يخشى ألاّ تدفع برينسا لاتينا ثمن تذاكر عودة الأسرة وقال إنه لا يملك سوى مئتي دولار باسمه.

ونتـــيجة لذلك، لم يكن أمام أسرة غارسيا ماركيز أي سبيل للعودة جواً إلى كولومبـــيا، لهـــذا سافروا إلى المكسيك عن طريق البر. وفي المكسيك حاولوا تقديم طلب إعانة من أجل العودة إلى الوطن (بالرغم من أن ميندوثا نفسه يعتقد أن إقامة أطول في المكسيك كانت واحدة من طموحات غارسيا ماركيز الكبيرة؛ ربما كان ســـوء الفهم بشأن تحركاته ودوافعه على امتداد السنين ينبع من حقيقة تتمثل بأنه كان دائماً متردداً في الاعتراف بأنه لم يرغب في الرجوع إلى كولومبيا وإلى الأسرة الكـــبيرة). وممـــا لا يثير العجب، أن إدارة مكتب نيويورك أعلنت أنه استقال و لم يُفـــصل من العمل – وبهذا، فهو يُعدُّ هارباً إن لم يكن "دودة" – وأنهم غير مخولين بإعطائه تذاكر للسفر إلى المكسيك. ثم يقول الشيوعيون للأصدقاء الذين استفسروا عنه في هافانا: "لقد انضم غارسيا ماركيز إلى الثورة المضادة"[26]. وفي أواسط شهر حزيـــران، وبعد أن استقال و لم يحصل على أي شيء من برينسا لاتينا ومن الثورة، استقلت أسرة غارسيا بارتشا حافلة غراي هاوند وسافرت إلى نيو أورليانـــز حيث أرسل ميندوثا إليهم مئة وخمسين دولاراً إضافية من بوغوتا.

كانـــت الرحلة التي استغرقت أربعة عشر يوماً برفقة طفل عمره ثمانية عشر شـــهراً شاقة ومجهدة، وهو أقلّ ما يمكن قوله عنها، فقد تضمنت توقفاً مرات عدة، وممـــا أشـــار الزوجان إليه في ما بعد، فإنها اشتملت على تناولهما طعام الهامبورغر المعلـــب، و"الـــنقانق" وقناني مشروب الكوكا كولا البلاستيكية. وفي نهاية المطاف راحـــا يأكلان حتى طعام رودريغو المخصص للأطفال لا سيما الفاكهة المطبوخة. وشـــاهدت الأســـرة في رحلـــتها ولايات ميريلاند وفرجينيا وكارولاينا الشمالية

والجنوبية وجورجيا وألاباما والميسيسبي. وكانت هذه المشاهدات مفيدة لغارسيا ماركيز وهو يسافر في بلاد فوكنر التي كانت تمثل له حلماً راوده منذ زمن بعيد. وكما هو شأن كل الزوار الأجانب في تلك الأيام، فقد صُدم الزوجان الشابان لما شاهدا من أمثلة صارخة عن التمييز العنصري على امتداد الجنوب الأميركي لا سيما في ولايتي جورجيا وألاباما وذلك قبل أن تشملها الإصلاحات الخاصة بحقوق الإنسان التي جرت أواخر ذلك العقد من الزمان. وفي مونتغومري، لم يستطيعا النوم تلك الليلة لأن ما من أحد رضي أن يؤجر غرفة "لمكسيكيين حقيرين". وعندما وصلا إلى ولاية نيو أورليانز، كانا متشوّقين لتناول وجبة طعام مناسبة، ولجأا إلى استخدام بعض الدولارات من تلك المئة والخمسين دولاراً التي سبق أن أرسلها ميندوثا إلى القنصلية الكولومبية لشراء وجبة طعام جيدة ودسمة في مطعم "لي في كاري" الفاخر على الطراز الفرنسي. ولكن خاب ظنهما عندما شاهدا قطعة كبيرة من الخوخ فوق كل شريحة لحم مقلية جاء بها النادل ووضعها على منضدتهما[27].

وفي العام 1983 يتذكر غارسيا ماركيز مغامرتهما الكبيرة على هذا النحو:

> **في نهاية تلك الرحلة البطولية واجهنا مرة أخرى العلاقة بين الحقيقة والخيال: هناك الهياكل النظيفة جداً وسط حقول القطن، والفلاحون يستمتعون بقيلولتهم تحت أفاريز حانات الشوارع الجانبية وأكواخ الأهالي السود الذين يعيشون عيشة بائسة، ووَرَثَة العم غافن ستيفنز البيض وهم في طريقهم لأداء صلاة الأحد برفقة زوجاتهم الواهنات بثيابهن المصنوعة من قماش الموسلين؛ لقد مر من أمام أنظارنا عالم مقاطعة يوكناباتاوفا الرهيب عبر نافذة الحافلة، فكانت صورة حقيقية وحيّة كما قرأناها في روايات الأستاذ القديم[28].**

يقول غارسيا ماركيز في أول رسالة يبعثها إلى ميندوثا بعد هذه الرحلة: "وصلنا سالمين بعد رحلة مثيرة تماماً أثبتت من ناحية أن فوكنر الآخرين كانوا صادقين عندما حكوا لنا عن بيئتهم، ومن ناحية أخرى أن رودريغو فتى يمكن حمله تماماً ويستطيع أن يتكيف مع كل الطوارئ"[29].

أخيراً، وبعد أسبوعين طويلين يصعب نسيانهما، وصلوا إلى الحدود في مدينة لاريدو[*]، فوجد الزوجان مدينة حدودية حافلة بالتناقضات، قذرة، كريهة وشعرا

أن الحـــياة بـــدت حقيقية مرة أخرى فجأة. لكن أول مطعم متواضع دلَفا إليه قدم إليهما وجبة طعام شهية. وقررت ميرثيديس أنها اكتشفت أن في إمكانها أن تعيش في بـــلاد المكسيك حيث عرفوا سر طبخ الأرز من بين أشياء كثيرة عرفوها. ثم استقل الثلاثة القطار ووصلوا مدينة مكسيكو في أواخر شهر حزيران عام 1961، ليجدوها مدينة مترامية الأطراف لكن تمكن إدارتها، تصطف على شوارعها صفوف الأزهار. وكانت الشمس البعيدة جداً في تلك الأيام زرقاء شفافة ورائعة، وكان لا يزال في الإمكان مشاهدة البراكين.

-14-

هروب إلى المكسيك

1964-1961

في يوم الاثنين السادس والعشرين من حزيران عام 1961، دخل القطار الذي يقل أُسرة غارسيا بارتشا محطة بيونا فيستا في مدينة مكسيكو. يتذكر غارسيا ماركيز ذلك اليوم بقوله: "وصلنا في مساء يوم أُرجواني، ولم يكن قد بقي معنا سوى عشرين دولاراً، وما من مستقبل أمامنا"[1]. وقد استقبل أفراد الأسرة على رصيف المحطة ألفارو موتيس مرحباً بهم في المكسيك بابتسامته العريضة المفترسة، تماماً مثلما كان قد رحَّب بغابو عند وصوله إلى بوغوتا عام 1954. صحب موتيس الأسرة المنهكة إلى فندق أبارتامينتوس بونامباك في شارع ميريدا الواقع على مقربة شديدة من "المنطقة الوردية" العصرية الحديثة، وعلى بعد بضعة شوارع من قلب المدينة، وفي المكان الذي ينشطر إلى شطرين شرياناهما الحيويان باسيودي لا ريفورما وأفينيدا إينسرجنتيس تحت أنظار محارب الأزتيك كواوهتيموك. كانت ميرثيديس تعاني آلاماً في المعدة، وهو ألم يواجه معظم الزوار الذين يأتون إلى العاصمة المكسيكية، سواء أكان ذلك سببه طهو الأرز أكثر أو أقل ممّا ينبغي، فتكون الأيام الأولى صعبة غالباً لهذا السبب ولأسباب أخرى عديدة. يتذكر غارسيا ماركيز أنه لم يكن لديه سوى أربعة أصدقاء في المدينة آنذاك: موتيس والنحات الكولوجي رودريغو أريناس بيتانكورث والأديب المكسيكي خوان غارسيا بونس، الذي التقاه في نيويورك، وصانع الأفلام وبائع الكتب القطالوني لويس بيثينس الذي كان يحتفظ له برسائله[2].

في نظام الحزب الواحد في المكسيك - الذي يحكمه الحزب ذو الاسم الغامض: الحزب الثوري المؤسساتي - كان خطاب الحكومة البلاغي أكثر راديكالية

من ممارساته السياسية. وقد ظهر الحزب إلى الوجود في السنوات التي أعقبت الثورة المكسيكية 1910-1917، وهي أول ثورة اجتماعية في العالم في القرن العشرين والنموذج المستمر للتقدميين في أميركا اللاتينية حتى دخول كاسترو المنتصر مدينة هافانا عام 1959. لكن أربعين عاماً من السلطة أدت إلى تباطؤ التقدم الثوري حتى كاد يتوقف تماماً. وتعيّن على غارسيا ماركيز أن يتعلم بسرعة أوضاع هذا البلد المعقد الجديد حيث لا تبدو الأشياء على حقيقتها أكثر من أي بلد آخر في أميركا اللاتينية.

وبعد أسبوع واحد - وبالرغم من أن غارسيا ماركيز قال دائماً بعد يوم واحد - إن غارسيا بونس الذي سبق له أن زار بارانكيا زيارة صاخبة وتعلم كيف يتكلم كأنه أحد أبناء الساحل، أيقظه من نومه وصاح بأعلى صوته: "أصغِ إليّ. لقد فجَّر همنغواي رأسه بإطلاق النار"[3]. وهكذا، فإن أول شيء كتبه غارسيا ماركيز بعد وصوله إلى المكسيك بمدة قصيرة كان مقالة طويلة احتفاءً بالأديب الأميركي الراحل. وقد نشرت هذه المقالة بعنوان: "مات رجل ميتة طبيعية" في التاسع من تموز في الملحق الأدبي لصحيفة نوفيداديس، إحدى صحف المكسيك المهمة التي يرأس تحريرها المثقف البارز فيرناندو بينيتيث. تأثر غارسيا ماركيز تأثراً بالغاً لوفاة الإنسان الذي سبق له أن رآه في ذلك الشارع الباريسي قبل سنوات، وتوقع أن الزمان سيكشف عن أن همنغواي، بصفته أديباً ثانوياً، سيلتهم عدداً كبيراً من كبار الأدباء من خلال معرفته دوافع البشر وسر مهنته..."[4].

وأشار أيضاً إلى أنه بوفاته بدأ مرحلة جديدة[5]. ولم يعرف إلا قليلاً أن تلك المرحلة هي أفقر مراحله من حيث الإبداع الأدبي، حيث إن انتهاء نمط معين من الكتابة لم يقد بسرعة وعلى نحو آلي إلى بداية نمط آخر. كيف يمكنه، أو يمكن لأي شخص آخر، أن يفكّر في أن تلك المقالة الأولى ستكون، مع استثناء واحد فقط، آخر كتابة من كتاباته الجادة والمهمة التي سيكتبها على مدى السنوات الثلاث عشرة التالية؟

وصل ألفارو موتيس إلى المكسيك في السنوات الأخيرة؛ إلى ما اصطلح عليه "بأكثر المناطق شفافية"، لكن سماءها الكريستالية غدت اليوم ملوثة بخيوط رمادية

من تلوث أواخر القرن العشرين. الواقع أن المكسيك ليست البلد الذي يفكّر فيه أبداً. غير أن قدرته على شق طريقه بكل جاذبية وسحر وصولاً إلى الطبقة الراقية من المجتمع، أثبتت ضرورهما لإعادة تأهيله الغريب بعد إطلاق سراحه من سجن ليكمبري، وبات الآن لا يقدر بثمن في تسهيل دخول غارسيا بارتشا إلى مجتمع التغلغل فيه عنيد وصعب صعوبة التغلغل في الصبير أو التين الشوكي. وتمكن الزوجان الشابان، وبمساعدة موتيس، من العثور على شقة في شارع رينان على مقربة من مركز المدينة، ولم تكن هي المرة الأولى التي ينامان فيها على فراش على الأرض. وكان لديهما منضدة وكرسيان: فاستعملا المنضدة لتناول الطعام وللعمل. هكذا كانت الأوضاع أيضاً في كاراكاس في بادئ الأمر؛ وفي بوغوتا أيضاً. وفي نيويورك عاشت ميرثيديس في غرفة واحدة في فندق مع طفلها الصغير. أما الآن، فها هما بلا مال مرة أخرى وعادا ليعيشا على الكفاف. وكتب غارسيا ماركيز إلى بلينيو ميندوثا: "ها نحن في شقة خاوية للمرة الثالثة من حياتنا الزوجية التي عمرها ثلاث سنوات وحسب. وبحسب تقاليدنا، فإن هناك الكثير من الأضواء والكثير من الزجاج والعديد من الخطط، لكن ليس لدينا مكان نجلس فيه"[6].

لم تسرِ الأمور على ما يرام إلا قليلاً في الشهرين الأولين. وبالرغم من جهود موتيس وبيثينس، لم يتمكن غارسيا ماركيز من العثور على عمل، وأمضى هو وميرثيديس ساعات لا تنتهي وهما يقفان أمام مبنى وزارة الداخلية في شارع بوكارلي لترتيب أوراق إقامتهما. ولم يكن غارسيا ماركيز متأكداً من نوع العمل الذي يرغب فيه، فصناعة الأشرطة السينمائية تبدو ميدانه المفضل، ولهذا بدأ يتحول إلى إنسان قلق ومحبط. وبدت برينسا لاتينا مصممة على عدم إعطائه المبلغ الذي هي مُدينة به له. فاستمر في الانتظار. وقد مازح غارسيا بلينيو ميندوثا في رسالة أرسلها إليه قائلاً إن الأمور إذا ما بقيت على هذه الحال، فإن الشيء المنطقي هو أن يكتب رواية **ليس للعقيد من يكاتبه**؛ لكن المشكلة هي أن الرواية كانت قد اكتملت كتابتها[7]. وتلقى ميندوثا نبأ من ميرثيديس التي تتوقع أن تنجب أليخاندرا – أصرَّ غارسيا ماركيز على أنها طفلة وقرر مسبقاً الاسم الذي اختاره لها – في شهر نيسان المقبل[8]. على كل حال، لم يكن المولود "تلك الابنة التي كان

يحلم بها طوال حياته و لم يحصل عليها"[9]، لأن المولود كان ذكراً وكان هو المولود الأخير.

رأى موتيس أن أعصاب صديقه بدأت تهتاج، فما كان منه إلا أن اصطحبه إلى البحر الكاريبي في أواخر شهر آب حيث ميناء فيراكروز على خليج المكسيك. لم يتمكن غارسيا ماركيز حتى تلك اللحظة من إدراك حقيقة أن المكسيك، وهي بلاد صحراوية ذات سهول مرتفعة، كانت أيضاً بلداً كاريبياً. وكان العذر في السفر إليها هو قيام جامعة فيراكروز بزالابا بطبع مجموعة **جنازة الأم الكبيرة** وقصص أخرى. وقد كان مبلغ الألف بيزوس الذي دُفع لغارسيا ماركيز مقدماً عن هذا الكتاب هو الذي سمح له بإيداع عربون شهر عن إيجار الشقة وشراء "ثالث براد في حياتنا الزوجية بالتقسيط"[10]. لم يكن لديه مال ولا وظيفة، ولكن كان عليه أن يعيل زوجة وطفلاً. أما من الناحية السياسية، كان قد فقد الاتصال بالتطورات الأولى الحادثة في سياسة أميركا اللاتينية التي ألهمته في حين انضم مئات الآخرين إلى الجانب الثوري الذي يُنتظر فوزه. أما من الناحية الأدبية، فقد ضلّ طريقه. لقد كانت قصة **جنازة الأم الكبيرة** مكتوبة وفق منظار ما بعد أحداث كوبا، لكنه الآن افترق عن مصدر إلهامها، أي كوبا، وإن كان على مضض، وها هو الآن يقيم علاقة جديدة مع عالم ثقافي جديد ومؤثر ومختلف تمام الاختلاف ومعقد تعقيداً بالغاً، ربما يتطلب استيعابه سنوات. في المكسيك لا بدّ من أن يتعلم المرء كيف يعيش فيها.

في يوم ما، ارتقى موتيس سبع مجموعات من السلالم وحمل كتابين إلى داخل الشقة من دون حتى أن يلقي بالتحية ورماهما بقوة فوق المنضدة وقال بصوت هادر: "كفاك تذمراً واقرأ كي تتعلم كيف تكتب". إننا لن نعرف إن كان جميع أصدقاء غارسيا ماركيز يصبون اللعنات أم لا طوال الوقت في تلك السنين؛ لكنه في قصصه يؤكد أنهم يصبونها. كان الكتابان الصغيران هما: رواية بعنوان **بيدرو بارامو** كانت قد نُشرت عام 1955، والأخرى بعنوان **السهل المحترق**، وهي عبارة عن مجموعة قصص كانت قد نُشرت عام 1953. أما مؤلف الكتابين فهو خوان رولفو. قرأ غارسيا ماركيز رواية **بيدرو بارامو** في اليوم الأول، وقرأ **السهل المحترق** في اليوم

الـــتالي. وزعم أنه لم يسبق له أن تأثر بما قرأ تأثره بهاتين الروايتين منذ أن قرأ أعمال كافكا أول مرة، وأنه حفظ رواية **بيدرو بارامو** عن ظهر قلب، وأنه لم يقرأ غيرها طوال ذلك العام لأن كل كتاب آخر يبدو له أقل شأناً[11].

مما يثير الاهتمام أن نلاحظ أن غارسيا ماركيز لم يكن يعرف شيئاً عن واحد من أعظم روائيي أميركا اللاتينية في ذلك القرن. العام هو عام 1961، وكان في سن الرابعة والثلاثين لا يعلم إلا القليل عن قارة أميركا اللاتينية أو أدبها. وفي هذه الآونة بـــدأت موجة جديدة في الرواية الأميركية اللاتينية التي باتت تعرف في ما بعد بحقبة "الانـــتعاش". لكنه حتى في هذه الفترة المتأخرة، لم يكن يعرف أياً من الأدباء الذين سيصبحون أنداداً له وزملاء وأصدقاء ومنافسين مثلما لم يعرف العديد من الأعمال الأدبـــية لأسلافهم من الأدباء المهمين مثل ماريو دي أندرادي البرازيلي، أو أليخو كاربنتـــيه الكوبـــــي، أو ميغـــيل آنخل إستورياس الغواتيمالاتي، أو خوان رولفو المكـــسيكي، أو خوسيه ماريا آرغيداس البيروفي. كان يعرف ببورخس الأرجنتيني الـــذي يعـــد من أوجه عديدة، أقلهم التصاقاً بأميركا اللاتينية بالرغم من أنه كان واحداً من أكثرهم تأثيراً. بمعنى آخر، إن المدة الزمنية التي أمضاها في أوروبا لم تجعله أميركـــياً "لاتينـــياً" بخـــلاف غيره من عديد الأدباء في عشرينيات القرن العشرين. والواقـــع، إن معظم أصدقائه في باريس كانوا كولومبيين، ويمكننا القول إنه رأى في غـــيره مـــن الأميركيين اللاتينيين أقرباء بعيدين وليسوا أخواناً. (وهذه وجهة نظر كولومبـــية محضة: إن البلاد التي تمتلئ بالموهوبين لم تؤدِّ قسطها الثقافي في القارة). وقد تركت للمكسيك عملية الأمركة اللاتينية كي تكملها. ولحسن حظه لم يكن هـــناك مـــا هـــو أفضل من المكسيك كي يتعلم منها. ففي المكسيك بدأت معظم عملـــيات "البحث عن الذات" الأميركية اللاتينية في القرن العشرين منذ عشرينيات القـــرن وتلقـــت تـــشجيعاً استثنائياً من اللاجئين الإسبان المثقفين ثقافة رفيعة في أربعينيات القرن، وغدت الآن على عتبة لحظة ثقافية كبرى.

جـــرّب غارســـيا ماركيـــز زوايا أخرى. وفي زيارة مبكرة قام بها إلى ولاية ميتشواكان شاهد الهنود يصنعون أشكالاً من القش ألبسوها ملابسهم المحلية مما ولّد عـــنده فكرة عن قصة بدأ بها مباشرة لكنه لم يكملها إلا عام 1969 وكانت بعنوان

رجل عجوز جداً بجناحين هائلين[12]. وقال يومئذ: "إنها جزء من مشروعي القديم لتأليف مجموعة قصص فانتازية". لكنه سرعان ما تخفى عنها وراح يكتب قصة أخرى بعنوان **بحر الزمن الضائع** في الأشهر الأولى البائسة التي أمضاها في المكسيك. ولم يقل هو لك، لكن هذه القصص، وأخرى غيرها، تبدو وقد خرجت من رحم الحنين الجارف إلى الأيام الخوالي الجميلة التي تذكرها أو حتى تخيلها في بارانكيا وأطرافها، الأيام التي اشتاق إليها، والعالم الذي نقله شريط سيبيدا السينمائي الحالم **الجرادة الزرقاء**. إن قصةَ **بحر الزمن الضائع** تطورٌ مهمٌّ بالرغم من أنه كان تطوراً منعزلاً بدايةً، وقد تسببت هذه القصة بحدوث فوضى وارتباك وسط نقاد الأدب لأنها كانت تبدو منطوية على رسائل كثيرة مختلفة في آن واحد. كما أنها استمرار للنهج الذي بدأ بقصة **جنازة الأم الكبيرة** وإن كان على نحو أقلّ، وهي أيضاً تخلو من تدخلات الراوي الخطابية. وأصبحت من القصص التي باتت تعرف في أميركا اللاتينية وفي أماكن أخرى في نهاية الأمر بقصص الواقعية السحرية، وهو الأسلوب الذي طوره من قبل الروائي إستورياس وكاربنتيه وورلفو حيث تُروى القصة أو جزء منها من خلال وجهة نظر عالمية تقدمها الشخصيات نفسها من دون أي إشارة من المؤلف تبيّن هذه النظرة طريفة أو فولكلورية أو خرافية. فالعالم هو بحسب ما تراه الشخصيات، أو ما هو أشبه بذلك، لأن قصة **بحر الزمن الضائع** تحتوي على شخصية تعرف أكثر مما تعرف بقية الشخصيات. إن غارسيا ماركيز في حقبة ما بعد كوبا، وبعد أن قيد نفسه بقضايا وطنية في قصة **جنازة الأم الكبيرة** يطرح – للمرة الأولى – الآن قضية الإمبريالية الاقتصادية من خلال شخصية السيد هيربرت، وهو "الأجنبي" الذي يأتي بصفته مبشراً علمانياً إلى البلدة الصغيرة شبه المهجورة. وفي الأيام التي تسبق وصوله يعرف القرويون أن هناك شيئاً سامياً جارياً مجراه لأن شذا الورود يعبق في كل مكان في الجو اللاذع الذي تملأه رائحة السمك عادةً. ثم يصل القادم الجديد ويعلن:

إنني أغنى أغنياء العالم. ولديّ أموال طائلة ولم يعد
لدي مكان أضعها فيه. لقد قررت أن أطوف
في جميع أرجاء العالم كي أحل مشكلات البشر[13].

غني عن القول إن السيد هيربرت لا يحل أي مشكلة، بل يزيد من فقر البلدة ويزيد من ثرائه ويمضي في سبيله. لكنه قبل رحيله يرسم صوراً جميلة في أذهان الأهالي - مثلما يرسمها صانع أشرطة سينمائية في هوليوود - ويتركهم في حالة تبرّم لم يشعروا بها من قبل، وحالة حنين قلما يستطيعون التعبير عنها. حسناً، سيأتي لاحقاً شخص يحمل الاسم نفسه - السيد هيربرت بكل مقاصده ومراميه - بشركة الموز إلى ماكوندو في رواية **مئة عام من العزلة** لإحداث الأثر نفسه. وفي حين سوَّت قصة **جنازة الأم الكبيرة** حساب غارسيا ماركيز مع كولومبيا وعَزَت مشكلات البلاد إلى نظام سياسي مفلس وإلى طبقة حاكمة رجعية، وإلى كنيسة قروسطية وطنية، فإن قصة **بحر الزمن الضائع** تقدم أخيراً أميركا اللاتينية وهي مادة خام وتقدم الإمبريالية الأميركية، في حين بدأ كاسترو بمهاجمة باتيستا والطبقة الحاكمة الكوبية لينتقل بعدها إلى مواجهة الإمبرياليين في الولايات المتحدة الذين كانوا يساندوهم ويمولوهم.

لعل ما يبعث على الدهشة أن شخصاً وثيق الصلة بالحزب الشيوعي منذ سنين كغارسيا ماركيز ينتظر مدة طويلة اليوم حتى يطبق هذا التشخيص - الإمبريالية - على مساوئ بلاده. ولا بد من أن نستنتج أن خيار غارسيا ماركيز لم يكن سهلاً بين الاشتراكية المطبقة فعلاً التي شهدها في أوروبا الشرقية بين عامي 1955-1957 والولايات المتحدة التي غذّت ثقافتها العديد من الأفكار التي نشرها في عموده المعروف *الزرافة*، والتي بذل أدباؤها الشيء الكثير لجعله يصل إلى ما وصل إليه، في حين لم يتورّع معظم أدباء أميركا اللاتينية من الجيل الذي يسبق جيله عن شن الهجمات على الأميركيين الكريهين. من ناحية أخرى، لم يفصل غارسيا ماركيز نفسه بعد فصلاً كلياً عن الأفكار الشيوعية المتشددة، ولهذا، لم ينظر إلى دولة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية على أنها قوة إمبريالية سلاحها الرئيس التطبيق والتحريف الستاليني للإيديولوجية الماركسية. وعلى العكس من التحريفات التي اتسم بها بعض ممن انتقص من سمعة الاشتراكية، فإن غارسيا ماركيز لم يكن بالرجل الذي يندفع لإصدار الأحكام أو لمشكلات معقدة يُراد تبسيطها (بالرغم من الانطباع الاستفزازي الذي يحلو له أن يعطيه في الصحافة البورجوازية): لقد كان

يـــستغرق وقتاً طويلاً في التفكير في الأمور تفكيراً معقداً، و لم يتخذ السبيل البسيط للخـــروج بـــرأي في القضايا التي تحتاج إلى تأمل عقلي. إن القراءة الشفافة لأكثر مؤلفاته تميزاً، يصعب الوصول إليها دائماً.

إن لهذه القصة القصيرة مظهراً آخر على المدى البعيد. فهي مؤشر إلى مستقبل بعيد عن ماكوندو - آراكاتاكا، وإيلبيبو - سوكري، بمعنى آخر، بعيد عن كولومبيا وباتجـــاه لا أميركـــا اللاتينية وحسب، بل الشمولية الأدبية أيضاً. لقد دمجت قصة **جـــنازة الأم الكـــبيرة** آخر الأمر البلدتين الصغيرتين، وبمعنى آخر، تحكمت عليهما استعداداً لتصفيتهما إذ سعى المؤلف لايجاد وسيلة للرسم على رقعة أكبر. إن رواية **مـــئة عـــام من العزلة** تدور أحداثها حقاً في ماكوندو، لكن الواضح أيضاً للقارئ الحصيف منذ الصفحة الأولى أن هذه البلدة ترمز إلى أميركا اللاتينية في مجملها. لقد تحولت ماكوندو بطفرة من رمز وطني إلى رمز قارّيّ.

لكـــنه بالرغم من ذلك كله لم يدرك بوضوح أن طريق أي روائي لاتيني نحو العظمـــة في هذا الوقت يكمن مصادفةً أيضاً من خلال أميركا اللاتينية نفسها ومن خلال رؤية قارّيّة. أما هو فلا يزال كولومبيّاً. فالأدباء في أقطار أخرى ممن لديهم، ويـــا للمفارقـــة، وعي سياسي أقل تطوراً من وعيه، كانوا قد قفزوا قفزة لم يكن مستعداً بعد للقيام بها: فقد أصبح خوليو كورتاثار الأرجنتيني وماريو فارغاس يوسا الـــبيروفي وقبلهما كارلوس فوينتس المكسيكي أدباء واعين بأنهم أميركيون لاتينيون وأنهـــم على حق في تأليف روايات على غرار رواية يولسيس لجيمس جويس تدور عن التحول الذي طرأ على وعيهم وعودتهم إلى القارة شأنهم شأن جيمس جويس، ذلك الأديب الذي ظهر قبلهم في بلد خاضع للاستعمار وكتب عن تحوله إلى أوروبا قبل أربعين عاماً (تذكر طموح ستيفنـــز ديدالس في "تشكيل... الوعي غير المولود بعـــد العرقي"). على غارسيا ماركيز أن يعيد تحديد هواجسه - جده وأمه ووالده وكولومبيا - ووضعهم في سياق أميركي لاتيني. لقد أصبح أدباء آخرون من أميركا اللاتينـــية - مثل إستورياس وكاربنتيه وآرنوروا أوسادر بيتيري - أميركيين لاتينيين وهم في أوائل العقد الثاني من أعمارهم، على حين تطلب ذلك من غارسيا ماركيز أن يـــصبح في ســـن الثامـــنة والثلاثين، وربما ما كان ذلك ليحدث قط لولا حقبة

الانـــتعاش، لا ســـيما مـــبدع تلك الحقبة الكبير الذي دعا إليها كارلوس فوينتس المكـــسيكي. لحسن حظ غارسيا ماركيز أنه سرعان ما سيلتقي بفوينتس لقاءً يغدو حاسماً في حياته.

لكـــن الـــشيء الذي نراه مرة أخرى هو الانضباط الغريب الذي لا يضاهيه انـــضباط لأديب عرف حتى قبل أن تصيبه الشهرة بزمن طويل كيف ينتظر إلى أن يصبح الكتاب الذي يفكّر فيه مناسباً حتى وهو يقاوم الضغوط والإغراءات الكبيرة. وممـــا يزيد من المحنة أن هذه القصة عينها بحر الزمن الضائع، مروية من منظار معادٍ للإمـــبريالية منحته إياه كوبا وإن كان لا يملك اتصالاً بكوبا التي تبدو قد هزأت به وبوجوده في المكسيك – ولا يرى الأشياء كدأبه – فهو بلا روح سياسية كما قد يقـــول ماوتسي تونغ، بعد أن فقد كوبا، بدأ يتساءل، وإن ليس للمرة الأولى، عما إذا كان يتعيّن عليه أن يتخلى عن تأليف الأدب نهائياً وينتقل بأسرع ما يستطيع إلى كـــتابة النصوص السينمائية. الآن لديه أسرة، ولا يمكنه يقيناً أن يضحي بميرثيديس ورودريغو والجنين غير المولود بعد من أجل مهنة الأدب التي لم يحقق منها حتى الآن شيئاً كبيراً. وإذا كان قد أخفق في تحقيق إنجاز كبير عندما كان أعزب، فلماذا يتعيّن علـــيه أن يتعذب دائماً في حين يحاول مراراً وتكراراً أن ينجح؟ لا بد من أن العمل الـــسينمائي الذي طالما رغب دائماً في الاشتغال به في كل الأحوال، قد بدا له أكثر فأكثر أنه التطلع المنطقي الأكبر بالنسبة إلى رجل في مثل موقعه، وأنه حوّل مساعيه إلى تلك الوجهة، على كل حال، إنه لا يزال ضرباً من ضروب الكتابة.

المكـــسيك دولة، وصناعة الأشرطة السينمائية فيها هي الأكبر في جميع أرجاء العالم المتحدث بالإسبانية[14]. لكن لم يظهر في البداية بأيٍّ من أشرطة السينما. وفي مـــساء يوم ما، ولدى وصوله المنـــزل بعد بحث لا طائل منه عن عمل – ولم يكن غارســـيا ماركيز يُحسن طلب شيء قط – أخبرته ميرثيديس أنها لم تعد تملك المال لـــشراء الطعام، وأنها لم تتمكن من إعطاء رودريغو كميته المطلوبة من الحليب قبل النوم، فأجلس غارسيا ماركيز ابنه وعمره سنتان على الأرض وشرح له حاله وأقسم إن هذا الشيء لن يحدث مرة ثانية. و"فهم" الطفل وآوى إلى فراشه من دون تذمر ولم يستيقظ في الليل. وفي صباح اليوم التالي اتصل غارسيا ماركيز وهو توّاق إلى أن

يطلب معروفاً آخر من صديقه موتيس الذي يبدو أنه أدرك أن صديقه يمكن أن يصبح أخيراً متسوّلاً من دون خيار منه. وبدأ يجري اتصالات لتنظيم مقابلتين، أولاهما مع غوستافو ألاتريستا، وهو رجل أعمال أمضى السنوات الماضية ينتقل بأعجوبة من صناعة الأثاث إلى صناعات أخرى كالسينما والصحافة.

رتب ألاتريستا أموره كي يلتقي غارسيا ماركيز في حانة فندق الرئيس في السادس والعشرين من أيلول عام 1961، أي بعد مرور ثلاثة أشهر تماماً على وصوله إلى المكسيك. يتذكر غارسيا ماركيز أن نعل فردة حذائه كان متدلياً، ولهذا السبب ذهب مبكراً للمقابلة وانتظر ألاتريستا يرحل قبل أن يمضي هو في طريقه(15). كان ألاتريستا قد أنتج عدداً من أروع أشرطة لويس بونويل السينمائية وكان متزوجاً آنذاك بسلفيا بينال أكثر ممثلات المكسيك فتنةً وجمالاً والممثلة الرئيسة في ثلاثة أشرطة سينمائية حققها بونويل(16). من الواضح أن غارسيا ماركيز كان يأمل أنه سيتمكن على الفور من ولوج عالم السينما بمساعدة ألاتريستا، لكن هذا سبق له أن اشترى قبل مدة قصيرة عدداً من المطبوعات الشعبية ومنها *الأسرة*، وهي مجلة ذات اهتمامات نسائية، و*قصص لكل فرد*، وهي مجلة مكسيكية تنشر أخبار الجرائم والفضائح. وقرر ألاتريستا أن يعهد بتمرير هذه المطبوعات إلى المتقدم المتردد في العمل بالرغم من شكوكه في الحصول على ذلك العمل. فقد ارتكب موتيس غلطة عندما أظهر له بعض كتابات غارسيا ماركيز الصحفية السابقة بوصفها تدعم موقفه، لكن ألاتريستا خامره الشك وقال بصوت هادر: هذا الرجل جيد أكثر مما ينبغي. لكن موتيس أكد له أن في وسع صديقه أن يكتب أي شيء. وبعد تردد قبل غارسيا ماركيز الوظيفة - الوظيفتين - ومضى إلى بيته وسأل رودريغو عن أكثر شيء يحبه في العالم. "كرة". فما كان من أبيه إلا أن خرج واشترى أكبر كرة استطاع أن يجدها

وهكذا ودّع غارسيا ماركيز، ولو إلى حين، أحلامه بشأن السينما وقبل بالعمل في كلتا المجلتين شريطة ألاّ يظهر اسمه مع أسماء العاملين فيهما، وأنه غير مضطر إلى كتابة أي موضوع باسمه، وأصبح مسؤولاً عن مجلتي *الأسرة* و*قصص لكل فرد*؛ جبهة المنزل وجبهة الشارع بحسب رأيه. ولم يكن هذا العمل الذي قبل به

تــراجعاً مهيــناً للصحافة وحسب، بل إلى أدنى مستوياتها الممكنة أيضاً. عمل في المكتب الكائن في شارع إنسيرجنتيس سور بلا آلة كاتبة، وقام بإدارة شؤونه كأنه يضع قفازات في يديه ويمسك بملاقط. كان كل شيء فوق طاقته. وكانت آخر مرة اضطر فيها إلى التضحية بمهنته على هذا النحو في أثناء الأزمة التي حدثت في أعقاب انتقال أبويه من سوكري إلى كارثاخينا عام 1951، لكنه حتى في ذلك الوقت كان يتمــتع بالوقت للاستمرار في تأليف رواية **عاصفة الأوراق** في الفترات التي كانت تفصل بين التزاماته. أما الآن، فلديه زوجة وطفل وعليهما أن يأكلا الطعام حتى وإن كـــان قد اعتاد هو نفسه عن الاستغناء عن الطعام. صرَّ أسنانه وأعدّ نفسه ليقول وداعاً لا للسينما وحسب، بل للأدب أيضاً.

ومـــن مجلات الناشر الأخرى مجلة *اُس. نوب* التي ظلت وفيّة لمبادئها فلم تبع نـــسخة واحدة حتى ذلك الوقت، لكنها تمكنت من الصمود والعيش متطفلة على ظهري مجلتي غارسيا ماركيز الشعبيتين. كانت المجلة يومئذ بإدارة كاتبين طليعيين هما ســلفادور إليثوندو وخوان غارسيا بونس، وتذمر غارسيا ماركيز بمرارة من أنهما أرســتقراطيان أدبيان يستغلان جهوده؛ من دون أن يعلم أن ابنه الذي لم يولد بعد ســيتزوج يوماً ما بابنة إليثوندو التي لم تولد بعد أيضاً[17]. ومن حين إلى آخر، ومما زاد الطين بلة، أن ألاتريستا سينسى رفع مرتّب موظفه المعذب منذ زمن طويل. وفي إحـــدى المـــرات تخلّف عن الدفع مدة ثلاثة أشهر، ما اضطر غارسيا ماركيز إلى ملاحقـــته في كل حدب وصوب. وفي نهاية المطاف لحق به إلى داخل حمام تركي واضطر ألاتريستا وهو يتعرّق أن يعطيه شيكاً وسط البخار الذي شمل المكان برمته. ولمـــا خـــرج غارسيا ماركيز بالشيك رأى أن الكتابة قد مُحيَت ما اضطره إلى أن يهـــرول عائداً إليه وملاحقته إلى غرفة تبديل الثياب[18]. وكان بذلك يشبه الممثل الهزلي المكسيكي كانتينفلاس.

وفي غـــضون أسابيع قليلة، وبالرغم من امتعاضه من العمل، تمكن من تطوير تصميم المجلتين وأسلوبهما. ومن ضمن وصفات الطبخ والتطريز في مجلة الأسرة التي كانت تحظى بجمهور واسع من القراء على امتداد القارة، والقصص التي تقشعر لها الأبـــدان والـــصور الغريبة من مجلة الحوادث، نشر روايات عظيمة بصورة مختصرة

وحلقات متسلسلة عن سِيَر ذاتية وقصص التحري وتحقيقات منوعة مثيرة للاهتمام عن ثقافات أخرى، وكل ما استطاع أن يفكّر في نشره. وكان غارسيا ماركيز قد أدى مثل هذا العمل من قبل لمجلة كرونيكا في بارانكيا، ومجلة فنـــزويلا غرافيكا في كاراكـــاس. وكانـــت أكثر المواد المنشورة مما يتم السطو عليه من مجلات في دول أخـــرى باســـتخدام عمليتي القص واللصق ويُضاف إليها مقدار ضئيل من اليأس، وجـــرعة كبيرة من السأم، وذرة من السخرية[19]. وبحلول الأشهر الأولى من سنة 1962 زادت مبـــيعات مجلة الحوادث زهاء ألف نسخة لكل عدد ولا تزال المبيعات تواصـــل صدورها. وفي شهر نيسان، تمكن غارسيا ماركيز بكل برود من أن يخبر بلينيو ميندوثا أن لديه الآن "مكتباً مفروشاً بالسجاد وسكرتيرتين، وما يشبه البيت بحديقة، ورئيساً إما أن يكون عبقرياً نادراً أو مجنوناً خرفاً، وهو ما لم أعرفه بعد. لم أبلـــغ الـــشهرة بحـــيث أصـــبحوا يشيرون إليّ بالبنان، لكنني أفكّر في شراء سيارة ميرســـيدس بنـــز في تموز بالرغم من أنني انتقلت للسكن في بيت يبعد مسافة ثلاثة شـــوارع عـــن المكتب. ولن تتولاك الدهشة إذا ما انتقلت من هنا إلى ولاية ميامي لتنظـــيم الـــثورة المـــضادة... إننا نتوقع ولادة أليخاندرا بعد عشرة أيام، وتعيش ميرثـــيديس الآن في هذه الفترة الطويلة التي يصعب فيها احتمال النساء لا بوصفهن زوجـــات وحسب، بل بوصفهن صورة. على كل حال، إنها تعد العدة لانتقامها: فهي ستبتاع عدداً كبيراً من الثياب والأحذية وغيرها من الحاجيات عندما تعود إلى حجمها الطبيعي"[20].

اقترح غييرمو أنخولو في أيلول سنة 1961 أن يدفع مخطوطة روايته غير المنشورة **في ســـاعة نحـــس** للمشاركة في الجائزة الأدبية الكولومبية لسنة 1961 التي ترعاها شـــركة إيـــسو، والتي تُمنح في العالم التالي 1962[21]. وضغط عليه ألفارو موتيس أيضاً، وقيل إن الشركة تلقت 173 كتاباً ولا يبدو أن أياً منها كان مرضياً.

من هنا جاء الاقتراح بوجوب أن يرسل غارسيا ماركيز مخطوطته في اللحظة الأخيرة.

ويتذكـــر غارســـيا ماركيـــز في وقت لاحق أنه نـــزع ربطة عنقه ورنا إلى مخطوطته التي طالما سافرت وإياه كثيراً ونقّحها للمرة الأخيرة[22]. إن رواية **في ساعة**

نحس التي لم يحبها كاتبها قط، لم تحظَ بإعجاب النقاد أيضاً. فحبكتها يصعب الاقتناع بها والشخصيات تفتقر إلى النمو. لكنها بالرغم من ذلك، تمتلك خاصية سينمائية سلسة وتقنية هادئة لا تخفق في ترك الانطباع على القارئ حتى إن كان الموضوع الكئيب لا تخفف منه روح الدعابة ولا الصبغة المحلية.

اتخذت الأكاديمية الكولومبية القرار بالإنابة عن شركة إيسو ومنحت الجائزة لمخطوطة غارسيا ماركيز. وكانت قد طلبت منه أن يغيّر العنوان، فتخلى عن العنوان الأساسي **هذه المدينة البراز** ووضع لها عنواناً آخر هو **في ساعة نحس**. وتبين أن رئيس الأكاديمية الكولومبية هو رجل الدين الأب فيليكس ريستريبو الذي اضطرب بسبب ما تحتويه من كلمات مثل "مانع الحمل" و"الاستمناء" بخاصة وأنه ينظر إلى نفسه بصفته وصياً على اللغة الإسبانية وأخلاق رعيته. ولهذا طلب من السفير الكولومبي في المكسيك كارلوس آرانغو بيريث أن يوصل رسالة إلى غارسيا ماركيز وأن يكلمه كلاماً حذراً رقيقاً وأن يطلب منه حذف الكلمتين البذيئتين. فما كان من غارسيا ماركيز إلا أن قرر، شأنه شأن سليمان، السماح للسفير بحذف كلمة واحدة فاختار كلمة "استمناء" بالرغم من أنه ضمن في جيبه مبلغ الجائزة ومقداره ثلاثة آلاف دولار.

وتشاء الأقدار أن تصدر هيأة المحلفين قرارها في اليوم الذي ولد فيه غونثالو، ثاني أطفال غارسيا بارتشا، في السادس عشر من نيسان عام 1962. يقول غارسيا ماركيز لاحقاً لبلينيو ميندوثا إن الطفل ولد في "ست دقائق"، "وقلقنا الوحيد تَمثّل في احتمال أن يولد في السيارة وهي في طريقها إلى المستشفى". وبعد أن نال الجائزة بات ثرياً نسبياً ومؤمَّناً، واستخدم قسماً من النقود لدفع نفقات إقامة ميرثيديس في المستشفى[23]. لكن ما دام قد شعر بأن النقود كانت "مسروقة" - إذ صرّح لاحقاً ربما نفاقاً، إن دخول الرواية المسابقة كان أسوأ قرار اتخذه في حياته - ثم قرر بدافع الاعتقاد بالخرافة، عدم إنفاقه على مستلزمات البيت الاعتيادية وشراء سيارة عوضاً عن ذلك، فاشترى سيارة بيضاء من طراز أوبل 1962 منجدة باللون الأحمر ليطوف بأسرته في أرجاء العاصمة مترامية الأطراف. وأخبر بلينيو ميندوثا قائلاً: "إنها أغرب لعبة اقتنيتها في حياتي كلها، وكنت استيقظ في منتصف الليل لأتأكد من وجودها في مكانها"[24].

لكـــن هذا لم يكن كافياً. فقد ربح جائزة أدبية، ولكنه لم يعد أديباً. واستمر يتذمـــر ووجـــد نفـــسه لا يـــزال يحـــنّ إلى العمل في السينما. وعلى كثرة آماله واســـتراتيجيته في إغواء ألاتريستا من خلال عمله الدؤوب، إلا أنه لم يحصل على شـــيء مقابـــل ذلـــك[25]. وكلما عمل على زيادة إيراد ألاتريستا بتطوير وتدقيق المجلتين، قل احتمال سماح ألاتريستا له بالانتقال.

و لم يعد متأكداً من قدرته على الكتابة حتى في ظل ظروف مناسبة.

فمـــنذ زواجـــه لم يكتب إلا عدداً قليلاً من القصص القصيرة، كما أن **في ساعة نحـــس** المحتقرة بدت له قصة طويلة. لقد كان ذهنه مليئاً بأشياء تافهة في العمل، وقضايا أســـرية في البيت، وأحاديث عن السينما مع أصدقائه. ومما ينطوي على مفارقة التفكير، أنـــه شرع، من دون اعتقاد، بتأليف كتاب آخر بعد رواية **مئة عام من العزلة** – وهو كـــتاب إرينديرا وقصص أخرى – ولكنه لم يستطع تأليف الرواية التي كان يتوق إليها طـــوال حـــياته. فرجع إليها بعد بضعة أشهر، بمعنى أنه رجع إلى رواية **البيت** في وقت فـــراغه. لكن رواية **البيت** لم تكن مسكونة إلا بالأشباح، ولهذا وجد نفسه في ورطة. فعـــاد للـــتفكير في فكرة أخرى جعلته يشعر أنها رواية سيكتب لها الفوز، رواية عنوانها **خريف البطريرك**[26]. لم تكن رواية **مئة عام من العزلة** موجودة حتى بوصفها عنواناً لا أكثـــر، على حين كانت هذه الرواية الأخرى التي أجهضت ذات يوم موجودة بعنوانها. وفي حـــين نشرت مجموعة قصص **جنازة الأم الكبيرة** في نيسان عام 1962 وهو الشهر الذي ربح فيه الجائزة عن رواية **في ساعة نحس**، وبعد تلقيه النسخ الأولى من رواية **ليس للعقيد من يكاتبه**، جمع ثلاثمئة صفحة من رواية **خريف البطريرك** ولكنه ظل يشعر أنه لـــيس على الطريق الصحيح. وأخيراً تخلى عنها مرة أخرى، ويقول في ما بعد إن أسماء الشخـــصيات وحدها هي التي بقيت حيّة[27]. لعل تلك الرواية المكتوبة عن دكتاتور – وتـــدور إلى حدّ ما عن نفسه في الوقت الراهن – لم يكن ممكناً كتابتها قط قبل معالجة مشكلة رواية **البيت**؛ عن أسرته في الوقت الماضي. شعر بالإحباط واليأس والتشوّش مرة أخرى، فرمى المخطوطة جانباً وبدأ يفكّر للمرة الأولى في مستقبل بلا أدب.

غير أن ذلك كان فوق طاقته، وازداد إحباطه أكثر فأكثر في عمله في المجلتين المتواضعتين وبدأ يتذمر لرفيقه بلينيو ميندوثا: "إنني ألجأ في الوقت الراهن إلى تعاطي

المسكنات التي أنشرها على الخبز مثلما أنشر الزبدة، لكنني لا زلت غير قادر على النوم أكثر من أربع ساعات. أعتقد أن أملي الوحيد يكمن في إعادة تكويني من جديد... يمكنك أن تتخيل أنني لا أكتب أي شيء. لقد مضى شهران منذ أن استعملت الآلة الكاتبة، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ، إنني اضطرب لفكرة كوني في نهاية المطاف لن أكتب شيئاً ولن أصبح ثرياً أيضاً. ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا. لقد قُضي عليّ، أنا ضحية ظرف جيد"[28].

سياسياً، كانت علاقته بكوبا تثير أعصابه. وبقدر ما يتعلق الأمر به، كانت الأمور لا تزال معلقة. وبقدر ما يتعلق الأمر بكوبا، فإن الأمور وصلت إلى نهايتها. وبالرغم من المشكلات التي واجهها في نيويورك، فإنه لا يزال يشعر بأن صعوباته تكمن مع أصحاب الفكر المحدود وليس مع النظام الكوبي نفسه. لعله شعر في أعماقه أنه كان ينبغي له البقاء مدة أطول إذ إن إعجابه بكاسترو ظل ينمو وهو يرافق الزعيم الكوبي الشاب، وغيفارا الذي لا يلين، وهما يتحديان قوة الولايات المتحدة والجنود المصطفين كتفاً إلى كتف في دول أميركا اللاتينية البورجوازية الليبرالية. وفي شهر نيسان سنة 1962، وفيما كان كاسترو يواجه كلاً من العالم الرأسمالي برمته والمتشددين في الحزب الشيوعي الكوبي، كتب غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو ميندوثا متباهياً كعهده بأنه يملك معلومات سرية وقال فيها: "إنني أعرف مجمل حكاية كاسترو بشأن طرد آنيبال إيسكالانتي، وإنني متأكد من أن ماسيتي سيُردّ له الاعتبار بسرعة. لقد تفوه فيدل ببعض الكلمات القاسية أمام الرفاق - "لا تظن أنك انتصرت في هذه الثورة عن طريق اليانصيب" - حتى إنني خشيت في لحظة ما أن تكون الأزمة خطيرة. إنه لأمر لا يصدق أن تتجاوز كوبا المراحل التي تتطلب عشر سنوات أو عشرين سنة في دول أخرى. لدي الانطباع أن الرفاق طأطأوا رؤوسهم أمام فيدل، لكنني لا أستبعد الاحتمال - وأنا أُدرك ما أقوله تماماً - أنهم قد يقتلونه في أي يوم الآن. لكنني في هذه اللحظة، أشعر بالغبطة لما سيأتي لنا كلنا ولبلدنا الجميل الصغير كوبا التي تثبت أنها درس مدهش للجميع"[29].

في هذه الرسالة إشراقات: ها هو غارسيا ماركيز بعد سنتين منذ انفصاله عن برينسا لاتينا وخيبة أمله مع محاولات المتشددين للسيطرة عليها، يواصل استثمار

اعـــتقاده السياسي، وأحلامه بمستقبل كوبا، وثقته بزعيمها الذي لا تحد إعجابه به أي حدود. إننا نشاهد أمامنا كيف يتزامن مقتربان اثنان متباينان إلى كوبا" الأول، أسلوب في الكلام يشي بأن غارسيا ماركيز، شأنه شأن عدد كبير من الاشتراكيين في ذلك الزمان، يشعر بأنه يعرف *فيدل* معرفة شخصية كأنه صديقه أو حتى أخوه الأكبر، مثلما نشعر بأننا نعرف شخصاً معرفة جيدة وإن كانت من الخارج. ثانياً، وهـــذا أمـــر غـــير مألوف كثيراً، إن شعور الروائي بأنه يملك رؤية داخلية للزعيم الكوبـــــي، كأن كاسترو شخصية من شخصيات أحد مؤلّفاته، يتصرف ويتكلم بهذا القدر أو ذاك لتحقيق رغبات غارسيا ماركيز. ومع هذا، فإن كوبا الآن مغلقة أبوابها في وجهه، وكذلك السينما. وبهذا يبدو أن الشيء الوحيد الذي يسيطر عليه هو أدبه. لكنه بدأ يفقد الأمل.

* * *

مرَّ العام 1962 بطيئاً، حدثت فيه أزمة الصواريخ الكوبية وانتهت، واجتازها العالم كله بعد أن اهتز واهتاج. لكن لا وجود حتى الآن للضوء في نهاية نفق غارسيا ماركيز الذي لا نهاية له. ثم، الحمد لله، ففي نيسان عام 1963 تمكن أخيراً من الهرب من مجلتي *الأسرة* و*قصص لكل فرد* وأصبح "كاتباً محترفاً"[(30)]، كما قال بجبور لبلينيو ميندوثا، وكان يعني بذلك كاتب نصوص سينمائية، لكن هذا تفسير مُفحَم. فبعد مناقشة محنته مع ميرثيديس استغل فرصة في مشروع خاص بكتابة نص يخص شريطاً سينمائياً بعنوان *راعي البقر*. وكان في ذهن غارسيا ماركيز ممثل مكسيكي قدير اسمه بيدرو آرمينداريث ليؤدي دور البطولة. وعندما سمع ألاتريستا عن المشروع أراد أن يستحوذ عليه وأن يخرجه صانع الأفلام المكسيكي الكبير إميليو (الهندي) فيرنانديث. ولمـــا اكتشف أن غارسيا ماركيز وعد بإعطاء النص السينمائي إلى المخرج الشاب خوســـيه لويس غونثاليث دي ليون على أن تكون له السيطرة الكاملة على النص، ولمـــا أصبح مقتنعاً أن غارسيا ماركيز لن يتخلى عن وعده مع المخرج الآخر، غيَّر فجأة من لهجته السابقة وأخبر غارسيا ماركيز أنه سيدفع له الأجر نفسه الذي سبق لـــه أن دفعـــه له لقاء تحريره المجلتين وأن يبقى في البيت لسنة أخرى ليكتب نصين سينمائيين آخرين بحسب اختياره[(31)]. وهنا اغتبط غارسيا ماركيز لنجاح رهانه.

لسوء الحظ نفدت نقود ألاتريستا خلال الصيف فطلب غارسيا ماركيز أن يحرره من اتفاقهما، ولكنه وعد أيضاً بالاستمرار في توفير غطاء التأشيرة له. وبعد أن نجح غارسيا ماركيز مرة أخرى في إثارة التنافس بين منتجي الأفلام اتصل بصديق آخر من أصدقاء ألفارو موتيس وهو المنتج مانويل بارباكانو الذي كان سعيداً بأن يعمل وإياه ولكن على أساس مؤقت. كان بارباكانو مهووساً بالاشتغال على أعمال خوان رولفو، ورسم خططه لتنفيذ قصة **الديك الذهبي** على الشاشة. تدور هذه القصة حول رجل فقير ينقذ ديكاً من ديوك العراك كان يحتضر، فيكتشف أنه عثر على بطل، فيتطلع إلى ثروة هائلة وإلى حسناء المنطقة وهي عشيقة رجل غني، وفي نهاية المطاف يخسر كل من له علاقة بالأمر كل شيء قاتلوا من أجله. إن هذه القصة تصور عالم رواية **ليس للعقيد من يكاتبه**، وقد أوصى موتيس بصديقه المتحمس على أنه الرجل المناسب تماماً للوظيفة، و لم تكن هناك فرصة عمل أفضل تصادف غارسيا ماركيز في طريقه. لقد كان المخرج روبيرتو غابالدون واحداً من أفضل المخرجين، وكانت مكانته السياسية بين صناع الأشرطة السينمائية هي الأحسن؛ على حين كان مدير التصوير غابرييل فيغيروا أذكى مصور، ربما، في عموم أميركا اللاتينية. التقى غارسيا ماركيز أخيراً مؤلف القصص السكير المعذب خوان رولفو في حفلة زفاف أواخر شهر تشرين الثاني عام 1963 – في اليوم الذي توفي فيه لي هارفي أوزوالد بعد مدة قصيرة على اتهامه باغتيال الرئيس جون أف. كنيدي – وأصبحا صديقين بقدر ما تسمح به حالة رولفو وقلق غارسيا ماركيز وقنوطه.

لم يكن بارباكانو يوفر لغارسيا ماركيز الأمان نفسه الذي كان يوفره له ألاتريستا، وكان عليه أن يسدد الفواتير المترتبة عليه. لهذا اتصل غارسيا ماركيز بوكالة وولتر طومسون للإعلان في شهر أيلول، وعلى الفور حظي بالوظيفة. لكن بالرغم من أن تلك الوظيفة لم تكن هي الوظيفة المثالية التي كان ينشدها، إلا أن الإعلان كان يناسب مزاجه أكثر ومنحه حرية أكبر في العمل الشاق في إدارة المجلات. ففي هذا الموقع الجديد أصبح على الأقل في مكانة أفضل ليقوم بما كان يقوم به دائماً: متابعة عمله اليومي بكفاءة ومسؤولية مع الاحتفاظ بطاقته وإيجاد

الوقت للعمل في الأمور التي تثير اهتمامه حقاً[32]. لقد قدّر له أن يُمضي أواخر العام 1963 وعام 1964 وقسماً كبيراً من عام 1965 وهو يعمل في آن واحد في الأعمال السينمائية المؤقتة وفي وكالات الإعلان؛ وولتر طومسون أولاً، تليها شركة ستانتون، ثمّ بريتكارد آند وود، وهي التي كانت جزءاً من شركة ماك إريكسون. كانت شركتا وولتر طومسون وماك إريكسون من بين أفضل ثلاث شركات إعلانية في العالم، فوجد غارسيا ماركيز نفسه لبعض الوقت يعمل مع حاملي بيرق الرأسمالية الاحتكارية الأميركية، فرع شارع ماديسون، وهو الأمر الذي لم يكن يرغب في إلقاء الضوء عليه. وكان موتيس قد سبقه في هذا العمل، كما في أشياء أخرى، إذ عمل في شركة ستانتون في بداية إقامته في المكسيك ومنذ اللحظة التي تأسست فيها.

وبعد ذلك بزمن، أعدَّت التجربة المكتسبة خلال تلك المدة الغريبة إلى حدّ ما غارسيا ماركيز للتفاوض بشأن شهرته المستقبلية؛ لفهم الشهرة وللتفكير في كيفية طرح نفسه والظهور بصورة شخصية جديدة وإدارتها. كان هذا التدريب المبكر في الإعلان والعلاقات العامة يبدو وهو يسمح له، ويا للمفارقة، بأن يعيش وسط تناقضاته السياسية أمام الملأ من دون أن يشير إليه بأصابع الاتهام المعلقون الأميركيون المعادون في العقود الزمانية التالية. كان يتمتع بمهارة مكتسبة، وكلما أوعز إليه بشيء، تجد مديره السكير الإصلاحي يرفع قبضة يده اليمنى ويضرب الهواء كأنه مصارع فاز بجائزة. وحظي بمساعدة من البيت أيضاً: فهذه ميرثيديس تفاجئني دائماً بعبارات لا تنسى عن المنتوج فتقول: "لا يمكنك أن تحيا من دون محارم من نوع كلينكس" مثلاً، وحوَّل بعض ملاحظاتها الفطنة إلى شعارات مربحة[33].

أصبح غارسيا ماركيز الآن في خضم الوسط الثقافي المكسيكي في واحدة من أكثر اللحظات تأثيراً وإثارة. فقد كان رد المكسيك على شارع كارنابي وشارع كنج اللندنيين عام 1964 هو ثوناروسا. أما إيرا، دار النشر اليسارية الممولة حديثاً، فقد أَصدرت حينها طبعة ثانية من رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في أيلول 1963 مما بعث السرور في نفس غارسيا ماركيز بالرغم من أن عدد المطبوع منها هو ألف نسخة فقط. وبدأ يحيا حياة اجتماعية صاخبة وسط السترات الجلدية السوداء

والنظارات الداكنة التي كانت تميز أدباء المدينة العصريين ورساميها وممثليها السينمائيين ومغنيها وصحفييها. عاش الزوجان حياة مرفهة، وارتديا ثياباً أنيقة، والتحق رودريغو وغونثالو بمدارس إنكليزية خاصة، مثل روضة كوليغيو وليام ومدرسة الملكة إليزابيث في سان آنخل[34]. وامتلكت الأسرة سيارة وبدأت تبحث عن منزل أكثر رحابة.

بعد مرور أشهر على بدء غارسيا ماركيز عمله في الكتابة السينمائية، أنجز النص السينمائي لقصة رولفو **الديك الذهبي**[35]، وكان عملاً ممتازاً من وجهة نظر بارباكانو وإن كان لديه تحفظ واحد: قال إنه نص كولومبي أكثر مما هو مكسيكي. وفي هذه الآونة تحسن حظ غارسيا ماركيز أكثر، بل تحسن تحسناً ممتازاً، إذ عاد إلى المكسيك كارلوس فوينتس أديب البلاد الشاب البارز الذي يكبر غارسيا ماركيز بثمانية عشر شهراً في أواخر سنة 1963 بعد إقامة مطولة في أوروبا[36]. كان للاثنين عدد كبير من الأصدقاء. وبصرف النظر عن الشخص الذي عرّفهما إلى بعضهما بعضاً، فقد كان في تعارفهما فائدة عند لقائهما أول مرة لأن فوينتس كان يعرف من هو غارسيا ماركيز وكان معجباً بكتاباته. وكما يتذكر الأديب المكسيكي: "سمعت أول مرة عن غابرييل من خلال ألفارو موتيس الذي أعطاني في أواخر عقد الخمسينيات نسخة من رواية **عاصفة الأوراق**، وقال لي إن هذا أفضل كتاب صدر حديثاً، لكنه لم يذكر زمان صدوره ولا مكانه"[37]. نتيجة تلك التزكية، نشر فوينتس رواية **جنازة الأم الكبيرة** و**مونولوج إيزابيل وهي تراقب المطر في ماكوندو** في مجلة ريفيستا مكسيكانا دي ليتراتيورا، وكتب مراجعة متحمسة لرواية **ليس للعقيد من يكاتبه** في مجلة لا كالتورا آن مكسيكو في كانون الثاني 1963.

وبالرغم من ذلك، فإن فوينتس كان كافياً لأن يزيد من الشعور بالنقص لدى أي شخص. فقد كانت تربيته ممتازة، وقد استفاد منها أقصى استفادة. وكان يتكلم الإنكليزية والفرنسية بطريقة مدهشة وبلكنة مكسيكية فحولية كلاسيكية. وكان وسيماً، ومندفعاً، وحيوياً، وجذاباً في كل شيء. وفي عام 1957 كان قد تزوج بريتا ماثيدو وهي ممثلة بارزة، ولكنه ارتبط في ما بعد بعلاقة درامية مع نجمة هوليوود سيئة الحظ جين سيبيرغ عندما كانت تمثل الشريط السينمائي ماشوكالابان

في ديوارنغو. وفي عام 1958 نشر كتاب **حيث الهواء نقيّ** الذي يمكن عدُّه الكتاب الــذي بشَّر بانتشار الرواية الأميركية اللاتينية. وكما هو شأن غارسيا ماركيز، فقد سافر فوينتس إلى كوبا في أعقاب الثورة مباشرة، إلا أنه كان مستقلاً سياسياً دائماً: وفي نهايــة الأمر يتدبر أمره بعد أن مُنِع من دخول كوبا الشيوعية وإسبانيا الفاشية والــولايات المــتحدة الليبرالية. وفي عام 1962 نشر مؤلفات مهمة جداً، فالرواية القوطــية الــصغيرة **أورا**، ورواية **موت آرتيمو كروز** التي تعد واحدة من أعظم الــروايات المكسيكية في القرن العشرين، وربما أعظم الروايات قاطبة، والتي تدور حــول الــثورة المكسكية؛ وقد أكمل كتابتها في هافانا حيث شاهد مسار بلاده الثوري يتوارى أمام منظور الثورة الكوبية الجديدة. لقد كان كارلوس فوينتس وهو في ســن الخامسة والثلاثين الأديب البارز الشاب بلا منازع في المكسيك، والنجم الصاعد على الساحة الأدبية العالمية.

ولما كان لكلا الرجلين اهتمامات مشتركة ومهنة واحدة، فقد تطورت بينهما علــى جــناح السرعة علاقة وثيقة عادت على كليهما بالنفع. صحيح أن غارسيا ماركيز كان أمامه الشيء الكثير وغير المحدود كي يكسبه، لكن فوينتس كان يسبقه بــسنوات في ضوء التجربة الأدبية إضافة إلى أنه مكسيكي يعيش في بلاده نفسها، وأنــه طور على مدى عقد من الزمان شبكة مذهلة من العلاقات مع عدد كبير من المثقفين في العالم؛ العوالم التي كان غارسيا ماركيز يصبو إلى الانتقال إليها. وكان في وســع فوينــتس أن يصطحبه إلى أماكن ليس في وسع أديب آخر من أدباء أميركا اللاتينــية أن يصلها. وكان كرمه الأدبــي لا يضارعه كرم. وفوق هذا كله، فإن وعي كارلوس فوينتس الأميركي اللاتيني كان أكثر تقدماً من وعي غارسيا ماركيز، وكــان في مستطاعه أن يعلم الكولومبــي غير الواثق من نفسه ثقة تامة، وأن يُعدّه لأداء دور في المشهد الدرامي الأدبــي الواسع في أميركا اللاتينية الذي كان فوينتس يــتوقعه له أكثر من أي شخص آخر على قيد الحياة، ويكون بالتالي، مسؤولاً عنه شخصياً أكثر من أي شخص آخر على قيد الحياة أيضاً.

بــدأ غارســيا ماركيــز وفوينــتس يعملان معاً في النص السينمائي **الديك الذهبــي** برفقة روبيرتو غابالدون. ويزعم غارسيا ماركيز في وقت لاحق أنه أنفق

هو وفوينتس خمسة أشهر طويلة يتناقشان مع المخرج بشأن النص من دون التوصل إلى نتيجة. لكن تصوير الشريط السينمائي قد ابتدأ في الفترة الممتدة من السابع عشر من حزيران وحتى الرابع والعشرين من تموز عام 1964 في أستوديوهات تشوروبوسكو الشهيرة، على حين صُورت المشاهد الخارجية في كويرتارو وأدى دور البطولة فيه إغناثيو لوبيث تارسو ولوتشا بيًّا. وعندما عرض الشريط في نهاية المطاف في الثامن عشر من كانون الأول 1964 أخفق إخفاقاً تجارياً ونقدياً تاماً. لقد كان نص رولفو نصاً واقعياً، ميثولوجياً ضمناً، لكنه كان أيضاً نصاً موحياً ومقتصداً وليس صريحاً البتة، مما زاد من صعوبة اقتباسه للشاشة الكبيرة.

بالرغم من أن كلا الرجلين واصلا العمل في السينما، وبخاصة غارسيا ماركيز، الذي قال "إنه صمام أمان لأُحرر فيه أشباحي"[38]، إلاَّ أن أيّاً منهما لم يشعر بالارتياح التام في هذا الاشتغال بالسينما. وليس صعباً أن نلاحظ السبب في مواصلتهما ذلك العمل: فالأدب لم يكن مهنة مربحة في تلك الأيام، أو هكذا بدا، على حين كانت السينما أسلوباً يخاطب مباشرة وعي الجمهور الواسع في أميركا اللاتينية. زد على ذلك أن السينما في ستينيات القرن العشرين، وفي مجتمع مكبوت نسبياً كمجتمع المكسيك، فتحت الطريق من خلال مدخلها الجديد للجنس والعري ولجوئها إلى استخدام الممثلات الفاتنات والمخرجين الشبان الطليعيين غير المتحفظين للوصول إلى الفتنة والجاذبية والمستقبل الثقافي. لكن عقد الستينيات شجع أيضاً، لسوء الحظ، على حدوث فورة كبيرة، ولكنها بلهاء وبلا معنى، ليس أقلها في المكسيك. وأصبح السلوك العصري وملاحقة المستجدات من الأمور الضرورية في تلك الأيام، ووجد غارسيا وكارلوس فوينتس نفسيهما واقعين تحت إغراء السوق الثقافية وآلة علاقاته العامة.

وفي تموز اعترف غارسيا ماركيز لبلينيو ميندوثا أن إعجابه برواية أليخو كاربنتيه الأخيرة **انفجار في كاتدرائية**، جعله يبدأ بالتفكير - بعدي عن فوينتس بلا شك - في العلاقة بين الموضوعات والصياغة الأدبية الباروكية. وجذب اهتمام بلينيو إلى النجاح الذي حققته في أوروبا في العام الماضي ترجمات **انفجار في كاتدرائية** و**موت آرتيمو كروز**، وكذلك رواية **الحجلة** التي كتبها خوليو كورتاثار ورواية

عصر البطل لماريو فارغاس يوسا، وتلك لائحة تضم عناوين أول ثلاث روايات لم تكن قد بشّرت بعد بازدهار الرواية في أميركا اللاتينية[39]. ولم يكن غارسيا ماركيز ليحلم في أن تكون الرواية الرابعة والأكثر شهرة منها جميعاً هي الرواية التي سيكتبها بنفسه.

مُنح غارسيا ماركيز وميرثيديس فرصة الانتقال إلى بيت جديد يناسب أهدافهما تماماً[40]. فقد أخبر بلينيو بأن البيت "فسيح ذو حديقة، ومكتب، وغرفة للضيوف، وهاتف، وكل متطلبات الراحة للحياة البورجوازية، وفي بقعة هادئة جداً وتقليدية تحتشد بنخبة لامعة". لكن هذا الكلام ينطوي على مبالغة: صحيح أن البيت قريب من مثل تلك البقعة، إلا أنه كان مفصولاً عنها بطريق رئيس. لكنه بالرغم من ذلك، كان بيتاً مقبولاً وهادئاً ومريحاً مما لا يبعث على الشك. وأصبح لغارسيا ماركيز أخيراً مكتب خاص به، "كهف مملوء بالأوراق". ولم يكن البيت ليحتوي على قدر كبير من الأثاث، إلا أنه كان أوسع من كل البيوت التي سبق للأسرة أن سكنت فيها. وبالرغم من أنه كان خاوياً إلى حدٍّ كبير من الأثاث، إلا أنه يصدح دائماً بالموسيقى وبخاصة موسيقى باروك والبيتلز[41].

ولكن في خضم هذه الدوامة الاجتماعية، ومن وراء البوهيمية الزائفة، وبالرغم من الأمن والاحترام اللذين اكتسبهما غارسيا ماركيز، إلاّ أن شعوره بالافتقار إلى السعادة كان متزايداً. فالصور التي التقطت له في تلك المرحلة تدعو للألم: فالتوتر والإجهاد باديان عليه. وقال البعض إنهم شاهدوه وهو على استعداد للشجار في الحفلات. ولم يكن يكتب ما يهتم به أبداً، باستثناء تأليفه رواية **خريف البطريرك** بين حين وآخر التي شعر أنها لا تُفضي به إلى أي شيء. لقد كان غارسيا ماركيز في تلك الآونة كاتب نصوص سينمائية، بورجوازياً صغيراً ورجل إعلانات، وكان الأدباء الناجحون من أمثال خوليو كورتاثار وماريو فارغاس يوسا اللذين لم تكن لهما صلات ثورية سابقة، موضع احتفاء من لدن الثورة الكوبية في حين أُهمل شأنه. وعندما زار ناقد الأدب البارز من أوروغواي أمير رودريغيث فيموينغال المكسيك للتدريس، وهو الذي سيؤدي دوراً مؤثراً لا في الدعاية لفوينتس وغارسيا ماركيز وحسب، بل لكل الأدباء الآخرين في حقبة انتعاش أدب أميركا اللاتينية، وجد

غارسيا ماركيز في حالة عقلية مضطربة: "روحاً معذبة، ساكناً من سكان الجحيم، جحـيم العقـم الأدبـي. وكان الكلام وإياه عن كتاباته السابقة، والإطراء على روايته **ليس للعقيد من يكاتبه** على سبيل المثال، كان أشبه بمحاولة تعذيبه بآلة من أكثر آلات عهد التفتيش قسوة"(42).

غـير أن غارسيا ماركيز استمر في تحمل المشاق. وفي أواخر عام 1964 أعاد كـتابة النص السينمائي **راعي البقر** الذي كان مقرراً أن يصوره أول الأمر خوسيه لـويس غونثالـيث دي ليون ولكن حققه الآن المخرج أرتورو ريبشتاين البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ووضع له عنواناً جديداً هو **عصر الموت**43.

وكمـا هـو شأن عديد الأعمال التي كتبها غارسيا ماركيز، فإن هذا العمل يكمن في صورة واحدة، ذكرى، حادثة من حوادث الماضي. فقد رجع يوماً ما إلى شـقته في كولومبـيا لـيجد البواب، وهو قاتل مأجور سابقاً، منهمكاً في حياكة كنـزة صوفية(44). وفي النص السينمائي، يعود الرجل الذي أمضى ثمانية عشر عاماً في السجن بسبب جريمة قتل استُفزّ على ارتكابها، إلى قريته التي ولد فيها بالرغم من أن ابني الرجل المقتول أقسما على قتله. وينهمك بدوره في الحياكة، وهنا يغير الابن الأصغر رأيه، لكن الابن الأكبر سناً يستفز الرجل دائماً - التاريخ يعيد نفسه - إلى أن يطلـق البطل النار أخيراً على الابن الأكبر سناً فيطلق الابن الأصغر عندئذ النار على البطل ويرديه قتيلاً من دون أن يبدي أي مقاومة. من الواضح أن هذه القصة إعـادة كتابة لقصة جده وما حدث معه في بارانكاس عندما استفزّه شاب؛ بالرغم من أن نيكولاس ماركيز قتل غريمه وأمضى عاماً واحداً في السجن وليس ثمانية عشر عاماً.

أخـيراً صُوّر الشريط السينمائي في أستوديوهات تشوربوسكو وفي باتشكوارو بـين السابع من حزيران والعاشر من تموز عام 1965 بعد أسبوعين تماماً من إكمال غارسـيا ماركيز كتابة النص السينمائي، ومثّل فيه خورخه مارتينيث دي هويوس ومارغـا لوبـيث وإنريكـي روتشا. أما الحوار فهو من إعداد كارلوس فوينتس والتـصوير للمصور القدير أليكس فيليبس، وعلى حين كانت "تترات" الشريط من إنـتاج بيثيـنيي روخو صديق غارسيا ماركيز. وبلغت مدة عرض الشريط تسعين

دقيقة. وكان عرضه الأول في الحادي عشر من آب 1966 في دار سينما باريندادس في مدينة مكسيكو. لكن مرة أخرى، عُدَّ الشريط السينمائي الذي أسهم فيه غارسيا ماركيز فاشلاً على وجه العموم بالرغم من أن موهبة المخرج الشاب السينمائية كانت واضحة أمام الجميع. وألقى كل من غارسيا ماركيز وريبشتاين باللائمة على الآخر. فقد كان إسهام غارسيا ماركيز نموذجاً لمحاسنه ومساوئه السينمائية: فالحبكة جديرة بأن تكون من صنع سوفوكليس نظراً إلى كمالها، أما الحوار فكان وعظياً مملاً لا يناسب الشريط السينمائي. لقد رأى غارسيا ماركيز بوضوحٍ يبعث على خيبة أمل، أن كتابة النصوص السينمائية لم تكن في الأقل مرضية له على عكس كتابة القصص الأدبية، حتى إن لم يقرأها أحد: أولاً، كانت كتابة نصوص الأشرطة السينمائية مختلفة تمام الاختلاف عن الكتابة لجمهور القراء. ثانياً، إن كاتب نصوص الأشرطة السينمائية يفقد استقلاليته ونزاهته السياسية والأخلاقية، بل هويته أيضاً، وأخيراً إن المنتجين والمخرجين ينظرون إلى هذا الكاتب على أنه ليس إلا وسيلة لغاية، وسلعة من السلع[45].

وبالرغم من ذلك، فإن اللحظة التاريخية المهمة في السينما واتت غارسيا ماركيز في بدء هذه المرحلة من خيبة الأمل عندما بدأ العديد من المشاهير في المكسيك، وأكثرهم من أصدقائه، يشاركون في تصوير قصته **ليس ثمة لصوص في هذه البلدة** في أواخر شهر تشرين الأول عام 1964، وهي قصة تدور أحداثها حول صعلوك في بلدة صغيرة يقرر جمع المال ببيع كرات البليارد العاجية في قاعة السباحة المحلية، فيجلب الكارثة على نفسه وعلى زوجته التي تعاني مرضاً مزمناً وطفلهما المولود حديثاً[46].

جرى التصوير في مدينة مكسيكو وفي كواوتلا. وأدى غارسيا ماركيز بنفسه دور جامع التذاكر خارج مبنى سينما القرية وكان شديد الوعي بذاته في مثل هذه المواقف، لكن تمثيله كان قلقاً على وجه الخصوص. كما قام بنفسه بعملية التقطيع الصوري (المونتاج). وأدى لويس بونويل دور القسيس، على حين أدى كل من خوان رولفو وآبيل كيثادا وكارلوس مونسيبايس أدوار لاعبي الدومينو، وأدى لويس بيثينس دور مالك قاعة السباحة، وخوسيه لويس كيبباس وإميليو غارسيا

ريـــيرا أدوار لاعبــــــي البليارد، وماريا لويسا ميندوثا دور مغنية الملهى، وليونورا كارينغـــتون دور أحد رواد الكنيسة بثياب الحداد. أما الأدوار الرئيسة فكانت لكل مــــن جوليان باستور وروثيو ساغاون وغراثييلاّ إنريكيث. لقد كان شريط **ليس ثمة لصوص في هذه البلدة** واحداً من أفضل الأشرطة السينمائية في تلك الحقبة، وتبلغ مدة عرضه تسعين دقيقة، وعرض أول مرة في التاسع من أيلول عام 1965.

وبالـــرغم من هذه التطورات وأخرى غيرها، بدأت الأشرطة السينمائية تفقد بريقها في نفس غارسيا ماركيز في اللحظة التي وجد نفسه فيها وقد ثبّت قدميه في صـــناعتها وراح يجـــني مـــنها أموالاً كثيرة. أكان ذلك هو الهدف؟ كان يمكنه أن يلاحظ أن في وسعه الاستمرار في العمل في السينما المكسيكية بنجاح مقبول وعلى مـــدى المستقبل الذي يريده. لكنه كان أيضاً يدرك أن موهبته الحقيقية لا تكمن في هـــذا الميدان، وأن القناعات من كتابة النصوص السينمائية محدودة، كما أن كتابة هذه النصوص لم تكن مهيمنة تماماً على مصيره. ولهذا السبب، بدأ يشعر بأنه في فخ مـــرة أخـــرى، وبـــأن عالم الأدب الأميركي اللاتيني يتغير تغيراً سريعاً ليغدو، ويا للمفارقة، أكثر جاذبية وفتنة من الأشرطة السينمائية. في تلك الآونة التي غدت فيها الأشرطة السينمائية مملة، راح يدرك أن الأشرطة السينمائية نفسها جزء من المشكلة الـــتي تـــواجهه مع الأدب. ولم تكن مشكلته متمثلة بأنه كان يكتب نصوصاً أدبية لوســـط آخـــر مختلف تماماً، بل كانت متمثلة بأن الأشرطة السينمائية حلت محل تـــصوره عن الرواية منذ سنوات سابقة، وأنه بحاجة إلى العودة إلى جذوره الأدبية. يتذكـــر غارسيا ماركيز بعد مضي سنوات وهو ينظر إلى الماضي فيقول: "فكّرت دائماً في أن السينما هي الوسط الأمثل للتعبير، وذلك بفضل قدرتها الصورية الهائلة. وقد أربك هذا التفكير كل مؤلفاتي التي سبقت رواية **مئة عام من العزلة**. ثمة رغبة كـــبيرة لتصوير الشخصية والمشهد، وتفصيل دقيق بالمليمتر لزمن الحوار والحدث، وهوس بوجهة النظر وبالإطار العام، وفي حين كنت أعمل في السينما، رحت أدرك الأشياء التي يمكن تنفيذها والتي لا يمكن تنفيذها، وعلمت أن في هيمنة الصورة على عناصر السرد فائدةً، وحدوداً أيضاً، وكان هذا الاكتشاف مبكراً لي لأنني لم أدرك إلا آنذاك حقيقة أن إمكانيات الرواية غير محدودة"[47].

عقــدت في ســنة 1965 نــدوة كبرى للمثقفين في موقع آثار حضارة المايا في تشيتشين إيتا. وكان من المشاركين في الندوة كارلوس فوينتس وخوسيه لويس سيبياس وولــيم ستيرون، وأصبحت الندوة حقاً مهرجاناً حافلاً وصاخباً، وإن كانت قد غطت على بعده الثقافي الكثير من حالات العبث والمزاح. ومن الطبيعي أن أحداً ما لم يفكّر في توجيه الدعوة إلى غارسيا ماركيز الذي كان لا يزال مغموراً على الساحة العالمية، كما أن غارســيا ماركيز نفسه لم يفكّر قط في الظهور في مثل هذه المناسبة. لكن عندما بدأ المــشاركون رحلاتهـــم في جمــيع أرجاء البلاد منطلقين من العاصمة مكسيكو، رتب فوينــتس حفلة كبرى وأسطورية في بيته حلّ فيها غارسيا ماركيز ضيفاً والتقى الروائي التــشيلي خوسيه دونوسو الذي عبَّر عن إعجابه برواية **ليس للعقيد من يكاتبه**، وتذكر غارســيا ماركيز "رجلاً حزيناً، مكتئباً، معذباً بموانع كتابــي أسطوري مثل الموانع التي وقفت أمام أرنستو ساباتو وخوان رولفو ووليم ستيرون"[48].

وبعــد الحفلة، جاءت زيارتان أثبتتا في ما بعد أنهما كانتا حاسمتين في رجوع غارســيا ماركيــز إلى ميدان الأدب وفي جعل حياته حياة ثورية. ففي حين كان ريبــشتاين يــصور شريط **عصر الموت** في باتثكوارو في شهر حزيران، زار لويس هــارس، وهو شاب أميركي من أصل تشيلي، غارسيا ماركيز وكان قد التقاه قبل ذلك لقاءً قصيراً في مبنى الأمم المتحدة في نيويورك عام 1961، وبدأ يعد حينها كتاباً يضم مجموعة من المقابلات النقدية مع كبار الروائيين في أميركا اللاتينية ممن ينتمون إلى الجيلين السابقين، استجابة للظاهرة الأدبية التي عرفت بانتعاش الرواية في أميركا اللاتينية[49]. كان لويس هارس قد خطط ليجعل كتابه يضم تسع مقابلات. وكان معظــم الأدبــاء الآخرين معروفين تماماً بالرغم من الاختيار العشوائي: ميغيل آنخل اســتورياس وخــورخه لويس بورخس وأليخو كاربنتيه وخواو غيمارايس روسا وخــوان كارلــوس أُونيتي وخوان رولفو – وهم يمثلون الجيل السابق – وخوليو كورتاثار وماريو فارغاس يوسا وكارلوس فوينتس من أدباء حقبة الانتعاش. وكان غارسيا ماركيز الاستثناء الأبرز حيث أوصى به فوينتس نفسه[50].

لا بــد من أن زيارة هارس لغارسيا ماركيز وإدراجه في لائحة أفضل عشرة أدبــاء كانــت حقنة مثيرة في ذراع الأخير، إذ ستظل تلك المقابلة حتى يومنا هذا،

واحدة من أهم المقابلات التي استغورت أعماق رجل لم يطور بعد في تلك المقابلة الرئيسة والجادة الأولى، شخصية الرجل المشهور التي اكتسبها في السنوات الأخيرة، بالرغم من أنه بدأ بوصف الأدب الكولومبي بكونه "أدباً عرضياً". كانت تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها غارسيا ماركيز لاستجواب عام، ولا بد من أن تأثيره في تحليله الذاتي وتمحيصه لنفسه كان تأثيراً هائلاً. ويصفه هارس على هذا النحو:

> **كان قصيراً قوياً، ممتلئ الجسم، خفيف الحركة في سيره، ذا شارب منتصب الشعر، وأنف يشبه القنّبيط، وحشوات كثيرة في أسنانه، يرتدي قميصاً رياضياً مفتوحاً، وبنطالاً من الجينز الأزرق الباهت، وسترة ضخمة يرميها فوق كتفيه. وقد زودت الحياة الشاقة، التي كان في إمكانها أن تحطم رجلاً آخر، غارسيا ماركيز بذخيرة غنية من التجارب الشخصية التي تشكل العصب القوي في مؤلفاته. لقد عاش سنوات في المكسيك وقد يعود إلى وطنه لو تمكن من ذلك – ويؤكد أنه سيتخلى عن كل شيء إذا ما احتاجوا إليه هناك – لكنه لا يملك الآن، هو وكولومبيا ما يقدمه أحدهما إلى الآخر. أولاً: أفكاره السياسية لا تلقى الترحيب هناك، ومشاعره قوية تجاه هذا الأمر. وإذا كانت الحياة محنة في الخارج، فإن هناك ما يعوض عنها أيضاً. وفي هذه الأثناء تراه يشبه صانع مجوهرات يصقل مجوهراته. لقد بدأ يصنع شهرة ثابتة لنفسه، وخلّف وراءه كتباً بعدد أصابع يده، كل كتاب منها ولد بعد جهد عاشق كما تولد اللؤلؤة في محارة[51].**

وفي نهاية المقابلة يحاول غارسيا ماركيز أن يقوّض وجهة نظر هارس عنه بوصفه عنيداً ذا جلد: "لدي أفكار سياسية لا تتزحزح، لكن أفكاري الأدبية تتغير طبقاً لاستيعابي". ولاحظ هارس أنه بدأ بدوره يستحوذ على المشاعر:

> **يخرج غابرييل وهو يحكم شد حزامه من وراء عطفة الدهليز المعتمة، والبريق يشع من عينيه. يدخل الغرفة بخفة، متوتراً إلى حدٍّ ما، متسائلاً عما سيحدث له، لكنه في الوقت نفسه يفرك كلتا يديه على ما يبدو متوقعاً ما يجري... ويتمتع بأسلوب في إثارة نفسه بأفكاره الشخصية. الليل فوّاح، مفعم بالمفاجآت، وها هو الآن يستلقي على فراش كأنه مريض نفساني، ويُطفئ أعقاب سجائره، يتكلم سريعاً، يلتقط الأفكار وهي تمر في خاطره، يلفها ويفكها كأنها قصاصات ورق، فيلحق بها من جانب ويتركها من جانب آخر**

ليفقدها قبل أن يتمكن من تثبيتها في مكانها. وتوحي نبرته العفوية ذات الدفقات العميقة أنه يبني استراتيجية إهمال. وهو يتمتّع بأسلوب خاصٍّ في استراق السمع إلى نفسه كأنه يسعى لسماع مقتطفات من حديثٍ في غرفة مجاورة. المهم هو الكلام الذي لم يقله بعد[52].

أكان غارسيا ماركيز حقاً على هذه الهيئة، أم أنه أراد أن يكون هكذا وهو يتحدث، تحفزه في ذلك الدراما التي وجد نفسه يؤدي دوراً فيها. من يدري؟ ويضع هارس لمقابلته عنوان: *غابرييل غارسيا ماركيز أو الوتر المفقود*.

بعد أسابيع قليلة، وبعد هذه الومضة الأولى أمام الملأ، جاءت زيارة عمل حاسمة. فمنذ سنة 1962 كانت كارمن بالسيلس، الوكيلة الأدبية في مدينة برشلونة، تعمل بصفة افتراضية عموماً من أجل التفاوض بالإنابة عن غارسيا ماركيز لنشر ترجماته في الوقت الذي كان يجد فيه الظروف صعبة جداً أمامه لنشر رواياته بلغتها الأصلية. وصلت بالسيلس إلى المكسيك يوم الاثنين المصادف الخامس من تموز بعد زيارة قامت بها إلى نيويورك حيث تفاوضت وتوصلت إلى عقد مع روجر كلين عن دار نشر هاربر آندرو لنشر أربعة كتب جاهزة لغارسيا ماركيز بترجمة إنكليزية لقاء ألف دولار[53]. كانت بالسيلس وكيلة أدبية عالمية واسعة الطموح، وكان هو أديباً شاباً واعداً يتوق إلى النجاح توقاً موجعاً. فقدمت نفسها إلى المؤلف الجديد وشرحت له العقد وانتظرت رد فعله الذي تلخص في عبارة: "العقد قطعة من براز". كانت بالسيلس ممتلئة الجسم والوجه والمضطرمة حماساً، وزوجها لويس بالوماريس قد ارتبكا حقاً بسبب المزيج الغريب والمميز في آنٍ من اللامبالاة والغطرسة، وقلة الثقة التي قيل إن غارسيا ماركيز يتصف بها، ولا بد من أنهما ذهلا عندما شاهدا أمامهما كاتباً لم يسمع به أحد تقريباً ولكنه بهذه الدرجة الكبيرة من الغرور والاعتداد بالنفس. لم تكن هذه البداية موفّقة. "لقد وجدته نكداً، غير محبوب إلى درجة كبيرة. لكنه كان محقاً بشأن العقد"[54]. ولحسن الحظ استردّ غارسيا ماركيز وميرثيديس قوتهما على الفور وأمضيا ثلاثة أيام من الحفلات والرحلات السياحية تُوجّت في السابع من تموز عام 1965 بتوقيع عقد ملفق ثانٍ كما في حالة العقيد في إحدى قصصه خوّل فيه غارسيا ماركيز بالسيلس وبحضور لويس بيثينس تمثيله في جميع اللغات وعلى جميع جوانب الأطلسي على مدى مئة وخمسين عاماً. وهنا

كانت قصته القصيرة تصنع سحرها: لقد وجد غارسيا ماركيز *الأم الكبيرة* في الحياة الحقيقية وعلى المدى الطويل. وعلى الفور تفاوضت مع دار نشر إيرا لنشر طبعات جديدة من روايتي **ليس للعقيد من يكاتبه وفي ساعة نحس**، كما تفاوضت مع فيلترينللي لإصدار ترجمات إيطالية. ربما فكّرت أنه ينبغي له أن يكون شاكراً حظه. ولم تكن تعرف إلا القليل، كم ستكون هي نفسها محظوظة مستقبلاً.

بعد هذه الزيارات غير المتوقعة من مكان بعيد، وما أتت به من أخبار طيبة، قرر غارسيا ماركيز أن يذهب وأسرته في إجازة قصيرة لزيارة مدينة أكابولكو في عطلة نهاية الأسبوع التالي بعد أن كان قد أمضى وقتاً طويلاً وبعيداً في التصوير في باتشكوارو. كان الطريق الممتد إلى أكابولكو واحداً من أسوأ الطرقات في بلد مملوء بالمنعطفات والالتواءات الرهيبة. وكان غارسيا ماركيز الذي طالما كان شغوفاً بقيادة السيارة مبتهجاً بقيادة سيارته البيضاء الصغيرة من طراز أوبل وسط البانوراما المتغيرة دائماً في الطريق المكسيكي. وغالباً ما كان يقول إن قيادة السيارة مهارة آلية من جهة وتتطلب قدراً كبيراً من التركيز من جهة أخرى، حتى إنها تسمح له بإزاحة قدر من التركيز والتفكير بدلاً من ذلك في رواياته[55]. لم يكن قد قاد سيارته طويلاً في ذلك اليوم عندما طافت في ذهنه "من اللامكان" أول جملة لرواية جديدة. وكانت من تلك الجملة رواية كاملة غير مرئية لكنها واضحة، كأن هناك من يمليها عليه أو يُحمّلها شخص ما من فوقه. كانت قوية لا تقاوم كأنها سحر ساحر. وكانت الصيغة السرية للجملة تكمن في وجهة النظر، والأهم من هذا، في النبرة: "بعد سنوات طويلة وفيما كان يواجه فصيل الإعدام..."، وهنا توقف غارسيا ماركيز كأن غيبوبة غشيته على حافة الطريق واستدار بسيارته وعاد باتجاه مدينة مكسيكو. ثم...

يبدو التدخل في القصة في هذه المرحلة مثيراً للشفقة، إلا أن كاتب السيرة يشعر بأنه مضطر إلى الإيضاح أن هناك تفسيرات متعددة لهذه القصة (كما في قصص أخرى)، وأن التفسير المذكور آنفاً لا يمكن أن يكون صحيحاً؛ أو في الأقل، لا يمكن أن يكون مدهشاً على النحو الذي اقترحه معظم رواته. إن التفسيرات تتباين بشأن السطر الأول الذي سمعه غارسيا ماركيز، وهل هو سطر أم هو صورة

الجـــد وقد صحب معه فتىً ليكتشف الثلج (أو ليكتشف حقاً شيئاً آخر)[56]. لكن بغض النظر عن الحقيقة، حدث شيء ما حقاً، شيء غامض وليس سحرياً.

إن التفـــسير الكلاسيكي الذي انقطع حبله فجأة يصور غارسيا ماركيز وقد استدار بالسيارة في اللحظة نفسها التي يسمح فيها ذلك السطر في ذهنه، وألغى على نحـــو باتّ إجازة الأسرة ليعود إلى مدينة مكسيكو ويبدأ كتابة الرواية حال وصوله إلى البـــيت. أما التفسيرات الأخرى، فتشير إلى أنه ردد تلك الجملة في ذهنه وتأمل مـــضامينها وهـــو يقود السيارة ثم يسجّل بعدها ملاحظات كثيرة لدى وصوله إلى أكابولكـــو، ويكـــتب الرواية بصورة صحيحة حال عودته إلى العاصمة[57]. هذا التفـــسير هـــو أكثر التفسيرات إقناعاً من غيره. لكن الإجازة، كما تبدو في جميع التفـــسيرات، انقطعت واضطر الصّبيّانِ وميرثيديس التي طالت معاناتها، ولا تدري شـــيئاً عـــن مدى المعاناة التي ستتحملها بعد الآن، إلى ابتلاع خيبة أملهم وانتظار إجازة أخرى؛ وتلك مناسبة سيمر وقت طويل قبل أن يحين وقتها.

-15-

ميلكيادس الغجري:
مئة عام من العزلة
1966-1965

بعد مضيّ سنوات يقول غارسيا ماركيز إنه بعد أن عاد إلى البيت جلس إلى آلــته الكاتــبة في اليوم التالي، تماماً مثلما كان يجلس في كل يوم مضى، في ما خلا "أنني في هذه المرة لم أنهض لأمضي ثمانية عشر شهراً"[(1)]. ولم تستغرق الكتابة أكثر من سنة واحدة، من تموز 1965 ولغاية تموز أو آب 1966، مع بعض الفترات الزمنية المتقطّعة. لكنه يردد دائماً إن المدة ثمانية عشر شهراً، وربما كان ذلك صحيحاً لأنه استغرق ثمانية عشر عاماً. وقد أخبر بلينيو ميندوثا أن مشكلته الكبرى تمثلت "بالبدء بالكــتابة، فــإنني أتذكر بوضوح تام اليوم الذي أكملت فيه الجملة الأولى بصعوبة بالغــة وسألت نفسي وأنا في حالة من الهلع عن الجملة التالية. ولم أحسب قط أن الكــتاب سيــصل إلى أي نهاية إلاّ عندما عُثر على سفينة في وسط الغابة، وعندئذٍ أضحت الأمور محتدمة وممتعة جداً"[(2)].

إن غارســيا ماركيــز أدرك أن السحر لن ينتهي هذه المرة، وأن في وسعه أن يسترخي ويرتاح بعد أن كتب زهاء عشر صفحات، وبخاصة الفقرات التي يعثر فيها مصادفة خوسيه آركاديو بوينديا على سفينة إسبانية جانحة عند الغابة المدارية. الواضح أن هــذا جرى له في الأسبوع الأول وكان لا يزال يتمتع بإجازته بعيداً عن المكتب، وبــدأت كل أعباء السنوات الخمس المنصرمة تتضاءل. وتوقع أن ينضّد ثمانمئة صفحة على الآلة الكاتبة، لكنه اختزلها إلى أربعمئة صفحة في نهاية المطاف. ولم يكن هذا أمراً ســيئاً كمــا تبين في ما بعد. ففي هذه الصفحات الأربعمئة سيحكي لنا قصة أربعة

أجيال من أسرة بوينديا، التي يصل الجيل الأول منها إلى منطقة تعرف بالاسم ماكوندو إبان القرن التاسع عشر ليبدأ معايشة مئة عام من التاريخ الكولومبي بمزيج من الحيرة والإصرار والهوس والنكتة السوداء. وتنتقل الأسرة من حالة براءة الطفولة مروراً بكل مراحل الرجولة والأنوثة والانحطاط حتى تجرف ريح قوية في آخر صفحة من صفحات الكتاب آخر فرد من أفراد الأسرة. فكّر النقاد كثيراً في مضمون هذه النهاية منذ صدور الكتاب في المرة الأولى. إن الشخصيات المركزية الستّ التي تبدأ بها الرواية وتهيمن على نصفها الأول هي: خوسيه آركاديو بوينديا، وهو مؤسس قرية ماكوندو سريع الاهتياج، وزوجته أورسولا وهي العمود الفقري في مجمل الرواية وليس لأسرتها وحدها وحسب، وولداهما خوسيه آركاديو وأوريليانو الذي سيغدو في ما بعد العقيد أوريليانو بوينديا وهو الذي يعد، على وجه العموم، شخصية الرواية المركزية، وابنتهما أمارانتا التي تعذبت في طفولتها وذاقت المر لما أصبحت امرأة، وميلكيادس الغجري الذي يأتي بين حين وآخر بأخبار عن العالم الخارجي ويستقر أخيراً في ماكوندو. كما أن تاريخ كولومبيا يتجسد لنا من خلال حدثين رئيسين: حرب الألف يوم، ومذبحة عمال الموز في ثيناغا سنة 1928. ويشكل هذان الحدثان إشارة تاريخية رئيسية وهي الإطار العام لطفولة غارسيا ماركيز.

إن الكتاب الذي أراد غارسيا ماركيز أن يؤلفه هو قصة أسرة تعيش في بلدة آراكاتاكا، لكنه استعمل اسماً آخر لها هو ماكوندو. أما الكتاب الذي راح يؤلفه حينها، فهو حقاً قصة أسرة عاشت في بلدة آراكاتاكا ولكنه سمّاها ماكوندو. بيد أن الأسرة لم تعد أسرة العقيد نيكولاس ماركيز وحده التي يغمرها حنين جارف وتوق شديد لإثبات وجودها الملحمي كما حدث في رواية **عاصفة الأوراق**، بالرغم من اكتناف المعالجة الروائية مفارقات جيدة، فهي أيضاً أسرة غابرييل إليخيو غارسيا التي يعالجها المؤلف معالجة تهكمية ساخرة وهجائية مع بعض التلميحات الهزلية التي تتراوح بين العطف والقسوة. كما أن الكتاب لم يؤلفه شاب في العشرين من عمره بدأ حياته بتأليف كتاب **البيت**، بل، ويا للغرابة، صبي صغير السن يتذكر تجربة ذلك الشاب على نحو ينطوي على شوق كبير، حيث الصبي صغير السن يسير يداً بيد لا مع العقيد ماركيز، بل مع رجل الأسرة البالغ من العمر زهاء

الأربعين عاماً اليوم، وهو عمر غارسيا ماركيز الآن، مع الأديب الذي قرأ آداب العالم كلها وعاش في خضم أشد المراحل الحاسمة في عمر الإنسان.

ما الذي جرى لغابرييل غارسيا ماركيز؟ ما الذي جعله يتمكن بعد مضي وقت طويل من تأليف هذا الكتاب؟ لقد أدرك في ومضة من ومضات الإلهام الخاطف أن عليه أن يؤلف كتاباً حول ذكرياته عن طفولته وليس كتاباً عن طفولته. وبدلاً من أن يكتب كتاباً عن الواقع، عليه أن يكتب كتاباً عن تمظهر الواقع. وبدلاً من كتاب يدور حول آراكاتاكا وأهاليها، ينبغي للكتاب أن يكون قصة تُروى من وجهة نظر عامة لأولئك الأهالي. وبدلاً من أن يحاول مجدّداً بعث آراكاتاكا من جديد، عليه أن يقول وداعاً لآراكاتاكا، لا من خلال سرد قصتها بلسان سكانها، بل من خلال تضمين الرواية كل ما حدث له، وكل ما عرفه عن العالم، وكل ما كان هو عليه وكل ما جسّده بوصفه أميركياً لاتينياً في أواخر القرن العشرين: أي بدلاً من عزل البيت وآراكاتاكا عن العالم، ينبغي له أن يأخذ العالم كله إلى آراكاتاكا. والأهم من هذا كله، ومن الناحية الوجدانية، عليه هو نفسه أن يصبح نيكولاس ماركيز بدلاً من أن يحاول إظهار شبح نيكولاس ماركيز.

لقد شعر غارسيا ماركيز بالارتياح يسري في داخله على مستويات مضاعفة ومن مئة اتجاه مختلف، وتحررت بذلك كل الجهود والعذابات والإخفاقات والإحباطات التي مرَّ بها في حياته، وتجسّد التحرر وإدراك الذات وتوكيد الذات في هذا الإبداع الغريب الذي كان يعرف - نعم كان يعرف - أنه يمكن أن يكون عملاً فريداً وربما خالداً حتى عند لحظة بدء الكتابة، وعندما واصل الكتابة بحماسة متزايدة راح يتناول عظمة الخرافة بحق، وهو يمضي في تأليفه، أن الكتاب سحري ومدهش ومفعم بالحيوية والنشاط له أولاً، وللقراء ثانية. لقد كان تجربة في سحر الإبداع الأدبي ارتقى إلى أعلى مراتب القوة. يضاف إلى ذلك، كانت الكتابة نفسها علاجاً نفسانياً جذرياً: فبدلاً من بذل محاولة مهووسة وعصابية ودؤوبة لإعادة سرد الأحداث التي مرَّ بها في حياته تماماً كما يتذكرها، فإنه يعيد ترتيب كل ما سبق أن قيل له أو مرَّ هو به شخصياً على النحو الذي يريده، حتى اتخذ الكتاب شكل مؤلفه. وبهذا، فإن الكتاب سحري ومدهش ومفعم بالحيوية والنشاط: إنه يشفيه من أمراض كثيرة.

بعد أن كنا نرى رجلاً يكتب عادة فقرة واحدة في اليوم، رحنا نشاهده وهو يكـــتب عدة صفحات يومياً. والرجل الذي كان يقلب كتبه داخلاً خارجاً رأساً على عقب يبحث أولاً عن النسق؛ ثم البنية؛ وإذا به الآن يكتب الفصول واحداً تلو الآخر. والرجل الذي عانى دائماً في كل المناسبات وكل قرار مهما كان صغيراً، فنياً أو نفـــسياً، في كل كتاب من كتبه، بات يتلاعب بحياته: فيدمج جده في أبيه وفي نفـــسه، ويـــدمج ترانكيلينا في لويسا سانتياغا وميرثيديس، ويبتكر لويس إنريكي ومارغوت من بين عديد الشخصيات، محوّلاً جدته لأبيه إلى بيلار تيرنيرا، ويخطف تاتـــشيا لـــيحولها إلى شخصية أمارانتا أورسولا، دامجاً تاريخ أسرته كلها في تاريخ أميركا اللاتينية، موحداً مكوناته الأدبية الأميركية اللاتينية؛ بورخس، وإستورياس، وكاربنتـــيه، ورولفـــو، بالإنجيل، ورابيليه، ومدونات الفتوحات الإسبانية، ورواية الفروســـية الأوروبـــية، وولف وديفو، وفوكنر، وهمنغواي. لهذا، فمما يبعث على الدهـــشة شعوره بأنه أشبه بخيميائي، مازجاً نوسترا أداموس في بورخس – وبنفسه هـــو غارسيا ماركيز – لينتج شخصية ميلكيادس الكاتب؛ المبدع الكبير والعبقري الـــذي حبس نفسه في حجرة صغيرة ليضع الكون برمته في ذلك الفضاء المسحور الذي يمتد في الوقت نفسه في التاريخ وفي اللازمان، ويعرف بالأدب. باختصار، إن ما يفعله الآن لا يتلخّص في مزجه كل شيء وحسب، بل الأهم من هذا (وهذا هو ســـبب نجاحه، بحسب رأي الكثيرين، في كتابة شيءٍ ما في أميركا اللاتينية مكافئ لـــرواية **دون كـــيخوته**)، مواجهة وربط خاصيّتين أساسيتين ومتناقضين عن تلك القـــارة الـــتي لا يعرف عنها إلا النـــزر اليسير، ولكنها بالرغم من ذلك، قارة غير مألـــوفة تنـــشط بالحياة: ففي خضمّ الرواية المظلمة عن الفتوحات والعنف، المأساة والإخفـــاق، يرســـم غارسيا ماركيز جانباً آخر من القارة يتمثل بالروح الاحتفالية والموســـيقى والفنون التي عُرِف بها شعب أميركا اللاتينية، وتلك القدرة على تكريم الحـــياة حـــتى في أحلك زواياها، وإيجاد المتعة في الأيام الاعتيادية، المتعة التي يراها العديد من أبناء أميركا اللاتينية على أنها ليست عزاءً من القهر والفشل وحسب، بل بشيراً بذلك العالم الأفضل الذي يرونه مغلقاً دائماً ويحتفلون به لا من خلال ثوراتهم وحسب، بل من خلال انتصاراتهم الاحتفالية في الحياة اليومية أيضاً. من الطبيعي أن

غارسيا ماركيز ينكر لاحقاً كل هذه المقاصد السامية، إذ نجده يقول لألينا بونيا توفسكي في عام 1973: "لم أكن واعياً بأي أمر من هذه الأمور، وأنا لست سوى رجل يحكي القصص والحكايات"(3).

بانتهاء الأسبوع الأول من أيلول، كان غارسيا ماركيز قد قطع شوطاً بالغاً، وسرعان ما اكتشف أنه بحاجة إلى التزام تام وتعليق كل نشاطاته الأخرى تعليقاً تاماً. فقد كانت محاولته لتأليف الكتاب واستمراره في العمل في وكالة الإعلانات يصيبانه بصداع شديد مؤلم. لهذا قرر التخلي عن كلا الوظيفتين وما يتلقاه من مرتب عنهما، وكذلك التخلي عن حياته الاجتماعية الاعتيادية. فكانت تلك مقامرة غريبة لسيّد أسرة يفضل الحياة العائلية عمّا سواها.

تدور أحداث الرواية في آراكاتاكا، في ماكوندو، غير أن ماكوندو استعارة تجسّد أميركا اللاتينية برمتها. لقد كان يعرف أميركا اللاتينية معرفة جيدة، لكنه زار أيضاً العالم القديم ولمس بنفسه الفارق بين ديمقراطيات العالم الرأسمالي الليبرالية القديمة، والأقطار الاشتراكية الجديدة بضمنها اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. كما أنه عاش مدة من الزمان في الولايات المتحدة، البلد الرمز والخصم التاريخي لاتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، البلد الذي كان ماضياً في تحديد مستقبل كوكب الأرض، وكان قد أحاط بقدر أميركا اللاتينية وسيطر عليها منذ ما يزيد على نصف قرن من الزمان. لقد كان هذا الرجل يعرف الشيء الكثير عن العالم، كان يعرف هذا كله حتى قبل أن نبدأ بتذكر ما تعلمه عن الأدب.

وبهذا، تغدو ماكوندو الصورة الحية لبلدة صغيرة في أي بقعة من بقاع كولومبيا أو أميركا اللاتينية (أو أي بقعة من بقاع العالم الثالث كما سيشهد بذلك القراء في أفريقيا وآسيا)، ورمزاً لأيّ جماعة صغيرة واقعة تحت رحمة قوى تاريخية لا خارج نطاق سيطرها وحسب، بل خارج نطاق فهمها وإدراكها أيضاً.

إن القصة كما تبدو الآن هي قصة أسرة هاجرت من غواخيرا إلى منطقة تشبه تمام الشبه آراكاتاكا إبان القرن التاسع عشر. الأب الرمز خوسيه آركاديو بوينديا، كان قد قتل أفضل أصدقائه دفاعاً عن الشرف والرجولة، واضطر إلى الرحيل لأن شبح صديقه كان يطارده. أسس خوسيه آركاديو قرية جديدة أسماها ماكوندو،

وبنى هو وزوجته أورسولا بيتاً وأصبحا زعيمين غير رسميين للجماعة الجديدة. كان لهما ثلاثة أطفال: آركاديو وأوريليانو وأمارانتا، وبمرور الأيام أصبح لديهم عدد آخر من الناس. وكانت لإحدى خادمات المنزل، واسمها بيلار تيرنيرا، علاقات مع عدد من ذكور الأسرة على امتداد السنين، فأسهمت بذلك في حالة الهلع التي سادت الأسرة لاعتقادها أن علاقة سُفاح ستنشأ في نهاية الأمر، وسينجم عنها طفل بذنب خنزير، وبذلك ينتهي نسل الأسرة. كان الغجر يزورون المنطقة بين وقت وآخر ومن بينهم رجل موهوب، ثاقب الرأي يدعى ميلكيادس الذي مكث في ماكوندو وانتقل إلى منزل الأسرة. لكن ثمة وافد سلبي أيضاً وهو الحكومة المركزية في بوغوتا (التي تظهر بلا اسم في الرواية) التي أرسلت ممثلين سياسيين وعسكريين للسيطرة على الجماعة الصغيرة البريئة، وقد أدت هذه الخطيئة الأولى إلى سلسلة من حروب أهلية شارك فيها أوريليانو لدى بلوغه سن الرشد مشاركة حماسية إلى جانب الحزب الليبرالي حتى أضحى في نهاية الأمر مشهوراً في طول البلاد وعرضها بوصفه المحارب الأسطوري العقيد أوريليانو بويندا. وبعد مدة من الزمان، يظهر في الرواية غرباء أكثر مدعاة للشؤم: أميركيون شماليون يأتون برفقة شركة الفواكه لتحويل اقتصاد البلدة وثقافتها حتى يثور أهاليها ويعلنوا الإضراب، وهنا يحرّض الأميركيون الأجانب الحكومة المركزية على اتخاذ إجراء، فيلقى من جراء ذلك ثلاثة آلاف عامل من العمال المضربين وأفراد أسرهم مصرعهم في مذبحة على مقربة من محطة سكة الحديد في ماكوندو. وبعد هذه الحقبة المظلمة، تتدهور أوضاع ماكوندو تدهوراً يبدأ بموت أورسولا نفسها - وهي قلب الرواية وروحها - على حين يجد الجيل الأصغر سناً، والأقل نشاطاً، والذي يحيا بوصفه ضحية التاريخ أكثر مما هو مبدع أسطورة، نفسه عائداً إلى كل ما يشبه الظلمة والخطيئة البدائيتين. وفي النهاية، وكما هو متوقع، يُنجب آخر فرد من أفراد الأسرة طفلاً بذنب خنزير إثر علاقة سُفاح طائشة، فتقضي عليهما وعلى جميع سكان ماكوندو ريحٌ عاتية وهو ما توقعه أيضاً ميلكيادس.

وتغدو الرواية أيضاً رواية حداثوية من حيث إن غارسيا ماركيز أقدم على تأليف كتاب من شأنه أن يختزل كل الكتب، عالم كبير في عالم صغير: فهو يبدأ

وينتهـــي بأسلوب إنجيلي ويضم بين دفتيه بعضاً من أساطير الإنثروبولوجيا الشاملة والخرافات المميزة للثقافة الغربية، والاندفاع السلبـــي الغريب لتجربة أميركا اللاتينية في طموحاتها العظيمة وإخفاقها المهين، وصولاً إلى النظريات القارية المتنوعة التي جاء بها أشهر مفكري القارة، لكن كل ما يتضمنه الكتاب تقريباً هو نتيجة للتجربة التي عاشـــها غارسيا ماركيز نفسه. وفي وسع كل من لديه دراية بالخطوط العامة لحياته أن يعثر على نصف دزينة أو أكثر من المواد في كل صفحة، تتلاءم مباشرة مع سيرة غارســـيا ماركيـــز؛ وقد زعم الأديب نفسه أن كل الأحداث وكل التوضيحات تنسجم والتجربة التي عاشها. (" أنا لست سوى موثّق متواضع").

وممـــا يبعث على الدهشة أكثر من أي شيء آخر هو الشكل الذي تمكن من احـــتواء كـــل هـــذه العناصر المتنوعة، إذ ربط ربطاً مدهشاً الفن الرفيع بأساليب الاتـــصال الشفهية. لكن إذا كان صحيحاً أن الرواية استوعبت كميات كبيرة من تجربة كولومبيا الشعبية نفسها، فإنه ليس من السهل تماماً موافقة أولئك الذين يرون الكتاب على أنه مخزن ذخيرة حكمة البشر. إن ما حققه غارسيا ماركيز، وهو ليس بالأمـــر الأقـــل غرابة، يتمثل بالقدر القليل من الحكمة التي يمتلكونها حقاً والموارد الشحيحة التي زُودوا بها لمواجهة عالم شاء قدرهم وسوء حظهم أن يعيشوا فيه. إن عالمهم هو العالم الذي لم تعد حكمة البشر فيه صالحة أو نافعة. ولا يمكن للشكل أن يكـــون بعيداً عن شكل تلك الأعمال الحداثوية النموذجية التي تشكل، بالرغم من كل شيء، مرجعية هذه الرواية التي كتبت كأنها لتكون "تحفة كلاسيكية لا يحدها زمـــان، ولكنها تنطوي على معلومات قوامها كل اكتشاف توصلت إليه الرواية في الـــسنوات الستين الأولى من القرن العشرين. يبدو لنا وكأن جيمس جويس انطلق لكتابة رواية مستخدماً فيها نبرة الكلام وتقنيات السرد عند العمة فرانسيسكا، عمة غارسيا ماركيز[(4)].

إذاً، هـــا هي الرواية. رجل يكتب عن قرية وأمة وعالم مستخدماً مكتشفات الميثولوجيات الغربية الكبرى (الإغريقية والرومانية والإنجيلية فضلاً عن ليالي ألف ليلة ولـــيلة العـــربية المستوردة) وروائع الأدب الكلاسيكي الغربـــي (رابيليه وثيربانتس وجويس) والأسلاف العظماء الذين سبقوه في قارته (بورخس وإستورياس وكاربنتيه

ورولفو) لإنتاج عمل - مرآة - تتعرف فيه أخيراً قارته إلى نفسها، فيؤسس بذلك مـــوروثاً. وإذا كان بورخس هو الذي صمم العدسة الخلفية في آلة التصوير (شأنه شـــأن الأخـــوين الراحلين لوميير)، فإن غارسيا ماركيز هو الذي يقدم أول صورة جماعـــية كـــبرى حقـــاً. وبهذا، فإن الأميركيين اللاتينيين لن يتعرفوا إلى أنفسهم وحسب، بل سيعرفهم العالم أجمع في كل مكان. هذا هو مغزى الكتاب الذي كان يـــؤلفه ابـــن لويسا سانتياغا ماركيز إغواران دي غارسيا في غرفته الصغيرة المليئة بالدخان على مكتبه الصغير وسط مدينة فوضوية، مترامية الأطراف، من مدن العالم الثالث. إن حماسته لها ما يبررها، وتكمن قوتها وعنوانها في صفحات الكتاب.

ولم ينـــتهِ الحـــظ الذي رافق غارسيا ماركيز ردحاً من الزمن بأي حال من الأحوال، بل لن ينتهي أبداً. إذ سافر لويس هارس بعد مغادرته المكسيك في أواخر شـــهر حزيران إلى مختلف عواصم أميركا اللاتينية ووصل في نهاية المطاف إلى مدينة بوينس آيرس حيث تُحرِّر دار النشر المرموقة سوداميريكانا كتابه الذي يضم مجموعة المقابلات. كانت نقطة اتصاله بدار النشر متمثلة بفرانسيسكو (باكو) بوروا الذي ســـيعترف لاحقاً قائلاً: "إنني لم اسمع باسم غارسيا ماركيز من قبل حتى ذكره لي هـــارس. وها هو الآن مع بورخس ورولفو وغيرهما من الأدباء الكبار. ولهذا، فإن أول ما خطر على بالي: "من هو؟". وكتب رسالة إلى غارسيا ماركيز يستفسر فيها عن كتبه. وبعد مرور أشهر، عقدت صفقة(5).

في مطلع شهر أيلول، توقف غارسيا ماركيز عن الكتابة في عصر يوم ما كي يحضر محاضرة يلقيها كارلوس فوينتس عن روايته الجديدة **تغيير الجلد** في معهد الفنون الجميلة. وذكر فوينتس في نهاية المحاضرة عدداً من أصدقائه ومن بينهم الكولومبـــي "الـــذي ارتبط به بوساطة طقوس الأحد وبإعجابـــي بالحكمة القديمة التي يتمتع بها هـــذا الـــشاعر القادم من آراكاتاكا". لعل فوينتس أكد رمزياً في هذه المناسبة أن اكتساب الشهرة والثروة جزء مشروع من تطلعات الأديب: "إنني لا أظن أن مهمة الأديب تتمثل بزيادة صفوف المعوزين"(6). ثم دعا بعد ذلك ألفارو موتيس وزوجته كـــارمن فوينـــتس، وريتا ماثيدو، وخومي غارسيا آسكوت، وماريا لويسا إيليو، وفيرنانـــدو ديـــل باسو، وفيرناندو بينيتيث، وإيلينا غارو إضافة إلى جانب غارسيا

ماركيز وميرثيديس وآخرين غيرهم لتناول وجبة طعام البائيا(*) في شقتهما في شارع ريو آموي[7]. كان غارسيا ماركيز قد بدأ يروي حكايات من روايته الجديدة وهو في طريق خروجه من المحاضرة، وفي الشارع، وفي السيارة، وواصل الكلام في شقة موتيس. وكان الجميع قد سمعوا ما فيه الكفاية وأكثر، ولم يواصل أحد الإصغاء إليه سوى ماريا لويسا إيليو. وفي تلك الشقة الصغيرة المزدحمة جعلته ماريا لويسا يحكي لها القصص طوال المساء لا سيما قصة عن قسيس يتناول الشوكولاته كي يسبح في الهواء. وفي ذلك الزمان والمكان، ونتيجة لإصغائها باهتمام وجذل، وعدها أن يهديها الرواية الجديدة. كانت لغارسيا ماركيز مهارات شهرزاد الجميلة.

كان النقاد والصحفيون الأميركيون اللاتينيون مهووسين في تلك الحقبة من الزمان منذ أن نشرت الرواية في سنة 1967. وخصص إليخيو شقيق غارسيا ماركيز كتاباً بأكمله عن كتابة الرواية وإبداعها بعد ثلاثين سنة على صدورها. وكان لكل شاردة وواردة فيها شرح مستفيض يبيّن مغزاها. غير أن الحجرة التي كتب فيها المؤلف روايته ما كان لها أن تكون أقل سحراً، بالرغم من أن عدداً كبيراً من الناس أرادوا أن يطلقوا عليها اسم *حجرة ميلكيادس*. كانت الحجرة التي سمّاها غارسيا ماركيز *كهف المافيا* تبلغ عشر أقدام طولاً وثماني أقدام عرضاً، وفيها حمام صغير ملحق بها، وباب ونافذة ومنضدة بدائية صغيرة جداً، وآلة كاتبة من طراز أوليفيتي قابعة فوقها. وبدأ غارسيا ماركيز يرتدي بذلة العمل زرقاء اللون لممارسة الكتابة؛ وهو الذي سيغدو في ما بعد تقليداً (بل يضع ربطات عنق أيضاً). هذا وكان قد اتخذ قراراً ثورياً بالتحول من العمل ليلاً إلى العمل نهاراً. وبدلاً من الكتابة في وكالة الإعلانات بعد عمل نهار كامل، أو في مكاتب أستوديوهات الأشرطة السينمائية، بدأ يكتب نهاراً حتى موعد عودة الصّبيّين من المدرسة إلى البيت. وبدلاً من أن تُكبّل متطلبات الأسرة مَلكاته الإبداعية وتُشوّه أسلوبه، فقد أدت إلى حدوث التغير الذي سيحول من مجمل طريقته في العمل والانضباط الذاتي. أما ميرثيديس التي كانت في ما مضى زوجة وأمّاً ومدبرة المنزل، فقد أضحت الآن موظفة استقبال وسكرتيرة ومديرة أعمال أيضاً[8]. ولم تكن تدري أن هذا العمل سيستمر إلى ما لانهاية. وستستفيد الرواية الجديدة مباشرة وعلى نحو درامي من هذه المتغيرات.

كان غارسيا ماركيز يُقلّ ولديه في سيارته وينطلق بهما إلى المدرسة صباحاً، ثم يجلس إلى مكتبه من الساعة الثامنة والنصف وحتى الثانية والنصف من بعد الظهر، وهو موعد رجوع الولدين إلى البيت. ويتذكر الاثنان والدهما وهو يمضي معظم وقته حابساً نفسه في غرفة صغيرة، وغارقاً وسط دخان السجائر، قلما تنبه إليهما، ولا يظهر للعيان إلا عند أوقات وجبات الطعام، مجيباً عن أسئلتهما بإجابات غامضة مشوشة. و لم يداخلهما الشك إلا قليلاً في أنه يكتب طوال هذا الوقت في روايته التي استغرقت منه كل هذا الوقت؛ كما لم يكتشف خوسيه آركاديا بويندا ابنيه إلاّ في وقت لاحق بعد هواجسه التي ألمت به في الفصل الأول.

يتذكر غارسيا ماركيز في ما بعد فيقول: "مارس الكتاب منذ اللحظة الأولى، وقبل نشره بزمن طويل، تأثير السحر على جميع الذين أصبحت لهم صلة بشكل أو بآخر، أصدقاء كانوا أم موظفين مساعدين، وحتى أفراداً، كالجزار أو صاحب البيت الذي نسكن فيه، وغيرهم من الذين كانوا ينتظرونني كي أفرغ من كتابته كي أسدد لهم الديون"[9]. ويخبر ألينا بونيا توفسكي: "كنا مدينين لصاحب البيت بإيجار ثمانية أشهر. ولما قل الدَّين وأصبح لثلاثة أشهر، استدعت ميرثيديس صاحب البيت وقالت لـه: انظر! سندفع لك إيجار هذه الأشهر الثلاثة وليس إيجار الأشهر الستة التالية. وكانت قد قالت لي قبل ذلك متسائلة: متى تظن أنك ستفرغ من تأليف الكتاب؟ فأجبتها في غضون خمسة أشهر. فما كان منها إلاّ أن أضافت شهراً آخر تحوطاً، وعندئذ قال لها صاحب البيت: إذا كان هذا وعداً، فلا بأس، وسأنتظر حتى شهر أيلول. وفي أيلول ذهبنا إليه وسددنا له المبلغ..."[10].

من بين الأشخاص الذين كانوا ينتظرون غارسيا ماركيز أن ينتهي من تأليف الكتاب بيرا (إسبيرانثا) أرايثا المريضة، التي تشتغل على الآلة الكاتبة، وكانت تعمل عند بارباكانو ونضدّت روايات فوينتس على الآلة الكاتبة أيضاً. وكان غارسيا ماركيز يأخذ إلى بيرا كل بضعة أيام جزءاً من الرواية سبق له أن نضّده على الآلة الكاتبة ثم صححه بيده لتتقدم إليه بعد ذلك نسخة تخلو من الأخطاء. ولما كان إملاؤه فظيعاً، فقد كان يعتمد على بيرا لتصحح له منجزه الأدبي. إلاّ أنه كاد يفقدها ويفقد معها مستهل روايته في اليوم الأول عندما كادت حافلة أن تدهسها

وتطايـــرت الأوراق في جميع أرجاء الشارع المبلل في ذلك اليوم الخريفي في مدينة مكسيكو. وفي وقت لاحق اعترفت بأنها كانت تدعو صديقاتها إليها خلال عطلات نهاية الأسابيع لقراءة آخر ما يقدمه إليها غارسيا ماركيز من فصول.

إن كـــل مـــا نعـــرفه عن تلك الآونة يشير إلى أن غارسيا ماركيز كان متأثراً بالسحر. وقد بات أخيراً الساحر الذي طالما كان يتوق إليه دائماً. لقد ارتقى السلالم عالياً بتعاطيه المخدر الأدبـــي. لقد أضحى أوريليانو بابيلونيا، وأضحى ميلكيادس. إنّ المجـــد ينتظـــره، والكتاب مشروع ميثولوجي ضخم تتخلله طقوس. وكان الأصدقاء يأتون إليه كل مساء بعد جلسة يمضيها برفقة ملاحظاته، وأكثرهم حضوراً دائماً كان ألفارو موتيس وزوجته كارمن، وخومي غارسيا آسكوت وماريا لويسا، وهم أصدقاء ساندوه وتحولوا على مدى عام بأكمله إلى شهود مميزين يراقبون بناء واحد من أعظم شـــوامخ الأدب الغربـــي. وفيما كان العمل مستمراً في الرواية، مدركاً بنفسه مدى ضخامتها، ازدادت ثقته بنفسه وأهميته الشخصية. كان خلال النهار يجلس في حبسه المفعـــم بالدخان وهو يواصل التأليف، وعند العصر يلجأ إلى المصادر والمراجع للتأكّد مـــن صحة ما يكتبه. ولم يكن خومي وماريا لويسا يستطيعان الصبر لرؤية الفصول التالية. وكانت ماريا لويسا بخاصة قد أدركت أنها شاهدة على أمر ما ذي أهمية فائقة، وأنهـــا مؤتمنة على أسراره الشخصية الأكثر قرباً من غيرها. ويقول غارسيا ماركيز في وقـــت لاحـــق إنها بالرغم من اعترافها بتأثير الكتاب فيها، إلا أنه بدوره، كان دائم الذهـــول لما تملكه من بصيرة نافذة في عالمي السحر والحكمة اللذين يقتصر فهمهما علـــى فئة معينة من الناس، وأشار إلى أن الكثير من تصوراتها وجد طريقه إلى الرواية. وكان يتصل بها في أي وقت نهاراً لقراءة آخر فصولها[11].

بعـــد بـــضعة أشهر يتلقى غارسيا ماركيز دعوة من القسم الثقافي في وزارة الخارجـــية المكـــسيكية لإلقـــاء محاضرة، وبالرغم من أن المتوقع منه هو أن يرفض الدعوة، إلاّ أنه قبلها موضحاً أنه يفضل أن يقدم قراءة أدبية وليس محاضرة. لقد ظل غارسيا ماركيز ينقد نفسه بنفسه، وينشغل بنوعية عمله، ولهذا انتابه القلق إذ أمسى ضـــائعاً في عالم خاص به برفقة ألفارو وماريا لويسا، وأن حماستهما لأفكاره ربما وقعت من نفسه وَقعَ التنويم المغناطيسي:

جلست لأقرأ فوق خشبة المسرح المضاءة. المقاعد الأمامية من الصالة وجمهوري في ظلمة حالكة. وبدأت أقرأ. لا أتذكر أي فصل، لكنني واصلت القراءة، وفي لحظة ما، ساد صمت مطبق في الصالة، وكنت في حالة من التوتر الشديد حتى انتابني الهلع. توقفت عن القراءة وحاولت أن أحدق إلى الظلام. وبعد بضع ثوان تمكنت من ملاحظة وجوه أولئك الجالسين في الصف الأمامي وشاهدت عيونهم مفتوحة على وسعها، فتمكنت من الاستمرار في القراءة بهدوء. كان الناس يتشبثون بكلماتي، لا تكاد تسمع طنين ذبابة واحدة. ولما فرغت ونزلت عن خشبة المسرح، كانت ميرثيديس هي أول شخص يعانقني وقد أفصحت تعابير وجهها عن شيء ما؛ أعتقد أنني أدركت للمرة الأولى منذ زواجنا أنها كانت تحبني لأنها نظرت إليّ نظرة ملؤها ذلك التعبير!... لقد تمكنت من تدبير شؤون الأسرة على مدى سنة كاملة من دون اعتماد على أي شيء تقريباً كي أتمكن من الكتابة، وقد منحني ذلك التعبير، الذي ارتسم على وجهها يوم قراءتي الأدبية، اليقين بأن الكتاب يمضي قُدماً في الاتجاه الصحيح[12].

واصلت ميرثيديس معركتها في توفير المال للأسرة، ففي مطلع سنة 1966 كانت النقود المدخرة من إيرادات سابقة قد نفدت، لكن بالرغم من أن عجز زوجها الأديب عن الكتابة قد بات الآن شيئاً من الماضي، فإن الكتاب أخذ يكبر ويكبر وبدا أنه سيواصل الكبر على امتداد السنة. أخيراً قاد غارسيا ماركيز سيارته البيضاء من طراز أوبل إلى موقع رهن السيارات في تاوبايا ورجع بمبلغ كبير من المال[13]، وبهذا اضطر أصدقاء الأسرة إلى اصطحابه وزوجته معهم في الزيارات. ووصل الأمر بغارسيا ماركيز إلى حدّ التفكير في الاستغناء عن الهاتف، لا من أجل توفير المال وحسب، بل لتفادي تشوش فكره عند تجاذب أطراف الحديث إلى ما لا نهاية مع الأصدقاء.

وعندما نفدت النقود التي حصل عليها من السيارة، بدأت ميرثيديس ترهن كل شيء: التلفاز والثلاجة والمذياع والمجوهرات. وكانت آخر ثلاثة *مواقع عسكرية* عندها هي مجفف الشّعر، والمفرمة الكهربائية التي تعد بها وجبات طعام الولدين، ومدفأة غابو الكهربائية. وأقنعت لويس كودورير، وهو مالك البيت، أن ينتظر مدة أطول لتدفع له إيجار المنزل. وأحضر لهم الأصدقاء مختلف التجهيزات بصورة منتظمة لكنهم احتفظوا بآلة التسجيل. كما كانت ميرثيديس تشتري اللحوم من

الجزار دون فيليبـــي بالدفع الآجل الميسّر. غير أن غارسيا ماركيز لم يتمكن في هذه المـــرحلة من حياته من تأليف روايته على أنغام الموسيقى، لكنه من جهة أخرى لم يـــستطع العـــيش بلا موسيقى أيضاً، وكانت أنغام موسيقى بارتوك، واستهلالات دوبوسّي، وأغنية هارد دايزنايت للبيتلز تشكل الإطار الخلفي لمعظم ما كان يكتبه في تلك الأيام.

وكـــان أســـوأ يوم في كتابته كلها هو اليوم الذي مات فيه العقيد أوريليانو بويندیا (الفصل الثالث عشر). وكما هو شأن غيره من الأدباء، فقد رأى في موت الـــبطل الرئيس خسارة شخصية، بل ترقى ربما إلى درجة قتل الغير. ويحتشد سرد قصة الموت بأشد ذكريات غارسيا ماركيز عنفواناً عن أيام طفولته. وبالرغم من أن النقاد لم ينتبهوا إلى ذلك، فإن الروائي وضع من نفسه في هذه الشخصية التي تفتقر إلى التعاطف ما لم يضعه في أي شخصية أخرى في رواياته قبل هذا الوقت. وبالرغم من أن الطفل الثاني هو أوريليانو، فإنه "أول مولود يولد في ماكوندو"، فقد ولد في شـــهر آذار مـــثل غارسيا ماركيز تماماً، ولد مفتوح العينين، يحملق حوله في أرجاء البـــيت منذ اللحظة التي خرج فيها من رحم أمه، تماماً مثلما قيل إن غابيتو الصغير فعـــل الـــشيء نفسه عند ولادته. كان منذ طفولته المبكرة عرافاً، وهو ما عُرف به غابيتو بين أفراد أسرته، وأُغرِم بفتاة صغيرة (وتزوجها قبل بلوغها سن الرشد)، لكنه بعـــد موتها "يعجز عن الحب" وتشوب تصرفاته "كبرياء آثمة". وإذا كان أوريليانو قـــادراً علـــى التقمص الوجداني، والعطف بوصفه شاباً (بوصفه أيضاً ينظم قصائد الحـــب التي أثارت حرجه في ما بعد)، فإنه إنسان مستوحد، قاسٍ لا يعرف الرحمة، يركـــز اهتمامه على ذاته، ما من شيء يمكنه الوقوف في طريق طموحه الشخصي. إذاً، غارسيا ماركيز يوحد في شخصية أوريليانو بويندیا ذكريات منتقاة عن العقيد ماركيـــز (الحـــرب والورشة والسمك الذهبـــي الصغير)، في لوحة ذاتية ترقى إلى مـــستوى الـــنقد الذاتي؛ النقد الذاتي الذي يرتقي بدوره إلى التصور أنه حقق الآن طمـــوح حـــياته، إلا أن السعي لتحقيق ذلك كان سعياً محسوباً، ومنهكاً، وبالتالي نرجسياً ومفرطاً في الغرور. إن النداء الباطني لامتهان الكتابة (النداء الذي يجعل من الفـــرد ســـاحراً مـــثل ميلكيادس) الذي سيؤكده لاحقاً وبقوة في مذكراته عشت

لأروي، يظهر فطرة أكثر بدائية وربما أقل استساغة، وهي إرادة الانتصار والرغبة في الشهرة والمجد والثراء (العقيد أوريليانو بويندياً). إن رواية **خريف البطريرك** تنقل إلينا هذا النقد الذاتي إلى أبعاد أكثر إثارة للدهشة.

وفي تمام الساعة الثامنة صباحاً، وبعد أن فرغ من عمله، صعد إلى غرفة النوم حيث ميرثيديس غارقة في النوم، واستلقى على الفراش وبكى لساعتين(14). ولا يتطلب الأمر قدراً كبيراً من التأمل في السيرة للافتراض أن غارسيا ماركيز بعد أن أجهز على بطله الرئيس لم يبدأ بمواجهة قضية موته شخصياً ونهاية الرواية وحسب، بل قضية نهاية تجربة فريدة مفعمة بالحيوية والنشاط؛ بل هي نهاية مرحلة كاملة من حياته ونهاية شخصيته التي كان عليها طوال تلك المدة، ونهاية علاقة خاصة يتعذر التعبير عنها ربطته بأهم إنسان في حياته، وهو جده الذي فقده نهائياً، لأن الأدب عاجز عن بعثه من موته). لكن من أكبر المفارقات أن غارسيا ماركيز عاد في خضم انتصاراته إلى كونه ذلك الإنسان الذي صورته قصصه الأولى، الإنسان المحكوم بالموت مرات متعددة ومتتالية بعد أن ترك وراءه كل لحظة من لحظات حياته، وكل مادة، وكل شخص أحبه، باستثناء زوجته وولديه.

وبالرغم من أنه ولّد الانطباع دوماً بأنه مكث في غرفته المليئة بالدخان حتى اكتمل تأليف الرواية، إلاّ أن فرصة السفر إلى كولومبيا على نفقة شخص آخر واتته، بعد تفكير عميق وطويل، فقرر أن ينتهزها، إذ كان قد أقنع أرتورو ريبشتاين أن يشارك الشريط السينمائي **عصر الموت** في مهرجان كارثاخينا السينمائي وسافر بالباخرة من فيراكروز إلى كارثاخينا فوصلها في الأول من شهر آذار سنة 1966 (بعد أسبوعين من مقتل صديقه كاميلو توريس في معركة بعد أن التحق بحرب الثوار). وفاز الشريط السينمائي بالجائزة الأولى في المهرجان على كثرة شكوك غارسيا ماركيز بشأن العمل الذي حققه ريبشتاين. وكانت لديه أشياءُ كثيرة يحتفي بها في السادس من آذار: فوزُ شريطه السينمائي، ومستقبلُ روايته، وذكرى ميلاده التاسعة والثلاثون مع أفراد أسرته في كارثاخينا. وقام بزيارة قصيرة إلى بوغوتا، ثم سافر جواً إلى بارانكيا حيث كان يعيش فيها يومئذٍ بلينيو ميندوثا الذي تلقى مكالمة هاتفية خلال عمله:

– غابو! يسرني كثيراً أن أسمع صوتك. أين أنت؟

– إنني جالس أحتسي الشراب في بيتك أيها الوغد[15].

ثم أخبر ميندوثا وألفارو موتيس بروايته: "إنها لا تشبه بقية الروايات أيها الرفيقان. ففي هذه المرة أبوح بأسراري لصديقي: فإما أن أحقق فوزاً كاسحاً أو أسقط على وجهي". وفي أثناء الزيارة، ذهب غارسيا ماركيز إلى أماكن تردده القديمة في بارانكيا برفقة ألفونسو فوينمايور وعاش الزمن القديم مرة أخرى مذكراً نفسه بالأماكن والوجوه. ولإكمال جولته العاصفة عاد إلى آراكاتاكا للمرة الأولى خلال عقد من الزمان[16]. ولم يسافر هذه المرة مع أمه بل مع ألفارو سيبيدا بسيارة جيب يقودها سيبيدا بنفسه، ورافقهما مرافقة مريحة في بحثهما عن الزمن الماضي مراسل صحيفة التيمبو في بارانكيا الذي كتب تحقيقاً مفصلاً: فجأة تحول غارسيا ماركيز إلى بطل شعبي بتأثير وسائل الإعلام؛ قبل أن يتحول إلى نجم ساطع[17].

كان غارسيا ماركيز ينوي البقاء بضعة أسابيع، إلا أنه توجه إلى المكسيك بعد بضعة أيام فوصلها في نهاية شهر آذار. واحتج ألفونسو فوينمايور على رحيله، لكن غارسيا ماركيز أوضح له أنه في الليلة التي سبقت سفره، رأى فجأة نهاية روايته بوضوح تام حتى كان في وسعه أن يمليها كلمة كلمة على الكاتب على الآلة الكاتبة. وحبس نفسه مرة أخرى في تلك الحجرة وبدأ يستوعب ما جرى له. لقد كانت الخاتمة التي خطرت بباله – والتي تدور إلى حدٍّ ما حول كثرة تنقلاته وقلة تنقلات أصدقائه الكولومبيين – واحدة من أعظم الخواتيم التي تنتهي بها رواية في الأدب كله.

لقد كان لرواية **مئة عام من العزلة** ناشر منذ لحظة البدء بها تقريباً. وكان لها جمهور يومي من المتحمسين استطاع مؤلفها أن يعتمد عليهم. ونادراً ما احتاج كاتبها إلى تشجيع: فهو إنسان ممسوس، ممسوس بقوى الأدب الإبداعية التي تنبض فيه، وممسوس بيقين فحواه أن نجاح الكتاب يكمن في النجوم، وأنه مقدرٌ سلفاً. وكانت رواية **يولسيس** لجيمس جويس أقرب مثال على كتاب خيالي/أسطوري عرف الخبراء أنه آتٍ وعرفوا أن قدره أن يكون كتاباً عظيماً. لكن جيمس جويس كان يفتقر إلى الناشر، ولم يتوقع قط أن يكون مؤلِّفاً من مؤلِّفي الكتبِ الأكثرِ

مبيعاً. لكن غارسيا ماركيز شديد الحذر دائماً، كان واثقاً تمام الثقة، إذ بدلاً من أن يستسلم للخرافات التي كانت تقيده عادةً، سلّم خلال زيارته إلى بوغوتا في شهر آذار زملاءه القدامى في صحيفة الاسبكتادور الفصل الأول، فنشروه له في الأول من أيار. وتسلّم كارلوس فوينتس الذي عاد إلى باريس الفصول الثلاثة الأولى في حزيران 1966 فتولاه العجب[18]، وسلّمها بدوره إلى صديقه خوليو كورتاثار، فكان رد فعله مماثلاً لرد فعل فوينتس. ثم سلّم فونيتس الفصل الثاني إلى أمير رودريغيث مونيغال لنشره في النسخة الأولى من المجلة الأدبية الجديدة، *العالم الجديد*، في باريس في شهر آب سنة 1966.

وأعلن فوينتس في مقابلة أجراها معه محرر المجلة أنه تسلم تواً الصفحات الخمس والسبعين الأولى من كتاب غارسيا ماركيز الذي لا يزال منهمكاً في تأليفه، ووصفه بأنه "كتاب قيد التأليف" (إشارة لا تخطئ إلى جويس) وأنه بلا أدنى شك كتاب رائع دفع بكل كلاسيكيات أميركا اللاتينية الإقليمية إلى الماضي الغابر.

ثم أرسل فوينتس مقالة إلى صحيفة لا كالتيورا إن مكسيكو صرّح فيها لمواطنيه في التاسع والعشرين من أيار أيضاً أن رواية **مئة عام من العزلة** ستصدر قريباً وأنها رواية عظيمة (ربما لم يكن غارسيا ماركيز قد فرغ منها آنذاك): "لقد أكملت الآن قراءة ثمانين صفحة رائعة: الصفحات الثمانون الأولى من رواية **مئة عام من العزلة**، وهي الرواية التي يشتغل عليها غابرييل غارسيا ماركيز"[19]. قلما تمكن الناس من التعبير عن دهشتهم، إذ لا سابق لما كان يحدث.

وفي ضوء جو التوقعات، تمكن غارسيا ماركيز من إنهاء الرواية. وأخبر بلينيو ميندوثا: "وصلت الرواية إلى نهايتها الطبيعية بسرعة، عند الحادية عشرة صباحاً. وكانت ميرثيديس خارج البيت، ولم أتمكن من العثور على أي شخص لأخبره هاتفياً بالنبأ. أتذكر جيداً مدى ارتباكي كأنه حدث بالأمس: لم أعرف كيف أتصرف، وحاولت أن أشغل نفسي بشيء ما كي أبقى على قيد الحياة حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر"[20]. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، دلفت قطة إلى المنزل وفكّر المؤلف: "آه، لعل هذا الكتاب يلقى رواجاً". وبعد بضع لحظات، دخل الصبيّان يحملان الفرش وتلطخت أيديهما وثيابهما بطلاء أزرق اللون.

كان أول عمل أقدم عليه غارسيا ماركيز هو إرسال نسخة من الرواية إلى خيرمـــان فارغـــاس في بوغوتا قبل إرسال المخطوطة إلى دار نشر سوداميريكانا، وسأله إن كان لديه مانع من ورود أي إشارات إليه وإلى أصدقائه في بارانكيا. فردَّ فارغاس أولاً، ومن بعده فوينمايور، بالقول إنهما يفتخران كونهما صديقين لآخر أبناء بونيديا. ثم هضم فارغاس الكتاب على طريقته البطيئة، وكتب مقالة بعنوان *كـتاب سـيحدث ضـجة*، وكانت أول إشارة من كولومبيا عن مكانة الرواية المستقبلية[21].

وتلقـى بلينـيو ميندوثا أيضاً نسخة في بارانكيا، فألغى عمله في ذلك اليوم وقـرأها من البداية حتى النهاية، وأخبر زوجته الجديدة مارفيل مورينو ملكة الجمال سابقاً والروائية حاضراً: "لقد فعلها. لقد حقق غابو الضربة الكبرى التي كان يرغب فيها". ثم سحب سيجارته من بين شفتيه وهتف: "ليست برازاً. لقد أنجز غابو رواية مدهشة"[22].

كـان الأسـلوب الذي حكى فيه غارسيا ماركيز حكاية عودته إلى العالم، أسـلوباً دراميا مربكاً يشبه أسلوب ريب فان وينكل إلى حدٍّ كبير[23]. فالسنة هي سنة لندن الراقصة، وأنديرا غاندي تحكم أكبر ديمقراطية على وجه الأرض، وفيدل كاسـترو الذي سيلتقي هو وغارسيا ماركيز معاً الزعيمة الهندية بعد ذلك بسنوات كان منهمكاً في الإعداد لمؤتمر دول القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية المزمع عقده في هافانا عام 1967. وكان ممثل من الجناح اليميني يدعى رونالد ريغان قد رشح نفسه للفوز بمنصب حاكم ولاية كاليفورنيا، أما الصين، فكانت في حالة مـن الغليان، إذ يعلن ماو الثورة الثقافية بعد مرور بضعة أيام على إرسال غارسيا ماركيـز الدفعة الأولى من طرده الثمين إلى بوينس آيرس. الحق أن غارسيا ماركيز اضطر إلى الرحيل عن عالم ماكوندو السحري بعجالة ليبدأ بتوفير بعض المال. وشعر أنه لا يستطيع أن يتمتع حتى بإجازة أسبوع واحد للاحتفال، إذ كان يخشى أن يبقى لـسنوات يـسدد ديونه التي تراكمت عليه. ويذكر في وقت لاحق أنه كتب ألفاً وثلاثمـئة صفحة أرسل منها أربعمئة وتسعين صفحة إلى بوروا، وأنه دخن ثلاثين ألـف سيجارة، وأنه كان مديناً بمئة وعشرين ألف بيزوس. لكنه يظل يشعر بانعدام

الأمـــان، وهـــو أمر مفهوم. فبعد أن فرغ من كتابة الرواية حضر حفلة أقيمت في منـــزل صديقه الإنكليزي جيمس بابورث الذي استفسر عن الكتاب، فردَّ غارسيا ماركيـــز قـــائلاً: "إما أنني كتبت رواية أو أن لدي كيلوغراماً من الورق، ولست متأكداً حتى الآن من ذلك"[(24)]. ثم قفل راجعاً ليستأنف كتابة النصوص السينمائية. وبعـــدها كتب تأملات يسترجع فيها ذاته بعنوان **مصائب مؤلف كتاب** نشرتها له صـــحيفة الاسبكتادور، وكانت أول مقالة يكتبها منذ سنين ومؤرخة بتاريخ شهر تموز 1966، ولكنها ليست للاستهلاك المحلي في المكسيك:

> **تألـــيف الكـــتب مهنة انتحارية، إذ ما من مهنة غيرها تتطلب قدراً كبيراً من الـــوقت، وقـــدراً كبيراً من العمل، وقدراً كبيراً من التفاني مقارنة بفوائدها الآنـــية. إنني لا أعتقد أن عدداً كبيراً من القراء يسألون أنفسهم بعد الانتهاء مـــن قـــراءة كتاب، عن عدد الساعات المؤلمة، والبلايا المنـــزلية التي كلفت المئتا صفحة المؤلف، أو ما هو المبلغ الذي حصل عليه لقاء عمله... وبعد هذا الـــتقويم المحـــزن للبلايا، يبدو أساسياً أن نسأل عن السبب الذي يدفعنا نحن الكتّاب للكتابة. والإجابة، في آخر الأمر، هي ميلودرامية قدر ما هي مخلصة. فالمـــرء بكل بساطة، يكون كاتباً مثلما يكون أسود ويكون أي شيء آخر. الـــنجاح يحفز المرء، والحظوة عند القراء مشجعة. لكن، ليست هذه الأمور ســـوى مكاسب إضافية، لأن الكاتب الجيد سيظل يكتب باستمرار على كل حال، حتى إذا كان حذاؤه يحتاج إلى تصليح، وحتى إذا كانت كتبه لا تلقى رواجاً[(25)].**

لقـــد ولـــد غارســـيا ماركيز الجديد، الذي يمكن ملاحظة أول ملامحه من المقابلات التي أجراها في كارثاخينا في شهر آذار الماضي. وقد بدأ يتفوه بعكس ما يعنيه تماماً. فهو يكتب عن بلاياه لأن بلاياه انتهت تقريباً. والإنسان الذي لم يتذمر ولم يهتز في أكثر الظروف صعوبة التي مرَّ بها، يريد أن يتذمر منذ الآن لكل سبب؛ ليس أقلّه جشع الناشرين وباعة الكتب وحبهم للمال، وهو الموضوع الذي سيغدو هوســـاً. ها هو غارسيا ماركيز الذي سيخلب لبّ الجمهور إلى ما لانهاية، ويزعج النقاد باستمرار لا سيما أولئك الذين سيقتنعون بأنه لا يستحق النجاح الذي حقّقه، وأنه من الحريّ بهم أن يحصلوا هم على الجوائز البراقة وبخاصة أنهم أكثر دراية وأقل فجاجة وأكثر أهمية من الناحية الأدبية. إن هذا الشخص الجديد – رجل الستينيات

الحقيقـــي على ما يبدو - استفزازي ومغرور ودوغمائي ومنافق وغير مهذب بملء إرادتـــه، لكنه مع هذا تصعب معرفته معرفةً عميقة. لكن الناس سيحبونه لكل هذه الـــصفات لأنـــه يبدو واحداً منهم، يُهوّل الأشياء ويتملص بفضل ذكائه الذي هو ذكاؤهم، وهو وجهة نظرهم بالعالم.

في الوقت نفسه تقريباً، وبعد أن فرغ غارسيا ماركيز من كتابة روايته، كتب رســالة طويلة إلى بلينيو ميندوثا، يستهلّها بالتعبير عن مشاعره آنذاك، ثم ينتقل إلى شرحٍ لرائعته التي أكملها مؤخراً وما تعنيه له:

بعـــد ســـنوات طويلة من العمل كالحيوان، أشعر أن الإرهاق أخذ مني كل مأخذ، من دون أمل، باستثناء الأمل الذي يروقني؛ ولكنه أمل لا يقيم أودي: الـــرواية. إن قـــراري الذي يشي بدافع قوي، هو أن أرتب الأشياء الترتيب الـــذي أضـــطر إلـــيه كـــي أستمر في الكتابة. صدقني، لا أعرف ما الذي سيحدث.

إن مـــا ذكـــرته لي عن الفصل الأول من رواية مئة عام من العزلة، **جعلني سعيداً جداً. وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى نشر الرواية. عندما رجعت مـــن كولومبـــيا وقرأت ما كنت قد كتبته بنفسي داخلني فجأة شعور يهدّ المعنويات مفاده أنني أقدمت على مغامرة قد تكون كارثية مثلما قد تكون ناجحـــة. ولهـــذا، وكي أعرف شعور الآخرين بها، فإنني أرسل الفصل إلى غـــبيرمو كانـــو، وبهـــذا، أكون قد جمعت معاً أكثر الناس صراحةً وخبرة ومتطلـــبات لأقرأ عليهم فصلاً آخر. وكانت النتيجة مذهلة، لأن الفصل الـــذي قرأته كان أكثر الفصول المنطوية على مجازفة: صعود ريميديوس إلى السماء جسداً وروحاً.**

إنني أحاول الإجابة، من دون تواضع، عن سؤالك بخصوص كيفية كتابتي عن الأشياء. الحق أن رواية مئة عام من العزلة **كانت أول رواية حاولتُ أن أكتبها وأنـــا في سن السابعة عشرة بعنوان** البيت، **وتخليتُ عنها مدة من الزمان لأنها كانـــت شـــديدة الوطأة عليَّ. ومنذ ذلك الوقت لم أتوقف عن التفكير فيها، محاولاً أن أتصورها في ذهني، وأن أجد أكثر الأساليب فعالية في سردها. وفي وسعي أن أخبرك أن الفقرة الأولى فيها لا تحتوي على أي فاصلة، وأنها كتبت قـــبل عـــشرين سنة. إن ما استنتجته من هذا كله في ذهنك على مدى زمن طـــويل، وفي اليوم الذي ينفجر فيه عليك أن تجلس إلى الآلة الكاتبة أو تخاطر وتقتل زوجتك..."[26].**

توضـــح هذه الرسالة بجلاء أن غارسيا ماركيز، عندما كتب روايته، إنما كان يعد نفسه للدفاع عن آرائه – وعن روايته – أمام الملأ، وأنه يتوقع مستقبلاً مرموقاً وموازياً في الصحافة. ويقول أيضاً إن لديه الآن ثلاثة مشاريع لروايات تحفزه.

في مطلع شهر آب، وبعد مضي أسبوعين على كتابة الرسالة السابق ذكرها، رافـــق غارسيا ماركيز ميرثيديس إلى دائرة البريد لإرسال المخطوطة النهائية الكاملة إلى بويـــنس آيرس. كان الاثنان أشبه بناجيَين من كارثة. كانت الرزمة تحتوي على أربعمـــئة وتـــسعين صـــفحة منضّدة على الآلة الكاتبة. وعندما قال لهما الموظف المسؤول: "اثنان وثمانون بيزوس"، نظر غارسيا ماركيز إلى ميرثيديس وهي تفتش في حافظة نقودها عن المبلغ. لم يكن لديهما سوى خمسين بيزوس، ولم يتمكنا بسبب ذلك إلا من إرسال نصف الرواية: وطلب غارسيا ماركيز من الموظف أن يستل من الـــرواية الصفحات كأنه يستل شرائح لحم رقيقة حتى بات المبلغ كافياً لدفع أجرة البريد.

ثم عادا إلى البيت، ورهنا المدفأة الكهربائية ومجفف الشعر والمفرمة الكهربائية، وعادا إلى دائرة البريد وأرسلا الدفعة الثانية. وفيما هما يخرجان من مبنى دائرة البريد توقفت ميرثيديس والتفتت إلى زوجها لتقول: "والآن يا غابو، كل ما نحتاج إليه هو أن يفشل الكتاب"[27].

-16-

الشهرة أخيراً

1967-1966

كـــان انـــشغال بال غارسيا ماركيز بنجاح الكتاب في نهاية المطاف أقل من انشغال باله بوصوله على دفعتين إلى بوينس آيرس. كان ألفارو موتيس يعمل بصفته ممـــثل شركة فوكس للقرن العشرين في أميركا اللاتينية منذ عام، وكان يوشك أن يـــسافر إلى الأرجنتين، فطلب منه غارسيا ماركيز أن يأخذ معه نسخة أخرى من الكـــتاب إلى باكو بوروا في مكتب سوداميريكانا في بوينس آيرس. ولدى وصول موتـــيس اتصل هاتفياً ببوروا وأخبره أن لديه نسخة من الرواية. فما كان من بوروا إلاَّ أن قـــال له: "انسَ أمرها. لقد فرغت من قراءتها تواً، وهي ممتازة جداً"[1]. إذا كان بوروا ظن أن الكتاب "ممتاز جداً"، فسيكون ذلك على الأرجح حدثاً مثيراً.

كانـــت لـــدى غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو كل الملاحظات اليومية، وشجرة عائلته مدونة في أربعين دفتر مدرسي. وقد زعم هو وميرثيديس أنهما مزّقاها وأحرقاها حال سماعهما بوصول المخطوطة سالمة إلى الأرجنتين. وقال موضحاً إنها ذات طبـــيعة بنائـــية وإجـــرائية على وجه العموم. غير أن أصدقاءه الأكثر اهتماماً بالاعتـــبارات الأكاديمـــية والتاريخية أصيبوا بالذعر وقالوا إنه ما كان يتعيّن عليه أن يتلفها بل كان عليه أن يحتفظ بها للأجيال المقبلة (أو حتى يجني منها ربحاً جيداً كما تبين في ما بعد)[2]. غير أن غارسيا ماركيز ظل يدافع عن نفسه بالإشارة إلى شعوره بالحـــرج، ممـــا يعني أنه لم يكن يرغب بعد اليوم في أن يقلّب الناس أوراقه الأدبية القديمـــة، كما يقلّب المرء نفايات البيت أو نتفاً من الأقاويل عن علاقات أسرته[3]. الأمـــر يشبه ضبط شخص في ملابسه الداخلية"[4]. ثمة شيء بخصوص الفنان – أو

الساحر - الذي يرغب في حماية أسرار المهنة. ولسوء حظ كتاب السِّـيَر أنه يحمل الموقف نفسه بخصوص الكشف عن أدق التفاصيل البريئة عن حياته. فقد ظل الموقف دائماً أن يخفي إلى الأبد مشاعر الفقدان والخداع والإهمال والنقص التي راودته منذ طفولته.

وكان الحديث يجري عنه بوصفه الفرد الرابع من تلك المجموعة الصغيرة من الأخوة الذين يقودون طليعة السرد الأميركي اللاتيني كي يحظى باهتمام عالمي من خلال ما يسمى عصر الانتعاش الأدبي. إن هؤلاء الأدباء الأربعة - كورتاثار وفوينتس وفارغاس يوسا، ومن تلك اللحظة غارسيا ماركيز أيضاً - سيحظون بشهرة لا تضارعها أي شهرة في السنوات التالية، لكن في تلك اللحظة عينها، لم تكن الحركة قد تبلورت بعد تبلوراً تاماً، و لم يظهر أي منهم بصفة زعيم هذه المجموعة الغريبة من المنتجات الجديدة. لكن أنداده كانوا قد عرفوا ذلك تواً، بل إنهم أحنوا رؤوسهم، مجازاً إن جاز التعبير: فقد كان غارسيا ماركيز هو الأفضل، ولا يمكن لأي شيء أن يكون كالسابق في أميركا اللاتينية بعد نشر رواية **مئة عام من العزلة**. وكان أول الذين أدركوا هذه الحقيقة هم الأرجنتينيّين.

كانت الأرجنتين في ضوء منظار الأدب الرفيع هي البلد الرائد في هذا المجال في أميركا اللاتينية. وكانت بوينس آيرس عاصمتها الكوزموبوليتانية الأخاذة التي سرعان ما ستُنشر فيها رواية غارسيا ماركيز، وكأنها باريس ولندن وقد انصهرتا في بوتقة واحدة في ذلك العالم الجديد. وكانت الثقافة الأدبية قوية فيها وأحياناً تنطوي على مباهاة، لكن نوعية النقاش كانت رفيعة المستوى دائماً، وتأثيره في عموم أميركا اللاتينية لا ينكر، بخاصة بعد الحرب الأهلية الإسبانية عندما لم يعد للبلد الأم تأثير ثقافي أو أدبي مهم في القارة الكبيرة الممتدة جنوباً. عندما قرأ غارسيا ماركيز مؤلفات كافكا في بوغوتا سنة 1947، وعدداً كبيراً من أعمال أدباء آخرين في بارانكيا بين سنتي 1950 و1953، فإنه قرأها بطبعات أرجنتينية. لقد رفضت دار نشر لوسادا روايته الأولى قبل خمسة عشر عاماً، لكن حلمه بات الآن على قاب قوسين أو أدنى من التحقّق، وسيُصحح ذلك الخطأ الذي ارتكب مبكراً: فروايته ستنشر في بوينس آيرس.

وفي العاصمة الأرجنتينية، تحدث الناشرون في دار نشر سوداميريكانا عن أن لديهم الآن أعجوبة أميركية لاتينية؛ وربما حدثاً نقدياً مثيراً. وكما جرت الأمور، فقد حظي اسم غارسيا ماركيز بقدر متواضع من الدعاية في بوينس آيرس في الأشهر القليلة الماضية، وبحلول أواسط سنة 1966 نشر خورخه ألفاريز مجموعة قَصَصِيّة قصيرة بعنوان **الوصايا العشر**، ومن ضمنها قصة **ليس ثمة لصوص في هذه البلدة**، وأضحى الكتاب واحداً من أكثر الكتب مبيعاً طوال النصف الثاني من سنة 1966 بعد أن كان محاولة مبكرة استفادت من فرصة الانتعاش المتنامي[5]. ودعا الناشرون كل أديب ليقدم وصفاً ذاتياً أدبياً عن نفسه، فكان غارسيا ماركيز رمزاً لمدخله الجديد في الإعلان عن نفسه منذ اللحظة التي اقتنع فيها أنه سيحقق نجاحاً أدبياً:

> **اسمي، أيها السادة، هو غابرييل غارسيا ماركيز. آسف، فأنا شخصياً لا يروقني هذا الاسم لأنه سلسلة من كلمات عادية لم أستطع قط أن أربطها بنفسي. ولدت في بلدة آراكاتاكا في كولومبيا قبل أربعين سنة، ولا أزال غير آسف على ذلك. برجي هو برج الحوت وزوجتي هي ميرثيديس. هذان هما أهم حدثين في حياتيّ لأنني بفضلهما تمكنت حتى الآن، على الأقل، من البقاء على قيد الحياة بالكتابة.**
>
> **إنني كاتب هيَّابٌ. مهنتي الحقيقية هي مهنة ساحر، لكنني أرتبك ارتباكاً شديداً وأنا أحاول القيام ببعض الحيل التي اضطر إلى أن ألوذ بها من جراء عزلة الأدب. على كل حال، إن كلا النشاطين يقودان إلى الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي منذ أن كنت طفلاً: أن يحبني أصدقائي أكثر.**
>
> **وفي حالتي الشخصية، فإن كوني كاتباً من الكتاب، ليس سوى إنجاز استثنائي لأنّ كتابتي رديئة جدّاً، وعليَّ أن أخضع نفسي لانضباط بشعٍ كي أنهي كتابة صفحة واحدة بعد ثماني ساعات من العمل. إنني أناضل نضالاً جسدياً مع كل كلمة، لكن الكلمة هي التي تفوز على الأغلب دائماً، ولكنني عنيد جداً، حتى إنني تمكنت من نشر أربعة كتب خلال عشرين سنة. أما الكتاب الخامس الذي أكتبه الآن، فكتابته أبطأ من كتابة بقية الكتب، لأنني لا أملك إلا النزر اليسير من الوقت بين كثرة الدائنين وحالات الصداع.**
>
> **إنني لا أتحدث عن الأدب لأنني لا أعرف ما هو الأدب، كما أنني، من جهة، مقتنع أن العالم لن يتأثر بغيابه، ومن جهة ثانية، مقتنع أن العالم سيكون مختلفاً الاختلاف كله بغياب رجال الشرطة. لهذا فإنني أفكّر في أن فائدتي للإنسانية ستكون أكبر بكثير لو كنت إرهابياً بدلاً من أن أكون كاتباً**[6].

أمامنا على ما يبدو كاتب يصبو إلى الشهرة. مرة أخرى نراه يقول عكس الحقيقة، وعلى نحو محسوب كي يجعل من نفسه، لا تحت الأنظار أكثر مما مضى وحسب، بل محبوباً أكثر أيضاً. الصورة هي صورة رجل اعتيادي لديه – ضمناً وخجلاً – موهبة استثنائية. إن الفرق بين الخجل والانتقاص الظاهرين من جهة، والثقة والرغبة في جذب الأنظار المستترتين من جهة ثانية، واضح للعيان وسيؤرق خصوم المستقبل إلى أبعد الحدود. ويكتشف قراء الخطاب السابق ذكره حدساً أن هذا الشخص الاعتيادي كان تقدمياً في أفكاره السياسية أيضاً، وإن كان يشوبه قدر كبير من روح النكتة عن السياسة وعن كل شيء، فهو رجل عصره، رجل اللحظة. ومن لا يفتش عن كتبه بعد أن يقرأ هذا الخطاب؟

كانت أكثر مجلات الأرجنتين تأثيراً في تلك الآونة هي مجلة بريميرا بلانا، وكان رئيس تحريرها توماس إلوي مارتينيث، وهو صديق بوروا، وسيصبح لاحقاً صديق غارسيا ماركيز الودود. كانت مجلة بريميرا بلانا إحدى كبريات المجلات التي تصنع الرأي وتبيع ستين ألف نسخة أسبوعياً. وكان مالكوها ينشدون دائماً الحدث الثقافي الكبير التالي، وفي كانون الأول 1966، وبإعداد من باكو بوروا نفسه، قرر مالكوها إرسال أرنستو شو، محرر المجلة البارز وعضو مجلس الإدارة، لإجراء مقابلة مع غارسيا ماركيز في المكسيك. وإذا ما أخذنا في الاعتبار كلفة السفر جواً في تلك الأيام، فإن المقابلة كانت استثماراً أقدمت عليه المجلة، إلا أنها وثقت ببوروا وأدركت الغاية من ذلك. مكث الصحفي الأرجنتيني برفقة أسرة غارسيا بارتشا في المكسيك على مدى أسبوع كامل. وعندما نشرت المجلة المقابلة بعد ستة أشهر، وضعت صورة غارسيا ماركيز على غلافها وهو في الأزقة الجميلة المرصوفة بالقرميد في سان آنخل القديمة، وليس في الشارع الذي يسكن فيه والذي يفتقر إلى الجاذبية والفتنة. وكان شو هو الذي التقط الصور بنفسه وأظهر فيها غارسيا ماركيز بمظهر المهرج في ستينيات القرن العشرين مرتدياً سترته ذات المربعات السوداء والحمراء المألوفة. و لم يكن ذلك هو اللباس الذي يرتديه أدباء الأرجنتين، إنه لباس جدير بجاك كيرواك. ثم تظهر صورة غارسيا ماركيز كما هو حالياً، ثم صورة لغابو النحيل. وعوضاً عن الأديب المكتئب الذي وصفه لويس هارس في كتابه المهم الذي نشره

قبل أسابيع قليلة من نشر المقابلة مع غارسيا ماركيز، أظهرت صور شو روائياً سعيداً مفعماً بالحيوية والنشاط منسجماً الانسجام كله مع محيطه[7].

في شهر نيسان امتطى ماريو فارغاس يوسا، الذي نشر مؤخراً روايته المتألقة الثانية **البيت الأخضر**، عصا خشبية برأس شبيه برأس فرس ليخوض معركة بإعلانه أن رواية غارسيا ماركيز المقبلة ليست *إنجيل* أميركا اللاتينية كما كان قد أكد كارلوس فوينتس، بل هي رواية أميركا اللاتينية الكبيرة عن *الفروسية*. لا بد من أن فارغاس يوسا تولاه الذهول لظهور هذا الغريم غير المتوقع من كولومبيا، لكنه آثر، شأنه شأن فوينتس، أن يدخل مدخل الفروسية. وظهرت مقالته المهمة *أماديوس في أميركا* في عدد نيسان من مجلة بريميرا بلانا التي أعلن فيها أن رواية **مئة عام من العزلة** هي قصة أسرة، بل قصة من قصص المغامرات في الوقت نفسه، "أسلحتها هي نشرها المركز تركيزاً حاداً، وسحرها التقني الناجح، وخيالها الشيطاني مما جعل هذا العمل السردي عملاً ناجحاً، وهذا هو سر هذا الكتاب الاستثنائي"[8].

قرر الأرجنتينيون معاملة غارسيا ماركيز معاملة تتمتع بكل الخصائص والامتيازات، فدعوه لزيارة بوينس آيرس أواخر حزيران لترويج الرواية، لكن الرحلة تأجلت إلى شهر آب كي يشارك في هيأة تحكيم جائزة الرواية التي تمنحها مجلة بريميرا بلانا/سوداميريكانا. وضاعفت المجلة ودار النشر في أثناء ذلك جهودهما في الترويج للرواية. وأخيراً صدرت رواية **مئة عام من العزلة** في الثلاثين من أيار 1967 بثلاثمئة واثنتين وخمسين صفحة وبسعر ستمئة وخمسين بيزوس للنسخة الواحدة، أي ما يعادل دولارين أميركيّين. كانت الفكرة المبدئية تتمثل بإصدار طبعة بثلاثة آلاف نسخة، وهو رقم كبير في ضوء المعايير الأميركية اللاتينية، لكنه معتدل في الأرجنتين. غير أن حماسة فوينتس وفارغاس يوسا وكورتاثار، وحدس بوروا نفسه، جعلا الناشر يستغل الفرصة، وتقرر أن يطبع منها خمسة آلاف نسخة، لكن الطلب الذي انهال على الناشر من باعة الكتب جعله يرفع الرقم إلى ثمانية آلاف نسخة قبل أسبوعين من النشر. وتوقعوا أن تباع تلك النسخ في غضون ستة أشهر إذا ما سارت الأمور على ما يرام. وبعد أسبوع واحد، بيع ألف وثمانمئة نسخة من الكتاب وجاء ترتيبه الثالث بين لائحة أكثر الكتب مبيعاً، وهو إنجاز لم يسمع به أحد لرواية

أميركـــية لاتينية كتبها مؤلف مغمور تقريباً، وبحلول نهاية الأسبوع الثاني، تضاعف الرقم ثلاثة أضعاف في بوينس آيرس وحدها وصدرت في بادئ الأمر بثمانية آلاف نسخة، لكنها بدت لاحقاً غير كافية تماماً.

ومـــا ينطوي على المفارقة، أن مجلة بريميرا بلانا نفسها، وبعد كل الجهود التي بـــذلها العاملون فيها، كانت بطيئة في صدورها. وكان الهدف هو نشر المقابلة التي أجـــراها شـــو مع غارسيا ماركيز، وبات عمرها الآن ستة أشهر، وصورة غارسيا ماركيـــز نفـــسه على غلاف المجلة الأمامي في الطبعة الأسبوعية 13-19 من شهر حزيران، غير أن حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط، اندلعت عند الساعة الثالثة والدقـــيقة العاشـــرة من فجر يوم الخامس من حزيران بالتوقيت المحلي لمدينة بوينس آيـــرس، فتأجلت لحظة غارسيا ماركيز حتى التاسع والعشرين من الشهر(9). وكان بين صفحات المجلة ملاحظة افتتاحية عن العدد تشير إلى أن هذا الحدث ليس حدثاً اســـتثنائياً وحـــسب، بـــل (إن الكتاب أيضاً وعدد المجلة ضمناً) هو الينبوع الذي ســـتنطلق مـــنه الـــرواية الأميركية اللاتينية الجديدة. وكان عنوان المقابلة *رحلات ســـندباد*، مقارناً كتاب غارسيا ماركيز منذ البداية بألف ليلة وليلة التي كانت على درجـــة بالغـــة من الأهمية في صياغة خياله. لقد انطلق السحر. وفي المدة بين نشر الـــرواية والبدء ببيعها، قُدِّر لأغنية فريق البيتلز الغنائي *سار*جنت بيبر أن تتبوأ مكانة أسطورية وظهرت في محلات بيع الأسطوانات في جميع أرجاء العالم.

حـــاول غارسيا ماركيز أن يعرف مكان صديقه بيثينتي روخو الذي تألم لأن الكولومبـــــي لم يـــبع الرواية لأصدقائه في دار نشر إيرا في المكسيك، ودعاه إلى تصميم الغلاف. عمل روخو بجد من أجل أن ينقل نكهة الرواية الفوضوية الشعبية المـــضاعفة، فوضـــع حرف E من كلمة SOLEDAD في نهاية الاسم، مما أدى في الوقت المناسب إلى أكثر نظريات نقاد الأدب غرابة وغموضاً، وإلى رسالة أيضاً من أحد باعة الكتب في غواياكيل يحتج فيها على تسلمه نسخاً فيها خلل واضطر بنفسه إلى تصحيحها بيده كي لا يزعج زبائنه. وفي نهاية الأمر، يظهر الغلاف الذي صممه روخـــو على أكثر من مليون نسخة من الرواية، فأصبح بذلك رمزاً ثقافياً من رموز أميركـــا اللاتينـــية، لكنه لم يظهر في الطبعة الأولى لعدم وصوله في الوقت المحدد.

وهكذا كان غلاف الطبعة الأولى من تصميم أيريس باغانو، وهي مهندسة ديكور، إذ رسمت سفينة ضخمة يميل لونها إلى الأزرق وهي تطفو في غابة يميل لونها إلى الأزرق أيضاً، على حين كان الإطار العام للصورة رمادي اللون، وفيه ثلاث وردات برتقالية اللون أزهرت تحت السفينة. هذا هو الغلاف الذي سيبحث عنه في ما بعد الهواة لعقد صفقاتهم، وإن يكن بأي حال الغلاف الأكثر دقة الذي صممه واحد من أكبر الفنانين في المكسيك[10]. أما الطبعات الثانية - والثالثة والرابعة الصادرة في حزيران وأيلول وكانون الأول، فكانت كلها بغلاف من تصميم روخو، وبلغت أعداد نسخها عشرين ألف نسخة وهي ظاهرة غير مسبوقة في تاريخ النشر في أميركا اللاتينية.

في مطلع شهر حزيران أجرت مجلة فيجون، المرادفة الأميركية اللاتينية لمجلة تايم، مقابلة مع غارسيا ماركيز في المكسيك، وكانت هذه المجلة هي الوحيدة التي تباع في جميع أرجاء القارة (بالرغم من أنها كانت في واشنطن). وأخبر غارسيا ماركيز متحدثيه أنه يخطط للسفر مع أسرته وتمضية سنتين في "مصيف ساحلي بالقرب من برشلونة"[11]. وبدأ يكرر القصة التي أضحت مألوفة وهي أنه بدأ بكتابة رواية **مئة عام من العزلة** عندما كان في سن "السابعة عشرة"، لكن "حجمها" بدا له آنذاك أكبر مما يستطيع السيطرة عليه. لكنه قال أيضاً شيئاً آخر مثيراً للدهشة: "عندما أفرغ من تأليف كتاب، فإنني أفقد اهتمامي به. وكما قال همنغواي: كل كتاب كامل يشبه أسداً ميتاً. المشكلة الآن هي كيف تصطاد فيلاً". غارسيا ماركيز تعب من رواية **مئة عام من العزلة**؛ أيمكنه أن يكون جاداً؟ ونشرت عبارته في صحف ومجلات أخرى في جميع أرجاء أميركا اللاتينية وكانت عبارة نموذجية لظاهرة صحافية جديدة: مزحة على طريقة غارسيا ماركيز[12]. كانت تناقضاً لفظياً مضاعفاً: فهو عن وعي لا يعبأ بنقاده ويزعجهم أيضاً لذلك السبب ولأسباب أخرى. فهو يعلم جيداً أنه يداهنهم مداهنة طرفة عين بنوع من الغطرسة التي يمررها على أنها تواضع. وهذا كله مغلف بفطنة شعبية تسمح لمؤلفها بالهروب من الاعتداء بمهارة تماثل مهارة تشارلي تشابلن وهو يدور على قدم واحدة؛ لكنه بالرغم من ذلك، ينطوي على قدر من الحقيقة التي لا سبيل إلى نكرانها.

نـــشرت الرواية في مدينة مكسيكو في الثاني من تموز بعد ست سنوات على وصـــول الأسرة إلى هذه البلاد[13]. وتتذكر ماريا لويسا إيليو التي أهداها غارسيا ماركيز الرواية قائلة: "أُصبنا بالجنون. فقد اشترى لي نسخة ثم تنقلنا من مكتبة إلى أخـــرى نشتري نسخاً منها لأصدقائي ويكتب عليها الإهداءات. وقد أخبرني غابو قـــائلاً: *أنـــت في طريقك إلى الإفلاس المالي*. كنت أشتري كل النسخ التي أستطيع شـــراءها. وذهبنا إلى منـــزل غابو وشربنا الأنخاب مع ميرثيديس. وفي اليوم التالي، حـــسناً، لم نكن نملك مالاً كي نعود أدراجنا، وليس لدينا المال اليوم أيضاً. لكننا تمكـــنا من تدبير أمورنا... لعلك تتذكر أن هناك فقرة في رواية **مئة عام من العزلة** تمطر فيها السماء ورود الأقحوان الصفراء. وفي ذلك اليوم اشتريت سلة كبيرة، أكبر سلة استطعت أن أعثر عليها، وملأتها بالأقحوان الأصفر، ثم بحثت عن سمكة صغيرة ذهبية وزجاجة شراب. وضعت كل تلك الأشياء في السلة وذهبت إلى بيتهما"[14]. إن هـــذا الميل إلى تحويل العالم الواقعي إلى عالم **مئة عام من العزلة** السحري سيكبر ويـــزداد مـــثل كـــرة ثلج، وقبل أن يمضي وقت طويل، يجعل المؤلف منهكاً تماماً بالـــتأويلات التي راحت تنصب على روايته الاستثنائية. وفي آخر الأمر تراه يتمنى الانـــتقال من ستينيات القرن العشرين، لكنه يجد نفسه منجذباً إليها انجذاباً لا يحده حد.

في الأول مـــن آب سافر غارسيا ماركيز إلى كاراكاس لحضور المؤتمر العالمي الثالث عشر للأدب الأميركي - الإيبري الذي نظمته جامعة بيتسبرغ تزامناً مع منح ماريو فارغاس يوسا جائزة رومولو غاليغوس، التي أُنشئت حديثاً، عن روايته **البيت الأخـــضر** الصادرة عام 1966. وحطت طائرتاهما القادمتان من لندن والمكسيك في مطار مايكيتا في الوقت نفسه والتقيا لقاءً رمزياً في المطار: وقدّر للرجلين أن يسافرا كـــثيراً. في السنوات التالية كانت هناك مراسلات بينهما، ثم أصبحا الآن نـــزيلا غـــرفة واحدة. كانت علاقتهما علاقة أدبية وطيدة لكنها مضطربة[15]. فقد شعر غارسيا ماركيز أن الأحداث تعصف به ولم يكتب نصاً واحداً لهذا الحدث. وكان قادماً متأخراً إلى مأدبة الانتعاش الروائي بالرغم من أن ماريو فارغاس يوسا الأصغر منه بتسع سنوات والذي عاش في أوروبا منذ سنة 1959 كان يعرف معظم الأدباء

الآخرين في باريس وفي برشلونة. وكان وسيماً، متأنقاً في مظهره، على دراية بالنقد (إذ كان يعد لأطروحة دكتوراه)، لكن بالرغم من ذلك، كان يعرف أيضاً كيف يجذب الجماهير الأدبية إليه. وفي مواجهة غارسيا ماركيز الذي بات نجماً بلا ريب، وفي مواجهة هذا الحدث المثير الجديد، شعر يوسا بالخوف والرهبة وأنه في وضع دفاعي. وفي إحدى الحفلات، جعل أصدقاءه الفنزويليين يرفعون لوحة كتب عليها: يمنع الحديث عن رواية **مئة عام من العزلة**. ومع هذا فقد سلك سلوكاً غريباً مع الصحافة وأخبر الصحفيين وجهاً لوجه أن ميرثيديس هي التي تؤلف كتبه ثم تجعله يضع اسمه عليها لأنها كتب مكتوبة بطريقة سيئة جداً. وعندما سُئل عمَّا إذا كانت البقرة المحلية، الرئيس السابق رومولو غاليغوس، روائياً عظيماً ردَّ قائلاً: "تحتوي روايته **كانايما** على وصف جميل لدجاجة". لقد بدأ غارسيا ماركيز يلتقي كل من هبَّ ودبَّ. فبعد أن أصبح هناك غارسيا ماركيز، فلا بد من أن يكون هناك انتعاش. ويمكن أن يحدث أي شيء الآن. كان هذا الرجل سحراً بعينه. كتابه ساحر واسمه ساحر، وكان الاسم غابو حلماً من أحلام حقبة الفنان وارهول وليس حلماً يدوم خمس عشرة دقيقة وحسب.

أخبر أمير رودريغيث مونيغال غارسيا ماركيز أنه قبل سفره إلى كاراكاس بيومين أمضى وقته في الكوبول في باريس برفقة فوينتس وبابلو نيرودا وأفرط فوينتس في تقريظ **مئة عام من العزلة** أمام نيرودا وتوقع أن تكون الرواية مهمة في أميركا اللاتينية أهمية دون كيخوته لثيربانتس في إسبانيا(16).

انتقل عرض غابو – ماريو إلى بوغوتا في الثاني عشر من آب، لكن رواية **مئة عام من العزلة** لم تكن قد وُزّعت بعد فيها، كما أن الدعاية القادمة من بوينس آيرس كانت قليلة، ولم تنشر الاسبكتادور أو التيمبو أي شيء عن الرواية في الأسابيع الأولى. وبدا الأمر كأن الكولومبيين تعمّدوا اللامبالاة، كأنهم كانوا ينتظرون إلى أن يأتي الوقت الذي يستحيل فيه تجاهل هذه الظاهرة المدهشة في أوساطهم. غير أن الحقيقة هي أن غارسيا ماركيز لم يحظَ في بلاده بالتقدير الذي حظي به في مناطق أخرى من أميركا اللاتينية(17). وكان بلينيو ميندوثا قد سافر مع سيبيدا إلى بوغوتا: "أتذكر أن غارسيا ماركيز وصل إلى بوغوتا برفقة ماريو فارغاس

يوسا قبل نشر **مئة عام من العزلة** في كولومبيا. وكان ماريو قد فاز تواً بجائزة رومولو غاليغوس في كاراكاس عن روايته **البيت الأخضر**. وكما يحدث عادةً عند زيارة شخصيات معروفة إلى البلاد، فإن بوغوتا خرجت عن بكرة أبيها، احتفاءً به. وكانت حشود الناس تتحلق من حوله وتتدافع مراعية بذلك أصول مجاملات النجاح، ولم تدرك بعد القنبلة التي صنعها غارسيا ماركيز ولا تزال تنظر إلى أديبها ابن البلد نظرة متواضعة، تاركة إياه في الظلال"[18].

انطلق غارسيا ماركيز وميرثيديس إلى الأرجنتين في التاسع عشر من شهر حزيران للبدء بمواجهة قدرهما. لقد اعترف لبلينيو ميندوثا أنه "خائف خوف الصرصور"، وأنه يبحث عن سرير كبير يكفيه للاختباء تحته[19]، سافرا جواً إلى كولومبيا وتركا ولديهما مع جدتهما لأمهما في كولومبيا، ولما كان الولدان مكسيكيين فعلاً، فإنهما لم يعودوا إلى وطنهما الأصلي إلاّ بعد سنوات طويلة. وناقش الأبوان وهما على متن الطائرة التي نقلتهما إلى بوينس آيرس خياراتهما للمستقبل، ولا بد من أن ميرثيديس فكّرت في الوعود التي أطلقها غابو عن أهدافهما المستقبلية عندما استقلا أول طائرة معاً قبل عشرة أعوام تقريباً. لقد كتب الآن حقاً *رواية عمره* وهو في سن الأربعين. وفي السادس عشر من حزيران، هبطا في مطار إيثيثا في بوينس آيرس عند الثالثة بعد منتصف الليل، بعد مرور عشرة أسابيع على نشر الرواية. وبالرغم من وصولهما سراً، يتذكر باكو بوروا، فإن المدينة كلها كانت تسودها حالة احتفالية بعد أن "استسلمت على الفور لسحر الرواية الذي لا يقاوم"[20]. وكان هو ومارتينيث في المطار للترحيب بالزوجين اللذين لم يداخلهما أي شك، واللذين تغيرت حياتهما تغيراً أكبر مما كانا يتوقعان. ويبدو أن الرحلة لم تنهك غارسيا ماركيز، إذ طلب رؤية السهول مترامية الأطراف، كما طلب وجبة طعام من شرائح اللحم الأرجنتيني المشوي[21]. ولتلبية طلبه، رافقوه إلى مطعم في شارع مونتيفيدو. وفيما هما يحاولان تكييف نفسيهما مع هذا الرجل القادم من المنطقة المدارية مرتدياً معطفه الخاص بالحطابين وبنطاله الإيطالي الضيق وينتعل جزمته الكوبية، فيما بدت أسنانه المغلفة بالسواد ومزيجه الغريب من ملامح عدم الاكتراث والوعظ الممل، حاولا إقناع نفسيهما بأن هذا هو المظهر الذي ينبغي

أن يظهــــر به مؤلف رواية **مئة عام من العزلة**. أما بخصوص زوجته، فكانت شبحاً مدهشاً يشبه نسخة أرجنتينية من الملكة نفرتيتي[22].

يقــــول غارسيا ماركيز إن الدهشة تولته لمرأى بوينس آيرس التي مثلت تجربته الأولى في مدينة كوزموبوليتانية من مدن أميركا اللاتينية لم يبدُ عليها أنها مدينة "غير مكـــتملة". وفي صـــباح أحد الأيام شاهد امرأة تحمل نسخة من الرواية في حقيبة التـــسوق بـــين حبات الطماطم والخس. وكان غارسيا ماركيز آنذاك يتناول طعام الفطور في مقهى عند ناصية أحد الشوارع. لقد استقبل كتابه *الشعبـــي* الآن بكل ما للكلمة من معنى لا بوصفه "رواية، بل بوصفه حياة"[23]. وفي الليلة نفسها ذهب برفقة ميرثيديس لحضور مناسبة في مسرح إنستيتيوتو دي تيلا الذي كان محرك الحياة الثقافية في الأرجنتين في تلك الحقبة. وقد سجل توماس إلوي مارتينيث المناسبة منذ اللحظة التي أمسى فيها غارسيا ماركيز، وإلى الأبد، شخصية في قصة كتبها مسبقاً بنفـــسه، تمامـــاً مـــثل شخـــصية ميلكيادس، من دون أن يدري ذلك: تقدّم غابو وميرثـــيديس باتجاه خشبة المسرح والارتباك بادٍ عليهما لمرأى هذا العدد الكبير من معاطـــف الفرو والريش المتألق. كانت قاعة المسرح معتمة، لكن لسبب ما، كانت بقعة ضوء تلاحقهما. كادا أن يجلسا عندما هتف شخص ما: "أحسنت!"، ثم علا التـــصفيق. وردّدت امـــرأة الـــصيحة وقالت: "من أجل روايتك!". ثم وقف جميع الحاضـــرين. وفي تلك اللحظة هبطت الشهرة على غارسيا، مغلفة بصحائف براقة تشبه ريميديوس الجميلة، فتغمره بموجة من الضياء تصمد أمام عاديات الدهر"[24].

يقـــول مارتينـــيث إن غراسيا ماركيز مارس سحره على جميع أرجاء بوينس آيـــرس، وكان يوشك أن يغادر حفلة ما أُقيمت في إحدى الأمسيات على ضفاف ريـــو دي لا بلاتا عندما لاحظ امرأة شابة تغمرها السعادة. وقال غارسيا ماركيز "كانـــت تلك المرأة حزينة حقاً لكنها لا تعرف كيف تدرك حزنها. انتظري لحظة. سأســـاعدها كي تبكي". ثم همس ببضع كلمات سرية في أذن المرأة الشابة وعلى الفـــور انهمر من عينيها فيض من الدموع لا سبيل إلى السيطرة عليه. فسألته في ما بعد: وكيف أمكنك أن تعرف أنها حزينة؟ وما الذي قلته لها فأبكيتها؟ فردَّ: قلت لها أن تتوقف عن الإحساس بالوحدة. وهل كانت تشعر بالوحدة؟ طبعاً. هل صادفتك

في حياتك امرأة لا تشعر بالوحدة؟ يواصل خيمينيث كلامه: ثم التقيته مرة أخرى، خفية، في البلدة التي سبقت سفره، وكانوا قد أخبروه أن الشبان والشابات يلجأون إلى فضاء في غابة باليرمو ويتوارون عن الأنظار في كهوف مظلمة حيث يمكنهم تبادل القبلات بحرية. فما كان منه إلا أن هتف: إنها منطقة يسمونها إل تيراديرو، ركن الحب. فقلت له مترجماً: فيلا كارينو أو بيت الحب. فقال: كنا أنا وميرثيديس في لهفة. ففي كل مرة نحاول فيها تبادل القبلات، يظهر لنا أحدهم فيقاطعنا"[25].

استؤنف عرض غابو - ماريو في مدينة ليما بعد انقطاع دام أسبوعين عندما التحق غارسيا ماركيز وميرثيديس بصديقهما البيروفي الجديد لحضور أسبوع من الفعاليات الأدبية مع بداية شهر أيلول. وتوطّدت عرى الصداقة رمزياً عندما بات غارسيا ماركيز عراباً لابن ماريو وباتريشيا الثاني الذي أسمياه غونثالو غابرييل.

ربما لم يكن في مستطاع غارسيا ماركيز أن يعلم مقدار الشهرة التي سيصيبها، لكن لا بد من أنه أصبح يملك فكرة ما الآن. فبعد العودة إلى مدينة مكسيكو بدأ هو وميرثيديس يرسمان الخطط وينهيان أعمالهما، إذ وطدا العزم على ممارسة حريتهما التي اكتشفاها مؤخراً. ولما وجد غارسيا ماركيز أنه أصبح في مواجهة هذا المنظور الجديد والمفاجئ تماماً من الشهرة، وربما الأمن المالي، قرر مغادرة المكسيك والسفر إلى إسبانيا. وكان في عجالة.

عاد غارسيا ماركيز إلى كارثاخينا بحلول أواخر شهر أيلول وبدأ يتخذ الترتيبات النهائية لسفره. وكان أمراً حسناً زيارة الأسر الكولومبية قبل رحيله، لكن بالرغم من تدفق كل المياه من تحت الجسور، فإن علاقة غارسيا ماركيز بأبيه بدت غير قابلة للإصلاح. ويتذكر إليخيو فيقول: "في تشرين الأول سنة 1967 جاء غابيتو إلى كارثاخينا مع ميرثيديس وولديه. ولا أزال قادراً على الإحساس بمدى الحرج الذي انتابني عندما شاهدت غابيتو يجلس على السرير مذعوراً من والدي الذي كان مستلقياً على الأرجوحة الشبكية. وبدا الأمر كأن والدي كان يبث نوعاً من الهلع الذي يتعذر على الوصف، هلع يوازي إرهاباً، وهو انطباع غير صحيح (حرفة الأسرة!). وفي وقت لاحق، وبعد أن تحدثنا مع خيمي وغابيتو توصلنا إلى استنتاج مفاده أن غابيتو لم يعرف كيف يتصرف أمامه"[26]، ولم ينبس بكلمة حق، لكن

السبب لم يعد هو الخوف، وهذا أمر أكيد. كما يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أن الأب لا يزال غير معترف بفضائل منجزات ولده، حتى وإن بدا الأمر أن غابيتو في وسعه الآن أن يأكل أوراق النقد بدلاً من أوراق الصحف، (وهو ما كان يردّده الأب). ويمكن للمرء أن يكون واثقاً أيضاً من أن الابن، ذلك الحيمن الذكري المتنقّل، ما كان ليرحب بذلك الاعتراف المتأخر بفضله. لقد ظل ينظر حتى الآن إلى أبيه على أنه زوج أمه.

مما لا ريب فيه أن السياسة ظلت من بين الصعوبات القائمة بينهما. ففي شهر أيلول حثّ حاكم ولاية كاليفورنيا رونالد ريغان على تصعيد الحرب الأميركية في فيتنام، فازدادت الانقسامات على امتداد العالم الغربي. ويحتمل أن غارسيا ماركيز ووالده ناقشا موت تشي غيفارا الذي التقاه غابيتو لقاءً قصيراً في هافانا، والذي أعلنته القيادة البوليفية العليا للعالم أجمع في العاشر من تشرين الأول. وربما يضاعف ذلك النبأ المحزن بعد وقت قصير بالإعلان عن فوز رمز أدبي آخر طالما رفضه غارسيا ماركيز وهو ميغيل آنخل إستورياس بجائزة نوبل للأدب ليكون أول روائي أميركي لاتيني يفوز بها (كان الشاعر التشيلي غابرييل ميسترال قد فاز بالجائزة عام 1945). وقد فسّر العالم كله هذا الفوز على أنه اعتراف رمزي بانتعاش الرواية الأميركية اللاتينية المتواصل. وسرعان ما يبدأ إستورياس وغارسيا ماركيز، وهما الواقعيان السحريان الكبيران اللذان يبدوان وكأن هناك أشياء كثيرة مشتركة بينهما، باحتقار أحدهما الآخر. فقد كان إستورياس الذي نال الجائزة متأخرة عنه يخشى الدعيّ الشاب، في حين كان غارسيا ماركيز الذي اشتهر مؤخراً وقد وطد العزم على ارتكاب جريمة قتل الأب[27].

مما لا ريب فيه، أن هناك مغزى من هروبه إلى أوروبا كي يمنح نفسه الحرية من الضغوط اليومية، ولإفساح المجال أمامه للمناورة والحشد. فقد كان الصحفيون يسألونه عن رأيه بخصوص كل شيء موجود تحت الشمس، لكن الأهم من كل هذا، عن رأيه في السياسة. وسيكون خطأ الاعتقاد بأن هدفه كان الهروب من التزامه السياسي هروباً تاماً. فقد كان سليم العقل بما فيه الكفاية كي يدرك أنه لا يمكنه أن يكون مؤثراً إلا إذا كتب روايات ناجحة. لهذا، فإن أول شيء عليه أن

يفعله إنما يتمثل بأن يضمن لنفسه الزمان والمكان لتأليف الرواية التالية؛ ليست التالية تماماً، لأنها ستتأخر عن الصدور شأنها شأن رواية **مئة عام من العزلة**. صحيح أن غارسيا ماركيز يمكنه الآن أن يتصرف تصرفاً أكثر علانية، وأن يتخذ مواقف رمزية من شأنها ألاّ تثير اهتمام أحد حتى وإن كانت سابقة ببضعة شهور. وفي شهر تشرين الثاني، وقبل رحيله مباشرة، وفي وجه الضغوط التي كان يمارسها الطلبة كي يعلن قدراً من الالتزام السياسي بالمتغيرات الاجتماعية والسياسية، أعلن غارسيا ماركيز لصحيفة الاسبكتادور أن منتجي الثقافة *مضطهدون* في كولومبيا على أيدي طبقتها المرجعية الحاكمة. وفي مقابلة أخرى نشرت بعد سفره مع ألفونسو مونسالفي لصحيفة إينفوك ناسيونال قال فيها: "إنّ مهمة الكاتب الثورية هي أن يكتب كتابة جيدة"[28]، وقد أعادت صحيفة التيمبو نشر المقابلة مرة أخرى في أواسط شهر كانون الثاني، وكان ذلك بعد كلمات فيدل كاسترو الأولى (والأخيرة) في هذا الموضوع، وهي كلمات مختلفة إلى حدٍّ ما. فقد أعلن كاسترو في كلمته المشهورة "كلمات إلى المثقفين" أن الشكل الأدبي ينبغي أن يكون حراً، غير أن المحتوى الأدبي لا بد من أن يكون أقل تحرراً: "في داخل الثورة كل شيء، وخارج الثورة لا شيء". كما أعلن كاسترو أيضاً أن أكثر الأدباء ثورية هو ذلك الذي يترك كتابته من أجل الثورة.

يجد غارسيا ماركيز الذي تؤرقه علاقاته بالصحافة (ومن خلالها بجمهور القراء الجديد) نفسه وهو يشتغل أكثر مما كان يتوقع في تلك السنوات المبكرة ليمنح نفسه ذلك المكان كي يناور سياسياً وجمالياً، وهو ما كان ينشده. فإذا ما أراد أن يجد نفسه في بعض الزوايا الأخلاقية والإيديولوجية الصعبة، فإن عليه أن يقرر أنها من صنع يديه، أو في الأقل، أنه سيجعلها وفق ما يريده. وأخبر مونسالفي أن الأدباء "المحترفين" الجادين يقدمون مهنتهم على كل شيء وأن عليهم ألاّ يقبلوا أي نمط من أنماط "الدعم" أو "المنح". وقال إنه شعر بمسؤولية كبرى تجاه قرائه، وإن روايته **خريف البطريرك** أصبحت شبه جاهزة للطباعة عندما نشرت رواية **مئة عام من العزلة**، لكنه يشعر الآن أن لديه رغبة في إعادة كتابتها من جديد؛ لا حتى تكون مثل الرواية الأكثر مبيعاً، بل لتكون مختلفة عنها. وهنا يطرح فكرة مُحيّرة وهي أن

نجـــاح روايـــة **مئة عام من العزلة** يرجع إلى حدٍّ ما إلى بعض "الاعتبارات الفنية" (يصفها في ما بعد بالحيل الفنية) التي يمكن له استخدامها لتكون علامات مسجلة، إلا أنه يفضل بدلاً من ذلك أن يمضي قُدماً ويؤلف رواية مختلفة تماماً. "إنني لا أرغب في تقلـــيد نفسي تقليداً مضحكاً". ويقدم مونسالفي مواطنه على أنه شخص يبدو لأول وهلـــة مكسيكياً أكثر مما هو كولومبـــي إلى أن يسترخي "ويعثر على خيط أفكـــاره"، ويـــضحي مرة أخرى ذلك المواطن الساحلي الكولومبـــي النموذجي، مهـــذاراً، صريحاً، ومباشراً في طرح أفكاره ويضع في كل عبارة من عباراته بديهية هـــي نتاج توافق أسلافه المزدوج الأسود والإسباني تحت وهج شمس مدارية مذهلة. الواضـــح أن هذا الإنسان الذي يُقدّم لنا بنية التعاطف معه على ما يظهر، لا يزال غريباً في نظر عاصمة بلاده، تماماً مثلما كان غريباً يوماً ما وسط أسرته.

وهكذا يظل دائماً. فغارسيا ماركيز قلما تمكّن من انتظار الرحيل.

القسم الثالث

رجل العالم:

الشهرة والسياسة

2005-1967

-17-

برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة 1967-1970

وصلت أسرة غارسيا ماركيز بارتشا إلى إسبانيا في الرابع من تشرين الثاني سنة 1967[1]. وبعد أن أمضت الأسرة أسبوعاً تقريباً في مدريد، سافرت إلى برشلونة بهدف البقاء مدة قصيرة، إلا أنها مكثت ستة أعوام[2]، تماماً مثلما مكثت من قبل في المكسيك. مرة أخرى، يجد غارسيا ماركيز صعوبة في العمل في الصحافة، لأن الصحافة كانت خاضعة لرقابة صارمة وكان هو شخصية عالمية مشهورة. غير أن في ذلك نعمة كما يبدو: فالفصل بين الصحافة والسياسة في مدينة مكسيكو، تزامن مع كتاب ضخم هو **مئة عام من العزلة**، وسيتزامن في برشلونة مع كتاب كبير أيضاً تقريباً هو **خريف البطريرك**.

بدت الرحلة إلى برشلونة للكثيرين مغامرة غريبة يقوم بها مواطن أميركي لاتيني يساري الهوى. ولقد زعم غارسيا ماركيز دائماً أنه ظل يتجنب زيارة إسبانيا بسبب كراهيته دكتاتورية فرانكو[3]. وكانت المكسيك أكثر البلدان الناطقة بالإسبانية عداءً للنظام الإسباني، وأنها لمفارقة أن يسافر غارسيا ماركيز من المكسيك ليعيش في بلد نُفي منه العديد من أصدقائه الكاتالونيين وأصبحوا يعيشون في المكسيك وكولومبيا. وبالرغم من أن مشهد الدكتاتور الإسباني العجوز وهو يقترب من نهاية حياته وسلطته، كان دافعاً لتأليف الكتاب، وهو ما ينكره عادةً، إلا أن الذي كان قد خطّطه منذ زمن بعيد، هو أن يكون الكتاب صورة لطاغية أميركي لاتيني أكبر سناً بكثير، طاغية أدبي تبدو سلطته لا نهاية لها على رعاياه اليائسين الذين طال عذابهم.

غير أن هناك نقطة أخرى لا بد من الإشارة إليها بخصوص القرار. فقد كانت وكيلته الأدبية كارمن بالسيلس في برشلونة، وكانت في طريقها إلى أن تصبح واحدة من أكبر الوكلاء تأثيراً لا في إسبانيا وحدها بل في أوروبا كلها. فبوجود دار نشر سيكس بارال وعدد كبير من دور النشر الأخرى الموجودة حالياً، أو التي في طريقها إلى الظهور، كانت برشلونة، رغماً عن فرانكو، في قلب حركة انتعاش نشر الرواية الأميركية اللاتينية في ستينيات القرن العشرين. وكان من ورائها الروح القومية الكاتالونية المنبعثة من جديد، وإن كانت مكبوتة بالضرورة، علاوة على الازدهار الاقتصادي الذي بدأت تحفزه سياسات دكتاتورية فرانكو بالرغم من كل شيء. وكانت المادة الخام التي تُغذّي انتعاش النشر انتعاشاً خلاقاً للرواية الأميركية اللاتينية نفسها، والتي كان غارسيا ماركيز ألمع نجومها.

وصل غارسيا ماركيز إلى مدينة برشلونة في اللحظة نفسها التي أصبح فيها الانتعاش واضحاً. وكان افتتاح الآفاق الذي لا يضاهيه أي انفتاح آخر، وإن كان مؤقتاً، سمة من سمات عقد الستينيات بما أوجد لحظة جمالية تنم عن خصب استثنائي. إنّ هذا الانفتاح، هذا الخيار بين البدائل، واضح المعالم في مادة وبنية النصوص الأميركية اللاتينية المعترف بها إبان تلك الحقبة. وكانت كلها تدور حول التكوين التاريخي لقارة أميركا اللاتينية، وإسهام كل من التاريخ والخرافة في الهوية الأميركية اللاتينية المعاصرة، ومستقبلها، وإن ضمناً، حسناً كان أم سيئاً.

عند تذكر تلك الحقبة، فإن اللحظة التاريخية القوية التي عرفت بالانتعاش، امتدت من سنة 1963 عندما نشرت رواية **الحجلة** لخوليو كورتاثار، وحتى سنة 1967 عندما نشرت رواية حقبة الانتعاش بلا منازع.

يتفق الجميع على أن رواية **الحجلة** كانت بمثابة رواية يولسيس الأميركية اللاتينية؛ وهذا كلام مناسب تماماً، لأن حقبة الانتعاش يُفهم منها أنها تمثل ذروة وبلورة حركة الحداثة في أميركا اللاتينية في القرن العشرين.

إلا أن رواية **مئة عام من العزلة** غيرت تماماً من هذا الرأي إجمالاً وأوضحت بجلاء، وعلى الفور، أن حدثاً هائلاً قد وقع ويتطلب إطاراً زمنياً مختلفاً كلّ

الاخـــتلاف؛ لأن رواية **مئة عام من العزلة**، وهو ما يتفق عليه الجميع، كانت **دون كيخوته** أميركا اللاتينية.

أضحى غارسيا ماركيز مركز الاهتمام، بل رمز حركة أدبية متنامية كأنه هو وحـــده الـــذي يحظـــى بتغطية إعلامية توازي التغطية الإعلامية التي يحظى بها بقية الكتاب مجتمعين. إن ما لم يقله أحد بهذا العدد الكبير من الكلمات، هو أننا أمام ما يشبه الظاهرة الغريبة، ما يشبه الوحش النبيل، ما يشبه كاليبان(*) الأديب وقد تحول بفعـــل السحر إلى صورة جديدة لأديب لهذه المرحلة المتناقضة التي تجمع بين الثقافة الشعبية وثورة ما بعد حقبة الاستعمار. إن الصحافة الإسبانية المتخلفة سياسياً وثقافياً علـــى مـــدى ثلاثـــين سنة من *الفرانكوية*، لم تكن مستعدة لما تنطوي عليه الموجة الأميركـــية اللاتينية الجديدة من حداثة وتعقيدات، وقد أجريت عشرات المقابلات التافهة والمحرجة مع غارسيا ماركيز، ولم يهتم إلا عدد قليل من الصحفيين لفكرة أن هـــذا الإنسان القادم من اللامكان والذي يبدو أنه قد ظهر، شأنه شأن كتابه، من أدراج الـــرياح، بفعل شكل من أشكال الاحتراق العفوي في العالم الثالث، إنما هو كاتب جاد إلى أبعد حدود الجد، دؤوب كادّ على نحوٍ يتعذر تصوره، ثابت العزيمة ثباتاً قوياً، اشتغل بلا توقف على مدى عقدين من الزمان للوصول إلى ما وصل إليه، وأنـــه على استعداد للعمل بإصرار ليبقى في مكانه؛ بصرف النظر عما يتفوه به من ملاحظات يطلقها أمام صحافيين يصدقون كل ما يُقال لهم. إننا أمام أديب يستخدم شهرته الأدبية ليصبح شخصية عامة، وكبيرة على نطاق لا يتصوره أيٌّ من أسلافه، ربما باستثناء هوغو أو ديكنـــز أو توين أو همنغواي.

ومع هذا، فإنه لم يُقدّر حق قدره باستمرار. فعلى مدى أربعة عقود من الزمان، يخفق نقاده في رؤية ما موجود أمام أعينهم: وهو أنه أذكى منهم، وأنه كان يستميلهم بالمكر والدهاء كما يشاء، وأن الناس أحبوه أكثر مما أحبوا النقاد، وأنهم على استعداد ليغفروا له كل صنيع، لا لأنهم أحبوا كتبه وحسب، بل لأنهم شعروا أنه واحد منهم. ومـــثلما أحبوا فريق البيتلز الغنائي إلى حدٍّ ما لأنهم لم يكونوا من صنع وسائل الإعلام (التي صنعت ألفيس بريسلي أو مارلين مونرو)، فإنهم كانوا يعرفون كيف يلعبون مع الصحافيين لعبتهم: بأنهم يحملوهم على محمل الجد التام بالتظاهر بخلاف ذلك. يبد أنه

كـــان إنـــساناً اعتيادياً؛ وليس دعيّاً أو متحذلقاً أو متغطرساً. إنه إنسان يشبه قراءه، ولكنه أيضاً إنسان جعل الأدب الحقيقي في متناول اليد وسهلاً.

بـــدأ بوصول غارسيا ماركيز إلى برشلونة تيار جديد. ولم يمضِ وقت طويل حتى وصل أيضاً خوسيه دونوسو وماريو فارغاس يوسا. وسرعان ما تعرف غارسيا ماركيز إلى كبار الأدباء والمثقفين الإسبان مثل الناقد خوسيه ماريا كاستييت وخوان ولـــويس غويتيـــسولو وخوان مارسيه[4]. في تلك الآونة، كانت المعارضة السرية لدكتاتورية فرانكو آخذة بالاتساع في جميع أرجاء إسبانيا، وكان يقودها وينظمها بالدرجـــة الأســـاس الحزب الشيوعي من خلال شخصيات مثل سانتياغو كاريلو وخورخه سيمبراون وفيرناندو كلودين، لكن بموازاة الحزب الاشتراكي والناشطين ســـراً من الشبان أمثال فيليبـــي غونثاليث[5]. لم تكن كاتالونيا تاريخياً مهد رجال الأعمال البورجوازيين الذين كانوا معروفين بدفعهم العجلة التي تجر وراءها عربات إســـبانيا التي لم تكن فارغة في القرن التاسع عشر وحسب، بل كانت أيضاً موطن الفوضـــويين والاشتراكيين، والرسامين والنحاتين، وخشبة مسرح غودي وألبينيث وغرانادوس وبونويل ودالي وميرو، وبيكاسو، وبالتبني أيضاً. وكانت في المرتبة الثانية بعـــد باريس من حيث كونها مختبراً ثقافياً أو بيتاً أخضر للثقافة اللاتينية، بل كانت مديـــنة طليعية بين حقبة النهضة الكبرى في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر وسقوط الجمهورية الإسبانية عام 1939. واليوم، وفي ستينيات القرن العشرين، وبعد أن حُظـــرت لغتها رسمياً، بدأت أكثر مقاطعات إسبانيا إنتاجاً وعملاً توكيد نفسها مـــرة أخرى. ومع هذا، فإن السياسة اضطرت في ستينيات القرن العشرين إلى أن تـــتوارى خلف قناع، إذ اتخذت الثقافة والقومية الكاتالونية البورجوازية، المحرومتان مـــن حـــق التعبير، منحىً يسارياً متطرفاً من خلال مجموعة متباينة من أفراد الطبقة المتوسطة عموماً، كالأدباء والنحاتين وصناع الأشرطة السينمائية وأساتذة الجامعات والرســـامين ومشاهير الإعلاميين والفلاسفة وعارضات الأزياء والرسامين، وكانوا يُعرفون بمصطلح "اليسار الرائع".

ومن صِلات غارسيا ماركيز المبكرة صلته بروسا ريغاس، وهي اليوم من أبرز أديبات إسبانيا وراعيات الثقافة فيها، ولكنها كانت يومئذٍ امرأة شابة حسناء، فارعة

الطـــول، تـــشبه فانيـــسا ريدغريف في الشريط السينمائي *الانفجار* الذي أخرجه أنطونيوني، وكانت واحدة من ملهمات ذلك اليسار الرائع. وكان شقيقها أوريول الممتاز في العلاقات العامة (شأنه شأن العديد من الناس الذين عرفهم غارسيا ماركيز في الأعـــوام التي أمضاها في المكسيك وإسبانيا)، يملك أيضاً حانة بوكاشيو الداخلية في شارع مونتانير حيث يلتقي الطليعيون الشبان الوسيمون والخطرون.

كانـــت روســـا ذات التنورة القصيرة امرأة متزوجة في أواسط العقد الثالث من عمـــرها ولها أطفال، لكنها عاشت حياة متحررة في الستينيات أثارت حفيظة الأغلبية التقلـــيدية، وكانت تحمل لواء كل موضة أدبية جديدة. وفي تلك الآونة، كانت تنظم العلاقـــات العامة في مكتب كارلوس بارال، إلاّ أنها بحلول نهاية ذلك العقد من الزمان، بدأت تدير دار نشر لاغايا ثينيثيا. وكانت قد قرأت رواية **مئة عام من العزلة** و"طارت بعـــيداً": "لقـــد أحببت الكتاب حباً جنونياً، بل لا أزال أُسافر حتى اليوم من دون أن يفـــارقني، حاله حال بروست، وفي كل مرة أجد شيئاً جديداً فيه. إنه أشبه برواية **دون كيخوته**. وأعتقد أنه سيبقى خالداً. لكنه يبدو في هذه الأيام وكأنه يكلمني مباشرة. إنه عالمي. لقد أحببناه كلنا. ذلك أشبه بهوس الأطفال، وكنا نتناقله في ما بيننا"[6].

وعلـــى الفـــور دعت روسا ريغاس غابو وميرثيديس إلى حفلة أُقيمت على شرفهما في بيتها، حيث عرّفتهما إلى بعض أعضاء جمعية برشلونة الطليعية المؤثرين. وهـــناك التقيا بالزوجين لويس وليتشيا فيودتشي اللذين ستتوثق عرى الصداقة بهما على مدى السنوات الثلاثين التالية. وكان انجذابهما إليهما إلى حدٍّ ما كونهما ليسا من كاتالونيا. وكما هي الحال في المكسيك، فإن غارسيا بارتشا سرعان ما يتفاعلان مـــع حـــشد المهاجرين قبل أيّ شيء. كان لويس فيودتشي طبيباً نفسانياً ولد في مدريد، فيما انحدرت ليتشيا من مالاقة ودرست الأدب في جامعة برشلونة[7]. وقام الـــزوجان بإيـــصال *آل غابو* وهو الاسم الذي سيشيران به إليهما، إلى بيتهما بعد انـــتهاء الحفلـــة. وعـــندما توقفت السيارة تحدثوا مطولاً واتفقوا على اللقاء ثانية. وكانت بناهما الثلاث، "الصغيرات"، على حدّ تعبير غارسيا ماركيز، حينذاك، في مثل سن رودريغو وغونثالو تقريباً، وبهذا يصبح الأطفال الخمسة أصدقاء على مدى العمر، كأنهم أقرباء مفضلون[8].

ومن أوائل المعارف امرأة برازيلية شابة تدعى بياتريس دي مورا، التي كانت بدورها ملهمة أخرى من ملهمات اليسار وشخصية أخرى تدير، شأنها شأن روسا ريغاس، دار نشر خاصة بها هي توسكيتس (وهي كنية زوجها آنذاك) عام 1969 وهي في سن الثلاثين. فإذا كانت الدار منتدىً أدبياً، فإن المضيفين كانا حديثي السن تماماً. كانت بياتريس قد حلّت في إسبانيا لأنها، وهي ابنة دبلوماسي، انفصلت عن أسرتها المحافظة بسبب السياسة، وشقت طريقها اعتماداً على موهبتها وعلى فتنتها الشابة بلا ريب. (وإذا كانت روسا تشبه فانيسا ريدغريف في الشريط السينمائي *الانفجار* للمخرج أنطونيوني، فإن بياتريس كانت تشبه جين مورو في الشريط السينمائي *جولي وجيم* للمخرج السينمائي تروفو).

على كل حال، تبيّن أن غارسيا ماركيز جاء إلى برشلونة من أجل العمل، لذا، سرعان ما بدأ هو وميرثيديس بالحدّ من نشاطاتهما الاجتماعية، وانتقلا من شقة إلى أخرى في عموم أرجاء منطقتي غراسيا وساريّا الجميلتين، بالرغم من افتقارهما إلى الطابع العصري، الواقعتين شمال الخط القطري قبل أن يستأجر أخيراً شقة صغيرة جداً في مبنى جديد في شارع كابوناتا الواقع في منطقة ساريّا أيضاً. وقد تولت الدهشة الضيوف عندما رأوا وقار أثاثها وديكورها - لا سيما الأسلوب المكسيكي الخاص بالجدران البيضاء والأثاث المختلف الألوان في كل حجرة - وهو ما سيميز كل أماكن إقامتهما من الآن فصاعداً. سيعيشان في هذا المكان، وفي هذه المنطقة الجميلة التي تذكرهما بمنطقة الضواحي الرزينة الخالية من المباهاة التي عاشا فيها في المكسيك، حتى نهاية إقامتهما في العاصمة الكاتالونية.

قرر الأبوان إرسال رودريغو وغونثالو إلى مدرسة بريطانية محلية هي كوليجيو كينزنغتون. كان مدير المدرسة السيد بول جايلز من أهالي مقاطعة يوركشاير، درس الحقوق في جامعة كيمبرج واشترك مع غارسيا بارتشا في بعض الأمور: فقبل افتتاح مدرسته في برشلونة كان يعيش في المكسيك. وكما هو شأن آباء تلاميذه المشهورين، فإن غارسيا ماركيز كان يميل إلى السخرية التي لم يكن جايلز يطيقها وهو الإنكليزي *القح*. "إنني لم أعره كثيراً من الانتباه، فهو لم يكن معروفاً على نطاق واسع في تلك الأيام. وكان دمثاً بما فيه الكفاية، إلاّ أنه يميل إلى العدوانية.

أعتقد أنه كان متحاملاً على الإنكليز. لكن ما الذي يجعله غير راضٍ عن ثقافات الشعوب الأخرى، أعني، ما الذي يجعله يصب شراب الشعير في كأس الشراب الفرنسي الأحمر؟... أتظنه جيداً كما يقولون؟ ماذا؟ جيداً مثل ثيربانتس؟ يا الله! من قال هذا؟ أعتقد أنه هو الذي قال ذلك"[9].

كانت صلته بأكبر محرِّرَين في برشلونة هما كارمن بالسيلس وكارلوس بارال أحد مؤسِّسي دار نشر سيكس بارال. كانت علاقة غارسيا ماركيز ببارال مقضياً عليها منذ البداية: فبالرغم من أن بارال بذل جهوداً أكبر من غيره في الترويج لانتعاش الرواية، فإنه هو أيضاً الرجل الذي، كما قيل، "فاتته"، في سنة 1966 أو "فقد" رواية **مئة عام من العزلة**، مما يشكل، إن كان صحيحاً، أكبر سوء تقدير في تاريخ النشر الإسباني. أما بالسيلس، فكانت على العكس، وبلا أدنى شك، كانت أهم صلة لغارسيا ماركيز في برشلونة وأهم امرأة في حياته بعد لويسا سانتياغا وميرثيديس. وقد بدأت التفاوض لتحرير العقود لبارال في مطلع عقد الستينيات من القرن العشرين، ثم استقلت بنفسها. "عندما انطلقت في عملي لم أكن أعرف شيئاً. فالتعالي منتشر في كل مكان، وكذلك الفتيات الجميلات. شعرت أنني أشبه بامرأة ريفية عند المقارنة بهن. لكنني أفلحت في نهاية الأمر. وكان أول زبائني هو ماريو فارغاس يوسا ولويس غويتيسولو، لكن غارسيا ماركيز هو الذي ساندني مساندة حقيقية"[10].

وهكذا، بات غارسيا ماركيز في موضع القادر على إدارة شؤون شهرته وتأليف كتابه التالي بعد أن تولت ميرثيديس إدارة البيت (قال للصحفيين: "كانت تمنحني مصروف الجيب لشراء الحلوى مثلما كانت تمنحه للولدين"[11]، وتولت كارمن إدارة أعماله وبقية شؤونه، وهو ما أقبلت عليه إقبالاً شديداً أول الأمر حتى تحوّل إلى تفانٍ في ما بعد. ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك غارسيا ماركيز أن العالم كله قد دان له الآن. وتشاء عادته في الاتصال الهاتفي أن تصل مستويات يتعذر تصورها: فقد كان يتصل يومياً مع كل من يريد الاتصال به في أي منطقة استراتيجية - كولومبيا، المكسيك، كوبا، فنزويلا، إسبانيا وفرنسا - أو في أي مكان آخر في العالم في غضون لحظة واحدة. أما في ميدان العمل، فإنه لم يكن

مضطراً إلى متابعة الاحتمالات أو إطلاق المبادرات أو البحث عن المكاسب: فالعالم هو الذي سيأتي إليه من الآن فصاعداً من خلال كارمن. وإذا كان ذلك يحتاج إلى قدر من التكيف فإنه قادر على تحقيقه.

يكمـــن جزء من عملية التكيف في توضيح العلاقة - ليس في الأقل لنفسه - بين ميثولوجية رواية **مئة عام من العزلة**، **والأسد الميت**، ومشروعه الراهن **خريف البطريـــرك** كان من شأنه أن يُخلّد اسمه بفضل رواية **مئة عام من العزلة** حتى لو لم يكـــتب أي رواية أخرى من بعدها، لكنه لم يرقه الحديث عنها: فقد أراد أن يركز على الرواية الجديدة. وهكذا بدأ يقول للصحافيين إنه بات ضجراً من رواية **مئة عام من العزلة** - قدر ما كان يضجر من أسئلتهم الغبية - ووصل به القول، ويا للهول الشنيع، إلى أن الرواية *سطحية* وأن نجاحها يرجع إلى حدّ كبير إلى سلسلة من *حيل* الكاتب[12]. باختصار، يبدو أنه كان يريد القول إنه ليس بساحر حقاً، إنما مشعوذ موهوب.

الواضـــح أن غارسيا ماركيز كان على حق من ناحية ما. فرواية **مئة عام من العزلة** تحتشد حقاً *بالحيل* - وهي لا تحتشد بأعمال الشعوذة والسحر كالتي أحبّها القـــراء حباً جماً في رواية ألف ليلة وليلة (التي آذنت بظهور ميلكيادس وموضوعاته واستراتيجياته ذات الصلة) وحسب، بل بتقنيات الحداثة أيضاً التي اكتسبت بمشقة، والتي سمحت للمؤلف بأن ينأى بنفسه عن الاستغراق في رواية **البيت**، فتتحلل منها في الهواء الهواجس - الأدبية وتلك التي تتصل بالسيرة أيضاً - التي انشغل بها طوال حـــياته[13]. لكـــن وراء هـــذا كله، يكمن بعدٌ آخر بلا ريب هو بُعد خيبة الأمل والاستياء أيضاً. إن رواية **مئة عام من العزلة** تبدو الآن وقد سرقت منه **البيت** كما ســـرقت الماضي أيضاً، و لم يعد في وسعه الرجوع إليهما الآن، بل لم يكن راغباً في معرفة ذلك[14].

وهناك سبب آخر دفع غارسيا ماركيز ليصدر رد فعله ضد رواية **مئة عام من العـــزلة** ألا وهـــو قـــضية الـــشهرة بكل ما تنطوي عليه من ضغوط ومسؤوليات وتوقعات[15]. لقد كان في هذا يجمع بين موقفين متضادين، بل كان منافقاً في بعض الأحـــيان، لكن ليس ثمة شك في أنه - بل جزء كبير منه - ندم منذ البداية وحزن

علـــى ذلك. وكما هي حال الكثيرين ممن سبقوه، فقد كان يصبو إلى المجد، إلا أنه كـــان متردداً في دفع الثمن. وبهذا حررته الرواية من الماضي المؤلم، لكنها حكمت عليه أن يحيا مستقبلاً معقداً. ولهذا، فإن قصة بقية حياته ستكون قصة إنسان استحق الشهرة التي ينعم بها الآن، وعليه بعد ذلك أن يتعلم كيف يتعايش معها، وأن يتحمل الـــتوقعات والمسؤوليات، وأن ينتصر مرة أخرى (على الشهرة والنجاح هذه المرة)، وأن يواصل انتصاره مع كل كتاب[16].

اســتناداً إلى هذا الرأي، فإن رواية **مئة عام من العزلة** تمثل على ما يبدو محور حـــياة غارســـيا ماركيز: نهاية ماكوندو (عالمه السابق الذي لم يتمكن من استيعابه) وبداية ماكوندو (بعد أن تحقق الآن تقديمها الناجح وأصبح وراءه)؛ ونهاية ضآلة شأنه وعدم شهرته وبداية "سلطته" (كما سترسخها رواية **خريف البطريرك**)؛ ونهاية حقبة حداثته وبداية حقبة ما بعد حداثته. وإذا ما نظرنا بمنظار أوسع فإن رواية **مئة عام من العزلة** تمثل أيضاً محور أدب أميركا اللاتينية في القرن العشرين، ورواية القارة الوحيدة التاريخـــية العالمـــية والمتفق عليها عالمياً بلا منازع. وبمنظار أكثر اتساعاً أيضاً، وهذا صـــحيح، فإن الرواية جزء من ظاهرة عالمية تؤشر إلى نهاية "الحداثة"، ووصول العالم الـــثالث في حقبة ما بعد الاستعمار وآدابه إلى المسرح العالمي (من هنا تأتي أهمية كوبا وكاسترو)، ونهاية حقبة بدأت برابيليه (وتوديع العصور الوسطى بهجاء نظرتها العالمية) وترســـخت بثيربانـــتس، ولكن أعلنت عن نهايتها رواية **يولسيس**، ويمكن القول إنها تأكدت برواية **مئة عام من العزلة**[17]. ما من أحد يجد سهولة في التكيف مع فكرة؛ بل احتمال تلك الدرجة من الأهمية التاريخية.

* * *

قامت الأسرة بأول زيارة لها خارج إسبانيا في شهري نيسان وأيار عام 1968 فـــتوجّهت إلى باريس وإيطاليا حيث كان جيانجيا كومو فيلترينللي ينشر أول طبعة مـــن رواية **مئة عام من العزلة** بلغة أجنبية. وكان الإصدار حدثاً ومشهداً إعلامياً رفعـــا مـــن مكانة الشخصيات الأدبية. لكن بالرغم من أن فيلترينللي قدّم غارسيا ماركيـــز علـــى أنه دون كيخوته الجديد، إلاّ أن هذا كان وفياً لكلمته ورفض أن تكـــون له أي صلة بإصدار الرواية أو بالدعاية لها. لقد راود غارسيا ماركيز شعور

قـــوي بأن الناشرين يستغلون الكتّاب، وأن على هؤلاء أن يعالجوا العمليات النهائية في الأقـــل من الإصدار: "إن المحررين لا يساعدونني على تأليف كتبـــي، إذاً، لماذا يتعين عليّ أن أساعدهم على بيعها؟"[18].

انـــتهت تلك الرحلة الأوروبية في الوقت نفسه الذي اندلعت فيه الأحداث الثورية في باريس في شهر أيار عام 1968، لكن نادراً ما أشار غارسيا ماركيز إلى هذه الظاهرة التاريخية الهائلة، على حين أسرع كارلوس فوينتس وماريو فارغاس يوســـا بالسفر إلى باريس والاشتراك فيها. كما أن فوينتس كتب تحقيقاً وتحليلاً مـــشهوراً عن التمرد الفاشل الذي شهده بأمّ عينيه بعنوان باريس: ثورة أيار[19]. لكن على خيبة أمل غارسيا ماركيز التي لا يرقى إليها شك لما آلت إليه الأحداث، فـــإن ثقـــته كانـــت ضعيفة بقدرة البورجوازية الفرنسية، وحتى بقدرة شبيبتها الطلابية، على تغيير بلد وثقافة، هو شخص لديه تحفظات كبيرة بشأهما، كما أن أنظاره كانت لا تزال معلقة على أميركا اللاتينية. ومع هذا، فقد قرر العودة إلى باريس خلال الصيف، وفي النهاية، أفصح لبلينيو ميندوثا عن مشاعره:

> **انخلعت باريس مني وأصبحت كأها شظية انغرست في قدمي، وانقطعت آخر الخـــيوط التي تربطني بالفرنسيين. إن تلك الدقة وتلك القدرة المدهشة على المـــبالغة في توضيح الأمور الدقيقة شاخت الآن، لكن الفرنسيين لا يدركون ذلك. لقد وصلنا إلى هناك وكانت حجارة رصف الطريق لا تزال محطمة في أعقـــاب المعارك التي شهدها شهر أيار، وقد انطبعت تلك المعارك في أذهان الفرنـــسيين انطباعاً قوياً، وحلل سواق سيارات الأجرة والخباز والبقال تلك الأحداث تحليلاً مرهقاً وأغرقونا في حمى العقلانيات، وتركونا بانطباع مفاده أن ما حدث كان نتيجة لتصادم الكلمات. يا له من أمر يثير الحنق...**
>
> **إن قـــدري هو أن أكون مصارع ثيران، ولكنني لا أدري كيف أتعامل معه. وقـــد اضطررت إلى اللجوء إلى شقة تاتشيا لمراجعة ترجمة رواية** مئة عام من العزلة. **لقد أضحت الآن سيدة محترمة متزوجة بزوج رائع يتكلم سبع لغات بطلاقـــة لا تكشف عن أي لكنة. وفي أول لقاء لنا، عقدت صداقة قوية مع ميرثيديس أساسها التآمر ضدي[20].**

صـــحيح. فقـــد التقى غارسيا ماركيز تاتشيا ثانية، وكانت قد عاشت بضع سنوات برفقة تشارلز روسوف، المهندس الفرنسي المولود عام 1914 والذي هاجر

أبواه من روسيا بعد إخفاق انتفاضة 1905. وقد عاد أبوه إلى البلاد مرة أخرى عام 1917 للانضمام إلى صفوف الثورة، لكنه تركها مرة أخرى عام 1924 بعد أن خاب ظنه في أعقاب وفاة لينين. وكانت لتاتشيا علاقات عابرة قبل لقائها روسوف، ولكنها لم تعش أي قصة حب جديدة بالرغم من أن بلاس دي أوتيرو جرى وراءها في باريس وحاول إذكاء علاقتهما المضطرمة. ومن المفارقات أنها التقت الرجل الذي تزوجته من خلال بلاس وذلك عام 1960. لكن غارسيا ماركيز ظهر في حياتها من جديد الآن عام 1968. "التقينا في شقتي في باريس. كنت غاية في التوتر، وتصرفنا تصرفاً سيئاً وتحدثنا حديثاً صافياً، لكن المناسبة كانت صعبة جداً، متوترة جداً. لكننا تمكنا من التصرف وكأن ما من شيء حدث بيننا، وواجهنا الأمر بجسارة".

كان غارسيا ماركيز لا يزال في باريس لدى غزو الجيش السوفياتي تشيكوسلوفاكيا في الحادي والعشرين من آب بهدف قمع حكومة الإصلاح الاشتراكية، أو "ربيع براغ" بقيادة ألكزاندر دوبتشيك، وهو الذي انتخب مؤخراً ليكون السكرتير الأول للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. كانت تشيكوسلوفاكيا تمثل لغارسيا ماركيز قضية أشد خطورة من الأحداث التي جرت في باريس لأنها بدأت تكشف عن أن الشيوعية السوفياتية عاجزة عن التطور. وقال لبلينيو ميندوثا: "لقد انهار عالمي، لكنني أفكّر الآن، في أنه ربما يكون أفضل على هذه الحال. إن الكشف من دون تمحيص عن أننا نقف بين إمبرياليتين تتساويان في القسوة والجشع إنما هو، بمعنىً من المعاني، تحرير لضمير الفرد... لقد أرسلت مجموعة من الأدباء رسالة إلى فيدل ونشرتها صحيفة الأوبزرفاتور يقولون فيها إن دعمه الغزو السوفياتي كان *أول غلطة بالغة الخطورة ترتكبها الثورة الكوبية*. وهم يريدوننا أن نوقّع على الرسالة، لكن ردنا كان واضحاً تمام الوضوح: إنه غسيلنا القذر وسنهتم به داخل البيت. لكن الواقع هو أنني لا أظن أن عملية الغسيل ستكون سهلة"[21].

أثبت العام 1968 أنه أشد الأعوام التي علقت في الذاكرة اضطراباً. ففي شهر كانون الثاني استأنفت كولومبيا علاقاتها الدبلوماسية مع اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية للمرة الأولى منذ عشرين سنة. كما زار البابا بولس السادس

البلاد في شهر آب، وهي أول زيارة بابوية إلى أميركا اللاتينية (كان قد تمّ توقّع مثل هذه الزيارة في قصة **جنازة الأُم الكبيرة**)، واغتيل مارتن لوثر كنغ في ممفيس في نيسان واغتيل بوبي كنيدي في لوس أنجلوس في حزيران، وفي الشهر نفسه أُطلقت النار على أندي وارهول في مدينة نيويورك، وتظاهر رجال الشرطة في شيكاغو لدى اجتماع الحزب الديمقراطي في شهر آب، وانتخب ريتشارد نيكسون رئيساً في تشرين الثاني من دون مساندة عمالية. كما نفّذ اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية غزوه تشيكوسلوفاكيا بمساندة كوبا. وفي مطلع شهر تشرين الأول قتل الجيش المكسيكي مئات المتظاهرين العزل في تلاتيلولكو في مدينة مكسيكو، وذلك قبل أن تُعقد أول دورة للألعاب الأولمبية في العالم الثالث. كل هذه الأحداث تجري وغارسيا ماركيز يختلي بنفسه بعيداً في برشلونة ومع *البطريرك الورقي* بالرغم من كونه يعيش في ظل دكتاتورية حقيقية[22].

أما بخصوص إسبانيا، فإن غارسيا ماركيز لم يهتم إلا اهتماماً قليلاً جداً بسياسة البلاد حتى ظن عدد كبير من الناس في برشلونة أنه "غير سياسي". وخلال وجوده في المدينة حدث اعتصامان كبيران بَلوَرا المعارضة ضد نظام فرانكو، وشارك فيهما عدد كبير من أصدقائه من ضمنهم ماريو فارغاس يوسا وكل عضو رئيس من أعضاء "اليسار الرائع"، لكنّ غارسيا ماركيز لم يشارك فيه. تقول بياتريس دي مورا بعد ثلاثين سنة: "كان غابو في تلك الأيام غير سياسي تماماً، فأنت لا تسمعه يتحدث في السياسة وكان يستحيل أن تعرف ما هي أفكاره. ومما كانت تقتضيه التقاليد أن يكون المرء ملتزماً سياسياً في تلك الآونة. غير أن غابو لم يكن ملتزماً"[23].

غير أن للروائي خوان مارسيه ذكريات مختلفة عن غارسيا ماركيز غير السياسي. ففي أواخر صيف عام 1968 كان مارسيه عضواً من أعضاء لجنة التحكيم الأجانب الذين وجهت إليهم الدعوة لمنح جوائز أدبية في المسابقة الرابعة للاتحاد الوطني للأدباء والفنانين في كوبا، ولما اتّضح للسلطات أن جائزة الشعر ستمنح إلى الشاعر هيربيرتو باديًا المتهم بمناهضته الثورة وأن جائزة المسرح ستمنح للكاتب المسرحي مثلي الجنس أنطون آروفات، تفجرت أزمة واحتجز أعضاء اللجنة في

كـــوبا لبـــضعة أسابيع. وكانت تلك الحادثة بداية الصراع بشأن حرية التعبير التي ســـتغير - بعد ثلاثة أعوام من الثورة - صورة كوبا أمام العالم تغييراً كلياً، وبخاصة في أوروبا والولايات المتحدة وتتسبّب بقطيعة تصعب إعادة وصلها بين العديد من الأدباء من جهة، وبين ما كان يعتقد حتى تلك الأيام أنها ثورة اشتراكية ليبرالية إلى حدّ معقول. وأصرَّ أعضاء لجنة التحكيم على آرائهم واضطرت السلطات إلى إقناع نفسها بطبع "تحذير صحي" في الكتابين لدى نشرهما. وبعد ستة أسابيع من البقاء في كوبا كان خلالها فيدل كاسترو ينتظر بلا طائل من أعضاء لجنة التحكيم أن يغيروا رأيهـــم، عـــاد مارسيه إلى برشلونة في أواخر شهر تشرين الأول وروى ما جرى لمجمـــوعة مـــن الأصدقاء في إحدى الحفلات، وكان من ضمن أولئك الأشخاص غارسيا ماركيز نفسه. أخبرني مارسيه قائلاً: "منحت اللجنة الجائزة لباديّا لأن كتابه كـــان أفـــضل الكتب جميعاً. أما اتحاد الأدباء في كوبا. فقال إن الكتاب ليس هو الأفضل، والمؤكد أن الاتحاد وصلته رسالة من الجهات العليا بذلك الشأن. حقاً لقد تبين أن باديًا كان رجلاً تحريضياً ومنحرفاً ومخبولاً. لكنني حتى لو علمت بذلك، لما غيَّـــرت رأيي، لأن كتابه كان أفضل الكتب، وتلك نهاية الحكاية. على كل حال، رجعـــت إلى برشـــلونة فأقامت كارمن حفلة لي، وبذلك رويت قصتي. يمكنني أن أُشاهد غابو الآن وقد لف عنقه بمنديل أحمر اللون وهو يخطو جيئة وذهاباً بينما أنا أشـــرح ما حدث. كان حانقاً عليَّ، غاضباً حقاً. وقال إنني أبله، وإنني لا أفهم أي شـــيء عن الأدب، وإن فهمي السياسة أقل من فهمي الأدب. إن السياسة تأتي في المقدمة دائماً، ولا يهم إن شُنِقَ جميع الأدباء. كان باديًا ابن زنى اشتغل عميلاً للسي آي إيه، وما كان يتعين علينا أن نمنحه الجائزة قط. إنه لم يُسِئ إليَّ، لكنه أوضح أننا نعـــيش في عـــالمين ثقافيين وأخلاقيين مختلفين كلّ الاختلاف. وبعد ذلك أصبحنا صديقين، لكن شعوراً يداخلني بأن الأمور لم تعد كما كانت من قبل، وبخاصة من ناحيته"(24).

إن الـــشيء الذي لم يعرفه مارسيه هو أن غارسيا ماركيز الذي كان يستشعر فطريّاً الخطورة التي ستكون عليها هذه المشكلة، أيَّد التعامل تعاملاً مباشراً من وراء الكوالـــيس مع كاسترو بخصوص مشكلة باديّا. وفي أواسط شهر أيلول زار زيارة

مطـــولة مدينة باريس لرؤية خوليو كورتاثار الذي كان يراسله، وإن لم يتمكن من لقائـــه. كان كورتاثار قد انفصل تواً عن زوجته الأولى أورورا بيرنارديث، وكتب رســـالة تقبض الصدر إلى باكو بوروا في بوينس آيرس، وقال فيها إن نقطة الضوء الوحـــيدة البراقة فيها كانت لقاءه بغارسيا ماركيز: "أريدك أن تعرف أنني التقيت بغابـــريل ومكـــث معي يومين آخرين. لقد وجدته هو وميرثيديس مدهشين. إن الصداقة تنطلق مثل نافورة ماء عندما تصلك الحياة بأمثالهما من البشر"[25]. وناقش الـــرجلان الوضع الكوبـــي مناقشة كافية لأنهما هما اللذان سيؤيدان الثورة بالتالي تأييداً تاماً في السراء والضراء، وبهذا ينأيان بنفسيهما عن معظم معاصريهما، وبالتالي عن أكثرهم شهرة مثل فارغاس يوسا ودونوسو وكابريرا إينفانتي وغويتيسولو وحتى فوينتس نفسه. ويزعم غارسيا ماركيز أنه هو الذي اقترح الاتصال سراً بفيدل وذلك بإرســـال رســـالة مشتركة إليه، وإن كان كورتاثار يؤكد أن تلك المبادرة مبادرته. كانت الفكرة في جوهرها تقتضي مناشدة فيدل سراً ألاّ يُعاقب باديّا لقاء سكوتهم. و لم يصل أي رد. لكن باديّا الذي كان قد أعفي من وظيفته في دار نشر كاسا دي لاس أميريكـــاس أُعيد إلى العمل. وفي سنة 1971 تتفجر القضية كلها مجدّداً، لكن الـــناس مـــن أمثال فارغاس يوسا وخوان غويتيسولو وبلينيو ميندوثا كانوا قد نأوا بأنفسهم عن كوبا في سنة 1968 و لم تعد الأمور كما كانت عليه سابقاً أبداً.

ســـافر غارسيا ماركيز في الثامن من كانون الأول في مهمة استثنائية إلى براغ لمدّة أسبوع، وكان معه صديقه الجديد خوليو كورتاثار وصديقة كورتاثار الجديدة الأديـــبة والمترجمة الليتوانية أُوغني كارفيليس التي كانت تعمل في دار نشر غاليمار الباريـــسية الكـــبرى، فضلاً عن كارلوس فوينتس. كانوا يصبون إلى اكتشاف ما يحدث حقاً في العاصمة التشيكية المحتلة حديثاً ويريدون التحدث إلى الروائي ميلان كونديـــرا بخـــصوص الأزمة[26]. وبحسب ما قاله كارلوس فوينتس، فإن "كونديرا طلـــب منا أن نلتقيه في حمام سونا على ضفة النهر ليخبرنا بما حدث في براغ. يبدو أن ذلك المكان كان واحداً من الأماكن القليلة التي ليس فيها للجدران آذان.

ثمـــة فـــتحة كبيرة في الجليد حملتنا على التخفيف من مشاغلنا وإعادة تنشيط دورتنا. ودفعنا ميلان كونديرا برفق نحو ما لا يمكن إصلاحه. وبلون يشبه لون زهرة

الأوركيدا البنفسجية، غمرنا أنفسنا، أنا والقادم من بارانكيًّا والقادم من فيراكروز، في ذلك الماء الغريب جداً عن جوهرنا المداري"[27].

بالرغم من هذه المغامرات، فإن الصورة الطاغية التي ظهر بها غارسيا ماركيز في تلك الآونة، كانت صورة بطل مستوحد ارتبط بإحساسه الباطني ارتباط الكرة بسلسلة من حديد. لكن بالرغم من ذلك، بدا محروماً من الإلهام، جوالاً في دهاليز بيته المغلقة وقاعاته الخاوية (إنه يسكن في شقة صغيرة أشبه بالمواطن كين في إحدى الروايات الخيالية، أو أقرب إلى بابا همنغواي الذي لا يملك سوى رصاصات أدبية فارغة بدلاً من رصاصات حية). حقاً، كان بعيداً عن الالتزامات البيتية في أثناء تأليفه رواية **خريف البطريرك** تماماً مثلما كان بعيداً عنها عند كتابته رواية **مئة عام من العزلة**. ومع هذا، فإن عذابه كان مضاعفاً بلا شك، بالرغم من المشهد المعترك غالباً لعذابه الداخلي الذي يتكرر عرضه على صفحات الصحف في جميع أرجاء أميركا اللاتينية.

بعد برهة من الزمان، راح غارسيا ماركيز يزور مكتب كارمن بالسيلس بين الساعة الخامسة والساعة السابعة من مساء بضعة أيام في الأسبوع، وذلك ليحفظ فيه آخر ما يكتبه من رواية **خريف البطريرك** – وكان قسم المحفوظات في المكتب قد بدأ يتسلم أقساماً كبيرة من الرواية من الأول من نيسان عام 1969 وظل يتسلمها حتى شهر آب عام 1974 وعليها تعليمات صارمة مفادها: *ليست للقراءة* – ولاستعمال هاتفها بلا حدود لصفقاته التجارية ومهماته المؤتمنة على أسرار. وقد أدى هذا إلى إبعاد العمل عن البيت، وربما أنقذ ميرثيديس من معرفة أمور يمكن أن تزعجها، ليس أقلها الكميات الهائلة من ثروته الجديدة التي اختار أن يبددها طوال السنوات اللاحقة، وكذلك الأمور السياسية وغيرها التي أضحى بمرور الوقت منهمكاً فيها. كما قامت بالسيلس مقام الأخت التي في إمكانه أن يخبرها بكل شيء تقريباً، والتي راحت تحبه حباً شديداً يجعلها على استعداد للتضحية في سبيله. وقالت لي: "بعد أن بقي مدة من الزمن في برشلونة جاء إليَّ في يوم من الأيام وقال: *استعدي، لدي عمل للسوبرمان*. وكان يعنيني بكلامه، إذ هكذا كنت بالنسبة إليه حينها"[28]. (وبالرغم من ذلك، لم تكن ممانعة للنكتة في ما بعد. فبعد

مــرور ســنوات سألها غارسيا ماركيز في أثناء حديث هاتفي: أتحبينني يا كارمن؟ فــرَّدت علــيه: لا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال، فأنت تشكل 36. 2 بالمئة من إيرادنا).

في غضون ذلك، كان الصبيّان يتقدّمان في السن. ويلاحظ غارسيا ماركيز في فترة لاحقة أن العلاقة بين الأبوين والولدين التي لا تتغير على مر القرون تغيرت تغيراً جــذرياً في ستينيات القرن العشرين: فهذان الأبوان المتفقان ظلا شابين إلى الأبد، الأبــوان اللــذان لم يكونا حتى أكبر سناً مما كان عليه الناس متوسطو العمر. لقد أضحى رودريغو اليوم صانعَ أفلام ناجحاً في هوليوود، وأخبرني قائلاً: "إن أكثر ما أتذكره هو أننا بقينا بالرغم من حياتنا الحافلة بالنشاطات الاجتماعية أربعة أشخاص دائماً، أربعة أشخاص في العالم لا أكثر. كنا عجلة بأربعة قضبان لا خمسة. وهكذا، فعندما رُزق شقيقي بطفل قبل بضعة أعوام أصبت بالذهول، إذ لم أستطع أن أصدق أن هناك قضيباً خامساً الآن. وكان ذلك بعد مرور سنوات طويلة على سكني بعيداً عن البيت"(29).

ثم أضاف: "كنت أنا وشقيقي قد رضعنا من حليب أمنا، وفي ذلك عدد من الفوائد الجوهرية. ثمة أشياء يتعين عليك أن تعرفها، أحدها أهمية الصداقة. ثمة توكيد هائل على الإعجاب بالآخرين وبحياتهم. ذلكم هو دواء أبــي. لا بد من أن تعرف عــن حــياتهم وكل أعمالهم، وأن تشاركهم تجاربهم وأن يشاركوا في تجاربك. في الوقت نفسه نشأ نشأة بعيدة كلّ البعد عن الانحياز خلا حالتين مهمّتين: أولاهما، إن شعب أميركا اللاتينية هو أفضل شعوب العالم. هو ليس بالضرورة أذكى الشعوب، وربما لم يشيِّد الشيء الكثير، ولكنه أفضل شعب في العالم، وأكثرهم إنسانية وكرماً. وثانيهما، إذا ما حدث أيّ خطأ، فاعلم أنه خطأ الحكومة، وهي التي ينصب عليها اللــوم دائمــاً، وإذا لم يكن السبب هو الحكومة، فاعلم أن السبب هو الولايات المــتحدة. لقد اكتشفت منذ ذلك الوقت أن أبــي يحب الولايات المتحدة، ويكنّ الإعجاب لمنجزاتها، ويحمل مودة كبيرة لبعض الأميركيين، لكننا في نشأتنا، كانت الــولايات المــتحدة هي التي تتحمل اللائمة على كل ما هو سيِّئ في العالم تقريباً. وعندما أتذكر ذلك أرى أن تربيتنا كانت تربية إنسانية جداً وصحيحة سياسياً، ومع

أنـــي عُمِّـــدت علـــى يـــدي كاميلو توريس، فإننا لم نمتلك أي ثقافة دينية. كان الـــسياسيون أشراراً، وأفراد الشرطة أشراراً، وعناصر الجيش أشراراً"[30]. لكن هناك أموراً جوهرية أخرى. فإذا كنا لا نسمع إلاّ كلمة واحدة تتردد، فهي كلمة "الجد". فعلى سبيل المثال، كان والداي متزمتين جداً من حيث السلوك. إذ عليك أن تُبقي الأبـــواب مفـــتوحة كي تمر السيدات، ولا يمكنك الكلام والطعام يملأ فمك. كان الاعتقاد شديداً بالجد، وبالسلوك وبالدقة. وعليك أن تحصل على علاقات جيدة، ولا يمكن لك أن تحصل على سواها. لكن عليك أيضاً أن تضيع وقتك سدىً، وعليك أن تعرف كيف ومتى تضيعه سدىً. بدت إضاعة الوقت سدىً كأنها جزء من "الجد". وإذا وصـــلنا إلى القمة و لم نضيع الوقت سدىً أكثر مما ينبغي، يحل علينا العقاب. شيئان اثنان كانا يستحقان الاحترام حقاً: الخدمة؛ كأن تكون طبيباً أو معلماً أو ما شـــابه، والأهم من هذا إبداع الأعمال الفنية. لكن المحفور في أذهاننا دوماً هو أن الـــشهرة ليست مهمة إطلاقاً، وكان يقول إنها ليست شيئاً جاداً. إذ يمكن أن تطبق شـــهرتك الآفاق، ولكنك تظل بالرغم من ذلك كاتباً ليس عظيماً. حقاً إن الشهرة يمكـــن أن تكون موضع شك. فعلى سبيل المثال، قال لنا إن صديقه ألفارو موتيس وتيتو مونتيروسو كانا كاتبين عظيمين، لكن لم يسمع هما أحد. من ناحية أخرى، راقنا، نحن الولدان، أن نشاهد والدنا وقد بات معروفاً بين الناس في الشارع"[31].

في تلك الآونة تقريباً تخلى غارسيا ماركيز عن التدخين بعد أن ظل مدمناً عليه مـــنذ سن الثامنة عشرة. وفي الوقت الذي تخلّى فيه عن التدخين كان يدخن غالباً ثمـــانين سيجارة يوميّاً من التبغ الأسود. وكان قد صرَّح قبل ذلك بعامين أنه يفضّل المـــوت على ترك التدخين[32]. وقد حدث ذلك التحول ذات مساء خلال تناول طعام العشاء مع صديقه الطبيب النفساني لويس فيودتشي الذي شرح له كيف أقلع هـــو شخصياً عن التدخين قبل شهر واحد، وسبب ذلك. بقي غارسيا ماركيز غير راغب في البوح عن التفاصيل الكاملة لذلك الحديث على مدى أكثر من ثلاثة عقود مـــن الزمان لكنه أطفأ عقب سيجارته التي كان يدخنها في أثناء العشاء، و لم يدخن مرة أخرى بالرغم من أنه استشاط غضباً بعد مرور أسبوعين فقط عندما بدأ لويس فيودتشي يدخن غليوناً[33].

في العـــام 1970 أعلن في فرنسا أن رواية **مئة عام من العزلة** هي أفضل رواية أجنبية لعام 1969، وحازت على جائزة استحدثت أول مرة في عام 1948. غير أن غارسيا ماركيز رفض رفضاً باتاً حضور المناسبة. وبعد مرور بضعة أشهر تحدث في مقابلة صحافية فقال إن "الرواية لا تناسب فرنسا"، وإنها لم تحقق مبيعات جيدة جداً بالرغم من المراجعات الجيدة التي كتبت عنها. ولعل السبب يكمن، لسوء الحظ، في أن "روح ديكارت هزمت روح رابيليه" في فرنسا[34].

غير أن الوضع، ويا للمفارقة، كان مختلفاً اختلافاً شديداً في الولايات المتحدة، إذ لم يـــسبق أن حصلت أي رواية في التاريخ الحديث على تقريظ مفرط أكثر من التقـــريظ الـــذي بـــدأ يحصل عليه غارسيا ماركيز هناك. وكتب جون ليونارد في صحيفة ذا نيويورك تايمز بوك ريفيو:

> **إنك لتخرج من هذه الرواية المدهشة خروجك من حلم، متقد الذهن. رجل شاب أسمر البشرة قرب الموقد، نصف مؤرخ، نصف عرَّاف، بصوت ملائكي تارة، وممسوس تارة أخرى، يهدهد أولاً قبضتك كي تغفو وهي ممسكة بواقع لا ســـبيل إلى السيطرة عليه، ثم يسجنك داخل الخرافة والأسطورة. وبقفزة واحـــدة يقفـــز غابـــرييل غارســـيا ماركيز نحو المسرح برفقة غنتر غراس وفلاديميرنـــا نابوكـــوف، شهيته هائلة بحجم خياله، قدريّته أكبر من كليهما. مذهل[35].**

ثم جـــاءت لـــندن بعد ذلك في السادس عشر من نيسان. وفي شهر حزيران خصصت صحيفة التايمز - وهي ركن المؤسسة، ومن بعض الأوجه، أشد الصحف المحافظة في العالم، ولم تسمح بنشر الصور إلاّ مؤخراً - صفحة كبيرة كاملة للفصل الأول من رواية **مئة عام من العزلة** أرفقته ببعض الصور التوضيحية "المخدرة" التي يمكـــن أن تكـــون قـــد سُرقت من شريط فريق البيتلز للرسوم المتحركة **الغواصة الصفراء**.

وفي شهر كانون الأول أعلنت صحيفة نيويورك تايمز رواية **مئة عام من العزلة** واحدة من بين أفضل كتب السنة الاثني عشر. وكانت هي الرواية الوحيدة من بين تلـــك الكتب، وعُدَّت النسخة الإنكليزية التي أنجز ترجمتها إلى الإنكليزية غريغوري راباسا أفضل ترجمة أجنبية للرواية في ذلك العام.

أمــا بخصوص الكتّاب الآخرين من كتّاب مرحلة الانتعاش، فقد انتقل ماريو فارغــاس يوسا أخيراً إلى إسبانيا في ذلك الصيف وكان قد فرغ من تأليف روايته الهائلــة **حديث في الكاتدرائية** قبل عام واحد، وترك مهنة التدريس في جامعة لندن منــتقلاً إلى برشلونة. وأخذ أصدقاؤه يلقبونه بلقب *الطالب العسكري*، لا بسبب موضوع روايته **عصر البطل** التي تدور حول الأكاديمية العسكرية (1962) وحسب، بل لأن ماريو نفسه كان شديد التأنق، مهندماً، حسن التنظيم، يسعى لفعل الشيء الــصحيح نظرياً على الأقل، لكن الجدل غالباً ما كان يثار من حوله، إذ كان هذا الشاب التقليدي على ما يبدو، متزوجاً من قريبته من الدرجة الأولى باتريشيا، تاركاً خلفــه زواجــه المخزي أيام مراهقته من عمته، الذي سيجعله في ما بعد موضوع روايــته **العمة جوليا وكاتب النصوص**. وفي غضون ذلك، كان مشروعه الآخر، وهو *دراسة في أدب غارسيا ماركيز السردي تنحو منحى السيرة*، من أكثر الأعمال المدهشة وفاءً وكرماً في الأدب التي يخصصها أديب كبير لآخر. وعنوان هذا الكتاب هو **غارسيا ماركيز: قصة قاتل إله**، ويظل حتى اليوم، وبعد ثلاثين سنة على تأليفه، مرجعاً رئيساً، حتى وإن قال عديد النقاد إنه حوَّل الكولومبــي إلى أديب له صفات ماريو وهواجسه.

ثمــة روائي مقيم بدوره وهو روائي التشيلي خوسيه دونوسو المصاب برهاب المــرض، وكان غارسيا ماركيز قد التقاه في منــزل كارلوس فوينتس عام 1965. وكـــان دونوسو العضو الخامس في عصر انتعاش الرواية (المكافئ للعضو الخامس في فريق البيتلز الغنائي) وهو روائي كتب رواية مدهشة بعنوان **طائر الليل الداعر** (1970). ثم كـــتب دونوســـو بعد ذلك يوميات عن تلك المدة الزمنية في كتابين مهمين هما تاريخ شخصين عن فترة الانتعاش (1972) وروايته **الحديقة المجاورة** (1981)، ويلقي فيها نظرة ساخرة - وغيورة - على العلاقة بين كارمن بالسيلس (نوريا مونكلوس) وكاتبها "المفضل" غارسيا ماركيز (مارسيلو تشيربوغا)[36].

وقـــرر بلينـــيو ميـــندوثا وزوجته مارفيل مورينو الانتقال إلى ما وراء المحيط الأطلسي حيث سافرا أوّلاً إلى باريس ومنها إلى ميورقة[37]. عاش عيشة متقشفة إلى أبعد الحدود وبدأ يزور برشلونة في أغلب الأحيان بفضل ثروة غارسيا ماركيز، إلا

أنه وجد الأمور الرحيبة والهادئة في شارع كابوناتا "تلك السيدة المشهورة المتشامخة ذات القلائد اللؤلؤية"[38].

في هــذه الآونــة التقى غارسيا ماركيز بابلو نيرودا وزوجته ماتيلدا. كان نــيرودا شــاعر أميركا اللاتينية الأعظم، شيوعياً على الطراز القديم ولكنه كان صاحب مزاج، محباً لملذات الحياة، ولا بد من أن ألفارو موتيس الشهواني المترف نفــسه كان يحسده على تلك الحياة ويعجب به. كان نيرودا أديباً آخر من أدباء أميركــا اللاتينية الذين يصابون بالذعر من السفر جواً. وكان يوماً ما في طريق عودته بحراً من رحلة قام بها إلى أوروبا لحضور الانتخابات التي ستجيء بالمرشح الاشتراكي سلفادور آليندي إلى الحكم. وكان أحد القرارات الناجحة الأولى التي اتخذها آليندي هو جعل نيرودا سفير تشيلي في باريس في عام 1971. ولما توقفت ســفينة نيرودا في برشلونة في صيف العام 1970، كان أحد أهدافه الرئيسة لقاء غارســيا ماركيز[39]. وقد كتب غارسيا ماركيز بعدئذ رسالة إلى ميندوثا يقول فــيها: "مــن المؤسف أنك لم تلتقِ نيرودا. لقد أحدث هذا الملعون ضجة كبرى خلال طعام الغداء مما دفع ماتيلدا لأن تبعث به إلى الجحيم. وقد دفعناه من خارج إحــدى الــنوافذ وأتيــنا به إلى هنا ليستمتع بقيلولة. وقبل عودتهما إلى السفينة اســتمتعنا بوقتنا استمتاعاً مذهلاً"[40]. كانت تلك المناسبة هي التي قادت نيرودا الذي لم يكمل قيلولته المهمة جداً إلى أن يهدي كتاباً لميرثيديس. ويتذكر غارسيا ماركيز المناسبة فيقول: "قالت ميرثيديس إنها ستطلب من بابلو توقيعه، لكنني قلت لها: لا تكوني مداهنة إلى هذا الحد. ثم ذهبت واختفيت في الحمام... فما كان منه إلا أن كــتب: *إلى ميرثــيديس، وهي في فراشها*. ثم نظر إلى ما كتبه وقال: *هذا الكــلام يــثير الــشكوك إلى حدٍّ ما*. ثم أضاف: *إلى ميرثيديس وغابو، وهما في فراشــهما*. ثم فكّــر وقال: *هذه العبارة أسوأ من سابقتها*. فما كان منه إلا أن أضــاف إلــيها عبارة: *أخوكما بابلو*. ثم انفجر ضاحكاً وقال: *لكن هذه العبارة باتت الآن أسوأ بكثير، لكن ليس ثمة ما يمكن فعله بشأنها*[41].

شــهدت الأشــهر القليلة التالية ذروة مرحلة الانتعاش إذ بدأت بمسرحية كارلــوس فوينتس **الأعور ملكاً** وعُرِضت أول مرة في مدينة أفينيون في شهر آب

ودعا فوينتس جميع أصدقائه لمشاهدتها. وتم تنظيم رحلة بالقطار من برشلونة إلى أفينيون وكان من ضمن المدعوين ماريو فارغاس يوسا وباتريشيا، وكانا قد انتقلا تواً للسكن في العاصمة الكاتالونية، وخوسيه دونوسو وبيلار، وغابو وميرثيديس مع ابنيهما. كما سافر الروائي الإسباني خوان غويتيسولو، وهو عضو الشرف في حلقة أدباء فترة الانتعاش إلى باريس. كانت أفينيون تبعد مسافة أربعين ميلاً فقط عن قرية سايغنون حاضرة إقليم خوليو كورتاثار في فاوكلوس. وأعدَّ فوينتس حافلة لنقل المجموعة وعدد آخر من المتسكعين لمشاهدة كورتاثار وأوغني كارفيليس في الخامس عشر من آب. ونظم كورتاثار من جهته وجبة غداء كبرى في أحد مطاعم المنطقة، وانتقل بعدها جميع أفراد المجموعة إلى بيته وأمضوا طوال فترة العصر والمساء هناك.

لأسباب عديدة، أهمها أن هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي يجتمع فيها جميع أدباء مرحلة الانتعاش، وهي مناسبة اتخذت منذ ذلك الوقت طابعاً أسطورياً. لكن لسوء الحظ كانت هناك مشكلتان تكمنان وراء ذلك المرح، أولاهما كانت تكبر تدريجياً منذ قضية باديّا الأولى في كوبا في عام 1968، وتعمقت بمساندة كاسترو ودعمه الغزو السوفياتي تشيكوسلوفاكيا. وتوشك المشكلتان الآن أن تصلا إلى مرحلة الأزمة، كما أن الهوة المهمة بين الأصدقاء الستة توشك أن تصبح هوة غير قابلة للردم؛ لكن ليس الآن. كانت المشكلة الأولى متمثلة بقمع كوبا الكتّاب والمثقفين. أما المشكلة الثانية المتصلة بها، فهي مشروع خوان غويتيسولو لإطلاق مجلة جديدة يكون مقرها باريس ويكون عنوانها (ليبر) *الحر*، وهو اسم فكّر العديد من أصدقائه المجتمعين معاً أنهم مقتنعون أن هافانا ستنظر إليه على أنه استفزاز ودليل على أن مهندسي مرحلة الانتعاش كانوا عبارة عن مجموعة من الليبراليين "البورجوازيين الصغار".

يكتب كورتاثار بعد أسبوع واحد من الحفلة: "كانت الحفلة جميلة جداً وغريبة جداً، شيئاً خارج الزمان، لا تتكرر، وذات مغزى يفوتني"(42). كانت اللحظة الأخيرة التي يمكن فيها للحنين الجارف الطوباوي المؤطر بإطار مرحلة الانتعاش أن يستدام استدامة جزئية بوصفه مشروعاً جماعياً. ومن المفارقة أن هذا

التجمع الحاشد الأول قد اتخذ شكل رحلة إلى المنزل المعزول الذي يقيم فيه كورتاثار الذي طالما تجنب الأماكن التي تعج بالناس وبالبوهيمية المزيفة، ولكنه لم يصبح اليوم عضواً في مافيا تماسكت برباط ذكوري غالباً وعلى نطاق واسع وحسب، بل تتجه نحو مشروعات جماعية من مشاريع الحلم الاشتراكي.

في الرابع من أيلول، انتخب سلفادور آليندي رئيساً لجمهورية تشيلي، وكان مقرراً أن ينصّب رئيساً في الثالث من تشرين الثاني واعداً الشعب التشيلي باشتراكية ضمن الليبرالية. لكن قبل تنصيبه رئيساً، أصيب قائد الجيش التشيلي رينيه شنايدر إصابة قاتلة إثر هجوم نظمته السي آي أيه في الثاني والعشرين من تشرين الأول. كان غارسيا ماركيز قد التقى مؤخراً الأديب التشيلي خورخه إدواردز، وهو الذي سيكتب لاحقاً سيرة نيرودا، وكان دوره في كوبا بوصفه سفير تشيلي، يتصل بالنتيجة النهائية التي وصلت إليها قضية باديًّا.

قبل حلول الميلاد بأسبوع واحد، قاد كورتاثار السيارة برفقة زوجته أوغني من باريس إلى لشبونة عبر سايغنون. وبعد وصوله ذهب جميع الأدباء وزوجاتهم إلى مطعم المأكولات الكاتالونية لافونت ديس أوسييت (حمّام الطير) الواقع في الجزء القديم من المدينة. ويتبع المطعم نظاماً في تقديم الطعام يتلخص بأن يكتب الزبائن طلباتهم من الطعام على قسيمة مطبوعة، لكن الجميع كانوا منشغلين تماماً في الحديث حتى مرَّ وقت طويل ولا تزال فيه القسيمة خالية، فشكا النادل الأمر إلى صاحب المطعم. فما كان منه إلا أن خرج من المطبخ وهو يصيح بصوت كاتالوني أجش ملؤه السخرية بعبارة ظلت كلماتها خالدة: "ألا يعرف أحدٌ منكم كيف يكتب؟". وهنا لفّ الصمت المكان، صمت يكتنفه الحرج والاستياء والمتعة. وبعد لحظة تكلمت ميرثيديس: "نعم، أنا أعرف كيف أكتب". ثم واصلت قراءة لائحة الطعام وتنظيم الطلبات. كان هدوؤها الذي يخفي تحته ثورة عنيفة أسطورياً. ففي يوم ما اتصلت بها بيلار قلقة لتخبرها أن دونوسو، المصاب برهاب المرض، مقتنع كلّ الاقتناع أنه مصاب بسرطان الدم، فما كان من ميرثيديس إلا أن ردت عليها قائلة: لا تقلقي. لقد أصيب غابو بسرطان في رأسه ولكنه شفي منه الآن"[43].

أمضت المجموعة عشية الميلاد في شقة فارغاس يوسا الصغيرة كي يتمكن الأزواج من نقل الأطفال الصغار إلى الأسرّة بسهولة. أما كورتاثار الذي كان يرمي كرات الثلج على الجميع بلا استثناء، فقد اشترك في منافسة ضد فارغاس يوسا تتألف من سباق سيارات كهربائية كان الأولاد قد تلقوها هدية الميلاد. وبعد الميلاد، نظّم لويس غويتيسولو وزوجته ماريا أنطونيا حفلة دُعي إليها الإسبان والأميركيون اللاتينيون. يتذكر دونوسو عام 1971 وهو لا يزال محتفظاً بلياقته وحشمته: "أرى أن مرحلة الانتعاش انتهت بوصفها كياناً - هذا إن كانت كياناً في يوم من الأيام خارج نطاق خيال الفرد، وإن كانت حقاً قد انتهت - في العام 1971، وفي منزل لويس غويتيسولو في برشلونة مع مجموعة تزعمتها ماريا أنطونيا التي كانت تثقلها المجوهرات الثمينة وترتدي التنانير متعددة الألوان والحزم السوداء وترقص فتعيد إلى الأذهان نموذج ليون باكست لشهرزاد أو بيتروشكا. كما رقص كورتاثار بلحيته الجديدة ذات اللون الأحمر المتدرج رقصاً حيوياً مع أوغني. كما رقص فارغاس يوسا أمام الضيوف الذين أحاطوه حلقة رقصة فالس من بيرو، ثم دخل الحلقة بعد ذلك غارسيا ماركيز، فحاز الاثنان على تصفيق منقطع النظير وطلب الضيوف منهما رقصة مدارية. في غضون ذلك، كانت وكيلتنا الأدبية كارمن بالسيلس تتكئ على وسائد منتفخة فوق أريكة وهي تلعق ضلوع اللحم وتحرك محتويات اليخنة اللذيذة، وتطعم بمساعدة فيرناندو تولا وخورخه هيرالدي وسيرجيو بيتول الأسماك العجيبة الجائعة التي زينت وهي داخل خوض الماء جدران الغرفة. بدا أن كارمن تمسك بكل الخيوط التي تدفع الجميع إلى الرقص كالدمى المتحركة، وكانت تتفحصنا: ربما بدهشة، وربما بجوع، وربما بمزيج من الاثنين، تماماً مثلما كانت تتفحص الأسماك وهي ترقص داخل أحواضها. ودار أكثر الحديث في تلك الأمسية عن تأسيس مجلة *الحر*(44).

بعد أن رجع كورتاثار وأوغني إلى باريس في أثناء عواصف ثلجية في أواخر شهر كانون الأول، هدأت الاحتفالات رويداً رويداً. كان غارسيا ماركيز وميرثيديس يروقهما دائماً أن ينظما حفلات رأس السنة أكثر من الميلاد. ولهذا، لقيت المجموعة الصغيرة المتبقية من ممثلي الانتعاش الترحيب في عام 1971. ولم يعرف

أحـــد مـــنهم إلا النـــــزر اليسير عن أن هذه هي المرة الأخيرة التي يحتفلون بها أو يناقـــشون نقاشـــاً أخوياً معاً أي موضوع. فمرحلة الانتعاش توشك أن تنفجر من الداخل.

-18-

الأديب المستوحد يكتب ببطء:
خريف *البطريرك* والعالم الأرحب
1975-1971

بحلـــول العام 1971، وبعد أن أمضى غارسيا ماركيز أكثر من ثلاث سنوات في برشلونة من دون أن يفرغ من تأليف كتابه، قرر أخيراً أن يستمتع بإجازة بعيداً عن ضغوط الكتابة، ومضى إلى أميركا اللاتينية لتمضية تسعة أشهر فيها بعد أن شعر بالحاجة إلى أن يحسن الاطلاع على عالمه من جديد. فآثر الذهاب إلى بارانكيا، لكنه كـــان قد أخبر ألفونسو فوينمايور في شهر آذار الماضي أنه ليس متأكداً إن كانت الأسرة ستدعه يرجع إلى تلك المدينة: "فالولدان يحنّان حنيناً جارفاً إلى المكسيك و لم أدرك إلاّ الآن أهمـــا عاشـــا هـــناك مدة طويلة تجعلها أشبه بماكوندو مما يدفعهما للتسكّع في أطراف العالم بقية حياهما. وكان المواطن العفن الوحيد في المنـــزل هو أنـــا، لكـــنني لا أعبأ كثيراً دائماً"[1]. لكنه أفلح، على كل حال، في إقناع أسرته المترددة بالبقاء بضعة أشهر في بارانكيا قبل زيارة المكسيك من جديد.

وصلت أسرة ماركيز بارتشا كولومبيا في أواسط شهر كانون الثاني. وفيما كان غارسيا ماركيز يغادر الطائرة في بارانكيا، ابتسم ابتسامة صغيرة ورفع إبهام يده مرتين إلى الأعلى تجاه أولئك الذين جاؤوا للترحيب به. ويظهر في الصور وقد ارتـــدى الثياب الكاريبية - قميصاً مكسيكياً وانتعل حذاءً لا كعب له من الجلد وبـــلا جـــوربين - وبدا مثقلاً بالهموم والمتاعب، ممتلئ الجسم بفعل قلة النشاط والكربوهيدرات الزائدة في برشلونة، طويل الشعر، يشبه الأفارقة وهو ما كان يميز

تلــك المــرحلة فضلاً عن أنه ازدهى بشاربه الذي أطلقه على طريقة ثاباتا. أما ميرثــيديس فكانت تتظاهر على ما يبدو من وراء نظارهّا الداكنة بأها في مكان آخــر، غير أن الولدين اللذين نادراً ما عرفا البلاد، فقد كانت الحماسة والجرأة باديــتين عليهما[2]. وخرجت الإذاعة والصحافة المحلية بناءً على تعليمات سارية، وهتف سائقو سيارات الأجرة عن بعد مسافة بأهم سيقلون غابيتو إلى ماكوندو لقاء ثلاثين بيزوس لا غير إكراماً للعهود الماضية. وفكّر غارسيا ماركيز الذي أعلن قبيل مغادرته برشلونة من أول وهلة وعلى نحو فظ أنه ذاهب إلى وطنه، "للتخلص مــن الــسموم"[3] بأسلوب ايجابــي أكثر يشرح فيه زيارته، وابتكر واحدة من عــباراته المحددة عندما قال إنه اقتفى أثر أنفه إلى الكاريبــي بعد أن شمَّ "رائحة الغوافة"[4].

اتجهت الأسرة إلى منــزل ألفارو وتيتا سيبيدا حيث كانا يقطنان يومذاك في منــــزل رائــع أبيض اللون بين مركز المدينة ومنطقة برادو، بالرغم من أن سيبيدا نفسه كان في مدينة نيويورك لإجراء فحوصات طبية. وتقرر أن تظل أُسرة غارسيا بارتشا في منــزل تيتا إلى أن تعثر على بيت أو شقة مناسبة. وسُمح للصحافي خوان غوسان بالحضور في أثناء تناول أول دفعة من الشراب وأصغى إلى الحديث. أوضح غارسيا ماركيز، كأنه يأتمنهم على سر، السبب الذي دفعه لهذه العودة السخية، إذ كــان طوال حياته يرغب في أن يصبح أديباً ذا شهرة عالمية، وأنه تحمل سنوات من البؤس في العمل صحافياً يكتب التحقيقات الصحافية كي يغدو أديباً. والآن، وبعد أن أمسى مؤلفاً يكرس وقته كله للتأليف، فإنه يتمنى أن يكون صحافياً مرة أخرى، باحثاً عن الأخبار، وبهذا، فإن حياته دارت دورهّا الكاملة: "طالما أردت أن أُصبح الشخص الذي لم أعده"[5].

بعد مرور بضعة أسابيع لحق صحافي مكسيكي يدعى غييرمو أوتشوا غارسيا ماركيــز إلى الشاطئ في كارثاخينا حيث كان هو وميرثيديس والصّبيّانِ مسترخين تحــت شجرة جوز هند في أثناء زيارته والديه. ركز الصحافي في مقالته الأولى على لويــسا ســانتياغا وساعد على تدشين أسطورهّا. وكي تحتفي بعودة أكبر أبنائها، عمدت إلى تسمين ديك رومي بكل حب:

قالت لنا: *لكنني اكتشفت أنني لا أستطيع ذبحه*. ثم أضافت بتلك الرقة الثابتة التي تميز أورسولا إغواران البطلة التي ألهمتها في رواية مئة عام من العزلة: *لقد أصبحت مغرمة به*. كان الديك الرومي لا يزال حياً وفي حالة جيدة، واضطر غابيتو لدى عودته، إلى الاكتفاء بحساء الحيوانات البحرية الذي يتناوله كل يوم منذ عودته إلى المدينة. هكذا هي لويسا ماركيز دي غارسيا. إنها امرأة لم تمشط شعرها ليلاً: *لو أنني مشطت شعري فسيتأخر البحارة*. وعندما سألناها عن أكثر شيء يمكن أن يرضيها في حياتها ردَّت على الفور: *أن تكون لها ابنة تصبح راهبة*[6].

كان المنزل الذي استأجره غابيتو وميرثيديس يقع في ضواحي مدينة بارانكيا في ذلك الوقت. كانت المنطقة مثيرة جداً لغونثالو ويحتفظ بذكريات حلوة عن تلك التجربة. وبالرغم من أن والد الصبيين رتب الأمور من قبل لإلحاق ولديه بالمدرسة، فإن الولدين يتذكران بصورة رئيسة حادثة طريفة تتلخص بدخول أفاعٍ كبيرة إلى البيت، فما كان منهم إلاّ أن فتشوا جميعاً عن تلك الزواحف لإبعادها عن بيوضها. ولكن، بالرغم من التحمس للعودة إلى المنطقة المدارية والعيش وسط أسرتين كبيرتين جداً في كارثاخينا وآرخونا وشبكة من أصدقاء جدد في بارانكيا، إلاّ أن الولدين كانا يدركان إدراكاً تاماً أنهما ينحدران من مدينة مكسيكو. "حقاً كنت أنا ورودريغو متحضرين، ولم نكن نملك أي تجربة عن العالم الريفي، في حين أن والدينا كانا ريفيين وقبل ذلك ينحدران من منطقة مدارية. وقلّما أستطيع أن أتعرف إليهما عندما أشاهدهما في كارثاخينا أو في هافانا. ويبدوان متوترين نسبياً في أي مكان آخر"[7].

سافر غارسيا ماركيز وميرثيديس وحدهما إلى كاراكاس في الأسبوع الأول من شهر نيسان، إذ كان مهتماً بإعادة شحن بطارياته الكاريبية كي يولد كتابه الجديد حياً، لكنها كانت، من ناحية أخرى، رحلة رمزية بالمعنى الحقيقي، وعودة إلى المكان الذي عاشا فيه معاً أول مرة. ثم قاما بجولة حول الكاريبي. وكانت تلك الرحلة بداية عهد يترك فيه الأبوان ولديهما وراءهما ويسافران في أرجاء العالم استجابة لالتزامات شهرة غارسيا ماركيز المتزايدة وإغواءاتها.

وفي حين كان غارسيا ماركيز يبحر حول الكاريبي في شهر عسله الثاني، فإنه كان منشغل البال بمشكلة حدثت تواً في أكبر جزر الكاريبي، وهي مشكلة

ستجعل من هذه الرحلة آخر لحظة غير معقدة نسبياً في حياته السياسية. ففي العشرين من شهر آذار، اعتقلت الحكومة الكوبية هيربيرتو باديًا[8] الشاعر الذي أحدثت قصائده عاصفة من الجدل في الجزيرة من حين إلى آخر في صيف العام 1968، وأدت إلى مواجهة غاضبة بين غارسيا ماركيز وخوان مارسيه في برشلونة. فقد اتُّهِم الشاعر الكوبي الآن بنشاطات تخريبية مرتبطة بالسي آي أيه. وفي الخامس من نيسان وقّع باديًا في أثناء وجوده وهو في السجن على بيان طويل - يفتقر إلى الأمانة كما يبدو - وجَّه فيه نقداً ذاتياً إلى نفسه.

بالرغم من أن عدداً كبيراً من الأدباء عاشوا في برشلونة، إلا أن باريس كانت لا تزال - من أوجه متعددة - عاصمة أميركا اللاتينية سياسياً. ففي التاسع من نيسان نظّمت مجموعة من الكتاب المقيمين في أوروبا رسالة احتجاج موجهة إلى فيدل كاسترو، نشرها أول الأمر صحيفة اللوموند في باريس، قالوا فيها إنهم بالرغم من مساندهم "مبادئ" الثورة، إلا أنهم لا يمكنهم القبول باضطهاد الأدباء والمثقفين على الطريقة "الستالينية". وتضمنت الرسالة لائحة بأسماء عدد كبير من الأدباء منهم جون بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، وخوان غويتيسولو، وماريو فارغاس يوسا (المحرض الرئيس للاحتجاج) وخوليو كورتاثار، وبلينيو أبوليو ميندوثا (اللذان أصدرا لاحقاً مجلة *الحر* مع غويتيسولو) و... غابرييل غارسيا ماركيز[9].

الحق أن غارسيا ماركيز لم يوقّع على الرسالة، فقد افترض بلينيو ميندوثا أن غارسيا ماركيز سيؤيد الاحتجاج، فوقّع بالإنابة عنه، أما غارسيا ماركيز، فقد طالب بشطب اسمه من اللائحة، لكن سبق السيف العذل وتضررت علاقته بكوبا ضرراً بالغاً، وأعقبتها صعوبات لا تنتهي مع جميع أصدقائه الذين التزموا بتواقيعهم: وكانت تلك هي أسوأ النتائج، وأهم أزمة بلا أدنى ريب في السياسة الأدبية في أميركا اللاتينية في القرن العشرين أدت إلى انقسام بين المثقفين الأميركيين اللاتينين والأوروبيين على مدى عقود تالية من الزمن. إن الأدباء والمثقفين لا خيار أمامهم سوى اتخاذ المواقف في هذا الصراع الثقافي الشبيه بالحرب الأهلية. ولم تعد الأمور كما كانت عليه في سابق عهدها، وليس أقلها العلاقة بين غارسيا ماركيز وفارغاس يوسا التي ستثبت الأيام اللاحقة أنها كانت أفدح الخسائر وأشدها ضجيجاً في هذه

الدراما السياسية. كما أنها الأكثر مفارقة لأن سيكس بارال كانت تستعد في تلك اللحظة لطبع كتاب فارغاس يوسا بعنوان **غارسيا ماركيز: قصة قاتل إله**، الذي سيصدر في كانون الأول سنة 1971 بعد أن بدأت علاقتهما المشهورة تهدأ رويداً رويداً على وجه التأكيد. ولم يسمح فارغاس يوسا بإصدار طبعة ثانية من الكتاب على مدى السنوات الخمس والثلاثين التالية[10].

وفي حين بدت ردود أفعال كاسترو عنيفة ومتحدية، فإن غارسيا ماركيز، الذي يتذكره أصدقاؤه أنه في تلك الآونة كان مشوش الفكر، أفلح في إدارة رد فعل الجمهور بأكبر درجة من البرود والاختبار وذلك في "مقابلة" متقنة الإخراج مع الصحافي خوليو روكا المقيم في بارانكيا. واعترف أن النقد الذاتي الذي وجهه باديّا إلى نفسه لا يبدو نقداً جديراً بالمصداقية، وكما اعترف بأن تلك الحادثة أدت إلى إلحاق الضرر بصورة الثورة، لكنه من جهة أخرى أصرَّ على أنه لم يوقع الرسالة الأولى وزعم أن نص فيدل كاسترو لم يورَّد على نحو صحيح وكامل عن سوء قصد، وأعلن عن تأييده المتواصل للنظام الكوبي، مؤكداً، وبحركة متميزة، أن فيدل كاسترو نفسه سيكون أول من يعلن عن وجود عناصر ستالينية في كوبا إذا كان وجودها حقيقياً، وأنه سيبدأ باقتلاعها من جذورها تماماً مثلما اقتلعها قبل عقد من الزمان عام 1961[11].

بالرغم من فطنة رد فعل غارسيا ماركيز، فإن محاولته في أن يبدو حكيماً وأن يرضي جميع الأطراف أخفقت في إرضاء أي فرد. وفي العاشر من حزيران طالبته الصحافة الكولومبية أن "يحدد موقفه علناً بخصوص القضية الكوبية". وفي اليوم التالي، وكان لا يزال يراوغ ويتذبذب وإن أقلّ من السابق، أعلن: "إنني شيوعي لم يجد بعد مكاناً يجلس فيه". كان معظم أصدقائه وزملائه يحبذون المدخل التشيلي إلى الاشتراكية. أما غارسيا ماركيز فلم يحبذ ذلك منذ البداية. ويقول خوان غويتيسولو بعد ذلك موضحاً تصرفه بامتعاض واضح: "إن غابو الذي اشتهر بمهارته البارعة في التخلص بالحيلة والدهاء من الزوايا الصعبة، عرف كيف ينأى بنفسه عن موقف أصدقائه الحرج ويتفادى في الوقت نفسه المواجهة معهم. في هذا الوقت يوشك أن يولد غارسيا ماركيز الجديد، الاستراتيجي المتألق ذو الموهبة الهائلة، ضحية الشهرة،

المتفاني لكل ما هو طيب ورائع في هذا العالم، والداعي على مستوى الكوكب كله للقضايا الحقيقية أو التقدمية[12].

مرَّ غارسيا بعذاب شديد جراء القلق والحيرة لأنه وافق قبل اندلاع أزمة باديًا علـــى دعوة من جامعة كولومبيا في نيويورك لمنحه شهادة دكتوراه فخرية في مطلع شهر حزيران. وكان توقيت الدعوة الأشد شؤماً، إذ كان يعرف أكثر مما ينبغي أن الشيوعي المشهور بابلو نيرودا وكارلوس فوينتس المؤيد لكوبا منذ البداية، عزلتهما الـــثورة في العـــام 1966 بسبب زيارتهما نيويورك. وها هو الآن، بعد أن نظر إليه الجميع كأنه جرذ ترك السفينة الغارقة على ما يبدو في وقت غزو خليج الخنازير عام 1961، يقبل تكريم جامعة نيويورك الأولى، وهو تكريم تنظر إليه العيون الكوبية على أنـــه محاولـــة مـــن الجامعة "لرد عافيته" (بلغة تلك الحقبة) خدمة لمصالح الولايات المتحدة[13].

كـــان خطـــه الرسمـــي في آخـــر الأمر يتمثل بأنه يقبل التكريم "بالإنابة عن كولومبـــيا"، وأن كل فرد في أميركا اللاتينية يعرف أنه مناهض للنظام الحاكم في الـــولايات المتحدة الأميركية شأنها شأن جامعة كولومبيا نفسها، وأنه سمع مشورة ســـواق سيارات الأجرة في بارانكيا - الذين يمثلون على حدّ قوله، أبطال الفطرة الـــسليمة - كي يتخذ قراره[14]. ومع هذا، فإذا كانت علاقته المستقبلية بالولايات المـــتحدة - التي ينتقدها بنفسه في حين يرحب الأميركيون به - قد أصبحت قائمة مـــنذ الآن وأدت إلى إحساسه بالارتياح. فإن عاد ليواجه مشكلته مع كوبا، فعلى مـــدى الـــسنتين المقبلتين، وبالرغم من بيانه الذي أكد فيه للعالم أنه لم يوقع على الرسالة الأولى، لم تعد له أي صلة مهما كان نوعها بالجزيرة الثورية.

غـــير أن الحـــظ سيحالف غارسيا ماركيز مرة أخرى. فإذا كانت كوبا قد أغلقـــت أبوابها في وجهه في تلك الآونة، فإن قضية أخرى مثيرة للجدل توشك أن تنفجر، فتظهر من جديد. على المقياس السياسي، فإن غارسيا ماركيز لا يزال لديه جمهور واسع من القراء في كل مكان تقريباً باستثناء كوبا وكولومبيا. فبعد أسابيع قلـــيلة، لا نعرف ما إذا كان الأمر محض صدفة أم لا، وضع صحافي إسباني يدعى رامـــون تـــشاو لاقطة صوت أمام ميغيل آنخل إستورياس الفائز بجائزة نوبل للأدب

لـسنة 1967 وسأله عن رأيه في الاتهامات التي مفادها أن مؤلف رواية **مئة عام من العـزلة** قد سرق رواية **البحث عن المطلق** لبلزاك، فما كان من إستورياس إلاّ أن يـتوقف هنيهة ليقول إنه يعتقد أن هناك قدراً من الصحة في الاتهام. فما كان من تشاو إلاّ أن نشر سبقه الصحافي في مجلة مدريد الأسبوعية ترينوفو، وأعادت نشره اللوموند الباريسية في التاسع عشر من شهر حزيران[15].

في تشرين الأول عام 1967 أصبح إستورياس ثاني أميركي لاتيني وأول روائي في القارة يفوز بجائزة نوبل، لكن الانتقادات الحادة وجهت إليه في السنوات الأخيرة لقبوله منصب السفير في باريس وهو منصب سياسي مثير للجدل. كان يوشك أن يكتـشف أن "غابـرييل غارسيا ماركيز" وليس "ميغيل آنخل إستورياس" هو الآن عـنوان الأدب الأميركـي اللاتيني. حقاً إن غارسيا ماركيز كان يستفز منذ سنتين إسـتورياس بالـرغم من ملاحظات الأديب الأكبر سناً الكريمة على منجز المؤلف الأصغر سناً وأعماله. فقد أقسم غارسيا ماركيز في مطلع عام 1968 إنه بكتابه عن البطريـرك الـسياسي الأميركي اللاتيني "سيلقن" مؤلف رواية **الرئيس**، وهي أهم مؤلفات إستورياس، "كيف يكتب رواية حقيقية عن دكتاتور"[16].

يـبدو من الممكن أن موقف غارسيا ماركيز من إستورياس كانت تنظمه من جهة ما حقيقة أن إستورياس فاز بجائزة نوبل، وهو تكريم كان غارسيا ماركيز يريد أن يكـون أول روائي أميركي لاتيني يفوز به، ومن جهة أخرى، هي أن إستورياس كـان المبـشر الأميركي اللاتيني الأول لا بالواقعية السحرية (التي عُدَّت في ما بعد رواية **مئة عام من العزلة** ركنها الأساس) وحسب، بل أيضاً برواية **الدكتاتور**، من خـلال روايته **الرئيس** (التي كان يراد من رواية **خريف البطريرك** أن تكون تفسيراً محدداً لهذا النمط الروائي). لقد جعل إستورياس من نفسه هدفاً كبيراً وسهلاً بسبب ضـعف مـوقفه من تبوُّؤ مسؤولية السفير، ولأنه لم يكن قط أكثر المجادلين تماسكاً وسـلامة من الناحية الفعلية، فضلاً عن أنه بات الآن، رجلاً مسناً ومريضاً. وكان قبول تحديه يشبه إطلاق النار على فيل من مسافة آمنة. لقد كان قرار إستورياس في أواخـر الأربعينيات وفي الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ليكون زميلاً أدبياً مسافراً إلى الشيوعية العالمية، داعماً بذلك حركة التاريخ على وجه العموم من

دون أن يقـيد نفـسه بتفاصيل، نموذجاً لما كان يسعى غارسيا ماركيز تماماً لفعله، وعلـى غرار علاقات إستورياس برئيس جمهورية غواتيمالا الماركسي، فإن غارسيا ماركيـز سيصادق عمّا قريب فيدل كاسترو، أكثر الثوريين الشيوعيين جاذبية في عموم أميركا اللاتينية.

لم يعـرف غارسـيا ماركيز بعد أنه طرد مرة أخرى من الموطن الكوبـي الـسياسي الأُسـطوري، فحاول نيل استحسان الجمهور اليساري. فهو لم يتسبب مباشـرة في صـعوبات إسـتورياس، لكـنه ساعد على التحريض عليها، فسقط إسـتورياس في الكمـين؛ فخ فيل إن جاز التعبير. ثم يطرح السؤال عمّا إذا كان غارسيا ماركيز ينصب سلسلة من الفخاخ النفسانية في طريق ماريو فارغاس يوسا الـذي يـشكل الغريم الخطير الوحيد من بين مجايليه، وهي الفخاخ التي ستتسبب بمـواجهة أشـد عنفاً على امتداد السنوات المقبلة. لكن النسخة الأخيرة من رواية **خـريف البطريرك** لم تكن من بعض الأوجه تكفيراً عن هذه الآثام، وهي الرواية النقدية الذاتية التي تحكي قصة رجل لا يستطيع أن يتسامح مع تنافس أولئك القريبين منه.

غـادرت أسرة غارسيا بارتشا مطار سوليداد في بارانكيا في التاسع من تموز، وهي في طريقها إلى المكسيك بعد أن أمضت أقل من ستة أشهر في كولومبيا. وصل غارسـيا ماركيـز العاصمة المكسيكية في الحادي عشر من تموز متذمراً من أنه لم يـشاهد أي فتيات خلال توقفه في فلوريدا لأن "السلطة التنفيذية" كانت ترافقه، وتلك مزحة جعلت ميرثيديس تدرك بمرور السنين أنها سمجة. أمضى يومه الأول في المدينة يحيط به الصحافيون والمصورون المنتدبون من صحيفة إكسيلسيور، وأخبرهم أن هـذه هي المدينة التي يعرفها أفضل من غيرها من مدن العالم، وهو يشعر بأنه لم يـرحل عنها قط. راقبه الصحافيون وهو يأكل التاكو ويبدل العملة ويطلق النكات ("إنـي إنـسان جاد في أعماقي وليس في مظهري"). وقال رودريغو إنه يفضل أن يكـون لاعـب كرة بيسبول أو ميكانيكيّاً على أن يكون تلميذاً. فيرد عليه والده المفـرط في التـسامح والتدلـيل: "في وسـعك أن تكون ما تشاء". ثم زار برفقة الـصحافيين كارلوس فوينتس وزوجته الممثلة ريتا ماثيدو – وكانت مرتدية بنطالاً

من الجلد الأسود – في بيتهما في سان آنخل. وما إن وصلت سيارة غارسيا ماركيز حتى هتف فوينتس: "أيها السارق! أيها السارق!"[17]. وفي تلك الأمسية، أقام فوينتس واحدة من حفلاته المشهورة وحضرها عدد من المثقفين والفنانين التقدميين المكسيكيين المعروفين.

أضحى غارسيا ماركيز إنساناً صعباً الآن في المكسيك ولسيظل هكذا طوال البقية الباقية من حياته: ابناً أجنبياً متفانياً ومكسيكياً مكرّماً. ولن ينسى المكسيكيون أبداً أن رواية **مئة عام من العزلة** كتبها غارسيا ماركيز في عاصمتهم وليس في باريس أو لندن. وكانت وسيلة من الوسائل لإبعاد الذكريات المؤلمة عن مذبحة تلاتيلولكو التي حدثت في العام 1968، وبتغطية إعلامية جيدة، حتى إن غارسيا ماركيز سخر من وجوده لذلك الهدف. وفي الحادي والعشرين من شهر آب، ذهب لزيارة رئيس الجمهورية لويس إيتشيفيريا، الذي كان يتقلد منصب وزير الداخلية إبان المذبحة، وذلك في المقر الرئاسي في لوس بينوس حيث تجاذبا أطراف الحديث، كما يزعم غارسيا ماركيز، بخصوص "الكتابة والتحرير"[18]. ولم ينتقد غارسيا ماركيز علانية قط إيتشيفيريا ولا رئيس الجمهورية السابق دياث أورداث بسبب أحداث عام 1968، مثلما لن ينتقد ابداً فيدل كاسترو بشأن أي قضية مثيرة للجدل في كوبا. لقد كانت كوبا والمكسيك في صراع دبلوماسي شائك ضد الولايات المتحدة، وضد إحداهما الأخرى بدرجة أقل. لقد اضطر المكسيكيون إلى التعاون مع جهود الولايات المتحدة المناهضة للشيوعية، إلا أنهم أصروا على الاحتفاظ بعلاقاتهم الدبلوماسية مع كوبا حتى أواخر القرن العشرين. وقد وجّه كاسترو وغارسيا ماركيز الشكر إليهم لصمودهم.

في أواخر شهر أيلول، عادت الأسرة جواً إلى برشلونة بعد أن غادرت مدينة مكسيكو، وتوقفت في كل من نيويورك ولندن وباريس، عاد غارسيا ماركيز الآن إلى عمله، وكانت قد مضت أكثر من أربع سنوات على نشر أحدث كتبه، وكان تواقاً إلى التقليل من الضغط عليه. وفي المدة الممتدة من أواخر عام 1967، وبالرغم من كون رواية **خريف البطريرك** كانت مشروعه الرئيس بلا ريب، فقد انطلق لكتابة أول قصصه القصيرة منذ سنوات وأضاف إلى القصص الجديدة – التي كانت

تشتمل على قصة رجل عجوز جداً بجناحين هائلين - قصة **بحر الزمان الميت**[*] التي ترجع إلى عام 1961[19]. ولقصة **أرينديرا البريئة** تاريخ طويل تعود بمعنىً ما إلى عالم جدّيه الخرافي في صحارى غواخيرا، بيد أن المرجع المباشر لها مستمد من حكاية من الحـــياة الحقيقية أسهمت بإلهام جزء بسيط من رواية **مئة عام من العزلة**، وهي عن بغيّ اضطرت إلى معاشرة مئات الرجال كل يوم.

واقتبـــست القصة بعد إكمال كتابتها لتكون نصاً سينمائياً قبل أن تتحول إلى قـــصة طويلة قصيرة وتُنشر في شكلها الأخير في مجلة سييمبرا المكسيكية في تشرين الـــثاني سنة 1970[20]. ولما كانت بدايات القصص مكتوبة من قبل - بل منذ زمن بعـــيد في بعـــض الحالات - فقد تمكن غارسيا ماركيز من "إحماء ذراعه" استعداداً للعودة إلى روايته التي لم تكتمل.

ليست قصص مجموعة **أريناديرا البريئة** بالقصص التي يتوقعها المرء من كاتب عـــاد إلى الكاريبـــي ليجرب أن يشم ثانية "رائحة الغوافة". صحيح أنها تبدو من الوهلة الأولى بدائية وفطرية وسحرية (بحر وسماء وصحراء وحدود) أكثر من قصص مجمـــوعة **جـــنازة الأم الكـــبيرة**، وإن على نحو تصويري و"أدبـــي" كأن العنصر الفانـــتازي الذي استملت عليه القصص المبكرة طُبِّق على سيناريو جغرافي واضح المعـــالم؛ كـــأن ماكـــندو و"بيبلبو" حقيقيان، على حين أن غواخيرا (التي لم يسبق لغارســـيا ماركيز أن شاهدها) هي ملكوت السحر والخرافة (وما بوغوتا والأراضي المرتفعة المحيطة بها إلا مناطق تسكنها الأشباح وتكتنفها الظلال والأخطار). إن تلك القصص - التي ينقسم بشأنها النقاد - تذكرنا، ويا للمفارقة، بالقصص المترعة جداً لـــسلف غارسيا ماركيز الواقعي السحري ميغيل آنخل إستورياس، ومنها على سبيل المثال قصة **مرآة ليدا سال**[21].

هنا بدأ الآن غارسيا ماركيز يكتب للمرة الأولى رواية **خريف البطريرك** موقناً الـــيقين كله أنه سيفرغ منها، إذ لم تعد هناك أي أعذار، فقد استمتع بالراحة، ولم يعد هناك أي ملجأ يلجأ إليه حتى في ذهنه. في غضون ذلك، صدر العدد الأول من مجلة *الحر* في باريس، بعد مرور سنة كاملة على الحفلة التي أقامها كورتاثار جنوبـــي فرنسا حيث جرى التباحث بشأنها للمرة الأولى، وبعد مرور أقل من ستة أشهر على

قـــضية باديًّا. مما لا شك فيه أن المجلة تعرضت إلى التمحيص تمحيصاً دقيقاً في كوبا بعد أن أجرى رئيس تحريرها بلينيو ميندوثا مقابلة مع غارسيا ماركيز في إسبانيا أيام حكم فرانكو كي تنشر في العدد الثالث منها.

في شهر تشرين الأول، تلقى اليسار التقليدي - ومعه حكومة الوحدة الشعبية بزعامة سلفادور آليندي في تشيلي - دعماً قوياً عندما أُعلن عن فوز سفير آليندي في بـــاريس بابلـــو نـــيرودا بجائزة نوبل لسنة 1971. وقد سُئل نيرودا الذي وصفه الـــصحافيون علـــى أنه بدا مريضاً، معتل الصحة، إن كان في وسعه أن يرشح أي أديـــب أميركي لاتيني للجائزة، فقال إنه فكّر أول الأمر في غارسيا ماركيز "مؤلف واحدة من أعظم الروايات المكتوبة باللغة الإسبانية"[22]. وقبل الإعلان الرسمي عن الجائـــزة، فـــإن نيرودا اتصل بغارسيا ماركيز ودعاه وميرثيديس للسفر إلى باريس لتناول طعام العشاء في مساء اليوم التالي. غير أن غارسيا ماركيز قال على الفور إن من المستحيل الوصول إلى باريس ضمن هذا الوقت القصير في ضوء خوفه من السفر جـــواً. غـــير أن نـــيرودا لجأ إلى استخدام أساليبه المشهورة وبدا كأنه يوشك على الـــبكاء، فما كان من الزوجين الكولومبيين إلاّ أن شعرا أنهما مضطران إلى السفر. وعـــند وصولهما إلى باريس، انتشر الخبر وتناولا طعام العشاء في منـــزل نيرودا مع رسام الجداريات المكسيكي ديفيد ألفارز سيكييروس (الذي حامت الشكوك حوله على أنه هو الذي اغتال تروتسكي، وإن كان قد قام بمحاولة واحدة من هذا القبيل في أقـــل تقدير) والرسام التشيلي روبيرتو ماتا، وخورخه إدواردز الذي طُرد مؤخراً من كوبا، والمثقف الفرنسي ريجيس دوبريه الذي عاد إلى باريس إثر إطلاق سراحه من السجن في بوليفيا وتمضية مدة لاحقة من الزمن اقترن اسمه فيها بنظام آليندي في تـــشيلي، والمـــصور الكبير هنري كارتييه - بريسون - وكانت حفلة عشاء تلقي بظلال التحدي السياسي، إن كان هناك أي تحدٍّ من هذا النوع.

صـــدر عن دار نشر بارال في برشلونة في كانون الأول كتاب فارغاس يوسا الموســـوم **غارسيا ماركيز: تاريخ قاتل إله**. يشترك الكاتبان اللذان يصفهما أصدقاء تلك الحقبة بأنهما "أخوان تقريباً" بأشياء أكثر مما يوحي الانطباع بها. فقد مرّ الاثنان بنمط من أنماط الحياة الأسرية الرومانسية إبان طفولتيهما. وكان لكليهما مشكلات

مع أبوين لم يعرفا عنهما شيئاً إلا بعد مدة متأخرة من الزمن (فقد ظن فارغاس يوسا أن والده متوفٍ إلى أن بلغ سن العاشرة)، وكان هذان الأبوان يهاجمان سلوكيهما ويلقيان بظلال الشك على مهنة الأدب التي امتهنها كل واحد منهما. كان الولدان متسامحين، يقرأان الكتب، نشأ كل منهما في بيت جدَّيه لأمه في السنوات الأولى الحاسمة من حياتيهما. ويترك الاثنان الدعة والأمان في بيتيهما الأولين ليعيشا تحت نظام مدرسة داخلية يتصف بصرامة تبعث على الاغتراب، وعرفا منذ صغرهما الدعارة وغيرها من تجارب الحياة الواطئة. واشتغل الاثنان في الصحافة وهما في سن نضوج مبكر، وسافرا إلى باريس، ونزلا في آخر الأمر في الفندق نفسه، وإن في أوقات متباينة. كان الاثنان صديقين عظيمين لأصدقائهما، وعندما التقيا كانا من أكبر المؤيدين للثورة الكوبية، بالرغم من أن غارسيا ماركيز، وهو الأكبر سناً، عاش لحظات صعبة كثيرة مع العملية الكوبية، على حين كانت أشد الصعوبات لا تزال تنتظر فارغاس يوسا في طريقه. وبالرغم من أنه لم يقرأ كتاب ماريو الذي كتبه عنه، لأن "الشخص الذي يظهر لي كل أسرار آليات عملي ومصادره والسبب الذي يدفعني للكتابة، سيصيبني بالشلل. ألا تفهم ذلك؟"[23].

التقى غارسيا ماركيز وفارغاس يوسا أول مرة في مناسبة منح جائزة رومولو غاليغوس عام 1967 للأديب القادم من بيرو. واليوم، يصبح غارسيا ماركيز في العام 1972 الفائز الثاني بالجائزة، وقد أكد رد فعله على البون الشاسع بينهما في هذه الصداقة العجيبة: ففي حين رفض فارغاس يوسا التبرع بالجائزة للقضايا التي تدعمها الثورة الكوبية، فإن غارسيا ماركيز قرر أن يمنح قيمة الجائزة لحزب فنزويلي منشق عن الحركة باتجاه الاشتراكية التي يقودها صديقه الشيوعي السابق تيودورو بيتكوف. وكان غارسيا ماركيز قد أقنع نفسه، شأنه شأن بيتكوف، أن الشيوعية السوفياتية لم تعد قوة ثورية حقيقية، ولم تعد مهتمة بمعالجة حاجات أميركا اللاتينية ومصالحها الحقيقية. وقد أخبرتني كارمن بالسيلس التي سافرت إلى كاراكاس برفقة غارسيا ماركيز قائلة: "كانت رحلة طويلة بالرغم من أننا كنا نسافر بالدرجة الأولى، نتناول الشراب طوال النهار، وأمضى غابو، الذي كان يعلم أنه سيتبرع بكل المال لحزب الحركة باتجاه الاشتراكية وبيتكوف، الوقت كله منشغل البال بأدق

التفاصيل عمّا سيقوله فارغاس يوسا. كان ذلك هو كل ما يستطيع التفكير فيه"[24].

صُدم الفنزويليون وهم يشاهدون رجلاً أطلق شعر رأسه على الطريقة الأفريقية، مرتدياً قميصاً مفتوح الياقة على طريقة أبناء هاواي، وبنطالاً رمادياً، وينتعل حذاءً أبيض بلا جوربين، وهو يتقدم صوب المنصة في مسرح تياترو باريس في كاراكاس لتسلُّم الجائزة. وتساءل السكان في جميع أنحاء القارة عمّا سيفعله غارسيا ماركيز بقيمة الجائزة النقدية بعد أن تذكروا أن فارغاس يوسا رفض التبرع بالجائزة للكفاح المسلح في أميركا اللاتينية. وعندما سُئل غارسيا ماركيز عن ذلك بعد الحفلة مباشرة، أعلن أنه ضاق من كونه فقيراً وأنه سيشتري "يختاً آخر" من أحد معارفه في كاراكاس أو من كارلوس بارال في برشلونة. وقد أضحى ذلك الجواب واحداً من أشهر نكاته[25]. لم تكن ميرثيديس قد سافرت جواً معه - وستصل بعده مع آل فيودتشي - لكن الذين شهدوا العرض أيضاً ولده رودريغو البالغ من العمر اثني عشر عاماً، وشخصان آخران يحملان اسمه نفسه تقريباً وهما والده غابرييل إليخيو وأصغر أشقائه إليخيو غابرييل الذي تزوج مؤخراً بفتاة كولومبية من ليانوس تدعى ميريام غراتوف. وكان غابيتو قد دعا الزوجين إلى كاراكاس لتمضية شهر العسل الذي يتزامن مع قبوله جائزة غاليغوس. أما والده غابرييل إليخيو، فقد دعا نفسه بنفسه وجاء مع الزوجين وزار معهما المناطق التي أمضى فيها غابيتو وميرثيديس شهر عسلهما قبل أربع عشرة سنة وأقاموا معاً في الفندق نفسه. وتتذكر ميريام: "أقام والد إليخيو في جناح منفصل من الفندق واحتج بشدة أمام الإدارة قائلاً: *كيف يمكنكم أن تتصرفوا هذا التصرف معي، إنه ولدي*. وعند السادسة من صباح اليوم التالي اتصل بنا وسأل: متى سننزل لتناول طعام الفطور؟"[26].

وعلى ما هو متوقع، فإن غابرييل إليخيو لم يعجبه تصرف ابنه وسلوكه على هذا المسرح الفسيح والمحترم، ولم يعرف إلا القليل عما سيحدث. وفي صباح اليوم التالي، تسلم غابو شيكه بمبلغ اثنين وعشرين ألفاً وسبعمئة وخمسين دولاراً وأخذ ابنه رودريغو وشقيقه إليخيو الذي رتّب أموره كي يكتب لصحيفة التيمبو سلسلة من التحقيقات الصحافية عن منح أهم جائزة أدبية في أميركا اللاتينية لأخيه الأكبر،

وصـــحب معه صحافياً أو صحافيين متميزين ومصوراً فوتوغرافياً وحقيبة كبيرة إلى أحـــد مـــصارف كاراكاس حيث استبدل الشيك بالنقود. ثم أخذ الحقيبة والنقود ومـــرافقيه إلى مقر الحركة باتجاه الاشتراكية وسلم النقود إلى زعيم الحزب تيودورو بيتكوف الذي كان "صديقه منذ سنين"[27]. وأوضح أن الحركة جديدة وشابة ومن الـــنوع الـــذي تحتاج إليه أميركا اللاتينية ولا ترتبط بالحركة الشيوعية بأي رابط، وليس لها أي خطط أو مذهب.

هبت عاصفة من النقد من كل مكان، قريب وبعيد، من دون أن تستثني أسرة غارســـيا ماركيز نفسه. فقد كانت الحركة باتجاه الاشتراكية تنظيماً صغيراً، لكن تأثيره كان كبيراً. وعدَّه معظم اليساريين "تحريفياً"، ووسمه اليمين بسمة "التخريب". وحتى عندما تبين في نهاية المطاف أن المال كان مخصصاً لمجلة الحركة السياسية وليس لحـــرب العصابات، فقد وصفته موسكو في أواخر شهر آب بأنه "رجعي"، وأخبر أبـــوه الصحافة في كاراكاس أن ابنه الأكبر كان "مخادعاً جداً وأنه لم يتغير مذ كان طفلاً، ويفبرك الحكايات دائماً"[28]. لا بد من أن غارسيا ماركيز اضطرب اضطراباً شديداً لدى عودته إلى أوروبا بسبب انتقاد بابلو نيرودا له والذي كانت أفكاره - بالرغم من عضويته التشيلية الطويلة في الحزب الشيوعي - تشابه إلى حدٍّ كبير أفكار غارســـيا ماركيز نفسه، وعندما التقى الاثنان بعد ذلك أخبره نيرودا أنه يستطيع أن يفهـــم تصرفه، لكن أي فائدة لمصلحة الحركة باتجاه الاشتراكية تفوقها وزناً وأهمية الانقسامات التي تسببها مثل هذه المبادرة ضمن الحركة الاشتراكية العالمية[29]. ولعل غارسيا ماركيز بدأ بعد هذا سياسته - التي أخذ يطبقها على كوبا منذ فترة - بعدم توجيه النقد علناً ضد الجماعات الاشتراكية من دون أن يستثني الأحزاب الشيوعية التي تتبع خط موسكو، لأن مثل هذا الانتقاد سيريح أعداءها[30].

وبعـــد أن رتـــب أموره، سافر جواً إلى نيويورك في أواسط شهر آب لزيارة صـــديقه ألفارو سيبيدا الذي كان يخضع لعلاج بسبب إصابته بمرض السرطان في مستشفى ميموريال. كان غارسيا ماركيز يصاب عادة بالذعر من المستشفيات ومن المـــوت، وقد أكدت زيارته إحساسه بافتقار المدينة الكبرى إلى اللمسة الإنسانية. وعندما رجع إلى برشلونة بعد أسبوع، أرسل رسالة إلى زوجة سيبيدا:

تيتا،

لم أتمكــــن من الاتصال هاتفياً بك. إضافة إلى ذلك، ليس لديّ ما أقوله: لقد كان الأستاذ حريصاً كلّ الحرص على أن يطمئنني، حتى إنه جعلني أعتقد أنه لـــيس مريـــضاً البـــتة وأنــــه وهب حياته للعناية بــــي. لقد وجدته شديد الشحوب، منهكاً تقريباً، لكنني سرعان ما أدركت أن سبب ذلك يرجع إلى الإشـــعاع، لأنه تماثل للشفاء كثيراً بعد أن استراح أسبوعاً، ولم نفعل خلاله شيئاً سوى الحديث وتناول الطعام. لقد ذعرت عندما وجدت أنه فقد صوته تماماً، لكنه أقنعني أن سبب ذلك هو الإشعاع أيضاً، واسترجع صوته حقاً بعد بضعة أيام إثر تناوله هلاماً يزيل الاحتقان، وهو ما قرأته في الوصفة الطبية. لم يكـــن بإمكاني التحدّث إلى الطبيب. لكنني كلّمت أطباء آخرين، أصدقائي، وكانوا متفقين على أن بعض أنواع الورم اللمفاوي أصبح الشفاء منها ممكناً منذ ست سنوات!...

عناق كبير من غابو

إلاّ أنه شعر بالإحباط مرة أخرى لتوقفه عن كتابة روايته **خريف البطريرك**، ولكـــنه شعر بالتردد أيضاً لعودته إليها. وعندما جاء إليه بلينيو ميندوثا في برشلونة، زاره ألـــيخاندرو أبريغون ليخبره أن الآمال تبخرت كلها وأن سيبيدا يحتضر. وبعد يـــوم عصيب، اشترى غارسيا ماركيز تذكرة طائرة. هنا يتذكر ميندوثا: "لكنه لم يـــسافر، إذ لم يستطع السفر. لقد خانته قواه، أو رفضت ركبتاه أن تأخذاه. فقد شـــعر غارسيا ماركيز وهو واقف أمام باب المنـــزل حاملاً حقيبته، وسيارة الأجرة تـــتقدم على امتداد الطريق، بما يشبه الدوار، وبدلاً من أن ينطلق إلى المطار، أغلق بـــاب الغـــرفة علــــى نفسه وأسدل الستائر واستلقى على السرير. أخبرتني بذلك ميرثـــيديس عـــندما كانت في المطبخ على مقربة من الغسالة التي كانت تئن وتتأوه كأنها بشر. وقالت لي: *لقد أجهش غابيتو بالبكاء*. تولتني الدهشة: غابو يبكي؟ غابو رهن غرفته؟ إنني لم أشاهد من قبل دمعة واحدة على وجهه العربـــي؛ وكما يقول أبناء بلدي، الله وحده يعلم ما مرَّ به في تلك الآونة"[(31)].

في الثاني عشر من تشرين الأول عام 1972، وهو يوم كولومبوس، توفي ألفارو ســـيبيدا في مديـــنة نيويورك. كان سيبيدا متقلباً صعب المراس في كل شيء تقريباً، وكان العضو الوحيد في جماعة بارانكيا الذي لم يغادر بارانكيا منذ زمن بعيد، على

شوقه الكبير لزيارة الولايات المتحدة الأميركية. (كان ألفونسو وخيرمان وألفارو قد ظهــــروا جميعاً في رواية **ليس للعقيد من يكاتبه**، ثم ظهروا من جديد في رواية **مئة عام من العزلة** التي تُوُقِّع فيها أن ألفارو سيكون أول الراحلين وسيلحق به خيرمان ثم ألفونسو).

أُعيد الجثمان بالطائرة إلى كولومبيا بعد مرور يومين، وسهر على التابوت كل من أبريغون وخوليو ماريو سانتو دومينغو حتى صباح اليوم الخامس عشر عندما جاء حشد كبير من المعزين ورافقوا سيارة نقل الموتى إلى حديقة المثوى[32]. وبعد مرور بـــضعة أســـابيع أرسل غارسيا ماركيز رسالة إلى ألفونسو فوينمايور يتأمل فيها في مـــوت ســـيبيدا: حسناً أيها الأستاذ. إنه لشيء مؤلم أن نضطر إلى التفوه به: لقد أصبحت كالبراز، في حالة بائسة من الذعر والعزيمة الواهنة، وللمرة الأولى في حياتي لا أستطيع أن أعثر على مخرج. إنني أقول لك هذا لأن قولي سيساعدك أنت أيضاً. غابيتو"[33].

وفي العام التالي، العام الذي توفي فيه نيرودا، يقول غارسيا ماركيز للصحافيين في بوغوتا: لقد صدمني موت صديقي العظيم ألفارو سيبيدا في العام الماضي صدمة كـــبيرة أدركت معها أنني لا أستطيع تحمل اختفاء أصدقائي، وفكّرت: تبّاً! إذا لم أواجـــه هـــذه الحقيقة، فإنني أنا الذي سأموت في يوم ما عندما أتلقى نبأ مثل هذا المـــوت"[34]. صحيح أن غارسيا ماركيز بذل جهداً هائلاً في ضوء شهرته المتزايدة وهـــو يـــرى صـــديقه الذي داهمه المرض، ولا بد من أن حزنه كان حقيقياً. لكن الـــصحيح أيـــضاً هو أنه كان يبتعد عن سيبيدا، وكل أعضاء جماعة بارانكيا، وقد أكـــدّت زيارته المدينة في العام 1971 هذا الابتعاد. لقد تعلم غارسيا ماركيز، الذي كـــان يداخله الشعور بالحنين الجارف منذ بواكير حياته كيف يكافح هذا أكثر من معظم الناس. وبوفاة سيبيدا يرسم غارسيا ماركيز خطاً فاصلاً تحت تجربة بارانكيا.

كـــان الخـــريف الذي حل بعد وفاة صديقه مكفهرّاً. ففي السابع من شهر تشرين الثاني أُذيع خبر مشؤوم مفاده أن ريتشارد نيكسون أُعيد انتخابه مرة أخرى رئيساً للولايات المتحدة،. في ذلك الشهر نفسه، عاد الرئيس السابق خوان بيرون، علـــى نحو مفعم بالحيوية والنشاط في بادئ الأمر وعلى نحو كارثي آخر الأمر، إلى

بوينس آيرس بعد سبعة عشر عاماً أمضاها خارج البلاد، واضطر سلفادور آليندي إلى تعـــديل حكومـــته، حكومة الوحدة الشعبية، ليضع حداً لموجة التظاهرات في تـــشيلي، على حين اضطر بابلو نيرودا إلى الاستقالة من منصب السفير في باريس بسبب إصابته بمرض السرطان. وكان غارسيا ماركيز حاضراً في باريس وهو يرى الشاعر الشيوعي القديم وهو يرحل نهائياً إلى أميركا الجنوبية. وكان ذلك آخر لقاء لهما.

* * *

استمر غارسيا ماركيز في تأليف روايته **خريف البطريرك** وهو في حالة قنوط، غير أن شعوراً غريباً بالنشاط قد عاوده. فقد جعله موت ألفارو سيبيدا يدرك أكثر مـــن أي وقت مضى أن الحياة قصيرة، ولعله أدرك أنه لا يريد أن يكون في أوروبا على حين تمر الأحداث في أميركا اللاتينية من أمامه. لقد كان كل شيء في إسبانيا في حالـــة من الشلل، على حين انتظرت البلاد أن يقضي الجنرال فرانكو نحبه. حقاً كـــان النظام على شفير الهاوية – فقد عين فرانكو في الثامن من حزيران الأدميرال لـــويس كاريرو بلانكو رئيساً بعد أن حكم وحده مدة أربعة وثلاثين سنة – إلاّ أن نهاية النظام كانت قد حانت منذ زمن بعيد، تماماً مثل موت *بطريرك* غارسيا ماركيز في الـــرواية الـــتي اقترب من إكمالها. وفي شهر أيار عام 1973 بدأ غارسيا ماركيز يقول لرجال الصحافة إن رواية **خريف البطريرك** اكتملت، ومع هذا، فإنه سيتركها في مكانهـــا ســـنة أو أكثـــر "كي أتأكد من أنها لا تزال تروقني"(35). يبدو أن هذا الأديب لا يهتم حقاً سواء أنشرت كتبه أم لم تُنشر، ولم يستجب على وجه التأكيد لـــضغوط الناشـــرين أو القـــراء، إذ كان من وراء ذلك المظهر السئم من المسرات الـــشعور القديم نفسه بالافتقار إلى الأمان من ناحية الرواية التي كان يشتغل عليها بقوة منذ عودته من بارانكيا والمكسيك في أواخر عام 1971.

ممـــا يدل على بصيرة غارسيا ماركيز النافذة، أن كتابه الأول الذي يلي رواية **مـــئة عام من العزلة** هو رواية لم تواجه مزالق الشهرة والسلطة حتى قبل أن تشتمل عليه وحسب، بل توقعت أيضاً، بذلك المعنى، الكهولة والشيخوخة المكتويتين حتى قبل بلوغه إياهما بزمن طويل. وبالرغم من ذلك، يستحيل الحديث عن رواية **خريف**

البطريرك بمصطلحات مبسطة، إذ ما من كتاب من كتب غارسيا ماركيز يبدأ بالاقتراب من صعوبته؛ ولعل أوضح دليل هو المقارنة بين الجمال الآسر لصور الكتاب الشعرية وبشاعة موضوعه[36]. إن الروايات التي أنتجت الشعور بانتعاش أميركا اللاتينية في ستينيات القرن العشرين - مثل عصر البطل وموت آرتيمو كروز والحجلة - كانت بصورة عامة أنماطاً محدثة عن الروايات الأوروبية والأميركية الحداثوية العظمى في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين؛ كروايات **يولسيس** أو **البحث عن الزمن المفقود** أو **ممر مانهاتن** أو **السيدة دالواي** أو **أبسالوم، أبسالوم!** لكن الرواية التي بلورت ورسّخت ذلك الانتعاش الأميركي اللاتيني وهي رواية **مئة عام من العزلة**، تبدو أقل تعقيداً وحداثة من بقية الروايات. ففي زمن لم يظهر فيه بعد على السطح مصطلح *ما بعد الحداثة*، فإن نقاداً من أمثال أمير رودريغيث مونيغال، تحدثوا عن المفارقة التاريخية الغريبة التي تنطوي عليها رواية غارسيا ماركيز، لأنها كانت رواية شفافة على ما يبدو، سهلة القراءة ويمكن أن يفهمها حتى الناس الذين يملكون ثقافة أدبية متواضعة[37]. وليتابع غارسيا ماركيز تلك الرواية، فإنه شعر بتحدٍّ لكتابة شيء ما على غرار رواية مرحلة الانتعاش النموذجية. وهذا هو السبب الذي يجعل من سمات جويس ووولف واضحة في رواية **خريف البطريرك** وضوحاً تاماً للقراء من ذوي الخبرة الذين كُتبت الرواية لأجلهم. وقد حدث هذا كله في اللحظة نفسها التي ابتعد فيها معظم الكتاب الذي حفزهم نجاح غارسيا ماركيز عن أساليب مرحلة الانتعاش المتميزة ليكتبوا أعمالاً "ما بعد حداثوية" أكثر شفافية بكثير من النمط الذي يفترض أن تمثله رواية **مئة عام من العزلة**.

لقد مرت الرواية الجديدة بمراحل عديدة، إنها قصة جندي أميركي لاتيني غير متعلم ينحدر من بلد بلا اسم، متعدد الأطياف، يستولي على السلطة بالرغم من ضآلة تجربته السياسية، ويخطط للحكم حكماً دكتاتورياً في بلد مداري على مدى قرنين من الزمن. ومن بين الطغاة الذين ينهل منهم غارسيا ماركيز لرسم لوحته المرعبة كل من خوان فيثنتي غوميث (في السلطة من 1908-1935) وماركوس بيريث خيمينيث (1952-1958) في فنزويلا، وبورفيرو دياث (1884-1911) في

المكسيك، ومانويل إيسترادا كاباريرا (1898-1920) في غواتيمالا، وأسرة سوموزا في نيكارغوا (أناستاسيو ولويس وأناستاسيو الأصغر (1936-1979) ورافائيل تروخيو في جمهورية الدومنيكان (1930- 1961). أما إسبانيا وفرانكو، فإن غارسيا ماركيز يؤكد أنهما وقفا في طريقه. وهو لا يزال حتى يومنا هذا لا يعرف إلاّ النزر اليسير عن فرانكو، لأن مثل هذا الشخص الأوروبي البارد المتقشف لا يفيده ولا يثير اهتمامه إلاّ قليلاً.

إن البطل المسخ في الرواية، الذي لا يعرفه القراء إلا على أنه *بطريرك* مستوحد وقوي وعاطفي مثلما هو وحشي أيضاً. بالرغم من أنه يبدو مفتقراً إلى الأحاسيس حدّ الغباء، إلاّ أن لديه دافعاً غريباً نحو السلطة وبصيرة فطريّة ينفذ بها إلى دوافع البشر الآخرين؛ وإن ظلت النساء بمن فيهن أمه الحبيبة، لغزاً له. يقول غارسيا ماركيز في مقابلات صحافية إنه أدرك أن العقيد أورليانو بوينديا كان من شأنه أن يتحول إلى مثل هذا الدكتاتور لو أنه ربح الحرب، بمعنى، لو أن تاريخ كولومبيا كان مختلفاً وانتصر الليبراليون بدلاً من المحافظين على امتداد القرن التاسع عشر[38]. وكي يحتفظ البطل بقوته الخرافية، فقد قرر غارسيا ماركيز أن يبقيه بلا اسم، ويشار إليه بلقب *البطريرك* وحسب (ويعرفه قادته على أنه الجنرال). ويوضح غارسيا ماركيز توضيحاً يثير الدهشة أنه رسم صورة متعاطفة نسبياً لأن "كل الدكتاتوريين بدءاً بكريون فصاعداً هم ضحايا". ويصر قائلاً إن الحقيقة التي يُؤسف لها، هي أن تاريخ أميركا اللاتينية لم يكن بالتاريخ الذي يتمناه الشعب: فمعظم الدكتاتوريين ينحدرون من طبقات شعبية ولم تُطح بهم الشعوب التي كانوا يضطهدونها. هذا لا يعني أن الخرافة انتصرت على التاريخ، بل إن التاريخ نفسه هو الذي يتحول إلى خرافة. ويصرح غارسيا ماركيز أن هدف الأدب الأساس يتمثل بالكشف عن هذا المسار، لكنه غير مستعد للخوض في أي تفاصيل أخرى. "إن مظهر الكتاب السياسي أكثر تعقيداً مما يبدو عليه، وأنا لست على استعداد لتوضيحه"[39].

لكن الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك، هو أن هذه الرواية الجديدة غيَّرت من مدخل غارسيا ماركيز وعمقته في معالجته معضلتي السلطة والحب - وهما الموضوعان الرئيسان - وما يكتنفهما من دوافع أخرى مثل الذاكرة والحنين والعزلة

والموت. إن السلطة والحب، حب السلطة، وسلطة الحب، موضوعان أساسيان من موضوعات التجربة الإنسانية ويكتسبان دافعاً قوياً على وجه الخصوص في تاريخ أميركا اللاتينية ومجتمعها وأدبها.

تدور أحداث الرواية في بلد كاريبي متخيل يبدو أن كولومبيا - أو بوغوتا على وجه الخصوص - جارته. من هنا يمكننا أن نفكّر في أنه إما أن يكون فنزويلا أو الساحل الكولومبي نفسه. بهذا المعنى، فإن هذه الدولة التي لا تحمل اسماً تشابه البلدان المتخيلة التي ابتكرها جوزيف كونراد في روايته **نوسترومو** (1904) أو الروائي الإسباني رامون ماريا دِل باي - إنكلان في روايته **تيرانو بانديراس** (1926). وتركز رامون صورة الدكتاتور الأميركي اللاتيني العنيف والفج وبخاصة على "خريفه"، أي السنوات الأخيرة من عمر نظامه.

يستهل الكتاب أحداثه في زمن تاريخي مستحيل يمتد على مدى مئتي سنة، ربما من أواخر القرن الثامن عشر وحتى ستينيات القرن العشرين[40]. وتسرد معظم أحداث الرواية عن طريق الذكريات وتتابع الحدود الفاصلة والعامة في تاريخ أميركا اللاتينية إلى أن يستولي الأجانب على البحر عند "فجر" **خريف البطريرك** ليعقب ذلك موته، وبالتالي نظامه (الشتاء والتحلل). يعيش البطل في عالم يناور فيه العسكر والكنيسة والأجانب باستمرار من أجل تبوُّؤ السلطة. أما "الشعب" فتراه سلبياً، والرواية ينعدم فيها التطور الديالكتيكي بسبب عدم وجود التاريخ، وعدم وجود أي مرور للوقت، ولا أي مشاركة أو تفاعل سياسي أو اجتماعي حقيقي. لكن، ربما كانت العلاقة بين الدكتاتور والشعب هي محور الرواية. ويمكن للمرء أن يقول إن غارسيا ماركيز يلمح تلميحاً مقصوداً إلى أن الرواية يتعين انتقالها من البطريرك إلى الشعب بأسطرها النهائية التي تبدو ذروة نشاطها - والمتمثلة بوضوح بذكرى سقوط بيريث خيمينيث في فنزويلا سنة 1958 - مقصودة حرفياً لا على سبيل المفارقة.

بعبارات أكثر خصوصية، فإن أقرب علاقة للبطريرك على وجه الأرض هي تلك التي تربطه بأمه بينديثيون ألفارادو. أما زوجته ليتشيا ناثارينو فكانت راهبة سابقاً، يخطفها وربما يقتلها، والحبيبة التي يلاحقها ولا يظفر بها أبداً هي ملكة

الجمـــال مانويلا سانتشيث، على حين أن علاقته الجنسية الوحيدة الناجحة تكمن، ويا للهول، مع تلميذة مدرسة في سن الثانية عشرة بعد أن يكون قد خَرِفَ. أما من الجانب الذكوري، فلديه وجهان، أو وجه علني: باتريثيو آراغونيس، وصديق طيب هـــو رودريغـــو دي أغيلار، ومن بعد ذلك عبقري شرير هو وزير الأمن الجذاب خوســـيه إغناثيو سانيث دي لابارا الشبيه بمستشاري الطغمة العسكرية الحاكمة في تشيلي والأرجنتين في سبعينيات القرن العشرين، وهو العقد الذي اكتملت فيه كتابة الـــرواية. وينـــسجم هـــيكل هذه العلاقات مع النموذج الكلاسيكي للأسطورة الغربية[41].

لكـــن ســـبق السيف العذل، لأن تجربة القارئ الشاملة تجربة يكتنفها الشك والاضطراب. ويقرر تتابع الرواة الذي يثير الارتياب مجمل وجهة نظر الرواية وبنائها وحتى تسلسل أحداثها، علماً أن هؤلاء الرواة غير متأكدين من أي شيء. في وسع المرء أن يقول إن المعضلة التي لا نهاية لها عما إذا كان الدكتاتور يسيطر أو لا يسيطر علـــى جميع سلطاته، وربما كان ذلك أكثر المظاهر تكراراً وإرباكاً في الرواية؛ وهو مظهـــر ازداد حجمه زيادة هائلة بفعل حقيقة مفادها أنه يمثل قبل كل شيء وجهة نظره (وهي وجهة نظر غبية وطائشة، منافقة وتخدم نفسها في الوقت نفسه)؛ ترى وعـــي الإنـــسان موضـــوعاً عقلانياً موحداً؛ وتصور ماركسي عن هيمنة الطبقة والإمـــبريالية (إذا مـــا اجـــتمع هذان التصوران فهما يمثلان وجهة نظر حداثوية)؛ ووجهة نظر تستند إلى فوكو مفادها أن السلطة، في كل مكان، معرفية، لا بد من مقاومتها دوماً، لكن يستحيل قهرها وهي خارج حدود قدرة أقوى موضوع على السيطرة (تمثل هذه بطبيعة الحال وجهة نظر حداثوية وهي مهيمنة في الرواية). إننا نجـــد أنفـــسنا مـــضطرين في سرية هذا العمل القاسية والمطلقة من البشر والسلطة والنتـــيجة إلى أن ننظر إلى السلطة بوصفها حاضرة كي تكون جاهزة للاستعمال، وإن "شخـــصاً ما عليه أن يستعملها"، لأن وجهة نظر غارسيا ماركيز عن التاريخ تقتـــرب اقتراباً شديداً من تلك الرواية الكالحة التي طرحها أولاً مكيافيلي وضرب عليها شكسبير الأمثلة باستمرار. وبعد إكمال الرواية يتجه مباشرة سعياً وراء علاقة مع فيدل كاسترو المحرر الاشتراكي الذي يتبين في ما بعد أنه ذلك السياسي اللاتيني

الأميركي الذي لديه القدرة الهائلة ليصبح أكثر الشخصيات التسلطية المحبوبة والمعمرة في القارة.

جُمَلُ الرواية طويلة جداً: فهناك تسع وعشرون جملة لا غير في الفصل الأول، ثلاث وعشرون منها في الفصل الثاني، وثمانٍ في الفصل الثالث، وست عشرة في الفصل الرابع، وثلاث عشرة في الفصل الخامس، وجملة واحدة فقط في الفصل السادس، فيكون المجموع، على ما يبدو، مئة جملة. وتبدأ الفصول الأولى بثلاث أو أربع فقرات في الصفحة الأولى، كأنها أوركسترا تضبط إيقاعها الموسيقي، ثم تمتد وتمتد. وثمة انتقالات مستمرة في السرد من ضمير المتكلم ("أنا"، "نحن") إلى ضمير المخاطب ("السيد الجنرال"، أيتها الأم"...) إلى ضمير الغائب ("هو" و"هم")، بالرغم من أن الصيغة الأخيرة تندرج دوماً في صوت آخر. إن غارسيا ماركيز بصفته راوياً بصيغة ضمير الغائب غائب دائماً تقريباً، لكن ما من رواية يهيمن عليها صوته الأدبي المتميز أكثر من هذه الرواية. ويبدأ كل فصل بهوسه المألوف وهو موضوع الدفن، وإن كان القارئ لا يمكنه أن يكون متأكداً مما إذا كانت الجثة التي عُثر عليها هي جثة الطاغية؛ أو إن كانت هي حقاً جثته، فهل هو ميت؟ وبهذا، فإن صيغة الضمير، "نحن" – نحن الناس الذين عثرنا على الجثة – تنتج عالماً عن طريق التذكر من خلال جمل قصيرة محدودة العدد على الصفحة الأولى في كل فصل مع تفاصيل متغيرة عن اكتشاف الجثة، وبعدها يغور السرد في متاهة، أو دوامة، من خلال استرجاع المواقف والأحداث في حياته "هو"، "الجنرال"، التي تتحلّل تدريجياً في ضمير المتكلم المفرد الذي يستخدم في كتابة السيرة الذاتية، "أنا"، رجل السلطة. المتاهة، شأنها شأن كل المؤلفات الحداثوية، موضوع (الحياة) وتقنية (أسلوب الدخول إليه).

إن رواية **خريف البطريرك** تبدو بكل جلاء رواية كتبها بهوى كاتب مستوحد عن دكتاتور مهووس ومستوحد. لكن النقاد، برأي المؤلف، الذين يميل عدد كبير منهم إلى الشعور بالغضب لأنه قدّم صورة متعاطفة إلى حدٍّ ما مع هذه الشخصية المرعبة، كانوا بطيئين في فهم موضوع **الرواية**. ففي مدينة مكسيكو وفي شهر كانون الأول من عام 1975، أي بعد سنتين من انتهائه من كتابه **الرواية** وبعد

مـــرور أشهر على صدورها، طرح غارسيا ماركيز الذي صرّح أن كل الذين كتبوا مراجعات عن **الرواية** بلا استثناء كانت قراءاتهم "سطحية" لها، وتفسيراً لمغزاها لم يكن متوقعاً أبداً. فقد أكّد أنها ضرب من السيرة الذاتية: "إنها أشبه باعتراف شخصي، إنهـــا السيرة الذاتية، وكتاب مذكرات إلى حدٍّ كبير. لكن الذي حدث، هو أن هذه المذكـــرات مشفرة. وبدلاً من رؤية دكتاتور، فإنك ترى كاتباً مشهوراً جداً لا يشعر بالارتياح بسبب شهرته. حسناً، بهذا الدليل يمكن قراءة الكتاب قراءة مفهومة"[42].

هذا التوكيد مثير للدهشة للوهلة الأولى. فغارسيا ماركيز رجل يحاول أن يترك الانطـــباع لدى قرائه بمتابعة مأثرة كلاسيكية شعبية، رجل تحت ضغط، ويمكن أن يُـــتوقع منه أن يتزلف إلى الجمهور. أما رواية **خريف البطريرك**، فقد كانت لوحة قبـــيحة لشخـــصية قبيحة جداً. إن هذا الدكتاتور، وإن عومل إلى حدٍّ ما معاملة متـــسامحة، هو واحد من أكثر الشخصيات التي تبعث على النفور إطلاقاً. هل كان غارسيا ماركيز يحاول أن يفضح البورجوازية العالمية بتصريحات مثيرة للصحافة، أم تـــراه حقاً قد كتب واحداً من أشد الكتب المرعبة نقداً للذات في الأدب العالمي، كـــتاباً قصـــصياً موازياً لاعترافات روسو على سبيل المثال؟ أيمكن مقارنة علاقات المؤلف بالرجال والنساء وبالعالم أجمع بعلاقات أولئك الذين ابتكرهم ابتكاراً شنيعاً وإن كـــان مثيراً للعواطف والمشاعر؟ وإذا كان غارسيا ماركيز يعتقد هذا الاعتقاد، أتـــراه يلجأ إلى استخدام نفسه ليكون مثالاً من عالم مليء بأجساد رضيعة جديرة بـــالازدراء وعلاقـــات خطـــرة أكثر مما حلمنا به، أم أن ما يطرحه هو تحليل ذاتي وشخصي تماماً، وبالتالي فهو تحليل مدمر على نحو فريد؟ وفي ضوء انعدام التشويق والمـــتعة القاسي للصورة الذاتية، لا يبدو من المستحيل أن الإقامة القصيرة في إسبانيا الفـــرانكوية المجدبة جدباً غريباً تحولت إلى تكفير فرضته الذات ينطوي على تحليل ذاتي للـــشخص الذي طالما كان هو عليه، وهو يرنو الآن إلى المستقبل. لعل تأليف روايـــة **خـــريف البطريرك** انطوى على محاولة أن يستحق شهرته استحقاقاً معنوياً فـــضلاً عن محاولة إظهار أنه يستحقها أدبياً (بالرغم من حقيقة أن عدداً كبيراً من القراء رأوا، ويا للمفارقة، النتيجة الطموح الواضحة برهاناً على غطرسةٍ ورضىً ذاتيٍّ مبالغٍ فيهما).

يمكن أن يكون "موت" البطريرك "الأول" استعارة لعام 1967، وهو عام رواية **مئة عام من العزلة** عندما اختفى غارسيا ماركيز "الحقيقي" اختفاءً نهائياً تحت وطأة الشهرة والميثولوجيا: لعله كان يصف وداعه التدريجي للخصوصية ولبقائه مغموراً واعتيادياً، وتلك عملية تحولت فيها أزمة الفشل في ستينيات القرن العشرين، وبمفارقة مضحكة، إلى أزمة شهرة ونجاح في سبعينيات القرن العشرين. ولعل هذا هو ما مثّل، في وعيه شخصياً، وداعاً للشباب (فقد بلغ الأربعين عند صدور رواية **مئة عام من العزلة**). يضاف إلى ذلك، طالما كان مهيّأً للتأمل في الشيخوخة، تعين عليه أن يطرح أمامنا أزمته وهو في متوسط العمر ويبدأ "خريفه" قبل أي شخص آخر، وبهذا، تمتزج أزمته في متوسط العمر في برشلونة مع أزمة الشهرة التي أحاطت به. لعله وضع شهرته وتأثيره بعد استيعابه كل هذه الدروس في كتابة هذه الرواية الكابوسية أدبياً في خدمة القضايا النبيلة، وذلك بأن أصبح، شأنه شأن البطريرك في شبابه، "سيد سلطاته كلها"، واعياً بها وبعزيمة مطبوعة على الخير العام.

ربما كانت نتيجة شهرته المفاجئة انفصاماً آخر في الشخصية حاول غارسيا ماركيز يائساً أن يوحده منذ كان مراهقاً، وكان ذلك صراعاً اتضحت آثاره الأولى في القصص المبكرة وأكملتها، كما هو متوقع، رواية **مئة عام من العزلة** بفوز كبير. لكنه ربما لم يحلّ إلا مشكلة واحدة هي مشكلة الازدواجية، ليجد بعدها أن عليه أن يواجه مشكلة أخرى وهي الطلاق بين ما سيدعوه لاحقاً شخصيته السرية والخاصة من جهة، وشخصيته العامة من جهة أخرى. لعل هذا هو السبب الذي يجعل الرواية تطرح احتمال أن الجثة التي يعثر عليها الأهالي في مطلع كل فصل قد لا تكون جثة البطريرك. إن غارسيا ماركيز الذي أضحى واسع الشهرة الآن، واجه باستمرار، كما الطاغية، أمام وسائل الإعلام مشكلة ممثله، بديله التام، ومهانة رؤية نفسه في مثل هذه الحالة من المساواة، لعنة الله عليها، إن هذا الرجل هو أنا، أما بخصوص بديل الطاغية، البديل الرسمي أو الصورة العامة، باتريثيو أراغونيس، "فقد انكفأ ليحيا إلى الأبد حياة ليست بحياته". حسناً، لقد شعر غارسيا ماركيز أنه يمثل كلا الرجلين: "الحقيقي" و"البديل". في البدء، وجد البطريرك صعوبة في التكيف مع الأسماء الجديدة التي اختار أن يسميها به الناس أو وسائل الإعلام أو الدعاية

الحكومية لاحقاً، (تماماً مثل أسماء غارسيا ماركيز العديدة: "غابو" و"سيد ماكوندو" و"ميلكياديس الغجريّ" وغيرها)، لكن بصرف النظر عن عدم اكتراثه بهذا البديل، أو وجوده المضاعف حقاً، فإنه لم يرتبك ارتباك أولئك الذين من حوله.

وهكـــذا استحوذت قضية السيرة الذاتية على غارسيا ماركيز (وبخاصة محنته بوصفه أديباً طبقت شهرته الآفاق) في أثناء تأليفه كتاباً بدا أنه عن إنسان يمثل قطبه المعـــاكس، وهكـــذا أمسى البطريرك شيئاً فشيئاً غارسيا ماركيز نفسه، تماماً مثلما أضـــحى أوريليانو بوينديا غارسيا ماركيز في رواية **مئة عام من العزلة**، ليسبر الآن فقـــط أشـــدّ الأعمـــاق ظلمـــة في الوضع البشري، متأملاً تأملاً عميقاً في روحه الشخـــصي. إن البطريـــرك هـــو أنا: الشهرة والجاذبية والنفوذ والسلطة من جهة؛ والعزلة والشهرة والطموح والقسوة من جهة أخرى. ومن نافلة القول الإشارة إلى أن المفارقـــة الكبرى التي تنطوي عليها السيرة الذاتية هي أن الأديب انطلق لتأليف كتابه عن السلطة والشهرة في أواخر خمسينيات القرن العشرين، قبل أن يعيش بنفسه هذه الظاهرة بسنوات بعيدة. وعلى كل حال، ففي الآونة التي شن فيها آخر هجوم لـــه على الموضوع، كان قد أضحى بدوره مشهوراً وذا سلطة، ومستوحداً، وتحول إلى "هو"، وإلى "الآخر"، وإلى الشيء المرغوب فيه. لقد كان المسخ الأدبـــي الذي ابتكـــره وإن عـــزم على هجائه وفضحه (ولكنه ربما حسده دوماً ورغب فيه عند الآخر) شخصية تلك الظاهرة التي تحول هو شخصياً إليها.

ربـــط غارســـيا ماركيز في مقابلة أجراها معه خوان غوسان في العام 1971 موضـــوعات الحـــب والسلطة، مصراً على أن شخصياته كلها مستمدة من السيرة الذاتية، ومعلناً: "أنت تدري يا صديقي القديم أن حب السلطة ينجم عن العجز عن الحب"[(43)]. يمكن لهذه الملاحظة أن تبدأ بمتابعة صلة خفية تربط كل روايات غارسيا ماركيز، وأن تمثل خيطاً يساعد القراء على الخروج من المتاهة الأخلاقية والنفسانية المتـــشابكة التي ابتكرها باستهلاله. لعله ابتدأ أولاً بدافعٍ من نمو إحساسه الحصول علـــى السلطة وأن يكون محبوباً بها. ثم حلّت أزمة شهرته في أواخر ستينيات القرن العشرين وبداية سبعينياته عندما وجد غارسيا ماركيز، الرجل الذي يتمتع بسيطرة ذاتـــية هائلـــة، وطاقة لسانية عظيمة، وتغلغل نفساني ضخم (وقبل هذا كله، قدرة

مذهلـــة علـــى الإقناع والمقدرة الكبيرة على المودة وعلى النشاط غير العام)، وجد نفـــسه فجأة تحت رحمة أشخاص آخرين أقل موهبة في أغلب الأحيان - كالنقاد والـــصحافيين والوكلاء والناشرين، والطفيليين - ضمن المجال العام. لقد أصبح هو نفسه تحت رحمة الصحافيين بعد أن استمتع بسلطة الصحافي. أضحى صورة وسلعة لا يمكنه السيطرة عليهما سيطرة تامة. لهذا السبب، فمّما لا يبعث على الدهشة أن تغدو كارمن بالسيلس ذات أهمية فائقة بالنسبة إليه: لقد أمست "وكيلته" من نواحٍ شتى تفوق تنظيم عقوده مع الناشرين. مما لا ريب فيه أنها مكّنته من فهم احتمال أن يـــتحول إلى "سيد سلطاته كلها" شأنه في ذلك شأن أي إنسان يستطيع إلى ذلك سبيلاً.

إذاً، ربمـــا قرر غارسيا ماركيز، كما الدكتاتور، أن يضبط نفسه العامة، وأن يصبح ذاتاً أخرى (لا تكون ذاته إلا جزئياً، لكنه الآن عليه أن يختار صورته)؛ وبدلاً مـــن أن يحـــتجّ على محنته، كما احتج في السنوات الثماني الماضية، نراه ينتحل ذاته المـــشهورة، ويـــستخدم شهرته، ويمر من أمام جميع غرمائه، ويغدو رجل السلطة صـــاحب الـــنفوذ المستند، لا إلى النجاح العام الذي يحققه من خلال فعل الكتابة المستوحد وحسب، بل إلى تألقه الخاص وقدرته من وراء الكواليس على الغواية.

بـــصرف النظر عما قد يبدو عليه الدكتاتور من فجاجة في الصورة الحميمية الـــتي يصوره بها غارسيا ماركيز، إلا أنه عبقري سياسي لسبب بسيط جداً: "كان يـــرى الآخرين كما هم على حين لم يستطع الآخرون قط إلقاء نظرة خاطفة على أفكـــاره الخفـــية"[44]. وبالـــرغم من انغلاقه على نفسه، فإن البطريرك كان دائماً واضـــحاً الوضوح كله في مقدراته على رؤية واقع الآخرين ومستقبلهم"[45]. كان عظـــيم الـــصبر، يربح في آخر المطاف دائماً، تماماً مثلما اكتشف أخيراً - في حالة مستشاره ساينيث دي لا بارا المبهم والذي يتعذر الاستغناء عنه - الشرخ الذي لا يمكـــن تـــصوره والذي كان يبحث عنه منذ سنين طويلة في ذلك الجدار الزجاجي البركاني الأسود المدهش"[46]. أهذه صورة غارسيا ماركيز نفسه، الذي ينشد الفوز دائمـــاً؛ ضد كل الوافدين، الأصدقاء والأُسرة، الزوجة والأحباب، وخصوم المهنة (إســـتورياس وفارغـــاس يوســـا) والعالم؟ وهل يتحول فيدل كاسترو إلى الرجل

الوحيد – إلى بطريركه وجده الرمز – الذي لا يستطيع ولا يتجرأ، بل لا يتمنى، أن يفوز عليه؟

الدرس الذي تعلمه قارئ هذه الرواية أخيراً – وهو درس يمكن أن يوصف بدرس ما بعد الحداثة – من خلال معايشته أو معايشتها البطريرك على مضض هو أن الحياة يستحيل فهمها من دون أدنى شك، لكن ثمة "حقائق" أخلاقية معينة، بالرغم من كل أوهامنا وكل نسبياتنا المعاصرة(47)، وهي ذات صلة، لا بالإحسان والعطف وحسب، بل بالسلطة والمسؤولية والتضامن والالتزام، وأخيراً الحب أيضاً. لعل العلاقة الداخلية المعقدة بين هذه القضايا البشرية هي الدرس الذي تعلمه غارسيا ماركيز بأن أصبح ذائع الصيت، وهو الدرس الذي ما كان ليتعلمه لو لم يكن قد بات مشهوراً – وهو الذي لا يمكن أن يتعلمه حقاً سوى المشاهير وأصحاب السلطة في كل الأحول – حتى وإن ازداد خسّةً أقوى الأشخاص الذين يمرون بتجربة التعلم كالبطريرك نفسه بزيادة سلطتهم ونفوذهم. وهذا هو ما يطرح احتمالاً جذرياً يفيد أن غارسيا ماركيز الذي بدأ إعطاء مقابلات عن السياسة والأخلاق بين عامي 1972 و1975، على سبيل المثال، أضحى الآن غارسيا ماركيز جديداً عرف حقيقة غارسيا ماركيز قديماً الذي كان لا يزال ساذجاً و"بريئاً" نسبياً، وقرر أن يكون أفضل وأن يتصرف تصرفاً أحسن بعد أن أماطت له الشهرة اللثام عن الحقيقة.

أما بخصوص الحب، فإن القراء عندما يفكّرون في هذه الأيام في غارسيا ماركيز وفي الحب، تراهم يميلون إلى الابتسام والتفكير في الرومانسي الساذج فلورنتشينو أريثا في رواية **الحب في زمن الكوليرا** وفي وجه غارسيا ماركيز الذي يشي بالحصافة والمعرفة، والذي أعاد إنتاجه بنفسه على أغلفة ملايين الروايات. ومع هذا، فإن معالجته موضوعي الجنس والحب، في رواية **خريف البطريرك** وغيرها، ويا للغرابة، معالجة قاسية تخلو من السحر أو الوهم. فموقف البطريرك تجاه النساء فيه غلظة ويفتقر إلى الخيال إلى أقصى الحدود، لكن باستثنائين اثنين: ملكة الجمال مانويلا سانتشيث، المرأة التي يتعذر الحصول عليها، والتي يعجب بها من بعيد لكنه لا يستطيع معرفتها أبداً، وفي الجهة المقابلة، تلميذة المدرسة في سن الثانية عشرة على

غـــرار لوليـــتا التي يغويها بعد أن بلغ مرحلة الخرف. وبالرغم من ذلك، فإن المرأة الوحـــيدة التي أحبها حقاً تبدو أمه. فهل مجمل العلاقة بلويسا سانتياغا هي مفتاح هذه الرواية؟ وهل تمثل مانويلا سانتشيث بحثاً وهمياً عن جاذبية خارجية وحسب؟ وهل تمثل ليتشيا ناثارينو قدر كل الزوجات (وما ميرثيديس إلا اسم آخر من أسماء ليتـــشيا)؟ وهل تمثل الرواية كلها إلى حدٍّ ما، الجانب الآخر المظلم لكبته والده مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الرواية تخلو تماماً من أي أجداد؟ ولأن البطريرك يعتقد أنه وُلد من تلقاء نفسه؟

> **... كـــان يرى أن ما من أحد هو ابن أحد، بل هو ابن أمه، هي وحدها. بدا ذلك اليقين صحيحاً حتى بخصوصه هو، إذ كان يعلم أنه رجل بلا أدب شأنه شأن الطغاة الأكثر شهرة في التاريخ، وأن القريب الوحيد الذي يعرفه، وربما الغريب الوحيد الذي كان قريبه، هو أمه الحبيبة بينديثيون ألفارادو[48].**

تـــبدو الحقـــيقة، الـــتافهة والعميقة معاً، أن الرجال يرغبون في زوجة لتكون عـــشيقتهم على المدى البعيد، لكن عندما يحصلون عليها، يكتشفون أنهم يريدون أمّاً أيـــضاً في الوقت عينه الذي يواصلون فيه الرغبة في الحصول على عشيقات أخريات، كاملات الصفات. في أوقات البطريرك المبكرة مع ليتشيا ناثارينو، كانت تُجلِسه كل يـــوم لتعلمه القراءة والكتابة، ثم يمضيان عصر كل يوم عاريين تحت ناموسية سريرها، وكانـــت تحمِّمه وتلبسه ثيابه مثل طفل. وبهذا، فإن النصف الأول من الرجل يستثار لقمـــع النساء واغتصابهن وهو ينظر إليهن على أنهن أصغر سناً وأدنى شأناً منه، وأن ينتزعهن من غيره من الرجال. أما النصف الآخر، فيرغب في أن تعامله أولئك النساء أنفسهن على أنه طفل وهن ينظرن إليه على أنه أعلى شأناً منهن وأنه سابقٌ لهن؛ لأن المـــساواة والـــتفاعل الديمقراطـــي غير واقعيين وحتى غير مرغوب فيهما (لأنهما غير مـــثيرين). في هـــذا الكتاب، كما في غيره، نادراً ما يستخدم غارسيا ماركيز كلمة "جـــنس" الـــتي تـــسبب غموضاً دائماً بشأن الحب والعلاقة بين الجنس والحب. من الواضـــح أن الشيء الأكيد الوحيد الذي في وسع معظمنا أن يملكه عن الحب هو أن أمنا تحبنا بصرف النظر عن أخطائنا أو جرائمنا. لكن هذا الشيء الأكيد، كما نعرف كلنا، لم يُمنح لغارسيا ماركيز نفسه في السنوات المبكرة من حياته.

قلمـــا يتذكـــر البطريرك في نهاية حياته شيئاً على الإطلاق، إذ يتحدث إلى أطـــياف لا يستطيع أن يفهم أصواتها[49]، وفي خضم كل العلاقات التي تشير إلى تقدمه في العمر، لا يزال يرغب بلا طائل في الجنس بعد أن تنكر له الحب نهائياً، وبهذا يأتي له العاملون عنده بنساء من خارج البلاد، لكن بلا جدوى، لأنه لا يزال يهـــوى معاشرة نساء الطبقة العاملة مما يجعله دائماً يبدأ بالغناء مرة أخرى (قمر كانـــون الثاني المنير)[50]. أخيراً، ومع اقتراب الرواية من نهايتها، يتذكر أن حياته كلـــها كانت موهوبة لنسيان "طفولة بعيدة تمثله للوهلة الأولى وهو يرتجف على الأراضي القاحلة الباردة، وصورة أمه بينديثيون ألفارادو التي سرقت أحشاء كبش من بين كومة النفايات لإعداد وجبة غداء"[51]. إن الطفولة، كما سيذكرنا بذلك كـــتاب غارسيا ماركيز **ذكريات غانياتي الحزينات**، لا تقدم الأعذار بالضرورة، لكنها قد توضح.

* * *

حاول غارسيا ماركيز أن يشغل نفسه بالرواية في الربيع الأخير من عام 1973 وحـــتى عـــام 1974[52]. لكـــنها كانت قد اكتملت أساساً وبات قادراً على بدء التخطـــيط للمستقبل. لقد كان كاتباً مستوحداً، حبيس صراع مستوحد مع بطل مستوحد، لكنه بالرغم من ذلك، يواصل في الوقت نفسه حديثاً لا نهاية له مع العالم بـــشأن عزلته، وبشأن أكثر القضايا الجمعية ألا وهي السياسة. وأقل ما يمكن قوله، هو إن المشهد كان غريباً على قراء الصحف، لكن غارسيا ماركيز أفلح بشق النفس في مواصـــلة مـــسعاه مـــن دون أن يجعل من نفسه موضع هزء؛ واستمر. وجعلته التجربة حيواناً أدبياً وسياسياً أشد غلظة حتى بات أقل حساسية في مواجهة أي تحدٍّ تقريباً من تلك التحديات التي ستخبئها له موهبته وشهرته.

في مطالـــع ربيع العام 1973، كان قد سافر برفقة ميرثيديس من برشلونة إلى بـــاريس لحـــضور زفـــاف تاتشيا التي تزوجت في نهاية المطاف تشارلز في الحادي والـــثلاثين من آذار – وكان ابنهما خوان قد بلغ الثامنة من عمره آنذاك – وأقاما قبالة المستشفى التي أجهضت فيها سنة 1956، لينتقلا بعدها إلى شارع رو دي باك. وتـــستذكر قائلـــة: "كـــان غابرييل إشبيناً في زواجي وكانت أختي آيرين وصيفة

الشرف. كما أن غابرييل هو عراب ابني خوان. وكنت أود حضور بلاس أيضاً في حفـــل الزفاف، لأن ذلك سيكون شيئاً رائعاً – لكنه لا يعتمد عليه ويصعب توقّع تـــصرفاته"[53]. ليس ثمة سبب على الإطلاق يدفع للاعتقاد أن غارسيا ماركيز ندم على انفصاله عن تاتشيا باستثناء ندمه على الأسلوب الذي تم فيه الانفصال. لكنها تظـــل موضع إشارات كثيرة لرجل يكتب باستمرار عن الحب، ورمزاً إلى سبل غير مطروقة وعلاقات خارج الزواج، وبدائل عن الزواج مرة واحدة.

في وقت لاحق من ذلك العام، وفي الأيام التي كان فيها في المراحل النهائية من رواية **خريف البطريرك**، حظي غارسيا ماركيز بتكريم عالمي كبير آخر متمثّل هذه المـــرة بجائزة نيوستادت التي منحت بالمشاركة مع مجلة بوكس إبرود الصادرة عن جامعـــة أوكلاهـــوما. كـــان القرار مدهشاً، وجديراً بالثناء والإطراء، كي تتخذه مؤســـسة أميركية بعد مرور ستة أشهر وحسب على الفضيحة التي أحاطت بتبرعه بجائزة غاليغوس للحركة باتجاه الاشتراكية[54]. وبعد أن أدى غارسيا ماركيز واجبه أداءً تعـــوزه الحماســـة في أوكلاهوما لقاء الاحتفالية والشيك، سافر جواً إلى لوس أنجلـــوس وســـان فرانسيسكو لتمضية إجازة أسرية قصيرة، سافر بعدها إلى مدينة مكسيكو حيث أمضى أفراد الأسرة فصل الصيف هناك. كانت حماستهم شديدة إذ عادوا إلى المكسيك معاً ليكونوا بين أصدقائهم وفي مسقط رأس رودريغو وغونثالو الحقيقـــي، حـــتى إنهم اشتروا منـــزلاً ريفياً متداعياً في ضواحي كييرنافاكا؛ ذلك المنـــتجع الجميل الذي اشتهر في رواية **تحت البركان** لمالكولم باسم لوري[55]. كان شـــراؤه صفقة حقيقية، إذ كان يحتوي على حديقة مساحتها ألف ومئة متر مربع، وعلـــى مقـــربة من منـــزل صديقيهما القديمين بيثيني وألبيتا روخو، وباتجاه لاس كوينتاس حيث يمكن مشاهدة جبال سييرا. في هذه المرة مضى غارسيا ماركيز قُدماً في الـــصفقة على العكس من محاولته التي كاد فيها أن يشتري منـــزلاً ريفياً خارج برشـــلونة. ولمـــا ســـجل العقار في مكتب الكاتب العدل تدفق جميع الموظفين من المكاتب المجاورة للحصول على نسخهم من رواية **مئة عام من العزلة** موقعةً بتوقيعه. وابتهج غارسيا ماركيز ابتهاجاً شديداً وقال: "إنني رأسمالي. إن لديّ ملكية!"؛ كان قد بلغ الثامنة والأربعين من عمره.

في التاســـع من أيلول غادر المكسيك بعد إقامة لأكثر من شهرين، وسافرت ميرثـــيديس جـــواً إلى برشلونة حيث عاد الصَّبيّان إلى المدرسة على مضض. كان غارســـيا ماركيز في طريقه إلى كولومبيا لإنجاز بعض الأعمال، لكنه أخبر الصحافة المكـــسيكية أنه ابتهج ابتهاجاً شديداً للاستقبال الذي حظي به في المكسيك، وأنه بـــصدد الـــسفر إلى برشـــلونة لتوضيب حاجياته والعودة إلى المكسيك بأسرع ما يمكـــن[56]. وصـــرَّح أيضاً أن قارة أميركا اللاتينية تفتقر افتقاراً شديداً إلى القادة العظماء وأن القائدَين الحقيقيَّين الوحيدَين في القارة هما كاسترو وآليندي، أما البقية، فهـــم ليسوا سوى "رؤساء جمهوريات وحسب". لكن بعد مرور يومين اثنين، وفي أول حادي عشر من أيلول يحمل الهلاك، مات أحد هذين الزعيمين، و لم تعد أميركا اللاتينية مرة أخرى كما كانت أبداً.

-19-

تشيلي وكوبا:
غارسيا ماركيز يختار الثورة
1979-1973

في الحادي عشر من أيلول عام 1973 كان غارسيا ماركيز يجلس أمام شاشة التلفاز في كولومبيا شأنه شأن ملايين التقدميين السياسيين في أرجاء العالم ويشاهد، وهو في حالة من الهلع، قاذفات القوة الجوية التشيلية تهاجم قصر الحكومة في سانتياغو. وبعد مرور ساعات قليلة تأكد نبأ وفاة الرئيس المنتخب انتخاباً ديمقراطياً سلفادور آليندي، ولم يعرف أحد إن كان قد قُتل أو انتحر. واستولت طغمة عسكرية على مقاليد الحكم، وبدأت تطارد ما عُرف بأكثر من ثلاثين ألف مواطن زُعم أنهم ناشطون من الجناح اليساري، وذلك في غضون الأسابيع القليلة التي أعقبت ذلك، ولم يخرج العديدون منهم أحياء من مراكز الاعتقال. كان بابلو نيرودا يحتضر بسبب إصابته بمرض السرطان في بيته في إيسلانيغرا على ساحل تشيلي المطل على المحيط الهادئ. وأمسى موت آليندي وتحطيم أحلامه السياسية، إذ سقطت تشيلي في أيدي نظام فاشي، المادة المكونة للأيام الأخيرة من حياة نيرودا على وجه الأرض قبل أن يستسلم للمرض الذي ألمَّ به منذ سنوات[1].

كان المعلقون والناشطون السياسيون في جميع أنحاء العالم ينظرون إلى حكومة الوحدة الشعبية بزعامة آليندي على أنها تجربة ستبين إن كان في الإمكان تحقيق مجتمع اشتراكي بوسائل ديمقراطية. كان آليندي قد عمد إلى تأميم النحاس والفولاذ والفحم ومعظم المصارف المحلية وغيرها من قطاعات الاقتصاد الحيوية، وتمكنت حكومته، بالرغم من الدعاية والتخريب المتواصلين اللذين كان ينفذهما اليمين، من

زيادة حصتها في التصويت لتصل إلى نسبة 44 بالمئة في الانتخابات النصفية في آذار 1973، مما دفع اليمين إلى التعجيل بمضاعفة جهوده لتقويض النظام. وكانت السي آي أيه تعمل ضد آليندي حتى قبل انتخابه: فقد كانت الولايات المتحدة المطوقة في مستنقعها الفييتنامي وقد بدأ هاجس كوبا يسيطر عليها، متلهفة كي لا ترى أي نظام آخر معادياً للرأسمالية في نصف العالم الغربي. وقد كان تأثير تدمير التجربة التشيلية تدميراً وحشياً أمام أنظار العالم أجمع في اليساريين مشابهاً للتأثير الذي أحدثته هزيمة الجمهوريين في الحرب الأهلية الإسبانية قبل أربعين سنة تقريباً.

عند الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم، كتب غارسيا ماركيز هذه البرقية إلى أعضاء الطغمة التشيلية الجديدة:

بوغوتا، 11 أيلول 1973.

الجنرالات أوغستو بنيوشيت وغوستافو ليه وسيسَّر مينديث دانياو والأدميرال خوسيه توريبيو ميرنيو، أعضاء المجلس العسكري:

إنكم أنتم السبب الرئيس في موت الرئيس آليندي، ولن يسمح الشعب التشيلي لنفسه أن تحكمه عصابة من المجرمين المأجورين من إمبريالية أميركا الشمالية.

غابرييل غارسيا ماركيز[(2)].

عندما كتب غارسيا ماركيز تلك الرسالة، لم يكن مصير آليندي قد عُرف بعد، لكنه قال في وقت لاحق إنه يعرف آليندي معرفة جيدة تكفي لأن يكون متأكداً من أنه لن يغادر القصر على قيد الحياة، ولا بد من أن الطغمة العسكرية كانت تعرف ذلك أيضاً. وإذا كان البعض قد قال إن إرسال هذه البرقية كان إشارة تناسب طالب جامعة أكثر مما تناسب أديباً كبيراً، إلا أنها أثبتت كونها أول عمل سياسي اتخذه غارسيا ماركيز الجديد، وهو الرجل الذي كان يبحث عن دور جديد، لكن أفكاره السياسية تعمّقت وتصلّبت على نحو جذري بسبب النهاية العنيفة لتجربة آليندي التاريخية. وصرّح غارسيا ماركيز في مقابلة لاحقة: "كان الانقلاب التشيلي كارثة بالنسبة إليّ".

وكما هو متوقع، اتضح أن قضية باديًا كانت الخط الفاصل في تاريخ الحرب الباردة في أميركا اللاتينية، وليس للمثقفين والفنانين والأدباء وحسب. وظل غارسيا ماركيز بالرغم من النقد الذي وجهه إليه أصدقاؤه – والذي تراوح بين "الانتهازية"

و"الـــسذاجة" - أكثر كتّاب أميركا اللاتينية ثباتاً من الناحية السياسية. صحيح أن الاتحاد السوفياتي لم يمثل الاشتراكية التي كان غارسيا ماركيز يريدها، لكنه نظر إليه من وجهة النظر الأميركية اللاتينية على أنه ضروري جداً ليكون عقبة أمام إمبريالية الـــولايات المـــتحدة وهيمنتها. ففي رأيه، هذه ليست "رفقة طريق"، بل هي تقويم الواقع تقويماً عقلانياً. وإذا كانت كوبا، بالرغم من إشكالياتها، بلداً تقدمياً أكثر من اتحـــاد الجمهـــوريات السوفياتية الاشتراكية، فإنه لا بد من أن يدعمها الأميركيون اللاتينيون المناهضون للإمبريالية والذين يتعين عليهم أن يبذلوا ما في وسعهم لتعديل أي مظهـــر من مظاهر النظام القمعية أو غير الديمقراطية أو الدكتاتورية[3]، واختار غارســيا ماركيـــز ما بدا له أنه طريق السلام والعدالة لشعوب العالم؛ وهو الطريق الذي عرف عموماً بطريق الاشتراكية العالمية[4].

ممـــا لا ريـــب فيه، أنه تمنى نجاح التجربة التشيلية، إلا أنه لم يعتقد أن ذلك سيكون مسموحاً به. وقد ردَّ على سؤال وجَّهه إليه صحافي من مدينة نيويورك في سنة 1971 إذ قال:

> **طموحـــي أن تـــصبح أميركا اللاتينية كلها اشتراكية، لكن الشعوب في هذه الأيـــام تغـــويها فكرة الاشتراكية السلمية والدستورية. يبدو هذا كله حسناً للأهـــداف الانتخابـــية، لكنني أعتقد أن هذه الفكرة طوباوية تماماً. فتشيلي دولـــة تتجه نحو أحداث عنف درامية. وإذا ما مضت الجبهة الشعبية قُدماً - بذكاء وبأساليب عظيمة ثابتة وسريعة إلى حدٍّ معقول - فستأتي اللحظة التي تواجه فيها جداراً من المعارضة الجادة.**
>
> **إن الـــولايات المـــتحدة لا تـــتدخل في الوقت الراهن، لكنها لن تقف دائماً وتتفرّج مكتوفة الأيدي، بل إنها لن تقبل أن تتحول تشيلي إلى بلد اشتراكي. إنهـــا لن تسمح بذلك، وأرجو ألاّ أكون تحت طائلة مثل هذه الأوهام في هذه المـــسألة. إنـــني لا أعني أنني أرى العنف حلاً، بل أعتقد أن اللحظة ستحلّ عـــندما يصبح العنف وحده طريقاً لعبور جدار المعارضة. لسوء الحظ، أعتقد أن هذا أمر مُحتّم. كما أعتقد أن ما يحدث في تشيلي جيد جداً إذا ما نظرنا إليه على أنه إصلاح وليس على أنه ثورة[5].**

قلـــة مـــن المراقبين نظروا إلى المستقبل بمثل هذا الوضوح. لقد أدرك غارسيا ماركيـــز أنـــه يعيش الآن في مفترق طرقات حاسم في تاريخ العالم. ففي السنوات

القليلة المقبلة، وبالرغم من تشاؤمه السياسي عميق الجذور، نراه يعلن بسلسلة من العبارات عن الالتزام السياسي، ولعل أفضل تلخيص لها هو ذلك الذي ورد في مقابلة صحافية تعود إلى العام 1973:

> **إن الإحساس بالتضامن، وهو يشبه ما يسميه الكاثوليك عشاء القديسين، ينطوي على مغزى واضح تماماً بالنسبة إليّ. إنه يعني أننا في كل فعل من أفعالنا، يكون كل واحد منا مسؤولاً عن عموم الإنسانية. وعندما يكتشف المرء هذا الشيء، فذلك سببه أن وعيه السياسي بلغ أعلى مستوياته. وإذا ما تركنا التواضع جانباً، فإن هذه هي قضيتي، إذ لا يوجد في حياتي أي فعل غير سياسي[6].**

كان غارسيا ماركيز يبحث عن طريق القيام بعمل ما. وأصبح مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى أن الطريق الكوبي هو الطريق الوحيد الممكن المؤدي إلى استقلال أميركا اللاتينية سياسياً واقتصادياً؛ بمعنى المؤدي إلى كرامتها. إلاّ أنه أُبعد مرة أخرى عن كوبا. ونظراً إلى تلك الظروف، قرر أن طريق العودة يكون أولاً من خلال كولومبيا. فقد شارك في المناقشات لبعض الوقت مع المثقفين الكولومبيين الشباب، وبخاصة مع إنريكي سانتوس كالديرون من أسرة تحرير صحيفة التيمبو[7]، الذي تعرف إليه مؤخراً، ودانيال سابو الذي عرفه منذ عقد من السنين، ثم أنطونيو كابايرو، وهو ابن الروائي الليبرالي من الطبقة الوسطى إدواردو كابايرو كالديرون، وكان الهدف تأسيس نمط جديد من الصحافة في كولومبيا؛ وبخاصة تأسيس مجلة يسارية[8]. وتوصل غارسيا ماركيز إلى نتيجة مفادها أن الطريق الوحيد لإصلاح بلده المحافظ، إنما يتم بوساطة ما أسماه مازحاً "إغواء" و"تحريف" الجيل الأصغر سناً من الأسر الحاكمة القديمة[9]. ومن المشاركين المهمين أيضاً أفضل موثق لحقبة أحداث العنف التي مرت بها البلاد، أورلاندو فالس بوردا عالم الاجتماع المشهور عالمياً، وكذلك رجل الأعمال اليساري خوسيه بيثينتي كاتاراين الذي سيغدو في ما بعد ناشر مؤلفات غارسيا ماركيز في كولومبيا. وسيكون اسم المجلة الجديدة ألتارناتيفا (البديل)، وكانت نقطة انطلاقها متمثلة "بزيادة احتكار المعلومات التي يعانيها المجتمع الكولومبي على أيدي المصالح نفسها التي تسيطر على الاقتصاد الوطني والسياسة الوطنية". وكان هدفها يتمثل بإظهار "وجه كولومبيا الآخر الذي

لا يظهـــر علـــى صفحات الصحف الكبرى، ولا على شاشات التلفزة التي تخضع خضوعاً كبيراً كل يوم للرقابة الرسمية"[10]. صدر العدد الأول في شباط سنة 1974، واستمرّ صدورها في السنوات الست المضطربة. لكن بالرغم من أن غارسيا ماركيز لم يُمضِ إلا مدة زمنية قصيرة نسبياً في كولومبيا - وإن كان ينوي ما هو أفضل من ذلك - فإنه بقي يشارك فيها مشاركة منتظمة، وكان حاضراً دوماً لتقديم المشورة والنصيحة. واستثمر هو وغيره من كبار المساهمين مبالغ كبيرة من مالهم الخاص في هـــذا المـــشروع الذي ينطوي على مغامرة من أساسه. وصرَّح غارسيا ماركيز في غـــضون ذلك أنه سينتقل إلى أميركا اللاتينية، وأنه، ويا للإثارة الكبرى، لن يكتب أي روايات بعد اليوم، فهو منذ الآن وإلى أن تسقط الطغمة العسكرية التي يتزعمها الجنـــرال بينوشيت في تشيلي في حالة "إضراب" بقدر ما يخص الأمر الأدب، وإنه سيهب نفسه كلها لخدمة العمل السياسي.

في شـــهر كانون الأول ولتوكيد قراراته الجديدة، قبل غارسيا ماركيز دعوة ليكون عضواً في محكمة *رسل* الثانية ذائعة الصيت التي تحقق وتحكم في جرائم الحرب الدولـــية. وممـــا له دلالة ذات مغزى أكبر مما تبدو عليه للوهلة الأولى، هو أن هذه الدعـــوة كانـــت أول علاقـــة واضـــحة على أنه سيحظى بقبول عالمي في أماكن ومـــستويات لم يعرفها غيره من أدباء أميركا اللاتينية، وأنه بالرغم من التزامه المثير للجـــدل إزاء كوبا، ستكون له حرية نسبية في المشاركة في النشاط السياسي إينما وحيثما شاء.

بـــيع من العدد الأول من مجلة التارناتيفا الصادر في شباط 1974 عشرة آلاف نـــسخة في غـــضون الساعات الأربع والعشرين الأولى. وصادر رجال الشرطة في بوغوتا بضع مئات من النسخ، غير أن هذه الحالة ستكون الحالة الوحيدة من حالات الـــرقابة المباشـــرة في تـــاريخ المجلة (بالرغم من أنها ستتعرض لاحقاً إلى "رقابة غير مباشـــرة" متمثلة بهجمات القنابل، وتدخلات المحاكم، وحصار اقتصادي، وتخريب عملـــيات الـــتوزيع، فأســـهمت كلها في وضع نهاية لها). ثم تصادف المجلة لاحقاً مـــشكلات مالـــية، غير أن الاستجابة لها في الأشهر الأولى كانت هائلة. وقبل أن يمـــضي وقت طويل، بدأت تبيع أربعين ألف نسخة، وهو رقم غير مسبوق لمطبوع

يساري في كولومبيا. كان العدد الأول يحمل شعاراً يخص زيادة الوعي - "الجرأة في التفكير بداية النضال" - وافتتاحية بعنوان: "رسالة إلى القارئ" أوضحت أن هدف المجلة الجديدة هو "النضال ضد تشويه الواقع في الصحافة البورجوازية" و"مواجهة التضليل الإعلامي"، (وهو موضوع مُثِّل أصدق تمثيل في أعقاب مذبحة الموز في رواية **مئة عام من العزلة**).

احتوت المجلة، التي كانت تصدر مرتين في الشهر، على أول مقالة من مقالتين كتبهما غارسيا ماركيز بعنوان *تشيلي والانقلاب والأجانب*[11]، وكانت أول مقالة سياسية صريحة يكتبها منذ أن ذاعت شهرته ووزعت توزيعاً ناجحاً في جميع أنحاء العالم (إذ نشرت في الولايات المتحدة الأميركية وفي المملكة المتحدة في آذار) وأصبحت ذات مكانة فريدة على الفور. وقد رثى غارسيا ماركيز ما عدَّه نهاية سلفادور آليندي المضللة:

> **كان مقدراً له أن يبلغ الرابعة والستين من عمره في شهر تموز المقبل. وستظل كبرى فضائله سارية، لكن القدر آثر أن يمنحه تلك العظمة التراجيدية النادرة بالموت وهو يدافع دفاعاً مسلحاً عن ضعف القانون البورجوازي المنطوي على مفارقة تاريخية، دفاعاً عن محكمة العدل العليا التي تنكرت له وأضفت الشرعية على قتلته، دفاعاً عن مجلس بائس أعلن أنه غير شرعي، ولكنه اضطر إلى الخضوع لمشيئة المغتصبين دفاعاً عن كل ممتلكات النظام الحقير التي أكلها العثّ، النظام الذي اقترح هو إلغاءه من دون إطلاق طلقة نار واحدة. وقعت المأساة في تشيلي أمام أسف التشيليين، لكنها ستدخل التاريخ بصفتها حدثاً أُصبنا به جميعاً، أبناء هذا العصر، وستظل في حياتنا إلى الأبد**[12].

إنها نبرة الاحتقار نفسها التي كان يتكلم بها غارسيا ماركيز عن النظام البرلماني الكولومبي منذ أواسط خمسينيات القرن العشرين والتي تمثلها أدق تمثيل قصة **جنازة الأم الكبيرة**. أما سلفادور آليندي نفسه، فقد كان شخصية من شخصيات غارسيا ماركيز، شهيداً آخر في مثوى أبطال أميركا اللاتينية الذين لم يكتب لهم النجاح، ولسيلحق به شهداء آخرون، وسيغدو العديد من السياسيين المتفائلين والمرعبين في آن أصدقاء غارسيا ماركيز في السنوات اللاحقة في مسعىً يائس أو خرافي ربما لتفادي مثل هذا المصير.

وكمـــا هـــرب غارسيا ماركيز من المكسيك بعد صدور رواية **مئة عام من العـــزلة** وتمكنه من سداد ديونه، فقد أعدَّ العدَّة الآن لمغادرة برشلونة بعد فراغه من كـــتابة رواية **خريف البطريرك** وإعداده كتابه **قصص مجموعة**[13]. كان لديه دائماً شـــعور تعوزه الحماسة إزاء إسبانيا وإن كان مشوشاً إلى حدٍّ ما ومتعالياً في بعض الأحيان. كما أن فكره منشغل الآن بقضايا وأماكن أخرى. وستنطوي السنة المقبلة علـــى تعـــديل تدريجي لكل من مقر إقامته وموضع اهتمامه، من أوروبا إلى أميركا اللاتينية، ومن الأدب إلى السياسة. في غضون ذلك، كان ماريو فارغاس يوسا الذي وصل إلى برشلونة قبله قد غادرها قبله أيضاً. وفي الثاني عشر من حزيران عام 1974 نظمت كارمن بالسيلس حفلة وداع لفارغاس يوسا الذي قرر العودة إلى بيرو[14]. وحـــضر الحفلة معظم أدباء أميركا اللاتينية المقيمين في أثناء تلك الحقبة، بمن فيهم خوسيه دونوسو وخورخه إدواردو إلى جانب الكاتالونيين خوسيه ماريا كاستييت، وكارلـــوس بارال، وخوان مارسيه، وخوان ولويس غويتيسولو، ومانويل باثكيت مونتالبان وغيرهم. من المؤكد أن هذه الحفلة كانت مناسبة أشَّرت إلى نهاية مرحلة الانـــتعاش بكل ما فيها من ألق أوروبـــي بعد أن قرر فارغاس يوسا الرحيل وأعدَّ غارسيا ماركيز عدته للسفر أيضاً[15].

أبحر فارغاس يوسا إلى ليما برفقة زوجته وأسرته تاركاً خلفه عدداً كبيراً من الأصـــدقاء في برشلونة يأسفون لرحيله، بالرغم من أن كارمن بالسيلس ظلت تمثل نقطة اهتمام.

في أواخر فصل الصيف، اتخذ غارسيا ماركيز وميرثيديس قراراً غريباً، إذ تركا الولدين في برشلونة برعاية أصدقائهما من أسرة فيودتشي وكارمن بالسيلس والمرأة الـــتي كانـــت تطبخ وتنظف البيت، وسافرا، ويا للغرابة، إلى لندن. كان غارسيا ماركيـــز قد قرر أن الوقت قد حان أخيراً لأن يهتم بما كان يعده الإخفاق الكبير الوحيد في حياته، ألا وهو عجزه عن تعلم اللغة الإنكليزية. واقترح هو وميرثيديس على رودريغو وغونثالو أن يمضيا سنتين في لندن، لكن الصبيَّين رفضا رفضاً باتاً، ثم تولـــتهما الدهشة والامتعاض لإعلان أبويهما أنهما قررا أخيراً السفر وترك ولديهما المراهقين وراءهما[16]. مكث الزوجان مدة من الزمن في فندق كنـــزنغتون هيلتون،

وهـو فندق يعرفانه معرفة جيدة، والتحقا بدورة مكثفة بمدرسة كالان لتعليم اللغة الإنكليزية في شارع أوكسفورد، وكانت المدرسة تضمن نتائج ممتازة في ربع المدة المعهودة بفضل طرائق تدريسها "التي لا تخطئ".

إن تعلم اللغة الإنكليزية - الذي لم يستمرّ على ما يرام - لم يكن شغل غارسيا ماركيز الوحيد. ففي لندن، ويا للغرابة، اتخذت الخطوات الأولى لإعادة تكامله في الثورة الكوبية. وكان منذ قضية باديًا في العام 1971 قد نُبذ من بين ظهرانيهم أكثر من قبل، لكنه اتصل في لندن بأليساندرو أوتيرو وهو الأديب الذي أدت مواجهته مع هيربيرتو باديًا بصورة غير مباشرة إلى المرحلة الأولى من القضية في العام 1968. كان أُوتيرو يعرف ريجيس دوبريه ووافق دوبرييه على أن يكون وسيطاً بين غارسيا ماركيز ووزير الخارجية الكوبي رافائيل رودريغيث. وأخبر رودريغيث أن الثورة ترتكب خطأً فادحاً بتركها شخصية مهمة مثل غارسيا ماركيز في "طي النسيان السياسي". فوافق رودريغيث ودعا سفير كوبا في لندن غارسيا ماركيز لتناول طعام الغداء وقال لي: "يريد كارلوس رافائيل مني أن أخبرك أن الوقت قد حان لعودتك إلى كوبا"(17).

في بداية إقامة غارسيا ماركيز في لندن، اكتشف وجوده في الفندق عدد من الصحفيين الأميركيين اللاتينيين العاملين في المجلة الأسبوعية *فيجون* الموالية للولايات المتحدة. وتجاهل غارسيا ماركيز معظم أسئلتهم، ولكنه من ناحية أخرى طرح رأياً نافذ البصيرة مثيراً للاهتمام حول انطباعه عن لندن:

> **لندن أكثر مدن العالم إثارة للاهتمام: إنها عاصمة مترامية الأطراف، حزينة، عاصمة آخر إمبراطورية استعمارية قيد التصفية. قبل عشرين سنة، وفي أثناء زيارتي الأولى لها، كان لا يزال من الممكن أن نرى وسط الضباب أولئك الإنكليز بقبعاتهم (التبولر) المستديرة السوداء والبناطيل المخطّطة، وكانوا يشبهون في مظهرهم كثيراً أهالي بوغوتا في ذلك الوقت. أما اليوم، فقد لاذوا ببيوتهم في الضواحي، مستوحدين، في حدائقهم الحزينة، بكلابهم الأخيرة، بزهراتهم الذَهلية الأخيرة، بعد أن قهرهم ضغط المد البشري الذي لا يقاوم القادم من الإمبراطورية المفقودة. يبدو شارع أوكسفورد كأي شارع في باناما أو كوراساو أو فيرا كروز، وقد جلس هندوس بواسل أمام أبواب متاجرهم المليئة بالحرير والعاج، ونساء سوداوات رائعات بثيابهن زاهية**

الألوان يبعن الأفوكادو، وسحرة يجعلون كرة تختفي من تحت كوب أمام أنظار الجمهور. وعوضاً عن الضباب تجد شمساً حارة تنبعث منها رائحة الغوافة والتماسيح الغافية. وتدخل حانة لاحتساء شراب، كما في حانوت في لاغويرا، فتنفجر قنبلة من تحت مقعدك. وتسمع اللغات الإسبانية والبرتغالية واليابانية واليونانية من حولك. ومن بين كل الذين التقيتهم في لندن، فإن الشخص الوحيد الذي كان يتكلم بلغة إنكليزية تخلو من العيوب والأخطاء وبلكنة أوكسفورد هو وزير المالية السويدي. إذاً، لا تتعجّب إذا ما رأيتني هنا: في ساحة بيكادلي أشعر وكأنني في مدخل متجر حلويات في كارثاخينا[18].

قلة من المراقبين توقّعوا هويّة لندن المستقبلية بوصفها "مدينة عالمية" بمثل هذا الوقت المبكر وهذا الوضوح. وعندما سُئل غارسيا ماركيز إن كان أي نظام في أميركا اللاتينية يسمح لشرطته أن تكون بلا سلاح كالشرطة البريطانية، قال إن هناك حقاً بلداً واحداً وهو كوبا. وأضاف أن الخبر الكبير في أميركا اللاتينية هو ترسيخ دعائم الثورة الكوبية – وإن كان المراقبون المعادون في ذلك الوقت يعتقدون أن مثل هذا "الترسيخ" يعني السير على غرار "الستالينية" – والتي لولاها لما كان أي تطور من التطورات التقدمية الراهنة ممكناً في القارة بضمنها مرحلة الانتعاش أيضاً. ثم كرر أخيراً رأيه بأنه لن يكتب أي رواية بعد اليوم حتى تطيح المقاومة التشيلية بالدكتاتورية التشيلية التي يتلقى أفرادها المال من البنتاغون. ثمة إحساس واضح في هذه المقابلة أن غارسيا ماركيز كان يحرق السفن ويرفع علم التزامه الاشتراكي. لماذا؟ لأنه كان يعرف جيداً أنه سيعود إلى كوبا.

واصل غارسيا ماركيز محاولاته لكتابة النسخة الأخيرة من رواية **خريف البطريرك** ومداعبة الأفكار الخاصة بالنصوص السينمائية الراديكالية وذلك في الأوقات التي لم يكن يحضر فيها دروس تعلّم اللغة الإنكليزية في لندن.

ثم جاء أصغر أشقائه إليخيو وزوجته ميريام لزيارته ولزيارة ميرثيديس، وكانا قد انتقلا إلى باريس في شهر أيلول. وأصبح إليخيو وأخوه المشهور غابيتو وثيقي الصلة بالرغم من فجوة السنوات العشرين التي تفصل بينهما. وكان من شأن إليخيو وميريام تمضية فترة الميلاد لعام 1974 في برشلونة مع غابيتو وميرثيديس وولديهما.

وفي أيلـــول عـــام 1974 تفجّرت مشكلات سياسية داخل هيأة تحرير مجلة التارناتيفا ما دفع بفريق أورلاندو فالس بوردا لترك العمل في المجلة. وأخبرني إنريكي ســـانتوس كالديرون في وقت تالٍ: "كنا نطمح إلى التعددية، لكن الناس سرعان ما انقـــسموا إلى جماعات متباينة. وعاني غابو معاناة شديدة كل تلك المشكلات وهو يجـــد صعوبة شديدة في معالجة التوترات الداخلية بين أصدقائه. وسببت كل عودة سريعة له ألماً مُمضّاً، لكنهم حولوه إلى سياسي، ومكّنوه من التنبيه إلى واقع الكفاح المسلح، وجعلوه محبوب اليسار"[19].

وفي شـــهر كانون الأول أجرى غارسيا لقاءً مع عميل السي آي أيه المنشق فيليب أغي الذي ستغدو كشوفاته اللاحقة عن نشاطات المنظمة في أميركا اللاتينية مبعث دهشة للعالم أجمع[20]. في هذه الآونة، لم يكن هناك أحد يرفض لقاء غارسيا ماركيـــز. وفي انـــتخابات عام 1974 الكولومبية، وبعد انتهاء حلف الجبهة الوطنية رسمـــياً، تـــولى السلطة ألفونسو لوبيث ميتشيلسين الليبرالي بعد أن حاز على نسبة 8.63 بالمـــئة من الأصوات المقترعة بالرغم من أن 50 بالمئة من الناخبين اخفقوا في التصويت. وبالرغم من شكوك غارسيا ماركيز بشأن سياسة لوبيث ميتشيلسين، إلا أنـــه كـــان سعيداً لرؤيته وقد تبوأ الرئاسة، إذا ما أخذنا في الاعتبار رابطة النسب البعـــيدة من خلال علاقة أسرة كوتيس بباديًا، وعلاقته الأولى عندما درس الحقوق علـــى يد لوبيث ميتشيلسين في جامعة بوغوتا ومسؤوليات الاشتغال مع رجل ليس رجعياً على وجه التوكيد[21].

أخـــيراً صـــدرت روايـــة **خريف البطريرك** في برشلونة في آذار سنة 1975. وراجـــت الشائعات في الصحافة الأميركية اللاتينية ومفادها أن نشر الرواية متوقع حـــتى عرض الكتاب في المكتبات، وكان بذلك أكثر الكتب التي طال انتظارها في تاريخ أميركا اللاتينية. وقد أصدر الناشر الإسباني بلاثا مي خانيس الكتاب بخمسمئة ألف نسخة بغلاف سميك. وفي حزيران سيصور الناشر نفسه كتاب **قصص مجموعة** ويكـــون غارســـيا ماركيز بذلك قد صفّى حسابه مع قراء أدبه في المرحلة الراهنة. وبالرغم من ذلك، أو ربما بسبب التوقعات الهائلة، كانت مراجعات الكتاب متباينة، بل إن عدداً كبيراً منها كان عدائياً[22]. ولقي الكتاب هوىً في نفوس بعض النقاد

لما فيه من شاعرية ممتازة وبلاغة ملؤها المفارقة، تثيران معاً وتحاكيان أشد فانتازيات أميركا اللاتينية سوداوية في الوقت نفسه. إلا أن آخرين لم يرقهم الكتاب لكثير من الأسباب تتراوح بين بذاءات منسوبة إلى ما فيها من مغالاة مستمرة، مروراً بالافتقار إلى علامات الوقف وانتهاء بموقفه السياسي الإشكالي على ما يبدو. لقد أُثيرت هذه الاختلافات على وجه الخصوص في الوقت الذي نشرت فيه الرواية. إلا أن الاختلاف الجذري استمر بمرور السنين.

ومع هذا، فإن رواية **خريف البطريرك** هي التي أكدت أخيراً مكانة غارسيا ماركيز بوصفه روائياً محترفاً، إذ أفصحت عن تمكنه من تأليف رواية ضخمة أخرى بعد رواية **مئة عام من العزلة**. كما أن الذين لم ترقهم الرواية، لم يحاولوا إنكار حقيقة أنها مكتوبة بقلم أديب عظيم. وإذا كانت رواية **مئة عام من العزلة** تدل على بعد قاري هائل لا يرقى إليه شك، فإنها لا تزال رواية كولومبية بكل معنى الكلمة. أما رواية **خريف البطريرك**، فهي بخلاف ذلك، رواية أميركية لاتينية كتبها المؤلف وفي ذهنه جمهرة القراء الرمزية، تكاد تخلو من أي بعد كولومبي ذي مغزى ليس أقلها أن كولومبيا لم تعرف قط ذلك الضرب من البطريرك الذي تصوره الرواية: فكولومبيا من الناحية الرسمية بلد "ديمقراطي" على امتداد معظم سني القرن العشرين. بمعنىً من المعاني، تمثل رواية **خريف البطريرك** وليست رواية **مئة عام من العزلة**، الكتاب الحاسم في حياة غارسيا ماركيز بوصفه أديباً لأنها تشتمل على كل مؤلفاته الأخرى خلافاً للانطباعات الأولية. وسواء عُدَّت "أفضل" رواياته أم لا، وهو ما أكده غارسيا ماركيز نفسه غالباً، فإنه ليس صعباً أن نفهم السبب الذي يجعله يعتقد أنها "أهم" رواياته، خاصة إذا ما أضفنا إلى تكوينها الإيجازي اعتبارين آخرين سبقت الإشارة إليهما وهما: توكيدها أن صورة البطريرك هي صورته هو نفسه، وحقيقة أنه كتب الرواية "ليثبت نفسه" مؤلفاً بعد النجاح المدوي الذي حققته رواية **مئة عام من العزلة**. إذاً، يمكن القول إنه إذا كانت رواية **مئة عام من العزلة** تمثل بلا أدنى شك محور حياته (وأهم كتاب قدر ما يتعلق الأمر بالعالم الأرحب وربما بالأجيال المقبلة)، فإن رواية **خريف البطريرك** تمثل محور أعماله: فبعد هذه الرواية تصل، ويا للمفارقة، كل الطبيعة المستهلكة لهوسه الأدبي بالسلطة إلى

نهايـــتها؛ في اللحظة نفسها التي تغدو فيها السلطة هي الموضوع الأساس في حياته. وهناك سببان اثنان وراء تصريحه بأنه لن يكتب رواية أخرى حتى يسقط بينوشيت: أولاً وقـــبل كـــل شيء، كان قد عقد العزم على الاتصال ببطريرك أميركا اللاتينية الحـــي فيدل كاسترو. لكن، ثانياً، لم يعد أمامه في الوقت الراهن ما هو مهم كي يـــؤلفه، لأنه أصبح من الممكن ملاحظة أن النصف الأول من حياته بصفته أديباً لم ينـــتهِ بنشوة رواية **مئة عام من العزلة** بل بمحنة **خريف البطريرك**. وبقدر ما يخص الأمر الأدب، فإنه لم يكن متأكداً تماماً من الوجهة التي سيتجه إليها بعد ذلك. لهذا السبب ركّز على كاسترو.

كـــان غارســـيا ماركيز في لندن مرة أخرى في ذلك الربيع برفقة أليساندرو أوتيرو الذي يتذكر فيقول: "كنت أتناول طعام العشاء بصحبة غارسيا ماركيز وماتا في منـــزل السفير الجزائري الإبراهيمي عندما دلف أحد الخدم وجاء برسالة عاجلة إلى غابـــو الـــذي تـــوجه ناحية الهاتف. كانت المتحدثة هي كارمن بالسيلس التي وصلت تواً من برشلونة وأحضرت معها النسخ الأولى من رواية **خريف البطريرك**. وما إن انتهينا من تناول الطعام حتى ذهبنا إلى الفندق الذي تقيم فيه، وهناك سلّمت غابو النسخ الخمس التي صدرت عن المطبعة عصر ذلك اليوم. وعلى جناح السرعة أمـــسك غارسيا ماركيز بقلمه وكتب إهداءً إلى فيدل وراؤول كاسترو وكارلوس رافائيل رودريغيث وراؤول روا وإلي. وأدركت من تلك الإشارة أنه يحاول أن يعلن عن التزامه على أوضح ما يكون بالثورة الكوبية"[23].

وإذا ما افترضنا أن مفاتحاته كاسترو كانت ناجحة، فإن استراتيجيته الجديدة ستتطلب منه تقديم نفسه على نحو ماهر ومعقّد. فهو يؤيد الاشتراكية والديمقراطية الليبرالية في وقت واحد من خلال "جبهته الشعبية" السرية. وفي مطلع شهر حزيران من العام 1975 سافر جواً إلى لشبونة بخصوص محكمة رسل، وقضية حقوق الإنسان والديمقراطية. لكن الثورة البرتغالية كانت قد اندلعت في نيسان 1974 – وثورة في بلـــد أوروبـــي: ربما كل شيء ممكن! – وقد نفّذها أول الأمر الجنود. وسيكون تأثيرهـــا في أفريقيا – وكوبا – بعيد المدى مثلما سيكون في غارسيا ماركيز نفسه. والتقـــى رئـــيس الوزراء فاسكو كونكالفيس والشاعر خوسيه غوميث فيريرا مع

آخرين، وسرعان ما سينشر ثلاث مقالات مهمة في مجلة التارناتيفا عن مجرى الأحداث في البرتغال بعد الثورة[24]. وقد أظهر دعمه للثورة البرتغالية وللثورة العسكرية في بيرو التي كانت في أوج مراحلها، وللنظام الكوبي الذي اصطبغ بصبغة عسكرية مكثفة انفتاحاً على المساهمة العسكرية. فقد قال في لشبونة إن انتزاع ملكية الصحف في بيرو لا يختلف عن انتزاع ملكية النفط، وتلك قضية كان يدعمها. فهو لم يعتقد شخصيّاً بالحرية البورجوازية للصحافة التي هي في نهاية الأمر حرية مخصصة للبورجوازيين وحسب"[25]، وهذا ما أثار اهتياج ماريو فارغاس يوسا الذي عاد إلى بيرو.

انطلق غارسيا ماركيز إلى الكاريبي عن طريق مدينة مكسيكو. ولدى وصوله إلى العاصمة المكسيكية تضرع إلى الله ألاّ ينال جائزة نوبل، لكن مجلة إكسيلسيور كانت مصغية إليه وكان الحصول على هذا مستقبلاً قد زُرع في أذهان الآلاف[26]. أما بخصوص الثروة، فقد أفادت المجلة في عددها الصادر بتاريخ السابع عشر من حزيران، أن رواية **مئة عام من العزلة** ورواية **خريف البطريرك** قد حوّلتا غارسيا ماركيز إلى رجل ثري جداً[27]. والواضح أنه كان قادراً على تحمل مهنته الأدبية التي فرضها على نفسه، وأنه يستطيع أن يتحمل المخاطرة بشعبيته بحثاً عن مهنته الأدبية.

وفي الكاريبي، بدأ يبحث عن إجابات عن أسئلة باتت تؤرقه الآن. فالحكومة الكوبية تحكمها عصابات ثورية حولت نفسها وعموم الشعب الكوبي إلى جنود. لقد أطيح بآليندي على يد طغمة عسكرية يمينيّة. واليوم، أسقط الجيش في البرتغال أطول دكتاتورية عاشت في أوروبا. فهل الجنود الثوريون - الذين ظهر من بينهم سيمون بوليفار - هم الجواب عن مشكلات أميركا اللاتينية؟ وسافر إلى أميركا الوسطى بحثاً عن إجابة، وفيها التقى شخصية عاصفة وطائشة هي الثانية بعد فيدل كاسترو التي أثارت إعجاب غارسيا ماركيز: الجنرال عمر توريخوس، دكتاتور باناما الشعبوي منذ عام 1968 وهو من الذين قالوا إن دكتاتورية الشعب للشعب، ولكن ليس بالشعب ضرورية أحياناً في ضوء الظرف الاستعماري الجديد الذي تعيش في ظله أميركا اللاتينية المعاصرة[28]. وسيصبح غارسيا ماركيز وعمر

توريخوس صفيين وخليلين بل أخوين بالدم تقريباً. (وكان توريخوس هو الذي نظر إلى غارسيا ماركيز بعد أن جلس وقرأ رواية **خريف البطريرك** وقال: "هكذا نحن. إننا نشبه ذلك". كان توريخوس شخصية مختلفة كلّ الاختلاف عن شخصية كاسترو (الذي تصرفاته "الشعبية"، كما يقول البعض ساخراً، تصرفات راقصة تحديداً) وكان قد بدأ حملة تاريخية لاستعادة قناة باناما للباناميين وشرح لغارسيا ماركيز عن مفاوضاته مع الولايات المتحدة الأميركية للتوصل إلى معاهدة جديدة بشأن القناة والشروط التي سيوافق والتي لن يوافق عليها. وكما أوضح غارسيا ماركيز، فإنه مما لا يلائم الولايات المتحدة الأميركية في الأقل، حدوث تمرد عسكري في بلد توجد فيه مدرسة الأميركيين التي تديرها الولايات المتحدة، "والتي يتعلم فيها جنود القارة كيف يحاربون تمرد شعوبهم". وأخبر توريخوس صديقه الجديد أنه على استعداد لتحمل كل النتائج لاستعادة القناة وللقضاء على الاستعمار في بلاده.

كان غارسيا ماركيز مهتماً ببناما اهتماماً خاصاً، فهي ليست جزءاً من كولومبيا وحسب، وذلك قبل تشجيع الإمبريالية الأميركية انفصالها عن كولومبيا، بل هي أيضاً البلد الذي سافر فيه جده نيكولاس ماركيز أيام شبابه واقتفى أثر واحدة من أهم قصص غرامه. كان ممكناً لرجل مثل توريخوس أن يولد في بارانكيا؛ حقاً، إنه يذكرنا من أوجه متعددة، بل يشبه من حيث المظهر والسلوك صديق غارسيا ماركيز الراحل ألفارو سيبيدا. وعلى جناح السرعة يعقد الرجلان صداقة تستند إلى جاذبية عاطفية عميقة تحولت بمرور الأيام إلى محبة. ولم يكن غارسيا ماركيز وحيداً في هذا الشأن. فقد طور الكاتب الإنكليزي البارد كالثلج غراهام غرين علاقة وثيقة مع الزعيم البانامي وكتب كتاباً مكشوفاً عن عملية "التعرف إلى الجنرال".

لكن توريخوس كان شخصية ثانوية مقارنة بفيدل كاسترو الذي أصبح آنذاك واحداً من أعظم الشخصيات السياسية في القرن العشرين. ويسهل تصور مدى جاذبية فكرة التعرف إلى كاسترو بالنسبة إلى إنسان مهووس منذ سن مبكرة بفكرة السلطة مثل غارسيا ماركيز. وفي رواية **خريف البطريرك** ثمة توازيات لا يرقى إليها

الـــشك. فالرواية التي صدرت قبل زيارة غارسيا ماركيز الأولى إلى كوبا منذ أربع عـــشرة سنة، تصف لنا دكتاتوراً مهووساً بنشاطات فلاحية لا سيما تربية الماشية، لكنه بالرغم من ذلك، يتمتّع بيدين ناعمتين مثل أيدي الفتيات ومعه خاتم السلطة. تشير هاتان النقطتان إلى فيدل. قد تكون بعض الإشارات مصادفة محضة، لكن هناك إشارات غيرها تقبل الجدل: "شيَّد أكبر ملعب للعب كرة البيسبول في الكاريبـــي، وخلع على فريقنا شعار النصر أو الموت".

كـــذلك يغـــير البطريرك تغييراً اعتباطياً التواريخ والأزمنة، بل حتى يُلغي أيام الآحـــاد تماماً مثلما سيلغي فيدل كاسترو نفسه في نهاية الأمر ذكرى الميلاد ليحييها بعد ذلك بسنوات. وكما هو شأن فيدل، فإن دكتاتور غارسيا ماركيز يطوف على نحـــو غير متوقع في السنوات الأولى من سلطته في جميع أرجاء البلاد ويفتش بنفسه الأشـــغال العامة، أو يعمل على تفعيلها مما يكسبه شعبية دائمة، وبهذا لا يوجه إليه الـــشعب اللـــوم على ما حلَّ به من مصائب: "في كل مرة يسمعون فيها عن عمل جديد وحشي يتنهدون من أعماقهم: آه لو علم الجنرال!". وفي آخر الأمر، وبعد أن يستولي الأميركيون على البحر – وهو ما يمكن تفسيره على أنه "الحصار" المفروض مـــنذ خمسين سنة تقريباً، والذي قاومه الشعب الكوبـــي مقاومة بطولية – يفكر البطريرك: "عليَّ أن أتحمل وطأة هذا العقاب بمفردي... لا أحد يعرف أفضل... أن الأفضل أن نكون بلا بحر على أن تسمح بنـــزول جنود المارينـــز". المفارقة القاسية هـــي أن الصورة تنطبق انطباقاً متزايداً على كاسترو بعد مرور خمس وعشرين سنة علـــى كـــتابة الرواية. فقد حُرم هو الآخر، بسبب الحصار، من "البحر"، كما أنه يترأس نظاماً أخذ يتآكل أمام أنظار العالم كله، على حين يظهر هو شخصياً هادئاً، رابط الجأش، وإن كان أشد أعدائه تطرفاً ينظرون إليه على أنه "مسخ".

في العـــام 1975 يـــبدأ كاســـترو مرحلة من أكثر مراحله نجاحاً. فنظامه يمر باللحظة "الستالينية" التي اشتملت على قضية باديًا، ويبدأ على الفور بإطلاق حملته العسكرية التاريخية والجريئة في أفريقيا. ففي سنة 1975 أعادت أربع عشرة دولة من دول أميركـــا اللاتينـــية علاقاتها الدبلوماسية مع النظام الحاكم في الجزيرة بما فيها كولومبـــيا الـــتي كانت قد قطعتها إبان حكم رئيسها ألبيرتو ييراس في عام 1961،

وعـــادت فاســـتأنفتها في السادس من آذار وهو يوم ذكرى ميلاد غارسيا ماركيز الثامـــنة والأربعـــون. لا بد من أن القرار الذي اتخذه لوبيث ميتشيلسين بدا نذيراً اســـتثنائياً آخـــر لغارسيا ماركيز الذي كان قد اتخذ قراره السري بإعادة تأسيس علاقات مع الثورة الكوبية ووصل إلى بوغوتا قبل أربعة أيام من ذلك.

وفي شـــهر تموز حانت اللحظة أخيراً وسافر إلى كوبا برفقة رودريغو. وأخيراً عـــاد، ووفـــرت لهمـــا السلطات كل التسهيلات الضرورية للسفر في طول البلاد وعرضـــها، يذهـــبان حيث يعجبهما الذهاب ويتحدثان إلى مَن يشاءان. ويلتقط رودريغـــو أكثـــر من ألفي صورة. ويتذكر غارسيا ماركيز قائلاً: "كنت أفكّر في الكـــتابة عـــن كيفية تحطيم الكوبيين الحصار من داخل منازلهم. ذلك ليس عمل الحكـــومة أو الدولـــة، بل الشعب نفسه الذي حلّ مشكلة الطبخ والغسل وخياطة الثـــياب، باختـــصار، حل كل المشكلات اليومية"[29]. وفي شهر أيلول نشر ثلاثة موضـــوعات لا تُنسى تحت عنوان رئيس: "من أقصى كوبا إلى أقصاها" مزج فيها بين العرفان الكبير والنقد القليل بأسلوب يوضح للسلطات أن هناك لاعباً ثورياً في دورٍ كبير، مأمون اليدين على نحو لم يسبق له مثيل[30].

التأم شمل الأسرة كلها في أثناء فصل الصيف في المكسيك. فقد وجد غارسيا ماركيز وميرثيديس منـــزلاً في كايي فيغو (شارع النار) الواقع في منطقة بيدريغال ديـــل آنخل خلف الجامعة الوطنية جنوبـــي العاصمة. ولا يزال هذا البيت المتواضع مقـــر إقامـــتهم الرئيس على مدى أكثر من ثلاثين سنة. وكان لا بد من بناء بعض جسور الأسرة، ولعل هذا هو السبب الذي حدا بغارسيا ماركيز إلى أن يصطحب رودريغـــو معـــه إلى كوبا في وقت ربما كان من شأنه أن يشكل عائقاً له. ويخبرني رودريغو عن العودة إلى المكسيك فيقول: "حقاً، لقد أصبحت المكسيك البلد الذي بقيـــنا نرجع إليه دائماً وليس إلى كولومبيا، فإن والديَّ أصخيا مكسيكيين في تلك السنوات الممتدة من عام 1961 وحتى عام 1965"[31].

سمحـــت العـــودة إلى المكسيك للصبيين بتأكيد هويتيهما على المدى البعيد وإعادة بنائهما. و لم يشعر أي واحد منهما أنه كولومبـــي أو إسباني، لكن علاقتهما بالمكـــسيك انقطعت على نحو باتّ، إذ قرر رودريغو أن يستقل بنفسه ويشق طريق

حـــياته من دون الاعتماد على اسم غارسيا ماركيز، وسنراه في نهاية المطاف يرحل عن البلاد. أما غونثالو، وهو الابن الأصغر سناً، فلن يكون مفرطاً في حساسيته في هذا المجال، لكنه كان يفضّل أيضاً أن يشق طريقه بنفسه من دون اعتماد كبير على شـــهرة والده على صعوبة ذلك في المكسيك. مرة أخرى، التحق الصبيان بمدرسة إنكليزية لإكمال تعليمهما الثانوي.

في غـــضون ذلـــك، انفجرت قنبلة في بوغوتا، في مكاتب مجلة التارناتيفا في تشرين الثاني سنة 1975. ونُسب الحادث إلى عضو في لجنة أمن أهلية، وكما أخبرني إنريكـــي ســـانتوس كالديرون، "في الوقت نفسه الذي كنا فيه نشجب مشكلات الفساد في قمة الجيش"[32]. وبالرغم من أن غارسيا ماركيز كان سالماً على نحو لا يمكن إنكاره في المكسيك، إلا أنه أصدر بياناً بكل شجاعة أعلن فيه أن القنبلة تبدو من تدبير الجيش الكولومبـــي، ولا بد من أنها قد جاءت من المراجع العليا. وأضاف أنـــه من الواضح أن رفض لوبيث ميتشيلسين إغلاق المجلة دفع العسكر للإقدام على هـــذا العمـــل. لكـــن حماسته السابقة للجنود لم تمتد إلى التنوع الكولومبـــي، بل حـــدّدت بالاســـم تحديداً استفزازياً وزير الدفاع الجنرال كاماتشاو ليفا على أنه المـــتورط شخـــصياً في هـــذه الـــسياسات القمعية. ولهذا، لم يغفر له العسكريون الكولومبـــيون، كمـــا لم ينـــسوا شكوكهم في أن القائمين على مجلة التارناتيفا قد تعاطفوا، وربما تواطأوا مع عصابات أم – 19 وهم صفوة الثوار من الطبقة الوسطى والمجموعة التي سرقت رمزياً سيف سيمون بوليفار عام 1974.

ومـــع هذا، كان العالم يتغير تغيراً سريعاً، نحو الأفضل كما يبدو. فقد أُصيب الجنرال فرانكو بنوبة قلبية حادّة في الحادي والعشرين من شهر نشرين الأول، وتبوأ الأمـــير خوان كارلوس مقاليد الحكم. ويذكر أن نظام فرانكو كان قد نفذ حكم الإعدام بخمسة متشددين من إقليم الباسك في السابع والعشرين من أيلول بالرغم من الاحتجاجات التي شملت العالم أجمع (ووصف السويدي أولف بالمه أعضاء الحكومة الإسبانية بأنهم "قتلة دمويون"). وفي العشرين من تشرين الأول، توفي أخيراً فرانكو وعمت الفرحة أوساط اليسار في جميع أنحاء الكرة الأرضية. ونُصِّب خوان كارلوس ملكاً على البلاد في الثاني والعشرين من الشهر نفسه، وبعد ثلاثة أيام أعلن عن عفو

عـــام، وبهذا توشك إسبانيا أن تنتقل إلى مرحلة الديمقراطية فتتغير تغيراً جذرياً. وفي العاشـــر من تشرين الثاني استقلت أنغولا عن البرتغال وسط صراع دموي: فالقوى الماركسية في الحزب الحاكم، وهو حزب الحركة الشعبية لتحرير أنغولا التي يدعمها الخـــبراء الـــروس، اصطفت ضد حزب الاتحاد الوطني للاستقلال الكامل لأنغولا المدعـــوم من الولايات المتحدة والذي يترأسه يوناس سافيمبـــي. وفي الحادي عشر مـــن تشرين الثاني، أعلنت كوبا قرارها إرسال آلاف الجنود إلى أنغولا حيث ظلوا فيها ثلاث عشرة سنة. وكانت تلك فرصة غارسيا ماركيز ليظهر ما يمكن أن يفعله صحافي كبير من أجل الثورة.

* * *

غير أن سلوك غارسيا ماركيز الذي يتمثل بالاستحواذ على الاهتمام، ما كان ليعجب كل فرد. ففي الثاني عشر من شهر شباط سنة 1976، كان غارسيا ماركيز مقـــيماً في مدينة مكسيكو، فذهب لمشاهدة العرض الافتتاحي للشريط السينمائي المقتـــبس عن رواية **الناجون من الإنديز**. ولدى وصوله، كان ماريو فارغاس يوسا الـــذي جـــاء إلى المديـــنة لمشاهدة العرض - إذ كان هو كاتب النص - يقف في الردهة. ففتح غابو ذراعيه وهتف: "يا أخي!"، لكن ماريو، الملاكم الهاوي الممتاز، ســـدد إلـــيه لكمة عنيفة على وجهه فسقط على رأسه على الأرض. كان غارسيا ماركيز شبه واعٍ عندما صاح ماريو معتمداً على مصدر الخبر: "هذه بسبب ما قلته لباتريشيا"، أو "هذه بسبب ما فعلته لباتريشيا". وأصبحت تلك اللكمة هي الأشهر في تـــاريخ أميركـــا اللاتينية، ولا تزال موضع توقّعات كثيرة حتى يومنا هذا. هناك العديـــد من شهود العيان، كما أن هناك تفسيرات كثيرة أيضاً لا عمّا حدث حقاً وحسب، بل عمّا لَم يحدث أيضاً[33].

يقـــال إن زواج فارغـــاس يوسا مرَّ بلحظة صعبة في أواسط سبعينيات القرن العشرين، فأخذ غارسيا ماركيز على عاتقه طمأنة زوجة ماريو التي كانت على ما يـــبدو مـــستاءة، ومشوشة الفكر. يقول البعض إن غارسيا ماركيز نصحها بالبدء بإجـــراءات الطـــلاق، على حين يقول آخرون إن الطمأنة التي قدمها إليها كانت مباشرة أكثر. فاستنتج ماريو أن غارسيا وباتريشيا يوسا هما وحدهما اللذان يعرفان

مـــا حــــدث أو مــــا لم يحدث[34]. كما أن باتريشيا يوسا وحدها تعرف ما قالت لـــزوجها عــــندما الـــتأم شملهما من جديد، أي إنها هي وحدها التي تعرف القصة كاملة[35]. أما بخصوص ميرثيديس، فإنها لن تغفر ليوسا ما فعله، كما لن تنسى ما وصفته بالتصرف الجبان والمشين بصرف النظر عن سببه.

يـــشكل مزيج السياسة والجنس والخصومة الشخصية كوكتيلاً قوياً بصرف النظـــر عـــن الكميات الممزوجة منها. ربما كان وراء شعور فارغاس يوسا الواضح بالخيانة قلق من أنه لم يعد باستطاعته تحمل الكولومبـــي الصغير المفتقر إلى الجاذبية. الحـــق أن نجاح ماريو الأدبـــي الاستثنائي الذي يستحقه بكل معنى الكلمة وطلعته البهية لم يكونا كافيين وحدهما. إذاً، ربما لم يبقَ لديه أي سلاح آخر يستعمله سوى لكمـــته القوية، ولعله لم ينجح فيها إلا بسبب عنصر المفاجأة الذي انطوت عليه: وبـــصرف النظـــر عن الأسلوب الجيد الذي يكتب به ماريو، وبصرف النظر عن الدعاية الكبرى التي كان يحظى بها، فإن أكثر ما كانت الصحف والجمهور يريدان سماعـــه هو عن غارسيا ماركيز نفسه. وبصرف النظر عن شعور ماريو بأن لديه ما يسوّغ له رفض كاسترو وكوبا، فإن غارسيا ماركيز ظهر سالماً، غير مصاب بأذىً غـــير الذي تطاير بعد قضية باديًا، وأضحى البطل الأدبـــي الذي لا يضاهيه أحد لليـــسار في أميركا اللاتينية. لا بد من أن هذا الواقع كان مثيراً للإحباط جداً[36]. ولن يلتقي الرجلان بعد ذلك مرة أخرى.

عـــاد غارســـيا ماركيـــز إلى كوبا في شهري آذار ونيسان. وكان قد حظي بإعجاب منقطع النظير في جميع أرجاء العالم بسبب مقالاته التي كتبها عن الانقلاب العسكري التشيلي، ولا بد من أن يكون قد شعر بأنه أديب موهوب وأنه لمن الحمق أن يـــتجاهله فـــيدل كاســـترو. لهذا، قرر أن يقدم إلى الزعيم الكوبـــي عرضاً لا يستطيع رفضه، واقترح على كارلوس رافائيل رودريغيث أن عليه أن يكتب القصة الملحمية للحملة الكوبية في أفريقيا، وهي المرة الأولى التي تقحم فيها دولة من دول العالم الثالث نفسها في صراع تورطت فيه دولتان عظيمتان من العالم الأول والعالم الـــثاني. وفي ضوء تاريخ كوبا الذي انطوى على العبودية والاستعمار، فقد كانت حركات التحرر الأفريقية في تلك الحقبة تمثل اهتماماً خاصاً لكوبا، كما أن نيلسون

مانـــديلا بعينه هو الذي سيحكم بأن كوبا أسهمت إسهاماً مهماً، وربما حاسماً، في الإطاحة بنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا.

نقـــل وزيـــر خارجية كوبا فكرة غارسيا ماركيز إلى فيدل كاسترو وانتظر الكولومبـــي شهراً في فندق ناسيونال في هافانا اتصالاً من القائد[37]. وعند الساعة الثالـــثة من بعد ظهر أحد الأيام، حضر كاسترو بنفسه يقود سيارة من طراز جيب كي يجلس غارسيا ماركيز، الذي اصطحب ابنه غونثالو، إلى جانبه. انطلقوا صوب الريف، وتحدث فيدل ساعتين عن الغذاء. يتذكر غارسيا ماركيز قائلاً:

سألته: من أين لك كل هذه المعلومات عن الغذاء.

فـــردَّ: أيتها النبتة المكسيكية، عندما تكون مسؤولاً عن إطعام شعب بأكمله، إذاً، لا بد من أن تفتش عن الطعام.

وكمـــا هـــي حال العديد من الناس من قبله ومنذ ذلك الوقت، فإن غارسيا ماركيز تولاه الذهول لما رآه من حب كاسترو المدهش للحقائق وقدرته الهائلة على ســـرد التفاصيل. لعله كان يتوقع مثل هذا الكلام وهو يصغي إلى خطابات الزعيم العظيم غير المكتوبة التي تستغرق ثماني ساعات، لكنه لم يكن مُهيأً لجاذبية كاسترو الشخـــصية ومجاملته اللتين في وسعهما إضاءة حجرة تضم عشرين أو ثلاثين فرداً، وليس إضاءة هذا الحديث الذي يجري على انفراد بين شخصين اثنين وحسب.

بعـــد انتهاء الرحلة قال فيدل: "ادعُ ميرثيديس أن تأتي ثم تحدّثْ إلى راؤول". وفي اليوم التالي وصلت ميرثيديس، لكنهما انتظرا شهراً آخر بأكمله حتى اتصل بهما راؤول. كان راؤول قائد القوات المسلحة، كما أنه هو الذي قدّم إيجازاً إلى غارسيا ماركيز قال عنه غارسيا نفسه: "في حجرة تحتشد بالخبراء والخرائط، بدأ يكشف عن الأســـرار العسكرية وعن أسرار الدولة على نحو اثار دهشتي. وجاء الاختصاصيون حـــاملين بـــرقيات مشفرة، وفكوا شفراتها وشرحوا كل شيء لي: الخرائط السرية والعمليات والتعليمات وكل شيء، دقيقة بدقيقة. بقينا على تلك الحال من الساعة العاشـــرة صـــباحاً حـــتى الساعة العاشرة ليلاً. ثم أعطوني لائحة تضم أسماء كبار الشخـــصيات وتعليمات لهم بالتحدث إليّ بكل حرية. جمعت المادة كلها وسافرت إلى المكسيك وكتبت وصفاً كاملاً لما اصطلح عليه تسمية "عملية كارلوتا"[38].

بعد أن فرغ غارسيا ماركيز من كتابة المقالة أرسلها إلى فيدل "ليكون بذلك أول من يقرأها". وبعد مرور ثلاثة أشهر، لم يحدث أي شيء، فعاد غارسيا ماركيز إلى كـــوبا للتباحث. وبعد التشاور مع كارلوس رافائيل رودريغيث، نقّح ما كان مكـــتوباً و"أوضح أسئلة مهمة، وأضاف تفاصيل كانت ناقصة". ثم نشر المقالة في وقت واحد في جميع أنحاء العالم، فاغتبط الأخوان كاسترو، وأحرز غارسيا ماركيز أول انتـــصاراته الـــثورية، أو "أضحى تابعاً لفيدل كاسترو" على حدّ وصف ماريو فارغاس يوسا.

لم يبعث غارسيا ماركيز السرور في نفس فيدل وحسب، بل تلقى أيضاً جائزة الـــصحافة الدولـــية مـــن منظمة الصحافة العالمية عن مقالاته التي كتبها عن كوبا وأنغـــولا. ويمكن الادعاء أن ما من أحد أدرك أن لغارسيا ماركيز ثلاثة مساعدين بـــارزين. كمـــا أن غارســـيا ماركيز ظل برهة من الزمن، بعد أن انتشى بصداقته الشخصية مع أهم شخصية في تاريخ أميركا اللاتينية الحديث، يقول للصحافيين إنه لا يرغب في الحديث عن كاسترو لأنه يخشى أن يبدو متملقاً ذليلاً؛ لكنه سيهذر في كـــل موضـــوع بعد ذلك. وكانت عباراته قد أثارت المنفيين الكوبيين في ميامي وغيرها.

استمر غارسيا ماركيز في بحثه وتثقيفه الذاتي بوصفه مدافعاً مطلعاً عن الثورة الكوبية. لعله أهمل كتابه عن الحياة اليومية في ظل الحصار، وإن ظل يستخدمه غطاءً بعـــض الوقت. لقد أدرك منذ البداية أن قضية حقوق الإنسان والسجناء السياسيين ســـتكون قـــضية حاسمة يقذفها بوجهه أعداؤه. لكن عندما بدأ الأميركيون في ظل إدارة نيكـــسون وكيسنجر الهجوم بلا هوادة في تعاملهم مع الحركات التقدمية في أميركـــا اللاتينية، وانطلقوا في تدريب الأنظمة العسكرية على "وسائل أمنية" بما في ذلـــك الاغتيال والتعذيب والتضليل الإعلامي، وبعد أن تحالف غارسيا ماركيز مع كوبا بزعامة كاسترو، فقد احتاج إلى أن يوثّق نفسه في قضايا تخص السجون؛ حتى إن كان مثل هذا التوثيق يعني بذل ما ينبغي له بذله لإقناع نفسه أن الوضع مقبول ولا بـــد من مساندته في كل الظروف (بدأ يتعلم الشيء الكثير عن أنظمة السجون من خلال عمله مع محكمة رسل). وفي الوقت نفسه، ويا للمفارقة، أصبح للولايات

المتحدة الأميركية رئيس جديد هو جيمي كارتر المتزمت المنادي بحقوق الإنسان مناداةً بدت صادقة. وهكذا، فقد علّم نيكسون غارسيا ماركيز أن حكومة الولايات المتحدة لن تتغير، لكن كارتر علّمه أن العلاقات العامة والدبلوماسية والدعاية أضحت اليوم جزءاً حيوياً في الصراع الإيديولوجي على المسرح العالمي. واقتنع غارسيا ماركيز أن المعارضة الخارجية كانت تريد من كوبا حقاً أن يكون لها سجناء سياسيون كي تواصل شن هجماتها عليها، ولهذا اعتقد، ولعله اعتقاد ساذج، أن على البلاد أن تخفض أعداد مثل هؤلاء السجناء إلى حدّ يقترب من الصفر إن أمكن. وسيكون هذا جزءاً كبيراً من مسعاه في السنوات التالية. كما أنه سيحوّل بمرور الوقت اهتمامه بالتشدد في مجلة التارناتيفا وبالدفاع عن التدخل الكوبي في أفريقيا إلى الاهتمام بالدبلوماسية العالمية، ومن ثم إلى الدفاع الوقائي عن سلامة السيادة الكوبية بعد أن ازدادت الأمور صعوبة.

في أواخر سنة 1976 استعد غارسيا ماركيز للحديث إلى السجناء المناهضين للثورة الذين يمضون مُدداً طويلة في سجن باتانابو. واختار اعتباطاً من بين القضايا الواردة في اللوائح قضية رينول غونثاليث وهو زعيم معارض عمل من خلال حركة النقابات العمالية المسيحية، وكان كاثوليكياً ملتزماً، وبالتالي ديمقراطياً مسيحياً[39]. وكان قد اعتقل في العام 1961 بتهمة التآمر لاغتيال فيدل كاسترو باستخدام سلاح البازوكا قرب مطار رانتشو بوييروس، وبإضرام النيران في مركز التسوق إل إينكانتو في هافانا، واغتيال موظف حكومي يدعى في دل فالي. ويعترف غونثاليث في ما بعد أن تلك الاتهامات صحيحة. وبعد أن تحدث غارسيا ماركيز إلى غونثاليث في باتانابو، اتصلت به تيريسيتا ألفاريز زوجة غونثاليث في مدينة مكسيكو وطلبت منه المساعدة على تأمين إطلاق سراح زوجها. فتأثر غارسيا ماركيز بتوسلاتها ورأى أن ثمة إمكانية لمناورة رابحة، وعقد العزم على أن يُكلم كاسترو، إلا أنه التقاه أربع أو خمس مرات من دون أن يتجرأ على طرح الموضوع.

أخيراً، اصطحبه كاسترو واصطحب معه أيضاً ميرثيديس في رحلة بسيارته الجيب. يتذكر غارسيا ماركيز قائلاً إنهم كانوا في طريق العودة "في عجالة إلى حدّ ما، وكنت قد دوَّنت ست ملاحظات على بطاقة أردت أن أطرحها عليه. لكن

فـــيدل ضـــحك لدقّتي في كل ملاحظة وقال: *هذه، نعم، وتلك لا، وسنفعل هذا، وســـنفعل ذلك*. وعندما أجاب عن الملاحظة السادسة كنا داخل النفق المؤدي إلى هافانـــا، فـــسألني: *وما الملاحظة السابعة؟* لكن لم تكن هناك ملاحظة سابعة على البطاقة، ولا أدري إن كان الشيطان قد وسوس في أذني، لكنني قلت في نفسي: *قد تكـــون هذه هي اللحظة المناسبة*. إن الملاحظة السابعة مدونة هنا، لكنها مشوشة. فقال: *لا بأس. اخبرني ما هي*. فقلت له كأنني أرمي بنفسي عن ظهر طائرة بالمظلة: أتـــدري؟ ستكون الأسرة مسرورة جداً لو تمكنت من اصطحاب رينول غونثاليث، بعـــد إطلاق سراحه، إلى المكسيك لتمضية الميلاد مع زوجته وأطفاله. لم أنظر إلى الخلـــف، لكـــن فيدل رمق ميرثيديس من دون أن يرنو إليّ وسأل: *لكن ما السبب الذي يجعل ميرثيديس تبدو هكذا؟* فما كان مني إلاّ أن أجيب عن سؤاله، من دون أن أديـــر بصري إلى الوراء، من دون أن أشاهد الملامح التي علت وجه ميرثيديس، وقلـــت: لأنها ربما تعتقد أنني إذا ما اصطحبت رينول غونثاليث، ثم بدأ يمارس حيلاً قـــذرة ضـــد الثورة، فإنك ستظن أنني قد افسدت كل شيء. غير أن فيدل أجاب مـــوجهاً كلامـــه إلى ميرثيديس وليس إليّ: *انظري إليّ يا ميرثيديس، إنني وغابريل ســـنفعل ما نعتقد أنه صواب، لكن إذا ما تبين أن هذا الرجل نذل وخسيس، فتلك مـــشكلة أخـــرى*. ولـــدى العودة إلى الفندق، وبّخت ميرثيديس ثاقبة الرأي دوماً زوجها على سفاهته، إلاّ أن غارسيا ماركيز كان جذلاً. ومع هذا، مرّت الشهور، وقال كاسترو إنه لم يتمكن من إقناع زملائه في مجلس الدولة، ثمة قضايا شائكة في القضية وما على غارسيا ماركيز وغونثاليث إلا التحلي بالصبر[(40)].

في غـــضون ذلـــك، شهد شهر آب عام 1977 أول اتصال مهم بين غارسيا ماركيز وأحد الاشتراكيين الأوروبيين الذي سيتبين أنه مصدر حاسم وصديق على امـــتداد السنوات التالية: فيليب غونثاليث زعيم الحزب الاشتراكي الإسباني الذي كـــان قـــد انتخب في الخامس عشر من حزيران نائباً عن مدريد في أول انتخابات إسبانية منذ إحدى وأربعين سنة، وهي الانتخابات التي أصبح فيها أدولفو سواريث رئيـــساً للوزراء لحزب يمين الوسط الحاكم، وكان الشيوعي الأسطوري المتشدد لا باســـيوناريا قـــد عـــاد إلى إســـبانيا للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية بسبب هذه

الانـــتخابات. وفي أواخر شهر آب، كان غونثاليث المحامي في بوغوتا، ومنح مقابلة صـــحافية لكل من أنطونيو كاباييرو (رئيس التحرير)، وإنريكي سانتوس كالديرون (المديـــر)، وغارسيا ماركيز (مستشار التحرير) في مجلة التارناتيفا. وكانت المقابلة بعـــنوان "فيليب غونثاليث: اشتراكي جاد"[41]، كانت سياسة الحزب الاشتراكي الإسباني في أميركا اللاتينية تتلخص في دعم كل الأنظمة الشعبية في دول ديمقراطية تقريباً، ودعم حركات التحرر في دول غير ديمقراطية: "إننا موحدون بهدف تصفية الأنظمـــة التي تعرقل الإيقاع الديمقراطي". ولم تتضمن المقالة أفكار غونثاليث عن كوبا، وهو موضوع كان من شأنه أن يتسبب في متاعب بينه وبين غارسيا ماركيز على مدى سنين[42].

ربما بدأت تلك المقالة تقرع العديد من الأجراس في رأس غارسيا ماركيز. ولم يمـــضِ وقـــت طـــويل حتى ينهمك مع عدد من أعضاء الاشتراكية الدولية المعتدلة والديمقـــراطية، علـــى ارتيابه بمعتقداتهم ونشاطاتهم، بدءاً بصديقه الودود كارلوس أندرياس بيريث رئيس جمهورية فنـــزويلا الذي ينحدر والداه من أصول كولومبية، مـــروراً بفرانـــسوا ميتران رئيس جمهورية فرنسا، وفيليب غونثاليث نفسه. وكان ميتـــران وغونثاليث قد تابعا عن كثب فوز آليندي ومصرعه؛ - لكن أوروبا مختلفة علـــى وجـــه التأكيد. وفي كانون الأول، جرى نقاش حاد في باريس بين غارسيا ماركيز وريجيس دوبريه ذلك الثوري الذي كان يفكّر في المسار الديمقراطي (الذي سيسلكه من خلال حكومة فرانسوا ميتران). كان دوبريه في تلك الآونة عضواً في الحـــزب الاشتراكي الفرنسي، وقد سأله غارسيا ماركيز إن كان لا يزال "اشتراكياً حقيقـــياً"، ومـــا رأيه في تطور الثورة في أميركا اللاتينية[43]. يبدو مرجحاً أكثر أن غارســـيا ماركيز كان منذ هذه اللحظة في طريقه للخروج من مجلة التارناتيفا باحثاً عن دور آخر، وسيكون ذلك الدور مزدوجاً: الأول في أميركا اللاتينية، والثاني في أوروبا. مرة أخرى، كان غارسيا ماركيز يبحث عن فسحة للمناورة.

في مطلع شهر حزيران كان قد نشر مقالة أخرى عن صديقه عمر توريخوس، وكان قد أشار إليه في عنوان أحد أعماله: "للجنرال توريخوس من يكاتبه"[44]، وهو مـــن شأنه أن يطرح سؤالاً عن غارسيا ماركيز يومذاك ومستقبلاً هو: أتراه يكتب

عـــن رجـــال السلطة، إلى رجال السلطة، أم من أجلهم؟ وكما في كوبا، فقد بدأ يتطـــرق إلى قضية حقوق الإنسان في باناما، مقدماً نفسه على أنه وسيط أمين بين الواقـــع والقارئ (تماماً مثلما سيحاول التوسط بين كاسترو وتوريخوس من جهة، وغونثالـــيث وميتـــران من جهة أخرى). وبهذا قدَّم عرضاً في معرفة حالة السجناء الـــسياسيين المزعومة في باناما - إذ وُجهت الاتهامات أكثر من مرة إلى توريخوس بضلوعه في أعمال تعذيب - وعرض التوسط بين نظام توريخوس والبانامين المنفيين في المكسيك. وفي شهر آب نُشرت مقالة رئيسة أخرى لغارسيا ماركيز عن الزعيم البانامـــي ومفاوضـــاته مـــع الولايات المتحدة الأميركية والتهديدات التي تكتنف حياته(45). وقد أشار غارسيا ماركيز إلى توريخوس على أنه عنيد وشجاع، وخصم مـــدهش ومفـــاوض ذكـــي، وإنـــساني ومحـــبوب إلى أبعد الحدود وسط الناس الاعتياديين(46).

أخـــيراً، وُقعت الاتفاقية الجديدة لقناة باناما في السابع من أيلول سنة 1977 في مديـــنة باناما. وكان من بين أعضاء الوفد البانامي عضوان إضافيان هما غراهام غرين وغابرييل غارسيا ماركيز اللذان سافرا بجوازي سفر باناميَّين، واستمتعا كثيراً بالرحلة كأنهمـــا تلميذان كبيران(47). وأعجبا على وجه الخصوص لأن مظهرهما البدني يشابه مظهـــر بينوشـــيت الوضيع. وفي شهر تشرين الأول صادق الباناميون على الاتفاقية الجديـــدة باستفتاء عام، بالرغم من أن الولايات المتحدة ظلت تدخل تعديلات عليها، وأخيراً صادقت على النسخة المنقّحة في الثامن عشر من نيسان عام 1978.

في العـــام 1977، بدأت أسرة غارسيا ماركيز أخيراً باتخاذ التدابير إزاء حتمية الانفـــصال بعد أن كبر الصبيَّان وبدأ كل واحد منهما ينهج نهجه الخاص في الحياة. صـــحيح أن غابـــو وميرثيديس كانا قد تركا ولديهما عامي 1974 و1975 قبل أن يتمكن الولدان من تركهما، لكن في تلك الفترة كانت الأسرة لا تزال تملك بيتها، وإن كـــان بيتاً مؤقتاً في برشلونة حيث كان في استطاعة كل واحد منهم أن يرجع إلـــيه علـــى نحـــو طبيعي. أما الآن، فالولدان في طريقهما لمغادرة المنـــزل، وكان رودريغو بخاصة في طريقه إلى مدرسة تعلم الطبخ في باريس، على حين كان غونثالو يفكّر في اللحاق به ولكن لدراسة الموسيقى.

كـــان غارســـيا ماركيز ينتظر طوال هذا الوقت نبأً عن مبادرته بشأن رينول غونثالـــيث. وأخيراً، وفي كانون الأول 1977، بدأت الأمور تتطور[48]. ففي حفلة اســـتقبال في هافانا أقيمت على شرف رئيس وزراء جامايكا ميشيل مانلي، اقترب فـــيدل كاســـترو من غارسيا ماركيز وقال له: "حسناً، في وسعك أن تصطحب ريـــنول". وبعـــد ثلاثة أيام وصل غارسيا ماركيز ورينول غونثاليث، الذي تولاه العجـــب، إلى مدريد حيث التحقت به على الفور زوجته تيريسيتا. وفي مطلع شهر كانـــون الـــثاني عام 1978 التقى غارسيا ماركيز وميرثيديس ورودريغو بغونثاليث وأســـرته في برشلونة حيث استمعوا مفصلاً إلى تجاربه المرعبة في السجون الكوبية. وفي الخـــامس عشر من كانون الثاني، سافرت أسرة غونثاليث جواً إلى ميامي. وفي وقـــت لاحـــق، يبرهن غونثاليث على صحة استراتيجية غارسيا ماركيز وموافقة كاســـترو عليها، وذلك عندما يؤدي دوراً رئيساً في المفاوضات عندما بدأت الثورة حـــواراً مـــع الجماعـــة المنفية خارج البلاد بعد أن قرر كاسترو أن الأوان قد آن لتخفيف التوتر مع أُسر ثلاثة آلاف سجين مناهضين للثورة.

غير أن غارسيا ماركيز يظل على مدى سنوات طويلة بعد ذلك يقلل من شأن دوره في المساعدة على إقناع القيادة الكوبية اتخاذ مثل هذا الإجراء الحاسم بإطلاق ســـراح الغالبـــية العظمى من أولئك السجناء. لقد أظهر غارسيا ماركيز للأخوين كاســـترو أنه ليس رجل المساعي الحميدة وحسب، إنما مؤيّد مخلص للثورة أيضاً، بليـــبرالية أقل واشتراكية أكبر مما قد يبدو عليه، وقبل هذا كله، وكما خمنوا، فإنه مأمـــون الـــيدين. ورويـــداً رويداً انتقلت العلاقة مع كاسترو إلى ما وراء الطابع الـــسياسي أو الفعال وتحوّلت إلى صداقة بتأثير الاهتمام الذي يبديه الآخر (ويؤكد غارســـيا ماركيـــز للصحافة أنه وكاسترو كانا يتحدثان في الأدب عموماً). كان كاســـترو مدمـــناً علـــى العمـــل، حياته سرية، مقيدة، وخصوصية تماماً، وحياته الاجتماعـــية محدودة. وظل الاعتقاد سائداً على مدى سنين أن علاقته طويلة الأمد والوحيدة بامرأة، إنما كانت مع رفيقته الثورية سيليا سانتشيث التي وافتها المنية عام 1980، وأنـــه بعـــد وفاتها ارتبط بعلاقات عابثة وقتية مع نساء أخريات، وأن تلك العلاقات أثمرت أطفالاً غير شرعيين. و لم يتضح إلاّ مؤخراً أنه بدأ في أواخر ستينيات

القرن العشرين علاقة طويلة الأمد، وهي علاقة زوجية، مع داليا سوتو ديل فالي التي أنجبت منه خمسة صبيان، ولا تزال العلاقة مستمرة حتى اليوم. إلا أن داليا لم تتمتع بأي دور رسمي، وما صورة العزلة الواضحة التي دأب عليها كاسترو باستمرار إلا الدليل على أنها لم تكن جزءاً من تلك الحياة الاجتماعية المحدودة.

و لم يعرف أيضاً عن كاسترو منذ وفاة تشي غيفارا أن لديه مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذكور باستثناء أخيه الوفي دائماً راؤول وآخرين مثل أنطونيو نيونيث ومانويل بينييرو وأرماندو هارت. وبهذا، فإن صداقته مع غارسيا ماركيز كانت صداقة غير مألوفة تماماً وغير متوقعة أبداً. أما إن كانت تلك الصداقة مبعث دهشة، فهذه قضية أخرى عند تأملها. لقد كان غارسيا ماركيز أشهر أديب أنتجه العالم المتحدث بالإسبانية منذ ثيربانتس، وكان، بضربة استثنائية، اشتراكياً ومؤيداً لكوبا. وكان أيضاً في مثل سن فيدل تقريباً، وكان الاثنان من منطقة الكاريبي، كلاهما مناهضان للإمبريالية كرد فعل على احتكار الولايات المتحدة لمنتجي الموز عبر شركة الفواكه المتحدة. ومما يُحكى أيضاً أن كلا الرجلين كانا في بوغوتا في نيسان عام 1948 إبان أحداث العنف، ويعتقد بعض أنصار نظرية المؤامرة أنهما بدأا تخريب أميركا اللاتينية معاً منذ ذلك الوقت. لكن بالرغم من أن غارسيا ماركيز أديب عظيم، إلا أنه لم يكن بأي حال من الأحوال من محبي الجمال و لم يكن مثقفاً متعالياً، كما أن أسلوب حياته سمح له بأن يُبقي على صلات كاسترو مع العالم الأرحب بالرغم من عزلته الفعلية داخل حدود جزيرته الصغيرة تحت نور الشمس. وقد أخبرني كاسترو شخصياً أن إرثهما الكاريبي المشترك وشعورهما الباطني الأميركي اللاتيني المشترك كانا الأساسين الحاسمين اللذين تُشيَّد عليهما الصداقة. وأضاف: "كما أننا من سكان الريف ومن الساحل أيضاً... إننا نعتقد نحن الاثنان بالعدالة الاجتماعية وبكرامة الإنسان، وأن سمة غابرييل البارزة هي حبه للآخرين وتضامنه وإياهم، وتلك سمة كل ثوري. إذ لا يمكنك أن تكون ثورياً من دون أن تكنَّ الإعجاب للآخرين وتثق بهم"[49].

سارت الأمور سيراً حسناً بالنسبة إلى كوبا عموماً بعد أن تلقت الحماسة الثورية الجديدة فيها دفقة جديدة بمغامرتها في أفريقيا، لكن بدأ فجر مرحلة جديدة بالبزوغ.

ففي السادس من آب توفي البابا بولس السادس، فعين يوحنا بولس الأول خلفاً له، لكنه توفي بعد شهر واحد، مما أدى إلى تعيين كارول فوتييلا الذي أصبح البابا يوحنا بولس الثاني وتحالف مع رونالد ريغان ومارغريت تاتشر اللذين انتخبا في غضون الأشهر الثمانية عشر من تعيينه وتنكرا لشروط التعامل السياسي مع كوبا الذي استمر على مدى السنوات الخمس والعشرين التالية (فضلاً على التعجيل بموت الاتحاد السوفياتي). والأسوأ من هذا، من وجهة نظر كوبا، وبعد يومين من وفاة البابا بولس السادس في آب 1978، أعلن شاه إيران القانون العرفي في بلاده، وهو الإجراء الذي عجّل بالإطاحة به، وبالتالي بسقوط الرئيس جيمي كارتر وانتخاب رونالد ريغان اليميني.

كان أداء اليسار سيئاً كعادته في الانتخاب الكولومبية سنة 1978، وانتخب المرشح الليبرالي خوليو سيسَّر طربيه رئيساً للجمهورية في البلاد وبدأت ولايته في السابع من آب. واتخذت مجلة التارناتيفا مساراً معادياً لطربيه الليبرالي اليميني منذ البداية، وكانت المقالات والرسومات الكاريكاتورية تركز على مدى بدانته، وربطة عنقه فراشية الشكل التي باتت علامته الفارقة، ونظارته[50]. وحاولت المجلة باستمرار، وهي تأمل في تقويض ترشيحه واستفزاز الليبراليين كي يجدوا منافساً أكثر اعتدالاً، أن تثير الشكوك حول دوافعه وانتخابه. وهاجم غارسيا ماركيز ومجلة التارناتيفا، معاً وعلى انفراد، رئاسته هجوماً عنيفاً لم يسبق له مثيل في السنوات الأربع التالية ليجد أن طربيه، أو في الأقل القوى التي كان يمثلها، يمكن أن ترد الصاع صاعين وبأساليب أشد عنفاً وغير متوقعة.

في غضون ذلك، استمرت أميركا الوسطى في مسارها الثوري المتشنّج فيما كان جيمي كارتر عاجزاً على ما يبدو، شأنه شأن بيلاطس النبطي[*]، عن اتخاذ قرار بالبقاء محايداً أو الانضمام إلى أحد طرفي الصراع. ففي نيكاراغوا شدّد الثوّار **الساندينيّون** من ضغطهم على دكتاتورية سوموزا طوال تلك السنة. وغالباً ما كان الثوّار **الساندينيّون** يجتمعون في منزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، وشاهد في بعض الأحيان توماس بورغا المؤسس المشارك لحركة **الساندينيّين** في كوبا. وساعد غارسيا ماركيز في مفاوضات للاتفاق على توحيد الفصائل الثلاث المعرضة وتشكيل جبهة **ساندنيستا**، بل زعم في وقت لاحق أنه هو الذي أطلق على الثوريين

الشبان كلمة "الأطفال"[51]. وفي الثاني والعشرين من شهر آب عام 1978 استولت مجموعة من الكوماندوز التابعين لحركة **ساندنيستا** بقيادة إدينا باستورا على القصر الوطني في ماناغوا وخطفت خمسة وعشرين نائباً وحجزهم مدة يومين، ثم أرسلت أربعة منهم جواً إلى باناما مع ستين سجيناً سياسياً أطلق سراحهم لقاء الإفراج عن بقـــية الرهائن. كان باستورا قد فكّر في هذه الخطة منذ ثمانية أعوام[52]، وقد اتصل غارســـيا ماركيـــز بتوريخوس على الفور وأخبره أنه يود الإعلان عن هذا النجاح الـــثوري الاستثنائي، فعرض توريخوس أن يبقي الثوار من غير اتصال بالآخرين حتى وصول غارسيا ماركيز. فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن شدَّ الرحال على الفور وأمـــضى ثلاثة أيام في ثكنة عسكرية يتحدث إلى زعماء الهجوم الصاعق المنهمكين وهم إدينا باستورا ودورا ماريا تيليث وهوغو توريس، لكتابة تحقيق ينشره في مطلع أيلـــول[53]. وبحلـــول نهاية الشهر حثت الولايات المتحدة الأميركية سوموزا على الاستقالة، وقال غارسيا ماركيز في ما بعد إن ذلك التحقيق هو الذي كان يفكّر فيه عـــندما تخلـــى عن الأدب وبدأ الصحافة السياسية: "استسلم أدينا باستورا وهوغو تـــوريس للـــنوم من شدة الإعياء في حين انصرفت أنا إلى العمل برفقة دورا ماريا، وهـــي امرأة خارقة، حتى الساعة الثامنة صباحاً. ثم توجهت إلى الفندق الذي كنت مقـــيماً فيه لكتابة التحقيق. ولما استيقظا صححا ما فيه من معلومات وحددا على وجه الخصوص الأسماء الصحيحة للسلاح ولبُنية المجموعة... وغير ذلك. ولم أتمكن من النوم في الليلة التالية، فقد كنت في حالة توتر شديدة تشبه الحالة التي مررت بها عـــندما عملت بادئ الأمر في التحقيقات الصحافية وأنا في سن العشرين"[54]. وفي وقت لاحق من تلك السنة، يُطلع غارسيا ماركيز مجلة التارناتيفا على مشاركته في العديد من المباحثات التي دارت على مستوىً عالٍ بشأن أزمة نيكاراغوا.

وفي شـــهر أيلول وفي خضم حمى النشاط السياسي الذي كان يعيشه غارسيا ماركيز، سافر ابنه رودريغو إلى هارفارد للتخصص في دراسة التاريخ بعد أن خاب ظنه بمدرسة الطبخ. تبدو تلك الوجهة غريبة لفرد من أفراد أسرة ثورية، ولعل هذا التناقض الواضح هو الذي دفع غارسيا ماركيز لطمأنة صحيفة التيمبو في شهر آب قائلاً: "إنّ أسرتي أكثر أهمية من مؤلفاتي".

ما إن وصل طربيه إلى المشهد في كولومبيا حتى بدأت الأمور تتغير نحو الأسوأ. فبعد مرور شهر واحد على تنصيبه رئيساً للبلاد في آب، أثبت أوراق اعتماده الرجعية بإحداث تشريع أمني انتقدته منظمة العفو الدولية. في تلك الشهور كان غارسيا ماركيز مشاركاً في تنظيم حركة حقوق الإنسان مع عدد من أصدقائه اليساريين وأطلق عليهم اسم هابيس. وكانت سياسة جيمي كارتر الخاصة بحقوق الإنسان، وهي سياسة صادقة بلا ريب، ووسيلة ناجعة في إبعاد الأنظار عن العديد من المنظمات التي كانت تحتجّ على موجة الدكتاتوريات اليمينية في أميركا اللاتينية – في تشيلي والأرجنتين والأورغواي والبرازيل وغواتيمالا ونيكاراغوا – وتعارضها. وحاجج كارتر في أن حكومتي كوبا وباناما دكتاتوريتان أيضاً وأن **ساندنيستا** ترغب في إقامة نظام يشبه هاتين الحكومتين. تبوّأ غارسيا ماركيز واجهة المنظمة الجديدة التي اتخذت مقرها العام في مدينة مكسيكو الآمنة نسبيّاً، وافتتحت في أحد فنادق العاصمة الكبيرة في العشرين من كانون الأول سنة 1978[55]. (غير أنه ليس واضحاً إن كانت الوعود قد أُطلقت للسلطات المكسيكية بأن المكسيك لن تخترق). وتمكن غارسيا ماركيز في ذلك الاجتماع من إعلان أن كوبا لم يعد فيها سجناء سياسيون، لكنه كان حريصاً ألاّ يدّعي لنفسه أي فضل في ذلك.

شُكِّلت هابيس لتكون منظمة لحقوق الإنسان في أميركا اللاتينية وبخاصة للدفاع عن السجناء السياسيين، وهو السبب الذي جمع أول مرة إنريكي سانتوس كالديرون وغارسيا ماركيز في خريف العام 1974[56]. وكان لغارسيا ماركيز دور حيوي في تأسيس المنظمة الجديدة وتعهد بتمويلها بمبلغ مقداره مئة ألف دولار من عوائده على مدى السنتين التاليتين. أما صديقه دانيلو بارتولين، الذي عمل طبيباً خاصاً لسلفادور آليندي وكان بمعيته في ساعاته الأخيرة في قصر مونيدا، فقد أصبح سكرتيراً تنفيذياً. ثم تقرر أن يُعيَّن لها ممثلون في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية، بمن فيهم أرنستو كاردينال القس الثوري النيكاراغوي، وغيره من أصحاب المكانة المماثلة والاتجاهات التقدمية. وكان لمعظم هؤلاء الممثلين تاريخ في مناهضة الولاء لأميركا، ولم يكن مرجحاً أن يرغب أي واحد منهم في تحويل مشكلات قانونية سجن الأشخاص المعتقلين باتجاه كوبا؛ وبخاصة في ضوء الفظائع التي كانت تُمارس

في تشيلي والأرجنتين والأورغواي. وصرَّح غارسيا ماركيز ساخراً إن مجلة التارناتيفا عازمـة علـى "مـد يد العون للرئيس جيمي كارتر لتنفيذ سياسته الخاصة بحقوق الإنـسان". واقترح على الرئيس الأميركي أن يقوم بزيارة لبورتوريكو حيث أمضى وطنيون ثوريون مثل لوليتا ليبرون خمسة وعشرين عاماً في السجن حتى تلك اللحظة لاتهامهم بجرائم أقل خطورة بكثير من تلك الجرائم التي تتسامح فيها الآن الحكومة الكوبية[57].

في كانـون الثاني عام 1979، التقى غارسيا ماركيز البابا الجديد يوحنا بولس الـثاني وطلب منه مساندة منظمة هابيس. وقد جرى اللقاء لمدة خمس عشرة دقيقة في مكتبة الفاتيكان[58]. ولم يعلن غارسيا ماركيز عن طلبه آنذاك، لكن من الواضح أن غارسيا ماركيز وجد لقاءه القصير بالبابا محبطاً: وأعلن في ما بعد أن البابا عاجز عن التفكير في بقية أنحاء العالم - حتى "المختفين" في أميركا اللاتينية - من دون أن يعزو ذلك إلى هوسه بأوروبا الشرقية. وفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شباط، التقى ملك وملكة إسبانيا بمعية خيسوس أغويبيري دوق ألبا ومدير الموسيقى الوطني. والتقـى الجميع في قصر ثارثويلا واستغرق حديثهما عن حقوق الإنسان في أميركا اللاتينـية أكثر من ساعة. لقد أضحى غارسيا ماركيز شخصية ترغب في لقائها، لا الشخـصيات اليـسارية المهمـة مـثل ريجيس دوبريه وفيليب آغي وحسب، بل شخصيات دولية أخرى أيضاً. وعندما سُئل غارسيا ماركيز عن مدى انسجامه مع الملك والملكة مقارنة بالسياسيين الذين اعتاد أن يلتقيهم ردَّ بالقول: "حسناً، حقاً هما مـن الأناس الطبيعيين جداً، ويمكنك التحدث إليهما في كل شأن. أما في ما يخص الـبروتوكول، فقد سهَّل الملك الأمور عليَّ... فلديهما معلومات جيدة عن أميركا اللاتينية، ولدينا ذكريات مشتركة عن شعوبها ومناظرها الطبيعية. وتحدثنا عن قارتنا بمـودة حقيقية طوال اللقاء". وعدَّت صحيفة إلبايس ذلك اللقاء علامة جدّ إيجابية بعد أن تحدث العاهلان لمثل هذه الشخصية العالمية المهمة، الشخصية التي وجهت في روايتها الأخيرة نقداً إلى السلطة المطلقة[59].

في التاسع عشر من تموز عام 1979، استولى الساندنستيون على مقاليد الحكم في نيكاراغوا، وهو خبر طال انتظاره على مدى عام كامل، لا سيما بعد أن قطعت

الـــولايات المـــتحدة الأميركية علاقاتها بنظام سوموزا في الثامن من شباط. وكان ســـوموزا قد أعلن عن حالة حصار في السادس من حزيران ولكنه واجه الواقع في نهاية المطاف وهرب من البلاد في التاسع عشر من تموز. لقد كان هذا أول خبر سار لليسار في أميركا اللاتينية منذ زمن طويل، وفي سنة بدت فيها الأمور تبشّر بالخير؛ فقـــد أقـــصت حركة موريس بيشوب الجوهرة الجديدة الموالية لكوبا رئيس وزراء غـــرينادا في الثالث عشر من آذار، وفي السابع والعشرين من تشرين الأول استقلت الجزيرة عن بريطانيا. وكان من المتوقع أن تصبح اتفاقية قناة باناما سارية المفعول في الأول مـــن تـــشرين الأول. وتمضي أميركا الوسطى في طريق الثورة حيث أطاح انقـــلاب عـــسكري بالرئيس السلفادوري كارلوس روميرو في الخامس عشر من تـــشرين الأول. وقبل أن يستولي **الساندنستيون** على مقاليد الحكم أجرى غارسيا ماركيـــز مقابلة عبر اتصال هاتفي من مدينة مكسيكو إلى كوستاريكا مع صديقه الأديب سيرجيو راميريث الذي أعلن قبل وقت قصير عن أنه واحد من خمسة زعماء في حكـــومة نيكارغوا المؤقتة في المنفى[60]. وناقش الاثنان تشكيل الحكومة الجديدة ووظائفهـــا والوضع العسكري وسياسة كولومبيا القاضية بعدم قطع العلاقات مع ســـوموزا واحتمال الرد الأميركي. وعندما سأل غارسيا ماركيز عمّا يفعله أديب مـــنهمك في العمل السياسي أجاب راميريث: "في الحرب الوطنية، الحرب التحررية ضـــد قـــوة احـــتلال مثل قوة سوموزا، يتخلى الجميع عن أعمالهم، ومن ضمنهم الشاعر، ويحملون البنادق. إنني أنظر إلى نفسي على أنني في ميدان المعركة"[61].

لقد اهتم غارسيا ماركيز اهتماماً كبيراً بالثورة النيكاراغوية وساندها مساندة فعالـــة، إلا أنـــه لم يُظهِر تجاهها الحماسة التي أظهرها لكوبا. أولاً، هو لا يعرف نـــيكاراغوا معـــرفته لكاسترو، ولم تربطه أي علاقة وثيقة بأي عضو من الأعضاء الـــبارزين كتلك التي ربطته بفيدل. وهناك سبب آخر يتمثل بشكوك حتمية معينة كتلك التي أظهرها تجاه التجربة التشيلية: ما لم تتخذ دولة ما الإجراءات العسكرية والـــسياسية المتـــشددة كـــتلك التي تبناها الكوبيون، فالفرصة ضئيلة في أن تسمح الـــولايات المتحدة الأميركية بوجود أي نظام يساري الهوى. فضلاً عن ذلك، فقد تأكدت شكوكه برد فعل كوبا نفسها. فقد ساعد الكوبيون نيكاراغوا لكن ضمن

منظور قاري يفيد باستمرارية الثورة، وعليهم الآن أن يكونوا حساسين أكثر تجاه الولايات المتحدة الأميركية التي اضطرت إلى قبول فيتو سوفياتي بشأن غزو كوبا نفسها، لكنها لن تقبل أبداً بكوبا ثانية.

بعد موسم صيف أمضته الأسرة في السفر حول العالم، واشتمل على زيارة اليابان وفيتنام وهونغ كونغ والهند وموسكو، عاد رودريغو ثانية إلى هارفارد في حين انتقل غابو وميرثيديس وغونثالو إلى باريس التي سيبدأ فيها غونثالو دراسة الموسيقى، مركزاً على آلة الفلوت. أما والده، فسيمضي شهراً في مهمة مع منظمة اليونسكو التي دعته للعمل في مفوضية ماكبرايد التي تحقق في احتكار العالم الأول المعلومات من خلال وكالات الأنباء العالمية. وأجرى صديقه رامون تشاو وإغناسيو رامونيت مقابلة لكتابة مقالة حفزها عمله مع المفوضية، وكانت بعنوان استفزازي هو *بدأت حرب المعلومات*(62). وقال الصحفيان إن غارسيا ماركيز موجود في باريس "على أساس خفي" وسري تقريباً. أوضح غارسيا ماركيز أن المفوضية أسسها مدير عام اليونسكو أحمد مختار أمبو في أعقاب مباحثات جرت في العام 1976، وانطوت منذ بدايتها على توافقات كبيرة، وبخاصة أن الروس طالبوا بصحافة حكومية تماماً، على حين طالب الأميركيون بصحافة حرة تماماً. وكانت اللغات الرسمية المستخدمة هي الإنكليزية والفرنسية والروسية، وتقرر إرسال التقرير إلى المؤتمر العام لليونسكو في بلغراد أواخر شهر تشرين الأول سنة 1980(63). ويوضح غارسيا ماركيز في ما بعد أنه لم يشعر بمثل ذلك الضجر الذي شعر به بوصفه "صياد كلمات مستوحداً"، كما لم يشعر من قبل أنه بمثل هذه اللاجدوى وأنه لم يتعلم أي شيء، والأهم، أن المعلومات تتدفق من الأقوياء إلى الضعفاء، وأنها وسيلة حاسمة في سيطرة الأغنياء على الفقراء(64). وقد عارضت كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة عمل ماكبرايد وانتهى بهما الأمر إلى الانسحاب من اليونسكو في أواسط ثمانينيات القرن العشرين.

مما يبعث على الغرابة أن غارسيا ماركيز بدأ يغير من تصريحاته العامة وشخصيته أمام الناس تزامناً مع غزو الاتحاد السوفياتي الكارثي لأفغانستان. ومن الأمثلة المبكرة ما قاله في اجتماع عقد في الخامس والعشرين من كانون الثاني عام

1980 في مدينة مكسيكو إن أميركا اللاتينية كانت ضحية لا حول لها ولا قوة، متفرجة لا أكثر على الصراع القائم بين الولايات المتحدة الأميركية واتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية[65]. ولكن بالرغم من كلامه المبالغ فيه مع تشاو ورامونت، فإنه لم يكن واثقاً بشأن مستقبل الأرض عموماً ومستقبل أميركا اللاتينية خصوصاً وثوقه من الكلام الذي تفوّه به؛ وعلى وجه التأكيد وثوقه من أن مستقبل العالم سيكون اشتراكياً. وعندما يفكّر في انتخاب رونالد ريغان تراه يعلن أمام الملأ أن ريغان ما دام ليس قوياً كما كان يدّعي، فسيثبت سمعته المعروف بها كشقي مسلح في أميركا اللاتينية، "تلك الباحة الرحبة المنعزلة غير مهيّأة لأي شخص سوانا للتضحية بسعادته"[66]. وقد أثبتت هذه العبارة أنها توقّع صادق تماماً.

لكن غارسيا ماركيز يتوق إلى العودة إلى الأدب. فقد ظهرت إشارات متواصلة من الصحافيين أن غارسيا ماركيز كان قد تعب من الوعد المتسرع الذي قطعه على نفسه بشأن بينوشيت قبل ست سنوات تقريباً. وذكرت مجلة إكسيلسيور في الثاني عشر من تشرين الثاني أن غارسيا ماركيز بدأ يكتب سلسلة من الموضوعات عن الأميركيين اللاتينيين الموجودين في باريس، وأنه سينشرها بعد مرور أربع وعشرين ساعة على إسقاط بينوشيت. لكن هذا الكلام خيَّب ظن أولئك الذين فسروا كلامه على أنه لن يتوقف عن النشر وحسب، بل عن كل نشاطه الأدبي إلى أن يموت دكتاتور تشيلي. يبدو هنا أنه يكتب أعمالاً ستقف في انتظار نشرها حالما ينتهي "إضرابه الأدبي"، وكأنها طائرات عملاقة تحوم حول مدن العالم الكبرى منتظرة أن تهبط.

لكنه لا يزال حتى الآن لا يعترف بحقيقة كبرى: وهي أنه بدأ كتابة رواية جديدة. ففي وقت لاحق ومبكر من تلك السنة، استمر يصرح أنّ "موضوعاته نفدت"، وأنه "لا توجد لديه رواية أخرى، في أعماقه"[67]. إن روايته التالية، وهي رواية لا سياسية، ستُثير حتماً تحولاً مهمّاً. ولم يدرك غارسيا ماركيز ولا قراؤه أنه كان يبحث عن الحب. ففي العالم كله بدأت العودة إلى *الشخصي*، وما غارسيا ماركيز إلا جزء من هذه العملية وذلك بخلاف الانطباعات الأولى.

لقـــد كانـــت مجلة التارناتيفا محاولة مدهشة، لكنها واجهت صعوبات مالية متـــزايدة خاصة بعد أن بدأ الضغط الحكومي يبعد المعلنين إثر تسلم طربيه السلطة. وبحلول العام 1979 كانت تلك المشكلات قد تفاقمت، وواصل المشرفون على المجلة دعمها من مواردهم الخاصة، لكن عندما أغلقت أخيراً في السابع والعشرين من آذار عام 1980، عاد سانتوس كالديرون وسامبر إلى صحيفة التيمبو. أما الذين كانوا غير مرتبطين بمؤسسة بوغوتا، فقد بدأوا البحث عن وسائل أخرى للدعم، في حين كان غارسيا ماركيز حراً في إعادة النظر في خياراته السياسية والأدبية في تخطيط المرحلة المقبلة من حياته.

-20-

عودة إلى الأدب:
قصة موت معلن وجائزة نوبل
1982-1980

بعـــد أن استقر غارسيا ماركيز استقراراً يبعث على الارتياح في فندق سوفياتيل في بـــاريس، قـــسَّم وقته بين كتابته الإبداعية صباحاً ومهمة مفوضية ماكبرايد المثيرة للجدل التابعة لليونسكو عصراً. كانت مهمة ماكبرايد المنسجمة وإيديولوجيات العالم الـــثالث، في ذلك الزمان، تتمثل بالنظر في إمكانية قيام "نظام معلومات عالمي" جديد يخفـــف مـــن قبضة الوكالات الغربية على محتوى الأخبار العالمية وتقديمها[1]. وكما استحسن غارسيا ماركيز هذا التعاون كثيراً، فإنه سيؤشر إلى نهاية مرحلة التشدد العام الـــذي اتـــصف به. فلن تكون بعد اليوم محكمة كمحكمة رسل، ولا مهمة كمهمة ماكـــبرايد، ولا ما يشبه مجلة التارناتيفا أو"الصحافة المتشددة" (وهي مجموعة مقالات سياسية نُشرت في بوغوتا في سبعينيات القرن العشرين)، بل إن منظمة هابيس كانت محاولة ناشطة سرعان ما سيتخلى عنها. لقد اتخذ قراراً بالتوقف عن نشاطه السياسي عالي النغمة والتحول إلى الدبلوماسية والتوسط من وراء الكواليس. ولما كان من غير المـــرجح على ما يبدو الإطاحة ببينوشيت قريباً، فقد قرر غارسيا ماركيز أن يرتد عن قـــسمه ويعـــود إلى القصة الإبداعية التي تشكل، في كل الأحوال، أفضل شكل من أشـــكال العلاقـــات العامة الذي في وسعه أن يحققه. وفي أيلول 1981، أعلن غارسيا ماركيز من دون ارتباك أنه "بصفته كاتباً، فهو أشد خطراً من كونه سياسياً"[2].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز أضحى اليوم واحداً من أهم الأدباء في العالم، فإنـــه لم ينشر سوى روايتين اثنتين هما **مئة عام من العزلة** و**خريف البطريرك** على

مدى عشرين سنة منذ ظهور رواية **في ساعة نحس**. واحتاج إلى روايات أخرى إذا ما أُريد له أن يكون واحداً من أعظم كتّاب عصره. أما بخصوص السياسة، وبالرغم مـــن أنـــه لن يتخلى عن أميركا اللاتينية أو عن قيمه السياسية الجوهرية، فقد قرر التركيـــز علـــى كـــوبا قبل كل شيء بوصفها مركز اهتمامه الأساس وأمنية قلبه السياسية، وكذلك كولومبيا إلى الحدّ الذي يمكن فيه تخيل نتائج إيجابية لذلك البعيد الـــذي لم يذق طعم السعادة. لقد مثلت كوبا لغارسيا ماركيز انتصاراً أخلاقياً في الأقل، بصرف النظر عن عيوبها السياسية والاقتصادية. وكان فيدل أميركياً لاتينياً، لم يعـــرف الإخفـــاق أو الهزيمة، وكان يحمل شعور قارة كاملة بالأمل، وقبل ذلك كلـــه، بالكـــرامة. وقرر غارسيا ماركيز أن يتوقف عن ضرب رأسه بجدار تاريخ أميركا اللاتينية المبنية باللبن، ولكنه سيتمسك بما هو إيجابـــي.

وفـــيما كان ينأى بنفسه على نحو غير مدرك بالحس أو بالعقل عن مواجهة مشكلات أميركا اللاتينية مواجهة مباشرة، ما عدا مشكلات كوبا وكولومبيا، بدأ يمـــضي وقته بين مكانين لم يروقا له من قبل وهما باريس وكارثاخينا. وفي غضون تلـــك الحقـــبة اشـــترى شـــقتين في كلتا المدينتين: في شارع ستانيسلاس في حي مونتـــبارتاس، وفي بوكا غراندي في كارثاخينا تطل على شاطئ يؤمه السيّاح على البحـــر الكاريـــبي الذي كان يعشقه. وعندما أنهى إضرابه الأدبـــي في أيلول سنة 1980، بـــدأت قـــصة **أثـــر دمك على الثلج** تعكس تماماً هذه الحقيقة الوجودية الجديدة: فالقصة تبدأ في كارثاخينا وتنتهي في باريس (كما أنها تعيد تشفير ماضيه الباريـــسي بـــرفقة تاتشيا[3])، وكانت مما يتطابق وحدسه تماماً وتوقيته أو حظه، أن يُنتخب اثنان من أصدقائه في تلك الحقبة في الحكومة الفرنسية وهما فرانسوا متيران وجاك لانغ، الأول لرئاسة الجمهورية والثاني لوزارة الثقافة، فيما يصبح صديق ثالث لـــه هو ريجيس دوبريه مستشاراً حكومياً بارزاً، وإن مثيراً للجدل. أما كارثاخينا، فستغدو، بفضل الخدمات الجوية المتطورة والتحول التدريجي في عقلية الكاتشاكو، مرتعاً لمضاربـــي السلطة الأغنياء في بوغوتا.

وتبين أن تلك اللحظة كانت لحظة تجديد قوى ونشاط مثيرة لرجل بات اليوم في الخمـــسينيات من عمره وفي وسعه الادعاء أنه منح النشاط الثوري أفضل أنواع

الـــدعم. كـــان رودريغو قد بدأ الرحيل عن باريس والدراسة في هارفرد بعد تجربة قـــصيرة لتعلم الطبخ الفرنسي رفيع المستوى، على حين بدأ غارسيا ماركيز يبحث عن دروس في الموسيقى لابنه الأصغر غونثالو. وكان إليخيو يقطن في باريس أيضاً مـــنذ بـــضعة أعـــوام ولكنه انتقل مؤخراً إلى لندن. في غضون ذلك، كان بعض الـــصحافيين الكولومبيين الشبان من العاملين سابقاً في مجلة التارناتيفا موجودين في باريس ولا سيما الرفيقين إنريكي سانتوس كالديرون وأنطونيو كابابيرو والصحفية عـــن صـــحيفة الاسبكتادور ماريا خيمينا دوثان. وكان بلينيو ميندوثا يشتغل في الـــسفارة الكولومبـــية. وكانت صلات غارسيا ماركيز بالمراجع العليا مفيدة جداً لهـــم[4]، أمـــا ميرثيديس، فقد أمضت من وقتها في باريس أقل مما أمضاه غابو، إذ كانـــت بمكانـــة الأم لكـــل الكولومبيين الشباب، وعملت على تسهيل زواجهم، وكفكفت دموعهم عندما كانت علاقاتهم العاطفية تبوء بالفشل. أما غارسيا ماركيز فقد أمضى ساعات الليل المتأخرة في مناقشات طويلة أظهرت لأصدقائه أن أساليبه ربمـــا تغيرت، لكن معتقداته ظلت ثابتة[5]. غير أن غونثالو الذي كان لديه استوديو خاص للموسيقى، فإنه فقد اهتمامه بآلة الفلوت مما أثار خيبة أمل أبيه. ثم بدأ يدرس الفـــنون الغرافية سنة 1981 وكان في سن التاسعة عشرة، والتقى زوجة المستقبل بيا أليـــثوندو وهي ابنة الأديب المكسيكي الطليعي سلفادور أليثوندو الذي كان يعمل رئيس تحرير سابقاً في مجلة أس. نوب. وأدت تاتشيا دور عمة غونثالو خلال غياب والديـــه عن المدينة. وكانت لا تزال تقطن في شارع بوليفارد دي لوبزرفاتور قبالة المستـــشفى الكئيب الذي شهد ساعة نحسها. وعندما نشرت قصة **أثر دمك على الـــثلج** في صـــحيفة الاسبكتادور في السادس من أيلول سنة 1980، كانت صورة غلاف ماغازان دومينيكال تمثل زهرة تقطّر دماً.

وبعـــد بضعة أسابيع من نشر هذه القصة المبهمة، نشرت كونسويلو ميندوثا دي ريانـــو، وهي أخت بلينيو، مقالة عن ميرثيديس أشارت فيها صراحةً إلى قصة غـــرام غابو الباريسية في خمسينيات القرن العشرين، وأوضحت "أنه ربما أحبها حباً جمـــاً"، وألمحت إلى أن ميرثيديس كانت ساذجة لا تعرف عن ذلك الغرام ولا عن أشياء كثيرة أخرى. وسواء أكانت ميرثيديس قد فهمت مغزى القصة القصيرة التي

نشرت مؤخراً، أم لم تفهمه، فإن هذه المتابعة الصريحة والواضحة تماماً لا بد من أن تكـــون مفاجـــأة لها. ومع هذا، فقد انتهت بهجوم مضاد من المتحدثة في المقابلة. وتسجل كونسويلو ميندوثا: "إنها لم تكن تعبأ بالمعجبات بالأديب، وكانت تقول: أتدرين أن غابيتو معجب دائم بالنساء، وفي إمكانك ملاحظة ذلك من كتبه، ولديه صـــديقات في كل مكان يحبهن حباً جماً بالرغم من أنهن لسن كاتبات. على كل حال، الكاتبات في بعض الأحيان مزعجات. ألا تؤيدين هذا الرأي؟"[6].

في التاســـع عشر من آذار سنة 1980، كان غارسيا ماركيز قد صرَّح خلال زيـــارة لكوبا أنه أكمل - في الأسبوع الماضي - تأليف رواية لا أحد يعرف تقريباً أنه كان منهمكاً في كتابتها، وهي بعنوان **قصة موت معلن**، وقال إن الرواية ضرب من ضروب الرواية المزيفة والتحقيق الصحفي الكاذب، ولكنه يزعم في ما بعد أنها "لا تختلف اختلافاً شديداً عن الصحافة الجديدة في الولايات المتحدة". وكرر صورة أثـــيرة لديه وهي أن كتابة القصص كانت تشبه عملية مزج الخرسانة، في حين أن كـــتابة الرواية تشبه رصف القرميد. ثم أضاف: "الرواية كالزواج: ففي وسع المرء إصـــلاحه يـــوماً فـــيوماً. أما القصة فهي أشبه بقصة حب: إذا لم تنجح فلا يمكن إصلاحها"[7].

لـــيس مـــن إجماع على أن غارسيا ماركيز الجديد كان محبوباً بحسب الخطة المطلـــوبة. فعندما أراد أن يشرح مشكلة الكوبيين لطالبـــي اللجوء السياسي الذين تـــوافدوا جماعات مؤخراً على السفارة البيروفية في هافانا، كتب الكاتب الكوبـــي المنـــشق ريـــنالدو آريـــناس مقالة أراد أن يبين فيها أن غارسيا ماركيز لا يمكنه أن يضلله، وكانت المقالة بعنوان ينطوي على تورية تصعب ترجمتها، لكن في وسعنا أن نبتكر ما يوازيها: *غابرييل غارسيل ماركيز: أهو حمار أم هو دبر حمار؟* مشيراً على وجـــه الخـــصوص إلى نقـــد غارسيا ماركيز المزعوم لركاب الزوارق الفييتناميين وطالبـــي اللجوء الكوبيين، مؤكداً:

إن كاتـــباً مـــثل السيد ماركيز الذي عاش وكتب في الغرب، والذي تترك مـــؤلفاته أبلغ الأثر وتحظى بكل التقدير مما ضمن له أسلوباً في الحياة، وتبوأ مكانة ثقافية مميزة، نقول إن كاتباً مثله يحظى بحماية الحرية والفرص التي منحه

إيّاها العالم، فيلجأ إلى استخدامها للاعتذار عن الشيوعية الشمولية التي تحول المثقفين إلى رجال شرطة، ورجال الشرطة إلى مجرمين، إنما هو لأمر يثير السخط الشديد... لقد حان الوقت كي يتخذ المثقفون في العالم الحر (فلا يوجد غيرهم على الأرض) موقفاً ضد هذا الضرب من مروجي الدعاية للشيوعية الذين يحتمون تحت ضمانات وتسهيلات توفرها لهم الحرية، فيعملون على تقويضها[8].

في مقابلة أجراها آلن رايدنغ ونشرتها صحيفة نيويورك تايمز في أيار، أوضح غارسيا ماركيز الذي زار هافانا هذا الشهر في خضم مشكلة لاجئي كوبا مع الولايات المتحدة، لرايدنغ أنه أسس منظمة هابيس "لتبني قضايا معينة تتطلب الاتصال مع كل من اليسار والحكومة، وتقديم المساعدة من حين إلى آخر لإطلاق سراح ضحايا عمليات خطف يقوم بها الثوار"[9]. يبدو هذا الكلام شبيهاً بكلام شخص يريد الجمع بين نقيضين، واحتمال الوقوع تحت غواية "الحكومة"، بصرف النظر عمن يكون أفرادها. أما بخصوص كتابه الذي طال انتظاره عن كوبا فيقول: "كانت الأبواب كلها مشرّعة أمامي، لكنني أدرك الآن أن الكتاب ينطوي على نقد ربما يستخدم ضد كوبا، ولهذا فإنني أرفض نشره بالرغم من أن الكوبيين يريدون مني أن أمضي قُدماً فيه". ويذكر رايدنغ "على كثرة تردده على هافانا، فإنه يقول إنه لم يستطع الاستقرار فيها: إنني لا أستطيع أن أحيا في كوبا لأنني أمر بتجربتها، وستكون هناك صعوبة في الذهاب إليها الآن وتكييف نفسي مع ظروفها، إذ سأفتقد أشياء كثيرة، فأنا لا أستطيع العيش في ظل الافتقار إلى المعلومات، إنني قارئ نهم للصحف والمجلات العالمية". لكنه لا يستطيع العيش في كولومبيا أيضاً، إذ يقول: "ليست لدي حياة خاصة فيها، فإذا ما ضحك رئيس الجمهورية تعين عليَّ أن أدلي برأيي في ضحكته، وإذا لم يضحك، فينبغي لي أن أوضح السبب الذي أدى به إلى عدم الضحك"، ويمضي رايدنغ قائلاً: "لهذا السبب عاش غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو بصورة مستمرة تقريباً منذ سنة 1961".

وكما أصبح معروفاً، فإن الكتاب الجديد الذي جاء أخيراً بعنوان **قصة موت معلن** لم يكن سوى مشروع قديم حقاً: فهو رواية عن الاغتيال الفظيع الذي تعرض له صديقه الودود كايتانو خنتيلي في بلدة سوكري قبل ثلاثين سنة. كما استمدت

الـــرواية أجواءها من أحداث العنف السياسي في مطلع خمسينيات القرن العشرين، وهي فكرة لم تكن غائبة عن رواية **في ساعة نحس**، لكن الكاتب الذي وهب سبع سنوات من حياته للسياسة، يعود بأحداث الرواية إلى سنوات الماضي، إلى حقبة من الـــتاريخ الكولومبـــي أقل تفجراً من الناحية السياسية، كما أنه لن ينحو باللائمة على النظام الرأسمالي بسبب ما حدث، ولا حتى على الحكومة المحافظة التي لا ترحم، كما هي الحال في رواية **في ساعة نحس**، بل على نظام اجتماعي يبدو أقدم وأعمق بكـــثير، متأثراً تأثراً بالغاً بالكنيسة الكاثوليكية، إلاّ أن هوسه بالفروق الإيديولوجية والسياسية أقل من هوسه بالفروق الأخلاقية والاجتماعية. لقد مثّلت الرواية الجديدة تحولاً هائلاً في نظرته الأدبية بالرغم من عدم ملاحظة قرائه ونقاده ذلك التحول إلا في ما ندر.

تلقـــى شـــاب يدعى ميغيل بالنثيا في يوم زفافه في كانون الثاني سنة 1951، رسالة في بلدته الصغيرة سوكري تفيد أن عروسه الجديدة مارغريتا تشيكا سالاس لم تكن عذراء، فأعادها إلى أسرتها مجللة بالعار. وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه قـــتل شـــقيقاها فكـــتور مانويل وخوسيه خواكين تشيكا سالاس صديقها السابق كايتانو خنتيلي خيمنتو في الميدان العام في البلدة وأمام جميع سكانها بعد اتهامه بغواية مارغريتا وفضِّ بكارتها وهجرها[10]. كان القتل مروّعاً، فقد قُطِّعت جثته إرباً إرباً إلى حـــدٍّ كبير[11]. وكانت والدة خنتيلي صديقة حميمة و(رفيقة) للويسا سانتياغا ماركيز، وكان كايتانو صديقاً حميماً لغابيتو ولأخيه لويس إنريكي ولأخته الكبرى مارغـــوت. كـــان لـــويس إنريكي قد أمضى النهار السابق مع كايتانو، وكانت مارغـــوت بمعيته قبل دقائق قليلة من قتله. وقد شاهده خايمي البالغ من العمر أحد عشر عاماً وهو يُقتل. ومنذ ذلك اليوم أراد غابيتو دوماً أن يكتب قصة هذا الموت الـــرهيب مـــن الداخل، لكن لما كان أولئك الضالعون في الحدث أناساً يعرفهم هو وأســـرته معرفة وثيقة، فقد طلبت منه أمه ألا يكتب أي شيء ما دام والدا البطلين الرئيسين في الحادث على قيد الحياة. (كان القتل سبباً دفع غارسيا ماركيز للهروب مـــن سوكري، في شباط سنة 1951). وبحلول العام 1980، عندما بدأ غابيتو يدون الـــرواية، كانـــت المنية قد وافت معظم أولئك المطلعين على الحادثة، وكان هو في

وضـــع يمكّنه من إعادة ترتيب حقائق القضية وشخصيات الناس الذين يعرفهم على النحو العنيف الذي طبقه على بطله في **خريف البطريرك**[12].

كان غارسيا ماركيز قد امتلك تصوراً للشكل النهائي لكتابه الجديد وهو في طريقه إلى البيت عائداً من رحلة أسرية حول العالم سنة 1979. وفي مطار الجزائر، فتح مشهد أمير عربـــي يحمل صقراً عيني غارسيا ماركيز فجأة على أسلوب جديد لعرض الصراع بين أسرة كايتانو خنتيلي والأخوين تشيكا. وهكذا يتحول خنتيلي المهاجر المنحدر من أصل إيطالي إلى سانتياغو نصار العربـــي، وبهذا يكون أقرب إلى حـــدٍّ ما من تراث أسرة ميرثيديس بارتشا. أما مارغريتا تشيكا صديقة ميرثيديس فتصبح آنخيلا فيكاريو، ويصبح ميغيل بالنثيا متمظهراً بشخصية بياردوسان رومان، فيما يتحول فكتور مانويل وخوسيه خواكين تشيكا سالاس في الرواية إلى الأخوين التوأمين بيدرو وبابلو فيكاريو. أما بقية تفاصيل الكتاب فهي لا تختلف عن تفاصيل الحـــياة الحقيقـــية أو هـــي مشابهة لها. وثمة تعديل على بعض العلاقات، لا سيما العلاقات ذات الصلة بالطبقة. وأخيراً، فإن غارسيا ماركيز يعيد كتابة تلك القضية الدرامية ببصيرة الروائي السحرية.

وفي حـــين تحذف رواية غارسيا ماركيز الحداثوية وأكثر رواياته اعتماداً على ســـيرته الذاتية **عاصفة الأوراق** كل المرجعيات والإشارات الذاتية، فإن **قصة موت معلـــن** التي تتصف بصفات رواية "ما بعد الحداثة" تجعل من بُعد السيرة الذاتية أشد وضوحاً: فالراوي هو غارسيا ماركيز الذي لا نجد لاسمه ذكراً، لكننا نعرف أنه هو، لأن زوجـــته تدعى ميرثيديس (ويبدو أنها تتوقع منا أن نعرف من هي) وأمَّه تدعى لويـــسا سانتياغا، وأخويه هما لويس إنريكي وخايمي، وأخته هي مارغوت. وهناك أخـــت أخـــرى راهـــبة بلا اسم، بل، وللمرة الأولى، أبٌ بلا اسم أيضاً. يتلاعب غارسيا ماركيز هنا مع قرائه ومع الواقع ما دامت هذه التفاصيل ذات الصلة بأسرته وبحياته صحيحة إلى حدٍّ كبير، لكن ليست كلها: فعلى سبيل المثال، كانت لويسا سانتياغا ولويس إنريكي ومارغوت وخايمي في سوكري حقاً في اليوم الذي وقع فيه حـــادث الاغتيال. أما غابيتو وغابرييل إليخيو وعايدة وميرثيديس فلم يكونوا فيها. وإذا كانـــت العمة وينفريدا في مثواها تحت التراب منذ سنين طويلة سبقت حادث

الاغتيال، فإنها تعود للظهور حية في نهاية الرواية. ويظهر أفراد الأسرة لا بأسمائهم وحسب، بل بتصرفاتهم وبطريقة كلامهم أيضاً.

ويذكر الراوي أنه اقترح على ميرثيديس الزواج بها وهي طفلة صغيرة، وهو ما حدث حقاً في الواقع، لكنه يذكر أيضاً في الرواية عاهرة الحي ماريا اليخاندرينا ثيربانتس التي يمنحها اسم امرأة كان يعرفها حقاً في بلدة سوكري، ويمر الشطر الأعظم من الرواية وهو معها في الفراش.

أما بخصوص البلدة، التي لا تحمل اسماً أيضاً، ففيها نهر مثل نهر سوكري نفسها. كما يقع بيت الأسرة على امتداد ضفة النهر بعيداً عن الميدان العام، وفي أيكة مثمرة بثمار المانجا تماماً مثل بيت أسرة غارسيا ماركيز في سوكري. وإن كانت سوكري لا تشتمل على سفن بخارية كبيرة قط، بخلاف ما نقرأ عنها في الرواية، كما لا توجد فيها مركبات من أي نوع، كما لا يمكن مشاهدة كارثاخينا عن بعد مسافة، لكن البلدة من معظم النواحي الأخرى تقريباً تماثل البلدة الأصل تماثلاً تاماً إلى حدٍّ كبير.

عُدَّت الرواية عملاً أدبياً رائعاً، مؤلفها هو حقاً كما يبدو، رجل آخر، كاتب آخر، شخصية مغايرة تماماً. هو الآن أشبه بمصارع ثيران عازم على قتل ثوره بصورة لا تُنسى، درامية وجمالية على حدٍّ سواء. والنتيجة هي أننا أمام رواية تستوي في شعبيتها وقوتها الآسرة التي لا تُقاوم مع مقطوعة بوليرو للموسيقار رافيل. كما أنها موازية لها من حيث محاكاتها الذاتية التي تشفع لها. وبما أن الكاتب يعلن هازئاً ضمناً بمفهوم التشويق، عن موت بطله في السطر الأول من الفصل الأول ويعلنه مرات ومرات في الفصول التالية، وأخيراً، وعلى نحو فريد، ربما يجعل بطله يُعلن، وهو يُمسك بأحشائه كأنها باقة زهور في الصفحة الأخيرة من الرواية: "لقد قتلوني أيتها الآنسة وينفريدا". ثم ينهار البائس المسكين وتنتهي الرواية. وهكذا، فعندما يشير غارسيا ماركيز في عنوانه إلى *موت معلن*، فإنه يشير إلى كل من طبيعة الرواية التي يحكي فصولها والأسلوب الذي اختاره لحكايتها. إن هذه الرواية، بما فيها من مفارقات وتكافؤ الأضداد، تحتشد في كتاب مختصر تعقيداته الاستثنائية التي تتوارى بمهارة عن أعين القراء الذين يشق مؤلفهم الخبير طريقه أمامه برباطة جأش واعتداد بالنفس من دون أي مشقة على ما يبدو.

عندما يعيد بياردوسان رومان زوجته آنخيلا فيكاريو إلى أسرتها في ليلة الزفاف لـــدى اكتـــشافه أنها ليست عذراء، تخبره في آخر الأمر أن مغويها كان سانتياغو نـــصار. وبعد أن ينفذ أخواها عملية قتل نصار انتقاماً لها، يلوذان بالكنيسة ويخبران الـــراهب: "لقد قتلناه ونحن بكامل وعينا ولكننا بريئان". وأعلن محامي التوأمين أن القتل كان دفاعاً مشروعاً عن الشرف، لكن بالرغم من أنهما لم يكونا نادمين، إلا أنهمـــا بذلا كل ما في وسعهما لتحذير نصار أو أن يوقفهما الآخرون ويحولوا دون قتلهما إياه، وانتظراه في مكان حيث من غير المرجح أن يتمكنا من مشاهدته، ولكن حيث يمكن لكل شخص آخر أن يشاهدهما منه، يعلق الراوي: "ما من موت أُعلن بمـــثل هذا الشكل". فبقية سكان البلدة يرون أنه ليست هناك سوى ضحية واحدة حقيقـــية وهو العريس المخدوع بياردوسان رومان الذي يبقى لغزاً ويقول أي شيء للـــراوي بعد ثلاثة وعشرين عاماً عندما يلتقيان ثانية. ومما يبعث على العجب أن آنخيلا تغرم به غراماً شديداً ويستحوذ على فكرها منذ اللحظة التي يرفضها فيها بعد أن كانـــت مترددة في الزواج به. أخيراً، يظهر للعيان بعد أن يطعنا في السن ويحمل ألفي رسالة غير مفتوحة ويحييها تحية مقتضبة: "حسناً، ها أنا هنا".

الـــشرف والعـــار ومرض الإحساس المفرط بالرجولة تشكل كلها موضوع الـــرواية الاجتماعـــية المركـــزية، شأنها شأن عديد الأعمال الإسبانية منذ "العصر الذهبـــي" في القرن السابع عشر وحتى مسرحيات لوركا في القرن العشرين. (كما يمـــثل اختيار هذا الموضوع انعطاف المؤلف الواضح المحافظ). ولعل الخلاصة المحتملة الـــتي يطرحها غارسيا ماركيز هي: الرجال يستحقون العنف الذي يمارسه أحدهم ضد الآخر بسبب ما يفعلونه بالنساء.

لا بـــد من أن قصة العقيد ماركيز وميداردو جالت في ذهن غارسيا ماركيز مرة أخرى طوال عملية كتابته هذه الرواية. إلى أي حدّ نكون مسؤولين عن أفعالنا، ونسيطر على مصيرنا؟ المفارقة تعمل عملها في كل المستويات: الحقيقة العبثية النهائية هـــي أن ســـانتياغو نصار قد لا يكون هو الذي ارتكب ذلك العمل الذي تسبب بقـــتله، وأن الأخـــوين لم يكونا راغبين حقاً في قتله. إنه مزيج من القدر وسقوط الإنسان، والأهم من هذا كله هو تشوش الاثنين مما يتسبب بالموت.

لعل العنوان **قصة موت معلن** هو أكثر العناوين التي اختارها غارسيا ماركيز تـــأثيراً، إذ اســـتخدم في آلاف العناوين الصحافية والإشارات في المجلات. ويرجع الـــسبب كمـــا يتضح إلى أنه ينطوي على أن كل ما يُعلن يمكن منعه، وأن القوة البـــشرية يمكن أن تقرر مسبقاً العالم (بالرغم من أن الرواية تبدو، ويا للمفارقة، أنها ترســـل رســـالة مغايرة). على كل حال، إن كتاب غارسيا ماركيز المبكر يميل إلى الإيحاء بأن هناك أشياء تخضع للقوة البشرية أكثر مما يعتقد الوعي الجماعي في أميركا اللاتينية. أما الكتاب الأخير، فيميل على وجه العموم إلى التشكيك على نحو أكبر في مـــا يخضع وما لا يخضع للقوة البشرية، ويميل إلى القول إن معظم الأشياء لا تخضع لهـــا. ومما ينطوي على تناقض ظاهري هو أن العمل الأول يبدو أكثر تشاؤماً، لكنه مفعم حقاً بتفاؤل ضمني ذي منظور اشتراكي، ويهدف إلى تغيير العقول والقلوب. الكتاب الأخير أكثر زهواً، لكنه بوجهة نظر عالمية لا تبتعد كثيراً عن اليأس.

* * *

في نهايـــة المرحلة الممتدة من نشاطه السياسي والدعائي من العام 1973 وحتى العام 1979، ولاتخاذ التدابير اللازمة للمستقبل الذي حدسه بفطرته، بدأ الآن يعتنق دوراً طالمـــا رفـــضه، ألا وهو الشهرة. فبعد إكمال روايته **قصة موت معلن** وتوقع رجوعه إلى كولومبيا، تحدث إلى أصدقائه العاملين في الصحافة كي يأخذ على عاتقه ضـــرباً آخر من الصحافة. فمقالاته الجديدة كانت عودة إلى ذلك النمط الكتابـــي الـــذي ســـبق له أن انهمك فيه في عقدي الأربعينيات والخمسينيات في كارثاخينا وبارانكيا، تميل إلى الأدب أكثر مما تميل إلى الصحافة[13].

وكانـــت فضلاً عن كونها مقالات وتعليقات سياسية وأدبية، أشبه ما تكون بمذكـــرات مسلسلة، ورسالة أسبوعية إلى أصدقائه، ونشرة إلى عشاقه، ومذكرات عامـــة متصلة[14]. لكن تلك المذكرات لم تكن مذكرات كاتب عمود احتاج إلى اسم مستعار كي يمنح نفسه هوية، بل كانت إلى حدٍّ بعيد مذكرات شخص ما.

أرســـل غارســـيا ماركيـــز مقالاتـــه للنشر على وجه الخصوص في صحيفة الاســـبكتادور في بوغـــوتا وصحيفة الباييس في إسبانيا وغيرهما من صحف أميركا اللاتينية وأوروبا. وكان الشيء المثير في هذه المقالات منذ البداية، هو التحول الكبير

الـــذي طـــرأ علـــى مـــوقفه. فبالرغم من أن عدداً كبيراً من تلك المقالات يعالج موضـــوعات سياســـية راهنة، إلا أن النبرة اليسارية كانت قد تلاشت فيها. كان الرجل الذي يكتب تلك المقالات رجلاً عظيماً كأنه روائي من القرن التاسع عشر حظـــي بالإعجاب والتكريم على نطاق عالمي. كان لا يزال ودوداً - حقاً إنه لأمر عظيم أن يكون هناك مثل هذا الرجل المهم بهذه الدرجة من الود (كلاهما في حالة ملائمـــة لحـــسن الكلام) - لكن لم تعد فيها تلك الروح الرفاقية الفريدة التي كان يكـــتب بهـــا أعمدته *الزرافة* أو الروح الرفاقية التي عرف بها خلال كتاباته في مجلة التارناتيفا. لقد كان هذا التحول في الموقف وفي النبرة واحداً من أكثر عوامل شهرته تـــأثيراً الـــتي تنطوي على براعة مؤكدة. من الواضح أن هذا الصوت الهادئ رابط الجـــأش الـــذي كان يعرف كل شيء و لم يطالب بأي شيء، من شأنه أن يسبب المتاعب إذا ما عاد صاحبه إلى بوغوتا حيث تنشر مقالاته كل يوم أحد.

بـــدأت مقـــالات غارســـيا ماركيـــز بالظهور منذ شهر أيلول سنة 1980، واســـتمرت من دون انقطاع حتى آذار سنة 1984، فوصل عددها إلى مئة وثلاث وســـبعين مقالة أسبوعية خلال مرحلة من أكثر مراحل الكاتب نشاطاً على امتداد ســـني حـــياته[15]. وممـــا يثير الدهشة أن المقالات الأربع الأولى كانت عن جائزة نـــوبل[16]. وكـــشفت بين سطورها عن أن غارسيا ماركيز لم يقم ببحث شامل وحـــسب، بـــل كـــان يعرف الشيء الكثير عن ستوكهولم، كما أنه التقى عضو الأكاديمـــية البارز آرتور لاندكفيست وزاره في منـــزله. وبحث غارسيا ماركيز في تـــشكيل لجـــنة الجائزة، وطريقة اختيار المرشحين، وإجراءات طقوس منح الجائزة. وكـــتب في مقالته الأولى أن الأكاديمية السويدية تشبه الموت، إذ إن اختياراتها غير متوقعة دائماً؛ لكن هذا لا ينطبق على حالته!

قدم غارسيا ماركيز إلى قرائه منذ البداية الانطباع بأنه سمح لهم بدخول "حياة الأغنياء والمشاهير"، وما تنطوي عليه تلك الحياة من "شراب وأحلام وكافيار"[17]. و لم يعمـــد غارســـيا ماركيز إلى سرد وقائع حياته الراهنة وأسلوبها والناس المهمين الذين يعرفهم وحسب، بل تذكر ماضيه أيضاً كأن ذلك الماضي يهم قراءه في جميع أنحاء العالم. يبدو وكأن خمسة وعشرين عاماً انصرمت بين آخر مقالة كتبها في مجلة

التارناتـيفا في سنة 1979 والمقالة الأولى التي نشرتها صحيفة الاسبكتادور في أيلول 1980، وهـو أمر يشبه ما قد يحدث لإحدى شخصيات خورخه لويس بورخس؛ كمـا في المعجـزة الـسرية، في الوقت نفسه، تمكن غارسيا ماركيز من شنّ حملة متواصـلة ضـد الحملة الإمبريالية التي تقوم بها حكومة ريغان في أميركا الوسطى والكاريبـي من دون أن ينأى بنفسه بعيداً عن اتجاهات الرأي العام الليبرالي العالمي، فكـان ذلـك إنجازاً رائعاً يشتمل، من بين ما يشتمل، على استبدال التأكيد على الأصدقاء الثوريين وحركة بيتكوف وزعيم الثوار الساحلي خايمي باتمان بإشارة إلى الـسياسيين الديمقراطيين المحترمين مثل غونثاليث وميتران وكارلوس أندرياس بيريث وألفونسو لوبيث ميتشيلسين.

واكتـشف قـراؤه أن هـذا الرجل العظيم يخشى، شأنه شأن الكثيرين منهم، ركـوب الطائرة، وتمكن من البوح بسر مفاده أن هناك رجالاً عظماء آخرين يعانون هـذا الخوف مثل بونويل وبيكاسو وحتى كارلوس فوينتس الذي كان كثير السفر. لكنه بدا بالرغم من هلعه يواصل السفر، ووصف كل رحلة من رحلاته الجذابة لقرائه المعجـبين "أين أذهب؟ ومع من؟ وكيف هم؟ وما هي تصرفاتهم الغريبة؟". (إذ من الواضـح أن لكـل واحد منا تصرفاته الغريبة القليلة). وكان يعتقد بالخرافات أيضاً ويـزعم أنها تستهويه كثيراً، بل كانت تداخله شكوك ويشعر بعدم الأمان أيضاً: ففي شـهر كانـون الأول سـنة 1980 فكّر وهو في باريس في قضية اغتيال جون لينون والحنين الجارف الذي انتاب أجيالاً متعددة لموسيقى البيتلز وقال برثاء: "في عصر هذا اليوم، وفيما أنا أفكر في كل ذلك وأرنو من خلال نافذة كئيبة إلى الثلج المتساقط أنوء بأكثـر من خمسين سنة على كاهلي ولا أزال لا أعرف حقاً من أنا إلى حدٍّ كبير، أو ماذا أفعل في هذا المكان، لدي انطباع أن العالم لا يختلف منذ اللحظة التي ولدت فيها إلى اللحظـة الـتي بدأ فيها فريق البيتلز بالغناء"[18]. وأكد غارسيا ماركيز أن لينون ارتبط اسمه قبل كل شيء بالحب. وربما ارتبط اسمه – كما قد يظن القراء – بالسلطة والعزلة وغياب الحب أكثر مما ارتبط بأي شيء آخر. لكن، سيتغير هذا كله.

كانت مقالة غارسيا ماركيز عن جون لينون رسالة مشفّرة. لم تكن باريس أو أوروبـا هـي الجواب. كان بحاجة إلى الرجوع إلى كولومبيا حيث تدور أحداث

روايـــته الأخـــيرة مرة أخرى، وهو ما أعلنه مراراً في سلسلة من المقابلات في ذلك الوقت. كان يقطع الوعود بالرجوع منذ سنين طويلة، لكن البلاد سرعان ما بدأت تميل مرة أخرى إلى الفوضى مع إغلاق مجلة التارناتيفا في بواكير العام 1980: موجة جديـــدة من العنف، موجة جديدة من تهريب المخدرات، ونمط جديد من جماعات مسلحة اقترنت بعمليات مذهلة.

إلى مثل هذا الجو عاد غارسيا ماركيز وميرثيديس إلى كولومبيا طربيه الرجعية والقمعـــية في شـــهر شباط سنة 1981. واتخذ غابيتو الترتيبات اللازمة لالتئام كبير لـــشمل الأســـرة في كارثاخينا حيث تألقت الخالة ألفيرا كالنجمة، "الخالة با" التي أدهشت ذاكرتها جميع الحاضرين[19]. وبدأ يعمل في الشقة التي اشتراها مؤخراً لأخته المفـــضلة مارغـــوت في بـــوكا غراندي. وزار الشاعر والناقد الكولومبـــي خوان غوستافو كوبو بوردا غارسيا ماركيز بعد وصول الأخير إلى كولومبيا بوقت قصير وسمـــح له أن يأخذ مخطوطة **قصة موت معلن** بعد أن قرأها على مدى ساعتين في الطابق التاسع عشر في أحد الفنادق القريبة[20]. وقال كوبو بوردا إن الكاتب كان يـــشتغل كـــل يوم في شقة مارغوت، ثم يهبط السلالم إلى الطابق الأرضي ويقود السيارة لزيارة أمه في مانغا، ويصغي إلى "نكات أبيه غير المفهومة".

في العشرين من آذار، حضر غارسيا ماركيز حفلةً نظّمتها السفارة الفرنسية في بوغـــوتا وهناك التقى مرة أخرى بكوبو بوردا، وهو اللقاء الذي اتفق الاثنان على وصفه بأنه "لقاء الكاتشاكو نحيل العود والساحلي الوغد". وقال كوبو بوردا إنه لم يـــشاهد مـــن قبل غارسيا ماركيز بمثل تلك السعادة وهو في كولومبيا. لكن هذا الشعور بالرضا كان وقتياً. فقد تكلم الاثنان في اليوم الذي تقرر فيه أن يعلن رئيس الجمهـــورية قطع العلاقات مع كوبا. ثم هناك ما هو أسوأ: فقد بدأ غارسيا ماركيز يتلقى معلومات تفيد أن الحكومة تحاول إيجاد علاقة بينه وبين حركة الثوار المعروفة بالاسم أم – 19 التي كانت مرتبطة بدورها بكوبا، بل وصلت الشائعات حدّ القول إنه ربما يتعرض إلى عملية اغتيال. وفي وقت لاحق، أخبر غارسيا ماركيز الصحفيين المكـــسيكيين أنه سمع أربعة تفسيرات لقصة واحدة مفادها أن الطغمة العسكرية في كولومبـــيا تخطـــط لاغتـــياله[21]. وفي الحادي والعشرين من شهر آذار أحاط به

الأصدقاء الذين تجمهروا لحمايته وقدّم طلباً للجوء في السفارة المكسيكية وأمضى ليلته فيها[22]. وعند الساعة السابعة والدقيقة العاشرة من مساء اليوم التالي، سافر جواً تحت حماية سفيرة المكسيك في كولومبيا ماريا أنطونيا سانتشيث - غافيتو. ولدى وصوله مطار مدينة مكسيكو، خرجت مجموعة أخرى من أصدقائه وعدد أكبر من الصحفيين للترحيب به. وعلى الفور وفرت له حكومة المكسيك حراسة شخصية.

تحدث غارسيا ماركيز مطولاً إلى الصحافية الكولومبية مارغريتا فيدال في أثناء هروبه. وقد كتبت تلك الصحافية مقالة معمقة عن الأحداث المثيرة التي مرَّ بها[23]. وفيما هما يحلقان فوق البحر الكاريبي، أكد لها غارسيا ماركيز أن كاسترو وتوريخوس لا يزوّدان الثوار الكولومبيين بالسلاح، فقد توصل كاسترو إلى اتفاق مع لوبيث ميتشيلسين ينص على عدم دعم كاسترو الثوار بالسلاح والتزم بذلك. ثم يعود غارسيا ماركيز إلى كولومبيا عندما أصبح لوبيث ميتشيلسين رئيساً للجمهورية مجدّداً كما كان يتوقع، وقال إنه يناهض الإرهاب، وأن الثورة هي الحل على المدى البعيد مهما كلف ذلك من تضحيات، لكنه لم يعرف كيفية تحقيق ذلك. إذ طالما كانت كولومبيا بلداً ضعيف الوعي، ناضجة لما هو شعبوي ولكن ليس للثورة. ولم يعد الكولومبيون يثقون بأي شيء، فالسياسة لم توصلهم إلى أي مكان، وبات الرأي السائد اليوم هو أن لكل واحد طريقه مما شكل تهديداً كاملاً بالتفكك الاجتماعي. إن بلداً بلا يسار منظم، أو بيسار عاجز عن إقناع أي فرد، ويمضي حياته ممزقاً نفسه إلى أشلاء، لا يمكن أن يحقق شيئاً.

هذا هو السياق العام الذي ستنتشر فيه رواية بعنوان **قصة موت معلن**. ويمكن للمرء أن يتخيل الضباط الكولومبيين جالسين في ثكناتهم العسكرية قبل بضعة أيام ويضحكون بملء قلوبهم على المفاجأة غير السارة والمفارقة التي يعدونها لليساري الساحلي المغرور. لكن في غضون ذلك كله، كان الطير قد حلّق بعيداً، وجرى الاحتفال في بوغوتا برجوعه إلى الوطن من دونه.

اكتشف القراء أن رواية **قصة موت معلن** تسرد أحداث قصة لا يمكن أن تكون مثيرة أكثر. لكنها بالرغم من ذلك، واحدة من تلك الروايات التي ستكون لها

قصة مثيرة بعد نشرها. بلغت مبيعاهًا أرقاماً خيالية حال صدورها في وقت واحد في كل من إسبانيا (عن دار نشر بروغيرا) وكولومبيا (أوبيخا نيغرا) والأرجنتين (سوداميريكانا) والمكسيك (ديانا). وفي الثالث والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1981، أفادت صحيفة إكسيلسيور أن مليون نسخة طبعت من الرواية للعالم المتحدث بالإسبانية، بمعدل ربع مليون نسخة بغلاف ورقي في كل قطر من الأقطار الأربعة المذكورة سابقاً، وخمسين ألف نسخة بغلاف سميك في إسبانيا. وأشارت دار نشر أوبيخا نيغرا إلى أنها فرغت من طبع الكتاب في شهر نيسان وهي أطول مدة استغرقها طبع كتاب بمفرده في تاريخ أميركا اللاتينية. وفي السادس والعشرين من نيسان، أوضحت إكسيلسيور أن مئة وأربعين ألف دولار أنفقت على الإعلان عن الرواية في المكسيك وحدها، وأنها ترجمت إلى إحدى وثلاثين لغة، وباعها باعة الصحف وباعة العلكة في الشوارع في جميع أنحاء أميركا اللاتينية.

وأُجريت مقابلة مع خوسيه بيثنتي كاتاراين مدير دار نشر أوبيخا نيغرا حال صدور الرواية[24]. واتضح في ما بعد أن مليوني نسخة من الرواية طبعت وليس مليون نسخة فقط: مليون نسخة في كولومبيا ومليون نسخة إضافية في كل من إسبانيا والأرجنتين؛ بالرغم من أن كاتاراين لا يعتمد عليه أبداً بخصوص الأرقام، وهو ما يلائم اسم دار نشره أوبيخا نيغرا ومعناه الخروف الأسود*. وإذا كان أكبر رقم سابق لعدد نُسَخ أول طبعة كولومبية من أي كتاب يقدر بعشرة آلاف نسخة، فإن كتاب غارسيا ماركيز الجديد طبع منه أكثر مما طبع من أي طبعة أولى أخرى لأي كتاب أدبي نشر في العالم. إن طبع مليوني نسخة من الكتاب يعني شراء مئتي طن من الورق، وعشرة أطنان من الورق المقوّى، وألف وستمئة كيلوغرام من الحبر، وكانت هناك حاجة إلى خمس وأربعين طائرة من طراز بوينغ 727 لنقل نُسَخ الرواية خارج كولومبيا وحدها. وفي التاسع والعشرين من نيسان، صرّح غارسيا ماركيز، وكأنه يريد المساعدة في كل هذا الذي يجري من حوله، قائلاً إن "**قصة موت معلن** كانت "أفضل رواياتي". إلا أن بعض النقاد الكولومبيين زعموا في الثاني عشر من أيار أن الكتاب ليس سوى "نصب"، وأنه أطول بقليل من قصة طويلة قصيرة، وهو لم يضف شيئاً إلى منجزات الكاتب الأولى[25]. غير أن الرواية تبوّأت المكانة الأولى

بـــين مبـــيعات الكتب في إسبانيا حيث قُورنت بكتاب Fuenteovejuna (قرية في قرطبة) الذي ألّفه لوبـــي دي بيغا، وظلت تحتل ذلك الموقع حتى الرابع من تشرين الـــثاني. وكانـــت الرواية أكثر الكتب رواجاً في إسبانيا سنة 1981. لقد عاد غابو الروائي الكبير بنجاح مدوٍّ.

وفي السابع من أيار رفع محامٍ من بوغوتا يدعى إنريكي ألفاريز دعوى قضائية ضـــد غارسيا ماركيز يطالبه فيها بتعويض مقداره نصف مليون دولار لافترائه على سمعـــة الأخـــوين اللذين تصورهما الرواية. وبخاصة أن القضاء حكم "ببراءتهما" من الجريمة المنسوبة إليهما، على حين أظهرتهما الرواية على أنهما قاتلان. إن التفكير في كايتانو خنتيلي سيِّئ الحظ، وربما البريء أيضاً، والذي قُتل حقاً - وإن لم يكن قتله ليستند إلى قانون - على أيدي الأخوين قبل ثلاثين سنة، من شأنه أن يزيد الطين بلة بالانتقام[26]. واجتمع في كولومبيا بعض من "شخصيات الرواية الأساسية" صُوّروا فـــيها، أو خُيّل لهم أنهم صُوّروا فيها، مع عدد من أفراد الأسرة الآخرين الذين جاء قسم منهم من مناطق نائية من العالم لمناقشة مظالمهم. لكنهم سيصابون جميعاً بخيبة أمل ولن يحصلوا على جزء صغير من أرباح غارسيا ماركيز الخيالية لأن المحاكم في كولومبيا، البلد الذي يتمتع فيه معظم أفراد الطبقات الوظيفية بثقافة أدبية راسخة، كـــان في وســـعها أن تجـــد الفـــوارق الأدبية الدقيقة بين الحقيقة التاريخية والنص القصصي، وبهذا تعززت مكانة حرية المؤلف على نحو لا لبس فيه.

أضـــحت رواية **قصة موت معلن** من أنجح روايات غارسيا ماركيز، إن على صعيد القراء أو على صعيد النقاد؛ فما إن تُقرأ الرواية حتى تنطبع في الذاكرة. لكن لعلها من ناحية أخرى أشد مؤلفاته تشاؤماً. إن هذا التحوّل ذو صلة على ما يبدو بإحباطات نشاطه السياسي من عام 1974 وحتّى عام 1980 ولظروف كولومبيا في نهاية تلك المرحلة.

كان غارسيا ماركيز في باريس في الحادي والعشرين من أيار لحضور مراسم تنصيب فرانسوا ميتران، وكان معه كارلوس فوينتس وخوليو كورتاثار وهورتينسيا أرملـــة آليـــندي. وكانت أوّل حفلة من حفلات التنصيب الرئاسية التي يتعهدها أصدقاؤه الشخصيون على مدى السنوات المقبلة بالرغم من أن أيّاً من تلك الحفلات

لم تكـــن أكثر إدهاشاً واستعراضاً وشاعرية من ذلك المشهد الاستثنائي الذي صنعه سياسيوه الأشد وعياً بالذات، والأشد وعياً بالتاريخ. كم تغير غارسيا ماركيز منذ الأيام التي لم يرقَ فيها إلى ما هو أكثر من مستوى الصعاليك الباريسيين![27]، وفي الـــشهر التالي، نراه في هافانا حيث يمكث في جناح في فندق الريفيرا، وهو الجناح الذي أبقته السلطات محجوزاً له دائماً. واستقرت علاقاته بفيدل على أسلوب معين. فقد أصبحا يتمتعان بإجازة معاً في مقر إقامة كاسترو في كايو لارغو وكانا يمضيان الـــوقت، وحـــدهما في بعض الأحيان، أو برفقة ضيوف آخرين في أحيان أخرى، بالإبحـــار بيخته السريع أو بزورقه أكواراماس. ولقد استمتعت ميرثيديس في تلك المناسبات على وجه الخصوص لأن لفيدل أسلوباً خاصاً في معاملة الناس، إذ يصغي بانتباه وبأدب كأيام زمان، مما يبعث على السرور والإحساس بالمبالغة في التقدير.

أضـــحى غابـــو وفـــيدل الآن في مـــناخ يـــشجع على الاسترخاء، مما دفع الكولومبـــــي أن يؤدي دور الأخ الأصغر المتردد، غير الرياضي والعابس، والمتذمر دائمـــاً مـــن المتاعب والجوع وغير ذلك من ضرورات الحياة سيئة الحظ. إنه تمثيل صامت راق فيدل وأثار ضحكه، حقاً إن وهن الناس لم يكن ليعجب القائد كثيراً، لكـــن في حالة غارسيا ماركيز، ثمة أسباب تدفع للاستثناء. فهو لم يتصرف تصرف الأخ الأصغر مغالياً على وجه العموم في التقدير والاحترام وحسب، بل كان يعرف أيـــضاً مـــتى يُمـــازح، ومتى يسعى للضحك، ولأي مدى يصل. إن فيدل لم يكن بالضرورة ممن يحترمون الكتّاب عموماً - ولا حتى حرياتهم - لكنه كان يقر دائماً عندما يكون أحدهم متفوقاً في عمله.

أمـــا الشخص الآخر الذي احترم غارسيا ماركيز أكثر من احترام كاسترو له وعامله معاملة الأخ الأكبر سناً، والأكثر حكمة، فهو الجنرال توريخوس. لقد أخبرني فيلـــيب غونثالـــيث في ما بعد أن من ذكرياته التي لا تنسى عن توريخوس وغارسيا ماركيز تلك التي كان الاثنان يحتسيان فيها الشراب في أحد بيوت توريخوس. وبعد الإفراط في الشرب والقصف، بدأت زخة مطر مدارية، فما كان من الاثنين إلا أن هـــرعا وهبطا من فوق الشرفة حيث كانا يحتسيان الشراب وتدحرجا فوق العشب تحت المطر الغزير، يضربان الهواء بسيقانهم، ويقهقهان ضاحكين مثل صبيين صغيرين

أحـــبّا أن يكونا معاً"[28]. زار غارسيا ماركيز توريخوس أواخر شهر تموز مع الرئيس الفنـــزويلـــي كارلـــوس أندرياس بيريث وألفونسو لوبيث ميتشيلسين الذي كان غارســـيا ماركيز يأمل في فوزه في انتخابات العام المقبل. وأمضى الجميع عطلة نهاية الأســـبوع علـــى جزيـــرة كونتادورا الجميلة. ومكث غارسيا ماركيز مع صديقه العـــسكري بضعة أيام أخرى ثم قفل راجعاً إلى المكسيك في لحظة كان العالم كله، ومعـــه أميركا اللاتينية، يشاهد على شاشات التلفزة شريطاً متلفزاً عن زواج الأمير تـــشارلز ولـــيدي ديانـــا سبنسر في لندن. لكن أسوأ ضربة عاناها غارسيا ماركيز شخـــصياً، والأســـوأ سياسياً منذ مصرع سلفادور آليندي عام 1973، حصلت في الحـــادي والـــثلاثين من تموز عندما أفادت الأنباء بمقتل توريخوس في حادث تحطم طائـــرة على جبال باناما. وكان غارسيا ماركيز قد قرر في آخر لحظة ألاّ يرافقه في تلك الرحلة.

توقّعت الصحافة كثيراً إن كان توريخوس قد اغتيل وإن كان غارسيا ماركيز سيحضر مراسم التشييع التي ستجري بعد أربعة أيام، وكانت مفاجأة كبرى وخيبة أمـــل عظـــيمة عندما لم يحضر. وعلى الفور، دخل تفسيره سفر تبريرات غارسيا ماركيـــز الكلاسكية إذ قال: "إنني لا أدفن أصدقائي"[29]. كانت عبارة غريبة من مؤلـــف **عاصـــفة الأوراق وليس للعقيد من يكاتبه** اللتين تتضمنان عمليات دفن وتركزان على الافتراض المتمثّل بأن التأكد من دفن الجثة دفناً يليق بكرامتها واجب أخلاقي أساساً - ولعله أقل متطلبات إنسانيتنا غير الأكيدة دائماً - كما هو الأمر في قصة أنتيغونا.

لم يـــدفن غارسيا ماركيز أصدقاءه، لكنه استمر في الثناء عليهم. فقد ظهرت مقالته التأبينية *توريخوس* في صحيفة الاسبكتادور في التاسع من آب خلال حضوره معرض غاليسيه في كورونه[30]. رأى البعض في سلوكه هذا تهوراً يجمع بين موقفين متناقضين. لكن موت توريخوس كان قد أصابه في الصميم. فقد أكدت ميرثيديس في وقـــت لاحـــق: "كـــان هو وتوريخوس صديقين عظيمين وقد أحبه حباً جماً، واضطرب اضطراباً شديداً لمصرعه حتى إن المرض داهمه لشدة تأثره. وافتقده كثيراً حـــتى إنه لم يذهب بعد ذلك إلى باناما"[31]. ثم يتذكر غارسيا ماركيز لاحقاً من

دون سبب: "كان يسافر مضطراً، فمنح القدر بذلك فرصاً كثيرة تماماً مثلما منح أعداءه. لكن ثمة شائعة على مستوى عالٍ تفيد أن أحد معاونيه ترك جهاز الهاتف اللاسلكي المتنقل على منضدة قبل وقت قصير من الرحلة الرسمية. ويقولون إن الجهاز تم استبداله بآخر يحتوي على متفجرات عندما ذهب معاونه ليأخذه معه". ويضيف غارسيا ماركيز قائلاً: "إذا لم تكن القصة حقيقية، فإنها جذابة من الناحية الأدبية"[32].

السنة هي سنة الانتخابات في كولومبيا، وكان لوبيث ميتشيلسين المدعوم من غارسيا ماركيز هو المنافس الليبرالي للمرشح المحافظ بليساريو بيتانكور. وكان غارسيا ماركيز قد حذّر في الثاني عشر من آذار قائلاً إن لوبيث ميتشيلسين هو أفضل أمل للديمقراطية في البلاد[33]. وبعد يومين اثنين، كشف في عموده أنه هو نفسه على لائحة فرقة موت يمينية (غير الحزب السياسي الذي يتزعمه بيتكوف في فنزويلا). وكان على لائحة الأسماء أيضاً ماريا خيمينا دوثان التي سبق لها أن سافرت لمقابلة رجال حركة أم – 19 قبل أسبوعين. اتّهم غارسيا ماركيز الحكومة والجيش بالتواطؤ مع هذه الجماعة اليمينية، وقال إنه كان يأمل دوماً أن يلقى مصرعه "على يدي زوج غيور، وليس على يدي أكثر الحكومات خرقاً في تاريخ كولومبيا"[34].

بالرغم من دعم غارسيا ماركيز للوبيث ميتشيلسين، فإن أغلبية 55 بالمئة من المقترعين الذين أدلوا بأصواتهم لم يوافقوا، وفاز المرشح المحافظ بليساريو بيتانكور بنسبة 48 بالمئة. 8 بالمئة من الأصوات مقابل 41 بالمئة لصالح لوبيث، بعد أن أخذ الليبرالي المنشق لويس كارلوس غالان 10. 9 بالمئة من الأصوات، ففاز بذلك مرشح المحافظين. ورفع الرئيس المنتهية ولايته طربيه حالة الحصار التي كانت مفروضة بين حين وآخر منذ أربعة وثلاثين عاماً في ماكوندو. هذا وقد شن ديبغو ابن بيتانكور حملة ضد والده بالإنابة عن حزب العمال الثوري الماوي. وأعلن بيتانكور حال تسلمه مقاليد السلطة عفواً عن حركات الثوار وبدأ أول مباحثات جادة في الأزمنة الحديثة مع الثوار لإحلال السلام.

لم يسر أول تدخّل لغارسيا ماركيز في السياسة الديمقراطية على ما يرام، ثم حلت الآن مصيبة أخرى في أميركا اللاتينية، فخييت ظنه. ففي مطلع ذلك الشهر

احتل الجيش الأرجنتيني جزر فوكلاند جنوبي المحيط الأطلسي، فأرسل البريطانيون قوة عسكرية لاستعادتها. لقد كانت ظاهرة طغمة عسكرية فاشية ولكنها تمثل، بالرغم من ذلك، نظاماً أميركياً لاتينياً يقف في مواجهة دولة أوروبية محل اختبار لبلاغة غارسيا ماركيز الديمقراطية الحديثة على مدى الاثني عشر شهراً المقبلة إذ وجد نفسه، مثله مثل فيدل كاسترو، يفضل الدكتاتوريين في أميركا اللاتينية على المستعمرين الأوروبيين. وجاء أول تعليق له في مقالة نشرت في الحادي عشر من نيسان بعنوان: *مع أهالي مالوين أو من دونهم*[35]. وفي الأسابيع القليلة التالية وبعد أن بات واضحاً أن القوات الأرجنتينية تمضي نحو الهزيمة، ازداد الشعور بالذعر في القارة.

في الواقع، إن كل الأخبار السياسية في قارة أميركا اللاتينية منذ انتصار الثوّار الساندينيّين عام 1979، بدت وهي تسير من سيِّئ إلى أسوأ، ثم كانت هناك مشكلات النظام الشيوعي في بولندا حيث كانت حركة نقابات العمال التي تقودها "تضامن" تشكك في شرعية الحكومة. وبدا كل شيء وهو يسير في الاتجاه غير الصحيح برأي غارسيا ماركيز الذي كان آنذاك يسافر جواً عبر المحيط الأطلسي ويخبر قراءه عن تلك الرحلات؛ ومن ضمنها رحلة بطائرة الكونكورد وسط "رجال أعمال فاتري الشعور وعاهرات فاتنات من الطبقة العليا"[36]. كما أنه سافر إلى "بانكوك الرهيبة" بعد أن استأجر سيارة رولز رويس في هونغ كونغ (لا أحد من أصدقائي يملك مثلها)، مقنعاً نفسه مرةً أخرى، وهو في عاصمة العالم من حيث السياحة الجنسية، أن الفنادق الأميركية هي أفضل الأماكن لممارسة الحب حيث الهواء النقي والملاءات النظيفة[37]. لكن يبدو أن موضوعاته الأدبية قد نضبت. فبعد أن أفلَت شمس الاشتراكية، وبعد أن بدا أن العزلة والسلطة اللتين طالما كتب عنهما، قد قُدِّر لهما الانتشار في جميع أنحاء الكرة الأرضية، شعر بالحاجة إلى العثور على موضوع آخر، موضوع يغذي به تفاؤله ويلهم الآخرين في الحذو حذوه. ما الذي يمكن أن يكون عليه هذا الموضوع؟ الحب بلا جدال! سيصبح غابو تشارلي شابلن عالم الأدب، وسيجعل العالم يبتسم ويحب.

كانت أول علامة عن هذا التحرك تتمثل بمقالة بعنوان *امنحيني قبلة يا بيغي* تستند أساساً إلى رسالة كتبت على جدار في الشارع الذي يقطن فيه غارسيا

ماركيز في مدينة مكسيكو[38]. وقال إنه تأثر لهذه الدعوة الساذجة في عالم تسوده أخبار مزعجة دائماً، وبخاصة تلك الآتية من كولومبيا. لكنه ارتاب في أن الحب يعود عودة حميدة. (وكان قبل أربعة أشهر لا أكثر قد أسرَّ لقرائه أنه لا يجرؤ أبداً على الكتابة ما لم تكن هناك وردة صفراء على مكتبه؛ وضعتها بلا شك زوجته الحبيبة)[39]. القضية هي أنه ليس معادياً للجنس - فقد قال للعالم أجمع آنذاك، ومن ذلك المكان، تبدل وهو في سن الثالثة عشرة - لكن الجنس يكون أفضل مع البقية، إذ يكون حباً كاملاً. مرة أخرى ازدادت مبيعات الروايات، بحسب رأيه، كما أن أغاني البوليرو الأميركية اللاتينية القديمة عادت للظهور مرة أخرى.

لعل هذا كله لم يكن محض مصادفة، إذ وافق بعد أكثر من رفض على إجراء مقابلة طال انتظارها معه في مجلة بلاي بوي في باريس عاصمة الحب. وكانت المجلة قد أرسلت كلوديا دريفوس، التي أصبحت في ما بعد واحدة من أنجح اللواتي يجرين مقابلات، كما أن المقابلة التي أجرتها مع غارسيا ماركيز كانت من أفضل المقابلات بحثاً وشمولاً في الحديث إلى المؤلف[40]. وأوضح غارسيا ماركيز آراءه السياسية لقراء المجلة الأميركيين مؤكداً أن أكثر ما تجاذب فيه أطراف الحديث مع فيدل هو موضوع الأدب وليس السياسة، وأوضح أن علاقتهما علاقة صداقة! ثم انتقل إلى موضوعات الحب والجنس. وقال إنّ ما من أحد عرف الآخر معرفة كاملة، وإنه لا يستثني نفسه مع ميرثيديس في هذا الشأن. ولا يزال لا يعرف عمرها بالضبط، مشيراً إلى أن معظم علاقاته ببنات الهوى أيام شبابه كانت لترجية الوقت، ورفقة الآخرين، والهروب من الوحدة:

> **لدي ذكريات رائعة مع الغانيات، وإنني لأكتب عنهن لأسباب عاطفية... المواخير تكلف مالاً، كما أنها موئل الرجال الأكبر سناً. المبادرات الجنسية تبدأ عادةً في البيت مع الخادمات ومع القريبات، لكن الغانيات كن صديقاتي عندما كنت شاباً يافعاً. وكانت لدي صداقات جيدة مع الغانيات دائماً؛ من ضمنهن غانيات لم أعاشرهن. كنت ألجأ إلى النوم معهن لأنني أجد النوم بمفردي أمراً فظيعاً، أو لأنني لم استطع النوم. كنت دائماً أردد، على سبيل المزاح، إنني تزوجت كي لا أضطر إلى تناول الغداء بمفردي. وطبيعي أن ميرثيديس تقول عني إنني ابن زنى.**

وقال غارسيا ماركيز إنه يحسد ولديه اللذين يعيشان في عصر تسوده المساواة بين الرجل والمرأة: "لقد أظهر كتاب **قصة موت معلن** الأمور كما كانت عليه عندما كنت شاباً". ثم وصف نفسه أخيراً على أنه رجل كان بحاجة ماسة إلى الحب: "إنني أكثر رجال العالم خجلاً، وأنا أيضاً أكثرهم عطفاً ورحمة. وفي هذا المجال لا أدخل في جدال ولا في مناقشة... أهي تلك نقطة ضعفي الكبرى؟ لا أدري. إنه قلبي، بالمعنى العاطفي الوجداني. لو كنت امرأة لقلت دوماً نعم، إنني بحاجة إلى أن أكون محبوباً جداً. مشكلتي الكبرى هي أن أكون محبوباً أكثر، وهذا هو السبب الذي يدفعني للتأليف". بلاي بوي: "إنك تبدو وكأنك ذو علاقة بالشبق النسوي؟" غارسيا ماركيز: "حسناً. نعم. لكن هذا الشبق يتصل بالقلب... فلو لم أصبح كاتباً، لرغبت في أن أكون عازف بيانو يعزف في إحدى الحانات، وأكون بذلك قد أسهمت في جعل العشاق يشعرون بحب أكبر تجاه أحبائهم. لو أمكنني أن أحقق هذا الشيء على نحو أكبر وأنا أكتب - أي أن أجعل الآخرين يحب أحدهم الآخر من خلال كتبي - فإنني أعتقد أن هذا هو المعنى الذي أردته لحياتي". إنه يحاول الآن أن يحقق هذا الشيء للآخرين من خلال قصص الحب، ويحققه للأقطار من خلال تأملاته.

قبيل هذه المقابلة، التي نُشرت بعد مرور عام تقريباً على إجرائها، صدر واحد من أفضل كتب غارسيا ماركيز حيث ظل يباع بأعداد كبيرة على مدى سنوات، إنه كتاب **رائحة الغوافة** المفضل لدى بلينيو ميندوثا الذي مرَّ مجدَّداً بأوقات عصيبة. يبدو الكتاب حواراً صريحاً وهادئاً يقدم مسحاً لمجمل حياة غارسيا ماركيز وأعماله، كما يعرض لأفكاره في مختلف الموضوعات، بدءاً بالسياسة وانتهاءً بالمرأة[41]. يصعب كثيراً ألاّ نتصور التلميحات المذهلة عن المغازلات الجنسية والعلاقات العاطفية خارج نطاق الزوجية وهي، بقدر ما، فاتحة لسوق جديدة لكاتب ارتبط أسلوبه الأدبي وتعبيره عن اللاحب سابقاً بالعنف والمأساة.

إذاً، أكدّ غارسيا ماركيز قراره بالعودة إلى الكتابة وعدم تخليه عنها مرة أخرى أبداً ما دام يستطيع ممارستها. لقد كانت الكتابة حتى وقت قصير شعوراً باطنياً، ودافعاً لا يقاوم، وطموحاً، وفي بعض الأحيان عذاباً. لقد بدأ الآن يستمتع بها حقاً.

وكـــان قـــد ذكر في مقابلة صحافية منذ سنوات بعيدة، في أثناء مرحلة "إضرابه" الأدبـــــي وعلـــى نحو تشوبه اللهفة والحزن إلى حدٍّ ما، أنه بدأ يدرك أن سعادته بالكـــتابة لا توازيها أي سعادة أخرى[42]. وأخيراً راودته فكرة عن تأليف كتاب جديد: كتاب عن الحب والمصالحة. وبدأ بحلول الربيع في أوروبا بتدوين ملاحظاته.

في صـــيف ذلـــك العام، سافر برفقة ميرثيديس إلى جميع أرجاء القارة القديمة ورافقهما في سفرهما صديقاهما الكولومبيان ألفارو كاستانو، الذي بات يملك أكبر محطة إذاعية في بوغوتا تذيع الموسيقى الكلاسيكية وهي محطة أج جي كيه، وزوجته غلوريا بالنثيا" وهي أشهر مقدمة برامج تلفزيونية في كولومبيا، وسافروا إلى باريس وأمـــستردام واليونان وروما. ثم عاد غابو وميرثيديس إلى المكسيك، وكان في تلك المـــرحلة قد ثبت النقاط الأساسية في الرواية الجديدة، التي ستدور حول قصة حب بين أبويه، وهي القصة التي ظل ينكرها منذ سنين.

في أواخر شهر آب، أمضى غارسيا ماركيز وميرثيديس إجازة أخرى مع فيدل كاســـترو على الساحل الكوبـــي. كان رودريغو قد تخرج تواً من جامعة هارفارد، فرافقهما في تلك الزيارة، وهو يفكّر في العمل في السينما. وأمضى أصدقاء الأسرة من آل فيودتـــشي وكارمن بالسيلس وقتاً معهم ومع القائد. وكرَّمهم فيدل بجولة بحرية على ظهر يخته إكوراماس وأقام لهم مأدبة عشاء في شقته في الشارع الحادي عشر التي لم يتـــناول فـــيها الطعام إلا عدد قليل من الأجانب منذ وفاة سيليا سانتشيث. كان كاســـترو طـــباخاً متحمساً للطبخ، وكان الطبخ واحداً من الموضوعات المفضلة التي يحـــبّ الحديث عنها، وبخاصة في الوقت الذي انهمك فيه في حملة لإنتاج جبن الكمبر الكوبـــــي وجبن الروكفورت الكوبـــي حاد النكهة. وفي الليلة التالية تناول الجميع طعـــام العشاء في منـــزل أنطونيو نيونيث خيمينيث وهناك تحول النقاش من موضوع الطـــبخ إلى موضوع المال[43]. كان كاسترو يفكّر في زيارة كولومبيا وقال إن على غابـــرييل، وهـــو الاسم الذي كان يصرّ على مخاطبته به، أن يرافقه في تلك الزيارة موضحاً "إلا إذا كنت تخشى أن يتهموك بأنك عميل كوبـــي".

فردّ غارسيا ماركيز:

– فات الأوان على مثل هذا الاتهام.

قالت ميرثيديس:

– عـــندما أسمع الناس يقولون إن كاسترو يدفع المال لغارسيا ماركيز، فإنني أقول: حان الوقت كي نرى قدراً من ذلك المال.

فقال كاسترو:

– إنـــه لأمر سيِّئ إذا ما أرسلت إليّ لائحة بمبلغ لأدفع. لكنني لدي قول لا يمكـــن مناقشته: أيها السادة، إننا لا نستطيع أن ندفع المال لغارسيا ماركيز لأن ثمنه غـــالٍ جـــدًّا. وقبل مدة ليست طويلة، ولكي لا نتفاخر بأننا يصعب شراؤنا، قلت لـــبعضٍ اليانكيين: القضية ليست هي أننا لن نبيع أنفسنا، ولكن الولايات المتحدة الأميركـــية لا تملـــك ما يكفي من المال لشرائنا. هذا تواضع. صحيح؟ الأمر نفسه ينطبق على غارسيا ماركيز، فنحن لا نستطيع أن نجعله عميلاً لنا. أتدرون السبب؟ لأننا لا نملك ما يكفي من المال لشرائه. إنه أغلى بكثير مما نستطيع دفعه.

في هذه اللحظة قال رودريغو، وكان صامتاً طوال هذه المدة:

– عندما وصلت إلى إحدى الجامعات في أميركا الشمالية سألوني كيف وفّق والدي بين أفكاره السياسية وماله وأُسلوب حياته. فقلت وأنا لا أجد جواباً أفضل: *ليس ثمة جواب مرضٍ عن هذا السؤال*.

فقال كاسترو:

– انظـــر! كـــل ما عليك قوله هو: *المشكلة مشكلة والدي وليست مشكلة أبـــي*. إن أبـــي لا يملك فلساً واحداً. أما أمي فهي التي تتولى صرف النقود.

فقال غارسيا ماركيز من دون أن يلوح عليه ظل ابتسامة:

– وهي لا تنفق النقود إلا لشراء الغازولين.

فردَّ كاسترو:

– إنـــني أفكّر الآن في سياسة تخص أسئلتهم عن حساباتك في المصرف. ينبغي لك أن تخبرهم أن الصيغة الاشتراكية هي من كلٍّ حسب قدرته لكلٍّ حسب حاجته، وبما أن غابرييل اشتراكي – ولم يصبح شيوعياً بعد – فإنه يدفع حسب قدرته ويتلقى بحسب حاجته. فضلاً عن ذلك، فإن الصيغة الشيوعية غير مطبقة في أي مكان.

تحمّس رودريغو للموضوع فقال:

- في يــوم مـــا، جاءني فتىً فجأة وقال لي: *والدك* شيوعي. فسألته: *ما معنى هذا؟ هل معناه أن لديه هوية حزبية؟ هل يعني أنه يعيش في بلد شيوعي؟*

أجاب كاسترو:

- كـــان لا بد لك من أن تقول له: *إن أبـــي شيوعي فقط عندما يذهب إلى كـــوبا، ولكـــنهم لا يدفعون له أي شيء. وهو يعطي بحسب قدرته. لقد طبعوا له مليون نسخة من كتبه وهو يتلقى بحسب حاجته.*

قال غابو:

- إنهـــم لا يدفعون لي أي شيء. إنهم لا يدفعون لي هنا سنتافو واحداً على شكل عوائد.

خلال الزيارة تحدث غارسيا ماركيز وكاسترو عن مضامين انتخاب بيتانكور في كولومبـــيا الذي يمثل من الوهلة الأولى انتكاسة كبرى لغارسيا ماركيز وللثورة الكوبية. لقـــد تـــبوّأ بيتانكور منصبه في السابع من آب. وبالرغم من أنه محافظ وأنه كان رئيس تحرير سابقاً لصحيفة إيلسيغولو الرجعية، فإن سمعته تشير دائماً إلى أنه سياسي "متحضر" لا يتـــصف بـــضيق الفكـــر، وأنه شاعر هاوٍ ذكر أسماء عدد كبير من الشعراء من بين أصـــدقائه الشخصيين. وكان غارسيا ماركيز قد بدأ يمتدح النظام الجديد في مقابلات صحافية بعد الانتخابات مباشرة، إضافة إلى تكراره القول عن "الحنين" الذي يشعر به.

وبالرغم من أن غارسيا ماركيز رفض حضور مراسم تنصيب بيتانكور، إلا أنه أثـــنى على الرئيس الجديد أمام كاسترو معلناً أنه "صديقي الفاضل". كان ابن سائق بغل، وكان أحدهما يعرف الآخر منذ عام 1942 عندما كان غابو يشتغل في صحيفة الاســـبكتادور، وكـــان بليساريو في صحيفة الكولومبيانو، وكان على صلة به منذ ذلك الحين. وأوضح غارسيا ماركيز لكاسترو: "في كولومبيا إما أن تكون محافظاً أو ليـــبرالياً مـــنذ الـــولادة، ولا يهم ما تفكّر فيه". وقال إن بيتانكور لم يكن محافظاً إيديولوجـــياً حقيقـــياً وإن حكومته تحتشد بالمستقلين. وهو خطيب بلاغي مصقع، ويـــدخل أعمـــاق الناس، حقاً يدخل أعماقهم". ثم تأتي النقطة الحاسمة في الحديث فيقول: "كما يطلب مشورتي دائماً"[44].

* * *

اقترب موسم جائزة نوبل مرة أخرى، وكما حدث في السنوات السابقة، فقد ذُكر اسم غارسيا ماركيز من جديد، ولكن بإصرار هذه المرة. غير أن المفاجأة هي أنه اختار قبل منح الجائزة بشهر واحد شنّ حملة شعواء ضد مفاهيم بيغن؛ وهو هجوم ضمني على مؤسسة نوبل التي منحته جائزة نوبل للسلام لعام 1978. في مطلع شهر حزيران كان بيغن قد أصدر أمره بغزو الجارة لبنان، ولم يعمل قائده العسكري الجنرال شارون على حماية اللاجئين الفسطينيين من الهجوم، فساعد بذلك على حدوث المجزرة في معسكري صبرا وشاتيلا في بيروت في الثامن عشر من أيلول. واقترح غارسيا ماركيز وقتئذ منح شارون وبيغن جائزة نوبل للموت[45].

لكن الدلائل كلها كانت تشير إلى أنه يسعى لترشيح نفسه. وعندما سأله صديقه ألفونسو فوينمايور في وقت لاحق من ذلك العام إن كان قد سافر من قبل إلى ستوكهولم، ردَّ مكشراً: نعم، لقد جئت إلى هنا قبل ثلاث سنوات لأداري أموري مع جائزة نوبل[46].

لا بد من أن هذا الكلام لا يعدو أن يكون نكتة من نكاته. إذ إن الحقيقة هي أنه قام ببضع زيارات إلى ستوكهولم في سبعينيات القرن العشرين، بل اتصل بآرتور لاندكفيست، الأكاديمي السويدي اليساري والمؤلف المرموق الذي كان له أثر كبير في منح الجائزة للأميركيين اللاتينيين ميغيل آنخل إستورياس وبابلو نيرودا. كما أن غارسيا ماركيز أمضى إجازة في كوبا برفقة السفير السويدي في صيف العام 1981.

إذا كان غارسيا ماركيز يبحث عن فأل حسن، فإن أفضل فأل تمثل بعودة الديمقراطيين الاجتماعيين بزعامة أولف بالمه إلى السلطة في الانتخابات السويدية في التاسع عشر من أيلول سنة 1982. كان بالمه صديق غارسيا ماركيز منذ سنوات، وكان يؤكد دوماً دَينَهُ الشخصي لأعمال لاندكفيست الأدبية التي فتحت عينيه على عالم أرحب. في غضون ذلك، كان شقيقه إليخيو، خبير الأسرة في مجال الأدب، موقناً اليقين كله أن غابرييل سيفوز بالجائزة عام 1982، وكان متأكداً أيضاً أن غابرييل نفسه كان متأكّداً من ذلك. وكان ألفارو موتيس قد قال إن سلوك صديقه كان "مشكوكاً فيه" في ذلك الوقت. وفي يوم السبت المصادف السادس عشر من شهر تشرين الأول انفجر غابيتو ضاحكاً خلال حديثه الهاتفي مع أخيه إليخيو الذي

ذكـــر لـــه موضوع الجائزة، وقال إنه واثق أنه إذا ما ربحها شخص ما، فإن السفير السويدي سيتحدث إلى ذلك الشخص قبل الإعلان عن الجائزة بشهر[47].

وفي يوم الأربعاء المصادف العشرين من شهر تشرين الأول، كانت الصحف المكـــسيكية تعلن أن رواية غارسيا ماركيز الجديدة ستكون عن الحب. وفيما كان غارسيا ماركيز وميرثيديس جالسين إلى مائدة الغداء من بعد الظهر اتصل بهما أحد الأصـــدقاء من ستوكهولم ليقول لهما إن كل الدلائل تشير إلى أن الجائزة في حكم المنتهية، ولكن عليه أن يحتفظ بهذا الخبر لنفسه إذ قد يغير الأكاديميون رأيهم. وبعد أن أنهـــى غابو المكالمة الهاتفية، تبادل وميرثيديس النظرات وهما في حالة ذهول غير قادرين على أن ينبسا بكلمة. وأخيراً قال: "يا الله! ما الذي سيحدث لنا الآن؟"، ثم نهضا مباشرة من وراء المائدة وهربا إلى بيت ألفارو موتيس طلباً للراحة، ولم يعودا إلى منـــزلهما إلا في ساعة مبكرة في انتظار توكيد الجائزة التي كان يرغب هو نفسه فيها على الأقل، ولكنها تعني حكماً مدى الحياة على كليهما.

لم يـــستطع أي منهما النوم. وعند الساعة الخامسة والدقيقة التاسعة والخمسين من صباح اليوم التالي بتوقيت مدينة مكسيكو، اتصل نائب وزير خارجية السويد بيير شوري بمنـــزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو وأكد الخبر. وعندما وضع غارسيا ماركيز سماعة الهاتف في مكانها، التفت إلى ميرثيديس وقال "أضحيت في ورطة"[48].

لم يـــضيعا الوقت في مناقشة الموضوع أو في إعداد نفسيهما للهجوم الحتمي، ولكن الهاتـــف بدأ يرن. كان أول المتحدثين هو رئيس الجمهورية بيتانكور من بوغوتا الذي اتـــصل بعد مرور دقيقتين على اتصال بيير شوري فقط، وقال له إنه سمع تواً النبأ من فرانسوا ميتران الذي سمعه بدوره مباشرة عن أولف بالمه. غير أن التفسير الرسمي أفاد أن بيـــتانكور علم بالنبأ من صحفي يعمل في أر سي أن عند السابعة والنصف صباحاً بتوقـــيت بوغوتا[49]. ارتدى غارسيا ماركيز وميرثيديس ملابسهما حال الانتهاء من الـــرد علـــى المكالمة الهاتفية الأولى وانتقدا طعام الإفطار البائس الذي أتت به إليهما خادمتهما ناتي عندما سمعتهما يتحركان في الطابق العلوي.

باســـتثناء كـــتابة روايـــة **مئة عام من العزلة**، لم يُناقَش أي شيء آخر من ميثولوجيا غارسيا ماركيز الكبرى قدر ما نُوقش الإعلان عن جائزة نوبل وما يتبع

ذلك من صخب وجلبة ورحلة غارسيا ماركيز إلى ستوكهولم لتسلم الجائزة. لو أن أميركياً أو إنكليزياً، ذكراً كان أم أنثى، يفوز بالجائزة، فقلما يكون ذلك الحدث خبراً (ما أهمية الكتّاب، ومن يظن السويديون أنفسهم على كل حال...) لكن هذه الجائزة ليست مجرد تكريم الإنسان من كولومبيا، ذلك البلد الذي لم يألف تماماً تلقي التهاني العالمية وحسب، بل تبين أنه تكريم الإنسان هو موضع إعجاب ومحبة على امتداد القارة واسعة الأرجاء والمنعزلة، إنسان نظر إليه الملايين من أبناء تلك القارة على أنه ممثلهم، بل بطلهم حقاً. انهالت التهاني على المنزل في مدينة مكسيكو من جميع أنحاء العالم عبر الهاتف والبرقيات. فاتصل أولاً بيتانكور ثم ميتران مكونتاثار وبورخس وغريغوري راباسا وخوان كارلوس أونيتي عضو مجلس الشيوخ الكولومبي. ولم يتمكن كاسترو من الاتصال هاتفياً في ذلك اليوم فأرسل برقية في اليوم التالي قال فيها: "أخيراً تحقق العدل، إن الاحتفالات ماضية من يوم أمس. يستحيل الاتصال هاتفياً. أهنئك أنت وميرثيديس من أعماق فؤادي". كما أرسل غراهام غرين بدوره برقية: "أحرّ التهاني، يؤسفني أننا لا نستطيع الاحتفال بها برفقة عمر". ونورمان ميلر أيضاً: "ما كان يمكن لها أن تعطى لمن هو أفضل". لكن الأهم من هذا كله هو أن تلك كانت فرصة لأميركا اللاتينية كي تقول أخيراً ما كانت تشعر به نحو غارسيا ماركيز - فقد ادّعت كولومبيا وكوبا والمكسيك أنه أديبها - ونشرت صحفها وصحف العالم أجمع عدداً هائلاً من مقالات المديح والثناء. بدا الأمر وكأن رواية **مئة عام من العزلة** صدرت الآن، وأن مليار إنسان قرأها في آن واحد بعد خمس ثوانٍ من صدورها في وقت غريب وساحر، وأرادوا الاحتفال معاً.

في غضون دقائق قليلة، بات المنزل في مدينة مكسيكو تحت حصار فرضته وسائل الإعلام، وأقامت الشرطة الحواجز في كلا نهايتي شارع فيغو. ودعا أول الصحافيين غارسيا ماركيز للخروج إلى الشارع وتناول كأس من الشراب - والتقاط الصور أيضاً - وحضر الجيران للتعبير عن ابتهاجهم. وعندما حضر أليخاندرو أبريغون في صباح ذلك اليوم ليبقى مع صديقه القديم وشاهد الفوضى قال في نفسه: "تباً! لقد مات غابو!" (كان أبريغون في المكسيك لاستعادة لوحة سبق له أن أعطاها لغارسيا ماركيز، تمثله وقد جحظت عيناه في نوبة سكر)[(50)].

وتــوافد عشرات الصحافيين داخل منــزل غارسيا ماركيز يصفون كل التفاصيل الخارجية والداخلية؛ وتنبهوا على وجه الخصوص إلى الورود الصفراء والغوافة فوق كل منضدة، وكان كل واحد منهم يريد مقابلة حصراً عليه مع رجل اللحظة.

لم يكن غارسيا ماركيز قد تكلم إلى أمه منذ ثلاثة أسابيع بسبب عطل جهاز هاتفهــا، فمــا كان من أحد الصحافيين إلا اللجوء إلى أعاجيب التكنولوجيا كي يوصل الاثنين معاً ليتكلما أمام الملأ. وهكذا أخبرت لويسا سانتياغا كولومبيا أجمع أنهــا تعتقد أن أفضل ما في النبأ ربما سيكون "إصلاح جهاز هاتفها"، وهو ما تحقق علــى وجه السرعة. وقالت أيضاً إنها ظلت تتمنى ألاّ يحصل غابيتو على الجائزة أبداً لأنها متأكدة أنه سيقضي نحبه بعدها حالاً. أما ابنها الذي اعتاد على مثل هذا الكلام الغريب، فقال إنه سيأخذ الورود الصفراء معه إلى ستوكهولم لتحميه.

اتخــذ غارسيا ماركيز في نهاية الأمر الترتيبات اللازمة لمؤتمر صحافي مرتجل حضره أكثــر مــن مئة صحافي احتشدوا حول منــزله. وقال إنه لن يرتدي ملابس سهرة في الاحتفال في ستوكهولم، بل سيرتدي قميصاً من الكتان الأبيض وبنطالاً كالذي يرتديه فلاحــو أميركا اللاتينية في أشرطة هوليوود السينمائية اعتزازاً وتقديراً لجده. لقد أمسى هذا الموضوع هاجساً في كولومبيا التي يسكنها الكاتشاكو، حتى لحظة الاحتفال، ورمزاً خــشية أن يتسبب غارسيا ماركيز بفضيحة دولية أو أن يتصرف تصرفاً مشيناً يصعب قــبوله فيلحق الإهانة بالبلاد. كما أعلن أيضاً أنه سيستخدم قيمة الجائزة لتأسيس صــحيفة يدعوها صحيفة إل أوترو (الآخر) في بوغوتا. وقال إنه يعتقد أن نصف الجائزة كان اعترافاً بعمله في الصحافة، وإنه سيبني بيت الأحلام في كارثاخينا.

عــند الــساعة الــواحدة من بعد الظهر، ترك غارسيا ماركيز وميرثيديس الــصحافيين عــند ذلــك الحدّ وهربا من شارع فيبغو ونــزلا في غرفة في فندق تــشابولتبيك في ريسيدانته وبدأا الاتصال بأقرب أصدقائهما، وأمضيا فترة ما بعد الظهيرة في خلوة مع ثمانية أشخاص، في حين ظل بيتهما في حالة صخب. وتقرر أن يغدو ألفارو موتيس سائق أسرة غارسيا بارتشا طوال مدة النشاط الإعلامي.

في غضون ذلك، أكدت واشنطن في اليوم نفسه أنها لن تمنح غارسيا ماركيز بالــرغم مــن مكانته الجديدة تأشيرة دخول لزيارة الولايات المتحدة التي منع من

دخولها منذ أن عمل لمصلحة كوبا عام 1961. (وفي السابع من تشرين الثاني كتب في عموده في صحيفة الاسبكتادور أنه يفضل أن يكون الباب موصداً على أن يكون مواربًا – لكن هذا غير دقيق تماماً لأنه كان لا يزال منزعجاً بقرار الحظر – ولهذا هدد تهديداً متسرعاً مقسماً على أن يحظر طبع كتبه في الولايات المتحدة، إذ ما سبب السماح بدخول كتبه إليها في حين لا يزالون يرفضون منحه التأشيرة؟)[51].

صادف ذلك اليوم أيضاً يوم إطلاق سراح الشاعر المنشق أرماندو بايداريس من سجنه في كوبا بفضل وساطة غارسيا ماركيز بين كاسترو وميتران. كان الاعتقاد سائداً بين أنصار الشاعر على أنه مصاب بشلل، ورافقه ريجيس دوبريه مستشار ميتران، وهناك أدهش الجميع عندما نهض عن كرسيه المتحرك وبدأ يسير على قدميه لدى وصوله مطار باريس.

احتفل أصدقاء غارسيا ماركيز في جميع أنحاء العالم. وبكى بلينيو ميندوثا في باريس، لكنه لم يكن الوحيد في ذلك. أما الناشر خوسيه بيثنتي كاتاراين، الذي كان في طريقه إلى المكسيك، علم بالخبر لدى وصوله إلى المطار فأسرع يرقص. وعندما سألته الفتاة التي تبيع الصحف إن كان قد ربح جائزة اليانصيب قال إنه ربحها حقاً. وفي كارثاخينا قال غابرييل إليخيو في غمرة احتفال الأُسرة لكل من يريد أن يصغي إليه: "كنت أعرف ذلك دائماً". لكن ما من أحد ذكّره بأن غابيتو "سيأكل الورق". وقالت لويسا سانتياغا إن أباها العقيد لا بد من أنه يحتفل في مكانٍ ما، إذ لطالما توقع حدوث أشياء عظيمة لغابيتو. ووصفت معظم التقارير الصحافيةً الأسرة على أنها من أهالي ماكوندو الصغيرة غرباء الأطوار: فلويسا سانتياغا هي أورسولا، وغابرييل إليخيو هو خوسيه آركاديو بالرغم من أنه تساءل كعهده إن لم يكن هو ميلكيادس نفسه. لكن غابرييل إليخيو بدأ رويداً رويداً يسيء التصرف بالرغم من زهوه وحماسته اللذين لا يرقى إليهما شك: لقد حصل غابيتو على الجائزة من خلال تأثير ميتران، على حدّ قوله (لهذه الأشياء أهميتها كما تعلمون). كان غابيتو مجرد كاتب من الكتاب الكثر في أسرته، ولكنه لم يستطع أن يفهم السبب الذي يجعل هذا الكاتب موضع هذا الاهتمام الشديد.

قرر حاكم مديرية مجدلينا أن يعلن اليوم الثاني والعشرين من تشرين الأول يوم عطلة في الإقليم، واقترح أن يتحول منـــزل العقيد ماركيز القديم في بلدة آراكاتاكا إلى نـــصب تـــذكاري وطني. وفي بوغوتا نظم الحزب الشيوعي تظاهرات تناشد غارســـيا ماركيـــز العودة إلى البلاد ليكون ناطقاً باسم المقهورين ولينقذ كولوميا. وســـأل صحافي عاهرة في الشارع إن كانت سمعت النبأ، فقالت إنها سمعته من أحد زبائنها في الفراش. لقد ساعد الاعتقاد أن هذا هو أفضل وفاء يمكن لغارسيا ماركيز أن يحظـــى به. وفي بارانكيا سمع سائقو سيارات الأجرة في شارع بوليفار بالنبأ عبر أجهزة المذياع، فما كان منهم إلاّ أن أطلقوا أبواق سياراتهم دفعة واحدة: على كل حال، كان غابيتو واحداً منهم.

بدأت الصحف تصف غارسيا ماركيز بأنه "ثيربانتس الجديد"، مرددة بذلك صدى فكرةٍ كان بابلو نيرودا هو من أوائل الذين اقترحوها عندما قرأ **مئة عام من العـــزلة** ســـنة 1967[52]. وظلت هذه المقارنة تتكرر من تلك اللحظة وعلى مدى سنوات. ووصفته مجلة نيوزويك التي نشرت صورته على غلاف العدد بأنه "راوي القـــصة الساحر"[53]. لعل سلمان رشدي الذي يواصل الكتابة من لندن هو أفضل من لخَّص الفكرة التي عادت يومئذٍ، وبعد ذلك نشر مقالة بعنوان "ماركيز الساحر" قـــال فيها: إنه واحد من أكثر خياراتٍ حكّام نوبل شعبية على مدى سنين، واحد مـــن السحرة الحقيقيين القلائل في الأدب المعاصر، وفنان ذو خاصية نادرة في إنتاج عمـــل من الطراز الأول الذي يصل إلى أوسع الجماهير ويسحرها. أعتقد أن رائعة **مـــئة عـــام من العزلة** هي أحد أهم عملين أو ثلاثة أعمال روائية وأعظمها إنجازاً نشرت منذ الحرب[54].

في غـــضون ذلك، وبعد أسبوع واحد من الإعلان عن الجائزة، انتخب واحد مـــن أحسن أصدقائه وهو فيليب غونثاليث زعيم الحزب الاشتراكي الإسباني رئيساً للـــوزراء في بـــلاده، فكان بذلك سبباً آخر للاحتفال والنشاط السياسي. في العام الـــسابق انتخب ميتران والآن غونثاليث. أكانت الجائزة يا ترى علامة على أن كل شـــيء بـــدأ يتغير؟ لقد قال غارسيا ماركيز لمجلة جينت الصادرة في بوينس آيرس: "يمكن أن أموت سعيداً لأنني أصبحت الآن خالداً". لعله كان يمزح.

في الأول من كانون الأول نُصب ميغيل دي لا مدريد رئيساً لجمهورية المكسيك لست سنوات. لم يكن الاثنان قريبين، لكن غارسيا ماركيز حضر مراسم التنصيب. وفي ذلك اليوم تقلد فيليب غونثاليث منصبه رئيساً للوزراء في الحكومة الإسبانية الجديدة في مدريد. وفي الأيام الأولى من شهر كانون الأول سافر غارسيا ماركيز جواً إلى مدريد، بعد زيارته لكوبا، للترحيب بغونثاليث؛ وليحيّيه غونثاليث بدوره. وأفصح عن أنه تباحث مع كاسترو على مدى إحدى عشرة ساعة في هافانا، وأن حكومة ريغان رفضت منحه تأشيرة دخول غير مشروطة للهبوط في نيويورك. في غضون ذلك، التقت ميرثيديس غونثالو في باريس ولكنها لن تلتق رودريغو. وكانت خيبة أمل غارسيا ماركيز هي أن ابنه الأكبر الذي كان منهمكاً في التصوير شمالي المكسيك انهماكاً كلياً، لم يستطع السفر معه إلى ستوكهولم التي تمثل بلا شك مرحلة عالية من حياة والده المميزة. وكان الاثنان قد التقيا قبل شهر في ثاكاتيكاس، ولكن ما من أحد يعرف نتيجة ذلك اللقاء. ولم يبدُ على أيٍّ من الرجلين الاستعداد للحديث أكثر في ذلك الموضوع.

عند الساعة السابعة من مساء الاثنين السادس من كانون الأول أقلعت طائرة جامبو تابعة لخطوط أفيانكا مستأجرة من الحكومة من بوغوتا إلى ستوكهولم في رحلة مدّتُها اثنتان وعشرون ساعة، تحمل على متنها وفداً رسمياً برئاسة وزير التربية خايمي إرياس راميريث مع اثني عشر صديقاً من أصدقاء غارسيا ماركيز اختارهم غييرمو أنخولو - وكان غارسيا ماركيز قد توسل إلى صديقه القديم أنخولو إعفاءه من هذه المهمة المثيرة للضغائن والخصام - وزوجاتهم وعدد كبير من الناس دعتهم دار نشر أوبيخا نيغرا، وسبعين عازف موسيقي يمثلون مختلف الجماعات العرقية، اتخذ التدابير اللازمة بشأنهم وزير الثقافة بمساعدة ومشورة غلوريا تريانا المتخصصة في الأنثروبولوجيا.

عندما وصل أخيراً ضيوف غارسيا ماركيز إلى مدينة ستوكهولم، كانت الحرارة قد انخفضت منذ قليل إلى ما دون الصفر. وكان المئات من الكولومبيين وغيرهم من الأميركيين اللاتينيين المقيمين في أوروبا ينتظرون في المطار. وبمرور الليل ازداد انخفاض درجة الحرارة إلى ما دون عشر درجات تحت الصفر، لكن السويديين

أخبروهم أنهم محظوظون لأن الجو لم يكن أكثر برودة مما كان عليه سابقاً، كما أن الثلوج لم تسقط بعد[55]. وكانت مجاميع من أصدقاء الأسرة من إسبانيا وباريس قد حضرت مبكرة منذ العصر: كارمن بالسيلس ومجدلينا أوليفر من برشلونة، وأسرة فيودتشي والصحافي رامون تشاو، ميرثيديس وغونثالو، تاتشيا وتشارلز وبلينيو ميندوثا من باريس مع ريجيس دوبريه ودانييل زوجة ميتران، ولكن الصديق وزير الثقافة جاك لانغ لم يحضر إذ اضطر إلى إلغاء سفره في آخر لحظة. وكان السفير الكولومبي حاضراً أيضاً فضلاً عن السفير الكوبي والقائم بالأعمال المكسيكي. كانوا كلهم ينتظرون تحت برد القطب الشمالي[56].

عينت تاتشيا نفسها المصور الرسمي لغارسيا ماركيز وتمكنت هي وأصدقاؤها من أن يحصلوا لها على هوية صحافية. وفيما كان محبوبها القديم يتقدم من الطائرة باتجاه صالة الانتظار، اندفعت إلى الأمام والتقطت أول الصور للبطل الفاتح، ثم التقطت بعد ذلك صوراً للكولومبيين الذين اشتعلوا حماسةً وهم يريدون أن يلمسوا غارسيا ماركيز من خلال حواجز المطار الفولاذية وسط ظلمة الشمال.

اتجه غابو وميرثيديس إلى فندق غراند حيث كان في انتظارهما جناح مؤلف من ثلاث غرف ليمضيا فيه الليالي القليلة المقبلة[57]. استسلم غارسيا ماركيز للنوم مجهداً، واهناً من السفر بالطائرة النفاثة، منفعلاً انفعالاً شديداً ومرتبكاً. ثم: "نهضت فجأة من النوم وتذكرت أنهم يعطون الفائز بجائزة نوبل الغرفة نفسها وفي الفندق نفسه. وفكّرت: لقد نام روديارد كيبلنغ على هذا الفراش، وتوماس مان ونيرودا وإستورياس وفوكنر". أرعبتني الفكرة، فخرجت أخيراً من الغرفة وواصلت نومي على الأريكة[58].

تناول غارسيا ماركيز طعام الإفطار في صباح اليوم التالي مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء الذين يمثلون ماضيه كله من ضمنهم كارمن بالسيلس وكاتاراين. لم يسبق أن اجتمع من قبل مثل هذا الحشد من الناس، بل كان بعضهم لا يعرفون البعض الآخر، وربما لم يُرق بعضهم بعضاً. وقال بلينيو ميندوثا إن غارسيا ماركيز تصرف في المطار وكأنه مصارع ثيران زائر يحيّي محبيه، وإنه كان يرتدي ملابسه كل يوم في جناحه في الفندق، كأنه مصارع ثيران أيضاً، محاطاً بأصدقائه من كل

جانب. وفي إحدى المرات اصطحب ألفونسو فوينمايور من "جناح القبلة السعيدة" إلى الحجرة المنفردة وناوله خطابه قائلاً: "ألقِ نظرة إلى هذا أيها الأستاذ، وقل لي ما رأيك". قرأ فوينمايور الخطاب بإعجاب وقال إنه فهم أخيراً موقف غارسيا ماركيز السياسي. فردَّ صديقه: "إن ما قرأته ليس سوى **مئة عام من العزلة** لا أكثر ولا أقل"[59].

يتذكر ميندوثا عند اقتراب الساعة قائلاً: "شاهدت غابو وميرثيديس هادئين مطمئنين، يتحدثان غير عابئين تماماً باحتفال التتويج الذي يقترب منهما، كأنهما لا يزالان في بلدة سوكري أو ماغانغي قبل ثلاثين سنة، وفي بيت العمة بيترا أو العمة خوانا في مساء يوم سبت ما"[60]. كان من المقرّر إلقاء كلمة جائزة نوبل للأدب عند الساعة الخامسة مساءً في مسرح الأكاديمية السويدية للأدب الكائن في سوق تبادل الأوراق المالية بحضور مئتي ضيف وُجِّهت إليهم الدعوات خصيصاً لحضور المناسبة ليبلغ إجمالي الحضور أربعمئة شخص، تلي ذلك مأدبة طعام عند الساعة السادسة والنصف تكريماً لكل الفائزين بالجائزة في منزل سكرتير الأكاديمية.

عند الساعة الخامسة مساءً ظهر غارسيا ماركيز مرتدياً سترته، وبنطاله داكن اللون وقميصه الأبيض واضعاً ربطة عنقٍ حمراء، وقدَّمه سكرتير الأكاديمية الدائم لارس غيلينستين المفرط في الطول والنحافة، وهو أيضاً روائي مشهور كتب البيان الذي أعلن فيه عن منح الجائزة. ولم يكن صوت غيلينستين مسموعاً إلا نادراً وهو يتكلم بالسويدية لأن معلقي الإذاعة الكولومبية الحاضرين في الاحتفال بدوا وكأنهم ينقلون مباراة كرة قدم، واضطر غارسيا ماركيز إلى أن يشير بأصابعه إشارة إلى تخفيض الصوت، قبل أن يبدأ إلقاء كلمته بعنوان **عزلة أميركا اللاتينية**. وقد ألقى الكلمة المؤلف نفسه بأسلوبه العدواني المتحدي المتوهج بالتعاويذ، مازجاً بذلك واقعية سحرية مفككة بالسياسة، فبدأ الخطاب هجوماً واضحاً على عجز الأوروبيين أو عدم رغبتهم في فهم مشكلات أميركا اللاتينية التاريخية وترددهم في منح القارة وقتاً للنضوج والتطور يماثل الوقت الذي احتاجت إليه أوروبا من قبل. كما أوضح في خطابه اعتراضه الدائم على الأوروبيين، (من ضمنهم الأميركيون في أميركا الشمالية)، رأسماليين كانوا أم شيوعيين، في فرض "خططهم" على حقائق الحياة في

أميركـــا اللاتينية. وادّعى غارسيا ماركيز أن الجائزة منحت له جزئياً بسبب نشاطه الـــسياسي وليس لأدبه وحده، وفرغ من إلقاء كلمته عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والثلاثين، فوقف له الحاضرون عدة دقائق[61].

في مـــساء يـــوم الخميس المصادف التاسع من الشهر، ذهب غارسيا ماركيز وميرثيديس إلى مقر إقامة رئيس الوزراء في هاربسوند لتناول عشاء خاص مع أولف بالمـــه وأحـــد عشر ضيفاً آخرين من ضمنهم دانييل ميتران وريجيس دوبريه وبيير شوري وغنتر غراس والشاعر والسياسي التركي بولند أجافيد وآرتور لوندكفيست. وقالت وزارة الخارجية السويدية إن الدعوة كانت امتيازاً خاصاً لم توجه من قبل إلا في ما ندر. وكان غارسيا ماركيز قد تعرف إلى أولف بالمه عن طريق فرانسوا ميتران في منـــــزله الكائن في شارع بييفر قبل سنوات. وبالرغم من الإجهاد التام إلاّ أنه وجـــد نفـــسه قادراً على المضي في الكلام لساعتين أخريين عن الوضع في أميركا الوسطى وذلك في حديث سيكون له أبلغ الأثر في الاقتراح بالتوصل إلى عقد اتفاق سلام بين الرؤساء الستة للبرازخ، وهو ما سيعرف في ما بعد بعملية كونتادورا[62].

لم يكن هذا كله سوى مقبلات للوجبة الرئيسة في العاشر من كانون الأوّل، وهو يوم "احتفال نوبل": عند الصباح، التمرينات في الكونسيرتوس، وعند العصر، الحـــدث الكـــبير المتمثل بتسليم ملك السويد جوائز نوبل عند الساعة الرابعة أمام جمهـــور يتألف من ألف وسبعمئة شخصية. في ذلك اليوم ظهرت صورة ميرثيديس "زوجـــة نـــوبل" على غلاف مجلة كاروسل وهي ملحق بصحيفة التيمبو. وكتبت قريبتها بياتريس لوبيث دي بارتشا مقالة على الصفحات الداخلية من المجلة بعنوان: "انتظرني غابيتو حتى أكبر"[63]. يمكن للمرء أن يتخيل أن القريبة قالت لها: حسناً، أتـــريدين محـــو تلـــك المقالة التي كتبتها كونسويلو ميندوثا في العام الماضي؟ لم لا تـــسمحين لي بإجـــراء مقابلـــة ممتازة معك مرفقة بالصور؟ فقالت ميرثيديس: "لا بأس... لكن هذه المقابلة لا أكثر".

وبعـــد طعـــام الغداء ارتدى رجل الساعة ملابسه، وكان يتحدث عن بذلة تقلـــيدية خاصة بأهل فنـــزويلا منذ اليوم الذي سمع فيه النبأ. وقال أحياناً إنه يريد بـــذلك أن يكرم جده العقيد، وفي أحيان أخرى، بتواضع أقل يريد أن يكرم أشهر

الشخصيات التي ابتكرها وهي شخصية العقيد أوريليانو بوينديا. ونشرت صحيفة الاسبكتادور رسالة في اليوم الذي أعقب الاحتفال كتبها دون آريستيديس غوميث آبيليس من مدينة مونتيرا في كولومبيا، وكان يتذكر جيداً العقيد ماركيز، وقال إنه ما كان ليشاهد ميتاً وهو يلبس البذلة التقليدية: فهو أرفع من أن يرتدي ذلك، كما أنه ما كان لُيشاهد في الشارع بلا سترة، وبدرجة أقل في احتفال جائزة نوبل[64]. في خضم هذه المناقشات لم يأتِ أحد على ذكر الإنسان الذي لبس بذلة تقليدية في شبابه وهو غابرييل إليخيو غارسيا.

الجناح 208، فندق غراند في ستوكهولم، العاشر من كانون الأول سنة 1982، الساعة الثالثة عصراً. كانت تاتشيا قد اشترت قبل سفرها من باريس ثياباً داخلية لغارسيا ماركيز من النوع الذي يبعث الحرارة في الجسم. وقد ظهر بهذه الثياب في صورة مشهورة له محاطاً بأصدقائه من الذكور الذين ارتدوا ثياب سهرة لقاء استئجارها بمئتي كورونا لكل قطعة. ناولتهم ميرثيديس زهوراً صفراء، واحداً تلو الآخر، لطرد الحظ السيّئ أو ما يعرف باسم "لا بافا" في منطقة الكاريبي التي تتكلم الإسبانية، وساعدتهم في تثبيتها في ثنية صدر ستراتهم: "والآن دعوني أنظر إليكم أيها الرفاق..."، ثم اتخذت التدابير اللازمة لالتقاط الصور[65]. وأخيراً ظهرت البذلة التقليدية، مما يعني، كما أشارت آنا ماريا كانو في صحيفة الاسبكتادور بعد ثلاثة أيام، إن غارسيا ماركيز وصل الاحتفال وقد بدا "متجعداً مثل الأكورديون"[66].

حدث هذا في ما بعد. أما الآن، فقد أعدَّ غارسيا ماركيز نفسه للحظة الحقيقة بعد أن لبس متحدياً البذلة التقليدية وهو الشيء الأقرب، بعد أن قيل كل شيء ونفذ، لما يعرف بزي الطبقة الأميركية اللاتينية الدنيا، وانتعل حذاءً أسود طويل الساق، ويا للهول. إذا كانت البذلة التقليدية مجعدة، فمما لا شك فيه أن ما يرتديه أوغستو ساندينو في نيكاراغوا وخوسيه مارتي في كوبا وغيرهما من أبطال المقاومة الأميركية اللاتينية كان مجعداً أيضاً ناهيك عن ثوب أوريليانو بوينديا. ثم ارتدى معطفاً يقيه غائلة برد اسكندنافيا. ويتذكر بلينيو ميندوثا تلك اللحظة: "احتشدنا كلنا وهبطنا السلالم لمرافقة غابو نحو اللحظة الخالدة في حياته"[67]. ثم يتحول

ميندوثا إلى الزمن الراهن: "الشوارع مكسوة بالثلج، المصورون في كل مكان. أرى وأنــا إلى جانـــب غابـــو انشداد وجهه للحظة. أستطيع أن أشعر بالتوتر المفاجئ المصاحب لصديقي الصاعد من برج الحوت بوساطة جهاز الإرسال الهوائي المثبت عـــنده. الـــزهور والبريق والشخصيات بثياب سوداء والبساط الأحمر. ربما يكلمه أســـلافه في غـــواخيرا من الصحارى البعيدة التي دفنوا فيها، ربما يقولون له إن أبهة الاحـــتفال بالمجـــد تشبه أبهة الاحتفال بالموت. شيء ما من هذا القبيل مستمر في الحدوث لأنني أسمعه وهو يشق طريقه إلى الأمام وسط الألق الجذاب والشخصيات بثـــيابها الرسمية، وهو يتمتم بصوت خفيض تشوبه دهشة مفاجئة، مذعورة ومؤلمة: "تباً! كأن الناس يحضرون جنازتي!"[68].

دلفـــوا إلى قاعة الرقص الكبرى للكونسيرثوس المصممة على نحو يوحي بمعبد من معابد الإغريق: ألف وسبعمئة شخص من ضمنهم ثلاثمئة كولومبـــي. وتناهت إلى الأسماع شهقة لمرأى غارسيا ماركيز مرتدياً ملابس بيضاء اللون: يبدو كأنه لا يـــزال بثيابه الداخلية التي تشيع الحرارة في جسمه! جلست الأسرة المالكة في الجهة اليمنى من خشبة المسرح التي تغطيها زهور صفراء فوق كراسٍ زرقاء وذهبية: الملك كـــارل غوســـتاف السادس عشر والملكة سلفيا الحسناء المنحدرة جزئياً من أصل برازيلـــي، والتي أمضت طفولتها في ساوباولو، والأميرة ليليان والأمير بيرتيل الذين وصـــلوا كلـــهم عند عزف السلام الوطني. وكان إلى جانبهم منصة يتحدث منها الـــسكرتير الـــدائم غيلينستين. أما الفائزون فكلهم جالسون إلى جهة اليسار على كـــراسٍ حمراء اللون: السويديان سوني بيرغستروم وبنغيت صامويلسون والبريطاني جون فاني في الطب، والأميركي كينيث ويلسون في الفيزياء، والجنوب أفريقي آرون كلوغ في الكيمياء، والأميركي جورج ستيغلر في الاقتصاد. وإلى الوراء يمتد صفان مـــن الكراسي جلس عليها أعضاء الأكاديمية ومجلس الوزراء السويدي وغيرهم من الشخصيات المهمة. أما غارسيا ماركيز فكان يجلس وحيداً بالبذلة التقليدية تحيط به بـــذلات سوداء وكراسٍ وفرو وقلادات لؤلؤية. وبينه وبين الملك الحرف (ن) بخط كبير دلالة على الاسم "نوبل" وقد كتب بشكل دائري؛ بالطلاء أم بالطبشور؟ وهو في انتظاره.

الواضـــح أنـــه كان متوتراً عندما بدأ سكرتير الأكاديمية السويدية البروفسور غيلينـــستين الكلام. وعندما وصل إلى لحظة غارسيا ماركيز، وهي اللحظة ما قبل الأخيرة، تكلم غيلينستين باللغة السويدية ثم التفت إلى الساحلي الكولومبـــي الذي نهض واقفاً، ينظر بعينين متألقتين إلى العالم كله وكأنه ذلك الصبـــي الصغير المناكد من مدرسة سان خوسيه دي بارانكيا، ثم تحول إلى اللغة الفرنسية ليوجز ما قاله، ثم دعا الكولومبـــي ليتقدم من الملك لتسلم الجائزة. ترك غارسيا ماركيز الذي اختار مقطـــوعة بارتوك الموسيقية أنترفيرو لمصاحبته، الوردة الصفراء على مقعده بعد أن تحـــرك لتـــسلم الجائزة وانكشف لحظة لمصيبة يصعب تخيلها من دون تلك الزهرة الطوطمية وهو يمشي فوق خشبة المسرح الكبيرة شاداً قبضته وسط دوي الأبواق ثم توقـــف فوق الدائرة المطلية بدهان منتظراً الملك. وفيما كان يصافح العاهل المزين بالأوسمة، بدا وكأنه صعلوك تشابلن يتودد إلى نفسه بقدر من التأنق. وبعد أن تسلم الوســـام ولفافـــة من الرّق انحنى انحناءة صارمة وجافة للملك، ومن بعد لضيوف الـــشرف ثم لجمهور الحاضرين، في الوقت الذي حظي فيه بأطول وقفة احترام في تاريخ هذه الاحتفالات المهيبة: عدة دقائق[69].

انتهى الاحتفال عند الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والأربعين عصراً، وفيما كان غارسيا ماركيز يغادر مع غيره من الفائزين رفع كلتا يديه فوق رأسه كأنه بطل مـــصارعة، وهي العلامة التي بدأ منذ ذلك الوقت فصاعداً يرسمها مرات ومرات في حـــياته مـــستقبلاً. وكان لدى أولئك المحظوظين ممن دُعوا لحضور الاحتفال خمساً وأربعـــين دقـــيقة للوصـــول إلى القاعـــة الزرقاء الكبرى للستادهوس (دار بلدية ستوكهولم) لحضور مأدبة الأكاديمية السويدية الكبرى. كانت لائحة المأكولات قد أعـــدها جوني جوهانسين، أبرز طباخي السويد، وكانت مؤلفة من طعام سويدي أساســـاً: شرائح لحم الرنّة والسلمون المرقط والقريدس والموز واللوز، والشراب من مختلف الأنواع[70]. وأشعل غارسيا ماركيز سيجاراً كوبياً بتحدٍّ، وكان أبرز فقرات الاحـــتفال – وهـــو مـــا يـــتفق عليه الجميع – هو حضور سبعين عازفاً موسيقياً كولومبياً، وكان نيرو لوبيث وهو صديق غارسيا ماركيز يتابع مغامراتهم وحوادثهم السيئة في ستوكهولم مع آلة تصويره[71]. وقد راقب غلوريا تريانا وهي ترافق بلهفة

كل النساء: "كلهن عذراوات وقد تعهدت بهن أمام أمهاتهن". ولدى وصول الجميع إلى دار البلدية التي كانت مكسوة بلوحات كبيرة ذات رسومات تطريزية ملكية، جثا واحد من المجموعة القادمة من ريو سوثيو وصلّى معتقداً أنه في كنيسة. وتساءل لوبيث عن شعور السويديين وهم يشاهدون "الجماعة غير المتجانسة القادمة من ماكوندو وهي تهبط السلالم خليطاً من الهنود والسود والكاريبيين والإسبان هم قوام الهوية الكولومبية". وبحسب رأيه، فإن أفضل ما قُدِّم حتى تلك اللحظة هي المثلجات المعروفة باسم نوبل فلامبي. بدأت الحياة تتدفق إلى الداخل الآن. وكان العرض الذي يقوده توتو لا مومبوسينا وليونور لا ينغرا غراندي دي كولومبيا غاية في الروعة وقد شجعهم التصفيق على الاستمرار في العرض لثلاثين دقيقة بدلاً من خمس عشرة دقيقة[72].

قرأ كل فائز بالجائزة كلمة لمدة ثلاث دقائق أعقبها شرب الأنخاب. وبدأ غارسيا ماركيز أولاً بكلمة بعنوان **في الثناء على الشعر** زعم فيها أن الشعر "كان أكبر الأدلة الدامغة على وجود الإنسان"[73]. غير أن ما لم يعرفه أحد في ذلك الوقت هو أنه تلقى ما هو أكثر من مساعدة قليلة من صديقه ألفارو موتيس، وهو ما يمكن أن يتوقعه كل من يقرأ الكلمة ومن ثم يفكّر فيها. وطلب اثنان من الفائزين بنوبل أن يوقع لهما على نسخ من رواية **مئة عام من العزلة**. وبعد الأنخاب ارتقى الجميع السلالم إلى الطابق الأول حيث "القاعة الذهبية الكبرى" للرقص. وبدأوا أولاً برقصة الفالس، ثمّ رقصات متفرقة من شمالي أوروبا، فأغاني "بيسامي موتشو" و"بيرفيديا" وغيرها من أغاني البوليرو، وأخيراً رقصة الفوكستروت والرومبا.

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم، وبعد أن رجع الجميع إلى الفندق، اتصل رودريغو هاتفياً من صحراء المكسيك الشمالية، كان الفائز الجديد برفقة عشرين من أصدقائه، ولا يزال يعب من الشراب. سار كل شيء بهدوء، واتجه غارسيا ماركيز نحو الهاتف والبريق يشع من عينيه. ثم يخبر الصحافيين بعد ذلك متباهياً أن لولديه "نكهة الإحساس بالعمل التي يتصف بها أبوهما وأمهما"[74].

في ذلك الوقت، وعلى بعد آلاف الأميال، كان ثمة احتفال أشدّ صخباً وحماسة قائماً على قدم وساق في بلدة آراكاتاكا الكاريبية الكولومبية الصغيرة،

وكــان الوقت لا يزال ليلاً. وأقيمت تسبيحة شكر إلى البيت الذي عُمِّد فيه غابيتو عند الساعة التاسعة صباحاً، أعقبتها زيارة إلى البيت الذي ولد فيه. واقترحت حملة تحويل بلدة آراكاتاكا إلى بلدة سياحية تاريخية على غرار بلدة بروست إيليه كومبره، ثم اجــتمع مجلــس الحكم في مديرية مجدلينا في بيت الثقافة برئاسة الحاكمة المفعمة بالنــشاط والحيوية سارا بالنثيا عبد الله، وهي مواطنة من بلدة آراكاتاكا أيضاً(75). تستذكر ريتا شقيقة غارسيا ماركيز قائلة: "في اليوم الذي مُنحت فيه الجائزة، جرى احــتفال في بلدة آراكاتاكا نظمته حكومة مجدلينا. واستأجرت الحاكمة قطاراً ليقل كــل الــضيوف وأفــراد الأسرة على امتداد السكة: الأخوال والخالات والأعمام والعمــات وأولادهــم وبناهم، فوصلنا جميعاً إلى آراكاتاكا حيث التقينا بمزيد من الأقارب وعدد آخر من الأعمام والعمات والأخوال والخالات والأسر. عدد كبير مــن الــناس. كان يوماً مدهشاً، تخللته الألعاب النارية، وقداس، ولحم نصف بقرة طــولي مشوي في الهواء الطلق، ومشروبات لجميع أبناء البلدة. وحضر قريبنا وزير المعــادن كارلــوس مارتينيث سمعان. وفي ذلك اليوم، دشّن مبنى الاتصالات الذي شــيده شــقيقنا خايمي. لكن أروع ما في الاحتفال تمثل باللحظة التي أُطلقت فيها فراشات صفراء"(76).

وفي ستوكهولم بدأ رجل الساعة بالاسترخاء. لقد شعر أنه مسؤول عن إعطاء العــالم صورة إيجابية لأميركا اللاتينية مدركاً أن هناك من ينتظر في كولومبيا، ولا ســيما أعــداؤه، على أحر من الجمر كي يقترف هفوة، لأن فكرهم عن "الصورة الحسنة" للبلاد تختلف اختلافاً جذرياً عمّا كان يريد أن يفعله. يقول غاسيا ماركيز لاحقــاً: "ما من أحد شك في أنني لم أكن سعيداً طوال تلك الأيام الثلاثة، مراعياً أدق التفاصــيل كي يسير كل شيء على ما يرام. لم أكن أقوى على ارتكاب أي خطــأ لأن أصــغر خطأ، مهما كان تافهاً، سيكون كارثة في هذه الظروف"(77). (عــندما رجعــا بعد ذلك إلى مدينة مكسيكو، قال الفائز الجديد لألفارو موتيس: أخبرني عما حدث في ستوكهولم. إنني لا أتذكر أي شيء. كل ما هنالك هو أنني أشــاهد وميض آلات التصوير وأرى نفسي متحملاً أسئلة الصحافيين وهي أسئلة متشابهة دوماً. قل لي ما تتذكّره")(78).

لكـــن نجاح غارسيا ماركيز كان مذهلاً، حتى إن صحيفة التيمبو التي ظلت علاقته بها سهلة أثنت عليه ثناءً شديداً في إحدى مقالاتها الافتتاحية، إذ هنأته وأقرت أن حـــياته كانت شاقة وأنه كسب كل ذرة من مجده، وانتهت المقالة بما يلي: "بعد الـــضجة الـــتي صحبت احتفال نوبل، لا بد للبلاد من أن تعود إلى الواقع وتواجه مشكلاتها وترجع إلى أمورها اليومية. لكن شيئاً واحداً لن يبقى كما كان: الاعتقاد بـــأن طاقاتـــنا لا تزال ثروة غير مكتشفة، وأننا بدأنا الآن إلى حدٍّ ما بالظهور على المسرح العالمي. وها هو غارسيا ماركيز يثبت ذلك، لهذا، فإننا لن ننسى هذا الدرس الثمين"(79).

-21-

نوبة الشهرة وعطر الغوافة:

الحب في زمن الكوليرا

1985-1982

في صباح اليوم التالي، الصباح الذي أعقب الاحتفال، سافر غابو وميرثيديس جـوّاً إلى برشـلونة ترافقهما كارمن بالسيلس. وذهبوا إلى فندق الأميرة صوفيا ليمضوا الوقت نائمين حتى السنة الجديدة. غير أن غارسيا ماركيز وميرثيديس قاما بزيارة أخرى لرئيس الوزراء الإسباني الجديد. وقد دوّن غارسيا ماركيز في عموده الأسـبوعي أنه زار قصر مونكلوا مرتين في الأسبوعين الأخيرين لتجاذب أطراف الحـديث مع فيليب الشاب، الذي بدا مظهره أشبه بطالب جامعي وليس رئيساً، ومـع زوجـته كارمن التي رافقتها ميرثيديس وغونثالو[1]. بدا واضحاً أن الفائز الجديد بجائزة نوبل سيكون أقل تحفظاً وأكثر اعتداداً بنفسه من أي وقت مضى. وأشـار في مقالـته: "إنني أنظر إلى نفسي، بل أفتخر أيضاً، على أنني أشد الناس تحسساً إزاء الرسميات... ولا أزال لا أطيق فكرة أن يصبح أصدقائي رؤساء، ولم أتمكـن حتى الآن من التغلب على إحساسي بالتأثر بقصور الحكومة". لقد كان مقتـنعاً قائـد النفاثة العالمي أن فيليب الذي فهم أميركا اللاتينية "أفضل من أي شـخص غـير أميركـي لاتيني"، سيكون له "تأثير بالغ في العلاقات الأميركية اللاتينية - الأوروبية". إننا لا نعلم إن كان فيليب نفسه ينظر إلى الأشياء بمثل هذه النظرة، لكن من الواضح أن غارسيا ماركيز كان يأمل في دفعه لتأييد استراتيجية طـويلة الأمد تجاه كوبا والكاريبـي وأميركا اللاتينية، وليس لديه اعتراض على السماح للعالم بمعرفة ذلك.

وبالــرغم من ذلك، وفي أثناء الحديث غير الرسمي مع الصحافة، كان أول شيء يأتي غونثاليث على ذكره هو"مكانة كوبا في المنطقة والحاجة إلى اتفاق أمني يشارك فيه الجمــيع"، وليس هذا بالضرورة ما كان يفكّر فيه غارسيا ماركيز الذي صرَّح أن الحب ســيحل كــل مشكلات العالم. وأضاف أنه يريد العودة إلى روايته الأخيرة لمعالجة هذا الموضوع، وأنه كان يفضل نيل الجائزة في العام التالي كي يتمكن من إنهاء الكتاب[2].

في التاســع والعشرين من كانون الأول، سافر الفائز الجديد إلى هافانا بعد أن صرَّح أنه لا يزال يريد أن يؤسس جريدته الخاصة كي يستمتع "بهيبة حمل الأخبار" الــتي تشبه غريزة من يقوم بدور الوسيط الذي يطلق عليه بالإسبانية Correveidile أي "اركض وانظر وأخبره". إن محور مدريد – هافانا سيمثل شغل غارسيا ماركيز الــشاغل على امتداد السنوات التالية بالرغم من أنه لن يتمكن من تسوية الخلافات بين كاسترو وغونثاليث.

حقيقــتان عامتان غالباً ما تتردّدان عن جائزة نوبل للأدب هما: إنها تمنح عادةً لأدبــاء أكملــوا دورهــم الإبداعية ولم تعد لديهم في أعماقهم مؤلفات جديرة بالاهــتمام، وإن الجائــزة تمثل حتى في حالة الأدباء الشباب تشويشاً يسرق منهم الــوقت والتركيز والطموح. الحقيقة الأولى لا تصح كما هو واضح على غارسيا ماركيــز، فهو واحد من أصغر كل الذين فازوا بجائزة نوبل، وواحد من أشهرهم وأكثــرهم شــعبية. أما الحقيقة الثانية فتوقعها أولئك الذين استاؤوا من نجاحه، أو غاروا منه، غير أن الحقيقة هي أن غارسيا ماركيز ذاق طعم الشهرة قبل الآن وعلى مستوىً قلما يحظى به الفائزون بجائزة نوبل. فهو ليس بذلك الرجل الذي يكف عن السعي مكتفياً بما حقق من نجاح وحسب، بل مرَّ أيضاً بمثل هذه التجربة في السنين التي أعقبت نشر رواية **مئة عام من العزلة** كأنه حصل على جائزة نوبل الأولى. إذاً، يمكن للمرء أن يتوقع منه أن يثور من جديد: أن يكتب أكثر، وأن يسافر أكثر، وأن يجــد أشــياء جديدة لينجزها؛ هكذا اتضحت الأمور. فقد كان أكثر من مستعد لمكانته الجديدة: ومع هذا...

ومــع هــذا... كان قد قرر في العام 1980 أن يشق طريقاً جديداً في الحياة ينــسجم ومــوقعه الجديد الذي يتمتع به بسلطة وباحترام. وكان صديق الرؤساء،

وأضاف إلى علاقته بكاسترو علاقة برئيس جمهورية المكسيك لوبيث بورتيلو، والرئيس الفنزويلي أندرياس بيريث، ورئيسي كولومبيا لوبيث ميتشيلسين وبيتانكور، والرئيس الفرنسي ميتران، وأخيراً رئيس وزراء إسبانيا غونثاليث. وزاد من شهرته باكتسابه ضرباً من مكانة الرؤساء (وكان فيدل كاسترو يقول: نعم، إن غارسيا ماركيز أشبه برئيس دولة. لكن السؤال هو: أي دولة) وأخبر الصحافيين أنه سيأخذ قسطاً من الراحة، إلا أنه كان يأمل في استخدام تأثيره الجديد للتباحث على نحو أكثر تأثيراً مع تحالفاته الرئاسية الجديدة. في وسع المرء أن يقول إن مرحلته السياسية العلنية استمرت من عام 1959 حتى عام 1979 وكانت في عنفوانها في الفترة الممتدة بين عامي 1971 و1979، لتعقبها مرحلة أكثر "دبلوماسية". والسؤال هو: هل يا تُرى يخفي أفكاره السياسية الحقيقية في أثناء المرحلة الدبلوماسية ويظل في الوقت نفسه مسافراً كما حدث في المرحلة الممتدة بين عامي 1950 و1979؟ أم تراه سيكيف موقعه السياسي من وراء غطاء وساطته ومفاوضاته السرية ومشاريعه الأدبية؟

لا بد من أن غارسيا ماركيز نفسه شعر في أثناء عودته إلى ما وراء الأطلسي بكل مجده الذي خطط له تخطيطاً كبيراً في حياته عن وعي أو من دون وعي، بوطأة الشهرة والمسؤولية الملقاة على عاتقه. لقد حصل على بغيته، لكن، كما غنت مارلين مونرو أغنيتها الشهيرة، فإن المرء لا يريد الشيء بعد أن يحصل عليه. لقد مضت مدة من الزمن الآن وهو مضطر إلى التكيف مع مستويات التزلف والمداهنة التي لا يمكن أن يتصورها أديب جاد إلا إذا كان قد شاهدها بعينه: لا شيء أقل من"نوبة الشهرة"[3]. وعليه الآن أن يحول حياته كلها إلى مشهد منظم تنظيماً دقيقاً.

يقول الذين عرفوه طوال حياته تقريباً إنه بات أكثر احتراساً إثر فوزه بالجائزة. وشعر بعض أصدقائه بالامتنان لأنه استمر في الاهتمام بهم في حين استاء آخرون لإهماله إياهم. وقال الكثيرون إن زهوه ازداد ازدياداً واضحاً، وأوضح غيرهم أن تمكنه من البقاء طبيعيًّا أمرٌ يدعو للدهشة. وقال قريبه غوغ إنه كان دائماً أشبه "بفائز بجائزة نوبل ولد حديثاً"[4]. وقالت كارمن بالسيلس التي كان في وسعها أن تنظر إلى المشاهير نظرة باردة أكثر من غيرها، إن مدى نجاحه وشهرته "لن

يتكــــرر"[5] ("عندما يكون لديك شخص مثل غارسيا ماركيز، ففي مستطاعك أن تؤســـس حزباً سياسياً أو تنظم ثورة"). أما غارسيا ماركيز نفسه، فيقول في مرحلة لاحقة إنه حاول أن يبذل كل شيء ممكن كي "يبقى دون تغيير"، لكن لم ينظر إليه أحـــد النظرة نفسها منذ أن سافر إلى ستوكهولم. ويقول إن الشهرة "تشبه إشعال الضوء دائماً". إن الناس يخبرونك بما يعتقدون أنك تريد سماعه. الجائزة تتطلب هيبة ولن يكون في وسعك بعد الآن أن تقول للناس"تباً"، والمطلوب منك أن تكون دائماً مـــسلياً وذكياً. وإذا ما بدأت الكلام في حفلة ما، حتى إن كان الكلام مع أصدقاء قدامى، فإن الآخرين يمسكون عن الكلام ويصغون إليك. ومن المفارقة أنك "عندما تكون محاطاً بعدد أكبر من الناس، فإنك تشعر بأنك أصغر وأصغر"[6]. ولن يمضي وقـــت طـــويل حـــتى يبدأ لعب كرة المضرب لأنه بات من المستحيل تماماً ممارسة التمارين بالسير في الشوارع. وفي كل مطعم يهرع النادلون إلى أقرب مكتبة لشراء نـــسخ من كتبه كي يوقع عليها. أما المطارات، فهي أسوأ الأماكن إطلاقاً لأنه لا يستطيع أن يجد فيها مخرجاً للهرب منه. وهو الأول الذي يوضع في الطائرة، إلا أن العـــاملين في الخدمة في الطائرة يريدون كتباً أو مجلات عن الطيران أو مناديل مائدة لـــيوقع عليها. لكن هذا الإنسان خجول، وجل وقلق من أوجه متعددة[7]. "مهنتي الأساسية الآن أن أحافظ على حالتي، وهي أمر صعب، إذ لا يمكنك أن تتوقع وطأة ذلك العبء عليك. لكنني سعيت إلى ذلك"[8]. ثمة أكثر من سبب يدفع للاعتقاد أنه ســـيجد السنوات المقبلة أكثر صعوبة مما كان يتصور، لكنه بالرغم من ذلك لم يعد يشعر بالقدرة على الشكوى كالسابق عندما كان يكتب رواية **خريف البطريرك**.

ســـافر غارســـيا ماركيز وميرثيديس إلى هافانا جواً عند الساعة الخامسة من صـــباح اليوم الثلاثين من كانون الأول سنة 1982 للبقاء مدة أطول، وخصص لهما بيت البروتوكول في الرقم 6، وهو المنـــزل الذي سيصبح منـــزلهما الكوبـــي بعد ســـنوات قليلة. وكان كاسترو قد حضر مراسم تشييع بريجنيف في موسكو حيث نـــاقش مع أنديرا غاندي توجيه الدعوة إلى غارسيا ماركيز لحضور مؤتمر دول عدم الانحـــياز الذي تقرر عقده في دلهي في آذار سنة 1983 (وذكرت غاندي أنها كانت تقـــرأ رواية **مئة عام من العزلة** عندما أعلنت جائزة نوبل) واشترى فيدل في أثناء

وجـــوده في موســـكو كمية كبيرة من الكافيار المفضل لديه لغارسيا ماركيز. أما غارسيا ماركيز، فكان من جهته يحمل رسائل من فيليب غونتاليث وأولف بالمه مع سمك القدّ من آل فيودتشي والشراب من كارمن بالسيلس. وفي ذلك الأسبوع مرَّ غـــراهام غـــرين بهافانـــا مع صديقه البانامي تشوتشو مارتينيث الذي كان أقرب مساعدي توريخوس. وفي السادس عشر من كانون الثاني، كتب غارسيا ماركيز عن الكاتب الإنكليزي مقالة بعنوان *ساعات غراهام غرين العشرون في هافانا*، ولم يكن الاثـــنان قـــد التقـــيا معاً منذ سنة 1977. وكشف غارسيا ماركيز عن أن غرين ومارتينـــيث وصلا في منتهى السرية وخصص لغرين منـــزل يليق بكبار السياسيين لتمضية يومه وسيارة ميرسيدس بنـــز. وكان غرين وكاسترو قد ناقشا تجربة غرين الـــشهيرة مع الروليت الروسية وهو في سن التاسعة عشرة. وانتهت المقالة بعبارة: "عندما افترقنا اضطربت لأن اللقاء سيذكر عاجلاً أم آجلاً في مذكرات واحد منا أو كلـــنا"[9]. لقـــد أمـــسى الكلام مع غارسيا ماركيز يشكل خطورة - إذ ستنشر الصحافة خبرَ مثلِ ذلك اللقاء في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة – وتساءل البعض إن كـــان يليق بمقام الفائزين بجائزة نوبل إجراء لقاءات مع غيرهم من المشاهير والقيام بأداء دور رجال الصحافة.

كانـــت المقالة عن غراهام غرين مبالغاً فيها من وجهة نظر الكوبـــي المنفي غييرمو كابريرا إينفانتي الذي ردَّ بمقالة بعنوان *مشاهير في هافانا*:

> **أعلـــم أن هناك قراءً (وكتّاباً) أميركيين جنوبيين وإسبان يقرأون العمود الأسبوعي الذي يكتبه غارسيا ماركيز ليضحكوا بصوت عال، ولينظروا إلى تـــصريحاته بازدراء مترفع نحو الغرباء، أو ما يفعلونه عندما يلاحظون دردشـــة أحد الأجلاف... أهذه هي قمة السخافة أم هي تقليد مبتذل؟ للقراء الذين لهم علم بالموضوع، فإن مقالة غارسيا ماركيز الأسبوعية في الـــبايس تمثل الوعد الأكيد على الرعشة الجديدة لكن ليس لي أنا. إنني أحمل الروائي على محمل الجد التام، وهذه الكتابة دليل على ذلك بالرغم من احتمال وجود البعض الذين يواجهون رأيي بتلفيق الأعذار الخاصة: يا رجل، الأمر لا يستحق كل هذا، لا تقلق، لن يهتم أحد. لكنني أهتم، وأعـــتقد، أســـوة بغـــولدوني، أن في الإمكـــان ضرب السيد بمساعدة الخادم[10].**

بدأ اليمين في أميركا اللاتينية والمنفيون الكوبيون على وجه الخصوص الذين نقموا بسبب منح الجائزة، يصابون بالهلع بسبب غارسيا ماركيز. ربما اعتقدوا من قبل أنه لن يُمنح الجائزة، لأن لجنة نوبل تعلم أنه "أحمر" وأن قربه من الشيوعية لا يشكل فرقاً من وجهة نظرهم، أو ربما ليس هناك ما يخسرونه، بل هناك كسب كبير بالهجوم عليه علانية بعد أن وصل امتيازه إلى حده النهائي. أو ربما لم يستطيعوا تحمل نجاحه وابتهاجه الواضح وشعبيته التي لا يرقى إليها شك. من المؤكّد أن غارسيا ماركيز كان يعلن بنفسه عن علاقته الشخصية بفيدل منذ أكثر من عام بعد أن تخلى عن الصحافة المتشددة. والآن، إذا لم يكن واضحاً من قبل، فإن الواضح الآن هو أن فيدل احتاج إلى غارسيا ماركيز أكثر مما احتاج غارسيا ماركيز إليه. على كل حال، وبالرغم من أن الجائزة منحت غارسيا ماركيز وسيلة للوصول إلى الطبقات العليا ذات النفوذ السياسي والدبلوماسي في أميركا اللاتينية، فإنها أطلقت في الوقت نفسه مستوىً غير مسبوق من العداء اليميني الذي لم يهدأ خلال العقدين الماضيين من الزمان (وإن لم تلحق به إلا ضرراً قليلاً، وهو أمر يثير العجب) في حين أن شهادة نوبل التقديرية حمت الكاتب الكولومبي في جميع أنحاء العالم، وحتى في العالم الغربي الليبرالي الجديد، من كل شيء سوى أشد النقاد عنفاً وإصراراً.

وإذا كانت المكسيك قد شعرت أنها مهملة بسبب علاقته بكل من بيتانكور وميتران وغونثاليث وكاسترو، فقد كتب مقالة ودية عن أهمية المكسيك في حياته بعنوان عودة *إلى المكسيك* نشرت في الثالث والعشرين من كانون الثاني[11]. ولم تمنعه عواطفه من تسمية البلاد "بالمدينة الشيطانية" ولا تزيد عنها قبحاً سوى بانكوك. وأصبحت صلته اليوم بخمسة سياسيين من ذوي النفوذ القوي يمثلون أهم البلاد في حياته باستثناء فنزويلا، وهي كولومبيا وكوبا وفرنسا وإسبانيا والمكسيك، وكانت هذه البلاد ذات حيوية بالغة بالنسبة إليه إذا ما أراد أن يستمر في الدور السياسي العالمي الذي كان يحلم به. ومن المدهش أن نلاحظ إلى أي وقت يمكنه الاحتفاظ بهذه الأوراق الخمس، وهل في وسعه أن يحسن من وضع يديه أو يقدر على تبديل الأوراق بأوراق أخرى استعملها غيره بنجاح ثم رماها جانباً.

في الثلاثين من كانون الثاني نشر غارسيا ماركيز، وبيده كل تلك الأوراق الرئاسية، مقالة عن رونالد ريغان بعنوان *نعم، الذئب آت حقاً*[12]، يذكر فيها تجربته مع الإمبريالية الأميركية منذ خليج الخنازير. وكان العداء المستتر لأميركا يشكل دافعاً يوحد بقدر أو بآخر دوله الخمس في لحظة بدا فيها اضمحلال الاتحاد السوفياتي وعجزه المستمر حتمياً. لكن لسوء حظ غارسيا ماركيز أن الوضع الدولي لم يكن مؤاتياً "لاهتماماته" السياسية في ذلك الظرف المناسب له شخصياً. وبالرغم من أن وزراء الخارجية لما أصبح يعرف بدول الكونتادورا (كولومبيا والمكسيك وباناما وفنزويلا) قد اجتمعوا مؤخراً، إلا أنه كان مقتنعاً أن جهود الولايات المتحدة في زعزعة الاستقرار ستثمر في أثناء السنة. وكان محقاً في ذلك.

فقد أعلن بليساريو بيتانكور في مستهل عهده الرئاسي أن كولومبيا تسعى للانضمام إلى منظمة دول عدم الانحياز التي كان فيدل كاسترو يترأسها في ذلك الوقت[13]. وفي مطلع شهر آذار 1983 سافر الوفد الكوبي إلى الهند، وكان على متن الطائرة كاسترو وغارسيا ماركيز ونونيث وكارلوس رافائيل رودريغيث وخيسوس مونتاني وموريس بيشوب زعيم حركة الجوهرة الجديدة في غرينادا الذي وافته المنية بعد ستة أشهر واحتلت الولايات المتحدة جزيرته، وديسيري ديلانو بوتيرسيه رئيس المجلس العسكري في سورينام. وبالرغم من أن كاسترو أبدى شجاعة ورباطة جأش، إلاّ أن رئاسته أفسدها ذلك الرذاذ المتطاير الذي أحدثه الغزو السوفياتي لأفغانستان وشعر بالارتياح بتسليم الرئاسة إلى من هو أقل تماهياً مع اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. وبعد المراسم الرسمية توجه الكوبيون إلى الملتقى الرسمي في فندق أشوكه، لكن غارسيا ماركيز كان قد حجز جناحاً خاصاً في فندق شيراتون كي يتمكن من الترحيب بأصدقائه القدامى الذين كان يتوقع أن يلتقي بهم. وفي صباح اليوم التالي وجده نونيث في حالة فوضى، ثيابه مبعثرة في جميع أرجاء الغرفة محاولاً أن يعثر على بذلة مناسبة تليق بحفلة الاستقبال. كانت ميرثيديس هي التي تتولى اتخاذ القرارات بهذا الشأن. وقال لنونيث: "لو أن كل الرجال عرفوا فائدة الزواج لنفد ما لدينا من نساء، وعندئذٍ ستحل مصيبة"[14]. وكان احتفاله مع ميرثيديس بذكرى زواجهما الخامسة والعشرين في الحادي والعشرين من آذار.

أخيراً، في الحادي عشر من نيسان زار غارسيا ماركيز مجدّداً كولومبيا التي لم تطأهـــا قدماه قبل نبأ فوزه بجائزة نوبل بستة أشهر تقريباً. وتوقّعت الصحف كثيراً بخـــصوص الـــزيارة، إلا أنها لم تتحدث عن شيء واحد وهو قضية سلامة غارسيا ماركيـــز الشخـــصية، لكـــن بيتانكور أصرَّ على أن يكون لديه فريق من الحراسة الشخصية في كولومبيا بتنظيم وتمويل الحكومة. وبعد مرور بضعة أيام على وصوله نـــشر مقالة في عموده الأسبوعي بعنوان **عودة إلى الغوافة**"[15]. ومن نافلة القول الإشارة إلى أن القراء في بوغوتا سيدركون جيداً أن "الغوافة" شفرة تدل على أنه لن يعود إلى"كولومبيا" قدر ما سيعود إلى"ساحله" الحبيب. وبالرغم من صعوبة تحديد مكـــان إقامـــة غارسيا ماركيز من خلال قراءة مقالاته (إذ باتت تنحو منحى سرد متسلسل ومهلهل لخواطر وذكريات أكثر مما هي مذكرات) غير أن الحقيقة هي أنه سيمضي معظم هذه السنة في بوغوتا معتقداً بلا ريب أن الجائزة عزّزت مكانته الآن عند الأقلية الحاكمة التي ستعجب به، أو في الأقل تحترمه. لكن الكثيرين ظلّ الشك يراودهم، بل إن قطاعات من الصحافة بدأت تهاجمه على الفور تقريباً[16].

سافر جواً إلى مدينة كارثاخينا القديمة، التي ترقى إلى حقبة الاستعمار، في نهاية شـــهر أيار. وسرعان ما ستصبح هذه المدينة هدفه الرئيس في كولومبيا وإطار معظم كتبه اللاحقة. ومنذ إنشاء قصر المؤتمرات بالقرب من الميناء سنة 1982، فقد بات أمراً ميـــسوراً أن تعقـــد الاجتماعات الدولية المهمة في هذه المدينة التاريخية. كانت المدينة تحتفل في تلك الأيام بذكرى تأسيسها الأربعمئة والخمسين، وكان مهرجان كارثاخينا السينمائي قائماً على قدم وساق أيضاً. ولم يكن الزائر الأجنبـــي الوحيد المدعو لهذه الاحـــتفالات سوى الأندلسي فيليب غونثاليث الذي يشق طريقه مع غارسيا ماركيز وســـط الحـــشود المحتفلة، وكان غارسيا ماركيز يلبس البذلة التقليدية التي باتت الآن علامـــة مـــسجلة له، ويرقص بعض الأحيان مع إحدى المعجبات[17]. كما صخب وعـــربد في "ســـحر" و"فوضى" مسقط رأس أُسرته. وكما هو شأن بيتانكور، فإن غونثاليث الذي كان في طريقه لإجراء محادثات في الولايات المتحدة، التزم التزاماً قوياً بتشجيع دول كونتادورا على إحلال السلام في أميركا الوسطى. وفي أثناء وجوده في كارثاخينا عقد مباحثات مع وزراء خارجية الدول الأربع الضامنة للمباحثات[18].

في أواخـــر شهر تموز، زار غارسيا ماركيز كاراكاس ضمن وفد كولومبـــي رسمي للاحتفال بمرور نصف قرن على ولادة بوليفار. لم يكن قد زار فنـــزويلا منذ خمـــسة أعـــوام. والتقى هو وميرثيديس هناك بالصحافي والكاتب الأرجنتيني المنفي تـــوماس إلوي مارتينيث الذي كان يأمل أن يؤسس معه صحيفة إل أوترو. وناقشا المـــشروع في مقهى سواق الشاحنات على مقربة من أحد طرق كاراكاس حيث يمكن لوجهه الذي بات مشهوراً جداً الآن أن يمر من دون أن يلاحظه أحد. ويتذكر مارتينيث:

"التقيـــنا عـــند الـــساعة الثالثة صباحاً تقريباً. كانت ميرثيديس التي تناولت العـــشاء مـــساءً محاطـــة بالرئيس الفنـــزويلي والملك خوان كارلوس ملك إســـبانيا، وكانت ترتدي ثوباً طويلاً مدهشاً لم يلتفت إليه سواق الشاحنات. أحـــضر لنا نادل أعرج بعض الشراب، وفجأة تحول الحديث إلى الماضي... لكن ميرثيديس عادت بنا ثانية إلى أرض الواقع وقالت: *هذا المكان فظيع. ألم تستطع العثور على مكان أفضل؟* فقلت: *اللوم يقع على شهرة زوجك لأننا إذا مـــا ذهبنا إلى أي حانة أخرى في كاراكاس، فسيقاطعنا الناس باستمرار.* فقال غارسيا ماركيز:

***كان ينبغي لنا أن نذهب إلى ركن الحب كما فعلنا في بوينس آيرس أول مرة.* فـــصححت قوله: *درب الحب. أعتقد أنه لم يعد له وجود اليوم.* فما كان من ميرثـــيديس إلا أن غمـــزت غمزة خفية: *هل كنت تتصور أن غابو سيغدو مـــشهوراً هكذا؟ نعم. لقد شاهدت اللحظة التي هلّت فيها الشهرة عليه من الـــسماء. كنا في تلك الليلة في المسرح في بوينس آيرس. عندما تبدأ الشهرة علـــى ذلك النحو فإنها لن تخبو.* قال غارسيا ماركيز: *أنت مخطئ، فقد بدأت الـــشهرة قبل ذلك بزمن طويل.* قلت ساخراً: *ماذا؟ في باريس عندما فرغت مـــن تألـــيف روايـــة العقيد؟ هنا في كاراكاس عندما شاهدت طائرة بيريث خيمنيث البيضاء تغادر وطائرة بيرون السوداء تعود؟ أم حدث هذا قبل ذلك في رومـــا عندما مرت صوفيا لورين بنا فابتسمت لك؟* قال موضحاً: *بل قبل ذلـــك بكثير* وكان جاداً في إيضاحه. وفي الخارج. كانت الجبال تشي بطلوع الفجر من ورائها. ومضى يقول: *كنت مشهوراً منذ أن تخرجت من المدرسة في ثيـــباكيرا، أو ربمـــا قـــبل ذلـــك، عندما أخذني جداي من آراكاتاكا إلى بارانكيا. كنت دائماً مشهوراً منذ اللحظة التي ولدت فيها. المشكلة هي أنني الوحيد الذي أعرف ذلك*"[19].**

في شـــهر تـــشرين الأول كان غارسيا ماركيز يسعى لتمضية مدة أطول في بوغـــوتا، وكـــان يفكّر في منح جائزة نوبل للأدب للكاتب الإنكليزي الممل وليام غولدنغ، وجائزة نوبل للسلام لزعيم حركة التضامن البولندي ليخ فاليسا عندما أتته أخبار مزعجة. فقد أطاح انقلاب بموريس بيشوب في غرينادا وأعدم في التاسع عشر مـــن تـــشرين الأول[20]. وبعد خمسة أيام، غزت الولايات المتحدة الجزيرة مبرهنة بـــذلك علـــى صـــحة مخاوف غارسيا ماركيز بشأن سياسة الولايات المتحدة في الكاريبـــي، ولم تُحدث إدانة الأمم المتحدة في الثامن والعشرين أي نتيجة مثلما لم يـــؤدِّ احتجاج مارغريت تاتشر إلى أي شيء بعد احتلال إحدى دول الكومنولث التابعة للتاج البريطاني. وفي الثالث والعشرين من تشرين الأول احتوى عمود غارسيا ماركيـــز الصحفي على تأبين للرئيس الذي اغتيل مع ذكريات عن مؤتمر دول عدم الانحياز في نيودلهي. وفي الأسابيع القليلة التالية يتوسط بيتانكور بين كوبا والولايات المتحدة بخصوص إعادة السجناء الكوبيين الذين أُسروا على أرض الجزيرة. وكان في حالة اتصال مستمر مع غارسيا ماركيز، وهو ما سيصرح به الأخير للأمة في مقابلة في مطلع شهر تشرين الثاني[21].

بالرغم من أن غارسيا ماركيز قد بذل قصارى جهده، إلا أنه لم يكن سعيداً في بوغوتا. وتساءلت الصحف كل أسبوع إن كان غارسيا ماركيز يجد صعوبة في التكيف في كولومبيا. لكن كولومبيا ليست هي المشكلة. فقد أخبرتني الروائية لورا ريـــستريبو عن حادثة وقعت في ذلك الصيف عندما تطوع غارسيا ماركيز لإعطاء دروس خـــصوصية للـــصحافيين في صـــحيفة سيمانا التي كان يديرها لوبيث ابن ألفونسو لوبيث ميتشيلسين، وكان قبل ذلك ببضعة أشهر قد ساعد الصحافي فيليب لوبـــيث مـــن بوغوتا للحصول على شرف إجراء لقاء مع فيدل كاسترو. وتحدث الاثـــنان حـــول موضوع العناوين الرئيسة. وسأل غارسيا ماركيز ذات مرة، وهو مـــتحمس جـــداً، عن العنوان الرئيس الذي سيختاره الصحافيون إذا ما خرج من مكاتب الصحيفة وأُطلق عليه الرصاص في الشارع. قال فيليب لوبيث بسرعة وقد لاحـــت عليه ابتسامة واهنة: "مقتل ساحلي"[22]. ففي بوغوتا لا توفر جائزة نوبل الحماية ضد قتل الآخرين من قبل الأقلية الحاكمة أو ممثليها.

بحلول نهاية العام، قرر غارسيا ماركيز أن يفي بوعده ويذهب إلى آراكاتاكا. لقد مرت ست عشرة سنة منذ زيارته الأخيرة لها وأنهت زيارته مرحلة استراحته. فبعد أسبوع واحد، كتب وصفاً غريباً عن ذلك النهار بعنوان *عودة إلى البذرة*، وهي إشارة لم يُنطق بها من قبل إلى قصة مشهورة لأليخو كاربنتيه[23]. واعترف أن الدهشة تولته عندما تلقى مثل هذا الترحيب الحار (دلالة على ذنب؟ إذ طالما وجه إليه النقد لعدم "إنقاذ" آراكاتاكا من التخلف). وقال إنه تذكر كل شيء تماماً، بعد أن أحاطت به الوجوه من الماضي، وجوه تشبه وجهه عندما كان يحل السيرك في البلدة. لكنه ذكر لاحقاً أنه لم يلجأ إلى إضفاء الميثولوجيا على آراكاتاكا ولم يشعر بحنين جارف إليها (كما كان يحن الآخرون؛ وهو ما كان يريد الإيحاء به)[24]. لقد قيل الشيء الكثير جداً عن الصلة بين آراكاتاكا وماكوندو، وبعد أن رجع إليها الآن، فإن المكانين يبدوان غير متشابهين أكثر من أي وقت مضى. "يصعب تصور أي مكان آخر منسيّ تماماً كهذا المكان وأكثر وحشة. كيف يمكن للإنسان ألاّ يشعر بأن روحه يمزقها شعور بالتمرد؟".

في نهاية هذا العام الممل الذي أمضاه غارسيا ماركيز في إجازة عن الكتابة، انسلّ إلى هافانا لاستقبال العام الجديد فيها. وفي هذه المرة دعا ريجيس دوبريه للحضور وتمضية الوقت في فندق الريفيرا معه ومع صديقهما القديم ماكس ماراميبو المسؤول السابق عن فريق حماية آليندي الشخصي، بات اليوم شخصية مهمة في المنظمات التجارية لكوبا. ووجد دوبريه أمامه غارسيا ماركيز القديم نفسه، "موزعاً كعهده بين مودته (لزميله اللاتيني القديم) وسخريته (للفرنسي المفرط في فرنسيته، المتغطرس والمحترس) في الوقت الذي أغرقني فيه بأشرطة سينمائية مثل *أرملة كليكو* وأغاني براسانس التي كان يحفظ كلماتها عن ظهر قلب"[25].

* * *

سيكون العام 1984 عاماً أفضل على غارسيا ماركيز، ولكنه عام سيئ جداً على كولومبيا. فما إن انتهت احتفالات السنة الجديدة حتى تخلى عن مطالب كوبا الدبلوماسية المستمرة وبدأ يهيِّئ لسلسلة من التحولات: من"إجازته" السنوية إلى مهنته الحقيقية؛ تأليف الروايات، ومن عموده الأسبوعي إلى الرواية الكبرى التي كان

قـــد بدأ بها في فصل الصيف الذي سبق إعلان جائزة نوبل، "الرواية التي تدور عن الحب"، ومن الإقامة في بوغوتا، التي كانت سيئة له دائماً، إلى كارثاخينا والساحل.

لقـــد كانت العودة إلى آراكاتاكا تنطوي على تناقض كما كان متوقعاً. فمن جهة أولى، كانت عودة إلى المكان الذي سبق له أن صوره في أفضل قصص الحب الـــتي كتـــبها تحـــت اسم ماكوندو، ذلك المكان الذي ألهم روايته الأولى **عاصفة الأوراق** ورواية **مئة عام من العزلة**. ومع هذا، فالعودة أكدت ببساطة إلغاءه تلك التجـــربة: فقد نفى فعلاً علاقته بآراكاتاكا تماماً مثلما نفى بأشكال عدة رواية **مئة عام من العزلة** نفسها.

الآن سيتجه إلى إعادة الكتابة عن نفسه – يعيد كتابة ما أعاد كتابته – وملء الفجـــوات المفقودة. ومما لا ريب فيه أن يبدوَ فائزٌ بجائزة نوبل حتى الآن مسكوناً بهـــواجس الطفـــولة لا سيما عقدة أوديب المربكة التي عاناها عندما أزيح عن أبيه فاحتضنه جده. لقد حذف حتى الآن بعض الحقائق البنائية وأخفى المشكلة، في حين كـــان يجـــري تعديلات درامية من الناحية الأدبية، ومرضية من الناحية الجسدية. وسيكتب مرة أخرى عن أبيه غير الشرعي في القصة. أما غابرييل إليخيو، فقد عاد إلى آراكاتاكا قبل سنة، في الوقت الذي جرت فيه احتفالات نوبل وجعل من نفسه، كمـــا في أغلب الأحيان، نجم العرض. (إذا كان ابنه قد ورث شيئاً واحداً عن أبيه فهـــو حيويته). إلا أنه كان منتشياً أيضاً لدى سماع خبر نجاح غابيتو ونَعِمَ علانية وللمرة الأولى بالمجد الذي انعكس عليه.

في اليوم الذي سمع فيه غارسيا ماركيز أنه فاز بجائزة نوبل صرَّح للصحافة أنه يـــود أن يشيد بيت أحلامه في كارثاخينا، لكن هذا هو الأمر الذي لم يسر على ما يرام في كارثاخينا التقليدية – حيث التأكيد فيها دائماً على حفظ البيوت الموجودة فـــيها أصـــلاً – وكـــان لدى العديد من الناس مشاعر متباينة وليست سلبية إزاء عودته[26]. لقد قرر بنفسه أن يتخلص من أحزان بوغوتا ويظهر بمظهر آخر. أو لعله أراد حقـــاً أن يشعر أنه في وضع أفضل بالعودة إلى الكاريبـــي. أو ربما كان ذلك بـــسبب تكـــريس نفـــسه للحـــب كل الوقت. على كل حال، وجد الأصدقاء والصحافيون غارسيا ماركيز جديداً بمظهره الكاريبـــي الأبيض في كل شيء بعد أن

نقــص وزنه مقدار خمس كيلوغرامات، وصفف شعره، وقلّم أظافره، وفاحت منه رائحة عطور باهظة الثمن وهو يتسكع في شوارع كارثاخينا القديمة وشاطئ بوكا غــراندي وشوارع مانغا؛ كان يفعل كل ذلك عندما لا يصخب في قيادته سيارته الحمراء الجديدة موستانغ[27].

يــنهض غارسيا ماركيز عند الساعة السادسة صباحاً ويقرأ الصحف ويجلس ليهيِّئ نفسه للكتابة من الساعة التاسعة وحتى الساعة الحادية عشرة، ثم ينهض ببطء (كأنــه المــنطاد الذي يريد أن يخترعه في كتابه وفي الشريط السينمائي رسائل من المتنــــزه). وقــال إن الــشيء العظيم هو أنه "استرجع كولومبيا". أما ميرثيديس فــتذهب إلى الشاطئ عند منتصف النهار وتنتظر هناك بصحبة صديقاهّا حتى يأتي غارســيا ماركيز إليها. ثم يتناولان طعام الغداء المكون من الروبيان أو جراد البحر ويــروحان بعدها في قيلولة. وعند الأصيل يتجاذب أطراف الحديث مع أبويه، وفي كل مساء يسير في أنحاء المدينة أو يتحدث إلى أصدقاء "ليحشر ذلك كله في الرواية في اليوم التالي"[28].

وبالرغم من أنه يسكن في مبنى يوصف بأنه "الآلة الكاتبة" بسبب شكله، إلا أن غارسيا ماركيز بدأ تحولاً ثورياً آخر فنياً هذه المرة[29]. ربما لحسن الحظ أنه كتب قــبل الآن الأقــسام الأولى من روايته القادمة التي ستعرف بالعنوان **الحب في زمن الكــوليرا** الــتي منحته ضرباً من جسر أدبــي يعبر خلاله إلى ما وراء تجربة نوبل بــرمتها. لقد قرر الآن أن يعود إلى الكتابة باستعمال الحاسوب، وطلب من كاتبة علــى الآلة الكاتبة أن تنقل إلى الحاسوب المخطوطة الجاهزة، مما سهل على رجل مهووس برمي كل صحيفة من الورق فيها خطأ مطبعي واحد والمضي قدماً على نحو أســرع، وربما ساعده ذلك على إجهاض ذلك النوع من الحاجز الذي يقف أمام الكاتــب والــذي ابتُلي به العديد من الفائزين بجائزة نوبل على مر السنين. ويقول الــنقاد إن هناك تحولاً في الأسلوب ربما طرأ بسبب التكنولوجيا الحديثة وقد يكون ذلك مفيداً أو غير مفيد.

بيد أن التحول الأعظم الذي طرأ على حياة غارسيا ماركيز، حياته النفسية في الأقل، يتمثل بعلاقته بوالده. فعلى مدى السنوات الستين لم يتكلما إلا نادراً. واليوم

تـــصالح الابـــن مع أبيه بما يكفي كي يقود سيارته ويعبر الجسر إلى مانغا في معظم أوقات العصر ويتكلم إليه وإلى لويسا سانتياغا - كلّ على انفراد تقريباً - بخصوص شبابهما ومحبتهما. وكان الدافع الأكبر من وراء ذلك كتاب جديد لا بد من تأليفه، لكن هناك أكثر من سبب للاعتقاد بأن غارسيا ماركيز بات مهيأً الآن لهذا التحول، وأن الكتاب سمح له بإخفاء وحماية كبريائه والتخفيف من حدة الذنب الذي يشعر بـــلا ريب أنه إزاء هذا الرجل، إزاء أبيه. فقبل ثلاثة أعوام كان يكتب عن امرأة في كـــتاب **قصة موت معلن** أدركت فجأة شيئاً ما عن أمها: "شاهدتها أنخيلا فيكاريو بـــتلك الابتسامة للمرة الأولى منذ ولادتها كما كانت على حقيقتها" امرأة مسكينة وهبت نفسها للإعجاب بعيوبها"[(30)]. مما لا شك فيه أن غارسيا ماركيز كان قادراً بعـــد أن أصبحت كل تحدياته خلفه على تقويم غابرييل إليخيو تقويماً نـــزيهاً وإن كان أقل قسوة.

لا يمكن أن يكون ذلك سهلاً. فغابرييل إليخيو هو الرجل الذي أخذ أمه بعيداً عنه ثم عاد بعد سنوات ليبعده عن جده المحبوب، العقيد رفيع الشأن كما كان يراه غابيـــتو. وبالرغم من أن غابرييل إليخيو لم يكن أباً فاسداً متعسفاً، فإنه كان يطلق الـــتهديدات باللجوء إلى العنف دائماً ليحافظ على سلطته الاعتباطية المتقلبة غالباً. فقد حبس زوجته المعذبة منذ زمن بعيد داخل البيت على أساس أبوي صارم، لكنه كان يسافر متى يحلو له السفر، ويخونها في معاشراته - على نحو مفضوح - في كثير مـــن المـــرات. وإذا ما نظرنا إليه نظرة عامة، فإنه بالرغم من قدرته على الاحتفاظ بأســـرة كبيرة تأكل وتلبس وتتلقى في معظم الأحيان تعليماً جيداً، وكان ذلك كله إنجـــازاً غـــريباً، فإن وجهة نظر الابن الأكبر هي أن خاصية عدم إمكانية توقع ما سيفعله، ومخططاته الجنونية، وتغيير الخطط والنكات الساذجة التي يتعين على الجميع الاحـــتفال بهـــا، والطبع السياسي المحافظ العنيد، والهوة المؤلمة أحياناً بين منجزات الرجل الحقيقية وتقويمه لنفسه؛ كل هذه الأشياء، وفي مقدمتها الاستياء الأوديبـــي أساساً، مما يصعب تحمله تماماً.

في مثل هذه العلاقة يتآمر كل شيء كي تزداد الأشياء صعوبة وسوءاً. ولعل عـــبارة غارسيا ماركيز الأكثر انتشاراً وشعبية في أميركا اللاتينية هي أنه لن ينسى

بغض النظر عن النجاح الذي حققه أنه ليس أكثر من طفل من الأطفال الستة عشر لعامل التلغراف في آراكاتاكا. وعندما سمع غابرييل إليخيو هذه العبارة أول مرة، انفجر في خطبة لاذعة غاضبة، بأنه لم يشتغل عامل تلغراف إلا مدة قصيرة، وأنه أصبح الآن طبيباً محترفاً وشاعراً وروائياً أيضاً[31]. وشعر بالإهانة لأن الجميع كانوا يعلمون مقدار تأثير العقيد المشهور في ولده وإلى أي حدّ ألهم شخصيات كتبه التي لا تنسى، على حين أنه، غابرييل إليخيو، لم يُذكر قط، وبدا مستبعداً عمداً، وإن ليس مُهاناً كما هي الحال الآن.

في أواخر شهر آب سنة 1984 كان غارسيا ماركيز قد أنجز تأليف ثلاثة فصول - أكثر من مئتي صفحة - من مجموع ستة فصول خطط لها، وبدت الرواية وقد أصبح لها شكلها العام. كان يتحدث إلى أبويه بهدف الحصول على فهم عام للحقيقة الزمنية التي عاشا فيها، ويناقش توددهما وغزلهما في خضم تلك الأحاديث الغامضة إلى حدٍّ ما بوصفها دراسة حالة لا أكثر، على حدّ قوله. وأخبر صحيفة الباييس أن الكتاب يمكن تلخيصه بجملة واحدة: "إنه قصة عن رجل وامرأة أُغرم أحدهما بالآخر غراماً جنونياً لكنهما لم يستطيعا الزواج في سن الثمانين بعد أن شهدا تقلبات الدهر وصروفه لكبر سنهما". وقال غارسيا ماركيز إن الرواية تكتنفها مغامرة لأنها تستخدم كل وسائل الثقافة الجماهيرية: كل ما تتمتع به الميلودراما والمسلسلات الاجتماعية وأغاني البوليرو من ابتذال وقلة تهذيب. وتبدأ الرواية المتأثرة أيضاً بموروث الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر بجنازة وتنتهي في قارب. أما نهايتها فسعيدة[32]. ربما كان هذا هو السبب الذي دفعه لأن يقرر أن تدور أحداث الرواية في الزمن الماضي: وربما شعر غارسيا ماركيز أيضاً أنه لا يمكنه الحديث عن قصة حب تنتهي نهاية سعيدة وتدور أحداثها أواخر القرن العشرين ويأخذها الناس على محمل الجد.

غادر غارسيا ماركيز بعد أن فرغ من تأليف نصف الرواية إلى كارثاخينا أواخر فصل الصيف وترك نسخة من المخطوطة في حوزة مارغوت، وأخبرها أن تحتفظ بها إلى أن يصل سالماً إلى المكسيك ثم تتلفها. "وهكذا جلست وفي حضني علبة بسكويت فارغة بدأت أُمزقها ورقة فورقة ثم أحرقتها"[33]. وبعد أن قام بزيارة

عمل إلى أوروبا في خريف ذلك العام، حدثت صدمة كبرى. ففي الثالث عشر من كانون الأول سنة 1984، توفي غابرييل إليخيو غارسيا فجأة بعد ذكرى ميلاده الثالثة والثمانين بوقت قصير في مستشفى بوكاغراندي في كارتاخينا، وكان المرض قد داهمه منذ عشرة أيام. يتذكر ييو (إليخيو غابرييل) الذي يُعدُّ عادة أشد أفراد الأسرة قلقاً: "عندما وافت المنية أبي، انقلب كل شيء رأساً على عقب، فقد وصلت إلى المنزل في يوم الوفاة لأجده في حالة فوضى، ولم يكن هناك من يقدر على اتخاذ قرار. حلّت الساعة الخامسة عصراً ولم يصل خايمي أو غابيتو بعد. فاضطررت إلى أن أتولى زمام أمور الأسرة وإخراجهم من المستنقع والمضي قدماً. وفي اليوم التالي اجتمعنا لنقرر كيفية ترتيب الأمور، فكانت الحال فوضى عارمة لأن ما من اثنين منا اتفقا على شيء واحد"[34].

هذه المرة فقط حضر غابيتو مراسم الدفن إذ تمكن من الوصول يوم التشييع، بعد رحلة استمرت عشر ساعات، من ضمنها تبديل الطائرة مرات عدّة، وكان التابوت يوشك أن يُنقل من صالون باروكيال دي مانغا بعد الجنازة. (ووصل غوستافو قادماً من فنزويلا متأخراً جداً عن موعد الجنازة) وكان برفقة غابيتو حاكم مديرية بوليفار آرتورو ماتسون فيغيروا وشارك الاثنان في حمل النعش. كان الحاكم يرتدي بذلة سوداء ويضع ربطة عنق. أما غابيتو فقد ارتدى سترة ذات مربعات صغيرة وقميصاً أسود مفتوح الياقة وبنطالاً أسود. يتذكر خايمي أن "الجنازة كانت كارثة، وتحولنا نحن الرجال إلى كتلة هلامية عديمة الشكل، وأضحينا مجموعة من الأطفال الباكين لا فائدة ترجى منا في تلك اللحظة الواقعية. ولحسن الحظ، كانت النساء حاضرات لتدبير كل شيء"[35]. (إن التحول إلى مادة هلامية عديمة الشكل لم يردع الرجال من زيارة طقسية إلى ماخور من أجل الزمان الماضي - للشرب فقط - والرابطة القديمة).

هكذا فجأة، فقد غارسيا ماركيز أباه إلى الأبد بعد أن أعاد تجديد علاقته به. حقاً كان قد أصبح قريباً جداً من جميع أفراد الأسرة مرة أخرى ولبعض الوقت، لكن وفاة غابرييل إليخيو ولّدت بصورة طبيعية وضعاً جديداً تماماً. ويتذكر ييو: "بعد وفاة أبي ببضعة أيام قالت أمي مخاطبة غابيتو مثل أي غواخيرية طيبة القلب:

لقد أصبحت الآن مسؤولاً عن الأسرة. فدار حول نفسه وقال: *وما الذي فعلته من أجلكم؟ ولماذا تريدين أن تضعيني في هذا الموقف؟* المشكلة هي أن أخوتي وأخواتي لا يمكن السيطرة عليهم علاوة على أنهم كثيرو العدد"[36]. أصبح الأديب المشهور على نطاق عالمي الآن مسؤولاً عن أسرة كبيرة ومتشعبة. لقد ساعد من قبل أخوته وأخواته بأساليب لا عدّ لها ولا حصر - وظائف، ثمن الدواء، أقساط المدرسة، القسط العقاري - لكنه بات الآن مسؤولاً عن أمه من الناحية المالية أيضاً. وكان مناسباً جداً أن يحدث هذا كله في وقت أضحت فيه "عودته" التدريجية إلى كولومبيا قائمة، وفي وقت كان يكتب فيه رواية تستند إلى حوادث أدت إلى ظهور أسرة غارسيا ماركيز الصغيرة.

اضطر غارسيا ماركيز بوفاة أبيه وترمل أمه الحزينة إلى التفكير لا في الحب والجنس وحسب، بل في الشيخوخة والموت أيضاً. وبالرغم من أنه ذكر دائماً أن تأليف رواية **الحب في زمن الكوليرا** عمل ممتع، إلا أن الأمور لم تكن بالسهولة التي ظنَّها. فقد بدأ يجد صعوبة في التكيف مع مسؤولياته في أعقاب جائزة نوبل. وكانت تجربة وفاة أبيه غابرييل إليخيو ومشاهدة أمه تتعذب عذاباً شديداً محنة تمكن الروائي من استيعابها بتدوينها في روايته لا سيما في الأقسام الأولى والأخيرة منها.

لقد حرمتنا عادته المتأصلة بإتلاف مخطوطاته وكل آثار تطورها من تحول حياته المدهش إلى فن بعد أن كان حقيقة واقعية. إن الحاسوب لم يغير في كل الأحوال مجمل مسار التأليف الأدبي وحسب، بل زاد من صعوبة متابعة مراحل تطوره أيضاً.

لقد أراد غارسيا ماركيز دائماً أن تكون الرواية انعكاساً لا عن الحب وحده بل عن الشيخوخة أيضاً، بالرغم من أن الحب بات أولوية منذ منحه جائزة نوبل. في أواخر صيف العام 1982 كان قد نشَرَ مقالة عن شيخوخة *لويس بونويل الشاب*، أظهر فيها أنه لا يتأمل في هذه القضايا تأملاً عميقاً وحسب - وهي قضايا تشتمل على السؤال إن كان خليقاً بكبار السن أن يحبوا ويمارسوا الحب - بل إنه كان يقرأ كتاب سيمون دي بوفورا الرائع **سن الرشد**[37]. وفي شهر شباط سنة 1985 أخبر غارسيا ماركيز بعد عودته إلى مدينة مكسيكو كاريس سيمون أن فكرته الأولى عن الرواية تدور عن عجوزين يهربان في قارب، وكان ذلك بعد أن قرأ عن عجوزين

اغتالهما مراكبـــي[38]. وقبل ذلك كان قد قال إنه اعتاد أن يكتب عن كبار السن لأن جديـــه أفضل شخصين فهمهما. أما الآن فتراه ينتظر شيخوخته. ثمة سطر في روايـــة **بيت الجميلات النائمات** لياسوناري كاواباتا استحوذ عليه استحواذاً تاماً: "لكبار السن الموت ولصغار السن الحب، والموت لا يأتي إلا مرة واحدة، لكن الحب يأتي مرات عديدة"[39].

عندما التقى غارسيا ماركيز الصحافية الكولومبية ماريا ألفيرا سامبر في مدينة مكسيكو لتحديث مقابلاته الصحافية في ربيع العام 1985 (زعمت صحيفة سيمانا أن عـــامين مرَّا منذ أن تحدث لآخر مرة للصحافة حديثاً مطولاً) أخبرها أن القضية ليـــست شـــعوره بتقدم عمره، لكنه يلاحظ علامات الشيخوخة ويواجه الحقيقة. ووجـــد أن الإلهام يأتي غالباً عندما يكون المرء أكبر سناً إلا إذا أدرك المرء أن ذلك ليس إلهاماً. الإلهام يشبه الجلوس في بستان والمضي في الكتابة وكأنك في حالة "طفو علـــى الـــسطح". في هذه الأيام "أعرف ما الجملة الأخيرة في الكتاب حتى قبل أن أجلـــس لكتابته. عندما أجلس يكون الكتاب جاهزاً في ذهني، كأنني قرأته، لأنني كنت أفكّر فيه طوال سنين". شعر أنه "بلا جذور" لأنه يشعر بالمشاعر نفسها تماماً حيـــثما كان في أي مكان من العالم، وكان يشعر بأنه يمر بحالة يُتمٍ وعذاب" نتيجة لـــذلك. ثم يتفوه بعبارة مدهشة: "لقد دونت كل فانتازياتي، واحدة تلو الأخرى. أعـــني، أنني عرفت منذ سنين أن كل شيء سيحدث على النحو الذي حدث فيه. لقـــد أديت ما عليَّ وينبغي لي الآن أن أقسو على نفسي". وعدَّ نفسه "غليظاً تماماً" بالـــرغم مـــن أنـــه كان يعتقد، إسوة بتشي غيفارا، أن على المرء أن يحتفظ بجانبه "الـــرقيق". إن الرجال رقيقون لكن "قسوة" النساء تنقذهم وتحميهم. لا يزال يحب النساء، فهن يبعثن في نفسه الإحساس "بالأمان" وبأنهن "يهتممن به". واليوم، كما يقـــول، يجد نفسه ضجراً بالكلام مع أي شخص تقريباً لا تربطه به صداقة، وقلما يـــستطيع أن يصغي إلى أحد. "إنني صاحب أسوأ مزاج، وإنني أعنف رجل أعرفه. لهذا السبب، إنني الأكثر سيطرة على نفسي"[40].

تحدث أيضاً عن الحب والجنس بالرغم من أن كلمة الجنس، كما أوضح، لا تـــرد إلا نادراً في رواياته. ويلجأ إلى استعمال الكلمة نفسها، وهي الحب، في كلا

الـــسياقين مما ينتج جواً غير مميز على نحو يبعث على الغرابة لكنه الشيء الكثير عن نكهة وربما جاذبية كتاباته في هذا الموضوع.

عـــندما ظهـــرت الرواية الجديدة، الكلمة الأخيرة عن الحب، كان الإهداء موجهاً "إلى ميرثيديس، طبعاً"، لكن الإهداء في الترجمة الفرنسية كان موجّهاً إلى تاتشيا.

* * *

تدور أحداث رواية **الحب في زمن الكوليرا** في مدينة كاريبية يُفهم منها على الفـــور أنهـــا مدينة كارثاخينا دي إندياس بين سبعينيات القرن التاسع عشر ومطلع ثلاثينـــيات القرن العشرين. إنها قصة عن الحب والجنس، الزواج والحرية، الشباب والشيخوخة، وتستند إلى مثلث الجنس: الطبيب الوقور خوفينال أوربينو المنتمي إلى الطـــبقة العليا، وموظف الشحن فلورنتينو أريثا المفتقر إلى الجاذبية على نحو مؤلم، وفيرمينا داثا الحسناء حديثة العهد بالنعمة والإثراء. ثمة عناصر من شخصية نيكولاس ماركيـــز في خوفينال بالرغم من أنه يستند قبل كل شيء إلى طبيب بارز في المنطقة يدعـــى هينريك دي لابيغا هو في حقيقة الأمر طبيب أسرة غارسيا ماركيز (حضر خـــلال وفـــاة غابرييل إليخيو ليموت بعده بأقل من خمسة أشهر). أما الشخصية الرئيـــسة فلورنتينو، ففيه عناصر من غابرييل إليخيو وغابيتو نفسه، وبهذا فهو مزيج غريب ومدهش في الوقت نفسه. كما إن فيرمينا مزيج مدهش من ميرثيديس (قبل كـــل شـــيء) وشبح تاتشيا والتفاصيل الخارجية للويسا سانتياغا في شبابها وغزلها. ينقـــسم الكـــتاب إلى ســـتة أقسام، القسمان الأول والأخير مكرسان للشيخوخة بوصفهما الإطار البنائي للرواية. والقسمان الثاني والثالث مخصصان لمرحلة الشباب، والـــرابع والخامس لخريف العمر. وتنقسم بنية الأقسام الستة إلى نصفين متساويين يـــتألف كـــل واحد منهما من ثلاثة فصول، مما يثير إشكالية في رواية تنقسم إلى نصفين وإلى ثلاثة أقسام، وإلى مثلث يهدد دائماً بالانهيار ليصبح زوجاً. على وجه العمـــوم، تطرح الرواية ضمناً المصالحات الأربع الكبرى التي أنجزها غارسيا ماركيز وهو يقترب من الشيخوخة: مع فرنسا، وفوق كل شيء مع باريس (حيث خوفينال وفيرمينا يشعران بالسعادة على وجه الخصوص)؛ ومع تاتشيا التي أُغرم بها هناك في

خمسينيات القرن العشرين، ومع كارثاخينا تلك المدينة الرجعية التي ترجع إلى حقبة الاستعمار؛ وربما قبل هذا كله مع أبيه الذي كان قبوله في كارثاخينا حلماً دائماً.

تبدأ أحداث الرواية في يوم أحد العنصرة في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين بعد تسلم الحزب الليبرالي السلطة للمرة الأولى منذ نصف قرن تقريباً. يلقى خوفينال أوربينو مصرعه وهو في العقد الثامن من عمره عندما يسقط عن سلم ارتقاه في محاولة منه لإنقاذ ببغاء الأسرة، في اليوم نفسه الذي دفن فيه صديقاً قديماً واكتشف حقيقة مرعبة بشأنه. ففي جنازة أوربينو يحاول فلورنتينو أريثا، محبوب زوجته فيرمينا السابق، أن يذكي نار القضية التي حدثت بينهما عندما كانا مراهقين قبل ما يزيد على نصف قرن من الزمان. أما بقية الرواية فتشتمل على سلسلة من الاسترجاعات المدمجة بعناية، فتقص علينا أولاً قصة ذلك الحب الأولي ثم تدخل خوفينال وزواج فيرمينا بخوفينال ورحلتها إلى باريس وإياه وصعود خوفينال سلم الشهرة بوصفه حجة كارثاخينا الرائد في موضوعات الصحة لا سيما وباء الكوليرا. وبموازاة هذا كله، نتابع مسار فلورنتينو غير الشرعي، المنحدر من أصول سوداء جزئياً والأقل مراعاة للأعراف والتقاليد: إذ يقرر بدوره أنه لا بد له من أن يضحي مواطناً محترماً فيرتقي رويداً رويداً سلم المناصب في شركة الشحن التابعة للعم. لكنه في الوقت نفسه، وبسبب القرار الذي اتخذه بانتظار فيرمينا أطول مدة تحتاج إليها - بل حتى وفاة زوجها إن اقتضى الأمر - بدأ إقامة سلسلة من العلاقات مع مختلف النساء وأولهن العاهرات والأرامل فضلاً عن فتاة قريبة لها من العمر أربعة عشر عاماً وتدعى أميركا فيكونا تنتحر عندما يهجرها ويختار فيرمينا التي ترملت مؤخراً عندما تصل الرواية إلى نهايتها. وعلى النقيض من ذلك، ليست لخوفينال سوى علاقة واحدة عابرة مع مريضة سوداء من جامايكا، وكلفته تلك العلاقة زواجه تقريباً.

بنهاية الفصل الثالث، وهو منتصف الرواية، يتبين لنا أن فيرمينا داثا الكولومبية المنحدرة من أدنى الطبقة الوسطى قد رفضت الكولومبي الأصيل فلورنتينو أريثا وفضلت عليه خوفينال أوربينو "المتفرنس" المنتمي إلى الطبقة العليا إلى الحدّ الذي

تتعرف فيه، كما خوفينال، إلى أوروبا، على حين لم يغادر فلورنتينو أريثا كارثاخينا ولا يملك أي رغبة في الرحيل عنها. يمثل خوفينال أوربينو الطبقة العليا في كارثاخينا التي كان غارسيا ماركيز يكتب لها، بمعنىً ما، في أثناء تأليفه كتابه، وبهذا، تُظهر لنا الرواية في منتصفها إلحاق أوروبا والحداثة الهزيمة بالعالم الكريبولي أو الهجين المتخلف الذي تمثله الطبقة الدنيا غير الشرعية في كولومبيا. ثم يغير النصف الثاني من الرواية كل هذه الاتجاهات عندما يطور فلورنتينو من موقعه ويحصل في نهاية المطاف على "الفتاة".

بالرغم من أن خوفينال أوربينو يمثل هينريك دي لابيغا والعقيد وغابرييل إليخيو - "الطبيب" - إلا أنه يمثل كل شيء عن الطبقات العليا التي يحسدها غارسيا ماركيز ويعجب بها وينفر منها ويحتقرها في آن: النخب الحاكمة في بوغوتا وكارثاخينا، الممتزجة كثيراً في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، نخبة بوغوتا التي كان غارسيا ماركيز يعتقد أنها رفضته، ونخبة كارثاخينا التي رفضته هو ووالده. يلاحظ بالرغم من ذلك أن الرواية بأي معنىً من المعاني الأولية لا تدور حول صراع أو تنافس بين الرجال، بل هي عن علاقات بين مختلف الرجال والنساء.

أما العنوان فعن أغنية يغنيها ليوناردو ديات، وهو مغنٍّ ضرير من مغنّي أغاني التروبادور الفاليناتو: "الكلمات التي سأعبر عنها: لها الآن سادتُها المتوجون". إن هذه الإشارة المركبة التي تستحضر إلى حدٍّ ما بلاد الإغريق القديمة والملكية، والإسبانية الإمبراطورية، وكولومبيا الطبقة الدنيا التي اشتهرت بمهرجانات الجمال، تنطوي على صراعات ثقافية متباينة في الرواية. لقد أصبح عنوان الرواية، الذي يبدو من الوهلة الأولى أقل عناوين غارسيا ماركيز فتنة وجاذبية، واحداً من أكثر العناوين المحبوبة والمثيرة للإعجاب: إنه عنوان يتحدث عن الحب وعن الزمان: حب بوصفه مرضاً أو علة لا تقاوم، كما هي الحال دائماً مع غارسيا ماركيز، وزمان بوصفه استمراراً وتاريخاً، وبوصفه أيضاً أسوأ الأمراض قاطبة، مرضاً يقضم كل شيء. ولكن الرواية بالرغم من ذلك ستتوقف في لحظة يكون الزمان فيها مغلوباً عليه بصرف النظر عن صفته الزائلة.

من بين المصالحات التي تحققت بتأثير هذا الأديب الذي نجح نجاحاً باهراً الآن، والذي بدأ يقترب من أواخر خريف العمر، ثمة مصالحة، وإن بدت تهكمية ساخرة وتنتمـــي إلى ما بعد الحداثة، مع الرواية البورجوازية نفسها ومع الطبقة البورجوازية الكولومبيــية الحاكمة، وإن كانت مصالحة تنطوي على مفارقة ونقد، ليست هذه الرواية عملاً من أعمال ستندال أو فلوبير أوبلزاك (بل تميل إلى أن تكون عملاً من أعمـــال دوماس أو لاربود وإن انطوت على محاكاة ساخرة)[41]. لكن هذه الرواية "تعرف" كل شيء عن تلك الروايات، ولكنها تلعب لعبة مغايرة تماماً. إنها تداعب مـــنذ الـــسطر الأول ذلك العبق الذي ينقلنا إلى الماضي وتذكرنا "حتماً" بحب لا يعـــوض. كثير من العناصر هي عناصر القصص الرومانسية الرخيصة أو الاجتماعية الـــتي تعـــالج المشكلات المنـــزلية أو الموسيقى الشعبية في أميركا اللاتينية، وهو ما حـــاول المؤلـــف أن ينوِّه به. لكن هذه العناصر تقابلها قواعد وأعراف حاضرة في الـــزواج البورجوازي والاحتفاظ بالمظاهر. لقد خاطر غارسيا ماركيز مخاطرة كبيرة هنا بسمعته الفنية، إذ تغدو الرواية، بمجملها، خليطاً عجيباً من السطحية والواقعية العميقة وتجرؤ على تقصي أكثر العبارات المألوفة ابتذالاً في رسائل ترسل إلى أعمدة المعـــذبين والحقائق اليائسة التي تعطى إجابة عنها: إنك لا تعرف حقاً أي شخص. إنك لا تستطيع الحكم على الناس. في إمكان بعض الناس أن يغيروا من سلوكهم، وبالتالي شخصياتهم. وفي وسع آخرين أن يبقوا على حالهم من دون تغيير إلى ما لا نهاية بالرغم من مرور الزمن. إنك لا تعرف أبداً ما الذي سيحدث في الحياة. إنك لا تفهم الحياة إلا عندما يكون الأوان قد فات؛ وحتى في تلك اللحظة، قد تغير من وجهـــة نظـــرك إذا مـــا عشت عمراً أطول. يصعب الوعظ بشأن الحب والجنس، ويـــصعب أكثـــر فـــصل الحب عن الجنس، ويصعب كثيراً فصل الحب عن العادة والامتنان والاهتمام الذاتي. يمكنك أن تحب أكثر من شخص واحد في الوقت نفسه. هـــناك ضروب من الحب، ويمكنك أن تحب الناس بطرائق مختلفة كثيرة. ولا يمكن معـــرفة مـــا هو الأفضل: حياة العزوبية أم الزواج أم الحياة البوهيمية أو التقليدية. كذلك، يصعب كثيراً أن تعرف إن كان الأمان أفضل من المغامرة أو بالعكس. لكن لكـــلٍّ ثمنه الواجب دفعه. من جهة أخرى، لا توجد سوى حياة واحدة، ولا توجد

فرصة ثانية. أنت لم تبلغ من الكبر عتياً بعد. وبالرغم من هذا، وبالرغم من ذاك: وبالرغم من ذلك، فإن الحياة الواحدة ليست بأفضل من الحياة الأخرى. هذه الموضوعات كلها تتراءى في القسم الأول ثم تمتزج ببقية الرواية.

لقد اكتشف القراء في رواية **مئة عام من العزلة** أن حجرة ميلكيادس تفيد بوصفها فضاءً أدبياً، وأن ميلكيادس كتب القصة التي نقرأها قبل زمانها بقرن من الزمان. وفي نهاية **رواية الحب في زمن الكوليرا** يكتب فلورنتينو أريثا رسالة طويلة إلى فيرمينا داثا، إنها ليست رسالة حب بل "تأمل شديد في حياة تستند إلى أفكاره، وإلى تجارب الرجال والنساء، والعلاقات التي تنشأ بينهم"، فتتلقاها بوصفها رسالة تأمل "في الحب والحياة والشيخوخة والموت". إن نطاق هذا الطموح المرتبط بسهولة الوصول إلى العمل المدهشة يعني من بعض الأوجه أن الرواية تتمة لرواية **مئة عام من العزلة** التي لم تستطع رواية **خريف البطريرك** أن تكملها.

فرغ غارسيا ماركيز من روايته وأنهاها بعبارة "مدى الحياة"، وأرسلها إلى ألفونسو فوينمايور في بارانكيا ليقرأها هو وخيرمان فارغاس. وتسلمت كارمن بالسيلس نسخة أيضاً في لندن، وتردد أنها أمضت يومين تبكي فوق المخطوطة. واضطر غارسيا ماركيز إلى عقد اجتماع عمل معها، فقرر أن يبدأ أولاً بنيويورك وهو في طريقه إلى أوروبا. كان صديقه القديم غييرمو أنخولو آنذاك قنصلاً كولومبياً في التفاحة الكبيرة*، وكان المصور هيرنان ديات هناك أيضاً. لم يكن غارسيا ماركيز متحمساً جداً لانتهائه من كتابة الرواية وحسب - وهي الرواية التي أثارت تحولاً جديداً في مسيرته الروائية - بل لأنه كان يمر أيضاً بمرحلة الحماسة واللوعة اللتين يمر بهما كل مستخدمي جهاز الحاسوب في الأيام الأولى: هل كان لديك بديل؟ هل الأقراص فارغة؟ أيمكنك حفظها في مكان آمن كي لا تتعرض إلى السرقة أو تصاب بضرر مادي؟ كان مدركاً كلّ الإدراك أنه واحدٌ من أوائل الأدباء المشهورين في العالم وربما أولهم؛ في إنهاء تأليف كتاب ضخم على جهاز الحاسوب. سافر جواً إلى نيويورك برفقة ميرثيديس وغونثالو وألكزاندريا بارتشا بعد أن وضع الأقراص التي تحتوي على الرواية معلقة في رقبته شأنه شأن ميلكيادس الذي عثر على حجر الفيلسوف، ولم يطق تحمل ضياعه(42).

اصطحب غارسيا ماركيز ابنه الأصغر إلى سكريبنرز، إحدى أشهر مكتبات مدينة نيويورك، وكان يمر من أمامها يومياً في سنة 1961 وهو في طريقه إلى مقر عمله. وصدم هيرنان ديات عندما اكتشف أن سكريبنرز لا تحتوي كما يبدو على مؤلفات صديقه ذائع الصيت، لكن اتّضح أنها في قسم "الكلاسيكيات". وتبع ذلك غناء وإهداءات عندما علم العاملون في المكتبة من يكون هذا الرجل الصغير الذي يرتدي سترة ذات مربعات صغيرة. كما اقترب منه المارة في الشارع وهو يستمتع بتناول النقانق النيويوركية الحارة فيما المصور يحدق إليه. ثم ذهب إلى محل متخصص ونسخ النسخ الست الأولى من الكتاب في غضون دقائق وهو مندهش كأنما اكتشف ثلجاً[43].

في خريف العام 1985 سافر غارسيا ماركيز جواً إلى برشلونة ولا تزال الأقراص الثلاثة متدلية من عنقه كي يسلمها شخصياً إلى كارمن بالسيلس. نزل في فندق الأميرة صوفيا، وفي ذلك الوقت اقتحم لصوص غرفته، وهذا ما كان يخشاه، وسرقت منه حاجيات لكنه أخبر الصحافة أنه لم يكن يتصور أن اللصوص كانوا يريدون الاستيلاء على مخطوطة روايته **الحب في زمن الكوليرا**.

كان غارسيا ماركيز خارج كولومبيا عندما حانت واحدة من اللحظات السياسية الحاسمة في تاريخ البلاد في القرن العشرين. فقد كان التوتر آخذاً في الازدياد مع حركة أم – 19، وفي الثالث من تموز تخلت الحركة عن وقف إطلاق النار الذي كان قد أعلنه بيتانكور، فانزلقت البلد نحو الكارثة. (ارتاب عدد كبير من الثوار في أن بيتانكور كان يجذبهم إلى فخ تاريخي بدلاً من أن يسعى لعملية سلام دائم). وفي التاسع من آب، كان غارسيا ماركيز قد قال إن على وزير الدفاع ميغيل بيغا أوريبي أن يستقيل إثر اتهامات وجهت إليه بممارسة التعذيب. وفي الثامن والعشرين من آب، اغتال رجال الشرطة إيفان مورينو أوسبينا زعيم حركة أم – 19 الجديد بعد موت خايمي باتمان صديق غارسيا ماركيز. وأخيراً، وفي السادس من تشرين الثاني استولى الثوار على قصر العدل، وهو مبنى المحكمة العليا في بوغوتا، فابتدأت بذلك سلسلة من الأحداث التي أثارت هلع المشاهدين في جميع أنحاء العالم عندما بدأ التلفاز يكشف عن عنف

الأحداث. وظهر خايمي، شقيق رئيس الجمهورية النكد، على مسرح الأحداث مرة أخرى بعد أن كان قد اختطف مؤخراً. فنزلت قوات الجيش الكولومبي بالدبابات والمدفعية وأنهت حصاراً استغرق سبعاً وعشرين ساعة فيما العالم يشاهد ما يجري في ذهول. وقتل ما لا يقل عن مئة شخص من ضمنهم رئيس المحكمة العليا ألفونسو ريس إتشانديا. كما أصيب القاضي هومبيرتو موريثا في ساقه في أثناء محاولته الهروب حيث رمى الساق - الخشبية - بعيداً وهرب من الفناء المحترق. وقتل قادة الهجوم، لا سيما أندرياس ألماراليس، في المعركة من بين كثيرين غيره. وراجت شائعات قوية تفيد أن الجيش وليس بيتانكور، هو الذي يسيطر على زمام الأمور - ولا تزال القضية مثار جدل حتى اليوم - وقد أخبرني بيتانكور في وقت لاحق أنه قد جرى النظر إلى بقاء غارسيا ماركيز صامتاً على أنه "عمل من أعمال الصداقة"[44]. وبعد أسبوع واحد حدثت مصيبة أخرى هزّت كولومبيا، إذ انفجر بركان نيفادو دِل رويث ودفن مدينة آرميرو وقتل ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف شخص.

كانت مأساة قصر العدل هي القشة الأخيرة عند غارسيا ماركيز. فقد اشترى شقة جديدة وأرسل جزءاً مهماً من الثياب والممتلكات إلى بوغوتا، إلاّ أنه لم ينتقل إليها. وفي اللحظة نفسها التي جرت فيها الحادثة، كان يفكّر في العودة جواً إلى بوغوتا لكنه ذهب إلى باريس عوضاً عن ذلك، حيث بدأ يفكّر في الأمور مرة أخرى، فألغى خططه بالعودة إلى كولومبيا وذهب إلى مدينة مكسيكو حيث كان الزلزال قد دمر المدينة مادياً لكنه أنعشها معنوياً. في ذلك الوقت، كان غارسيا ماركيز يخطط لمشروعه الجديد - رواية عن بوليفار - وكان قد التقى للمرة الأولى المؤرخ غوستافو فارغاس في أيلول سنة 1985.

في الخامس من كانون الأول، وبعد هذه السلسلة المتلاحقة من الكوارث التي حلّت بكولومبيا، صدرت رواية **الحب في زمن الكوليرا**، فأثارت دهشة القراء والنقاد في جميع أنحاء العالم لأنها قدمت إليهم غارسيا ماركيز من طراز جديد، قدمته كاتباً حوّل نفسه إلى حدٍّ ما، إلى ما يشبه روائياً من القرن التاسع عشر، ولكنه يكتب في الأزمنة الحديثة، ورجلاً لم يعد يكتب عن السلطة بل عن الحب وسلطة

الحـــب. وتغـــدو الرواية بين الناس الذين أحبوها هي الأكثر شعبية من أي رواية أخـــرى. كانت رواية **الحب في زمن الكوليرا** التي نشرت بعد عشرين سنة تقريباً على نشر رواية **مئة عام من العزلة** ثاني رواية تمنح النقاد وعموم القراء متعة الكتابة عـــن العلاقات الإنسانية والعالم الخاص بوصفه واحداً من أبرز ما يشغل ذهنه، وأن يجعل من هذا الموضوع مركز نشاطه المتجدد في صناعة السينما[45]. وربطت اسمه لا بالحـــب والعاطفة والابتسامات والزهور والموسيقى والغذاء والأصدقاء والأسرة وما أشبه وحسب، بل بالحنين الجارف أيضاً والنظر إلى الوراء صوب الطرقات القديمة في الماضـــي، وإلى الـــدروب والأنهـــار التي كانت قائمة يوماً ما: عطر الغوافة وعبير الذاكرة. وستسمح له هذه الفضائل بأن يخلطها في التيارات السوداء الموجودة دوماً في ذهنه تحت غطاء كتابته الآسرة.

حـــتى صحيفة التيمبو نُزع عنها سلاحها: فقد توقعت الصحيفة في الأول من كانـــون الأول، قـــبل نـــشر الكـــتاب، أن الرواية "ستأتي بالحب إلى بلد مصاب بالكـــوليرا". ولم ينظر إلا عدد قليل جداً من النقاد نظرة سلبية إلى الرواية. غير أن الاســـتقبال الذي حظيت به كان نصراً، وكان أحد الردود المتميزة متمثلاً بإطراء استثنائي صادر عن واحد من أكبر الروائيين المتشككين قاطبة وهو توماس بينشون عـــند نـــشر الرواية بالإنكليزية. فقد قال بينشون إن لغارسيا ماركيز جرأة مدهشة للكتابة عن الحب في هذه الأزمنة لكنه "أدى مهمته بنجاح":

> **و – آه أيهـــا الفـــتى – هل يكتب كتابة جيدة. إنه يكتب مسيطراً سيطرة متجـــردة، من وسط الهدوء الجنوني... لا يوجد هناك ما قرأته كهذا الفصل الأخـــير المـــدهش، السيمفوني المطمئن إلى قوته وإيقاعه، فيتحرك مثل قارب نهـــري أيضاً، مؤلفه، ألا وهو ملاحه، يملك تجربة عمر في قيادتنا في هذا النهر الـــذي نعـــرفه كلنا، والذي لولا إبحاره، لما كان هناك حب، والذي في حال الـــسير عكس تياره، يكون الجهد المبذول من أجل الرجوع لا يستحق أبداً اسمـــاً أقـــل شرفاً من اسم التذكر. في أفضل الأحوال، ينتج هذا في أعمال يمكـــنها أن تعـــيد أرواحنا المنهكة إلينا، والتي تنتمي إليها على وجه التأكيد رواية الحب في زمن الكوليرا، تلك الرواية الذكية التي تفطر القلب[46].**

بعد خمس عشرة سنة قال غارسيا ماركيز لي:

- لقد نظرت إلى رواية **الحب في زمن الكوليرا** مؤخراً فتولتني الدهشة حقاً. إن قـــدراتي كلها موجودة فيها، ولا أدري كيف تدبرت أمرها، وكيف كتبتُ عن كـــل ذلك. شعرت حقاً بالزهو. على كل حال، لقد مررت... لقد مررت ببعض الأوقات السوداوية في حياتي".

- ماذا؟ قبل **مئة عام من العزلة؟**

- لا. في السنوات التي أعقبت جائزة نوبل. لقد فكّرت غالباً في أنني سأموت، ثمة شيء ما هناك، في المهاد، شيء ما أسود، شيء ما تحت سطح الأشياء[47].

* * *

-22-

خلافاً للتاريخ الرسمي: بوليفار غارسيا ماركيز

(الجنرال في متاهته)

1986-1989

مــثلما أثبت غارسيا ماركيز بنشر رواية **خريف البطريرك** في العام 1975 أن رواية **مئة عام من العزلة**، من غير رامٍ، وأن على عالم الأدب أن يتوقع منه أن يكون حاضراً لقطع المسافة الطويلة، فإنه أثبت الآن برواية **الحب في زمن الكوليرا** أنه ليس واحــداً من أولئك الكتاب الذين تنتهي حياتهم بضغط تكريمهم بجائزة نوبل. وكان تحركه باتجاه موضوع الحب في كتابته، يوازيه توكيد جديد على السلم والديمقراطية والتعايش في نشاطه السياسي. فقد كان واضحاً أن حكومة ريغان لم تكن مستعدة للــسماح بــأي نصر يحققه أي نظام ثوري في أميركا الوسطى والكاريبــي. كما أضــحى الكوبيون الذين ألهموا معظم الحركات الثورية وشجعوها، أكثر حذراً من ذي قبل، لأن التزامهم الثقيل امتدّ إلى تحرير جنوب أفريقيا ولم يكونوا قادرين على التعــرض لــضغط أكبر من الولايات المتحدة في الكاريبــي. إضافة إلى ذلك، لقد بــدت الــتطورات في الاتحــاد الــسوفياتي تُوضح أن الاعتماد على التزام اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بالثورة العالمية على مدى أطول غير مأمون. وفي الــوقت نفــسه، كان ريغان قد واجه صعوبات في مواصلته الحرب ضد الثورة في نيكاراغوا، بل قد يثبت أنه حساس إزاء مباحثات السلام. (في أواسط العام 1986 اكتــشفت محكمــة العدل الدولية في لاهاي أن الإدارة الأميركية خرقت القانون

الدولي بتقديم دعمها إلى متمردي الكونترا في نيكاراغوا. وفي وقت لاحق من العام نفسه انتشرت فضيحة إيران - غيت في الولايات المتحدة نفسها، فاهتزت لها حكومة ريغان برمتها).

وحتى في كولومبيا، كانت ثمة عملية سلام منذ أن جاء بيتانكور إلى السلطة سنة 1982، بالرغم من أن معظم المراقبين حينها يئسوا من قدرته على متابعة العملية بنجاح، وكان غارسيا ماركيز نفسه يتحدث بتشاؤم متزايد عن الطريق الذي تسير فيه البلاد. في أواخر تموز 1986، حذّر من أن كولومبيا "على شفا محرقة"، وأن الأحداث الرهيبة التي جرت في قصر العدل في أواخر سنة 1985، كانت نتيجة حتمية للمزيج الضار للثوار المندفعين وقوات الحكومة القمعية والتقصير العام والعنف[1]. ربما سيكون المراقبون الحياديون أكثر تأثراً لو أن هذا التصريح صدر قبل الأسبوع الأخير من ولاية بيتانكور، وبخاصة أن منظمة العفو الدولية كانت تنتقد انتقاداً شديداً بيتانكور بصدد انتهاكات حقوق الإنسان التي ينفذها العسكر. نتيجة لذلك، كان التحذير موجهاً إلى حكومة بيرخيليو باركو الليبرالية المقبلة، وليس إلى صديق غارسيا ماركيز المحافظ بيتانكور.

وهكذا، بدأ غارسيا ماركيز يتبنى خطاباً ديمقراطياً اجتماعياً مناهضاً للاستعمار كي يتلاءم مع رسالته عن السلام والحب، إلى الحدّ الذي لا بد من أن يكون فيه قد أثار حفيظة أصدقائه القدامى، وأدخل البهجة في قلوب أعدائه الذين لن يشعروا بالرضا إلى أن يُطاح به وبفيدل من فوق جواديهما. كما أن فارغاس يوسا وصفه مرة أخرى بأنه "تابع لفيدل كاسترو" وأنه "انتهازي سياسي"[2]. وكانت الصفة الأخيرة غريبة على رجل يسبب لنفسه مشقة سياسية كبرى مساندته كوبا، بل وكان مستعداً أيضاً لأن ينفق أموالاً طائلة دعماً لالتزاماته السياسية، وهو ما أظهره إزاء مجلة التارناتيفا في كولومبيا في سبعينيات القرن العشرين، وكما سيكشف مرة أخرى على نطاق أوسع بكثير في كوبا.

ففي كانون الثاني سنة 1983 كان غابو وفيدل قد بدأا خلال لقائهما الأول في أعقاب مغامرة غارسيا ماركيز مع جائزة نوبل، يحلمان بتأسيس مدرسة للسينما الأميركية اللاتينية يكون مقرها هافانا، بعد أن أدرك فيدل إدراكاً متزايداً - وربما

متأخـــراً – أثـــر الثقافة الإيديولوجية، وهو الذي كان ملماً إلماماً واسعاً بالدعاية، وكـــان بلا ريب معجباً بمكانة غارسيا ماركيز وتأثيره على نطاق عالمي بعد منحه جائزة نوبل. وفيما كان يناقش موضوع السينما مع غارسيا ماركيز، بدأ يتساءل إن كـــان تـــأثير السينما أشد حتى من تأثير الكتاب، وتساءل أيضاً إن كانت السينما الأميركية اللاتينية مؤخراً، تستوي في تأثيرها والأحلام العظيمة التي شهدها ستينيات وسبعينيات القرن العشرين التي كان انتصار الثورة قد ألهم جميع أرجاء القارة، ومن ضـــمنها كـــوبا نفسها. عندما جلس الاثنان معاً على شاطئ الكاريبـــي يتناقشان نقاشاً جاداً، كان لفيدل حتماً أسلوبه المولع بالقتال في تصور الموضوع: "لا بد لنا مـــن أن نطلق تلك السينما.. وبعد أن أمضيت عشرين سنة في الكفاح، أعتقد أن تلـــك الأشرطة السينمائية أشبه ما تكون ببطارية مدفع تطلق النار داخلاً وخارجاً. كـــم هي ثرية السينما عندنا بهذا الأسلوب؟ طبيعي أن الكتب تؤثر في الناس تأثيراً كبيراً، لكن قراءة الكتاب تتطلب منك عشر ساعات، اثنتي عشرة ساعة، يومين. أما مـــشاهدة شريط سينمائي وثائقي، فلا تتطلب سوى خمس وأربعين دقيقة"[3]. وإذا كـــان كاســـترو قـــد تأثر بالقوة غير المتوقعة لممثل من هوليوود في البيت الأبيض الأميركي، فذلك من باب الحدس والتخمين، لكنه بدأ هو وغارسيا ماركيز يتحدثان عـــن إمكانـــية تأسيس مؤسسة سينمائية أميركية لاتينية مركزها في هافانا، لتكون وسيلة لزيادة الإنتاج القاري، وتطوير المستويات، وتعزيز الوحدة الأميركية اللاتينية، ونشر القيم الثورية أيضاً.

ما إن فرغ غارسيا ماركيز من تأليف رواية **الحب في زمن الكوليرا** حتى بدأ يعمـــل في مـــشروع جديد. في السنوات الممتدة بين 1974 و1979، كان قد ركّز جهده في الصحافة السياسية، ولكن هاجس السينما عاد بحلول عام 1980 واستمر حتى تسعينيات القرن العشرين، وكانت المقالات التي كتبها بين عامي 1980 و1984 غالباً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسينما عموماً، وبمشاريعه المحددة خصوصاً. وكان أكثر مـــشاريعه السينمائية طموحاً تأسيس مؤسسة السينما الأميركية اللاتينية في هافانا، والمدرســـة العالمية للسينما والتلفاز التي تقرر أن يكون مقرها في سان أنطونيو دي لـــوس بانوس خارج المدينة[4]. وهنا يضع غارسيا ماركيز أمواله حيث يوجد فمه

الـــثوري، وكـــان شعاره: عندما لا تكون السياسة ممكنة، تحوَّل إلى الثقافة. وكان هـــدف مؤسسة السينما هو العمل على توحيد إنتاج الأشرطة السينمائية ودراستها في القـــارة، كمـــا أن هدف المدرسة هو تدريس صناعة الشريط السينمائي نظرياً وعملياً، لا للشبان الأميركيين اللاتينين وحسب، بل للطلاب من مختلف أنحاء العالم.

بحلـــول العام 1986، كانت الخطط المرسومة لكلتا المؤسستين الجديدتين قد قطعـــت شـــوطاً بعـــيداً، وكان غارسيا ماركيز على اتصال وثيق بصناع السينما الـــراديكاليين بخـــصوص التطورات المستقبلية. لكنه بدأ العام، لا بالعمل في شريط سينمائي، بل بكتاب عن صناعة الأشرطة السينمائية. وكان صديقه صانع الأشرطة السينمائية التشيلي الذي يعيش في المنفى ميغيل ليتين قد عاد سراً إلى تشيلي في أيار وحزيـــران 1985، وهـــرب من دون أن يلاحظه أحد مع مئة ألف قدم من شريط ســـينمائي عن بينوشيت[5]. ورأى غارسيا ماركيز في هذا فرصة للانتقام، بعد أن شعر بوضوح أنه كان قد هُزم رمزياً على يد بينوشيت عندما عاد إلى نشر الروايات قـــبل ســـقوط الدكتاتور، فالتقى ليتين في مدريد في مطلع سنة 1986 للتباحث في الخـــيارات المـــتاحة. وهناك، أجرى مقابلة استغرقت ثماني عشرة ساعة على مدى أســـبوع، ثم عاد إلى المكسيك واختصر ستمئة صفحة من السرد إلى مئة وخمسين صفحة. وذكر: "فضلت أن أجعل قصة ليتين بضمير المفرد المتكلم للاحتفاظ بنبرتها الشخصية - والسرية في بعض الأحيان - من دون أي إضافات درامية أو ادعاءات تاريخية من جانبـــي. إن أسلوب النص الأخير هو أسلوبـــي ما دام صوت الكاتب غـــير قابـــل للتبادل... على كل حال، حاولت أن أُبقي على المصطلحات التشيلية للنص الأصلي كما هي، احتراماً لأسلوب الراوي في التفكير الذي لا يتفق دائماً مع تفكيري". وصدر الكتاب **ميغيل ليتين سراً في تشيلي** عن دار نشر أوبيخا نيغرا في أيار 1986 بمئتين وخمسين ألف نسخة[6]، ولا بد من أن غارسيا ماركيز رضي كلّ الرضا في تشرين الثاني عندما أحرقت السلطات التشيلية خمسة عشر ألف نسخة من الكـــتاب في مرفأ بالبارايسو التشيلي. لو أن حكومة تشيلي التزمت الصمت، لكان ذلك رد فعل أشد تأثيراً، لأن ما من أحد عرف به بالرغم من أن الحكومة كانت في عامها الأخير.

بالـــرغم مـــن هذه السياحة القصيرة في ميدان الإثارة السياسية، فإن غارسيا ماركيز كان ملتزماً التزاماً شديداً برسالته الجديدة كمحقق للسلام، الذي اقتنع به كي يلقي كلمة في السادس من آب من ذلك الصيف في مدينة إكستابا في المكسيك خلال المؤتمر الثاني "لمجموعة الدول الست" التي تهدف سياسياً إلى الحيلولة دون محرقة نـــووية. وحثّت الدول الست (وهي الأرجنتين واليونان والهند والمكسيك والسويد وتنـــــزانيا) على تعليق كل التجارب النووية في الذكرى الحادية والأربعين لتدمير هيروشيمـــا[7]. ابتدأ المؤتمر بكلمة لغارسيا ماركيز بعنوان *جائحة داموكليس**، وقد حـــذّر فـــيها من أن الأموال تُنفق على التسليح بالرغم من إمكانية حل مشكلات العـــالم، وأن "الصراصير وحدها التي ستبقى على قيد الحياة بعد المحرقة النووية"[8]. كانت كلمة عن مستقبل الأرض قد قُرئت بالترادف مع كلمته في احتفال نوبل عن قدر أميركا اللاتينية.

الـــتحق رودريغو في ذلك الخريف بمعهد الفيلم الأميركي في لوس أنجلوس – وهـــي خطـــوة تناقض تماماً نشاطات أبيه في هافانا الثورية – جاءت بعد أن كان غارسيا ماركيز يعد الترتيبات اللازمة لمؤسسة السينما الجديدة. ومن المقرر أن يبقى رودريغـــو هـــناك أربع سنوات، في حين كان غونثالو قد انتقل إلى المكسيك مع صـــديقته بـــيا أليثوندو، وعمل في مشروع خاص به وهو تأسيس دار نشر رفيعة المستوى باسم الأكلبريستا (بهلوان على حبل مشدود) مع دييغو غارسيا إليو، وهو ابـــن خومي غارسيا إسكوت وماريا لويسا إليو[9]. وكان من أول مشاريعهما نشر قصة **أثر دمك على الثلج** في شهر تشرين الأول بطبعة أنيقة جداً.

كـــان غارسيا ماركيز نفسه مهتماً بتشجيع أشرطة سينمائية جديدة مستقلة يحققها مخرجون أميركيون لاتينيون، لكن صناع الأشرطة السينمائية الآخرين كانوا مهـــتمين أكثر باقتباس رواياته للسينما. ففي سنة 1979، صنع المخرج المكسيكي خايمـــي هيرموســـيلو شـــريطاً سينمائياً بعنوان *عزيزتي ماريا* عن نص كتبه غارسيا ماركيـــز. وفي مطلع ثمانينيات القرن العشرين، حقق المخرج البرازيلي روي غويرا الشريط السينمائي *أرينديرا*، وهي قصة غير معدلة تقريباً مأخوذة عن رواية غارسيا ماركيز القصيرة، وتدور حول فتاة مراهقة من منطقة غواخيرا الكولومبية اضطرت

إلى التحوّل إلى عاهرة - توفر خدماتها لعشرات الرجال يومياً - كي تعوض لجدتها القاسية عن حرق منـــزلها قضاءً وقدراً. في نهاية المطاف تقدر أرينديرا قيمة حريتها حـــق قدرها، فتهجر يولسيس الشاب الذي يحبها وتهرب منه بعد أن ساعدها على قـــتل جـــدتها والهروب من قسوتها؛ إنها إعادة كتابة أنثوية مثيرة للاهتمام لقصص الجنيات أوروبية الأسلوب عن سندريلا والساحرات والأمير الوسيم. وفي شهر تموز ســـنة 1984، كان أن أُعلن عن إعادة خورخه علي تريانا صنع قصة **عصر الموت**، التي أنتجها بعد محاولة ريبشتاين الأولى بعشرين سنة، وستعرض على شاشة التلفاز الكولومبـــي في السابع من آب. في هذه المرة، صنع الشريط السينمائي في كولومبيا ولـــيس في المكسيك، وبالألوان وليس بالأسود والأبيض. ومرة أخرى تثبت صحة قـــتل نيكولاس ماركيز لميداردو. وكما هي الحال من قبل، فإن دقة حبكة غارسيا ماركيز السوفوكلية التحتية، التي توازي دقة الساعة، مدهشة بالرغم من أن ميله إلى الحِكَـــم والأمـــثال اللاذعة بدلاً من الحوار الواقعي، كان تشويشاً سيئ الحظ. وفي كانـــون الأول ســـنة 1985، كانت صحيفة أكسيلسيور قد أعلنت عن بدء العمل بتصوير يوميات **قصّة موت معلن**. وكان فرانسيسكو روزي في مومبكس مع آلن وأنطـــوني ديلون (لكن آلن سيترك العمل لاحقاً)[10]. ومن بين نجوم الشريط، كل مـــن آيرين باباس وأورنيلا موتي وروبرت إيفريت. وعندما كتب ميشال براندو في اللوموند عن الشريط السينمائي في أيلول 1986، ركز على الجهود التي بذلت لأجل تـــصويره - في الـــبلدتين السياحيتين كارثاخينا ومومبوكس - ليكون ملحمة مثل القصة نفسها[11].

في الـــرابع مـــن كانون الأول سنة 1986، افتتحت المؤسسة خلال مهرجان هافانا السينمائي الثامن بكلمة من غارسيا ماركيز، رئيس المؤسسة، ومقابلة وزعت علـــى نطاق واسع مع فيدل - الذي لم يعرف عنه أنه من رواد السينما الكبار - وبـــضع كلمـــات من غريغوري بيك الذي كان يزور المدينة آنذاك. قال غارسيا ماركيـــز في كلمته إنه كان في الفترة الممتدة بين 1952 و1955 موجوداً في سنترو ســـبيرمينتالي دي سينماتوغرافيا في روما بصحبة خوليو غارسيا ماركيز إسبينوسا، وفيرنانـــدو بيري، وتوماس غيتريث. وكانت الواقعية الإيطالية الجديدة التي ألهمتهم

كلهم في تلك الأيام "أشبه بالسينما التي نريد أن نصفها نحن، سينما بأقل الموارد، لكنها الأكثر إنسانية"(12). ووصلت أخلص التهاني من إنغمار بيرغمان، وفرانسيسكو روزي، وأغنيس باردا، وبيتر بروك، وأكيرا كيروساوا. وفي الخامس عشر من كانون الأول، افتتحت بدورها المدرسة الدولية للسينما والتلفاز، وأصبح صديق غارسيا ماركيز القديم فيرناندو بيري مديرها الجديد. وبعد أسبوع واحد تقريباً، أفادت الأخبار أن المؤسسة بصدد إنتاج سبعة نصوص كتبها غارسيا ماركيز بنفسه، وهو رقم قياسي ربما لتحقيق نتائج سريعة على يدي شخص من داخل المؤسسة. وكان أقرب المساعدين إلى غارسيا ماركيز خلال السنوات القليلة التالية هو ألكيميا بينا المخرج الكوبي لأشرطة المؤسسة، وأليسيو ألبيرتو دييغو المعروف أمام الجميع بالكنية ليتشي، وهو ابن أليسيو دييغو أحد أعظم شعراء كوبا. ولن يعمل ليتشي مع الرئيس الجديد في التدريس في الندوات وحسب - أو ورش العمل كما يصرُّ غارسيا ماركيز دائماً على تسميتها - بل في إنتاج وتطوير مجمل النصوص السينمائية. أما غارسيا ماركيز، فقد رمى بكل ثقله في هذه المشاريع، وكانت طاقته وحماسته وصلابته مثار دهشة زملائه والعديد من الزوار الذي صاروا يأتون إلى هذين المعهدين الجديدين على مدى سنوات لاحقة.

في خضم هذه الاحتفالات، ورد نبأ صاعق من كولومبيا ليلقي سحابة على المشروع الجديد: فقد اغتيل مدير صحيفة الاسبكتادور غييرمو كانو في السابع عشر من كانون الأول عند مغادرته مكتبه في بوغوتا، وكانت الحرب بين ملك تهريب المخدرات في ميدلين بابلو إيسكوبار ونظام العدل الكولومبي قد وصل مرحلة الذروة. كان إيسكوبار، سابع أغنى رجل على وجه الأرض، وكانت استراتيجيته المتمثلة بالرشوة أو بالرصاصة في محاولة إغراء أي شخص أو تصفيته إذا ما وقف في طريقه، قد أضافت طبقة أخرى من الفساد والعجز إلى نظام كولومبيا العجوز الذي عرف عنه الاستغلال والعنف. لقد خابت طموحاته السياسية، فيما ساندت صحيفة الاسبكتادور التي عارضته ببسالة طرد مهربي المخدرات المشتبه فيهم إلى الولايات المتحدة. لقد دافع كانو الآن عن شجاعته. وكان وزير العدل ورئيس المحكمة العليا وقائد الشرطة الوطنية قد اغتيلوا كلهم من قبل، لكن اغتيال مثل هذا الصحافي

المحترم، كان له تأثير مدمر في المعنويات القومية. لقد أخبرتني الصحافية ماريا خيمينا دوثـــان الـــتي تعمل في صحيفة الاسبكتادور قائلة: "شاهدت غارسيا ماركيز مرة أخـــرى في كوبا في كانون الأول 1986، في الوقت نفسه تقريباً الذي افتتحت فيه مؤسسة السينما. وبعد مرور بضعة أيام، جاء يبحث عني، وأخيراً اتصل بـــي هاتفياً وقال: *لقد اغتالوا غييرمو كانو، اغتالوه تواً، وهذا هو السبب الذي يجعلني لا أرغب في العـــودة إلى كولومبيا. إنهم يقتلون أصدقائي. لا أحد يعرف القاتل أو القتيل*. ثم تـــوجهت إلى منـــزله وأنا مرتبكة، فحياني غابو قائلاً إن غييرمو كانو هو الصديق الوحيد الذي دافع عنه حقاً. ثم وصل كاسترو وكنت أجهش بالبكاء، فأوضح غابو ما حدث، فتحدث فيدل مطولاً. وقال لي غابو مرة أخرى إنه لن يرجع، وإنه مفعم بالمرارة. فقلت له: *أنت تدري، لا بد لك من أن تتحدث بصوت عالٍ عما يحدث في كولومبـــيا*. لكنه لم يتحدث، فاستنتجت أنه متقلب المزاج منذ حادثة طربيه عام 1981"[13]. ولم يصرح غارسيا ماركيز بأي تصريح علني عن حادثة الاغتيال، ولم يرسل أي رسالة إلى آنّا ماريا باسكيتس، أرملة كانو.

علـــى قـــسوة الخبر القادم من كولومبيا، بدأ غارسيا ماركيز واجباته الجديدة في هافانـــا باستمتاع شديد. ومكث في كوبا عدة أشهر ينفذ أعمالاً عدّة في وقت واحد، فهـــو يقرر كل شيء ويشارك في كل شيء. وكانت الأخبار تنشر بانتظام في الصحف في جمـــيع أرجاء أميركا اللاتينية وفي إسبانيا عن نشاطات غابرييل غارسيا ماركيز ذات الـــصلة بالسينما، واحتمال اقتباس كتبه لها[14]. يبدو أن الأمور هكذا، فالسينما ليست كالأدب، مبدعوه محكوم عليهم بالعزلة. السينما أُنسٌ وصحبة وحيوية وشباب، السينما جـــنس ولهوٌ ومرح، فأحب غارسيا ماركيز كل دقيقة منها. كان محاطاً بفتيات شابات حـــسناوات، وشباب مفعمين بالحيوية والنشاط والطموح، وإن كانوا مغالين في التقدير والاحتـــرام والمجاملـــة. كان في بيئة تتفق وميوله واتجاهاته، وإن كان ثمن ذلك باهظاً. ويقـــول باستياء واضح إنه استمر في هذه الهواية المطلقة بالرغم من استهجان ميرثيديس: "عندما كنا فقراء أنفقنا كل مالنا على السينما. الآن نحن نملك المال ولا أزال أنفقه على السينما. كما أنني أمنحها الشيء الكثير من وقتي"[15]. يقول البعض إن غارسيا ماركيز تبرع للمدرسة بنصف مليون دولار من جيبه الخاص في ذلك العام إضافة إلى معظم وقته

الثمين. وبدأ الآن يطلب من الصحافيين الأوروبيين أو الأميركيين، عشرين ألف أو ثلاثين ألف دولار لقاء الجلسة الواحدة من المقابلة معه كي يوفر المال لمؤسسة السينما، ودفعت أعداد مدهشة من هؤلاء الصحافيين المال على مضض.

بدأ غارسيا ماركيز يتخصص في رواية القصة وكتابة النص السينمائي في المدرسة الجديدة، وأقام دورات منتظمة عن كيفية كتابة القصة، وعن تحويل القصة بعد ذلك إلى نص سينمائي. وكان من بين الزوار والمحاضرين في السنوات القليلة التالية، فرانسيس فورد كوبولا، وجيلو بونتيكورفو، وفيرناندو سولانس، وروبرت ريدفورد[16]. كانت العلاقة بريدفورد بالغة الأهمية عند غارسيا ماركيز: إذ سيدفع دَينه للأميركي الراديكالي الوسيم بالسفر بنفسه إلى أوتاوا لينظم دورة في مدرسة ريدفورد صن دانس للأشرطة السينمائية، وللمهرجان في آب سنة 1989[17]. ويوضح عموماً أن سياسته تتمثل ببيع مؤلفاته بثمن عالٍ للمنتجين خارج أميركا اللاتينية، وبثمن بخس أو مجاناً للمنتجين الأميركيين اللاتينين. ثمة كتب، مثل رواية **مئة عام من العزلة**، لم يوافق قط على السماح بتحويلها إلى السينما، مما أدى إلى مواجهة بينه وبين أنطوني كوين قبل ذلك ببضع سنوات. (قيل إن أنطوني كوين عرض مليون دولار لشراء الحقوق، وقال كوين إن غارسيا ماركيز وافق على العرض لكنه تنكر للصفقة وهو ما ينكره الكولومبي دائماً)[18]. أما الروايات الأخرى، مثل **الحب في زمن الكوليرا** فقد ذكر أنه يفكّر في بيعها، لكنه أكد في ذلك الوقت أنه لن يبيعها إلاّ لمخرج أميركي لاتيني. أخيراً، وفي العام 2007، قرر أن يسمح لصانع أفلام آخر من هوليوود، وهو الإنكليزي مايك نيويل، أن يحقق الشريط السينمائي في كارثاخينا مع خافيير بارديم الذي سيؤدي الدور الرئيس فيه[19]. في ذلك الوقت، راجت أقاويل تفيد أن ميرثيديس نفد صبرها أخيراً بسبب أعمال الخير التي يقوم بها زوجها باستمرار، وأرادت أن تدّخر بعض الأموال لورثتهما. فالكتاب "كتابها" في كل الأحوال.

في ضوء التحول من السلطة إلى الحب في نشاط غارسيا ماركيز الأدبي، يصبح من المنطقي أن نرى الحب وقد تبوأ مكانة مهمة في مشاريعه السينمائية. أما حقيقة تفكير الكوبيين في هذا التطور، فهو ما لن نعرفه، لكن المؤسسة السينمائية

الجديـــدة ســـيغمرها نبأ أبحاث غارسيا ماركيز السينمائية، من خلال سلسلة من المخـــرجين المختلفين، في موضوع الحب في العلاقات الإنسانية. وكانت الواسطة الأساس في هذا كله، سلسلة من ستة أفلام خطط لها أن تكون مجموعة تدعى كلها بالاسم **قصص حب صعبة** وهو عنوان سبق أن استخدمه إيتالو كالفينو في **مجموعة قـــصص قـــصيرة مغمـــورة**. (عندما عرضت الأشرطة في جهاز الإذاعة العامة في الـــولايات المـــتحدة، أطلـــق عليها اسم **قصص حب خطرة**) وكانت كلها أشد سوداوية مما أرادت أن توحي به الدعاية عنها، كما تبحث كلها بشكل أو بآخر في العلاقة بين الحب والموت[20].

بعد ستة أعوام، أي عام 1996، ينتج غارسيا ماركيز شريطاً سينمائياً مستنداً إلى سوفوكليس بعنوان *أوديب عمدة* (خلافاً لأوديب ملكاً) مع خورخه علي تريانا (وكـــان الـــنص السينمائي لغارسيا ماركيز أيضاً مع طالبة سابقة في مدرسة هافانا للأشـــرطة السينمائية تدعى ستيلا مالاغون) ويدور موضوع الشريط حول عمدة بلـــدة صغيرة يواجه الفظائع والأهوال التي مرت على كوبا إبان القرن العشرين – مثل تهريب المخدرات، والميليشيات العسكرية، والثوار والجيش الوطني – كما يواجه أيضاً المأساة القديمة الخاصة بقتل أوديب أبيه ومعاشرة أمه التي تؤدي دورها الممثلة الإسبانية آنخيلا مولينا. وهاجم عدد كبير من النقاد الشريط هجوماً عنيفاً لا يرحم مع أن له فضائل وحسنات مهمة، ويمكن عدُّه على نحو أكثر إنصافاً وملاءمة على أنـــه إخفـــاق بطولي: فقد نقل الشريط تعقيدات المحنة الكولومبية وبعض أهوالها، وتمكن تريانا من الحيلولة دون تقويض الأفكار الخرافية للسرد السياسي. لقد أراد أن يـــصور شـــريط **ليس للعقيد من يكاتبه** أيضاً، وربما كان عمله سينتهي إلى نتيجة متقنة. وفي هذه الحالة، أعطى غارسيا ماركيز ذلك المشروع، ويا للعجب، لأرتورو ريبـــشتاين الذي كانت علاقته به صعبة دوماً. (قيل إن ريبشتاين غضب لأن تريانا أعاد صنع الشريط عصر *الموت*)، وفي سنة 1999 ظهرت الرواية أخيراً على الشاشة العريـــضة: شريطاً لا بد من أن يُعدّ واحداً من أقل الأشرطة السينمائية إقناعاً لعمل مـــن أعمـــال غارسيا ماركيز، بالرغم من شهرة ريبشتاين العالمية وتمثيل عدد من النجوم العالميين فيه مثل فيدريكو لوخان، وماريسا باريديس، وسلمى حايك[21].

أكــدت التجــربة المختلفة ما سبق أن قاله غارسيا ماركيز مراراً: إن علاقته بالسينما تشبه زواجاً غير سعيد. فهو والسينما لا يتفاهمان، لكن لا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر. ربما يمكن للمرء أن يقول بقسوة أكبر إن حبه غير مطلوب (إنه *مــرآة بوجه واحد* كما يُظهر عنوان أحد أشرطته التلفازية المكسيكية). لم يستطع العيش بلا سينما، لكن السينما في وسعها الاستمرار بسعادة من دونه. أما الحقيقة، فهي أنه غالباً ما وُجِّه إليه اللوم عن النسخ الأخيرة من أشرطته السينمائية، في حين أنــه ليس مسؤولاً في نهاية الأمر بصفته كاتب النص الأصلي عن المنتوج النهائي. كــتب مِــل غوسو في صحيفة نيويورك تايمز أن غارسيا ماركيز بحاجة إلى صانع أشرطة سينمائية في منــزلته، وأن ذلك قد يتطلب مخرجاً له عبقرية بونويل المتميزة لينــصفه[22]. (لعــل هذا يفسر السبب الذي جعل هيرموسيلو، الذي يعد نسخة مــصغرة عن بونويل، أكثر نجاحاً من معظم الآخرين) أخبرني رودريغو ابن غارسيا ماركيــز أن والده "لا فائدة" منه في موضوع الحوار، حتى في رواياته. غير أن بنية قــصة **عــصر الموت** تحفة لا يرقى إليها شك، كما أن إدراك الأشرطة، فضلاً عن الحــوار، أخاذ تماماً. إذاً، هو أمر يدعو للرثاء عدم خوض فيلليني التجربة، كما أن أكــيرا كيروســاوا الــذي كان متحمساً في تلك المرحلة لاحتمال تصوير **خريف البطريرك** لم يتمكن أبداً من إطلاق المشروع.

وبالــرغم مــن كل من نجاحه ونشاطاته المثيرة في كوبا، فقد كانت سنوات صعبة تلك التي مرَّ بها غارسيا ماركيز. فقد اضطر إلى أن يفهم أنه ربما قام بأعمال كــثيرة، وأنه أطلق العنان لموهبته وطاقته في كل ميدان، فوجد نفسه موضع هجوم أعدائــه من اليمين، وتورط في مجادلات ومناقشات لم تكن تعجبه إلا قليلاً يومئذ، فــضلاً عن عدد من الفضائح أو ما يشبه الفضائح المرتبطة بنميمة خبيثة توجه ضد إنسان يقترب من الستين من عمره. وفي آذار 1988، احتفل بذكرى ميلاده الستين وذكرى زواجه الثلاثين بميرثيديس (في 21 نيسان) في مدينة مكسيكو وكيرناباكا. وحــضر الاحــتفال بيليــساريو بيــتانكور وثلاثون صديقاً من جميع أنحاء العالم، وتــساءلت الصحف الكولومبية إن كانت ذكرى ميلاد غارسيا ماركيز الستين أو الحاديــة والــستين – حقاً هي الحادية والستون – وكانت عناوينها الرئيسة تنقل:

غارسيا ماركيز في الستين من عمره مرة أخرى. ولم يتمكن من الاستمرار مع هذا العـــرض الساحر المفعم بالخديعة لمدة أطول، بالرغم من أن معظم الكتاب، والحق يقال، من ضمنهم الكتاب الذين يعرّفون بالكتب على الأغلفة العاملون عند ناشري كتـــبه، يظلون يشيرون إلى سنة 1928 بوصفها سنة مولده حتى نشر كتاب **عشت لأروي** عام 2002، وبعضهم بعد ذلك التاريخ أيضاً.

في هـــذا الـــشهر أيضاً نشر صورة فيدل كاسترو التي أعيد طبعها مراراً، وهي صورة دقيقة، محددة الملامح لا تقبل التغيير - مرحة وودية - بعنوان *الاشتغال بالكلمة* أكـــد فـــيها خـــصائص كاسترو اللفظية بدلاً من العسكرية. واشار إلى "الانضباط الحديدي" لصديقه و"قوة إغرائه الفظيعة"، وقال: "إن من الصعب تصور أي شخص أكثر منه إدماناً على عادة الحديث"، وإن كاسترو "يرتاح بالكلام" إذا ما شعر بالإنهاك من الكلام، وهو قارئ نَهِمٌ أيضاً. وأماط اللثام عن أن "فيدل كان واحداً من الكوبيين القلائل الذين لا يغنون ولا يرقصون"، واعترف: "لا أعتقد أن أحداً في العالم يمكنه أن يكـــون خاسراً أسوأ". غير أن الزعيم الكوبـــي كان أيضاً "رجلاً متقشفاً في أساليبه، أوهامـــه لا تـــرتوي، ذا ثقافة رسمية عتيقة الطراز، كلماته حذرة وتصرفاته دقيقة... أعـــتقد أنه واحد من أعظم المثاليين في عصرنا، ولعل هذه هي حسنته الكبرى بالرغم مـــن أنها أيضاً أكبر أخطاره". لكن عندما سأله غارسيا ماركيز ذات مرة عن أحب الأشياء إليه ردَّ الزعيم العظيم قائلاً: "أن أتسكع عند ناصية أحد الشوارع"[23].

الآن، حدثت انعطافة باتجاه المسرح. ففي كانون الثاني سنة 1988، أُعلن عن أن الممـــثلة الأرجنتينية غراثييلاّ دوخاو ستمثل في مسرحية مقتبسة عن عمل قصير كتـــبه غارســـيا ماركيز بعنوان **هجاء الحب ضد رجل جالس**[24]. يقول غارسيا ماركيـــز إن المسرحية كلام مكرر ينطوي على نكد، كلمة توحي أن مَن يناكد - وهو امرأة عادة - لا يحصل، بل ولا يتوقع رداً من الشخص المقابل. (كان غارسيا ماركيز في أثناء حياته الراشدة يقول دوماً إن لا فائدة من المجادلة مع النساء)، وقد ســـيطر هـــذا الهاجس، الموضوع، على غارسيا ماركيز لسنوات طويلة، وكان من أفكـــاره المبكرة لرواية **خريف البطريرك** هجاء مقذع ضد الدكتاتور تشنه إحدى النساء البارزات في حياته[25].

تأجل العرض الافتتاحي في مسرح ثيربانتس في بوينس آيرس من السابع عشر إلى العشرين من آب 1988. وفي نهاية الأمر بقي غارسيا ماركيز في هافانا إذ كان قلقاً جداً – قلق فتاة من الطبقة الراقية تُقدَّم إلى المجتمع أول مرة بحسب تعبيره – لا يطيق مواجهة تمثيل حي لأحد مؤلفاته، وأرسل ميرثيديس وكارمن بالسيلس وابنها المصور ميغيل الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره لمواجهة نقّاد بوينس آيرس الذين يصعب إرضاء متطلباتهم، علاوة على كونهم الأشد هولاً في أميركا اللاتينية. كان "العالم السياسي والثقافي" لبوينس آيرس كله حاضراً ومن ضمنهم عدد من وزراء الحكومة. وكان غياب الرئيس الفونسين وكاتب المسرحية البارز ملحوظاً، مما يبعث على الأسى. إن العودة إلى مسرح عظيم في بوينس آيرس لم يكرر التجربة السابقة لعام 1967. ولم تحظَ المسرحية بما هو أكثر من تصفيق مؤدب ولم يقف أحد تقديراً لها. أما المراجعات التي كتبها نقاد الدراما في بوينس آيرس فكانت متباينة، لكن أغلبها كان سلبياً. وكان رد الفعل النموذجي قادماً من أوسبالدو كيروغا من صحيفة لا ناسيون ثقيلة الوزن إذ قال: "يصعب التعرف إلى مؤلف رواية **مئة عام من العزلة** في هذا المونولوج الطويل الذي تلقيه امرأة سئمت من السعادة بلا حب... إنها تظهر جهله التام باللغة الدرامية. ولا يمكن نكران حقيقة أن المسرحية ميلودراما سطحية ومكررة ومضجرة"[26].

تدور أحداث المسرحية، وهي مونولوج من فصل واحد، في مدينة بلا اسم، شأن رواية **الحب في زمن الكوليرا**، لكنها بلا شك كارثاخينا دي إندياس. أما الكلمات الأولى التي تنطق بها غراثييلاّ التي تغيرت تغيراً طفيفاً منذ أن استشهد بها أول مرة غارسيا ماركيز هي: "لا شيء يشبه الجحيم على الأرض كالزواج السعيد!". للروايات مفارقة سردية كامنة في بنيتها، أما المسرحية، فتعتمد على المفارقة المسرحية التي تحتاج إلى نوع مختلف من الحدس الإبداعي، نوع يبدو أنه لا يشعر به إلا قليلاً. بيد أن ما هو أسوأ من هذا، بل ما هو أسوأ حتى من الافتقار إلى الفعل الدرامي، هو أن عيب المسرحية الأشد ضرراً يبدو في العجز عن التحليل والتأمل الجادين. إن مسرحية **هجاء الحب ضد رجل جالس** تتعامل، كما هو شأن رواية **الحب في زمن الكوليرا** إلى حدٍّ ما، مع صراع مادي (كما تعاملت معه رواية

ليس للعقيد من يكاتبه قبل أكثر من ثلاثين سنة)[27]، والواضح أن القضية المركزية – وهي أن الزواج التقليدي لا ينجح مع معظم النساء – مهمة، بالرغم من أن هذا المؤلف الذي له من العمر ستون عاماً قد يكون مؤلفاً حديثاً بما فيه الكفاية كي يبحث بحثاً راديكالياً ذا معنىً. ومما يدعو للأسى، أن مسرحية **هجاء الحب ضد رجل جالس** عمل أحادي البعد، وهي بخلاف رواية **الحب في زمن الكوليرا** لا تضيف إلا القليل أو حتى لا شيء إلى الأعمال العالمية العظيمة التي تجسّد الحب. لقد صرَّح غارسيا ماركيز قبل مدة ليست ببعيدة، أنه لم يرغب قط في أن يكون مخرجاً سينمائياً "لأنني لا أريد أن أخسر"[28]. إن المسرح هو مشروع أشد خطورة. وإذا كان قد خسر في المرة الأولى، فإنه لن يحاول الكرة مجدّداً.

* * *

بعد النجاح المدوي الذي صاحب نشر رواية **الحب في زمن الكوليرا**، وبالرغم من الإحساس بالهشاشة المؤلم والمقلق الذي ظل يظهر في خضم ديمومة غارسيا ماركيز الواضحة، فقد بدأ يتصرف كأنه لا توجد حدود لطاقاته أو لقدرته على العمل على مستوىً عالٍ فوق مجموعة كبيرة من النشاطات المتباينة. لكن ثمة علاقات لا تخطئ على الإنهاك. فهذه "قصة في تشيلي" تلوح عليها بوضوح أمارات العجالة، وكانت **هجاء الحب ضد رجل جالس** تجربة في ميدان عجز عن تتبع موضوعه. وربما كان اشتغاله على ستة نصوص سينمائية في آن واحد أكبر من طاقة أي رجل، علاوة على أنه بدأ منذ مدة كتابه الجديد **الرئيس** الذي يتمثل برواية عن شخصية سيمون بوليفار أعظم بطل في تاريخ أميركا اللاتينية قاطبة وعلى مرّ العصور.

كان غارسيا ماركيز ملتزماً التزاماً شديداً بسياسة وإدارة المؤسسة السينمائية والمدرسة السينمائية الجديدتين، إلاّ أنه خصص وقتاً أقل بكثير في الأشهر الأخيرة للسياسة الدولية ولتأملاته ومكائده. فبالرغم من أن الأوضاع في أميركا الوسطى كانت تبدو سوداوية، فإن كوبا بدت في أكثر لحظاتها المريحة والواثقة. لكن الأوضاع أخذت تتبدل فيها أيضاً. فغارسيا ماركيز يوشك أن يكتشف أن فترة إجازته القصيرة من السياسة والدبلوماسية ستنتهي عندما بدأت سحب سوداء

تتجمع فوق كل من كوبا وكولومبيا، وهي سحب لن تنقشع طوال البقية الباقية من القرن.

ففي تموز سنة 1987، كان غارسيا ماركيز ضيف شرف في مهرجان موسكو السينمائي. وفي الحادي عشر من الشهر نفسه، استقبله ميخائيل غورباتشوف في الكرملين، فحثّ غارسيا ماركيز الزعيم السوفياتي الإصلاحي الراديكالي على زيارة أميركا اللاتينية. في تلك المرحلة، كان غورباتشوف أكثر السياسيين الذين يدور عنهم الحديث على وجه الأرض. وقد أوضح بيان رسمي أهما تباحثا "في إعادة الهيكلة القائمة على قدم وساق في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ومضامينها الدولية، ودور المثقفين، وإشاعة القيم الإنسانية في العالم اليوم"[29]. وقال غورباتشوف إن من يقرأ كتب غارسيا ماركيز لا يجد فيها خططاً، فهي مستوحاة من حب الإنسانية. وقال غارسيا ماركيز إن الغلاسنوت والبيريسترويكا كلمتان كبيرتان تنطويان على تحول تاريخي هائل. وقال إنه ربما هناك بعض الناس ممن يرتابون منهما؛ مما لا شك فيه أنه كان يعني فيدل كاسترو. أتراه كان متشككاً بدوره؟ هناك تعليقات صدرت لاحقاً عنه تفيد أنه كان يشك في النتائج التي ستتمخض عنها تلك التحولات، وكشف في تلك التعليقات أنه أخبر غورباتشوف بقلقه، إذ قد يتمنى بعض السياسيين - ريغان وتاتشر والبابا يوحنا بولس الثاني كما يبدو - أن ينتهزوا حسن نيته، فتلوح المخاطر أمامه. وقال إنه لمن الواضح أن غورباتشوف كان مخلصاً، وقد صرَّح له، أي لغارسيا ماركيز، أن اللقاء به كان أهم حدث في حياته مؤخراً[30]. للمرة الأولى، قد لا يكون مبالغاً في كلامه.

بحلول أواخر العام، اقترب من مركز السلطة في المكسيك، ذلك البلد الذي عاش فيه أكثر من عشرين سنة إجمالاً. ففي كانون الأول 1988، أصبح كارلوس ساليناس دي غورتاري رئيساً للجمهورية، فتحرك غارسيا ماركيز سريعاً لتأمين علاقته مع الزعيم الجديد. وعمل الاثنان معاً عن كثب في السياسة الدولية في السنوات التالية. ومن المكسيك سافر إلى كاراكاس لحضور احتفال تنصيب الرئيس الفنزويلي كارلوس أندرياس بيريث لولاية ثانية؛ وفاءً بوعد سبق أن قطعه على نفسه عندما فكّر هو وحده، غارسيا ماركيز، في أن الزعيم الشعبوي المتقلب قد يعود مرة أخرى إلى سدة الحكم.

كـــان غارســـيا ماركيز يشتغل على رواية بوليفار منذ اللحظة التي فرغ فيها تقـــريباً من كتابة رواية **الحب في زمن الكوليرا**. وإذا كان قد استند في كل رواياته إلى فهمه لتاريخ أميركا اللاتينية والعالم، وقرأ كثيراً عن الدكتاتوريين والدكتاتورية كي يكتب رواية **خريف البطريرك**، فإنه لم يضطر إلى التفكير قط في وسائل البحث في التاريخ والكتابة عنه. والآن، وبما أن شخصيته المركزية تتمثل بممثل تاريخي، بل واحد من أشهرهم إطلاقاً، فقد شعر بأن كل حدث في روايته لا بد من أن يتحقق مـــنه تاريخياً، كما أن كل فكرة من أفكار بوليفار وكل عبارة من عباراته، بل كل نقطـــة ضـــعف فيه يرد ذكرها في الكتاب، لا بد من بحثها بحثاً متأنياً في سياقها. وسيـــشتمل هـــذا كله، لا على قراءة غارسيا ماركيز عشرات الكتب عن بوليفار وعـــصره وآلاف الرسائل التي دونها وحسب، بل على استشارة مجموعة كبيرة من الثقات من ضمنهم عدد من كبار الخبراء في حياة المحرر العظيم وزمانه[31].

عندما ابتكر غارسيا ماركيز شخصية بطريركه في سبعينيات القرن العشرين، كـــان حـــراً في اختيار جانب من جوانب أي دكتاتور يروقه، وفي أي لحظة، كي يصوغ توليفة مبتكرة ذات معنى ضمن الإطار العام. أما مع بوليفار، وبالرغم من أن كـــل مؤرخ يكتشف أو يبتكر شخصية مغايرة، فإن المادة الجوهرية موجودة أصلاً ويمكـــن متابعتها، وتعلم بسرعة أن كل تأكيد تفسيري لا بد من أن يستند في حالة المؤرخ إلى أكثر من دليل، وفي معظم الحالات، إلى أدلة كثيرة، فتكون النتيجة هي أن مـــا يـــبدو في العمل المنتج النهائي، ليس سوى قطعة صغيرة من جبل جليدي هائل[32]. واضطر إلى حدٍّ ما، إلى غربلة كل ذلك الكم الهائل من المعلومات، لكن ينبغـــي له أيضاً أن يحتفظ بملكته الإبداعية كي ينهض بوليفار، نوعاً ما، منتشياً من هذا البحث، بدلاً من أن يبقى مدفوناً تحت جبل من الحقائق الجافة.

بالرغم من أن المحرر كتب، أو أملى عشرة آلاف رسالة، وكُتبت عنه أعداد لا تحصى من المذكرات من لدن معاونيه أو غيرهم ممن صادفهم في أثناء حياته، إلا أن هناك مراحل زمنية لم يعرف فيها إلا الشيء القليل عما كان يفعله. كما أن حياته الخاصـــة - لا ســـيما حياته العاطفية - ظلت مفتوحة نسبياً. إضافة إلى ذلك، فإن النسق الذي أثار اهتمام غارسيا ماركيز أكثر من أي نسق آخر - لأسباب شخصية

وأدبية معاً - يتجسد في رحلة بوليفار الأخيرة على امتداد نهر مجدلينا، وهي الرحلة التي لم تأتِ على ذكرها لا الرسائل ولا المذكرات، تاركة الحرية للروائي كي يبتكر قصصه ضمن حدود الاحتمال التاريخي.

يشاء غارسيا ماركيز أن يهدي الرواية لألفارو موتيس الذي أهداه فكرة تأليف الكتاب، بل إنه كتب مقطعاً قصيراً للطبعة الأولى بعنوان **الوجه الأخير** عندما كان سجيناً في المكسيك أواخر عقد الخمسينيات من القرن العشرين. وقد جعله غارسيا ماركيز يعترف بأنه لن ينهي المشروع، فتشبث به بنفسه. أما العنوان، **الجنرال في متاهته**، فقد تقرر منذ اللحظة التي بدأ فيها غارسيا ماركيز بحثه في موضوع الكتاب.

ولد سيمون بوليفار في كاراكاس في فنزويلا سنة 1783 لأسرة أرستقراطية من الكريول في زمن كانت فيه القارة برمتها، التي ندعوها اليوم بقارة أميركا اللاتينية، واقعة في قبضة إسبانيا والبرتغال، وظلت كذلك مدى ثلاثة قرون من الزمان تقريباً، على حين سيطرت كل من إنكلترا وفرنسا على عدد من الجزر في البحر الكاريبي. كان الرّق منتشراً في كل بلد من بلدان أميركا اللاتينية مثلما كان منتشراً في الولايات المتحدة الأميركية التي استقلت مؤخراً. وفي الوقت الذي توفي فيه بوليفار سنة 1830، كانت قارة أميركا اللاتينية قد أضحت مستقلة كلها تقريباً عن أي قوىً أجنبية، وصدرت إدانة رسمية ضد الرّق، بل أُلغي في بعض الحالات. ويعود الفضل في هذا كله إلى بوليفار أكثر مما يعود إلى أي شخص آخر.

توفي والد بوليفار، وكان مالكاً من ملاّك الأراضي، عندما كان بوليفار يبلغ سنتين ونصف السنة من عمره. وتوفيت أمه و لم يكن قد بلغ التاسعة. ولما بلغ الثانية عشرة، ثار ضد خاله الذي أخذه عنده وانتقل إلى منزل معلمه سيمون رودريغيث. وبعد رحلة أمضاها في أوروبا، تزوج وله من العمر تسعة عشر عاماً بشابة توفيت بعد زواجها منه بأقل من ثمانية أشهر. في تلك اللحظة، يبدو أنه قرر أن قدره حكم عليه أن يعيش وحيداً في هذا العالم. (فلم يتزوج مرة أخرى بالرغم من أنه ارتبط بعلاقات مع عشرات النساء أشهرهن عشيقته الأكوادورية الشجاعة مانويليتا ساينث التي أصبحت اليوم أسطورة مهمة، وأنقذت حياته أكثر من مرة).

ولـــدى عودته إلى أوروبا، حضر مراسم تتويج نابوليون في باريس في كانون الأول 1804، وكـــان معجـــباً بإنجازات نابوليون بوصفه محرر أوروبا، لكنه أثار اشمئزازه بسبب قراره الذي اتخذه بجعل نفسه ملكاً. ولدى رجوعه إلى أميركا اللاتينية، بعد أن أقـــسم اليمين على التضحية بحياته في سبيل تحرير المستعمرات الخاضعة للسيطرة الإســـبانية، بدأ حياته العسكرية التي تبوأ فيها مكانة لائقة على امتداد القارة وبويع محـــرراً. وسلّم بقية القادة، طوعاً أو كرهاً، واحداً تلو الآخر، بقيادة بوليفار ومنهم كبار الجنرالات مثل سان مارتين، وسوكره، وسانتاندر، وأوردانيتا، وبايث.

عـــندما يتأمل المرء عدد المرات التي تقدم فيها بوليفار على امتداد القارة شمالاً وجـــنوباً، وفيما وراء جبال الإنديز وعلى امتداد الأنهار العظيمة في تلك التضاريس الـــتي لا تزال وحشية، وبصرف النظر عن عدد المعارك التي ربحها أو خسرها، فإن الحقائـــق والأرقام في حملته التي دامت عشرين سنة كانت مذهلة. لكنه بالرغم من كـــل ذلـــك، لم يـــصب بأي جرح خطير في المعارك. وكان يبلغ من العمر تسعة وعشرين سنة عندما بدأت مهمته الأولى على امتداد نهر مجدلينا في كولومبيا. وما إن بلـــغ الـــثلاثين من عمره حتى بويع محرراً لفنـــزويلا، وفي الثامنة والثلاثين انتخب رئيـــساً لجمهـــورية كولومبـــيا التي كانت تضم آنذاك ما يعرف اليوم بفنـــزويلا والإكوادور. وفي هذه المرحلة كتب بعضاً من أهم الوثائق عن هوية أميركا اللاتينية وأشهرها وثيقة "رسالة جامايكا" في سنة 1851 أشار فيها إلى أن جميع أقاليم أميركا اللاتينـــية فيها من التشابه أكثر مما فيها من الاختلاف، وأنه لا بد من القبول بهوية القارة متعددة الأعراق والاعتراف بها.

لكن ما إن خسر الإسبان حتى بدأ الزعماء المحليون بتأكيد مصالحهم المناطقية والإقليمـــية، كمـــا ابتدأ تقسيم الجمهوريات التي أصبحت محررة الآن. وظهرت الفوضى والدكتاتورية وخيبة الأمل مثل أشباح مأساوية في الأفق، وبدأ حلم بوليفار الكاســـح بتوحـــيد أميركا اللاتينية يتلاشى، فأضحى مشاكساً وصوتاً للمثالية غير الواقعـــية. أما الآخرون الذين ما كان يمكن لهم أن يحققوا الإنجازات شبه المستحيلة الـــتي حقّقها بوليفار، فقد أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أكثر واقعية منه في مرحلة ما بعد التحرير. وأول مثال على ذلك هو خصم بوليفار الرهيب فرانسيسكو

دي باولا سانتاندير الكولومبـــي الذي يمثل في نظر غارسيا ماركيز ركناً من أركان الكاتـــشاكو. وتبدأ الرواية في اللحظة التي يدرك فيها بوليفار أن لا مستقبل له في كولومبـــيا بالرغم من كل إنجازاته وامتيازاته المتواصلة، فيبدأ بالتراجع عن بوغوتا، وهو تراجع عن رؤيته العظيمة. وفي السادسة والأربعين من عمره، ينطلق المحرر العظيم بعـــد أن داهمه المرض وأصيب بخيبة أمل، في رحلته إلى المنفى عن طريق نهر مجدلينا، بالـــرغم من أن غارسيا ماركيز يوحي أن بوليفار لم يتخلَّ قط عن الأمل، وأنه لا يزال عازماً على تنظيم حملة تحرير عسكرية أخرى إذا ما ثبتت إمكانية القيام بها.

تقع الرواية في ثمانية فصول، وتقسم، مرة أخرى، إلى نصفين: النصف الأول، مـــن الفصل الأول إلى الفصل الرابع، يروي قصة الرحلة على امتداد النهر العظيم، الذي سبق لغارسيا ماركيز أن رحل على امتداده بعد ما يزيد على القرن من الزمان وهـــو في طريقه إلى المدرسة[33]. وتستغرق رحلة بوليفار الأخيرة من الثامن وحتى الـــثالث والعشرين من شهر أيار سنة 1830. أما النصف الثاني، من الفصل الخامس وحتى الفصل الثامن، فيروي قصة الأشهر الستة الأخيرة من حياة بوليفار، وذلك من الـــرابع والعشرين من أيار وحتى السابع عشر من كانون الأول سنة 1830، وهي الأشـــهر الـــستة التي أمضاها في منطقة الساحل البحرية التي ستشهد لاحقاً طفولة غارســـيا ماركيـــز وشوطاً كبيراً من شبابه. ثمة قصيدة من أحب القصائد الإسبانية للشاعر خورخه مانريكي **أشعار عن موت أبـــي**، نُظمت أواخر القرون الوسطى، اشـــتهرت قبل كل شيء بسبب بيت شعري فيها ألا وهو: "حياتنا أنهار تصب في البحر الذي هو الموت"، وبيت شعري آخر يوضح أن الموت هو "الفخ" و"الكمين" الـــذي نـــسقط فيه نحن. أو كما يقول غارسيا ماركيز وهو ينهج نهج بوليفار هو "المتاهة" التي نسقط فيها. وبالرغم من أن غارسيا ماركيز لا ينوه بمانريكي، إلا أن رواياته لها منطق قصيدة مانريكي العظيمة تماماً.

يشير موضوع العنوان *الجنرال* إلى السلطة، لكن مفهوم "المتاهة" يبيّن لنا قبل أن تـــبدأ الرواية، أن أصحاب السلطة أنفسهم لا يتمكنون أيضاً من السيطرة على القـــدر والمصير. من الطبيعيّ أن مثل هذا العجز قد ينطوي على تبرئة ذمة أصحاب السلطة، وحتى التعاطف معهم، وهو الشعور الذي يمكن أن يكون غارسيا ماركيز

قــد داخلــه وهو طفل صغير عندما كان العقيد نيكولاس ماركيز صاحب السلطة الوحيد - المؤثر والمحترم والحامي - الذي عرفه. هل يا ترى أن مؤلفاته كلها ليست ســوى تأمــل في استحالة التشبث بذلك الرجل العجوز، والعذاب، لأن "الأب" شخصٌ بلغ من الكبر عتياً، واهن، وإن أهم درس تعلمه وهو طفل صغير أن الأمن الوحــيد لديك، جدك المحبوب، لا بد له من أن يموت "حالاً"؟ إن مثل هذا الدرس يعلمنا أن السلطة مرغوب فيها كلها وهي ضرورية، لكنها هشة، غير صادقة، زائلة ومخادعــة. إن غارسيا ماركيز هو الوحيد تقريباً في الأدب العالمي المعاصر المهووس بــرجال السلطة، بل والمتعاطف وإياهم. وبالرغم من أنه كان دائماً اشتراكياً، فإن هذه الملاحظة الدائمة عن التماهي الأرستقراطي، بصرف النظر عن تعديلها بالمفارقة (أو حتى بالإدانة الأخلاقية)، قد تفسر السبب الذي يجعل لكتبه سلطة يصعب سبر غــورها كما يبدو: من نافلة القول إن المأساة تكون أعظم، وأشمل، وأعمق عندما يــتعاظم الأبطــال بالسلطة، وبالعزلة، وبتأثيرهم في حيوات ملايين الناس والتاريخ أيضاً.

في الوقت الذي كتب فيه غارسيا ماركيز **الجنرال في متاهته**، كان على معرفة وثــيقة مــنذ زمن طويل بفيدل كاسترو، وهو مرشح بارز بلا ريب لأن يكون في الموقع الثاني - بعد بوليفار - في لائحة رجال أميركا اللاتينية العظماء. فمن حيث طول عمر فيدل كاسترو السياسي - نصف قرن تقريباً في السلطة - نلاحظ أنه لمن الصعب نكران تاريخه. كما أن غارسيا ماركيز أخبرني ذات مرة أن فيدل "ملك". أمــا غارسيا ماركيز نفسه، فهو على العكس من ذلك، إذ أكد مراراً أنه لا يملك الموهبة ولا الحس الباطني ولا الرغبة - بل والقدرة إلى حدّ أقل - في تحمل مثل هذه العــزلة. وقد اعترف مراراً أن عزلة الأديب الجاد هائلة، لكن عزلة القائد السياسي العظيم، من طبقة مختلفة تماماً. ومع هذا، ففي هذه الرواية نجد أن شخصية بوليفار تــستند، من حيث الحقائق بلا ريب، إلى شخصية المحرر، وما نقاط ضعفه ووهنه العديدة إلا مزيجاً من نقاط ضعف بوليفار وكاسترو وغارسيا ماركيز ووهنهم أيضاً.

الموضــوع الــرئيس، إذاً، هو السلطة وليس الطغيان. بعبارة أخرى، يُنظر في بعــض الأحيان إلى مؤلفات غارسيا ماركيز من وجهة نظر صاحب السلطة، وفي

أحيان أخرى من وجهة نظر الضعفاء الذين لا سلطة لهم، إلا أنها لا تهدف إلى إضرام نار الحقد ضد الطغاة أو "الطبقة الحاكمة"؛ على عكس مئات من روايات الاحتجاج المكتوبة ضمن التيار العام في السرد الأدبي في أميركا اللاتينية. موضوعاته المستمرة، والمحبوكة دائماً، هي مفارقة التاريخ (لا سيما السلطة عندما تتحول إلى عجز، والحياة تتحول إلى موت) والقدر، والمصير، والمثل، والطموحات، والحنين الجارف إلى الماضي، والمظهر، والحظ، والفرصة، والمصادفة، والتزامن، والأحلام، والشوق، والجسد، والإرادة، ولغز مادة البشر. وغالباً ما تشير عناوين أعماله إلى السلطة (*العقيد*، *البطريرك*، *الجنرال*، *الأم الكبيرة*)، سلطة تواجه تحدياً عادةً (*ليس من يكاتب*، *عزلة*، *خريف*، *جنازة*، *متاهة*، *موت معلن*، *اختطاف*)، كما تشير إلى مختلف أشكال تمظهر الواقع المتصل بمختلف أساليب تصور الزمن وتنظيمه في تاريخ أو في سرد (*ليس من يكاتب*، *ومئة عام*، *وزمن*، *وقصة*، *وخبر*، *وذاكرة*) وتشتمل أعماله في أغلب الأحيان على موضوع الانتظار الذي يمثل بطبيعة الحال الجانب الآخر للسلطة، وتجربة العاجز. وعلى امتداد صفحات هذه الرواية، على سبيل المثال، نجد بوليفار يعلن عن رحيله، أولاً عن بوغوتا ثم عن كولومبيا، إلاّ أنه في الواقع يرحل عن السلطة، في حين يتظاهر أمام نفسه أنه لا يرحل عن أي شيء، أقله حياته، وإن لم يكن هناك من يؤخر ذلك الرحيل الحتمي. إذاً، الانتظار موضوع كبير، لكن التأخير (الذي يستطيع صاحب السلطة - مثل كاسترو - أن يفعله، ويجب أن يفعله) يشكل موضوعاً كبيراً هنا (إذ يؤخر بوليفار رحيله عن كولومبيا وعن السلطة وعن المجد، ويؤخر قبوله بالواقع وبالموت...).

لا بد من أن بعض محفزات الكتاب تنهل من اشتغال غارسيا ماركيز على كلمته التي ألقاها في احتفال جائزة نوبل، حيث شعر، مثلما شعر آخرون غيره من قبل، أنه ينبغي له أن يتكلم بصفته ممثلاً، لا عن بلد واحد، بل عن قارة بأكملها، فالكثير مما تفوه به في تلك المناسبة، هو كلام "بوليفاري"، كما أن العديد من الأفكار ظهرت مرة أخرى في الرواية. حقاً، لقد كانت كلمته في احتفال نوبل توفر خلفية ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها في قراءة الرواية وتفسيرها، وتلك مفارقة كبرى ما دام غارسيا ماركيز، وهو ما لاحظناه عنه، كان بطيئاً جداً في الوصول إلى

درجـــة الوعي "بأميركا اللاتينية"، حتى في أثناء إقامته في أوروبا. لكنه بعد زيارته لمعقل الرأسمالية ومعقل الشيوعية بدأ يدرك، بالرغم من انجذابه إلى الاشتراكية نظرياً ومعنوياً، أن كلا النظامين ليسا إجابة لأميركا اللاتينية، لأنهما عملياً يعملان لمصلحة البلدين اللذين يدافعان عنهما. وعلى أميركا اللاتينية أن تهتم بنفسها، وأن عليها أن تتوحد. لدى بوليفار أفكار حادة في الرواية عن مختلف الجنسيات الأوروبية، مفضلاً الـــبريطانيين في ضوء مساعدة بريطانيا حركات التحرر في أميركا الجنوبية في ذلك الـــزمان. أما الفرنسيون فيظهرون على نحو سيئ. وأما الولايات المتحدة، "فرهيبة، قـــادرة على كل شيء" بحسب بوليفار نفسه، وأن "حكايتها عن الحرية ستكون في نهاية المطاف وبالاً علينا جميعاً".

هذه هي الموضوعات الواردة في الكتاب والمشكلات الرئيسة التي ينبني عليها. لكن بغض النظر عن مدى البحث الواسع الذي اشتمل عليه الكتاب، وبغض النظر عـــن التصميم الإيديولوجي والمعمار الأدبـــي اللذين يدعمانه، فإن الرواية كانت لتفـــشل فشلاً ذريعاً لو لم تبرز الشخصية المركزية فيها حية؛ وهذا ما حدث فعلاً. لقد تناول غارسيا ماركيز واحداً من أشهر الشخصيات الأميركية اللاتينية والمألوفة، وقدم تفسيره لها بجسارة تحبس الأنفاس، وبحس فطري يخلب الألباب. وبالرغم من أن هـــذا الكتاب ليس أعظم كتبه، إلا أنه يمكن أن يكون أعظم منجزاته، لأن قوة الـــتحدي ماثلة أمامنا كي نراها. إن أي قارئ مطّلع على سيرة بوليفار، يرجّح أن يـــستنتج لدى الانتهاء من قراءة هذا الكتاب، أن ما كتبه غارسيا ماركيز عن هذا الـــرجل، وبأقـــل من ثلاثمئة صفحة، ويشتمل على مجمل الحياة ضمن الرحلة التي اكـــتملت في غـــضون الأشهر الستة الأخيرة منها، لن يكون في الإمكان من الآن فصاعداً فصله عن أي صورة لبوليفار نقلت إلى الأجيال اللاحقة.

إن بولـــيفار حي، بالرغم من إصابته بمرض مميت، منذ الصفحة الأولى حيث يستلقي عارياً - مدفوناً إن جاز القول - في حمامه الصباحي. إن عريه يصدم العديد من القراء، مثلما سيصدمون عندما يرونه يتقيأ ويطلق الغازات ويعاشر النساء ويلعن أو يغـــش خـــلال لعب الورق، أو يظهر جانباً شكساً، طفولياً في شخصيته، بعيداً بعـــض الشيء عن الرؤية التقديسية الشائعة جداً في الخطب والاحتفالات الأميركية

اللاتينية. ومع هذا، فالصورة هي أيضاً صورة إنسان متحول إلى آخر ببسالة مؤثرة: من المؤكد أن بلاياه ورفضه وموته القادم نحوه هي التي جبلته على هذا النحو، لكنه لم يهزم أخيراً حتى في أشد الظروف سوداوية ويأساً. لقد أمسى بوليفار شخصية من شخصيات غارسيا ماركيز في الرواية؛ هذا لا يمكن إنكاره، لكن جزءاً من عظمة هذا الروائي، هو أن "الشخصية الأميركية اللاتينية" هي التي استحوذ عليها وأضفى عليها الديمومة قبل أن يلتفت إلى بوليفار بوقت طويل، وها هو المحرر العظيم أمامنا مكشوفاً، رمزاً لأعداد لا حصر لها من الأميركيين اللاتينيين المعذبين والمكافحين المستسلمين أحياناً في مملكة هذا العالم المنهك. وبالرغم من كل خيلاء غارسيا ماركيز، وغطرسته أحياناً، فقد كان رد فعله إزاء هذا التحدي الجمالي والتاريخي، ينم عن بسالة وطيب خاطر لم يستطع إلا عدد قليل جداً من الكتاب أن يبدي مثلهما، لا سيما أنه كان خاضعاً لضغوطات لا يتخيلها إلا عدد قليل من الأدباء. ومن هنا مصدر التأثير الهائل الذي أحدثه الكتاب في معظم قرائه.

أُعلن عن الرواية قبل أسابيع من صدورها. وقد تباهى غارسيا ماركيز دائماً بأنه لا يحضر لحظات صدور كتبه، ويوحي غالباً أنه شخصياً يشعر بالضآلة إذا ما اضطر إلى التطواف والإعلان عن شيء، مثلما يعلن عن منتوج تجاري، هو بالنسبة إليه، بدافعه الحقيقي، إبداع جمالي لا يعبأ تماماً بأي قيمة صرف قد يملكها في سوق الكتاب الرأسمالي. غير أن الحقيقة هي أن **مئة عام من العزلة** قد أُعلن عنها قبل صدورها بوقت طويل. ومع كل كتاب تزداد الحقنة، لهذا السبب بدأ بعض الناس يصفونه بعد سنوات "بتسويق غارسيا".

في التاسع عشر من شباط، كان أول رد فعل إزاء الرواية التي قُرئت منضّدة على الآلة الكاتبة، متمثلاً برسالة من الرئيس السابق لجمهورية كولومبيا ألفونسو لوبيث ميتشيلسين وليس من قارئ اعتيادي، وكان رده: "لقد التهمت كتابك الأخير"، قد نشر في صحيفة التيمبو واستخدم ليكون إعلاناً عن الكتاب حتى قبل صدوره(34). وصرَّح لوبيث أن غارسيا ماركيز أظهر مواهب متعددة ومدهشة: فقد افترض فيه أنه واقعي سحري، لكنه كتب الآن عملاً طبيعياً لو قدِّر لزولا أن يمتلك الموهبة، لكتبه بنفسه. لم يستطع لوبيث أن يرمي الكتاب جانباً، وقال إن قصة

بوليفار معروفة للجميع في أنحاء أميركا اللاتينية كافة، لكن القارئ ينخدع بها على أنها قصة من قصص التحري. إن أطروحة غارسيا ماركيز الأصلية الجديدة، التي مفادها أن بولفيار كان لا يزال يأمل في العودة سياسياً حتى ولو على فراش الاحتضار، مدهشة جداً، لأن هذه القصة هي "قصتنا جميعاً عندما نفقد سلطتنا". ويتبين في ما بعد أن الرئيس السابق بيتانكور قرأ الكتاب أيضاً (لكنه كان أقل إيغالاً في المدح، لأن التأويل "الليبرالي" لا يحظى عنده، وهو المحافظ، إلا بقبول أقل من قبول لوبيث)[35]، وسهر الرئيس الليبرالي الحالي بيرخيليو باركو طوال الليل كي ينتهي من قراءته[36]. وحتى فيدل كاسترو نفسه، المعجب الكبير بخوسيه مارتي الذي حرر كوبا، قد قرأ الرواية، وقيل إن هناك من سمعه يصرح بأن الكتاب منح بوليفار "صورة وثنية"[37]، لكن ما من أحد عرف مغزى تلك العبارة ولا إن كانت مدحاً أو قدحاً.

نُشرت مراجعات كثيرة حول الكتاب في الصحف والمجلات في جميع أنحاء الدول التي تتكلم الإسبانية. فهذه الرواية ليست رواية جديدة من تأليف أعظم اسم أدبي يكتب بهذه اللغة وحسب، بل هي أيضاً صورة لأهم شخصية في مجمل تاريخ أميركا اللاتينية، شخصيته وصورته عزيزتان على قلوب الملايين، وليس على قلوب الأوصياء على الشعلة البوليفارية، سواءً أكانوا مؤرخين جادين أم إيديولوجيين أم ديماغوجيين. وكانت معظم المراجعات إيجابية إلى أبعد الحدود، لكن الشيء الذي لم يألفه غارسيا ماركيز، وإن لم يستغربه، هو بعض المحاولات التي كانت مصممة على الهدم. فقد أشارت قلة لا بأس بها من النقاد إلى أن إحساس غارسيا ماركيز المبالغ فيه بمجده، وقف حجر عثرة في طريق تصويره لبوليفار؛ وهو عرض يتهم بأنه مفرط في مؤثراته اللسانية ذات الطابع المشهدي، شأنها شأن الألعاب النارية المنطوية على تهنئة الذات بدلاً من نقل شخصية بوليفار الممكنة نقلاً مناسباً، علاوة على سلسلة من العبارات المتداولة باستمرار، والبنية العرضية التي كانت وظيفتها الحقيقية جذب الاهتمام إلى غارسيا ماركيز، فتصبح الرواية ضريحاً فخماً للكاتب نفسه لا لبطلها[38].

وكما هو متوقع، ربما كان أشد ردود الأفعال سلبية، قد صدر عن صحيفة التيمبو، بعبع غارسيا ماركيز القديم، التي وجدت في الرواية عملاً مضاداً لكولومبيا، بحسب ما ورد في مقالة افتتاحية لها:

> **لكـــن للكتاب خلفية سياسية، إذ لا يستطيع المؤلف أن يُخفي فلسفته على صـــفحاتها المئتين والأربع وثمانين، وبخاصة في الميدان الإيديولوجي. فقد نفّس عـــن مشاعر حقد غير مكبوتة ضد سانتاندير، وكشف عن وصدّ ودّيّ إزاء بوغـــوتا وإنتاجها الكلاسيكي من الكاتشاكو، على حين يشير إلى خصائص الجنرال الشخصية، ويعزو إلى أصوله الكاريبية الجزء الأعظم من الدافع الذي نقلـــه إلى المجد. إنه يؤكد بمهارة وحذق عاليين شخصية بوليفار الدكتاتورية، وجـــذوره الخلاسية، ونـــزعته الدنيوية لينتج مقارنة بفيدل كاسترو لا يشعر بها العقل[39].**

يظهـــر هـــذا الهجاء المثير للاضطراب، مدى الانـــزعاج الذي سببه استيلاء غارســـيا ماركيز على بوليفار في أنظار الأوصياء على هدية كولومبيا الوطنية. لقد ضـــغط على كل زر، مما جعل كاتب الافتتاحية يفقد هدوء أعصابه. ومما لا شك فيه، أن غارسيا ماركيز شعر برضا المحارب الذي أحرق عدوه في الهواء الطلق عندما ردَّ على الإهانة بمثلها:

> **ســـبق أن قلـــت إن التيمبو صحيفة فقدت عقلها، تحميها حصانة غير مألوفة تمامـــاً... فهـــي تقـــول ما يحلو لها ضد كل من يحلو لها، من دون أن تحسب النتائج، أو تفكّر في الضرر السياسي أو الاجتماعي أو الشخصي الذي يمكن أن تلحقـــه. قلـــيل جداً من الناس يملكون الجرأة على الرد عليها خوفاً من ســـلطتها المطلقـــة. نحـــن بحاجـــة إلى أن نكتشف أنفسنا، ولا نريد أن يظل كولومبوس مكتشفنا.**

وقـــد ردت الصحيفة نفسها على هذه المقالة بمقالة بعنوان *ثورة غضب نوبل*، نُشرت في الخامس من نيسان، وأُعلن فيها أن "غارسيا ماركيز لا يقبل إلا المديح"، ثم وُصف بأنه "بارون ماكوندو"[40].

مـــن الواضح أن شيئاً ما كان يحدث لغارسيا ماركيز ولسمعته. فعلاقاته مع الكـــبار ومـــع الطيبين كانت تنمو باطراد – فالقادة السياسيون من أمثال كاسترو وســـاليناس وبيريـــث اعتقدوا أنهم بحاجة إليه أكثر مما هو بحاجة إليهم – لكن بقية العـــالم بـــدأ يلاحظ، وبخاصة في بعض الأوساط، مشاركة أقل من ذي قبل. كما أضـــحى غارســـيا ماركيز فجأة تحت ضغوط متزايدة؛ ممّا يتعلّق بعلاقته بكاسترو وكـــوبا، وإشارات صحافية لا أساس لها من الصحة عن علاقات جنسية، وخريف

عمر سقيم، وخوف من أن تكون شعبيته في تضاؤل، فيتبع ذلك تضاؤل في نفوذه السياسي، وكان يميل إلى المبالغة في ردود أفعاله إزاء الهجمات أو النقد. لقد بدا للمرة الأولى وكأنه سيفقد لمسته قليلاً. وكانت الصحف الكولومبية تنشر، بل نشرت حقاً، أن تأثيره وشهرته صعدا إلى رأسه، وأنه يتصرف بأعلى دوافع الزهو والنرجسية والحساسية المفرطة.

لكن الأمور كانت أشد تعقيداً من هذا كله. حقاً، كانت لعبة الحرب الباردة التي لعبها غارسيا ماركيز أفضل من أي شخص آخر قد انتهت تقريباً، وإن كان بعض المراقبين يتوقعون أن نهايتها ستحل بأسرع ما يمكن في تشرين الثاني 1989. لقد تغير المناخ تغيراً كبيراً، وكانت مناورات غارسيا ماركيز أقل وثوقاً وارتياحاً، وقد فطن إليها صحافيون استجابوا حتماً للجو المتغير، وإن لم يستطيعوا رؤية المستقبل في كرة بلورية بالوضوح الذي كان يراه فيه.

لقد كتب غارسيا ماركيز كتاباً هو أكثر الكتب المنشورة التي دار الحديث عنها عن بوليفار - أهم سياسي في تاريخ أميركا اللاتينية - وأصبح كما كان يتوقع حتماً في خضم سلسلة لا تنتهي من المجادلات السياسية في مختلف الأماكن وعلى مختلف المستويات. في غضون ذلك، كان صديقه السابق ماريو فارغاس يوسا منشغلاً انشغالاً سياسياً مباشراً أكثر مما مضى، بل رشح نفسه ليكون رئيساً لجمهورية البيرو بوصفه ليبرالياً جديداً. وكان هو وغارسيا ماركيز قد افترقا افتراقاً جذرياً بخصوص الشؤون البيروفية في أواخر عقد الستينيات من القرن العشرين عندما ساند، شأنه شأن معظم اليسار الأميركي اللاتيني، مساندة مشروطة النظام العسكري التقدمي للجنرال خوان بيلاسكو، على حين وقف فارغاس يوسا ضده. الحق أن كره العسكر كان سمة من سمات فارغاس يوسا في جميع الأوقات، على حين أن غارسيا ماركيز، الواقعي دائماً، وإن لم يكن شخصياً عنيفاً، كان يعلم أن ما من دولة أو نظام يمكنه البقاء بلا جيش، ولهذا، كان يرى أنه لا بد من منح العسكر قدراً من الاحترام دائماً. وبحلول نهاية شهر آذار، تمنى غارسيا ماركيز لصديقه السابق أطيب التمنيات وإن أبدى تحفظات: "محتم على كل شخص في أميركا اللاتينية لديه جمهور ما، أن ينتهي به الأمر إلى السياسة. لكن ما من أحد

مـــضى بعيداً في هذا الشوط قدر ماريو فارغاس يوسا. أتمنى ألاّ تكون الظروف قد جذبـــته، بل أن يكون واثقاً من أنه يستطيع حقاً أن يجد حلاً للوضع في البيرو. ولا يمكـــن للمرء حتى في خضم هذا العدد الكبير من الاختلافات الإيديولوجية إلا أن يـــتمنى، إذا مـــا انتُخب، أن تسير الرئاسة على ما يرام معه لمصلحة البيرو"(41) ثم أضـــاف: "إذا كـــان المـــرء مشهوراً عليه ألاّ يكون ساذجاً كي لا يستغله أحد". وأخـــيراً، أصيب معظم المراقبين الأدبيين بخيبة أمل عندما خسر فارغاس يوسا أمام ألـــبيرتو فوجيموري، وهو شعبوي مغمور تحول إلى واحد من أسوأ حكام أميركا اللاتينية في نهاية القرن.

أكدت إسبانيا في شهر آذار ما كان يتوقعه غارسيا ماركيز غاضباً منذ أشهر عـــندما تبنت قوانين المجموعة الأوروبية التي تعني أن الأميركيين اللاتينين لن يحصلوا مـــنذ الآن علـــى تأشيرات لدخول شبه الجزيرة بصورة روتينية. وفي نوبة غضب واستياء، تُذكّر بنية الغضب الفاشلة ضد بينوشيت صرَّح قائلاً: "لن أعود إلى إسبانيا أبداً"(42). غني عن القول إنه سيضطر إلى تغيير نبرته، لكنه شعر بإهانة حقيقية. ونخر بـــازدراء أن الإسبان لم تكن لديهم تأشيرات عندما وصلوا إلى أميركا اللاتينية سنة 1492. وأضـــاف أن فرانكو نفسه سمح للأميركيين اللاتينيين أن يصبحوا مواطنين إسبان. وأخبر الصحافة أنه قد حذر فيليب غونثاليث قائلاً إنه إذا ما انضمت إسبانيا إلى الاتحـــاد الأوروبـــي، "فـــستولي ظهرك لأميركا اللاتينية"، وها هم قد ولوا ظهـــورهم لهـــا(43). حقـــاً، إن علاقة غارسيا ماركيز بغونثاليث كانت مضطربة باستمرار لسببين اثنين بالرغم من أنها كانت علاقة وثيقة: أوّلاً: لقد قطع غونثاليث شـــوطاً طويلاً من النشاط الهدام السري ضد نظام فرانكو، إلى العضوية في الجماعة الأوروبية وحلف الناتو أيضاً، وبهذا، لم تعد مصالح إسبانيا "مكملة" لمصالح أميركا اللاتينـــية، كما كان الإسبان يزعمون، بل معادية لها: فقد أصبحت إسبانيا اليوم، للمـــرة الأولى في تاريخهـــا الحديث، جزءاً من "الغرب"، وهو ما سيعلنه غونثاليث بنفـــسه عما قريب، وذلك عندما أرسلت إسبانيا قواتها لخوض حرب الخليج ضدّ العـــراق ســـنة 1991. ثانياً: لم يكن هناك شيء يروق غونثاليث أن يفعله أكثر من الاســـتجابة لمطالب غارسيا ماركيز المستمرة منه في تسهيل عودة كوبا إلى حظيرة

المجـــتمع الدولي، لكن غونثاليث وجد ممارسات كاسترو الدكتاتوري غير مقبولة - بل غير ملائمة أيضاً - في العالم الذي يتحرك فيه الآن، وانـــزعج باستمرار لما رآه مـــن عـــناد كاسترو المتأصل وعجزه عن التكيف مع النهج الذي يسير عليه العالم. (غـــنيّ عن القول إن كاسترو كان يزداد اقتناعاً بأن غونثاليث قد خان لاشتراكية العالمية).

في غـــضون ذلـــك كانت كوبا تمر بأحداث مثيرة. ففي أواخر سنة 1988، أرسلت ما تسمى "لجنة المئة" رسالة إلى كاسترو تدين فيها سياسات بلاده في مجال حقوق الإنسان، وتطالب بإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين: "في كانون الثاني 1989، يكـــون قد مرَّ عليك وأنت في الحكم ثلاثون عاماً من دون أن تكون حتى الآن قد أجريت انتخابات يقرر فيها الشعب الكوبـــي إن كان يرغب في أن تستمرّ في الحكم بوصفك رئيساً لجمهورية، ورئيساً لمجلس الوزراء، ورئيساً لمجلس الدولة، والقائد العام للقوات المسلحة. وسيراً على نهج تشيلي حيث تمكن الشعب بعد خمسة عشر عاماً من الدكتاتورية أن يعبر عن رأيه بحرية في مستقبل البلاد السياسي، فإننا بهذه الرسالة، نطالب بإجراء استفتاء عام كي يتمكن الكوبيون عن طريق الاقتراع الحر والسري من التوكيد، بكلمة نعم أو لا، موافقتهم أو عدم موافقتهم على بقائك في السلطة"[44].

حـــدث هذا بعد مرور تسعة أشهر على نشر غارسيا ماركيز صورته القلمية عن فيدل كاسترو المتحدث المحبوب والصديق الطيب لأصدقائه. كانت الرسالة قد وقعهـــا في باريس عدد كبير من المشاهير والمثقفين، بالرغم من أن مجموعة الأحرار (خـــوان غويتيـــسولو، وبلينيو ميندوثا، وماريو فارغاس يوسا) باتت مرة أخرى في مركـــز الحدث ومع الحلفاء الفرنسيين بصورة رئيسة. وكانت الدفعة الأولى كبيرة منذ قضية باديّا، علاوة على حافز آخر تمثل بأن الشيوعية كانت تترنح قبل سقوطها في أوروبـــا. و لم تكن الأسماء الأميركية مؤثرة على وجه الخصوص باستثناء سوزان ســـونتاغ، مـــثلما لم تكن الأسماء الأميركية اللاتينية مؤثرة بدورها (إذ خلت من كارلوس فوينتس وأوغستو روا باستوس، وغيرهما) لكن التحدي كان قويًّا بالرغم من ذلك.

لقد كانت الرسالة أخطر هجوم لفظي على كاسترو وكوبا منذ سنة 1971، وكانت حقاً أشدها تأثيراً، لأنها لم تكن تستند إلى حادثة واحدة أو مشكلة منفردة، بل إلى النظام السياسي الكوبي برمته، ووقعها عدد كبير من المثقفين المؤثرين الذين مهما أطلق المرء العنان لخياله لا يمكن له أن يصفهم بأنهم من الجناح اليميني. لقد كان عداء ريغان وتاتشر الشديد للشيوعية، المدعوم من البابا، والمسنود بلا حدود من استسلام غورباتشوف الفعَّال، قد بدأ يغير بسرعة المناخ الدولي، بل ويغير العالم في الوقت المناسب، وسيكون فيدل كاسترو واحداً من أكبر ضحاياه، وسيكون عام 1989 عام الرؤيا. ومما لا يصدق، أن غارسيا ماركيز كان وسط كل هذه السحب المتجمعة، يجلس معظم الوقت في هافانا يكتب رواية عن الأيام الأخيرة لبطل أميركي لاتيني آخر - الوحيد الذي يمكن أن ينافس كاسترو - ويعتقد بعض المؤرخين أنه تحول إلى دكتاتور في أواخر أيام حياته.

لا بد من أن الحوادث المخيبة للآمال في كوبا عززت رغبة غارسيا ماركيز في العودة إلى كولومبيا. وفي حين كان ماريو فارغاس يوسا قد بدأ حملته الدون كيخوتيه للرئاسة في البيرو، كانت الحكومة الكوبية تلقي القبض (في التاسع من حزيران) على الجنرال أورلاندو أوتشوا وتحاكمه وهو أعظم أبطالها العسكريين في حملة أفريقيا، تلك المغامرة التي سمحت تغطيتها لغارسيا ماركيز أن يقترب من فيدل وراؤول والثورة. وكان من بين الذين حوكموا أيضاً اثنان من أصدقاء غارسيا ماركيز، وهما العقيد طوني لا غوارديا، وهو جيمس بوند على الطريقة الكوبية وشقيقه التوأم باتريثيو. كان غارسيا ماركيز يومئذٍ في كوبا يدرس في مدرسة السينما. وقررت المحكمة أن المتهمين مذنبان بتهمة تهريب المخدرات، وبهذا فإنهما كانا يخونان الثورة الكوبية، وحكمت على أوتشوا وطوني لا غوارديا واثنين آخرين بالإعدام في الثالث عشر من تموز 1989، في حين حكمت على باتريثيو لا غوارديا بالسجن ثلاثين عاماً.

عند نهاية رواية **الجنرال في متاهته**، يهبط بوليفار إلى أدنى مستوى له ويبكي في نومه بعد أن تاه في المطر وسئم من الانتظار من دون أن يعرف السبب. وفي اليوم التالي، يتفادى أسوأ ذكرياته وهي إعدام الجنرال مانويل بيار في أنغوستورا قبل ثلاث

عشرة سنة. كان الجنرال بيار خلاسيا من كوراساو، رفض باستمرار سلطة البيض من ضمنهم بوليفار نفسه بالإنابة عن السود والمولدين، فحكم عليه بالإعدام لعصيانه الأوامر وتجاهل نصيحة أقرب أصدقائه. وجاهد لكبح الدموع و لم يتمكن من رؤية الإعدام. يعلق الراوي: "كان ذلك أشد أنماط استخدام السلطة وحشية في حياته، لكنه جاء في أنسب وقت في حينه أيضاً، لأنه رسخ به سلطته ووحد القيادة، وفتح الطريق لأمجاده"[45]. على امتداد تلك السنوات الأخيرة، ظل بوليفار ينظر إلى خادمه خوسيه بالثيوس ويقول: "سأفعل ذلك مرة أخرى". وهو ما قيل إن العقيد ماركيز تفوه به بعد أن قتل ميداردو باتشيكو في بارانكاس). ليست ثمة ضرورة على أي حال من الأحوال، كي يضع هذا المثال عن عمل يتسم بوحشية تامة، وقد نفّذ لأسباب تعود إلى الدولة في نهاية فصله ما قبل الأخير الذي يغدو، على نحو لا سبيل إلى تغييره، الدراما الأخيرة الكبرى، والفعل السردي الأخير في الرواية (وإن كان ذلك قبل نهاية حياة بوليفار بثلاث عشرة سنة فيظهر على نحو استرجاعي). إلاّ أن غارسيا ماركيز فعلها، إذ نرى مرة أخرى قدرته الاستثنائية على توقع أحداث كبرى وقد اقشعرّت لها الأبدان. لا بد من أن كاسترو قرأ هذا الفصل قبل أسابيع من اشتراكه في إصدار الحكم على مصير أوتشوا. هل تذكره وهو يتخذ قراره؟[46].

والآن، أعدم واحد من أقرب أصدقاء غارسيا ماركيز صديقاً آخر من أصدقائه المقربين. (أعلن كاسترو أن القرار ليس بيده). وقد تسبب الإعدام بألم ممضٍّ لغارسيا ماركيز، وحرج سياسي شديد، إذ ناشدته شخصياً أسرة طوني لا غوارديا أكثر من مرة. فوعد أن يتوسط لدى فيدل، وقد توسط، لكن من دون فائدة.

رحل غارسيا ماركيز عن كوبا قبيل تنفيذ الإعدام. وفي اليوم التالي، الذي نفذت فيه الإعدامات، كان غارسيا ماركيز مع صديقه ألفارو كاستانو في باريس حيث التقى هناك جيسي نورمان، ووزير الثقافة الفرنسي جاك لانغ الذي كان يعد الترتيبات النهائية لمناسبة مرور الذكرى المئوية الثانية على ثورة أخرى انتهت بأن أكلت أبناءها. وفي اليوم التالي، حضر غارسيا ماركيز مأدبة احتفالية للذكرى المئوية

الثانية لاقتحام سجن الباستيل، وكان يخشى أن يكون جلوسه بجانب مارغريت تاتشر ("عينا كاليغولا، شفتا مارلين مونرو"، بحسب وصف مضيفهم فرانسوا ميتران)، لكنه كان محظوظاً إذ جلس بجانب بناظير بوتو رئيسة وزراء الباكستان الجذابة، في حين ظهرت مارغريت تاتشر، وبحسب تعبير إحدى الصحف البريطانية، كأنها "شبح المأدبة"[47]، وكانت قد أعلنت "أن الثورة الفرنسية هي التي بشّرت بلغة الشيوعية". وفي اليوم التالي، وصل غارسيا ماركيز إلى مدريد وقال إنه شاهد فيدل كاسترو "في الأسبوع الفائت"، وأضاف بوهن أنه أخبر فيدل أنه "لا يناهض عقوبة الموت وحسب، بل يناهض أيضاً الموت نفسه". وقال إن إعدام أربعة من جنود الثورة "عمل مؤلم جداً، وحدث آلمنا كلنا". وأضاف أن لديه "معلومات جيدة جداً"، أن الرجال الذين قضوا حوكموا محاكمة عسكرية، وأعدموا بتهمة الخيانة وليس بتهمة تهريب المخدرات، وأن "تهمة الخيانة عقوبتها الإعدام في جميع أنحاء العالم"[48].

كانت العودة إلى كولومبيا جزءاً من استراتيجية غارسيا ماركيز الجديدة الطموح - هل تراه آثر الانكفاء أم تراه، كما يقول الفرنسيون، يعود القهقرى ليقفز قفزته نحو الأمام؟- لكن كولومبيا كانت تدخل في هذا الوقت مرحلة كابوسية جديدة ربما لم يسبقها مثيل على مدى تاريخها الطويل. ففي الثامن عشر من آب سنة 1989 لقي لويس كارلوس غالان المرشح الليبرالي الرسمي الآن، وأعظم السياسيين الكولومبيين شخصية منذ غايتان، المصير نفسه الذي لقيه سلفه عندما اغتيل في تظاهرة سياسية حاشدة في ضواحي بوغوتا على أيدي مهاجمين يعملون لمصلحة بابلو إيسكوبار. وكان رد فعل كولومبيا، التي اعتادت على مثل هذه الفظائع، الذهول واليأس الشامل[49]. مرة أخرى، لم يرسل غارسيا ماركيز أي رسالة إلى الأرملة غلوريا باتشون التي كانت أول صحافية تجري معه مقابلة صحافية لدى عودته إلى كولومبيا سنة 1966، لكنه صرّح في اليوم التالي أن البلاد "يجب أن تساند الرئيس باركو"، ثم ناشد علانية مهربي المخدرات" ألاّ يحولوا كولومبيا إلى بلد كريه لن يستطيع العيش فيه لا هم ولا أولادهم ولا أحفادهم[50].

كـــان هـــذا العام عاماً استثنائياً على الصعيد السياسي، ومع هذا، فإن أكبر الأحـــداث قاطـــبة يوشك أن يقع، وهو سقوط جدار برلين في التاسع من تشرين الـــثاني. وكما ألمحت مارغريت تاتشر، وكما توقع غارسيا ماركيز نفسه، يحتمل أن مـــئتي ســـنة مـــن تـــاريخ الغـــرب قد آلت إلى نهايتها. والآن، لم تعد وفاة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية والشيوعية نفسها بعيدة. وفي كانون الأول أسرَّ غارســـيا ماركيز إلى العالم "أن فيدل يخشى أن يتأثر اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية بالرأسمالية، مما سيؤدي إلى إهمال شأن العالم الثالث"[51]. من المؤكّد أن غارســـيا ماركيز لم ينقل المحتوى الحقيقي لأحاديثه مع كاسترو. وأضاف أن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ضروري ليوازن الولايات المتحدة الأميركية، وأنه إذا مـــا سحب دعمه المالي عن كوبا – هذا هو الشبح الكبير الذي يواجه الثورة – فسيكون ذلك "أشبه بحصار ثانٍ". وأقرَّ غارسيا ماركيز أن كوبا بحاجة إلى تحولات عميقة، بعضها بدأت حتى قبل ظهور البيريسترويكا بزمن طويل. لكن أعداء كوبا يواصـــلون معارضة دخولها مرة أخرى إلى عالمها الطبيعي – وهو أميركا اللاتينية – لأن الجماهير سترى في ذلك انتصاراً لفيدل كاسترو. لا بد من أن غارسيا ماركيز اعـــتقد أنه من حسن الحظ إعادة انتخاب فيليب غونثاليث وحكومته في إسبانيا في التاســـع والعشرين من تشرين الأول، وهو خبر جيد صغير في خضم بانوراما مثيرة للجزع.

رأى غارســـيا ماركيز أن جزءاً بكامله من التفكير التقدمي والعمل السياسي في العـــالم في طـــريقه إلى التلاشـــي. وستلي ذلك حقبة غير مسبوقة من التحول الاجتماعي. لكن في حين كانت لحظات التحول الكبرى في الماضي، بصرف النظر عن ارتباكها، ترافقها إيديولوجيات سياسية واجتماعية تفسرها، فإن كل شيء الآن أصـــبح مدفوعاً بدافع التحول الاقتصادي نفسه وما يرافقه من إيديولوجية العولمة. وفي الـــوقت نفـــسه، يمكن أن يبدو معنى هذا كله وقد ابتلعه التقدم التكنولوجي والإحيائـــي. من هنا لا بد من عودة ضرورية جداً إلى أصول الدين النابع من القلق ومـــن الخـــوف، بل وحتى من اليأس. فكّر غارسيا ماركيز في هذا لكنه لم يصرح بشيء عنه. لكن مهما حدث في العالم المادي، فإن غارسيا ماركيز سينطلق بحثاً عن

طـــريق بـــديل كـــي يظل متفائلاً، لأن ردّ فعله كان هكذا تجاه جميع اللحظات السوداوية. واليوم، يرى أن هذا هو واجبه تجاه كوكب الأرض.

-23-

عودة إلى ماكوندو

خبر كارثة تاريخية

1996-1990

كـــان العام 1989 أسوأ الأعوام قاطبة في تاريخ كولومبيا الحديث. ففي شهر آذار أصـــيب أرنـــستو سامبر، رئيس الجمهورية مستقبلاً، بعدة إطلاقات نارية في محاولـــة لاغتياله في مطار إلدورادو ونجا بأعجوبة. وفي أيار حاولت ميليشيات أن تفجـــر ميغيل ماثا ماركيز، قائد الشرطة السرية دي آي أس، ونجا بدوره بأعجوبة. وفي آب اغتيِلَ لويس كارلوس غالان من الحزب الليبرالي أمام الملأ. وفي أيلول لحق الـــدمار بمكاتـــب صحيفة الاسبكتادور إثر هجوم آخر، وتعرض فندق هيلتون في كارثاخيـــنا لقذف بالقنابل. كما هدد مهربو المخدرات حياة سيسّر غافيريا، بديل غـــالان وعضو الحزب التكنوقراطي، حالما أعلن عن ترشيحه[1]. وفي محاولة سابقة لاغتياله في تشرين الثاني، قذفت طائرة مدنية تعود إلى شركة الخطوط الجوية الوطنية أبـــيانكا بالقنابل مخلفة مئة وسبعة قتلى، لكن غافيريا لم يكن على متنها. وفي شهر كانون الأول، فُجرت قنبلة أخرى كبيرة أمام مبنى الشرطة السرية في بوغوتا، فلقي عـــشرات المارة مصرعهم. وهناك حوادث أخرى كثيرة مماثلة. لكن هذه الحوادث كانت شيئاً جديداً تماماً. صحيح أن عدد الناس الذين يموتون اليوم لا يزيد عن عدد الـــذين لقـــوا مـــصرعهم في ذروة أحداث العنف التي وقعت في خمسينيات القرن العـــشرين، لكـــن الغالبية العظمى من أولئك الذين قتلوا كانوا مجهولين في المناطق الـــريفية. حقـــاً، لقد كانت الشكوى التي قدمها الكثيرون في الماضي ضد النظام الـــسياسي الكولومبـــي، هي أن كل فرد يمكن أن يلقى مصرعه باستثناء مرشحي

الحزبين التقليديين؛ إلا إذا كان أولئك المرشحون (كما هي الحال في قضيتي غايتان وغالان) يهزون قارب الترضية الذي يبحر فيه كل حزب بالتناوب باتجاه انتصارات مريحة معدة سلفاً في مياه سياسية سلسة.

غـــير أن الاختلاف يكمن في واقع الأمر في المخدرات. فالأحزاب السياسية التقلـــيدية لم تعد تسيطر سيطرة تامة على زمام الأمور، لأن جزءاً كبيراً من الموارد الوطنية لم يعد ملكها لتوزعه بأي سبيل كان يحافظ على "استقرار" وضعها القائم. غـــير أن مصالح أخرى باتت اليوم في خطر، وبهذا، أضحت هناك أهداف جديدة. ففي الثالث من تشرين الثاني، أوردت صحيفة إكسيلسيور قول غارسيا ماركيز بأن مـــا يسمى "الحرب ضد المخدرات" (وهي العبارة المفضلة لدى الولايات المتحدة)، محكوم عليها بالإخفاق، استناداً إلى التصور الراهن[2]. وبدأ يحث على ضرورة البدء مـــن جديـــد بمباحثات تشارك فيها الحكومة والثوار ومهربو المخدرات، وإلاّ، فإن كولومبيا، بحسب تعبيره، سينتهي بها المطاف إلى أن تكون ضحية مخططات الولايات المـــتحدة الإمبريالية الموجهة إلى جميع أرجاء القارة، وذلك بشن معارك بالإنابة عن نفسها.

بعد ستة أسابيع لا غير، سيتمكن كل فرد من رؤية أن غارسيا ماركيز أظهر مرة أخرى أنه على دراية بنصف الكرة الأميركي. وفي أواخر كانون الأول، واتت الـــولايات المتحدة الشجاعة إثر سقوط جدار برلين، إذ بدلاً من أن ترتاح لذلك، غـــزت برئاسة جورج دبليو بوش باناما، وقتلت مئات المدنيين الأبرياء، وخطفت رئـــيس الجمهـــورية الأميركي اللاتيني (صنيعهم أنطونيو نورييغا) للمرة الأولى في الـــتاريخ. كـــان نورييغا دكتاتوراً على وجه التأكيد، وكان أيضاً رجل عصابات ومهرب مخدرات وابن عاهرة بكل معنى الكلمة (وكانت هذه كلها مبررات الغزو)، لكنه كان أيضاً رجلهم إلى ما قبل بضعة أشهر. وهكذا، رجعت الولايات المتحدة الأميركية إلى سياسة الغزو الخارجي في السنة نفسها التي اعترف فيها السوفيات أن غـــزوهم الكـــبير لأفغانستان كان خطأ. دان غارسيا ماركيز التدخل البانامي في صحيفة غرانما الكوبية (الحادي والعشرون من كانون الأول) بالرغم من استيائه من نوريـــيغا، لكـــن غرانما لم تكن مطبوعاً يحظى باهتمام سلطات الولايات المتحدة.

وكانـــت هناك العديد من الكتابات الجديدة على الجدران، كما كانت هناك أيضاً كتابات قديمة.

ســارت الأمــور في كولومبيا سنة 1990 مثلما سارت سنة 1989، ونشرت مجموعة من "الوجهاء" وكبار الشخصيات العامة، بدعم من رئيس الجمهورية باركو علــى ما يبدو، رسالة مفتوحة يقترحون فيها عقوبات "أقل قسوة" بحق مهربــي المخــدرات إذا ما أرادوا وضع حدّ لحملة العنف. فعرضت عناصر بارزة في كارتل مــيدلين أن توقــف حمّــام الدم وتُسلّم منشآت تنقية الكوكايين مقابل ضمانات حكومية. لكن، لم يوافق جميع مهربــي المخدرات على هذا العرض، فانهار. ثم لقي مرشــح ثــانٍ لرئاسة الجمهورية مصرعه وهو برناردو خاراميو عن حزب يونيون باتــريوتيكا (الاتحــاد الوطني) - وكان يعرف سابقاً باسم القوات المسلحة الثورية الكولومبــية (أف آي أر سي) - وذلك على أيدي كارتل ميدلين في أواخر شهر آذار. (كــان تنظــيم القــوات المسلحة الثورية الكولومبية (أف آي أر سي) أقدم التنظــيمات الــثورية، مؤسسوه من يسار الحزب الليبرالي إبان المراحل الأخيرة من حقبة العنف، ثم أسسوه ليكون الجناح المسلح للحزب الشيوعي في ستينيات القرن العــشرين. كمــا أنــه يُعتبر المنظمة الثورية ذات الجذور العميقة جداً في أوساط الفلاحين في بلد اشتهرت في مطلع القرن الحادي والعشرين بأنها ذات أكبر عدد من الفلاحين المشردين في العالم. وعندما حاول التنظيم أن يسلك الطريق الانتخابــي في ثمانينــيات القرن العشرين، خسر زهاء ألفين وخمسمئة مرشح وموظف اغتالتهم فــرق الموت التابعة للميليشيات المرتبطة غالباً بقوات حكومية. ومما لا يبعث على الدهشة، أن التنظيم عاد إلى حرب العصابات على نطاق شامل).

واتهمت المعارضة وزير الداخلية كارلوس ليموس سيموندس بالتحريض على اغتــيال خاراميــيو، فاســتقال. وفي أواخر شهر نيسان، لقي ثالث مرشح لرئاسة الجمهــورية مصرعه، وهو كارلوس بيثارو، الذي كان منتمياً إلى حركة أخرى من الحركات الثورية السابقة وهي أم - 19، وذلك خلال رحلة طيران داخلية، على يد مهــاجم استأجرته فرق موت مدعومة من الشرطة أو الجيش؛ بحسب اتهام شقيق بيــثارو. في غــضون ذلك دفع مهرب المخدرات البارز بابلو إيسكوبار مبلغ أربعة

آلاف دولار عن كل شرطي يتم اغتياله، فتفجرت القنابل في طول البلاد وعرضها وقتلت مئات الناس. وعندما جرت الانتخابات الرئاسية. فاز سيسَّر غافيريا رئيس الأركان السابق في حكومة غالان بنسبة 4.37 بالمئة من الأصوات، و لم يكن قد ذهب إلى صناديق الاقتراع سوى 45 بالمئة من الأربعة عشر مليون ناخب يحق لهم الانتخاب. وعندما عرض مهربو المخدرات تعليق حوادث العنف، رفضت الحكومة الجديدة العرض، إذ كان برنامج غافيريا يشتمل على الاستمرار في سياسة القمع ضد كارتلات المخدرات ومواصلة الإصلاح الدستوري.

في هذه اللحظة نفسها قرر غارسيا ماركيز أن يبذل مجهوداً آخر ليضع نفسه في كولومبيا. ولا بد من التساؤل إن كان قد فكّر في ذلك في مثل هذا الوقت الكئيب على المستوى الوطني لو لم تكن كوبا تثير حرجه سياسياً. وعندما تمكن من الوقوف على قدميه مرة أخرى وبدأ يرسخ من استراتيجيته السياسية الجديدة، فإن هدفه لم يعد متمثلاً بتحسين الثورة الكوبية، بل المساعدة على إنقاذ فيدل؛ من نفسه إن كان ذلك ضرورياً[3]. وابتدأ غارسيا ماركيز يقرّ في مناسبات عدة - وإن كان يطرح ذلك على أنه حدس طليعي - بأننا "في البدايات الأولى من مرحلة جديدة يصعب توقّعها"، ثم حدد على نحو ربما أقل إقناعاً، بأن هذه المرحلة الجديدة تبدو "محكوماً عليها بتحرير تفكيرنا"[4]. إلا أن الشيء الذي لم يعترف به هو أن هذا العهد الجديد جسَّد هزيمة كل شيء كان يعتقد به دائماً. وقرر ألاّ يبوح بمكنون صدره، بل أن يستفيد من كل ما يحدث وأن يتصرف كأن كل ما يجري كان يتطلع إليه. فالرجعيون، وفي مقدمتهم حكومة الولايات المتحدة، هم الذين لم يفهموا جسامة ما كان يحدث في العالم ونطاق الفرص التي تنتظر البشرية الآن. وقال إن ما يحدث يستدعي من الجميع إعادة النظر في معتقداتهم السياسية[5]. كانت تلك لحظة حاسمة في تفكيره.

هل يمكن للأمور أن تتحسن حقاً؟ لا، فقد ساءت أكثر بسرعة. ففي أواخر شهر شباط، وبعد بضعة أسابيع على حادث باناما، خسرت حكومة **الساندينستا** في الانتخابات بعد أن كانت قد فازت بالسلطة وتمسكت بها وهي بين أسنان المعارضة الأميركية، إذ صوت ضدها شعب تعب من الحرب وغدا متشائماً بشأن

المستقبل في قارة لا يزال يهيمن عليها عملاق الشمال. أصيب غارسيا ماركيز بالذهول، لكنه أفلح في القول إن **الساندينستا** ستفوز في الانتخابات المقبلة[6]. ولم يكن فيدل كاسترو ليندهش مما جرى في نيكاراغوا، لكنه لا بد من أن يكون قد شعر بخيبة أمل مريرة وخشي على مستقبل بلاده. والحقيقة هي أن أميركا اللاتينية باتت على وجه العموم أشد فقراً في أواخر ثمانينيات القرن العشرين مما كانت عليه في الستينيات، وكانت أغلب أقطارها غارقة في ديون ثقيلة. وكان يمكن مشاهدة التخلف الاقتصادي والظلم في كل مكان. لقد ساد الاعتقاد أن رواية **مئة عام من العزلة** شاهد على التأخر في تلك اللحظة نفسها التي كان يوشك فيها على الرحيل نهائياً بفضل ثورات عقد الستينيات. لكن ما حدث هو العكس، إذ بدت أميركا اللاتينية في أواخر عقد الثمانينيات وهي في طريقها عائدة إلى ماكوندو.

لاحق الصحافيون غارسيا ماركيز في كل مكان في كولومبيا، وهو أمر معتاد. كان قد بدأ الاشتغال على دراما تاريخية أخرى تدور حول العواطف الجنسية، ويكون عنوانها **الحب وشياطين أخرى**، وأشّر عودته بالإعلان عن أنه سيقتبس للتلفزيون الكولومبي قصة **ماريا** (1867) لخورخه إسحق، وهي أشهر قصة كولومبية وأكثرها شعبية قبل صدور **مئة عام من العزلة**. وكان من المقرّر أن تُعرَض في شهر تشرين الأول. وقال إنها تمثل تحدياً كبيراً ومسؤولية عظيمة، لكنها هي القصة التي كان يتطلع إليها كثيراً، وكان يأمل أن يجعل سيّدات البيوت في أميركا اللاتينية يجهشن بالبكاء بهذه النسخة التلفزيونية أكثر مما أجهشت بالبكاء جدات جداتهن – ومن ضمنهنّ جدةَ جدته – عندما كانت الرواية الأصلية في أحضانهن في سبعينيات القرن التاسع عشر. وصرَّح: "إن الحب أهم موضوع في تاريخ البشرية" – إذ كانت قصة **ماريا** أشهر قصة حب في تاريخ أميركا اللاتينية – "يقول البعض إن أهم موضوع هو الموت، لكنني لا أظن ذلك، لأن كل شيء يقترن بالحب"[7]. ما كان من شأن غارسيا ماركيز أن يكون أشد إيجازاً في نقل تطوره في ضوء مركز الجذب الموضوعاتي.

وبالرغم من تصريحاته بأنه "رجع" – وهو ما نظر إليه الكولومبيون بارتياب بعد أن سمعوه من قبل يردد ذلك مرات عديدة – إلا أنه سافر برفقة ميرثيديس إلى

تشيلي والبرازيل قبل العودة مؤقتاً إلى المرفأ الأمين في المكسيك. كانت زيارة غارسيا ماركيز إلى تشيلي لحضور احتفال تنصيب باتريثيو إيلوين في الحادي عشر من آذار، وهـــو أول رئـــيس ديمقراطي في تشيلي منذ سنة 1973. وأخيراً، استطاع غارسيا ماركيـــز أن يشعر بالسعادة وهو يشاهد بينوشيث وقد خسر في الانتخابات مثلما خسرت **الساندنيستا** (وإن لم يخرج من الحياة السياسية التشيلية).

وقـــد سبق أن رأى غارسيا ماركيز بينوشيث في واشنطن سنة 1977 عند توقيع اتفاقـــية قـــناة باناما خلال إضراب غارسيا ماركيز الأدبـــي (الذي كان بسبب تسلّم بينوشيث السلطة). وها هما الآن معاً في احتفال لا بد من أن الجنرال التشيلي شعر معه أنه أقل الاثنين ارتياحاً. (لقد ذُكِر في صحيفة الفايننشيال تايمز اللندنية على نحو مناسب تمامـــاً، أن بينوشيث أضحى الآن *ضائعاً في متاهته*)[8]. أهم تجربة جديرة بالذكر مرَّ بها غارســـيا ماركيز، هي اشتراكه في إعادة فتح منـــزل بابلو نيرودا في إيسلا نيغرا الذي أغلقـــه الدكتاتور على مدى سبعة عشر عاماً. وكان برفقته خوسيه دونوسو، وخورخه إدواردز، والشاعر نيكانور بارا، وإنريكي كوريا، والسكرتير العام للحكومة الجديدة.

في شهر آب، تبوأ غافيريا السلطة في كولومبيا بعد أن كان قد انتخب في شهر أيـــار، وله من العمر ثلاثة وأربعون عاماً، وكانت مبادرته السياسية الأولى اقتراحاً بتـــشكيل مجلـــس تأسيسي وطني لإصلاح النظام الحكومي - كان الدستور الحالي يـــرجع إلى رئيس البلاد الساحلي الوحيد رافائيل نونيث عام 1886- وهو ما كان غارســـيا ماركيز يريد لغافيريا أن يفعله بعد أن صرّح دائماً أن الدستور القديم ليس سوى دستور نظري. (في الرابع من أيلول، لقد تمّ التّساؤل في صحيفة البايس ببلاغة إن كان غارسيا ماركيز من "أنصار غافيريا"[9]. فكان رده: ليس الآن، لكنه سيكون مـــن أنـــصاره بعد حين). إنّ دستوراً جديداً من شأنه أن يعيد تعريف البلاد، وقد يـــؤدي إلى مستقبل مختلف تماماً. وعُرض اقتراح أن يكون غارسيا ماركيز مرشحاً للمجلـــس التأسيسي في السابع والعشرين من آب مهمته رسم الوثيقة الجديدة، مما جعـــل الـــصحافة تناقش مطولاً مشاركته المحتملة على مدى الأشهر القليلة المقبلة، وتستمتع كثيراً بالكشف عن تناقضات إنسان كان "صديق الدكتاتوريين"، وأنه لم يشارك في انتخابات طوال حياته.

بالرغم من بداية غافيريا البناءة، إلا أن مهربـــي المخدرات لم يتركوه في شهر عسله، واستمرت السياسة كالمعتاد في الشهر الأول من تنصيبه. وفي الثلاثين من آب اخـــتطف رجال العصابات العاملون لدى بابلو إيسكوبار الصحافية ديانا طربيه ابنة الرئيس السابق خوليو سيسَّر طربيه، وخمسة صحافيين آخرين. وفي الحادي والثلاثين مـــن آب، حـــاول رجال العصابات أيضاً اختطاف الصحافي في دار الإذاعة ياميد آمات. وستشمل هذه الحوادث وغيرها من القضايا المشابهة، الأساس لرواية غارسيا ماركيز الوثائقية **خبر اختطاف** التي صدرت بعد أربع سنوات، بالرغم من أن نموذج تلـــك الحوادث لم يكن واضحاً لديه في تلك اللحظة. وفي الثالث من أيلول، وجد العبارة الثانية من شعاره الجديد. كانت العبارة الأولى معروفة وهي: "الأزمنة تتغير وعلينا أن نتكيف". أما العبارة الثانية فكانت جديدة: "فيدل وحده هو الذي يمكنه أن يغـــير كوبا، لكن الولايات المتحدة تريد دائماً غولاً"[(10)]. إنها عبارة ذكية حقاً، لكن المشكوك فيه هو أن يكون فيدل قد استشير في موضوع الحاجة إلى تغيير كوبا. مـــن المؤكد أنه لم يكن يتفوه علانية بهذا الكلام، لكنه سرعان ما سيدرك أن تيتّم كـــوبا الاقتـــصادي من دون الاتحاد السوفياتي، والحصار الذي لا تزال الولايات المـــتحدة تفرضـــه عليها، وما يسمى "بالمرحلة الخاصة" من التقشف الذي ليس له نظير، كلها أمور لا بد من أن تعلن قريباً.

في العـــام 1991 طـــور غارسيا ماركيز عمليته الكولومبية وأكد عزمه طويل الأمـــد علـــى أن يقسم حياته بين المكسيك وكولومبيا وذلك بأن عيّن مارغريت ماركيـــز، ابنة خاله الراحل خوان دي ديوس، سكرتيرة له في الشقة الفسيحة التي اشـــتراها هـــو وميرثيديس في بوغوتا كي يرجعا إليها رجوعهما الأسطوري. لكن شـــهر زيـــارة غارسيا ماركيز الأخيرة كان شهراً عنيفاً أيضاً. فقد أُخذت مارينا مونـــتويا، وهـــي جدة، من بين الرهائن الذين خطفهم إيسكوبار، وقُتلت. حاول الجيش أن ينقذ ديانا طربيه في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني، لكـــنها قُتلت في أثناء محاولتها الهروب من خاطفيها، مما حفز غارسيا ماركيز على الحـــديث علـــناً وهـــو المعروف بتردده في إطلاق التصريحات المؤيدة للحكومات الكولومبـــية. فقد قال في مقابلة إذاعية في السادس والعشرين من كانون الثاني إن

أولئك المعرضين للاعتقال والإبعاد إلى الولايات المتحدة لغرض محاكمتهم[*]، ينبغي لهم أن "يحترموا حياة الصحافيين"[11]. وفي السادس من آب، أطلق سراح الرهينة بياتريث بياميستار، لكن ماروخا باتشون، وباتشيتو سانتوس وهو عضو في أسرة صحيفة التيمبو (ونائب رئيس البلاد مستقبلاً) ظلاَّ في الأسر. ولزيادة الطين بلّة، فقد كانت هناك نشاطات مكثفة لرجال العصابات في أطراف بوغوتا نفسها. في غضون ذلك، أصدر رئيس الجمهورية غافيريا بياناً في الولايات المتحدة أعلن فيه أنه لا يزال يفضل، بعد أن أخذ كل شيء في الاعتبار، تسليم مهربي المخدرات إلى حكوماتهم، وهذا يعني أن مستويات العنف الراهنة ستتواصل بل ستتزايد أيضاً. بدت الأوضاع حرباً حتى الموت بين كارتلات المخدرات والمجتمع المدني.

عاد غارسيا ماركيز إلى المكسيك في شهر تموز في زيارة قصيرة ليلتفت إلى شؤونه والتزاماته فيها، لكن قبل سفره، كان رئيس الجمهورية غافيريا، الذي ربما أصغى إلى غارسيا ماركيز، قد فاوض بابلو إيسكوبار وتوصل معه إلى صفقة مثيرة لكنها تثير جدلاً عميقاً، سلَّم بموجبها سيد المجرمين نفسه لقاء حكم مخفف وظروف سجن مريحة؛ ليس في الولايات المتحدة كما كان يخشى كل مهربي المخدرات، بل قرب مسقط رأسه في مدينة ميدلين. وصف غارسيا ماركيز الاتفاق الذي سيدينه اليمين الكولومبي والولايات المتحدة على أنه "انتصار الذكاء". وأوضح أن الولايات المتحدة الأميركية نفسها ذات تاريخ طويل في التفاوض مع العصابات عندما تكون هناك أسباب ظرفية للتفاوض[12]. إنه لمن الصعب تأييد كل السبل والمناورات المؤلمة التي تضطر سياسة الحكومة إلى اتخاذها على مدى السنوات الثلاث المقبلة، لكن غارسيا ماركيز سيبذل قصارى جهده في المساعدة.

وسيكون غافيريا مفيداً له. فعندما رجع غارسيا ماركيز إلى كولومبيا، كان لديه عمل ضروري يهتم به، وسيظهر لكل المتشككين – وهناك الكثيرون منهم – أنه ملتزم، لا بالعودة إلى البلاد على أساس المدى الطويل وحسب، بل المشاركة أيضاً في الحياة السياسية. وكان قد قرر أن يشتري بالمزايدة نشرة أخبار تلفزيونية مسائية بعنوان "كاب" (وهي كلمة عامية يلجأ سواق سيارات الأجرة إلى استعمالها دلالة على الاستعداد، أو في خدمتك، أو جاء دورك في الحديث). كانت الفكرة

لإنريكي سانتوس كالديرون. وكان من بين الصحافيين الآخرين المشاركين كل من ماريا ألفيرا سامبر وماريا إيزابيل رويدا. أما خوليو أندرياس كاماتشو، صاحب مجلة كروموس، فكان حامل أسهم بالغ الأهمية شأنه شأن غارسيا ماركيز (بالرغم من أنه سيدعي لاحقاً أنه ليس سوى روح المشروع). و لم يكن هناك ما يبعث على الدهشة عـــندما منحت حكومة غافيريا "كاب" رخصة للبدء بالإذاعة في الأول من كانون الثاني سنة 1992.

في غـــضون ذلك، كان غارسيا ماركيز وميرثيديس يُظهران التزامهما بالعودة الكـــبرى بأكـــبر قدر ملحوظ. فبعد أن ابتاعا الشقة في بوغوتا اختارا موقعاً لبيت جديـــد في كارثاخينا في مواجهة البحر قرب أسوار المدينة القديمة وبجوار دير سانتا كـــلارا المهجـــور الـــذي يعـــد واحداً من أجمل مباني المدينة التي ترقى إلى عهد الاستعمار. وتقرر أن يترأس المشروع المهندس المعماري الرائد في كولومبيا روخيليو سالمونا الذي سبق له أن كان مصدر عون لغارسيا ماركيز في باريس سنة 1957. لم تعد كوبا في مقدمة أولويات غارسيا ماركيز كما يبدو، أو في الأقل، قرر أن يجعلها تبدو وكأنها لم تعد في مقدمة أولوياته.

في آب سنة 1991، وكجزء من عمل غارسيا ماركيز المستمر في التكيف مع انتصار العالم الرأسمالي الليبرالي، دخل الولايات المتحدة بتأشيرة دخول اعتيادية للمرة الأولى مـــنذ سنة 1961، إذ أدت القوانين الجديدة بشأن الشيوعية والهجرة إلى رفع اسمـــه في نهاية المطاف عن لائحة المنع. لقد ظل ينتظر ثلاثين سنة من أجل الحصول على تأشيرة اعتيادية، وها هو الآن يدخل البلاد ليفتتح مهرجان نيويورك السينمائي الذي ينعقد من السادس عشر وحتى الثلاثين من شهر آب. لقد أزعج المنع غارسيا ماركيز أكثر مما كان على استعداد للاعتراف به. أولاً، وكما هي حال معظم الناس في مـــنطقة الساحل، ليس أقلّهم بقية أعضاء جماعة بارانكيا، لم يشعر قط بكراهية عميقة تجاه الولايات المتحدة الأميركية، أو باحتقار متكبر لثقافتها، وهو الأمر الذي كان يشارك فيه العديد من الأوروبيين لا سيما الفرنسيين (ولم يكن فيدل كاسترو أيضاً، ويا للمفارقة، منحازاً ضد الشعب الأميركي وثقافته، وما عشقه طوال حياته للعبة البيسبول إلا أحد الأمثلة على ذلك).

حقـــاً، إن اعتراضات غارسيا ماركيز على الولايات المتحدة الأميركية كانت في مجملـــها اعتراضات سياسية بطبيعتها. وتنبه بسرعة إلى أن قرّاءه من الأميركيين كانـــوا أكثر حماسةً من قرائه الأوروبيين، وأقل انـــزعاجاً بكثير، ويا للعجب، من مواقعه خارج الحدود الأدبية. وكانت ترجمات كتبه إلى الإنكليزية تباع بشكل جيد دائمـــاً وتحظى بإعجاب النقاد، وكان المترجمان الرئيسان لمؤلفاته، وهما غريغوري راباســـا وإيـــدث غروسمان، أميركيين. وفي الأعوام الأخيرة كان متلهفاً لإقامة أي روابـــط يستطيع إقامتها مع صناع الأفلام الأميركيين التقدميين وبخاصة فرانسيس فورد كوبولا، وروبرت ريدفورد، ووودي آلن[13]. كما بدأ يعجب بمدينة نيويورك كـــثيراً الآن وهو يزورها بوصفه سائحاً بارزاً وليس تحت حصار دائم من الكوبيين المناهـــضين للثوار. لهذا، ارتاح ارتياحاً كبيراً عندما أضحت حالته اعتيادية. وعندما كان في نيويورك، حدثت المحاولة الانقلابية ضد ميخائيل غورباتشوف في موسكو، ممـــا أدى بعد ذلك إلى سقوط الزعيم السوفياتي في شهر كانون الأول، وبالتالي إلى تفكـــك اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية. شاهد غارسيا ماركيز الأحداث علـــى شاشة التلفزيون في غرفته في الفندق في نيويورك، ولم يناقش هذه التطورات وتطـــورات أخـــرى سواها إلاّ مع بعبعه السابق، وزير خارجية الولايات المتحدة الأســـبق هنـــري كيسنجر؛ الذي لم تكن هناك شخصية مكروهة أكثر منه سوى شخصية بينوشيت[14]. وكانت كوبا على رأس جدول المناقشات.

في أواخـــر فـــصل الخريف، عاد غارسيا ماركيز إلى إسبانيا، المستعمر الأولي لقارة أميركا اللاتينية، بعد أن توصل إلى السلام بينه وبين الولايات المتحدة. وكان العام 1992 يقترب بسرعة كبيرة، واقتربت معه احتفالات الذكرى المئوية الخامسة لمـــا يسمى "اكتشاف العالم الجديد". وثبطت عزيمة الإسبان الذين لم يدركوا دوماً كـــلّ الإدراك مـــدى اتّساع نطاق وصايتهم التي سيشعر بها الأميركيون اللاتينيون بخاصـــة عندما تزاحموا للإعلان عن أنهم لم يكونوا محتاجين إلى "اكتشاف"، فشكراً جـــزيلاً لكـــم – فقد اكتشفوا هم أو أمهاتهم وأسلافهم الهنود أنفسهم قبل قرون عديـــدة من الزمان – ولم يكن من الواضح لهم، بأيّ وسيلة من الوسائل، أن مجيء الإســـبان إلى ما أسموه خطأ "جزر الهند"، سنة 1492، كان سبباً للاحتفال، فأعاد

الإسبان بعجالة ما أسموه تسمية الحدث القادم باسم الذكرى المئوية الخامسة "للقاء العالمين". كان غارسيا ماركيز واحداً من أكبر المتشككين، إلاّ أنه لا بد من أن يكون قد ابتهج سراً بالمستقبل، فقد كان صديقه فرانسوا ميتران في السلطة في أثناء الاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية. واليوم صديقه الإسباني فيليب غونثاليث في السلطة لتنظيم الاحتفال بنصف الألفية على وصول أوروبا العالم الجديد.

وبما أن غارسيا ماركيز يتوافق دوماً مع التاريخ، فقد بدأ يشتغل في مشروع أدبي ملائم لهذه المناسبة. فمنذ ستينيات القرن العشرين، وبمعنىً من المعاني، منذ أن عاش حقاً في أوروبا في أواسط خمسينيات القرن العشرين، كان يلهو بقصص تنقل تجربة مغايرة للتجربة التي يحتفل بها الإسبان، وهي وصول الأميركيين اللاتينيين إلى أوروبا ومواجهة ما نظروا إليه على أنه ثقافة غريبة بالرغم من كل شيء. بمعنىً ما، هذا هو ما كان يتحدث عنه مؤخراً بخصوص هجرة ذوي الأصول الإسبانية إلى الولايات المتحدة، وهو ضرب من ضروب الاستعمار العكسي الرمزي؛ ربما يذهب القول بالبعض إلى عودة المضطهدين، ووضع الخطوط العريضة لعشرات الحبكات على امتداد سنوات، وها هو الآن قد قرر اختيار أفضلها، تلك التي بقيت، بعد غربلته الأخيرة، لإنتاج مجموعة قصصية يمكن أن تصدر سنة 1992. وقد ظهرت بعض تلك القصص بين عامي 1980 و1984 عندما قدّم قصصاً يمكن أن تشتمل عليها هذه المجموعة القصصية الجديدة، تماماً مثلما كتب يوميات تتحول في نهاية الأمر إلى نصوص سينمائية لسلسلة قصص حب صعبة. لم يكن غارسيا ماركيز في عجالة من النشر، لكن من جهة أخرى، لم تضع منه فرصة للنشر أيضاً، إذ ظلت العديد من المشاريع متواصلة على مر العقود الزمنية، ولكنها وجدت نفسها في شكل فني - وفي شكل كتاب - في نهاية المطاف وفي اللحظة المثالية في أغلب الأحيان. وهكذا أخَّر إكمال روايته الجديدة **الحب وشياطين أخرى**، كما أخّر نشرها والتفت إلى قصصه المستوحاة من أوروبا.

سافر إلى برشلونة حيث أصبح يملك الآن شقة فخمة في شارع باسيو دي غراسيا، إحدى أرقى المناطق في المدينة، وفي مبنىً أعاد تأهيله المعماري المشهور

ألفونس ميلا. ثم سافر بعد ذلك إلى مختلف أنحاء أوروبا، كأنه يريد بذلك أن يعلن حقـــه في الأراضي التي كانت إمبريالية يوماً ما، والتي كانت بعض أجزائها تستعيد المغامرات فيها. وزار سويسرا والسويد من بين دول أخرى. وكان السبب الأساس وراء هـــذا كلـــه، هـــو أنه قرر أن يطلق على مجموعته القصصية الجديدة العنوان Cuentos Peregrinos. المعنى الأول لكلمة peregrinio الإسبانية هو الاسم pilgrim أي **مهاجر**، لكن هناك معنىً آخر يأتي صفة وهو "غريب" أو "مدهش" أو "دخيل". لهذا، فإن عنوان الترجمة الإنكليزية يكون Strange Pilgrims أي مهاجرون غرباء، لأن غارســـيا ماركيز نفسه كان مهاجراً دخيلاً غريباً، لا يشعر بالانتماء السياسي لهذا العالم بقدر ما يشعر بالتصميم على أن يمضي قدماً ويفكّر تفكيراً إيجابياً؛ أو في الأقـــل يتكلم. غير أن مشروع قصصه القصيرة اختزل الآن إلى خمس عشرة قصة، لكن زيارته إلى أوروبا، التي كان القصد منها أن تكون رحلة استجمام لآخر لحظة، ورحلة عاطفية أكثر مما هي تحديث معلوماته عنها، وضعته في موضع يدعو للهلع. فأوروبـــا الـــتي يتذكـــرها هي ليست أوروبا الحاضرة اليوم، كما لم يعد أي من الأوروبـــيين اليوم غارقاً في قراءة كتابه، فدوّن ملاحظات على عجل، ثم خصص الأشهر القليلة التالية لتنقيح الكتاب الجديد تنقيحاً شاملاً، وهو الذي كان قد وعد وكيله وناشره أن يكون جاهزاً للصدور، مع معرض أشبيلية في تموز المقبل.

مما يبعث على الحزن أن كوبا بدأت سنة الذكرى المئوية الخامسة بإعدام آخر، وهو إعدام إدواردو دياث بيتانكورث المتمرد الغازي. طالب غارسيا ماركيز بالرأفة علانية، وهو ما طالب به زعماء آخرون من ضمنهم زعماء دول يتعاطفون مع كوبا تعاطفـــاً كبيراً، لكن بلا طائل[15]. فقد أوضحت السلطات الكوبية أن ردع الثورة المـــضادة والإرهاب في ظل ظروف كوبا هو قضية حياة أو موت. واجتمع المثقف المكسيكي الكبير الشاعر أوكتافيو باث، واليميني الأميركي اللاتيني في يوم مشهود في الهواء الطلق، فاضطرّ غارسيا ماركيز إلى أن يتدافع بالمناكب ليبرر علاقته بالزعيم الكوبـــــي، بأن أوضح دوره في العفو عن السجناء وإطلاق سراحهم. ولم تضعف شـــعبيته، وبخاصة في أوساط الجماهير الأميركية اللاتينية. وعندما ظهر للعيان لفترة قـــصيرة في شـــهر شباط في مؤتمر جامعة المكسيك الوطنية المستقلة على بعد بضعة

شوارع من منـــزله، وقف له جميع الحاضرين حال دخوله القاعة وصفقوا له تصفيقاً حاداً لمدة دقيقتين[16]. لم يكن غارسيا ماركيز من بين المشاركين في المؤتمر، لكن، هكـــذا كانت الأمور تجري معه حيثما تطأ قدماه. تاريخياً، لم تكن أميركا اللاتينية قارة فائزين، لكن غارسيا ماركيز كان بطلاً عالمياً لا يقهر ولا يضاهيه أحد.

إلاّ أن الـــبطل انكفأ فجأة أمام عدو غير متوقع. لقد كان يشعر بالتعب منذ بعـــض الـــوقت، بل وجد على حين غرة، مشقة في التنفس لدى رجوعه إلى هواء بوغـــوتا القلـــيل، فقرر إجراء فحوصات طبية. وهنا وجد الأطباء ورماً على بعد ســـنتيمتر واحد من رئته اليسرى سببه على وجه التأكيد، التبغ الأسود الذي كان يتنشقه طوال تلك السنين أمام كل الآلات الكاتبة. اقترح عليه الأطباء إجراء عملية جراحية. وأخبر رجال الصحافة أن فيدل كاسترو وكارلوس ساليناس اتصلا به قبل إجـــراء العملـــية الجراحية متمنّيَين له الصحة والعافية. وعرض عليه كاسترو طائرة خاصة تقله إلى كوبا مع طبيبه الخاص، وعبَّر ساليناس عن أسفه لعدم رجوع غارسيا ماركيز إلى المكسيك لتلقي العلاج. لكن غارسيا ماركيز وعده أن تكون المكسيك أول محطـــة يتوقف فيها بعد أن يتماثل للشفاء. كان في وسعه أن يختار بين الذهاب إلى كـــوبا أو المكسيك أو الولايات المتحدة، لكنه قرر أن تجرى له العملية الجراحية في كولومبـــيا. لم تكشف الفحوصات الطبّية عن وجود أي انتشار ثانوي للمرض، وكُـــتب للعملـــية النجاح الباهر، إذ لم يشعر بصعوبات في عملية التنفس، وكانت إمكانيات النجاح ممتازة، وقيل إنه كان في أفضل حالاته المعنوية.

كـــان غارســـيا ماركيز يهاب الموت طوال حياته، ولهذا، كان يخشى المرض أيضاً. ومنذ أن أصبح مشهوراً، بدأ يصغي بعناية إلى الأطباء، فيتبع نصائحهم كلها تقـــريباً بخصوص الحياة الصحية. والآن، وبعد كل هذه الاحتياطات، داهمه المرض، ولـــيس هناك ما يدعو للهلع أكثر من سرطان الرئة. لكنه أثار دهشة نفسه ودهشة أولئك الذين عرفوه، فقبل التحدي القائم وأصرَّ على معرفة كل الحقائق عن المرض، والتقديـــرات عما قد يحدث، حتى تباهى أخيراً بالقول: "لقد تحكمت بنفسي"[17].

كـــان يفترض به أن يتمتع براحة تامة لمدة ستة أسابيع، لكن، أُعلن في العاشر من حزيـــران أنه سيحضر معرض أشبيلية في تموز، كما كان مقرراً، لا لتدشين الجناح

الكولومبي وحسب، بل لإطلاق كتابه الجديد أيضاً. أصبح من المعلوم الآن أن الكتاب يضم اثنتي عشرة قصة، وأنه جاهز.

استحوذ غارسيا ماركيز على كل شيء في معرض أشبيلية، فقد أصبح سيد جناح المعرض الكولومبي إثر وصوله إلى المدينة الأندلسية، بالرغم من أنه سبق له أن صرَّح في مدريد بأنه لن يكون في أشبيلية "جناح ماكوندو"[18]. (كانت ماكوندو كلمة لم يستعملها منذ سنين، وأصبح ذكرها اليوم علامة على أحداث مقبلة). وكما حدث في مدريد، فقد أعلن غارسيا ماركيز في كل فرصة متاحة عن كتابه الجديد **مهاجرون غرباء** الذي طبعت منه خمسمئة ألف نسخة. وحيثما كان يذهب، تلاحقه الجماهير مطالبة بتوقيعه. وعندما كان السياسي الكولومبي والمرشح لمنصب رئاسة الجمهورية لاحقاً هوراثيو سيريا، ينتظر لدخول الجناح الكولومبي، سمع اثنين من الإسبان يتبادلان الحديث حول صورة لغارسيا ماركيز على يافطة تعلن عن الذكرى الخامسة والعشرين لصدور رواية **مئة عام من العزلة**:

– من صاحب هذه الصورة؟

– آه. إنه دكتاتور كولومبيا، وقد مضى على وجوده في السلطة خمسة وعشرون عاماً[19].

الحق أن تلك هي المرة الأولى التي حضر فيها غارسيا ماركيز لإطلاق كتاب من كتبه. وعلى كل حال، كان العام هو 1992، وفي اليوم الوطني الكولومبي، وكان لا بد لرجال الشرطة من التدخل للسيطرة على الجماهير. وقام غارسيا ماركيز مقام رئيس الجمهورية لمدة يوم واحد، لأن بابلو إيسكوبار هرب من السجن فألغى غافيريا رحلة كانت مقررة إلى إسبانيا. وهكذا، وجد الفائز بجائزة نوبل نفسه وهو يفتتح معملاً كولومبياً للقناني الزجاجية في مدريد.

إنّ مجموعة قصص **مهاجرون غرباء**، هي أول مجموعة من القصص التي كتبها غارسيا ماركيز تدور أحداثها خارج أميركا اللاتينية، وتنطوي جميعها على مسحة من السيرة الذاتية إلى حدٍّ ما. يقول المؤلف في مقدمته للمجموعة إن جميع القصص ما عدا اثنتين منها (وهما قصة **أثر دمك على الثلج** وقصة **صيف الآنسة فوربس السعيد** (اكتملت كتابتها في نيسان 1992 بالرغم من أنها بدأت كلها بين 1976

وكانون الثاني 1982. بمعنى آخر، إنها بدأت خلال المرحلة الزمنية التي كان غارسيا ماركيز يشتغل في صحيفة التارناتيفا وعزم على ألاّ ينشر أي مادة أدبية إلاّ بعد سقوط بينوشيت من سدة الحكم في تشيلي. استعادياً، يبدو من قبيل الدهشة أن يكتب غارسيا ماركيز هذه الابتكارات السطحية المهلهلة، في وقت كان منهمكاً فيه كلّ الانهماك مع فيدل وراؤول كاسترو، ويكتب المقالات السياسية الهجائية الملتزمة ضد الولايات المتحدة والطبقة الحاكمة الكولومبية.

إنّ القصص غير مرتبة ترتيباً قابلاً للإدراك أو التمييز، سواء من حيث تسلسلها الزمني أو موضوعاتها. إنّ القصة الأولى: **رحلة موفقة سيدي الرئيس**، التي تروى بضمير الغائب، مفضلة لدى عدد كبير من القراء، وتدور أحداثها في جينيف في خمسينيات القرن العشرين، وهي المدينة التي زارها غارسيا ماركيز أول مرة في العام 1955 بعد هبوطه في باريس مباشرة. بطل القصة، وهو رئيس جمهورية بيورتو سانتو الكاريبية سابقاً، يعود من المنفى من جزر المارتينيك لإجراء فحوصات طبية في سويسرا. إن هذه القصة، شأنها شأن القصة الأخرى **ماريا دوس براثيريس**، وشأن روايته الأخيرة **ذاكرة غانياتي الحزينات**، تحكي حكاية رجل يكتشف أن أفضل شيء هو نسيان الموت. إذاً، هي قصة ربما تلائم المؤلف في المراحل النهائية لإعداد المجموعة. فأمامنا أحد أبناء الطبقة الحاكمة، هو آسر، ولكنه كثير السخرية، يفوز على اثنين من البروليتاريين مبرراً ما لجأ إليه من وسائل بالقول: "إنها أكاذيب. فإذا كانت تخص رئيساً، فإن أسوأ المخازي يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة في الوقت نفسه".

لقد قرر غارسيا ماركيز أن يمضي صيف المئوية الخامسة في أوروبا بعد إقامته الإلزامية في بوغوتا. هجرة غريبة. غزو معاكس. قال كل من التقاه إنه بدا مدهشاً. وصرَّح: "لقد انتزع الأطباء الأشياء العليلة من داخلي وحسب"[20]. ثم قفل راجعاً إلى المكسيك. وفي السادس من تشرين الثاني بلغت ميرثيديس الستين من العمر، وأفادت تقارير أنها تلقت باقة ورد كبيرة من رئيس الجمهورية ساليناس لمناسبة ذكرى مولدها[21]. وكان لديها صف هائل من المعجبين وسط رجالات السلطة وأصحاب النفوذ، كثير منهم حسد غارسيا ماركيز على رفيقة أظهرت – من دون مباهاة – مثل هذه السجايا المختلفة، كالرأي السديد، والدعم المتواصل. كانت

دبلوماسية بكل معنى الكلمة. ولم يكن هذا إلاّ بعد أن سُئل زوجها عما يتوقعه في القرن الحادي والعشرين، فردَّ بالقول إنه يعتقد أن على النساء أن يأخذن بزمام العالم لإنقاذ البشرية[22].

لمواصلة تعديلاته الدبلوماسية، اتخذ أول خطوة سياسية ضد ممثلي اليسار الكولومبي: رجال حرب العصابات في البلاد. فوقّع رسالة إلى صحيفة التيمبو في الثاني والعشرين من تشرين الثاني، تضم لائحة بأسماء عدد كبير من المثقفين الكولومبيين، من ضمنهم الرسام فيرناندو بوتيرو. كانت الرسالة أصلاً تدعم قرار غافيريا الأخير بشن حرب شاملة على رجال العصابات الذين لم يُظهروا أي اهتمام بمبادراته السلمية[23]. وكانت نتيجة ذلك بلا ريب، ترك رجال العصابات يشعرون بالعزلة، وبخاصة عن "مثقفي البوجوازية الصغيرة"، وجعلهم بالتالي يتبنون خطاً أكثر تشدداً استمر حتى يومنا هذا. كان القرار قراراً كبيراً بالنسبة إلى غارسيا ماركيز، إلا أنه بلا شك ينسجم وقرارات أخرى سبق له أن اتخذها نتيجة سقوط جدار برلين. لعل أكثر ما كان يأمل فيه، هو أن يحظى بوقت أكثر هدوءاً في أعقاب مرضه، ولم يكن يرغب في أن يُدفع دفعاً لتأييد من يتعذر تأييده، إذ لم يعد يملك التأثير الذي كان يملكه في اليسار الكولومبي حتى تلك اللحظة. كما أن اليسار الكولومبي نفسه لم يعد له ذلك التأثير الذي كان يملكه من قبل. أخيراً، راجت شائعات وانتشرت انتشاراً واسعاً تفيد أنه سيبتعد عما قريب عن كاسترو أيضاً؛ فبالرغم من كل شيء، كان فيدل مؤسس ورمز معظم حركات الثوار التي اكتسحت أميركا اللاتينية منذ بواكير عقد الستينيات. لكن غارسيا ماركيز سخر من الشائعات، فهو لن يتخلى عن فيدل[24].

لقد فك ارتباطه عن رجال حرب العصابات في اللحظة نفسها التي كان يوشك فيها رئيس جديد على دخول البيت الأبيض في واشنطن. وقد أفادت تقارير أن بيل كلنتون، أول رئيس ديمقراطي منذ اثني عشر عاماً، كان "قارئاً متحمساً لمؤلفات غارسيا ماركيز. ربما بدت الأمور تبشر بالخير له أخيراً: كما تداولت التقارير كثيراً أن أسرة بوش لا تملك كتباً في منزلها وأنها تفضل مشاهدة التلفزيون عوضاً عنها.

مكث غارسيا ماركيز في كارتاخينا. وفي الحادي عشر من كانون الثاني شوهد في صورة نشرتها صحيفة الاسبكتادور في حلبة مصارعة الثيران يتحدث إلى أوغستو لوبيث بالنثيا رئيس شركة خوليو ماريو سانتو دومينغو متعددة الجنسيات في بافاريا[25]. لم تُعلّق الصحيفة بأي تعليق ولم توضح سبب اللقاء. لقد كان غارسيا ماركيز في ما مضى من الزمان يتأكد من أن مثل هذه اللقاءات إما أن تظل قيد الكتمان أمام العالم، أو يقدم تفسير لها من ضمنها اكتشاف أمرها مصادفة. لكن الأمر لم يعد هكذا بعد الآن، فقد أضحى بدوره في العالم البورجوازي وكان مُهيأً للالتزام باقتصاد السوق. كما أنه عارض، بوصفه اشتراكياً، أعمال الإحسان معارضة مبدئية (وإن كان كريماً بماله، في السر، مع أفراد يحتاجون إلى من يساعدهم من دون أن يجذب الاهتمام إلى ذلك أبداً)، لكن في ظل غياب أي شكل من أشكال الدخل لقضايا يعتقد بها، فإنه تحول إلى ظاهرة بدأت تعود إلى العالم الغربي على نطاق لم يشهده أحد منذ آخر انتصار كبير حققته الرأسمالية الاحتكارية في زمن "العصر الذهبي" الأميركي أواخر القرن التاسع عشر: الصدقة العامة (إذ سيؤلف بيل كلنتون نفسه كتاباً عن "الهبة")[26]. كان مضطراً إلى إدارة مؤسسة كوبية للسينما، وبدأ يفكّر في مشروع آخر مماثل باهظ التكاليف: معهد للصحافة، فقد وضعت الحرب الاشتراكية المكشوفة، المسلحة والثقافية، أوزارها، والصراع الطبقي معلق أو معطل، كما أمسى واثقاً من أن حرب المراكز الثقافية والسياسية - والتصرف تصرفاً تقدمياً قدر الإمكان بحسب الظروف - هي كل ما يمكن أن يتطلع إليه. وبهذا أضحى يشجع الأغنياء والمشاهير وأصحاب السلطة بدأب ومثابرة أكثر من ذي قبل.

وكجزء من إعادة تحديد الهوية الذاتية الدبلوماسية، سمح لاسمه بأن يرسل إلى منتدى الفكر التابع لليونسكو، أو منتدى "الحكماء" المؤلف من واحد وعشرين شخصاً، كما أسمته الصحافة الكولومبية، لمناقشة المشكلات المتزايدة ضمن ما يسمى "النظام العالمي الجديد"، في وقت كانت فيه اليونسكو تتعرض لنقد شديد من الولايات المتحدة الأميركية بدلاً من العمل الفعال. لقد كان الاعتقاد السائد أن الكلام خطر في بيوت السلطة في الغرب الليبرالي للمرة الأولى منذ عقود من الزمن،

منذ مجيء تاتشر وريغان إلى السلطة. الكلام يسبب المتاعب ولا يشارك فيه إلاّ اليساريون، ثم ما فائدة توقّعات تافهة لا أساس لها، في حين لا يوجد شيء اسمه مجتمع كما صرّحت تاتشر نفسها. وكانت قد رشحت غارسيا ماركيز لهذا المنتدى غلوريا باتشون، أرملة لويس كارلوس غالان، التي كانت سفيرة كولومبيا لدى اليونكسو في باريس، كما رشحه أيضاً رئيسها غافيريا. وقال غارسيا ماركيز إنه يفعل هذا لمصلحة بلده ولمصلحة العالم أجمع[27]. وكان من بين الأعضاء الآخرين فاتسلاف هافل وأمبيرتو إيكو وميشيل سيريس وإدوارد سعيد. وعقد الاجتماع الأول في باريس في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني سنة 1993، فالتقى غارسيا ماركيز بأول مدير إسباني لليونسكو فيديريكو مايور الذي سرعان ما أصبح صديقاً وفياً. يبدو أن غارسيا ماركيز أراد أن يؤكد هيبته ومكانته المعززتين، وربما لإثارة إعجاب مواطنيه في بلده "أثينا أميركا الجنوبية"، فتابع زيارة لباريس، مقر العقلية الأكاديمية، بنقد شديد اللهجة ضد الأكاديمية الملكية الإسبانية التي وضعت، بحسب زعمه، "معجم مركز الأرض"[28]. مرة أخرى، لم يكن في الماضي ليتنازل ويشير إلى الأكاديميات، لكن تبين أن هذا النقد كان حركة أخرى بالغة الذكاء على المدى البعيد ستجعله مرة أخرى، على تماس وثيق مع الناس - من الأكاديميين والمتخصصين في فقه اللغة والشعراء اليمينيين - الذين ما كان "ليهدر" وقته عليهم سابقاً أبداً. ولن يمضي وقت طويل حتى يبني علاقات مع جامعة غوادا لاخارا في المكسيك حيث كان قد طور فيها علاقاته مع مديرها راؤول باديا لوبيث، وأيّد هو وكارلوس فوينتس منح كرسي الشرق في الجامعة لخوليو كورتاثار. كان غارسيا ماركيز وفوينتس قد بدأا منذ مدة الحديث عن أساليب للتقرب من رئيس الولايات المتحدة الجديد بيل كلنتون، الذي سادت التوقّعات بأنه أكثر اعتدالاً - وأكثر ثقافة - من أسلافه الديمقراطيين السابقين.

في شهر حزيران، تجاهل غارسيا ماركيز كل شكاواه مما يشغله عن الكتابة وسافر إلى برشلونة للعمل للانتخابات مع فيليب غونثاليث، فأنتج شعوراً قوياً أمام أربعين ألفاً من مؤيدي الحزب الاشتراكي في واحدة من تظاهرات التأييد الأخيرة لغونثاليث في مونتخويك. ربما كان من الأفضل لو سافر إلى فنزويلا حيث كان

صديق آخر له، وهو كارلوس أندرياس بيريث، يواجه أزمة سياسية لن يشفى منها أبداً. ففي العشرين من أيار أُعفي بيريث من منصبه رئيساً لجمهورية فنـــزويلا بعد اتهامه بسرقة سبعة عشر مليون دولار من أموال الدولة عند مجيئه للسلطة سنة 1989 . فمـــا كان من غارسيا ماركيز إلا أن أرسل رسالة تأييد مؤكداً شجاعة بيريث في مقاومـــة عدة محاولات انقلابية ضده - إحداها قادها جندي يدعى هوغو شافيز - وهو الآن يمضي محكومية في السجن، "وإحساسه الرائع بالصداقة" (ما شأن هذا بهذا كمـــا تـــساءل العديـــد مـــن القراء) بالرغم من عدم الثناء على إحساسه العميق بالنـــزاهة. ولسوء الحظ، ذهب غارسيا ماركيز في ما هو أبعد من هذا ووصلت به الجـــرأة إلى انتقاد مؤسسات البلاد وممثليها موحياً أن الاتهامات كانت سرقة مدبرة بالـــتواطؤ. ولم يتورع عن انتقاد الشعب الفنـــزويلي[29]، ولم يعد محبوباً كثيراً في فنـــزويلا مرة أخرى. لقد بدأت علاقاته الشخصية بأصحاب السلطة تكلفه غالياً.

التقى غارسيا ماركيز في تشرين الأول غلوريا باتشون شقيقة ماروخا وكانت يومـــئذ وزيرة التربية في كولومبيا، وزوجها ألبيرتو بياميتار. اقترح الزوجان عليه أن يؤلف كتاباً عن تجاربهما في 1990-1991 عندما تمّ اختطاف ماروخا. كان غارسيا ماركيز لا يزال منهمكاً في إعداد كتاب **الحب وشياطين أخرى** فطلب منهما مهلة ســـنة واحدة للتفكير فيه، لكنه عاد إليهما بعد بضعة أسابيع وأعلن موافقته وسط دهـــشتهما. كـــان له من العمر ستة وستون عاماً عندما قبل بمشروع آخر منهك يـــتطلب منه القدر الكبير من الجهد. سيكون عنوان الكتاب **خبر اختطاف**. وكما حدث، ففي حين وافق على المشروع، كان اثنان من المختطفين الرئيسيين قد توفيا، وهما الأب رافائيل غارسيا ماركيز هيريروس الذي كان قد أقنع إيسكوبار أن يسلم نفسه، إذ توفي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1992، كما أن إيسكوبار نفـــسه أطلقـــت عليه الشرطة الكولومبية النار وأردته قتيلاً في ميدلين في الثاني من كانون الأول سنة 1993 بعد مرور بضعة أسابيع على حديث غارسيا ماركيز الأول مع ضحيتيه السابقتين ماروخا وألبيرتو.

لكن قبل أن يتعقب رجال الشرطة إيسكوبار للمرة الأخيرة، جاءت حصيلة كـــل الجهود التي بذلها غارسيا ماركيز مع غافيريا، إذ أعلنت كولومبيا أنها قررت

إعـــادة علاقاتهـــا الدبلوماسية مع كوبا. كان غارسيا ماركيز في طريق عودته من بوليفـــيا إثـــر حـــضوره تنـــصيب رئيس جديد فيها عندما زار كارثاخينا "زيارة خاصـــة" - أخـــيراً شعر غارسيا ماركيز بالسرور وهو يحيّي أصدقاءه على تراب كولومبـــيا - والآن، وبعد مرور بضعة أسابيع، أُعيدت العلاقات كاملة. عاد فيدل وخرج إيسكوبار: إنه شهر عظيم لكلّ من غافيريا وغارسيا ماركيز.

في أواخـــر العـــام، التأم شمل أسرة غارسيا ماركيز كلها في كارثاخينا للمرة الأولى منذ سنوات طويلة. والتقطت صورة تاريخية للويسا سانتياغا مع جميع أبنائها. ولم يتكرر مثل ذلك الاجتماع أبداً.

اســـتمر غارسيا ماركيز منهمكاً في عمله، منهمكاً أكثر مما ينبغي على وجه التأكيد. وكما هو مألوف، فإن ما من أحد تقريباً كان يعلم أنه شرع بتأليف كتاب جديد حتى قبل أن ينشر كتابه الأخير. لقد اضطر إلى أن يتكلم في الموضوع في ذلك الوقت. وفي شهر آذار سافر إلى إيتاغي بالقرب من ميدلين شمال غربـــي كولومبيا مـــع عـــدد من الصحافيين الأميركيين من ضمنهم جيمس بروك مراسل صحيفة نـــيويورك تايمـــز. وكان الهدف من وراء الزيارة لقاء *الأخوة أوتشوا* أبرز مهربـــي المخدرات بعد إيسكوبار. يستذكر بروك الزيارة قائلاً:

> **الرؤساء يأتون ويرحلون، لكن الكاتب الذي يُذكّر بالبوم والمعروف عالمياً بكنيته غابـــو يبقى... بعد مضي يوم واحد مع السيد غارسيا ماركيز، أصبح من الممكن رســـم أبعاد شخصية هذا الإنسان بسرعة. ففي المطار في كارثاخينا، حيث يقيم، تعـــرف إلـــيه المـــسافرون من نظارته ذات الإطار الأسود ورددوا كنيته باحترام ووقار. وفي السجن في إيتاغي، خارج مدينة ميدلين، خطا خطوات رشيقة سريعة ثلاثـــة مدانين بتهريب الكوكايين يُعرفون بالاسم *الأخوة أوتشوا* وهم يتنافسون علـــى شـــرف تقديم وجبة طعام الغداء إليه. وفي ثكنة عسكرية في نيفا، تجاهل ملاحـــو طائرة مروحية بالزي الرسمي من شرطة كولومبيا لمكافحة المخدرات قائد الشرطة الوطنية وتدافعوا بالمناكب لالتقاط صور تذكارية مع الكاتب[30].**

كانت تلك هي الرحلة الوحيدة التي قام بها غارسيا ماركيز خلال إعداد بحثه لكتاب خبر اختطاف. وأوضح بعد سنتين أنه أفلت من بروك وغيره من الصحافيين وتحدث إلى خورخه ولويس أوتشوا بنفسه، إذ لم يكن راغباً في أن "تحترق" مصادره ولا أن يعطي أوتشوا معلومات غير صحيحة عن اللقاء.

فجـــأة، وكمـــا كان غارسيا ماركيز يتطلع إلى نشر كتاب **الحب وشياطين أخـــرى**، بـــدأت المكسيك، ملاذه وموطن استقراره، تنفجر داخلياً، وبدأ صديقه العظيم كارلوس ساليناس يواجه مشاقّ أكبر من تلك التي عاناها مؤخراً سيّئ الطالع كارلوس أندرياس بيريث في فنـــزويلا. أولاً، بدأت حركة جديدة من سكان البلاد الأصـــليين في مـــنطقة تـــشياباس، جنوبـــي المكسيك، وتدعى حركة ثاباتيساتس وملهمها زعيم رجال العصابات الغامض وقوي الشخصية المعروف بالاسم "القائد ماركـــوس"، بالاستحواذ على العناوين الرئيسة في العالم، وبدا ساليناس وقد بوغت بالأمـــر مباغتة لم يحسب لها حساب و لم يعرف ماذا يفعل. لكن الأمر الأكثر إثارة حقاً من هذا كله، هو أن المرشح الرسمي للحزب الحاكم لخوض الانتخابات المقبلة لـــويس دونالـــدو كولوســـيو، وهو صديق نبيل من أصدقاء غارسيا ماركيز، لقي مـــصرعه شمالي البلاد، وهو أول سياسي بهذا المستوى الرفيع يموت هذه الميتة منذ المـــرحلة الجمهورية التي سالت فيها الدماء في عشرينيات القرن العشرين. وراودت الشكوك عدداً كبيراً من المراقبين في أن ساليناس نفسه هو الذي خطط لعملية اغتيال خلفه مما وضع غارسيا ماركيز في موقف لا يختلف اختلافاً كثيراً عن ذلك الموقف الذي واجهه قبل أربع سنوات في هافانا عندما أُعدم صديقه طوني لا غوارديا على يـــد صـــديقه فيدل كاسترو. كانت علاقة غارسيا ماركيز قد أضحت وثيقة جداً بكولوسيو، وكانت آماله كبيرة في أن المرشح غير المتزمت إلى حدٌ ما يمكن أن يسير بالـــبلاد إلى وجهـــة تقدمـــية أكثـــر. وللمرة الأولى يخرق غارسيا ماركيز قانونه الشخصي – وقوانين المكسيك – بإصدار بيان عن الحدث داعياً إلى التهدئة في هذه الـــبلاد التي أحبها[31]. كولومبيا وكوبا وفنـــزويلا، والآن المكسيك نفسها، كل قلاعه تتساقط: إنها عودة إلى ماكوندو بروح انتقامية.

وتساءل غارسيا ماركيز نفسه إن كان قد بدأ هو أيضاً يضعف ويتدهور.

أجـــرى مراسل صحيفة الواشنطن بوست ديفيد ستريتفيلد مقابلة مع غارسيا ماركيـــز في شهري آذار ونيسان، في وقت اتخذت فيه كل التدابير لإصدار كتاب **الحـــب وشياطين أُخرى**. ولاحظ ستريتفيلد أن مؤلفات غارسيا ماركيز مهووسة بالموت هي ومؤلفها الذي شعر أنه إذا توقف عن التأليف فقد توافيه المنية. "فقد بدأ

جسده يخونه بطرائق أخرى غير السرطان". ويقول: "إنه لأمر غريب أن يبدأ المرء بإدراك علامات التقدم في السن. فقد بدأت أول الأمر أنسى الأسماء وأرقام الهواتف ثم كل شيء، إذ لم أعد أستطيع تذكر كلمة واحدة أو وجهاً من الوجوه أو حتى لحناً"[32]. مما لا شك فيه أن هذه الحالة ساعدت على تفسير السبب الذي يجعل تأليف المذكرات تبدو مهمة عاجلة أكثر من ذي قبل.

في الثاني والعشرين من نيسان، وفي خضم فوضى سياسية كبرى، صدرت رواية **الحب وشياطين أخرى**. وتزامن صدورها مع معرض بوغوتا للكتاب حيث ألقى صديقه القديم غونثالو مالارينو كلمة ملتهبة أثنى فيها على رواية صديقه الجديدة، إذ قال فيها إن غارسيا ماركيز وصل ذروة طاقاته[33]. وكان إهداء الرواية موجهاً إلى كارمن بالسيلس "الغارقة في الدموع". مرة أخرى تدور الأحداث في كارثاخينا، حيث يُرسَل إلى البلدة أواخر سنة 1949 صحافي شاب يعمل في صحيفة رئيس تحريرها، هو كليمنت مانويل ثابالا لتقصي موضوع ما. في البلدة دير قديم هو دير سانتا كلارا يُراد تحويله إلى فندق فخم، ففتحت بعض قبوره الموغلة في القدم بهدف نقل رفات أصحابها إلى مكان آخر. (هنا يتصالح غارسيا ماركيز مع ماضي كارثاخينا بذكر اسم ثابالا والاعتراف به، كما أنه يتخيل طريقه إلى حاضر كارثاخينا لأن بيته الجديد سيشيد قبالة الدير القديم). يبدو أن أحد القبور كان يحتوي على جمجمة وفيها خصلة من شعر أحمر ظلّت تنمو على مدى قرنين من الزمان تقريباً حتى تجاوز طولها الآن اثنين وعشرين متراً. ويقرر الصحافي الشاب تقصي هذه الحالة، فكانت النتيجة هي هذه الرواية.

تصوّر الرواية كلباً مسعوراً في شهر كانون الأول أواخر الحقبة الاستعمارية يعضّ عدداً من الناس في السوق في بلدة كارثاخينا، بمن فيهم فتاة ذات شعر أحمر طويل تدعى سييرفا ماريا توشك أن تحتفل بذكرى ميلادها الثانية عشرة. بالرغم من أن والدها ماركيز كاسالديرو وهو أحد أثرى الأثرياء في البلدة، إلا أنه معتل الصحة، سمح لسيرفا ماريا التي لا تحبها أمها أن تنشأ في باحة العبيد. وبالرغم من أن مرض داء الكلب لا يظهر على الفتاة، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية تعتقد أن الفتاة قد تملّكها الشيطان - وأنها تعتقد بمعتقدات أفريقية - فتحث آل ماركيز على طرد

الشيطان من جسمها، فتؤخذ إلى دير سانتا كلارا للإشراف عليها، فيأتي الأسقف بواحد من الخبراء الناشئين الذين يُنتظر لهم مستقبل باهر في قضايا تلبس الأرواح الشريرة وطردها من الجسد، ويدعى كايتانو ديلاورا قيل إنه لاهوتي وأمين مكتبة سيأخذ طريقه إلى الفاتيكان. ولن ترى الفتاة شوارع كارثاخينا مرة أخرى مدى الحياة.

راود ديلاورا الذي لا يملك أيَّ تجربة لفهم النساء، حلمٌ عن الفتاة حتى قبل أن يلتقيها، إذ شاهدها في حجرة - هي الحجرة التي كان يسكن فيها عندما كان طالباً يدرس في سالامانكا - تنظر صوب أرض تغطيها الثلوج، تأكل عنباً من فوق حضنها من دون أن ينفد، وإذا ما نفد العنب فستموت. الفتاة التي يلتقيها في صباح اليوم التالي مقيدة اليدين والرجلين بسبب ثورات غضبها تشبه تماماً الفتاة التي رآها في الحلم. فكان أول رد فعل له أن أخبر رئيسة الدير أن المعاملة التي تعانيها ستحول كل شخص إلى شيطان. أما رد فعله الثاني فهو هوسه الشديد بالطفلة، فيبدأ بالتفتيش في الكتب الممنوعة في المكتبة التي لا يسمح لأحد سواه بالاطلاع عليها، فيجد فيها مدخلاً سرياً يؤدي إلى الدير، ويبدأ بزيارة سييرفا ماريا كل ليلة ويقرأ لها الشعر. أخيراً يعلن عن مشاعره الحقيقية ويطوقها بذراعيه ويستسلمان للنوم معاً من دون أن يكملا المعاشرة الجنسية. ولكن عملية طرد الأرواح الشريرة تبدأ في نيسان، بعد خمسة أشهر تقريباً من عضة الكلب المسعور، فيقص شعرها ويحرقه، ويؤدي الأسقف مراسم دينية أمام جميع السلطات والراهبات لكنه ينهار، وتتصرف سييرفا ماريا كأنها ممسوسة، وتنكشف أعمال ديلاورا السيئة وتدينه محكمة التفتيش بتهمة الهرطقة - وهو مهرطق حقاً، الحق أنه مذنب وسييرفا ماريا بريئة - وتحكم عليه بتمضية سنوات عديدة في مستشفى الجذام. فتنتظره سييرفا ماريا من دون طائل، وبعد ثلاثة أيام ترفض تناول الطعام ولا تفهم سبب عدم رجوع ديلاورا، لكنها تحلم بدورها في التاسع والعشرين من أيار بحقل تغطيه الثلوج لكنها تتناول العنب الآن حبتين كل مرة وهي مصابة بالحمى كي تصل إلى الحبة الأخيرة. وقبل إجراء عملية طرد الروح الشريرة للمرة السادسة تقضي نحبها، لكن رأسها الحليق ينمو فيه الشعر ثانية.

هـــذا الكـــتاب علامة أخرى على انشغال غارسيا ماركيز ببلدة كارتاخيتا. ويمكـــن أن تُفسَّر رواية **الحب في زمن الكوليرا** على أنها مواجهة ثانية مع أبيه ومع ماضـــي كولومبيا علاوة على استكناه الفرق بين الزواج والمغامرة الجنسية، والأهم مـــن هـــذا كله، هو أنه كتاب عن ضاحية مانغا حيث عاش أبواه وحيث اشترى مؤخـــراً شـــقة لأمه. أما قصة **الحب وشياطين أخرى**، فتحكي عن المدينة القديمة المسورة حيث يُشيَّد لغارسيا ماركيز "قصر" جديد خلال تأليفه الكتاب. وبهذا، فإن الروايتين تقترنان إلى حدٍّ ما بعقاراته وبسلطته. في هذه المرة، يستعيد غارسيا ماركيز مجمل تاريخ كولومبيا منذ عهد الاستعمار. للكتاب سلطة سوداوية ثقيلة؛ ويشبه إلى حدٍّ ما بعض مؤلفات ألفارو موتيس مع بعض اللمسات الخفيفة. لقد كتب غارسيا ماركيـــز رواية **الحب في زمن الكوليرا** قبل كوارث سنة 1989 التاريخية. أما **الحب وشياطين أخرى**، فهي بالرغم من إطارها الزمني الذي يعود إلى حقبة الاستعمار، إلا أن فكرتها تبلورت من العالم بعد سنة 1989، وهي أشد سوداوية. وبالرغم من كل تصريحاته المتفائلة بشأن المستقبل، إلاّ أنه في أعماقه كان يرى العالم يعود إلى الوراء للمرة الأولى منذ مئتي سنة: إلى الوراء، من بعض الأوجه، إلى ما قبل الثورة الفرنسية وعصر التنوير؛ إلى الوراء قبل استقلال أميركا اللاتينية عن إسبانيا (الآن انقلب كل شـــيء، في الأقـــل بـــالمعنى الاقتصادي)؛ إلى الوراء بعيداً عن أحلام ثورة 1917 الاشـــتراكية. إنه يكتب الآن في عالم لم يعد من الممكن فيه تخيل حدوث أي ثورة، فيبدأ المفهوم البوليفاري، ومفاده أن العمل السياسي في كولومبيا عبث لا طائل من ورائه، يستحوذ على كل تفكيره.

إن استخدام الأحلام في هذا الكتاب مذهل، إذ يفيد من عناصر تجربة غارسيا ماركيـــز أيام مراهقته (ابتعاده عن البيت والذهاب إلى مدرسة في مناخات ثلجية، جـــسمه، كتابه بلا غلاف، كوابيسه الفظيعة). نهاية الرواية، مثل نهاية دي بالما في شـــريط هيتـــشكوك، تقشعر لها الأبدان، تذكّر القارئ بأن طاقات هذا الكتاب لا تـــضاهيها أي طاقـــات عندما يركز تركيزاً شديداً. الصفحات الأخيرة تمنحنا ألقاً استعادياً، لكن، لعل الإعجاز الكبير في الرواية، وهو ما لاحظه القارئ في الصفحة الأخـــيرة مـــن روايـــة **الجنـــرال في متاهته**، يتمثل بمنح الكاتب قرّاءه ما يتوقعون

حدوثـه - الموضـوعات نفـسها وإن كانت مرتبة بنظام مختلف، البنية نفسها، والأسلوب نفسه، والتقنية السردية نفسها - من ضمنها أكثر شيء نرغب فيه انحرافاً وتناقضاً: أن يصيبنا بالذهول الأسلوب الذي يمكن فيه للمؤلف أن يفاجئنا، ضمن ما هو مألوف، بما لا يمكننا أن نتوقعه أبداً. إنها أشبه برحلة فوق سكة حديد أدبية في مدينة الملاهي المرتفعة والمنخفضة تكون أكبر خضّة للمعدة في نهاية المطاف.

حظـي الكـتاب بقـبول جيد، لا سيما في الوسط الأكاديمي حيث شعروا بالـسرور لمرأى غارسيا ماركيز وهو يتبنى اهتمامات "ما بعد الحداثة" السائدة في الجامعـة، لا سـيما في موضوعات النسوية والجنس والإثنية والدين والهوية وتركة عصر التنوير. وصرّح جان فرانسوا فوجيل في صحيفة اللوموند أن غارسيا ماركيز ظل "واحداً من الروائيين القلائل الذين تمكنوا من استحضار الحب من دون مفارقة أو حـرج"[34]. ووصـفت أي. أس. بـيات الرواية في مقالة نشرت في صحيفة نـيويورك ريفـيو أوف بـوكس بأنها "تعليمية تقريباً، لكنها مؤثرة، وعمل بطولي رائع"[35]. أما بيتر كيمب، فتحدث في صحيفة الصنداي تايمز اللندنية عن الأحداث المدهـشة المروية بأسلوب هادئ: "إن رواية **الحب وشياطين أخرى** التي يشيع فيها الحنين الجارف والهجاء في آن واحد، هي قصة خرافية زاهية وحكاية رمزية كئيبة، بـل هـي تجسيد مدهش آخر للسحر والتحرر من السحر الذي تثيره في غارسيا ماركيـز بـلاده كولومبيا"[36]. بالرغم من كل شيء، فإن "ماركيز"، وهو الاسم الذي يصر عليه معظم كتّاب المقالات الإنكليزية، قد مارس سحره مرة أخرى.

* * *

في الـوقت الذي نشرت فيه رواية **الحب وشياطين أخرى** في كولومبيا، زار غارسـيا ماركيز إسبانيا ليمارس عادته في أن يكون عند نشر أحد كتبه في مكان مغاير، وزار إشبيلية مرة أخرى لمناسبة مهرجان الربيع وحضر بعضاً من مصارعات الـثيران التقلـيدية في وقت مبكر. التقته روسا مورا من صحيفة البايس في نيسان، فأخـبرها بأنه يشتغل على مذكراته، لا سيما قصة عودته إلى آراكاتاكا برفقة أمه: "أظـن كل ما أنا عليه الآن قد خرج من تلك الرحلة"[37]. لكن كتابة المذكرات تـوقفت مرة أخرى، وإن كان قد قرر في كل الأحوال أن يكون كتابه الثاني ضرباً

مـــن ضـــروب التحقيقات الصحافية. وقال إنه لم يفتقد الصحافة وحسب، بل إن اليونـــسكو تؤيد واحداً من أكثر المشاريع التي تاقت إليها نفسه وهو إنشاء مؤسسة صـــحافية تـــتحدى مدارس الاتصال الحديثة ما دامت هذه المدارس، حسب رأيه، "تريد أن تستغني عن الصحافة".

في السنوات الأخيرة، قُتل عدد من الصحافيين في كولومبيا أكبر ممَّن قُتلوا في أي بقعة من العالم. ولسوء الحظ، كانت هناك موضوعات أكثر إثارة ومأساوية في هـــذه البلاد من أي بلد آخر، إذ لم تكن نسبة الاغتيالات أعلى مما هي عليه في أي مكان آخر، وهو ما كان يتفاخر به ذلك الخليط الكولومبـــي الفظيع، والقاتل من الإرهاب، وتهريب المخدرات، وحرب العصابات، ونشاط الميليشيات، علاوة على ردود أفعـــال الشرطة والجيش التي كانت أحياناً تتساوى في عنفها والعلل التي تريد اجتـــثاثها. وكـــان سيسَّر غافيريا في نهاية سنوات حكمه الأربع المهووسة، وكافح كفاحاً بطولياً للحيلولة دون انـــزلاق البلاد إلى فوضى عارمة، لكن الحكومة التالية التي يحين موعد انتخابها في شهر أيار كانت أمامها تحديات كابوسية. وكان غارسيا ماركيز لا يزال يشتغل سراً على كتابه الجديد (الذي يشبه التحقيق الصحافي) الذي يـــستند إلى المرحلة الماضية. لكنه لم يكن مستعداً بعد للإعلان عنه بشكل تام، لأن التكتم على مصادره وحمايتها في تلك المرحلة كانا أمرين حاسمين.

في شـــهر حزيران عاد إلى أميركا اللاتينية وحضر المؤتمر الإيبري – الأميركي الـــرابع لقـــادة أميركـــا اللاتينية وشبه جزيرة إيبريا الذي عقد في كارثاخينا. نظم الاجـــتماع ملـــك إسبانيا، وفيليب غونثاليث، وكارلوس ساليناس دي غورتادي، وفـــيدل كاسترو، فضلاً عن غافيريا نفسه، في مسقط رأس غارسيا ماركيز. وكان غارســـيا ماركيـــز ينظر إلى هؤلاء جميعاً، من ضمنهم الملك، على أنهم "أصدقاء"، بالـــرغم مـــن أن بعض الكولومبيين علقوا قائلين إن غارسيا ماركيز بدا عضواً من أعضاء الوفد الكوبـــي، وأنه عرض أن يكون حارساً شخصياً لفيدل كاسترو: "لقد حضرت إلى هناك لأن شائعات راجت تفيد أنهم سيغتالون فيدل كاسترو. ولم يكن رجـــال الأمـــن الكوبيون ليسمحوا لفيدل بالاشتراك في العرض، لهذا اقترحت أن أرافقه في العربة التي تجرها الجياد. وقلت لهم إنني إذا رافقته هنا في كولومبيا، فإن ما

مـــن أحد سيجرؤ على إطلاق النار عليه. ولهذا، كنا خمسة في العربة، انحشرنا فيها معـــاً وتمازحنا بشأن الموقف. وفي اللحظة التي قلت فيها لفيدل إنني واثق من عدم حـــدوث شـــيء وإذا بالجـــواد يشبّ وينتصب على قائمتيه الخلفيتين"[38]. اقترح كارلوس ساليناس في هذا المؤتمر تأسيس "رابطة دول الكاريبـــي" لتضم كوبا أيضاً. وقـــال فـــيدل إنه طالما كانت كوبا مستبعدة عن أي شيء، "بإرادة أولئك الذين يديـــرون العالم"، فإنه يقدر هذه الدعوة كل التقدير[39]. كما شعر غارسيا ماركيز بالرضا والسرور لأنه تمكن من أن يظهر للزعيم الكوبـــي بعضاً من ثمار كل نشاطه الدبلوماسي المفعم بالحيوية.

عقـــدت الجـــولة الأخـــيرة من الانتخابات الكولومبية بعد أسبوعين، وكان المرشـــحان هما الليبرالي أرنستو سامبر والمحافظ أندرياس باسترانا. ومما كشف عن كولومبيا أن باسترانا، عمدة بوغوتا سابقاً وابن رئيس جمهورية سابق، بات ميتاً في حكـــم المؤكد عندما اختطف على أيدي أحد كارتلات المخدرات سنة 1988، في حـــين نجا سامبر، الذي أنهى منذ وقت قصير مدة عمله سفيراً لكولومبيا في مدريد، بأعجـــوبة عندما أطلق عليه الرصاص في مطار إلدورادو في بوغوتا في العام التالي. ينبغي لسامبر أن يكون حليفاً طبيعياً لغارسيا ماركيز، فهو على يسار الحزب الليبرالي وشقيق صديقه القديم دانيال سامبر (الصحافي في صحيفتي التارناتيفا والتيمبو) وكان غارسيا ماركيز قد دعاه هو وهوراثيو سيريا لمقابلة فيدل كاسترو في كوبا في شهر آذار ســـنة 1987، لكن اللقاء لم يسر على ما يرام[40]. إذ إن سامبر الشعبوي كان معاديـــاً للكاستروية أكثر من عداء أي محافظ، لكنه كان أيضاً سياسياً واقعياً مثلما تبيّن غافيريا أنه سياسي واقعي أيضاً، وكان سامبر سياسياً فظاً، متشككاً ومتصلباً في رأيـــه، يحظى بشعبية واسعة جداً في الأقاليم بالرغم من انحداره من بوغوتا. أولوياته تختلف عن أولويات غارسيا ماركيز.

وفـــاز ســـامبر في الانتخابات، لكن باسترانا سرعان ما أعلن عن مخالفة في الانـــتخابات، إذ أعطـــته هيئة الجاسوسية الأميركية شريط تسجيل يحتوي على ما يوحـــي أن مدير حملة سامبر الانتخابية، تلقى تبرعات ضخمة من أحزاب مرتبطة ارتـــباطاً مباشـــراً بكارتلات تهريب المخدرات، مما أدى إلى حدوث أزمة سياسية

ودستورية لم يسبق لكولومبيا أن مرَّت بمثلها، وظلت تتعقب مدة السنوات الأربع من رئاسة سامبر، بل لم يكن من المؤكّد أنه سيفلح في إكمال مدة رئاسته. وقد أنكر غارسيا ماركيز منذ البداية أنه ضدّ الرئيس الجديد في بداية حكمه، إلا أنه لم يؤيّده تأييداً غير مشروط، كما أنه بدأ يقيم علاقات مع سياسيين أصغر سناً، مثل خوان مانويل سانتوس وهو "ابن بكر" آخر من أبناء أسرة التيمبو، وأصبح وزير التجارة الخارجية في أثناء رئاسة غافيريا، وعينته الحكومة المنتهية للترحيب بالضيوف البارزين لدى وصولهم المؤتمر الإيبري – الأميركي. وقد عدَّ غارسيا ماركيز سانتوس رئيساً لكولومبيا في المستقبل وبدأ يرعاه ويشجعه. ويغدو سانتوس بعد ذلك واحداً من أعدى أعداء سامبر من داخل حزبه.

صحب غارسيا ماركيز فريقاً صحافياً من مجلة باري ماتش لمشاهدة بيته الجديد المشيد في كارثاخينا وأخبرهم أنه "ظل ينتظر ثلاثين سنة ليبني البيت المثالي في المكان المثالي"[41]. أخيراً، تحقق حلمه الآن، لكن لسوء الحظ، خيّم ظل على خططه، إذ تحول دير سانتا كلارا، وهو النص السينمائي عن قصة **حب وشياطين أخرى** إلى فندق خمس نجوم سبق أن نوهت بشأنه الرواية عندما كتبت في العام 1993، وكانت جميع الغرف في الجانب الغربي من المبنى تطل مباشرة على منزل غارسيا ماركيز الجديد الذي كان لا يزال قيد الإنشاء، لا سيما الشرفة والمسبح.

في السابع من آب سنة 1994، وهو يوم تنصيب سامبر، أرسل غارسيا ماركيز وميرثيديس رسالة تهنئة إلى الرئيس الجديد عبّرا فيها عن أطيب أمانيهما له، ونشرت في الصحف، لكن لم تكن هناك صعوبة في معرفة أن هذه الرسالة ليست رسالة تحيات حارة، بل إنها توقعت ضمناً أوقاتاً عصيبة أمام الحكومة الجديدة. وكانت، كما كشفت عناوين الصحف، نوعاً من التحذير: "اهتمّ بأحاسيسك اهتماماً جيداً"[42].

مما لا شك فيه أن الأحداث كانت تنحو منحىً شكسبيرياً، فقد سارت الأمور على ما يرام مع غارسيا ماركيز مؤخراً، لكنها بدأت بداية سيئة جداً مع سامبر منذ اليوم الأول لتبوئه السلطة، مما جعل غارسيا ماركيز عادةً يخفق في تحقيق غايته نتيجة المغالاة في الثقة بنفسه منذ بداية عهد سامبر. لكنه تمكن أخيراً في شهر أيلول، من

الوصول إلى مركز القوة على الأرض عندما وجه وليم سارويان، صديق فوينتس، الدعوة إليه وإلى فوينتس للقاء بيل وهيلاري كلنتون في منزل سارويان في مارتا فاينيارد. وكان مالكو صحيفتي الواشنطن بوست ونيويورك تايمز حاضرين أيضاً. كان غارسيا ماركيز يأمل في أن يتحدث عن كوبا؛ إذ كان قبل أسبوع واحد قد أقنع فيدل بالسماح للكاتب المنشق نوربيرتو فوينتس بمغادرة البلاد، لكن لسوء حظه، كانت العلاقات بين الولايات المتحدة وكوبا تمر في تلك الآونة بواحدة من أسوأ مراحلها، وقيل إن كلنتون رفض الخوض في الحديث في الشؤون الكوبية[43]. إلا أنهم تحدثوا عن الأزمة الكولومبية، ودافع غارسيا ماركيز إلى حدٍّ ما عن سامبر وحثَّ كلنتون على عدم معاقبة كولومبيا بسبب أعمال سامبر. لكن الشيء الذي جعل الرئيس الأميركي والأدباء الثلاثة يتفقون عليه اتفاقاً ودياً هو حماستهم لأعمال وليم فوكنر. وتولت الدهشة فوينتس وغارسيا ماركيز عندما سمعا كلنتون وهو يتلو عن ظهر قلب مقاطع كاملة من رواية **الصخب والعنف**. أما بخصوص كوبا، فإن كلنتون وجد نفسه غير قادر على مقاومة ضغوط الكوبيين في ميامي ومجلس الشيوخ الجمهوري المعادي للشيوعية عداءً شديداً، وسيضطر إلى السماح بفرض عقوبات أشد ضد دولة الجزيرة. الدليل واهٍ جداً على أن علاقات غارسيا ماركيز المستقبلية مع أقوى رجل على كوكب الأرض أدت إلى نتائج إيجابية سواء لكوبا أو لكولومبيا، وإن كان اللقاء شيئاً جيداً على وجه التأكيد في ضوء هيبته وجاذبيته.

أصبح سيسَّر غافيريا في الشهر التالي سكرتيراً عاماً لمنظمة الدول الأميركية. لكن غافيريا الليبرالي الجديد على يمين الوسط وجد، ويا للمفارقة، صعوبة في الاستمرار في ميله لتحرير علاقات نصف الكرة الأرضية في كوبا في وجه معارضة رئيس ديمقراطي في الولايات المتحدة الأميركية، لكنه واصل سعيه بالرغم من ذلك. إذاً، أصبحت لغارسيا ماركيز الآن علاقات مهمة مع الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية والمدير العام لمنظمة اليونسكو ورؤساء كل من الولايات المتحدة والمكسيك وكوبا وفرنسا وإسبانيا. كولومبيا وحدها هي الغائبة. في غضون ذلك، وفي مناسبة تبُّوؤ غافيريا منصبه أميناً عاماً، قال كارلوس فوينتس الحاذق سياسياً إن على بيل كلنتون أن "يتخلى عن فلوريدا ليربح العالم"، وإن على فيدل كاسترو أن

"يتخلى عن ماركس لينقذ الثورة"[44]. لكن ما من واحد من الرجلين كان على استعداد للاستماع إلى نصيحته.

في العشرين من أيلول توفي ألفونسو فوينمايور آخر عنصر أساسي في جماعة بارانكيا، بل قلبها النابض في مدينة بارانكيا (كان خيرمان فارغاس قد توفي سنة 1991 وألبيخاندرو أبريغون في السنة التالية). وكان غارسيا ماركيز قد نأى بنفسه عن زميله ومعلمه القديم منذ أن داهمه المرض قائلاً: إنه "جبان" لا يطيق مواجهة صديقه في مثل هذه الأزمة[45]. لعل مرضه جعله يفكر في أنه بدأ يقترب بدوره من الموت. واشترك في السهر على الجثة رودريغو ابن فوينمايور وعضوا الجماعة كيكي سكوبل وخاونتشو خينييز مع زجاجة شراب انتصبت بين الثلاثة، وبهذا أصبح ألفارو موتيس أبرز أصدقاء غارسيا ماركيز القدامى، وكان لا يزال قوياً.

وفي شهر شباط تزوج رودريغو ابن غارسيا ماركيز بأدريانا شينباوم في حفل هادئ في قاعة ريكورد في إيست لوس أنجلوس، ورزق الاثنان بإيزابيل، أول طفلة لهما، في الأول من كانون الثاني سنة 1996، وإينيس عام 1998. وكان غارسيا ماركيز قد أكّد لمجلة باري ماتش في تموز المنصرم: "علاقاتي ممتازة مع ولديَّ". إنهما الآن كما تمنيا أن يكونا وكما تمنيت أنا أن يكونا"[46]. وبدأت حياة رودريغو في ميدان صناعة الأشرطة السينمائية تزدهر أكثر فأكثر في هوليوود.

في الخامس من آذار، أجرى غارسيا ماركيز أول مقابلة له مع جاك لانغ في كارتاخينا، واختار سيرجيو كاباريرا مخرج الشريط السينمائي استراتيجية الحلزون، الذي حظي بإطراء منقطع النظير، ليكون مصوره. كان لانغ في الأيام الأخيرة من عمله وزيراً. أما فرانسوا ميتران، الذي أضحى معتل الصحة إلى درجة كبيرة، فقد عاش حتى أكمل دورتين رئاسيتين، أمدّ كل واحدة منهما سبعة أعوام، وتوفي في الثامن من كانون الثاني سنة 1996. ثم يخسر الحزب الاشتراكي الفرنسي في الانتخابات ولن ينتخب ثانية طوال البقية الباقية من حياة جاك لانغ السياسية، فبدأت علاقات غارسيا ماركيز تضعف بالسياسيين في فرنسا.

الآن دشن أخيراً مؤسسته الخاصة بالصحافة الإيبرية – الأميركية الجديدة وبدأت تعقد "ورش عملها" المنتظمة في كل من بارانكيا وكارتاخينا، وإن كانت

كارثاخينا ستتفوق رويداً رويداً على بارانكيا وتغدو مركز العمليات. أحبَّ غارسيا ماركيز كلمة "مؤسسة" مثلما أحب كلمة "ورشة"، لأنهما كانتا تذكرانه بلا أدنى ريب بجده العقيد، ذلك الرجل الذي طالما زعم أنه "أسس" بلدة آراكاتاكا. وكانت هذه المؤسسة الجديدة هدية غارسيا ماركيز لمدينته الكولومبية التي تبنته، وأقوى رمز على التزامه المتجدد تجاه بلده ورفاهيته. (ومع هذا، فقد كان مدير المؤسسة الشاب خايمي آبلو من بلدة بارانكيا وليس كارثاخينا، والمؤكد أن الاختيار لم يكن اعتباطيًّا). وقد بدأت المؤسسة إقامة دورات قصيرة للصحافيين الشباب من جميع أرجاء أميركا اللاتينية، وكان حافزهم متمثلاً بغارسيا ماركيز وهو يقود عدداً مهماً منهم مع صحافيين مشهورين عالمياً، مثل الصحافي البولندي ريسزارد كابوتشينسكي والأميركي جون لي أندرسون اللذين اشتركا أيضاً في تدريس الطلبة.

في الوقت الذي نشرت فيه رواية **حب وشياطين أخرى**، كان غارسيا ماركيز قد نفد صبره تماماً مع الرئيس الكولومبي الجديد. وفي مقابلة مع الصحافية المكسيكية سوزانا كاتو في المكسيك، لم يُخفِ غارسيا ماركيز إحباطه من سامبر واحتقاره إياه. وعندما سألته: "ما الذي يظن الكولومبيون أنهم فاعلون كي لا يدخلوا القرن الحادي والعشرين في الحالة نفسها التي هم عليها اليوم؟"، ردَّ غارسيا ماركيز:

> **كيف تفترضين بإمكاننا أنه أن نفكر في القرن الحادي والعشرين في حين أننا لا نزال نحاول الوصول إلى القرن العشرين؟ فكري فقط في أنني أمضيت ثلاثة أعوام وأنا أحاول التأكد من عدم وجود أي معلومة غير صحيحة في كتاب عن بلد لم نعد نعرف فيه ما هو الصح وما هو الخطأ. ما المستقبل الذي يمكن أن تكون عليه الرواية إذا كان مرشح لرئاسة الجمهورية لا يعرف أن مستشاريه يتلقون ملايين الدولارات من الأموال القذرة لحملته؟ في حين لا يُؤخذ متهموه على محمل الجد، لأنهم في خضم الحقائق الكثيرة التي ينطقون بها، يرون عدداً كبيراً من الأكاذيب أيضاً، وحيث الرئيس بدوره يُنصِّب من نفسه مُدَّعياً على مُدَّعيه محاججاً أنهم تلقوا فعلاً أموالاً قذرة، لكنهم لم ينفقوها في حملتهم لأنهم سرقوها... في بلد كهذا البلد، لعنة الله عليه، ليس أمامنا كروائيين أي خيار سوى البحث عن مهنة أخرى[47].**

إنها عودة إلى مناقشات قديمة لرجل يحتجّ لأن كل ما يريده ليس إلا توثيق الحقائق الطبيعية لكل يوم، لكن أهوال كولومبيا خرجت عن نطاق مفاهيم التحقيق الصحافي الاعتيادية. ماكوندو لم تمت ذكراها.

سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، وراود غارسيا ماركيز القلق لأن إدارة حرسه الخاص، الذين وفرهم له الحكومات المتعاقبة منذ نظام بيتانكور، باتت الآن ضعيفة وغير متسقة. وكان الحرس معرّضين للتبديل في الغالب حتى أضحى أكثر من ستين حارساً منهم يعرفون معرفة دقيقة أسلوب حياته وتفاصيلها الشخصية. هذه حالة بالغة الخطورة في كولومبيا عندما يجد المرء نفسه فيها، فيبدأ بالتساؤل عن مدى سلامته وأمنه في البلاد. استمر هو وسامبر في الحديث، وكان التوتر يزداد بينهما – وقيل إن غارسيا ماركيز بدأ يحتسي كميات أكبر من الشراب – إلى أن التقيا للمرة الأخيرة في الفصح سنة 1996 وذلك في شقة عمدة كارثاخينا السابق خورخه إنريكي ريثو. وأخبر غارسيا ماركيز سامبر، الذي كان الكونغرس يوشك أن يحكم عليه، إن الإصلاحات الدستورية التي كان يفكّر فيها ربما يُعتقد أنها عربون يدفع مقدماً لأعضاء الكونغرس لتبرئته. فما كان من سامبر إلا أن ردَّ بعد أن حفزه لذع الإهانة قائلاً: "لا بد من أن مؤيدي غافيريا هم الذين يحشون رأسك بهذه القصص". فقال غارسيا ماركيز: "أرجو أن تحترمني قليلاً. عندما أقدم إليك فكرة تتفق مع ما ترغب في سماعه، تخبرني بأنها من بنات أفكاري، أما عندما لا تتفق، فإنك تقول إن المعارضة تغسل دماغي. لماذا؟". هنا حاول سامبر أن يلطف الجو، لكن غارسيا ماركيز تمتم: "ليس لي ما أفعله هنا بعد الآن". ومنذ تلك اللحظة بدأ ينسحب من المشاركة الفعالة في قضايا الأمة و لم يلتقِ هو وسامبر مرة أخرى لسنوات طويلة"[48].

على كل حال، من يهاجم يمكن أن يتعرض للهجوم بدوره. فقد كتب مؤخراً الكوبي المنفي نوربيرتو فوينتس، الذي كان صديق غارسيا ماركيز الوفي، والذي تمكن غارسيا ماركيز من إقناع السلطات بإطلاق سراحه من الجزيرة مؤخراً، أول مقالة عن مجموعة من المقالات كشف فيها أنه لم يشعر بأي مشاعر شكر وامتنان لغارسيا ماركيز، بل ندّد به تنديداً قوياً لدوره في المشروع الكوبي وقلل من مدى

تأثيره ومنجزاته[49]. وعلى عادته، فقد امتنع غارسيا ماركيز عن الرد عليه، لكنه أقدم في شهر نيسان على عمل أثار دهشة كل الذين يعرفونه، وذلك عندما ألقى محاضرة في المدرسة الحربية العليا في بوغوتا. وفي خضم بعض النكات المرتبكة، أخبرهم على نحو ينذر بالشؤم أن "الرئيس سامبر يحمل مستقبل هذا البلد بيده". ومما قاله أيضاً، وإن لم يكن لينطوي على دبلوماسية كبيرة: "إننا سنكون في أمان أكبر لو حمل كل واحد منكم كتاباً في حقيبة ظهره"[50]. ثم أمضى الفصح برفقة كارلوس أندرياس بيريث في كاراكاس. هل فكّر سامبر يا ترى، في أن غارسيا ماركيز انتقد الفنزويليين لمحاولتهم التخلص من رئيس جمهوريتهم مثلما يحاول الآن بعض الكولومبيين التخلص منه؟

في الثاني من شهر نيسان، وفي الآونة التي اشتدّت فيها الحماسة تجاه رواية **الحب وشياطين أخرى** التي تقرر أن تصدر في أثناء معرض بوغوتا للكتاب في شهر أيار، اختطفت مجموعة كانت مجهولة سابقاً مقرها في تشيلي، وتطلق على نفسها اسم حركة هيبة كولومبيا، شقيق الرئيس السابق غافيريا المعماري خوان كارلوس. ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يُستهدف فيها أقرباء غافيريا. وأعلنت الحركة في بيان لها أن مشكلة كولومبيا ليست قانونية بل أخلاقية، وبالرغم من أن الحركة يمينية على ما يبدو، إلا أنها استشهدت بعبارة لغارسيا ماركيز مفادها أن كولومبيا في خضم كارثة أخلاقية، وطلبت منه أن يتبوأ السلطة بدلاً من سامبر لأن غارسيا ماركيز، كما أوضحت الحركة، واحد من القلائل في كولومبيا الذين "أيديهم نظيفة". كما طالبت الحركة أيضاً أن يستقيل سيسَّر غافيريا من منصبه أميناً عاماً لمنظمة الدول الأميركية. ولما كان أمام غارسيا ماركيز شهر واحد على نشر كتابه الجديد عن مشكلات كولومبيا المعاصرة، ولما كان أحد موضوعات الكتاب الرئيسة هو الخط المتشدد الذي انتهجه غافيريا في مقاومة مناشدات أسر الضحايا المختطفين، ولما كان غافيريا نفسه واحداً من أبرز الذين يزودون غارسيا ماركيز بالمعلومات، فإن مفارقات الموقف عظيمة. وقال إنريكي سانتوس كالديرون في مقالة في صحيفة التيمبو "إن غارسيا ماركيز ذكر في مقابلة مع مجلة كامبيو 16 أنه يشعر بأنه يعيش وسط تحقيقه الصحافي. حقاً إن المرء ليرتعش عندما يرى اليوم الرئيس السابق غافيريا في الموقف نفسه الذي مرت به أسر الرهائن في تلك الأيام، أو يرى "قيصر

الاختطاف" الراهن ألبيرتو بياميتار يفعل الشيء نفسه الذي فعله قبل خمسة أعوام عندما كان يحاول تحرير زوجته ماروخا باتشون"[51].

كان بياميتار وباتشون البطلين الرئيسين في كتاب غارسيا ماركيز الجديد **خبر اختطاف**. و لم يكن غارسيا ماركيز قد كتب كتاباً عن كولومبيا المعاصرة منذ زمن **ليس للعقيد من يكاتبه وفي ساعة نحس وجنازة الأم الكبيرة** في خمسينيات القرن العشرين. وكانت أكثر رواياته التاريخية المنطوية على بعد سياسي كبير، وهي رواية **الجنرال في متاهته،** قد جعلته مكروهاً تماماً وسط الطبقة الحاكمة الكولومبية في اللحظة نفسها التي كان يفكّر فيها في الرجوع إلى كولومبيا على المدى الطويل. و لم يكن مرجحاً أبداً، ويا للمفارقة، أن يتزلف إلى مجتمع الطبقة العليا في كارثاخينا – لأن الساحلي من الطبقة العليا لن يحترم أبداً من ينحدر من الطبقة الدنيا – حتى وإن خصص ثلاثة كتب على التوالي "لمدينتهم البطولية"، وحتى إن كان يملك اليوم أكبر وأفخم وأغلى بيت في البلدة، وإن كان هذا سبباً جزئيًّا فعلاً.

لا. كانت بوغوتا هدفه في كولومبيا حتى وإن كان لا يشعر بالارتياح دائماً فيها. ففي تلك المدينة تكمن سلطة البلاد. إن كتابه الجديد مكتوب من بعض الأوجه عن الطبقة الحاكمة التي مركزها في بوغوتا؛ ويمكن أن يكون لها أيضاً. و لم يجد مؤيدوه اليساريون القدامى الكتاب ملائماً لذوقهم، بخلاف البورجوازية البوغوتية التي وجدت رفض الكتاب أمراً مستحيلاً. منذ وفاة لويس كارلوس غالان، الذي لم يكن الأخير بل كان ذروة ورمز موجة الاغتيالات والاختطاف التي أثارت الرعب في البلاد، بدأ العديد من الكولومبيين بإقناع أنفسهم أخيراً أن بلدهم ميؤوس منه فعلاً. فقد رفض غالان مراراً عروضاً قدمها إليه بابلو إيسكوبار بالانضمام إلى حملته وتمويلها. و لم يكن غارسيا ماركيز مقرباً من غالان، و لم يكن أيضاً معجباً بأولئك الذين بدوا، مثله، يشعرون أن لديهم رسالة روحية أو سماوية. (كاسترو وحده هو الذي يحق له مثل ذلك الادعاء). وبدا سيسَّر غافيريا، الذي خلف غالان، بارداً أكثر مما ينبغي، جاداً أكثر مما ينبغي، ومستقيماً وواضحاً أكثر مما ينبغي أيضاً لغارسيا ماركيز. لكن الرجلين احتاجا إلى صديق قوي سنة 1990. وكان لكل واحد منهما ما يمنحه للآخر، زد على ذلك أنهما لم يكونا من بوغوتا.

حقـــاً كـــان الكتاب الجديد إنجازاً مدهشاً، بل هو عمل رائع ومدهش لأي كاتب في أي وقت كان، بل لرجل بلغ التاسعة والستين من عمره حين الانتهاء من كتابــته. لقد ظل النقاد يرددون القول إن مواهب غارسيا ماركيز تلائم الأحداث الدرامــية المثيرة التي تدور في الزمان الماضي البعيد، وأنه – شأن معظم الروائيين – ربما لم يكن مُعداً للكتابة عن القضايا المعاصرة. فضلاً عن هذا، شعر معظم المراقبين أنه لمن المستحيل تقريباً على أي فرد أن يفهم الفوضى التي كانت تضرب أطنابها في كولومبيا في تلك السنين، وأن محاولة إنتاج حبكة متماسكة وبناء قصة تخلب اللب عـــنها خارج قدرة الجميع. لكن عندما صدر الكتاب وافق الجميع، ومن ضمنهم أولئك الذين لم ترقهم اتجاهاته ووجهة نظره، على أن راوي القصة الكبير قد فعلها مرة أخرى وقدم قصة من الطبقة الأولى. حقاً، لقد قال كثيرون إنهم لم يتمكنوا من النوم إلا بعد أن فرغوا من قراءة الكتاب، واعترف بعضهم أنهم إذا لم يكملوا قراءة الـــرواية بجلـــسة واحدة، فإن الرهائن، وهم أبطالها الرئيسون، ربما لن يتمكنوا من الهروب من محنتهم: هكذا كانت قوة السرد. والسؤال الواضح المطروح هنا هو: هل ضحّى غارسيا ماركيز بالتعقيد من أجل الوضوح في تقديم أشعته السينية التي أخذها عن بلده؟

لقـــد انطلق المؤلف على وجه التأكيد للإحاطة بتعقيد كولومبيا المشابه لتعقيد المتاهة ضمن الأحداث المثيرة التي وقعت لسبع شخصيات رئيسة. الشخصية الأولى هـــي الـــبطلة ماروخا باتشون الصحافية ومديرة مؤسسة فوثين السينمائية وشقيقة غلـــوريا باتشون (أرملة غالان وسفيرة بلادها لدى اليونسكو مؤخراً)، والشخصية الثانية هو البطل ألبيرتو بياميتار زوج ماروخا وشقيق الرهينة الثانية بياتريث بياميتار صديقة ماروخا وشقيقة زوجها. يبذل ألبيرتو قصارى جهده لإطلاق سراح شقيقته وزوجـــته مـــن هذه المحنة الكابوسية. أما فرانسيسكو سانتوس، (المعروف عموماً بالاســـم باتـــشيتو) فهو ثالث الشخصيات الرئيسة، صحافي بارز يعمل في صحيفة التيمـــبو وابن مديرها هيرناندو سانتوس. (يحتل اليوم منصب نائب رئيس جمهورية كولومبـــيا). الشخـــصية الرابعة هي ديانا طربيه، صحافية تعمل في التلفزيون وابنة رئـــيس الجمهورية السابق خوليو سيسَّر طربيه حيث يلقى عليها القبض مع زملاء

آخرين لها يطلق سراحهم واحداً تلو الآخر، لكنها تلقى مصرعها على نحو مأساوي في أثناء محاولة فاشلة بذلها الجيش لإنقاذها. أما الشخصية الخامسة فهي مارينا مونتويا شقيقة عضو بارز في حكومة باركو، وهي أكبر الرهائن سناً، والأولى التي يتم اختطافها، والوحيدة التي يُجهز عليها مهربو المخدرات. أما الشخصية المركزية السادسة فهي الرئيس غافيريا، الذي خليق به أن يكون هو بطل الرواية، وبخاصةً في ضوء علاقته الوثيقة بغارسيا ماركيز، لكن مما يبعث على الدهشة أنه ليس بطلها. والشخصية السابعة هي بابلو إيسكوبار الذي نادراً ما يظهر في الرواية، لكنه الجاني فيها وروح الشر التي تقف وراء كل الأحداث، وهو رجل يبدو بلا شك أن لغارسيا ماركيز مشاعر متناقضة تجاهه من دون استبعاد مشاعر الإعجاب به. ويظهر في الرواية عدد لا يحصى من أفراد الأسر وخدمهم، وعدد آخر من مهربي المخدرات والتابعين لهم، وعدد كبير من وزراء الحكومة وغيرهم من موظفي الدولة (من ضمنهم قائد الشرطة السرية وأحد أقرباء المؤلف ميغيل ماثا ماركيز). ويجمعهم غارسيا ماركيز كلهم وينظمهم ويهندس بمهارة إعادة سرد الأحداث المرعبة.

يقول غارسيا ماركيز في مقدمة الكتاب إن هذه "المهمة الخريفية" كانت "الأكثر مشقة وحزناً في حياتي". لكن الذي يبعث على الدهشة هو أن الكتاب الذي لا ينتهي نهاية سعيدة لكولومبيا وللعديد من الأبطال (مارينا وديانا والرهينة الخلاسي الذي لا اسم له ونُسي أمره بسرعة) ابتكرت له نهاية سعيدة، ويرجع السبب الرئيس في ذلك إلى التركيز على أبطال بعينهم ورغبة غارسيا ماركيز في أن يكون "حامل الخبر السار". يبدو كأن كتابه عن الصحافة السياسية الذي أنجزه إنجازاً باهراً قد اختطفه كتاب آخر فيه كل متطلبات وتصورات رواية تشويق هوليوودية ذات نهاية تماثل نهاية قصة من القصص الاجتماعية. إننا نقتنع بأن علينا أن نخرص الحرص كله ما إذا كانت ماروخا ستنجو بالرغم من مصرع سائقها في الصفحة الرابعة من الرواية – الذي أجهز عليه المؤلف سريرياً مثلما أجهز القتلة على السائق الحقيقي – والذي لم نعد نسمع له ذكراً بعد ذلك (وينطبق الشيء نفسه على سائق باتشيتو سانتوس). لا يبدو مهماً من ناحية تأثير السرد عدد الناس الأقل شأناً الذين سيموتون ما دام النجوم باقين على قيد الحياة. حقاً إن موت البعض

ضمن أعراف الرواية البوليسية المثيرة، يشكل تضاداً مع بقاء الأصلح المرغوب أكثر. وهـــذا هـــو فن السرد القاسي الذي لا يرحم في هذا الكتاب، وهو بعيد جداً عن ثاباتيني، أو حتى فيلليني في شريطه لا دولتشي فيتا.

يتمـــثل المفهوم الأساس في الرواية بالانتقال بين الفصول ذات الأرقام الفردية التي تنصب على الرهائن وخاطفيهم والفصول ذات الأرقام الزوجية التي تخص أسر الـــرهائن والحكـــومة. إن الحـــدث المثير في الرواية، أصلاً، هو أولاً محنة الرهائن وجهودهم في البقاء على قيد الحياة والحديث عن الحياة اليومية مع حراسهم، وثانياً، جهـــود الأســـر من أجل التفاوض مع كل من الخاطفين والحكومة لإخلاء سبيل الـــرهائن. لكـــن علـــى المستوى الأعمق يكمن الصراع الحقيقي بين "الإكسترا دايتابليين" والحكومة، تكون فيه الرهائن والأسر بيادق ضعيفة لا حول لها ولا قوة، لكـــن غارسيا ماركيز يحولها إلى قصة "ذات اهتمام إنساني" قدر المستطاع. ويركز قبل كل شيء على الشخصيات الأربع الرئيسة من مجموع الرهائن العشر: ماروخا ومارينـــا وديانـــا وباتـــشيتو. ولا ينجو من هؤلاء الرهائن الأربع سوى ماروخا وباتـــشيتو، إذ يطلق سراحهما خلال ساعات قليلة في العشرين من أيار سنة 1991 وذلـــك في الفـــصل الحادي عشر. أما مارينا وديانا فتموتان خلال يومين (الثالث والعشرون والخامس والعشرون من كانون الثاني سنة 1991) في الفصل السادس بعد أن أمضتا عدة أشهر في الأسر.

إن نهايـــة هذا الكتاب الفعلية الذي أُريدَ له أن يكون قصة حب تشتمل على أزمة (غادة في كرب)، وصراعاً بطولياً (فارساً) وعودة سالمة إلى البيت، لتتحقق في ختام الفصل الحادي عشر بعودة ماروخا السارة إلى المبنى الذي تقع فيه شقتها حيث تستقبلها موجة فرح عارمة من أصدقائها وجيرانها، وأخيراً زوجها الذي يرحب بها ترحيباً حاراً جداً. الواضح أن غارسيا ماركيز رغب في أن يوضح أن النهاية السعيدة يمكن أن تتحقق حتى في كولومبيا؛ وربما لها أيضاً. وما استسلام إيسكوبار وموته إلا ملاحظـــة ختامـــية لهذه القصة، شأنها شأن إعادة الخاطفين، ثم ماروخا، لها والذي تنتهـــي به الحكاية والملاحظة الختامية التي تنطق بها ماروخا عندما تقول: "لقد كان هذا كله شيئاً يتعين تدوينه في كتاب". غير أن معالجة موت إيسكوبار تنطوي على

مخادعـــة. ففـــي القصص الاجتماعية والبوليسية نادراً ما يكون موت الشرير خاتمة الكـــتاب، وبخاصة إذا كان الشرير من مستوى إيسكوبار. لكن المرء يشعر هنا أن مـــوت إيسكوبار الذي عُولج معالجة غريبة، يُعطل الأعراف نفسها التي تبدو وقد صُممت كي تصل إلى الذروة.

وكمـــا هـــو شأن معظم المؤلفات السابقة لغارسيا ماركيز، فإن كتاب **خبر اختطاف** ليس عن الطبقات الدنيا من المجتمع (حتى في زمن بعيد كزمن تأليف رواية **في ساعة نحس**، فقد كان ظهور الفقراء المهجرين ظهوراً مفاجئاً في القرن صدمة)، غير أن الغياب له أهمية أكثر وضوحاً وحسماً هنا. إنه كتاب عن أناس ينتمون إلى الطـــبقة العلـــيا، وبخاصة من ضمنهم عدد من اليمينيين البارزين (والدا ديانا طربيه وباتـــشيتو ســـانتوس من الأشخاص الذين سبق لغارسيا ماركيز أن عارضهم وندد بهم). وقد شن كاتب العمود الصحافي روبيرتو موسادا غارسيا بينا (دآرتاغنان) من صـــحيفة التيمـــبو هجـــوماً عنـــيفاً علـــى غارسيا ماركيز، لاحتفائه ببورجوازية بوغوتا"[52].

ومما يُحيّر أن غارسيا ماركيز يستبعد الولايات المتحدة من الكتاب نهائياً. وإنّ هَلَـــعَ مهربـــي المخدرات من طردهم إلى الولايات المتحدة الأميركية - "الأفضل لإيسكوبار قبر في كولومبيا وليس زنـــزانة في الولايات المتحدة" - هو الذي يقرر الصراع الذي يمثل القوة المحركة للأحداث المروية في الكتاب، والتي تتطلب مؤكداً نمطـــاً مـــن أنماط النقد المناهض للإمبريالية. لكن في عمل ينتقد حتى رجال حرب العـــصابات - وبالـــرغم من ارتباطاته بكوبا - "لكل الأعمال الإرهابية"[53]، فإن جانـــب الـــولايات المـــتحدة لا نجد له معالجة أبداً، وبهذا، فإن مجمل بنية الرواية السببية - التفسيرية مرتبكة وتفتقر إلى التركيز. والمؤكد أن هذا ليس بالكتاب الذي ســـيحرج مؤلفه عندما قدمه فور نشره إلى بيل كلنتون، وليس هناك ما يبعث على الدهشة أن كلنتون أثنى في نهاية المطاف على الجانب "الإنساني" فيه، فليس هناك من جانب آخر في القصة، وهذا مما يطرح أصعب الأسئلة قاطبة: هل كُتب هذا الكتاب من أجل بورجوازية بوغوتا وبيل كلنتون (نحن والولايات المتحدة) وليس "لنا" نحن "القـــراء"؟ أو، لنضع السؤال في صياغة أخرى: هل كُتب الكتاب "لنا" نحن القراء،

تماماً مثلما تكتب لنا القصص الاجتماعية كي تجعلنا نرضى بواقعنا ولتجعلنا نعتقد أن الأثرياء والمشاهير هم "بشر"... "مثلنا" تماماً؟

لكن كما هي الحال دوماً، ثمة أكثر من أسلوب للنظر به إلى الأشياء. صحيح أن هذا الكتاب هو أول كتاب يكتبه غارسيا ماركيز مستلهماً فيه بوغوتا، ويبحث في قضايا كولومبيا المعاصرة منذ الوقت الذي قرر فيه أن "يغادر" كوبا بحدود العام 1990 (بالرغم من أنه لم يغادرها فعلاً) وقرر "العودة" إلى كولومبيا (بالرغم من أنه لم "يعد" إليها عودة كاملة). وهو أيضاً كتاب عن الاستيلاء على السلطة أكثر مما هو جردٌ لأي شيء آخر. إنه بمعنىً من المعاني عرض للبطولة والشهامة وإجابة مبطنة عن كل تساؤلات نقاده الكولومبيين. هو لم يعش هنا؟ حسناً. لكن هل استطاع أي كولومبي معاصر آخر أن يجمع معاً كل تعقيدات تاريخ البلاد الحديث ويقدمها متماسكة ومفهومة كما فعل هو؟ أكان رجلاً فاشلاً من رجال البلاط يتودد إلى السلطة؟ حسناً. انظر إلى ما يمكن أن تفعله العلاقة المباشرة بالسلطة: أمامنا "صحافي" في إمكانه الوصول، بفضل هيبته، إلى أي مستوى من مستويات "المعارف" و"المصادر"، ومن لا يستطع الوصول إليها، لا يستطع أبداً الحصول على "القصة الكاملة". هل أضحت كتاباته تافهة، وتكرر ذاتها، وتقتبس ذاتها، وتنغمس في ذاتها؟ حسناً. هذا ما كان في وسع هذا الرجل المسن - الذي يقترب من السبعين - أن يفعله.

من شأن الافتتاحيات اللاذعة التي تنشرها صحيفة التيمبو، كتلك التي حيّت **الجنرال في متاهته**، أن تكون غير واردة أمام عمل لأديب استحوذ استحواذاً رمزياً على البلاد على نحو تام الجلاء. واليوم يجدر ذكرها بسبب غيابها. إن غارسيا ماركيز لم يظهر أي شيء، لكنه منذ زمن نشر رواية **الجنرال انتظر سبع سنوات كي ينتقم**، كي يصل إلى مقابلات "صبيانية" للصحافة للتعبير عن عدم إحساسه بالأمان إزاء الكتاب الجديد، بخلاف ما حدث عند نشر رواية **الحب وشياطين أخرى**. قال مصارع الثيران الراحل: إليك هذا: ربما يبدو مدهشاً أن كولومبيا أضحت عائدة إلى غارسيا ماركيز وله من العمر تسعة وستون عاماً، وعلى نحو لم يحدث من قبل. لقد جعلت رواية **مئة عام من العزلة** أميركا اللاتينية كلها تعود

إلــيه، بــل العالم أيضاً، لكن ليس كولومبيا. المؤكد أن **مئة عام من العزلة** كانت "ماكــوندو"، لكــن الجميع كانوا يعرفون، في بوغوتا وغيرها من المدن الكبيرة في الداخل (مثل ميدلين وكالي)، أن ماكوندو هي الساحل، و لم يضعوا أنفسهم ضمن مــرجعياتها، لكنهم اليوم تجدهم أقل ثقة ورضىً على حين استحوذ غارسيا ماركيز أخــيراً على كولومبيا وليس الساحل وحده. لكن الطعن في الظهر سيستمر مدى الحياة – بطبيعة الحياة السياسية والاجتماعية – لكن بثقة أقل بكثير. لقد بات فوق النقد الآن، وأضحى في وسعه أن يفعل كل ما يحلو له.

لكــن الــسؤال يمكن أن يتكرر مرة أخرى: لقد كتب كتاب **خبر اختطاف** للكاتــشاكو من وجهة نظرهم إلى حدٍّ ما، فهل استسلم لهم بالتالي؟ هل قوَّض في لحظة نصره (أو حتى بسبب طبيعة ذلك النصر) مساعده الأخلاقي والسياسي كله؟ لعله أمسى محافظاً على النحو الموجع والكئيب الذي ينساق إليه كبار السن فيتحوّلوا إلى محــافظين. أو لعلــه أدرك في نهاية المطاف "الواقع السياسي"، لا سيما "الواقع السياسي بعد سقوط الجدار". أو لعل كل ما يريده الآن سياسياً، هو أن يرى فيدل والــثورة الكوبية يقاومان مقاومة رمزية المتاهة التاريخية إلى الحدّ الذي لا تترك لهما فــيه المتاهة الأخيرة العظمى أي خيارات أخرى. أو لعله لا يزال يرفض كل تلك الوقائــع المحيطة به، كل تلك الخيارات والتفسيرات. أو لعل غارسيا ماركيز يصون حلمــه بالطــريقة الوحــيدة التي يعرفها هو حتى نهاية المطاف. ربما. لكن هذا هو السؤال على وجه التأكيد.

طبيعــي أن الكــتاب تبّوأ المركز الأول في لائحة الكتب الأكثر رواجاً حال صــدوره. وبالرغم من أن المقالات التي دُبجت عنه كانت إيجابية تماماً، إلا أن عدداً قلــيلاً مــنها كــان غاية في العدوانية، وحتى هداماً وبذيئاً، وبخاصة من الولايات المتحدة، إذ اختلفت نبرتها عن نبرة حتى المقالات التي نشرت عن رواية **الجنرال** في صــحيفة التيمبو[54]. غير أن غارسيا ماركيز استعرض خياراته واختار ما يحلو له. وفي وسعنا أن نكون واثقين من أنه كان راضياً.

-24-

غارسيا ماركيز في سنّ السبعين وما بعدها
مذكرات وغانيات حزينات
2005-1996

والآن ماذا سيفعل؟ لا يزال الكاتب البالغ من العمر تسعة وستين عاماً مفعماً بالنشاط، لديه خطط كثيرة، ولا يزال مفتوناً بالسياسة وملتزماً بأن "يكون مختلفاً"؛ على حدّ تعبير الأميركيين. لكن هل لا يزال كاتباً قصصياً؟ كانت رواية الجنرال في متاهته رواية تاريخية في إطار قصصي ذكي، لكنها تظل رواية تاريخية. كذلك، فإن **خبر اختطاف** رواية وثائقية، بل وثائقية أكثر من رواية. الواضح أن رواية **الجنرال** كانت عن "الماضي"، عن الأسلوب الذي نشأت به كولومبيا قبل مئتي سنة. أما **خبر اختطاف** فعن "الحاضر" عمَّا آلت إليه كولومبيا. الروايتان مكتوبتان بحماسة لا يمكن نكـــرانها. لكن، هل لا يزال في أعماق غارسيا ماركيز عمل طموح آخر ذو خيال إبداعـــي أم أن المعين التاريخي العالمي العظيم نضب في النهاية؟ مما لا شك فيه، أن العـــالم هـــو محارته، لكنه لم يعد ذلك العالم الذي صنعه. أفي وسعه الاستجابة لهذا العالم الجديد، لهذا الكون في عصر ما بعد الشيوعية، وما بعد المثالية، وما بعد الحداثة الذي يمتد الآن أمام الكوكب المتعب على مشارف القرن الحادي والعشرين؟

الحق أن ما من أحد استجاب استجابة كاملة للحقبة الجديدة. إنه سؤال ثقيل يـــوجهه العـــالم إلى شخص كبير السن بالرغم من أن غارسيا ماركيز كان يطرح الـــسؤال نفسه على نفسه. إن هذا العصر هو عصر الأدب الجيد، لكنه ليس عصر الأعمال العظيمة. فمنذ الحرب العالمية الثانية إلى اليوم لا يوجد سوى عدد قليل جداً من الكتّاب - بل وعدد قليل جداً من المبدعين في كل جنس أدبـــي - اتفق بشأنهم

القــراء والــنقاد على النحو الذي اتفقوا، ولا يزالون متفقين، فيه بخصوص الفنانين العظمــاء إبــان حقــبة الحداثة بين ثمانينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين. وكان غارسيا ماركيز اسماً من الأسماء القليلة، وكانت رواية **مئة عام من العــزلة** من عناوين الروايات القليلة التي تبرز في لائحة كل فرد عن الأدباء العظماء والأعمال العظيمة في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد أضاف رواية **الحب في زمن الكوليرا** التي ظهرت دائماً في اللوائح التي تحمل عناوين "أفضل خمسين رواية" أو "أفــضل مئة رواية" في القرن العشرين. أفي وسعه أن يضيف شيئاً آخر؟ بل هل يتعين عليه أن يحاول؟

مما لا ريب فيه أنه أراد الاستمرار. سبق أن قال إنه لم يعد في جعبته شيء بعد **روايــة مــئة عــام من العزلة** و**الحب في زمن الكوليرا**[1]. لكنه وجد دائماً العزم والإصـــرار، والإلهام بالتالي، للعثور على موضوعات جديدة وأشكال جديدة ليقدم مشروعاً جديداً، كتاباً أراد أولاً أن يكتبه، ثم احتاج إلى كتابته، ثم اضطر أخيراً إلى كتابته. وليس الأمر مختلفاً الآن. فهو دائم البحث. وقد قال في مقابلات صحفية إنه كــان "يــريد العودة إلى الرواية". وكدأبه، كان لديه مشروع. كانت لديه ثلاث روايات قصيرة تصلح أن تكون كتاباً مثيراً للاهتمام بحسب رأيه إذا ما جمعت معاً، كــتاباً آخر عن الحب، الحب والنساء. وقال لصحيفة البايس: "إنني محاط بالنساء، أصــدقائي مــن النساء عموماً، وكان على ميرثيديس أن تتعلم أن هذا هو أسلوب حــياتي، وأن علاقــاتي بهــن ليست سوى مغازلات لا تضر. فالكل يعرفون الآن حقيقتي"[2].

ثم أضاف أنه بدأ يفقد ذاكرته التي اعتمدت عليها حياته وأعماله كلها (وهو ما حدث تماماً لبطل **خريف البطريرك** المستمدة شخصيته من السيرة الذاتية). لكن، ويــا للمفارقة، كانت آلة تقطيع الورق هي الآلة المستعملة أكثر من غيرها في بيته. لكن بالرغم من ذلك، استعاد في وقت متأخر مسوّدات قصة **الحب وشياطين أخرى** وأعطاهــا لميرثيديس لتكون هدية لها. بدا أنه غير مدرك أن المسوّدات فقدت قدراً كــبيراً من سحرها – من ضمنها المالي – في عصر الحاسوب، لأن الحاسوب يخفي معظــم الآثــار الوراثية. حقاً كان التحول من الكتابة باليد إلى الكتابة على الآلة

الكاتبة ثم إلى الحاسوب جزءاً من تفسير اضمحلال هالة المؤلف في ذهن القراء، وربما فقدان الثقة بعقول المؤلفين أنفسهم. ولقد قاوم غارسيا ماركيز هذه العملية مقاومة أفضل من غيره. وانسجم إتلافه معظم أعماله التمهيدية، أو غير الكاملة، مع اعتقاده الجازم أن مهمة الفنان هي إنتاج أعمال كاملة تماماً على وفق النموذج الكلاسيكي، وإن لم يكن يرغب في التعبير عن هذه المهمة على هذا النحو.

كان تقاعده عن العمل موضوعاً يخيم عليه، وكانت النذر سيئة كلها. فهذا هو خريف كل البطاركة. فقد كان سامبر يرفض رفضاً باتاً وقاطعاً الاستقالة، بالرغم من أن ملايين الناس كانوا يطلبون منه أن يستقيل. واضطر كارلوس أندرياس بيريث إلى الاستقالة بالقوة. وتمكن كارلوس ساليناس من إنهاء مدة ولايته، إلا أنه اضطر إلى مغادرة البلاد بعد أن هُدِّد بالسجن أو ما هو أسوأ من السجن. لكن لم يستطع أحد أن يرغم فيدل كاسترو على الاستقالة، لكنه سرعان ما سيبلغ السبعين، وقد شاخت الثورة. لكن من يا ترى يمكنه أن يحل محله؟ وبدلاً من أن يحضر غارسيا ماركيز حفل إصدار كتابه في بوغوتا، سافر لزيارة متقاعد آخر تقاعد على مضض، وهو فيليب غونثاليث، إذ أُقصي من منصبه إثر اتهامات وفضائح في إسبانيا بعد ثلاث عشرة سنة أمضاها في قصر مونكلوا الجمهوري في مدريد. وما إن وصل غارسيا ماركيز حتى أسرع إلى مونكلوا، لكن الرئيس لم يكن في البيت، بل كان وحده مع حرسه الشخصي في حديقة مونفراغوا الوطنية، كأنه شخصية أخرى من شخصيات غارسيا ماركيز حُرمت من السلطة والمجد(3). وقال غونثاليث في آخر مرة التقيا فيها وهما يتعانقان: "يا الله! أظنك الرجل الوحيد في إسبانيا الذي يريد أن يعانق الرئيس". ثم أعلن أنه ارتاح لتركه منصبه وأنه في طريقه إلى التقاعد، وسيحل محله الزعيم اليميني خوسيه ماريا أثنار.

سافر غارسيا ماركيز بعد تمديد إقامته في إسبانيا إلى كوبا للاحتفال بذكرى ميلاد فيدل كاسترو السبعين معه، فكانت الزيارة حدثاً خريفياً آخر لا تختلف عن زيارته فيليب غونثاليث. لم يكن فيدل يفكّر في التقاعد، لكنه كان في حالة تأمُّل غير اعتيادية. لقد عاش طويلاً في المستقبل، وكي يصل إلى المستقبل، اضطر إلى التغلب على الحاضر دقيقة فدقيقة. أما الآن، فهو يفكّر في الماضي للمرة الأولى، في

ماضيه هو. وكان قد صرَّح بأنه لا يريد احتفالاً خاصاً، لكن غابو قال إنه سيسافر إلى كـوبا برفقة ميرثيديس في كل الأحوال. لم يتمكن فيدل من الاحتفال بذكرى مـيلاده رسمياً في اليوم المحدد - الثالث عشر من آب - بسبب ضغط العمل، لكنه توجه إلى بيت غارسيا ماركيز بعد إصرار الأخير في ذلك المساء ليجد هدية تقدّم، وهـي نـسخة من معجم جديد أصدره معهد كولومبيا اللساني إنستيتيو كاروي كـييرفو. وبعـد أسـبوعين، كـشف فيدل عن مفاجأة من عنده: صحب غابو وميرثـيديس، وعدداً قليلاً من المقربين، وصحافياً، ومصوراً إلى بلدة بيران الصغيرة حـيث ولد فيها: "رحلة إلى ماضيه، ذكرياته، المكان الذي تعلم فيه النطق والرماية وتـربية ديوك العراك والصيد والمصارعة، المكان الذي تعلم فيه وصار على ما هو علـيه، المكان الذي لم يذهب إليه منذ سنة 1969، الذي تمكن فيه للمرة الأولى في حـياته من أن يقف أمام قبري والديه ويقدم إليهما بعض الزهور، وإظهار التقدير اللائق بهما بعد وفاتهما، وهو تقدير لم يتمكن حتى تلك اللحظة من تقديمه إليهما". رافق فيدل ضيوفه في جولة في أنحاء البلدة، ثم ذهب إلى مبنى المدرسة القديم (وجلس على طاولته القديمة) وتذكر نشاطاته أيام صباه. ("كنت راعي بقر، أكثر من ريغان، لأن ريغـان كان راعي بقر في السينما وحدها، أما أنا فكنت راعي بقر حقيقيًّا")، وتذكـر شخصية أبيه وأمه وغرابة أطوارهما، وبعد أن شعر بالرضى قال: "إنني لم أخلـط الأحـلام بالواقع، وذكرياتي تخلو من الفانتازيا"[4]. لا بد من أن غارسيا ماركيـز أصبح لديه غذاء فكري كثير، وبخاصة أنه كان يكتب يومئذ مذكراته؛ لا سيما عودته مع والدته قبل أكثر من نصف قرن من الزمان إلى المكان الذي وُلد فيه.

أمضى غارسيا ماركيز بعض الوقت في بيته الجديد عند رجوعه إلى كارثاخينا في شـهر أيلول، فإحساسه بأنه غريب عن المكان لم يعد سراً، ولم يكن السبب هو أن فـندق سانتاكلارا كان يطل عليه هو وميرثيديس: كل ما هناك أنهما لم يشعرا بالـراحة والاطمئنان، لأنه لم يرقهما. ثمة صحافي أرجنتيني يدعى رودولفو براثيلي سـبق له أن أجرى مقابلة مع ماروخا باتشون عن تجاربها التي مرت بها بين عامي 1990 و1991 وعـن ظهـورها في كتاب **خبر اختطاف**، فاستغل معرفته بها ليجد طـريقه صـوب غارسيا ماركيز المنـزعج، وإن كان لا يزال على استعداد لتقديم

المساعدة والمعلومات، والذي بدأ يظهر في المقابلات الصحافية في تلك الآونة متأملاً ومتفلسفاً على نحو متزايد، كأنه جندي عجوز أصبح وحيداً ولم يعد هناك من يمد له يد المساعدة، فانعقد لسانه ولم يَحِر جواباً. كان مثيراً للاهتمام، غزير المعلومات، حتى إنه كان يكثر من التحليلات، لكنه لم يعد يركز على الحملة الوحيدة التي تستبعد الحملات الأخرى - القادمة - ولم يعد متصلب الرأي كالأيام الماضية[5]. ونوّه مرة أخرى بأنه بدأ ينسى الأشياء، لا سيما أرقام الهواتف، بالرغم من أنه كان "أستاذاً في الذاكرة". وكانت أمه تقول له في بعض الأحيان: "ابنُ من أنت؟"، ثم تعود إليها ذاكرتها في أيام أخرى تقريباً، فيسألها عن ذكرياتها عن طفولته[6]، "فتأتي ذكريات كثيرة لأنها لا تخفيها الآن، إذ نسيت أهواءها وانحيازاتها".

أخبر براثيلي أن لديه عدداً كبيراً من الأصدقاء وقد بلغوا السبعين فجأة، مما أثار دهشته، "فأنا لم أسألهم قط عن أعمارهم". وقال إن شعوره الشخصي تجاه الموت هو "الغضب". ولم يفكّر في موته تفكيراً جاداً إلا بعد أن بلغ الستين من عمره. "إنني أتذكره تماماً. فقد كنت أقرأ في إحدى الليالي كتاباً، وفجأة فكّرت: *تباً، إنني سأموت، الموت محتم، لم يكن لدي وقت، لم يكن لدي وقت في السابق للتفكير فيه، لكن ها هو فجأة. تباً، لا سبيل إلى الخلاص منه*. وشعرت برجفة ما... ستون سنة من اللامسؤولية أشبه بضوء ينطفئ، أو أشبه بمخدر.

من الواضح أنه كان في حالة تأملية يسترجع فيها سيرته الذاتية، وإن كانت هذه النزعة واضحة، في الأقل في البداية، منذ نهاية مجلة التارناتيفا وبداية عموده الأسبوعي في الاسبكتادور وفي البايس. وبالرغم من أنه أتلف معظم الآثار المكتوبة عن حياته الشخصية وحتى عن نشاطه الأدبي المهني، إلا أن تفكيره ازداد بخصوص مظهرين معينين من عمله: أولاً، كيف ومتى، التقنية والتوقيت. يتضح أنه حرفي أستاذ في حرفته، يعي وعياً متزايداً أن سرد الحكايات على طريقته أو على طريقة همنغواي ليس في ميسور الجميع. لهذا السبب وُلدت "ورشة" في كتابة النصوص السينمائية في هافانا ومدينة مكسيكو، والآن ورشه الصحافية في مدريد وكارثاخينا، وكانت هذه "الورش" تخص كتابة القصص: كيفية تفكيك الواقع إلى أقاصيص، وكيفية تفكيك الأقاصيص إلى العناصر المكوّنة لها، وكيفية سردها بحيث تقود كل

نقطة إلى أخرى على نحو طبيعي، وكيفية تأطيرها تأطيراً يجعل القارئ، أو المشاهد، يـــشعر بأنه لا يقوى على التوقف عن القراءة أو المشاهدة. ثانياً، ماذا ولماذا؟ كان ينفر من الإفراط في إظهار العواطف والاستبطان بسبب شعوره "بالخزي والحرج". لكـــن مـــرت عليه حتى الآن مدة من الزمن أبدى فيها اهتمامه بتحديد المادة الخام المعاشـــة لتجـــربته التي نضجت بأساليب متباينة، ولأغراض أدبية وجمالية مختلفة في مؤلفاته على مر السنين. إنها وسيلة ما للسيطرة على قصته، للتأكد من أن أحداً ما لا يـــستطيع صياغتها من دون أن يقبل بمعظم تفسيره. لقد ظل يسيطر على صورته على مدى ثلاثين سنة، والآن يريد أن يسيطر على قصته.

سافر غارسيا ماركيز إلى باسادينا في كاليفورنيا في شهر تشرين الأول لحضور الاجتماع الثاني والخمسين لرابطة الصحافة في الدول الأميركية، حيث حضر أيضاً مئـــتا مالـــك صحيفة، إضافة إلى الأميركيين الفائزين بجائزة نوبل للسلام ريغوبيرتا مينتـــشو، وأوسكار آرياس، وهنري كيسنجر. وانتخب رئيس تحرير الاسبكتادور لويس غابرييل كانو رئيساً جديداً للمنظمة، وتمت الموافقة على عقد الاجتماع التالي في مدينة غوادالاخارا. كان غارسيا ماركيز يحرص على أن يضع مؤسسته الصحافية الجديـــدة في المقدمة، لهذا قال في كلمته: "لقد أصبح الصحافيون ضائعين في متاهة التكنولوجـــيا. العمل الجماعي لا يحظى بتقدير حقيقي، والتنافس من أجل الحصول علـــى كـــسب صحافي يدمر العمل المهني الجاد، ولا بد من الاهتمام بثلاثة ميادين أساســـية: "لا بـــد من إعطاء الأولوية للموهبة والشعور الباطني، وينبغي النظر إلى التحقـــيقات الصحافية على أنها نشاط من نوع خاص لأن الصحافة كلها يجب أن تنطوي على تحقيق. كما لا يتعين على الأخلاقيات أن تكون مسألة وقتية، بل لا بد من أن ترافق الصحافي دائماً مثلما يرافق الطنين الذبابة"[(7)]. (العبارة الأخيرة ستصبح شعار مؤسسته الصحافية. أما شعارها الرئيس فهو: "لا أن تكون الأفضل وحسب، بـــل أن تكـــون معروفاً بأنك الأفضل". وهو ما ينطبق تماماً على غ غ م). كانت كلمة غارسيا ماركيز تهتم، شأن مؤسسته الجديدة، بما ينبغي للصحافيين الأفراد أن يفعلوا للارتقاء بمستوياتهم المهنية والأخلاقية، في حين كان يهتم في سبعينيات القرن العـــشرين بملكـــية الصحافة. لكنه يتحرك الآن في عالم مختلف. لعله الوحيد الذي

حاول أن يحيا هذه الحياة المزدوجة التي ناقش فيها مشكلات الصحافة البورجوازية في دول ديمقراطية رسمياً، ولكنه أيّد بإخلاص كوبا، الدولة الوحيدة في نصف الكرة الأرضية التي لا توجد فيها صحافة حرة، ولن توجد ما دام كاسترو في السلطة. وكانت مقالات غارسيا ماركيز التي تنشر في آن واحد في مختلف البلاد، تجد طريقها للنشر بانتظام في صحيفتي غراما وخوبينتود ريبالدي. وكان ذلك صعباً جداً عليه في عصر لم يعد يستطيع فيه استخدام مبرر الأهداف الاشتراكية وضرورة بناء اقتصاد اشتراكي. لكن لو كان لا يزال يتكلم عن ذلك كله، حتى بالافتراض أنه شاء ذلك، لما تمكن من الاختلاط بالأقطاب الصناعيين - إذ كان أحد أكبر المانحين لورنثو ثامبرانو ملك الإسمنت القادم من مونتيريري - ولما تمكن من إقناعهم بمنح أموالهم.

كان سامبر قد أعلن قبل ذكرى الميلاد أنه بصدد تشريع قانون جديد للتلفزيون يأخذ على عاتقه تأسيس مفوضية، تقرر إن كانت القنوات ملتزمة بحياديتها. وقد افترض الجميع أن الوقت لن يطول حتى تجده وقد ألغى رخصة قناة كاب - التي كانت من أشد نقاد سامبر قسوة - وعندئذ، يُضحي غارسيا ماركيز تحت رحمة السلطة للمرة الأولى منذ سنة 1981. وهنا استشاط غضباً وأعلن أنه لن يحتفل بذكرى ميلاده السبعين في كولومبيا. وفي السادس من آذار، أمضى هو وميرثيديس ورودريغو وغونثالو النهار في مكان سرّي بعيد عن البلاد(8). وقد نوّهت جميع الصحف الإسبانية بذكرى ميلاده السبعين، كما نوّهت أيضاً بذكرى ميلاد رواية **مئة عام من العزلة** الثلاثين. كانت الصحافة تبحث عن أي سبب لذكر اسم غارسيا ماركيز في الصحف، لأن اسمه يزيد مبيعاتها مثلما يزيد من عدد الكتب المباعة. وتبين الآن، أنه بالرغم من إصراره بأنه لا يريد "تقديراً يعقب وفاته وهو لا يزال على قيد الحياة"، فقد كان عازماً على توكيد غيابه عن كولومبيا حتى بطريقة استعراضية أكبر عندما وافق على السفر إلى واشنطن - من دون كل الأماكن - لحضور احتفالات متعددة في شهر أيلول لمناسبة الذكرى الخمسين لأول قصة تنشر له. إن مثل هذه الاحتفالات في واشنطن تتطلب تعاون سفارة الشخص المحتفى وتنظيمها وتأييدها. غير أن غارسيا ماركيز لم تكن لديه علاقة متطورة مع رجل

البيت الأبيض وحسب، بل كان أيضاً صديقاً حميماً للأمين العام لمنظمة الدول الأميركية، وهي المنظمة التي لم تكن الولايات المتحدة فيها إلا أُولى بين متساوين. أما غافيريا، فقد أضحى الآن ممتعضاً مما عدَّه حرج حكومة سامبر، وثارت ثائرته لما عدَّه أيضاً تبديداً للإرث الذي تركه هو، غافيريا، له. لهذا، لجأ إلى معارفه لترتيب سلسلة من المناسبات تكريماً لغارسيا ماركيز تُوِّجت باحتفال أقيم في مقر إقامته، ومأدبة عشاء في جامعة جورج تاون كان فيها غارسيا ماركيز وطوني موريسون، وهي روائية أخرى سبق أن فازت بجائزة نوبل، ضيفين من ضيوف مدير الجامعة الأب ليو دونوفان.

كان الميل إلى الذكرى السنوية يتطور على مدى السنين في الثقافة الغربية مع اقتراب الألفية الكبيرة. لقد أضحت التواريخ 1492، و1776، و1789 في ظل ظروف ما بعد الحداثة معادلات زمنية لمستودعات ثيمية، وكان غارسيا ماركيز في خضم هذه الأشياء كلها في طريقه أيضاً ليغدو مستودعاً ثيمياً خاصاً به، نُصباً هائلاً لا يدانيه نصب آخر في عالم الأدب منذ ثيربانتس أو شكسبير أو تولستوي، وهو ما أدركه حال نشر **مئة عام من العزلة**، تلك الرواية التي غيَّرت العالم في عيون كل الذين قرأوها داخل أميركا اللاتينية، وعيون عدد كبير منهم خارجها. لقد أخذ غارسيا ماركيز يعي شيئاً فشيئاً أنه هو الإوزّة الذهبية، وإن "نوبة الشهرة" التي أحاطت به كانت عنيفة، ومعدية، حتى لم يعد مهماً ما يفعله بصرف النظر عن خططه واستراتيجياته ومناوراته: لقد دخل روح العصر، بل سما فوقها وتجاوزها نحو السرمدية. يمكن للتسويق أن يعمل عمله في الهوامش ليزداد أو لينقص، لكن سحره مستقل استقلالاً ذاتياً. وسيزداد الضغط عليه زيادة كبيرة كي يحول دون أن تتحول حياته إلى احتفاء مستمر بحياته، وإلى ذكرى سعيدة واحدة وطويلة. كيف يمكنه الهروب من هذه المتاهة؟ وهل يريد الهروب بعد اليوم؟

في الحادي عشر من أيلول، زار غارسيا ماركيز بيل كلنتون لتناول الغداء معه في البيت الأبيض. كان كلنتون قد قرأ من قبل رواية **خبر اختطاف** وهي مخطوطة، لكن غارسيا ماركيز أهداه الآن طبعة إنكليزية بغلاف من الجلد "كي لا تؤذي كثيراً". (سبق أن أرسل كلنتون رسالة إلى غارسيا ماركيز عندما أرسل إليه الناشر

نسخة المخطوطة من الكتاب، "قرأت ليلة أمس كتابك من البداية إلى النهاية". وأراد أحد ناشري غارسيا ماركيز استخدام هذا المديح المغالى فيه، والذي لا يقدر بثمن على غلاف الكتاب عندما نشر في نهاية المطاف، فردَّ عليه غارسيا ماركيز قائلاً: "نعم، إنني متأكد أنه سيوافق، لكنه لن يكتب إليّ رسالة أخرى بعد اليوم"). وتحدث الرجلان في الوضع السياسي الكولومبي بخاصة، وفي مشكلة إنتاج المخدرات في أميركا اللاتينية، واستهلاكها في الولايات المتحدة عموماً[9].

لكن سامبر بقي لا يتزحزح عن موقفه. وكان غارسيا ماركيز قد التقى قبل الاحتفال في واشنطن السياسي الصاعد خوان مانويل، من أسرة سانتوس، لمناقشة الوضع الكولومبي الذي لا يزال يتدهور. وكان سانتوس قد صرَّح أنه سيرشح نفسه عن الحزب الليبرالي لخوض الانتخابات الرئاسية المقبلة في سنة 1997. لا أحد يعرف إن كان اثنان يتآمران معاً أو منفصلين لإسقاط سامبر إلاَّ هذان الاثنان اللذان طرحا بالرغم من ذلك "خطة السلام" - وقد قال سانتوس، وهو تحت ضغط عنيف، إن الفكرة هي فكرة غارسيا ماركيز نفسه - "لا بد لنا من عمل شيء جريء، لا بد من دفع الجميع للكلام كي نشارك في الهزيمة، لأننا كلنا نخسر هذه الحرب"، وهي خطة تنطوي على مفاوضات بين جميع قطاعات المجتمع الكولومبي باستثناء حكومة سامبر، إلا أن سانتوس أنكر أنه كان يسعى لإسقاط الحكومة بعد أن افتضح أمر الخطة في الأسبوع الثاني من تشرين الأول. وسافر هو وغارسيا ماركيز جواً إلى إسبانيا - سافر غارسيا ماركيز مباشرة من واشنطن إلى مدريد - للتباحث مع رئيس الوزراء السابق فيليب غونثاليث (وبهذا تشامخ على رئيس الوزراء اليميني الجديد خوسيه ماريا أثنار). لكن فيليب غونثاليث أجهز على المبادرة بقوله إنه لن يدعمها إلا إذا وافق سامبر على المفاوضات وأيدها الولايات المتحدة وغيرها من القوى.

في كانون الثاني سنة 1998، قام البابا يوحنا بولس الثاني، المريض والعجوز، بزيارته التي طال الإعلان عنها إلى كوبا كاسترو، وكانت نتيجة مفاوضات شاقة ومجهدة. (سبق أن أكد لي غارسيا ماركيز في سنة 1997 أن البابا "رجل عظيم" ويتعين عليّ أن أكتب سيرته). واتّبع فيدل أسلوبه في إظهار كوبا على أنها قادرة

على المرونة، في الوقت نفسه الذي تحافظ فيه على مبادئها - الثورية - وسمح بإعادة الاحتفال بذكرى الميلاد، وأعرب عن استعداده للتفاوض مع القوة العظمى على الأرض. ومن سيجلس إلى جوار كاسترو في أثناء الاحتفالات التي تشتمل عليها الزيارة سوى غارسيا ماركيز؟ بالرغم من أن البابا معروف بتاريخه الطويل والناجح في النشاط ضد الشيوعية إلاّ أنه كان معروفاً أيضاً بمعاداته للرأسمالية من أوجه كثيرة، وأنه ضد مظاهر الانحلال في المجتمعات الاستهلاكية الجديدة التي جعلت زيارته تبدو مخاطرة يستحق أن يقوم بها. لسوء حظ كوبا وكاسترو أن الحدث الذي كان يمكنه أن يمنح كوبا قدراً كبيراً من الدعاية المؤيدة لها، ليس أقلها في الولايات المتحدة، أطاحت به عن شاشات التلفزيون العالمية قضية فضيحة بيل كلنتون مع مونيكا لوينسكي المتدربة في البيت الأبيض. وكانت الكارثة مزدوجة: كارثية زيارة البابا لم تؤثر تأثيراً قوياً في العالم كما كان يُراد لها، وكارثية أيضاً لأن كلنتون، وهو صديق غارسيا ماركيز، سيضعف كثيراً من الناحية السياسية على أثر الفضيحة والتحركات التي أعقبتها لاتهامه بالتقصير. واضطر إلى أن يبقى جالساً طوال ما تبقى من مدته الرئاسية لا حول له ولا قوة تماماً مثلما كان حال سامبر. المفارقات لا يرقى إليها شك.

قرر غارسيا ماركيز عدم الرجوع إلى كولومبيا في الجولة الأولى من الانتخابات في شهر أيار، لكنه أرسل رسالة متلفزة من بيته في مدينة مكسيكو موضحاً السبب الذي يدفعه لدعم المرشح للمرة الثانية أندرياس باسترانا المحافظ ("الخوض مع أندرياس"). غارسيا ماركيز يدعم محافظاً؟ ما الذي في وسع العقيد ماركيز أن يقوله! ونظر أفراد أسرته الباقون على قيد الحياة إلى هذه الإشارة منه نظرة استهجان وذهول. لكن، لقد تردد أن باسترانا قريب من الكوبيين في ميامي، ولعل غارسيا ماركيز فكّر في أنه بهذه الوسيلة، وبوسائل أخرى، قد يساعد في موضوع الوضع الكوبي. ولقاء ذلك، كان يفترض بغارسيا ماركيز أن يمد يد العون في موضوع التربية، وهي الشغل الشاغل الرسمي عند باسترانا بعد موضوع اهتمامه الأول المتمثل بعملية السلام مع رجال حرب العصابات.

انتقدت الصحافة الليبرالية غارسيا ماركيز انتقاداً عنيفاً، وإن على مضض. فقد كتب دارتانيان في صحيفة التيمبو مقالة الغرض منها أن تكون مرثية لغارسيا ماركيز

الذي تدخل في الشؤون السياسية الكولومبية حتى هذه اللحظة، لكنه يبدو الآن وقد قضى نحبه. أما مدى التأثير الذي قد يحدثه في إدارة باسترانا فهو أمر مشكوك فيه. ولم يُشاهد لا هو ولا أندرياس وهما "يجاهدان" سواء معاً أو كلاً على انفراد[10].

حاول غافيريا البراغماتي الواضح إعادة كوبا مرة أخرى إلى منظمة الدول الأميركية بعد غيابها عنها منذ أربعة وثلاثين عاماً. لكن القرار صوتت ضده الولايات المتحدة، وهو أمر متوقع تماماً، مما أحرج باسترانا مقدماً - بل ربما ارتاح كثيراً له - وكان مغزاه أن استراتيجية غارسيا ماركيز لبقاء أندرياس في الحكم، قد قضي عليها قبل حتى أن تبدأ، وهو يفسر بلا شك السبب الذي يجعله لا يظهر إلا اهتماماً قليلاً بالشؤون الكولومبية على مدى السنوات الأربع التالية بالرغم من وعوده بالالتزام. لم يكن كلنتون مهتماً بتطوير العلاقات مع كوبا بل "بعملية السلام" التي بادر بها باسترانا وما تنطوي عليه من وعد بوضع نهاية لتجارة المخدرات. وفي الخريف قدم رئيس صندوق التنمية للدول الأميركية، وهو من الزوار الذين يفدون غالباً على منزل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، قرضاً هائلاً إلى كولمبيا لإحلال "السلام من خلال التنمية"[11]. وفي السنوات الأربع التالية، وفي خضم كل الأحداث المثيرة محلياً وعالمياً، يُضحي باسترانا واحداً من أكثر الضيوف الذين يحظون بأكبر تقدير في واشنطن. ففي السابع والعشرين من تشرين الأول قام بأول زيارة رسمية يقوم بها رئيس جمهورية في كولومبيا منذ ثلاثة وعشرين عاماً إلى الولايات المتحدة مع غارسيا ماركيز، وكان محاطاً أيضاً بمجموعة منتقاة من"الإسبان" و"اللاتينيين" الأميركيين، ومعظمهم من الموسيقيين والممثلين[12]. لقد كان من شأن مثل هذا الاحتفال أن يكون مكافأة لباسترانا على موافقته الأولى على"خطة كولومبيا" التي أعلنها كلنتون والمتمثلة بسياسة مناهضة للهدم والتخريب تذكرنا باستراتيجيات الحرب الباردة، وهو الموضوع الذي لم ينوه عنه غارسيا ماركيز بأي تعليق واضح في هذا الوقت، وإن كان قد أربكه إرباكاً شديداً.

بعد أن حُرم غارسيا ماركيز من فترة عرضه التلفزيوني بحلول أواخر العام 1997[13]، اتخذ قراراً على الفور بشراء مجلة كامبيو المرتبطة أصلاً بمجلة كامبيو 16 الإسبانية ذات التأثير واسع الانتشار إبان حقبة التحول الإسباني في ثمانينيات القرن

العشرين. كانت مجلة كامبيو ("التغيير" التي تبين أن اسمها مأخوذ عن شعار أندرياس باسترانا الوحيد خلال حملته الانتخابية) في حالة منافسة مباشرة مع مجلة سيمانا وهي أكبر المجلات السياسية الأسبوعية تأثيراً في كولومبيا. وكانت المنافسة بينهما تشبه المنافسة بين مجلتي تايم ونيوزويك. وتناهى إلى مسامع غارسيا ماركيز أن باتريثيا لارا، وهي صديقة وزميلة وفية لشقيقه إليخيو، كانت على استعداد لبيع المجلة، فقرر هو وماريا ألفيرا سامبر، المدير السابق لكاب، وموريثيو فارغاس، وهو ابن خيرمان فارغاس (عضو سابق في حكومة غافيريا عرف عنه نقده لسامبر) وروبيرتو بومبو، وهو صحافي من مجلة سيمانا، وغيرهم أن يتقدموا بعرض شراء (وهو عرض اشتمل على ميرثيديس أيضاً). وبحلول ذكرى الميلاد، أُبرمت الصفقة، وأصبح اسم الشركة الجديد هو أبرينونثيو أس. أي، على اسم الطبيب في رواية **الحب وشياطين أخرى**. وبنهاية كانون الثاني بدأ غارسيا ماركيز بتأليف مقالات ذات عناوين طويلة – أساساً عن شخصيات ذات أسماء كبيرة كاسمه (تشافيز وكلنتون وديسلي كلارك وخافير سولانا) – كي يعزز المبيعات. وفي السنة التالية تحدث إليه لاري روهتر من صحيفة نيويورك تايمز، ودوّن في ملاحظاته أن "غارسيا ماركيز سهر في الليلة التي أقامت فيها مجلة كامبيو أواخر كانون الثاني 1999 احتفالاً بإعادة مولد المجلة، حتى منتصف الليل محيّياً ألفي ضيفٍ مدعوٍّ. ثم عاد إلى مكتبه وظل يعمل طوال الليل في كتابة مقالة طويلة عن الرئيس الفنزويلي الجديد هوغو تشافيز أنهاها بطلوع الشمس قبل الموعد النهائي. وقال والفرحة تملأ صوته: "لقد أقدمت على مثل هذا العمل قبل أربعين سنة، وهو عمل مدهش"(14).

كان عدد المجلة الخاص بتشافيز مفاجأة. فالعقيد هوغو تشافيز هو الجندي الذي حاول الإطاحة بكارلوس أندرياس بيريث صديق غارسيا ماركيز، لكنه كان أيضاً الرجل الذي جاء، بعد تسلمه السلطة في فنزويلا، لإنقاذ كوبا كاسترو في الألفية الجديدة، وأبعد كاسترو عن الغرق ببيع النفط رخيص الثمن. كما أنه كان "بوليفارياً" يطالب باستقلال أميركا اللاتينية ووحدها، وكان يعمل من وراء الكواليس لمساعدة كوبا وتوحيد أميركا اللاتينية، فقد كان متوقعاً أن يحظى تشافيز بدعمه التام وإن كان خفياً. غير أن غارسيا ماركيز ظل بارد الهمة إزاء تشافيز لأنه

(أي غارسيا ماركيز) كان قد توصل إلى تسوية علاقاته مع باسترانا وكلينتون، على حين كان عداء تشافيز لأميركا دائماً وسافراً. كان غارسيا ماركيز قد التقى تشافيز في هافانا في كانون الثاني سنة 1999 وسافر جواً إلى فنـــزويلا معه وهو في طريق عودته إلى المكسيك. ثم كتب بعد ذلك مقالة طويلة نشرت في جميع أنحاء العالم - حصل من خلالها على أموال طائلة لمجلة كامبيو - وأصبح واسع التأثير. وانتهت المقالة:

هـــبطت طائـــرتنا في كاراكاس عند الساعة الثالثة فجراً. نظرت من خلال الـــنافذة صـــوب تلـــك المدينة التي يتعذّر نسيانها وهي في بحر من الأضواء. استأذن الرئيس بالانصراف بعد معانقة كاريبية. وفيما أنا أشاهده يبتعد محاطاً بحراســـه الذين تعلو النياشين والأوسمة صدورهم راودني شعور غريب، وهو أنـــني ســـافرت وتحدثت إلى رجلين مختلفين تماماً. كان الأول رجلاً مُنحت حظـــوظه الطيبة العنيدة الفرصة لإنقاذ بلاده، وكان الثاني رجلاً مخادعاً يمكن أن يدخل التاريخ بوصفه مستبداً آخر[15].

كـــان غارسيا ماركيز في كوبا مع كاسترو وخوسيه ساراماغو الفائز بجائزة نـــوبل، الذي ظل شيوعياً وثورياً يجهر بثوريته، للاحتفال بالذكرى الأربعين للثورة الكوبـــية. وقرأ فيدل وهو يضع نظارة على عينيه خطاباً قال فيه إن العالم في عصر الرأسمالية متعددة الجنسيات (لأقطاب الصناعات والأعمال) والرأسمالية الاستهلاكية (لمـــستهلكيهم) بـــات اليوم "كازينو عملاقاً"، وستكون السنوات الأربعون المقبلة حاسمة ويمكن أن تأخذ أحد هذين المسارين، وهذا يعتمد على إدراك الشعوب في أن الأمل الوحيد لكوكب الأرض في العيش إنما يتمثل بانتهاء النظام الرأسمالي[16]. من يعلـــم مـــا الذي كان يدور في ذهن غارسيا ماركيز وهو يسمع هذا الكلام؟ لكن عينيه بدتا مثل عيني رجل مريض، مرتبكتين، بعيدتين، غير أنه بالرغم من هذا كله، بـــذل جهـــداً هائلاً في محاولة لزيادة مبيعات كامبيو المخيبة للآمال. وكتب مقالة انتـــشرت انتشاراً أوسع من تلك المقالة التي كتبها عن تشافيز بعنوان: "لماذا اضطر صديقي بيل إلى الكذب" أثارت هلع الإناث في جميع أنحاء العالم، لأنها بدلاً من أن تركـــز على الجوانب المسيئة في مؤامرة الجمهوريين لاتهام كلنتون، عاملته على أنه ليس سوى رجل مثله مثل أي رجل يبحث عن مغامرات جنسية - وهو ما يبحث عنه كل الرجال - ويحاول أن يخفيها عن زوجته وعن أي شخص آخر.

أصغى غارسيا ماركيز إلى فيدل في هافانا وهو يدعو لوضع حد للرأسمالية التي كانت، بحسب تعبيره، تدخل المراحل الأخيرة من تدميرها لكوكب الأرض. لكنه عند رجوعه إلى أوروبا في السنة الأخيرة من القرن العشرين ليواجه التزامات أخرى، ومقابلة المشاهير لكتابة مقالاته لصحيفة كامبيو، أضحى منهمكاً في منظمة جديدة، هي خليط غريب من المثقفين والأقطاب، تدعى فورو إيبرو أميركا هدفها الظاهر التفكير في مشكلات تنمية العالم "خارج نطاق المحنة". ونظمت اليونسكو وأنترأميركان ديفلوبمنت بانك والحكومة الإسبانية الجديدةَ في مدريد ما يشبه اللقاء التمهيدي، وكان اللقاء إلى حدٍّ ما استمراراً لعرض غارسيا ماركيز – ساراماغو. وأعلن غارسيا ماركيز في كلمته القصيرة أن الأميركيين اللاتينيين عاشوا مصيراً غير حقيقي: "وانتهى الأمر بنا إلى مختبر أوهام فاشلة. فضيلتنا الوحيدة هي أننا مبدعون، لكن بالرغم من ذلك، لم نفعل ما هو أكثر من العيش وسط معتقدات حامية وحروب غريبة، نحن ورثة كريستوفر كولومبوس سيِّئ الطالع الذي عثر علينا مصادفة في أثناء بحثه عن الهند الشرقية". ثم نوَّه ببوليفار بوصفه رمز الإخفاق، وكرر ما سبق أن ذكره في خطاب نوبل: "لننسجم انسجاماً هادئاً مع عصورنا الوسطى". ثم قرأ إحدى قصصه الجديدة: "إلى اللقاء في آب"، وهي قصة عن البغاء لا تناسب مثل هذا المنتدى[17]. واقترح ساراماغو وهو يؤدي الدور الذي يؤديه غارسيا ماركيز أن "يصبح كل فرد في العالم خلاسياً"، وعندئذٍ لا تكون ثمة ضرورة للحديث عن الثقافة.

بعد بضعة أسابيع يعود غارسيا ماركيز إلى بوغوتا لحضور اكتساب كارلوس فوينتس وخيسوس دي بولانكو، مالك صحيفة الباييس، عضوية الشرف في معهد كارو كيرفو للفيلولوجيا في كولومبيا. وجلس على المنصة وبدا أكبر سناً من أي وقت مضى، لكنه لم ينبس بكلمة. وكما هي الحال في سنة 1992، فقد وجد أن ارتفاع بوغوتا عن مستوى سطح البحر سبب له مستوىً معيناً من الإرهاق لم يعهده من قبل في أوروبا. ثم تهاوى على الأرض، وتوارى عن الأنظار لبضعة أسابيع، على حين أنكرت ميرثيديس شائعات راجت عن إصابته بالسرطان، وطلبت من الصحافة أن "تتريث" برهة من الزمن. في البدء وردت أنباء عن أنه مصاب

بمرض نادر غريب يدعى "عارض الإرهاق العام"، ولكن الجميع خشوا مما هو أسوأ. وفي النهاية أظهر التشخيص أنه مصاب بالورم اللمفاوي، أو سرطان جهاز المناعة.

ها هو يداهمه المرض مرة أخرى في بوغوتا، وها هي بوغوتا تشخّص مرة أخرى مرضه. ونظراً إلى خطورة التشخيص، فقد سافر هذه المرة إلى لوس أنجلوس، حيث يقطن ابنه، لاستشارة أطباء آخرين. إنه ورم لمفاوي. وقررت الأسرة أن يكون علاجه في مدينة لوس أنجلوس، فاستأجر غارسيا ماركيز شقة في بادئ الأمر، ثم منزلاً من طابق واحد في الأرض المحيطة بمبنى المستشفى. كانت أنواع جديدة من علاج مرض الورم اللمفاوي تظهر باستمرار، وكانت إمكانيات الشفاء تختلف اختلافاً جذرياً عما كانت عليه الحال عندما اضطر ألفارو سيبيدا إلى مواجهة تحدٍّ مماثل في نيويورك. واستدعى غارسيا ماركيز وميرثيديس ابنة سيبيدا باتريثيا، وهي مترجمة تحريرية وفورية سبق لها أن مدت لهما يد العون في زيارات سابقة إلى الولايات المتحدة، وأشهرها اللقاءات التي جرت مع بيل كلنتون. كانت باتريثيا متزوجة بجون أوليري، أحد مرافقي كلنتون ومحام زميل سبق له أن عمل سفيراً في تشيلي. وبعد العلاج والتحاليل التي أعقبته، كان غارسيا ماركيز، كما قال لي، يضطر "إلى الذهاب إلى الطبيب شهرياً كي أتأكد إن كنت سأعيش أو سأموت". لكن التقارير كانت جيدة في كل شهر، وبحلول فصل الخريف، عاد إلى مدينة مكسيكو وظل يسافر إلى لونس أنجلوس لإجراء فحوصات طبيّة شهرية.

في أواخر تشرين الثاني سنة 1999، سافرت جواً إلى مدينة مكسيكو لزيارة غارسيا ماركيز. كان نحيل العود على نحو لم أره فيه من قبل، قصير الشعر. لكنه كان مفعماً بالحيوية والنشاط. وفكّرت مرة أخرى في أنه ظل يردّد طوال حياته أنه يخشى الموت، لكنه بالرغم من ذلك، ظهر كأنه واحد من المناضلين الكبار عند تقلبات الدهر. وكان اللقاء بيننا مشحوناً عاطفياً لأنه كان على علم بأنني أصبت قبل أربعة أعوام بمرض الورم اللمفاوي وبقيت على قيد الحياة[18]. وأخبرني أنه لم يفعل شيئاً طوال شهور، لكنه أخذ الآن يراجع ملاحظاته التي كتبها بشأن مذكراته، وقرأ عليّ قصة ولادته. أظهرت ميرثيديس هدوءاً وإصراراً، لكنني لاحظت أن الجهد الذي يبذله غارسيا ماركيز يستنزف قواها. ومع هذا، فقد واجهت الموقف

وكانت تحيط بزوجها على نحو اعتيادي، بما في ذلك عدم الانـــزعاج البتة. وزاره غونثالو وأطفاله، وتصرف الجد كما كان يتصرف دوماً.

كـــان غارسيا ماركيز قد أخبر جون لي أندرسون من مجلة ذا نيويوركر، أن "خطـــة كولومبـــيا" الـــتي اتفق عليها كلنتون وباسترانا لا يمكن أن تنجح"، وأن الـــولايات المتحدة الأميركية بدت وهي تتراجع إلى "نموذج إمبريالي"[19]. وفي شهر أيلـــول، هدد برفع دعوى قضائية ضد وكالة أخبار إي أف إي ومقاضاها بعشرة ملايـــين دولار لنـــشرها خبراً مفاده أنه "ساعد في مفاوضات مع الولايات المتحدة لـــتقديم الـــدعم العسكري لكولومبيا"[20]. يُحتمل أن هذا هو أسلوبه للإشارة إلى انفصاله علناً عن باسترانا وكلنتون و"خطتهما" القاتلة[21]. وقال لي: "أما بخصوص كولومبـــيا، فأعتقد أنني بدأت أعتاد عليها. وأظن أن كل ما عليك فعله هو القبول بذلك. الأمور تسير نحو الأحسن في هذه اللحظة بالذات، وحتى الميليشيات أدركت أن الأوضـــاع لا يمكن أن تستمر. لكن البلد سيظل كما هو دائماً. فقد شهد على الدوام حروباً أهلية، ورجال حرب العصابات، وسيظل يشهدها أيضاً. إنه أسلوب حـــياة هناك. خذ سوكري على سبيل المثال. رجال العصابات يسكنون في منازل هناك، لكن الجميع يعرفون أنهم رجال حرب عصابات. الكولومبيون يأتون لزيارتي هنا أو في بوغوتا فيقولون لي: *نحن من منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية*. ما رأيـــك بفنجان قهوة؟ شيء طبيعي". إنني أقول هذا لأعني أنه أخذ في نهاية المطاف ينـــبذ الجهود المبذولة لتحويل البلد الذي يتعذر إصلاحه بوساطة النشاط السياسي المباشر، فضلاً على عدم التنويه بالإدراك الخفي بأن وضع شهرته في أيدي المحافظين السياسيين – في هذه الحالة باسترانا والجمهوريون والأميركيون الذين ساقوا كلنتون رهينة سياسية – يمثل خطوة بعيدة أكثر مما ينبغي، وهو ما قاله له معظم أفراد أسرته وعدد كبير من أصدقائه. لقد وفّر المرض، ويا للمفارقة، غطاءً لتراجع خفي عن هذه التحالفات غير السارة. ربما حان الوقت للعودة إلى مذكراته.

كتب مقالات متفرقة وظل على اتصال بصحيفة كامبيو وبالمؤسسة الصحافية بكارثاخيـــنا، لكنه بقي في معظم الأحيان في مدينة مكسيكو، مبتعداً عن الأضواء، وركـــز علـــى تماثله للشفاء، وعلى زياراته لمدينة لوس أنجلوس، حيث استطاع هو

وميرثيديس أن يمضيا معظم الوقت برفقة رودريغو وأسرته. وطوّر غابو وميرثيديس علاقة وثيقة بروبيرتو بوميو الصحافي والمستثمر في مجلة كامبيو الذي انضم إلى أسرة جريدة التيمبو، وهو الآن أرسل للعمل في مدينة مكسيكو، وسيغدو كأنه الابن الثالث لغارسيا ماركيز وميرثيديس على مدى عقد من الزمن. ويكتب غارسيا ماركيز مقالات للمجلة تنحو منحى السيرة الذاتية باستمرار، إضافة إلى مقابلة مع شاكيرا، ويخصّص له ركن بعنوان "غابو يجيب"، يكتب فيه مقالة مستوحاة من أسئلة القراء. وتظل المجلة تعلن عن هذه المقالات كما توفر موقعاً ثابتاً لأولئك الذين يودون الاطلاع على النسخة الخاصة بالإنترنت.

لكن نشاطه الرئيس سيبقى بطبيعة الحال مذكراته. وبقي يمزح غالباً بأن الأشخاص الذين يريدون تأليف مذكراهم، يكونون قد تقدموا في السن إلى الحدّ الذي لا يستطيعون فيه تذكر أي شيء. لكنه لم يذكر أن بعض الناس وافتهم المنية حتى قبل أن يبدأوا بكتابتها. لقد أصبح هدفه الأساس إكمال مذكراته التي تعرف اليوم بعنوانها **عشتُ لأروي**. لعله تذكر محنة بوليفار قرب نهاية كتابة **الجنرال في متاهته**: "لقد هزَّه إيحاء غامر بأن السباق الطائش بين بلاياه وأحلامه، قد وصل في هذه اللحظة إلى خط النهاية، وما تبقى فهو ظلام. ثم تنهد وقال: "اللعنة! كيف سأخرج من هذه المتاهة؟".

حاول أن ينأى بنفسه عن السياسة، لكن مجلة كامبيو كانت تعيده إليها مرة أخرى. كانت المجلة تميل في غيابه إلى اليمين، لكنه كان هو نفسه يميل هذا الميل، كما قد يقول الصحافيون الشبان. كان تشافيز يزداد قوة على قوة، زعيماً شعبوياً للعالم الثالث، لكن غارسيا ماركيز أخبرني قائلاً: "يستحيل أن تتحدث معه". الواضح أن كاسترو لم يوافق على هذا الرأي ما دام قد التقى تشافيز وتحدثا غالباً. ولما واجهته بهذا الكلام قال: "إن كاسترو يحاول أن يكبح تطرفه". يقول تشافيز في أواخر سنة 2002 إن غارسيا ماركيز لم يتصل به منذ لقائهما في مطلع العام 1999، وإنه يأسف لهذا. لما كان تشافيز لا يختلف اختلافاً كبيراً عن عمر توريخوس رئيس جمهورية باناما – في ما عدا أن تشافيز كان أقوى منه بسبب ما يملكه من نفط، ولأنه انتخب انتخاباً ديمقراطياً – يبدو أن غارسيا ماركيز نظر إليه؛ على الأرجح

خارج نطاق القضايا الشخصية (بما فيها صداقته مع كارلوس أندرياس بيريث وتيودورو بيتكوف)، على أنه مدفع منطلق لا يناسب إلى حدٍّ كبير المرحلة الجديدة والدبلوماسية من وراء الكواليس التي عمل هو نفسه فيها طوال العقد الماضي من الزمن.

ومن أمثلة ذلك، خبر أذيع في تشرين الثاني سنة 2000 مفاده أن الصناعي المكسيكي لورينثو ثامبرانو – من مدينة مونتري – ومللك الإسمنت المكسيكي المعروف بالاسم سيميكس، قرر أن يتبرع بمبلغ قيمته مئة ألف دولار كجوائز تُمنح للفائزين في مسابقات تنظمها مؤسسة الصحافة الإيبرو – أميركية الجديدة في كارثاخينا[22]. وبعد مرور أسابيع، أُعلن عن أن العملاق الإعلامي، مؤسسة تيليفيزا، ستشارك مع مجلة كامبيو لإصدار طبعة مكسيكية من المجلة، يتولى إدارتها روبيرتو بومبو. كان هذا هو عالم غارسيا ماركيز الراهن. وتزامن تنصيب الرئيس المكسيكي اليميني الجديد بيثينتي فوكس مع اجتماع فورو إيبرو – أميركا الذي لم يشتمل هذه المرة على غارسيا ماركيز وكارلوس فوينتس بوصفهما من المثقفين المقيمين وحسب، بل على فيليب غونثاليث رئيس إسبانيا السابق أيضاً، وكل من خيسوس دي بولانكو مالك مجلة البايس، والمصرفية العالمية آنا بوتين، وكارلوس سليم، وهو أغنى رجل في المكسيك قُدِّر له أن يصبح أغنى رجل في العالم لمدة من الزمن في أواسط العام 2007، وأن يرتبط بصداقة شخصية مع غارسيا ماركيز، وخوليو ماريو سانتو دومينغو أغنى رجل في كولومبيا ارتبط أيضاً بصداقة المانحين الأسخياء لمؤسسة كارثاخينا. لكن مما هو غير واضح أن يكون غارسيا ماركيز، بوصفه مدير مؤسسة الصحافة المستقلة، قد اضطر إلى منادمة رأسماليين احتكاريين يملكون صحفاً كبيرة ومحطات تلفزيونية من بين ما يملكون من أسهم أخرى كثيرة. كما أن هذا الموضوع، لم ينوه به أحد أمامه علناً. ورفض غارسيا ماركيز أيضاً إبداء أي ملاحظة للصحف، لكنه ذكر أنه لا يملك أي فكرة عما يفعله هو أو أي شخص آخر في المنتدى إلى أن سمع كلمة كارلوس فوينتس الرائعة، التي أوضح فيها أهمية التفاعل بين عالم الأعمال وعالم الأفكار! أما بالنسبة إلى المكسيك، فلم تكن لديه أي فكرة عما يجري فيها. وأدخل سروراً أكبر في نفوس الصحافيين عندما قال

إنه ليس الآن سوى "زوج ميرثيديس"، مما فسَّره البعض على أنه إقرار منه باعتماده الجديد عليها وامتنانه لأسلوبها في النظر إليه طوال محاولته السابقة والمستمرة[23]. لقد استعاد معظم شعر رأسه وخمسة عشر كيلو غراماً من العشرين كيلو غراماً التي فقدها، بالرغم من أن المراقبين تهامسوا قائلين إنه لم يستعد فطنته الحادة وقدراته التامة في التعبير. ربما ساعد العلاج الكيميائي على عملية فقدان الذاكرة، وهو ما كان يشكو منه منذ بضع سنوات.

لقد أحسن غارسيا ماركيز صنيعاً بمغادرته كولومبيا. فقد اختطفت عناصر من منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية صديقه القديم غييرمو أنخولو عندما كان في طريقه إلى منزله الريفي خارج العاصمة بوغوتا. ولكن، قد أطلق سراحه بعد مرور بضعة أشهر وكان في العقد السابع من عمره. وأخبرني أنه واثق من أن غارسيا ماركيز كان له فضل في إخلاء سبيله الذي يعد حدثاً استثنائياً، إذ بقي معظم رهائن هذه المنظمة سنوات طويلة مثل المرشحة لرئاسة الجمهورية أنغريد بيتانكورت[24]. وبحلول أواخر سنة 2000، كان هناك إجماع كبير على أن أندرياس باسترانا ربما كان أضعف رئيس جمهورية كولومبي في حقبة ما بعد سنة 1948. وعندما أرسلت بعض الشخصيات البارزة مثل إيريك هوبزباوم، وأرنستو ساباتو، وإنريكي سانتوس كالديرون رسالة إلى باسترانا وجورج دبليو. بوش مؤرخة بتاريخ شباط 2001 يطالبون بمشاركة الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية في أي نشاط كولومبي – أميركي في كولومبيا. وكان اسم غارسيا ماركيز مرفقاً في الرسالة[25]. مرة أخرى، يؤشر غارسيا ماركيز معارضته "خطة كولومبيا" مما يعني حرق مراكبه، لا مع باسترانا وحسب، بل مع غافيريا الذي كان يدعمها.

في شهر آذار قاد الزعيم ماركوس رجاله غير المسلحين من حركة ثاباتيستا ودخل مدينة مكسيكو كما وعد منذ زمن طويل. فتخلص غارسيا ماركيز من تقاعده برهة وجيزة بمساعدة روبيرتو بومبو وأجرى مقابلة لمجلة كامبيو. كان رجال هذه الحركة قد جذبوا إليهم تعاطف الجناح اليساري والدعم من جميع أنحاء العالم، بمن فيهم عدد كبير من المهاجرين السياسيين والمثقفين المشهورين والشخصيات الفنية. ولم تكن هذه المنظمة من المنظمات التي لدى غارسيا ماركيز من الوقت ما

يهـــدره عليها. بل إن صمته عن معاناة الجماهير، ليس أقلهم الفلاحين المهجرين في كولومبـــيا الـــذين وجدوا أنفسهم في عالم كابوسي بين رجال حرب العصابات والميليشيات وملاك الأراضي والشرطة والجيش، يُحيِّر كل من يراقب نشاطاته على مـــدى الأعـــوام التي تلت سنة 1980. لكن هذا الرجل ليس هو من يصدر بيانات سياســـية تُسرُّ من أجل إراحة ضميره، بل كان إنساناً واقعياً وملتزماً التزاماً سياسياً شـــديداً، يفعل ما يعتقد أنه ضروري ولا يفعل - ما يؤكده النقاد - ما يعتقد أنه سيزيد من شعبيته.

في حـــين كان غارسيا ماركيز يصارع السرطان، كان شقيقه الأصغر يخوض معاركه الخاصة به. فقد كان، شأن غابيتو، يكافح لإكمال كتابه "في أعقاب مفاتيح ميلكيادس: قصة **مئة عام من العزلة**، على حين كان يعاني من ورم مزمن في دماغه، ولم يكـــن قـــادراً علـــى الانتهاء من تأليف الكتاب كما كان يريد، لكنه قرر هو وأسرته وأصدقاؤه وجوب صدور الكتاب قبل وفاته. وعندما نشر في شهر أيار كان إليخـــيو مقعداً في كرسي ذي عجلات، نادراً ما يستطيع الكلام. إنه آخر فرد من ســـلالة بوينديا، وستوافيه المنية بعد أن يفك مغاليق وثيقة أسلاف أسرته، تماماً كما توقع على نحو غريب في رواية **مئة عام من العزلة** (كان كوكي هو أول من يقضي نحـــبه من بين إخوته وأخواته في تشرين الأول سنة 1998). وعندما شيعت جنازة إليخيو في أواخر حزيران، لم يجد غارسيا ماركيز لديه من القوة ما يمكنه من السفر لحضور الجنازة.

في الحادي عشر من أيلول انقضَّت طائرتان مدنيتان يقودهما جهاديو القاعدة علـــى مبنيي مركز التجارة الدولي في نيويورك ودمرتهما، فتغيرت السياسة الدولية تغـــيراً مثيراً وعجلت من السير في طريق الحرب الذي كان جورج دبليو. بوش قد صمم على سلوكه، وإن لم يكن ما حدث هو السيناريو الذي كان يتصوره بوش. كـــان غارسيا ماركيز قد زار مؤخراً كوبا لرؤية كاسترو والذي راجت شائعات مفادها أن صحته تتدهور. بعد مرور أسبوعين على الأهوال في نيويورك، وبعد ثلاثة أسابيع على إطلاق سراح غييرمو أنخولو، في الرابع والعشرين من أيلول سنة 2001، اختطف رجال القوات المسلحة الثورية الكولومبية كونسويلو أراوخو نوغيري غيري،

وزيـــرة الثقافة الكولومبية السابقة وزوجة المدعي العام في الجمهورية، وذلك قرب مديـــنة بايدوبار، وبعد أسبوع واحد تقريباً عُثر على جثتها في الثلاثين من أيلول، ويـــبدو أنها قتلت بسبب نيران متقاطعة. كانت معروفة في جميع أنحاء البلاد بالاسم "لاكاثيا ("الرئيس")، ومن أكبر الدعاة إلى الرفع من شأن بايدوبار ومهرجان أغاني الفاليـــناتو فيها، وكانت صديقة غارسيا ماركيز وألفارو سيبيدا ورافائيل إيسكالونا (وهـــي التي كتبت سيرته) ودانيال سامبر (حتى نشب الخلاف بينهما بسبب سيرة تلفزيونية كتبها) وألفونسو لوبيث ميتشيلسين. وكان بيل كلنتون قد التقاها وكتب عـــنها في مذكراته. كانت آخر امرأة يمكن أن يخيل لأي امرئ أنها ستلقى مصرعها على يد أولئك الذين يزعمون أنهم المدافعون عن الشعب الكولومبـــي وثقافته.

بحلـــول شهر كانون الثاني سنة 2002، اتضح أن غارسيا ماركيز مُقدمٌ على عمـــل ما. كان قد بدأ يعود تدريجياً إلى الحياة العامة، ولاحظ الذين التقوه أنه بات أكثـــر تردداً، مرتبكاً في بعض الأحيان، مفتقراً إلى الذاكرة، إلاّ أنه يبدو بخير. فهو يقترب من سن الخامسة والسبعين، لذا، فإنه في هذه السن وبالتزاماته المتواصلة – إذ لا يـــزال يسهم في الكتابة لمجلة كامبيو والعمل في مؤسسته الصحافية – يكون قد شفي شفاءً مذهلاً مما يشير مرة أخرى إلى حيويته الاستثنائية. بعد هذا الكلام، فإن التأخير في إصدار مذكراته يدل على أنه لم يعد يعمل بصورة فعالة كما في السابق. وبحلـــول أواخر شهر تموز أرسل نسخة أولى من المخطوطة إلى موتيس، إلا أن شيئاً مـــا أخَّر تقدمه مما جعله يستدعي ابنه غونثالو والكاتب الكولومبـــي وليم أوسبينا لمـــراجعة الحقائـــق وملء الفجوات في ذاكرته الضعيفة. لقد كان يضع اللمسات الأخيرة على كتابه عندما توفيت أمه لويسا سانتياغا ماركيز إغواران في كارثاخينا ولها من العمر ستة وتسعون عاماً. وكان زوجها واثنان من أولادها قد وافتهم المنية قبلها. مرة أخرى، يخفق غابيتو في حضور الجنازة[26].

وفي السابع من آب، نُصِّب ألفارو أوريبـــي، الليبرالي المرتد، رئيساً لجمهورية كولومبيا بلائحة انتخابية مناهضة لرجال العصابات. وفي يوم التنصيب، أُطلق عليه رجال منظمة القوات المسلحة الثورية الكولومبية الصواريخ، وكانوا متهمين باغتيال أبـــيه من قبل. مرة أخرى خسر الانتخابات هوراثيو سيربا المرشح الليبرالي وخادم

أرنستو سامبر المخلص. وشعرت البلاد بالفرح وهي تشاهد باسترانا يرحل، لكنها بـــدت وهي تتحمل مخاطرة كبرى بوجود أوريبـــي. فهو أحد ملاّك الأراضي من بلـــدة أنتيوكيا، تربطه شائعات بقوات الميليشيات. لكنه بالرغم من هذا، سيحكم الـــبلاد بقـــوة استثنائية غريبة، بأسلوب شعبوي تسلطي في الوقت نفسه، مما أبقى تقديـــره، ويا للغرابة، عالياً تقريباً. لقد ترك انتخابه في كولومبيا، في حقبة تشافيز، ولـــولا في الـــبرازيل، وموراليس في بوليفار، ولاغوس وباتشيليت في تشيلي، وآل كيرتـــشنر في الأرجنـــتين، البلاد تحت الحكومة اليمينية الوحيدة المهمة في أميركا الجنوبية؛ بالرغم من أن الكولومبيين اعتادوا أن يكونوا غير متجانسين في خطواهم. وقد أضحى أوريبـــي حليفاً وثيقاً لجورج دبليو. بوش ومؤيداً له.

اقتـــرب الـــوقت أخـــيراً لنشر المذكرات التي تغطي المدة الزمنية من ولادة غارســـيا ماركيـــز إلى ســـنة 1955. وفي اللحظة الأخيرة تغير عنوان الكتاب من Vivir Para Contralo إلى Vivir Para Contrala أي مـــن صيغة المذكر إلى صيغة المؤنث، أي من "Living to tell "it والمقصود العيش كي يروي فعل الحياة نفسه، إلى "Living to Tell "it أي الحـــياة. أما عنوان الترجمة الإنكليزية للكتاب فقد أضاف، كمـــا هو معهود، بعداً رومانسياً إذ كان Living to Tell the Tale بمعنى معايشة مغامـــرات كـــثيرة، ومـــن ثم سردها من دون التخطيط لذلك مقدماً، ولا لتكون المعايـــشة أســـلوباً في الحياة[27]. وللطبعة الإنكليزية أيضاً وجهة نظر أخرى. فقد تأخرت هذه المذكرات بسبب قصة مثيرة، هي قصة غارسيا ماركيز المثيرة في صراعه ضد الموت، وضد السرطان وانتصاره البطولي. وقد أدرك الجميع هذا وأولهم قراؤه.

لقـــد ظل غارسيا ماركيز يتحدث عن مذكراته منذ نشر روايته العظيمة عن ماكوندو، وينبغي لهذا أن يكون قد منح قراءه مفتاحاً لأعمق محفزاته بوصفه أديباً. فالعـــودة إلى الماضي هو كل ما أراده، الكتابة عن نفسه هو كل ما رغب فيه. لقد أراد نرسيـــسوس* العودة إلى وجهه الأصلي، لكن وجهه الضائع في الزمن، الضائع في كـــل الأزمنة، كان كثير التحولات ولم يظل على صورة واحدة، فحتى لو وجد ذلـــك الـــوجه الأصلي – الخالد، الموحي – لرآه مختلفاً في كل مرة يظهر له فيها. ولكن هذا هو ما أراده. ففي العام 1967، سمعه الناس يتكلم عن مذكرات، ولا بد

من أهم ظنوا أن هذا الإنسان لم يعش طويلاً بعد. لكن نرسيسوس عاش دائماً عمراً طويلاً يكفي لأن يجعله يريد أن يرى إن كان وجهه لا يزال هو الوجه نفسه. لكن إن لم تخبره أمه قط إن وجهه كان وسيماً لقُضي الكتاب ببحث لويسا سانتياغا عن ولـدها المفقود في بارانكيا في سنة 1950، فيحيلنا إلى ذكريات مثيرة للحزن والألم عن رحلة أخرى كانت قد قامت بها قبل ذلك بست عشرة سنة:

طلبت مني أمي أن أذهب معها لبيع البيت. كانت قد وصلت في ذلك الصباح من بلدة بعيدة حيث تعيش الأسرة، ولم تكن تملك فكرة عن كيفية العثور عليَّ... وصلت عند الساعة الثانية عشرة تماماً. خطت خطوات رشيقة لتجد طريقها وسط مناضد صفت عليها كتب معروضة، وتوقفت أمامي، تنظر في عيني بابتسامة ماكرة من ابتسامات أفضل أيامها. وقبل أن أتمكن من إبداء أي رد فعل قالت:

– أنا أمك.

هكذا يبدأ غارسيا ماركيز وهو في سن الخامسة والسبعين قصة حياته بمشهد تكون فيه أمه، مرة أخرى، خائفة من ألا يعرف من هي، فتضطر إلى أن تعرّفه إلى نفسها. يزعم غارسيا ماركيز أن ذلك اللقاء الجديد – وهو موضوع المذكرات الرئيس – حدث في "اليوم الذي ولدت فيه حقاً، اليوم الذي أصبحت فيه كاتباً"[28]. إنه اليوم الذي استرجع فيه أمه، وسافرا معاً عائدين إلى البيت. العودة إلى البداية.

كان غارسيا ماركيز قد بدأ يقول شيئاً مدهشاً عن مذكراته للصحفيين منذ سنة 1981: إن غارسيا ماركيز يتحدث عن مذكراته التي يأمل أن يكتبها قريباً، وستكون فعلاً "مذكرات كاذبة لأنها تتحدث عمّا كانت عليه حياته، لا كيف يمكن أن تكون، بل بما يعتقده هو نفسه كيف كانت"[29]. وبعد واحد وعشرين عاماً يقول الكلام نفسه. ماذا تعني؟ حسناً. لديه الآن عبارة في صدر الكتاب توضح المعنى: "الحياة ليست ما عاشه أحدنا، بل هي ما يتذكره وكيف يتذكره ليرويه".

تبين أن كتاب **عشت لأروي** هو أطول كتبه، وكما هي الحال مع بقية كتبه، نجده ينقسم – وإن ليس انقساماً تاماً – إلى نصفين، لكن الدليل البنائي الذي خلّف له مشكلات خطيرة يتمثل بأن كلا النصفين ينتهيان نهاية هي الأقل إثارة

للاهتمام – له، ولسوء الحظ لنا أيضاً – تخص بلاد الكاتشاكو: أولاً، القسم الخاص بثيباكيرا (1943–1946) وثانياً، بوغوتا وصحيفة الاسبكتادور (1954–1955).

بالرغم من أن الجزء الأكبر من الكتابة غير عادي، لكن لا بد من الاعتراف أنها كتابة تحقيق رغبة: فهي تخفي كل ما هو مؤذٍ (وهو أمر مدهش في ضوء الطريقة التي بدأت بها). ثمة ملاحظات قارصة أحياناً عن أبيه، لا لشيء إلا لشخصيته التي جُبل عليها، وليس لأن غابيتو نفسه يشعر بأي عداء، أو أن لديه مشاعر أوديبية أو وجهة نظر شاملة لا يزال يصوغها جانب ماركيز إغواران من الأسرة. على العموم، الكتاب يواصل الإحساس بالمصالحة – وصنع السلام – الذي بدأ في رواية **الحب في زمن الكوليرا**. ويحرص المؤلف على أن يرسل – أحياناً فقرة واحدة، وأحياناً سطراً واحداً – عبارات تقدير إلى جميع أصدقائه وزوجاتهم أو أراملهم. ولا يحتوي الكتاب على صداقات حميمية أو اعترافات، بل يشتمل على حياته العامة وحياته "الكاذبة" المبتدعة، لكنه لا يحتوي على قدر كبير من حياته "الخاصة"، ويحتوي على قدر ضئيل جداً من حياته "السرية".

الموضوع الرئيس في الكتاب هو الراوي الذي يتحول إلى كاتب من خلال شعور باطني متنامٍ تتعذر مقاومته، وتجربة حياتيه غير اعتيادية ومتميزة. (ولا يتحول، على سبيل المثال، الراوي إلى كاتب يطور في الوقت نفسه وعياً سياسياً جاداً ومعقداً يزود ما يكتبه بالمعلومات ويصوغها). المفارقة التي يبدو أنه لم يدركها (مع فراغه من تأليف الكتاب، يكون قد فقد شيئاً من وعيه الحاد الذي كان يملكه) هي أن الكتاب – وحياته – تشكله وتسيطر عليه الفترة الزمنية التي تسبق وعيه بمهنته، وعلى وجه التحديد، بالحقبة الزمنية التي سبقت تعلمه القراءة والكتابة، لعل غارسيا ماركيز غير مرتاح لجنس السيرة الذاتية نفسه. فهو منبسط بوصفه كاتباً، يكتب قصصاً تصريحية وغير حقيقية في الوقت نفسه. لكنه عندما يقص قصة حياته تكون حاجته النفسانية إلى الإخفاء أكثر من حاجته إلى الكشف. إضافة إلى ذلك، يمكن أن يكون الادّعاء في المذكرات بمعرفة ما ليس لك به علم وبالاً – وهو الحزين الذي تستمد منه روح الفكاهة في **مئة عام من العزلة** على سبيل المثال – لتأكيد الحقائق التي هي أصلاً متناقضة. كما أن العلاقة المسجلة لأسلوب غارسيا ماركيز – الغلو

والطباق والمختصر المفيد والإزاحة - تثير إشكاليات أكبر في السيرة الذاتية. فعندما يكـــون كل شيء قد قيل ونُفّذ، لا تبقى أمامنا سوى مفارقة غارسيا ماركيز نفسه الذي كشف عن نفسه تماماً في رواية **خريف البطريرك** التي يصعب ولوجها، وتراه الآن يخفيها كلياً في **عشت لأروي** الشفافة على ما يبدو!

من الواضح، في أقل الاعتبارات، أن غارسيا ماركيز أمسى مهووساً بمذكراته، لا بسبب زهوه الذي يُنسب إليه، بل بسبب أن المذكرات هي أفضل وسيلة لمحاربة شهرته وعذابه، وذلك بأن يحيك بنفسه قصته، وروايته عن حياته وشخصيته. لكن بالــرغم مـــن الــوعد الــذي تشي به الصفحات الأولى، إلا أن هذا ليس كتاب اعترافات.

في الــثامن مـــن تشرين الأول سنة 2002، نشرت **عشت لأروي** في مدينة مكـــسيكو بتهليل عجيب ومبيعات مقدماً للكتاب. لقد عاد الساحر مرة أخرى. عاد، حقاً هذه المرة، من بين الأموات.

* * *

لقـــد نجـــا غارسيا ماركيز من الموت بأعجوبة كبيرة. فهو لم يتحمل علاج السرطان عقلياً وجسدياً وحسب، بل أكمل الجزء الأول من مذكراته - لقد عاش حقاً ليروي الحكاية - وترك عن نفسه صورة رضي هو شخصياً بها وعلم أيضاً أنها ســتظل باقية. إن الطفل الصغير على غلاف الكتاب وهو يُمسك بقطعة بسكويت أضـــحى اليوم رجلاً في الخامسة والسبعين، ويا لها من حياة تلك التي عاشها. لقد أخذته الحياة على مدى كل تلك الأعوام ليرحل وسط المتاهة التي لا بد لنا جميعاً من أن نسير أغوارها، وهي متاهة من صنع العالم ومن صنع إدراكنا لها. لقد قرر غارسيا ماركيـــز وهو ينظر إلى الوراء أنه وُلد ليبتكر القصص، وعاش زمناً طويلاً جداً كي يحكي قصة وجود كما عاشه بنفسه. إن الطفل القلق الذي اختار غارسيا ماركيز أن يتركه على ذلك الغلاف باحثاً عن أمه، انتظر كل تلك السنين ليروي للعالم كيف وجدها حقاً مرة أخرى على أرض الواقع، واستعادها مدى الحياة، وكيف أنه ولد مرة أخرى كاتباً بعد ذلك، فانطلق على الدرب الذي سيجعله صاحب رؤية يفتن العـــالم. وفي اللحظـــة نفسها التي بدأ فيها الدفعة الأخيرة لإكمال كتابه، إنها هي

نفـــسها، ويـــا للمأساة، فقدت ذاكرتها، وإنها في اللحظة التي كان يضع اللمسات الأخـــيرة على كتاب هو كتابها بالدرجة الرئيسة مثلما هو كتابه، فارقت الحياة التي كان يدونها بنفسه.

إن القسم الأول من المذكرات الذي تعثر فيه أمه عليه (وليس العكس)، وتخبره من تكون، وتعيده معها إلى المنـــزل الذي ولد فيه، المنـــزل الذي تركته وهو ينمو فـــيه ويترعرع من طفل إلى صبـــي، يمثل مقتطفات أدبية مختارة، وعملاً رائعاً من أعمال السيرة الذاتية الإبداعية بكل المقاييس، وقصة يرويها كاتب كلاسيكي عظيم من كتّاب الأدب الحديث. إنها قبل كل شيء القصة التي أراد أن يرويها، وخبا بريق كل القصص الأخرى عندما رفعها أمام الألوان الزاهية لتلك الرحلة، وأمام العواطف التي كانت سبباً في روايتها. أما بقية الكتاب، فقراءته تبعث على الغبطة إذ يتحدث غارســـيا ماركيز، أخيراً، مباشرة عن حياته وأوقاته المدهشة، لكن ما من شيء فيها يماثل ذلك الانتصار الباهر الذي تحققه الصفحات الخمسون الأولى. ومن المؤكد أن هذا الكتاب سيخيّب، من دون الكتب الأخرى، توقعات قرائه. لكن ما إن يكيفوا أنفـــسهم مـــع حقـــيقة أن السير الذاتية - حتى وإن كانت سيرة ذاتية عن سحرة الأدب - قلمـــا تكـــون ساحرة سحر الروايات، فإن معظمهم سيجدون الكتاب مرضياً ومقبولاً، وأنهم راغبون في قراءته مرة أخرى، وإن كانت تجربة القراءة تشبه تجـــربة الاستحمام بحمام دافئ ومريح يزيل متاعب الحياة وآلامها في أثناء التقدم في السن بمثل هذه السرعة.

في غـــضون ثلاثة أسابيع بيعت مليون نسخة من الكتاب في أميركا اللاتينية وحدها. ولم يحدث من قبل أن بيع أي كتاب من كتبه بمثل هذه السرعة. وفي الرابع من تشرين الثاني أخذ غارسيا ماركيز نسخة من الكتاب إلى الرئيس فوكس في قصر لـــوس بينوس في مدينة مكسيكو. واستطاع الرئيس الفنـــزويلي تشافيز أن يحصل على نسخة وأرسل ثمانيه ولوح به أمام عدسات التصوير في أثناء كلمته الأسبوعية التلفـــزيونية حاثاً الفنـــزوليين على قراءته. وفي الثامن عشر من الشهر نفسه، حطّ ملـــك وملكـــة إســـبانيا في مدينة مكسيكو في زيارة رسمية. وكان أمراً طبيعياً أن يخصصوا وقتاً لرؤية غارسيا ماركيز. ربما أهداهما نسخة.

وفي شــــهر كانون الأول، سافر غارسيا ماركيز مرة أخرى إلى هافانا لحضور المهرجان السينمائي، والتقى هناك فيدل وبيري وأصدقاءه الآخرين. ولما قفل راجعاً من المهرجان في كانون الثاني، أعطى مقابلة هي الأخيرة، كما سيتبيّن لاحقاً، في بيته في مدينة مكسيكو، وفي الحديقة، وفي مكتبته بحضور المصور الأميركي كاليب باخ. وكانــت ســكرتيرته مونــيكا ألونسو غاراي حاضرة، وقالت إن لرئيسها ذاكرة مدهشة، لكن الملاحظ أنها كانت غالباً ما تتدخل للإجابة عن الأسئلة بالإنابة عنه. تحــدث غارســيا ماركيز إلى باخ عن صورته وهو طفل صغير، وهي الصورة التي اختارها غلافاً لكتابه **عشت لأروي**، وكان مسروراً من النتيجة. وقال إن لديه ببغاء له من العمر سبعة وعشرون سنة يدعى كارليتوس. وكشف عن سر - بعد أن نسي أنه سبق له أن أقسم على عدم البوح به - يخص ما قاله له صديقه الطبيب النفساني (لويس فيودتشي) في برشلونة في سبعينيات القرن العشرين، فترك التدخين في اليوم نفسه: إنه يسبب ضعف الذاكرة عند الشيخوخة...[30].

في آذار سنة 2003 غزت الولايات المتحدة وبريطانيا عراق صدام حسين من دون موافقة الأمم المتحدة بذريعة أن العراق يملك أسلحة دمار شامل (وهو ما كان يملكــه الغزاة حقاً، وتبين أن العراق لا يملك شيئاً منها) وأنه يؤيد متشددي القاعدة (وهــذا غير صحيح، لكنه أصبح يأويهم بعد الغزو). يقول البعض إن الحادي عشر مــن أيلــول هو الذي غيَّر العالم إلى الأبد، لكن آخرين قالوا إن رد فعل الولايات المتحدة لحدث الحادي عشر من أيلول، والتي كان غزو العراق أبعدها مدىً وتأثيراً، غيَّــر العــالم أكثر بكثير، ولكن ليس على النحو الذي كان يريده الغزاة، بل على الــنحو الذي كان يريده مدبرو حدث الحادي عشر من أيلول. إنه صدمة ورعب للعــراقيين، ذهول وعدم تصديق بقية العالم ليس أقلهم غارسيا ماركيز. ونقل موقع بــي بــي سي الأميركي اللاتيني مقالة عن تحديات تغطية الحرب بعنوان عشت كي لا *أروي*، وفتحت الولايات المتحدة معسكر اعتقال جديداً في خليج غوانتانامو الكوبــي، وهي المنطقة التي كانت قد احتلتها مثل احتلالها قناة باناما، منذ مطلع القرن العشرين. واعتقل ثلاثمئة متشدد يُنسبون إلى القاعدة في أفغانستان والباكستان ووضعوا في الحبس طوال سنين، وربما عُذبوا من دون أي شكل من أشكال المحاكمة

في تلك الجزيرة التي تصر الولايات المتحدة على أن لحكومة كاسترو سجوناً سُجن فيها معارضوه منذ سنوات، وربما عُذِّبوا من دون أي شكل من أشكال المحاكمة، وقالت إن لا وجود لحقوق الإنسان في جزيرة كوبا. لغة متناقضة لأهداف دعائية. واتضح أن حكومة بوش لديها خطة رسمية لغزو كوبا تنفذها حال الانتهاء من كوريا الشمالية والعراق وإيران: "محور الشر"...

في التاسع عشر من تموز نشرت صحيفة الباييس صورة رجل عجوز في مدينة مكسيكو، وقد كُتبت تحتها عبارة "غارسيا ماركيز لا يسمح أن يراه أحد: لقد بات من النادر رؤية غارسيا ماركيز في أي مكان عام"[31]. وفي المناسبات التي كان يظهر فيها كان يرفض الحديث أيّاً كان للصحافة. الحق أن ما كانت الباييس تعنيه هو: هل أَلَمَّ خطب بغارسيا ماركيز؟ لماذا يتوارى بعيداً؟ أهو مريض؟ لماذا يرفض الحديث. أتراه يفقد ذاكرته؟ هل انتهى؟

في غضون ذلك نشرت المذكرات بالإنكليزية وبالفرنسية، وبالغلاف نفسه. الصور العائلية نفسها في الشهرة المحيطة به. ولم تنل النجاح الذي نالته في العالم المتحدث بالإنكليزية، وإن أقل منه بكثير في فرنسا. وتزامناً مع صدورها، نظم نادي القلم في نيويورك احتفالاً خاصاً بغارسيا ماركيز في الخامس من تشرين الثاني سنة 2003، وفي ضوء تقاليد النادي المتمثلة بحماية حرية الكلام وحقوق الإنسان بالنسبة إلى المؤلفين، فإن القرار مدهش إذا ما أُخذ في الاعتبار الهجوم الذي كان يشنه الأميركيون وغيرهم ضد غارسيا ماركيز بسبب ارتباطاته بكوبا في مطلع السنة. وكان من بين منظمي الاحتفال الرئيسيين روز ستايرون، التي لم تكن صديقة للرئيس السابق كلنتون - الذي ظهر على شاشات التلفزيون - وحسب، بل كانت في حفلة عشاء خرافية بالكاميلوت التي أقامها للفنانين والمثقفين الرئيس كنيدي وجاكي في مطلع ستينيات القرن العشرين[32]. وحضر عدد كبير من أبرز الأدباء والمشاهير والشخصيات في نيويورك، ولكن لا بد من أن ظنهم قد خاب كثيراً عندما أخفق غارسيا ماركيز في المجيء حتى إلى هذا الاحتفال. لم يكن على ما يرام تماماً. هذا صحيح. لكنه كان خائب الأمل تماماً بالتطورات في مجتمع الولايات المتحدة وسياسة الولايات المتحدة في كل من كولومبيا والشرق الأوسط إبان مدة

رئاسة جورج دبليو. بوش. وأرسل رسالة إلى المحتفين لم تكن مفتقرة إلى الدبلوماسية - وإلى العرفان - وحسب، بل كانت واحدة من أشد التصريحات التشاؤمية التي تصرح بها هذه الشخصية التي لا تلين، إذ قال إن الوقت ليس وقت احتفالات. لكن بالرغم من ذلك، فقد أضحت رواية **مئة عام من العزلة** في كانون الثاني سنة 2004 "كتاب أوبرا"، وقد أوصى به برنامج أوبرا التلفزيوني الذي يحظى بإقبال منقطع النظير في الولايات المتحدة. وقفز الكتاب من تسلسله بالرقم 3116 إلى الرقم 1 في لائحة المبيعات[33].

شعر غارسيا ماركيز أنه غير قادر على تجاهل التزاماته الكبيرة على المدى البعيد والتي كان قد قبل بها في المكسيك وقد التزم بمعظمها، لكنه لا يزال لا يعلن عن أي تصريحات للصحافة. فقد كان يحضر وحسب، كأنه ساحر عجوز أبيض الشعر، عطوف، ويجلس في المكان المخصص له على المنصة أو يسلم جائزة. وبقي يحضر اجتماعات مجلة كامبيو التي كانت تعقد في المكسيك، في حين كان روبيرتو بومبو يتولى العناية به مثلما كانت كارمن بالسيلس تعتني به في إسبانيا وباتريثيا سيبيدا في الولايات المتحدة.

كان يأمل أن يكون أكثر حيوية ومغامرة. واستبدل هو وميرثيديس شقتهما الباريسية بشقة أخرى مؤخراً، كما تركا الشقة الصغيرة في شارع ستانسلاس واشتريا شقة أكبر في شارع دوباك، وهو من أكثر الشوارع المرغوب فيها في باريس، وتقع تحت شقة تاتشيا مباشرة. وبهذا، أصبح يملك الآن شقة تحتها على نحو غريب من الوفاء لحب سيِّئ الطالع أضحى في ما بعد ضرباً من صداقة صعبة وغير مريحة. وكانت فرص زيارته الشقة الجديدة ضئيلة جداً، لكن ابنه غونثالو وأفراد عائلته انتقلوا إليها لبعض الوقت عندما رحلوا عن المكسيك إلى باريس سنة 2003 (إذ رغب غونثالو في دراسة الرسم مرة أخرى).

كان غارسيا ماركيز قد وضع المذكرات جانباً، لكنه كان يخطط لرواية بعنوان **ذاكرة غانياتي الحزينات** (التي ظهرت بالإنكليزية بعنوان **ذكريات غانياتي الحزينات** (Memories of My Melancholy Whores) منذ سنين طويلة، في الأقل منذ ربع قرن من الزمان. وعندما التقيته في هافانا سنة 1997، كان هو هذا الكتاب الذي

يفكّر فيه حالياً، ولما تحدثنا بعد مرور سنة تبين أنه قطع شوطاً في الكتاب. لكن من الأرجح كثيراً أنه أكمل نسخة أولى منه قبل نشر كتاب **عشت لأروي** بزمن طويل، وأنه أدخل تعديلات قليلة، لكن مهمة، بين خريفي 2002 و2004 وهو زمن صدوره أخيراً. لقد كانت فكرة الكتاب الأولى هي أن يكون قصة قصيرة طويلة، وهو ليس أكثر من رواية قصيرة، لكن أُعلن عنه كونه رواية، وبيع على هذا الأساس.

في شهر تشرين الأول، وفي حين كانت أميركا اللاتينية كلها تنتظر الكتاب، عاد غارسيا ماركيز إلى كولومبيا، وأظهرته الصور في الصحف وهو يسير في شوارع كارثاخينا وقد بدا عليه الشرود والارتباك برفقة ميرثيديس وشقيقه خايمي الذي يعمل حالياً في مؤسسة الصحافة، ومارغريتا زوجة خايمي، ومدير المؤسسة منذ زمن طويل خايمي آبيلو. وتوقع الكثيرون أن غارسيا ماركيز لن يرجع إلى كولومبيا مرة أخرى أبداً. كانوا مرتبكين. ومع هذا، فإن الساحر العجوز لم يظهر على ما يرام.

عندما ظهرت الرواية الجديدة أخيراً، اضطرب معظم قرائه تماماً، الرواية مروية بأسلوب بسيط، وهي تحكي عن رجل يوشك أن يحتفل بذكرى ميلاده التسعين، ويقرر أن يمضي ليلة ماجنة برفقة مراهقة عذراء، ويدفع المال لسيدة ماخور اعتاد أن يزوره كي ترتب ليلته. وبالرغم من أنه لم يفض بكارة الفتاة، إلا أنه أصبح مهووساً بها، ويغرم بها تدريجياً، ويقرر أن يترك لها كل ممتلكاته. ويقدم الرجل نفسه على أنه إنسان عادي، بائع صحف أعزب، لم يفعل ما يثير الاهتمام في حياته كلها إلى أن يجد الحب للمرة الأولى عندما يبلغ التسعين من عمره. مما بعث على الدهشة، أن هذه الرواية هي الرواية الوحيدة التي كتبها غارسيا ماركيز وتدور أحداثها في بارانكيا، وإن لم تكن البلدة تحمل أي اسم في الرواية.

يبدو مرجحاً أن هذه الرواية تبدأ بعنوانها المثير بدلاً من الصورة التي عادة ما تكون مصدر إلهام روايات غارسيا ماركيز. وقد التصق العنوان بوعي غارسيا ماركيز وانتظر على مدى سنين فرصة أن يتحول إلى رواية. لكن العنوان مشكلة بالرغم من ذلك، فهو من جهة يصدم (ويحتمل أنه أراد ذلك)، فكلمة Puta أي

غانية، ذات لمسة أدبية أكثر من كلمة Prostituta أي زانية، كما أن كلمة زانية أقل حيادية وتوحي بازدراء أشد. وقد رفضت بعض محطات الإذاعة والتلفزيون في كولومبيا السماح لمذيعها بنطق كلمة غانية. ثانياً، ليس للعنوان أي صلة من أي نوع كان بمحتوى الكتاب: فالرواية نفسها تؤكد أن ما لدينا هو "قصة حب" وأن "الغانية" الوحيدة التي يعاشرها الراوي لها من العمر أربعة عشر عاماً فيصبح مهووساً بها، ويبدو أنه لم تكن له سابقاً أي علاقة جنسية من أي نوع، مدفوعة الأجر أم غير مدفوعة. وبقدر ما يتعلق الأمر بالاستنتاج، فإنها ليست "حزينة" (كما أنها ليست يقظة، إن وصل الأمر إلى ذلك). إن العنوان يصبح مفهوماً أفضل بوصفه بيتاً مكتوباً يُجسد خيالاً شعرياً متميزاً عرف بما وراء عصا شاعر العصر الذهبي الإسباني المدهش لويس دي غونغورا (1561–1627)، وهي التي تفصل أثر الكلمات التي تأتي معاً. ولو كان البيت من عنده لأمكن القارئ أن يفككه إلى "ذكرياتي الحزينة عن الغواني أو حزيناً أتذكر الغانيات". لكن هذا كله لا يحل المشكلة الخاصة بالجمع: فالعاهرتان الوحيدتان في جسد الرواية الأساس هما ديلغادينا، وهي الفتاة التي أتينا على ذكرها، وروسا كاباركاس مديرة الماخور (إلا إذا كان العنوان – وهذا بالغ الأهمية كما سنرى – ينطوي على إشارة صغيرة في القصة إلى مومس سابقة تدعى كلوتيلدا آرمينتا، والأكثر تحديداً، إشارة في سطرين إلى مديرة ماخور أخرى تدعى كاستورينا في نهاية الكتاب). لو كان غارسيا ماركيز في أتم صحة وعافية لأنهى حيرة قرائه. فهو يُترك هنا (لعل القارئ المقصود هو المعني بالضمير هو) وقد ساوره الانطباع بأنه مخدوع بعنوان يشير إلى كتاب من الأدب المكشوف، بالرغم من أن عدداً كبيراً من القراء قد يفكّرون في أن هذا الكتاب مكشوف إلى حدٍّ كافٍ.

لقد اعترف غارسيا ماركيز دوماً أنه استمد روح الكتاب من كتاب بيت الجميلات النائمات لياسوناري كاواباتا الذي يدور حول مؤسسة يقصدها كبار السن من الرجال، ليستلقوا بجانب مومسات أعطيت لهن مخدرات ولا يسمح لهؤلاء الرجال بلمسهن[34]. (وتصدير كتاب غارسيا ماركيز مأخوذ عن هذه الرواية). لكن يمكن أن يكون تأثير هذا الاعتراف لإخفاء حقيقة أن العلاقات الجنسية بين رجال ناضجين ومراهقات يفتقرن إلى التجربة هو الموضوع المتكرر في كتاب غارسيا ماركيز.

هـــناك ظاهرتان اجتماعيتان تلتقيان معاً ولكنهما تفترقان تحليلياً، الأولى هي الجاذبـــية التي يشعر بها الرجال نحو المرأة بوصفها "فتاة"، وبوصفها المراهقة التي لم تبلغ من العمر حداً (كما هي الحال مع ريميديوس في **مئة عام من العزلة**، على سبيل المـــثال)، أو قلمـــا بلغـــته، كي تمارس الحب. (عموماً، إن شخصية الدون جوان المعـــروفة، تفضل إغواء الإناث الكبيرات في السن ليس أقلهن أولئك اللواتي يرجعن إلى رجال آخرين متزوجات أو مخطوبات). أما الظاهرة الثانية فهي الهوس بالعذرية، ففي **قصة موت معلن** نجد أن العذرية أو عارض الشرف والعار المرتبط بها يشكلان الـــنقطة المركـــزية في الحـــدث الدرامي. لكن البطلة الأنثى آنخيلا فيكاريو ليست مـــراهقة. لكن في رواية **الحب في زمن الكوليرا** نلاحظ أن فلورنتينو أريثا، وهو في العقد السابع من عمره ويستطيع أن يحتفظ بعطف معظم القراء وميلهم إليه، يمارس الحـــب مع قريبته القاصر ذات الأربعة عشر عاماً أميركا فيكونا (التي يبتدئ اسمها وكنيـــتها بالحـــرفين نفسيهما اللذين يبتدئ بهما اسم أنخيلا فيكاريو) وإن كان – والحق يقال – أنه كانت له علاقة جنسية مع كل امرأة يمكن تخيلها.

إن أشـــهر قـــصة عن هذا الموضوع في الأدب كله هي قصة لوليتا لنابوكوف، ذلـــك الكـــتاب المـــثير للجدل. لكن ما سبب انتشار هذا الموضوع في أدب أميركا اللاتينـــية؟ (إذ لـــيس الهوس بتلميذات المدارس محصوراً برجال أميركا اللاتينية). إنه يـــستخدم غالباً في الرواية الأميركية اللاتينية بوصفه رمزاً لاكتشاف القارة وفتحها، بوصفه الاستيلاء على ممتلكات مجهولة غير معروفة، وبوصفه رغبة في التجدد، في كل شـــيء لم يُستغل ويُطور. لكن قلما يفسر لنا هذا القوة الواضحة للحافز عند الرجال الأميركيين اللاتينيين أنفسهم خارج حدود أي خيال أدبـــي. هناك احتمال مفاده أن الفتـــيات الشابات يتعرضن للإغواء والاغتصاب أو البيع دائماً على أيدي رجال أكبر سناً وأكثر ثراءً وأشد قوة في جميع الثقافات، لكن المراهقين في أميركا اللاتينية يقيمون أولى علاقاتهم الجنسية مع نساء أكبر سناً منهم، خادمة أو مومس عادةً، ويظل العديد منهم يحنّون إلى أول تجربة مع مراهقة بريئة وغير متعلمة و لم يحصلوا عليها عندما كانوا هم أنفسهم مراهقين أبرياء غير متعلمين. إن موضوع روميو وجولييت ليس موضوعاً شائعاً في أدب أميركا اللاتينية أو حتى في مجتمع أميركا اللاتينية نفسه[35].

قـــرر غارسيا ماركيز أن يتزوج امرأته عندما كان في التاسعة من عمره (أو الحاديـــة عـــشرة، أو الثالثة عشرة، فالسن متباينة). الواضح إنه يجد نوعاً من المتعة المفارقة أو المنحرفة عندما يؤكد أنها ليست إلا في التاسعة (وهو ما تجده ميرثيديس أيـــضاً). لكن ربما لم يكن الدافع الحقيقي مفارقة أو انحرافاً؛ ربما رغب في حجزها لنفـــسه مقـــدماً، أن الاحتفاظ بها، نقية، غير ملوثة، له وحده ودائماً. (كان دانتي سعيداً كي يترك بياتريس من دون أن يلوثها هو نفسه).

عـــندما نـــاقش غارســـيا ماركيز هذه الرواية للمرة الأولى معي، كان قد بلغ الـــسبعين. لكن ماريا خيمينا دوثان – صديقة غارسيا ماركيز التي أضحت صحافية وهـــي مـــراهقة – تتذكـــره وهو يخبرها عن هذا المشروع في باريس عندما كان في الخمـــسين[36]. وفي الـــوقت الـــذي نشر فيه الكتاب اقترب من الثمانين، وبطله في التـــسعين. ومما هو فريد في الأدب الحديث، أن هذا الروائي المدهش كان يكتب عن أناس كبار في السن مذ كان في ريعان الشباب. وكلما تقدم به العمر كتب أكثر عن جاذبـــية فتيات في ريعان الصبا. ربما ليس مما يبعث على الدهشة أن صبياً كان جدّاه علـــى درجة بالغة من الأهمية عنده، يصبح مهووساً بتناقضات الشباب والشيخوخة (وتلك مادة قصص الحوريات). هناك فارق مدهش بين غلاف كتاب **عشت لأروي** الـــذي طُـــبعت عليه صورة غارسيا ماركيز البالغ من العمر سنة واحدة بالحبر البني الـــداكن المـــستعمل في كل الطبعات في جميع أنحاء العالم، والطبعة الإسبانية لكتاب **ذاكرة غانياتي الحزينات** الذي تمثل صورة غلافه رجلاً عجوزاً يرتدي ثياباً بيضاء وهو يبـــتعد، ربمـــا ليخرج عن خشبة المسرح، ربما إلى العظمة الكامنة وراءها: كأنه يولي ظهـــره للحياة للمرة الأخيرة (بالرغم من أن الرواية نفسها تتحدى مثل هذا التفسير). يستحيل عدم التفكير في العدد الكبير من العقداء المتقاعدين الذين يظهرون على امتداد الـــسنوات في رواية غارسيا ماركيز، لكن الصورة تبدو شبيهة بغارسيا ماركيز شبهاً غـــريباً: نحيل العود، خفيف الشعر، واهن القوى، ينقح تلك الرواية قبل تسليمها إلى المطبعة. أما إذا كان هناك أحد قد خطط لهذا الفارق كله، فهو ما لا نعرفه.

بمـــا أن الـــرواية مكتوبة بضمير المتكلم، فإنها تمتلك خاصية استغلاقها، وهي خاصـــية غريبة عن معظم روايات غارسيا ماركيز، إذ ليس مفارقة – وهي المسافة

بين الراوي والشخصية – تدفعنا باتجاه نقد البطل أو تفسيره تفسيراً يمكن الاعتماد عليه. فعندما يكتب الراوي – ولنسمه بكنيته موسنتيو كولادو، لأننا لن نعرف اسمه الحقيقـــي – في الصفحة الأولى أنه قرر في ذكرى ميلاده التسعين أن يمنح نفسه ليلة حـــب مجنون مع عذراء مراهقة، نبدو وكأننا لا نعرف كيف يكون رد فعلنا لهذا. وعندما يتحدث عن أخلاقياته ونقاء مبادئه، فإننا لا ندري هل نحكم عليه من حيث موقعنا نحن اليوم، أم نبدأ بقبول كون مجتمعه (بارانكيا في خمسينيات القرن العشرين) لا يوجد من التناقض ما يجعل مثله من الطبقة الوسطى يتكلم بهذه الطريقة.

لم يمارس كولادو الحب من دون أن يدفع الثمن، وهو لا يحب التعقيدات ولا الالتـــزامات. الفتاة التي اقتيدت به في سن الرابعة عشرة، أصغر منه بست وسبعين ســـنة، كانـــت من الطبقة العاملة، يتيمة الأب، مريضة الأم، ويبدو أنه ليس لديها إخوان أكبر منها، ذات بشرة داكنة، لكنتها لكنة الطبقة العاملة، أو تشتغل في معمل أقمـــشة. يتمنى كولادو أن يفكّر فيها على أنها حبيبة في الخيال، دمية حية، ولكن غائـــبة عـــن الوعي. يدعوها بالاسم ديلغادينا، وهو اسم غريب إلى حدٍّ ما، لأن قصيدة البالاد الإسبانية الشعبية التي تحمل هذا الاسم تحكي قصة ملك منحرف، لا يرحم، يتمنى لو ينتهك عرض ابنته نكدة الحظ. لكن كولادو لا يدرك المفارقة. وفي صباح أحد الأيام، تترك له الفتاة رسالة تثبتها على المرآة في غرفة فندقهما: "إلى بابا القبيح"[(37)]. فلا يتمنى معرفة اسمها الحقيقي (بل ولا حتى حقيقة نفسها).

أخـــيراً، وبعد سلسلة من الأحداث الميلودرامية التي تؤججها رغبات العجوز وفانتازياته، يقرر أنه يحب الفتاة حقاً ويوصي لها في وصيته بجميع ممتلكاته. ولكنه لا توافـــيه المنية في ذكرى ميلاده الحادية والتسعين كما كان يخشى، بل نراه يخرج في صباح اليوم التالي إلى الشارع وهو يشعر بالبهجة والثقة بأنه سيعيش حتى يبلغ المئة عـــام. (لا بد من أن القارئ يفكّر في أن أفضل شيء للفتاة هو أن يقضي نحبه على الفور). "كانت حياة واقعية في نهاية المطاف، ظل فؤادي فيها آمناً ومحكوماً عليه أن يمـــوت بالحب السعيد (لا الحب المجنون) وهو يتعذب عذاباً هيجاً في أي يوم يعقب ذكرى ميلادي المئة". لكن الشاب هو الذي يموت من أجل الحب في كتب غارسيا ماركيز: الحب يُبقي كبار السن على قيد الحياة.

حقاً، ثمة قراءتان محكمتان أخريان لم يأتِ النقاد على ذكرهما. الأولى، هي أن الرجل العجوز الذي كان ذات يوم منيعاً، استغلالياً، عديم الرحمة والإنسانية، بات الآن سريع التأثر بسبب "الحب"، فتأخذه مديرة الماخور سيئة السمعة كاباركاس في نـــــزهة بعد أن حولت الفتاة الفقيرة ديلغادينا إلى غانية، وظلت تخادعه بين نهاية حـــدث الرواية (بمعرفة الفتاة على الأرجح) وكتابتها. إن الرواية لا تعالج حقيقة أن كل ما يعرفه البطل عن ديلغادينا فضلاً عما ينجم عن تخبطاته الماجنة وخيالاته غير الـــسوية) يتأتـــى عن تأملات مديرة الماخور التي يمكن أن تكون قد فبركت الفتاة وحـــبها لـــزبونها مـــثل أي كاتب يكتب قصصاً رومانسية وردية، أو مثل أشرطة ســـينمائية هولـــيوودية لتمنح جمهورها – هو كولادو هنا – ما يرغب فيه تماماً. ويرفض كولادو التفاصيل الحقيقية عن الفتاة: إنه ببساطة وبكل وضوح لا يريد أن يعـــرف. وإذا كـــان المـــراد مـــن هذه الحبكة الثانوية أن تكون حبكة أولية – أو تصحيحية – فإن الرواية ستحتاج عندئذ إلى بعد النقد الذاتي المثير للاهتمام حقاً. إن أقـــل ما يمكن قوله هو إنها تحول الأحمقَ العجوز الساذج إلى موضع احتقار (لا إلى موضع شفقة) من القارئ على وجه التأكيد، ومن القارئ والكاتب ربما.

أما القراءة الأخرى (وهي قراءة لا تستبعدها القراءة الأولى بالضرورة) فهي أن كـــولادو شخـــصية محطمة. ففي سن الحادية عشرة تعرّف على نحو لا إرادي إلى الجـــنس عن طريق امرأة عجوز تمتهن البغاء أيضاً وفي المبنى نفسه – في الكتاب – الـــذي كـــان يشتغل فيه والد كولادو (وهو المبنى نفسه الذي نـــزل فيه غارسيا ماركيز وعاش مع بنات الهوى خلال عمله في صحيفة الهيرالدو: ناطحة السحاب). التجـــربة تـــصيب الصبـــي بصدمة نفسية في بادئ الأمر، وتحوله إلى مدمن على ممارسة الحب. وما دام غابرييل إليخيو هو الذي رتب على ما يبدو مثل هذه التجربة المؤلمة نفسياً لغابيتو وهو في العمر نفسه، وما دام غارسيا ماركيز اختار أن يضع هذا الجـــزء – التوضيحي، المبرئ لساحته – في نهاية الكتاب، ربما أراد بذلك أن يقدم تفـــسيراً لعجـــز الـــرجل العجوز عن الحب أو عن تطوير علاقات وثيقة، ولهوسه بالعاهـــرات، ولرغباته غير السوية في اشتهاء العذراء الشابة التي ربما كان يروقه أن يمارس وإياها أول تجربة حب إذا ما كانت هناك إمكانية لتجديد الزمان، فيعود إلى

مرحلة مراهقته. وإذا كانت هذه هي الحالة، فإنها ستدفع القارئ لأن يسأل نفسه إن كان هذا التحليل نفسه ينطبق استعادياً على فانتازيات مماثلة في الروايات المبكرة لهذا الكاتب، وفي هذه الحالة، فإن هذه الرواية التي يرويها بطل بات الآن "متحرراً آخر الأمر من العبودية التي أبقتني عبداً مذ كنت في الثالثة عشرة من عمري[38]"، ستكون نقداً ذاتياً وتكشف عن دواخل النفس بلا رحمة تماماً، مثلها رواية **خريف البطريرك** التي كُتبت قبلها بثلاثين سنة. كما أنها ستشير إلى أن غارسيا ماركيز الذي غفر لأبيه عن وعي بكتابته **عشت لأروي** استمر، من دون وعي (وربما عن وعي)، بتوجيه اللوم إليه للصدمات النفسية خلال طفولته، والتي استمرت آثارها معه حتى بلوغه سن الرشد. باختصار، وكما حدث في المذكرات التي كتبها غارسيا ماركيز وهو في سن الخامسة والسبعين، وعاد إلى فكرة أن لويسا سانتياغا، التي هجرته، خشيت من عدم معرفته إياها، فإنه في **ذاكرة غانياتي الحزينات** التي كتبها وله من العمر سبعة وسبعون عاماً، يعود إلى فكرة أن الأب الذي أخذ أمه بعيداً وهو لا يزال طفلاً صغيراً إنما أدى بذلك إلى انحرافه وهو في بداية مراهقته.

لعل رواية **ذاكرة غانياتي الحزينات** هي أقل روايات غارسيا ماركيز إنجازاً. لكن كما هو شأن كل رواياته، فإننا نعثر على ومضات من الخيال، وأحياناً ملكة شعرية تنبثق كشعاع كأنها من وراء الشاشة الفضية بالرغم من السرد المباشر والعادي. وإذا ما قسنا هذا الكتاب بحسب مستويات الكاتب، فإنه كتاب ضعيف، وفي بعض الأحيان يثير الحرج. باختصار، إنه كتاب غير مكتمل. لكن بالرغم من ذلك، وفي ضوء عمق رؤيته الضمنية للعالم - وبسبب طاقته التي تسمح لكل قارئ وقارئة أن يكملا القصة على النحو الذي يرغبان فيه - فإن هذا الكتاب يتمتع بمستويات عديدة من الإبهام والجمع بين موقفين متناقضين والتعقيد شأنه شأن بقية أعماله - بل حتى أكثر من رواية **الحب وشياطين أخرى** على سبيل المثال، وأكثر من رواية **قصة موت معلن** - لأن هذا الكتاب يداعب مداعبة لا تعرف الخجل ولا الضعف الفانتازيا والبعد الأخلاقي التقليدي اللذين تفتقر إليهما معظم مؤلفاته افتقاراً متعمداً. إن الرواية هي إحدى قصص الحوريات بالرغم من أنها صارخة، ومتوهجة على نحو يثير الارتباك.

يمكـــن للمرء أن يقول إن نهاية الرواية تأخذ غارسيا ماركيز على نحو ما إلى نهايـــة رحلـــته الأدبية والفلسفية في الحياة. فعندما أدرك وهو في العقد السادس من عمـــره أنـــه مقبل على الموت، قرر أن ينجز كل شيء بسرعة "من دون أن يضيع تـــسديدة واحدة". وعندما أصيب بورم لمفاوي في العقد السابع من عمره أضحى الدافـــع أشد وأقوى، لكن كان عليه أن يضع أولويات: وهكذا، فقد تخلى عن كل نشاطاته لبرهة من الزمن وأكمل كتابه **عشت لأروي** لأنه يعلم أن كتابة مذكراته تمثل هدفه العاجل جداً. ثم بات واضحاً أن ذاكرته تتلاشى بسرعة مخيفة، فقرر أن يتناول الأشياء كيفما تأتي بعد أن تمكن من إكمال سيرته الذاتية. الراوي في **ذاكرة غانياتي الحزينات** غير متعجل في النهاية - لأننا لا نتعجل إلا إلى الموت - لكنه وطد العزم على أن يعيش أطول مدة ممكنة وأن يتقبل الأيام يوماً بيوم. وإن كان قد عاش هـــو أيـــضاً كي يروي حكايته. الجانب المثير للحزن، أو التناقضي، في هذا هو أن غارســـيا ماركيـــز لم يصل إلى هذه الحكمة المنطوية على صبر - إن كانت حكمة حقاً - إلا عندما لم يعد الواقع المادي يمنحه أي خيار آخر.

عـــندما كتب جون أبدايك مقالة عن الكتاب في مجلة ذا نيويوركر في العام 2005، حاول أن يسترجع دوافعه المحتملة ببلاغته وبراعته المألوفتين:

> **إن فطـــرة المرء لتذكر قصص غرامه لا تقتصر على فاجرين في العقد العاشر من أعمارهم. فمثل هذه الذاكرة تعكس في أثناء انحطاط الحياة البطيء التيار للحظـــة مـــن الزمان، وتُسكت الصوت الذي يهمس في أذن راوينا: "مهما فعلت، فإنك في هذه السنة أو في المئة سنة المقبلة، ستوافيك المنية إلى الأبد". لقـــد كـــتب السبعيني غابرييل غارسيا ماركيز وهو لا يزال على قيد الحياة، رسالة حب إلى الضوء الخابـــي بجاذبيته الحسية ومزاجه المهيب**[39].

اتضح أن لغارسيا ماركيز سببين رئيسين للعودة إلى كارثاخينا في الوقت الذي صـــدرت فيه الرواية، فهناك اجتماع آخر لفورو إيبرو - أميركا (وكانت إسهاماته في مؤتمـــر كارثاخينا والدخل السياحي سخية). وقبل هذا كله، كان من المتوقع أن يصل إلى المدينة ملك وملكة إسبانيا، وقد وصلوا إليها فعلاً في الثامن عشر من شهر تـــشرين الـــثاني، وانهمك الوغد العجوز في أثناء زيارتهما في مزاح مع صاحبـــي الجلالة الإسبانيين، وربما أثار حفيظة الرئيس أوريبـــي. فإذا ما سُئِل عن كتابه، فإنه

مما لا شك فيه سيوضح قائلاً إن قصته مستوحاة من قصة أميرة إسبانية اعتدى على شرفها والدها الملك. حقاً لم يكن يمثل سوى دور المهرج (فقد بدأت تظهر صوره في الصحف بانتظام وقد أخرج لسانه أمام عدسات التصوير).

لم تعـــد هناك كتب أخرى يكتبها، فحياته الجديدة - نهاية حياته، تقاعده - يمكن أن تبدأ. في نيسان سنة 2005 وبعد كل المخاوف، وللمرة الأولى منذ أن داهمه المـــرض، عبر المحيط الأطلسي، ورجع إلى إسبانيا وفرنسا وزار شقته في أوروبا مرة أخـــرى. وكان سبب هذه الرحلة اجتماع فورو إيبرو - أميركا في برشلونة، وهو التـــزام بـــدا الآن فوق التزام آخر. كانت الصحافة قد بدأت تحتفل مقدماً بعودة غارسيا ماركيز إلى إسبانيا - كان العام يصادف الذكرى المئوية الرابعة لنشر رواية دون كـــيخوته - وعلـــى وجه الخصوص إلى برشلونة حيث كانت السنة هي سنة الكتاب. لكن الصحافة أفادت بأنه لدى وصوله بدا متردداً، وأشارت ضمناً إلى أنه كان قد فقد هويته الذاتية.

لم أتصل به منذ ثلاث سنوات. فقد ترددت في الاتصال. لكنني سافرت جواً في نهايـــة المطـــاف إلى مدينة مكسيكو للحديث معه، وكان ذلك في شهر تشرين الأول. كانـــت ميرثيديس مصابة بالأنفلونـــزا، لذلك جاء هو لزيارتي في الفندق الذي كنت مقيماً فيه. بدا مختلفاً تمام الاختلاف. لم يعد يبدو عليه ما يشير إلى أنه نجا من مرض السرطان. كان نحيل العود إلى حدٍّ مخيف، قصير الشعر عندما فرغ من تألـــيف **عشت لأروي** سنة 2002، أما الآن فبدا كما كان يبدو دائماً: إنه نسخة أكبر سناً من الرجل الذي عرفته بين 1990 و1999. لكنه كان كثير النسيان، وكان في وسعه، بعد تلقين مناسب، أن يتذكر معظم الأشياء من الماضي البعيد - ولكنه لم يتذكـــر دائمـــاً عناوين رواياته - ويتبادل أطراف الحديث بصورة اعتيادية إلى حدٍّ معقـــول وبمزاج رائق. لكن ذاكرته قصيرة الأمد كانت ضعيفة، وكان يتألم على ما يظهـــر من هذا الضعف، ومن المرحلة التي تبين أنه مقبل عليها. وبعد أن تحدثنا عن عمله وعن خططه لبرهة وجيزة، أوضح أنه غير متأكد من أنه سيكتب أي شيء بعد الآن. ثم قـــال بحزن واكتئاب: "لقد كتبت ما يكفي. أليس كذلك؟ لا يمكن للناس أن يخيب ظنهم، ولا يمكنهم أن ينتظروا مني أي شيء آخر. أليس كذلك؟

كنا جالسين على مقعدين زرقاوين كبيرين في ردهة فندق منعزل عن الأنظار يطل على الطريق الدائري الجنوبـــي لمدينة مكسيكو. خارج الفندق، القرن الحادي والعشرون يحلق بعيداً. ثمانية ممرات من الطريق لا تتوقف عليها حركة المرور أبداً.

رمقني وقال:

– أتدري؟ في بعض الأحيان أصاب بالاكتئاب.

– ماذا؟ أنت يا غابو بعد كل ما حققته؟ لا بد من أنك مخطئ. لماذا؟

وهـــنا أشار بيده إلى العالم من وراء النافذة (حيث الطريق الرئيس الفسيح في المدينة، والصمت المطبق على كل أولئك الناس الاعتياديين الذين يمضون إلى أعمالهم في عالم لم يعد عالمه)، ثم رنا إليّ وتمتم:

– لأنني أدرك أن النهاية اقتربت[40].

* * *

خاتمة

الخلود؛ ثيربانتس الجديد

2006-2007

لكن حياة غارسيا ماركيز لم تنته بعد، وإن كان في وسع المرء أن يساوره مثل ذلـك الاعتقاد بعد لقائنا ببضعة أسابيع في مدينة مكسيكو. ففي كانون الثاني سنة 2006 أُجريت معه مقابلة مدهشة لصحيفة لافانغارديا الصادرة في برشلونة؛ مدهشة في الأقـل لأولئك الذين اعتادوا يومئذٍ على أنه لم يعد يتحدث إلى الصحافة. لكن هـذه القضية لم تكن وليدة لحظتها، إذ يبدو أن هناك اجتماعاً عُقد وتقرر فيه أن يُدلي غارسيا ماركيز بعده "ببيان ختامي"، في ظل الظروف السائدة آنذاك، ثم يعقبه انسحاب من الأضواء، فصمت.

كانـت ميرثـيديس حاضـرة خـلال المقابلة في منـزل الأسرة في مدينة مكسيكو - في المقابلة السابقة التي جرت قبل ثلاثة أعوام، كانت سكرتيرته مونيكا هـي الحاضـرة - وهـي الـتي أنهت الحديث، وهو ما لوحظ من خلال تقرير الـصحافيين. لم يقـل غارسيا ماركيز في المقابلة إلا الشيء القليل - وكان التقرير سـرداً أكثـر ممّـا كان حواراً - وعندما سُئل عن حياته الماضية قال: "عليكم أن توجهـوا الـسؤال إلى كاتب سيرتي الرسمي جيرالد مارتن عن مثل هذا الموضوع. أعـتقد أنـه ينتظـر شيئاً ما يحدث لي قبل أن ينهي كتابة سيرتي"(1). صحيح أنني اسـتغرقت وقتاً طويلاً، لكن مثل هذا "الصبر المتوهج"، كما جاء في عنوان رواية أنطونـيو سكارميتا عن ساعي بريد بابلونيرودا، كوفئ الآن بمعرفة أنني كنت بعد خمـسة عشر عاماً كاتب السيرة "الرسمي" لهذا الإنسان العظيم، وليس مجرد كاتب سيرة "مجاز" وهو ما كنت أتصوره. آه لو كنت أعرف ذلك من قبل!

بدت القضية وكأنها عملية حسابية لمعرفة إلى أي مدى سيتمكن من الظهور أمام الملأ وتحت أي ظروف. فهو لا يمكن الاعتماد عليه ليقدم إجابات واضحة أو دقيقة عن أسئلة مباشرة أو غير متوقعة. وكانت لديه القدرة على أن ينسى ما قاله قبل خمس دقائق. إنني لست خبيراً في الأشكال المختلفة التي يتمظهر بها فقدان الذاكرة ولا في تطورها؛ لكن انطباعي هو أن حالته كانت تسير بثبات. من الصعب جداً أن ترى إنساناً جعل من الذاكرة نقطة الارتكاز الرئيسة في مجمل وجوده الذي ابتلي بمثل هذا البلاء. لقد ظل غارسيا ماركيز يصف نفسه بأنه "متذكر محترف"، ولكن عندما وافت المنية أمه، لم تكن تعي من هي ومن هم أولادها. كان أخوه غير الشقيق أبيلاردو قد عانى من مرض باركنسون لثلاثة عقود من الزمان. ويبدو أن أخاه الأصغر منه نانتشي أصيب بالمرض نفسه. أما إليخيو فقد توفي إثر إصابته بورم في الدماغ، وعاد غوستافو من فنزويلا وقد لاحت عليه ملامح فقدان الذاكرة. والآن، أمامنا حالة غابو. قال خايمي لي: يبدو أن الأسرة تعاني من مشكلات في الرأس"[2]. ناهز غارسيا ماركيز التاسعة والسبعين من عمره (تخلى عن الادعاء بأنه ولد سنة 1928 منذ الاحتفالات الكبرى بذكرى ميلاده السبعين، ويمكن للمرء أن يقول إنه بدأ يتصرف تصرفاً ملائماً). وبالرغم من حالته الغامضة غير المحددة، التي لم يكن أي واحد من الحلقة المقربة إليه ميالاً إلى الكشف عنها، والتي التزمت الصحافة إزاءها صمتاً خفياً يثير الدهشة، فإنه لا بد من مواجهة ذكرى ميلاده الثمانين. كانت الأكاديمية الملكية الإسبانية قد بدأت بعد العام 1992 بتنظيم مؤتمرات تعقد مرة واحدة كل ثلاث سنوات للاحتفال باللغة الإسبانية وآدابها في العالم المتحدث بالإسبانية. وكانت هذه المؤتمرات تمثل جزءاً من برنامج إسباني طويل الأمد لنشر الثقافة. وفي المؤتمر الأول الذي تأخر كثيراً وعقد في ثاباكاس في المكسيك في نيسان 1997، اقترح غارسيا ماركيز وجوب تقاعد النحو واللفظ الإسباني التقليديين[3]. وبالرغم من أن هذا الاقتراح أثار جدلاً واسعاً، ومواجهة، فإن الأكاديمية التي كانت تسلطية جداً في الماضي، باتت الآن مؤسسة دبلوماسية واستراتيجية إلى الحدّ الذي سمحت به لأديب له مكانة غارسيا ماركيز أن يصبح مرتداً، ودعته لزيارة الأكاديمية واللقاء بالمسؤولين فيها خلال زيارة إلى مدريد في

تـــشرين الثاني من ذلك العام. ومع هذا، فقد أعلن سنة 2001 أنه لن يحضر المؤتمر الـــثاني في ثاراكوثا (سرقسطة) في إسبانيا احتجاجاً ضد سياسة إسبانيا التي طالبت مواطني أميركا اللاتينية بالحصول على تأشيرة دخول مسبقاً قبل الدخول إليها، وهو الإجـــراء الأول من نوعه في التاريخ. وقال إن إسبانيا تبدو وقد أعلنت نفسها دولة أوروبية أولاً، وإسبانية تنتمي إلى العالم الإسباني ثانياً. استمر الجدال قائماً سنة 2004 عـــندما لن توجه إليه الدعوة لحضور المؤتمر الثالث في روساريو في الأرجنتين (وهي الدولـــة التي ظل يتجنب زيارتها دائماً تجنب مَن يعتقد بالخرافات). ثم أعلن خوسيه ســـاراماغو البرتغالي الفائز بجائزة نوبل أنه لن يحضر المؤتمر إذا لم توجه الدعوة إلى غارسيا ماركيز، وعندئذ صرحت الأكاديمية أن هناك خطأ إدارياً، وبالتالي وجهت الدعوة إلى الكولومبـــي الفائز بجائزة نوبل. لكن غارسيا ماركيز لم يحضر. ثم تقرر أن يعقـــد المؤتمر التالي سنة 2007 في مدينة كارثاخينا دي اندياس، وهي المدينة التي يملـــك فـــيها غارسيا ماركيز بيته الرئيس في كولومبيا والذي يتباهى به في روايتين خالدتين.

أصدرت الأكاديمية عام 2004 طبعة خاصة من رواية **دون كيخوته** لثيربانتس احـــتفاءً بالذكرى المئوية الرابعة لنشر أهم كتاب في تاريخ إسبانيا وآدابها المختلفة. الفكـــرة عظـــيمة لو أن الأكاديمية تمكنت مع حلول المؤتمر التالي في كارثاخينا سنة 2007 من إصدار طبعة مماثلة لرواية **مئة عام من العزلة** تزامناً مع الذكرى الأربعين لـــصدورها، والذكـــرى الثمانين لذكرى ميلاد غارسيا ماركيز. فهو أولاً عبقري إسباني وأميركي لاتيني أيضاً. بل إن عدداً من النقاد قارنوا الرواية الكولومبية **بدون كـــيخوته**، الرائعة التي سبقتها، وأكدوا أنها اكتسبت، وستظل، الأهمية على مدى المـــستقبل المـــنظور، أهمية للأميركيين اللاتينيين توازي الأهمية التي اكتسبها كتاب ثيربانـــتس، للإسبان أوّلاً، ثم للأميركيين الإسبان ثانياً. مما لا ريب فيه أن هناك من سيعترض. لكن ناقداً واحداً ظل غير معجب بغارسيا ماركيز صرّح بعد مدة قصيرة، وهو يلجأ إلى استخدام القياس المنتمي إلى القرن العشرين، بقوله إن رواية **مئة عام مـــن العزلة** جرت في "الحمض النووي" لثقافة أميركا اللاتينية و لم تعد تنفصل عنها منذ صدورها أول مرة عام 1967[(4)].

لقد استغور غارسيا ماركيز، شأنه شأن ثيربانتس، أحلام شخصياته وأوهامها، وهي أحلام إسبانيا وأوهامها في مرحلة تاريخية معينة إبان حقبتها الاستعمارية الكبرى لتصبح، بشكل مختلف، أحلام أميركا اللاتينية وأوهامها بعد الاستقلال. كما أنه ابتكر، أيضاً مثل ثيربانتس، حالة أو مزاجاً، بل شعوراً بالفكاهة يمكن التعرف إليه مباشرة، وهو في حال ظهوره يبدو وكأنه حاضر دائماً وأنه جزء لا يتجزأ من العالم الذي يعود إليه.

في نيسان 1948 كان غارسيا ماركيز قد هرب من بوغوتا وسافر إلى كارثاخينا للمرة الأولى في حياته. في تلك البلدة التي ترقى إلى حقبة الاستعمار، الجميلة، وإن كانت بائسة تعيش مرحلة انحطاطها، التقى رئيس التحرير كليمنت مانويل ثابالا ودعاه إلى أن يصبح صحافياً في صحيفة أُسِّست حديثاً بالاسم: الأونيفرسال، الذي ربما كان اسماً مناسباً. وفي العشرين من أيار سنة 1948 حظي القادم الجديد بالترحاب على صفحات بيته الأدبي الجديد. وفي الحادي والعشرين من أيار، أي بعد ثلاثمئة وثمانية وخمسين عاماً على قيام شخص يدعى ميغيل دي ثيربانتس بكتابة رسالة إلى ملك إسبانيا يطلب فيها وظيفة خارج البلاد "ربما في كارثاخينا". ظهرت المقالة الأولى للقادم الجديد إلى دنيا الصحافة[5]. إلا أن ثيربانتس لم يسافر إلى كارثاخينا مثلما لم يسافر إلى أي بقعة من بقاع جزر الهند، بل لم يشاهد العالم الجديد، وإن كان قد قرر أن يساعد في إنتاج عالم جديد أرحب – عالم الحداثة الغربية – في كتبه، وستسافر تلك الكتب إلى القارة الجديدة بالرغم من الحظر الذي فرضته إسبانيا ضد الإتجار بالروايات وكتابتها في المناطق المكتشفة حديثاً. وفي نيسان سنة 2007، وتزامناً مع مؤتمر الأكاديمية الملكية الثالث في كارثاخينا ووصول ملك وملكة إسبانيا إليها، نُصب تمثال جديد لثيربانتس في واجهة المرفأ الاستعماري القديم.

لقد ظل ثيربانتس طوال حياته محبطاً، لا يجد من يقدّره حق قدره. أما غارسيا ماركيز، ومع اقتراب ذكرى ميلاده الثمانين، فكان واحداً من أشهر الأدباء قاطبة على وجه الأرض، ونجماً مشهوراً قلما كان في وسعه أن يحقق شهرة وتقديراً أكبر في قارته لو أنه أصبح لاعب كرة قدم أو مغنياً. لقد كانت المؤسسة الإسبانية العالمية

تخطط لمنحه وهو على قيد الحياة، ذلك النمط من التقدير الذي لم يكتسبه سوى ثيربانتس، رويداً رويداً وعلى مدى قرون من الزمان، بعد وفاته. عندما فاز غارسيا ماركيز بجائزة نوبل سنة 1982 استمرت احتفالات التغطية الصحافية للحدث في أميركا اللاتينية سبعة أسابيع منذ اللحظة التي أُذيع فيها نبأ فوزه في تشرين الأول، وحتى اللحظة التي سلّمه فيها ملك السويد الجائزة في شهر كانون الأول. وعندما بلغ سن السبعين سنة 1997، استمرت الاحتفالات أسبوعاً كاملاً في شهر آذار، رافقتها تقارير إخبارية متواصلة في الصحافة، ثم أسبوعاً آخر في شهر أيلول عندما جرى الاحتفال في واشنطن بالذكرى الخمسين لصدور أول قصة قصيرة له، ومنها احتفال أقامه الأمين العام لمنظمة الدول الأميركية وزيارة إلى البيت الأبيض لرؤية صديقه بيل كلنتون. اليوم يوشك أن يحتفل غارسيا ماركيز بذكرى ميلاده الثمانين، وبالذكرى الستين لظهوره علناً كاتباً، وبالذكرى الأربعين لنشر رواية **مئة عام من العزلة**، وبالذكرى الخامسة والعشرين لتسلمه جائزة نوبل. وقد بدأ أصدقاؤه والمعجبون به يخططون لاحتفالات تمتد ثمانية أسابيع في شهري آذار ونيسان 2007 لتضاهي تلك الأسابيع السبعة التي لا تُنسى من سنة 1982.

اتخذت خطوات عديدة لتحويل غارسيا ماركيز إلى نصب حي. فقد عمد الصحافي هيربيرتو فيرويلو من بلدة بارانكيا إلى تحويل مشرب ومطعم "الكهف" الذي كان مرتع جماعة بارانكيا القديم إلى متحف من جهة، وإلى مشرب ومطعم من جهة أخرى. وجاءت تحركات لإعادة تسمية بلدة آراكاتاكا إلى آراكاتاكا – ماكوندو على غرار مسقط رأس بروست. لكن لسوء الحظ، لم يشارك عدد كبير من سكان البلدة في الاستفتاء على إعادة التسمية، وانهار المقترح بالرغم من أن معظم الأهالي بدوا موافقين عليه. واليوم، وافقت السلطات المحلية والقومية على تحويل مسكن غارسيا ماركيز القديم في آراكاتاكا الذي ولد فيه إلى منطقة سياحية كبرى؛ وإن كان قد أصبح قبل الآن متحفاً متداعياً لكنه مفعم بالذكريات، وتقرر هدم البيت القديم وإعادة بناء بيت آخر على أسس مدروسة بعناية.

وهكذا حلّ شهر آذار سنة 2007، وخصص مهرجان كارثاخينا السينمائي السنوي لغارسيا ماركيز. وكانت كوبا البلد الذي ركزت عليه الأضواء على نحو

ملائــم تماماً. (وسيحل غارسيا ماركيز كاتباً رئيساً على معرض بوغوتا للكتاب في اللحظــة نفــسها التي بدأت فيها كولومبيا تحمل لقب "العاصمة الدولية للكتاب" وعلــى مدى عام كامل. دوائر متداخلة، كل شيء يتزامن كما في حلم). عرضت معظــم الأفلام المستوحاة من مؤلفات غارسيا ماركيز، وحضر عدد كبير من مخرجيها، مــن ضمنهم فيرناندو بيري، وميغيل ليتين، وخايمي هيرموسيلو، وخورخه علي تيرانا، واليــساندرو دوكــي. لكــن غارسيا لم يحضر المهرجان بالرغم من أن ذكرى مولده صــادفت خــلال انعقاد المهرجان. ولما سُئل عن السبب ردَّ قائلاً: "لم يوجّه إليّ أحد دعــوة". ولم تكن هذه واحدة من أنجح نكاته. لكن كيف يمكن ألاّ يسامح على هذا؟ ففي السادس من آذار، أقيم احتفال بذكرى ميلاده رافقته أغاني الفاليناتو في أفخم فندق في كارثاخينا، وقد أُطلِق على الفندق اسم مناسب تماماً هو *فندق الغرام*، من دون أن يحضر الضيف الرئيس الذي احتفل احتفالاً أكثر هدوءاً مع أسرته في مكان آخــر. لكن التوتر بدأ يزداد بعد هذا كله. فقد حملت الملصقات الإعلانية احتفالية الأكاديمية الملكية المعروفة بالإسبانية بالاسم Congreso de la Tongue أي مؤتمر اللغة أو اللسان، صورة غارسيا ماركيز ضيف شرف المؤتمر، بحسب الملصقات، وقد أخــرج لــسانه في وجه المشاهد. مما لا ريب فيه أن هذا الإقرار بروح الدعابة التي اشتهر بها الأديب المعروف، كانت تهدف إلى الإشارة إلى أن الأكاديمية نفسها لديها روح الدعابــة، لكــن حتى لو كان ذلك صحيحاً، فإن المشكوك فيه أن تمتد تلك الروح إلى احتمال فشل الضيف الشهير في الحضور إلى الاحتفال الذي حرصوا على إعداده له حرصاً شديداً.

وفي أواســط الــشهر، أُقيمت فعالية أخرى في كارثاخينا، وهي الاجتماع الــسنوي لــرابطة الصحافة للدول الأميركية. وكان هناك ضيفا شرف اثنان: بيل غيتس، قطب صناعة الحاسوب الذي كان أغنى أغنياء العالم (بالرغم من أن صديق غارســيا ماركيــز الملياردــر كارلوس سليم حلَّ محله بعد بضعة أشهر) وغابرييل غارسيا ماركيز نفسه، الذي وعد بالحضور وإن لم يكن راغباً في إلقاء كلمة. وقد حضر في اليوم الأخير، لكن ظهوره كان، كعهده، حدثاً مثيراً دفع على الفور بكل المشاركين الآخرين إلى منطقة الظل. كانت لحظة عظيمة لخايمي أبيلو مدير مؤسسة

الصحافة التابعة لغارسيا ماركيز، ولخايمي الآخر، شقيق غارسيا ماركيز الذي أضحى اليوم مساعد المدير. كما كانت لحظة تاريخية للأكاديمية الإسبانية التي تمكنت هي وكولومبيا برمتها من تنفس الصعداء سراً.

أفاد شهود عيان أن غابو بدا بصحة جيدة. وبالرغم من تردده وحيرته، إلا أنه كان رائق المزاج، وفي أحسن حال. وعلى عكس تقديراتي في السنة المنصرمة، بدا وقد تمكن من أن يجعل حالته مستقرة، وعزم على مواجهة المرض والجمهور - من دون مقابلات صحفية - بكل التفاؤل والبسالة اللذين كان يُشهد له بهما في أوقات أكثر مدعاة للراحة. كان الأصدقاء والمعجبون يتقاطرون من جميع أنحاء العالم إلى كارثاخينا، إضافة إلى مئات اللسانيين وغيرهم من الأكاديميين الذين كانوا يحضرون مؤتمر الأكاديمية الملكية. وأقيمت حفلات موسيقية كبرى حضرها نجوم الغناء العالمي، واشتملت أيضاً على عروض أقل شأناً لأغاني الفاليناتو، ووفرة من الفعاليات الأدبية، وعدد كبير من النشاطات الأخرى على هامش المؤتمر. كان الطقس رائعاً. وكما أقدمت الأكاديمية قبل ثلاثة أعوام على إنتاج طبعة فاخرة من رواية **دون كيخوته** لتوزعها خلال انعقاد المؤتمر السابق، فقد أصدرت طبعتها النقدية الجديدة من رواية **مئة عام من العزلة**. ومما لا يبعث على الدهشة أن الطبعة احتوت، من بين ما احتوت عليه، على مقالتين كتبهما أفضل أديبين من أصدقائه وهما ألفارو موتيس وكارلوس فوينتس. ومما جعل الحاضرين يتجاذبون أطراف الحديث احتواء الكتاب على مقالة طويلة كتبها - من دون الناس جمعاً - ماريو فارغاس يوسا. هل حدثت مصالحة؟ هذا أكيد، لأن أي مقالة نشرت في هذا الكتاب كان لا بد من أخذ موافقة كلا الرجلين، بالرغم من عدم معرفة شعور ميرثيديس بشأن مثل هذه الموافقة.

أقام خوليو ماريو سانتو دومينغو، أغنى رجل أعمال وأكثرهم نفوذاً في كولومبيا، والمالك الحالي لصحيفة الاسبكتادور، احتفالاً خاصاً قبل موعد افتتاح المؤتمر ببضعة أيام - وهو أشبه باحتفال ذكرى ميلاد متأخر - كان ضيفا الشرف فيه غابو وميرثيديس. وقد أقيم في الطابق العلوي من فندق آخر من فنادق كارثاخينا الراقية - وهو الفندق الذي سيحل فيه كل من ملك وملكة إسبانيا في

الأسبوع التالي – وكان من بين الضيوف كارلوس فوينتس، وتوماس إيلوي مارتينيث، ورئيس جمهورية كولومبيا السابق باسترانا، وجون لي أندرسون من مجلة ذا نيويوركر الذي جاء مباشرة من حرب العراق، ونائب رئيس جمهورية نيكاراغوا السابق والروائي سيرجيو راميريث، وعدد كبير من الشخصيات من بوغوتا وكارثاخينا وبارانكيا على وجه الخصوص. وتناول الجميع المشروبات، فيما صدحت أغاني الفاليناتو في عمق الليل. وهامس رواد الاحتفال في الممرات والشرفات بالسؤال الكبير: هل يا ترى سيلقي غابو كلمة في الاحتفال لتكريمه في اليوم الأول من المؤتمر؟ وإذا ألقى...

وهلّ اليوم العظيم: السادس والعشرون من آذار سنة 2007. توافد بضعة آلاف من الناس إلى مركز المؤتمرات بكارثاخينا الذي شيد على موضع اعتاد غارسيا ماركيز أن يأكل ويشرب فيه في وقت متأخر من الليل بعد عمله في صحيفة الأونيفرسال في 1948 و1949[(6)]. وحضر عدد كبير من أصدقائه ومعظم أفراد أسرته، وإن لم يحضر أبناؤه، ورؤساء الجمهورية السابقون باسترانا وغافيريا – ويا للدهشة – سامبر، ورئيس الجمهورية السابق بيتانكور الذي سيأخذ محله على المنصة مع بقية المتحدثين ومنهم رئيس الجمهورية الحالي ألفارو أوريبي. كان النهار حاراً خانقاً، ومع ذلك، فإن معظم الرجال كانوا يلبسون بذلات سوداء على طراز بوغوتا. وكان من المتوقع أن يلقي كارلوس فوينتس، الكريم أبداً، كلمة ثناء خاصة بحق صديقه. كما كان مقرراً أن يلقي توماس إيلوي مارتينيث كلمة بعد أن تماثل للشفاء من ورم دماغي، وكذلك مدير الأكاديمية الملكية فكتور غارسيا دي لا كونتشا، والمدير السابق لمعهد ثيربانتس في نيويورك أنطونيو مينوث مولينا، ورئيس جمهورية كولومبيا، وملك إسبانيا، وكذلك غارسيا ماركيز.

عندما دلف غارسيا ماركيز وميرثيديس، نهض جميع الحاضرين ووقفوا على أقدامهم وصفقوا عدة دقائق. بدا سعيداً ومطمئناً. وانتظمت على المقاعد التي رصت على المنصة مجموعتان: غارسيا ماركيز وبطانته (ميرثيديس وكارلوس فوينتس ووزير الثقافة الكولومبي ألفيرا كييردو دي خاراميو)، وبطانة الأكاديمية على الجانب الآخر من خشبة المسرح. ولم يصدق جمهور الحاضرين أن الحظ أتى بهم إلى هنا.

ووضعت شاشة هائلة وراء الأبطال أظهرت وصول ملك وملكة إسبانيا دون خوان كارلـــوس ودونا صوفيا، وشوهدا وهما يرتقيان السلالم ويخطوان على امتداد ممرات مبنى المركز الضخم حتى أُعلن عن دخولهما قاعة المبنى.

ثمـــة كلمات عديدة أُلقيت، ومنها كلمة الملك، معظمها أكثر إثارة مما تتطلبه مـــثل هذه المناسبات. وكانت الكلمة الأبرز لغارسيا دي لا كونتشا الذي كانت مهمـــته تقـــديم النسخة الأولى من **مئة عام من العزلة** بطبعة الأكاديمية الملكية إلى غارسيا ماركيز[7]، وبعد أن استأذن الملك خوان كارلوس، كشف عن سر، وهو أن الأكاديمية فكّرت في بادئ الأمر في فكرة تكريم غارسيا ماركيز في هذا المؤتمر، لذا، فإن غارسيا دي لاكونتشا طلب من الأديب الإذن كي تقيم الأكاديمية هذه الفعالية، فما كان من غارسيا ماركيز إلاّ أن قال آنذاك إنه يوافق، لكن "الشخص الذي أريد أن ألتقيه هو الملك". وفي المرة التالية التي شاهد فيها غارسيا ماركيز خوان كارلوس، أرســـل الرسالة بنفسه: "أنت يا ملك، عليك الحضور إلى كارثاخينا". وهنا تسببت هـــذه الحكايـــة في ضحكة جماعية مدوية تتألف من عدة مكونات - اعتماداً على تفسير كل شخص من جهة، وعلى هوية المستمع إن كان إسبانياً أو أميركياً لاتينياً، ملكياً أو جمهورياً، اشتراكياً أو محافظاً - أعقبها وقوف الحاضرين وقفة مطولة. ألم يكن هذا الأميركي اللاتيني يعرف موقعه؟ الأسوأ، هل تراه لم يعرف كيف يخاطب ملكـــاً؟ أو، وهذا هو الأسوأ: أتراه كان يشعر أنه أرفع شأناً من ملك إسبانيا ولهذا تكلـــم معه من موقع أعلى؟ تنبه أولئك القريبون من المنصة إلى أن غارسيا ماركيز اقتـــرب من الملك وصافحه وحياه تحية طالب أميركي لاتيني - بالتفاف إبهام رجل حـــول إبهام الرجل الآخر - كأنه ندٌّ له. لقد خسر آل بوربون أميركا اللاتينية في مطلـــع القـــرن التاسع عشر؛ والآن يبذل خوان كارلوس قصارى جهده كي يقدم ترضيةً أو تعويضاً دبلوماسيًّا واقتصادياً.

كانت أشد اللحظات إثارة للعارفين هي بداية غارسيا ماركيز خطابه. استهل كلمـــته متلعثماً في بادئ الأمر، وارتبك في جمله الأولى، لكنه سرعان ما انطلق بعد ذلك في الحديث من دون تردد. كان خطابه أكثر من خطاب. إنه ذكريات عاطفية عـــن الأيام التي أمضاها في المكسيك حيث عاش برفقة ميرثيديس في فقر مؤملاً أن

يحقق نجاحاً باهراً في يوم ما، وينشر الكتاب الذي سيصبح أكثر الكتب رواجاً. إنها قصة من قصص الحوريات الصادقة - "لا أزال عاجزاً عن التغلب على دهشتي بأن كل هذا حدث لي" - وشعر الجمهور أيضاً أنها كانت رسالة شكر وعرفان للرفيقة التي رافقته خلال تلك الأزمنة الصعبة وغيرها من الأزمنة، في السراء والضراء، على مدى نصف قرن من الزمن الماضي. بدت ميرثيديس وجلة، مكتئبة، وتضرعت أن يجتاز الرجل هذا التحدي أيضاً بعد أن اجتاز تحديات كثيرة. واجتازه، وأنهى كلمته بقصته عندما ذهب إلى دائرة البريد لإرسال نصف المخطوطة من مدينة مكسيكو إلى بوينس آيرس عام 1966 لأنهما كانا أفقر من أن يتمكنا من إرسالها كاملة[8]. واستغرقت وقفة الحاضرين التي حيته إثر اختتام كلمته عدة دقائق.

قبل ذلك بوقت قصير، وفي خضم الإجراءات السائدة، أصيب الحاضرون في القاعة بالذهول عندما أُعلن عن نبأ آخر: "سيداتي سادتي، وصل السيد وليم كلنتون رئيس الولايات المتحدة السابق إلى المدينة". فنهض الجمهور، فيما شق أشهر رجل على وجه الأرض طريقه نحو مقدمة القاعة. ملك إسبانيا وخمسة رؤساء جمهورية كولومبيا، والآن الرئيس السابق الأكثر شعبية لأقوى دولة في العالم؛ وفكّر بعض المراقبين أن النجمين الوحيدين الغائبين هما فيدل كاسترو، المريض في كوبا، والبابا في روما. اتّضح مرة أخرى أن السلطة - إن كان غارسيا ماركيز مهووساً بها، أو مفتوناً - تنجذب إليه باستمرار وبعناد. لقد ظل الأدب والسياسة هما الطريقين الأكثر فعالية في تحقيق الخلود في العالم الزائل الذي أنتجته المدنية الغربية لهذا الكوكب. إن قليلاً من الناس يعتقدون أن المجد السياسي أكثر ديمومة من المجد الذي يتحقق عن طريق تأليف كتب مشهورة.

* * *

تمكنا من أن نحظى بأقصر حديث قبل مغادرتي كارتاخينا، وكان نهاية أشياء كثيرة.

قلت:

- يا لها من مناسبة رائعة يا غابو.

قال:

- أليس كذلك؟

قلت:

- أتدري؟ عدد كبير من الناس كانوا يبكون من حولي.

قال:

- وأنا أيضاً بكيتُ. بكيت في أعماقي.

قلت:

- حسناً. أعرف أنني لن أنسى هذه المناسبة.

قال:

- حـــسناً. شيء جميل أنك كنت حاضراً فيها كي تخبر الناس أننا لم نفبرك القصة.

* * *

أسـرتا غـارسـيـا مـاركـيـز (غ م)
وبـارتـشـا بـاردو (بـي بـي)

إليخيو غابرييل
غ م (يايو)
1947/11/1 سوكري
2001/6/29 بوغوتا

ألفريدو ريكاردو
غ م (كوكي)
1946/2/25 سوكري
1998/10/4 كارتاخينا

هيرناندو
غ م (نانتشي)
1943/3/26
سوكري

خايمي
غ م
1940/5/22
سوكري

ريتا ديل
كارمن غ م
1939/7/10
بارانكيا

غوستافو
غ م
1935/9/27
آراكاتاكا

ليخيا
غ م *
1934/8/8
آراكاتاكا

راكيل باردو لوبيث
1913/5/31 أرخونا
1996/6/28 أرخونا

ديميتريو بارتشا فيليا
1912/9/2 ماغانغي
1962/9/23 بارانكيا

ميريام بي بي *
1949/11/1
ماغانغي

روسا ماريا بي بي
1947/10/25
سوكري

ألفونسو بي بي
1945/7/28
سوكري

أدولفو بي بي
1941/11/8
ماغانغي

إدواردو بي بي *
1997/9/16
ماغانغي

بيا الثيوندو ألبان
1963/11/25
مدينة مكسيكو

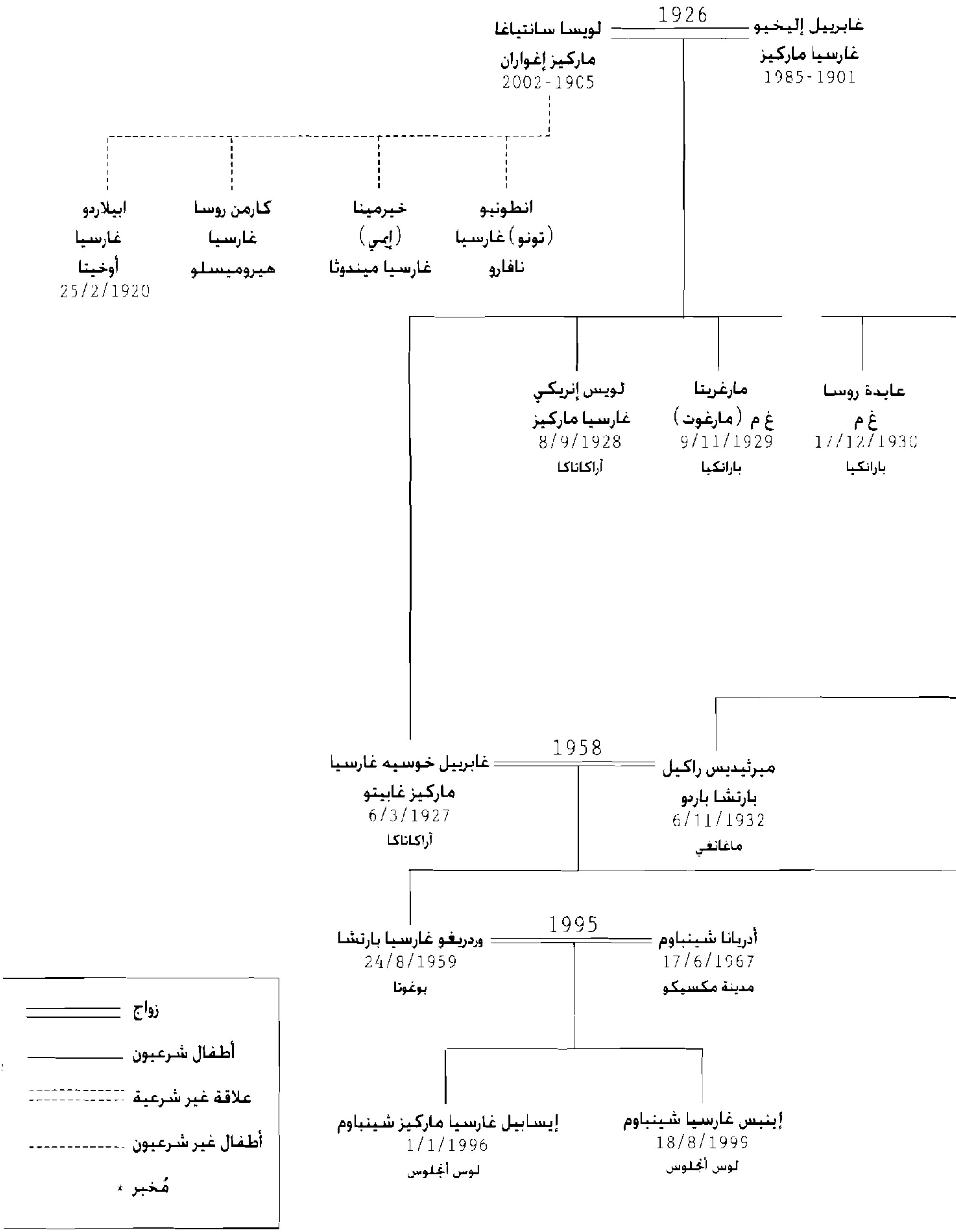
1987

غونثالو غارسيا بارتشا
1962/4/16
مدينة مكسيكو

خيرونيمو غارسيا ألثيوندو
1988/4/7
مدينة مكسيكو

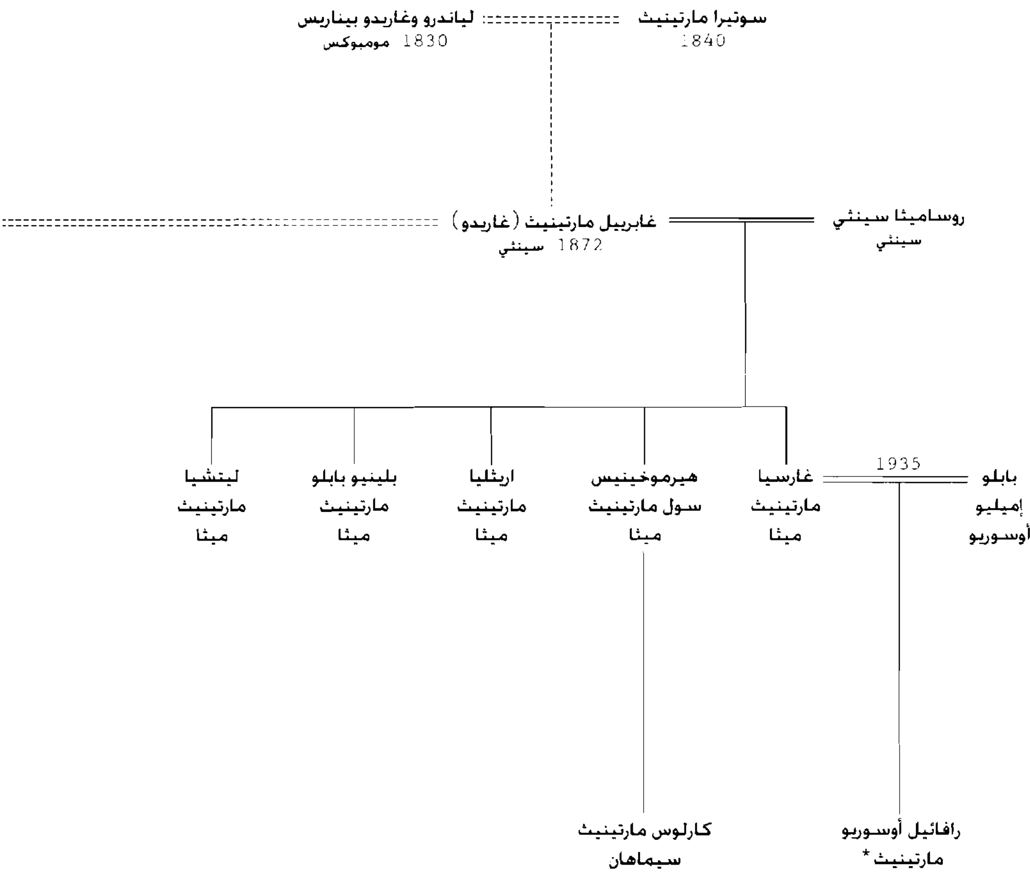
إميليا غارسيا ألثيوندو
1989/12/5
مدينة مكسيكو

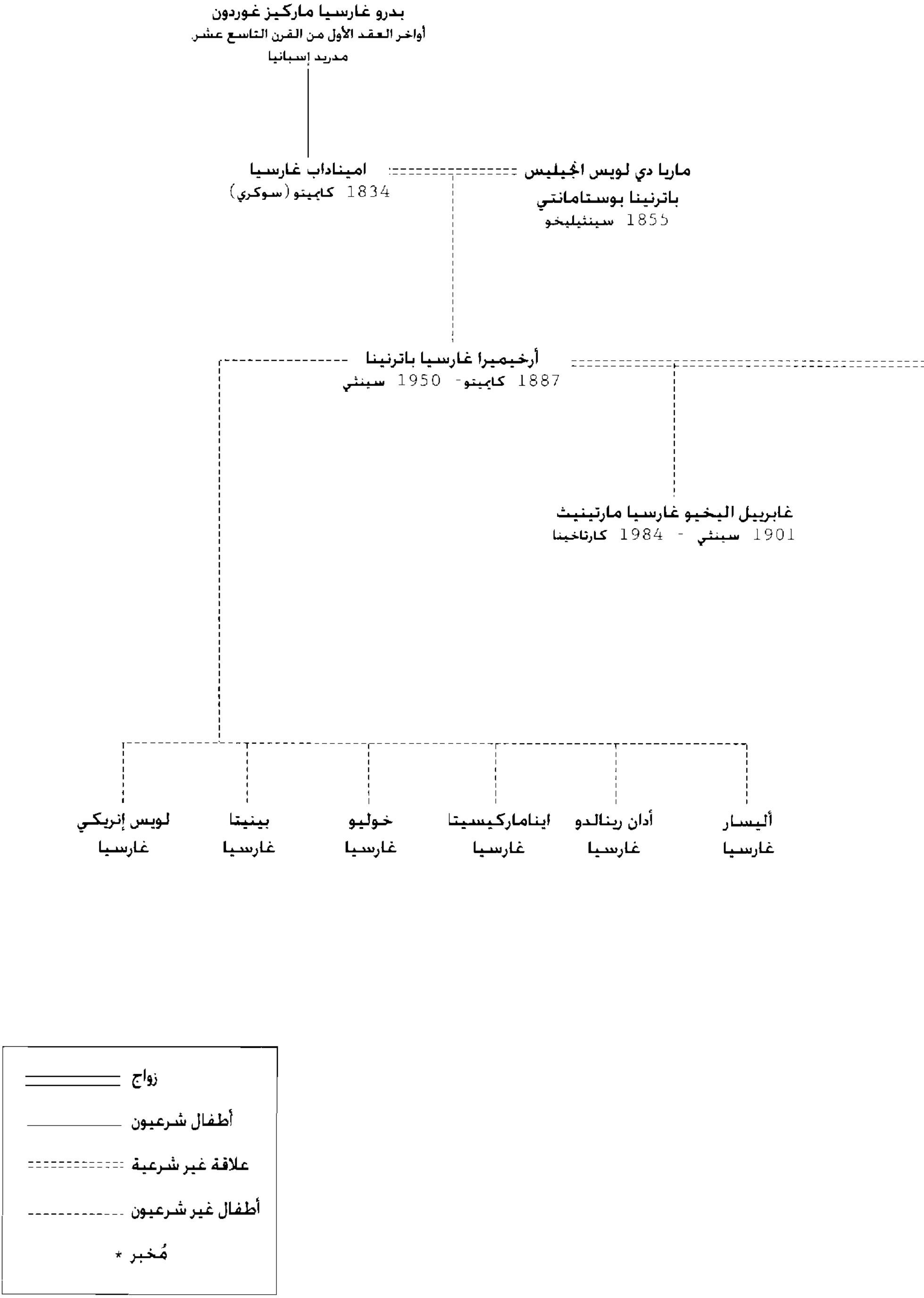
ماتيو غارسيا ألثيوندو
1987/9/25
مدينة مكسيكو



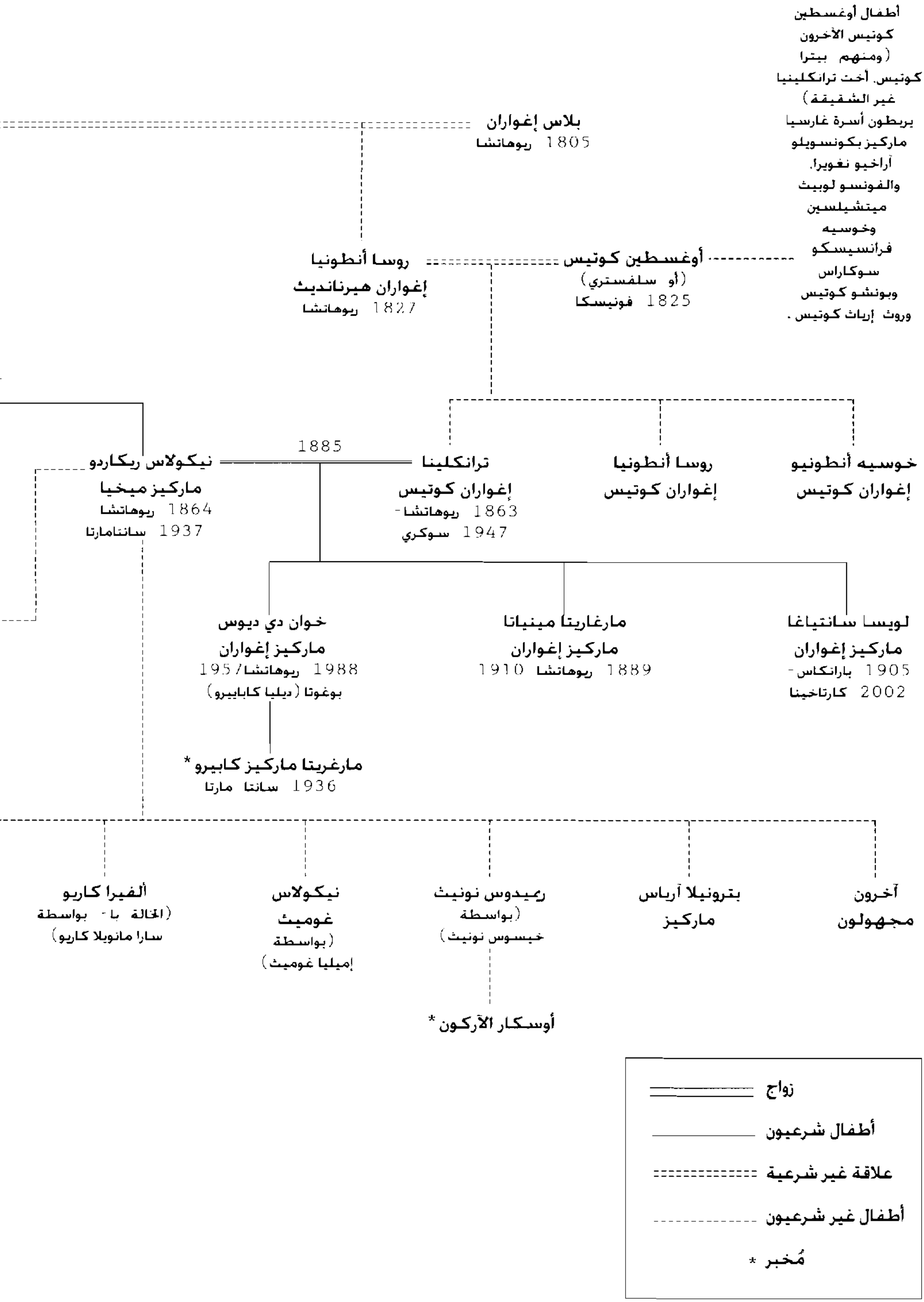
1926
غابرييل إليخيو
غارسيا ماركيز
1985-1901
لويسا سانتياغا
ماركيز إغواران
2002-1905
انطونيو
(تونو) غارسيا
نافارو
خيرمينا
(إيمي)
غارسيا ميندوثا
كارمن روسا
غارسيا
هيروميسلو
ابيلاردو
غارسيا
أوخينا
25/2/1920
عايدة روسا
غ م
17/12/1930
بارانكيا
مارغريتا
غ م (مارغوت)
9/11/1929
بارانكيا
لويس إنريكي
غارسيا ماركيز
8/9/1928
آراكاتاكا
1958
ميرثيديس راكيل
بارتشا باردو
6/11/1932
ماغانغي
غابرييل خوسيه غارسيا
ماركيز غابيتو
6/3/1927
آراكاتاكا
1995
أدريانا شينباوم
17/6/1967
مدينة مكسيكو
وردريغو غارسيا بارتشا
24/8/1959
بوغوتا
إينيس غارسيا شينباوم
18/8/1999
لوس أنجلوس
إيسابيل غارسيا ماركيز شينباوم
1/1/1996
لوس أنجلوس
زواج
أطفال شرعيون
علاقة غير شرعية
أطفال غير شرعيون
مُخبر *

أسرة غارسيا مارتينيث

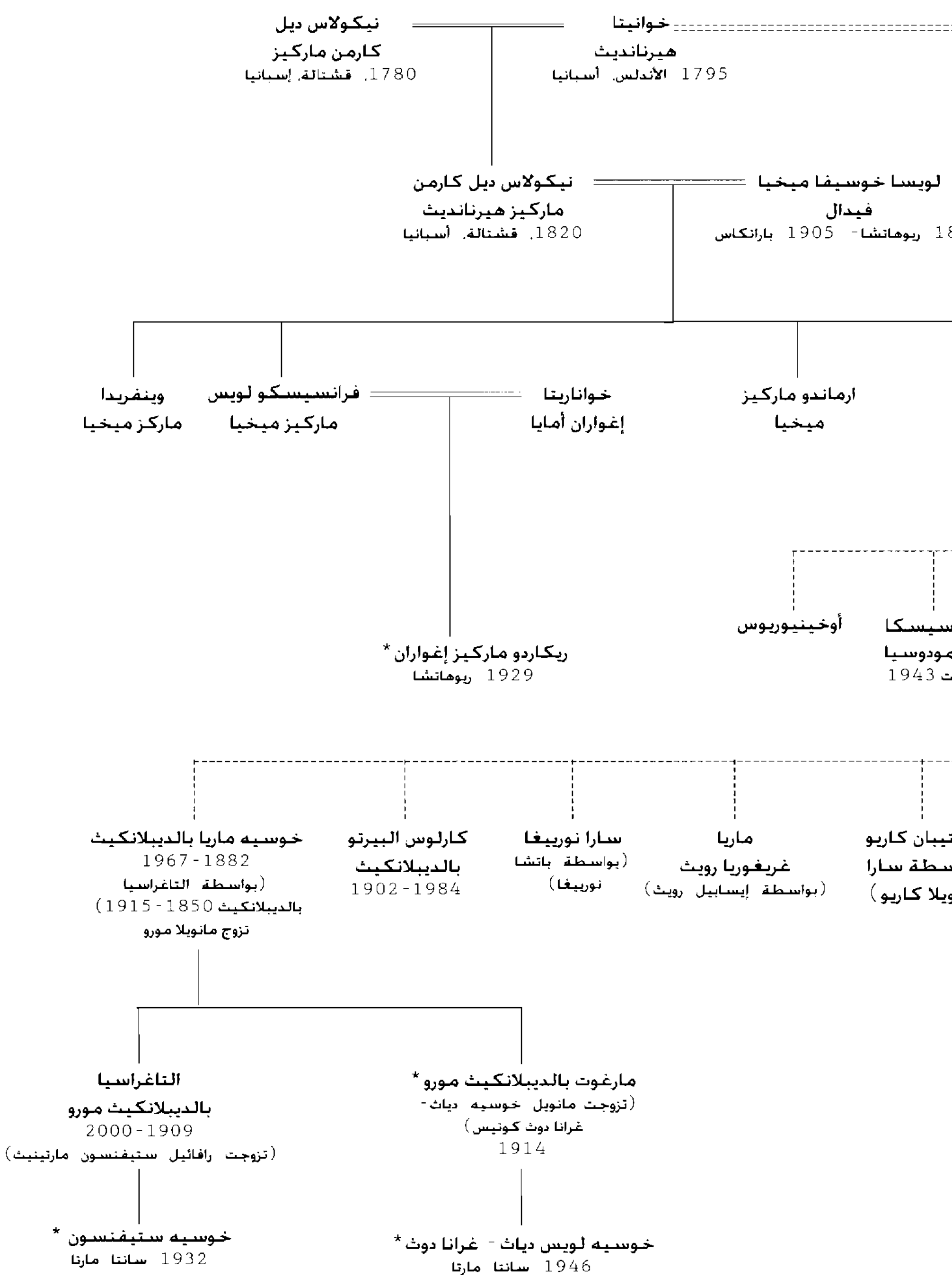




بدرو غارسيا ماركيز غوردون
أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر
مدريد إسبانيا
اميناداب غارسيا
1834 كاميتو (سوكري)
ماريا دي لويس انجيليس
باترنينا بوستامانتي
1855 سينثيليخو
أرخيميرا غارسيا باترنينا
1887 كاميتو - 1950 سينثي
غابرييل اليخيو غارسيا مارتينيث
1901 سينثي - 1984 كارتاخينا
لويس إنريكي
غارسيا
بينيتا
غارسيا
خوليو
غارسيا
ايناماركيسيتا
غارسيا
أدان رينالدو
غارسيا
أليسار
غارسيا
زواج
أطفال شرعيون
علاقة غير شرعية
أطفال غير شرعيون
مُخبر *


أطفال أوغسطين كوتيس الآخرون (ومنهم بيترا كوتيس، أخت ترانكلينيا غير الشقيقة) يربطون أسرة غارسيا ماركيز بكونسويلو أراخيو نغويرا، والفونسو لوبيث ميتشيلسين وخوسيه فرانسيسكو سوكاراس وبونشو كوتيس وروث إرياث كوتيس.
بلاس إغواران
1805 ريوهاتشا
روسا أنطونيا
إغواران هيرنانديث
1827 ريوهاتشا
أوغسطين كوتيس
(أو سلفستري)
1825 فونيسكا
1885
نيكولاس ريكاردو
ماركيز ميخيا
1864 ريوهاتشا
1937 سانتامارتا
ترانكلينا
إغواران كوتيس
1863 ريوهاتشا -
1947 سوكري
روسا أنطونيا
إغواران كوتيس
خوسيه أنطونيو
إغواران كوتيس
خوان دي ديوس
ماركيز إغواران
1988 ريوهاتشا/1957
بوغوتا (ديليا كابايرو)
مارغاريتا مينياتا
ماركيز إغواران
1889 ريوهاتشا 1910
لويسا سانتياغا
ماركيز إغواران
1905 بارانكاس -
2002 كارتاخينا
مارغريتا ماركيز كابيرو *
1936 سانتا مارتا
ألفيرا كاريو
(الخالة پا - بواسطة
سارا مانويلا كاريو)
نيكولاس
غوميث
(بواسطة
إميليا غوميث)
ريميدوس نونيث
(بواسطة
خيسوس نونيث)
بترونيلا آرياس
ماركيز
آخرون
مجهولون
أوسكار الآركون *
زواج
أطفال شرعيون
علاقة غير شرعية
أطفال غير شرعيين
مُخبر *

أسرة ماركيز إغواران



ملاحظات

مقدمة المترجم

1. كاتب أميركي له روايات امتازت بالواقعية منها **لمن تقرع الأجراس**، حاز جائزة نوبل عام 1954.
2. روائي أميركي ولد في نيو ألباني عالج مشكلات الإنسان في جنوبي الولايات المتحدة. تميز أسلوبه بالرمزية والتحليل النفسي، من رواياته **الصخب والعنف**، **معبد**، **نور آب**، حاز جائزة نوبل عام 1949.
3. أديب وناقد فرنسي استوحى أعماله النقدية من الدراسات العصرية للألسنية والتحليل النفسي وعلم الإنسان، من كتبه **درجة الصفر للكتابة** و**إمبراطورية العلامات** و**لذة النص**.
4. شاعر وروائي غواتيمالي عالج مشكلات بلاده الاجتماعية وأحيا تراثها التاريخي. له أساطير **غواتيمالا** و**السيد الرئيس** حاز جائزة نوبل سنة 1967.

مقدمة المؤلف

1. جويس جيمس روائي إيرلندي. يعتبر أحد أعظم الروائيين العالميين وأحد أبرز ممثلي الرواية النفسية، أشهر آثاره **يوليسيز**.
2. روائي فرنسي يعد أحد أبرز ممثلي الرواية النفسية، أشهر آثاره سباعية دعاها **بحثاً عن الزمن المفقود**.
3. روائي نمساوي تميزت آثاره بتصوير قلق الإنسان الحديث ومحاولته البحث عبثا عن طريق للخلاص.
4. روائية إنكليزية عرفت بنزوعها إلى الخروج على عمود التقليد في كتابة الرواية، أصيبت باضطراب عقلي فانتحرت.
5. روائي إنكليزي يعتبر بإجماع النقاد أعظم الروائيين الإنكليز بلا استثناء، تميز أسلوبه بالدعابة البارعة والسخرية اللاذعة، وقد صور في رواياته جانباً من حياة الفقراء والمعوزين.
6. شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي. اعتقد بقدرة الإنسان على بلوغ الكمال، أشهر آثاره رواية **البؤساء**.

(*) تجـــاوز عـــدد صـــفحات السيرة الألفين، والهوامش الستة آلاف عندما أدركت في نهاية المطـــاف أنني ربما لن أفرغ من هذا المشروع. أما هذه السيرة التي أضعها في متناول القراء فهـــي نسخة منقحة عن سيرة أطول بكثير، فرغت من كتابتها تقريباً، وأريد نشرها بعد مـــرور بـــضع سنوات، إذا ما رأفت بنا الحياة. لكن يبدو من المعقول تأخير تلك المهمة الضخمة والعمل على استخلاص كشوفاتي والمعلومات التي حصلت عليها في نمط سردي موجز ومحكم نسبياً، في حين أن موضوع هذا الكتاب، الذي يخص رجلاً تجاوز الثمانين من عمره اليوم، لا يزال حياً وفي موقع يمكنه من قراءته. (المؤلف)

تمهيد: من أصول مغمورة 1800–1899:

1. يستند هذا القسم من الكتاب، بالرغم من أسلوبه الأدبـــي، استناداً مباشراً إلى أحاديث مـــع لويـــسا سانتياغا ماركيز في كارثاخينا عام 1991 وفي بارانكيا عام 1993، وعلى ذكـــريات غابـــرييل غارسيا ماركيز وأخته مارغريتا التي سنشير إليها من الآن فصاعداً بالاسم مارغوت.

2. تـــستند هذه المقدمة والفصول الثلاثة القادمة على أحاديث مع جميع أفراد أسرة غارسيا ماركيـــز وعـــدد كبير من أفراد الأسرة البعيدين في السنوات 1991–2008، إضافة إلى العديـــد مـــن الرحلات حول الساحل الكولومبـــي وذلك من بلدة سوكري إلى بلدة ريوهاتـــشا وما خلفها، وبعض هذه الأحاديث مع أخوة غابرييل غارسيا ماركيز. وكان مـــن أدق من زودني بالمعلومات ليخيا غارسيا ماركيز، من طائفة المورمون، التي رأت أن واجبها يتمثل بالبحث في تاريخ أسرتها (وأنا مدين لها بإعداد شجرة العائلة)؛ ومارغوت بالديبلانكـــيث دي ديات – غرانادوس التي أمضت وقتاً طويلاً في منـــزل جدها العقيد ماركيـــز في عـــشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين؛ وريكاردو ماركيز إغواران الذي زودني في عامـــي 1993 و2008 بمعلـــومات قيمة عن تفرع الأسرة في منطقة غواخيرا؛ ورافائيل أوسوريو مارتينيث الذي زودني بفهم عميق عام 2007 عن جذور أسرة غابرييل إليخـــيو غارسيا في بلدة سينثي. أما غابرييل غارسيا ماركيز نفسه فلم يكن يملك سوى معلـــومات عامـــة إلى حـــدٍّ ما عن تفاصيل تاريخ هذه الأسرة، لكن فهمه للبنية التحتية وفعالـــية غامـــضة الأنـــساب مدهش، وتشكل قصص أقرباء محددين، ملعونين كانوا أم مـــباركين، زاهـــية حـــياتهم كانـــت أم مثيرة مفعمة بالأحداث، أساس هذا الاستهلال القصـــصي. على وجه العموم، إن كاتب سيرة غابرييل غارسيا ماركيز يعتمد أيضاً على نـــتف اعتباطـــية من المعلومات تظهر في الصحافة الكولومبية بين حين وآخر. إن كتب الـــسيرة الوحيدة التي صدرت سابقاً هي كتاب: Garcia Marquez: la soledad y la Gloria لمـــؤلفه أوسكار كولاثوس (برشلونة، بلاثاي خانيث 1983) وهو كتاب مفيد ولكـــنه مختصر. أما الكتاب الأهم عن حياة غابرييل غارسيا ماركيز حتى سنة 1967 فهو كـــتاب Garcia Marquez: el viaje a la semilla. La biografia لمـــؤلفه داســـو سالديبار؛ مدريد الفاغايوارا، 1997): وأهم ما في هذا الكتاب المعلومات التي يوفرها عن جـــذور أسرة غابرييل غارسيا ماركيز من جهة الأب والأم وعن طفولته وأيام دراسته في

المدرسة. لكن من الناحية التاريخية تعد الدراسة السيرة الأولى عن سيرته هي تلك التي كتبها ماريو فارغاس يوسا بعنوان Garcia Marquez: historia de un decidio (برشلونة، بارال، 1971)، وهو كتاب في النقد الأدبي أيضاً. لكن بالرغم من أن الحقائق الواردة فيه لا يعتمد عليها، إلا أنه يحتوي على إشراقات لأن معظم معلومات فارغاس يوسا مصدرها المباشر هو غابرييل غارسيا ماركيز في ستينيات القرن العشرين. ومن الكتب ذات الأهمية الموازية لما أوردناه آنفاً، هو الكتاب الذي ألّفه إليخيو غارسيا وهو شقيق غابرييل غارسيا ماركيز وكان بعنوان:

Tras las claves de Melquiades: Historia de "Cien anos de soledad" (بوغوتا، نورما، 2001). أما التأملات في سيرة غابرييل غارسيا ماركيز التي نشرت قبل مذكراته الجميلة وإن كانت غير دقيقة في كتابه **عشت لأروي** (لندن جوناثان كيب، 1993) وصدَّرها بعبارة "الحياة ليست هي ما عاشه المرء، بل هي ما يتذكره، وكيف يتذكره ليرويه من جديد، فهي تلك الواردة في كتاب The Fragrance of Guava لمؤلفه بلينيو أبوليو ميندوثا (لندن، فيبر، 1988). كما أن الأعمدة الأسبوعية التي كتبها غابرييل غارسيا ماركيز ونشرها في صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا) وصحيفة البايس (مدريد) بين 1980 و1984 فهي، بمجملها، غنية بالمعلومات والإضاءات. إن كتاب ميندوثا **عطر الغوافة** وكتاب غابرييل غارسيا ماركيز **عشت لأروي** هما الكتابان الأساسيان في سيرة غابرييل غارسيا ماركيز باللغة الإنكليزية، وهناك كتابان مهمان آخران هما:

Gabriel Garcia Marquez: Writer of Colombia لمؤلفه ستفين مينتا (لندن، جوناثان كيب، 1987) وكتاب Garcia Marquez: The Man and His Work لمؤلفه جين بيل - بيلادا (تشابل هيل، مطبعة جامعة كارولاينا الشمالية، 1990). ويمكن الاطلاع على تحليلات في النقد الأدبي في القسم الخاص بمصادر الكتاب (لا سيما كتابي بيل وورد).

3. في موضوع "الأبناء الطبيعيون"، انظر: "Telepatia sin hilos" في صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا) 23 تشرين الثاني 1980. انظر شجرة العائلة في الملحق الخاص بها من هذا الكتاب لتلاحظ الأسلوب الذي تشير به رواية **مئة عام من العزلة** إلى تاريخ أسرة غارسيا ماركيز مارتينيث وماركيز إغواران، من حيث العلاقات الشرعية وغير الشرعية.
4. الكريولي شخص أبيض متحدر من نزلاء بعض الولايات المتحدة الأميركية الفرنسيين أو الإسبان الأولين ولكنه لا يزال يحتفظ بلغته وثقافته الأصليتين.
5. انظر كتاب غييرمو هينريكيث توريس الموسوم:

El misterio de los Buendia: el verdadero trasfondo historico de Cien anos de soledad. (بوغوتا، نيفا أميركا/2003، الطبعة الثانية المنقحة 2006)، إذ يعتقد هينريكيث، وهو مواطن من ثيناغا، أن أسرة بوينديا الوارد ذكرها في رواية **مئة عام من العزلة** تستند إلى أسرته هو شخصياً، هينريكيث، المنحدرة أصلاً من جذور نصفها من اليهود المهاجرين من أمستردام إلى منطقة البحر الكاريبي. وبالرغم من أن عدداً قليلاً جداً من القراء سيصدق ما يقوله هينريكيث، إلا أن كتابه يوفر معلومات قيمة عن الإطار العام والأجواء التي تدور فيها أحداث **مئة عام من العزلة**.

6. انظر كتاب **عشت لأروي** لغابرييل غارسيا ماركيز (الطبعة الإنكليزية) ص 66 و67 حيث تجد تفسيراً منقحاً عن هذه المرحلة. و لم يرث أي من "الأطفال الطبيعيين" لنيكولاس ماركيز اسمه، بل نجدهم يحملون شهرة أمهم.
7. مقابلة، بارانكاس، 1993.
8. أوضح خوسيه لويس ديات – غرانادوس صلته بغابرييل غارسيا ماركيز عندما التقيته أول مرة في بوغوتا سنة 1991 حيث قال: "عندما كان العقيد ماركيز في الثامنة عشرة من عمره كان قد رزق بولد ذكر من التاغراسيا بالديبلانكيث واسمه خوسيه ماريا، وقد حمل لقب أسرة أمه بالديبلانكيث: وهو والد أمي. وفي وقت لاحق، تزوج العقيد ماركيز ترانكلينيا إغواران كوتيس وهي عمة أبي مانويل خوسيه ديات – غرانادوس كوتيس، وأنجبت له ثلاثة أطفال آخرين ومنهم لويسا سانتياغا ماركيز إغواران، وهي والدة غابرييل غارسيا ماركيز. بمعنى آخر، إنني أتصل بصلة قرابة مزدوجة مع غابرييل غارسيا ماركيز. إن هذه القصة مثالٌ على التشابك الذي صادفته في بحثي لا في غواخيرا "الطريفة" وحسب، بل في كل مكان سافرت إليه في كولومبيا في تسعينيات القرن العشرين. الحق أن خوسيه لويس ديات غارسيا تزوج قريبة له عام 1972.
9. نبات دائم الخضرة من الفصيلة الزنبقية، موطنه الأصقاع الجنوبية الدافئة من أميركا الشمالية يصل ارتفاعه أحياناً إلى تسعة أمتار، وهو ذو ورق خشن سيفي الشكل، وزهرات عنقودية شمعية الملمس بيضاء أو ضارب لونها إلى الخضرة.
10. ليخيا غارسيا ماركيز، مقابلة، 1991.
11. ثمة سبب يدعو للاعتقاد أن آرخيميرا كانت نموذجاً لبيلار تيرنيرا، الشخصية الرئيسة في رواية **مئة عام من العزلة**.
12. إنني مدين بمعلوماتي عن غابرييل مارتينيث غاريدو الذي ينبغي أن يُدعى بالاسم غابرييل غاريدو مارتينيث إلى حفيده رافائيل أوسوريو مارتينيث. لقد جعلتني شهادته أدرك أن غابرييل ماركيز كان من السهل أن يُطلق عليه اسم غابرييل غاريدو ماركيز (أو، غابرييل غاريدو كوتيس)، وجعلني أدرك أيضاً كم كان بعيد النظر قرار غابرييل غارسيا ماركيز بالتماهي مع جدَّيه الليبراليين المنحدرين من غواخيرا بدلاً من أن يتماهى مع جدَّيه مالكي الأرض المحافظين المنحدرين من سينثي (التي كانت تابعة لمديرية بوليفار آنذاك).
13. عندما تزوج غابرييل الأب سنة 1958 واحتاج إلى شهادة ميلاد، أقنعت الأسرة القسيس في آراكاتاكا بتغيير اسمي جدَّيه لأبيه فظهرا غابرييل غارسيا وآراخيميرا مارتينيث.

1 – عقداء وقضايا خاسرة (1899-1927):

1. أرنستو غونثاليث بيرمخيو، مقالة، كرايسز، (بوينس آيرس) 1972، (أعيد طبعها في كتاب من تحرير ألفونسو رينتيريا مانتيلا بعنوان: GM habla de GM en 33 grandes repotages (بوغوتا، 1997 Renteria Editores) ص 111-117، حيث يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه يريد أن تتوقف ثورات أميركا اللاتينية عن طابعها "الاستشهادي" وإنه يريد قارته وشعوبها أن تبدأ بالفوز. وما حياته إلا نصباً لهذا الطموح.

2. ديفيد بوشنيل:
The Making of Modern Colombia. A Nation in Spite of itself (بيركلــي ولــوس أنجلــوس، مطــبعة جامعــة كاليفورنــيا 1993) إدواردو بوسادا - كاربو: The Colombia Carribbean: A Regional History، 1870-1950 (أوكــسفورد، مطــبعة كلاريندون 1996)، وفرانك، سافورد وماركو بالثيوس: Divided Society, Colombia: Fragmented Land (أوكسفورد، مطبعة أوكسفورد 2001).
3. "كانت خالتي مارغريتا أكبر من أمي بست عشرة سنة، كما كان هناك عدد من الأطفال بــين عمريهما، لكنهم ماتوا كلهم خلال الولادة: طفلة، فطفلتان توأم، وغيرهن. كان الخــال خوانيتو يكبر أمي بسبعة عشر عاماً وكانت تسميه "العراب" وليس أخي. "انظر ليخيا وهي تتحدث في كتاب سلفيا غالبيس Los Garcia Marquez (بوغوتا، آرانغو، 1996)، ص 152.
4. كانت أوثق علاقة لأسرة ماركيز إغواران هي تلك التي تربطها بأخوينو ريوس وهو ابن أخــت نيكولاس وشريكه في التجارة. كانت ابنته آناريوس في الثانية من عمرها عندما كانت لويسا في ضيق، لكنها تتذكر كل ما كانت تقوله لها أمها أرسينيا كاريو عن تلك الأيام التي أصبحت اليوم أسطورة. وعندما ولدت أختها فرانسيسكا لويسا ريوس كاريو في الخــامس والعشرين من آب سنة 1925، "عمَّدتْها" لويسا بعد أسبوعين من مولدها، وبهذا، أصبحت ابنة بالمعمودية.
5. إنــي مدين لغوستافو أدولفو راميريث عن نسخة من جريدة المديرية Gaceta Departmental الخاصة بمجدلينا لشهر تشرين الثاني 1908 التي تبين أن نيكولاس كان قد سُجن لارتكابه جــريمة قــتل في سانتا مارتا في السابع من تشرين الثاني سنة 1908 ولم يكن قد حُوكم بعد.
6. سالديبار: GM; el viaje a la smilla، ص 44.
7. انظر ماريو فارغاس يوسا وغابرييل غارسيا ماركيز:
La novela America Latina: dialogo (ليما، ميلا باتريس 1968)، ص 14. في رواية **مئة عام من العزلة**، يؤدي خوسيه أركاديو بوينديا دور نيكولاس، وتصبح ميرثيديس هي برودنثيو أغويلار.
8. غابرييل غارسيا ماركيز، حديث في مدينة مكسيكو، 1999.
9. **عــشت لأروي** (الطــبعة الإنكليزية) ص 40 للاطّلاع على وجهة نظر غابرييل غارسيا ماركيز عن الموضوع.
10. **عاصــفة الأوراق**، ص 51-54. يقــدم غابــرييل غارسيا ماركيز وجهة نظر فوكنرية رومانسية عما يمكن أن نصطلح عليه بعبارة الأسطورة التي أسستها أسرة غارسيا ماركيز، الــتي تلقي باللائمة على "الحرب" لما سببته من نــزوح (وهي أقل صراحة وتاريخية من التفسير الذي قدمه لاحقاً في **مئة عام من العزلة** ولا يزال رومانسياً).
11. هينــريكيث، El Misterio، يــناقض تفسير سالديبار للأحداث التي تقتفي خط أسرة غارسيا ماركيز.

12. تـــرتفع آراكاتاكا أربعين متراً عن مستوى سطح البحر وتبعد ثمانية وثمانين كيلومتراً عن مدينة سانتا مارتا، ويتراوح معدل درجة الحرارة فيها ثماني وعشرين درجة (وهو السبب الذي يجعل غابرييل غارسيا ماركيز يفضل العمل في درجة حرارة غرفة).
13. لاثـــارو دياغو خوليو: Aracataca... una historia para contra (آراكاتاكا، 1989 غـــير منشور) وهو كتاب قيِّم عن تاريخ المنطقة بالرغم من الميل إلى عدِّ أعمال غابرييل غارسيا ماركيز الأدبية دليلاً على السيرة الذاتية.
14. هناك خلاف واسع بشأن هاتين الكلمتين في كولومبيا، وإذا ما تدخل أجنبـــي فهو عين التهور. هناك اتفاق عام على أن الساحليين يقصد بهم سكان الأراضي المدارية المنخفضة في الكاريبــــــي أو الأطلسي شمالي البلاد. أما أصل سكان الكاتشاكو فهو سكان بوغوتا مـــن أبناء الطبقة العليا، لكن عدداً كبيراً من الساحليين بدأوا ينظرون إلى جميع السكان الـــذين يقطـــنون الـــتخوم الداخلـــية مـــن البلاد (منطقة الإنديز عموماً) على أنهم من الكاتشاكو، وفي بعض الأحيان يشتملون على ما يعرف بسكان أنتيوكا (أنطاكيا). انظر مذكرات غابرييل غارسيا ماركيز: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 41-42.
15. جوديث وايت:

Editorial Persencia, Historia de una ignominia: la UFC en Colombia, Bogota 1979, p. 19-20. ومـــع هذا، فالعقيد بلا ريب واحد من كبار الليبراليين في المدينة (فقد كان في شبابه رئيس النادي الليبرالي في ريوهاتشا).

16. انظر سالديبار، المصدر السابق، ص 50، وكتاب:

White Historia; and Catherine C. Le Grand, *Frontier Expansion and Peasant Protest in Colombia*, 1850-1936 (Albuquerque, New Mexico, University Press 1986), p. 73.

17. **عشت لأروي**، ص 15. يؤكد غابرييل غارسيا ماركيز - مغالطاً - أن جدَّه لأبيه أصبح عمدة آراكاتاكا مرتين.
18. المصدر السابق، ص 42، حيث يروي غابرييل غارسيا ماركيز الحادث.
19. المـــصدر السابق، ص 44-60 بخصوص مغازلتهما. مما يبعث على الدهشة أن هذا السرد المطـــول أورده غابرييل غارسيا ماركيز بطريقة أخرى في كتابه **الحب في زمن الكوليرا**، 1985.
20. ليخيا غارسيا ماركيز، في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 151-152.
21. لا يذكر غابرييل غارسيا ماركيز شهرة أبيه مباشرة في مذكراته، وهو أمر يستحق التنويه به هنا.
22. يلتقـــي غابرييل غارسيا ماركيز باريخا وهو طالب في بوغوتا، حيث كان باريخا استاذاً في كلية الحقوق، ويملك مكتبة، وأدى دوراً بارزاً في أحداث العنف في بوغوتا سنة 1948.
23. خوســـيه فـــونت كاسترو، مقالة، الناسيونال (كاراكاس) تموز 1972، وكذلك خوسيه فونت كاسترو، مقالة، البايس (مدريد) 19 كانون الثاني 1986.
24. هذا هو التفسير الذي يطرحه غابرييل غارسيا ماركيز في روايته الأولى **عاصفة الأوراق**.

25. يمكن مشاهدة هذا كله، باستثناء البيت، الذي هُدم في مطلع سنة 2007 لإفساح الطريق أمام بيت آخر ومتحف.
26. بالإسبانية: "La nina bonita de Aracataca" وقد استخدم هذا التعبير كل من فارغاس يوسا وسالديبار.
27. أخبرني الأهالي في آراكاتاكا أنهم لم يشاهدوا قط لويسا سانتياغا تخرج إلى الشارع في عشرينيات القرن الماضي.
28. تستند رواية **الحب في زمن الكوليرا** إلى حدٍّ كبير وكما أشرنا آنفاً، إلى العلاقة العاطفية بين غابرييل إليخيو ولويسا سانتياغا. ويروي لنا غارسيا ماركيز في **عشت لأروي** أن العمة فرانسيسكا كانت متواطئة مع الشابين. لكن غابرييل إليخيو كان يصر دائماً على أنه ألدّ أعدائه، وكان يطلق عليه عبارة "كلب الحراسة".
29. انظر:

Leonel Giraldo, *Siete Dias* en Aracataca, el Pueblo de "Gabo" GM, *Siete Dias* (Buenos Aires), 808, 8-14 December 1982.

لن يتغير غابرييل إليخيو أبداً. فقد وُجه إليه وإلى زوجته بعد مرور سنوات طويلة، سؤال عن أجمل ذكرياهما. تجيب لويسا: "عندما قدّم إليّ إليخيو الخاتم". أما غابرييل إليخيو فيقول، "أيام العزوبية التي استمتعت بها كثيراً".
30. انظر: ليخيا غارسيا ماركيز في كتاب غالفيس، مقابلة مع روث أريثا كويتس، بوغوتا 2007.
31. مقابلة، خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.
32. فارغاس يوسا، المصدر السابق.
33. انظر **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 59-60. إن البيت الذي أمضيا فيه شهر العسل هو منزل أسرة ماركيز إغواران المجاور لمبنى الجمارك في ريوهاتشا. وحسب ريكاردو ماركيز إغواران، فهو المكان الذي صحبني إليه في حزيران 2008، حيث أدت "رماية غابرييل إليخيو البارعة" إلى الحمل بغابرييل غارسيا ماركيز في ليلة الثاني عشر - الثالث عشر من حزيران سنة 1926. وبعد مرور أسبوعين، انتقل الاثنان إلى بيت آخر أكثر تواضعاً في الشارع المجاور.
34. الواضح أن ثمة غموضاً يخص الأسباب التي دفعت نيكولاس للموافقة على الزواج على مضض، والسبب الذي جعل من تاريخ مولد غارسيا ماركيز مشكلة دائماً. غير أن التفسير الأوضح، هنا كما في جميع أنحاء العالم، في كل زمان ومكان، هو أن لويسا سانتياغا حملت به وهي لم تكن متزوجة شرعاً بعد (طالما أن تاريخ الزواج لا يبدو مشكوكاً فيه) وأن غابيتو ولد قبل السادس من آذار (أو في السادس من آذار بعد أن فات موعد ولادته) ولهذا السبب، فإنه لم يُعمّد ولم يُسجل إلا بعد أن بلغ ثلاث سنوات (علماً أن أسرته كانت على كل حال أسرة محترمة جداً، من الموظفين، تطيع القانون وتخشى الله). تؤكد لويسا سانتياغا أنها تزوجت غابرييل إليخيو وهو ابن غير شرعي لا يحمل مؤهلاً بالرغم من معارضة أبويها، وهذه قصة مدهشة. وما دام ليس هناك أي شك في

حـــبها لغابرييل إليخيو، فالمحتمل أن أسلوبها في ضمان موافقة أبويها المترددين كان يتمثل بأن تحمل منه. لكن لا يوجد سوى دليل ظرفي على هذا.

2 – بيت في آراكاتاكا (1927-1928):

1. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 17.
2. انظر:

John Archer, "Revelling in the Fantastic", *Sunday Telgraph Magazine* (London), 8 February 1981.

إن إحـــدى الوسائل التي جعلتني أبقى هادئاً خلال الليل هو قولهم لي إنني إذا ما تحركت، فـــإن الموتـــى سيخرجون من كل حجرة. لهذا، فعندما كان الليل يهبط، كنت أصاب بالهلع، انظر، خيرمان كاسترو كايسيدو: "Gabo cuenta la novella de su vida", *El Espectador*, 23 March 1977.

إنـــني لا أخشى الظلام، بل أخشى البيوت الكبيرة، لأن الموتى لا يخرجون إلا من البيوت الكبيرة... ولا أبتاع إلا البيوت الصغيرة لأن الموتى لا يخرجون منها!

3. انظر: عايدة غارسيا ماركيز، في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 99.

"وبقي الحفيد في منـــزل جديّ". يقول الحفيد نفسه في مقابلة مع أحد الصحفيين: "لقد ســـلمني أبـــواي إلى جديّ كأنني هدية، لإدخال السرور إلى نفسيهما". إن هذا التفسير يضع حداً للتناقضات في تفاسير أخرى كثيرة.

4. انظر لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 123.
5. انظـــر: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 32–36 حيث يستذكر غارسيا ماركيز المنـــــزل، إن وصـــفي يـــستند إلى مقارنة متأنية بين مذكرات غابرييل غارسيا ماركيز والتحلـــيل المعمـــاري الـــوارد ذكره في سالديبار، المصدر السابق، وما أكده المعماريون المسؤولون عن إعادة البناء عام 2008.
6. انظـــر: المـــصدر السابق، ص 34، حيث يقول غارسيا ماركيز إن الغرفة تحمل التاريخ 1925 منقوشاً عليها، وهي سنة الانتهاء من بنائها.
7. انظر: مارغوت غارسيا ماركيز، غالفيس، المصدر السابق، ص 65.
8. انظر: **عاصفة الأوراق وعشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 35.
9. "يتذكر" غابرييل غارسيا ماركيز في وقت لاحق زيارة أرويبـــي أرويبـــي بالرغم من أن الجنرال لقي مصرعه قبل مولده بأربع عشرة سنة. انظر: **عشت لأروي**، ص 33.
10. كان العقيد، شأنه شأن الشخصية التي تستند إليه في رواية **عاصفة الأوراق** كثير التجوال حول منـــزله، يفتش عن أعمال صغيرة يمكن له أن ينجزها مثل تثبيت المسامير والطلاء. وفي السنوات اللاحقة يلجأ غابرييل غارسيا ماركيز نفسه إلى مثل هذه الأعمال لتخفف عنه عناء الكتابة من وقت إلى آخر. وكان يرتدي آنذاك بذلة عمال وهو يكتب.
11. انظـــر: **عـــشت لأروي**، ص 33 و73–74. يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنها "شقيقة جدي الأكبر منه سناً".

12. انظر: GGM, "Watching the Rain in Galicia", *The Best of Granta Travel* (London, Granta/Penguin, 1991), pp. 1-5، يصف غابرييل غارسيا ماركيز هنا طريقة إعداد ترانكلينا الخبز والمربي وهو الطعام الذي لم يذق مثله مرة أخرى حتى زيارة غاليثيا: بالرغم من أن تناوله طعاماً مماثلاً في برشلونة في ستينيات القرن العشرين أعاد إليه المسرات، لكن قبل كل شيء القلق والعزلة أيام طفولته.
13. انظر: ليخيا غارسيا ماركيز، في غالفيس، ص 152. المصدر السابق.
14. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983.
15. انظر: "Growing up in Macondo: Gabrial Garcia Marquez", *Writers and Places transcript* (BBC2 Film, shown 12 F ebruary 1981, Producer John Archer).
16. من مناقشاتي مع مارغوت بالديبلانكيث التي تعتمد على ذكرياتها وعلى صور الأسرة. انظر أيضاً سالديبار، المصدر السابق، ص 96-97، الذي يستند إلى ذكريات سارا إميليا ماركيز.
17. بي بي سي، المصدر السابق.
18. مقالة الاسبكتادور، 31 تشرين الأول 1982.
19. قصة رواها غابرييل إليخيو لخوسيه فونت كاسترو.
20. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 18.
21. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 16 أيار، 1982، وفيها يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز احترام جده للمعاجم.
22. حسب مناقشاتي مع مارغوت بالديبلانكيث التي استندت إلى ذكرياتها وإلى صور الأسرة. انظر أيضاً: سالديبار، المصدر السابق، ص 103-104، المستند أيضاً إلى ذكريات سارا إميليا ماركيز.
23. وايت، المصدر السابق، ص 19-20.
24. انظر:

Gabriel Fonnega, *Bananeras: testimonio vivo de una epopeya* (Bogota, Tercer Mundo n.d.), pp. 27-8.

25. المصدر السابق، ص 191.
26. المصدر السابق، ص 28.
27. انظر:

Catherine C. LeGrand, "Living in Macondo: Economy and Culture in a UFC Banana Enclave in Colombia", in Gilbert M. Joseph, Catherine C. LeGrand and Ricardo D. Salvatore, eds., *Close Encouners of Empire: Writing the Cultural History of US-Latin American Relation* (Durham, N.C. Duke University Press, 1998), pp. 333-68 (p. 348).

28. **عشت لأروي**، ص 18.
29. سالديبار، المصدر السابق، ص 54، 522.

30. لا يوجد تاريخ واضح عن هذه الحادثة ولا إجماع عن عدد المدنيين الذين لقوا مصرعهم على يد الجيش، لكن معظم الكتّاب ينظرون إليها وفق إيديولوجياتهم.

31. انظر:

Carlos Arango, *Sobrevivientes de las bananaeras* (Bogota ECOE, 2nd ed., 1985), p. 54.

32. انظر:

Maria Tila Uribe, *Los anos escodidos: suenos y rebeldias en la decada del veinte* (Bogota, CESTRA, 1994), p. 265.

33. انظر:

Carlos Cortes Vargas, *Los Sucesos de La bananers*, ed. R. Herrera Soto (Bogota, Editorial Desarrollo, 2nd edition, 1979), p. 79.

34. انظر:

Roberto Herrara Soto and Rafael Romero Castaneda, *La zona bananera del Magdalena: Historia y lexico* (Bogota Iustituto Caro y Cuervo, 1979), pp. 48, 65.

35. انظر: وايت، المصدر السابق، ص 99.

36. انظر: Herrara and Castaneda, *la Zona bananera*, p. 52.

37. انظر: آرانغو، المصدر السابق، ص 84-86.

38. انظر: فونيغرا، المصدر السابق، ص 136-137.

39. المصدر السابق، ص 138.

40. المصدر السابق، ص 154.

41. انظر: Jose Maldonado, quoted in Arango, *sobrevivientes*, p. 94.

42. انظر: وايت، المصدر السابق، ص 151.

43. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983.

هنا يعترف بأنه لم يكتشف إلا قبل بضعة أعوام أنه (أنغاريتا) قد اتخذ موقفاً محدداً ومتماسكاً جداً في أثناء إضراب عمال الموز ومقتلهم. ومن المدهش أن نكتشف أن غابرييل غارسيا ماركيز لم يعرف معظم الحقائق المرتبطة بالإضراب؛ بما في ذلك تصرفات جده ديوران، وأنغاريتا والقريبين منه في وقت تأليف رواية **مئة عام من العزلة**.

44. انظر:

Cortes Vagas, *Los sucesos de Las bananeras*, pp. 170-71, 174, 182-3, 201, 225.

هل عرف غابرييل غارسيا ماركيز يا ترى شيئاً عن كتابة هذه الرسائل؟

45. نصوص الوثائق من ضمنها شهادة أنغاريتا، يمكن العثور عليها في:

La Masacre en las bananeras (Bogota, Los Comuneros, n.d.).

3 - رفقة جده (1929-1937):

1. انظر عن ذكريات هاتين الزيارتين في **عشت لأروي**، ص 11-13، 122-125.

2. المصدر السابق، ص 123، حيث تقول: "إنك لم تعد تتذكرني بعد اليوم". لكن ربما يتعين النظر إلى هذه العبارة بوصفها مثالاً على المقولة: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره.
3. كانـــت مارغوت طفلة مضطربة استمرت تأكل التراب حتى بلغت الثامنة أو التاسعة من عمرها. وهي التي أوحت بشخصيتي أمارنتا وريبيكا في **مئة عام من العزلة**.
4. انظر بـــي بـــي سي، المصدر السابق.
5. انظر:

"El microsomos de GM", *Excelsior* (Mexico city), 12 Apri; 1971.

6. انظر: LeGrand, *Frontier Expansion*, p. 73.
7. انظر: مارغوت غارسيا ماركيو، في غالفيس، المصدر السابق، ص 60-61.

الواضـــح أن مارغـــوت وغابيـــتو كانـــا مدللين جداً، وهو ما يقرّ به في مقالة في صحيفة الاسبكتادور في 16 أيار 1981.

8. يـــسود الاعـــتقاد بوجه عام في مدينة آراكاتاكا أن نيكولاس اشترى مباني ثم أجّرها في المـــنطقة الـــتي تعـــرف بالاسم كاتاكوتيا ثم تحولت إلى إحدى "الأكاديميات" أو قاعات الرقص حيث كان الشراب والجنس متوفرين بحرية تامة. انظر:

Venancio Aramis Bermudez Gutierrez, "Aportes socioculturels de las migraciones en la Zone Bananera del, Magdalena" (Bogota, November 1995, Beca Colctura 1994, 1 Semestre, unpublished ms.).

9. بـــي بـــي سي، المصدر السابق.
10. **عشت لأروي**، ص 82، بخصوص خوفه الدائم من الظلام.
11. انظر:

Carlota de Olier, "Habla la Madre de GM: "Quisiera Volar a verlo... pero le tengo terror al avion", *El Espectador*, 22 October 1982: تقول دونا لويسا: "لـــو أن أبـــــي علـــى قيد الحياة لكان سعيداً. وقد فكّر دوماً في أن الموت سيمنعه من الاســـتمتاع بانتـــصارات غابيتو. وفطن إلى أن غابيتو سيحقق في الوقت المناسب مكانة مـــرموقة، فـــيقول غالباً: إنه لأمر يدعو للأسى لأنني لن أكون حاضراً كي أرى إلى أي مدى سيأخذه ذكاؤه".

12. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 2 آذار 1983. وفيها إشارة إلى أن معظم زوار المنـــزل كانوا مسلحين.
13. انظر: Nicolas Suescum, "El Pertidigitador de Aracataca", *Cromos* (Bogota), 26 October 1982, pp. 24-7. وفـــيها تبدأ تصويرها لغابرييل غارسيا ماركيز الطفل الـــذي لا تطـــرف عيناه كما تطرف عدسة التصوير السينمائية، وبهذا يستوعب العالم ويطوره ثم يحوله إلى قصص.
14. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 64-65.
15. انظر:

"La Memoria de Gabriel", *La Nacion (Guadalajara)*, 1996, p. 9.

16. إلينا بونيا تومشكا، مقابلة، أيلول 1973، في تودو مكسيكو، 1990.

17. مقالـــة في الاســـبكتادور، 23 آذار 1977، حيث يخبر غابرييل غارسيا ماركيز خيرمان كاســـترو كايـــسيدو أنه كان ينظر إلى انتظاره وصول النقود إلى باريس على أنه طقس يشبه الملهاة.
18. غالفـــيس، المـــصدر السابق، ص 64. كتب العقيد مراراً إلى ولده الأكبر خوسيه ماريا بالديبلانكيث.
19. غابـــرييل غارســـيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983، وفيها تحدث غابـــرييل غارســـيا ماركيز على سجيته للمرة الأولى عن بيت الجنرال خوسيه روساريو ديوران الذي لا بد من أنه مرَّ به هو والعقيد أو زاراه في مناسبات عدّة.
20. لمـــزيد من المعلومات عن الأب أنغاريتا راجع بـــي بـــي سي، المصدر السابق، و**عشت لأروي**، ص 84.
21. عـــن الفنـــزويليين في آراكاتاكا راجع: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور 7 آذار 1982؛ **عشت لأروي**، ص 43.
22. **عشت لأروي**، ص 24–32.
23. سالديبار، المصدر السابق، ص 67، 71–72.
24. مقابلة مع أنطونيو داكونيتي (الحفيد)، آراكاتاكا، تشرين الثاني 2006. راجع أيضاً: **عشت لأروي**، ص 18، 78–88.
25. **عشت لأروي**، ص 87–88، 91–92.
26. غابـــرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة كامبيو (بوغوتا)، 23 حزيران 2000. وعن دون إميليو راجع: مقالة مجلة كامبيو في 19–26 حزيران 2000.
27. بـــي بـــي سي، المصدر السابق.
28. هنريكيث، المصدر السابق، ص 283–284.
29. مقابلة مع مارغوت بالديبلانكيث دي دياث غرانادوس، بوغوتا، 1993.
30. عن وصول سبعة عشر من أولاد الزنى وعلى جباههم رسم رمز النصارى الديني بالرماد. انظر **مئة عام من العزلة** و**عشت لأروي**، ص 6–67.
31. بـــي بـــي سي، المصدر السابق.
32. **عشت لأروي**، ص 62–64.
33. غالفيس، المصدر السابق، ص 59.
34. أقـــل ما يقال عن هذه التجربة أنها تثير الاضطراب. فقد ظل غارسيا ماركيز يقول إنه لم "يلتقِ" أمه حتى بلغ سن الخامسة. من الواضح أنه لا بد له من أنه عنى بهذا أنه "يتذكر"، لأنـــه لا بد من أنه قد رآها في الأقل في إحدى الزيارتين إلى بارانكيا. على كل حال، إن ذكـــرياته الأولى، وبـــصرف النظر عن مدى تكيفها بفعل الذاكرة والرغبة، كانت لحظة محـــددة من حياته وقد دونها في وقت لاحق في رواية **عاصفة الأوراق** ومذكراته **عشت لأروي**. وقـــد أضـــاف الآن إلى وعـــيه بجدتـــه وعماته والخادمات وعياً ملموساً آخر بالشخصية الجديدة: أمه.
35. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، كامبيو 16، كولومبيا، 11 كانون الأول 1995.

لمــزيد مـــن الاطّلاع على ذكريات غابرييل غارسيا ماركيز وموقفه من المدرسة انظر: **عشت لأروي**، ص 94-95.

36. بحسب فونيغرا في Bananeras، ص 96-97، فإن بيدرو فيرغسون كان عمدة آراكاتاكا سنة 1929.
37. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 25 كانون الثاني 1981.
38. سالديبار، المصدر السابق، ص 120.
39. مقالة، الاسبكتادور، 31 تشرين الأول 1982.
40. مقابلة مع مارغوت بالديبلانكيث، بوغوتا، 1991.
41. سالديبار، المصدر السابق، ص 120.
42. سالديبار، مقالة في مجلة دياريو 16 (مدريد) 1 نيسان 1989.
43. بخـــصوص العلاقة بين رسومه المبكرة للصور الهزلية ورغبته في التمثيل أمام الناس، انظر: ريتا غيبرت، سبعة أصوات (نيويورك، فينتج، 1973)، ص 317-320.
44. بـــي بـــي سي 2، المصدر السابق.
45. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، أيار 1982.
46. لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 123-124.
47. **تواريخ ميلاد أفراد الأسرة وأماكنها:**
    1. غابيتو، آراكاتاكا، آذار 1927.
    2. لويس إنريكي، آراكاتاكا، أيلول 1928.
    3. مارغوت، بارانكيا، تشرين الثاني 1929.
    4. عايدة روسا، بارانكيا، كانون الأول 1930.
    5. ليخـــيا، آراكاتاكـــا، آب 1934 (ذكرياتها عن المنـــزل في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 152).
    6. غوستافو، آراكاتاكا، أيلول 1936.
    7. ريتا بارانكيا، تموز 1939.
    8. خايمي، سوكري، أيار 1940.
    9. هيرناندو (نانتشي) سوكري، آذار 1943.
    10. ألفريدو (كوكي)، سوكري، شباط 1945.
    11. إليخيو غابرييل (ييو)، سوكري، تشرين الثاني 1947.
48. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 21.
49. غابـــرييل غارســـيا ماركيز، مقالة، صحيفة التيمبو، كانون الأول 1992؛ الاسبكتادور، كانون الأول 1980، حيث يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه كان في سن الخامسة عندما حـــدث هـــذا كله. أما في كتاب **عشت لأروي**، ص 70، فيقول إنه كان في العاشرة، وليس في السابعة، كما تشير وقائع الأحداث.
50. في روايـــة **عاصفة الأوراق**، ص 50-54، يظهر مارتن، الشخصية المستوحاة إلى حدٍّ ما عـــن شخـــصية غابرييل إليخيو، شخصاً مرعباً، (إذ يمارس شعوذة غواخيرا بما فيها غرز

الدبابـــيس في عيون الدمى)، الواضح أنه لم يحب إيزابيل (الشخصية المستوحاة جزئياً عن شخصية لويسا)، لكنه لم يكن يريد سوى الاتصال بالعقيد طمعاً بنفوذه وماله؛ ثم رحل قـــبل أن يـــتمكن ولده (الشخصية المستوحاة عن غابرييل غارسيا ماركيز جزئياً) من أن يكـــوِّن لـــه ذكريات عنه؛ وهذا صحيح عن تجربة غابرييل غارسيا ماركيز باستثناء أن غابـــرييل إليخـــيو أخـــذ لويسا بعيداً أيضاً. أما في رواية **عاصفة الأوراق**، فإن غابرييل غارسيا ماركيز يُبقي الأم معه ويُبعد الأب إلى الأبد في محاولة لتحقيق الرغبة.

51. صحيفة الاسبكتادور، مقالة، 31 تشرين الأول 1382.
52. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 61.
53. **عشت لأروي**، ص 85.
54. انظر:

Leonel Giraldo, "*Siete Dias* en Aracataca, el Pueblo de "Gabo" GM", *Siete Dias* (Buenos Aires), 808, 8-14 December 1982.

55. يعالج غابرييل غارسيا هذا الموضوع في **عشت لأروي**، ص 82-84.
56. مارغـــوت غابـــرييل غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 62، وانظر أيضاً كـــتاب **عشت لأروي**، ص 84-85، وفيهما تأملات غابرييل غارسيا ماركيز عن عودة والديـــه. لاحظ على وجه الخصوص أنه بالرغم من رفضه توجيه النقد إلى أبيه علناً، إلا أنه بدأ يتحدث عن ضرب، وبهذا يربط أباه بالعنف (ويقول إن غابرييل إليخيو قد اعتذر في مـــا بعـــد عـــن ذلك). مما لا ريب فيه أن معظم الآباء يعمدون إلى تطهير أولادهم جسدياً.
57. انظر ذكريات مارغوت في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 68.
58. انظر:

GGM, *Los cuentos de mi abuelo el cornoel*, ed. Juan Gustavo cobo Borda (Smurfit Carton de Colombia, 1988).

59. **عشت لأروي**، ص 95-96.
60. انظر:

Ramiro de la Espriella, "De "La casa" fue saliendo todo", *Imagen* (caracas), 1972.

61. انظـــر ذكريت لويس إنريكي البهيجة عن الرحلة إلى سينثي في غالفيس، المصدر السابق، وفي **عشت لأروي**، ص 96-97.
62. مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز في مدينة مكسيكو، 1999.
63. زرت سينثي مع ألفونسو توريس زوج أخت غارسيا ماركيز عام 1998 (وكان ألفونسو قد تزوج ريتا شقيقة غارسيا ماركيز ويقيم في سينثي).
64. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 68.
65. انظر:

Saldivar, "GM: La novella que estoy escribiendo esta localizada en Cartagena de Indias, durante el siglo XVIII", *Diario 16*, 1 April 1989.

هـــذه العـــبارات على درجة بالغة من الأهمية. فقصص غابرييل غارسيا ماركيز ورواياته مهووســة بالجـــثث، لكن يبدو أن غابرييل غارسيا ماركيز نفسه لم يشاهد جثث الناس المهمـــين حـــتى عند وفاة أبيه عام 1984. وفي قصته الأولى **الاستسلام الثالث**، 1947، يقضي الراوي نحبه لكن جسده لا يتفسّخ ولا يُدفن.

66. انظر: غييرمو أوتشوا، مقالة، صحيفة إكسيلسيور، 13 نيسان 1971. مما لا ريب فيه أنه لم يكن في الثامنة بل في العاشرة من عمره عندما توفي جده ويقول "إن الوفاة حدثت وأنا لم أتجـــاوز الخامسة من عمري"، انظر: مجلة كامبيو، ص 19-26 حزيران 2000. لكنه كـــان حقاً في الثامنة عندما أصيب في ذلك الحادث المميت، وأن حياته وصلت إلى نهاية المطاف، إذ كانت تهددها عودة والديه وذريتهما.
67. مقابلة مع لويسا ماركيز، بارانكيا، 1993.
68. مارغوت غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 69.
69. لويس إنريكي، في غالفيس، المصدر السابق، ص 130.
70. غابـــرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 10 نيسان 1983. أما بخصوص علاقته بآراكاتاكا، فانظر أيضاً: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983.

4 – أيام المدرسة: بارانكيا وسوكري وثيباكيرا (1938-1946):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، **عشت لأروي**، ص 29-55.

(*) أعمدة دورية: طراز معماري إغريقي موغل في القدم اتسم ببساطته. (المترجم)

2. المصدر السابق، ص 132.
3. المصدر السابق، ص 142-143.
4. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 19.
5. **عشت لأروي**، ص 173.
6. المصدر السابق، ص 163.

تعـــزو لويسا سانتياغا نجاته إلى أنها أعطته زيت كبد الحوت يومياً، انظر: غييرمو أوتشوا، مقالـــة، إكسيلسيور، 12 نيسان 1972. وكان أبوه يقول: تفوح رائحة السمك من هذا الطفل يومياً.

7. إن المقطع التالي عن بلدة سوكري يستند إلى مقابلات أجريتها مع السيدة لويسا ماركيز دي غارسيا في كارثاخينا وبارانكيا في 1991 و1993، وعلى حديث مع غابرييل غارسيا ماركيـــز نفـــسه في مديـــنة مكـــسيكو عام 1999، وعلى عدد كبير من المقابلات مع جمـــيع إخـــوانه وأخـــواته علـــى مدى السنين، وعلى مصادر منشورة مدونة في هذه الملاحظات.
8. انظر: Gustavo GM, in Galvis, *Los* GM, p. 185.
9. انظر: Living to Tell the Tale, p. 155.
10. انظر: Vivir Para contrala, p. 188.

11. انظر: Juan Gossain, quoted by Heriberto Fiorillo, *La Cueva: Cronica del grupo de Barranquilla* (Bogota, Planeta, 2002), pp. 87-8.

12. يُعـدّ كـتاب سالديبار أفضل مصدر عن أيام غابرييل غارسيا ماركيز في مدرسة سان خوان. انظر أيضاً:

Jose A. Nunez Segura, "Gabriel Garcia Marquez (Gabo-Gabito)", *Revista Javeriana* (Bogota), 352, March 1969, pp. 31-6.

هنا يستعيد أحد المعلمين اليسوعيين في المدرسة بعضاً من كتابات غابرييل غارسيا ماركيز المبكرة.

13. غالفيس، المصدر السابق، ص 70.

14. يذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذه الجريمة في كتابه **عشت لأروي**، ص 27.

15. لم يوافـق الأخ الأصـغر بيو موافقة كاملة: فقد أخبرني يوماً ما أن كل الأطفال الأصغر سناً، المولودين في سوكري، لا فائدة تُرجى منهم، بمن فيهم هو نفسه، ويرجع السبب إلى أنهم الوحيدون الذين ساعد أبوه على ولادتهم!

16. انظر:

Harley D. Oberhelman, "Gabriel Eligio Garcia halba de Gabito", in Peter G. Earle, ed., *Gabriel Garcia Marquez* (Madrid, Taurus, 1981), pp. 281-3.

وقد أجرى أوبرهيلمان لقاءً مع غابرييل إليخيو للحديث عن تدربه الطبـي وتجربته فيه.

17. غييرمو أوتشوا، إكسيليسور، 12 نيسان 1971.

18. **عشت لأروي**، ص 224.

19. حديث غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، 1999.

20. انظر:

Rosario Agudelo, "Conversaciones con Garcia Marquez", *Puelbo*, suplemento, "Sabado Literario" (Madrid), 2 May 1981.

في مواضـع أخـرى، يتخلص غارسيا ماركيز من هذه التجربة المؤذية بالضحك. أما في **عـشت لأروي**، فنجد تفسيراً معتدلاً لها. أما في **ذاكرة غانياتي الحزينات**، فيقدم المؤلف شرحاً متخيلاً لها.

21. نوع من الموسيقى الكاريبية الشعبية يستمد أسلوبه من إيقاع الموسيقى الكولومبية القومية التقليدية الراقصة.

22. انظر:

Roberto Ruiz, "Eligio Garciz en Cartagena. El abuelbo de Macondo", *El Siglo*, 31 October 1969.

23. انظر:

Gossain in Fiorillo, *La Cueva*, p. 88. Gabriel Eligio later denied the intention to trepan.

24. انظر:

EGM, "El cunto del cuento. (Conclusion)", *El Espectador*, 2 September 1981.

يستعيد هنا أيام مراهقته في سوكري ويوضح أنها "أكثر السنوات تحرراً في حياتي". أما بخصوص موقفه من المومسات، فانظر: كلوديا دريفوري، مجلة بلاي بوي 30: 2 شباط 1983.

25. **عشت لأروي**، ص 166.

26. المصدر السابق، ص 168-171.

27. المصدر السابق، ص 174.

28. انظر:

غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 21 تشرين الأول 1981.

زار الروائي كريستوفر إيشروود كولومبيا في أربعينيات القرن العشرين. انظر ذكرياته عن تلك الزيارة في كتابه:

The Condor and the Cows (London, Methuen, 1949).

29. غارسيا ماركيز، **خريف البطريرك**، ص 160.

30. **عشت لأروي**، ص 179-180.

31. أفضل الذكريات عن هذه الرحلة والوصول إلى بوغوتا في مقالة خيرمان كاسترو كايسيدو، الاسبكتادور، 23 آذار 1977.

32. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، 18 تشرين الأول 1981.

33. **عشت لأروي**، 179-180.

34. أفضل مصدر عن المدرسة في ثيباكيرا هو كتاب سالديبار. أما القسم الأعظم من معلوماتي فيستند إلى مقابلة مع زميل غارسيا ماركيز في المدرسة خوسيه إسبينوسا، بوغوتا، 1998.

35. انظر:

Rosario Agudelo, "Conversaciones con Garcia Marquez", *Pueblo*, suplemento, "Sabado Literario" (Madrid), 2 May 1981.

36. انظر:

Aline Helg, *La educacion en Colombia 1918-1957: una historia social, economica y Politica* (Bogota, CEREC, 1987).

37. انظر:

GGM, ""Estoy comperometido hasta el tuetano con el Peroidismo Politico". *Alternativa* entervista a GGM", *Alternativa* (Bogota), 29 ،31 March - 13 April 1975, p. 3.

38. انظر:

Juna Gustavo Cobo Borda, "Cuatro horas de Comadreo literario con GGM" (interview 23 March 1981), in his *Silva, Arciniegas, Mutis y Garcia Marquez* (Bogota, Persidencia de La Republic, 1997), pp. 469-82 (p. 475).

39. **عشت لأروي**، ص 196.

40. انظر:

Quoted by Carlos Rincon, "GGM entra en los 65 anos. Tres o cuatro cosas que querria saber de el", *El Espectador*, 1 March 1992.

41. أخـــبرتني مارغـــوت غارسيا ماركيز في سنة 1993 بما يأتي: "عندما كانت أمي حاملاً بنانتـــشي، حدث ذلك مرة أخرى. في هذه المرة، أنـــزعجت أمي نفسها. كانت طريحة الفـــراش في المنـــــزل المؤلـــف من طابقين في ميدان سوكري، و لم تستطع النهوض من مكانهـــا. في تلـــك المـــرة صرخت في وجهه. كانت أمي يداهمها مرض عجيب دائماً، فتـــصاب بالغثيان وتتقيأ، وفي كلا الحملين نقص وزنها. إنه لأمر مدهش ولكنه حقيقي. وقـــد انـــــزعجت لمصابها انـــزعاجاً حقيقياً، وأردت أن أفعل شيئاً ما. لكنها لم تكن تسمح لي".

42. لويس إنريكي غارسيا ماركيز في كتاب غالفيس، المصدر السابق، ص 146.

43. **عشت لأروي**، ص 217-218.

44. انظر:

Saldivar, *GM: el viaje a la semilla*, p. 156.

45. كـــان داريو ينحدر بدوره من بلدة كاريبية صغيرة، ونشأ بعيداً عن حضن أمه، واستمع أيـــضاً إلى عقـــيد عجوز يروي قصصاً عن الحرب. وبعد مرور ثلاثين سنة، تصبح رواية غارسيا ماركيز **خريف البطريرك**، من بين أشياء أخرى، عملاً من أعمال الثناء والتقدير للغة داريو الشعرية.

46. **عشت لأروي**، ص 205.

47. انظر: "La ex-novia del Colombiano", *El Pais* (Madrid), 7 October 2002.

48. انظر: *Vivir Para contrala*, p. 242.

49. غابرييل غارسيا ماركيز، **مئة عام من العزلة**، ص 29-30.

50. **عشت لأروي**، ص 204.

51. المصدر السابق، ص 193.

52. المصدر السابق، ص 193.

53. انظر:

Saldivar, *GM: el Viaje a la semilla*, p. 166; and GGM, *Living to Tell the Tale*, pp. 193-4.

54. انظر:

German Santamaria, "Carlos Julio Calderon Hermida, el Profesor de GM", *Gaceta* (Bogota, Colcultura), 39, 1983, PP. 4-5.

55. في المقـــابلات التي أجريت معه بعد أن أصبح مشهوراً، أنكر مراراً أنه نظم الشعر. انظر على سبيل المثال حديثه مع ماريا إيستر خيليو:

"Escribir bien es un deber revolucionario", *Triunfo* (Madrid), 1977, in Renteria, ed., *GM Habla de GM en 33 grandes repotajes*.

56. انظر:

La Casa Grande (Mexico city/Bogota), 1: 3, February-April 1997, p. 45.

وفيها نشرت القصيدة "بفضل من داسو سالديبار بيًّا بوردا".

57. انظر: *Living to Tell the Tale*, pp. 205-6.

58. انظر: Ligia GM, in Galvis, *Los* GM, p. 165.
عندما أُغرم غابيتو بميرثيديس كانت يانعة في الثامنة من عمرها تضع مئزراً للأطفال من غير كمين وعليه رسوم بطات صغيرات.

59. انظر:
Beatriz Lopez de Barch, "Gabito espero a que yo crecira", *Carrusel*, Revista de *El Tiempo* (Bogota), 10 December 1982.

60. من منشورات هكتور عبد خوميث:
"GM Poeta", *El Tiempo, Lecturas Dominicales*, 12 December 1982. See also Donald McGrady, "Dos sonetos atribuidos a GGM", *Hispanic Review*, 51 (1983), pp. 429-34.

61. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 13 شباط 1983.

62. **عشت لأروي**، ص 200.

63. انظر:
Vivir Para Contrala, p. 281, GGM, "El cuento del cuento. (conclusion)", *El Espectador*, 2 September 1981.
وفيها يتذكر كيف اكتشف أن ماخور ماريا اليخاندرينا ثيربانتس تحول إلى مدرسة راهبات عندما عاد إليه بعد مرور خمسة عشر عاماً.

64. **عشت لأروي**، ص 236-239.

65. **مئة عام من العزلة**، ص 301.

66. مقابلة في كارثاخينا، 1991.

67. كانت لدى ميرثيديس في المدرسة في بلدة مومبوكس صديقة تدعى مارغريتا تشيكا سالاس، وكانت تقطن في بلدة سوكري أيضاً: وسرعان ما ستجد نفسها متورطة في الأحداث المثيرة التي أحاطت بمقتل كايتانو خنتيلي صديق غارسيا ماركيز وأسرته الوفي.

68. مقابلة مع خيرتروديس براسكا دي أمين، ماغانغي، 1991.

(*) هؤلاء الأولاد لا بد من أن يكونوا أولاد غبرييل إليخيو وأخوة غارسيا ماركيز الذي كان صغير السن بدوره آنذاك. (المترجم)

69. انظر: GGM, *Cronica de una muerte anuncida* (Bogota, Oveja Negra, 1981), p. 40.

70. غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، الاسبكتادور، 22 آذار 1981، **عشت لأروي**، ص 239-243.

71. **عشت لأروي**، ص 243-244.

72. انظر:
Saldivar, "GM: La novella que estoy escribiendo esta localizada en Cartagena de Indias, duranta el Siglo XVIII", *Diario 16*, 1 April 1989.

73. انظر: ليخيا غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 158.

74. انظـــر: غابـــرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، الاسبكتادور، 16 تشرين الثاني 1980. وفيها يقول إن ترانكيلينا قضت نحبها وقد بلغت مئة سنة تقريباً.
75. عايدة روسا في غالفيس، المصدر السابق، ص 99.

5 – الطالب الجامعي والعنف في بوغوتا (1947-1948):

1. يـــستمد هـــذا الفصل معلوماته من مختلف المصادر والأحاديث، لكن على الأخص من مقـــابلات مـــع غونثالو مالارينو (بوغوتا، 1991) ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998) ومارغـــريتا ماركيز كابايرو (بوغوتا، 1998) وجاك جيلارد (طولوز، 1999، 2004) وغوستافو أدولفو راميريث أريثا (بوغوتا، 2007).
2. يلاحـــظ غابـــرييل غارســـيا ماركيز أن الأكاديمية الكولومبية تنظر إلى الأكاديمية الملكية الإسبانية على أنها "تقدمية"، ويتحدث عن "حماية" اللغة (حتى ضد إسبانيا). انظر:

M. Fernandez-Bradso, *GGM: una conversacion infinita* (Madrid, Azur, 1969), p. 102.

3. كافكا، "رسالة إلى أبيه" (تشرين الثاني 1919). لم يقرأ والد كافكا هذه الرسالة البتة.
4. مقابلـــة، بوغوتا/1993. كان ألفونسو لوبيث ميتشيلسين واحداً من الأقرباء الأبعدين إذ يتـــصل نـــسله بكويتتـــيمن خلال جد الجد، وهو ما سيُكتشف في ما بعد عندما يصبح الاثنان صديقين.
5. مقابلـــة مـــع لويس بيّار بوردا، 1998، لمزيد من المعلومات عن هذه المرحلة الزمنية انظر أيضاً: غابرييل غارسيا ماركيز، مقابلة، الاسبكتادور، 18 تشرين الأول 1981.
6. انظـــر: خوان فيرنانديث، مقالة، التيمبو، تشرين الأول 1982. كان أحد زملائه المهمين في تلـــك الآونة هو الطالب في كلية الطب الذي ينحدر من أصول أفريقية – كولومبية مانـــويل ثاباتـــا أوليفـــيا الذي سيتدخل في ما بعد في مصيره تدخلاً حاسماً في أكثر من مناســـبة. ومـــن الأصدقاء الساحليين المهمين أيضاً خورخه ألفارو إسبينوسا الذي عرّف غابرييل غارسيا ماركيز إلى رواية يولسيس لجيمس جويس، ودومينيغو مانويل بيغا الذي أعاره قصة المسخ لكافكا.
7. انظر:

Alvaro Mutis, "Apuntes sobre un viaje que no era Para contar", in Aura Lucia Mera, ed., *Aracataca/Estocolmo* (Bogota, Instituto Colombiano de Cultura, 1983), pp. 19-20.

وفـــيها يصف ألفارو موتيس مالارينو خلال الرحلة إلى جائزة نوبل سنة 1982 على أنه "عميدنا"، وهو أقدم أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز المنحدرين من الكاتشاكو في حقبة بوغوتا.

8. مـــن أجل تفاصيل مهمة عن كاميلو توريس وقراره بأن يصبح قسيساً ورحيله في أعقاب ذلك، انظر:

German Castro Caycedo, "Gabo" cuenta la novella de su Vida. 2", *El Espectador*, 23 March 1877.

9. انظر:
Plinio Apuleyo Mendoza, *La llama y el hielo* (Bogota, Gamma, 3rd edition, 1989), PP. 9-10.

10. التـــرجمة الحـــرفية للعبارة هي "مص العرف" لأن الصورة هي صورة مالك الديك وهو يتفرس، استفزازاً ومفارقةً، في خصمه بشأن عرف الديك:

11. انظـــر: GGM, "Bogota, 1947", *El Espectador*, 18 October 1981; and "El frenesi del Viernes", *El Espectador*, 13 November 1983.
وفيها استذكار لأيام الآحاد الموحشة في بوغوتا.

12. مقابلة مع غونثالو مالارينو في بوغوتا، 1991.

13. طبع الجزء الثاني من "جغرافية الأجرام السماوية" في الأول من تموز 1947.

14. انظر:
German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novella de su vida. 2", *El Espectador*, 23 March 1977.
وفيها وداع غابرييل غارسيا ماركيز لكاميلو توريس.

15. انظر:
La Vida Universitaria, Tuesday Supplement of *La Razon*, Bogota, 22 June 1947. See *La Casa Grande* (Mexico City/Bogota), 1: 3, February-April 1997, p. 45.
وفيها نشرت هذه القصيدة مرة أخرى"بفضل من داسو سالديبار ولويس بيّار بوردا".

16. انظر: Juna Gustavo Cobo Borda, "Cuatro horas de comadreo literario con GGM", in his *Silva, Arciniegas, Mutis y GM* (Bogota, Presidencia de la Republica, 1997), PP. 469-82.
حيث تتوفر على تفسير آخر للرواية.

17. المؤكد أن هذا ليس أسلوب جده كافكا في الكلام؛ هذا هو الفارق تماماً!

18. انظـــر: John Updike, "Dying for Love: a new novel by GM", in *The New York*, 7 November 2005.
يقول أبدايك في هذه المقالة:
إنهـــا لمتعة رقيقة أن تقرأ هذه الرواية، وإن كان ثمة اختلاف في القصد منها. ففيها ولع في اشـــتهاء الموتـــى يذكرنا بالقصص القصيرة مبكرة النضوج المهووسة بموت الأحياء التي نشرها غارسيا ماركيز في مطلع عشرينيات القرن العشرين.

19. انظر:
GGM, *Todos los cuentos* (1947-1972) (Barcelona, Plaza y Janes, 3rd edition, 1976), PP. 17-18.

20. المصدر السابق، ص 14–15.

21. المصدر السابق، ص 17–18.

22. يروي غابرييل غارسيا ماركيز هذه القصة كاملة لخيرمان كاسترو كايسيدو. انظر:
"Gabo" cuenta la novella de su vida. 3", *El Espectador*, 23 March 1977.

23. انظر:

GGM, *Collected Stories* (New York Harper Perernial, 1991), p. 24.

24. انظر:

"La Ciudad y el Mundo", *El espectador*, 28 October 1947.

25. **عشت لأروي**، ص 271.

26. يُعـــدُّ غوستافو أدولفو راميريث أريثا العدة لإصدار كتاب بالغ الأهمية عن علاقة غارسيا ماركيز بالتجارب التي شهدها في بوغوتا.

27. انظر: GGM, *Collected Stories*, p. 190.

28. لويس إنريكي في غالفيس، المصدر السابق، ص 132-133.

29. الإضافة azo التي تأتي في آخر الكلمة الإسبانية تعطي فكرة ضربة قوية تُسدد من أحد ما أو ضد شيء ما.

30. انظـــر: Conzalo Sanchez, "*La Violencia* in Colombia: New Research, new question's, *Hispanic American Historical Review*, 65: 4 (1985), PP. 789-807.

31. يُوضِّح غابرييل غارسيا ماركيز بجلاء أن أوراقه فقدت في الحريق الذي دمَّر النــــزل الذي كان يقطن فيه (مع إشارة خاصة إلى El fauno on la tranvia). انظر:

Interview, Bogota, 1998, In "Bogota 1947", *El espectador*, 18 October 1981.

غير أنه يروي القصة بشكل مغاير في مذكراته **عشت لأروي**، ص 288.

32. انظر: Herbert Braun, Matron a Gaitan: vida Public y violencia urbana en Colombia (Bogota, Norma, 1998), p. 326.

33. كـــان أول عمل ثوري يقوم به، ويا للمفارقة، هو مساعدة أحد اللصوص في تحطيم آلة كاتبة. يؤكد غارسيا ماركيز لاحقاً لكاسترو أن الآلة الكاتبة كانت ملكه.

34. انظر:

Arturo Alape, *El Bogatazo: memorias del olvido* (Bogota, Universidad Central, 1983).

35. مقابلة مع مارغريتا ماركيز كابابيرو، بوغوتا، 1998.

36. انظر: Rita GM, in Galvis, *Los* GM, p. 237.

6 - عودة إلى الساحل: صحافي متمرن في كارثاخينا (1948-1949):

1. انظـــر: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 304. يعتمد هذا الفصل على مقابلات أجريت مع أسرة غارسيا ماركيز، ومع راميرو دي لا إسبريًّا (بوغوتا، 1991)، وكارلوس ألـــيمان (بوغوتا، 1991)، وجاك جيلارد (طولوز، 1999 و2004)، وهكتور روخاس هيراثو (بارانكيا، 1998) ومارتا يانثيس (كارثاخينا، 2007)، إضافة إلى آخرين غيرهم.

2. هناك كتابان ممتازان عن حياة غارسيا ماركيز في كارثاخينا وهما:

Gustavo Arango, Un ramo de nomeolvides: Garcia Marquez en "El Universal" (cartagena, El Universal, 1995) and Jorg Garcia Usta, Como aprendio a escribir Garcia Marquez (Medellin, Lealon, 1995).

وقد ظهر هذا الكتاب الأخير بطبعة منقحة وبعنوان مغاير أقل إثارة هو:
Garcia Marquez en Cartagena: sus inicios literarios (Bogota Planeta, 2007).
ويزعم الكتابان بتأثير المدينة القوي في تطوره الأدبـــي مما لا ينسجم مع البراهين، لكنهما مـــن ناحية أخرى يصححان رأي الأغلبية في أن المرحلة اللاحقة التي أمضاها في بارانكيا (1950-1953) هي المرحلة الحاسمة. لقد جاء هذان الكتابان رد فعل على كتاب وضعه الـــباحث الفرنـــسي جاك جيلارد الذي جمع في سبعينيات القرن العشرين مجمل كتابات غارســـيا ماركيـــز الـــصحافية المنشورة في صحيفة الأونيفرسال (كارثاخينا) والهيرالدو (بارانكـــيا) والاسبكتادور (بوغوتا) وغيرها. وبصرف النظر عن الرأي في الجدل الدائر، فإن إسهام جيلارد في الدراسات الخاصة بغارسيا ماركيز لا تضاهيها أي دراسة. كما أن مقدماته التي كتبها لمجلدات غابرييل غارسيا ماركيز الصادرة بعنوان Obra Periodistica لا يمكن الاستغناء عنها. و لم تظهر باللغة الإنكليزية سوى مجموعة قليلة جداً لا تزيد عن عـــدد أصابع اليد الواحدة من مقالات غابرييل غارسيا ماركيز التي يزيد عددها عن ألف مقالة ودراسة وخاطرة أدبية نشرت كلها بين 1948-2008، بخصوص هذه الحقبة الزمنية انظر:
Jacques Gilard, ed., *Gabrial Garcia Marquez, Obra Periodistica vol. 1: Textos costenos 1* (Bogota, Oveja Negra, 1983).

3. يـــورد غارسيا ماركيز تفاصيل كثيرة عن تلك الأيام في مذكراته **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 306-316.
4. انظـــر صورة قلمية عن روخاس هيراثو بقلم غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الهيرالدو (بارانكيا)، 14 آذار 1950.
5. **عشت لأروي**، ص 313-314 و320-321 وفيها يدعو غابرييل غارسيا ماركيز بالاسم خوسيه دولوريس.
6. انظر: Un domingo de delirio, *EL Espectador*, 8 march 1981. وفيها يتحدث غابـــرييل غارســـيا ماركيز عن سحر كارثاخينا التي عاد إليها ويكشف عن أن منطقته المفضلة كانت رصيف مرفأ باهيا دي لاس أنيماس حيث كانت تقع السوق. انظر أيضا:
Un payaso pintado detras de una Puerta, *El Espectador*, May 1982.
7. بالـــرغم من أن الاعتقاد الذي كان سائداً في كارثاخينا هو أن غارسيا ماركيز لم يعترف بفـــضل ثابـــالا علـــيه لأنـــه تعلم منه الشيء الكثير، إلا أن غارسيا ماركيز قال لأحد الـــصحافيين في سنة 1980، ويدعى دونالدو بوسا هيراثو، "إن ثابالا سيد نبيل وأنا مدين له بالشكر الكثير". انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 136.
8. ظهـــرت المقالات بلا عنوان في صحيفة الأونيفرسال، لكن بسطر يشير إلى كاتبها في 21 و22 أيار 1948 بعد مرور ستة أسابيع على أحداث العنف في بوغوتا.
9. يمكـــن العـــثور علـــى هذه المقالات وبقية المقالات الأخرى من تلك المرحلة في كتاب:
Gilard, ed., *Textos costenos 1*.

10. انظر المصدر السابق، أعلاه، ص 94-95.
11. انظر **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 324-325.
12. انظر ليخيا في غالفيس، المصدر السابق، ص 169.
13. انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 178.
14. انظر: Garcia Usta, *como aprendio a escribir Garcia Marquez*, p. 49.
15. العبارة باللغة الإسبانية Tan modosito (انظر آرانغو، المصدر السابق، ص 67).
16. المصدر السابق، ص 275.
17. يستشهد المصدر السابق، (ص 178) بفرانكو مونيرا. التفاصيل مهمة. ففي كولومبيا العرقية بل في بوغوتا، في أربعينيات القرن العشرين كان الطبل علامة مشفرة عن الثقافة الساحلية عموماً، وثقافة السود خصوصاً. وما ارتباط غارسيا ماركيز الواضح بهذه الآلة الموسيقية إلا علامة على ارتباطه بثقافته الإقليمية وعلامة تمييزٍ لرأي الكاتشاكو بالعالم.
18. انظر: صحيفة الأونيفرسال، 27 حزيران 1948.
19. انظر: مقالة غابرييل غارسيا ماركيز عن بو في صحيفة الأونيفرسال، 7 تشرين الأول 1949. وبخصوص علاقته بإيبار ميرلانو انظر كوبو بوردا: "Cuatro haras de comadreo literario con GGM". المصدر نفسه.
20. انظر: El Universal, 4 July 1948; see Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 149. وأعيد نشر المقالة في صحيفة الهيرالدو (بارانكيا)، 16 شباط 1950، بإضافة الاسم ألبانينا.
21. انظر صحيفة الأونيفرسال 10 تموز 1948. وأعيد نشر المقالة باختلاف طفيف في صحيفة الهيرالدو، 1 شباط 1950.
22. انظر: Arango, *Un ramo de nemeolvides*, PP. 208, 222.
23. مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1998.
24. مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1993.
25. **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 333-339.
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الأونيفرسال، 26 تموز 1949 وفيها إشارة إلى الكاتبين.
27. انظر أورلاندو لفرجينيا وولف (نيويورك، فينتاج، 2000)، ص 167: لكن الحب حسب تعريف الروائيين الذكور – ثم من يتكلم بقوة أكبر منهم – لا علاقة له بالرقة والوفاء أو الكرم أو الشعر. الحب ينسل من صدرية المرء، ولكننا كلنا نعرف ما الحب، هل فعل أورلاندو ذلك؟
28. العبارة هي: "Mucha vieja marcha".
انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 220.
29. انظر: Rafael Betancourt Bustillo, *qnoted by Garcia Usta*, PP. 52-53.
30. انظر: Arango, *Un ramo de nomeolvides*, p. 231.
31. لكن من شأن هذا كله أن ينطوي على ابتكار ما يسمى الواقعية السحرية، وكان هناك كتّاب تزيد أعمارهم عن عمره بمقدار الضعف، مثل ميغيل، إستورياس (رجال الذرة

1949) وأليخوكاربنتـــيه (مملكـــة هذا العالم 1949) كانوا يحومون حول هذه الفكرة في حين كان غارسيا ماركيز يجاهد في كتابة رواية **البيت** في بلد النّصّ الروائي فيه متخلف تخلفاً يبعث على الألم حتى بمعايير أميركا اللاتينية السائدة يومئذ.

32. انظر: *Vivir Para contarla*, p. 411.

33. انظر مقالات غابرييل غارسيا ماركيز عن لاسيريبـــي في:

Gilard, ed., *Gabriel Garcia Marquez, Obra periodistica Vol. II: Textos costenos 2* (Bogota, Oveja Negra, 1983).

34. انظر:

Eligio Garcia, *La Tercera muerte de Santiago Nasar* (Bogota, Oveja Negara, 1987).

35. انظر:

GGM, "La Candida Erendira Ysu abuela Irene Papas", *El Espectador*, 3 November 1982.

36. انظر: Fiorillo, La Cueva, p. 95.

37. في **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 350 يقول إنه يبدأها الآن! وفي صفحة 363 يقول إنها ليست سوى مجتزءات لا أكثر!

38. انظر: آرانغو، المصدر السابق، ص 266.

39. المصدر السابق، ص 243:

يستذكر خايمي أنخولو بوسا أنه هو وغارسيا ماركيز كانا يصافحان بعضهما بعضا باليد اليـــسرى في كارثاخينا في تلك الأيام (المصدر السابق، ص 302). وبالرغم من أن النقاد جادلـــوا باســـتمرار إن كانـــت قراءة غارسيا ماركيز الروايات الحداثوية قد بدأت في كارثاخيـــنا أم في بارانكـــيا، إلا أن أحداً منهم لم يبدُ أنه قد تنبه إلى أن ثقافته السياسية النـــشيطة بدأت بلا ريب في كارثاخينا، ويرجع سبب ذلك أولاً إلى وجود ثابالا ثم إلى راميرو دي لا إسبريّيا. و لم تكن السياسة هي الاهتمام الأول بين جماعة بارانكيا.

40. انظر:

Juan Gossain, "A Cayetano Lo Mato Todo El Pueblo", *El Espectador*, 13 May 1981.

وفـــيها يـــتحدث لـــويس إنريكي عن القصة المدهشة لماريا أليخاندرينا ثيربانتس: كان ماخـــورها البائس في سوكري أشبه بمكتب نلتقي فيه كلنا خلال الإجازات... و لم تكن أمـــي لـــتقلق إن فات الوقت أو إن لم يرجع غابيتو إلى المنـــزل، لأنها كانت تعلم أنه في ماخـــور ماريا أليخاندرينا. لا أدري إن كان الناس يفهمون المنحى الذي كانت تنحوه الأمور قبل ثلاثين سنة من دون إثارة فضيحة...

41. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الأونيفرسال، 24 حزيران 1949. إن أهمية الكتاب بالغة عـــنده، حـــتى إنه بالغ بلا ريب القول بأنه عزا فهمه كله إلى طبيعة الزمان في الحياة وفي القصص لقراءته السيدة دالاوي.

42. انظر: جيرالد، المصدر السابق، ص 7-10؛ وسالديبار، المصدر السابق، ص 556-557.

43. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الهيرالدو، 14 آذار 1950.
44. آرانغو، المصدر السابق، ص 237.
45. التزم كل من آرانغو وغارسيا أوستا بهذا الخط.

7 - بارانكيا وبائع الكتب وجماعة بوهيمية (1950-1935):

1. آرانغو، المصدر السابق، ص 222.
2. المصدر السابق، ص 311. يعتمد هذا الفصل في معلوماته على مقابلات مع أخوة غارسيا ماركيز وأخواته وألفونسو فوينمايور (بارانكيا، 1991، 1993) وخيرمان فارغاس (بارانكيا، 1991)، وأليخاندرو أبريغون (كارثاخينا، 1991)، وتيتا سيبيدا (بارانكيا، 1991)، وسوسي ليناريس دي فارغاس (بارانكيا، 1991)، وهيليودورو غارسيا (بارانكيا، 1991)، وغييرمو مارين (بارانكيا، 1991)، وكيكي سكوبل (بارانكيا، 1991)، وكاتيا غونثاليث (بارانكيا، 1991)، وباتشو بوتيا (بارانكيا، 1991) وبن وولفورد (لندن، 1991)، ورامون إيلاف باكا (بارانكيا، 1991، 2007) وأنطونيو ماريا بينالوثا ثيربانتس (آراكاتاكا، 1991) وأوتو غارثون بانتينو (بارانكيا، 1993) وخوان رودا وماريا فورنا غييرا دي رودا (بوغوتا، 1993) وجاك جيلارد (طولوز، 1999، 2004) وغييرمو هينريكيث (بارانكيا، 2007) وغيرهم.
3. حديث مدينة مكسيكو، 1993.
4. بخصوص جماعة بارانكيا انظر:

Alfonso Fuenmayor, *Cronicas sobre el grupo de Barranquilla* (Bogota, Instituto de Cultura, 1978) and Fiorillo, *La Cueva.*

وفيه رسومات توضيحية رائعة. كما أصدر فيوريلو عدداً آخر من الكتب المهمة في القضايا الثقافية المحيطة بالجماعة. أما بخصوص بينيس فانظر:

Jacques Gilard, *Entre los Andes y el Caribe: la obra americana de Ramon Vinyes* (Medellin, Universidad de Antioque, 1989) and Jordi Llado, *Ramon Vinyes: Un home de lletres entre Catalunya i el Caribe* (Barcelona, Generalitat de Catalunya, 2006).

5. ماذا؟ أنت سوبيراتس؟ سوبيراتس مترجم جويس متوسط الكفاءة؟ انظر فوينمايور: *Cronicas sobre el grupo*, p. 43.
6. فيوريلو، المصدر السابق، ص 46، 98.
7. انظر:

Alvaro Mutis, "Apuntes sobre un viaje que no era para contra", in Mera ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 19-20.

8. فيوريلو، المصدر السابق، ص 108.
9. انظر:

Daniel Samper, Prologue, *Antologia de Alvaro Cepeda Samudio* (Bogota, Biblioteca Colombiana de Cultura, 1977); also Plinio Mendoza, "Requiem", *La llama y el hielo.*

10. غارسيا ماركيز، مقالة الاسكبتادور، 20 تشرين الأول 1982.

11. انظر:

"El grupo de Barranquilla", *Vanguardia Liberal*, Bucaramanga, 22 January 1956, quoted by Gilard in *GGM, Obra periodistica Vol. V: De Europa y America I* (Bogota, Oveja Negar, 1984), p. 15.

12. فيوريلو، المصدر السابق، ص 96.

13. المصدر السابق، ص 136-137.

14. المـــصدر السابق، ص 58. قبل زمن قصير، كان لوالد المغنية شاكيرا محل لبيع المجوهرات هناك.

15. رافـــق ألفونـــسو فوينمايور مؤلف الكتاب في جولة لا تنسى في هذه المنطقة سنة 1993 وذلك قبيل وفاته بزمن قصير. وفي العام 2006، زودني خايمي أبيلو مدير مؤسسة غابرييل غارسيا ماركيز للصحافة الجديدة الإيبرية – الأميركية بمعلومات حديثة قيمة.

16. لعل روندون هو الذي عرّف غابرييل غارسيا ماركيز إلى عالم الشيوعية. انظر:

"Estoy comprometido hasta el tuetano can el periodismo politico": *Alternative* entrevista a GGM, *Alternative* (Bogota) 29, 31 March 1975, p. 3.

17. انظر الفقرة الأولى من **عشت لأروي**.

18. فيوريلو: المصدر السابق، ص 74. ماخور أوفيميا هو مكان آخر يحظى بمكانة خرافية، إذ يشير إليه غارسيا ماركيز في قصته **ليلية الكروانات** ورواية **مئة عام من العزلة**. وقد خلد الكـــثير من أعمال الجماعة الطائشة في الأدب والأسطورة المحلية، مثال ذلك عندما أثار ألفونـــسو فويـــنمايور فزع ببغاء على شجرة، فسقط من فوقها ليقع في قدر تغلي دائماً باليخنة في الحكايات التي تدور عن مواخير الساحلي في هذا الوقت. فما كان من غارسيا ماركيـــز إلا أن أسرع دونما تفكير في التقاط غطاء قدر كبير جداً ليجد أن الببغاء واجه مصيره عوضاً عن الدجاج في تلك اليخنة المغلية. في ما يخص موضوع الدعارة والأدب في بارانكيا، انظر:

Adlai Stevenson Samper, *poivos en La Arenosa: Cultuira y burdeles en Barranquilla* (Barranquilla La Iguana Ciega, 2005).

19. فيوريلو، المصدر السابق، ص 93.

20. أخبرني غابرييل غارسيا ماركيز بهذا الأمر في هافانا سنة 1997.

21. انظر: **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 363. وفي **ذاكرة غانياتي الحزينات** تظهر بالاسم كاستورينا.

22. في **عشت لأروي** يظهر بالاسم لاسيدس وليس داماسو.

23. قـــال فوكنـــر هذا في المقابلة المشهورة المنشورة في مجلة باريس ريفيو وتأثر بها غابرييل غارسيا ماركيز تأثيراً كبيراً. ثمة وصف مبكر لناطحة السحاب وسكانها في:

Plinio Mindoza, "Entrevista con Gabriel Carcia Marquez" *Libre* (Paris), 3 March-May 1972, PP. 7-8.

24. انظر: "Una mujer importancia", *El Heraldo*, 11 January 1950.

25. انظر: "El barbero de la historia", *El Heraldo*, 25 May 1951.

26. انظر: "I llya en Londres", *El Heraldo*, 29 July 1950.
27. انظر: "Memorias de un aprendiz de antropofago", *El Heraldo*, 9 February 1951.
28. انظر: "La peregrinacion de la jirafa", *El Heraldo*, 30 May 1950.
29. انظر: Saldivar, *GM: el viaje a la semilla*.
هنا يفنّد سالديبار رواية غابرييل غارسيا ماركيز ويؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن زيارته برفقة أمه إلى آراكاتاكا كانت في العام 1952، وأن غابرييل غارسيا ماركيز قال إن الزيارة حدثت في العام 1950 ليجعل من بارانكيا المكان الذي بدأ فيه أول مرة كتابة **عاصفة الأوراق**، وليجعل من زيارته مع أمه إلى المكان مصدر إلهام لها؛ على حين أن الحقيقة هي أن **عاصفة الأوراق** – حسب سالديبار – كتبت أول مرة في كارثاخينا عام 1948-1949! ولما كان سالديبار قد أكد هذا، فإن غابرييل غارسيا ماركيز كان يخطط لجعل رحلته مع أمه نقطة انطلاق مجمل مذكراته والتأكيد القاطع على مهنته الأدبية، فإن فرضية سالديبار متهورة، بل لا أساس لها من الصحة في تقديري.
30. في وقت لاحق، سيلجأ إلى استخدام هذه الذاكرة لكتابة قصته **قيلولة الثلاثاء** التي تدور عن أم لص ميت وأخته اضطرتا إلى السير وسط شوارع ماكوندو المعادية لهما من أجل زيارة قبره. إن من قرأ رواية **بيدرو بارامو** لخوان رولفو (1955) التي أثرت تأثيراً بالغاً في غابرييل غارسيا ماركيز بدءاً من السطر الأول من روايته **مئة عام من العزلة**، لا بد من أنهم قد لاحظوا أن أسلوب ومحتوى هذا القسم، إضافة إلى مذكراته **عشت لأروي** كلّها تذكر بوصول خوان بريثيا دو إلى كومالا في مستهل رواية خوان رولفو. بخصوص آراكاتاكا في تلك الفترة، راجع:
Lazaro Diago Julio, *Aracataca... una historia para contra* (Aracataca, 1989, unpublished), PP. 198-212.
31. الأمر الذي يبعث على المفارقة هو أن المؤرخ المحلي دياغو خوليو يقول إن سنة 1950 كانت أكثر سنوات آراكاتاكا ازدهاراً منذ عشرينيات القرن العشرين. (المصدر السابق، ص 215).
32. **عشت لأروي**، ص 26.
33. مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز أجراها بيتر ستون لمجلة باريس ريفيو في العام 1981، انظر:
Philip Gourevitch, ed., The "Paris Review" Interviews, Vol. II (London, Canongate, 2007), PP. 185-6.
34. هذا ما قيل لي سنة 1999. انظر أيضاً: أنطوني داي ومارجوري ميلر، غابو يتكلم: غابرييل غارسيا ماركيز يتحدّث عن بلايا أميركا اللاتينية وصداقته مع فيدل كاسترو وذعره من الصحيفة البيضاء، مجلة لوس أنجلوس تايمز. 2 أيلول 1990، ص 33.
35. في **عشت لأروي** يقول غابرييل غارسيا ماركيز إنه نادراً ما تكلم مع أمه في طريق العودة من الرحلة. لكن، بحسب خوان غوستافو كوبو بوردا، فإنه سرعان ما بدأ يسألها عن قصة الجدّ والأسرة والأصل الذي انحدرت منه.

36. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الهيرالدو، 24 نيسان 1950.
37. فيوريلو، المصدر السابق، ص 20–21.
38. صحيفة الهيرالدو، 14 آذار 1950.
39. يبقى إيسكالونا أشهر مؤلف لأغاني الفاليناتو كما يبقى مؤسسة وطنية، وطني، انظر:
Consuelo Araujonoguera, *Rafeal, Escalona: el hombre y el mito* (Bogota, Planeta, 1988).
وهــي ســيرة كتبتها المرأة التي نظمت مهرجانات الفاليناتو التقليدية في بابيدوبار إلى أن لقــيت مصرعها على ما يبدو خلال اشتباكات مسلحة اندلعت بين الجيش ورجال من تنظيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية في أيلول 2001.
40. فيوريلو، المصدر السابق، ص 365.
41. **عشت لأروي** في:
Living to tell the Tale, *Fuenmayor, Cronicas sobra el grupo*, and Gilard, ed., *textos costenos I*.
42. فيوريلو، المصدر السابق، ص 186–187.
43. بخصوص غابرييل غارسيا ماركيز وهمنغواي، انظر:
William Kennedy, "The Yellow Trolley Car, Bracelona: An interview" (1972), in *Riding the Yellow Trolley Car* (New York, Viking, 1993), p. 261.
44. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الهيرالدو، 13 تشرين الثاني 1950.
45. انظر: Eligio Garcia, *Tras las claves de melquiades*, PP. 360-61.
(*) المقطــع يفتقــر إلى علامات التنقيط، وفي أماكن متعددة يربط ماركيز الكلمات بعضها ببعض فتبدو كلمة واحدة طويلة جداً مما يصعب رسمه في العربية. (المترجم)
46. أعطــاني كارلــوس ألــيمان نسخة من الرسالة خلال لقائنا في بوغوتا سنة 1991. وقد نشرت النسخة الإسبانية مرة أخرى في كتاب:
Arango, *Un Ramo de Nomeolivdes*, PP. 3-271.
47. مما يبعث على الاستغراب أن غايتان كان دفن في باحة منــزله في بوغوتا بسبب الخوف من أن يجذب ضريحه اهتماماً في غير محله لكل من معجبيه وأعدائه.
48. انظر: "Caricature de Kafka", *El Heraldo*, 23 August 1950.
49. كــان مارتن شريراً ورقيقاً في آن واحد (وكان يلجأ إلى استخدام شعوذة غوافيرا وغرس الدبابيس في عيون الدمى).
50. انظــر: "El Viaje a la semilla", *El Manifiesto* (Bogota, 1977) in Renteria, p. 161.
51. قــال غابرييل غارسيا ماركيز لألينا بونيا توفسكا (في مقابلة نشرت في أيلول 1973 في Todo Mexico ص 224) إنــه لم يستطع قط استخدام ميرثيديس استخداماً أدبياً لأنه يعرفها معرفة وثيقة تجعله لا يملك أي فكرة عنها!
52. تكلمت مع ميرا ديلمار عن تلك الأيام في تشرين الثاني 2006.

53. انظـــر: ليخـــيا غارســـيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 165-166. حدثتني ميرثيديس بالشيء نفسه في 1991.

54. انظر:

Antonio Andrade, "Cuando Macondo era Una redaccion", *Excelsior* (Mexico city) 11 October 1970.

55. مقابلة مع عايدة غارسيا ماركيز، بارانكيا، 1993.

56. انظـــر: "El dia que Mompox se volvio Macondo", *El Tiem*, 11 December 2002.

توفـــيت مارغـــريتا تـــشيكا في سينثليخو في أيار 2003. للحصول على أفضل مصدر للمعلومات عن أسباب هذا الاغتيال وما أعقبه راجع:

Eligio Garcia, La Tercera Muerte de Santiago Nasar (Bogota, Oveja Negra, 1987).

57. **عشت لأروي**، ص 384-386.

58. ليخيا غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 154.

59. انظر:

Angel Romero, "Cuando GM Dormia en El Universal", 8 march 1983.

وهو المصدر الأساس في ما بعد لكاتب آرانغو.

60. جيرالد، المصدر السابق، ص 7.

61. غوسافو غارسيا ماركيز في غالفيس، ص 211.

يذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذا الحادث في صحيفة الاسبكتادور، 23 آب 1981.

62. **عشت لأروي**، ص 39.

63. انظر: Garcia Usta, *Como Aprendio a escribir Garcia Marquez*, PP. 34-5.

64. آرانغو، المصدر السابق، ص 274.

65. المصدر السابق، ص 211.

66. غوستافو غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 194.

67. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 آذار 1951.

68. وهي أيضا فوكنرية بكل وضوح.

69. يقـــول ســـالديبار إن زيارته كانت عام 1949. ويبدو أن هذا قد استند إلى ذاكرة غير صحيحة لأن غابرييل غارسيا ماركيز سكن في كارتاخينا مرتين: في عامي 1948-1949 وفي عامي 1951-1952. وكان موتيس شديد الوضوح دائماً بتأكيده أنه استخدم منصبه في شركة الخطوط الجوية لانسا للسفر إلى كارتاخينا ليلتقي غابرييل غارسيا ماركيز و لم يظل في عمله في الشركة حتى سنة 1950.

70. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة البايس (مدريد)، 30 تشرين الأول 1993.

إن حقيقة عدم لقائه موتيس حتى العام 1951 لا تمنع غابرييل غارسيا ماركيز من الإعلان أنـــه اعتاد أن يخبر موتيس ومالارينو عن قصصه في بوغوتا في عامي 1947-1948. انظر بوغوتا 1947، الاسبكتادور، 18 تشرين الأول 1981.

71. انظر:
Santiago Mutis, *Tras las rutas de Maqroll el Gaviero* (Cali, Proatres, 1988), p. 366.

72. انظر:
Fernando Quiroz, *El rino que estaba para mi: conversaciones con alvaro Mutis* (Bogota, Norma, 1993), PP. 68-70.

73. فاينا الكولومبية:
يمكـــن تألــيف أطروحة كاملة عن هذه الكلمة التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من الشخصية الوطنية الكولومبية، فهي تستعمل بادئ ذي بدء، عندما يكون المتكلم عاجزاً عن التلفظ بكلمـــة دقــيقة، أو حتى لا يزعج نفسه بالتلفظ بها. على كل حال، ففي بلد يكون فيه الكـــلام دقيقاً على نحو غير مألوف تجد أن استعمال كلمة Vaina مقصود تماماً ودائماً (في وقـــت تبدو فيه عفوية)، وعادة قومية أو حتى إدمان، وأسلوب في ترك الأشياء غير دقــيقة، بل وسيلة لإظهار أن المرء يرغب في أن يكون حراً وليس رناناً أو حتى مخالفاً في بلـــد حيث يتكلم أهله أفضل لغة إسبانية في العالم، والواضح أن كلمة Vaina، إذا أردنا أن تعـــني كـــل شـــيء كما هي الحال هنا، وليس كما هو معتاد، فإن شيئاً غير مهم لا يـــستحق اسمـــا يظهـــر اتجاهـــا ينطوي على مفارقة وليس جديراً بالاحترام. إن الكلمة يـــستعملها كـــثيراً المتكلمون الذكور؛ ربما لأن النساء يدركن أنها مأخوذة عن الكلمة اللاتينية Vagina، أي الرحم.

74. انظر: *Vivir Para Contarla*, p. 481.

75. في مقابلة ترجع إلى سنة 1968 قال غابرييل غارسيا ماركيز إن بينيس واساه عن الرفض. انظر:
Leopoldo Anzacot, "Garcia Marquez habla de poltica y literatura", *Indice* (Madrid), 237, November 1968.
لكن بينيس كان قد غادر في نيسان من ذلك العام.

76. لا تـــزال هناك لحظات أخرى مدهشة، ومنها لحظة خالدة هي شارب الكوكاكولا 24 أيار 1952، بخصوص تحيته لرامون بينيس في أعقاب موته في برشلونة في الخامس من أيار وذلـــك قـــبل بلوغه السبعين. إنها شهادة عن الكاتلوني العجوز الحكيم، وأيضاً عن رؤية غابيـــتو وأصـــالته أيضاً، وهو آخر تلامذته الذي وجد طريقه كي يقول وداعاً وهي في الـــوقت نفسه رؤية لا تنطوي على احترام، تسخر من الذات، ومؤثرة. وتنتهي بعبارة: اتـــصلوا بـــنا من برشلونة يوم السبت الماضي ليخبرونا بوفاته. فجلست أتذكر كل هذه الأشياء، إذ قد تكون صحيحة.

77. أجريت لقاءً مع بونشو كوتيس في بايدوبار سنة 1993. للحديث عن علاقتهما انظر:
Rafael Escalona Martinez, "Estocolmo, Escalona y Gabo", in Mera, ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 88-90.

78. مقابلة مع مانويل ثاباتا أوليفيا، بوغوتا، 1991. انظر:
Zapata Olevella, "Enfouque antropologico: Nobel para la tradicion oral", *El Tiempo, Lecturas Dominicales*, December 1982.

79. انظر:
Ciro Quiroz Otero, *Vallenato, hombre y canto* (Bogata, Icrao, 1983).
80. فـــازت هـــذه الأغنـــية بجائزة التأليف في مهرجان الفاليناتو سنة 1977. وكانت معرفة غارســـيا ماركيز بهذا النمط من أغاني الفاليناتو المجهولة في أربعينيات القرن العشرين قد ازدادت بفضل كليمنتي مانويل ثابالا ومانويل ثاباتا أوليفيا (وهما القادمان من جهة منطقة بولـــيفار الساحلية) حتى قبل أن يلتقي إيسكالونا، لكنه كان شغوفاً دوماً بموسيقى إقليمه الشعبية.
81. انظر:
GGM ،"Cuando Escalona me daba de Comer", *Coralibe* (Bogota), April 1981.
82. انظر على سبيل المثال:
"La Cerania con el pueblo encumbro la novela de America Latina", *Excelsior* (Mexico city), 25 January 1988.
83. انظر: *Viver Para Contarla*, p. 499.
84. انظر: Cobo Borda, *Silva, Arciniegas, Mutis y Garcia Marquez*, p. 479.
85. انظر:
Plinio Mendoza, "Entrveista con Gabriel Garcia Marquez", *Libre*, 3 March-May 1972, p. 9.
ومـــنه يقتـــبس غابريل غارسيا ماركيز سطراً ويعترف أنه ربما كان مصدر إلهام روايته **خريف البطريرك**.
86. في **قصة موت معلن**، تصبح شخصيته المستوحاة في الرواية بائع موسوعة في مرحلة قلقة كنت أحاول فيها أن أفهم شيئاً ما عن نفسي". (لندن، بيكادور، 1983) ص 89.
87. انظر خارطة جانب المحيط الأطلسي الذي تطل عليه كولومبيا/الساحل الكولومبـــي.
88. انظر:
Gilard, ed., Gabriel Garcia Marquez Obra Periodistica Vol. III: Entre Cachacos 1, p. 66.
89. تذكـــر في رسالة بعث بها غابرييل غارسيا ماركيز في برشلونة إلى ألفارو سيبيدا ساموديو في بارانكيا، 26 آذار 1970. إنني مدين بالشكر لتيتا سيبيدا إذ أطلعتني على الرسالة.
90. انظر: *Vivir Para Contarla*, p. 504 بالرغم من أن جيلارد قيل له إن غابرييل غارسيا ماركيز هو الذي سافر أولاً (Textos cotenos I, p. 25).
91. فاز هذا العمل بجائزة القصة القصيرة القومية لعام 1954. انظر **عشت لأروي**، ص 454، الطبعة الإنكليزية، ويتصنع على عادة لا مبالاته بالمال وبالمجد.
92. انظر: Cobo Borda, *Silva, Arciniegas, Mutis y Garcia Marquez*, p. 480.
يقول غابرييل غارسيا ماركيز أيضاً إن الروائي الذي يستمتع بقراءة أعماله أكثر من غيره ويجعل ذهنه يحلق بعيداً هو كونراد. شكراً، مجدّداً، لموتيس.
93. انظر: *Vivir Para contarla*, p. 506-7.

8 – عودة إلى بوغوتا: مراسل صحافي من الطراز الأول (1954-1955):

1. مقـــابلات مـــع ألفارو موتيس، مدينة مكسيكو، 1992 و1994. لأغراض هذا الفصل، تحدثت أيضاً إلى خوسيه سالغار (بوغوتا، 1991، كارثاخينا، 2007) وخيرمان آرثينيغاس (بوغــوتا، 1991) وخوان غوستافو كوبو بوردا (بوغوتا، 1991) وآنا ماريا باسكيتس دي كانو (بوغوتا، 1991) وألفونسو وفيرناندو كانو (بوغوتا، 1993) وألفارو كاستانو (بوغــوتا، 1991، 1998، 2007) ونانسي بيثينيس (مدينة مكسيكو، 1994) وخوسيه فـــونت كاسترو (مدريد، 1997) وجاك جيلارد (طولوز 1999 و2004) وغيرهم. في 1993 رافقـــتني باتريثيا كاستانو في جولة في جميع الأماكن ذات الصلة بغابرييل غارسيا ماركيز في مركز العاصمة بوغوتا.
2. انظر:

Alfredo Barnechea and Jose Miguel Oviedo, "La historia como estetica" (interview, Mexico, 1974), reproduced in Alvaro Mutis, *Poesia y prosa* (Bogota, Instituto Colombiano of cultura, 1982), PP. 576-97.

3. **عشت لأروي**، ص 439.
4. انظـــر: Oscar Alcaron, *El Espectador*, 24 October 1982. التقـــيت في 2007 أوسكار الآركون، أحد الأقرباء من سانتا مارتا قدمه غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور.
5. عن المقابلة التي أجريتها مع سالغار 1991.
6. انظر: "La reina sola", *El Espectador*, 18 February 1954.
7. انظـــر: Gilard, ed., *Entre cachacos I*, PP. 16-17. مرة أخرى أشير إلى أن كتاب جيلارد عن هذه المرحلة لا يستغني عنه.
8. انظر: Sorela, *El otro Garcia Marquez*, p. 88. لدى سوريلا، الصحافي الذي عمل فترة في صحيفة البايس الإسبانية، أفكار رائعة بخصوص صحافة غابرييل غارسيا ماركيز.
9. انظر: جيلارد، المصدر السابق. وفيه يقسو على نقد غابرييل غارسيا ماركيز السينمائي.
10. الاستقامة والثقة والصفة الإنسانية هي التي تربطه ارتباطاً قوياً بسلفه ثيربانتس.
11. وهـــو ما كان يسعده أن يقوم به بصورة غير مباشرة، في مراحل متقدمة من حياته، من خلال "ورش" السينما والصحافة.
12. انظر:

Living to tell the tale, p. 450. See also Jose Font Castro, "Gobo", 70 Anos: "No quiero homenaies postumos en vida", *El Tiempo*, 23 February 1997.

وفيها ذكريات عن تلك المرحلة.

13. مقابلـــة مع نانسي بيثينيس في مدينة مكسيكو، 1994، 1997، بخصوص لويس بيثينس، انظر:

E. Garcia Riera, *El cine mejor que la vida* (Mexico, cal y Arena, 1990), PP. 50-53.

14. فيوريلو، المصدر السابق، ص 262.
15. انظر:

Diego Leon Giraldo, "La incredible y triste historia de GGM y la cinenatografia desalamda", *El Tiempo, Lecturas Dominicales*, 15 December 1982.

وذلك بخصوص كل من La Langosta Azul ونقده السينمائي في بارانكيا وبوغوتا وقد أوضح صديقي غوستافو أدولفو راميريث أن أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز الساحليين كانوا يترددون على بوغوتا.

16. **عشت لأروي**، ص 463.
17. جيلارد، المصدر السابق، ص 52–53.
18. مقابلة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 2 آب 1954.
19. نشرت في الثاني والثالث والرابع من شهر آب سنة 1954 على التوالي.
20. يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذه الرحلة إلى 'Uraba' في:

"Seamos machos: hablemos del miedo al avion", *El espectador*, 26 October 1980; German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novela de sun vida 4", *El Espectador*, 23 March 1977; *Living to tell the tale*, PP. 440-50; Daniel Samper, "GGM se dedicara a la musica", 1968, in Renteria, PP. 7-21; "GGM: "Tego permanente germen de infelicidad: atendcr a la fama"", *Cromos*, 1 January 1980.

وقد ذهب إلى ما هو أبعد من هذا بقوله (كنا نعدّل الحقيقة) مما أثار صدمة بعض الصحافيين في صحيفة البايس.

21. انظر مقالة: همنغواي، جائزة نوبل، صحيفة الاسبكتادور، 29 تشرين الأول 1954. المقالة تخلو من اسم كاتبها لكن جيلارد محق تماماً في اعتقاده أن كاتبها هو غابرييل غارسيا ماركيز.
22. **عشت لأروي**، ص 472. يشير الكاتب إلى أن ذلك كان في مكتب غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور.
23. غابرييل غارسيا ماركيز، محاضرة ألقيت على صحافيين من صحيفة البايس في الجامعة المستقلة في مدريد، 28 نيسان 1994.
24. مقابلة مع خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.
25. انظر:

"La desgracia de ser escritor Joven", *El Espectador*, 6 September 1981.

بعد صدورها أول مرة، وعندما كان غارسيا ماركيز قد عاد لتمضية مدة قصيرة في بوغوتا في أعقاب نشر روايته **مئة عام من العزلة**، وجد عشرات النسخ من هذه الطبعة معروضة للبيع في مكتبة لبيع الكتب القديمة بسعر بيزوس واحد لكل نسخة، فاشترى أكبر كمية يستطيع شراءها.

26. **عشت لأروي**، ص 482.

27. انظر:
Clande Couffon, "A Bogota chez Garcia Marquez", *L'Express* (Paris), 17-23 January 1977, PP. 70-78, especially p. 74.

28. انظر: Dante, *Vita Nuova*, chapter 2.

29. كانت ميرثيديس طالبة ممتازة في المدرسة الثانوية، وفكّرت في دراسة علم الجراثيم في الجامعة، لكن يبدو أن اقتراب موعد زواجها المفترض بغابو، والذي كان يلوح في الأفق دائماً، هو الذي جعلها تؤجل خططها في الدراسة.

30. **عشت لأروي**، ص 467-468، 470.

31. انظر:
Juan Ruiz, Acripreste de Hita, *El Libro de buen amor* (Fourteonth century).
كان تأثيره بالغاً في الثقافة وفي علم النفس الإسبانيين. إن موضوع "الحب المجنون" يرد ذكره في الصفحة الأولى وضمناً بإشارة إلى نقيضه وهو "الحب الوفي" في الصفحة الأخيرة من **ذاكرة غانياتي الحزينات**، وهي الرواية الأخيرة التي نشرها غابرييل غارسيا ماركيز وله من العمر سبع وسبعون سنة.

32. مدينة مكسيكو، 1997.

33. انظر على سبيل المثال: كلوديا، دريفوس، مجلة بلاي بوي، المصدر السابق، وفيها يوضح أن ميرثيديس قالت إن الأفضل له أن يذهب وإلا سيلومها طوال حياتها، (ص 178).

9 - اكتشاف أوروبا: روما (1955):

1. انظر: "Los 4 grandes" en Tecnicolor", *El Espectador*, 22 July 1955".

2. يعتمد هذا الفصل على مقابلات مع فيرناندو غوميث أغيديلو (أجرتها باتريثيا كاستانو، بوغوتا، 1991) وغييرمو أنخولو (بوغوتا، 1991، 2007) وفيرناندو بيري (كارثاخينا، 2007 ولندن، 2008)، وجاك جيلارد، (طولوز، 1999 و2004) وعلى أحاديث شتى مع عدد كبير من رواة الأخبار من ضمنهم جون كرافياوسكاس.

3. انظر: "Los 4 grandes" en Tecnicolor"" راجع أيضاً ذكريات مغايرة عن هذه الرحلة في: "Regreso a la guayaba", *El Espectador*, 10 April 1983.
وفيها يوضح مرة أخرى أن هدفه كان هو العودة إلى كولومبيا بعد بضعة أسابيع.

4. انظر:
صحيفة الاسبكتادور، 23 آذار 1977.
يزودنا كاسترو كايسيدو 4 و5 بأفضل التفاصيل عن تجارب غابرييل غارسيا ماركيز في جينيف.

5. مرة أخرى نشير إلى أن كتاب جيلارد على درجة بالغة من الأهمية، انظر:
Gabriel Garcia Marquez, *Obra Periodistica Vol. V: De Europo y America I* (Bogota, Oveja Negra, 1988) , p. 21.

6. المصدر السابق.

7. سوربيلا، المصدر السابق، ص 115.

8. الحـــق أن أزمة البابا أضحت شيئاً من الماضي بعد أن اندلعت عندما كان غارسيا ماركيز لا يـــزال في بوغـــوتا. لكـــن غابرييل غارسيا ماركيز يصر على هذه الرواية ويمضي في التفاصيل. انظر: "Roma en verano", *El Espectador*, 6 June 1982.
9. المصدر السابق، لكن غابو يوضح أنه بقي في روما ثمانية أشهر أو سنة، راجع:
German Castro Caycedo, ""Gabo" cuenta la novela de su vida. 5", *El Espectador*, 23 March 1977.
10. أشـــارت صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو)، 19 آذار 1988، أن صحيفة لا ستامبا الـــصادرة في تورين أفادت أن مقالات غابرييل غارسيا ماركيز التي كتبها عن مونتيس لا تلقي ضوءاً جديداً على القضية. الأهم من هذا، وفي ضوء معوقات غارسيا ماركيز، هي إن كانت القضية قد لخصها تلخيصاً أفضل من أي صحافي آخر.
11. انظر: *El Espectador*, 16 Spetember 1955, p. 1.
12. Karen Pinkus, *The Montesi scandal: the Death of Wilma Montesi and the Birth of the Paparazzii in Fellini's Roma* (Chicago, Chicago University Press, 2003), p. 2.
13. المصدر السابق، ص 36 عن: ما السينما؟ لبازان.
14. انظر:
GGM "Domingo en el Lido de Venecia Un Tremendo drama de ricos y pobres", *El Espectador*, 13 september 1955.
15. انظر: صحيفة الاسبكتادور، 6 حزيران 1982.
16. صحيفة الاسبكتادور، 8 أيلول 1955.
بعـــد مـــرور ربـــع قرن من الزمان يسافر روزي، الذي كان صديقاً وفياً، إلى كولومبيا ليحقق شريطاً سينمائياً عن رواية **قصة موت معلن** لغابرييل غارسيا ماركيز.
17. انظر: Gilard, ed., *De Europa y America1*, PP. 5-8.
18. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 4 أيلول 1983.
تتشابه قصة فريدا وقصة رافائيل ريبيريو سيلفا في روما (التي ورد ذكرها في هذا الفصل) إذ سافرت إلى أوروبا لتصبح مغنية كلاسيكية.
19. غابـــرييل غارســـيا ماركيـــز، مقالة، الاسبكتادور، 22 آب 1982. وفيها سرد لاعتقاد غابـــرييل غارســـيا ماركيز الخرافي بشأن مغادرة كاديكيس وعدم الرجوع إليها خشية الموت.
20. انظر: مقالته في الاسبكتادور، 27 كانون الأول 1981.
وفـــيها يوضح بجلاء أن رحلته الأولى والوحيدة إلى بولندا استغرقت أسبوعين في خريف العام 1955.
21. انظر مجلة كروموس 2، 203، 31 آب 1959.
22. المصدر السابق.
23. انظر صحيفة الاسبكتادور، 28 كانون الأول 1955.
24. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 11 كانون الأول 1955.

25. غابـــريـيل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، 6 حزيران 1982. يصف غابرييل غارسيا ماركيـــز الفـــتاة على أنها واحدة من الغانيات الحزينات في فيلا بورخس: هذا وستظهر عبارة "الغانيات الحزينات" في عنوان آخر رواية من رواياته بعد أكثر من خمسين سنة.
26. انظر صحيفة الاسبكتادور، 14 تشرين الثاني 1982، وفيها يثمن تثميناً كبيراً دور كتّاب النص السينمائي، ومعظمهم مجهول باستثناء ثاباتيني.
27. انظر: Eligio Garcia, *Tras las Claves de melquiades*, PP. 408-9.
28. المصدر السابق، ص 432.

يشير غابرييل غارسيا ماركيز بعد مرور سنوات نقلاً عن ثاباتيني وليس فيلليني إلى أن "الفن في أميركـــا اللاتينية لا بد من أن تكون له رؤية" لأن واقعنا مهلوِس (بكسر الواو) ومهلوَس (بفـــتح الـــواو) في الـــوقت نفسه. ألم يداخل الشك أحد في أن أكثر مصادر "الواقعية السحرية" في أميركا اللاتينية رجحاناً هي رواية "أعجوبة في ميلانو"؟

29. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 408.
30. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 408.
31. انظر:

Claude Couffon, "A Bogota chez Garcia Marquez", *L'Express*, 17-23 January 1977, p. 57.

يقـــول غابـــرييل غارسيا ماركيز لكوفون إنه توجه مباشرة إلى فندق الفلاندر في الليلة الأولى.

10 – جائع في باريس: البوهيمية (1956-1957):

1. يعتمد هذا الفصل على مقابلات مع بلينيو أبيليو ميندوثا (بوغوتا، 1991) وهيرنان فييكو (بوغوتا، 1991) وخيرمان فارغاس (بارانكيا، 1991) وغييرمو أنخولو (بوغوتا، 1991 و 2007) وتاتـــشيا كوينـــتانا روســـوف (باريس 1993، 1996، 2004) ورامون تشاو (بـــاريس، 1993) وكلود كوفون (باريس، 1993) ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998) وجاك جيلارد (طولوز 1999، 2004) وعدد آخر من رواة الأخبار.
2. بـــاريس هي باريس، والفندقان قائمان حتى اليوم بالرغم من أن فندق الفلاندر تغير اسمه إلى فـــندق دي تروا كوليج. ثمة علامة تشير إلى أن غابرييل غارسيا ماركيز نـــزل فيه. وقد حضر ابنه غونثالو وتاتشيا كوينتانا مراسم إزاحة الستارة عن العلامة.
3. انظر:

Plinio Mendoza, "Ret rate de GM (Fragmento)", in Angel Rama, *Novisimos narradores hispanoamericanos en 'Marcha' 1964-1980* (Mexico Marcha Gditores, 1981), PP. 39-128.

4. المصدر السابق، ص 137. انظر أيضا: صحيفة الاسبكتادور، 27 شباط 1974.
5. انظر:

Plinio Mendoza, *La llama y el hielo*; Plinio Mendoza, "GM 18 anos atras", op. cit.

6. ممـــا يدعـــو إلى الدهـــشة أن كاتباً أميركياً لاتينياً آخر وصديق غابرييل غارسيا ماركيز مـــستقبلاً، وهـــو ماريو فارغاس يوسا، انتهى به الأمر بعد أربع سنوات إلى غرفة علية استأجرها من السيدة لاكروا وللسبب نفسه.
7. في ما يخص أوتيرو سيلفا انظر: صحيفة الاسبكتادور، 28 كانون الأول 1980.
8. بلينيو ميندوثا، المصدر السابق، ص 49-51.
(من شأن La llama y el hielo أن تحدث شقاقاً بين غابرييل غارسيا ماركيز وميندوثا وعلى وجـــه الخـــصوص بـــين ميرثيدس ومندوثا، إذ وجدت في بعض كشوفاهما خيانة للثقة ولصداقتهما).
9. انظر:
Antonio Nunez Jimenez, "Garcia Marquez y le las Antillas (o Que conversan Gabo y Fidd)", (Havana, 1984, unpublished manuscript).
وقد أطلعتني خيمينيث على المخطوطة لدى زيارتي هافانا في العام 1997. كما أن القصة وردت في مقالـــة غابرييل غارسيا ماركيز 'Desde Paris on amor' المنشورة في صحيفة الاسبكتادور في 26 كانون الأول 1982. لقد سقط بيرون - الذي لم يكن دكتاتوراً بأي حال من الأحوال - في أيلول 1955، لهذا يبدو على الأرجح أن الصرخة كانت موجهة إلى أودريا الذي تخلى عن السلطة في البيرو على مضض في الثامن والعشرين من تموز، أو إلى سوموزا الرئيس النيكاراغويّ الذي لقي مصرعه في الحادي والعشرين من أيلول.
10. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز: صحيفة الاسبكتادور (بوغوتا)، 31 آذار 1956.
يمكن العثور على هذه المقالات في كتاب جيلارد: De Europa y America 1.
11. ميندوثا، المصدر السابق، ص 19-20.
12. انظر:
Consuelo Mendoza de Riano, "La Gaba Revista Diners", (Bogota), no. 80, November 1980.
وفـــيها نقرأ عن غابرييل غارسيا ماركيز وقد كتب ثلاث مرات أسبوعياً إلى ميرثيديس، لكن قيل إنه كانت لديه صديقة إسبانية في باريس.
13. انظر: بيترسون "غارسيا ماركيز"، مجلة باريس ريفيو، 1981، ص 188.
14. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 56.
15. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 403.
16. بخصوص مقهى مابيون وغيرها من المقاهي وارتباطاتها انظر:
Juan Goytisolo, coto vedado (Barcelona, seix Barral, 1985), PP. 12-209.
17. يستند هذا المقطع إلى مقابلة طويلة في باريس في شهر آذار 1993.
18. لعـــل أبلـــغ شـــرح عن معاناة غابرييل غارسيا ماركيز في باريس هو ذلك الذي نجده في:
Jean Michel Fossey, "Entervista a Gabriel Garcia Marquez", *Imagen* (Caracas), 27 April 1969. see also German Castro Caycedo, ""Gaba" cuenta la novella de su vida. 5", *El Espectador*, 23 March 1977.

19. يدعـــى أصدقاء أوغسطين الثلاثة، وكلهم خياطون، بالأسماء ألفونسو وألفارو وخيرمان، وهي أسماء أفضل أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز من بارانكيا.
20. انظر بلينيو ميندوثا، عطر الغوافة، ص 26.
21. أمضى عمه خوسيه ماريا بالديبلانكيث عقوداً من الزمان في الحكومة في بوغوتا؛ وفي سنة 1993 التقيت على مائدة الشراب مع ريكاردو ماركيز إغواران، وهو أحد أقرباء غارسيا ماركيـــز، وكـــان يعمل منذ سنوات مع بالديبلانكيث في دائرة التقاعد في أواخر عقد الأربعينيات: "سنوات وسنوات و لم ندفع مرتباً تقاعدياً واحداً!".
22. تجـــري وقائع رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** منذ أوائل تشرين الأول وحتى مطلع كانون الأول 1956؛ ونحن نعلم بهذا بسبب الإشارات إلى أزمة السويس، مما يعني أنها كتبت في الوقت نفسه الذي كانت فيه الأحداث تأخذ مجراها في كولومبيا والشرق الأوسط، فضلاً عـــن أن غابـــرييل غارسيا ماركيز وتاتشيا كوينتانا كانا معا خلال تلك المدة؛ 21 آذار وحتى أواسط كانون الأول.
23. بترجمتي.
24. سوريلا، المصدر السابق، ص 133.
25. الـــرواية مؤطـــرة بالإطار نفسه المستعمل في **قصة موت معلن** لاحقاً: فأمامنا راوٍ يشبه غابـــرييل غارسيا ماركيز يتحدث إلى بيلي في كارثاخينا بعد مرور سنوات طويلة ثمّ يبدأ بمعايـــنة سجلات المستشفى في باريس ليتأكد من تاريخ دخول نينا، ويتحدث إلى أحد العاملين سبق لبيلي أن استشاره في السفارة الكولومبية.
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 22 شباط 1984.
27. غوستافو غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 206.
28. يناقش ميندوثا هذه المرحلة في: Cronicas sober el grapa de Barranquilla.
لقـــد كانـــت رواية غابرييل غارسيا ماركيز الأولى **عاصفة الأوراق** مهداة إلى خيرمان فارغاس. أما الأصدقاء في رواية **ليس للعقيد من يكاتبه** فهم ألفونسو وألفارو وخيرمان: وســـيظهر الرجال الثلاثة في رواية **مئة عام من العزلة** مع رامون بينيس (وميرثيديس...). مما لا يدعو إلى العجب أن غابرييل غارسيا ماركيز يكرر أمام الصحافيين أنه كتب "كي يحـــبني أصدقائي أكثر"، ومن يتولاه العجب لرجل له تجربته في الحياة العائلية في الطفولة، فيتشبث بالأصدقاء الذين جعلوه أول مرة يشعر أنه إنسان منتمٍ.
29. انظر:
Silvana Paternostro, "La Mirada de los otros Pagina 12", (Buenos Aires), 5 May 2004.
30. غابرييل غارسيا ماركيز، جورج براسينس، مقالة، الاسبكتادور، 8 تشرين الثاني 1981.
31. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982 وفيها يتذكر كيف كان يعمـــل لجبهة التحرير الوطني الجزائرية. (وبعد خمس وعشرين سنة، وفي أثناء احتفالات الاستقلال يقول إن ذلك النضال هو النضال الوحيد الذي سجن بسببه).
32. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982.

33. انظر: كوفون، الإكسبريس، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 76.
34. انظر: Plinio Mandoza in Mera, ed., *Aracataca-Estocolmo*, PP. 1-100.
(*) سيرسه: هي حسب الأساطير الإغريقية ساحرة عاشت في إحدى الجزر الإغريقية وعندما حطَّ أوديسيوس رحاله فيها حوَّلت سيرسه رجاله إلى خنازير فأصبحت بذلك رمز الغواية. (المترجم)
35. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 26 تموز 1981.

11 - ما وراء الستار الحديدي: أوروبا الشرقية إبان الحرب الباردة (1957)

1. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 21. يستند هذا الفصل إلى مقابلات مع بلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وغييرمو أنخولو (بوغوتا، 1991)، وهيرنان فييكو (بوغوتا، 1991)، وتاتشيا كوينتانا (باريس 1993)، ومانويل ثاباتا أوليفيا (بوغوتا، 1991)، وجاك جيلارد (طولوز 1999، 2004) وغيرهم.
2. يظل غارسيا ماركيز حتى في مقالاته المنشورة عن هذه الرحلة، والتي نقحها وهذبها في سنة 1959، يخفي شخصية سوليداد تحت اسم جاكلين، وهي فنانة فرنسية تصويرية تنحدر أصلاً من الهند الصينية، ويخفي شخصية بلينيو تحت اسم فرانكو وهو صحفي إيطالي متنقل. وفي خمسينيات القرن العشرين كان يستحيل على أي كولومبي السفر إلى ما وراء الستار الحديدي من دون المجازفة بعواقب سياسية وشخصية وخيمة، انظر كتاب:

Gilard, ed., *De Europa y America I*, p. 7.

3. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز: 90 يوماً وراء الستار الحديدي، كروموس 2، 27 تموز 1959.

All these articles are collected in Gilard, ed., GGM, *Obra periodistica Vol. V* and *Vol. VI: De Euorpa y America 1 and 2*.

4. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، كروموس، الحلقة السادسة، 3 آب 1959.
5. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثانية.
6. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثالثة، 10 آب 1959.
7. بعد مرور سنوات طويلة يصبح بيَّار بوردا آخر سفير كولومبي في برلين الشرقية.
8. في تموز 2004، أخبرني جاك جيلارد قائلا: "في يوم من الأيام، أخبرني غابرييل غارسيا ماركيز أنه ليس متأكداً إن كان شيوعيًّا، لكنه قال إنه يعتقد أنه شيوعي. من المؤكد أنه لدى وصوله إلى فيينا سنة 1955 ولقائه خورخه ثالامبا، الذي كان يحضر آنذاك مؤتمراً شيوعيًّا، كان ينظر إلى نفسه على أنه شيوعي"، لكن هذا لا يعني بطبيعة الحال أنه كان عضواً في الحزب.
9. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثالثة.
10. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة السادسة، كروموس، 3 آب 1959.
11. المصدر السابق.

12. المصدر السابق.
13. أوضح غارسيا ماركيز في مقالاته أن جاكلين وحدها رجعت إلى باريس وأنه مكث هو وفرانكو في برلين وترك السيارة فيها، وواصل سفره بالقطار إلى مدينة براغ. و لم تكن تلك الزيارة لتسهيل زيارة ألمانيا في أيار 1957 وحسب، بل زيارة تشيكوسلوفاكيا وبولندا أيضاً خلال الزيارة المزمع القيام بها في تموز/آب 1957، إلى كل من اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية وهنغاريا. وهكذا انطوت ثلاث زيارات منفصلة على رحلة واحدة مفترضة **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**.
14. آرانغو، المصدر السابق، ص 88.
كانت الفرقة هي فرقة ديليا ثاباتا الفلكلورية التي كتب عنها غارسيا ماركيز مقالة في بوغوتا (الاسبكتادور، 4 آب 1954) وكانت الفرقة ينقصها عازف الأكورديون وعازف الساكسفون.
15. غابرييل غارسيا ماركيز، باريس إلى تاتشيا كوينتانا، مدريد، صيف 1957.
16. يصف غابرييل غارسيا ماركيز هذه الرحلة في مقالته في الاسبكتادور، 11 تشرين الأول 1981.
17. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة السابعة، كروموس، 7 أيلول 1959.
سينشر غابرييل غارسيا ماركيز المقالات الأربع الأولى عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية في كروموس في بوغوتا عام 1959 بشكل مقالتين اثنتين أول الأمر:
"Yo visite Rusia" 1 and 2 in *Momento*, caracas, 22 and 29 November 1957.

وقد نُشرت المقالتان في كتاب جيلارد:
Gilard, ed., *Gabriel Garcia Marquez, Obro Periodistica Vol. VI: De Europa y America 2* (Bogota, Oveja Negra, 1989).
لكنني أستشهد هنا بمجموعة العام 1959 لأن المقالات أكثر اكتمالاً، ولأنها جزء لا يتجزأ من منظور شامل.
18. تتم الإطاحة بمولوتوف في الأول من حزيران 1957.
19. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة الثامنة، كروموس، 14 أيلول 1959.
20. المصدر السابق.
21. المصدر السابق.
22. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة التاسعة، كروموس، 21 أيلول 1959.
23. المصدر السابق، قارن بمقالة غابرييل غارسيا ماركيز في الاسبكتادور، 12 أيلول 1982، وفيها يناقش موضوع جثتي لينين وستالين ويذكر إيفيتا بيرون وسانتا آنا وأبريغون، ويقارن بين أيدي ستالين وفيدل كاسترو وتشي غيفارا الرقيقة.
24. انظر: Mandoza, *La llama y el hielo*, p. 30.
25. يلتقي غابرييل غارسيا ماركيز لاحقاً بزعيم آخر معروف في العالم أجمع باسم (فيدل) ويتهم بأنه دكتاتور، وهو ذو يدين رقيقتين وهو ليس بالعم، لكنه صديق ورفيق الجميع. وفي ذلك الوقت كان غابرييل غارسيا ماركيز قد أمسى صديق الجميع أيضاً: "غابو".

26. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة التاسعة، كروموس، المصدر السابق.
27. المصدر السابق.
28. انظر: **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي**، الحلقة العاشرة، كروموس، 28 أيلول 1959.
29. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مومينتو (كاراكاس)، 15 تشرين الثاني 1957.
30. المصدر السابق.
31. المصدر السابق.
32. المصدر السابق.
33. ميندوثا، المصدر السابق، ص 32.

غابريل غارسيا ماركيز في لندن إلى لويسا سانياغا ماركيز في كارثاخينا (بواسطة ميرثيديس في بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957.

35. انظر: كلود كوفون، الإكسبريس، باريس، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 76.
36. انظر: Gilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 8-33.
37. انظر أنطوني داي ومارجوري ميلر، غابو يتحدث: غابرييل غارسيا ماركيز يتكلم عن بلايا أميركا اللاتينية وصداقته بفيدل كاسترو وذعره في الصحيفة البيضاء، لوس أنجلوس تايمز، 2 أيلول 1990: "كنت إلى حدٍّ ما ضحية للدعاية في المرحلة التي كنت فيها طالباً في المدرسة الثانوية، وأول رحلة لي إلى الأقطار الاشتراكية. ولما عدت من أوروبا الشرقية عام 1957 اتضح لي أن الاشتراكية، نظريًّا تمثل نظاماً أكثر عدالة من الرأسمالية. أما من حيث التطبيق، فهي ليست باشتراكية. في تلك اللحظة، اندلعت الثورة الكوبية"، (ص 33-34).
38. في الخامس عشر من تشرين الثاني سنة 1957، نشر غابرييل غارسيا ماركيز مقالته "زرت هنغاريا" في مجلة "مومينتو" وفي الثاني والعشرين والتاسع والعشرين من تشرين الثاني نشر مقالته "كنت في روسيا" القسم الأول والثاني في مجلة "مومينتو" أيضاً. وبعد سنتين تقريباً، منذ نهاية تموز وحتى نهاية أيلول 1959 نُشرت له عشر مقالات أخرى بعنوان موحد هو **تسعون يوماً وراء الستار الحديدي** في مجلة كروموس الأسبوعية الصادرة في بوغوتا: ثلاث مقالات عن ألمانيا، وثلاث مقالات عن تشيكوسلوفاكيا، ومقالة عن بولندا، وأربع مقالات عن اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، (مكرراً فعلاً المقالات التي سبق أن كتبها عام 1957). لكن مما يبعث على الاستغراب أنه لا يكرر مقالته عن هنغاريا. لمزيد من المعلومات عن إعادة بناء نسق الكتابة والنشر على نحو مفصل راجع: Gilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 8-33.
39. مقابلة مع تاتشيا كوينتانا، باريس، 1993.
40. غابرييل غارسيا ماركيز، لندن، إلى لويس سانتياغو ماركيز، كارثاخينا (بواسطة ميرثيديس، بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957.
41. جيلارد، المصدر السابق، ص 44.
42. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الناسيونال (كاراكاس)، 6 كانون الثاني 1958.
43. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو إلى ماريو فارغاس يوسا، لندن، 1 تشرين الأول 1966.

44. غابـــرييل غارســـيا ماركيــز من لندن إلى لويسا سانتياغا ماركيز، كارثاخينا (بواسطة ميرثــيديس، بارانكيا)، 3 كانون الأول 1957. انظر كلوديا دريفوس، "غابرييل غارسيا ماركيــز"، مجلــة بلاي بوي، 20: 30، شباط 1983، ص 65-77، 172-178: بلاي بوي: "كيف كان رد فعل ميرثيديس إزاء سفره إلى أوروبا؟"، غارسيا ماركيز: "هذا سر من أسرار شخصيتها ولن ينكشف لي أبداً حتى اليوم. كانت متأكدة تماماً أنني سأرجع، وكـــان الجمـــيع يـــتهمونها بالجـــنون، وأنني سأجد فتاة أخرى في أوروبا. وفي فرنسا عـــشت حـــياة متحررة كل التحرر، ولكنني كنت أعرف أنني سأعود إليها عندما ينتهي ذلك كله. القضية ليست قضية شرف بل هي قضية مصير حقيقي، كان شيئاً قد حدث من قبل.

45. حديث، مدينة مكسيكو، 1993.

46. حديث مدينة مكسيكو، 1999.

12 - فنزويلا وكولومبيا: ولادة الأم الكبيرة (1958-1959):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 18 كانون الثاني 1981.

تعـــتمد مـــادة هذا الفصل والفصل الذي يليه على أحاديث مع بلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، وكونسويلو وألفيرا ميندوثا (بوغوتا، 2007)، وخوسيه فونت كاسترو (مدريد، 1997)، ودوميـــنغو ميلياني (بيتزبرغ، 1998)، وأليخاندرو بروثوال (بيتزبرغ، 2005)، وخـــوان أنطونـــيو هيرنانديز (بيتزبرغ، 2004 و2005)، وقرأ هذا الفصل قبل طباعته، لـــويس هـــارس (بيتزبرغ، 1993)، وخوسيه لويس ديات؛ غرانادوس (بوغوتا، 1991 وبعدها)، وخوسيه (بيبـــي) ستيفنسون (بوغوتا، 1991، وكارثاخينا، 2007)، ومالكولم ديـــس (أوكـــسفورد وبوغوتا، 1991)، وإدوارد وبوسادا كاربو (أكسفورد، 1991) وإدوارد بارتشا باردو (آرخونا، 2008)، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين (بوغوتا، 1993)، وخيرمـــان أرثينيغاس (بوغوتا، 1991)، وراميرو دي لا إسبريّيا (بوغوتا، 1991)، وجاك جـــيلارد (طولـــوز، 1991 و2004)، ورافائيل غيتريث (برشلونة، 1992)، وخيسوس مـــارتن بـــاربيرو (بيتزبرغ، 2000)، ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وريتا غارسيا ماركيز وعدد كبير آخر من رواة الأخبار.

2. انظر:

Mendoza, *La llama y el hielo*, PP. 35-6. See also GGM, "Memoria Feliz de Caracas", *El Espectador*, 7 March 1982.

3. ميندوثا، المصدر السابق، ص 89.

4. انظر:

GGM, "No se me ocurre ningun titulo", *Case de las Americas* (Havana), 100 January - February 1997, PP. 85-9.

5. راجـــع خاتمـــة روايـــة **خـــريف البطريرك** التي تستمد وقائعها بلا أدنى ريب من هذه الاحتفالات في كاراكاس.

6. ميندوثا، المصدر السابق، ص 40-41.

يعود غابرييل غارسيا ماركيز إلى هذا الحدث في مقالته في الاسبكتادور، 1 تشرين الثاني 1981، ثم يرويها في روايتيه **خريف البطريرك**، و**قصة موت معلن**.

7. ثم يتجاهل آنذاك ولاحقاً، رواية **الرئيس** لميغيل أنخل أستورياس وهي روايته المستوحاة من طاغية غواتيمالا مانويل إيسترادا كابريرا، وأحدثت ضجة لدى صدورها في بوينس آيرس سنة 1948 - عن دار نشر لوسادا وهي الدار نفسها التي رفضت نشر رواية غابرييل غارسيا ماركيز **عاصفة الأوراق** - وحازت الجائزة الدولية للكتاب لدى صدورها باللغة الفرنسية سنة 1952، وهي الجائزة التي ستنالها رواية **مئة عام من العزلة** بعد ثمانية عشر عاماً.

8. انظر:
Mendoza, *The Fragrance of the Guva*, PP. 80-90, Ernesto Gonzalez Bermejo, "Garcia Marquez: ahora doscientos anos de soledad", *Triunfo* (Madrid), 44, 41 November 1970, (See Renteria, PP. 49-64).

9. انظر: Gilard, ed., *De Europa y America I*, PP. 50-51.

10. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة مومينتو، 7 شباط 1958.

11. مقابلة مع خوسيه فونت كاسترو، مدريد 1997.

12. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 232.

(*) الساليسينيات: نسبة إلى سان فرانسيس دي ساليس الذي أُسست على اسمه في مدينة تورين الإيطالية جمعية كاثوليكية تتبع كنيسة روما في العام 1845 وكانت تهدف أساساً إلى التبشير. (المترجم)

13. ريتا غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 243.

14. فيوريلو، المصدر السابق، ص 266.

15. مقابلة مع ميرثيديس بارتشا، كارثاخينا، 1991. قارن بياتريث لوبيث دي بارتشا:
"gabito espero a qua yo creciera", *Carrusel, Revista de El Tiempo* (Bogota), 10 December 1982:
في سنة 1982 جاء غابيتو إلى كاراكاس قادماً من باريس "وفي يوم ما دخل المنزل"، وبعد يومين تزوجا.

16. انظر: Castro Caycedo, "Gabo la novella de su vida". وفيها محاورة قصيرة مع ميرثيديس.

17. انظر:
Alfonso Funemayor, "El dia en que se caso Gabito", *Fin de Semana del Caribe*, n.d. (See Fiorillo, la Cueva, PP. 7-265).

18. انظر: Lita GM, in Galvis, *Los GM*, PP. 46-47.

(*) خطأ! يبو، كنية إليخيو غابرييل المولود في سوكري في 1947/11/14 والمتوفي في بوغوتا في 2001/6/29، هو شقيق غابرييل غارسيا ماركيز الأصغر، أي إنه أصغر أولاد غابرييل إليخيو غارسيا مارتينيث (1901-1985). انظر مخطط شجرة العائلة في نهاية الكتاب. (المترجم)

19. انظر:

Eligio Garcia, "Gabriel Jose visto por Eligio, el benjamin", *Cromos* (Bogota), 26 October 1982, PP. 20-21.

20. انظر: خيرمان كاسترو كايسيدو، مقالة، الاسبكتادور، 23 آذار 1977.

21. انظر:

Consuelo Mendoza de Riano, "La Gaba", *Revista Diners* (Bogota), November 1980.

22. انظر: دومينغو ميليان، مقالة، الناسيونال، كاراكاس، 31 تشرين الأول 1965.

23. حديث مع ماريو فارغاس يوسا، ستراتفورد، إنكلترا، 1990.

24. حديث مع ميرثيديس بارتشا، مدينة مكسيكو، تشرين الأول 1993.

25. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 46.

26. حديث مع ميرثيديس بارتشا، كارثاخينا، 1991.

27. انظر:

Maria Esther Gilio, "Escribir bien es un deber revolucionario", *Triunfo* (Madrid), 1977, (See Renteria, PP. 5-141).

28. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 424.

29. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 44.

30. انظر: دومينغو ميليان، الناسيونال، 31 تشرين الأول 1956.

31. انظر:

Cosuelo Mendoza, "La Gaba", *Revista Diners* (Bogota), November 1980; Beatriz Lopez de Barcha, "Gabito espero a que yo crecira", *Carrusel*، *Revista de El Tiempo* (Bogota), 10 December 1982; and Clandia Dreifus, "Gabriel Garcia Marquez", Plyboy 30: 2, February 1983, p. 178.

32. انظر: Sorela, *El otro GM*, p. 185.

33. انظر: Eligio Garcia, *Tras las Claves de Melquiades*, p. 366.

34. انظر: GGM, "Mi hermano Fidel", *Momento* (Caracas), 18 April 1958.

35. انظر: Nunez Jimenez, "GM y la perla de las Antillas".

36. انظر:

GGM, "No se me ocurre ningun titulo", *Casa de las Americas* (Havana), 100, January-February 1977.

37. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 60.

38. انظر:

Antonio Nunez Jimenez. *En marcha con Fidel* (Havana, Letras Cubanas, 1982).

39. انظر: ميندوثا، المصدر السابق، ص 67.

40. انظر: جيلارد، المصدر السابق، وميندوثا: المصدر السابق، أيضاً ص 67-68.

41. ميندوثا، المصدر السابق.

42. تختلف رواية ميندوثا عن رواية غابرييل غارسيا ماركيز. ففي الرواية الأولى يقف ميندوثا من وراء العمل كله في بوغوتا وليس في كاراكاس، ولا وجود لغابرييل غارسيا ماركيز في الصورة، وقد وافق ميندوثا بشرط أن التمويل صحيح وأن يستأجروا صديقاً من أصدقائه في كاراكاس وبالمرتب نفسه. أما غابرييل غارسيا ماركيز فيطرح رأياً مغايراً. راجع: "Nunez, "GM y la perla de las Antillas.
43. انظر، نونيث، المصدر السابق.
44. انظر: ميندوثا، المصدر السابق، ص 71.
45. مقابلة مع خوسيه ستيفنسون، كارثاخينا، آذار 2007.
وتحدث أيضاً إلى إدوارد بارتشا باردو، شقيق ميرثيديس في آرخونا، سنة 2008. وكان يومئذ طالباً في بوغوتا ثم التحق بوكالة برينسا لاتينا للصحافة، وبقي مع أخته وزوجها في شقتها في بوغوتا.
46. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة مومينتو (كاراكاس)، 21 آذار 1958.
47. انظر: خوسيه لويس ديات غرنادوس، مقابلة في بوغوتا، 1991. وانظر أيضاً: كونسويلو ميندوثا "لا غابا" ريفيستا دايزر، تشرين الثاني 1980.
48. ميندوثا، المصدر السابق، ص 72.
49. انظر: غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، إيليت (كاراكاس)، 28 حزيران 1958.
50. انظر:
Mendoza, "Entrevista con Gabriel Garcia Marquez", *Libre*, 3 March-May 1972, PP. 13-14.
51. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, p. 74.
52. المصدر السابق، ص 71.
53. غابرييل غارسيا ماركيز، **قصص مجموعة**، ص 184.
54. المصدر السابق، ص 200.
55. انظر الصورة القلمية التي يقدمها هيرنان ديات عن غابرييل غارسيا ماركيز في الآونة التي كان يشتغل فيها في وكالة برينسا لاتينا للصحافة، ويظهر التغير في السلوك واضحاً ومذهلاً.
56. انظر: جيلارد، المصدر السابق، ص 60-63.
57. المصدر السابق، ص 53-54. انظر أيضاً:
Gilard, "Garcia Marquez: un Projet d'ecole de cinema (1960)"; *Cinemas d'Amerique Latina* (Toulouse), 3, 1995, PP. 24-38, and ""Un carnival Para toda la vida", de cepeda samudio, on quand Garcia Marquez faisait du montage", *cinemas d'Amerique latine* (Toulose), no. 3, 1995, PP. 39-44.
58. انظر:
Daniel Samper, "GGM se dedicara a la musica", *El Tiempo*, December 1968, in Renteria, p. 24; and Saldivar, *GM: el Viaje a al semilla*, PP. 389-90.

13 – الثورة الكوبية والولايات المتحدة الأميركية (1959-1961):

1. انظر ميندوثا، المصدر السابق، ص 87-88.
2. انظر:

E. Gonzalez Bermejo, "Ahora doscientos anos de soledad...", *Triunfo*, November 1971 (in Renteria, ed., Garcia Marquez habla de Garcia Marquez en 33 grandes re portajes, p. 50); also Angel Augier, "GM en la Habana", *Mensajes* (UNEAC Havana), I: 17, 10 September 1970.

هـــذا وسيغدو آرولدو وولش في وقت لاحق حلقة وصل مهمة بين خوليو كورتاثار والثورة الكوبية.

3. ميندوثا، المصدر السابق، ص 88.
4. بعـــد مـــرور ستة عشر عاماً سيعذب وولش ويلقى مصرعه في بوينس آيرس على أيدي الجـــيش الأرجنتـــيني لمعارضته الباسلة في أثناء ما يسمى بالحرب القذرة. انظر: رودولفو وولش بقلم غابرييل غارسيا ماركيز، مجلة التارناتيفا ص 124 في 25 تموز – آب 1977. وانظـــر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور في 14 كانون الأول 1981.
5. انظـــر نونـــيث خيمينيث، المصدر السابق، انظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور 14 كانون الأول 1981 لملاحظة الفارق في التفاصيل.
6. انظر ميندوثا، المصدر السابق، ص 84-86.
7. المصدر السابق، ص 81.
8. انظر: آرانغو، المصدر السابق، ص 179.
9. انظر: إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 474-479.
10. مقابلة مع غارسيا ماركيز أجراها أورلاندو كاستيلانوس، إذاعة هافانا، وأعيد نشرها في Prisma del meridiano، هافانا، 80، 1-5 تشرين الأول 1976.
11. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23، كانون الثاني 1983.
12. انظر كنيدي في المصدر السابق، ص 258.
13. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في آرينو، 21 حزيران 1979، ص 31-33.
14. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، بقلم ميغيل فرينانديث؛ براسو (مدريد، 1969)، ص 31.
15. انظر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 28 شباط 1982.
16. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
17. مقالة غابرييل غارسيا ماركيز نيويورك 1961، آريتو، 21، حزيران 1979، ص 33.
18. غابـــريل غارســـيا ماركيز في نيويورك إلى ألفارو سيبيدا في بارانكيا، 26 نيسان 1961، وفيها يأتي على ذكر "الغزوات" في نهاية الرسالة.
19. ممـــا لا ريـــب فيه أن المناهضين للثورة سيتهمونه في كل الأحوال. انظر: غييرمو كابريرا أنفانتي في صحيفة التيمبو، 6 آذار 1983، وفيها يدّعي أنه واحد من أولئك الذين يعرفون ســـيرته الحقيقـــية، ثم يكـــشف عن غير قصد خطأ هذا الكلام (أو لعله يسعى لتضليله

مـــتعمداً) وذلك عندما يزعم أن غابرييل غارسيا ماركيز هرب من نيويورك حال سماعه خـــبر غزو خليج الخنازير، إذ خشي أن ينجح الغزو. وقد ردد هذه القصة عدد آخر من الكتاب المناهضين للثورة مثل كارلوس فرانكوي وكارلوس ألبيرتو مونتانيز، ولكنها قصة لا أساس لها من الصحة.

20. ميندوثا، المصدر السابق، ص 75-106.
21. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
22. ميندوثا، المصدر السابق، ص 75-106.
23. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من نيويورك إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، 23 أيار 1961.
24. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من نيويورك إلى بلينيو ميندوثا، 29، أيار 1961.
25. المصدر السابق.
26. ميندوثا، المصدر السابق، ص 106.
27. أرنستو شو، بريميرا بلانا (بوينس آيرس)، 234، 20-26 حزيران 1967.
28. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23 كانون الثاني 1983.
29. رســالة غابــرييل غارســيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 30 حزيران 1961.

(*) لاريدو: مدينة في جنوب ولاية تكساس.

14 – هروب إلى المكسيك (1961-1964):

1. انظــر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23 كانون الثاني 1983، وفيها يعلن أنـــه لن ينسى تاريخ وصوله (2 تموز 1961) لأن صديقاً اتصل به في اليوم التالي ليخبره عـــن موت همنغواي. لكن رسالة غابرييل غارسيا ماركيز إلى بلينيو ميندوثا، في بوغوتا مـــؤرخة بـــتاريخ الـــثلاثين من حزيران 1961، تبرهن على خطأ أحب الأساطير بشأن غابـــرييل غارســـيا ماركيـــز، وهي وصوله إلى مدينة مكسيكو في اليوم الذي انتحر فيه همنغواي، وهو تاريخ غير صحيح. انظر أيضاً إلى المقالة المنشورة في صحيفة الاسبكتادور في 7 كانـــون الأول 1980، وفيها أخطاء كثيرة عن تواريخ وحسابات أيامه التي أمضاها في المكسيك، وهكذا قد تخطئ أفضل الذكريات.
2. يعـــتمد هذا الفصل والفصلان التاليان على مقابلات مع بلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991) وألفارو موتيس (مدينة مكسيكو، 1992 و1994)، وماريا لويس إيلو (مدينة مكسيكو، 1992)، وكارلـــوس مونيـــبايس (مدينة مكسيكو، 1992)، وفرانسيسكو (باكو) بوردا (برشلونة، 1992)، وكارمن بالسيلس (برشلونة، 1991، 1992 و2000)، وبيرتا نافارو (مديـــنة مكـــسيكو، 1992)، وماريا لويسا (الصينية) ميندوثا (مدينة مكسيكو 1994)، وكارلوس فوينتس (مدينة مكسيكو، 1992)، وجيمس بلبورث (مدينة مكسيكو، 1992)، وغونـــثالو غارســـيا بارتـــشا (مدينة مكسيكو، 1992، 1994 وباريس 2004)، وبيرتا هيرنانديز (مدينة مكسيكو 1993)، وآلان ماكيساك مالدونادو (مدينة مكسيكو 1993)، وتوليوا أغويليرا غارامونو (بيتزبريغ، 1993)، ومانويل بارباكانو (مدينة مكسيكو، 1994)،

ومارغـــو غلانتـــز (مديـــنة مكـــسيكو، 1994)، وأوغستو (تيتو) مونتيروسو وباربارة خاكـــوبس (مدينة مكسيكو، 1994)، وإيلينا بونياتو فسكا (مدينة مكسيكو، 1994)، وخـــورخه سانتـــشيث (مديـــنة مكـــسيكو 1994)، وخوان وفرجينيا رينوسو (مدينة مكـــسيكو، 1994)، ولويس كودورير (مدينة مكسيكو، 1994)، وبيثنتي وألبيتا روخو (مديـــنة مكسيكو، 1994)، ونانسي بيثنس (مدينة مكسيكو، 1994)، وأغناثيو (ناتشو) ديـــوران (مدينة مكسيكو 1994 ولندن 2005)، وغييرمو شيريدان (غوادالاخارا ومدينة مكسيكو 1997) وغيرهم.

3. انظـــر مقالة غابرييل غارسيا ماركيز "عودة إلى المكسيك" في صحيفة الاسبكتادور، 23 كانون الثاني 1983.
4. انظر:

GGM, "Un homber ha muerto de muerte natural", *Mexico en la cultra, Novedades* (Mexico city), 9 July 1961.

يقـــول غابرييل غارسيا ماركيز في حديثه مع نونيث خيمينيث إن أهالي نوفيداديس هم الذين أخبروه أن همنغواي مات، وهو ما قاله لبلينيو ميندوثا في رسالته المؤرخة بتاريخ 10 تموز 1961.

5. بخـــصوص مـــشاعره إزاء همـــنغواي، انظـــر تعليقات غابرييل غارسيا ماركيز في مقالة أليخاندرو كيفيا راميريث بعنوان:

"Garcia Marquez: "El gallo noes mas que un gallo"", *Pluma 52* (Colombia), March-April 1985.

انظر أيضاً مقالة عن همنغواي في الاسبكتادور، 26 تموز 1981.

6. غابـــرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 9 آب 1961. انظـــر أيـــضاً مقالة الاسبكتادور في 7 كانون الأول 1980 التي ترسم صورة مشابهة عن المبنى الذي لا يتوفر فيه مصعد، وعن الشقة.
7. غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بيلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.
8. غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا 26 أيلول 1961. غابـــرييل غارســـيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى ألفارو سيبيدا في بارانكيا، 4 كانون الأول 1961 وفيها يكتب: "عليك أن تحضر في شهر أيار لتعمد أليخاندرا التي ستولد في أواخـــر شـــهر نيسان. لا تفوّت الفرصة، لأن هذه هي آخر طفلة بالمعمودية يمكننا أن نقدمها إليك، وبعدها سنغلق المحل".
9. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في الاسبكتادور، 14 شباط 1982.
10. غابرييل غارسيا ماركيز، من مدينة مكسيكو إلى بيلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.
11. انظر:

GGM, "Breves nostalgias sobre Juan Rulfo", on Rulfo; also Eligio Garcia, *Tras las Claves de Melquiades*, PP. 9-592.

12. غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 13 آب 1961.
13. انظر: **بحر الزمن الضائع**، في **قصص مجموعة**، غابرييل غارسيا ماركيز.

14. كـــان غابرييل غارسيا ماركيز يشتغل مؤخراً في نيويورك، حتى وقت متأخر من الليل في معظم الأحيان، في شريط ألفارو سيبيدا عن مهرجان بارانكيا السنوي، بتمويل من شركة سانتو دومينغو أغويلا لشراب الشعير.

15. انظر:

Dario Arizmendi Posada, "El mundo de Gabo. 4: Cuando Gabo era pobre", *El Mundo* (Medellin), 29 October 1982.

16. انظر فيوريلو، المصدر السابق، ص 105.

17. في مـــرحلة لاحقة يقطن خوان غارسيا بونس مع زوجة أليثوندو السابقة وأم الابنة التي سيتزوجها يوماً ما ابن غارسيا ماركيز.

18. انظر إدوارد غارسيا أغويلار:

"Entrevista a Emilio Garcia Riera", *Gaceta* (Bogota, Colcultura), no. 39, 1983.

19. غابـــرييل غارســـيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بيلينيو ميندوثا، بوغوتا، مطلع كانون الأول 1961.

20. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بيلينيو ميندوثا، بارانكيا، نيسان 1962.

21. انظـــر خاصة مقالة الاسبكتادور في 6 أيلول 1981 التي يقول فيها إن قبوله هذه الجائزة والجائزة التي سبقتها عن "يوم واحد بعد يوم السبت" في 1954 هو الشيء الوحيد الذي ندم عليه في حياته الأدبية.

22. غابرييل غارسيا ماركيز، **عشت لأروي** (الطبعة الإنكليزية)، ص 231.

23. انظر:

Bernardo Marquez, "Reportaje desde cuba (1). Gabriel Marquez: pasado y presente de una obra", *Alternativa* (Bogota), 93, 9-16 August 1976.

24. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 16 حزيران 1962. في رســـالة مـــن غابرييل غارسيا ماركيز، من مدينة مكسيكو، إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، ربيع العام 1963، تجده يعترف بأنه صدم السيارة وهو في حالة سكر شديد.

25. رســـالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى ألفارو سيبيدا، بارانكيا، 20 آذار 1962.

26. انظـــر سالديبار، المصدر السابق، ص 429. ينقل عن موتيس أنه قال إن غابرييل غارسيا ماركيـــز لم يكتب رواية **خريف البطريرك** في المكسيك، لكن رسالة من غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، في الأول من تموز 1964، تشير إلى الموضوع على نحو لا يقبل الجدل.

27. خوســـيه فونت كاسترو، مقالة بمجلة مومنتو (كاراكاس)، 771، نيسان 1971، ص 34-37 وفـــيها يشير إلى أن غابرييل غارسيا ماركيز قرأ عليه القسم الأول من رواية **خريف البطريرك** سنة 1963 (ص 37).

28. رســـالة غابـــرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر أيلول 1962.

29. رسـالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بوغوتا، 4 نيسان 1962.
30. ليس في أيلول 1963 كما يشير الجميع من ضمنهم سالدييار. انظر رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا 17 نيسان 1963.
31. انظـر مقالة أنطونيو أندرادي، صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو) 11 تشرين الأول 1970، وفيها رأي مغاير مفاده أن التريستا طردت غابرييل غارسيا ماركيز، ونتيجة لمطالب متكررة دفعت له بعض المال لقاء نصّ **راعي البقر**.
32. انظر:

Raul Renan, "Renan 21", in Jose Francisco Conde Ortega et al., eds., *Gabriel Garcia Marquez: celebracion 25° anniversario de "Cien anos de soledad"* (Mexico, Universidad Autonoma Metropolitana, 1992), p. 96.

33. المصدر السابق، ص 95.
34. أخبرني رودريغو غارسيا بارتشا قائلاً: "كنا دائماً نذهب إلى مدارس تدرس باللغة الإنكليزية. وكان هذا واحداً من هواجس أبي، إذ كانت لديه عقدة كبيرة لأنه لا يستطيع الكلام بالإنكليزية، وكان قد وطد العزم على أن نتمكن منها".
35. رسـالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 8 كانون الأول 1963. يقـول غابـرييل غارسيا ماركيز إنه أنهى كتابة النص السينمائي "في هذا الصباح".
36. يقـول غابرييل غارسيا ماركيز إنه التقى فوينتس سنة 1961. ويقول إليخيو غارسيا في سـنة 1962، في حين يقول فوينتس نفسه إن اللقاء كان في سنة 1963، ويقول خوليو أورتيغا إن اللقاء جرى في سنة 1964.
37. كارلـوس فوينـتس، صـحيفة الناسيونال، مدينة مكسيكو، 26 آذار 1992. في مدينة مكـسيكو، كمـا في أي مكان آخر، تكون أوثق صلات غابرييل غارسيا ماركيز بأهم الأدباء (باستثناء أوكتافيو باث، الذي كان معادياً له عموماً). وكانت أوثق علاقاته هي تلك التي جمعته بفوينتس وكارلوس مونسيبايس.
38. انظر:

Miguel Torres, "El novelista que quiso hacer cine", *Revista de cine Cubano* (Havana), 1969.

39. رسـالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة باناما، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر تشرين الثاني 1964.
40. رسـالة غابـرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، أواخر تشرين الثاني 1994.
41. مقالة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 16 كانون الأول 1980.
42. انظر:

Emir Rodriguez Monegal, "Novedad y anacronismo de cien anos de soledad", *Revista Nacional de cultura* (Caracas), 185, July-September 1968.

43. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 22 أيار 1965، يقول فيها إنه فرغ من كتابة النص "قبل أسبوع" وأصبح له الآن عنوان ثابت هو: Tiempo de morir.
44. ميغيل توريس، المصدر السابق، انظر أيضاً إميليو غارسيا رييرا: "تاريخ السينما المكسيكية الوثائقي" (مدينة مكسيكو، جامعة غوادالاخارا، 1994) 12 (1964-1965)، ص 229-233.
45. يقول بلينيو ميندوثا إنه كتب في مدينة مكسيكو نصوصاً سينمائية (سيئة جداً في رأي الخبراء) وتعلم كل ما ينبغي له أن يتعلمه عن هذه الصناعة وحدودها (ص 13). وأوضح أن من أكثر المخرجين الذين كان معجباً بهم هما ويلز وكيروساوا، لكن من أكثر الأفلام التي كان معجباً بها هو جولي وجيم.
46. إميليو غارسيا رييرا المصدر السابق، ص 160-165.
47. ميغيل توريس، المصدر السابق.
48. خوسيه دوفوسو، ازدهار الأدب الأميركي اللاتيني؛ تاريخ شخصي، (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا 1977)، ص 95-97.
49. سيكون عنوان كتابه هو (شعبنا) بالإسبانية، أما بالإنكليزية، فإن العنوان له دلالة تاريخية أكبر: في التيار العام.
50. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 55-56، 469.
51. لويس هارس وباربارة دوهمان: في التيار العام: حوارات مع أدباء من أميركا اللاتينية: نيويورك، هاربر آند راو 1967، ص 310.
52. المصدر السابق، ص 317.
53. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 68، 69.
54. كارمي رييرا، كويميرا، 27 كانون الثاني 1983، ص 25.
55. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 608.
56. يقول لميندوثا إن أول جملة كتبها كان في سن السابعة عشرة!
57. مثالان: في كتاب **عطر الغوافة** يؤكد غابرييل غارسيا ماركيز تأكيداً باتاً وقاطعاً لبلينيو ميندوثا إنه استدار بالسيارة إلى الخلف ("صحيح. إنني لم أصل إلى أكابولكو"، ص 74)، لكنه يشير في مقالة في مجلة كامبيو (بوغوتا)، 20 نيسان 2002، أنه قاد السيارة إلى أكابولكو لتمضية عطلة نهاية الأسبوع ("لم يهدأ لي بال لحظة واحدة على الشاطئ") وعدنا إلى مدينة مكسيكو "في يوم الثلاثاء".

15 – ميلكيادس الغجري: مئة عام من العزلة (1965-1966):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 17 تشرين الثاني 1982.
2. ميندوثا، عطر الغوافة، ص 80.
3. مقابلة مع بوينا توفسكا، أيلول 1973، Todo Mexico، ص 218-219.
4. انظر: أليستريد، "بيض البازيليسك" في كتاب:

where abouts: Notes on being a foreigner.
ســـان فرانسيـــسكو، نورث بوينت بريس، 1987، ص 94-118. يمتاز ريد بالبراعة في معالجة موضوعي الدقة والاحتمال عند ماركيز.

5. انظر إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 59. أخبرني باكو بوروا في رسالة بعث بها إلي يقول فيها: مما لا ريب فيه أن تجربة غابو في بوينس آيرس كانت تجربة استثنائية ومدهشة وهو يحيا حياة ملؤها بهجة الحماسة والصداقة الحميمة. فالكتاب في الشارع، والمسرح في الـــشارع، وكان غابو شخصية محبوبة في الشوارع وفي الحفلات التي كانت تقام ليلة إثر لـــيلة. ثمـــة مـــشاهد تقترب من الهستيريا: مما يبعث على الدهشة هذا العدد الكبير من الـــسنيورات مـــن بوينس آيرس اللواتي قلن إن لديهن عم أو جدٌ يشبه أوريليانو بوينديا (برشلونة، 6 أيار 1993).
6. كارلوس فوينتس، مقالة، سيمبري، مدينة مكسيكو، 29 أيلول 1965.

(*) وجبة طعام البايًّا هي طبق منكّه بالزعفران ويصنع من خليط من الأرز والخضار واللحوم والدجاج والطعام البحري. (المترجم)

7. سالديبار، المصدر السابق، ص 433.
8. خوســـيه فـــونت كاســـترو، مقالـــة، مجلة مومينتو (كاراكاس)، 771، نيسان 1971، ص 34-37.
9. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 617.
10. مقابلة مع بونيا توفسكا، أيلول 1973، تودو مكسيكو، ص 195.
11. تحدثت إلى ماريا لويسا إيليو عن هذا الموضوع سنة 1992، وإلى غابرييل غارسيا ماركيز سنة 1993.
12. مقابلة مع بونيا توفسكا، المصدر السابق، ص 197.
13. كلودي كوفون، مقالة، صحيفة الأكسبريس، 17-23 كانون الثاني 1977، ص 77.
14. خوسيه فونت كاسترو، المصدر السابق، 771، نيسان 1971، ص 36.
15. انظر: Mendoza, *La llama y el hielo*, PP. 110-111.
16. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 88-91. انظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز في الاسبكتادور، 19 حزيران 1983.
17. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 505.
18. المصدر السابق، 570-571.
19. كارلوس فوينتس، سيمبري، (مدينة مكسيكو)، 679، 29 حزيران 1966.
20. بلينيو ميندوثا، **عطر الغوافة**، ص 77.
21. فيوريلو، المصدر السابق، ص 105-106.
22. المصدر السابق، ص 268-269.
23. كمـــا أشـــار خورخه روفينيللي، فإن الطريقة الوحيدة لرواية تأليف هذا الكتاب ونشره واستقباله، هي أن تكون على طريقة قصص الجان. (ثالابا، فيراكروث) 1979.
24. مقابلة مع جيمس بابورث، مدينة مكسيكو، 1994.

25. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 7 آب 1966.
26. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من مدينة مكسيكو إلى بلينيو ميندوثا في بارانكيا، 22 تموز 1966.
27. كلـــودي كوفون، المصدر السابق، ص 77. لكن غابرييل غارسيا ماركيز يقول في **عطر الغوافة** لميندوثا إن ميرثيديس وحدها هي التي أخذت الكتاب إلى دائرة البريد (ص 75). (ربما كانت هذه هي الرزمة الثانية).

16 – الشهرة أخيراً (1966–1967):

1. ألفارو موتيس، انظر كتاب سالديبار غارسيا ماركيز، ص 498.
2. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 618–619.
3. كلوديا دريفوس، المصدر السابق، ص 174.
4. إليخيو غارسيا، المصدر السابق، ص 32–33.
5. كمـــا ظهرت في كتاب إي. داميكو وأس. فاثيو الموسوم Retratos y autorretratos، بويـــنس آيرس، 1973 وفيه صور التقطت لغابرييل غارسيا ماركيز في بوينس آيرس سنة 1967.
6. أرنستو شو، مجلة بريميرا بلانا (بوينس آيرس)، 234، 20–26 حزيران 1967.
7. ماريـــو فارغـــاس يوســـا، **مئة عام من العزلة**، مجلة أمارو، ليما، 3، تموز أيلول 1967، ص 71–74.
8. انظـــر غابـــرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 25 كانون الثاني 1981، وفـــيها يخالـــف نقـــاد الأدب ويقول إن روخا نفسه لا يعرف السبب الذي جعله يضع الحرف بالمقلوب على الغلاف.
9. مقالة بعنوان: Cien anos de un Pueblo، مجلة فيجون، 21 تموز 1967، ص 27–29.
10. انظر على سبيل المثال مقالة De Como Garcia Marquez في صحيفة إيكريلا (تشيلي) 168، 20 أيلول 1967، ص 29.
11. غابرييل غارسيا ماركيز، مدينة مكسيكو، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 30 أيار 1967.
12. سالديبار، المصدر السابق، ص 500.
13. تـــوماس ألوي مارتينيث، مقالة في كتاب: خوان غوستافو كوبو بوردا، بوغوتا، سيغلو دي هومبرا 1992)، ص 24.
14. المصدر السابق.
15. سالديبار، المصدر السابق، ص 501.
16. المصدر السابق، ص 25.
17. المصدر السابق.
18. خوســـيه إميليو باتشيكو، كاسا دي لاس أميركاس (هافانا)، 165، تموز – كانون الأول 1987.
19. باتيرنو سترو، باريس ريفيو، 141.

20. انظر فارغاس يوسا، تاريخ قاتل، ص 80.
21. المصدر السابق.
22. أمير رودريغيث مونيغال في مجلة موندو نييفو (باريس) 17 تشرين الثاني 1967، ص 4-24 (ص 11).
23. سيمان (بوغوتا)، 19 أيار 1987. لاحظ أن رواية **مئة عام من العزلة** نادراً ما أشارت إليها الصحافة الكولومبية في ذلك الوقت.
24. ميندوثا، المصدر السابق، ص 111.
25. إليخيو غارسيا ماركيز في كتاب غالفيس، المصدر السابق، 257.
26. انظر على سبيل المثال: فيليكس غراندي Con Garcia Marquez en un miercoles des cen iza، (مدريد)، حزيران 1968، ص 632-641.
27. لادر جيرالدو، مقالة في صحيفة الاسبكتادور، 2 تشرين الثاني 1967.
28. ألفونسو موتسليف، مقالة في صحيفة أنفوك أنترناسيونال (بوغوتا)، 8 كانون الأول 1967، ص 39-41. أعيد طبعها في صحيفة التيمبو، 14 كانون الثاني 1968، ص 4.

17 - برشلونة والانتعاش في أميركا اللاتينية: بين الأدب والسياسة (1967-1970):

1. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من بوغوتا إلى أمير رودريغيث مونيغال، باريس، 30 تشرين الأول 1967.
2. رسالة غابرييل غارسيا ماركيز من برشلونة إلى بلينيو ميندوثا في بارانكيا، 21 تشرين الثاني 1967.
3. يعتمد هذا الفصل والفصلان التاليان على مقابلات مع خوان غويتيسولو (لندن 1990)، ولويس وليتشيا ميدوتشي (برشلونة 1991، 2000)، وبول جايلز (برشلونة 1992)، وخيرمان آرثينيغاس (بوغوتا، 1991)، وخيرمان فارغاس (بارانكيا، 1991)، ومارغوت غارسيا ماركيز (1993)، وإليخيو غارسيا ماركيز (1991 و1998)، وخايمي غارسيا ماركيز (سانت مارتا، 1993)، وماريو فارغاس يوسا (واشنطن، 1994)، وخورخه إدواردز (برشلونة، 1992)، وبلينيو ميندوثا (بوغوتا، 1991)، ونيبيس آراثولا دي مينوث سواي (برشلونة 1992 و2000)، وكارمن بالسيلس (برشلونة، 1992 و2000)، وروسا ريغاس (هافانا، 1995)، وبياتريث دي مورا (برشلونة، 2000)، وخوان مارسي (برشلونة، 2000)، وخوسيه ماريا كاستييت (برشلونة، 2000)، وتاتشيا كوينتانا (باريس، 1993)، وجاك جيلارد (طولوز، 1999 و2004)، وروبيرتو فيرنانديث ريتامار (هافانا، 1995)، ورامون تشاو (باريس، 1993)، وكلودي كوفون (باريس، 1993)، وفيكتور فلوريس أوليا (بروفيندس أر. آي، 1994)، ورافائيل غيتريث وآني مورفان (باريس، 1993)، وباكو بوروا (برشلونة، 1992 ورسالة)، وخوان رودا وماريا فورا نيغيرا دي رودا (بوغوتا، 1993)، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين (بوغوتا، 1993)، وعدد كبير من الأحاديث مع آخرين.

(*) كاليبان، شخصية العبد الشهير في مسرحية **العاصفة** لشكسبير. (المترجم)

4. عن هذا الموضوع وعن إسبانيا عموماً، راجع غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في صحيفة الاسبكتادور، 13 كانون الثاني 1982.
5. لاحظ أن غابرييل غارسيا ماركيز صرح عام 1978 لآنخل هارغينديي من صحيفة البايس أنه لو كان إسبانيًّا لانتمى إلى الحزب الشيوعي الإسباني. ولا بد من التأكيد على أنه كان يكثر من التأكيد على أن مثل هذه القرارات يعتمد على ظروف خاصة بالقضية.
6. روسا ريغاس، مقابلة، هافانا، كانون الثاني 1995.
7. لويس وليتشيا فيودتشي، مقابلة، برشلونة 1992 و2000.
8. أخبرني بهذا الأمر كل من رودريغو وغونثالو غارسيا بارتشا.
9. بول جايلز، مقابلة، برشلونة 1992.
10. كارمن بالسيلس مقابلة، برشلونة 1991.
11. فرانسيسكو أورونـدو، مقالة، كواديرون هيسبانو أميركانوس (مدريد)، 232، نيسان 1969، ص 163–168 (ص 163).
12. تصبح كراهية هذا الرجل للنقاد هوساً بعد أن مارس هو نفسه النقد مدة من الزمن في الصحافة من عام 1947 فصاعداً، بل النقد القاسي أيضاً. وما النقد الذي كتبه عن كتاب بيسويل كوتيس في أواخر 1949 إلا نموذجاً مثاليًّا. انظر: جيلارد، المصدر السابق.
13. في العام 1973 وافق المخرج السينمائي بيير باولو بازوليني مع غابرييل غارسيا ماركيز بشأن رواية **مئة عام من العزلة** وفكرتها، لكنه شن بعد ذلك أعنف هجوم يوجه ضد المؤلف وروايته. انظر مقالته عن غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة التيمبو، 22 تموز 1973، وهي مقالة نموذجية عن تطرف بازوليني ومبالغته.
14. في مقدمة كتاب **مهاجرون غرباء** (1992) يكتب غابرييل غارسيا ماركيز أنه حلم بعد بضع سنوات على وجوده في برشلونة حلماً غيّر مجرى حياته، وهو أنه كان حاضراً عملية دفنه شخصيًّا وأنه استمتع بالحديث إلى أصدقائه القدامى حتى حانت اللحظة التي أدرك فيها أنهم سيغادرون المكان بعد انتهاء مراسم الدفن، وأنه لن يتمكن من الذهاب معهم.
15. تحدث غابرييل غارسيا ماركيز عن هذا الأمر مراراً بعد العام 1967 حتى انزعج عدد كبير من النقاد (لكن تجدر الإشارة أن أياً من هؤلاء النقاد لم يكن بشهرته). قارن بوب ديلان: يوميات، الجزء الأول (نيويورك، سايمون آند شوستر، 2004): "بعد برهة من الزمن تعرف أن الخصوصية أمر يمكن بيعه، لكنك لا تستطيع شراءه مرة أخرى بعد ذلك... الصحافة؟ أظنك كذبت عليها". (ص 117–118).
16. ربما امتد مقت غابرييل غارسيا ماركيز لرواية **مئة عام من العزلة** إلى مدينة بوينس آيرس التي حاصرته فيها الشهرة في بداية الأمر. وقد أخبرني باكو بوروا في رسالة بعث بها إلي وقال فيها: "عندما التقيت غابو مرة أخرى في برشلونة لاحظت بعض التغيرات. فقبل كل شيء تولد لدي الانطباع بأن غابو لم يعد يتكلم بالتلقائية التي كان معروفاً بها، وأنه كان يبني شخصيته الجديدة. وبعد سنوات، وفي 1977 تحديداً، التقيته في برشلونة

وتكلمت معه ومع ميرثيديس عن تلك الأيام في بوينس آيرس. حسناً، فقد استرسلت في مونولـــوج عن روعة تلك الأيام، لكن غابو وميرثيديس أصغيا إليّ على مضض، ولاحت علـــيها أمارات الاستهجان مما أقول. ثم أدركت لاحقاً أن الحلم المشهور الذي راوده في برشـــلونة عـــن حـــضوره مراسم تشييعه شخصيًّا، إنما كان مؤشراً على حالات موت أخرى". (برشلونة، 6 أيار 1993).

17. انظـــر: فـــرانكو موريتي، الملحمة الحديثة: النظام العالمي من غوته وحتى غارسيا ماركيز (لـــندن، فيروســـو، 1996) قارن مع رد فعل بازوليني المشار إليه آنفاً، خاصة أن موريتي يؤكد أهمية الرواية السامية.
18. فيرنانديث؛ براسو، غابرييل غارسيا ماركيز، ص 27.
19. باريس: ثورة أيار (المكسيك، إيرا، 1968).
20. رســـالة غابـــرييل غارسيا ماركيز، من برشلونة، إلى بلينيو ميندوثا، بارانكيا، 28 تشرين الأول 1976.
21. المصدر السابق.
22. يبدو أن غابرييل غارسيا ماركيز لم يصدر عنه أي تعليق عن أحداث تلاتيلولكو حتى في مراسلاته الخاصة، ويبدو هذا الأمر غريباً أول الأمر في ضوء حقيقة السنوات الست التي عاشها في المكسيك (وإن كان من الممكن تفسير ذلك على أنه كان مصمماً على العودة إليها)، ليس أقلها تشابهاً مع مذبحة ثيناغا عام 1928، وهو الحدث الأشهر والأكثر إثارة للجدل بلا ريب الذي أشار إليه في أعماله الكاملة.
23. بياتريث دي مورا، مقابلة، برشلونة، 2000.
24. خوان مارسيه، مقابلة، برشلونة، 2000.
25. رسالة خوليو كورتاثار إلى باكو بوروا، 23 أيلول 1968. انظر أيضاً: خوليو كورتاثار، cartas، أورورا بيرنارديث، 3 مجلدات (بوينس آيرس، ألفاغورا، 2000).
26. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 22 شباط 1984.
27. كارلـــوس فوينتس، جغرافية الرواية (المكسيك، فوندو دي كلتورا إيكونوميكا، 1993)، ص 99. عـــندما كانا في براغ، تسلم الأديب الياباني ياسوناري كاواباتا جائزة نوبل في ستوكهولم، وبات غارسيا ماركيز من قراء مؤلفاته المتحمسين.
28. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة، 1991.
29. ولد ماثيو، وهو أول طفل لغونثالو، عام 1987.
30. انظـــر: ريجيس دوبريه، **الأقنعة** (باريس، جاليمار، 1987) للحصول على نظرة ثاقبة في أذهان اليساريين في سبعينيات القرن العشرين.
31. رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1996.
32. انظـــر مقالـــة غابرييل غارسيا ماركيز في صحيفة الاسبكتادور، 13 شباط 1983، وفيها يتذكر كيف تخلى عن التدخين "قبل أربعة عشر عاماً".
33. : انظر يوميات إليخيو غارسيا ماركيز في "آراكاتاكا؛ ستوكهولم" (ص 22-24)، وفيها يقول: "إن فيودتشي هو محلل الألف نغمة، الذي ساعد غابرييل غارسيا ماركيز بالدوافع

الكامنة من وراء القتلة في **قصة موت معلن** وساعده على ترك التدخين بالرغم من أنه لم يتمكن، ويا للمفارقة، من تركه شخصيًّا".

34. انظر: غونثاليث بيرمخيو، مقالة، ترايتفو، تشرين الثاني 1971، في رينتيرا، ص 50.
35. جون ليونارد، نيويورك تايمز بوك ريفيو، 3 آذار 1970، وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز مقالة نقدية إيجابية في 8 آذار، ثم عادت فأدرجتها في سنة 1996 بوصفها واحدة من المقالات المهمة للاحتفال بمرور مئة سنة على صدور الصحيفة.
36. انظر: خوسيه دونوسو "تاريخ مرحلة الانتعاش" (برشلونة، سيكس بارال، 1983، طبعة ثانية منقحة مع ملاحق من أعداد ماريا بيلار سيرانو (الطبعة الإسبانية). أما الطبعة الإنكليزية فصدرت بعنوان "مرحلة الازدهار في الأدب الأميركي الإسباني": تاريخ شخصي (نيويورك، مطبعة جامعة كولومبيا: مركز الدراسات الأميركية، 1977).
37. كانت هذه العلاقة حدثاً مثيراً منذ البداية وحتى النهاية. انظر: جاك جيلارد وفابيو رودريغيث أمايا:

La obra de Marvel Moreno (Viareggio-Lucce, Maure Baroni, 1977).

انظر أيضاً رواية بلينيو ميندوثا الموسومة *Anos de fuga* 1985 و*La llama y el hielo*.

38. ميندوثا، المصدر السابق، ص 120، وعن برشلونة وعلاقات غابرييل غارسيا ماركيز في المدينة انظر خصوصاً ص 120-125.
39. انظر: آدم فينشتاين، بابلو نيرودا: حب الحياة (لندن، بلومزبري، 2004)، ص 315.
40. غابرييل غارسيا ماركيز، من برشلونة إلى بلينيو ميندوثا صيف (آب) 1970.
41. غابرييل غارسيا ماركيز يستذكر بابلو نيرودا مجلة كروموس (في رينتيرا، ص 95).
42. خوليو كورتاثار، رسالة على إدوارد خونكييريس، 15 آب 1970، كاراكاس، ص 1419.
43. ماريا بيلار سيرانو دي دونوسو، المصدر السابق، ص 134،
44. دونوسو، المصدر السابق، 105-106.

18 – الأديب المستوحد يكتب ببطء: خريف البطريرك والعالم الأرحب (1971-1975):

1. فيوريلو، المصدر السابق، ص 14-27.
2. خوان غوساين، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 15 كانون الثاني 1971.
3. يتبين أنه كان يشير خاصة إلى محاكمة أعضاء حركة باسك الانفصالية (إيتا) في بورغوس، حيث حكم على ثلاثة أشخاص اتهموا بالإرهاب بالموت.
4. هذه العبارة تترجم إلى الإنكليزية ترجمة دقيقة فتصبح **عطر الغوافة**، وسيظهر لاحقاً كتاب يضم مقابلات بهذا العنوان.
5. خوان غوساين، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 17 كانون الثاني 1971.
6. غييرمو أوتشوا، مقالة، صحيفة إكسيلسيور، 13 نيسان 1971.
7. غونثالو غارسيا بارتشا، مقابلة، باريس، 2004.

8. لـــوندري كاسال، قضية باديا (ميامي، يونيفرسال ونيويورك، نيفا، أتلانتيدا، 1972)، ص 9، وخورخه إدواردز: شخص غير مرغوب فيه (نيويورك، باراغون هاوس، 1993)، ص 220.
9. نشر الاجتماع في الصحف في جميع أنحاء العالم الغربـــي، ومنها صحيفة نيويورك ريفيو أوف بوكس، على سبيل المثال في 6 أيار 1971.
10. سمـــح في العام 2007 للأكاديمية الإسبانية بأن تدرج مقطعاً من الكتاب في الطبعة الخاصة لرواية **مئة عام من العزلة** الصادرة في تلك السنة.
11. نشرت المقابلة في صحيفة التيمبو في التاسع والعشرين من أيار 1971. وتكمن أهميتها في أنها سرعان ما أعيد نشرها مرة أخرى في برينسا لاتينا، حيث صدرت عنها ردود أفعال مختلفة، ثم نشرت في العدد الأول من مجلة ليبر.
12. عوالم الصراع: 1957-1982 (لندن، كوارتيت بوكس، 1990)، ص 153.
13. غيبرت، سبعة أصوات، ص 330-332.
14. مقابلة مع خوليو روكا، دياريو ديل كاريبـــي، 29 أيار 1971.
15. **مئة عام من العزلة** وباء، إستورياس، لا ريبابليكا، 20 حزيران 1971.
16. فيلـــيكس غراند، مقالة، غوادرنوس هيسبانو أميركانوس (مدريد) 222، حزيران 1968، ص 632-641.
17. انظر مقالة عن غابو في صحيفة إكسيلسيور (مدينة مكسيكو) 12 تموز 1971.
18. وثيقة في أرشيف كاسا دي لا أميركاس، هافانا.

(*) ثمـــة خطـــأ مـــن المؤلـــف هنا، فالعنوان هو بحر الزمن الضائع وليس بحر الزمان الميت. (المترجم)

19. انظر قراءة مايو فارغاس يوسا لهذه القصة في **تاريخ قاتل**، ص 457-477.
20. في حزيران 1973 تنشر قصة إيرنديرا البريئة في مجلة إسكواير.
21. خايمي ميخيا دوكي، مقالة، صحيفة التيمبو، 4 آذار 1973.
22. قارن خوان بوش، المرشح الدائم لمنصب الرئاسة في جمهورية الدومينيكان الذي أطاح به الأميركيون عام 1965، بين غابرييل غارسيا ماركيز وثيربانتس في حزيران 1971.
23. بونيا توفسكا، مقابلة، أيلول 1973، تودو مكسيكو، 202-203.
24. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة 2000.
25. إليخيو غارسيا، التيمبو، 15 آب 1972.
26. حديث مع ميريام غارثون، 1993.
27. انظر صحيفة إكسيلسيور، 5 آب 1972.
28. مقابلة في صحيفة إكسيلسيور، 17 آب 1972.
29. مقابلة نشرت في مجلة كروموس إثر وفاة نيرودا، 1973، المصدر السابق.
30. ســـبق لبومبـــي ماركيز أن أعلن في مقالته لمجلة ليبر، 3، (آذار - أيار 1972) ص 29-34، أن السياسة المتبعة هي عدم اتخاذ مواقف مناوئة للسوفيات.
31. ميندوثا، المصدر السابق، ص 196-197.

32. فيوريلو، المصدر السابق، ص 162-163.
33. غابـــرييل غارسيا ماركيز، برشلونة إلى فوينمايور، بارانكيا، مطلع تشرين الثاني 1972. انظر فيوريلو، المصدر السابق، ص 162-163.
34. غابرييل غارسيا ماركيز يستذكر بابلو نيرودا، مجلة كروموس، 1973، ص 96.
35. صـــحيفة إكسيلسيور، 13 أيار 1973. انظر أيضاً مقالة غابرييل غارسيا ماركيز عن الكتاب، كتابته وأهدافه وإنجازاته على مدى أكثر من ربع قرن من الزمان في مجلة كامبيو، 2001.
36. يمكن من هذا الجانب مقارنة الكتاب برواية الرئيس لإستورياس (1946).
37. أمير رودريغيث مونيغال في:

Narradores de esta America, Tomo II, (Alfadil, Caracas, 1992).

38. غييرمو شيريدان وأرماندو بيريرا: غارسيا ماركيز في المكسيك، 6: 30، شباط 1976.
39. المصدر السابق.
40. يوضح غابرييل غارسيا ماركيز مقياسه للزمن في:

Odete Lara, "GM", *El Escarabago de Oro* (Buenos Aires), 47, Dec. 73-Feb, 74, PP. 18-21.

41. انظر مفهوم نورثرب فراي عن الشخصيات النمطية في كتابه تشريح النقد (1957).
42. شيريدان وبيريرا، المصدر السابق.
43. خوان غوساين، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، كانون الثاني 1971. قارن بكتاب كونراد الموسوم نوسترومو الذي يموت فيه البطل "بسبب العزلة".
44. غابرييل غارسيا ماركيز **خريف البطريرك** (لندن، بيكادور، 1978)، ص 45.
45. المصدر السابق، ص 74.
46. المصدر السابق، ص 180.
47. المصدر السابق، ص 205.
48. المصدر السابق، ص 39.
49. المصدر السابق، ص 199.
50. المصدر السابق، ص 200-202.
51. المـــصدر الـــسابق، ص 203. ســـبق أن أظهر إستورياس في روايته **الرئيس** أن شخصية دكتاتوره (إيسترادا كابريرا) كانت نتاج حرمان من الطفولة لم يخفف من غلوائها سوى جهود متواصلة بذلتها أمه المتفانية المنحدرة من الطبقة الدنيا.
52. كارمن بالسيلس، مقابلة، برشلونة 2000.
53. تاتشيا كوينتانا (روسوف)، مقابلة، باريس 1973.
54. كـــان الإعـــلان عـــن الفـــوز قد أعلن في تشرين الثاني في السنة السابقة. انظر صحيفة إكسيلسيور، 19 تشرين الثاني 1972.
55. بونيا توفيسكا، مقابلة، أيلول 1973، تودو مكسيكو، ص 194.
56. صـــحيفة إكسيلسيور، 10 أيلول 1973، في حدود هذه المرحلة الزمنية يبدو أن غابرييل غارســـيا ماركيز توصل إلى تفاهم مع صحافيي إكسيلسيور ويظهر أن هؤلاء الصحافيين

تلقـــوا معلومات سرية عن تحركاته منذ هذا الوقت وحظي بتغطية منهم تفوق تغطية أي كاتـــب مكسيكي آخر، بل إيجابية أكثر من أي كاتب مكسيكي آخر أيضاً على مدى السنوات الخمس عشرة القادمة.

19 – تشيلي وكوبا: غارسيا ماركيز يختار الثورة (1973-1979):

1. انظـــر بلينيو ميندوثا: "Fine", in *Gentes, lugares* (بوغوتا، بلانيتا، 1986) وفيها يروي قصة غريبة عن رحلته إلى تشيلي مع فينا توريس الذي كان يعمل مصوراً يومئذ، وذلك عقـــب الانقـــلاب. وكان ميندوثا هو الصحافي الأجنبـــي الوحيد الذي دخلَ منـــزل نـــيرودا وشاهد جثته بعد أربع ساعات من وفاته. وقد أعيد نشر الصور التي التقطها فينا توريس في جميع أنحاء أميركا اللاتينية.
2. أعيد نشرها في صحيفة إكسيلسيور، 8 تشرين الأول 1973.
3. أرنـــستو غونثاليث بيرميخو، مقالة في كرايسز (بوينس آيرس، 1975) وأعيد نشرها في رينـــتيريا، المصدر السابق. وفي هذه المقابلة التي جرت في سنة 1970 قال غابرييل غارسيا ماركيـــز: "إنـــني أريد أن تنتج كوبا اشتراكية تأخذ في الاعتبار ظروفها، اشتراكية تشبه كوبا نفسها: إنسانية، متخيلة، بهيجة، من دون انحرافات بيروقراطية".
4. خوان غوسيان، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 17 كانون الثاني 1971،
5. غيبرث، المصدر السابق، ص 333. غير أن غابرييل غارسيا ماركيز يقول في ص 329 إن أملـــه قـــد خـــاب في اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية الذي يسوده نظام "غير اشتراكي".
6. لويس سواريث، مقالة، لا كاييه (مدريد)، 1978. (في رينتيريا ص 195-200).
7. يوضـــح غابرييل غارسيا ماركيز في رسالة إلى بلينيو ميندوثا، نيسان 1962 نظرية مفادها أن قراء صحيفة التيمبو هم مفتاح الانتخابات الكولومبية.
8. يـــستند هـــذا الفـــصل جزئيًّا إلى مقابلات مع كل من الصحافيين الثلاثة وهم: أنطونيو كابـــاييرو (مدريـــد، 1991، بوغوتا، 1993)، دانيال سامبر (مدريد، 1991)، وإنريكي سانتوس كالديرون (بوغوتا، 1991، و2007)، وكذلك إلى مقابلات أجريت مع خوسيه بيثـــنتي كاتـــاراين (بوغـــوتا، 1993)، وألفونسو لوبيث ميتشيلسين (بوغوتا، 1991)، وبيليـــساريو بيـــتانكور (بوغوتا، 1991)، وهيرناندو كورال (بوغوتا، 1998)، وخوليو أنـــدرياس كاماتشو (كارثاخينا، 1991)، وخوسيه سالغار (بوغوتا، 1991)، وخوسيه ستيفنـــسون (بوغوتا، 1991، كارثاخينا، 2007)، وفرناندو غوميث أغويديلو (بوغوتا، 1993)، وفيلـــيب لوبيث كاباييرو (بوغوتا، 1993)، ولورا ريستريبو (بوغوتا، 1991)، وخايمـــي أوســـوريو (بوغوتا، 1993)، ولويس بيّار بوردا (بوغوتا، 1998)، وخيسوس مارتن باربيو (بيتزبرغ، 2000)، وماريا لويسا ميندوثا (مدينة مكسيكو، 1994)، وإيلينا بونيا توفسكا (مدينة مكسيكو، 1994)، وغيرهم.
9. مارغـــريتا فيدال، "غابرييل غارسيا ماركيز"، 1981، كروموس، مقابلة، أعيد نشرها في Viaje a al Memoria (بوغوتا، إيسباسا كالبـــي، 1997) ص 128-139.

10. إنريكي سانتوس كالديرون، مقالة، مجلة التارناتيفا، 257، 27 آذار 1980 (العدد الأخير).
11. العدد (1)، 15-28 شباط 1974. العدد (2)، 1-15 آذار 1974 ويشتمل على مقالة لغابرييل غارسيا ماركيز.
12. عن النسخة الإنكليزية، "لماذا يتعين على آيندي أن يموت"، مجلة نيو ستيتسمان لندن، 15 آذار 1974، ص 358.
13. ستنشران في 1975.
14. انظر رافائيل هامبيرتو مورينو ديوران: Como el halcon peregrino (بوغوتا، سانتيلانا، 1995)، ص 117 يقول مورينو إن غابرييل غارسيا ماركيز تأخر عن الحفلة لأنه كان قد ذهب لحضور جنازة ميغيل آنخل إستورياس في مدريد، ولما سألت غابرييل غارسيا ماركيز عن الأمر في سنة 2002، أنكر الواقعة. حقًا كان التوقيت صائباً لكنني لم أستطع أن أسأل مورينو ديوران عن سبب قوله مثل هذا الكلام قبل أن توافيه المنية في العام 2005. انظر أيضاً جوليا أوركيدي Lo que Varguitas no dijo (لاباز، خاناكروث، 1983).
15. انظر: دونوسو، المصدر السابق، 148-149.
16. "يبدو هذا غريباً جداً، إذ لطالما سافرنا معاً دائماً إلى كل مكان". (رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1996).
17. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
18. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، فيجون، 30 كانون الثاني 1975.
19. إنريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991.
20. أعيد نشر المقابلة في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس في السابع من آب 1975.
21. غير أن سوريك يتخذ موقفاً نقديًا من علاقة غابرييل غارسيا ماركيز بلوبيث ميتشيلسين على امتداد السنين.
22. كان أعنف رد فعل من الناقد اليساري الكولومبي خايمي ميخيا دوكي حيث نشر في ميدلين في تموز 1975 عن دار أوبيخا نيغرا وهي دار النشر التي ستتولى مستقبلاً إصدار مؤلفات غارسيا ماركيز.
23. أليساندرو أوتيرو:

Llover sober mojado: una reflexion sober la historia.

(هافانا، ليتراس، كوباناس، 1997)، ص 208.

24. مجلة التارناتيفا، 40، 30 حزيران -7 تموز، غابرييل غارسيا ماركيز: البرتغال، الأرض الحرة في أوروبا، القسم الثاني، 42، 14-21 تموز، "البرتغال" الأرض الحرة في أوروبا، القسم الثالث.
25. صحيفة إكسيلسيور، 5 حزيران 1975.
26. صحيفة إكسيلسيور، 30 حزيران 1975.
27. صحيفة إكسيلسيور، 17 حزيران 1975.

28. انظر مجلة التارناتيفا، 38، 16-23 حزيران 1975.
29. نونيث خيمينيث، المصدر السابق، انظر أيضاً، غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، صحيفة الاسبكتادور، 11 تشرين الأول 1981 وهي أيضاً قصة حصار ذات صلة بمحاولات تشي غيفارا لإيجاد بديل عن الكوكا في الأيام الأولى من الثورة.
30. انظر مجلة التارناتيفا، 51، 15-22 أيلول 1975، 52، 22-29 أيلول 1975، 53، 29 أيلول - 6 تشرين الأول 1997.
31. رودريغو غارسيا بارتشا، مقابلة، نيويورك، 1997.
32. إنريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991.
33. انظر على سبيل المثال مقالة ماريا لويسا ميندوثا، إكسيلسيور، 8 تموز 1981.
34. هذا هو السؤال الذي قيمته 64 ألف دولار الذي يرغب معظم الصحافيين وعدد كبير من القراء في مناقشته مع كاتب سيرة غارسيا ماركيز غير المحظوظ حال لقائهم به.
35. لم يرغب أي من الرجلين في مناقشة القضية، لكنني ناقشت هذه الحادثة مع عدد من شهود العيان ومنهم ميرثيدس بارتشيا ومع زملاء مقربين لكلا الرجلين. وفي سنة 2008 نشر ماريو فارغاس يوسا مسرحية بعنوان Al Pie del tamises يفكّر فيها البطل في تسديد لكمة إلى أعز أصدقائه قبل خمسة وثلاثين عاماً، ولم يره منذ ذاك الوقت.
36. بيري أندرسون، مقالة ذانيشن، 26 كانون الثاني 2004، وهي مقارنة معمقة بين الرجلين تستند إلى قراءة مذكراتهما. مرة أخرى، يتفوق فيها غابرييل غارسيا ماركيز.
37. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
38. المصدر السابق.
39. انظر إلى شهادته الشخصية (ميامي، سابيتا، 1987).
40. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
41. فيليب غونثاليث، مقالة، مجلة التارناتيفا، 129، 29 آب - 5 أيلول 1977.
42. فيليب، صحيفة الاسبكتادور، 2 كانون الثاني 1983، وفيها يستذكر غابرييل غارسيا ماركيز هذا اللقاء الأول في بوغوتا.
43. غابرييل غارسيا ماركيز وريجيس دوبريه، مقالة، مجلة التارناتيفا 146-147، 26 كانون الأول؛ 20 كانون الثاني 1977-1987.
44. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة التارناتيفا، 117- 5-12 حزيران 1977.
45. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، مجلة التارناتيفا 126، 8-15 آب 1977.
46. غراهام غرين: التعرف إلى الجنرال (لندن، بودلي هيد، 1984)، وهو كتاب يتصدره إهداء إلى أصدقاء صديقي عمر توريخوس في نيكاراغوا والسلفادور وباناما.
47. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 27 كانون الثاني 1982 ومقالة أخرى في الاسبكتادور أيضاً، 16 كانون الثاني 1983.
48. رامون تشاو، مقالة، ترايفو (مدريد) 29 نيسان 1978، ص 54-56.
49. فيدل كاسترو، مقابلة، هافانا، كانون الثاني 1997.
50. التارناتيفا، 94، ص 23-30 آب 1978.

(*) بيلاطس النبطي: الحاكم الروحاني لبلاد "اليهودية" أيام السيد المسيح. حاكم المسيح وأمر بقتله بضغط من اليهود. (المترجم)

51. ســـوريلا، المصدر السابق، ص 229، وتتحدث عن علاقة غابرييل غارسيا ماركيز بقيادة **ساندنيستا.**
52. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 19 تموز 1981.
53. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، إكسيلسيور، 1 أيلول 1978. وكانت المقالة الرئيسة على الصفحة الأولى من صحيفة ذلك النهار.
54. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادرو، 19 تموز 1981.
55. صحيفة إكسيلسيور، 21 كانون الأول 1978.
56. مجلة التارناتيفا، 194، 25 كانون الأول 1978 – 22 كانون الثاني 1979.
57. مقابلـــة في بـــاريس مـــع رامون تشاو وإغناثيو رامونيت في تشرين الأول 1979، مجلة التارناتـــيفا 237، 1–8 تـــشرين الثاني 1979. يوضح غابرييل غارسيا ماركيز أن لوليتا ليبرون ورفاقها من بورتوريكو أطلق سراحهم كارتر، وإن لاعتبارات انتخابية لا أكثر.
58. مجلـــة التارناتيفا، 201، 26 شباط 1979، وفيها تعلن أن غابرييل غارسيا ماركيز التقى البابا يوحنا بولس الثاني في 19 كانون الثاني وملك وملكة إسبانيا في 3 شباط.
59. صحيفة التيمبو، 8 شباط 1979.
60. مجلة التارناتيفا، 218، 21–28 حزيران 1979.
61. حـــدث هذا في الوقت الذي نُشِر فيه نص سينمائي كتبه غابرييل غارسيا ماركيز بعنوان Viva sandino.
62. تشاو ورامونيت، مجلة التارناتيفا، 201، 26 شباط 1979.
63. عـــن تقريـــر ماكـــبرايد انظـــر مقالـــة غابرييل غارسيا ماركيز "مهمة بابل" صحيفة الاســـبكتادور، 2 تـــشرين الـــثاني 1980، انظر أيضاً: سوريلا "غارسيا ماركيز الآخر" ص 250، وفيها تأكيد على حدوث ثمانية اجتماعات في 1980–1981: أربعة في باريس واجتماع واحد في كل من ستوكهولم ودابرونفيك ودلهي وأكابولكو.
64. في نهايـــة المطـــاف، استاء غابرييل غارسيا ماركيز وزميله التشيلي خوان ساموفيا، الذي أصبح في ما بعد الأمين العام لمنظمة العمل الدولية، من التسوية التي توصلت اليها البعثة، فأرسلا تعقيبا على ذلك.
65. أثـــيرت هـــذه الملاحظات خلال طعام غداء في مدينة مكسيكو أقامه الاتحاد الأميركي اللاتيني للرئيس المكسيكي خوسيه لوبيث بورتيلو.
66. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة، الاسبكتادور، 9 تشرين الثاني 1980.
67. انظر مقالة نشرت في بوهيميا (هافانا)، 1979، في رينتيريا، ص 201–209: "لم تعد لدي أفكار أخرى لتأليف الكتب. ألن يكون اليوم الذي أستعيد فيه الأفكار عظيماً؟".

20 – عودة إلى الأدب: قصة موت معلن وجائزة نوبل (1980-1982):

1. انظر غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة الاسبكتادور، مهمة بابل، 2 تشرين الثاني 1980.

2. كـــارمن غالدينو وكارلوس فانيلا، ثاني المقالتين المنشورة في أيل ديا (مدينة مكسيكو) 7 أيلول 1981.
3. غابـــرييل غارســـيا ماركيـــز، مقالة الاسبكتادور، 26 كانون الأول 1982. للعديد من مقالات تلك الحقبة موضوعات باريسية.
4. ماريا خيمينا دوثان، مقابلة، بوغوتا، 1991.
5. إنريكي سانتوس كالديرون، مقابلة، بوغوتا، 1991.
6. كونسويلو ميندوثا دي ريانو، مقالة، ريفيستا داينرز (بوغوتا) تشرين الثاني 1980.
7. إكسيلسيور، 20 آذار 1980.
8. صحيفة الأونيفرسال، 17 أيار 1980.
9. آلن رايدنغ، الثورة موضوع رئيس عند غارسيا ماركيز، نيويورك تايمز، 22 أيار 1980.
10. خـــوان غوساين، مقالة، الاسبكتادور، 13 أيار 1981. ص 7أ، مقابلة مع لويس إنريكي غارسيا ماركيز.
11. إليخيو غارسيا: Corinca de la cronica وفيها مقارنة للأحداث مع الرواية، والأحداث الرئيسة بالشريط السينمائي والأحداث التي رافقت إنتاجه.
12. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23 آب 1981، 30 آب 1980.
13. سوريلا، المصدر السابق، ص 255، بخصوص مقالات 1980–1984.
14. كـــتب غابرييل غارسيا ماركيز رسالة إلى بلينيو ميندوثا، 22 تموز 1966 يقول فيها عام 1966، بعـــد إكمال كتابه **مئة عام من العزلة** ولكن قبيل نشرها مباشرة، إنه يروقه أن يمارس هذا النمط من الصحافة.
15. جون بنسون: Notas sobre Notas de prensa 1980-1984، 18 (1988) ص 27–37.
16. نـــشرت المقالات الأربع في صحيفة الاسبكتادور بين أواسط أيلول ومطلع تشرين الأول 1980.
17. عنوان مسلسل تلفزيوني أميركي في فترة زمنية لاحقة.
18. الاسبكتادور، 16 كانون الأول 1980.
19. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 8 آذار 1981.
20. كوبو بوردا: سيلفا وآرثينغياس وموتيس وغارسيا ماركيز. ص 419–427.
21. ســـوريلا، المـــصدر السابق، ص 259–262. يقول بخصوص هذه الحادثة إنه يعرف تمام المعرفة أن غابرييل غارسيا ماركيز كان على صواب بشأن التهديد.
22. إكسيلسيور، 12 أيار 1981.
23. فيدل، المصدر السابق، ص 128–139.
24. الاسبكتادور، 3 أيار 1981.
(*) هذا هو المعنى الحرفي، ولكن المقصود منه مجازاً الشخص التافه المنحدر من أسرة محترمة أو الذي يشين سمعة أسرته. (المترجم)
25. إكسيلسيور، 12 أيار 1981.
26. إكسيلسيور، 7 أيار 1981.

27. غابرييل غارسيا ماركيز، "ميتران الآخر، الرئيس"، الاسبكتادور، 24 أيار 1981.
28. فيليب غونثاليث، مقابلة، مدريد، 1997.
29. إكسيلسيور، 4 آب 1981.
30. "توريخوس"، الاسبكتادور، 9 آب 1981.
31. بياتريث لوبيث دي بارتشا، التيمبو، 10 كانون الأول 1982.
32. نقلاً عن خوسيه بيليدو: Muro de confesiones (كاراكاس، الأكاديمية الوطنية للتاريخ 1985)، ص 9-18.
33. انظر صحيفة التيمبو، 23 أيار 1982.
34. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 14 آذار 1982.
35. صحيفة الاسبكتادور، 11 نيسان 1982.
36. صحيفة الاسبكتادور، 31 كانون الثاني 1982.
37. صحيفة الاسبكتادور، 28 آذار 1982.
38. صحيفة الاسبكتادور، 4 نيسان 1982.
39. صحيفة الاسبكتادور، 6 كانون الأول 1981.
40. كلوديا دريفوس، بلاي بوي، 2: 30 شباط 1983، ص 65-77، 172-178.
41. بلينيو أبوليو ميندوثا، تحرير، El olor de la guayaba (برشلونة، بروغييرا، نيسان 1982).
42. ماريا إيستر غيليو، مقالة، ترايفو، (مدريد)، 1977، في رينتيريا، ص 141-146.
43. يستند هذا القسم إلى نونيث خيمينيث، المصدر السابق، ص 69-103. المصدر السابق.
44. المصدر السابق.
45. صحيفة الاسبكتادور، 29 أيلول 1982.
46. ألفونسو فوينمايور، آراكاتاكا - ستوكهولم، ص 30-33.
47. انظر مقالة مجلة كروموس، 26 تشرين الأول 1982، ص 20-21.
48. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة وليم غولدينغ، صحيفة الاسبكتادور، 9 تشرين الأول 1983، وفيها يتذكر غابرييل غارسيا ماركيز اللحظات التي سمع فيها نبأ فوز غولدنغ بجائزة نوبل.
49. إليخيو غارسيا، ريفيستا داينرز، بوغوتا، تشرين الثاني 1982.
50. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 20 تشرين الأول 1982.
51. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 7 تشرين الثاني 1982.
52. انظر على سبيل المثال صحيفة لاتين أميركان تايمز لشهر كانون الأول 1982.
53. جوزيف هارمس، مجلة نيوزويك، 1 تشرين الثاني 1982.
54. سلمان رشدي، ماركيز الساحر، صحيفة صنداي تايمز، (لندن)
55. انظر ميرا، آراكاتاكا - ستوكهولم، وفيها دراسة معمقة عن تجربة جائزة نوبل، ومغزاها بالنسبة إلى كولومبيا.
56. بلينيو ميندوثا، المصدر السابق، ص 96-103.
57. غييرمو كانو، صحيفة الاسبكتادور، 5 كانون الأول 1982.

58. انطوني داي وماجوري ميلير، غابو يتحدث: غابرييل غارسيا ماركيز يتكلم عن مصائب أميركا اللاتينية وصداقته مع فيدل كاسترو وأهوال الصفحة البيضاء، مجلة لوس أنجلوس تايمز، 2 أيلول 1990.
59. ميرا، المصدر السابق، ص 30.
60. ميندوثا، المصدر السابق، 96.
61. إليخيو غارسيا، مجلة كروموس، 14 كانون الأول 1982.
62. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 19 كانون الأول 1982.
63. آنا ماريا كانو، صحيفة الاسبكتادور، 13 كانون الأول 1982.
64. بلينيو ميندوثا، صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982.
65. ميندوثا، في ميرا، آراكاتاكا - ستوكهولم، ص 103.
66. آنا ماريا كانو، صحيفة الاسبكتادور، 13 كانون الأول 1982.
67. بلينيو ميندوثا، صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982.
68. ميندوثا، في ميرا، آراكاتاكا - ستوكهولم، ص 103.
69. مقالة في مجلة جنت (بوينس آيرس) كانون الأول 1982.
70. توم ماشلر الناشر، (لندن، بيكادور)، 2005، ص 128-129.
71. نيرو لوبيث، في ميرا، آراكاتاكا - ستوكهولم، ص 91-95.
72. غلوريا تريانا، صحيفة الاسبكتادور، 6 تشرين الأول 2002.
73. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 12 كانون الأول 1982.
74. ألكساندرا بينيدا، صحيفة الاسبكتادور، 12 كانون الأول 1982.
75. صحيفة الاسبكتادور، 10كانون الأول 1982.
76. ريتا غارسيا ماركيز في غالفيس، المصدر السابق، ص 249.
77. إليخيو غارسيا، El Mundo al Vuelo، 64، شباط - آذار 1983.
78. ألفارو موتيس، آراكاتاكا - ستوكهولم، ص 19-20.
79. صحيفة التيمبو، 12 كانون الأول 1982.

21 - نوبة الشهرة وعطر الغوافة: الحب في زمن الكوليرا (1982-1985):

1. غابرييل غارسيا ماركيز، فيليب، صحيفة الاسبكتادور، 2 كانون الثاني 1983.
2. حوار غابو وفيليب غونثاليث، صحيفة التيمبو، 27 كانون الأول 1982.
3. ليو براودي، نوبة الشهرة: الشهرة وتاريخها (نيويورك، فينتيج، 1986، 1997).
4. سوريلا، المصدر السابق، ص 259.
5. روبيرتو بومبو، سيمانا، (بوغوتا)، كانون الثاني 1997.
6. ديفيد ستريتفيلد، مقالة، الواشنطن بوست، 10 نيسان 1994.
7. خوان كروث، مقالة، البايس (مدريد)، 11 كانون الثاني 1993.
8. رودولفو براسيلي، مقالة، جينت (بوينس آيرس)، 15 كانون الثاني 1997.
9. غابرييل غارسيا ماركيز الاسبكتادور، 16 كانون الثاني 1983.

10. غييرمو كابريرا إينفانتي، Mea cuba (لندن، فيبر آند فيبر، 1994)، ص 210.
11. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 23 كانون الثاني 1983.
12. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 30 كانون الثاني 1983.
13. ألفونسو بوتيرو ميرندا، Colombia no alienada (بوغوتا، تيرثر موندو) 1995.
14. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
15. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 10 نيسان 1983.
16. رد غابرييل غارسيا ماركيز على غير عادته في الاسبكتادور 24 نيسان 1983.
17. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 5 حزيران 1983.
18. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 10 تموز 1983.
19. توماس إيلوي مارتينيث، باغينا (بوينس آيرس)، 21 آب 1988.
20. غابرييل غارسيا ماركيز الأسقف، الاسبكتادور، 23 تشرين الأول 1983.
21. ماريا تريسا هيران، الاسبكتادور، 5 تشرين الثاني 1983.
22. لورا ريستريبو، مقالة، بوغوتا، 1991.
23. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 18 كانون الأول 1983.
24. كلوديا دريفوس، المصدر السابق، ص 172.
25. ريجيس دوبريه، المصدر السابق، ص 26-28.
26. آرانغو، المصدر السابق، ص 247.
27. المصدر السابق، ص 120.
28. مارليس سايمونز، أفضل سنوات عمره، مقابلة مع غابرييل غارسيا ماركيز، نيويورك تايمز بوك ريفيو، 10 نيسان 1988.
29. إكسيلسيور، 16 تشرين الأول 1984.
30. **قصة موت معلن** (الطبعة الإنكليزية)، ص 136.
31. آرانغو، المصدر السابق، ص 136.
32. إريك نيبو موثينو، البايس، 28 آب 1984.
33. مارغوت غارسيا ماركيز، في غالفيس، المصدر السابق، ص 67.
34. إليخيو غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 285-286. مما يثير الدهشة أن تيا با كانت حاضرة في ذلك الوقت ثم وافتها المنية بعد عام من ذلك.
35. خايمي غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 55.
36. إليخيو غارسيا ماركيز، المصدر السابق، ص 286.
37. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، آب 1982. في هذه المقالة تكمن جذور **الحب في زمن الكوليرا** (1985) **وذاكرة غانياتي الحزينات** (2004).
38. مارليس سايمونز، التيمبو 14 نيسان 1985، وفي عام 1988 يلتقيه سايمونز مرة أخرى، المصدر السابق.
39. ياسوناري كاواباتا.
40. ماريا ألفيرا سامبر، سيمانا، 13 أيار 1985.

41. أوضح إشارة هي كتاب فيرمينا ماركيز لفايري لاربود (باريس، 1911) عن فتاة كولومبية حسناء تعيش في فرنسا وقصص الحب التي كانت تلهم بها الآخرين. وقد جذب العنوان اهتمام غابرييل غارسيا ماركيز، مثلما استحوذت الحبكة بعد ذلك على خياله.

(*) التفاحة الكبيرة The Big Apple: هي نيويورك، ويقال إن هذه التسمية تعود إلى عصر الجاز في ثلاثينيات القرن العشرين عندما كانت كلمة تفاحة تعني الارتباط، وكان الارتباط الذي يسعى إليه كل الموسيقيين هو الارتباط بنيويورك، فأصبحت المدينة تفاحة كبيرة بمعنى مركز النشاط الثقافي العالمي. (المترجم)

42. سيمانا، 9 كانون الأول 1985.
43. هيرنان دياث، ريفيستا داينرز (بوغوتا)، أيلول 1985.
44. بليسيا ريو بيتانكور، مقابلة، بوغوتا، 1991 نلاحظ أن كتاب غابرييل غارسيا ماركيز **خبر اختطاف** (1996) يستعيد هذه الظروف كي يضع السياق السياسي للأحداث (1990-1993) التي يرويها بنفسه.
45. "لقد تطلب مني الأمر نصف قرن من الزمان كي أكتب عن الحب"، إكسيلسيور، 17 كانون الثاني 1986.
46. توماس بينشون "عهد الحب الأبدي"، نيويورك تايمز بوك ريفيو، 10 نيسان 1988.
47. غابرييل غارسيا ماركيز، حديث، مدينة مكسيكو، 1999.

22 - خلافاً للتاريخ الرسمي: بوليفار غارسيا ماركيز (الجنرال في متاهته) (1986-1989):

1. كولومبيا على حافة محرقة، غارسيا ماركيز، إكسيلسيور، 28 تموز 1986.
2. انظر الطبعة البرازيلية من مجلة بلاي بوي، وفي مناظرة مع غنتر غراس في نهاية المؤتمر الخامس والأربعين لنادي القلم الذي عقد في مدينة نيويورك في كانون الثاني 1986.
3. نونيث خيمينيث، المصدر السابق.
4. مقابلات مع فيدل كاسترو وتوماس غوتيرث آليا، وفيرناندو بيري، وألكيميا بينا، وكاتشو باليرو، وماريا لويسا بيمبرغ، وإليسيو ألبيرتو، وخورخه علي تيرانا، وأليساندرو دوكي، وخايمي همبرتو هيرموسيلو، وخورخه سانتشيث، وأغانثيو ديوارن، وماريو غارسيا، وبيرتا نافارو، وأحاديث مع خوليو غارسيا إسبينوسا، ودولوريس كالفينو، وستيلا مالاغون، ومارتا بوسيو، وميغيل ليتين.
5. اشتهر ليتين بقصة The Jackel of Nabueltoro، 1971. لكنه صور أيضاً قصة غارسيا ماركيز أرملة مونتيل في المكسيك سنة 1978 مع جيرالدين تشابلن التي مثلت الدور الرئيس.
6. غابرييل غارسيا ماركيز، سري في تشيلي (كيمبرج، غرانتا، 1989).
7. أبعد هذا العدد غابرييل غارسيا ماركيز عن ميتران. كانت فرنسا لا تزال تجري التجارب جنوبي المحيط الهادئ. وفي تموز 1985، أغرق عملاء فرنسا، وهذا ما نعرفه الآن،

بأوامر من ميتران نفسه سفينة رينبو وارير التابعة لجماعة السلام الأخضر في مرفأ أوكلاند.

(*) رجل من حاشية ديونيسيوس حاكم سيراكوزا في القرن الرابع ق. م، دعاه الحاكم إلى وليمة، وعلق فوق رأسه سيفاً مربوطاً بشعرة حصاة ليبين له أن سعادة الظالم معرضة أبداً للأخطار، وكلمة غارسيا ماركيز في المؤتمر أعلاه واضحة الدلالة في هذا الشأن. (المترجم)

8. التيمبو، 7 آب 1986، انظر خطاب غابرييل غارسيا ماركيز بعنوان "جائحة دوموقليس"، مؤتمر إكستابا، 1986، (بوغوتا، أوبيخا نيغرا، 1986).

9. تزوج غونثاليو وبيا في 1987. أما ابنهما ماثيو، وهو أول حفيد لغارسيا ماركيز، فقد ولد في أواخر أيلول.

10. أندرو باكسمان، مقابلة، مجلة فارايتي 25-31 آذار 1996.

11. مايكل براندو، صحيفة اللوموند، تموز 1986.

12. لاراثون، بوينس آيرس، 7 كانون الأول 1986 وفيها نصّ خطاب غابرييل غارسيا ماركيز.

13. ماريا خيمينا دوثان، مقابلة، بوغوتا، 1991.

14. مارليس سايمونز "غارسيا ماركيز عن الحب والأوبئة والسياسة"، نيويورك تايمز، 21 شباط 1988.

15. هوغو كولميناريس، صحيفة الناسيونال، 22 شباط 1989، في كاراكاس.

16. روبيرت ريفورد معجب بغارسيا ماركيز، إكسيلسيور، 15 تشرين الأول 1988.

17. إلياس ميغيل مينوث، "في متاهة الكاتب: أيام رواية القصص مع غابو"، ميشيغان كوارتلي ريفيو، 2: 34، 1995، ص 173-193، بخصوص عمل غابرييل غارسيا ماركيز في صاندانس، آب 1989.

18. غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 21 نيسان 1982.

19. من أفلام نيويل السابقة "أربع حفلات زفاف وجنازة"، دوني براسكو وهاري بوتر وكأس النار.

20. انظر على سبيل المثال لاري روهتر، "غارسيا ماركيز: كلمات في شريط سينمائي"، نيويورك تايمز 13 آب 1989.

21. **ليس للعقيد من يكاتبه** (المكسيك، جامعة فيراكروث)، 1999.

22. إكسيلسيور، 7 آب 1990. مقالة في نيويورك تايمز عن اقتباس سالفادور تافورا لقصة **موت معلن** في المهرجان اللاتيني.

23. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة عن فيدل كاسترو، الباييس، 6 آذار 1988. انظر "العمل بالكلمة"، مجلة ناكلا، 2 آب 1990.

24. غابرييل غارسيا ماركيز، Diatriba de amor contra un hombre sentado (بوغوتا، آرانغوا، 1994).

25. أوسبالدو سوريناو، مقالة، باجينا 12، (بوينس آيرس) 21 آب 1988.

26. أوسبالدو كيروغا، مقالة، لا ناسيون (بوينس آيرس) 21 آب 1988.
27. تردّد في تلك الآونة أن مونيكا فيتي فكّرت في عرض المسرحية في روما خلال ذلك العام وفي وقت لاحق، قدمت المسرحية في بوغوتا ومثلت فيها لورا غارسيا دور غراثييلاّ. وفي 2005، أدت الدور نفسه الممثلة والمغنية آنا بيلين في إسبانيا، وفي كانون الثاني 2006 قدمت غراثييلاّ دوفاو المسرحية في بوينس آيرس بالرغم من كل معاناتها. ويبدو أن الممثلات استمتعن بتمثيل الدور بالرغم من تحفظات النقاد.
28. صحيفة أوكسيدنت، 3 كانون الأول 1989.
29. صحيفة الاسبكتادور، 11 تموز 1987.
30. إكسيلسيور، 21 تموز 1987.
31. انظر إلى شكره أو امتنانه الهائل في الطبعات المنشورة.
32. سوزانا كاتو، بروثيسو (مدينة مكسيكو) 3 نيسان 1989.
33. غابرييل غارسيا ماركيز، صحيفة الاسبكتادور، 25 آذار 1981.
34. صحيفة التيمبو، 19 شباط 1989، في التاسع والعشرين من تموز 1975، التقى رئيس جمهورية كولومبيا لوبيث ميتشيلسين في الذكرى الأربعمئة والخمسين لمناسبة تأسيس مدينة سانتا مارتا مع رئيس جمهورية فنزويلا كارلوس أندرياس بيريث، ورئيس جمهورية باناما عمر توريخوس في مدينة سان بيدرو أليخاندرينو، وأحيُوا ذكرى وفاة بوليفار الذي قضى هناك عام 1930. ثمة لوحة تحتفي بالذكرى ويصبح هؤلاء الرجال الثلاثة من أقرب أصدقاء غابرييل غارسيا ماركيز في العقد التالي من الزمان.
35. بيليساريو بيتانكور، باجينا 12، (بوينس آيرس) 2 نيسان 1989.
36. إكسيلسيور، 21 آذار 1989.
37. ماريا ألفيرا سامبر، إكسيلسيور، 5 نيسان 1989.
38. انظر على سبيل المثال أوسكار بيدراهيتا غونثاليث لا ريبابليكا (كولومبيا)، 14 أيار 1989. وديغو ميليو، كلارين (بوينس آيرس)، 22 حزيران 1989.
39. صحيفة التيمبو، 19 آذار 1989.
40. صحيفة التيمبو، المقالة الافتتاحية، 5 نيسان 1989.
41. صحيفة إكسيلسيور، 28 آذار 1989، انظر أيضاً عدد الصحيفة الصادر في 28 حزيران 1989.
42. صحيفة الاسبكتادور، 28 آذار 1989.
44. نيويورك تايمز، 27 كانون الأول 1988.
45. **الجنرال في متاهته** (الطبعة الإنكليزية) لندن، جونثان كيب 1991، ص 230.
46. كان القرار قد اتخذ بالإجماع بالرغم من زعم أعداء كاسترو أنه أدى الدور الرئيس. وزعموا أيضاً أنه كان لا بد من قتل أوتشوا لإخفاء اتّهام فيدل كاسترو وراؤول كاسترو بتجارة المخدرات في الكاريبي.
47. 16 تموز، العنوان الرئيس لصحيفة صنداي ميرور: "شبح رثّ الثياب في وليمة"، مقارنة بماري أنطوانيت.

48. صحيفة الاسبكتادور، 15 تموز 1989.
49. جيوفري ماثيوز، "وباء العنف يصيب أرض الجمال السحري"، صحيفة الغارديان (لندن)، 3 أيلول 1989.
50. صحيفة التيمبو، 20 آب 1989.
51. صحيفة إكسيلسيور، 22 كانون الأول 1989.

23 - عودة إلى ماكوندو، خبر كارثة تاريخية (1990-1996):

1. معظم هذه الحوادث مذكورة، بالاختصار أو بالتفصيل، في كتاب غابرييل غارسيا ماركيز **خبر اختطاف** (لندن، جونثان كيب، 1997).
2. إكسيلسيور، 3 تشرين الثاني 1989.
3. أنطوني داي ومارجوري ميلر: "غابو يتحدث". مجلة لوس أنجلوس الأميركية 2 أيلول 1990، ص 10، 35. وفيها يوضح أن الولايات المتحدة "مصابة بهوس متهتك تقريباً بكاسترو" (ص 34). وأكد أنه لولا وجود كاسترو لاجتاحت الولايات المتحدة أميركا اللاتينية حتى باتاغونيا.
4. إكسيلسيور، 9 شباط 1989.
5. داي وميلر، غابو يتحدث، ص 33.
6. إكسيلسيور، 10 آذار 1990.
7. صحيفة التيمبو، 10 آذار 1990.
8. إيموجين مارك، "بينوشيت ضائع في متاهته"، الفايننشيال تايمز، 25 تشرين الثاني 1990.
9. ورد الخبر في وكالة برينسا الصحفية، 5 أيلول 1990.
10. صحيفة إكسيلسيور، 3 أيلول 1990.

(*) المقصود بهم الاكسترا دايتابليين Extranditables وهم مجاميع من المجرمين وتجار المخدرات في كولومبيا تطالب بهم حكومة الولايات المتحدة من دون أن تملك كولومبيا قدرة على تسليمها إياهم. (المترجم)

11. صحيفة إكسيلسيور، 27 كانون الثاني 1991، صحيفة التيمبو، 27 كانون الثاني 1991.
12. صحيفة التيمبو، 20 حزيران 1991.
13. الاسبكتادور، 3 آذار 1991.
14. ريناتو رافيلو، لا جورنادا، 25 تشرين الأول 1998.
15. لا جورنادا، 18 كانون الثاني 1992.
16. إكسيلسيور، 15 شباط 1992.
17. باري ماتش، 14 تموز 1994.
18. إكسيلسيور، 31 تموز 1992.
19. سيمانا، 14 تموز 1992.
20. الناسيونال، 10 آب 1992.
21. سيمانا، 17 تشرين الثاني 1992.

22. سيمانا، 29 أيلول 1992.
23. التيمبو، 23 تشرين الثاني 1992.
24. البايس، 14 كانون الأول 1992.
25. الاسبكتادور، 11 كانون الثاني 1993.
26. بيل كلينتون، العطاء: كيف يمكن لكل واحد منا أن يغير العالم (لندن، هاتشينسون، 2007).
27. الاسبكتادور، 28 كانون الثاني 1993.
28. إكسيلسيور، 29 كانون الثاني 1993.
29. إكسيلسيور، 18 حزيران 1993.
30. جيمس بروك، "واقع الكوكايين بقلم غارسيا ماركيز"، نيويورك تايمز، 11 آذار 1994.
31. 24 آذار 1994 صدر البيان بصفة نشرة صحيفة.
32. ديفيد ستريتفلد، "عزلة غابرييل غارسيا ماركيز المعقدة" صحيفة الواشنطن بوست، 10 نيسان 1994.
33. كلمة غونثالو مالارينو في معرض بوغوتا للكتاب في الثناء على كتاب غابرييل غارسيا ماركيز الجديد (22 نيسان 1994)، نشرت في صحيفة الاسبكتادور، 25 نيسان 1994.
34. جان فرانسوا فوجيل "ثورة القلب"، صحيفة اللوموند، 27 كانون الثاني 1995.
35. إي. أس. بيات، "مأخوذ بالحب"، نيويورك ريفيو أوف بوكس، 28 أيار 1995.
36. بيتر كيمب، "الشعرة والكلب"، صحيفة الصاندي تايمز (لندن)، 2 تموز 1995.
37. روسامورا، الاسبكتادور، 7 نيسان 1994.
38. سيلفانا باترنوسترو، مقالة، ليترا أنترناسيونال (مدريد)، أيار/حزيران 1997، ص 13. يستذكر كاسترو بنفسه هذا الحدث في صحيفة غراما في تموز 2008.
39. أونوما سونو (مدينة مكسيكو)، 25 تموز 1994.
40. أرنستو سامبر، سيمانا، 3 آذار 1987. أجريت مقابلة مع سامبر في بوغوتا في نيسان 2007.
41. غابرييل غارسيا ماركيز، مجلة باري ماتش، 14 تموز 1994.
42. صحيفة التيمبو، 8 آب 1994.
43. سيمانا، 6 أيلول 1994.
44. لا جورنادا (مدينة مكسيكو)، 14 أيلول 1994.
45. فيوريلو، المصدر السابق، ص 85.
46. غابرييل غارسيا ماركيز، باري ماتش، 14 تموز 1994.
47. سوزانا كاتو، مجلة كامبيو، 16، 6-13 أيار 1996.
48. كامبيو 16، 24 شباط 1997.
49. نوربيرتو فوينتس، De la Habana traigo un Mensaje 13 آذار 1996. ويظهر شريط فوينتس Dulces Guerrilleros cubanos في 1999 ويؤدي غابرييل غارسيا ماركيز دوراً كئيباً فيه.

50. بيلار لوثانو، صحيفة البايس، 16 نيسان 1996.
51. إنريكـــي سانتوس كالديرون، التيمبو 5 أيار 1996 يبين سانتوس كالديرون أن مجلة نيوز ويـــك قـــد أوردت مؤخراً أن غابرييل غارسيا ماركيز مهووس ببابلو إسكوبار لأنه يمثل الـــسلطة، وهي هاجس غابرييل غارسيا ماركيز الحقيقي، وليس السياسة. انظر فرجينيا باليخو:
Amando a Pablo، diando a Escobar (مدينة مكسيكو، راندوم هاوس موندادون، 2007)، وفيه تفاصيل دقيقة عن السياسة والمجتمع في كولومبيا خلال حقبة إسكوبار.
52. روبيرتو بوسادا غارسيا بينا، التيمبو، 22 أيار 1998.
53. غابـــرييل غارسيا ماركيز، **خبر اختطاف**، ص 129–130. سيؤيد تنظيم القوات المسلحة الثورية الكولومبية هذا البيان بممارسة الخطف من أجل فدية على مدى السنوات القادمة. في العام 2008، يتلقى التنظيم سلسلة من الضربات المدمرة، بما فيها موت زعيمه مانويل مارولاندا، في أثناء قصف الشخص الثاني في القيادة راؤول ريس، وتحرير القوات المسلحة الكولومبية إنغريد بيتانكور.
54. انظر على سبيل المثال، جوزيف أي. بيج، "واقعية لا سحرية"، كومو نويل، 16، 26 أيلول 1997، وتـــشارلز لين، الكاتب في متاهته، نيوريبابليكا، العدد 217، 25 آب 1997. راجع أيضاً مالكوم ديس "آفة كل النذر"، لندن ريفيو أوف بوكس 30 تشرين الأول 1997.

24 – غارسيا ماركيز في السبعين وما بعدها: مذكرات وغانيات حزينات (1996–2005):

1. داريو أريثميندي، مجلة كروموس، 13 حزيران 1994.
2. صحيفة البايس، 15 أيار 1996.
3. روسامورا، البايس، 20 أيار 1996.
4. ريكاردو سانتا ماريا، سيمانا، 27 آب 1996.
5. رودولفو براثيلي، جنت (بوينس آيرس) 15 كانون الثاني 1997.
6. جان فرانسوا فوجل، صحيفة اللوموند، 27 كانون الثاني 1995.
7. البايس، 7 حزيران 1998.
8. بيلار لوثانو، البايس، 3 آذار 1997.
9. الاسبكتادور، 12 أيلول 1997.
10. التيمبو، 7 حزيران 1998.
11. الاسبكتادور، 23 تشرين الأول 1998.
12. الواشنطن بوست، 29 تشرين الأول 1998.
13. سحب غابرييل غارسيا ماركيز وزملاؤه عرضهم وهم مقتنعون أن سامبر سيرفضه. لكن سامبر أنكر في مقابلة أجريتها معه في نيسان 2007 أن هناك قراراً اتخذ بذلك العدد، لكنه أوضح بجلاء أن "ما من حكومة في أي بقعة من بقاع العالم الديمقراطي مضطرة إلى محاباة خصومها".

14. لاري روهتر، "غابرييل غارسيا ماركيز يحتضن حباً قديماً (هذا خبر!)"، نيويورك تايمز، 3 آذار 199.
15. مجلة كامبيو، شباط 1999.
16. البايس، 3 كانون الثاني 1999.
17. روسامورا، البايس، 19 آذار 1999.
18. كنت في إنكلترا عندما اتصل بي غارسيا ماركيز من بوغوتا في الثامن والعشرين من حزيران بعد التشخيص. كان يعلم أنني كنت قد أصبت بورم ليمفاوي في سنة 1995. وقال: "لم أشعر يوماً ما في حياتي بإعياء كالإعياء الذي لازمني منذ بداية هذا المرض. و لم تعد لدي ذرة واحدة من الطاقة". ثم تحدثنا عن المرض وكيفية مقاومة الفرد له بأكبر قدر ممكن، وكيف يأكل وكيف يفكر وكيف يعيش. فقال لي: "حسناً. لقد أصبحنا أنا وأنت زميلين". أحسست أنه أصيب بصدمة، لكنه عقد العزم على القتال. لكنني كنت أيضاً أدرك أنه في الثانية والسبعين من عمره.
19. جون لي أندرسون، "سلطة غارسيا ماركيز"، مجلة ذا نيويوركر، 27 أيلول 1999.
20. التيمبو، 23 أيلول 1999.
21. راجع هذا الجزء من قراءة الطالع في رواية **خريف البطريرك** (1975)، ص 181 (الطبعة الإنكليزية).
22. سيمانا، 14 تشرين الثاني 2000.
23. خوان كروث، البايس، 2 كانون الأول 2000.
24. غييرمو أنخولو، مقابلة، بوغوتا، نيسان 2007.
25. 27 شباط 2001، نشرت الرسالة في جميع أنحاء العالم.
26. تأخر فرويد عن دفن أبيه، فراوده حلم يشعره بالذنب من جراء ذلك. ثم أخفق في حضور تشييع جنازة أمه بذريعة سوء حالته الصحية.
27. ريتشارد إيلمان عن جويس: "إن حياة الفنان، خاصة مثل حياة جويس، تختلف عن حياة غيره من الأشخاص من حيث إن أحداثها تصبح مصادر فنية حتى إن كانت تستحوذ على اهتمامه الراهن". (جيمس جويس، طبعة جديدة ومنقحة، نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 1983)، ص 3.

(*) نرسيسوس Narcissus: في الميثولوجيا الإغريقية هو ابن سيفيسوس، شاب بهي الطلعة رأى انعكاس وجهه في ينبوع ماء فظنه حورية المكان. حاول عبثاً الإمساك بوجهه حتى ذاب أسىً وحسرة. وعندما جاءت الحوريات لنقل جثته ودفنه، لم يجدن سوى زهرة أطلقن عليها اسمه وهي زهرة النرجس. نقل لنا هذه القصة أوفيد وغيره. أما بلوتارك، فيقول إن الاسم مشتق من كلمة narke الإغريقية وتعني خدر، وهو ما يناسب كلمة narcosis أي النبات الذي يسبب الخدر. (المترجم)

28. ماتيلدا سانتشيث، كلارين، (بوينس آيرس)، 24 آذار 1998.
29. إكسيلسيور، 12 تشرين الثاني 1981: "انتهى المطاف بغارسيا ماركيز وهو يتحدث عن مذكراته التي كان يأمل في كتابتها في القريب العاجل، وهي المذكرات التي ستكون فعلاً

(مذكرات كاذبة) لأنها لا تروي قصة حياته كما حدثت، ولا كيف يمكن أن تكون، بل كما كان يظنها".

30. كاليب باخ، لقطات قريبة عن غابرييل غارسيا ماركيز، أميركاس، أيار/حزيران 2003.
31. البايس، 19 تموز 2003.
32. سيمانا، تشرين الثاني 2003.
33. في وقت لاحق، يتبنى برنامج أوبرا وينفري رواية **الحب في زمن الكوليرا**.
34. غابرييل غارسيا ماركيز، مقالة في الاسبكتادور، 19 آب 1982. وقد اقتبسها لاحقاً لتكون قصة من قصص **مهاجرون غرباء**.
35. ماريا للمؤلف إسحق. تعد استثناءً جزئياً.
36. ماريا خيمينيث دوثان، مقابلة، بوغوتا، 1991.
37. غابرييل غارسيا ماركيز، **ذاكرة غانياتي الحزينات** (نيويورك، ألفريد أي نوف، 2005)، ص 74.
38. المصدر السابق، ص 45.
39. جون أبدايك، "الموت من أجل الحب: رواية جديدة لغارسيا ماركيز" ذا نيويوركر، 7 تشرين الثاني 2005.
40. لدى وصولي البيت، كنت أفكّر في هذا الحديث، ففتحت كتاب **الجنرال في متاهته**، إن كانت أسطره الأخيرة، حسبما تذكر، نشيداً آخر من أناشيد ألق الوجود. كان بوليفار مذهولاً وهو يحتضر بسبب ألق حياته الأخير الذي لن يتكرر ثانية أبداً. قارن هذا بالمقالة الواردة في صحيفة الاسبكتادور، 1 أيار 1982 والتي يستذكر فيها غابرييل غارسيا ماركيز عواطفه المتأججة أيام شبابه المتألق مع اقتراب الفجر في كل يوم في كارثاخينا.

خاتمة: الخلود – ثيربانتس الجديد (2006–2007):

1. اڤي آيان، لافانغارديا (برشلونة)، 29 كانون الثاني 2006.
2. خايمي غارسيا ماركيز، حديث، كارثاخينا، آذار 2007.
3. لا جورنادا، 8 نيسان 1997.
4. آلان ستيفانز، "غارسيا ماركيز وروايته الشاملة" كرونيكل أوف هاير إيديوكيشن، 15 حزيران 2007. قبل عامين من ظهور نص ستيفانز، كرر كريستوفر دومينغيث في ليتراس ليبر المكسيكية (كانون الأول 2004) عبارة سابقة مفادها أن غابرييل غارسيا ماركيز هو هوميروس أميركا اللاتينية. وعلى نحو مشابه، أشار روبيرتو غونثاليث إيتشيباريا في مقالة متميزة في بريميرا ريفيستا (نيويورك) كانون الأول 2007 – كانون الثاني 2008، أن رواية **مئة عام من العزلة** عُدّت على الفور مأثرة كلاسيكية كاملة وكتاباً بات علاقة مميزة في حياته وأدبه. ويعد هؤلاء النقاد الثلاثة من النقاد الميالين إلى نزعة التشكك والصرامة، ولا يكيلون حسب المزاج لكتابة شيكات نقدية بيضاء، ولا يكون المديح المقيت الذي ينطوي على رياء لأدباء يقفون إلى يسار الوسط.
5. آرانغو، المصدر السابق، ص 91.

6. انظــر مقالــة غابرييل غارسيا ماركيز، الاسبكتادور، 10 آذار 1981، وفيها يسخر من فكرة إقامة مركز مؤتمرات في كارثاخينا. المفارقات كثيرة.
7. غابرييل غارسيا ماركيز، **مئة عام من العزلة**، طبعة تذكارية، (مدريد)، الأكاديمية الملكية الإسبانية، 2007.
8. أوضح في هذا النص أنه أرسل هو وميرثيديس عبر البريد النصف الثاني من المخطوطة عن خطأ أول الأمر، وأن الناشر باكو بوروا الذي كان تواقاً إلى قراءة النصف الأول، أرسل إلــيهما الــنقود التي كانا بحاجة إليها ومن خلال تكريم الأكاديمية له، فقد ربطته ربطاً محكمــاً بالــرواية التي بذل قصارى جهده كي يهرب منها، ولم تكن كلمته كلمة شكر لــزوجته وحسب، بل كانت أيضاً ضرباً من المصالحة مع الكتاب الذي غيّر من حياتهما قبل أربعين سنة.

حقوق الصور ونصوصها

Colonel Nicolás R. Márquez. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Tranquilina Iguarán Cotes de Márquez. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Colonel Nicolás R. Márquez on a tropical day out in the 1920s. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Luisa Santiaga Márquez Iguarán. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
Gabriel Eligio García and Luisa Santiaga, on their wedding day, 11 June 1926. (*Gustavo Adolfo Ramírez Ariza* (*GARA–Archive*)

GGM on his first birthday. (*Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)
The Colonel's old house in Aracataca. (*GARA–Archive*)
Elvira Carrillo, 'Aunt Pa'. (*GARA–Archive*)
Aida GM, Luis Enrique GM, Gabito, cousin Eduardo Márquez Caballero, Margot GM and baby Ligia GM, 1936. (*Photo by Gabriel Eligio García, courtesy of Family Archive–Margarita Márquez Caballero*)

Gabito at the Colegio San José, Barranquilla, 1941. (*GARA–Archive*)
The Liceo Nacional in Zipaquirá where GGM studied between 1943 and 1946. (*GARA–Archive*)
The GM brothers, Luis Enrique and Gabito, with cousins and friends, Magangué, 1945. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)
Argemira García and her daughter Ena, early 1940s. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)
GGM, mid-1940s. (*GARA–Archive*)
Berenice Martínez, mid-1940s. (*GARA–Archive*)

Mercedes Barcha at school in Medellín, late 1940s. (*GM Family Archive*)
Steamship *David Arango*. (*Photo by William Caskey*)
Fidel Castro and other student leaders during the *Bogotazo*, April 1948. (*http://www.latinamericanstudies.org*)
Barranquilla, April 1950: farewell for Ramón Vinyes. (*GARA–Archive*)
Barranquilla, in the *El Heraldo* office, 1950. (*Photo by Quique Scopell, courtesy of El Heraldo*)
GGM, Bogotá, 1954. (*El Espectador*)

GGM, Paris, 1957. (*Photo by Guillermo Angulo, courtesy of GARA–Archive*)
Tachia Quintana in Paris. (*Photo by Yossi Bal, courtesy of Tachia Rosoff*)
GGM and friends, Red Square, Moscow, summer 1957. (*GARA–Archive*)
The Soviet invasion of Hungary, Budapest, 1956. (*Hulton-Deutsch Collection/CORBIS*)
Caracas, 13 May 1958. (*Bettmann/CORBIS*)

GGM working for Prensa Latina, Bogotá, 1959. (*Photo by Hernán Díaz*)
Mercedes Barcha in Barranquilla. (*GARA–Archive*)
Cuba, December 1958: Che Guevara and comrades relax. (*Popperfoto/Getty Images*)
GGM and Plinio Mendoza working for Prensa Latina, Bogotá, 1959. (*El Tiempo*)
GGM and Mercedes, on Séptima in Bogotá, 1960s. (*GARA–Archive*)

Havana, January 1961. (*Getty Images*)
Havana, 21 April 1961. (*Bettmann/CORBIS*)
Mexico, 1964. GGM in glasses. (*GARA–Archive*)
GGM in Aracataca, 1966. (*GARA–Archive*)
Valledupar, Colombia, 1967. (*Photo by Gustavo Vásquez, courtesy María Elena Castro de Quintero*)
Camilo Torres. (*GARA–Archive*)

Wizard or dunce? GGM in Barcelona, crowned by the famous cabbalistic cover of *OHYS*, 1969. (*Colita/CORBIS*)
Mercedes, Gabo, Gonzalo and Rodrigo, Barcelona, late 1960s. (*GM Family Archive*)

Soviet invasion of Czechoslovakia, August 1968. (*epa/CORBIS*)
GGM, Barcelona, late 1960s. (*GARA–Archive*)
GGM and Pablo Neruda, 1972. (*GARA–Archive*)
Boom couples, Barcelona, 1974. (*Photo by Colita*)

GGM, Barcelona, 1970s. (*Photo by Rodrigo García*)
GGM and Carlos Fuentes, Mexico City, 1971. (*Excelsior*)
GGM and Mercedes, 1970s. (*Excelsior*)
Cartagena, 1971: GGM visits his parents. (*Excelsior*)

Writers of the Boom. (*Photo by Silvia Lemus*)
Julio Cortázar, Miguel Angel Asturias and GGM, West Germany, 1970. (*GARA–Archive*)
Paris, 1973. Wedding of Charles Rosoff and Tachia Quintana. (*Tachia Rosoff, Personal Archive*)
Santiago de Chile, 11 September 1973. President Salvador Allende. (*Dmitri Baltermants/The Dmitri Baltermants Collection/CORBIS*)
Santiago de Chile, 11 September 1973. General Pinochet and his henchmen. (*Ullsteinbild – dpa*)

Cuban troops in Angola, February 1976. (*AFP/Getty Images*)
Castro, President of Cuba, 1980s. (*Excelsior*)
General Omar Torrijos, 1970s. (*AFP/Getty*)
GGM interviews Felipe González in Bogotá, 1977. (*Alternativa*)
Bogotá, 1977: GGM, Consuelo Araujonoguera ('la Cacica') and Guillermo Cano, editor of *El Espectador*. (*El Espectador*)
GGM, Carmen Balcells and Manuel Zapata Olivella, 1977. (*GARA–Archive*)

Mexico City, 1981: GGM buried by press attention following his self-exile from Colombia. (*Bettmann/CORBIS*)

Alvaro Mutis chauffeurs GGM. (*GARA–Archive*)

Stockholm, December 1982: Jaime Castro, German Vargas, GGM, Charles Rosoff, Alfonso Fuenmayor, Plinio Mendoza, Eligio García and Hernán Vieco. (*GM Family Archive*)

Stockholm, December 1982: GGM in *costeño 'sombrero vueltiao'*. (*Photo by Nereo López, courtesy of the Biblioteca Nacional de Colombia*)

Stockholm, December 1982: GGM in the chalk circle. (*GARA–Archive*)

Cartagena, 1993. Luisa Santiaga and her children. (*Family Archive–Ligia García Márquez*)

GGM and Fidel Castro, by the Caribbean, 1983. (*Photo by Rodrigo Castaño*)

Havana, 1988: GGM and Robert Redford. (*Excelsior*)

Bogotá, mid-1980s: GGM and Mercedes with President Betancur and his wife. (*GARA–Archive*)

Berlin, November 1989. (*Regis Bossu/Sygma/Corbis*)

Bogotá's Palacio de Justicia in flames, 6 November 1985. (*http://alvaroduque.wordpress.com*)

Bogotá, 1992: GGM salutes his admirers in the Jorge Eliécer Gaitán Theatre. (*GARA–Archive*)

GGM, 1999. (*GARA–Archive*)

GGM and Mercedes, October 1993. (*GARA–Archive*)

Barcelona, *c.* 2005: Carmen Balcells in her office. (© *Carlos González Armesto*)

Havana, 2007: GGM and Fidel Castro. (*Diario El Tiempo/epa/Corbis*)

Cartagena, March 2007: GGM and Bill Clinton. (*Cesar Carrion/epa/Corbis*)

Cartagena, March 2007: GGM and King Juan Carlos I of Spain. (*AFP/ Getty Images*)

Cartagena, March 2007: GGM waves to admirers during his eightieth birthday celebrations. (*STR/AFP/Getty Images*)

The author and publishers gratefully acknowledge Gabriel García Márquez and the Agencia Literaria Carmen Balcells, S.A., for permission to quote extracts from copyright material by Gabriel García Márquez throughout this book, and also for the English translations of the original Spanish-language editions of various of his works, as follows: *One Hundred Years of Solitude* (1970); *No One Writes to the Colonel* (1971); *The Autumn of the Patriarch* (1977); *Leafstorm* (1979); *In Evil Hour* (1980); *The Story of a Shipwrecked Sailor* (1986); *Love in the Time of Cholera* (1988); *Clandestine in Chile* (1989), *The General in His Labyrinth* (1991); *Collected Stories* (1991); *Strange Pilgrims* (1993); *Of Love and Other Demons* (1995); *News of a Kidnapping* (1997); *Living to Tell the Tale* (2003) and *Memories of My Melancholy Whores* (2005).

In addition, the author and publishers gratefully acknowledge the copyright holders of the following texts: Plinio Apuleyo Mendoza (ed.), *The Fragrance of Guava: Conversations with Gabriel García Márquez* (London, Faber & Faber, 1998); Plinio Apuleyo Mendoza, *La llama y el hielo* (Bogotá, Gamma, 1989). By permission of the author; Gustavo Arango, *Un ramo de nomeolvides* (Cartagena, El Universal, 1996). By permission

of the author; Guillermo Cabrera Infante, *Mea Cuba* (London, Faber & Faber, 1994); José Donoso, *The Boom in Spanish American Literature: A Personal History* (© Columbia University Press, 1977). Claudia Dreifus, 'Gabriel García Márquez', *Playboy*, February 1983 (© *Playboy* 1982). Reprinted by permission; Heriberto Fiorillo, *La Cueva: crónica del grupo de Barranquilla* (Bogotá, Planeta, 2002). By permission of the author; Silvia Galvis, *Los García Márquez* (Bogotá, Arango Edirores, 1996). By permission of the author. Eligio García, *Tras las claves de Melquíades* (Bogotá, Normal, 2001). By permission of the Agencia Literaria Carmen Balcells, S.A.; Rita Guibert, *Seven Voices* (New York, Vintage, 1973). Reprinted by permission; Luis Harss and Barbara Dohmann, *Into the Mainstream: Conversations with Latin-American Writers* (New York, Harper and Row, 1967); Antonio Núñez Jiménez, 'García Márquez y la perla de las Antillas (o "Qué conversan Gabo y Fidel")' (unpublished manuscript, Havana, 1984). By permission of the author; Gabriel García Márquez, *Paris Review* Writers at Work interview by Peter H. Stone, Issue 82, winter 1981 and 'Solitude and Company: An Oral Biography of Gabriel García Márquez' by Silvana Paternostro, *Paris Review*, no. 166, summer 2003. Reprinted by permission of the Wylie Agency; Elena Poniatowska, 'Los *Cien años de soledad* se iniciaron con sólo 20 dólares' (interview, September 1973), in *Todo México*, 1 (Mexico City, Diana, 1990).



الكولونيل نيكولاس
غابرييل ماركيز
(1864 - 1937)
جد غابرييل غارسيا
ماركيز (عام 1914)



ترانكيلينا إغواران
كوتيس دي ماركيز
(1863 - 1947)
جدّة غابرييل غارسيا
ماركيز



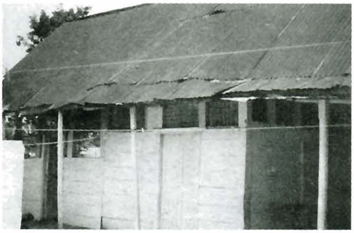
الكولونيل نيكولاس ماركيز بكامل أناقته عام 1920.



لويسا سانيتاغا ماركيز إغواران
(1905 - 2002) والدة غابرييل
غارسيا ماركيز قبل الزواج



غابرييل إليخيو غارسيا
(1905 - 1984) والد
ووالدة غابرييل غارسيا
ماركيز يوم زفافهما –
سانتا مارتا
11 حزيران 1926.



قسم من المنزل القديم للكولونيل في آراكاتاكا قبل أي ترميم أُضيف عليه.



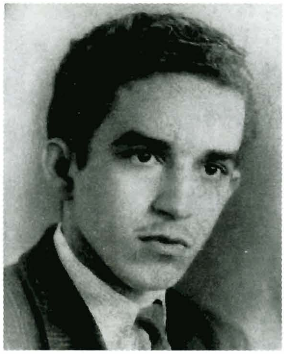
غابرييل غارسيا ماركيز في ذكرى ميلاده الأولى.



(من اليسار إلى اليمين) عايدة – لويس – غابيتو – ابن العم إدواردو – مارغوت – والطفلة ليفياني آراكاتاكا 1936.



غابيتو في مدرسة سان خوسيه – بارانكيا 1941.



غابرييل غارسيا ماركيز في منتصف 1940.



بيرنيس مارتينيث صديقة غابرييل غارسيا ماركيز منتصف 1940.



أخوة غابرييل ماركيز، لويس إنريكي وغابيتو (يمين) مع أولاد العم وأصدقاء في ماغانغو عام 1945.



آرخيميرا غارسيا (1887 - 1950) جدة غابرييل غارسيا ماركيز (يمين) في سينسي مع ابنتها إينا التي توفيت عام 1944 وهي في الرابعة والعشرين.



(من اليسار) غابرييل - ألفارو سيبيدا - ألفريدو ديلغادو - رافائيل إسكالونا وألفونسو فوينمايور في مكتب الهيرالدو في بارانكيا



السفينة البخارية «ديفيد أرانجو» التي استقلها غابرييل غارسيا ماركيز من كوستا إلى بوغوتا عام 1940.



ميرثيديس بارشا في لباس المدرسة في ميديلين عام 1940.



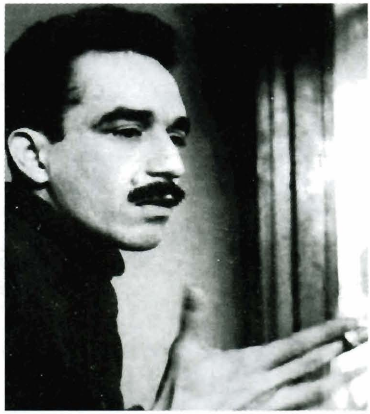
فيدل كاسترو (يسار) مع طلاب قياديين في أثناء «بوكاتسو» إبريل 1948.



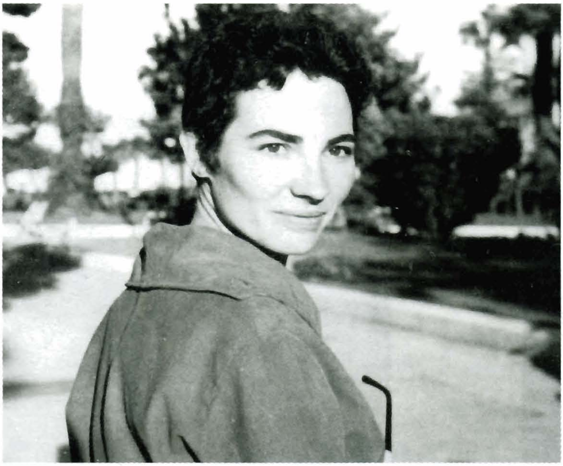
حفلة وداعية إلى رامون فينييز ويبدو غابرييل غارسيا ماركيز في الوسط في (بارانكيا)



الصحفي غابرييل غارسيا ماركيز في «الاسبكتادور» بوغوتا 1954.



غابرييل غارسيا ماركيز في فندق فلاندر
في باريس عام 1957.



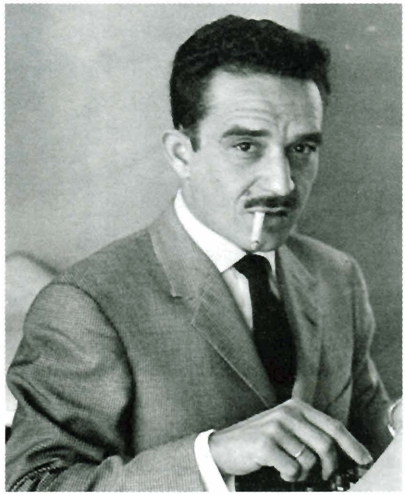
تاتشيا كوينتانا في باريس.



غابرييل مع أصدقاء (لويس فيلار بوردا – إلى اليسار)
الساحة الحمراء – موسكو – صيف عام 1957.



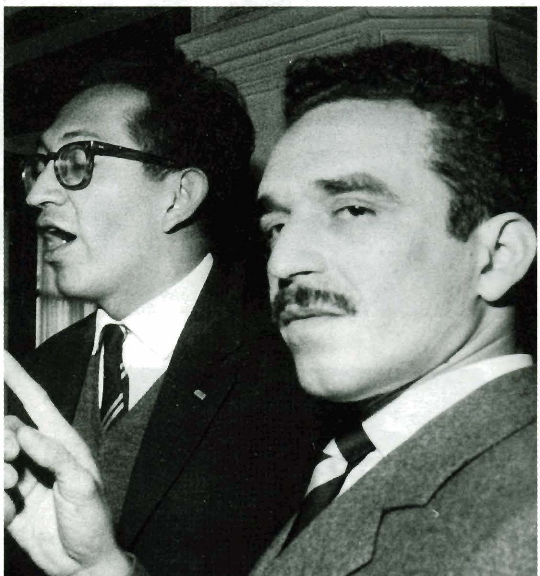
كاراكاس، 13 أيار عام 1958: المتظاهرون
يهاجمون سيارة نائب الرئيس ريتشارد
نيكسون. صرخة في وجه سياسة أميركا
تجاه أميركا اللاتينية.



غابرييل غارسيا ماركيز يعمل لبرينزا لاتينا، بوغوتا عام 1959.



ميرثيديس بارشا في بارانكيا قبل زواجها من غابرييل غارسيا ماركيز.



غابرييل غارسيا ماركيز وبلينيو ميندوثا في برينا لاتينا، بوغوتا 1959.



ماركيز مع ميرثيديس في بوغوتا عام 1960.





هافانا، 21 نيسان 1961: الكوبيون المدعومون من أميركا يؤخذون إلى السجن بعد خسارتهم في معركة خليج الخنازير. في هذا الوقت يخطط غابرييل غارسيا ماركيز لترك برانزا لاتينا للسفر إلى مكسيكو.

فاليدوبار، كولومبيا 1967: غابرييل غارسيا ماركيز مع أصدقائه.



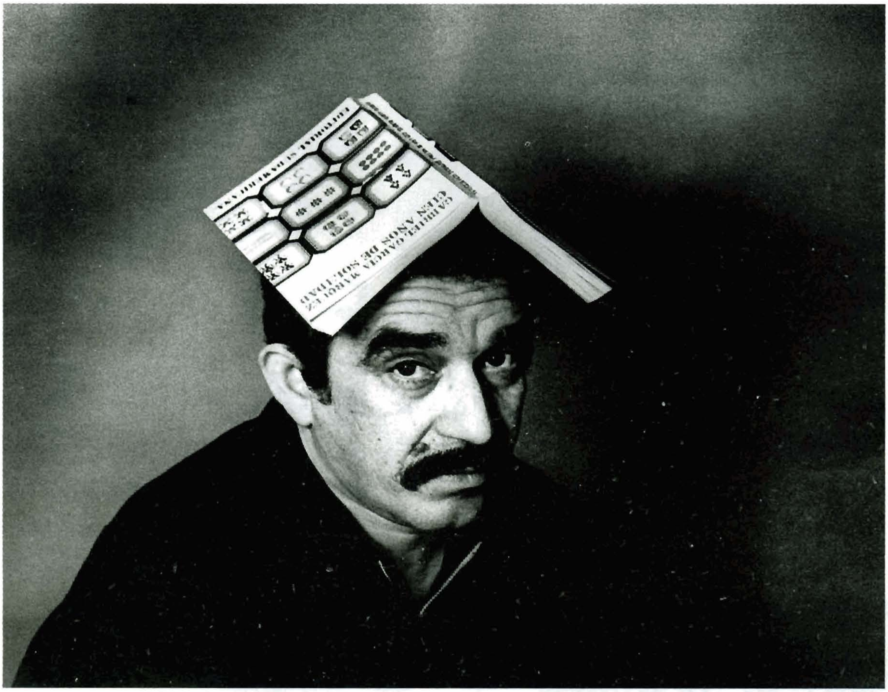
مكسيكو 1964: غابرييل غارسيا ماركيز (يضع النظارة) مع أصدقائه.





كاميلو توراس، صديق غابرييل في الجامعة والذي عمّد ابنه رودريغو، أصبح الثائر الكنسي الأول في أميركا اللاتينية وقتل عام 1966.

غابرييل غارسيا ماركيز في آراكاتاكا عام 1966. هذه المناسبة كانت البذرة لاحتفالات «فاليناتو» في فاليدوبار.



غابرييل غارسيا ماركيز في برشلونة يتوج نفسه بغلاف كتاب «مئة عام من العزلة» 1969.



ميرثيديس، غابو، غونثاليث ورودريغو في برشلونة أواخر عام 1960.



غابرييل غارسيا ماركيز في
برشلونة أواخر عام 1960.



الثنائيون: (من اليسار إلى اليمين) ماريو يوسا مع زوجته باتريشيا، ميرثيديس، خوسيه دونوسو مع زوجته ماريا وغابرييل غارسيا ماركيز أوائل عام 1970.



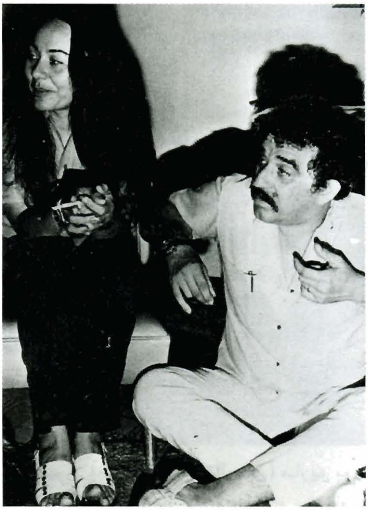
غابرييل غارسيا
ماركيز مع بابلو
نيرودا في حديقة منزل
نيرودا في النورماندي
عام 1972.



غابرييل غارسيا
ماركيز يكتب
رواية «خريف
البطريرك»
برشلونة 1970.



غابرييل غارسيا ماركيز مع كارلوس فونيتس مدينة
مكسيكو 1971.



غابرييل غارسيا ماركيز مع ميرثيديس عام
1970.



كارثاخينا عام 1971: غابرييل غارسيا
ماركيز يزور أبويه غابرييل إليجيو ولويسا
سانتياغا مع ابنه غونثالو والصحفي
المكسيكي غييرمو أوتشوا.



الروائيون الكبار: (من اليسار إلى اليمين) ماريو فارغاس، كارلوس فوينتس، غابرييل ماركيز وخوسيه دونوسو، الغائب الوحيد خوليو كورتاثار.



خوليو كورتاثار، ميغيل آنجل وغابرييل ماركيز – ألمانيا الغربية 1970.



باريس 1973: زواج تشارلز روسوف وتاتشيا كوينتانا مع غابرييل ماركيز



سانتياغو، تشيلي أيلول 1973: الجنرال بينوشيه مع أتباعه.



سانتياغو، تشيلي 11 أيلول 1973: الرئيس سلفادور ألندي يدافع عن قصر مونيدا ضد قوات المتمردين. وخلفه د. دانيلو بارتولين الذي نجا من الموت «بعكس ألندي» وأصبح صديقاً حميماً لغابرييل ماركيز في هافانا.



القوات الكوبية في أنغولا شباط 1976.



فيدل هو ملك: كاسترو رئيس كوبا 1980.



غابرييل ماركيز يحاور فيليب غونثاليث في بوغوتا 1977.



الجنرال عمر توريخوس رئيس باناما عام 1970.



غابرييل ماركيز مع كارمن بالسيلس ومانويل ثاباتا أوليفيرا. مطار إلدورادو، بوغوتا 1977.



بوغوتا 1977: غابرييل ماركيز مع القنصل أغوابيرا وغييرمو كانو عروة الاسبكتادور الأول قتل عام 1986 والثانية أُعدمت عام 2001.



مدينة مكسيكو 1981: غابرييل ماركيز محاط بالصحافة بعد منفاه الاختياري إلى كولومبيا.



مدينة مكسيكو، تشرين الأول 1982: ألفارو موتيس يقتاد غابرييل ماركيز وميرثيديس لإبعادهما عن انتباه الإعلام.



ستوكهولم، كانون الأول 1982 (من اليسار إلى اليمين) جيم لاسترو، خيرمان فارغاس، غابرييل ماركيز، تشارلز روسوف (خلف)، ألفونسو فوينمايور، بلينيو ميندوثا، إليخيو غارسيا (خلف) وهيرنان فيكو.



ستوكهولم، كانون الأول 1982. غابرييل ماركيز يحتفل بجائزته



ستوكهولم

كانون الأول 1982: غابرييل غارسيا ماركيز في الدائرة والملك غوستاف السادس عشر يصفق.



كارثاخيفا 1993: لويسا سانتياغا وأولادها (الصف الخلفي من اليسار إلى اليمين) جيم، ألفريدو، ليخيا، غابرييل ماركيز، غوستافو، هيرناندو، إليخيو، لويس إنريكي (الصف الأمامي من اليسار إلى اليمين) خيرمان، مارغوت، لويسا سانتياغا، ريتا، عايدة.



بوغوتا منتصف عام 1980: غابرييل ماركيز وميرثيديس مع الرئيس بيتانكور وزوجته روزا.



هافانا عام 1988: غابرييل ماركيز مع روبرت ردفورد.



قصر العدل في بوغوتا تلتهمه النيران في 6 تشرين الثاني 1985 (خلال رئاسة بيتانكور) بعد أن أخلى الجيش المتمردين.



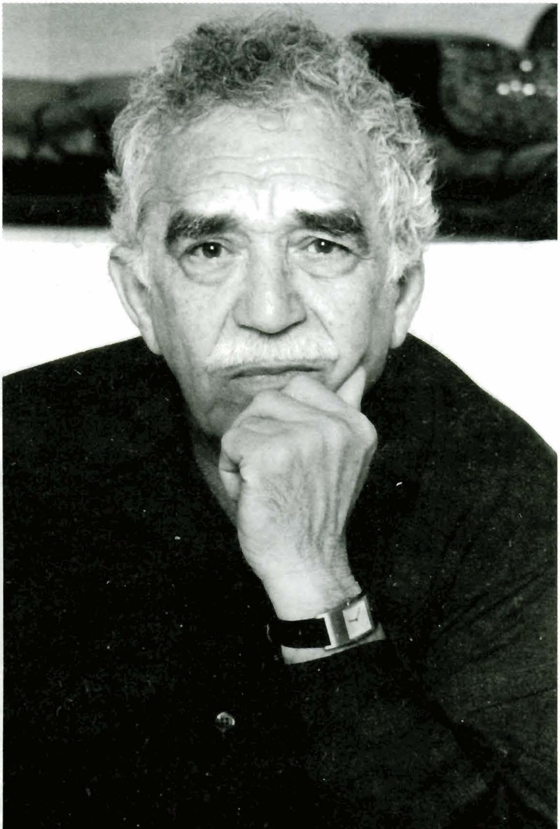
غابرييل ماركيز مع فيدل كاسترو في الكاريبي عام 1983.



بوغوتا عام 1992: غابرييل غارسيا ماركيز يلوّح إلى مريديه في مسرح جورجي جيتان.



غابرييل غارسيا ماركيز مع ميرثيديس، بوغوتا عام 1993.



غابرييل غارسيا ماركيز، 1999.



برشلونة عام 2005: كارمن بالسيلس في مكتبها وتظهر صورة لغابرييل خلفها.



هافانا عام 2007 غابرييل يزور صديقه المريض فيدل قبل سفره إلى كارثاجينا لمناسبة ذكرى مولده الثمانين.



كارثاجينا، آذار 2007: غابرييل ماركيز مع بيل كلينتون



كارثاجينا، آذار 2007: غابرييل ماركيز مع الملك الإسباني خوان كارلوس.



كارثاجينا، 26 آذار 2007: غابرييل ماركيز يلوّح إلى محبيه بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره.

GABRIEL GARCÍA MÁRQUEZ

A Life

GERALD MARTIN

في مطلع شهر آب / أغسطس 1966، ذهب غارسيا ماركيز بصحبة زوجته ميرثيديس إلى مكتب البريد ليرسل إلى العاصمة بوينس آيرس مخطوطة كتابه الجديد «مائة عام من العزلة». كانا في حالة يرثى لها وأشبه بناجيين من كارثة. ضمّت الرزمة 490 صفحة منضّدة. «اثنان وثمانون بيزوساً»، طلب موظف البريد. راقبَ غارسيا ماركيز ميرثيديس وهي تبحث في حقيبة يدها عن المال. لم يكن لديهما سوى خمسون بيزوساً، لذلك لم يكن باستطاعتهما إرسال سوى نصف الكتاب: فجعل غارسيا ماركيز موظف البريد يقتطع الصفحات من المخطوطة كما تُقتطع شرائح اللحم المقدّد حتى بقي ما يمكن إرساله بخمسين بيزوساً. وعندما عادا إلى المنزل، رهنا جهاز التدفئة، الشعر والعصّارة، ثم عادا إلى مكتب البريد لإرسال ما تبقّى.

عند خروجهما من مكتب البريد، توقفت ميرثيديس والتفتت إلى زوجها قائلة: «غابو، لا ينقصنا الآن سوى أن يكون الكتاب سيئاً».

ISBN 978-9953-87-892-8
9 789953 878928

تَرجِم
مؤسسة محمد بن راشد المكتوم

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com